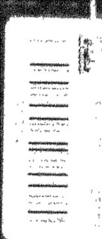
تاريخ الحضارات العام

٥

القرن الثامن عشر



منشورات عويدات
بيروت - باريس



تاريخ الحضارات العام

تاريخ الحضارات العام

موسوعة في سبعة مجلدات بإشراف موريس كروزيه

١

الشرق واليونان القديمة

أندريه ايمار — أستاذ في السوربون
جانين أوبوايه — أمينة متحف غيمة

٢

روما وأمبراطوريتها

اندريه ايمار — أستاذ في السربون
جانين اوبوايه — أمينة متحف غيمة

٣

القرون الوسطى

إداور بروي — أستاذ في السربون

٤

القرنان السادس عشر والسابع عشر

رولان موسنيه — أستاذ في السربون

٥

القرن الثامن عشر

رولان موسنيه — أستاذ في السربون
و
أرنست لابروس — أستاذ في السربون

٦

القرن التاسع عشر

روبير شنيرب — أستاذ فخري في الدراسات العليا

٧

العهد المعاصر

موريس كروزيه — مفتش المعارف العام في فرنسا

تاريخ الحضارات العام

بإشراف
موريس كروزيه
مفتش المعارف العام في فرنسا

المجلد الخامس

تاريخ الحضارات العام

القرن الثامن عشر

عهد الأنوار

تأليف

رولان موسنييه و إرنست لابروس

أستاذ في السربون أستاذ في السربون

بالاشتراك مع

مارك بولوازو

دكتور في الأدب

نقله الى العربية

يوسف أسعد داغر فريد م. داغر

منشورات عويدات

بيروت - باريس

الطبعة الثانية ١٩٨٧

مـــــدخل

لقد درج « ميشليه » في معرض كلامه عن هذا القرن الثامن عشر ، على ان يدعوه ، بلهجته النبوية : « القرن العظيم » . اما « رينان » فقد تصرف تصرفاً على بعض الاستخفاف حيال عصر « نعم الانسان فيه بحرية الفكر ، ولكنه في الواقع لم يفكر كثيراً فكان الكسب ضئيلاً » .

ان ميشليه قد نظر ، والحق يقال ، نظرة مغالاة الى قوّة القرن الثامن عشر الخلاقة . ويرى « بول هازار » ان آراء هذا القرن قد اكتمل تكوّنها في القرن السابع عشر مـــا بين السنة ١٦٧٠ والسنة ١٧٠٠ ، وكان بمكنته ان يرقى الى ما قبل هذه السنوات . فان ما حققه القرن الثامن عشر هو في الدرجة الاولى نقل بعض التحصيلات والتوسع فيها ، وهذا ما رآه رينان بكل وضوح .

بيد ان القرن الثامن عشر يحضر العالم المعاصر ويلنبىء به ، بمواصلة اعمال شرع بها في القرن السالف ، وفاقاً لمبادىء سبق اقرارها ، وفي اتجاهات معينة سبق تحديدهـــا . ان خطوطـاً كثيرة من خطوط الازمنة اللاحقة ترتسم فيه . العلوم تتطور تطوراً مدهشاً وتؤلف صرحـــاً كاملاً تتوّجه العلوم الاجتماعية . الانسان يتعلم كل يوم ، ويعمق النظر ، ويرى ، ويبدو له ان الظلمات تتقهقر : انه : « قرن الانوار » . تقدم المعارف ينمي الايمان بتقدم الانسانية تقدمـــاً مستمراً شطر حالة عليا . ويشجع الكثيرين على ازدراء بالماضي يدفعهم الى نبذ المعتقدات القديمة والنصوص القديمة ، وبالفعل نفسه الى نبذ الحقائق التي تنطوي عليها وتعبر عنها ببساطة ، بلغة وبيان مختلفين . فنجم عن ذلك بعض الازدراء بالعصور القديمة وعداء للـكاثوليكية ، وقـد نظر اليهما معاً كما الى خرافات مضرة يجب نبذها . وفقدت الكنيسة الـكاثوليكية الى حـــين بعض نفوذها وتقهقرت الـكاثوليكية في كافة انحاء العالم . وهذا ما يفسر قيام مفاهيم جديـدة للعالم ، مفاهيم العقليين ، ومفاهيم القائلين بالدين الطبيعي ، ومفاهيم الماديين ؛ وقـد ذهب بعضهم الى ابعد من ذلك ، فرأوا ما يلاقيه الانسان من صعوبة في ادراك كنه الكون ، ونادوا بعجز العقل البشري اذا ما اراد تخطي حدود الاختبار وعلم الحساب ، وحدود معرفة الظواهـر ، ولم يكونوا اقل عداء للتفسيرات القديمة حول نواميس العالم العامة ، فانبأوا بالمنـادية والفلسفة الوضعية المعاصرتين ؛ بينا بردت همة غيرهم بجفاف العلم والعقل ، فانساقوا وراء نزوات قلبهم ، وغدوا رومنطيقيين من قبل ان توجد الرومنطيقية .

وبلغ من تكامل التقنيات ان حدثت ثورة عسكرية ، وشبه ثورة ملاحية ، وحدثت في انكلترا ثورة صناعية ثانية ما لبثت ان تركت اثرها في البر الاوروبي . ان اوروبا تتقـــدم الى الامام في عصر التقنية هذا مع ما انطوى عليه من نتائج اجتماعية .

في اوروبا ، ولا سيما في فرنسا ، تتحقق الاكتشافات والنجاحات . ان اوروبا ، بقيـــادة فرنسا ، تتقدم العالم بأسره . ففرنسا التي تقوم بينها وبين انكلترا منافسة سياسية واقتصادية ، تسيطر بالروح ، وقد بلغ من تفوقها الفكري ان اخذ مثقفو ذاك العصر يتكلمون عن « اوروبا الفرنسية » . وقـد احرز الاوروبيون هذا التفوق ليس بفضل هذه القوى التي نقصد بها المعارف العقلية والمعارف العملية ، اي العلم والتقنية فحسب ، بل بتكامل تنظيم الممالك الهامة (الذي هو تقنية ايضاً من جهة ثانية) حيث نرى على العموم نزعة الى تطـــور مطرد مستمر في الدولة القوية التي تستخدم لمصلحتها ، استخداماً متزايداً ، وبواسطة ادارة حصرية متعاظمة ، قـــوى مواطنين لا تباعد بينهم فوارق اجتماعية كبرى في اغلب الاحيان . ولكن هذه الدول ، على الرغم من اوجه الشبه بينها ، الديانة المسيحية ، وانتشار مذهب العقليين ، وجماليات واحدة ، ولغةفرنسية مشتركة،لم تتحد قط بل تنافست وامتشقت السلاح: فليس هنالك من اوروباسياسية.

بيد ان اوروبا تحرز من التقدم العلمي والتقني ما يجعلها تتخطى تخطيا بعيداً ، بقدرتهـــا على العمل ، الحضارات الآسيوية القديمة نفسها التي لم تحرز عليها ، لمدة طويلة ، تفوقاً حاسماً . تواصل اوروبا فتح العالم واحتلاله وتطويره . الا ان الدول الاوروبيـــة المنقسمة تتنازع العالم . الدول الاوروبية الهامة تتحارب في كافة الاوقيانوسات وكافة القارات : فهنالك منذئذ سياسة عالمية . لا بل هنالك ، منذئذ ، جماعات اوروبية تنمو خارج اوروبا ، وينجز بعضها نموه ، حتى ان احداها ، وهي التي ستعرف مستقبلا عظيماً ، تعي شخصيتها وتنفصل عن الوطن الام وتؤلف امة جديدة منافسة لاوروبا القديمة : الولايات المتحدة الاميركية .

انتهى تطور القرن الى ثورة . ففي كافة انحاء اوروبا نرى تزايد تداول الذهب والفضـــة ، وازدياد عدد السكان ، ونمو حجم المبادلات مع بلدان ما وراء البحر ، تفضي الى رفـــع الاسعار الحقيقية وتفتح اسواقاً جديدة وتضاعف المكاسب . في كل مكان تتوسع المدن وتكتظ بالسكان، وتنمو البورجوازية عدداً وقوّة ، الا انها تصطدم بالارستوقراطيات والسلطة المطلقـــة الا في انكلترا الاوليغارشية حيث يحسّن البورجوازيون وضعهم المدني والسياسي تحسينا منتظماً .

وانما يبرز هذا التطور في فرنسا بصورة خاصة . البورجوازية تغدو فيهـــا الطبقة الاولى . الفلاحون والعمال يخضعون لها . تثيرهم على طبقة النبلاء والاكليروس ، المستفيدين الكبيرين من النظام القديم، اللذين يدافعان عن وضعهما بإقصاء البورجوازيين عن الوظائف والمراتب الرفيعة، وعلى الملكية التي تفتقر الى الحزم الضروري لتحقيق التغييرات اللازمة .

في السنة ١٧٨٩ ، انضمت الى هذه الازمة السياسية ازمة اقتصادية وازمة مالية القى الجميع

مسؤوليتها على الحكومة والمؤسسات . تسلمت البورجوازية زمـــام الحركة الثورية . ألّفت الجماهير جنود الاصطدام . قضت البورجوازية على « الاقطاعية » وحررت الفرد البورجوازي . واستطاعت بفضل المساواة المدنية والملكية المصونة والمقدسة وسيادة الامة ان تضمن لنفسهـا ادارة المجتمع الجديد ومكاسبه والتصرف بأموره .

منذ السنة ۱۷۹۲ حتى السنة ۱۷۹٥ ، أبرزت الحرب الاجتماعية بين المجتمع الجديد والمجتمع التقليدي ، استحداثات مشدهة : الوحدات الحسابية الجديدة للعالم المعاصر ، مليـــون البشر ومليار الفرنكات ؛ النظم السياسية والاجتماعية الجديدة: الدكتاتورية، الديموقراطية، الارهاب، الاقتراع العام ، الجمهورية ، وهي « اشتراكية » دام ذكرها كأسطورة ونبوءة .

استولى الرعب على البورجوازية ، فلجأت الى الجيش. جاء نابوليون بونابرت، القائم بأعمالها، يثبت الثورة ويؤمن للبورجوازية خير احرازاتها .

في عالم الحضارة الاوروبية ، غدا الاعلان البورجوازي لحقوق الانسان والمواطن انجيـــلا جديداً . تململت الشعوب واندلعت الثورات. ولكن ردة فعل الملوك والارستوقراطيات كانت إرهابا ابيض . منذ السنة ۱۷۹۲ حتى السنة ۱۸۱٥ قامت بين فرنسا واوروبا حرب اجتماعيـة امميـة ، حرب دعاوة وتوسع ثوريين ، حرب دفــاع عن « الحضارة » . فافضى دمج البـــلدان المحتـلة وخلق الدول التابعة الى نشر النظم الاجتماعيـــة والمؤسسات الفرنسية في كل مكان . وللتغلب على فرنسا ، اضطر الملوك لأن يقتبسوا طرائقها واساليبها . وعلى الرغم من هزيمـــة فرنسا وردة فعل السنة ۱۸۱٥ ، فان وجه العالم قد بقي متغيراً . « فانمـا نحن حفدة القرن الثامن عشر المباشرون » .

القسم الأول

القرن الأخير للنظام القديم

الكتاب الأول

الأنـــوار

الفصل الأول

روح القرن

١ . ـ الاسلوب

ديكارت ، لوك
نيوتون

لقد درج القول بان ملكية ديكارت الفكرية انتهت في القرن الثامن عشر وانها افسحت المجال الملكية لوك ونيوتون. هنالك لعمري نصوص تبرر وجهة النظر هذه. فان «فلاسفة» كثيرين يستخفون بديكارت بسبب تركيباته العقلية حول الآلية ومذاهبه في الزوابع التي زعم الفيلسوف بان يفسر بها الكون. وقد رأى فيها معارضوه مجرد نسج خيال، اذ ان نتيجة واحدة قد تفضي اليها آليات مختلفة جداً . فنظروا الى ديكارت كا الى تائه عقل وغائص في اضغاث الاحلام . وعزا « دالمبير » اكتشاف علم ما وراء الطبيعة الى « لوك » وعلم الطبيعة الى نيوتن . وتكلم فولتير بازدراء عن « الروايات » الكرتزيانية وحدد التاريخ الذي يجب ان يعتبر تاريخ هزيمة ديكارت حتى في وطنه فرنسا : ١٧٣٠ .

الا ان نصوصاً اخرى تنظر الى ديكارت كا الى سيد الفكر الاعظم في القرن الثامن عشر . لنقص فونتنيل المعجب جداً بالمعلم . فقد كتب فولتير في السنة ١٧٣٣ : « ان من ارشدنا الى طريق الحقيقة قد لا يكون اقل قدراً من ذاك الذي بلغ نهاية هـذه الطريق منذ ذاك الحين » (الرسالة الانكليزية الرابعة عشرة) . واضاف دالمبير الى ذلـك ، في السنة ١٧٥١ ، في خطبته التمهيدية لدائرة المعارف :

«بيد ان ديكارت قد تجاسر على إرشاد العقول السليمة الى خلع نير الطاعة للفلسفة المدرسية والرأي والسلطة ، وبكلمة موجزة للآراء المقبولة قبل التحقيق وللهمجية ؛ ولعله ادى للفلسفة بهذا التمرد الذي نجني ثماره اليوم خدمة اجل من كل ما تدين به لمشاهير خلفائه ... واذا مـا انتهى الى الاعتقاد بتفسير كل شيء، فهو قد ابتدأ بالشك في كل شيء ؛ والاسلحة التي نستخدمها لمحاربته لا تفقد شيئاً من نسبتها اليه لاننا نوجهها اليه ... ».

وكتب « تورغو » في دائرة المعارف: « ان نيوتون قد وصف البلاد التي اكتشفها ديكارت» وان « لوك » و « بركلي » و « كونديلاك » « هم جميعهم ابناء ديكارت » . وفي السنة ١٧٦٥

فاز توما بجائزة الاكاديمية الفرنسية بسبب ثنائه على ديكارت : فهو قد اشار الى اننا اذا كنا قد تخلينا عن آراء كثيرة طلع بها، وليس هذا ما حدث، فاننا قد سرنا بأمانة على طريقة تفكيره. كما ان « كوندورسيه » نفسه ، المشايع للوك ونيوتون ، قد عنون الزمان التاسع ، في « اللوحة الايجازية لنجاحات الفكر البشري » منذ اوائل البشرية ، التي انجزها في السنة ١٧٩٤ ، بما لا يخلو من مغزى : « منذ ديكارت حتى الجمهورية الفرنسية ». فهو معجب بالفترة التي تبتدىء « منذ ان احدثت عبقرية ديكارت ، في العقول ، هذه الانطلاقة العامة ، مبدأ الثورة الاول في مصائر الجنس البشري » . وأكرم ديكارت ومُجد ورُجع اليه كذلك في لندن وبرلين وليبزيغ . ان ديكارت ، في نظر « الفلاسفة » يفتح عهداً من عهود البشرية يضمّ القرن الثامن عشر .

قد يستنتج بالتالي من هذه النصوص ان القرن الثامن عشر قد رفض علم ما وراء الطبيعة وعلم الطبيعة اللذين طلع بهما ديكارت واحتفظ باسلوبه . فما هي حقيقة الامر يا ترى ؟

النزاع بين ديكارت والآليين

كان ضرورياً في نظر ديكارت ، لإرساخ حقيقة العلوم الطبيعية الرياضية ، ربط هذه الاخيرة بمبادىء ميتافيزيقية ثابتة . وقف موقفاً حذراً من كل ما هو حسي ونوعي ، فادعى بتفسير الكون بمبادىء اكيدة لانها واضحة وجلية . تأكد من وجود الله ، وتأكد بواسطته من وجود العالم الخارجي ، ووحد بين المادة والاتساع ، واقعد على البساطة والقرار الالهي مبادىء ثبوت الاجرام ، ودوام الحركة ، والصلابة ، والمبدأ العام لتصادم الاجسام ، واستخلص من ذلك سبع سنن للصدمة ، كما استخلص بعد ذلك ، بانتقالات المادة الرقيقة وبالزوابع ، كافة الآليات التي تفسر الظواهر . فغدا الكون من ثم استخلاصاً ضخماً ، انطلاقاً من بعض الافكار الواضحة والجلية . لقد آمن ديكارت بحقيقة هذا الاستخلاص . وكان مقتنعاً بان تحليل الافكار هذا قد اوقفه على حقيقة تركيب الكون الرياضي المستترة تحت الظواهر . وكان مقتنعاً كذلك بانه بلغ وجود الاشياء وبأن هذا الوجود رياضي . فكان تعليمه قياساً رياضياً في علم الكائنات .

ولكن رفاقه نضاله ضد تعليم ارسطو ، الآليين ، «مرسين» ، «روبرفال» ، «باسكال» ، «هوبس» ، لم يبرهنوا اذ ذاك عن اقتناعهم . لم يسلموا بضرورة ربط العلوم الطبيعية بمبادىء ميتا فيزيقية . فان « غسّندي » في اعتراضاته على « تأملات » ديكارت ، قد لفت نظر الفيلسوف الى ان حقائق الهندسة وحقائق العلوم الطبيعية الرياضية لا ترتبط بوجود الله : فهنالك اشخاص عديدون يرتابون بالله ، ولكن واحداً لا يرتاب ببراهين الهندسة . ورفض الآليون اسلوب ديكارت الاستنتاجي . فمن المستحيل الحكم بحقيقة فكرة استناداً الى وضوحها . وليس تفسير تكون الظواهر بتقلبات الزوابع والمادة الرقيقة سوى مجرد اسطورة . يجب التمييز ، في الافكار الواضحة ، بين الافكار الحقيقية والافكار الوهمية ، وهذا يستحيل معرفته الا بالاختبار ،

قاعدة العلوم الطبيعية . سلّموا بمذهب ديكارت العقلي الكمي ، ولكنهم أكملوه بمذهب عقلي اختباري . يضاف الى ذلك من جهة ثانية انهم لم يؤمنوا بأمكان معرفة كل شيء ولا ببلوغ كنه الاشياء . فالواقع في نظرهم يتعدى مفاهيمنا تعديا لامتناهيا . وكان رأيهم ان العلوم الطبيعية الرياضية تتيح تحقيق تراكيب سهلة الاستعمال ومفيدة ، ولكن هذه التراكيب لا ترفع النقاب عن الحقيقة في ما وراء واقع الظواهر . الصوت حركة في نظر عالم الطبيعة ؛ وهذه الحركة قابلة القياس ؛ فهم بذلك اسيادها ؛ ولكن المعرفة الكمية لا تعطيهم سوى مظهر من مظاهر الواقع ، وليست من ثم سوى تجزئة وتقطيع . كان الآليون سائرين باتجاهاتهم شطر مذهب العملية الذي يدعي معرفة الحقيقة بقيمة نتائجها العملية .

انتصار الآلية النيوتونية في هولندا والادب الهولندي

كان نيوتون قد تبنى أسلوب الآليين وحارب « افتراضات » ديكارت في علم الطبيعة . وكان التحالف السياسي بين انكلترا وهولندا البروتستانتيتين ضد فرنسا قد يسّر العلائق بين العلماء الهولندين والعلماء الانكليز . لذلك ، وعلى الرغم من ان هولندا كانت مهد الكرتزيانية ، وان علم الطبيعة الكرتزياني قد وجد فيها خير تعبيره المنسق في « قاموس » « شوفين » ، الذي اعيد طبعه في السنة ١٧١٣ ، كانت الغلبة لنفوذ نيوتون في اوائل القرن الثامن عشر . فغدا « غرافساند » صديقاً لنيوتون خلال رحلة قام بها الى لندن في السنة ١٧١٥ . وفي السنة ١٧١٧ عمل « موشنبروك » في لندن تحت إشراف العالم الانكليزي . وبين السنة ١٧١٥ والسنة ١٧٣٦ ، وفي خطب استخدمت مقدمات لابحاثهم في علم الطبيعة والكيمياء ، اطرى الطبيب والكيميائي « بورهاف » والعالمان بالفلك والطبيعيات غرافساند وموشنبروك ، في العلوم الطبيعية ، أسلوب الآليين الاختباري : ولكنهم قلما استشهدوا بديكارت وتناسوا الآليين الفرنسيين تناسيا كلياً ، وربما كان ذلك بداعي عدائهم لفرنسا التي حاربوها منذ امد قصير والتي ما زالت ظنينة اوروبا الكبرى . اما الذين اتوا على ذكرهم وغالوا في مديحهم فهم « بيكون » ، « وغاليليو » ، « ونيوتون » في الدرجة الاولى . ويؤكد موشنبروك الذي ترجم في السنة ١٧٣١ الاختبارات التي اجرتها ، ما بين السنة ١٦٥٧ والسنة ١٦٦٧ ، « اكاديمية الابحاث » الفلورنسية ، انه لا يجوز فصل هؤلاء الثلاثة ، كما يطيب لبورهاف ، منذ السنة ١٧١٥ ، ان يناقض الصواب وينسب الى بيكون كافة النجاحات المحققة في العلوم . واتوا كذلك على ذكر « توريشلّي » و « هويغنس » و « بويل » و « ليبنيز » ، واغفلوا كافة الفرنسيين باستثناء « ماريوت » ، والبروتستانتي « ديزاغوليه » . فيتضح من ثم ان مسؤولية الطلوع بفكرة علم عصري ، ايطالي وانكليزي في جوهره ، ولا سيا انكليزي ، تقع على كاهل الهولنديين وقد احرزت هذه الفكرة نجاحاً عظيماً .

ولا عجب في ذلك ، اذ ان « علماء الطبيعيات » هؤلاء قد احتلوا في حقل العلم مركزاً معتبراً زاد من رفعته مركز الاقاليم المتحدة التجاري . تهافت عليهم الطلاب من كافة انحاء

اوروبا لتحصيل العلم تحت إشرافهم . وغدت لايدن مركزاً علمياً اوروبياً . ومنذ السنة ١٧٢٤ نشر تلامذة بورهاف الفرنسيون في باريس ما القـاه عليهم من دروس قبل ان اصدرها المؤلف في هولندا بثماني سنوات . وقام « لامتري » و « دي فاي » والاب « نوليه » وفولتير برحلة الى هولندا وأوثقوا عرى الصداقة بالعلمـــاء الهولنديين . فانتشرت الآراء الهولندية بفضل تراجمهم ومؤلفاتهم في علم الطبيعيات . وليست « خطبة » « ديلاند » الشهيرة في خـــير طريقة لاجراء الاختبارات (١٧٣٦) سوى اقتباس عن موشنبروك . وفي رأيهم جميعاً ان السنن الـتي تسير الكون « تخضع لارادة الكائن الاسمى الذي لم يوح بها الينا ؛ لذلك كان علينا ان ننتهل معرفتها من الظواهر » . فيجب من ثم « ان نلاحظ بعين ساهرة كافـة حركات الطبيعة » ، ونسير على خطى نيوتون « الذي كان اول من اقصى عن علم الطبيعيات كافة الافتراضات ولم يسلم الا بمـــا يمكن التثبت رياضياً من انه سلسلة من الظواهر » (سغرافساند) .

الاختلاط بين الكرتزيانية والآلية

كان هذا الاسلوب من ثم متناقضاً في نقاط جوهرية واسلوب ديكارت. فكيف استطاع الفلاسفة ، والحالة هذه، الاعتقاد بانهم ساروا بأمانـة على خطى الفكر الكرتزياني ؟ في البدء قاوم الكرتزيانيون في فرنسا مقاومة طويلة . « فحين ظهر كتاب « عناصر فلسفة نيوتون » (١٧٤٥) كانت الكرتزيانية ما زالت مسيطرة حتى في اكاديمية العلوم في باريس » (كوندورسيه). مشتركاً بين التفسيرين، الكرتزيانية والنيوتونية ، كان الجهـــد المبذول بغية ايجاد تفسير كمي وآلي لكل شيء ، ومشتركاً ايضاً بين علماء المدرستين كان الاسلوب ، اسلوب الآليين . منذ ظهور « خطبة في الاسلوب » لم يدرك علمـــاء الطبيعة الذين افتخروا بالكرتزيانية بجمل فكر ديكارت ولم يروا منه سوى المظهر الآلي . فان « ريجيوس » ، منذ السنة ١٦٤٦ ، « وكوردموا» ، منـــذ السنة ١٦٦٦ ، « وروهو » ، في السنة ١٦٧٥ ، و « ريجيس » ، في السنة ١٦٩٠ ، و « فونتنيل » اخيراً ، المدافع الاكبر عن ديكارت منذ كتابه « احاديث حول تعدد العوالم المأهولة » (١٦٨٦) حتى كتابه « نظام الزوابع » (١٧٥٢) ، يجاهرون كلهم بأسلوب الآليين العلمي ، مع انهم يقولون كلهم بنظرية الملء والزوابع . اختلطت الكرتزيانية بالآليـة البحتة . لم يكن ديكارت كرتزيانيا . وحين يتكلم « الفلاسفة » عن دور ديكارت كسيد الفكر ، فانهم انمـــا يفكرون بالآلية وباساليب العلم الاختباري وروحه . واذا مـا بقي لديكارت أثره الكبير في القرن الثامن عشر ، فيرد ذلك جزئياً الى الاختلاط والتجزئة العقلية في مؤلفاته . بيد ان هذا الاختلاط كان نتيجة حدث تاريخي : لم تنتصر الآلية الا مع ديكارت وبديكارت وفي ديكارت . ولعل هذا الاختلاط عكس واقعاً آخر ايضاً : اعترف العلمـــاء بالضعف البشري فقبلوا مكرهين بمذهب العقليين الاختباري، ولكن اليس مثل الآليـــة الاستنتاج الكرتزياني ، المتقى من المحسوس والكمي ، انطلاقاً من افكار واضحة وجلية ، والكون ممثلاً بهندسة مترامية الاطراف ؟

٢ ـ ظروف العمل

شغف الجماهير

ان الكرتزيانية والنتائج المحققة حولت الرغبة الحـــارة في المعرفة نحو العلوم في الدرجة الاولى . فاستثير شغف حقيقي بكافة علوم الطبيعة ، اي « بعـــلم الطبيعيات » . وتفرغ لها اناس من كل الطبقات ، لا سيا في فرنسا ، وفي بعض البلدان الاخرى ايضاً . فتعددت وسائل التعلم . وازدادت مجموعات الحيوانات والنباتات والحجارة ، كما ازدادت « دور » علم الطبيعيات ازدياداً مطرّداً : فتكون او تأسس منها لدى الدوقية والقضاة ورؤساء الاديرة والاطباء والسيدات والجمعيات الدينية . وكان للويس الخامس عشر مجموعاته و « دوره » الخاصة ، بالاضافة الى « دار » الملك وحديقة الملـــك اللتين أسسها لويس الثالث عشر ووسعها « بوفون » بمضاعفة مساحة الحدائق ، وبنـــاء المدافيء الزجاجية ومسرح للتعليم ، وتقدمة المجموعات التي ارسلتها اليه كاترين الثانية ، واستثارة حماس الجميـــع : فقدمت السيدات الهبات كي ترد اسماؤهن في « التاريخ الطبيعي » ؛ وكوفيء الوكلاء والموظفون الذين جمعوا له النماذج في المستعمرات بشهادات رسمية تعينهم « مراسلي غرفة الملـــك » . واتيحت رؤية هذه المجموعات العامة والخاصة بسهولة للهواة. وألقيت محاضرات علنية بغية حمل الجماهير على تذوق العلم .ومنذ السنة ١٧٣٤ القى الاب نولـّيه في باريس محاضرات حصرها في عـــلم الطبيعيات الاختباري : لم يتعرض فيها للنظريات ولم يستخدم الرياضيات ، بل اكتفى باحضار آلاته وإثبات مـــا لوحظ مباشرة . فأعطى بذلك عن العـــلم فكرة ناقصة ، لان العلم هو ، قبل اي شيء آخر ، سلسلة براهين يتوصل اليها الحساب ويثبتها الاختبار ، ولكن مستمعيه لم يجدوا اية صعوبة في فهم مـــا يلقيه عليهم ، فأحرز نجاحاً عظيماً واستمال الكثيرين الى العلم . وازدحمت في الشارع الذي اقام فيه عربات الدوقات اللواتي كن راغبات في اضطرام نشاطهن وحماسهن . وحين اسند اليه الملك، في السنة ١٧٥٣ ، القـــاء دروس علم الطبيعيات الاختباري في كلية « نافار » ، اضطرت هذه الاخيرة لان تفتح ابوابها امام الهواة : فقد بلغ مستمعو نولـّيه السمّاية . وفي حديقة الملك ، كان الكيميائي « رويل » يشرع في القاء درسه معتمراً جمة مستعارة ومرتدياً اكماماً مطرزة. ولكنه كان يتنشط فينزع اكمامه وجمته ثم يخلـــع ثوبه وينتهي بنضو صداره عنه ويكمل درسه مرتدياً القميص فقط ، فتنتقل حمياه الى مستمعيه . والقيت مثل هذه الدروس في كليات الولايات وفي مدن كثيرة من فرنسا وهولندا والمانيا . وامّن اناس كثيرون سبل معيشتهم بانتقالهم من مكان الى آخر لاجراء اختبارات في علم الطبيعيات : وكانت الكهرباء مـــا استهوى الجماهير واستمالها . ونشرت كتب كثيرة ، ينطوي بعضها على قيمة كبرى ، لجعل العلوم في متنـــاول الجميـــع ، كـ « مشهد الطبيعة » للأب « بلوش » ، و « دروس عـــلم الطبيعيات الاختباري » للأب نولـّيه (١٧٤٨) ، « والتـــاريخ الطبيعي » لبوفون و « تاريخ الكهرباء » لبريستلي (١٧٧٥) ، بالاضافة الى العديد من الموجزات والقواميس والكتب المدرسية التي اصدرت تباعـــاً واعيد

طبعهـــا تكراراً . وكرست الصحف اعمدة طويلة للمؤلفات العلمية ؛ وقد تخصص بعضها في المنشورات العلمية .

عمت البلاد « فورة تعلم » و « حمى فهم » لم يكونا جديدتين ولكنهما غدتا اقل ندرة . فان « جنفييف دي مالبواسيير » مثلاً ، التي تنتمي الى اسرة ثرية من رجال المال ، وتعرف اللاتينية واليونانية والانكليزية والايطالية والاسبانية ، وتؤلف المآسي والمهازل ، قد طلبت من يلقنهـا دروساً خاصة في الرياضيات وتتلمذت لـ « قالمون دي بومار » في علم الطبيعيات والتاريخ الطبيعي وقرأت بوفون . كما ان ابنة احد النقاشين ، وهي التي ستصبح السيدة « رولاند » ، قد درست الرياضيات وعـلم الطبيعيات ، وقرأت الاب نولـّيه ، وعالم الطبيعيات والتـاريخ الطبيعي « ريومور » والرياضي والفلكي « كليرو » . ودرس فولتير الرياضيات وجعل منجزات نيوتون في متناول الجميع . وتابـع « ديدرو » دروس التشريح وعلم الوظائف والكيمياء باشراف « رويل » طيلة ثلاث سنوات ، وخلـّف اصولاً هامة في علم الوظائف . ودرس « جان جاك روسو » الرياضيات وعلم الفلك والطب وحرر « انظمه كيميائية » مسهبة جداً . وقام فرانكلين باختبارات كهربائية . وواصل « غوته » ابحـاثه في البصريات وعلم النبات . وتلقى ولي عهد فرنسا دروساً في علم الطبيعيات ، وكان جورج الثالث ملك انكلترا عالماً بالنبات ، واعـاد « فكتور ـ اميداي » الثالث امير « سافوا » اختبارات الاب نولـّيه .

لا ريب في ان الاكثرية خـلال القرن السابق كانت قد كرست مزيداً من الوقت لتمييز ادق فروق الشواعر البشرية ، والبحث طويلاً عن خير المفردات والصيغ للتعبير عنهـا باتقان وقوة وطلاوة وملاحة . ولا ريب كذلك في انها كانت تناولت الاقدمين بمزيد من التأمل لتكتشف في ما خلفوه بعض الايحاءات بصدد شواعر مجهولة او شواعر أسيء فهمها او مناويل تنسج عليها . وكانت قد استعانت بممارسة فحص الضمير والاختلاف الى كرسي الاعتراف ، ومحـاولة بلوغ الكمال المسيحي بمراقبة الشواعر والاهواء مراقبة يقظى بغية توجيهها وجعلها تساهم في الخلاص . ولكن الديانة ، في القرن الثامن عشر ، ما عادت لتقدم مثل هذا العون : فاذا استمر الكثيرون في الذهاب الى القداديس وكرسي الاعتراف ، فالقلب ، على العموم ، اقل اشتراكا داخلياً ، وهم اقل ايماناً منهم في السابق ، ولا يشعرون في الغالب بدينهم ولا يعيشونه . واذا مـا زالوا يهوون الادب ، فـان اتساع الرغبة في المعرفة لا يترك لهم متسعاً من الوقت للتذوق والتبحر . الذوق سائر في طريق الفساد . ففولتير ومونتسكيو ينحدران الى دون مستوى بوالو انحداراً محزنـاً احياناً . وليس فولتير بعيداً احياناً عن تفضيل « سطوع « له تاس » الخادع على ذهب فرجيل» . اضف الى ذلك من جهة ثانية انهم يبادرون كلهم الى الارتقاء من الظواهر الى الاصول ، وربطها بفلسفة العصر العـامة ، وممارسة « ميتافيزيقية القلب » كما قد يقول دالمبير . يهملون فحص الواقع ؛ وغالباً ما تغدو السيكولوجية بدائية والتعبير جافـاً ومجرداً . فاذا تقدمت العلوم ، فان الآداب قد تقهقرت ، واذا نظرنا الى القرن الثامن عشر من هـذه الزاوية فاننا نراه اقل

بروزاً بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر .

مساندة الراي والحكومات

ولكن الشغف بالعلوم يساعد اعمال العلماء الذين اصبحوا موضوع اعتبار مشجع روجدوا الظروف والوسائل المادية لمواصلة اعمالهم . فاراضي بوفون تعلن كونتية بأمر يصدره ملك فرنسا . عشرة شعراء يتغنون بعظمته . يقام له تمثال وهو في قيد الحياة . مسكنه في «مونبار» يغدو مزاراً . حين يموت ، تقام كنيسة على المرتفع المقابل لقصره وتضاء شموعها طيلة سنة كاملة . لا يدنو احد من مكتبه « الا كما من معبد حارسه خادمه الشيخ وحبره ابنه » . جورج الاول ملك انكلترا وبطرس الاكبر عاهل روسيا يزوران مختبرات « علماء الطبيعيات » . فردريك الثاني يستقبل العلماء والفلاسفة حول مائدته ، وكاترين الثانية في مكتبها لمجالستهم ومبادلتهم الاحاديث .

لم يقتصر المال على العلماء الذين كان باستطاعتهم ، في اوائل عهد علوم كثيرة ، التوصل الى نتائج حسنة بأدوات محدودة . فقد استخدم الكيميائي « شيل » كؤوس الشراب عوضاً عن « الاجراس » . ولجمع الغازات كان يربط بعنق قنينة نفيطة جلدية يشدها بخيط حين تتلىء ؛ وبدأ فرانكلين اعماله في حقل الكهرباء بانبوب زجاجي وجلد هر . ولكن علم الفلك والجغرافية ما كانا ليكتفيا بادوات بدائية . وما لبثت الكيمياء ان فرضت المتطلبات نفسها : فان مختبر « لافوازييه » قد ضم اجهزة دقيقة كبيرة الحجم شاقة الصنع . واستلزمت اختباراته كمية ضخمة من المحروقات . ومن حسن الحظ ان الملوك قد اسموا الاكاديميات التي وفرت لاعضائها المرتبات ومكافآت الحضور واستثارت التنافس وكافأت الجهود بالجوائز ونظمت بعثات علمية تمدها الدولة بالاعانات المالية . اعطى المثل لويس الرابع عشر ملك فرنسا وحذا حذوه خليفتاه لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر ، ثم اقتفي الاثر في كل مكان . استمر لويس الخامس عشر في إسناد ادارة اعمال كبرى تتعلق بعلم هيئة الارض الى اعضاء اكاديمية العلوم في باريس : قياس خط الطول ، قياس المسافة بين « برست » وستراسبورغ ، خريطة فرنسا العامة لكسيني . واوعز بايفاد بعثات علمية كبرى الى البيرو ولابونيا ورأس الرجاء الصالح بغية قياس درجات خط الطول وتحديد المسافة من الارض الى القمر ، والقيام بمهام اخرى . فسارت الحكومات الاخرى على هذه الخطى . اسس بطرس الاكبر « اكاديمية سان بطرسبورغ » (١٧٢٤) . وارسل « بيرنغ » لاستكشاف المضيق الذي يفصل آسيا عن امريكا ، والذي حمل اسمه من بعده . وامرت القيصرتان آنا وكاترين الثانية بالقيام برحلات علمية الى سيبيريا . واستحضرت كاترين الثانية الى « سان بطرسبورغ » الرياضي السويسري « اولر » والفيلسوف الفرنسي « ديدرو » . والحقيقة ان « اولر » هو من حرر « الرسائل الى اميرة المانية » في الفلسفة والعلوم الاميرة « دانهالت ديسو » . وتأسست اكاديمية استوكهولم الملكية في السنة ١٧٣٩ ، وجمعية كوبنهاغن الملكية في السنة ١٧٤٥ . واستدعى فردريك الثاني ملك بروسيا

الى اكاديمية العلوم في برلين بعض الرياضيين : الفرنسيين « موبرتوي » ودالمبير و « لاغرانج » والسويسري برلولي . اما جورج الثالث ، ملك انكلترا المشهور بتقتيره ، فقد انفق بسخاء على العالم الفلكي « وليم هرشل » وعين له مرتباً شهرياً قدره ثلاثون جنيه وقـــدم له مسكناً مجاوراً لقصر « سلو » الملكي انشأ فيه مرصداً حقق فيـــه اكتشافاته . لا بل تواطأت الحكومات الاوروبية للايعاز بمراقبة مرور الزهرة امـــام الشمس في السنتين ١٧٦١ و ١٧٦٩ بغية تحديد المسافة بين الشمس والارض . وكان انتهاز الفرصة امراً واجباً اذ ان مروريّ الزهرة ، اللذين تفصلهما فترة ثماني سنوات ، لا يتكرران الا كل مائة وعشرين سنة تقريباً . فقام الانكليز بالرصد في تاهيتي وجون « هدسون » ومادراس ، والدانمركيون قرب رأس الشمال ، والاسوجيون في فنلندا ؛ والروس في لابونيا وسيبيريا ؛ والفرنسيون في كاليفورنيا وبونديشيري . اتحدت اوروبا اذن لزيادة معرفة البشرية . ولم تكن النجاحات المحرزة بالحقائق الكبرى والجميلة والمفيدة لتجر على الحكومات سوى نفقات ضئيلة اذا ما قورنت هذهالنفقات بما تتطلبه الدبلوماسية والحروب: فان « لاكاي »، الذي اوفدته الحكومة الفرنسية الى رأس الرجاء الصالح في السنة ١٧٥١ لرصد القمر بغية تحديد المسافة بينه وبين الارض ، لم ينفق بعد اقامة اربع سنوات نفذ خلالها المهمـة المسندة اليه وحدّد بدقة مدهشة مكان اكثر من ١٠٠٠٠ كوكب في سماء نصف الكرة الجنوبي سوى ٩١٤٤١٥ فلساً بما في ذلك نفقات صنع الآلات .

شمول علم العلماء

يرد تقدم العلوم ونفوذ العلماء جزئياً الى ان التخصص ، على الرغم من ازدياده ، ما زال متأخراً جـداً عما هو عليه اليوم . ما زالت معرفة الطبيعة في القرن الثامن عشر تدعى فلسفة ؛ وما زال أولئك الذين يدرسون سننها يطلقون على انفسهم اسم « الفلاسفة » . اضف الى ذلك من جهة ثانية انهم كلهم يعرفون مؤلفات الفلاسفة بحصر المعنى الذين يستخلصون من الاكتشافات العلمية مبادىء وروحاً ويثبتون نتائجها عـلى الكون والانسان . بواسطة مثل هذه المؤلفات كان للعلوم مزيد من النفوذ . ان بوفون مدين بمبادئه الموجهة الى ليبنيز ، ومونتسكيو مدين بمبادئـه لمالبرانش ، وكلهم مدينون لأرسطو وديكارت . زد على ذلك انهم يمارسون علوماً عدة . فالعالم الرياضي والفلكي لابلاس يسهم في اختبارات لافوازييه الـتي تناولت الحرارة الحيوانية والتنفس . والعالم الرياضي اولر يخوض في نظرية القيـاس كما يخوض في النظريات الطبيعية حول حدوث الموجـات والتموج . والطبيب لامتري ينقل المذهب الآلي الى عالم الاخلاق . وان في ذلك لفائدة ، اذ غالباً ما ينتج النجـاح عن تطبيق اسلوب احد العلوم ونتائجه على علم آخر . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان اكثرية العلماء يحققون او يكملون تحصيلهم العلمي برجوعهم الى الابحـاث الاصلية ، وذلك بفضل ثقافتهم الكلاسيكية . فان رياضيين كثيرين كانوا قادرين عـلى ان يترجموا من اليونانيـة « العناصر » لاوكليد ، ومن اللاتينية « الهندسة » لديكارت « والمبادىء » لنيوتون . وبذلك اضافوا الى تميزهم في ادراك فكر المعلم ادراكاً مباشراً تميزهم في رؤية توسع علمهم توسعـاً حقيقياً

وتاريخياً وكيفية تكون المسائل حقاً وكيفية وجود الحلول التي أثارت مسائل اخرى . فكان لديهم من ثم اوضح فكرة صائبة عن علمهم وروحه وأسلوبه وسيره ومستقبله .

الا انهم بدأوا يواجهون صعوبة جديدة : فعلى غرار الفرنسيين اخذ العلماء يكتبون ، لا باللغة اللاتينية ، بل بلغتهم الام ، مع ان مؤلفات علمية كثيرة ما زالت توضع باللاتينية . فأشار دالمبير منذ منتصف القرن الى مساوىء الطريقة الجديدة : «ان الفيلسوف الذي يريد التعمق في درس مكتشفات سابقيه سيضطر الى تحميل ذاكرته سبع او ثماني لغات مختلفة ؛ وبعد ان يكرس لتعلمها اثمن وقت من حياته ، سيموت قبل ان يشرع في الدرس والتثقف » . وقد حار لافوازييه في امره حين اراد الرجوع الى مذكرات الكيميائي الانكليزي بريستلي : ولكن من حسن حظه ان امرأته تمكنت من ان تترجمها له . الا ان سواد العلماء ، حين لا يكتبون باللاتينية ، يستخدمون الفرنسية ، لغة اوروبا الشاملة . هذا ما فعله العلماء الآتون من بال ، علماء الرياضيات من عائلة برنولّي ، واولر الشهير ؛ وهذا ما فعله كذلك علماء اكاديمية برلين واكاديمية سان بطرسبورغ .

وجملة القول ان العلماء وجدوا ظروف عمل مرضية جداً نسبياً .

الفصل الثاني

الرياضيات

تحليل الكمية الصغرى

صدرت مؤلفات جميلة كثيرة ، ولكن مبدأ جديداً وجوهرياً واحداً لم يكشف . توسع علماء الرياضيات في تحليل الكمية الصغرى التي اكتشفها في القرن السابع عشر نيوتون وليبنيز اللذان استخدما اعمال ديكارت « وفرما » . ان الحساب الجديد الذي يظهر حالة قدر معين في برهة معينة ويبين في آن واحد كيف يتبدل في هذه البرهة قوة واتجاهاً ، قد اتاح لعلماء الفلك والطبيعيات درس الحركات الدائمة . وقد اقبل الناس على قراءة الطبعة الثالثة لـ « المبادىء الرياضية للفلسفة الطبيعية » لنيوتون التي ظهرت في السنة ١٧٢٦ ، و « اسلوب المدود » لنيوتون ايضاً الذي وُضع في السنة ١٦٧١ ، وترجمه تلميذه كولسون وظهر في السنة ١٧٣٦ . ولكن نيوتون وليبنيز قد تركا حساب الكمية الصغرى ناقصاً جداً مخلفين فيه قضايا دونما برهان ، ومسائل عديدة دونما حل ، وعدداً من الايحاءات والمقترحات . فجاء خلفاؤهما يكملون ، ويوضحون ، ويثبتون .

انجز علماء الرياضيات في القرن الثامن عشر اعمالا عملية في جوهرها : فان ما اتوه هو طرائق لحل المسائل التي طرحها علماء الآليات والفلك ، ولتفسير الوقائع التي ترفع النقاب عنها ملاحظة الفلك او الاجسام الارضية . وان المسائل التي عالجوها هي شكل شراع مستطيل قعرته الرياح ، و « وخط اسرع انحدار » بين خطين عموديين متعاقبين ، ورسم شعاع ضوئي يجتاز « طبقات مختلفة الثقل النوعي » ، وسبب الرياح ، وحركات السوائل ، والاوتار المترجرجة ، واشكال الارض ، وحركات القمر ، والترجيح والتأكيدات . فحسنوا من ثم الاداة الحسابية تحسيناً مدهشاً . في السنة ١٧٣٥ حل اولر ، في ثلاثة ايام ، بوسائله الخاصة ، مسألة فلكية كان عدد من مشاهير علماء الرياضيات قد طلبوا عدة اشهر لحلها بوسائل قديمة . وفي القرن التاسع عشر ، استطاع « غوس » حلها ، بطرائق افضل اكتمالاً ، في ساعة واحدة . فصل علماء الرياضيات فصلا تاماً بين التحليل والهندسة . في الحقبة السابقة ، درجوا على حل المسائل المطروحة بشكل هندسي وعلى تحويل نتائج الحساب الى شكل هندسي . اما في القرن الثامن عشر فقد جعلوا من التحليل علما مستقلا ،

وبلغ من تدلل « لاغرانج » ، في النهاية ، انه لم يورد في كتابه «علم الآليات التحليلي » اي شكل واي رسم بياني .

تفوق البر الاوروبي والفرنسي

في الثلث الاخير من القرن السابع عشر ، كان كبار علماء الرياضيات انكليزا كنيوتون او ألمانا كليبنيز .وفي القرن الثامن عشر، كانوا سويسريين وفرنسيين . اما السويسريون ، عائلة برنولي واولر (١٧٠٧ — ١٧٨٣) ، من بال ، فقد استهوتهم ، بالتفضيل ، المسائل الخاصة والاكتشافات الكبرى للحقائق الجزئية ، وكان اولر مخترعاً لا يعرف الكلل اوحى بأكثر الآراء الكبرى التي توسع فيها خلفاؤه . واما الفرنسيون ، كليرو (١٧١٣ — ١٧٦٥) ، ودالمبير ، ولاغرانج (١٧٣٦ — ١٨١٣) ، ولابلاس (١٧٤٩ — ١٨٢٧) ، فكانوا بالتفضيل عقولا تأليفية تكتشف الطرائق المجردة وتوجز في نتائج عامة تنوع الحالات الخاصة الكثيرة جداً . وقد شرحوا ونشروا ، بالاضافة الى ذلك ، مذهب نيوتون في نظام العالم وطبقوا الحساب الجديد على علمي الآليات والفلك وبنوا علم الآليات الفلكي . لقد مارست فرنسا نوعاً من الملكية الرياضية .

لعل انحطاط الانكليز النسبي يرد من جهة الى ان نيوتون قد خلّف طريقته الحسابية اقل اكتمالا من الطريقة التي خلّفها ليبنيز ؛ ومن جهة ثانية الى المشادة التي قامت بين الانكليز والالمان والسويسريين حول هذا السؤال الهام والعديم الفائدة : من هو المكتشف الحقيقي لحساب الكمية الصغرى ، ليبنيز ام نيوتون ؟ فقد حدّت المجادلة من تبادل الآراء بين علماء الرياضيات في البر الاوروبي وعلماء الرياضيات في انكلترا . اكتفى الانكليز باساليب نيوتون ، وحتى السنة ١٨٢٠ جهلوا الاكتشافات الهامة التي تحققت في البر الاوروبي . لا بل انهم تراجعوا الى الوراء . فبينما طبق « بروك تايلور » ، في السنة ١٧١٧ ، حساب الزيادات المتناهية في الكم، واوضح نظريته الشهيرة ، استخدم « ماك لورين » في السنة ١٧٣١ ، في كتابه « بحث في المدود» او الكميات التي تتزايد بمد متواصل ، البراهين الهندسية لاضفاء صبغة الضبط والتدقيق على ما يقدم ، واوضح بعد ذلك بشكل هندسي النظرية القائلة بان حجما سائلا يدور حول محور يتخذ تحت تأثير الجاذبية شكل مجسم ناقص بفعل الدوران . فأعاد بذلك انتباه مواطنيه الى الهندسة وجعلهم يهملون التحليل . وهكذا عمل الانكليز في حجرة مقفلة إذا صح التعبير ، فخمد نشاطهم شيئاً فشيئاً .

اما في البر الاوروبي فكان وضع الفرنسيين ملائماً لتقبل الحساب الليبنيزي والحساب النيوتوني معاً . وكان من ازدهار الرياضيات ، بفضل اعمال ديكارت ، في اكاديمية العلوم في باريس وفي كلية فرنسا ، ان برزت هنالك عقول معدة خير إعداد لاستساغتها واستخلاص ما تنطوي عليه .

«الهندسة الوصفية»

على الرغم من المكانة الرفيعة التي احتلتها التحليل ، اكتشف فرع جديد للهندسة هو الهندسة الوصفية . ويعود الفضل في ذلك الى الفرنسي « غاسبار مونج » (١٧٤٦ – ١٨١٨) . كان ابن حانوتي في بون *(Beaune)* ، لفت الانتباه اليه رسم وضعه للمدينة التي نشأ فيها ، وعين مساعداً فنياً في مدرسة الهندسة الملكية في « ميزيير » ، فاستغرب تعقد الوسائل المستخدمة لوضع مخططات التحصينات ورسومها الداخلية ، وطول الحسابات الضرورية. منذ السنة ١٧٦٦ ، حوّل الطرائق البيانية المختلفة التي يستخدمها المهندسون العسكريون والبناؤون ومهندسو العمارة والنجارون والفنانون الى تقنية عامة ذات نسق واحد مرتكزة الى البراهين الهندسية البسيطة والمدققة . فكان عمله هذا مولد الهندسة الوصفية . اعتمد قائد المدرسة الطريقة الجديدة بحرص كلي ، وفي السنة ١٧٦٨ عينه استاذاً للرياضيات ولكنه لم يسمح له بإشهار اكتشافه بسبب المنافسة القائمة بين المدارس العسكرية . الا انه انتشر بعض الانتشار بواسطة الضباط المتخرجين من المدرسة ، ولكنه لم ينشر مطبوعاً للمرة الاولى الا في السنه ١٧٩٥ .

علم الآليات العقلي

لقد دفع علماء التحليل بعلم الآليات العقلي الى الامام. كان جوهره قد اكتشف في اواخر القرن السابع عشر في اعقاب اعمال هويغنس الذي وضع اسس هذا العلم ، واعمال نيوتون الذي صاغ في « مبادئه » مجموعة كاملة من القضايا وحدد الشكل الذي بني عليه علم الآليات العقلي . ومنذ عهدهما حتى السنة ١٩٠٠ لم يوضع اي مبدأ جديد حقا . وما العمل الذي انجز بعدهما سوى توسع استنتاجي وصوري وحسابي في المبادىء النيوتونية . وقد لعب الفرنسيون الدور الاول في ذلك . فان دالمبير قد اوجز ونسّق ، في كتابه « بحث في علم القوى » ، الاكتشافات المحققة وردّها الى بعض الطرائق البسيطة ، ومنها النظرية المعروفة باسمه التي اعطت الوسائل العملية لاستخدام الاختبارات المعروفة والمدروسة . فكفى العلماء مؤونة التفكير بصدد كل حالة خاصة جديدة . وصاغ موبرتوي ، منذ السنة ١٧٤٤ ، مبدأ اقلّ كمية عمل . لاحظ ان النور « حين يجتاز اوساطاً مختلفة لا يسلك اقصر طريق ولا طريق اقصر وقت » ، فاقترح ان تعتبر الطريق التي يسلكها النور في انكسار اشعته وكأنها الطريق التي تكون كمية العمل فيها اقل كمية ممكنة . « ان كمية العمل هي حاصل ضرب حجم الاجسام بسرعتها وبالمسافة التي تجتازها » . ولكن عالم الطبيعة هذا كان منهمكا باعتبارات ميتافيزيقية . فهو قد كان راغباً في ان يجعل من هذا المبدأ ناموساً عاماً من نواميس الطبيعة ، يجوز تطبيقه على حركة الحيوانات ونمو النبات ودوران الكواكب . وقد ظن انه اذا ما اظهر كيف ان الكون يخضع لناموس واحد ، فهو انما يعطي فكرة سامية عن حكمة وعظمة الله تعالى ويقدم برهانا جديداً على وجود الله .

قام علماء الطبيعيات من بعده بتجريد مبدأه من كل صبغة ميتافيزيقية واعادته الى الحالة الموضوعية . فصاغه اولر في السنة ١٧٥١ على الشكل التالي : « حين يحدث تغيير ما في الطبيعة ،

تكون كمية العمل الضرورية لهذا التغيير اصغر كمية ممكنة ». واوضحه واستخلص منه طريقة « الكبريات والصغريات » وطبقه على الحركة العدسية الشكل التي تخضع لهـا الاجسام الوازنة وعلى الحركات التي تحدثهـا قوة مركزية ، الخ . ولكنه مـا زال ينظر الى اجسام منعزلة لا الى مجموع اجسام تخضع لنظام واحد ، وما زال يرى في المبدأ ناموساً شامـلاً من نواميس الطبيعة . اما لاغرانج فقد ترك جانبـاً ، في « علم الآليات التحليلي » ، كل اعتبـار ميتافيزيقي وحصر المبدأ في علم الآليـات ، ولكنه طبقه على مجموع الاجسام الخاضعة لنظـام واحد بفضل اداة رياضية جديدة ، هي حساب التغيرات . وقد نظر الى المبدأ لا كما الى مبدأ ميتافيزيقي بل كما الى « نتيجة بسيطة وعـامة لنواميس علم الآليـات » . فسيطرت على « علم الآليات » الروح الموضوعية . كما ان لاغرانج قد نشر « علم الآليات التحليلي » ، في السنة ١٧٨٨ ، خلواً من كل شكل هندسي . « لن يجد القارىء اي شكل في هـذا المؤلف » (مقدمة) . استنتج كل علم الآليات من مبدأ السرعات الافتراضية بضبط ولباقة كاملين . فجاء عمله بناء تاماً لعلم الطبيعيات انطلاقاً من مبدأ مجرد واحد مع ما يستلزمه هذا العلم من صيغ تتوالى « وكأنها ابيات قصيدة علمية » . انه لعمل بطولي متقن ينطوي على أهمية نظرية عظمى يلسق ويوجز عمل قرن كامل ، ولكن خلوه من الاشكال لا يجعله سهل الاستخدام مهما كان رأي لاغرانج في ذلك .

« المهندس » وهكذا فان علم الرياضيات ، العلم الـكامل في نوعه ، هو نموذج كافة العلوم ، والرياضيون ، او « المهندسون » كما دعوا آنذاك ، مثال العالم بالذات . وفيما يلي وصف الصورة التي كونها القرن عن المهندس كما يراها عالم الفلك « بايي » :

المهندس رجل يتولى اكتشاف الحقيقة ، وان بحثه هذا لبحث شاق ابداً في حقل العلوم كما في حقل الاخلاق على السواء . عمق نظر ، وسلامة حكم وخيال حـاد ، تلك هي صفات المهندس : عمق نظر لرؤية كافة النتائج لمبدأ ما ؛ ... سلامة حكم ... للارتقاء من هذه النتائج المنفردة الى المبدأ الذي ترتبط به . ولكن ما يعطي هذا العمق ويصدر هذا الحكم هو الخيـال الذي يفعل فعله داخل الاجسام . يرسم صورة كيانها الباطني ؛ ... يشرّح الشيء اذا صح التعبير ... وبعد ان يظهر الخيال كل شيء ، الصعوبات والوسائـل ، يصبح بمكنة المهندس ان يسير الى الامـام ؛ واذا هو انطلق من مبدأ لا مراء فيه يجعل الحل المقترح اكيداً ، اعترف له الناس بالعقل الرشيد ؛ واذا ما أرشد هذا المبدأ البسيط جداً الى اقصر الطرق ، كان المهندس لبقاً في فنه ؛ ويكون عبقرياً اخيراً اذا ما توصل الى حقيقة كبرى ومفيدة وغير داخلة في الحقائق المعروفة ...

كانت « الهندسة » الاعـداد العقلي لكل من يرغب في ان يصبح « فيلسوفاً » . امـا الروح الهندسية فهي روح كل هذا القرن الذي اشتهر بالاستنتاج والتعميم .

الفصل الثالث

علم الفلك

في حقل علم الفلك ، اكمل الفرنسيون اعمال نيوتون . وبنوا علم الآليات الفلكي وجعلوا من علم الفلك علماً كاملاً ، مثال علوم الطبيعة . واظهر تقدم علم الفلك الطريق التي يجب ان يسلكها كل علم . واعطى علماء الفلك خير امثلة عن البرهنة الاختبارية . وغدا علم الفلك كمدرسة في كافة الحالات التي تنطوي على الملاحظة والاختبار والبرهنة الاختبارية. فيجب من ثم ان لا نمر به مرور الكرام.

مر علم الفلك قبل القرن السادس عشر ، على غرار كل العلوم الاخرى ، في مرحلة طويلة من ملاحظة الظواهر وابتداع الافتراضات بغية تفسيرها واخضاعها للحساب . ثم جاء في القرنين السادس عشر والسابع عشر عهد اكتشاف النواميس التي تخضع لها الظواهر . كان كوبرنيك قد استدل بالظواهر على حركات الارض على نفسها وحول الشمس ؛ وكان كبلر قد اكتشف نواميس حركة السيارات . وكانت اخيراً ، في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، المرحلة الثالثة : الارتفاع من هذه النواميس الى المبدأ الذي يفسرها كلها ، وهذا ما كان نيوتون قد فعله بمبدأ الجاذبية الشاملة .

مسألة الجاذبية

ما زالت آراء نيوتون في اوائل القرن الثامن عشر بحاجة الى إثبات . في البدء حل نيوتون المسألة التالية : ما هي القوة المحركة المفترض تسليطها على السيارات اذا كانت هذه السيارات خاضعة لنواميس نيوتون ؟ وكان قد اجاب عن السؤال بان هذه القوة يجب ان تكون ، لكل سيارة ، موجهة نحو الشمس ونسبية لحجم السيارة ، وان تتغير بتناسب عكسي لمربع المسافة . ثم واصل تأملاته ، فتبادر لذهنه ان هذه الجاذبية ليست محصورة في تأثير الشمس في السيارات ، وان القوة نفسها تدير القمر حول الارض ، وتسقط الاجسام الوازنة على سطح كرتنا الارضية ، لا بل ان هذه القوة تجعل كل ذرة مادية تؤثر في كل ذرة مادية اخرى وانها متبادلة في كافة انحاء الكون . هذا هو مبدأ الجاذبية الشاملة .

لكننا توجب إثبات النظرية ورؤية ما اذا كانت الوقائع المعروفة تدخل حقاً في هذا المبدأ،

واذا ما كانت المعارف الجديدة الممكنة حول النظام الشمسي تدخل فيه . لقد اصطدم مبـــدأ نيوتون في الواقـــع باعتراضات نظرية كبرى . فقد بدا وكأن الجاذبية تفرض تأثيراً عـبر المسافات لم يتوصل احد الى تصوره بوضوح. واتهم الكرتزيانيون نيوتون ببعث الخاصيات الخفية. اما نيوتون فكان يصرح انه يرى الظواهر رأي العين ويحسبها ويضع نواميسها ولا يريد ان يؤكد شيئاً بصدد طبيعة الجاذبية واسبابها . ولكن تلاميذه كانوا يؤكدون بأن الجاذبية مردها تأثير حقيقي عبر المسافات وبانها خاصية جوهرية من خاصيات المادة . فبدوا وكأنهم يرجعون القهقرى نحو الفلسفة المدرسية .وقد كتب ليبنيز في السنة ١٧١٥ ما يلي :

« ... الجسم لا يتحرك طبيعياً الا بجسم آخر يدفعه بالتصاقه بـه ؛ ويستمر في الحركة بعد ذلك الى ان يعيقه جسم آخر يتصل به . كل حركة أخرى في الجسم اما عجائبية واما خيالية.. بهذا تنهار الجاذبيات بالمعنى الحصري والتأثيرات الاخرى التي لا تفسرها طبائع المخلوقات والتي يجب اللجوء في تفسير حدوثها الى المعجزة او الى المحالات، اي الى الخاصيات الخفية التي تقول بها الفلسفة المدرسية والتي اخذ البعض يطلعون علينا بها تحت اسم القوة المموه ، ولكنهم يعيدوننـا بذلك الى مملكة الظلمات »...

يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان وقائع كثيرة لم يحسن تفسيرها عمليـاً ؛ كمد البحر وجزره مثلاً : اجل لقد عزاها نيوتون الى جاذبية الارض والشمس ولكنه لم يضبط حساب قوتهـا ولم يتتبع بالتفصيل نتائج الشمس والقمر ؛ افترض كوكباً دون حركة يرفع ويخفض الميـاه على كرة غير متحركة . فتعرض بذلك لتهمة التحكم ، وتهمة الابتعاد عن الوقائع وسد فراغ المعرفـــة بالالفاظ . وما زال على الجاذبية ان تفرض نفسها .

براهين الجاذبية

ان عمل امتحان النظرية قد تم بطريقتين : البحث عن وقائع جديدة قد تؤيد او تبطل الافتراض ، لا سيما قبل السنة ١٧٥٠ ؛ تفسير الوقائـــع بالتفصيل بحساب اجري وفاقاً للافتراض ، لا سيما في النصف الثاني من القرن .

سبق لنيوتون وهويغنس أن أعلنا قدرة كافة الكواكب على الجاذبية . فهل تسلـّط الارض ايضاً ، على كافة الاجسام ، جاذبية نسبية لحجم هذه الاجسام هي ثقل الاجسام في نظر البشر ؟ كان مفروضاً ان يتغير هذا الثقل وفاقـاً لمكان وجود الجسم على سطح الارض : لما كانت الارض تدور حول محور وهمي يمر بالقطبين ، كانت القوة المبعدة عن المركز كبيرة عند خط الاستواء خصوصاً ومتناقصة باتجاه القطب ؛ وكان مفروضاً ان تكون الاشياء اقل انجذاباً عنـــد خط الاستواء ؛ كما كان مفروضاً أن تكون الارض قد ارتفعت عند خط الاستواء اكثر منها عنـــد القطب ؛ فوجب من ثم أن لا تكون كرة كاملة بل مسطحة بعض التسطح عند القطب . كان نيوتون وهويغنس متفقي الرأي على هذه النقطة . ولكنهما اختلفا بعد ذلك : فقد عزا نيوتون هذه الجاذبية الى كافة اجزاء المادة ، وكانت ، في نظره ، شاملة حقاً ؛ وقد حسب ان التسطح

يجب ان يكون بنسبة ١ الى ٢٣٠ من محيط الدائرة . اما هويغنس فقد اعتبر ان الثقل قوة ترد الى الكرة ككل واحد ؛ وأنكر الصفة الشاملة للجاذبية ؛ فوجب من ثم ، في نظره ، ان يكون التسطح أقل بكثير مما توصل اليه نيوتون ، أي بنسبة ١ الى ٥٧٨ من محيط الدائرة فقط . ولمعرفة ما اذا كانت هذه القوة الجاذبة ، التي عزاها نيوتون الى الكواكب ، موجودة حقاً ، كان لزاماً معرفة ما اذا كانت الارض مسطحة عند القطبين ؛ ولتقديم الدليل على أن هذه القوة الجاذبة هي خاصية من خاصيات كافة الذرات المادية ، كان لزاماً تحديد النسبة .

مقاييس موبرتوي ولاكوندامين

بات ضرورياً ، لتحقيق هذه الغاية ، قياس درجة من درجات خط الطول ، بواسطة مسح الارض ، في أقرب مكان ممكن من القطب ومن خط الاستواء : فاذا لم يكن محيط الدائرة كاملاً ، أي اذا كان مسطحاً عند القطب ، يكون قوس الدرجة عند خط الاستواء أقصر منه عند القطب فبادرت أكاديمية العلوم في باريس الى البحث . أوفدت بعثتان في السنة ١٧٣٥ : احداهما الى البيرو ، مع لاكوندامين وبوغر ؛ والثانية الى أقصى خليج بوتنيا في لابونيا ، مع موبرتوي وكليرو . قاس هذان الاخيران الدرجة ٧٦ من العرض الشمالي ، ووجدا في السنة ١٧٣٦ ان طولها يبلغ ٥٧٤٣٨ « تواز » [التواز يساوي ٦ اقدام] ، أي انها زادت ٣٧٨ « تواز » عن الدرجة التي حددها بيكار بين باريس واميان عند الدرجة ٥٠ من العرض الشمالي . فكانت الارض من ثم مسطحة عند القطب كما سبق لنيوتون وهويغنس ان اعلنا ذلك . ولكن بضع مئات من « التوازات » ، بالنسبة لبضع عشرات الوف ، فرق زهيد جداً ؛ أو ليس هنالك تعرض للخطأ؟ كان موبرتوي قد تنبه للامر ؛ فافترض أنه اخطأ أبداً في مثلثاته بعشرين ثانية عند قياس الزاويتين الاوليين ، وبأربعين ثانية عند قياس الزاوية الثالثة ؛ وان هذه الأخطاء تسير ابداً في اتجاه واحد وتؤول طبعاً الى انقاص القوس : فلا يكون الخطأ ، في هذه الحالات القصوى سوى ٥٤ « تواز » ونصفا . وهكذا لم يبق مجال لأي ريب . وقد تأيدت حسابات موبرتوي وكليرو ، بعد مرور ثماني سنوات ، بحسابات لاكوندامين وبوغر في كيتو . صرف هذان الاخيران وقتاً أطول لأن نوامي المنطقة الاستوائية أخرت عملها . قاسا الدرجة ٣ من العرض الشمالي متخذين كل الاحتياطات الممكنة بغية تحاشي الأخطاء الاتفاقية الناجمة عن تعب الملاحظ وشرود فكره ، أو عن الظروف الجوية السيئة . قيست قاعدة المثلث الأول ، التي تتوقف عليها كافة الحسابات اللاحقة ، بواسطة فريقين مختلفين قاما بهذا العمل كل على حدة . هذا « أحد أصح البراهين التي يمكن أن تخلف للأجيال الآتية » . وجدا أن قياس الدرجة هو ٥٦٧٧٥ « تواز » . ولكنهما قاما بالقياس في أرض مرتفعة فحدث كل شيء كما لو قاسا محيط دائرة أكبر . توجب من ثم رد القياس الى مستوى البحر فحصلا نهائياً على ٥٦٧٧٣ تواز للدرجة . كان نيوتون وهويغنس على حق بصدد النقطة الأولى : الأرض مسطحة عند القطبين ، والقوة المبعدة عن المركز تنقص الثقل عند خط الاستواء ؛ والثقل ليس احدى خاصيات الأجسام بل احدى ظواهر الجاذبية الارضية .

ولكن القياسات المجراة قد أثبتت ان التسطح يبلغ ١/١٧٨ من محيط الدائرة في القطب ،. وهذا ما أيدته في فرنسا منذ السنة ١٧٤٠ قياسات خط الطول بين دنكرك وبربنيان باطالة الدرجات تدريجياً نحو الشمال . وما كانت القوة اللازمة لاحداث مثل هذا التسطح لتتأتى الا من جاذبية كافة أجزاء الارض: اذن الجاذبية شاملة : وقد أصاب نيوتون في رأيه ضد هويغنس.

ملاحظات بوغر ومسكلين

اثبت الفلكي بوغر ذلك باختبارات غاية في اللباقة على جاذبية الجبال . وقد جُر الى درس هذه الاخيرة على حدة بينا كان يبحث عن حقيقة ما اذا كانت الجاذبية تتسلط بنسبة عكسية لمربع المسافات . سبق لبعضهم ان لاحظوا ان الساعات ذات الرقاص تتأخر تحت خط الاستواء : الثقل اقل ، والرقاص « يجتذب » بقوة أقل ، فحركته من ثم اقل سرعة . ولضبط الساعة ، وجب تقصير الرقاص ، وهذا ما يزيد سرعة ذبذباته . وقد وجد بوغر في كيتو على ارتفاع ١٤٦٦ تواز فوق مستوى البحر ، بالاضافة الى ذلك، انه يجب تقصير الرقاص ١٠٠/٣٣ من الخط الذي كان يرسمه عند مستوى البحر . وظن ان هذا الواقع مرده اقترابه من الشمس التي تزداد جاذبيتها . وكي يكون على بينة من الأمر نقل الرقاص الى قمة جبل « بيشنشا » على ارتفاع ٩٦٨ تواز فوق كيتو . وهنا ايضاً وجب تقصير الرقاص ١٠٠/١٩ . وكاد يكون هذا النقصان متناسباً عكساً لمربع المسافات بحسب ناموس نيوتون. ولكن لماذا كاد يكون فقط ؟ تبادر الى ذهن بوغر ان الثقل ، اذا كان ينقص بفعل الارتفاع ، اي بالاقتراب من الشمس، انما يزداد بفعل الجبل، اي بازدياد حجم الارض الذي يزيد جاذبيتها: فكأن الانسان ، في أعلى الجبال ، موجود على كرة كبرى ذات شعاع اكبر . والجبال بالتالي سبب من اسباب ازدياد الجاذبية .

ولكن ما تبادر الى ذهن بوغر لم يكن في هذه الحال سوى افتراض ، لا تعبيراً عن واقع . فبات اجراء الاختبارات امراً ضرورياً . ولكن كيف اجراؤها في علم الفلك حيث لا نستطيع في أغلب الاحيان ملامسة مواضيع المعرفة ، وحيث نعجز ابداً عن تحريكها ؟ يجب اذن عزل الظواهر بالفكر ، وهم علماء الفلك من حققوا اكمل نماذج البرهنة الاختبارية . فكر بوغر بعزل تأثير الجبل . وقد استخدم لهذه الغاية قادم ارباع الدائرة المستعملة لقياس علو الكواكب فوق الأفق . يبين القادم الخط العمودي بين مركز الارض وسمت الراس . وهو عمودي لان الكرة المعدنية الصغيرة تجتذب نحو مركز الارض . اذا ما وضعت هذه الاداة بجانب جبل متسع وعال ، كان واجباً ان يجذب الجبل القادم اليه ويحيده عن الخط العمودي. ولكن ما هو السبيل الى رؤية ذلك ؟

بوغر وحياد الجبال

اذا ما نظرنا الى كوكب بالمنظار المثبت في ربع الدائرة ، حددت الزاوية المتكونة من اتجاه المنظار والخط العمودي ، المسافة بالدرجات بين الكوكب وسمت الرأس . ولكن اذا اجتذب الجبل القادم ، فان سمت الراس سيتزحزح من مكانه بالنسبة للمراقب . فالمراقبات التي تتناول كوكباً واحداً ، على خط عرض واحد ،

وبعيداً عن الجبـــل ، ستعطي من ثم زوايا مختلفة . اختار بوغر جبل « شمبورازو » : لاحظ انتقال سمت الراس من مكانه ، ومن ثم حياد الفادم ، وانتهى الى القول بجاذبية الجبال . ولكنه بقي في لبس من الأمر : فالانتقال كان ضئيلاً جداً ، وربما كانت الريح العاصفة التي هبت اثنـاء المراقبتين سبباً لحياد الفادم. الا ان الاسكتلندي مسكلين قد اجلى كل ريب حول جاذبية الجبال بنتيجة ٣٣٧ مراقبة اجراها في اسكتلندا . وبما ان الجبال ، وهي صغيرة جـداً اذا ما قورنت بالكرة الارضية ، قادرة على الاجتذاب ، فليس ما يحول دون قدرة اصغر اجزاء المـــادة على هذا الاجتذاب . فاعتبر حسنو النوايا ان نيوتون كان على صواب . وارتأوا ان الجاذبية لا تدرك مع ان حقيقتها لا ريب فيها : يجب الاعتراف بواقعها دون فهمها . وقد استخدم كليرو كل هذه الاعمال ليبرهن ان شكل الارض شكلقطع اهليلجي تقريباً .

مراقبات « له مونييه »

تأيدت الجاذبية الشاملة بمراقبات « له مونييه » (١٧٤٦) . لقد سبق للعلماء ولاحظوا ان هنالك بعض التباين في حركة زحل حين يقترب من المشتري كل عشرين سنة . فاذا كانت نظرية نيوتون صحيحة ، كان مرد التباين جاذبية المشتري. ولكن ما هو السبيل الى عزل هذه الجاذبية عن جاذبية الشمس ؟ توصل « له مونييه » الى ذلك بان درس ، بين المراقبات القديمة فقط ، تلك التي كان مفروضاً ان يتلقى زحل اثناءهـــا التأثير نفسه من الشمس حين يكون موجوداً في النقطة نفسها من مداره ، وعلى المسافة عينهـــا من الشمس ؛ فتبين له ان المشتري وحده ، في هذه الحـالات ، كان موجوداً في امكنة مختلفة وعلى مسافات مختلفة . ثم قام له مونييه نفسه بالمراقبة في الظروف نفسها . فوجد اختلافات مطابقة في حركة زحل المبطئة ، وهو تأثير لا يمكن ان يتأتى إلا من حجم المشتري . اما حركة المشتري فكانت على نقيض ذلك تزداد سرعة . فبرز واقع الجاذبية جلياً في جزء آخر من النظـــام الشمسي ، وانكمش المكان المتروك للشك . واكتشف العلماء اخيراً ان اقمار المشتري ترسم حوله قطعاً اهليلجيا وفاقاً لنواميس كبلر . فكان ذلك دليلا على امـــكان تطبيق هذه النواميس على النظام الشمسي كله ، ولما كانت الجـــاذبية مبدأ هذه النواميس ، فقد تأيدت بها تأيداً غير مباشر .

اذا لم نستطـــع القول ان اختباراً بحصر المعنى قد اجري في جميـــع هذه الاعمال ، اذ ان المراقب لا يحول ولا يغير بنفسه الظواهر الطبيعية ، فهذا لا يعني ان الطريقة الاختبارية لم تطبق تطبيقاً كاملا : فعلى غرار ما يجري في الاختبار ، أثبتت النتائـــج المستخلصة من المراقبات بمراقبات تناولت وقائع عزل بعضها عنالبعض الآخر بالحيلة .

إثبات الجاذبية بالحساب

وهكذا فأن وقائع خاصة جديدة قد ايدت نظرية نيوتون . وقدم علمـــاء الرياضيات نوعاً آخر من البراهين باستخدام تحليل الكمية الصغرى . انطلقوا من المبدأ المشروح ، فاهتدوا بالأستنتاج الى كل نتائجـــه ، وكل المراقبات الجراة ، واظهروا تسلسل الوقائع وتنبأوا تنبؤات تحققت .

باستطاعتنا شرح طرائقهم على الوجه التالي : لنفترض جرماً قذفته في الفضاء قوة دفعها متساو ودائم ؛ سرعته معروفة واتجاهه محدد ؛ ما هي الطريق التي سيسلكها ، وما هو الخط المنحني الذي سيرسمه اذا كان ، كما يقول نيوتون ، مجتذباً حقاً وباستمرار الى مركز جرم آخر موجود على مسافة معينة بقوة متناسبة عكساً لمربع المسافات ؟ هذه هي مسألة الجسمين . في وقت قصير جداً ، تميل « قوة الدفع » الى جعله يرسم خطاً مستقيماً صغيراً ؛ وتميل قوة الجاذبية الى جعله يرسم خطاً مستقيماً صغيراً آخر في اتجاه مختلف . يؤلف هذان الخطان الصغيران زاوية ويشكلان ضلعين من مسطح متوازي الاضلاع : ان الجرم يتتبع خط زاويتها في خضوعه للقوتين معاً ، وخط الزاوية هذا هو طريقه في هذا الوقت ، وجزء من المنحني الذي سيرسمه . وباستطاعتنا ان نرى كذلك طريقه في الهنيهة التالية ، وهكذا دواليك . خط الزاوية تفاضلي ، وبمقدورنا الارتقاء بواسطة حساب التكامل الى كميتها الكاملة المحدودة التي هي معادلة المنحني . ولا يمكن ان يكون هذا الاخير سوى قطع اهليلجي او دائرة او قطع زائد او قطع مكافىء .

اما مسألة الاجسام الثلاثة فأكثر تعقداً . لنفترض ثلاثة أجسام معينة بمواقعها واحجامها وسرعاتها ؛ ما هي الخطوط المنحنية التي سترسمها بجاذبيتها المتناسبة طرداً للاحجام وعكساً لمربعات المسافات ؟ يقدم لنا نموذج هذه المسائل القمر الذي تجتذبه الارض وتحيده الشمس ، والذي يغادر في كل هنيهة القطع الاهليلجي الذي يرسمه . اقتضى اجراء سلسلة من المقاربات : حساب قطع القمر الاهليلجي كما لو كانت الشمس دون اي تأثير ، ثم حساب تأثير الشمس بحسب مكانها في كل هنيهة ؛ وهكذا توصل العلماء بحسابات طويلة وشاقة الى تحديد موقع القمر في كل هنيهة في الفلك .

ان كل ما اجري قد أيد نظرية نيوتون تأييداً كاملا . اتفق الحساب والمراقبة ؛ اجري الحساب وحده فوضع الاجرام حيث وجدتها المراقبة بحسب الاوقات ، وعين المكان الذي وجدتها فيه المراقبة ؛ ودلّ على كافة الحركات ، حتى اصغرها ، واظهر كيف انها تنجم عن موقع الاجسام في الهنيهة السابقة ؛ وفسر بالنتيجة كل شيء . وهكذا فان اولر وماك لورين ودانيال برنوليّ قد فسروا بمبدأ الجاذبية حركة مد البحر وجزره ، وهو الموضوع الذي اقترحته اكاديمية العلوم في باريس ؛ وقد اخذوا بعين الاعتبار سير القمر والشمس ، والارض التي تدور حول نفسها ، وهذا ما يبعد الذرات المائية ، كما اخذوا بعين الاعتبار التأثير الذي يرفعها واحتكاك الماء بالقعر والشواطىء ، ففُسر كل شيء .

نظرية السيارات والاقمار
ثبات النظام الشمسي

احرز كليرو ، في السنة ١٧٥٢ ، جائزة اكاديمية سان بطرس برج ببيان حول « نظرية القمر » ، المسألة التي اهملها نيوتون والتي وجد هو لها حلاً يكاد يكون كاملاً . وفي السنة ١٧٦٤ فسر لاغرانج السبب الذي من اجله يدير القمر ابدا الوجه نفسه نحو الارض ، ثم طلع بنظرية

اقمار المشتري فحل مسألة الاجسام الستة . وفي السنة ١٧٤٨ والسنة ١٧٥٢ احرز اول جائزة اكاديمية العلوم في باريس باثباته اعمال له مونييه حسابيا وبتقديمه الدليل على ان التباين في حركة زحل والمشتري مرده جاذبيتهما المتبادلة ؛ وبرهن حقيقة ظنّ طلع به جاك كاسيني يُرد بموجبه التباين الى مكان المدارات الخاص ، وتكون الظواهر متناقضة في سنوات عدة ، وهكذا فانه سار في طريق اثبات دوام النظام الشمسي، ولكنه ترك هذا الجد للابلاس . لقد ارتاب نيوتون واولر نفسه ، ان تستطيع قوى النظام الشمسي الكثيرة عدا والمتغيرة اوضاعاً والمختلفة قـــوة المحافظة باستمرار على اتزان ثابت . وقد ظن نيوتون بأن يداً قوية انما تتدخل بين وقت وآخر لاعادة الاجسام الحائدة بفعل تأثيرها المتبادل الى مواقعها الخاصة . وكان ذلك في نظره اثباتاً لضرورة وجود الله . ولكن المراقبة اظهرت ان معدل سرعة كل من القمر والمشتري يزداد وان معدل سرعة زحل يتدنى . وبدا وكأن زحل سيخرج من النظام الشمسي والمشتري سيهبط على الشمس والقمر على الارض . فبرهن لابلاس في السنة ١٧٧٣ ان حركات السيارات ومعـــدل المسافات بينها ثابتة او عرضة لتغيرات دورية صغرى فقط . ثم برهن ، بـــين السنة ١٧٨٤ والسنة ١٧٨٧ ، ان التغيرات انما هي اختلالات دورية تخضع لناموس الجاذبية . فكان النظام الشمسي من ثم ثابتاً وخاضعاً بكليته لمبدأ الجاذبية الشاملة . ولا فائدة من ثم من وجود الله : فلم يعد لابلاس بحاجة الى هذا الافتراض .

المذنبات

بيد ان اوضح إثبات المبدأ ولقيمة الحساب ، قدمــه كليرو في السنة ١٧٥٩ في موضوع مذنب « هالي » الكبير الحجم . فعلى الرغم من اعمال هالي ونيوتون، ما زال الشك مخيماً حول ما اذا كانت المذنبات تظهر حقاً بعد فترات متساوية ، ومــا اذا كانت حركتها دورية حول الشمس ، وما اذا كانت هذه الحركة ثابتة ومنتظمة ثبوت وانتظام حركة السيارات . ظهرت بعض المذنبات في السنة ١٧٢٩ ، والسنة ١٧٤٢ ، والسنة ١٧٤٤ ، والسنة ١٧٤٧ ، والسنة ١٧٤٨ . بالاستناد الى سرعتها واتجاهها ، حين كانت ماثلة للعيان ، توصل علماء الرياضيات الى حساب مداراتها ووجدوا انها قطع مكافىء . فاذا كانت المذنبات تعود ثانية ، فمعنى ذلك ان هذا القطع المكافىء هو جزء من قطع اهليلجي كبير جداً. ولكن هالي كان قد انبأ بعودة مذنب السنة ١٦٨٢ بعد مرور ست وسبعين سنة . وكان قد عاد من قبل بعد فترات ٧٦ سنة و ٦٢ يوماً و ٧٦ سنة و ٤٢ يوماً . بالاستناد الى المراقبات التي تناولت هذا المذنب في السنة ١٥٣١ والسنة ١٦٠٧ والسنة ١٦٨٢ ، حسب كليرو عودتــه آخذاً بعين الاعتبار تأثير المشتري وزحل على سيره وانبأ بانه سيبلغ هـــذه المرة اقرب مسافة الى الشمس بعد مرور ٧٦ سنة و ٢١١ يوماً اي في ١٣ نيسان من السنة ١٧٥٩ . الا انه اضاف انه قد يكون اخطأ بشهر . وفي الواقع كان المذنب منظوراً منــذ اواخر كانون الاول من السنة ١٧٥٨ ، وقد شوهد في باريس منـــذ ٢١ كانون الثاني من السنة ١٧٥٩ .

وبلغ اقرب مسافة الى الشمس في ١٣ آذار من السنة ١٧٥٩ . فأثارت دقة الحساب اعجاب العالم وثقته . وراقب المذنب كافة علماء الفلـــك وحسبوا عناصره ووجدوها متشابهة كل التشابه بعناصره في ظهوراته السابقة . فكان ذلك برهاناً على ان المذنبـات ، على غـرار السيارات ، ترسم قطعاً اهليلجيا تحتل الشمس احد محترقيه ، وذلك وفاقاً لنواميس كبلر . كما كان برهانا على ان المذنبات ايضاً تخضع لمبدأ الجاذبية الشاملة . وقد احـرز كليرو جائزة سان بطرسبورغ الامبراطورية في السنة ١٧٦٢ بعرضه نظرية المذنبات .

الا ان المذنبات ما فتئت تثير مخاوف الرأي العام . ففي السنة ١٧٧٣ تكلم «لالاند» في اكاديمية العلوم عن امكان حدوث مدّ عظيم بسبب مرور مذنب على مقربة من الارض قد يكون من شأنه غمر اليابسة . انتشر افـتراض لالاند في باريس ، ومـا لبث ان تشوّه بانتقاله من شخص الى آخر فامسى نبوءة بوقوع الارض في المذنب: لا بل حُدد يوم هذا الوقوع بالذات . غير ان « دي‌سيجور » قد بين ان احتمال هذا الوقوع ضئيل جداً اذ ان المذنب الذي بلغ اقرب نقطة الى الارض قد بقي على مسافة ٧٥٠٠٠٠ فرسخ ؛ وان المد مستحيل حدوثه اذ ان المذنب الذي يقترب حتى مسافة ١٣٠٠٠ فرسخ من الارض لن يبقى على مقربة كافية من الارض تمكنه التـأثير في البحار سوى ساعتين ونصف الساعة بينما يقتضي للمذنب عشر ساعات و ٥٢ دقيقة حتى يحدث المد وتغمر المياه الارض . كان البرهان قاطعاً : لا تنطوي المذنبات على اي خطر .

وهكذا فقد قـدم الحساب ، او « الهندسة » كما درج القول حينذاك ، اثباتات ساطعة لآراء نيوتون . اجل لقد كان بالامـكان الاستغناء عن التحليل : فلو اجريت الوف المراقبات لانتهت كلها الى تقديم الدليل على ان نواميس نيوتون تتحقق ابداً . ولكن علم الفلـك كان في طريقه لان يمسي علماً استنتاجياً ؛ لقد بلـغ كماله ، وفي اواخر القرن ، استطاع الفلكي بايّي كتـابة مـا يلي : « ان هذين العلمين [الهندسة وعلم الفلك] يتماسان اليوم تماساً يجعلهما يبدوان وكأنهما مختلطين » .

وسائل جديدة للمراقبة

بينما كان المختبرون و « المهندسون » يستثبتون الافتراضـات ، واصل المراقبون عمل الوصف وتوسع الكون توسعاً مدهشاً . وقد سهلت المراقبات سلسلة من النجاحات التقنية التي ولدتها حاجات المراقبين . حدد بوغر ولاكاي انحراف الهواء في حالات الارتفاع والضغط والحرارة المختلفة ، فبات ممكناً والحـالة هذه ان يؤخذ بعين الاعتبار حياد الاشعة الضوئية ، الصادرة عن الكواكب ، اثناء مرورها عبر الجو ، الذي يرينا الكواكب في مواقـع غير مواقعها الحقيقية . وفي السنة ١٧٤٩ ، أضاف « كلود باسّمان » الى المناظير حركة اشبه بحركة الساعات اتاحت منذئذ تتبع الكواكب بدقـة في انتقالها. ولكن اهم التحسينات هي تلك التي ادخلت على المناظير والمَراقب نفسها. ففي المناظير حيث تجتاز الاشعة الضوئية العدسات الزجاجية لتصل الى عين المراقب ، يعطي الزجاج نتـائج

الموشور ، وتتلون الصور وتصبح غير واضحة ، ولذلك اخترع غريغوري ونيوتون المرقب حيث تعكس مرآة كروية الاشعة الضوئية . وفي السنة ١٧٤٧ خطر لأولر ان يصنع مكبرات المراقب من عدستين زجاجيتين يوضع بعض الماء بينهما : فكان على الاشعة الضوئية والحالة هذه ان تمر في مواد مختلفة الخاصيات في كسر الاشعة تحلل الاشعة وتفصل بين الألوان تحليلا وفصلاً مختلفين ؛ وقد استطاع العلماء ان يظهروا المضادة بين هـــذه النتائج وينقضوا نتيجة باخرى ويعيدوا الى الشعاع الملون هذا المزيج المضبوط الذي يكون بياض النور. ولكن استخدام الماء لم يكن سهلاً. في السنة ١٧٥٨ توفق عـــالم البصريات الانكليزي « دولوند » الى ان يكتشف ، بعد تردد ، زجاجات مختلفة الخاصيات في كسر الاشعة ايضاً ، واستطـــاع ان يصنع مناظير تنفذ النور الابيض دون تحليله وتبلغ خمس اقدام طولاً وتعطي النتيجة نفسها التي تعطيهـا المناظير العادية البالغة اثنتي عشرة قدماً طولاً . وصنع ابنه مناظير تبلغ ثلاث اقدام طولاً وتعطي نتيجة منظار مصنوع بحسب المبادىء القديمة يبلغ ١٥ قدماً. فضلت المنـاظير المراقب فترة من الزمن. ولكنها استلزمت زجاجاً يدخل الرصاص في تركيبه ولم يرافق النجاح الكامل صنعه الا اتفاقـاً . لذلك عاد الانكليزي « وليم هرشل » وروّج المراقب . كانت هذه الاخيرة تعطي صوراً غير واضحة بسبب التفاوت في الانحناء ؛ وهذا ما يعرف بزيغان الكروية . حـــاول هرشل اعطاء المرايا العاكسة اشكال قطع مكافىء وقطع زائد ؛ فأقصى بذلـــك زيغان الكروية . في السنة ١٧٨٩ كان لديه مرقب يبلغ ١٢ مترا طولاً و ١,٤٧ قطراً حقق بواسطته اكتشافات روجت المراقب مرة أخرى .

الاكتشافات

ساعدت تحسينات الأجهزة على مواصـــلة استكشاف الفلك . ففي السنة ١٧٥١ ، حدد لاكاي، في رأس الرجاء الصالح ، مواقع كافة النجوم المنظورة بين القطب الجنوبي وخط الجدي ووضع جدولاً بعشرة آلاف نجم . وفي السنة ١٧٨١ اكتشف هرشل السيارة اورانوس ؛ كما اكتشف في السنة ١٧٨٩ قمري زحل السادس والسابع ؛ ولاحظ أن نجوماً ضعيفة الضوء كثيرة تحتوي على نواة لامعة وان بعضها يؤلف مجموعات تضم عدداً كبيراً جداً من النجوم .

اخذت تبرز امكانية وجود عوالم اخرى مأهولة . واعتقد مرصدا لندن وباريس باكتشاف جو يحيط بالقمر . فان كسوف الشمس في اول نيسان من السنة ١٧٦٤ قد بـــدا وكأنه يظهر انحرافا في الأشعة الشمسية لا يمكن ان يرد الا الى جـو ّ ، لان الشعاع يأتي من الشمس بسرعة فائقة تجعله ينجو من « جاذبية » (كذا) القمر . وكان الحياد ضعيفاً : اذن الجو ليس كثيفاً . وحملت مراقبات أخرى على الاعتقاد بوجود جوّ حول المريخ والزهرة وعطارد .

ارتدت السيارات والنجوم ارتداداً مدوماً الىالوراء في كون كان يتسع اتساعاً مطرداً.فيالسنة ١٧٥١ حدد لاكاي بعد القمر بـ ٨٥٤٦٤ فرسخاً . وأتاحت مراقبات دولية مشتركة أجريت في

السنة ١٧٦١ والسنة ١٧٦٩ لتحديد بعد الشمس عن الارض بـ ٣٥ مليون فرسخ تقريباً ولتحديد أبعادها بـ ١٤٠٠٠٠٠ ضعف أبعاد الارض . ولاحظ « برادلي » ان الزاوية المتكونة من الخط المستقيم الذي يصل عين المراقب بأحد النجوم والخط المستقيم الذي يصل مركز الارض بهـذا النجم لا تعادل ثانيـة واحدة من القوس . ولا يلزم للقمر ثانية واحدة لكسف النجوم التي يصادفها . لذلك فان قطر هذه النجوم لا يحتل مسافة نصف ثانية في الفلك . وهذا يفرض ان النجوم أبعـد من الشمس في الفلك بـ ٢٠٦٠٠٠ مرة ؛ ولكن اذا ما ابعدت الشمس الى مسافة توازي ٢٠٦٠٠٠ ضعف مسافتها لغدا اتساعها ٢٠٦٠٠٠ مرة اقل مما يبدو ولغدا قطرها مساوياً لـ ١/١٠٧ من الثانية . اذن النجوم أكبر من الشمس وتحتل مكاناً بعيداً خارج النظام الشمسي.

تاليف لابلاس

وهكذا ، على الرغم مـمـا تبقى من جهالات واخطاء ، توفرت الظروف الضرورية لكي يستطيع الانسان محاولة تصور نظام الكون ، وهذا مـا حاوله لابلاس في كتابه « عرض نظام العالم » الذي تعود طبعته الاولى الى السنة ١٧٩٦ ، والذي هو كتاب حجة جمع وأوجز ورتب ونسق ، بتدقيق كلي ، كافـة المعارف المحققة وتخطاها باندفاع مخيلة إله خالق ، وقصيدة تثير الاعجاب وتشترك في تمل كبار الأنبياء المقدس ، وان اوغست كونت مدين له بالكثير مـمـا كتب : فان قسماً كبيراً من « الفلسفة الموضوعية » موجود في لابلاس .

يبحث على التوالي ، في خمسة كتب ، في الحركات الظاهرة للاجـرام السماوية ، والحركات الحقيقية للاجرام السماوية ، ونواميس الحركة ، ونظرية الجاذبية الشاملة ، وتاريخ عـلم الفلك . فهدفه فلسفي ويتخطى مجرد بيـان المعارف . يرغب في اظهار سير علم الفلك ، « ... الطريق التي سلكها هذا العلم في نجاحاته والتي يجب ان تسلكها العلوم الطبيعية الاخرى على غراره... » ؛ وصف الظواهر اولاً ، ثم استعادة ما يحدث في الواقع ، ثم اكتشاف العلائق الشاملة واللازمة بين الظواهر ، اي النواميس ، واخيراً ادراك المبدأ العام الذي يستطيع العقل أن يرد اليه كافة النواميس ويجعل منه نقطة انطلاق للبناء ثانية بواسطة الاستدلال .

وهو يشدّد الكلام على ركانة النتائج :

« لقد اصبح علم الفلك والحالة هذه حلا لمسألة كبرى في علم الآليـات ... ان لديه اليقين الذي يستند الى عدد وتنوع الظواهر المشروحة بكل تدقيق ، والى بساطة المبـدأ الذي يكفي وحده لهذه الشروح . فلا خوف من أن يناقض كوكب جديد هـذا المبدأ ، بل يمكن بعكس ذلك الجزم سلفاً بأن حركته ستكون مطابقة له » .

ويبين واقع الحال :

« هذا هو ، بدون ريب ، تكوين النظام الشمسي . ان كرة الشمس الضخمـة ، المركز الرئيسي لحركات هذا النظام المختلفة ، تدور حول نفسها في خمسة وعشرين يوماً ونصف اليوم ؛

مساحتها مغطاة بخضم من مادة مضيئة ؛ وفي ما وراءها تتحرك السيارات وأقمارها في مدارات تكاد تكون مستديرة وعلى مستويات قليلة الانحدار بالنسبة لخط الاستواء الشمسي . وهنالك مذنبات لا يحصى لها عد تقترب من الشمس ثم تبتعد عنها الى مسافات تقدم الدليل على أن سلطانها يمتد الى أبعد من الحدود المعروفة لنظام السيارات . لا يؤثر هذا الكوكب بجاذبيته في كافة هذه الاجرام بارغامها على الدوران حوله فحسب ، بل يوزع عليها نوره وحرارته . تأثيره الخيّر يساعد على ولادة الحيوانات ونمو النباتات التي تغطي وجه الارض ، وتحملنا المماثلة على الاعتقاد بأنه يعطي نتائج مشابهة في السيارات ، فطبيعي لعمري أن نفكر بأن المادة ، التي نرى إخصابها يتكاثر تكاثراً كبيراً متنوعاً ، ليست عقيمة في سيارة بضخامة المشتري لها ، على غرار الارض ، لياليها ونهاراتها وسنواتها ، وتحدث فيهـا ، كما تشير الى ذلك المراقبات ، تغييرات تفرض قوى ناشطة جداً . ان الانسان ، وهو من توافق تكوينه الحرارة التي ينعم بها على الارض ، قد لا يستطيع ، في الارجح ، العيش على السيارات الأخرى ؛ ولكن اليس مفروضاً أن يكون هنالك تعضيات كثيرة جداً توافق تكوينها الحرارات المختلفة في أجرام هذا الكون ؟ اذا كان اختلاف العناصر والاقاليم يكفي وحده لاحداث مثل هذا التنوع في المحاصيل الارضية ، فكم بالاحرى يفرض ان تختلف محاصيل السيارات الكثيرة وأقمارها ؟ ان المخيلة لأعجز من أن تكون أية فكرة عنها ، ولكن وجودها ، في أقل تقدير ، قريب الى المعقول ... »

ثم يبين رحابة الكون ووحدة تركيبه ويرتفع الى فكرة التطور . في مـا وراء الشمس، توجد شموس لا يحصى لها عد هي النجوم ؛ يخضع بعضها ، في لونها ونورها ، لتغييرات دورية تشير ، على سطحها ، كما على سطح الشمس ، الى بقع كبرى تظهرها وتخفيها حركات الدوران. وهنالك نجوم اخرى ظهرت واختفت ، بعد ان لمعت لمعاناً ساطعاً اتاح رؤيتها في وضح النهار . بعد ان كان لونها ابيض ناصعاً ، في البدء ، على غرار المشتري ، غدا اصفر ضارباً الى الحمرة ، ثم ابيض رصاصياً ، على غرار زحل ، ثم اختفت عن الانظار ، ولكنها لا تزال موجودة .

تؤلف هذه النجوم فئات عدة . تبدو شمسنا واكثر النجوم لمعاناً مجتمعة في احدى هـذه الفئات التي تظهر وكأنها تحيط بالفلك وتكون المجرة. ولكن المجرّة قد تظهر لمراقب يبتعد عنها الى ما لا نهاية له وكأنها نور ابيض متصل ذو قطر صغير ، اذ ان انتشار الاشعة الذي لا يضمحل في احسن المراقب ، سيملأ المسافات التي تفصل بين النجوم . فمن المحتمل جداً والحالة هذه ان يكون بعض النجوم الضعيفة الضوء مجموعات تضمّ عدداً كبيراً جداً من النجوم قد تبدو ، اذا ما نظر اليها من داخلها ، شبيهة بالمجرّة .

«فاذا ما فكرنا الآن بهذا العدد الضخم من النجوم والنجوم الضعيفة الضوء المنتشرة في الفضاء السماوي ، وبالمسافات الشاسعة التي تفصل بينها ، فان المخيلة التي ستدهشها عظمة الكون ، ستجد صعوبة في ان تتصور له حدوداً » .

تبدو النجوم الضعيفة الضوء وكأنها تتكاثف . راقب هرشل الشهير التكاثف في نجـوم

ضعيفة الضوء كثيرة «كما يراقب المرء ، في حرج واسع الاطراف ، نمو الاشجار في كل نوع من الانواع يشتمل عليها » . بعضها مجرد مادة غائمة ضعيفة الضوء ، وبعضها على شيء من التكاثف حول نواة باهتة اللمعان ؛ وبعضها الآخر ذو نواة اكثر لماناً ؛ وهنالك نجوم ضعيفة الضـوء كثيرة الاجزاء مؤلفة من نويات لامعة متقاربة جداً ، يحيط بكل منها جو من مـادة غائمة ضعيفة الضوء ؛ وهنالك اخيراً مجموعات النجوم . وهكذا ينتهي المرء ، بواسطة تزايد تكاثف المادة الغائمة الى الشمس التي كان يحيط بها من قبل جو مترامي الاطراف ، « وهذا اعتبار توصلت اليه بدرس ظواهر النظام الشمسي ... ان التوصل الى مثل هذه النتيجة التي تلفت الانتباه ، بسلوك طرق مختلفة ، يجعل من مرور الشمس في هذه الحالة امراً محتملاً جداً » .

وفي احد بياناته ، عرض لابلاس « بالتحفظ الذي يجب ان يوحيه كل ما ليس نتيجة المراقبة والحساب » افتراضه الشهير حول اصل وتطور النظام الشمسي الناشيء عن نجـم غائم ضعيف الضوء قديم العهد تكاثف شيئاً فشيئاً . يغلب على الظن ان المادة الغائمة الضعيفة الضوء تكاثفت في مركزها بحيث كوّنت نواة . كلما تزايد التكاثف تزايدت سرعة الدوران . ويغلب على الظن كذلك ان التفاوت بين التكاثف والسرعة قد عزل عن النواة المركزية عـدّة حلقات مشتركة المركز ، وان التكاثف قد تزايد تزايداً متفاوتاً في كل من هـذه الحلقـات ، التي تقسمت في الارجح اجراماً هي السيارات . فجـاءت هـذه النظرية تحـل ، محـل الرأي القائـل بحالة الكواكب المستقرة الدائمة ، الرأي القائل بحدوث تغير في الزمان ، وتحـول كائن الى آخـر ، وتدخل نوعاً من النشوء والارتقاء الى علم الفلك .

وينتهي لابلاس بهذا النشيد :

« ان علم الفلك ، بعظمة موضوعه وكمال نظرياته ، اجمل بدائـع العقـل البشري وأشرف عناوين إدراكه . تضلـّل الانسان زمناً طويـــلا بأوهام الحواس والأنانية فنظر الى نفسه كما الى مركز حركة الكواكب ، وقد نال عقاب صلفه الباطل بالمخاوف التي اوحتها اليه . واخيراً انتهت اعمال قرون طويلة الى اسقاط الستار الذي كان يحجب نظام العالم عن عينيه . فاكتشف حينذاك انه على سيارة صغيرة جداً في النظام الشمسي الذي ليست رحابته الواسعة الارجاء سوى نقطة لا تذكر في اتساع الفضاء غير المحدود . الا ان النتائج السامية الـتي حمله اليها هذا الاكتشاف من شأنها ان تعزيه عن المرتبة التي يعينها للارض باظـــهاره عظمته الشخصية في صغر القاعدة التي استخدمها لقياس السماوات . فلنحفظ بعناية ولننم وديعة هذه المعارف السامية التي هي نعيـم الكائنات المفكرة . لقد أدت خدمات هامة للملاحة والجغرافية ؛ ولكن خدمتها الجلـّى انها بددت المخاوف الناجمة عن الظواهر السماوية وقضت على الاخطاء الناجمة عن جهلنا حقيقة علائقنا بالطبيعة ، وهي اخطاء ومخاوف قد تتجدد بسرعة اذا ما انطفأ مشعل العلوم » .

الفصل الرابع

علــم الطبيعــة

كانت نجاحات علم الطبيعة صاعقة في السنوات الثمانين الأولى من القرن السابع عشر . اما في القرن الثامن عشر فكانت النتائج أقل لمعاناً، ومع ذلك فقد تحققت اكتشافات جميـــلة في حقلي الحرارة والكهرباء . ولكن الوقت اضيع في النظريات حول طبيعة الظواهر .

حاول ديكارت معرفة طبيعة النور ، فتبنى طريقة التموج : افترض ان الاجسام المضيئـة تشرك في تموجات اجزائها الصغرى سائلا متمططاً غاية في الرقة منتشراً في الفضاء ؛ يأخذ هذا السائل بالارتجاج فينجم النور عن ارتجاجه كما ينجم الصوت عـــن ارتجاجات الهواء . فكان النور من ثم انطباعاً تحدثه في حواسنا احدى حركات المادة، أي حالة خاصة من حالات الحركة. أما نيوتون فقد اعتبر ، بعد تردد طويل ، ان الوقائع توحي بالتفضيل طريقة البث : النـــور مركب من ذرات مضيئة تقذف بها اجسام ترسل النور حتى اعيننا : فليس النـــور حالة من حالات الحركة بل جسماً خاصاً . فرضت هذه النظرية نفسهـــا على القرن الثامن عشر بأسره ، باستثناء اولر الذي استمر في تفسير اختلاف الالوان باختلاف ديمومة الارتجاجات . وقد حملت المعاصرين على النظر بالمماثلة الى الحرارة والكهرباء نظرهم الى اجسام ، لا الى حركات مختلفة لمادة منتشرة واحدة . فكان ذلك تقهقراً بالنسبة الى القرن السابع عشر .

المِحَرّ استطاع درس الحرارة احراز التقدم بفضل أداة قياس دقيقة ثابتة حساسة لم تتوفر من قبل : هي المحر الذي جاء نتيجة جهود بذلها علماء ينتمون الى بلدان مختلفة أدخلوا عليه تحسينات متوالية .

اهتدى الى مبدأ المحر « فاهرنهيت » الدانتزيغي ، صانع الادوات المختصة بالحوادث الجوية. في السنة ١٧٢٤، اكتشف أن لكل سائل نقطة بخار ثابتة تتغير بتأثير الضغط الجوي. فاستطاع من ثم ان يستخدم للقياسات سائلاً تبلغ نقطة بخاره حرارة أعلى من حرارة المـــاء : وان يتخذ كحرارة أصلية حرارة بخار الماء الغالي تحت ضغط جوي طبيعي عند مستوى البحر ، أي ٧٦ سم من الزئبق . بقي عليه تعيين الجسم الذي يعطي ابـــدا الحرارة الدنيا نفسها والتثبت من أن الجسم المختار يتمدد أو يتقلص ، بـــين النقطتين المقابلتين للحرارتين القصويين ، تمدداً وتقلصاً

مستمرين ومتناسبين تقريباً لتبدلات الحرارة . وبعد تردد اعتمد الزئبق أو الكحول سائلاً ، وعين الصفر بحرارة مزيج من النشادر والجليد والمـــاء ، والدرجة ٢١٢ في بخار الماء الغالي . ولكن المزيج وتعيين الدرجات كانا صعبي التحقيق ، كما ان استخدام الدرجات لم يكن بالأمر السهل .

اما عالم الطبيعة الفرنسي ريومور فقـــد استخدم لتعيين الصفر ، في السنة ١٧٣٠ ، الجليد الذائب ، واعتمد سائلاً كحولاً ممزوجاً بثلث مقداره ماء يتمطط تمططاً أكثر ويعطي دلالات أوضح ، وقسم الدرجات الى ثمانين لأن السائل الذي اعتمده يتمطط من ١٠٠٠ الى ١٠٨٠ بين حرارة الجليد الذائب وحرارة بخار الماء الغالي ، وهي درجات أسهل تعييناً على أنبوب. ولكن صنع المحر ما زال معقداً . ولم يتوصل ريومور قط الى صنع أدوات متشابهة الدلالات .

وارتأى « دي كرست » الجنيفي ، في السنة ١٧٤٠ ، اعتماد الدرجات المئوية ، ولكنه اخطأ بتعيين الصفر بحرارة اقبية مرصد باريس ، اذ ان ذلك جعل صنع المحر مستحيلاً في غـير مكان او ارغم على اجراء حسابات للمقارنة بين الملاحظات .

وفي السنة ١٧٤٢ ، جمع سلسيوس استاذ علم الفلك في اوبسالا من اعمال اسوج بـين اكثر الطرائق سهولة ، اي الجليد الذائب والتقسيم الى ١٠٠ درجة . ولكنه عين الصفر بحرارة بخار الماء الغالي والدرجة ١٠٠ بحرارة الجليد الذائب . فكان ذلك مزعجاً للقراءة. في السنة ١٧٥٠، عكس زميله « سترومر » سلم الدرجات واعطى المحر شكله الحالي .

ان محر سلسيوس هذا ، الذي نعرفه باسم المحر المئوي ، اسهل استعمالاً من غيره . ولذلك لم يلبث ان اعتمد في فرنسا . ولكن ما زال هناك ١٩ سلم درجـات في السنة ١٧٨٠ ؛ سلم فاهرنهيت في هولندا وانكلترا واميركا بوجه خاص ؛ وسلم ريومور في المانيا ؛ وكان مقدراً لها ان تعرف ديمومة طويلة .

قياس كمية الحرارة

بفضل المحر استطاع الاسكتلندي « جوزف بلاك » الكيميائي والطبيب ، والاستاذ في غلاسكو وادنبرا استثبات الافكـار التي اوحت اليه بهـا مراقباته والتوصل الى قياس كمية الحرارة . منذ السنة ١٧٥٦ ، اطال التأمل ببطء ذوبان الجليد واستمرار بقاء كميات من الثلج المتحول جليداً على الجبال في قلب الصيف ، والوقت المديد الضروري للماء الغالي كي يتبدد بخاراً . فكر بان كمية كبرى من الحرارة انما تستهلك في الارجح لإحداث تحول الجليد الى ماء والماء الى بخار دون ان يطرأ اي تبـــدل على حرارة الاجسام . فافترض من ثم ان كمية كبرى من سائل رقيق ، يدعى الحرارة ، تمتزج بجزئيـات المادة ؛ تضمحل دون ان تزول من الوجود ؛ يفرض ان تصبح كامنة ؛ هذه هي الحرارة الكامنة.

اراد حينذاك استثبات هذه الفكرة وايضاحها بالارقام . بحث عن كمية الحرارة اللازمـة

لتحويل الماء الى بخار ، اي عن الحرارة الكامنة في عملية التحويل الى بخار . فوجد اولاً انه يقتضي كمية ثابتة من الحرارة لرفع حرارة كمية معينة من الماء درجة واحدة : هذه هي قابلية الماء للحرارة ، او حرارته النوعية . وهكذا توفرت لديه وحدة لقياس الحرارة ، واستطاع اذ ذاك تحديد كمية الحرارة التي يتخلى عنها البخار للعودة الى حالة سائل ذي حرارة مماثلة ، ومن ثم تحديد كمية الحرارة الضرورية لتحويل ماء حرارته ١٠٠ درجة مئوية الى بخار . واكتشف كذلك كمية الحرارة الضرورية لتحويل الجليد الذائب الى ماء تكون درجة حرارته صفراً في سلم الدرجات المئوية فوجد لحرارة التحويل الى بخار وحرارة الذوبان ارقاماً لا تختلف اختلافاً كبيراً عن الارقام الحالية . وقد توصل اثناء اعماله الى تقديم الدليل على ان زيادات متساوية في الحرارة تحدث تغيرات متساوية في مستوى سائل محرّاته ، والى اثبات قيمة دلالاتها . ولاحظ ان الاجسام تختلف بقابليتها للحرارة ، وانه لا يقتضي كمية الحرارة نفسها لرفع كميات متساوية من هذه الاجسام الى درجة حرارة واحدة . عرض اكتشافاته في محاضراته منذ السنة ١٧٦١، وقد صنع اثنان من تلامذته الفرنسيين ، الكيميائي «لافوازييه» والمهندس «لابلاس» ، مسعراً جليديا ، وحدّدا ، حوالي السنة ١٧٨٣ ، الحرارة النوعية لعدد كبير من الاجسام .

وهكذا بات بمكنة الانسان قياس الحرارة وأثرها في انتقال الاجسام من حال الى حال : وبات الانسان بالفعل نفسه سيد ذوبان الاجسام وتكوين البخار . وكان مقدراً له ان يعرف ، عند الحاجة ، ما يقتضي له من محروقات ووقت للحصول على قوة معينة او تحويل معين. وأتاحت اعمال بلاك لجايمس وات ان يحسن الآلة البخارية ويجعل منها الأداة القوية والطيعة التي كان مقدراً لها ان تحدث ثورة في العالم .

إلا أن هذه النتائج لم تبدل الآراء في الحرارة . نظر الجميع الى هذه الاخيرة كما الى سائل رقيق، او مادة متمططة جداً تتنافر اجزاؤها وتتوزع هي على الاجسام بكمية متناسبة للجاذبية الاتفاقية التي تتبادلها هذه الاجسام وهذا السائل ، اي لقابلية الحرارة .

الكهرباء

كانت الكهرباء الفرع الذي أكب عليه بمزيد من النجاح ، او أقله الفرع الذي كان لنتائجه ، الجديدة كلها، اكبر تأثير في المخيلة. انحصرت الابحاث في الكهرباء الساكنة حتى السنة ١٧٩٠ حين بدأ درس التيار الكهربائي .

كانت المعارف الكهربائية محدودة جداً في اوائل القرن الثامن عشر. وما زال الناس يعتقدون بان قابلية نقل الكهرباء مرتبطة بلون الاشياء . إلا انهم كانوا قد عرفوا اظهار الكهرباء اما بواسطة انبوب زجاجي يحك ، أما بواسطة آلة قوامها كرة زجاجية تحرك بقبض وتحك باليد العارية . ثم تحسنت هذه الآلة شيئاً فشيئاً: فحلت الاسطوانة الزجاجية ثم القرص الزجاجي محل الكرة ؛ واستبدلت اليد بالوسادات ؛ وفي السنة ١٧٦٢ ، اعتمدت نهائياً الوسادة الجلدية

المغطاة بلغم القصدير . الا ان الاب نوليه، الذي تميز بيد كبيرة وجافة جـداً ، قد ثابر على الحك باليد العارية .

الاكتشافات الاولى

احرزت نجاحات سريعة في حقل لم يكتشف فيه شيء بعد . في السنة ١٧٢٩ ، اكتشف الانكليزي « غراي » ، بواسطة انبوب زجاجي بسيط ، ان قابلية نقل الكهرباء مرتبطة بالمواد التي تتركب منها الاجسام وقام بأول تصنيف للاجسام الحسنة النقل (المعادن) والسيئة النقل (الحرير) . وكان الاول في تقديم الدليل على ان جسم الانسان يتكهرب وينقل الكهرباء ، كما كان أول من اجتذب اجساماً خفيفة (عدة قصاصات من الورق) برأس وقدمي شخص مكهرب ومعزول ، فأتى بذلك اختباراً كان له وقعه العظيم وكان مقدراً له ان يعرف نجاحاً كبيراً جداً . وكان كذلك أول من اكتشف النقل الى مسافات بعيدة وجعل الكهرباء تجتاز ٧٦٥ قدماً .

واصل الفرنسي « دي فاي » اختباراته حتى السنة ١٧٣٩ . اثبت ان كافة الاجسام قابلة للتكهرب فنقض بذلك تصنيف جلبير للاجسام بتقسيمها الى كهربائية وغير كهربائية . اظهر أوجه التشابه بين الكهرباء والصاعقة : فحين كان هو نفسه متكهربا ، معلقاً بحبال حريرية تعزله عزلاً تاماً ، ويمر شخص آخر على مقربة منه ، بدا وكأن برقاً تخرج من جسمه وتسمع حسيساً جامداً . فكانت هذه البروق في الظلمة وكأنها شرارات نارية وكأن نوراً ينبعث من جسمه . ويروى ان الاب نوليه استصدر منه شرارات تبلغ سنتيمترات عدة . وكان رأي نوليه ان البرق والشرارة الكهربائية شيء واحد . واكتشف « دي فاي » الكهربة بالمماسة ووجد ان الاجسام الكهربائية تجتذب كافة الاجسام غير الكهربائية وتدفعها حال تكهرب هذه الاخيرة بها . واكتشف نوعين من الكهرباء : الكهرباء الزجاجية (الايجابية) والكهرباء الصمغية (السلبية) ، وجاذبيتهما لعكسها ودفعها لنظيرهما . فحاول ان يفسر هذه الظواهر ، ولكنه لم يجد ما يتخيله سوى سائلين .

قنينة لايدن

كان لهذه الاكتشافات وقع عظيم جداً . راح أناس كثيرون يكسبون معيشتهم باجراء الاختبارات في مكان تلو الآخر . وكان الجميع راغبين في أن يتكهربوا، ويجتذبوا الرياش برأسهم أو يشعلوا الكحول بالشرارة المندلعة من سن سيف يمسك به الانسان المكهرب . وأكثر أساتذة الجامعات من الاختبارات العلنية . وفي لايدن ، حاول الأستاذ موشنبروك ، في السنة ١٧٤٥ ، كهربة الماء في قنينة . فحدث أن أحد أصدقائه ، الذي كان ممسكاً بالقنينة باحدى يديه ، حاول باليد الاخرى سحب الشريط الواصل الماء بالناقل . تلقى ضربة قوية في ذراعيه وصدره . كتب موشنبروك بذلك على الفور الى ريومور . فرغب الناس كلهم في تلقي التفريغ الكهربائي . وزادت قنينة لايدن من سلطة المختبرين . وقد أمر الأب نوليه التفريغ الكهربائي بسرية تضم ١٨٠ رجلاً من الحرس الفرنسي ، ثم بـ ٣٠٠ راهب ألفوا

صفاً واحداً وجمعت بينهم قضبان حديدية . عند التفريغ كان الأشخاص الذين تمر بهم الكهرباء يقفزون في الهواء . بالقنينة قتلوا الطيور وأمرّوا الكهرباء بالأنهر والبحيرات ومغنطوا الإبر . ولوحظ سريان السائل سرياناً فواتياً .

الكهرباء الجوية ومانعة الصواعق

كانت الكهرباء حتى ذاك التاريخ موضوع فضول في الدرجة الأولى ، لكنها سيغدو بمكنة الانسان في وقت قريب أن يظهر وجودها الشامل ويفسر بها بعض أكثر الظواهر الطبيعية جلاء .

في السنة ١٧٤٧ ، ارسل الانكليزي « كولنسون » ، عضو جمعية لندن الملكية ، الى صديقه الاميركي « بنجامين فرانكلن » ، انبوباً زجاجياً وتعليمات لإجراء بعض الاختبارات . اكب فرانكلن عليها بشغف ولاحظ قدرة الاسنان على « اجتذاب وقذف النار الكهربائية » . وكان لا يزال يعتقد اذ ذاك ان الصاعقة مردها « نفث كبريتور الحديد القابل الالتهاب ، الذي هو كبريتور كربوني يشتعل تلقائياً » . ولكنه لاحظ في السنة ١٧٤٩ ان البرق والشرارة الكهربائية مضيئان كلاهما ولونهما واحد وينشران رائحة كبريتية واحدة ويرسمان خطوطاً معوجة متماثلة ويتميزان بالسرعة نفسها ، والصوت نفسه ، وقابلية المعادن لنقلها ، والقدرة نفسها على تذويب هذه المعادن وقتل الحيوانات واشعال المواد اللهوبة . وتساءل عما اذا لم يكن ممكناً اجتذاب البرق بالاسنان على غرار الكهرباء . واقترح ان توضع ، على مرتفع ، مرقبة مزودة بقضيب حديدي مقرن جداًيبلغ طوله ١٠ امتار،وان يوضع في المرقبة رجل معزول بقرص من الصمغ يجوز ان يكهرب اذا ما مر الغمام منخفضاً . واشار بانه قد يمكن ، بهذه الطريقة ، « استراق الكهرباء من الغمام » وحماية المساكن والكنائس والمراكب من الصاعقة. فعرض آراءه في رسالة الى كولنسون في شهر تموز من السنة ١٧٥٠ . اطلع كولنسون عليها جمعية لندن الملكية التي اكتفت بالاستهزاء والازدراء برؤى فرانكلن . فنشر كولنسون حينذاك رسائل صديقه في مجلّد ترجم الى كافة اللغات .

في فرنسا ، لفتت هذه المسائل الانتباه . فان « روماس » مستشار محكمة « نيراك »وعضو اكاديمية بوردو ، قد اشار ايضاً ، بعد الأب نولّيه ، في السنة ١٧٥٠ ، الى وجه التشابه بين الصاعقة والكهرباء . وكان الفرنسيون على علم باختبارات « جالابير » الذي اكتشف هو ايضاً ، في السنة ١٧٤٨ ، في جنيف ، طاقة الاسنان . وترجم « داليبار » احد اصدقاء بوفون، مؤلف فرانكلن ، فبادر بوفون الى رفع قضيب حديدي فوق قصره في مونبار وشجع داليبار على اعادة اختبار فرانكلن . اجري الاختبار في « مارلي » في اليوم العاشر من نوار من السنة ١٧٥٢ ، بنجاح تام ، برعاية ملك فرنسا ، واعيد ، بعد مرور اسبوع ، في باريس ، بواسطة قضيب يبلغ ٣٢ متراً طولاً .

الا ان فرانكلن لم يكن موقناً تماماً بان المختبرين قد « استرقوا » الكهرباء من الغمائم

العاصفة لأن القضبان لم تبلغها . فصمم على ان يرسل الى الغمائم « طيارة » وينقـل الكهرباء بواسطة الحبل . فعل ذلك في ايلول من السنة ١٧٥٢ وتمكن من « استراق » كهرباء احدى الغمائم ، وتلقي شرارة ، وشحن قنينة بالكهرباء ، وبلغ خبر اختباره باريس في شهر كانون الثاني من السنة ١٧٥٣ . قام روماس في « نيراك » بعمل مماثل في شهر حزيران وتمكن بذلك من اجهاض عاصفة هوجاء . ونصب فرانكلن قضيباً حديدياً فوق مسكنه . ثم حدث حادث اتاح تحسين الجهاز : اعتقد فرانكلن بضرورة عزل اسفل القضيب ؛ ولكـن « ريتشمن » ، الذي وجد في السنة ١٧٥٣ على مقربة من اسفل قضيب احكم عزله في سان بطرسبورغ قتل بالصاعقة التي ضربت منه الرأس ، حين لم تستطع التغوير . فلمس العلماء الحاجـة الى تسهيـل تغوير الكهرباء ، ومنذ السنة ١٧٥٤ انتشرت مانعة الصواعق .

وهكذا وجد الانسان التفسير الطبيعي لظاهرة اعتبرت وكأنها مظهر من مظاهر الغضب الإلهي : فان بوالو كان لا يزال يعتقد بان الله هو الذي يرعد ويجلجل . فكان الانسان في طريق النجاة من المخاوف وادراك الطبيعة واتقاء الاخطار .

الكهرباء العضوية والنابعة الكهربائية

تأيد وجود الكهرباء الشامل . في السنة ١٧٧٣ ، اثبـت « وولش » ، في لاروشيل ، ان الصدمات التي تحدثها بعض الاسماك كهربائية ؛ فقد وصل ظهر وبطن رعّاد بناقل كهرباء وحصل على تفريـــغ كهربائي . كما ان الايطالي « غالفاني » ، الطبيب واستاذ التشريح في بولونيا ، قد اجرى اختبارات في افخـاذ الضفادع واثبت ، بين السنة ١٧٨٠ والسنة ١٧٩١ ، وجود الكهرباء في عضلات الحيوانات ووضع الصيغة المشهورة : « ان جسم الحيوانات قنينة لايدن عضوية » وواصل اختباراتـــه مواطنه فولتا استاذ الطبيعيات في « كوما » ثم في بافيا ، فوجد ان الكهرباء تؤثر في اعصـاب البصر والذوق. تابع ابحاثه في هذه الطريق ، وفي ٢٠ آذار من السنة ١٨٠٠ ، وصف، في رسالة الى رئيس جمعية لندن الملكية ، نابعته التي هي « عضو كهربائي صنعي » : تنضيد طبقات من ثـلاث حلقات : حلقة نحاسية وحلقة زنكية متلاصقتان تغلفهما حلقة ورقية رطبة . في ٢ نوار من السنة ١٨٠٠ حلل الماء بفضل النابعة الكهربائية : فاكتشفت بذلك اداة جوهرية للبحث والتطبيق العملي .

اما « فرنسوا كولون » ، الذي كان مهندساً في باريس ، والذي اكتشف ، في السنة ١٧٨٤ ، ميزان القوى الصغيرة بواسطة شريط مفتل ، فقد أوضح ، بين السنة ١٧٨٥ والسنة ١٧٨٩ ، ان ناموس نيوتون الذي تكون الجاذبية بموجبه متناسبة طرداً للاحجام وعكساً لمربع المسافات صحيح في الجاذبية او الدفع الكهربائيين والمغناطيسيين . فاوحى من ثم بالفكرة القائلة بأن كافة الظواهر الطبيعية قد تفسر يوماً بمبدأ الجاذبية دون غيره .

وقام اللندني « كافنديش » بأبحاث كاملة في الكهرباء الساكنة منذ السنة ١٧٧٣ ، ولكـن مؤلفاته لم تنشر الا في السنة ١٨٧٩ .

طبيعة الكهرباء

بقيت الآراء في طبيعة الكهرباء متأثرة تأثراً بينا بمادة ديكارت الرقيقة وبذرّات نيوتون. فان « دي فاي »، في « مذكرته الرابعة حول الكهرباء » قد فسر بالكرتزيانية الدفع الذي يحدثه الانبوب الكهربائي في ورقة ذهبية بعد ان تكون الجاذبية الاولى قد جرت الورقة والصقتها بالانبوب : « تجدر الملاحظة ، استناداً الى المسافة التي تقف الورقة عندها بعيداً عن الانبوب ، ان بمقدورنا الحكم على مدى الزوبعة الكهربائية ، وان بمقدورنا كذلك ، اذا ما سيّرنا الورقة فوق اجزاء الانبوب المختلفة ، اما بادارتها حول محورها واما بجعلها في وضع عمودي ، ان نكوّن صورة لحدود الزوبعة ، او بالأحرى صورة لطبقة الزوبعة التي لها من القوة ما يكفي لمقاومة وزن الورقة ، لأننا اذا ما اخذنا قصاصات صغيرة جداً ، رأيناها تقف على مسافة ابعد جداً » . وفي السنة ١٧٣٧ ، توسع « دي فاي » في تفسيره الظاهرة بالزوابع الكرتزيانية . وفي السنة نفسها ، فرض « بريفا دي موليير » في المجلد الثالث من « دروسه في علم الطبيعة » ، رغبة منه في تفسير ملاحظاته ، ضرورة التسليم بتكون ما هو اشبه بالجو حول الجسم الكهربائي . ولما كان هذا الجو مضيئاً في الظلمة وقابلاً الاشتعال حين ندني الاصبع منه ، « لا يبقى مجال للشك بان اجزاء هذا الجو الصغرى ليست ذرات زيت حقيقية » . وليست هذه الذرات ، طالما هي في مسام الجسم الكهربائي ، سوى زوابع صغيرة جداً توازن ذرات اصغر منها هي ذرات الاثير ، الوسط المتمطط. بفعل الاحتكاك تخرج زوابع الزيت الصغيرة هذه وتكبر . وحين تلامس انتضاح الاصبع غير المنظور ، تختمر وتلتهب . وكان « بريفا » قد تبنى في السنة ١٧٢٩ زوابع المادة الرقيقة الصغرى ، ذات السرعة الكبرى في الابعاد عن المركز التي سدّ بها مالبرانش في السنة ١٧١٢ ، في الطبعة الرابعة من « البحث عن الحقيقة » ، مسدّ الاجزاء الصغرى التي قال بها ديكارت . وبفضلها استطاع « بريفا » الاهتداء في الزوابع السماوية الى ناموس كبلر الثالث وملاشاة احد اعتراضات نيوتون الاساسية على ديكارت . ولكنه بواسطة تأملاته في طبيعة الكهرباء اتاح بالاضافة الى ذلك لفونتنيل الخلوص الى جواز وجود الكهرباء في الزوابع السماوية وجواز تجاذب هذه الزوابع وتدافعها تجاذباً وتدافعاً مستمرين (١٧٣٧) . وهكذا تزول كافة الاعتراضات على الكرتزيانية . إلا أن اعمال الفلكيين افضت الى غلبة نيوتون . كما ان المفهوم النيوتوني للبث قد اوحى لفرانكلن بنظريته : الكهرباء « عنصر مشترك » موجود في كافة الاجسام ؛ اذا ما توفر منها لجسم فوق نصيبه الطبيعي ، فالكهرباء ايجابية ؛ واذا حدث عكس ذلك ، فالكهرباء سلبية . وقد سلم بهذه النظرية حتى « فاراداي » .

الفصل الخامس

الكيمياء

سارت الكيمياء في طريق صيرورتها علماً . انتقل الكيميائيون من وصف الظواهر الى اكتشاف الواقع بتنحية أجسام عديدة اعتبرت من قبل بسيطة ، ثم انتهت عبقرية لافوازييه ، الذي كمل طريقة العمل واكتشف نواميس الظواهر الرئيسية ، الى تكوين العلم .

العنصر اللهبي

لم تعد عناصر ارسطو الأولية ، النار ، الهواء ، التراب ، الماء ، كافية لتفسير الظواهر الكيميائية المكتشفة حديثاً . فكان من الألماني « ستاهل » ، أستاذ الطب في « هال » ، أن ابتدع لتفسيرها ، في السنة ١٦٩٧ ، نظرية السائل اللهبي التي نشرها في السنة ١٧١٧ .

ان شيئاً ما يخرج من الجسم المشتعل أثنـــاء احتراقه . وهو وجود هذا العنصر في الجسم ما يجعل هذا الجسم قابلا الاحتراق . ان هـــذا العنصر ، أو « فلوجستون » (لهيب) ، الذي لا يُشعر بوجوده في حـــالة التركيب الكيميائي ، لا يصبح حسياً الا حين ينبعث من الجسم . وحينذاك يؤلف قوام النار . الاحتراق هو انتقال النار المركبة مع الجسم (العنصر اللهبي) الى حالة النار الطليقة ، وقـــد تخيل ستاهل هذا العنصر ، ولعله تأثر في ذلك بديكارت ، كجامد مركب من اجزاء غاية في الصغر قليلة التلاحم فيما بينها ، أكثر قدرة من اية مـــادة أخرى على التحرك تحركاً سريعاً هو كنه كافة نتائج النار كما ساد الاعتقاد. فكل مادة مركبة من العنصر اللهبي من جهة ومن عنصر آخر يختلف باختلاف الاجسام من جهة ثانية . المعدن مركب من عنصر لهبي ومن « كلس» يختلف باختلاف طبيعة المعدن . حين يكلّس المعدن ، ينبعث العنصر اللهبي ويبقى « الكلس » .

قامت هنالك صعوبة : فقـــد لوحظ ان القصدير والرصاص يرتفع وزنها حين يكلّسان . فكيف التوفيق بين هذا الواقع وفقدان أحد عناصرهما. ولكن ستاهل استدل من ذلك على ان العنصر اللهبي أخف وزناً من الهواء وانه يميل طبعاً الى رفع الجسم المركب معه وافقاده بعض وزنه .

ادخلت النظرية تبسيطاً عظيماً على مفاهيم الكيميائيين . فهي قــد سهلت تفسير الظواهر المعروفة خير تفسير . وقد احرزت نجاحاً حقيقياً .

كان اذن أهم الكيميائيين « لهبيين » ، واذا مــا استثنينا لافوازييه ، فانهم جعلوا العلم يتقدم بواسطة التحليل النوعي في النصف الثاني من القرن ، بعد أن أتاح لهم إحكام الطريقة الاختبارية السير قدماً . كان دور الوقائع والاختبارات والافتراضات في العلم معروفاً حينذاك خير معرفة بفضل بيكون ونيوتون وبفضل أعمال علماء الفلك وعلماء الطبيعة . وفي السنة ١٧٣٦ ، استشهد «ديلاند» باحدى خطب الهولندي موشنبروك في بحثه حول «خير طريقة لاجراء الاختبارات» فاقترح قواعد تضاهي بشدتهــا القواعد الكلاسيكية التي اقترحها « ستوارت مل » بعد ذلك . ولكنها باتت شبه مبتذلة في السنة ١٧٥٠ .

ان الاسكتلندي جوزف بلاك قد مهد لأعمال شيل وبريستلي ولافوازييه بشق الطريق لنمط جديد في الكيمياء ، كيمياء الغازات أو « الكيمياء الغازية » وبافتتاح طريقة لافوازييه ، طريقة الوزن ، مرتكز الكيمياء العصرية . قبــل بلاك نظر الكيميائيون الى الجو كما الى خواء توجد فيه أجزاء صغرى مختلفة الأنواع لم يتوصل أحد الى التفريق بينها . بحث بلاك عن دواء أقــل قوة من ماء الكلس لمداواة النقرس والحصاة في الكلى او المثانة ، فدرس المغنيزية البيضاء ، عالج سلفات المغنيزيوم بكربونات البوطاس ، فحصل على ضالتـــه المنشودة ، كربونات المغنيزيوم . ولكنه فحص خصائص المركب الجديد ، فوجد أنـــه يفقد « هواء » بالفوران حين يعالج بالحوامض أو بالنار ، وهو « هواء » ليس سوى جـــزء من الهواء الجوي . اطلق عليه اسم « الهواء الثابت » الذي ليس سوى غاز الكربون (١٧٥٤ — ١٧٥٦) . ولكنه تحول بعد ذلك الى مسائل « الحرارة الكامنة » .

شيل

ان الصيدلي الاسوجي شيل ، الذي ولد في « سترالسوند » في السنة ١٧٤٢ ، وكان مجهولا في وطنه ، وأثار الاعجاب في كافة انحــاء اوروبا ، بفضل صديقه « برغمان » استاذ الكيمياء في اوبسالا ، بمذكراته التي ترجمت الى الالمانية والفرنسية ، وتوفي في السنة ١٧٨٦ عن عمر ٤٤ سنة ، قد كرس حياته للبحث في كل اوقـــات فراغه . امتاز بارابة ومثابرة نادرتين ، فكان سيد التحليل النوعي بواسطة المــاء . لم يضاهه احد في استكشاف جسم جديد في تفاعل كيميائي ، كما لم يضاهه أحد في عزل جسم جديد . اكتشف عــدداً كبيراً من الاجسام البسيطة : كلور ، اوكسيجين ، باريت ، منغانيز ؛ وجعل وجود عدة اجسام أخرى مرجحاً بدرسه مركباتها : فان اختباراته على فلورور الكلسيوم وحامض الفلور الصواني قــد أفضت الى التسليم بجسم أساسي خاص يعرف باسم الفلور ؛ وانبأ بوجود المولبيدين والتونغستين . واكتشف عدداً كبيراً من الحوامض العضوية والمعدنية ، حامض دردي" الخمر ، وحــامض الزرنيخ ، وحامض اللبن ، والحامض البروسي ، وحامض الليمون ، وحامض العفص ، وغيرها . .

ووصف عملية تحضير الغليسرين وخصائصه . وحدد كيفية تركيب الهـواء الحقيقية من عنصرين احدهما « هواء النار » (اوكسيجين) القابل الامتصاص بالكبريتورات القلوية وعدد من الاجسام الأخرى ، والثاني « الهواء الفاسد » (ازوت) الذي يبقى هو هو كامـــلا . وحصل على الاوكسيجين بتحليله النطرون وبير اوكسيد المنغانيز واوكسيد الزئبق واوكسيد الفضة ، وعين كل خصائصه خير تعيين .

وهكذا فإنه قد أدى خدمات جلّى بوصفه المدقق لوقائع خاصة عديـــدة . ولكنه حين أراد اكتشاف علائق هذه الوقائع فيا بينها وردّ العلائـــق الى مبدأ عام ، بغية جعل الانسان سيد الظواهر ، ضل الطريق وهام على وجهه . في رأيه ان الحرارة والنور مركبان من العنصر اللهبي وهواء النار . العنصر اللهبي وهواء النار وازنان ، ولكن اجتماعهما معاً قد يعطي جسماً لا وزن له . ويبلغ هذا الأخير من الرقة ما يتيح له اجتياز الزجـــاج والتبدد بشكل حرارة اولا وبحالة نور ثانياً . وجلي ان هذا الكلام حشو وهذر لم يتركـــا لشيل ما يأخذه على آخر الفلاسفة الكلاميين .

ما هو مرد عجز العالم عن اتمام عمله يا ترى ؟ ان مرده هو ان شيل ليس في الحقيقـــة سوى عامل افتقر الى ثقافة عامة ، فلم يلبث ان اغتر بالكلمات . اهملت تربيته في صغره ، فتمـــرس بالممارسة العملية ، ولكنه امتاز بعبقرية طبيعية حركها شغف المعرفة ، فأتى عمــلاً مفيداً . الا انه افتقر ابداً ، للإفادة كل الإفادة من صفاته النادرة ، الى فلسفة الطبيعة والاداة الرياضية .

بريستلي

ولد الانكليزي بريستلي في ٣٠ اذار ١٧٣٣ ، على مقربـــة من « ليدس » في « يوركشاير » ، من اب جواخ . وغدا راعيـاً واستاذاً . لفتت انتباهه الشهرة التي عرفتها الكهرباء ، فكتب اول تاريخ للكهرباء في السنة ١٧٧٥ ، واجرى بعض الاختبارات ، وأصبح عضواً في جمعية لندن الملكية . كان مقيماً في جوار معمل جعة ، فأخذ منذ السنة ١٧٦٧ يجري بعض الاختبارات على غاز الكربون . وواصل في اوقات فراغه اختباراته على الغـــازات وابتكر عدة اجهزة لانتاج الغازات ومعالجتها ودرسها . فـأدرك وحده في عهده مدى تكون الغازات وتنوع طبيعتها . وتضلع خير تضلع من فن ايجاد الصلة بين الغاز وكافة المواد الاخرى ؛ وخلف للقرن التاسع عشر معظم الطرائق المعتمدة في معالجة الغازات .

حين باشر ممارسة عمله ، كانت الغازات المعروفة اثنين فقط : حامض الكربون او الهـــواء الثابت ، والهيدروجين او الهواء القابل الاحتراق . اكتشف بريستلي الازوت ، وثاني اوكسيد الازوت ، وغـــاز الكلور ، وغاز النشادر ، واول اوكسيد الازوت ، وحامض الكبريت ، والاوكسيجين الذي اخرجه من اوكسيد الزئبق في اول آب ١٧٧٤ واسماه الهواء الخـــالي من العنصر اللهبي واكتشف دوره في دوام التنفس واثره في الدم الوريـــدي ؛ ثم اكتشف غاز فلور الصوان واوكسيد الكربون . فتم له بذلك اكتشاف الغازات التسعة الأهم شأناً ، تلـــك التي

تفسر الهواء ، والتنفس والاحتراق ، والتكلس ، أي العمليات الرئيسية التي تجري في الكرة الارضية .

ولكنه لم يتوصل هو ايضاً الى وضع أسس علم الكيمياء ولم يعرف السمو الى ما فوق تحديد الاحداث الخاصة . لا بل درج على قول ما جوهره : كلما اكتشفت ، تدنى ادراكي وتدنت معرفتي ؛ وكلما تأملت زاد ارتيابي . ولا يرد ذلك ، فيما يعنيه ، إلى افتقاره إلى ثقافة عامة : فقد تعلم اليونانية والعبرية واللاتينية في مدرسة داخلية ؛ وتعلم الرياضيات والفرنسية والألمانية والايطالية للتسلية ؛ وتعلم الكلدانية والسريانية والعربية للتعمق في الكتاب المقدس ؛ ومارس الفلسفة واللاهوت ممارسة تخصص ووضع فيهما ثمانين مجلداً .

إلا إنه أرتكب خطأ في الاسلوب؛فقد قام بما قام به دون تبصر ولا قصد،ولم يسيّره « فكر سابق البحث والتحقيق » ولا افتراض يجيب استثباته ، ولا مخطط بحث . استخدم يديه اكثر من دماغه . امتحن اختبارات سابقيه التي انطوت على فوران واستقطار وحرارة واتاحت لافتراض بتكون جسم غازي ، وبما ان معظم الاجسام الغازية كانت مجهولة ، فقد توفق إلى اكتشاف بعضها . أجرى « اختبارات للمشاهدة » : اوكسيد الزئبق الأحمر أعطاه غازاً ؛ لم يميز بينه وبين بيراوكسيد الازوت ؛ امتحنه بثاني اوكسيد الازوت فكانت دهشته كبيرة حين رأى الخلط يصطبغ بلون أحمر ؛فلم يميز اذ ذاك بينه وبين الهواء؛ وحدث اتفاقاً أن أدخل شمعة في الدردي ، فأخذ العجب منه كل مأخذ حين رآها تشتعل . « ... لو لم أر أمامي شمعة مضاءة ، لما أجريت هذا الامتحان ، ولبقيت كافة اختباراتي اللاحقة على هذا النوع من الهواء في عالم المجهول ... » . انتقل من دهشة إلى دهشة ومن اتفاق إلى اتفاق إلى ان بيّن ان هذا الغاز هو جديد ومتجانس وهو الجزء الملهب والممكن نشقه في الهواء ، أي الاوكسيجين . ولكن ثمن فقدان الاسلوب هذا هو أن النتائج لم تتجمع قط في ذهنه وأنه لم يستطع الحكم فيها مجتمعة . لاحظ عدداً كبيراً من الاحداث المتنافية والمنصر اللهبي ، ولكنه بقي « عنصراً لهبياً » ، وحين توفي في السنة ١٨٠٤ لم يكن من عنصري لهبي سواه في العالم . ولعل هذا الراعي انشغل ايضاً بالجادلات اللاهوتية : فلم تكن اختباراته سوى طلب للراحة في حال أن العلم يتطلب الاستئثار بكل الانسان. ولعل هذا المؤمن كان شديد الميل كذلك الى الاسترشاد بوحي الروح . ولعل هذا الانكليزي ، اخيراً ، كان ضحية نزعة غير نادرة عند ابناء وطنه الى جمع الاحداث دون محاولة استيضاح علائقها ولا تسلسلها ، تفضي احياناً الى عجز كلي عن اصلاح الآراء العلمية أو السياسية التي أثبت الاختبار بطلانها التام أو قدمها العقيم .

لافوازييه

وأخيراً جاء لافوازييه . ولد في ١٦ آب ١٧٤٣ ، منحدراً من عائلة بورجوازية ميسورة . تلقى دروسه بامتياز في كلية « مازارين » حيث تلقن اللاتينية والبيان والمنطق. بعد ذلك أطلق له والده الحرية؛ فدرس الرياضيات وعلم الفلك على« لاكاي»،

وعلم النبات على « جوسيو » ، والكيمياء على « رويل » . توفر له من ثم ما لم يتوفر لشيل : التهذيب الأدبي والرياضي ، أي الآداب التي تعوّد التمييز بين أدق الفوارق والعلائق في الأفكار وتقدير معنى الكلمات الصحيح واستعمال أدوات الفكر هذه ، والرياضيات التي هي أداة الافتراض الواضح والسير الأمين والنتيجة الأكيدة . وتوفر له ما لم يتوفر لشيل وبريستلي معاً : فكرة اجمالية عن العلم وسيره وأساليبه وطرائقه ، وفكرة عامة جلية واضحة عن العالم انارت سبيله طيلة حياته . غدا عضواً في أكاديمية العلوم في السنة ١٧٦٨ ، فتيسر له الاتصال بالعلماء والاطلاع على كافة الاكتشافات المفيدة لأعماله ؛ وكان بالاضافة الى ذلك يلتزم جمع الضرائب ويدير احتكار ملح البارود ، والتحق بصندوق القطع في السنة ١٧٨٨ ، فتوفرت له الثروة وبات قادراً على تكريس ١٠٠٠٠ ليرة سنوياً لمختبره ، وتوفرت له من ثم كافة أسباب إخصاب عبقريته .

اهتدى منذ البدء بوحي هذا الافتراض : كل ظواهر الكيمياء مردّها انتقالات المادة ؛ ولكن المادة تبقى ابداً هي هي في الكون اذا ما نظرنا اليه ككل ؛ قد تتغير شكلاً ، ولكنها لا تزيد ولا تنقص : لا شيء يفقد ولا شيء يستحدث . فاذا صح ذلك ، فان الشكل الخارجي قد يتبدل في اناء مغلق ، ولكن الوزن لن يتغير ؛ في كل تفاعل كيميائي يجب أن يكون وزن المواد المتكونة مساوياً لوزن المواد المستعملة . أداة البحث هي الميزان الذي يفيدنا عما اذا كان هنالك مادة جديدة يجب اكتشافها ، أو جسم جديد يجب تحقيق هويته والبحث عن مصدره؛ الطريقة هي طريقة الوزن . كانت الكيمياء نوعية ، فأصبحت كمية ، أي علماً حقيقياً .

أبين الفرق بجلاء باختبار السنة ١٧٧٠ الذي ساعده على تقديم الدليل على أن الماء لا يتحول تراباً . أوعز لافوازييه بصنع ميزان صحيح ، ثم امتحنه واعترف بضرورة الوزن المزدوج . وزن إناءه في حالات جوية مختلفة واستثبت أنه يفقد بعض وزنه حين يكون ساخناً بتبخر الرطوبة التي تلتصق به بارداً ، واستنتج من ذلك ضرورة اجراء الوزن الذي كان يريد مقارنته في الحالات الجوية نفسها . استخدم اناء يتصاعد فيه البخار إلى أعلاه حيث يتخثر ثم يتساقط ويأخذ بالغليان مرة أخرى . أخذ كمية من الماء ، ووزنها ، وأفرغها في الاناء الذي سبق له وزنه ، ووزن الماء والاناء معاً رغبة منه في تحاشي كل خطأ ، وأقفل الاناء إقفالاً محكماً ، وكرر الماء طوال مائة يوم ويوم . بعد انقضاء هذا الوقت لم يطرأ أي تغيير على وزن الاناء والماء معاً ؛ إلا أن الاناء قد فقد ١٧ حبة من وزنه ؛ والماء بات عكراً وازداد كثافة . وبعد تبخيره خلف دردياً بلغ وزنه ٢٠ حبة . كان الاناء مصدر ١٧ حبة . أما الحبات الثلاث فكانت مجهولة المصدر ، ولكن لافوازييه استنتج بحق أن حجماً على هذا الصغر مصدره طارىء من طوارىء الاختبار ، وان الماء لا يتحول تراباً . أجرى شيل الاختبار نفسه ، ولكن شيل لجأ إلى التحليل حيث لجأ لافوازييه إلى الوزن . اكتشف أن الدردي اوكسيد سيليسيوم ؛ فالماء الذي اصبح قلوياً قد ضم اليه عناصر قابلة الذوبان ؛ وكان استنتاج شيل من ثم مماثلاً . ولكن شيل استند

إلى بصره وذوقه ولمسه ، الى حدة حواسه ، الى سلامة ذاكرته ، الى احـــكام صغيرة شخصية ضمنية كثيرة ، بينا استند لافوازييه إلى الميزان الذي استخدمه بمنطق ودقة ، إلى أرقام يقبل بها الجميع . لم يكن شيل أميناً من أنه رأى كل شيء ومن انه لم يهمـل ناحية من نواحي الظواهر ، بينا كان لافوازييه أميـنـاً من أنه لم يهمل أي جسم وأي تفاعل . ولم يكن معنى ذلك ان التحليل النوعي يجب الاستغناء عنه ، فذلك غير ممكن ؛ بل ان عليه إفساح المركـز الاول لطريقة الوزن .

ما لبث الميزان أن اوحى للافوازييه بأفكاره الموجّـهة التي كانت والعنصر اللهبي على طرفي نقيض . فقد قال في مذكرة قدمها الى اكاديمية العلوم بتاريخ ١ تشرين الثاني ١٧٧٢ ما يلي :
« منذ ايام خلت اكتشفت ان الكبريت يولد باحتراقه حامضاً ويزداد وزناً : وهذا يصح في الفسفور ايضاً . إن هذا الازدياد في الوزن مصدره اتحادهما بكمية كبيرة جداً من الهواء .. » .

منذ ذاك الحين صدر الحكم على العنصر اللهبي في عقـلـه ، ولكن الواجب كان يقضي بتقديم الدليل على زيف نظرية ستاهل واستبدالها بنظرية أخرى تكون أكثر انطباقـاً على الوقائع . اختط لافوازييه لنفسه طريقة بحث منظمة اتبعها طيلة اكثر من عشر سنوات بطول أناة وعزم لا يعرفان الكلل . كان يقصد مختبره منذ الساعة السادسة صباحاً ويكرس للكيميـاء ساعات عديدة ، ثم يعود اليه في المساء بعد انصرافه في النهـار إلى اعماله المالية . وفي أيام الآحـاد كان يجمـع ، حول اكواره ، العلماء والعمال الذين يعدون له الأجهزة ، وبعض الشبان . ومنذ السنة ١٧٧٢ حتى السنة ١٧٨٦ ، رفع على التوالي ٤٠ بياناً نشرت في مجلدات اكاديمية العلوم ، وبلـغ مما ارسله منها في السنتين ١٧٨١ و ١٧٨٢ أن استحال نشرهـا كلها . ترابطت هذه البيانات وتكاملت ؛ أفضت الوقائع الى افكار جديدة ، وأدت الأفكار الجديدة الى درس وقائـع مهملة أو الى اكتشاف وقائــع مجهولة . لم يُترك شيء للمصادفة والاتفاق ؛ فالتفكير هو ما وجه البحث ابداً .

يستحيل علينا الدخول في تفاصيل هذه الاختبارات التي كان اشهرهـا ، في السنة ١٧٧٧ ، تحليل الهواء الذي قاده الى اكتشاف الآزوت والاوكسيجين ونسبها الصحيحة وخصائصهـما ودورهما في التنفس والاحتراق ، ثم الى إعـادة تركيب الهواء من اجزائه المختلفة ؛ وفي السنة ١٧٨٣ ، تحليل الماء وإعـادة تركيبه من مقوماته . وفي النهاية أثبت ان العنصر اللهبي لا وجود له ، وان الهواء الخالي من العنصر اللهبي جسم بسيط ،هو الاوكسيجين؛ وأن الاوكسيجين يتحد بالمعادن إبان تكليسهـا ، وانه يحول الكبريت والفسفور والفحم الى حوامض ؛ وانه يؤلف الجزء الفاعل في الهواء ويغذي اللهيب والموقد ؛ وانه يحول ، في تنفس الحيوانات ، دمهـا الوريدي الى دم شرياني ، ويغذي الحرارة الخاصة بهـا ؛ وانه يشكل الجزء الاساسي في قشرة الكرة الارضية وفي الماء والنباتات والحيوانات ؛ وانه كائن أزلي لا يفنى ، ينتقل من مـكان الى

آخر دون ان يكسب أو يفقد شيئاً ، على مثال المادة بصورة عامة . وفي السنة ١٧٨٣ ، وبعد بيان اجهز على العنصر اللهبي الذي قال به ستاهل ، وضع كتابه « بحث في الكيمياء » في مجلدين صغيرين كان من حسن سبكهما وضبطها الهندسي ووضوح فصولها وكال تسلسلها المنطقي أن أثارا إعجاب أوروبا فعافت الكتب الاخرى .

تأخر الكيائيون اكثر من غيرهم في الانضمام الى لافوازييه . ولكن «برتوليه» «وغويتون دي مورفو» تبنيا اخيراً نظريته في السنة ١٧٨٥ ، وما لبث « شابتال » ان حـذا حذوهما ، وفي السنة ١٧٨٧ علم « فوركروا » النظريتين وقارن بينهما في محاضراته .

الاصطلاحات الكيميائية

أدى لافوازييه خدمة اخيرة للكيمياء بإسهامه في وضع لغة خاصة بهـا . كانت الكيمياء ملأى بالاسماء الغريبة : الغاروث ، ملح الالمبروث ، المـاء الفاجيديني ، زيت الدردي الناقص ، زبدة الزرنيخ ، زهور الزنك . وقـد شاطر رأي لافوازييه كافة كيميائيي اوروبا ، كما عبر عنه في الخطبـة التمهيدية لكتابـه «بحث اولي في الكيمياء » : « ... يقتضي تعوّد طويل وذاكرة حادة لاستـذكار المواد التي تعبر عنها [اسماؤها] وبصورة خاصة للاهتداء الى نوع التركيب الذي تعود اليه ... انهـا تولد افـكاراً خاطئة جداً » . وبين لافوازييه بعد ذلك ، متصرفاً تصرف تلميذ كونديلاك ولا سيما تصرف العالِم ، استحالة فصل المصطلحات عن العلم وفصل العلم عن المصطلحات ،لأن كل علم قوامه سلسلة الوقائع التي تكونه والافـكار التي تذكر بها والكلمات التي تعبر عنها. على الكلمة ان تولد الفكر ، وعلى الفكر ان يصور الوقائع :

« انها رسوم ثلاثة لخاتم واحد ... وبما ان الكلمات هي ما يحفظ الافـكار وينقلهـا ، يستنتج من ذلك اننا لا نستطيـع اتقان الكلام دون اتقان العلم ، ولا اتقان العلم دون اتقان الكلام ، وان الوقائع ، مهما بلغ من ثبوتها ومن صحة الافـكار التي قد تولدها ، لن تفضي الا الى تعابير خاطئة اذا لم تكن لدينا المفردات الصائبة للتعبير عنها » .

طلب الكيميائيون المصطلحات من غويتون دي مورفو الذي باشر العمل في السنة ١٧٨٧ مع لافوازييه وفوركروا وبرتولّيه . فقرروا الدلالة على المواد البسيطة بكلمات بسيطة تعبر عن اكثر خصائص المادة شمولا وتمييزاً : اوكسيجين (مولد الحموضة) بسبب دوره في تكوين الحوامض . اما الاجسام المتكونة من اتحاد عدّة مواد بسيطة ، فقد قسموها الى طـوائف واجناس وانواع . فالمواد المعدنية المعرضة لتأثير الهواء والنار معـاً تفقد لمعانهـا المعدني ويرتفع وزنها وتتخذ ظاهراً ترابياً : انها مركبة من عنصر مشترك بينهـا ومـن عنصر خاص بكل منها ؛ اشتق اسم الجنس من العنصر المشترك : اوكسيد ؛ واضيف اليـه اسم المعدن الخاص . والحوامض مركبة من مادتين ، « من صنف تلك التي نعتبرها بسيطة » ، احداهما مشاركة بينها كلها ، قوامها الحموضة ، اشتق منها اسم الجنس ؛ والثانية خاصـة بكل

حامض ، اشتق منها الاسم النوعي . وفي العدد الاكبر من الحوامض قـــد يوجد العنصران المركبان ، العنصر المحمّض والعنصر المحمَّض ، بنسب مختلفة تؤلف كلّها نقاط توازن: يُعبر عن هاتين الحالتين للحامض الواحد بتغيير آخر الاسم النوعي *(eux, ique)* .

وهكذا كان للكيمياء ، بفضل لافوازييه ، نهجها ، ولغتها ، ومجموع وقائع ترتبط بنواميس. لقد ولد علم فتي ؛ وسيعرف نمواً عجيباً .

الفصل السادس

العلوم الطبيعية

تقدمت معرفة الطبيعة بخطى حثيثة ، على انها ما زالت ، في اغلب الاحيان ، وصفاً ، او « تاريخاً طبيعياً » ، وهذه خطوة اولى ضرورية على كل حال .

ولكن مقارنة الوقائع أثارت مسائل كبرى ، فوضعت نظريات كثيرة ، واستعين كثيراً بالطريقة الاختبارية التي طبقت تطبيقاً مطرداً على تعقد الظواهر الحيوية ، وارتسمت فكرة عامة جديدة : ويمكن اعتبار كل عمل القرن اعداداً لمذهب التطور المعاصر .

بوفون كان بوفون (١٧٠٧ — ١٧٨١) احد اوسع عوامل التقدم نشاطاً . كان لكلير الذي قلد لقب « الكونت دي بوفون » ، ابن مستشار في مجلس قضاء ديجون ، ودرس في سن مبكرة علم الرياضيات وعلم الطبيعة ، وارسطو ، وديكارت ، وليبنيز ، ووضع بيانات علمية ونشر ترجمات كتب علمية . عين بعد ذلك امين حدائق الملك (حديقة النباتات الحالية) فتمخض عقله بفكرة « تاريخ طبيعي » واسع جداً كرس له حياته منذ ذاك التاريخ . منذ السنة ١٧٤٩ حتى السنة ١٧٨٩ ظهر منه ٣٢ مجلداً بقطع ١/٤ في الارض والانسان ورباعيات القوائم والطيور والمعادن . ثم انجز « لاسيبيد » ، بالاستناد الى ملاحظات بوفون ، « تاريخ الأفاعي » (١٧٨٩) . وطبيعي ان بوفون قد استعان بعدد كبير من المساعدين نخص بالذكر منهم « دوبنتون » الذي عاونه في موضوع رباعيات القوائم . ولكن بوفون تولى شخصياً تحرير الاقسام التي استهوته استهواء خاصاً : « نظرية الارض » ، « تاريخ الانسان الطبيعي » (١٧٤٩) ، « تواريخ الطبيعة » (١٧٧٨) ، « علم المعادن » . كان عالماً بطبقات الارض وعالماً بطبائع الانسان في الدرجة الاولى .

تناول النقد بوفون كما تناول كافة واضعي المؤلفات الجامعة والنظريات الكبرى والنظريات الجريئة والعلماء الذين هم علماء وادباء معاً . اخذ عليه تصنعه وتفخيمه . ولكن الاقسام التي يستشهد بها لاصدار هذا الحكم هي من وضع بعض معاونيه . فهو حين يكتب يفرغ ما يكتبه في قالب بسيط ينبض بعظمة حقيقية . « ... ان حركة اللوحات الهادئة والقوية وتبسطها المستفيض والجميل يجعلان من هذا الكتاب العلمي في بعض اجزائه ، كـ« تواريخ الطبيعة » مثلاً ،

قصيدة تتصف بالروعة والجلال » . يروى انه حدث له ان صرف صبيحة كاملة في تركيب جملة واحدة ، وانه كان قادراً على تبرير استعمال كل كلمة . فجدير بنا من ثم ان نهنئه بهذه المقدرة. واذا كانت لغة بوفون متصفة بالعظمة والاسهاب والنبل ، فمرد ذلك الى انه طرق مواضيع عظيمة وشعر شعوراً عميقاً بعظمتها . واخذ عليه ، وذلك امر مهم صدر احياناً عن رجال علم من مصف ريومور ، انه عالم مزيف ، وباني مذهب جمح به الخيال ، وانه يكاد يكون مجرماً بحق الفكر . اما الواقع فهو انه قد لاحظ واختبر طوال حياته ، واحترم الوقائع خير ما يكون الاحترام ، واجلى برهان على ذلك انه غير على الدوام نهجه ونمط حكمه ، وانه حين ثبت له ، من تقدم دروبسه ، ما تنطوي عليه « نظرية الارض » من نقص واخطاء ، اعاد كتابتها ، بعد مرور ٢٩ سنة ، باسم « تواريخ الارض » . ولكنه لم يكتف ، على غرار العقول الضعيفة والافئدة الخابية ، بالحقائق الجزئية : بل حاول ان يدرك ويرى مجموع الوقائع ويمسك بالروابط التي تصل بينها . لقد كان قوّة من قوى الطبيعة . اولع بالملذات والمآكل الفاخرة وجمع المال ولعه بالحقيقة ، وقضى اوقاته بين « مونبار » وباريس ، واختلف الى الصالونات وعاشر الممثلات ، وضارب في تجارة العقارات ، واستثمر المحاجر والغابات ، وادار معملاً للحديد ، واستطاع على الرغم من كل ذلك ان يكرس اكثر اوقاته للعمل العلمي . ازدرى بالمجادلات ، وواصل درس الوقائع بهمة لا تعرف الكلل ، وقال ، مغفلاً صفة نادرة من صفات الفكر ، ان العبقرية ليست سوى قدرة كبرى على الصبر وان فخره في انه سلخ خمسين سنة في مكتبه . شغفه بالعلم ادخل الحياة الى كتبه بتلك الحرارة وتلك البلاغة اللتين جعلتا منها احد اكثر المؤلفات قراءة واوسعها انتشاراً في دور الكتب ، ومؤلفاً ربما كان له اكبر دور في بعث الميل الى العلوم الطبيعية والروح العلمية ، كما انه اتاح ، بفضل الطريقة التي نادى بها والوقائع التي جمعها والآراء التي اقترحها والنظريات التي بسطها ، قيام عدد كبير من الاعمال ونشوء فروع علمية جديدة : الجغرافية الحيوانية ، علم طبائع الانسان ، علم خصوصيات الشعوب ، علم الاحاثة .

واسهم بوفون في تحرير التاريخ الطبيعي من كل تأثير عقلي فرضي وردّه الى درس انتقالات المادة . كان خصماً عنيداً للعلل الغائية التي كان يطيب للأب « بلوش » ، مؤلف « مشهد الطبيعة » (١٧٣٢ — ١٧٤٠) الذي عرف شهرة كبرى ، الاسترسال فيها : « ملّح الله البحر لأنه يصبح مضراً بدون ملح .

... وخلق المد والجزر حتى تدخل السفن بسهولة الى المرافىء ... وكان من شأن اللون الاحمر واللون الابيض ان يعيي البصر ، ومن شأن اللون الاسود ان يثير الحزن ، لذلك وجد اللون الاخضر في الارياف لمساعدة الرؤية ، كما وجدت درجات مختلفة من اللون الاخضر لبهجتها .

« أليس القول ان هنالك نوراً لأن لنا أعيناً ، وان هنالك اصواتاً لأن لنا آذاناً ، او القول

ان لنا آذاناً وأعيناً لأن هنالك نوراً واصواتاً ، ترداد لقول واحد، او بالحري ما معنى هــذا القول ؟ » وقد لاحظ من جهة ثانية في اكثر الحيوانات« اجزاء لا طائل تحتها ولا فائـدة منها او اجزاء زائدة » تهدم فكرة نظام للحيوانات المخلوقة بفعل عقل كلّي الكمال وكلّي القدرة .

ناهض الرغبة المستهجنة في نسبة كل شيء الى هدف معين ، وعدم الاكتفاء « بمعرفة كيفية الاشياء والطريقة التي تسلكها الطبيعة في عملها » ، واستبدال « هــذا الشيء الواقعي بفكرة لا طائل تحتها بمحاولة التكهن بسبب الوقائع والغاية التي تتوخاها من عملهــا » . وانتهى الى هــذه النتيجة :

« ليست العلل الغائية ما يمكّننا من الحكم في اعمال الطبيعة ؛ يجب الا ّ ننسب لها مثل هذه المقاصد الصغيرة واخضاعها في عملها الى لياقات أدبية ، بل ان نبحث عن كيفية عملهــا فعلاً وان نستخدم ، بغية معرفتها ، كافـة « العلائق الطبيعية » التي يوفرها لنـا التنوع الكبير في نتائج عملها ».

ان ردّ كل شيء الى معرفة « العلائق الطبيعية »، دون اي تساؤل آخر، كان بالنتيجة تفريجاً عن الفكر وتأسيساً لعلم موضوعي . ولكن بوفون لم يتملص الا ببطء من الآراء القديمة : فهـو قد استعاض عن الله واللاهوت بمفهوم « الطبيعة » الميتافيزيقي . حين نذكر الطبيعة نجمـل منها نوعاً من كائن مثالي درجنا على ان ننسب اليه ، كعلة ، كافة المعلولات الثابتة ، كافة ظواهــر الكون » . افترض ان لها مقاصد ومشاريع واخطـاء ورغائب فجائيـة ؛ وانها تجرب وترسم وتحاول . الا أن مفهومه قد انجلى شيئاً فشيئاً . لاحظ أن الطبيعة لا يمكن أن تكون شيئاً لأنها قد تصبح كل شيء ، ولا كائناً لأنها قد تصبح الهاً . « الطبيعة هي « مجموع النواميس » التي وضعها الخالق . » ومجموع النواميس ، أي مجموع العلائق الشاملة والضرورية بـين الوقائع ، يمني نظرة موضوعية كلها .

قبل بوفون ، سبق لريومور ، في « تاريخ الحشرات » (١٧٣٤ — ١٧٤٢) ، وفي بياناتــه ومراسلاته ، ان نصح بدرس الطبيعة نفسها درساً مباشراً واستثبات كل ما يرويه المؤلفون ، حتى أرسطو وبلين . أما بوفون فلم يرد سوى معرفة الوقائع وأوحى احترام الواقع :

ان تخيل نظام أسهلَ من وضع نظرية ... المؤرخ مخلوق ليصف لا ليبتدع ... يجب الا يجيز لنفسه أي افتراض ... ولا يجوز أن يستخدم مخيلتــه الا للتوفيق بين الملاحظات وتعميم الوقائع وتأليف مجموع منها يوفر للعقل ترتيباً منسقاً للأفكار الواضحة والعلائق المتسلسلة .

الجيولوجية

وهكذا فانه قد جُر في الجيولوجية الى نبــذ كل التفسيرات التي لا تفرضها الوقائع فرضاً : غياب القمر ، وجود سيارة اختفت ، طوفان شامل ؛ « انها افتراضات يسهل اطلاق العنان للمخيلة في موضوعها ، اذ أن مثل هذه العلل تسبب كل ما نريد

أن تسبب » . لم يرد سوى « معلولات تحدث كل يوم وحركات تتعاقب وتتجدد بدون انقطاع ، وعمليات دائمـــة تتكرر أبداً » . هذه هي نظرية « العلل الراهنة » التي تغلبت على نظرية الكوارث .

حين بدأ دروسه الجيولوجية ، كانت الفكرة العامة ، على الرغم ممـــا انجزه بعض علماء الطبيعة الممتازين من أعمـــال جزئية مفيدة ، هي هي الفكرة الواردة في حرف سفر التكوين : صنع الله العالم في ستة ايام ، وخلق القارات والحيوانات بمرة واحـــدة ، كما رآها الناس في القرن الثامن عشر وكما كانت منذ القديم ، باستثناء تغييرات جزئيـــة طفيفة يرد حدوث معظمها الى الانسان . هذه كانت النظرية التي اطلق عليها فيما بعد اسم نظرية الثبوت . عُرفت آثار عضوية متحجرة كثيرة ، ولكنهم تخلصوا منها بنسبتها الى خلق الطبيعة اللعوب الـــتي تلهت بإعطاء الحصباء البسيطة أشكالاً أشبه بالاصداف والأوراق النباتية والأسماك ، أو باعتبارها أثراً من آثار الطوفان . اما الذين لم يقتنعوا فلم يتجاسروا على مناقضة حرف التوراة وآثروا الاعتصام بالصمت .

أراد بوفون ألا يخشى سوى الخطأ ، والا يبتغي سوى الحقيقة ، والا يعرف سوى الوقائع . منذ السنة ١٧٤٩ ، عين للآثار العضوية المتحجرة ، في « نظرية الأرض » ، أصلهـــا الحقيقي ، ولكرتنا الأرضية عمراً حدّده بـ ٧٤٠٠٠ سنة بدلاً من الـ ٦٠٠٠ الـتي حدده بها اللاهوتيون ، وأظهر تطوراً . واستند في السنة ١٧٧٨ ، في « تواريخ الطبيعة » ، الى خمسة « وقـــائع » وخمس « آيات » .

بيّن الوقائع :

« الأرض ترتفع عنـــد خط الاستواء وتنخفض عند القطبين بالنسبة التي تفرضها نواميس الجاذبية والقوة المبعدة عن المركز .

الكرة الارضية تتميز بحرارة داخلية خاصة بها مستقلة عن الحرارة التي قد تصلها من أشعة الشمس .

الحرارة التي ترسلها الشمس الى الأرض خفيفة نسبياً اذا ما قورنت بحرارة الكرة الأرضية الخاصة ... وقد لا تكون الحرارة المرسلة من الشمس كافية لابقاء الطبيعة حية .

المواد التي تؤلف الكرة الأرضية هي على العموم من طبيعة الزجاج ويمكن أن تحوّل كلها الى زجاج .

يوجد على كل سطح الأرض ، وعلى الجبال نفسها حتى ارتفاع ١٥٠٠ و ٢٥٠٠ « تواز » كمية ضخمة من الأصداف وبقايا أخرى من نباتات البحر وأسماكه » .

ووصف آيات الماضي :

« اذا ما فحصنا الأصداف والآثار العضوية البحرية التي تستخرج من الأرض في فرنسا وانكلترا وألمانيا وبلدان أوروبا الأخرى ، تبين لنـــا أن قسماً كبيراً من الانواع الحيوانية التي تعود اليها هذه البقايا لا يوجد الا في البحـــار المتاخمة ، أو لا وجود له في أيامنا هذه ، او لا يوجد الا في البحار الجنوبية .

نجد في سيبيريا وفي الأصقاع الشمالية الأخرى من أوروبا وآسيا من الهياكل العظمية والأنياب وعظام الفيلة وأفراس الماء والمراميس ما يؤكد لنا أن أنواع هذه الحيوانات التي لا يمكن ان تتكاثر بالتناسل الا في المناطق الجنوبية قد وجدت فيما مضى وتكاثرت في المناطق الشمالية.

نجد انياب وعظام فيلة، كما نجد أنياب أفراس ماء ليس في مناطق قارتنا الشمالية فحسب، بل في مناطق شمالي اميركا ايضاً، مع أن أنواع الفيل وفرس المـاء لا توجد في قارة العالم الجديد هذه».

وقد خيل اليه ان هـذه الوقائع الراهنة وبقايا الماضي هذه تفرض عليه فكرة تطور في الزمان رسم خطوطه الكبرى. يقسم تاريخ الأرض الى سبعة عهود. العهد الأول هو عهد الميع والاتقاد: «حين اتخذت الأرض والسيارات شكلها»؛ والثاني هو عهد الابراد: «حين جمدت المادة وكونت خوالد الكرة الداخلية»، كما كوّنت الكتل الكبرى القابـلة التحويل الى زجاج والموجودة على سطحها»؛ والثالث: «حين غمرت المياه قاراتنا»؛ والرابع: «حين تراجعت المياه وأخذت البراكين تثور وتقذف الحمم»؛ والخامس: «حين قطنت الفيلة وحيوانات الجنوب الأخرى مناطق الشمال»؛ والسادس: «حين تم انفصال القارات»؛ والسابع: «حين غـدت قدرة الانسان عوناً للطبيعة».

وهكذا فقد غدا النهجُ درسَ انتقالات المادة؛ والمبدأ الاساسي المسلم به دون برهان ديمومة النواميس الطبيعية التي كانت ظواهر الماضي بموجبها مماثلة لظواهر الحاضر؛ والفكرةُ العامـة التطورَ الدائم، التحول البطيء في الزمان: فتأسست بذلك الجيولوجية الحديثة.

إن فكرة التطور هذه، التي نحن الفناها، قد قلبت طرائق التفكير وصادفت مقـاومات كثيرة. قلقت الكنيسة: فبوفون قد دافـع عن رأي معاكس لرأي سفر التكوين. في ١٥ كانون الثاني ١٧٥١، زيفت كلية اللاهوت ١٦ رأياً جديـداً وأوجبت استدراك القول. أعلن بوفون أنه يؤمن «إيماناً ثابتاً بكل ما يرويه التاريخ عن الخلق» وانه يتخلى عن كل ما قد يخالف رواية موسى». وتابع طريقه. ولكن اناساً من امثـال فولتير نفسه لم يستطيعوا فهم بوفون: فهو قد تصور عللاً دائمـة أحدثت المعلولات نفسها في كافة الازمنة، دون ان يكون هنالـك تأثير لحـالة الاشياء في عهد سابق عليها في عهد لاحق، وعنـد في ان يرى في الآثار العضوية المتحجرة اصدافـا احضرها حجاج الحملات الصليبية من سوريا او اسماكا نبذهـا الرومان من موائدهم لانها غير طازجة، دون أن يتمكن من ان يفسر، في هـذه الحال، كيف أن الآثار المتحجرة تكتشف أرصفة قد تتجاوز ١٠٠ فرسخ طولاً.

التصنيفات النباتية والحيوانية

لقد انجز خلال هذا القرن عمل عظيم جداً هو تصنيف الكائنات الحية اجناساً وانواعاً. وكان التصنيف ضرورياً للاسراع في تشخيص النباتات التي عرف منها ١٨٠٠٠ في اواخر القرن السابق، والحيوانات التي كان عددها يرتفع ارتفاعاً مطرداً. ولكن علماء الطبيعة قد عندوا في اجراء هذا التصنيف لانهم ابتغوا من وراء

ذلك اكتشاف مخطط الله ايضاً .

في اوائل القرن استخدم علماء الطبيعة التصنيف النباتي للفرنسي « تورنفور » والتصنيف الحيواني للعالم اليوناني أرسطو . أدخل عليها السويدي « لينّيه »(١٧٠٧ — ١٧٨٠)، وهو ابن راع بروتستانتي ، تحسيناً كبيراً . فان كتابه « انظمة الطبيعة » الذي نشر في السنة ١٧٣٥ قد اعيد نشره منقحاً ١٣ مرة حتى السنة ١٧٨٨ ونشر معه عدة مؤلفات اخرى . في علم النبات وزع ٧٠٠٠ نبات على ٢٤ طائفة وفاقاً لعدد ابرها وترتيبها ونسبتها واجتماعها ؛ وبسّط المصطلحات النباتية تبسيطاً كبيراً . كان علماء الطبيعة قد درجوا على تضمين اسم النوع خطوط الوصف الاساسية . فكان يقتضي ذاكرة اعجوبية لحفظ هذه الاسماء الطويلة ، وبات التصنيف يرهق العقل بدلاً من ان يفرّج عنه . اما لينّيه فقد اعتمد المصطلحات الثنائية العنصر : اسم للجنس وآخر للنوع ؛ فغدت الطريقة سهلة ؛ وهي لا تزال حتى ايامنا هذه اساساً للمصطلحات النباتية ؛ فمكن بذلك خلفاءه من القيام بعملهم الوصفي العظيم . وادخل في علم الحيوان بعض التحسين على تصنيف ارسطو دون ان يقلب رأساً على عقب ، فأخذ بعين الاعتبار الاعضاء الداخلية ، وكان اول من ميز بين الحيوانات الولودة بواسطة الاثداء وصنف ، بين الضرعيات ، الحوتيات التي صنفت حتى ذاك التاريخ بين الاسماك .

وعى اهمية عمله وقدره واكبره . فقد نظر الى الانواع كما الى كيانات حقيقية متميزة بفوارق متباينة ودائمة هي الصفات النوعية . كل نوع يطابق عملاً من اعمال الخالق الذي عين له كافة الخصائص الضرورية وجعله ثابتاً ودائماً . فمهمة عالم الطبيعة الاولى تقوم في جرد الانواع لأنه بذلك يصف عمل الله العجيب : علم التنظيم هو العلم الاسمى . ان لينّيه لعمري هو فيلسوف مذهب الثبوت .

بيد ان عمله بقي ناقصاً ، فهو قد اختار ما يختص بالابر مبدأ للتصنيف لأنه اعتقد بأن تحديد الصفات على هذا الشكل يضفي عليها قيمة كبرى؛ كما فكر بالتوصل الى تصنيف طبيعي. اما في الواقع فكان اختياره تحكمياً ، وبقيت ابواب تصنيفه صعبة : صنف اشجار الورد ثلاثة ابواب مختلفة وادخل شجرة التين في باب نبات النار . وفي علم الحيوان ، جمع في باب الحيوانات الضارية النمر والاسد وثعلب الماء والفقمة والكلب والقنفذ والخلد والخفاش ! وادخل في باب الافراس الحصان والفيل وفرس الماء وفأر السم والخنزير ! لم يبعث نظامه ارتياحاً في النفس ولم يصادف قبولاً وقناعة : فظهر عشرون نظاماً غيره ، افضت كلها الى تعمق في درس الصفات المميزة وتقدم عظيم في الوصف والطرائق ،واتاحت الاقتراب شيئاً فشيئاً من الطريقة الطبيعية. اضف الى ذلك من جهة ثانية ان بعض الاكتشافات بدت وكأنها تزيل الفروق بين العوالم . لقد ساد الاعتقاد ابـداً بان المرجان نبات بحري . فأثبت احد اطباء مرسيليا ، «بيسونيل»، في السنة ١٧٢٧ ، ان هذه النباتات « حشرات تكون المرجان » . ودرس الانكليزي«ترمبلي»،

في السنة ١٧٤٠ ، نباتا مائياً اتضح له شيئاً فشيئاً انه حيوان هو الهدرية الخضراء التي توفق في اختباراته عليها الى الحصول على التولدات الحيوانية المعروفة الاولى :"قطعت الهدرية فكوّن كل قسم منها هدرية كاملة ؛ لا بل انه توفق الى اجراء اللقح الحيواني والحصول على هدريات ذات رأسين او عدة رؤوس . كان صدى عمله عظيما واتجه الانتباه الى هذه الحيوانات التي كان تصنيفها من الصعوبة بمكان . واخذت تبرز فكرة دوام الطبيعة .

رأى بوفـون بوضوح ، وربما كان اول من رأى ، طابع التصنيفات الصنعي وهاجم لينـّيـه بعنف . واذا مـا هو انتهى الى التصنيف ايضاً ، تفريجا عن المقـل ، فانه لم يكن قـط مغروراً :

يرون ان الاوس نوع من الهر ، والثعلب والذئب نوع من الكلب وقط الزباد نوع من الغرير ، والخنزير الهندي نوع من الأرنب البري ، والجرذ نوع من القندس ، ووحيد القرن نوع من الفيل ، والحمار نوع من الحصان ، وكل ذلك لأن هنالك بعض النسب الصغرى في عـدد اثداء هذه الحيوانات واسنانها او بعض التشابه في قرونها ... افليس القول ان الحمار حمار والهر هر اسهل واصح واقرب الى الطبيعة من ان نريد ... الحمار حصانا والهر أوسا ؟

بيد أن الفرنسي « آدنسون » (١٧٢٧ – ١٨٠٦) هو من اهتـدى الى طريقة التصنيف الطبيعي وقوّض أسس الايمان بواقع النوع . ففي كتابه « تاريخ السنغال الطبيعي » (١٧٥٧)، وفي مؤلفه الهام « فصائل النباتات » (١٧٣٦) ، شدّد الكلام على الاشكال المنظمة . لم يستطع أحد « اثبات وجود الطوائف والأجنـاس والأنواع في الطبيعة » ، لأن « ليس هنالك سوى كائنـات فردية تتعاقب ، منصهراً بعضها في البعض الآخر ، اذا صح التعبير ، بواسطة الفروق المميزة » . واذا ما فحصنا الفروق بدقة ، توصلنا في النهاية الى تمييز « الخطوط الفاصلة ». وربما لم يكن بعضها ، بما هو بارز ويكون « فراغاً» بين الكائنات ، دلالة اختلاف في النـوع ، بل ان سببها الوحيد « هو جهلنا للكائنات الوسيطة التي تصل بينها ، أي فقدان هذه الكائنات بالذات في تعاقب الأزمنة وبفعل تقلبات وجـه الارض ». ولكن لما كانت الضرورة العملية توجب التصنيف ، بات لزاماً ، على الأقل ، احترام « الترتيب الذي تبقي عليه هذه الخطوط الفاصلة فيا بينها » ، واتبـاع « طريقة الطبيعة او ... الطريقة الطبيعية ... وحتى اذا لم يكن من وجود للطوائف والأجناس والأنواع في الطبيعة ، بالمفهوم الذي يعنيه المنهجيون المعاصرون ، فقـد يمكن استناداً الى مدى الفراغات ، اكتشاف تقسيمات متشابهة يجوز ان تحمل اسمهـا في طريقة طبيعية » . تخلى آدنسون عن كافـة العادات وانكب على فحص المجموعات : فالمجموعة هي الواقع . « وصفتُ في البدء كل نبات وصفاً كامـلاً مخصصاً لكل من أجزائه ، بكل تفاصيله ، مقالاً خاصاً ؛ وكلما مررت بأنواع جديدة تقوم بعض الصـلات بينها وبين ما سبق وصفه ، وصفتها الى جانب الاولى ضارباً صفحـاً عن أوجه التشابه ومدوناً الفوارق فقط . تبين لي من

مجموع هذه الأوصاف المقارنة ان النباتات تتنسق من ذاتهـــا في طوائف أو فصائل لا يمكن أن تكون قياسية أو تحكمية من حيث أنها غير مبنية على جزء واحد أو عدة أجزاء ... بل على كافة الاجزاء معاً » . فكانت هــــذه الملاحظات حول انتقال غير محسوس من فئة الى أخرى طريقاً سهلة نحو مذهب التحول ؛ كما ان تحقيق واقع مستمر يقطـّـعه عقلنا أجزاء لأجـــل راحته الشخصية ، وكما لو كان ذلك بفعل ضرورة يستلزمها تركيبه ، لم يكن منطويــاً على نتائج فلسفية ضئيلة .

التناسل الذاتي

حاول القرن الثامن عشر ان يتغلغل في أسرار هــذه الأجهزة العضوية التي توفر له وصف ظاهرها . فما هو أولاً مصدرها يا ترى ؟ كان القرن السابق قد هدم الاعتقاد بالتناسلات الذاتية فيما خص الديدان والذبان وكافـــة الحشرات . فقد اثبتت بعض الاختبارات انها تولد جميعها من تزاوج ذكر وأنثى . كما كان قد اكتشف الجراثيم بواسطة المجهر . الا أن بوفون رجع في السنة ١٧٤٨ ، بغية تفسير مصدرها ، الى نظرية التناسل الذاتي الموافقة لرأيه في التطور . طلب الى الاب « نيدهام » القيام بالاختبار . أعد الاب نيدهام بعض مرق اللحم المشوي « الساخن جداً » في قنانٍ سكب فيها ماء غاليــاً وسدّها سدّاً محكماً ثم وضعها في رماد «ساخن جداً». بعد مرور أربعة أيام ظهرت على التوالي خيوط عفن» وغبيرات» وخمائر ، وجراثيم ، ونقاعيات . فتكلم نيدهام عن « قوّة انمائية » في المادة تجعلها تنتقل الى حالة النبات ثم الى حالة الحيوان .

حينذاك أجرى عـــالم الطبيعة الايطالي « سبالنزاني » (١٧٢٩ — ١٧٩٩) سلسلة من الاختبارات الخليقة بباستور . اشتبه في أن نيدهام لم « يعرّض الآنية لدرجة من الحرارة كافية لافناء الجراثيم الموجودة فيها » . يضاف الى ذلك انه لم يسدّ قنانيه الا بالفرق « الذي هـــو مسامي جداً » ، فلم يتمكن من الحيلولة دون دخول الجراثيم الى منقوعاته . في السنة ١٧٦٥ ، سكب سبالنزاني منقوعات في قنان ختمت اعناقها باذابة الزجاج ثم وضعت في الماء الغالي طيلة ساعة كاملة . فلم يظهر أي « حيوان صغير » . أما اذا أبقيت القناني مفتوحة أو سخنت لفترة قصيرة ، فتتكاثر الحيوانات الصغيرة بسرعة .

اعترض نيدهام على ذلك : اضعف سبالنزاني القـوة الانمائية بمغالاته في التسخين . فسخن سبالنزاني قنانيه حينذاك طيلة ساعتين في المـــاء الغالي ، ولكنه لم يحكم سدّها : ظهرت الحيوانات الصغيرة ، وما كانت الحرارة من ثم لتضعف أية قوة ، وبالتالي كان الاختبار الاول صحيحاً ومقبولاً .

زعم نيدهام آنذاك ان سبالنزاني قلل في المـــرة الأولى كثافة هواء القناني بسدها باذابة الزجاج ؛ وهذا هو سبب عـــدم ظهور الحيوانات الصغيرة . استخدم سبالنزاني قناني تلتهي بانبوب شعري . اقفلها باذابة الزجاج وبقطع الانبوب سريعا : لم يطرأ من ثم أي تغيير عـلى

ضغط الهواء . أعاد اختباره الأول في هذه القناني : فجاءت النتيجة مماثلة .

استطاع سبالنزاني أن يؤكد ما يلي: « القوة الانمائية ليست سوى نتاج المخيلة». «الحيوانات الصغيرة » تتولد من « بذور » تقاوم قوة النـار بعض الوقت ولا تلبث في النهاية أن تموت . الا أن فكرة التطور والمادية ستبعث الاعتقاد بالتناسلات الذاتية . وكان مقدراً لباستور « وبوشيه» أن يجددا الجدال الذي قام بين نيدهام وسبالنزاني .

التغذية

كيف تعمل هـذه الاجهزة العضوية عملها يا ترى ؟ فصل الانكليزي « هايلز » في كتابه « علم سكون النباتات » (١٧٢٧) الاختبارات الـتي سمحت له بالتأكيد أن انتقال النسغ صعداً يجري بسبب الانتضاح ؛ وان الأوراق هي مركز هذا الانتضاح تحت تأثير نور الشمس . وفي أواخر القرن أتاح تقـدم الكيمياء اكتشاف كيفية تكوين النباتات لمادتها بذاتها . وفي السنة ١٧٧١ لاحظ بريستلي أن ساق النعنـاع الموضوع تحت اناء زجاجي مقفل اقفـالاً محكماً ينقي الهواء . وبعد أعمال لافوازييه ، ادرك العلماء ان النباتات تستولي على غـاز الكربون في النهار وتحتفظ بالكربون وتتخلى عن الأوكسجين : الكربون يبقى متحداً بالنبات .

اما فيما خص الحيوانات فقد قال القرن الثامن عشر ، مدة طويلة ، بآراء ديكارت : الجسم آلة ، أو اجتماع أنابيب ، ونخول ، ومنافيخ ، ومضخات ، ومناخل . لم يكن هنالك أية فكرة عن الظواهر الكيميائية . الصفراء ، والبول، والحليب كل ذلك يتكون في الدم . الدم يمـر في الغدد التي ليست سوى مصاف لإفراد هـذه الاخلاط . ولما كان كل شيء آليا ، فمن الممكن اخضاع كل شيء للحساب . برهن الانكليزي « كيل » بطريقة الإستنتاج ان جسم انسان يزن ١٦٠ لبرة يشتمل على ١٠٠ لبرة دما و ١٠ لبرات عظما و ١٧ لبرة شحما . وكان ذلك خطأ غير نادر يقوم ، بالاستنتاج ، باعتماد طرائق علم أكثر بساطة وتقدما ، في علم أحدث عهداً وأكثر تعقيداً ، غير آخذ بعين الاعتبار الا ما هو مشترك بين العلمين ومهملاً ما هو خاص بالعلم الأكثر تعقيداً . وهذا ما كان سيحدث ، بعـد ذلك بزمن ، بتطبيق علم الحياة على درس المجتمعات البشرية ، والحصول بهذا التطبيق على نتائج غريبة .

تقدم « بارتيز » ، في السنة ١٧٧٨ ، بنظرية « الحيوية » : ان مجرد حركة القوى الطبيعية لا يمكن ان يفسر ظواهر الحياة . هذه الاخيرة تنجم عن فعل مبدأ حيوي لا تكتشف نواميسه الا بدرس خصائص الاعضاء ، بحسب الروح النيوتونية . فكان ذلك وعيا لنوعيـة ظواهر الحياة ونبذاً لكافة النظريات الميتافيزيقية في الحياة. وقد غدت مونبلييه مركز مذهب الحيوية.

تحققت النتائج على ايدي المختبرين . فقد برهن ريومور ، في السنة ١٧٥٢ ، وسبالنزاني في السنة ١٧٨٠ ، ان الهضم كيميائي عند الحيوانات الغشائية المعدة ، بينما زعم سابقوهما انه يرد الى عملية السحق التي تتولاها عضلات المعدة . فأمّنا الاطعمة ضد عملية السحق هـذه بواسطة

انبوب صغير من التنك احدثا فيه ثقوباً كثيرة ، ووجدا ان الاطعمة قد هضمت . ثم وضعـا اسفنجة في الانبوب .وجمعا العصارة المعدية . وضع سبالنزاني هذه العصارة في انابيب ملأى باللحم سدّها سدّاً محكماً وتأبطها طيلة ثلاثة ايام ، فوجدبعدها ان اللحم كان قد هضم هضماً تاماً : فكان ذلك اول هضم اصطناعي .

ساد الاعتقاد حتى السنة ١٧٧٥ ان الهواء يدخل الى الدم لتبريده أو لتزويده بمبدأ محي .في تلك السنة برهن بريستلي ان التنفس ينجم عن تبادل غازي . ثم جاء لافوازييه فحل في السنة ١٧٧٧ ، باختبارات معدودة ، المسألة التي عطف عليها الاطباء وعلماء الطبيعة منـذ قرون عديدة : فبرهن ان الدم ، في الرئتين ، يمتص الاوكسجين ويتخلى عن حامض الكربون . ومنذ السنة ١٧٨٠ حتى السنة ١٧٩٠ ، طبق لافوازييه ، مـع لابلاس ثم مع سيغين ، مقياس كمية الحرارة علىدرس الحرارة الحيوانية؛وأثبت ان التنفس هو السبب الرئيسي للمحافظة على حرارة الجسم ، وان العرق يبرد الجسم حين يكون بحاجة الى ذلك ، وان الهضم يعيد الى الدم مـا يفقده بالتنفس والعرق .

الاخصاب

كيف تتناسل الكائنات الحية ؟ أدت اختبارات عديـدة الى اكتشاف تزاوج النباتات: يتم الاخصاب بسقوط غبار طَلْع ذكور الازهار على اناث الازهار . تحققت هـذه النتيجة منذ السنة ١٧٥٠ . ولكن العلماء فشلوا فشلاً ذريعا في التغلل في اسرار تناسل الحيوانات . لوحظت وقائع غريبة من أمثال تناسل الارق الذاتي ، التناسل بواسطة العذارى المخصبة ، الذي لفت ريومور الانتباه اليه . اجريت بعض الاختبارات . ولكنها لم تسفر عن نتيجة حاسمة واحدة .

« ان جاذبية متساوية وعمياء موزعة على المادة كلها قد لا تفيد في تفسير كيفية تركب هذه الاجزاء بغية تكوين جسم غاية في البساطة . إذا توفرت لها جميعها النزعة نفسها أو القوة عينهـا لتتحد بعضها بالبعض الآخر ، فلماذا يكون هذا البعض عينا وذاك البعض اذنا ؟ لماذا هـذا الاحكام العجيب ؟ ولماذا لا تتحد كلها اتحاداً مختلطا ؟ » .

وبسبب جهلهم كل شيء من ذلك ، تعلق العلماء بنظرية التكون السابق وتداخل الجراثيم التي لا تتعرض للمسائل المطروحة : اشتمل الانسان الاول في ذاته والحيوانات الاولى في ذاتها على كافة الاجيال اللاحقة متكونة ومتداخلة كلها. وقد حسب أحد العلماء ان ٢٠٠ جيل تمثل ٢٠٠ مليـار من الكائنات البشرية المتداخلة على هذه الصورة ! انتقد بوفون هذا الرأي وهذا المفهوم انتقاداً لاذعا ، ولكن العلماء انحنوا امام « حكمة العلي التي لا تدرك » .

على الرغم من هذا الاخفاق اخذت فكرة استمرار الطبيعة تتقدم رويداً رويداً . فـان طرائق الملاحظة والاختبار التي نجحت ذاك النجاح الكبير في درس الاجسام الخام ، قد نجحت

وحدها ايضا في درس الاجسام العضوية ! وقد آل عـدد كبير من الظواهر الحيوية الى ظواهر طبيعية وكيميائية ، الى حركات من حركات المادة . واعتقد بعضهم بأنه سيأتي يوم يؤول فيـه اليها كل ما لم يفسر بعد : فكانوا ماديين تماما .

الاعصاب

استخدم القرن الثامن عشر مفهوم الحركة الانعكاسية الذي طلع به الانكليزي « ويليس » في القرن السابع عشر . فان « استروك » من مونبلييه ، قد درس في بيانيه العائدين الى السنة ١٧٢٣ والسنة ١٧٣٦ ، « القابليات » أي ردود الفعل التي تؤدي ، عند تهيج احـــد الاعضاء ، الى تقلص أو تشنج في عضو آخر : اغلاق الجفون ، السعال ، العطاس ، الهواع ، المص، البلع . فسّرها بحركة مزدوجة من « التآمير » التي تصعد من المناخر باتجاه الدماغ ، فتصطدم بليفته وتسلك طريق عضب الحجاب الحاجز . يتحرك هذا الاخير بعنف فيحدث العطاس .

ولكن ما زال كل شيء خاضعاً للدماغ. في الثلث الأخير من القرن حدثت ثورة كوبرنيكية : اكتشاف مراكز « حسية حركية » تعمل بدون الدماغ . فإن « هويت » ، من « ادنبرا » ، قد حصل على حركة انعكاسية ، اثناء اختباراته على ضفادع مقطوعة رؤوسها ، على الرغم من عدم وجود الدماغ ، وبرهن على أن النخـاع الشوكي هو ما يسبب هذه الحركات : فهي لا تحدث بعد تعطيل هذا الدماغ (١٧٤٦) . ورأى « اونز » ، الاستاذ في « هال » ، أن الجسم مركب من عدة « آلات حيوانية » تنبض بقوة نوعية خاصة بها وتحدث مباشرة وفجـأة حركات حيوانية تقي جسم الحيوان بدون أي تدخل من الدمـاغ ، وبدون وعي وبدون ادراك . تؤمن الاتصال بين هذه « الآلات الحيوانية » عقد وضفائر عصبية تعكس الانطباعـــات الخارجية وتحدث الحركات الانعكاسية (١٧٧١) .

ورأى « بروشاسكا » ، الاستاذ في براغ ، ان « المركز الحسي المشترك » (الانتفاخ النقاري والنخاع الشوكي) ، يؤمن ، بمعزل عن الدماغ ، بقاء الجهاز العضوي ودفاعه ضد اسباب الفناء على انواعها . تسبب الأعصاب الحسية ، بفعل اتصالها بهذا « المركز الحسي المشترك » ، تحول الانطباع الى حركة . ويتم الانطباع الحسي عند مستوى عقد الاصول الخلفية للأعصاب الفقارية .

تحاشى هؤلاء العلماء الثلاثة التعرض لطبيعة الخلـط العصبي والقوة العصبية — وتبنوا الطريقة النيوتونية فاكتفوا بدرس خصائص الاعصاب لمحـاولة تحديد نواميس حيوانية دونما اكتراث للآلية الكرتزيانية والنظريات الطبيعية: إلا أن الأدنى لا يفسر الأعـلى . ولعل الحياة نسقه النوعي ونواميسه الخاصة .

مذهب التحول

بيد أن فكرة تطور الكائنات وتبدلاتها البطيئة والتدريجية والمستمرة وقابليتها الكبرى للتغير كانت سائرة قدماً ومؤدية شيئاً فشيئاً إلى مذهب التحول . وقد أوحت وقائع كثيرة بهذه الفكرة : الحيوانات المتحجرة المجهولة في ايامنا هذه ؛ الطابــع

الصنعي الذي يرتديه النوع والوسائط الكثيرة بين الانواع المتقاربة ؛ نجاحات علم التشريح المقارن على يد الفرنسيين « دوبنتون » الذي شرّح لبوفون ، بين السنة ١٧٤٩ والسنة ١٧٦٧ ، ١٨٣ نوعاً من الضرعيات ، و « فيك دازير » ، طبيب ماري - انطوانيت ، الذي قارن بين الهياكل العظمية والقلوب والمعد عند الطيور والاسماك ، فاكتشفا وحدة تخطيط التركيب : ان التخطيط العام لتركيب هذه الحيوانات متماثل ، والاعضاء نفسها موجودة عند جميعها في الوضع النسبي نفسه ومركبة من الاجزاء نفسها وفاقاً للترتيب عينه ، كما لو كانت كلها منحدرة من جد مشترك ؛ ورأيا تشابه الخَلْق ونوع الحياة الذي حمل على الاعتقاد بالمطابقة للبيئة . واتجهت الاتجاه نفسه جغرافية بوفون الحيوانية : لما كانت الفوارق بين الحيوانات نفسها تتبع المناخ والنباتات وارتفاع سطح الارض ، فلا يمكن أن ترد الا الى تغيرات تحدث بتأثير العوامل الطبيعية ؛ واظهر علم الوظائف أهمية العوامل الطبيعية والكيميائية في حياة الأجهزة العضوية ؛ وبدت بعض الوقائع الغريبة وكأنها تشير في الطبيعة الى قوى مجهولة غير اعتيادية : فقد رأى « ترمبلي » الهدريات المقطعة إرباً إرباً تستعيد تكوينها مرة أخرى ؛ وابر الهدريات برؤوس في اوضاع غريبة بعيدة التصديق جداً . وابر « دوهاميل - ومونسو » ، في السنة ١٧٤٦ ، رأس الحيوان بصيصة الديك . وشاهد ريومور ، في السنة ١٧١٢ ، تجدد تكون رجل السرطان المقطوعة ؛ كما شاهد سبالنزاني في السنة ١٧٦٨ تجدد تكون رأس حلزون مقطوع الرأس؛ ورأى بونّيه في السنة ١٧٨٠ تجدد تكون عين سمندر ماء .

وهكذا فقد نشأت نظرية التحول باكراً في ذهن الفرنسيين . فعالم الرياضيات والفلكي « موبرتوي » ، الذي استنار باختبارات تهجين عديدة ، قد عبر عن فكره تعبيراً تحولياً في « الزهرة الطبيعية » (١٧٤٥) و « نظام الطبيعة » (١٧٥١) و « علم نواميس العالم العامة » (١٧٥٦). بيّن تبدلات حاصلة بتأثير المناخ والاغذية وقابلة الانتقال منذ التوالد الأول : « ألا نستطيع أن نفسر بذلك كيف أمكن حصول تعدد أكثر الانواع تبايناً انطلاقاً من فردين فقط؟» لقد تصورت في ذهنه منذ ذاك التاريخ فكرة المطابقة للطبيعة والانتقاء الطبيعي ؛ ولّد اتفاق هذه التأثيرات الطبيعية عدداً غفيراً من الأفراد ؛ فما كان منها سيء التركيب ولم يستطع سد عوزه قد انتهى الى الاضمحلال ، أما ما تبقى فقد عرف البقاء بفضل « بعض علائق الانتفاع » .

اما آدنسون فقد اقتنع بقابلية التبدل لدى الانواع . تحقق ظهور انواع نباتات جديدة ، اما باخصاب نباتين مختلفين من نوع واحد ، واما بالزراعة والتربة والمناخ والجفاف والرطوبة والظل والشمس .قد تزول هذه التبدلات في التوالد اللاحق ، ولكنها قد تنتقل بالوراثة ايضاً: فيتكون من ثم نوع جديد .

خلص بوفون الى القول ان الحمار ليس سوى حصان فسد نوعه بتأثير المناخ والغذاء ؛ وان الانسان والقرد ينحدران من اصل واحد على غرار الحصان والحمار ؛ وان « كل فصيلة ، سواء

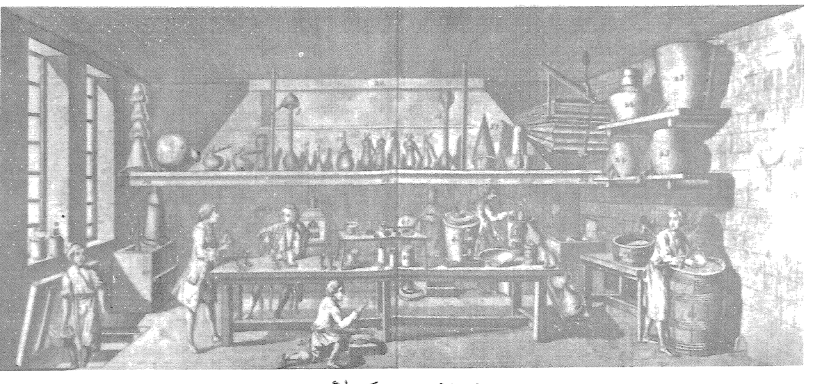


١- السير في باريس

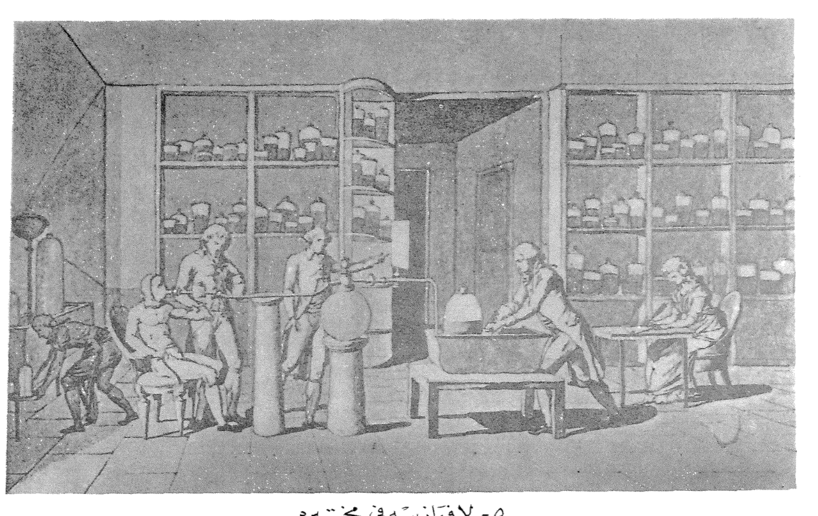


۲-۱ اختبار كهربائي

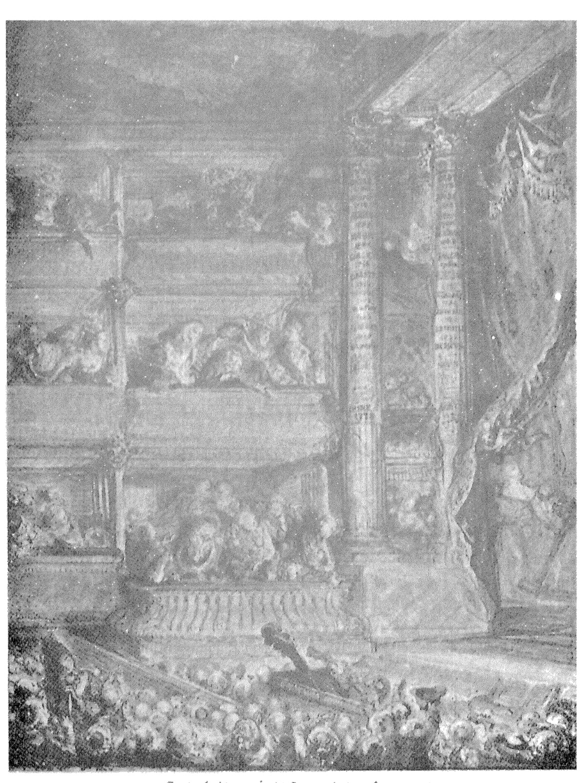
٣- اِختِبار مغناطِيسِي



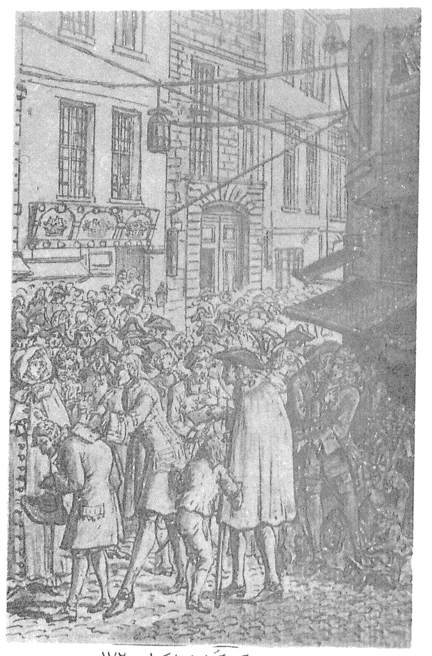
٤ـ مختبر كيميائي



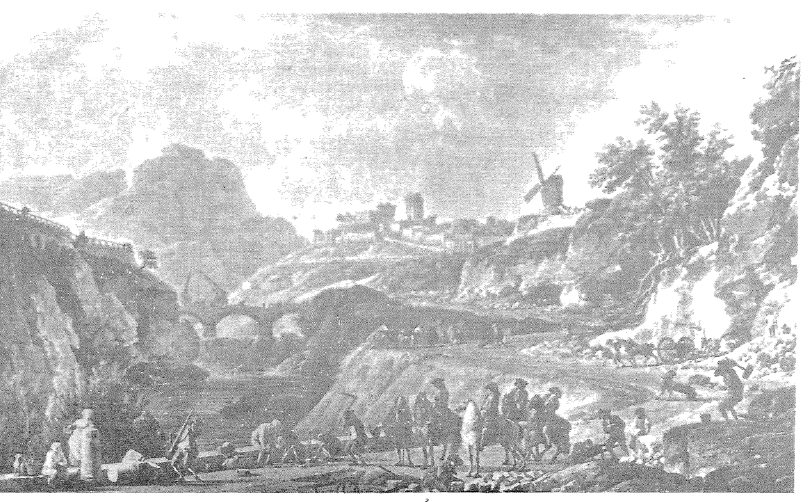
٥- لافوازييه في مختبره



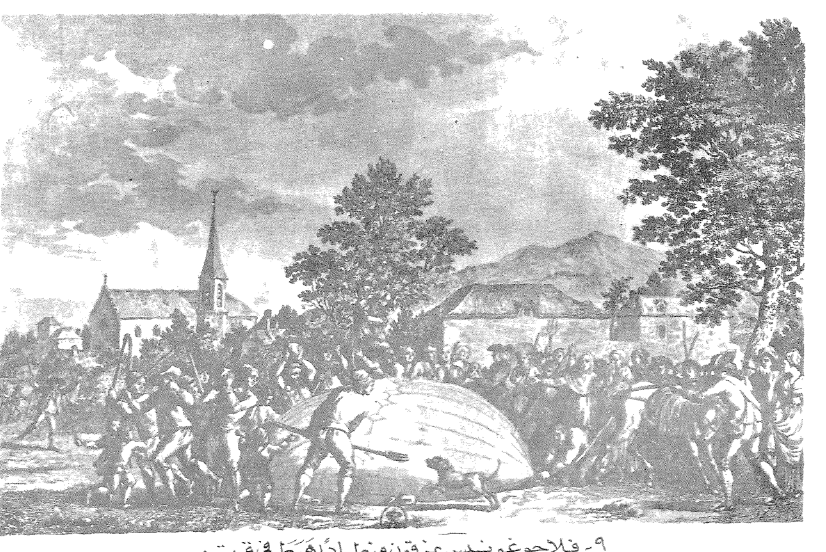
٦- تتويج فولتير في المسرح الفرنسي



٧- شارع كِنكَامبوا عام ١٧٢٠



٨ ـ إنشاء طريق عام



٩ - فلاحو غونيس يمزقون منطاداً هبط في قريتهم

١٠- منشأ اللقاح



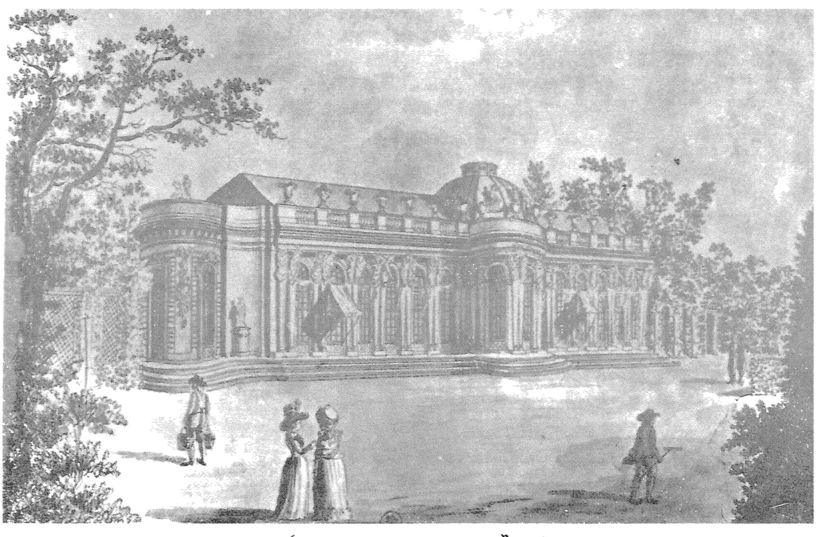
١١- منظر دار "سوبيز" مِن جهة الشارع



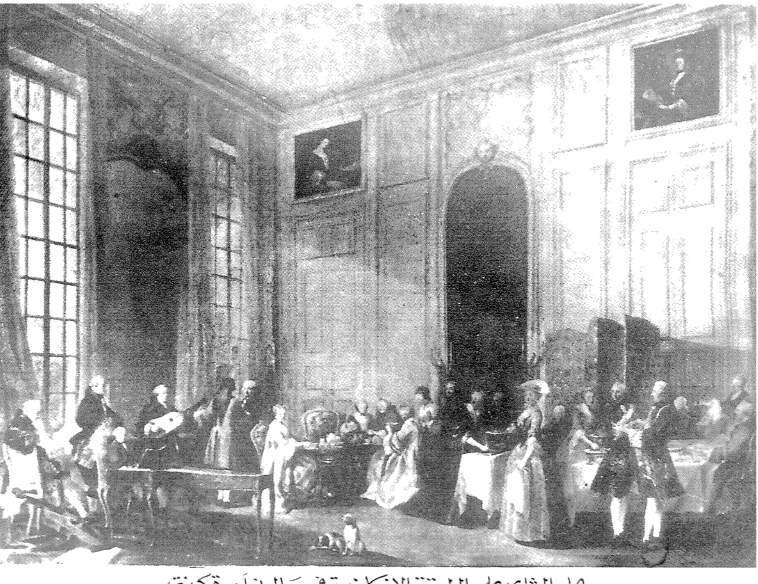
١٢- قاعة الاستقبال في اللوفر عام ١٧٥٣



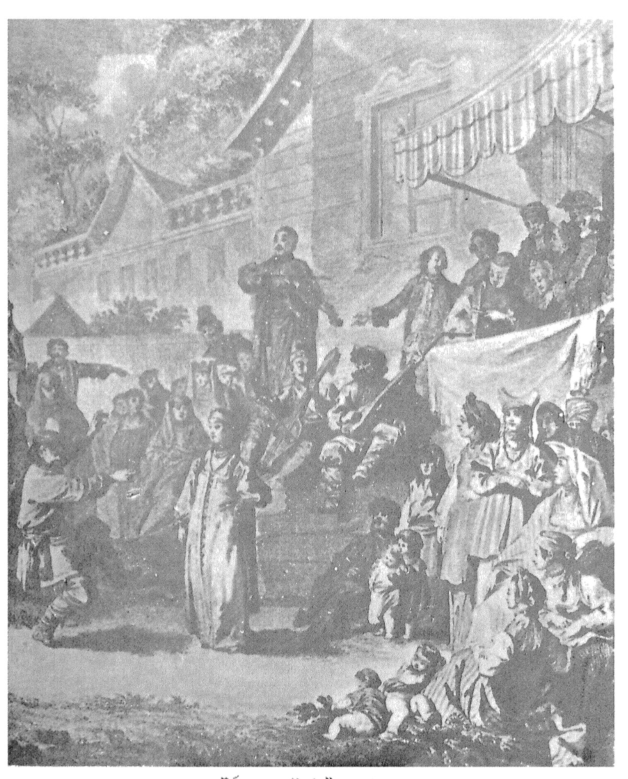
۱۳- رَمز ”جرسِین“



١٤ - قصر "سان سوسي" في بوتسدام



١٥- الشاي على الطريقة الانكليزية في صالون أميرة كونتي



١٦- رقصة روسية

عند الحيوانات او النباتات ، تنحدر من ارومــة واحـدة ؛ « لا بل ان كافـة الحيوانات انحدرت من حيوان واحد ولـّـد ، في تعاقب الازمنة ، بتحسن او فساد نوعه ، كافة اجـناس الحيوانات الاخرى ... » بتأثير الظروف الخارجية التي تسبب تبدلات تدريجية تنتقل الى الذراري .

بيد ان كل ما ذكرنا ما زال متشتتاً في المؤلفات ، ثانويا ، عارضاً ، اي انــه ما زال نظرة سريعة الزوال . الا ان الفكرة قد رأت النور . وكان مقدراً لـِ «لامارك» ، مؤدب ابن بوفون ، ان يجعل منها نظرية كاملة في اوائل القرن التالي .

الفصل السابع

علوم الانسان

احرزت علوم الانسان تقدماً كبيراً وان بقيت ناقصة جداً . نرى فيها روح « علم الطبيعة » وسياقه . الروح : العلل الغائية الغيت ، والعناية الالهية أقصيت ، ومبدأ الحتمية سلم به ؛ الانسان لا يريد ان يأخذ بعين الاعتبار بعد اليوم سوى العلل الفاعلة الطبيعية : البيئة الطبيعية ، الحاجات البشرية ، العواطف ، الاهواء ، الأفكار ؛ الطرائق المعتمدة هي ملاحظة الوقائع ملاحظة مباشرة أو بواسطة الشهود ، والبرهنة الاختبارية . السياق : وصف الظواهر وصفاً دقيقا ، بذل الجهد بغية التوصل في هذا المجموع الى معيات او ترادفات دائمة ، تمييز التلاحم والارتقاء الى النواميس ، والنزوع الى رد النواميس الى أقل عدد ممكن من المبادىء العامة . ولكن صعوبة تطبيق الأداة الرياضية على أكثر الوقائع تعقدا وتحركا وتشابكا ، التي غالبا ما لا يدرك العالم منها سوى رسوم غير كافية ، أخرت اكتمال هذه العلوم ، فبقيت وقتا أطول في المرحلة الوصفية ، مرحلة التاريخ .

علم طبائع الانسان

أسس بوفون علم طبائع الانسان والجغرافية البشرية . درس الانسان نوعا بعد أن ُدرس من قبله فرداً . في السنة ١٧٤٩ ، اثبت في كتابه « تاريخ الانسان الطبيعي » وحدة الجنس البشري . ان نوعين مختلفين يولّدان فروعا عقيمة ؛ والحال كل الفروع البشرية مخصبة . اذن الانسان يؤلف نوعا يضم تنوعات هي الاجناس التي تختلف بفعل المناخ والغذاء وطريقة الحياة . « ليس الانسان الابيض في اوروبا والأسود في افريقيا والاصفر في آسيا والاحمر في اميركا سوى الانسان نفسه متخضبا بلون المناخ » . ولكن البشرية واحدة تتميز أبداً تميزاً متزايداً عن الحيوانية بالذهن والعقل. الذهن هدف الانسان وهو في الوقت نفسه سعادته . وهكذا فقد انتهى العالم المادي للدين الى استنتاج روحاني .

العلم الواسع

ان علم المجتمعات البشرية المتكونة في نطاق النوع ، الذي سيدعوه « اوغست كونت » علم الاجتماع ، كان في طريق التكون. وان طريقة التاريخ النقدية ، التي سيستخدمها هذا العلم بالنظر الى ان الملاحظات المباشرة غير كافية ابداً والى انه يجب اللجوء

الى الشهادات في الماضي البعيد او في الماضي القريب القريب الذي ندعوه حاضراً ، كانت معروفة تمام المعرفة بفضل جهود قرنين ونيف . فالفرنسي « لويس دي بوفور » يعطي عنها ، في كتابه « بحث في الشكوك التي تحوم حول القرون الخمسة الاولى من التاريخ الروماني » (١٧٣٨) ، امثلة جميلة يمكن ان يستخلص منها بسهولة دراسة منسقة قانونية . بوفور في حالة الشك الكرتزياني، الذي هو ثمرة محبة شديدة للحقيقة . فهو يتفحص تأكيدات المؤرخين الاقدمين . يجد منها ما ينطوي على تناقض . يريد استثباتها . يجب لذلك جمع المستندات الأكيدة لأن قيمة عمل المؤرخ ترتكز الى قيمة مصادره . ولكن يجب التيقن من ان المستندات صحيحة ومن انها لا تزال في حالتها الاولى ، فيجب من ثم الفحص عن كيفية وواسطة انتقالها وتتبع سيرها حتى ايامنا هذه . بعد جمع المستندات يتوجب فهمها . يجب قراءتها دون « انشغال » ، والحرص على ان لا يطلب من النص ما يتوخاه المؤرخ ، وفهم التعابير بالمعنى الذي تتضمنه طبيعيا ، واستخلاص النتائج التي تتولد منهـا تلقائيا . يجب الانتباه كل الانتباه الى الكلمات ، واذا انطوت على اقل غموض ، يجب البحث عن المقاطع الأخرى التي استعملت فيها لتعيين معناها الصحيح في سياق الكلام .

نعرف الآن ما تقوله النصوص . فهل تقول الحقيقة يا ترى ؟ يجب هنا التمسك بمبدأ عدم التناقض الذي هو القسم الاساسي في البرهان . كل ما ينطوي على تناقض يجب رفضه : كل ما يناقض نواميس الطبيعة او الاحتمال العقلي باطل مهما كان من عدد وشهرة المؤلفين . اذا كان هنالك تناقض بين نصوص قد يقبل بها العقل ، يجب اذ ذاك التمييز . يجب ابداً تفضيل تأكيد مستند صحيح على تأكيد المؤرخ ؛ وتأكيد مؤرخ من بين مؤرخين يتفق ووقائع تاريخ بلدان اخرى يرتبط بتاريخ البلاد المعنية ؛ وتأكيد من يكتب ضد مصلحته الخاصة بعد التعمق في درس الموضوع ؛ وتأكيد من لا يتوخى التجميل او التعييب ؛ يجب الوقوف موقف الحذر من الاكثار من التفاصيل التي تستلزم شاهد عيان مدقق : ان هذا الاكثار ينطوي على التناقض لأن الفرصة نادراً ما تسنح للملاحظة الدقيقة الواضحة . يجب البحث عن غاية المؤلف واصوله وخلقه وعاداته في العمل وظروف كتابته .

يجب اخيراً ، بواسطة الاستشهادات والاسنادات ، تمكين القارىء ، الذي يفرض عليه الشك والتفحص والتقرير بالإستناد الى مبدأ عدم التناقض ، اصدار حكمه على النتائج بذاته . ان هذه الطريقة احدى اجمل ثمار مذهب العقليين .

مارسها بوفور خير ممارسة . ولكنها كانت ملكا مشتركا . فقد مارسها كذلك كافة العلماء الواسعي الاطلاع ، كما مارسها المؤرخون ، اقله في احسن اوقاتهم . تسرعوا احيانا في الاعتقاد بوجود التناقض ، وبالغوا في الاركان الى معرفتهم الناقصة للنواميس الطبيعية ، وغالوا في احترام الاحتمال العقلي : « ان ما هو حقيقي قد يكون احيانا غير محتمل عقليا » ؛ وقد يبدو

لنا غير محتمل عقليا ما هو غير مألوف . فانزلقوا من ثم ، على غرار فولتير ، الى النقد المفرط الذي هو مصدر اخطاء خطيرة . ولكنهم انجزوا على العموم عملاً كبيراً جداً .

واصل القرن الثامن عشر جهود القرن السابق في حقل العلم الواسع. اكتشفت كمية ضخمة من النصوص واستنسخت ونشرت . ووضعت جداول مسهبة بالمؤلفات . وجمعت المعلومات حول انتقال المستندات ، ومؤلفيها ، واوجه استخدامها ، والجغرافية وكيفية التاريخ في عهدها ، اي كل ما قد يفيد في التمييز بين ما هو صحيح وما هو غير صحيح . انجز عمل جبار في كل مكان ، ولا سيما في فرنسا على يد البندكتيين و«اكاديمية الكتابات والآداب الجميلة» . ويؤلمنا هنا الا نستطيع ذكر ذاك العدد الغفير من العمال المهرة المتفانين حتى التضحية ، ومن المؤلفات الكبرى والبالغة الاهمية . بات بالامكان تجديد التاريخ القديم واكتشاف القرون الوسطى واكتشاف حضارات آسيا، سيدخل كل ذلك في امجاد القرن اللاحق . فتح «بريمار» النحوي « وغوبيل » مترجم « شو-كنغ » ابواب تاريخ الصين القديمة . وفي السنة ١٧٦٢ جاء الفرنسي «انكتيل - دوبرّون» الى باريس بـ ١٨٠ مخطوطاً زنديا وبهلويا وفارسيا وسنسكريتياً. وفي السنة ١٧٧١ نشر ترجمة «زند - افستا» . وفي السنة ١٧٩٣ استند «سيلفستر دي ساسي» الى قاموسه البهلوي وحل ألغاز كتابات الملوك الساسانيين . كما ان الانكليزي « جونز » ، رئيس جمعية كلكوتا الآسيوية ، التي تأسست في ١٥ كانون الثاني من السنة ١٧٨٤ ، قد نشر في السنة ١٧٨٩ ترجمة للمأساة الهندية « شاكونتالا » ، وباشر في السنة ١٧٩٤ نشر شرائع « مانو » . فبدأ الشرق يخرج من الاساطير . الا ان مصر وبلاد ما بين النهرين بقيتا مجهولتين .

علم الاجتماع

جمعت النصوص ونقدت وادركت واثبتت الوقائع ووضعت في إطارها الزماني والمكاني ، فمست الحاجة الى الأعمال الضرورية التالية : تصنيفها وفاقاً لتشابهها، تحديد علائقها وترابطها ، واستخلاص النواميس منها ، ورد هذه الأخيرة الى بعض المبادىء العامة الخاضعة لمبدأ اصلي . ليس هذا النهج المنطقي المثالي ، في الواقع ، نهج القرن الثامن عشر، اذ ان عمل العلماء الواسعي الاطلاع والمؤرخين السابقين قد اتاح ، منذ النصف الاول من القرن ، لبعض ذوي العقول النيرة ، محاولة العمليات الأخيرة .

فان الايطالي « فيكو » (١٦٦٨ - ١٧٤٤) قد نشر كتابه « مبادىء علم جديد » في السنة ١٧٢٥ . انه احد مؤسسي علم الاجتماع بعد « ماكيافلي » و « جان بودين » . في رأيه ان الله يوجه التاريخ نحو انتصار كنيسته . ولكن اذا كان هناك الله ، العلة الاولى ، فان هناك العلل الثانوية ، الطبيعية . يكتفي فيكو بدرس نواميس التاريخ الطبيعية بمعزل عن كل تدخل عجائبي. يوجد نظام ازلي يسير الأمور ، وناموس مثالي يخضع له نمو كل أمة ، وهذا لعمري رأي افلاطوني ، ولكنه رأي نيوتوني ايضاً : ان ظواهر مختلفة كثيرة تحدث وفاقاً لناموس واحد. يكتشف العالم هذا الناموس بملاحظة الدلائل التي خلفتها البشرية : لغات الامم القديمة ومؤلفاتها،

الاساطير والخرافات ، القصائد القديمة ، الشرائع الاولى ، التي هـي انعكاسات احوالنا السيكولوجية السابقة واحوالنا الاجتماعية الاولى . فليس والحالة هـذه من حاجة الى القراءة لرؤية حركة الاهواء البشرية المشتركة ، ومتابعة رواية مؤثرة ، وتذوق تعابير متناسقة او لاذعة ، بل الى التوقف عند الكلمات والتراكيب التي تدل على شكل خـاص مـن اشكال التفكير والشعور ، او عرف ، او تنظيم نوعي ، والاستعانة بذلك لاستعادة حالة البشرية الاولى . هذا هو « العلم الجديد » . فيكو يثبت وحدة الجلس البشري . ان في البشر بصيرة عامة ، وقـوة تمييز دون تفكير تشمل الجلس البشري كله ، وامة بكاملها ، وطبقة بكليتها ، و « افـكاراً متماثلة نشأت في آن واحد عند شعوب كاملة يجهل بعضها البعض الآخر » . وهكذا فاننا نجد عند كل الأمم نظماً مشتركة وتطوراً متشابهاً . في امة معينة يخضع كل شيء لحالة الافكار : الدين ، والطبقات الاجتماعية ، والحق ، والحكم ، ونوع الحياة ، تنجم عنها وتصل بينها علائق انتفاع . اذا وجد احدها ، وجدت كلها . هكذا يصف فيكو ظروف وجود مجتمع في وقت معين ، او التوازن الاجتماعي . ولكن الفكر البشري يتحول ، يتطور ويمر في سلسلة احوال تتجدد ابداً ، ويسبب تحولا في المجتمعات التي تمر في سلسلة احوال مقابلة تتجدد ابداً ايضـا . الافكار تسير العالم . هكذا يثبت فيكو سنة تطور المجتمعات ، يدرس علم القوى الاجتماعية : حالة طبيعية بربرية ، ثم حالة ثيوقراطية عائلية ، وحالة ارستوقراطيـة في المدن تسيطر المخيلة عليها كلها سيطرة تخف وطأتها تدريجيا ، وحالة ملكية يتغلب فيها العقل ، ثم تقهقر وانحلال وعود على بدء . ليس التطور غير محدد بل دوريا ، يؤلف كلاً يتجدد مع كل امة . انه تكرر دائم .

كان فيكو مشوش التفكير غامض التعبير ، فلم يعرف الشهرة في زمانه ، ومع ذلك كان له بعض التأثير . فان مونتسكيو قد قرأ مؤلفاته ، وعبر في ملاحظاته الشخصية عن مقدار الأثر الذي تركته فيـه نظريات فيكو ، وعن طريق مونتسكيو انتقل رأيا فيكو الرئيسيان ، التوازن ، والتطور ، الى القرن كله . وكان مقدراً لفيكو ان يترك اثراً اعم وأعمق في القرن التاسع عشر ، ولا سيا في « فوستيل دي كولانج » . كانت آراؤه الموجهة الهامـة صحيحة . اخطأ هدفه بسبب افتقاره الى المواد الكافية . أمـا اليوم ، أي بعد قرنين من العمل التاريخي المثمر ، فتجدر العودة الى محاولته .

اصاب الفرنسي مونتسكيو (١٦٨٩ – ١٧٥٥) في كتابته حول علم القوى الاجتماعية في مؤلفه « اعتبـارات حول اسباب عظمة الرومان وانحطاطهم» (١٧٣٤) ، وحاول توضيح التوازن الاجتماعي في كتابه « روح الشرائع » (١٧٤٨) . كان رجل شرع ثرياً ، وتولى ردحاً من الزمن رئاسة محكمة بوردو ، ثم ما لبث ان تكرس بكليته لعمله الذي انكب عليه طيلة ثلاثين حولا . كان كرتزيانياً يكثر من الاستنتاجات ، ولكنه كان عالماً بالطبيعيات والتاريخ الطبيعي ايضـاً ورحالة بصيراً ومطالعاً لا يعرف الكلل ، فكانت طريقته الرئيسية الملاحظة والاستدلال : الوصف ، التحقق ، الارتقاء من الوقائع الى نواميسها ومن النواميس الى المبادىء ،

وهو نهج يحجبه بعض الشيء في مؤلفاته نسق العرض الذي يختلف طبعاً عن نسق الاكتشاف . وقد صرح بذلـك بوضوح في مقدمة « روح الشرائع » . بدأ يلاحظ رغبة منه في المعرفة والمشاهدة : « تفحصت البشر أولا » ؛ تصورت امامه فكرة كتابه الاولى : « واعتقدت انهم ليسوا مسيرين في هذه الشرائع والاخلاق المختلفة الكثيرة ، بشهواتهم واهدافهم دون غيرها » . واصل حينذاك ابحاثه ومحاولاته : « مراراً كثيرة شرعت في هذا المؤلف ومراراً كثيرة اعرضت عنه ... سرت في موضوعي دونما قصد ؛ كنت جاهلاً القواعد والاستثناءات ، ولا اكتشف الحقيقة إلا لاضاعتها » . واخيراً توضحت فكرته العامة ، واستطاع صياغة نظرياته : « ولكن حين اكتشفت مبادئي ، جاء إلي كل مـا كنت ابحث عنه ... وضعت المبادىء » ، ومنذ ذاك الحين اخذ يستثبت نظرياته ويحولها نواميس : « ورأيت الحالات الخاصة تخضع لها كما من ذاتهـا وتواريخ الامم كلها كما لو كانت ذيولا لها ، وكل ناموس خاص ، مرتبط بناموس آخر ، يرتبط بناموس اوسع شمولا » .

الطبيعة كلها تدار بنواميس طبيعية ، على غرار « آلة » مدهشة : ان النواميس ، في اوسع مفاهيمها ، هي العلائق اللازبة التي تنجم عن طبيعة الاشياء ، ولكل الكائنات نواميسها في هذا المعنى ». ولكن المجتمعات البشرية هي ايضاً كائنات طبيعية وتخضع لنواميس طبيعية . يجب ان تكون الشرائع التي يسنها البشر ، أي الشرائع الموضوعية ، مرتبطة ارتباط انتفاع بالنواميس الطبيعية وفيما بينها. الانسان حر ،وقد يحدث ان تخالف شريعته « العلائق اللازبة » : فلا ينجم عن ذلـك سوى السوء . يتوجب من ثم على الانسان ان يعرف هذه العلائق كي يحترمها ويستخدمها . ويفرض ان تكون « الشرائـع البشرية من الموافقة للشعب الذي سنت من اجله بحيث يصبح اتفاقـاً نادراً ان تكون شرائع امة مناسبة لامة اخرى . يجب ان تطابق طبيعة الحكم القائم أو المراد اقامته ... يجب ان تكون مختصة بطبيعة البـلاد ، بالمناخ البارد أو الحار أو المعتدل ، وبنوع البقعة وموقعها واتساعها ونوع حياة السكان الفلاحين أو القناصين أو الرعـاة ، وبدرجة الحرية التي يمكن ان يقبل بها الدستور ، وبدين السكان وميولهم وثرواتهم وعددهم وتجارتهم واخلاقهم وطرائقهم . ولها اخيراً ارتباطات فيما بينها ؛ لهـا ارتباطات بمصدرها ، بالنظام العـام الذي استند اليه في وضعها ، بمقصد المشترع . يجب مراعاة كل هذه الاعتبارات عند النظر اليها » . بحسب هذه الاسئلة ، حدد هذه العلائق اللازبة في كل مؤلفه ، وهو تعاقبها ما يؤلف مخططه الذي تحجبـه بعض الشيء تجزئـة مفرطة معدة لتسهيل القراءة تضيع سياق الافكار .

حتمية ونسبية ، هذان هما المبدآن الاساسيان . المعطية المعينة تستلزم شريعة معينة وتستبعد شريعة اخرى معينة . هذه الحتمية تؤمن حرية الانسان الذي قد يكون اعزل من السلاح في عالم قد يؤدي كل عمل فيه الى نتائج متقلبة جداً ، فيستحيل التبصر والتنظيم والعمل ، وقد يكون فيـه الانسان مستعبداً لقوى عمياء . كما هو يستخدم نواميس العالم الطبيعي ، كذلك يستطيع

استخدام شرائع العالم الاجتماعي ، خصوصاً في سبيل التوصل الى هذا الخير الاسمى ، المناسب لطبيعته البشرية ، الحرية . ويتحول مونتسكيو في كل برهة الى مهندس اجتماعي ، فيظهر السلوك الواجب للتوصل في كل حالة الى اقصى حد ممكن من الحرية والانسانية . فالسلطات الثلاث مثلاً هي في الدولة السلطة التشريعة والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية . في اوروبا الغربية يجب ان يفصل بينها وتسند الى اناس مختلفين حتى تحد من كل منها السلطتان الاخريان وتراقباها ، وبغية الحيلولة دون الاستبداد الذي قد يفضي إليه تركزها إما في ملك وإما في عدد من النبلاء وإما في أيدي الشعب .

أفرغ الكتاب في لغة متينة ، عادمة السهولة ، مؤثرة ، صافية وكثيفة كالبلور حينا ، أو زاهرة وقاطعة كحد الفولاذ حيناً آخر ، فعرف نجاحاً عظيماً جداً ، وترجم الى كل اللغات ، وألهم الملوك والسياسيين ورجال الشرع والمؤرخين في كافة البلدان ، وأوحى بالدستور الأميركي في السنة ١٧٨٧ ، وبالدستورين الفرنسيين في السنة ١٧٩١ وفي السنة الثالثة ، وبالدستور البروسي في السنة ١٧٩٢ ، وبمعظم دساتير القرن التاسع عشر . وان « كارل ماركس » نفسه مدين لمونتسكيو ايضاً . ولكن مقاصد مونتسكيو لم تكن سهلة الادراك ، فلم يفهمه الناس كثيراً : وراح أكثرهم يبحثون عنده عن مقتطفات انطوت ، بفصلها عن النص ، معنى وقع من أنفسهم موقع الرضى .

الاقتصاد السياسي

لم يخلف أحد مونتسكيو مباشرة . الا أن روح كتابه وكثرة المسائل التي طرحتها تأكيداته على بساط البحث قد أوحت بعدد كبير من الأعمال الجزئية . أما الذين اقتربوا منه في الواقع أكثر من سواهم ، باعارة النواميس الطبيعية اهتمامهم دون تبني مبدأ النسبية الذي قال به ، فهم الاقتصاديون الذين اعتبروا الزراعة مصدر الثروة الوحيد .

كان « كيناي » (١٦٩٤ – ١٧٧٤) طبيب لويس الرابع عشر ، وعالماً احيائياً ، وملاكاً كبيراً . فاستفاد من ملاحظات كثيرة وعبّر عن آرائه في فصلي « المزارعون » و « الحبوب » من « دائرة المعارف » (١٧٥٦ – ١٧٥٧) ، في « الجدول الاقتصادي » (١٧٥٨) ، وفي « الحق الطبيعي » (١٧٦٥) . ثم جاء تلاميذه فرسموا شكل « العلم الجديد » الذي بلغ منذ نشأته « أقصى درجات الوضوح » ، وأطلق عليه « ديبون دي نمور » اسم « فيزيوقراطيا » أو حكم الطبيعة .

تؤلف الظواهر الطبيعية وقائع تخضع لبعض النواميس النابعة من طبيعة الاشياء ، وتشكل هذه النواميس مجموع آقيسة ، أو علما . انها من وضع الله تعالى ؛ وهي جزء من نواميس الطبيعة بل هي أفضلها اطلاقاً .

ليس المال شيئاً يذكر ، انه مجرد واسطة عقيمة . الثروة الحقيقية نتاج قابل الاستهلاك دون

أن تؤدي الى انقاص المادة التي ساعدت على ايجاده . الزراعة وحدها تعطي مثل هـذا النتاج «النتاج الصافي» . الصناعة لا تعطي نتاجاً صافياً ؛ انهـــا تحول شكل المواد الراهنة ، وتحدث بعملها هذا أشكالاً مفيدة ، ولكنها تنقض المادة دون الاعاضة منها . وينحصر عـــل التجارة في نقل ومقايضة هـذه المصنوعات . الفلاح وحده يخلق مادة جديدة ويكوّنها ثانية ويضاعفها. لذلك فان الطبقة الاساسية هي طبقة الملاكين العقاريين الـتي استصلحت الارض ، وتليها طبقة الفلاحين ، ثم جميع الآخرين ، « الطبقة العقيمة » . يجب ان يخضع كل شيء للانتاج الزراعي . ويجب من ثم الاكثار من الملكية الفردية بالغاء المشاعات وتحرير الزراعة من حقوق الارتفـاق الجماعية والحقوق الاقطاعية ، وتشجيع الاملاك الكبرى القادرة وحدهـــا على توفير التسليف والزراعة العلمية ، وتأمين البيع الوفير بسياسة الاجور المرتفعة ، والغـلاء او « السعر الجيد » بحرية التجارة ، وزيادة الثروة قبل السكان .

الملك حق ناجم عن مشيئة الله، وهو من ثم حق طبيعي . وكذلك الحرية التي تسمح وحدها بممارسة حق التملك ، والامن ، وعدم المساواة ، والاستبداد، لان دور الحكم محصور في أن يعبر بلغة بشرية ، في الشرائع الموضوعية ، عن النواميس الطبيعية الـــتي لا تقبل جدلاً .المستبد يجبي الضرائب الضرورية من الملاكين دون غيرهم ، لانهم دون غيرهم يحصلون على نتاج صاف، فمصالحه ومصالحهم واحدة ، ويجب ان يكون حقه في السلطة وراثياً على غرار حقهم في التملك ، وان لا يؤدي حسابا الا لهم أو لمندوبيهم ولضميره وفاقاً للنواميس الطبيعية .

جاء النجاح عظيماً . وقـــد صرح ميرابو ان « الجدول الاقتصادي » يشكل، بعد ابتكار الكتابة والنقد ، ثالث الابتكارات الرئيسية الـــتي حققها العقل البشري . فبات مذهب حكم الطبيعة دينا في فرنسا . وتأثرت به جمعية السنة ١٧٨٩ التأسيسية تأثراً عميقاً. وبلغ من اعجاب كارل ماركس بـ « كيناي » ان رأى فيه مؤسس الاقتصاد المعاصر .

بين تلاميذ كيناي المستقلين عن فكرة المعلم ، « تورغو » ، الذي سيصبح وزيراً في عهـد لويس الرابع عشر ، والذي شدّد الكلام على أن العامـل لا يتقاضى في النتيجة سوى اللازم في اللازم لتأمين معيشته،وهذه هي « شريعة الأجور النحاسية » التي تسمح بتخفيض أسعار الكلفة وتحرم العامل من أمله في الخروج من طبقته وتخلق طبقة من الأثرياء . فرأى تورغو مـع وكيل التجارة وجوب اطـــلاق الحرية للفرد لأنه يدرك مصالحه أكثر من كل شخص آخر : « اتركه يعمل ، واتركه يمرّ » .

بيد أن المؤسس الحقيقي لمذهب الاحرار في القرن التاسع عشر كان تلميذ كيناي الأسكتلندي « آدم سميث » (١٧٢٣ – ١٧٩٠) . في كتابه « محاولة في ثروة الامم »(١٧٧٦)، يصف نظاماً طبيعياً يتحقق حيثما تترك الطبيعة وشأنها ، هو في نظره خير نظام . يميل الانسان طبعاً الى تحسين حاله ، وهو خـير من يتبين مصلحته الشخصية : فيجب من ثم ان تطلق له

الحرية. يجب ان لا تتدخل الدولة الا عندما يعجز الأفراد عن ايجاد المؤسسات المفيدة للمجتمع . ان هذا العالم جمهورية كبرى مواطنوها منتجون ومستهلكون يرتبط بعضهم بالبعض الآخر ، ويجب ان يلتج السلام من الشعور بهذا الارتباط المتبادل .

يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان تحليله للقيمة يجعل منه سلف الاشتراكيين والشيوعيين . العمل هو المقياس الحقيقي لقيمة البضائع وهو ما يحدد سعرها . في البدء عاد كل هذا السعر للعامل . ولكن حين جمع أحد الافراد رأس مال ، أي أرضاً أو مادة خاماً أو أداة ، واستثمره بواسطة العامل ، احتفظ الرأسمالي بجزء من السعر وأعطى العامل ما تبقى أي الأجر . كل منهما يريد أكبر نصيب ممكن من السعر . فتحديد الاجر هو من ثم نتيجة أخذ ورد بين الرأسمالي والعامل يتحولان الى « صراع بين الطبقات » المتنافسة . « أرباب الاعمال يؤلفون ، في كل مكان وزمان ، ما هو أشبه بتكتل ضمني دائم متماثل للحيلولة دون ارتفاع الأجور » . وقد تعبّس سميث حيال اولئك الذين لا ينتجون : « الملك ... وكافة وزراء العدل وكافة العسكريين عمال غير منتجين ... وبالامكان إلحاق الكهنة والمحامين والأطباء والادباء ... بالطبقة نفسها » . وتعبّس كذلك حيال التجار الذين تناقض مصلحتهم المصلحة الاجتماعية . فكانت كل هذه التحاليل مصدر وحي لكارل ماركس .

التاريخ

تفرغ مؤلفون آخرون الى الأعمال التاريخية الوسيطة التمهيدية ، بالنسبة الى بلاد أو عهد معين ، أو بالنسبة الى البشرية جمعاء : ترتيب الاحداث وتسلسلها، وهذا ما يعتبر في أغلب الأحيان تاريخاً بحصر المعنى .

ظهرت سلسلة من كتب التاريخ الخاصة : « قرن لويس الرابع عشر » لفولتير (١٧٥١) ، « تاريخ بريطانيا العظمى » لدافيد هيوم (١٧٥٤) ، « تاريخ اسكتلندا » لـ روبرتسون (١٧٥٩) ، « تاريخ اوسنابروك » لجوستوس موزر (١٧٦٨) . لقد تبدلت روح هذا التاريخ منذ مونتسكيو . اعتبر بوفور والمؤرخون السابقون أن لا طائل تحت المعلومات المتعلقة بالحكومات والعادات ؛ يجب الا كتفاء « بترتيب الاحداث وتحديد تواريخها ، وهذا هو جوهر التاريخ » . أما في نظر المؤرخين الجدد ، فالجوهر هو تاريخ الحضارة . وكان الفرنسي فولتير أول من قال بذلك :

« يجب أن لا يتوقع القارىء الوقوف هنا على أدق تفاصيل الحروب والهجمات على المدن المحتلة والمستردة بقوة السلاح أو المسلوخة والمستعادة بالمعاهدات . فلن نتوقف في هذا التاريخ إلا عند ما يستوقف انتباه كل الازمنة وما يمكن أن يرسم صورة لعبقرية البشر واخلاقهم ، وما يمكن أن يلقي درساً ويحمل على محبة الفضيلة والفنون والوطن » .

الاخلاق ، العادات ، الاعراف ، المعتقدات ، الخرافات ، العادات المستهجنة ، الاكتشافات ،

هذا هو الجوهر[١] . الانسان هو موضوع هذا التاريخ ، وان وجهة النظر هـذه تفضي الى إلقاء نظرة شاملة على تاريـخ البشرية . وهذا ما فعله فولتير في كتابه « محاولة في اخـلاق الأمم وروحيتها » (١٧٥٦) . وكعادته ناقض نفسه مراراً ، وانتهى بصورة خاصة ، هنا كما في كتبه الأخرى ، الى « خواء من الافكار الواضحة » ، ربما لأنه كان يتحاشى التأثر بمظهر واحـد من مظاهر الاشياء بفضل ذكائـه المتفوق . التاريخ محال ، يخضع لاتفاق ، لكوب ماء على فستان ، لأنف غاية في القصر ، ولكنه يخضع كذلك لامراء عظام يصنعونه وفاقاً لمخططات مدروسة ، ثم عنايات صغرى حلت محل العناية الكبرى . يشمل التاريخ ، في جملة مـا يشمل ، اربعة قرون عظمى : قرن بريكليس ، قرن اوغسطوس ، قرن آل مديسيس ، قرن لويس الرابـع عشر . وانما يجب ألا يدرس الفتيان الا التاريخ المعاصر ، المفيد وحده . التاريخ يخضع للأهواء البشرية التي هي هي لا تتبدل ، وكل عهد يشكل كلا يكاد يكون مستقلاً عن المـاضي وغير ذي أثر في المستقبل ، ومع ذلك تتقدم البشرية كما لو كان تقدمها خاضعـاً لسنة معينة . ومهما يكن من الأمر ، فقد استهوت مؤلفاته القراء ، فأوحى بفكرة التاريخ الحقيقي وتذوقه، والقى ضوءاً على احداث كثيرة ، وأثار العديد من المسائل ، وجعل كل المؤرخين مدينين له .

انتهى هؤلاء تدريجياً الى التخلي عن مجرد الاحداث المتماثلة المتعـاقبة في الزمان ، وتوصلوا ، بفضل تقدم دراساتهم وبتأثير العلوم الطبيعية ، الى مفهوم التحولات ، أي مفهوم التطور . فقد أظهر « ونكلمن » ، بكتابه « تاريـخ الفن في العصور القديمة » (١٧٦٤) ، ان الفن يخضع لتطور المخلوقات العام ، يولد ويتفتح ويشيخ ويموت . انه ظاهرة حية . وتصور آخرون تقدماً تحرزه البشرية انطلاقاً من الهمجية نحو كمال العقل . فبعد تورغو و « دائرة المعارف » اللذين طلعا بالفكرة[٢] ، ألـّف الالماني « لسـّنغ » كتـابه « تربية الجنس البشري » (١٧٨٠) ، كما ألف مواطنه « هردر » كتابه « آراء في فلسفة تاريـخ البشرية » (١٧٨٤ — ١٧٩١) . ولكنهما استنجدا بإله مبهم أو بحياة الكون السرية . فجاء ما كتباه بحثـاً فلسفياً في المعقولات اكثر منه علماً بحصر المعنى . أما الفرنسي كوندورسيه فكان أبعد موضوعية منهما في كتـابه « تخطيط لوحة تاريخية لنجاحات العقل البشري » (١٧٩٤) ، فكمل عمل بوفون في « تواريخ الطبيعة » وصاغ سنة التقدم : « ان قابلية الانسان للتكامل تتجاوز في الواقع كل حد » ، وليس لها « من أجل سوى ديمومة الكرة التي القت بنا الطبيعة فيها » ؛ « ولن تسير ابداً الى الوراء » ما دامت ظروف الكرة الطبيعية هي هي دون تبدل . التطور متواصل : « ان نتيجة كل هنيهة حاضرة تتوقف على نتيجة الهنيهات السابقة ، وتؤثر في نتيجة الهنيهات الـلاحقة » . التطور يصدر عن

---

(١) بولنغبروك ، (١٧٥٢) : « التاريخ والفلسفة يعلماننا بالامثال كيف يجب ان نسلك في كافة ظروف الحياة العامة والخاصة » .

(٢) اوضح تورغو في «خطبة في نجاحات العقل البشري» سنة الحالات الثلاث الشهيرة، الحالة اللاهوتية، والحالة الميتافيزيقية ، والحالة الموضوعية ، لاوغست كونت .

اسباب واضحة ومتميزة : يكوّن الانسان باستمرار افكاراً جديدة ، بالجمع بين ما توفره له منها حواسه ، وباتصاله بسواه من البشر ، وبوسائل صنعية ، كالكلام والكتابة والجبر ، يبتكرهـا ابداً ودائماً . ترتسم اللوحة بملاحظة مترادفة تتناول المجتمعات البشرية في مختلف العهود التي مرت بها ، ، وستفضي بالانسان « الى تأمين واستعجال النجاحـــات الجديدة التي تسمح له طبيعته بارتجائها » . عشرة « عهود » تعاقبت : ١ . تجمع البشر عشائر وقبائل ؛ ٢ . الشعوب الرعاة ، والانتقال من هذه الحال الى الشعوب الفلاحين؛ ٣ .تقدم الشعوب الفلاحين حتى اكتشاف الكتابة الابجدية ؛ ٤ . تقــدم العقل البشري في اليونان حتى زمن تقسيم العلوم حوالي قرن الاسكندر ؛ ٥ . تقدم العلوم منذ تقسيمها حتى انحطاطها الناجم عن المسيحية ؛ ٦ . انحطــاط الانوار حتى تجديدها حوالي عهد الحلات الصليبية ؛ ٧ . منذ نجاحات العلوم الاولى، حين تجددها في الغرب ، حتى اكتشاف الطباعة ؛ ٨ . منذ اكتشاف الطباعة حتى اليوم الذي تمردت فيه العلوم والفلسفة على السلطة ؛ ٩ . منذ ديكارت حتى قيام الجمهورية الفرنسية ؛ ١٠ . النجــاحات المقبلة للعقل البشري . على ضوء هذا التاريخ ، سنعرف كيف نتجنب « آراء سبق الوهم » قبل بهـا اجدادنا ونضمن انتصار العقل والحقيقة والبشرية ؛ « صيحة الحرب : عقل ، تساهل ، بشرية » . وقــد أفاد اوغست كونت في القرن التاسع عشر افادة كبرى ، في مؤلفه حول علم الاجتماع ، من آراء كوندورسيه الذي بدا له ناهجاً نهجاً علمياً مدققا .

أما في الواقع فان كوندورسيه لم يواصل بذلك عمله العلمي بل بشر بالجيل . كان فولتير قـد حاول وصف المـــاضي وتفسيره، دون نظرية يجب إثباتها ، ودون فلسفة التاريخ . وأراد كوندورسيه ان يظهر البشرية سائرة ابداً نحو مزيد من العقل ، شرط تجنب المسيحية ، وعبّر عن مفهوم تفاؤلي للتطور كان فعل ايمان عظيماً عند انسان يؤلف كتابه منفيـا ومطارداً . وكان يرى تاريخ البشرية معداً لان ينتج ما يحبه حبا تفضيليا . فكان ذلك انتقاما من العاطفة . ان كوندورسيه،في ما يعنيه، قد شق الطريق امام مخيلة واختلاجات قلب المؤرخين الرومنطيقيين من امثال اوغسطين تيرّي ، والشعراء من امثال فيكتور هوغو في « اسطورة الاجيـــال » . فكانت فكرة التاريخ العلمي آخذة بالتذلل .

«علم المعقولات»

القرن الثامن عشر هو عدو المذاهب الميتافيزيقية الكبرى التي نادى بها القرن السابق . تمثل بلوك ودعى « عـــلم المعقولات » دراسة الادراك البشري . والمقصود هو تحليل العقل للتفكير في كل شيء بسداد وجلاء كبيرين ، ولمعرفة النهج الذي يجب أن يسلكه العقل البشري والمدى الذي يمكنه بلوغه . كان هذا الدرس مبنيا على الملاحظـــة والاستدلال منذ ان أثبت ديكارت أن فعلا واحداً يجوز نسبته نسبة معقولة الى النفس،هو فعل التفكير : الشعور ، الارادة ، الادراك ، التصور . أقصى بذلك عن النفس الوظائف الانمـائية والمغذية والمطاوعة والدوائية التي قال بها الفلاسفة المدرسيون . لم يعد من حاجة لمعرفة النفس الا الى ملاحظة حالات الفكر . ملاحظة ، استدلال ، انتقال من الاحداث الخاصة الى نواميسها ،

ومن النواميس الى مبادئها، ان هذا الدرس هو علم طبيعي،مستوحى هو ايضا من علم الطبيعيات الذي وضعه نيوتون. هذا العلم يتيح اصدار حكم في ما يُدرك عادة بعلم المعقولات: الافكار حول الله والكون وخلود النفس والحرية والمصير البشري .

كانت السيطرة في القرن الثامن عشر لتعاليم لوك . كل افكارنا تصدر عن الحواس ، ومن ثم عن الاختبار الذي يعطينا الافكار البسيطة : البرد ، الحرارة ، المرارة ، الاتساع ، الشكل ، الحركة . ان افكار الاتساع والشكل والصلابة والحركة والوجود والديمومة والعدد هي ، بين هذه الافكار البسيطة ، « الصفات الاولية » وتمثل الاشياء كما هي ؛ انها تمثيلية ، انها صور الاشياء . أما الافكار الاخرى ، الالوان ، والاصوات ، والمذاقات ، فهي « صفات ثانوية » تنتج عن الانطباع الذي تحدثه في حواسنا حركات غير محسوسة تصدر عن الاجسام . النظرية حاسية وآلية . انها تثبت قيمة « علم الطبيعة » اذ اننا نعرف عناصره ، وتثبت « الصفات الاولية » كما هي في الواقع . لقد تردد لوك حول هذه النقطة الاخيرة : أما تلاميذه فلم يترددوا.

والحال ، هاجم الاسقف الانغليكاني « بركلي » (١٦٨٥ — ١٧٥٣) مرتكزات مذهب الآلية هذه . نشرت مؤلفاته الهامة قبل السنة ١٧١٥ ، ولكنه ، حتى موته ، أعاد طبعها تكراراً متبعاً إياها بملاحق متممة . فكر في ترددات لوك بصدد القيمة التمثيلية لـ « الصفات الاولية » وبصدد مسألة طرحها « مولينو » على لوك : هل بامكان انسان ولد ضريراً ثم أبصر النور بعد عملية جراحية ان يميز فوراً ، بواسطة حاسة النظر ، بين كرة ومكعب كان يميز بينهما بواسطة حاسة اللمس ؟ أجاب لوك في حينه سلباً . سيضطر الأعمى في هذه الحال الى القيام بالاختبارات والمقارنة حتى يتعلم ان هذا التأثر البصري المعين يقابله ذاك الحجم المعين وتلك المسافة المعينة اللذان عينتها له حاسة اللمس . اثبت بركلي ان ذلك يصح فينا جميعاً : نحن لا نرى المسافات ولا نرى الأحجام ، بل نركبها تركيبا ؛ نتعلم بالاختبار ان هذا التغير في امتزاج الألوان والضوء وهذا الحس بمطابقة العين يقابلان تلك المسافة وذاك الحجم . ثم نستخدم هذا الاختبار بحكم صامت لاشعوري . ان هنالك عملا خاصاً بالعقل وحركة لاواعية . في السنة ١٧٢٨ ، نشر الطبيب « شيزلدن » ملاحظة فتى أجرى له عملية السادّة (الماء الأزرق) : قال هذا الفتى ان الأشياء « تلامس » عينيه ؛ وان شيئاً بحجم الابهام وضع على مقربة من عينيه قد بدا له وكأنه بحجم الغرفة كلها. ودرست بعد ذلك حالات مماثلة . فكان بركلي من ثم مصيباً : ان ادراك الأحجام والمسافات بواسطة النظر نتيجة الاختبار . الاحجام والمسافات « صفات ثانوية » بالنسبة لحاسة النظر . واعتقد بأن حاسة اللمس وحدها تدركها مباشرة كـ « صفات أولية » .

استخلص بركلي من تحقيقات نهائية نتائج تتسم بمنطق جريء: انما الأشكال البصرية دلائل، أو لغة . ولكنها ليست دليل وقائع خارجية ، بل دليل صفات مختصة بحاسة اللمس. تصورات اللون هي دلائل تصورات الشكل والحجم والصلابة التي تعطيها حاسة اللمس . والحال ليست

هذه التصورات مختصة بالجسم اذ ان الحجم يتغير بحسب المسافة وتركيب الأعين، واذ ان الصلابة والرخاوة مرتبطتان بالقوة التي نبديها . التصورات وحدهـا موضوع معرفة مباشرة . الطبيعة هي التصورات المستقلة عن الارادة التي تتكون تكوناً متعاقباً محدداً ؛ والأجسام هي تركيبات منظمة للتصورات . العقل هو الواقع الوحيد .

ولكن العقل حر : نحن نعرف أنفسنا بوصفنا عوامل احراراً . التصورات المتعاقبة المستقلة عن الارادة تصدر عن عقل متفوق . يضاف الى ذلك ، من جهـة ثانية ، ان الأشكال البصرية هي دلائل ، أو لغة ؛ والحال ، كل لغة هي عمل العقل . الأشكال البصرية هي لغة شاملة ، اذن هي عمل عقل شامل ، الله .

باستطاعتنا التأكيد من ثم ان وجود العقول والله ، واللغة الشاملة التي يكلمنا الله بواسطتها، والامكانية العقلية لوحي آخر بشكل كلام ، امور ثابتة جداً . اما عـــلم الطبيعة الآلي فوهم وخداع ، وحساب الكمية الصغرى محال ، لأن التسليم بقابلية التجزئة الى ما لا نهـــاية له تسليم بأن الاتساع موجود دون أن يقع تحت الحواس ، في حال أن لا وجود الا للتصور الذهني . علم الطبيعيات هو معرفة بعض التصورات المتعاقبة تعاقباً منتظماً .

ناقض بركلي بذلك كل روح القرن . فأراد الفرنسي « كونديلاك » (١٧١٥ — ١٧٨٠) ، وهو من أسرة برلمانيين تلقى علومه في اكليريكية سان — سولبيس ، انقاذ مذهب الآلية . كان كرتزيانيا مقتنعا ، فـلم يستطع القبول بنظرية بركلي الذي افترض احكاما لاشعورية ، هي مفهوم غامض غير متميز . « يكفيني ان يعترف الذين يريدون فتح أعينهم بأنهم يشاهدون نوراً ولوناً واتساعاً وأحجاماً،الخ. انا لا أرتقي الى ما فوق ذلك لأنني هنا ابدأ بتحقيق معرفة واضحة بديهية» . الحواس تنقل الينا تصورات بسيطة نعين لها دليلا ؛ نقارن ونجمع ونبدل هذه الدلائل، التي هي اللغة ، ونستخلص منها تصورات مركبة . كل تصوراتنا ، حتى المخيلة والذاكرة والحكم والبرهان منها ، ليست سوى « التأثر الحسي المتحول » ، وكل القوى تنشأ عن تأثرات حسية ، لا بل قد تنشأ عن أدناها أي تأثر حاسة الشم . ثم حاول ان يعرف كيف ان الكائن البشري ، المتملك كافة قواه ، سيعرف العالم الخارجي ،فوصل الى مسألة بركلي :ميز بين الادراك البصري الاولي ، الغامض ، حيث ليس للاشياء حدود واضحة ، وبـين الادراك البصري الحالي للاشياء المتميزة الموجودة في مكان معين . تُرد النتيجة الى تحليـــل يجرى باللمس . حاسة اللمس تعرف الاشكال ، وحـاسة البصر تدركها ، ولكن دون أي شيء يضاف الى التأثر الحسي الاول ، دون ايحاء من تأثرات حاسة اللمس التي استعانت بها . منذ البـــدء ، يرى الكائن البشري الاشياء ، ولكنه لا يميزها لانه لم يحللها . الا ان الاشياء موجودة كما يراها بعد التحليل . يعرفها كخارجية بفضل حركة جسمه التي توقفها مقاومة الاجسام الجامدة . اذا كان الجسم الجـامد خارجاً عن جسمه ، لا يكون هناك سوى تلامس ؛ واذا لامس جسمه بالذات ، يكون هنـاك

تلامس في الجزء اللامِس والجزء الملامَس معاً . هكذا يعرف الانسان جسماً من الاجسام ويفرق بينه وبين الاجسام الأخرى . يستثبت واقع العالم الخارجي والاتساع والحركة والقيمة التمثيلية لتصوراته الذهنية الناشئة عن التأثرات الحسية ؛ بذلك كان « علم الطبيعة » الآلي مضموناً .

اتضحت بالفعل نفسه طريقة العلم . بما اننا نستخلص تصوراتنا المركبة من مقارنة علامات اللغة ، يجب ان يكون هناك توافق تام بين التصورات والعلامات ، وان لا نستعمل أية كلمة لا يكون مدلولها موضحاً ولا يختص بواقع واضح متميز . العلم « لغة مهذبة » . يجب من جهة ثانية أن لا نستنتج بل أن نحلل : الحواس تعطينا كلاً ندركه ادراكاً آنياً غامضاً ؛ ندرك اجزاءه تدريجياً وانفراداً ؛ ونتوصل إلى إدراك الكل نفسه إدراكاً آنياً ومتميزاً . إن في إدراكنا تجزئة وإعادة تركيب ، تحليلا وتأليفاً . ليست أرفع الطرائق العلمية سوى أشكال لطريقة العقل البشري البسيطة والشاملة. فباستطاعة كل عقل من ثم الانتقال من التأليف إلى التحليل . العلم في متناول الجميع . يجب أن تؤلف المعارف المحصلة طرائق غير استدلالية : « تركيب الاجزاء المختلفة لفن أو لعلم وفاقاً لترتيب تتعاضد فيه كلها وتفسّر الاخيرة منها بالاولى التي هي المبادىء » . يجب ان تكون هذه المبادىء ظواهر معروفة جيداً كالجاذبية الشاملة . إن علم الطبيعة الذي وضعه نيوتون خير مثال للعلم والطريقة .

كان لكونديلاك ، بمؤلفاته الكثيرة[1] ، أكبر أثر في علماء زمانه ، وفي جماعة الباحثين في التصورات والافكار ، وفي عدد من المؤلفين من أمثال « ستندال » .

ان ما حاول كونديلاك تأمينه ، أي قيمة معرفتنا العلمية وبراهين وجود الله ، الساعاتي « الاسمى » في علم الآليات الشامل ، قد قوضه الاسكتلندي هيوم بجرية زاد منها انه أركن في حياته العملية إركاناً تاماً الى الاعتقادات الطبيعية والبديهية . اهم مؤلفاته هي « بحث في الطبيعة البشرية ، محاولة في ادخال طريقة البرهنة الاختبارية الى العلوم الادبية » (١٧٤٠) و« المحاولات الفلسفية حول الإدراك البشري » (١٧٤٨) . « أراد على غرار كونديلاك استخدام طرائق نيوتون: الانطلاق من تقديرات واعتقادات الانسان بغية البحث بالتحليل والاستدلال عن مبادئها ، « التي يجب ان تعين في كل علم حدود كل رغبة بشرية حارة في المعرفة » .

قال هيوم ايضاً بمذهب الحاسيين . ان انطباعات الحواس هي الاصول التي تشكل الافكار نسخها . الفكرة الصحيحة هي تلك التي تقابل أو يمكن ان تقابل انطباعاً . ولكن هذا التحليلي الذي لم يعتمد طريقة خاصة قد لاحظ ان هنالك تصورات ذهنية بسيطة دون انطباع مقابل؛ اذا عرضنا على العين سلم ألوان كاملا باستثناء لون واحد ، فان العين سترى الدرجة الناقصة كما لو

---

(١) ومن بينها « محاولة في أصل المعارف البشرية » (١٧٤٦) ، و « بحث في المذاهب » (١٧٤٩) ، و « بحث في تأثرات الحواس » (١٧٥٤) ، و « المنطق » (١٧٨٠) .

كانت هنالك حركة عقلية خاصة نحو التأثر الحسي وفاقاً لبعض النواميس ، وكما لو كان العقل يسبق المعرفة بواسطة الحواس ، او كما لو كان في العقل شيء سابق للاختبار .

الانطباعات تولد الافكار البسيطة . العقل ينتقل من الافكار البسيطة الى الافكار المركبة بتوارد يتم وفاقاً لمبادىء المخيلة الشاملة ؛ الافكار تتجمع بتشابهها ، باتصال الانطباعات ، لأن احدها يمثل علة يكون الثاني لها معلولا . ان هذه النواميس هي بالنسبة للافكار ما هو ناموس الجاذبية النيوتوني بالنسبة للاجسام ؛ انها اصلية وأولية . ليس من حاجة للارتقاء الى ابعد من ذلك . إلا أن الانسان يبقى حراً ؛ باستطاعته الحيلولة دون تجاذب الافكار ، باستطاعته الجمع تحكماً بين فكرين ؛ يضاف الى ذلك ان الافكار قد تتجاذب دونما مبرر ، كما بالتشابه مثلاً. هنالك خطأ في الحالتين الاخيرتين .

ان هذه التجاذبات تعطينا تصورات مركبة قد لا يكون لها وجود في الواقع . لنأخذ الصلة بين العلة والمعلول مثلا ؛ فان مراقبة علة معينة (انخفاض حرارة الماء) لن تثبت البتة ان هذه العلة يجب ان تؤدي بالضرورة الى معلول معين (التجمد) . ان احد ملوك سيام لم يصدق يوماً ان هنالك بلداناً يبلغ من تجمد الماء فيها انه يصبح قادراً على حمل الفيل . الاختبار وحده هو ما يعلمنا،الاختبار ،أي تعاقب بعض الأحداث الثابتة،أو تكرر بعض الاعادات بشكل معين ، قد يتغير يوماً .

لسنا ندرك ابداً سوى تعاقب الانطباعات والتصورات . ان مجموعة تصورات بسيطة تجمعها المخيلة بحسب توارد‌ها بالاتصال وتلبس اسماً غريباً تعطينا فكرة المادة وقد يكون ذلك خدعة العادة والكلام . فما الاجسام يا ترى ؟ انها اكداس انطباعات متواترة نجمعها بحسب تشابهها ونعتقد انها وقائع دائمة . والنفس؟ اهي لامادية ، اهي مادة روحية ؟ لعلها ليست سوى سلسلة انطباعات وتصورات متعاقبة تتوارد في الذاكرة ، فتخلق المخيلة وهم ديمومتنا . إلا ان هيوم يعترف بأنه لا يعلم كيف « تتحد احساساتنا المتعاقبة في فكرنا أو في ضميرنا » . ومن هو الله ؟ ان نقد فكرتي المادة والعلة يؤدي الى العلة الاولى والمادة اللامتناهية . التشابه بين جهاز صنعي وبين الكون برهان احتمالي من براهين العلوم الاختبارية ، ولكن التشابه بين جزء محدود وبين كل غير محدود قابل للمنازعة والجدال .

ان هيوم المخيف قد ايقظ « كانت » من « سباته العقائدي » . كما ان «جان — جاك روسو» قد ترك فيه اثراً كبيراً ايضاً بتشديده على الحكم ، على هذه الكلمة الصغيرة « هو موجود » ، التي هي دليل نشاط الانسان . ان « كانت » (١٧٢٤ — ١٨٠٤) الذي كان استاذاً في جامعة كونغسبرغ وعالماً فلكياً وعالم طبيعيات وفيلسوفاً ، قد نشر في السنة ١٧٨١ « نقد العقل الصريح » ، وفي السنة ١٧٨٨ « نقد العقل العملي » وعدداً من المؤلفات الاخرى في الفلسفة والاخلاق والتاريخ والدين. طمح في أن يحدث في علم العقل البشري الثورة التي احدثها كوبرنيك

في علم الفلك وفي ان يغير وجهة النظر تغييراً تاما. اراد ان يثبت ان عقلنا لا يتقبل صورة الاشياء بل يستخدم واقعا تجهله ليكوّن به الاشياء . وهو ايضـــا يتخذ علم الطبيعة النيوتوني مثالا للمعرفة : سلسلة من الاختبارات المختلفة ، نواميس تربط بين هذه الاختبارات ، مبدأ ترتبط به هذه النواميس . لقد لازمه وتسلط عليه مثل العلوم الطبيعية .

ينطلق « كانت » من تحليـــل الحكم . هنالك القضايا « الاولية » السابقة للاختبار التي لا يحتاج تحقيقها الى الاختبار ، والقضايا « الاستدلالية » المبنية على الاختبار . ان القضايا « الاولية » كلها اعتبرت من قبله تحليليـة : الخبر فيهـا موجـــود وجوداً ضمنيا في المبتدأ أو الاسم ويستخلصه العقل منها بالتحليل . هـــذه هي حال القضايا الرياضية والميتافيزيقية والاخلاقيـة . واعتبرت القضايا « الاستدلالية » كلها تأليفية : الخبر ليس جزءاً من المبتدأ أو الاسم بل يؤدي اليـه الاختبار ويوازي العقل بينه وبينها بالتأليف ، كما في هذه القضية مثلا : الذهب قابل الذوبان بتأثير حرارة تبلغ ١٠٠٠ درجة ، التي هي تأليفية « واستدلالية » .

والحال ، القضية التحليلية « الاولية » لا تزيد المعرفة : انها توضحها . القضية التأليفيـة وحدها هي ما ينميها . ولكن الرياضيات تنمي معرفتنا . اعتقد كانت ، على نقيض دالمبير ، ان « ٢ + ٢ =٤» تأتينا بمعرفة جديدة تختلف عن مجرد التأمل في ٢ و ٢ . الرياضيات « أولية » . اذن هنالك قضايا تأليفية « أولية » : الخط المستقيم ، مبدأ السببية ، وغيرهما . اذن هنالك ، قبل اي اختبار ، معطية عقلية وحركة عقلية وفاقا لبعض النواميس ، وهذا عمل غير شعوري بالنسبة لنا . وتوصل « كانت » هنا الى بَدائه بركلي وهيوم : ان افكارنا كلها وقوانا كلها لا تأتينا من التأثرات الحسية . العقل واقع حي سابق للتأثرات الحسية . فبرزت مرة اخرى الافكار المطبوعة .

بعد بلوغ هذه النتيجة ، بات لزاماً التوصل الى واقع العقل هذا . درس « كانت » انطباعاتنا الحسية . ليس باستطاعة حسنا ان يتأثر الا في المكان والزمان . المكان والزمان « اوليان » ، وهما شرطان للانطباع الحسي ، وشكلان من اشكال الحس الحاصل قبل الاختبار . الحس لا يعطينا سوى انطباعات حسية . وحتى نجعل من هذه الانطباعات تاثراً حسياً بما هـو جامد ، ورخو ، وبارد ، وحار ، يجب ان يقيم الادراك ، او النشاط البديهي للعقـــل ، علائق بـين الانطباعات الحسية بواسطة « مفاهيم » ينطوي عليها « اوليا » قبل اي اختبـــار : السببية ، الكمية ، النوعية ، وغيرها . وجود الادراك يستلزم وجود الـ « انا » ، « انا » المتكلم ، الذي هو معطية « اولية » ، قبل اي اختبار ، وشرط الاختبار . وهكذا حلت المسألة التي تركهـا هيوم : كيف يمكن ان تعرف مجموعة انطباعات وكأنها « انا » المتكلم .

ان واقعا خارجياً يحدث الانطباعات الحسية هو شرط التفكير . ولكن التفكير لا يبلـغ هذا الواقع او «نومين» *(noumène)* بحد ذاته . والعقل لا يعرف منه الا ما يصله مركباً بواسطة الادراك ، وفاقاً لمفاهيمه « الاولية » ، بحسب ما اعطـاه الحس في اشكاله « الاوليـــة »، او

« الظواهر » . ان ما نعيه شعوريا هو تركيب يحققه عقلنا انطلاقاً من واقع مجهول . وهكذا ليس لتصوراتنا الذهنية من قيمة تمثيلية ، فليست هي صورة للأشياء ؛ فانهار مذهب الحاسين الاختباري القائل بان الحس اصل المعرفة .

ينتج عن ذلك اننا لا نعرف انفسنا كما نحن . « انا » كل منا ظاهرة نتوصل اليها بالاختبار ، من خلال شكل الزمان « الاولي » ، بحسب مفاهيم الادراك .

لا نستطيع معرفة العالم كما هو ، ك *(noumène)*، بل كما يبدو لنا فقط ، اي كظاهرة . ولذلك نرانا نصل ابداً ، حيال العالم ، الى معارضات او مناقضات . اذا قيل ان العالم متناه لانه يجب ايجاد حد للفضاء الراهن ، فبالامكان الاجابة بانه لامتناه لان مكان شيء ما هو نسبي لمكان شيء اخر ، واذا قيل انه متناه لأننا لا نستطيع الانطلاق من معلول للانتقال من علة الى علة الى ما لا نهاية له ، ولانه يجب بالنتيجة ايجاد علة اولى حرة ، امكن الاجابة بانه لامتناه لان علة حرة تقطع التسلسل السببي اذا لم تكن هي نفسها معلولا لعلة اخرى ، ولان علة حرة تناقض مبدأ السببية ، وهكذا دواليك .

لا نستطيع اثبات قيمة الحتمية المطلقة . انها ناموس من نواميس معرفتنا ؛ وليس اختبارنا ممكنا الا في الزمان الذي تتعاقب فيه العلل والمعلولات تعاقبا لازماً . ولكنها ليست ناموسا من نواميس الكيان : فقد يكون هنالك علة حرة ، خارج الزمان .

لا نستطيع اثبات الله . انه احد تآليف العقل اللازمة . لا نستطيع تصور كل شيء الا بالنسبة لكائن يستوعب كل واقع ممكن ، يكون بمثابة مثال كامل للاشياء الناقصة . ولكن ، هل ان هذا الكائن اللازم لنا هو موجود حقا ؟ الكون يسير بموجب نظام يثير الاعجاب ويفرض كائنا كلي الذكاء وكلي القدرة ؟ لنسلم بكائن كلي الذكاء وكلي القدرة ، الا انه قد يكون محدوداً ، متناهيا . ولكن كل الكائنات غير لازمة الوجود ؛ قد يكون ممكنا ان لا توجد ، ليس لها علة وجود في ذاتها ، انها مرتبطة بكائنات اخرى . يقتضي كائن لازم ، لا يمكن ان لا يكون ، يفسر كافة الكائنات الاخرى ولا يحتاج لان يُفسر . لنسلم بذلك ؛ ولكن لا يُثبت على هذا الشكل وجود اله ذاتي وخالق ؛ قد يكون الكائن اللازم المادّة او الها مختلطاً بالاشياء ويظهر فيها . ولكن اكمل كائن يمكن تصوره موجود حتما : اذا انتزع منه الوجود ، فلن يكون الاكمل ؛ تصوره كاملاً هو فرض وجوده . غير ان الوجود لا يزيد شيئا في نظر « كانت » : فان ١٠٠ « تالر » حقيقية ليست اعظم كمالاً من ١٠٠ تالر ممكنة .

وهكذا فان علم المعقولات ليس ثابتاً ، وليس علماً . ان ما نعرفه واقعي لا حقيقي . ان علمنا ، المبني انطلاقاً من الوقائع الحسية ، علم مشروع اذ اننا لا نستطيع عمل شيء آخر ؛ اضف الى ذلك من جهة ثانية انه علم ناجح ، وهذا يظهر بعض التوافق بين مفاهيمنا والعالم

الخارجي . ولكنه علم ليس له سوى قيمة عملية . لا نستطيع في الحقيقة ان نعرف شيئاً من جوهر الأشياء .

كان مقدراً لتفكير « كانت » ان يصبح منطلق كافة فلاسفة القرن التاسع عشر تقريباً . اعتبر « نقده » زمناً طويلاً وكأنه اكتشاف نهائي يعين الشروط الدائمة لكل معرفة فعلية ويؤلف حد حقل المعرفة بالنسبة للعقل البشري .

توسع العلم

اذن قام رجال ذاك العهد بمجهود علمي جبار . حاولوا تنظيم كافة المعارف على غرار « علم الطبيعة » : الحقوق ، الاخلاق ، كل شيء ، وحتى الجمال . فان الكاهن الفرنسي « دي بوس » قد اسس علم الجمال الجديد بكتابه « افكار نقدية في الشعر والرسم » (١٧١٩) . وفي السنة ١٧٣٥ اطلق الألماني « بومغارتن » على هذا العلم اسم « علم سنن الجمال » .

مهما بلغ من انتشار العلم والروح العلمية ، فانهما ما زالا ، على الرغم من ذلك ، وقفا على اقلية، وكم في هذه الاقلية بالذات من عزائم تراخت بفعل الانسياق وراء الاهواء . كان هناك علماء زائفون اعتقدوا برجال البحر وبنات البحر والعنقاء المغربية والتنين والوحش البشري والفرس الوحيدة القرن ونشروا اعتقادهم ، وزعموا انهم وجدوا ورسموا بشراً وحيوانات تعيش في الحصباء ، وشاهدوا اصدافاً تولد في الأرض وتنمو فيها . وقد اكد فولتير نفسه انه شاهد ولادة اصداف في ريفه . وكان هناك اساتذة من امثال ذاك الذي فسّر ، في السنة ١٧٦٨ ، في باريس ، في كلّية مونتيغو ، تناسل الحيوانات كما يلي: « ان روح الحيوان الفحل (الكلب مثلاً) تبعث من ذاتها بشعاع روحي مغلف بخلاصة من جذره الخضل : هذا هو زرع الكلب ! » وكان هناك جمهور الطفيليين الذين ازدحموا حول وعاء « مَسمَر » بائع الأدوية ، المزود بالقضبان والسلاسل السرية، واعتقدوا بالشفاء من كافة الأمراض وبالوضع دون الم بفضل قوى مجهولة في المغنطيسية الحيوانية . وكان هناك الفلاحون الذين انقضوا على الكرات الهوائية الاولى ومزقوها شر ممزق ، والصناعيون اليدويون الذين ثاروا على مانعات الصواعق الاولى ؛ وجميع من اعتقد بالسحر والسحرة والعفاريت الوهمية والسحرة المتنكرين بهيئة الذئاب ، اي المحيط البشري الذي طفت فوقه قبضة من الفلاسفة والعلماء .

لم يجمع العلم وقائع جديدة الا باستسلام العقل البشري الذي قبل ، لتفسير الملاحظات ، بمبادىء لم يدركها . ماذا كانت كل هذه العوامل الخفية ، السائل الحراري، والسائل الكهربائي، والسوائل العادمة الثقل التي تنطوي على قوة فاعلة ملازمة لها ياترى ؟ حاول ديكارت ان يقضي في كل مكان على هذه الملازمة ، كما حاول ان يثبت بالرهان في كل مكان ما هو خاص ونوعي ، أي ما هو غامض ومغشّى وضمني بغية ردّه الى بعض عناصر مشتركة ، الاتساع والحركة ،أي الى ما هو جلي ومتميز وصريح . فقد بدت السوائل وكأنها تعود بالحالة الفكرية الى ما قبل ديكارت .

ولكن العلم ملك ضمن حدوده . انه يصبح دنيا . فقد برزت الثقة العمياء في العلوم . وان الانسان، الذي بات بواسطة العلم سيد اسرار الطبيعة وقادراً، كما اعتقدوا ، على شفاء الامراض المستعصية بواسطة جهاز الدكتور « ناسم » الكهربائي (١٧٧٤) ، وتمديد حياة الانسان الى ما حد له بواسطة الاوكسيجين ، وتنظيم خير مجتمع بواسطة العلم الاجتماعي ، كان في طريقه الى العصر الذهبي .

الفصل الثامن

النظريات الشاملة

« فلسفة الأنوار »

حوالي السنة ١٧٦٠ بدا النجاح وكأنه يحالف « فلسفة الأنوار » التي بناها أولئك الذين أطلقوا على أنفسهم اسم « الفلاسفة » . أوضحوا أفكارهم في مآسٍ ، وقصائد ملحمية وتعليمية وهجائية وروايات ومقالات انتقادية عنيفة وحوارات وشروح جمل فلسفية وقواميس . أما مؤلفهم الشامل الاول ، « اجمال فلسفة القرن الثامن عشر » المعد لأن يحل محل « الاجمال اللاهوتي » للقديس توما الاكويني ، فقد كان قاموساً هو « دائرة المعارف الفرنسية » لدالمبير وديدرو ، التي ظهر الجزء الأول منها في أول تموز ١٧٥١ مع خطبة تمهيدية من وضع دالمبير ، والتي انجزت في السنة ١٧٦٤ على الرغم مما وضعته السلطة في سبيلها من عراقيل وعقبات . تألف نصها من ١٧ مجلداً ولوحاتها من ١١ مجلداً . وأكمل الاجمال هذا بكتاب موجز هو « القاموس الفلسفي » السهل نقله لفولتير (١٧٦٤) . أما دائرة المعارف التي أسهم في انجازها ١٣٠ شخصاً من محامين وأطباء وأساتذة وكهنة وأعضاء في الأكاديمية وصناعيين وأصحاب معامل جلهم من أهل اليسار ومن حملة الألقاب الرسمية ، والتي كان ثمنها في متناول البورجوازية الكبرى المستنيرة وحدها ، فكانت مؤلفاً بورجوازياً . وكان أهم « الفلاسفة » ، الكتبة المتضلعون من جميع العلوم من أمثال فولتير وديدرو ، ورجال القانون من أمثال مونتسكيو ، وعلماء الرياضيات من أمثال دالمبير ، رجالاً منحدرين من مختلف درجات البورجوازية أو نبلاء رجال قضاء أو شرع هم أقرب اليها من أهل الجندية . كان تفكير العصر بورجوازياً أكثر منه في القرون السابقة .

ان تفكير هؤلاء البورجوازيين عقلي وموضوعي ونفعي . يريدون في كل شيء البداهة والوضوح والمطابقة للعقل واحترام مبادئه : الذاتية ، عدم التناقض ، السببية ، الشرعية . للعقل قيمة سامية . انه قادر على كل شيء ، ويدرك كل شيء ، ويصدر حكمه في كل شيء . هو الاله الأخير . اما الذين وجدوا له حدوداً ، كفولتير مثلاً ، فقد اعتقدوا ، على الأقل ، ان ليس خارج العقل سوى ليل وخواء ، وانه سبيلنا الوحيد المقبول الى المعرفة . العقل يستدل انطلاقاً من حقائق بسيطة وجلية ، إلا أنه فوق كل شيء ، يراقب الوقائع ويستخلص منها النواميس . يجب أن يقتصر العقل على المعارف المفيدة للانسان : كل ما لا يفيد باطل . افّ

من الرغبة في المعرفة لمجرد الرغبة ! قد يكون هذا التفكير معقماً . ولكنهم لحسن الحظ قد بقوا له أوفياء .

قال معظم « الفلاسفة » بالدين الطبيعي مع إنكار الوحي . اثبت لهم عقلهم وجوب وجود علة أولى لأنه يستحيل الارتقاء الى ما لا نهـاية له من علة الى علة ؛ فهنالك من ثم كائن أزلي يرتبط به كل شيء ويكون بالتالي كلي القدرة . ولكن هذا الكائن الأسمى كلي الذكاء أيضاً ، لأن الكون آلة ميكانيكية تثير الدهشة بتركيبها وتنظيمها : النظام يستلزم ذكاء منظما . ان هذا الكائن الأسمى ، الكلي القدرة والكلي الذكاء ، اله هو . لا نستطيع معرفة هـذا الاله ومعرفة ما هو بالضبط ، بيد اننا نعرف انه موجود : هذا هو المعتقد المشترك بين كافة الأديان ، هذا هو الدين الشامل .

إن الله خلف بالضرورة عمله ناقصاً : فقد لا يميز بين الله وعالم كامل قد يكون هو نفسه الله ؛ الله وحده كامل . ولكن الله الكلي القدرة والكلي الذكاء ، وخالق عالم على مثل هذا التناسق ، قد خلق بالضرورة خير عالم ممكن . اذا كانت هنالك شرور ، ففي سبيل خير أكبر لا ندركه. أطلق على هـذا المذهب اسمه ، « التفـاؤل » ، في السنة ١٧٣٧ . كان فولتير في البدء من تبعته المقتنعين ، ثم بات عدوه العنيد بعـد كارثة الزلزال التي حلت بلشبونة (١٧٥٥) وألف كتابه اللاذع « كنديد » (١٧٥٩) : قـال « كاكمبو » : ما هو التفاؤل ؟ – أجـاب كنديد : إنه الكلف بالتأكيد أن كل شيء جيد في حال أن كل شيء سيء » . منذ هـذا التاريخ أخذ التفاؤل بالانكفاء إلى الوراء .

نظم الله العالم بنواميس أزلية لا يدخل عليها أي تغيير . فلا فائدة إذن من الابتهال اليه ، ولا من حـاجة إلى الطقوس والاسرار . إن ما يجب عمله هو درس الطبيعة لمعرفة نواميسها والعمل بموجبها .

كان بعض الفلاسفـة ماديـين وملحدين : « موبرتوي » ، الطبيب « لامتري » ، ملتزم جمع الضرائب « هلفتيـوس » ، البارون « دولبـاك » الذي كان يجمـع حـول مائدته الملحدين الباريسيين الرئيسيين ويدير ملشورات تتميز بالدعاوة الالحادية ، وديدرو أخـيراً بين الفينة والفينة . كل شيء في نظرهم يفسر بالمـادة . المادة أزلية ؛ من طبيعتها تتولد الحركة ونواميسها والنظام الكوني ؛ ومن الحركة يتولد كل شيء ، حق الفكر . الله افتراض باطل . نظر النـاس الى الملحدين بحلم وتسامح : ففي أشهر روايات القرن « هيلويز الجديدة » لجـان جاك روسو ، يظهر السيد « دي فوطار » ملحـداً خفيف الظل . ولكن هؤلاء الفلاسفة لم يتجاوزوا عـدد أصابع اليد ولم يترك تعليمهم أثراً يذكر .

رأى « معظم الفلاسفة » ان الطبيعة التي خلقها الله ونظمها تجعل البشر يعيشون حيـاة اجتماعية . على العقل البشري أن يكتشف النواميس الطبيعية التي تنظم المجتمعات بغيـة العمل

بموجبها . هنالك حق طبيعي مبني على النواميس الطبيعية . على الانسان ان يعبر عن هذا الحق الطبيعي بشرائع موضوعية . وهنالك اخلاق طبيعية مطابقة للنواميس الطبيعية . على أن على الانسان أن يعبر عن هذه الأخلاق بمبادىء ويجمعها في تعليم طبيعي .

حواسنا توحي لنا اننا موجودون على الأرض لأجل السعادة ، أي لأجل التمتع باللذة : « يجب أن نبدأ بالتفكير في أنفسنا أن لا عمل لنا في هذا العالم سوى أن نوفر لنا فيه احساسات وشواعر مستطابة » . التمتع باللذة حق . « ان محبة النعمى ، التي هي أقوى من محبة الوجود ، يجب أن تكون بالنسبة للأخلاق كما هي الجاذبية بالنسبة لعلم الآليات . الأنانية مرتكز علم الأخلاق . ولكن يجب أن تفهم الأنانية جيداً . العقل يرشدها ويظهر لها « حقيقة عملية واحدة لا جدال فيها هي حاجة البشر المتبادلة بعضهم الى بعض ... والواجبات المتبادلة التي تفرضها هذه الحاجة عليهم . اذا ما افترضت هذه الحقيقة ، اشتقت منها كافة قواعد الاخلاق بتسلسل لازب ... « لعل علم الأخلاق أكمل كافة العلوم اطلاقاً . » هذا هو أساس القواعد الأولية : لا تعمل لسواك ما لا تريد أن يُعمل لك؛ واعمل لسواك ما تريد أن يعمل لك . ومن هنا تشتق قواعد التساهل والاحسان والانسانية ، المتفقة من جهة ثانية واريحية الانسان الطبيعية ، ولكنها تخضع لتدابير حكيمة حتى يجد كل شخص في آخر يومه ان لذته اكبر من المه وان حساب الاخلاق يثبت له ، اذا رجحت كفة اللذة ، انه سعيد حقا . وينجم عن ذلك حلم عام معين : الانسان الذي يتصرف تصرفا سيئا لا يمكن ان يكون سوى انسان ارتكب خطأ . وينجم عن ذلك ايضا الاعتقاد بخلود النفس والجزاء بعد الموت : يخطىء البعض ويعذبونني على غير حق ؛ فمن المخالفة لكمال الكائن الاسمى ان لا يعيض من هذا الضرر في العالم الثاني بنظام مكافآت وعقوبات .

يجب ان تنظم المجتمعات في سبيل سعادة البشر . ولأجل تأمينها عقد البشر فيما بينهم في البدء اتفاقا ووحدوا قواهم ضد الكوارث الطبيعية وضد اعدائهم .لا يمكن ان تنجم هذه السعادة الا عن التقيد بالحقوق الطبيعية الناتجة عن النواميس الطبيعية . فالبشر من ثم يختارون حكومتهم حتى تضمن لهم حقوقهم ، وهنالك عقد اتفاق حقيقي بين الحاكم والمحكومين ؛ وبمكنة هؤلاء استبدال الرئيس الذي قد لا يحترم العقد ويتعدى على حقوقهم او يتغاضى عن التعدي عليها . اذن الثورة حق ايضاً . ولكن على الحكومة ان تتولى كل السلطات للتمكن من القيام بمهمتها . يجب ان تكون استبدادية وملكية في الدول التي تتجاوز مساحة معينة . « قد تقوم بالضرورة ، في الجمهورية ، احزاب من شأنها ان تمزقها وتقضي عليها » . الحكم الملكي « وحده اهتدى الى الوسائل الحقيقية الكفيلة بجعلنا نتمتع بكل سعادة ممكنة وبكل حرية ممكنة وبكل الفوائد التي يستطيع عضو المجتمع ان يتمتع بها على وجه الارض » . على المستبد ان يتلقى تعاليم « الفلاسفة » دون غيرهم . هذه هي نظرية « الاستبداد المستنير » ، التي نشرها ، في المانيا ايضاً ، « وُولف » وكتبة آخرون كثيرون ضمنوا لها نجاحاً كبيراً .

على الامير ان يؤمن حقوق الانسان . حرّية الشخص اولاً : بالغاء الرق والفدادية . يمنح حرية الانتقال والتجارة والصناعة والملاحة والحرية المدنية ، لا الحرية السياسية ، او حرية سياسية محدودة ؛ فالحرية السياسية « خير لم يوجد لأجل الشعب » . لن يكون هنالك حرية فكر ولا حرية دين بل تساهل الى ان يستنير كافة البشر . ويكون هنالك حرية الكلام حتى يستطيع الفلاسفة الاعراب عن آرائهم . اما حيال الآخرين فيجب التصرف بفطنة وبصيرة : لا يمكن لحرية التهجم على الحرية ان تكون حرية . وقد رأينا ديدرو الذي عينه وكيل الشرطة ، « سارتين » ، رقيباً على المؤلفات ، يدرس مهزلة « الهجّاء » لـ « باليسّو » ويطلب حظرها لأنها تستهزىء بالفلاسفة . وكثيراً ما وشى هؤلاء كتابة بمعارضيهم الى الحكومة .

على الامير ان يؤمن المساواة امام القانون ويبطل امتيازات النسب ، فيدفع الاكليروسيون والاشراف جميعهم الضريبة النسبية ، ويحاكمون امام المحاكم نفسها وينالون العقوبة نفسها للمخالفات عينها . وتفتح ابواب المهن كلها لكافة الكفاءات لان المساواة في الحقوق طبيعية ولان من المصلحة العامة ان يعين خيار الرعية في اعلى الوظائف . ولكن الطبيعة حبت البشر بارادة وذكاء وكفاءآت متفاوتة . فينجم عن تفاوت المواهب هذا تفاوت في الثروات هو من ثم طبيعي . والتملك الذي ينشأ من استخدام الحرية هو طبيعي ايضاً ، وهو مقدس . على الامير ان يبقي بعناد على حرمة التملك وتفاوت الثروات . وباستطاعته ان يسند الى كبار الاثرياء والملاكين العقاريين سلطة تشريعية . فيكون هنالك ارستوقراطية الثروة والمواهب . « لمجاحات الانوار محدودة » بحسب ما جاء في « دائرة المعارف » ، فهي لا تبلغ الضواحي قط لان الشعب هنا متأخر جداً . عدد اسافل الناس يكاد لا يتغير ... الجماهير جاهلة وبلهاء » . وقال فولتير قولاً اشد قساوة من ذلك : «يقتضي للشعب الاحمق والهمجي نير وقخس وعلف» .

يجب ان تكون العدالة اكثر حلما . حريتنا الخارجية محدودة . فنحن نريد من ثم آراء فرضت علينا ، وهذه الآراء تخضع لتأثراتنا الحسية التي تخضع لبيئتنا ووراثتنا : فمسؤوليتنا من ثم مخففة بعض التخفيف . العدالة تستهدف الحث على القيام باعمال مفيدة للمجتمع والحيلولة دون الأعمال الاخرى . يجب إلغاء كل ما هو خطر او غير مفيد فقط : الاستنطاق بواسطة التعذيب الذي يتيح للمجرم القوي ان يفوز بالبراءة ويرغم البريء الضعيف على الاقرار بجرائم لم يقترفها ؛ العقوبات المتروكة لتحكم القاضي او العادمة التناسب والجريمة ؛ العقوبات التي تتناول الجناية على العزة الآلهية ، وهي خطيئة بمكنة الله ان يقتص من مرتكبها بمعزل عن القاضي . يجب ان لا يسلم بعقوبة الموت الا اذا كانت السبيل الوحيد لانقاذ حياة اكبر عدد ممكن من البشر . للمتهم الحق في ان يعامل معاملة البريء لا معاملة المجرم ، وللمجرم في ان يعامل بحلم ورحمة ، والاولى للدولة ان تمنع الجرائم بالتربية من ان تقتص من المجرمين . وقد توسع الميلاني « بكاريا » في كتابه « الجرائم والعقوبات » (١٧٦٤ .) في هذه الآراء التي استوحاها من مونتسكيو و « دائرة المعارف » .

لا يمكن التسليم بالحرب ، وهي آفة البشرية ووصمة عار في جبينهـا ، الا اذا دعت الحاجة القصوى الى امتشاق السلاح في سبيل الدفاع المشروع عن النفس . ولا يكون حينـذاك كل شيء جائزاً للجندي ، الذي عليه ان لا يفعل شيئا يناقض « نواميس البشرية الأزليـة » وان يبحث عن مجده في « سخائه » . على الأمم ، المؤلفة من بشر احرار ، ان تعتبر نفسها كاشخاص احرار تترتب عليهم واجبات الافراد . وقد واصل الأب «دي سان ـ بيير» حتى السنة ١٧٤٣ الدعاوة التي باشر بثها في عهد لويس الرابع عشر في سبيل سلم دائم بواسطة اتحاد دائم بين كافة ملوك اوروبا : الاتحاد سيحول دون اندلاع الحرب فيما بينهم ؛ وسيحد من التسلـح ، ولن تقسم اية بلاد ، وسيكون للاتحاد جيش مؤلف من مجندي الامم المختلفة لفرض احترام مقرراتـه ، وسيكون مركز الاتحاد في مدينة السلام ، الحرة والحيادية ، كجنيف مثلاً .

تتقدم الانسانية تقدما مستمراً بانتشار الانوار . التربية ابعد وسائل التقدم اثراً . يجب ان توجهها الدولة لمصلحة الدولة التي يجب ان توفر لها مواطنين تجمعهم روح واحدة ويكونون اهلاً للقيام بوظائف الدولة المختلفة بغية بلوغ مثل اعلى مشترك . يجب ان يتولى شؤونهـا مكتب خاص خاضع لسلطة الوزير المكلف امر الاشراف على امن عام الدولة . يجب ان تكون التربية طبيعية حسية ، وان تبدأ بالمحسوس ، بالوصف ، حتى تنتقل الى ما هو عقلي ، ان تنطلق مما هو بسيط حتى تبلغ ما هو مركب : استثبات الوقائع قبل البحث عن العلل . يجب ان تكون طبيعية : اي ان تكوّن اجساما قوية بالمعيشة المخشوشنة والتمارين ؛ وعملية : اي ان تستلزم درس لغة البلاد التي نعيش فيها ، والتاريخ المعاصر ، والجغرافيـة ، والعـلوم الطبيعيـة ، والرياضيات ، وعلم الطبيعة ، والتدرب على العمل اليدوي . وقد شدد الكلام في هذه النقاط مؤلفون كثيرون نخص بالذكر منهم القاضي الفرنسي « لاشالوتيه » الذي وضع في السنه ١٧٦٣ كتابه «محاولة في التربية الوطنية» . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان المعرفة في متناول الجميع : « الحقيقة بسيطة» وبالاستطاعة ابداً وضعها في متناول الجميـع » . هذا ما قاله دالمبير في سياق كلامه عن « التفاضل » في « دائرة المعارف » .

وقعت هذه الآراء موقع الرضى من نفوس الملوك الذين كانوا قد اعلنوا الحرب على امتيازات الكنائس والاشراف والجمعيات . راسلوا الفلاسفة واستقبلوهم . فقد تبـادل فولتير وديدرو ودالمبير الرسائل وملك بروسيا فردريك الثاني وقيصرة روسيا كاترين الثانية . كما اقام فولتير في برلين وديدرو في سان بطرسبورغ .

الماسونية

الا أن ناشر هذه الآراء الرئيسي هو الماسونية . وقد تساءل « بول هازار » عما إذا لم تكن دائرة المعـارف مشروعاً ماسونياً . انتمى الماسونيون إلى نقابات البنائين في القرون الوسطى الذين كانوا يحرصون على الاحتفاظ بأسرارهم المهنية وقبلوا بـأن ينضوي الى جمعيتهم بعض عظماء الأسياد المولعين بمعرفة الأشياء . استمرت محافلهم في انكلترا حتى أوائل القرن الثامن عشر واستمرت معها تقاليدهم وصكوكهم واحتفالاتهم وكتاب رتبهم؛

أما الأعضاء فخليط من مهندسي العمارة المتهنين ، ورجـــال الفكر ، والاشراف . في السنة ١٧١٧ ، انصهرت أربعة محافل من محافل لندن في محفل انكلترا الكبير واستبدلت الماسونية المهنية القديمة بماسونية فلسفية . في السنة ١٧٢٣ ، وبناء على أمر المعـلم - الأكبر ، وضع الراعي الماسوني اندرسون « دساتير الماسونيين» التي تعتبر انجيل هـــذه الكنيسة الفكرية والنفعية وقانونها وكتاب فرضها .

تحتفظ الماسونية ، من اصولهـا في القرون الوسطى ، بالرموز والطقوس التي أتتها من الشرق على ما يقال ؛ تعليم الأوليـات ، الأعمدة ، الأقمشة الكتانية المصورة التي تمثل هيكل سليمان ، النجم الساطع ، الزاوية المثلثة ، البركار ، ميزان التسوية (رمز المساواة) ، السر المطلق « تحت طائلة قطع العنق واقتلاع اللسان وتمزيق القلب ؛ وكل ذلك حتى أدفن في أعمق أعمـاق البحر ويحرق جسمي ويحول الى رماد ينثر في الهواء » .

يؤلف الماسونيون من ثم شيعة صوفية ، مما أسهم في نجاحهم .

يريدون اصلاح النظام الأخلاقي والاجتماعي بنظام فكري جديد . يقولون بمذهب العقليين ويحاربون الديانة المسيحية ، ولكنهم يدينون بالدين الطبيعي وينكرون الوحي ويعبدون مهندس الكون العظيم ؛ يجب على الماسوني أن لا يكون لا «زنديقاً ملحداً» ولا « دهريا بليداً» ، بل ان ينضوي الى « هذه الديانة العامة التي يجمع عليهـا كل البشر » . يتعلقون بالحرية والمساواة ويقولون بمذهب التمع باللذة .

« في طريق تكسوها الأزهار

الماسوني يجتاز الحياة

باحثاً عن التمتع باللذة ...

هتاف الطبيعة ، أيها الصديق ، هو الحرية ...

نحن متساوون دون فوضى وأحرار دون فساد

والخضوع لشرائعنا مرتكز استقلالنا » .

الماسونيون جمعية دولية خاضعة لنظـــام متسلسل السلطات ، وقانونها هو تفاني الأعضاء بعضهم في سبيل البعض الآخر وتبادل المساعدة .

على الرغم من أن البـابا اكليمنضوس الثاني عشر قد أصدر حكمه ، في السنة ١٧٣٨ ، بمنع الماسونية في العالم المسيحي ، ومن أن البابا بندكتوس الرابع عشر قـد جدّد المنع في السنة ١٧٥١ ، فإن انتشارها كان سريعاً وواسعاً . لما لبثت المحافل ، بفضل الأعضاء من تجـــار ودبلوماسيين ، وبحارة وجنود وأسرى حرب وممثلين هزليين متنقلين ، ان تأسست في كل أنحاء العالم ، في « مونس» في بلجيكا(١٧٢١)، وباريس (١٧٢٦) ، وروسيا (١٧٣١) ، وفلورنسا

(١٧٣٣) ، وروما ولشبونة (١٧٣٥) ، وبولونيا وكوبنهاغن (١٧٤٣) ، وجبل طارق وأمريكا منذ السنة ١٧٣١ ، والهند والبنغال . استهوت الماسونية الأعيان والبورجوازيين الميسورين وأعضاء المهن الحرة والفلاسفة مونتسكيو ، وهلفتيوس ، وبنيامين فرانكلن ، « ولالند » ، وفولتير الذي قبلت عضويته في ٧ نيسان ١٧٧٨ في محفل الاخوات التسع في باريس . وانضوى اليها الاشراف بأعداد كبرى واحتل بعضهم مركز المعلم الأكبر : دوقية وكونتية انكليز ، والدوق « دانتين » والأمير « بوربون - كونديه » والكونت «دي كلرمون» والدوق « دي شارتر » في فرنسا ؛ والمركيز « دي بلتفارد » ، ياور الملك « شارل - عمانوئيل الثالث دي سافوا » ، ومؤسس محفل « شمبيري » الأول ، وهو المحفل الأم لسافوا والبييمون؛ والأمير دي « سان سيفيرو » ، المعلم الأكبر لمحفل نابولي ؛ «وفرنسوا دي لورين» زوج ماري - تيريز النمساوية وامبراطور الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة ؛ وملك بروسيا فردريك الثاني الذي أصبح منذ السنة ١٧٤٤ المعلم الأكبر لمحفل الكرات الثلاث في برلين . وكان هذا الانضواء خير وسيلة لمراقبة هذه الجمعيات السرية وضمان دعاوتها ومساندتها لهم . الماسونية قوة تنشر آراء الفلاسفة وتوحد الطبقات والأمم وتسهم في خلق ذهنية مشتركة تكون منطلقا لأعمال متماثلة .

المسيحية والكنائس

قام في وجه الفلاسفة خصوم أقوياء . وفي طليعة هؤلاء المسيحية عدوهم الأزرق . أخذوا عليها انها تطلب من العقل فوق ما يتحمل . فكيف استطاع آدم ، الكائن المحدود ، أن يهين الله اهانة غير محدودة؟ كيف يمكن التصديق أن الجنس البشري بكليته أصبح مذنباً بفعل خطيئة الانسان الأولى ؟ كيف يمكن للطفل الذي يخلق اليوم أن يكون مسؤولاً عن خطيئة ارتكبت قبله بآلاف السنين ؟ كيف يمكن تصور اله واحد في ثلاثة أقانيم ؟ واله يتجسد ؟ وانسان يقوم من بين الأموات ؟ سخروا بالكتب المقدسة وبرواياتها الغريبة ، الجارحة ، البعيدة الفهم والتصديق ! أليس جلياً أن ليس هناك من كتب موحى بها من الله ، بل مؤلفات من وضع بشر نقلوا آراء عصرهم السائدة ، نقحت وشوهت وأفسدت تكراراً ، وفاقاً لمقتضيات الزمان أو لدرجة فطنة وانتباه المستنسخين .

وأخذوا على المسيحية انها تعارض الطبيعة وتنصح بالفقر والعمل الجاهد ، والتضحية والتواضع والألم والخضوع . لا بل نسبوا إليها أبوة شواعر غير انسانية : المسيحي يبتهج بوفاة ولده الذي يربح السعادة الأزلية ؛ ويترك قريبه يموت بدون أية مساعدة حتى لا يتغيب عن حضور القداس .

واتهموها بالحاق الضرر بالمجتمع . الأديرة ملاجىء كسالى تحرم الدولة من الفلاحين والصناعيين والتجار . البتولية الكنسية تمنع تكاثر البشر وتحرم الجسم الاجتماعي من المنتجين والمستهلكين

والجنود . إرسال المال إلى البابا يفقر الأمة .الكنسيون يعفون من الضرائب في حال أنهم يمتلكون أراضي واسعة الأطراف ، ويحرمون الدولة من موارد وفيرة . الآراء الدينية تقسم المواطنين : وليس تاريخ الكنيسة سوى سلسلة طويـلة من الاضطرابات والحروب . الكنيسة توحي بروح مقاومة وعدم انقيـاد : على المسيحيين أن يطيعوا الله قبل البشر ، وان يتقيدوا بوصايا الله لا ان ينصاعوا لأوامر الحكومة . ليس المواطنون والحالة هذه بكليتهم للدولة ، وما هو العمل ضدهم ما داموا يتصورون أن ساعة وفاتهم ستكون ساعة سعادتهم الأزلية ؟

ان في مثل هذه النتائج لدليلاً على أن رجال الكنيسة جميعهم مكارون ومراؤون. لا يبحثون سوى عن مصلحتهم الشخصية ، الثروة ، والسيطرة . يتجرون بجهل البشر وخوفهم وضعفهم ويخدعونهم بالأساطير والخرافات ويعيشون على حسابهم ويسخرون منهم .

ثم يطفح جام الغضب . فيتولى فولتير الحملة على الكنيسة : « لنسحق الشائنـــة » . تلك كانت نزعته طيلة حياته ، ولكنها غدت ، منذ السنة ١٧٦٠ ، شغل هـذا العجوز الشاغل . لا شيء يصعب عليه : تبسيط استخفافي ، حذف ، تشويه . فقـــد صدرت بدون انقطاع ، عن «مصنع فرناي»، الاهاجي الازدرائية اللاذعة الـــتي كتبت من أجل أولئك الذين يؤثر فيهم المزاح والجناس المستقبح أكثر من البرهان . « كان هدفه تخليف هذه السخرية لشعب اخرق وغليظ قد يألف الضحك أمـــام ما لا يدركه » . بواسطته خصوصاً « ولدت في القرن الثامن عشر ... ودامت بعد ذلك فئة من الناس لم تعتمد غذاء روحيا سوى محاربة الاكليروس ... واعتقدت أن محاربة الاكليروس قد تكفي لتقويم الحكومات ولجـــعل المجتمعات كاملة وللايصال الى السعادة » . انتشر الكفران في كل مكان . وقام الباعـة الجوالون يزودون النبلاء والبورجوازيين والكنسيين بمخطوطات وكتب تناهض الاكليروس . في المقـاهي والحدائق العامة ، سمع جواسيس الأمن الأراجيف الموجهة ضد الكنيسة والدين ، والصادرة عن الكهنة أنفسهم أحياناً .

ضعفت الكنيسة الكاثوليكية . وكانت آنذاك أقل قدرة على المقاومة بسبب تدخل الدولة في شؤونها ، وتسرب روح العصر اليها ، وانقساماتها الداخلية . كان الملوك والأمراء والنبلاء قد أخذوا على عاتقهم ، في كل الدول ، وعلى مر الأيام ، تعيين رؤساء الأساقفـة والأساقفـة ورؤساء الأديرة وخدمـة الرعايا في المراكز الهامة . وغالباً ما اسندوا هذه الوظائف الى غير الابكار من أبناء الاشراف ، أو الى خلائق البطائن دونما نظر جدي الى الدعوة والمؤهـــلات . فعاش العديد من الأحبار عيشة كبار الأسياد العلمانيين وأحيوا الأعياد والحـــفلات وشيدوا الأبنية وزاولوا القنص ولجأوا الى الدسائس والدبلوماسية وانشغلوا بالزراعة والمعامل والطرقات والجسور ، ولكنهم اهملوا واجباتهم الرئيسية : نشر الكلام الالهي واعداد كهنتهم وترقيتهم الى الدرجات الكهنوتية . امـا الكهنة ، الذين غالباً ما ينتمون الى عامة الشعب ، وتسند اليهم

خدمة أسوأ الخورنيات حالاً ، او ممارسة الوظائف الهامـــة ، لقاء أجر زهيد ، بالوكالة عن الأسقف أو خادم الرعية الغائبين، فكانوا في أغلب الأحيان سريعي الغضب ، خامدي النشاط، قصيري الباع في أمور الدين . فقدت الدروس الكنسية ، في الواقع ، كثيراً من قيمتها . وقـد أصاب أسقف « سواسون » ، « فيتز – جيمس » ، حين كتب الى مونتسكيو ، في ٢٩ ايلول ١٧٥٠، ما يلي : «يجدر التفكير جدياً باعادة الحياة الى دروس اللاهوت التي هبطت هبوطاً كلياً، ومحاولة اعداد خدام دين يعرفونه ويستطيعون الدفاع عنه » . وقد أضاف الى ذلك : « الدين المسيحي من الجمال بحيث أنني لا اعتقد بامكان معرفته دون محبته ؛ واذا ما وجد من يجدف عليه ، فهذا دليل على جهله له . » ولذلك استسلم العديد من الكنسيين الى الآراء الجديدة وباتوا يمتقدون ، بقليل أو كثير من الصراحة ، بالدين الطبيعي وينكرون الوحي ، وينادون بالالحاد أحياناً . وفتر ايمان الآخرين ، وكف الوعاظ ، بسبب عدم اطمئنانهم وعـدم قناعتهم ، عن التكلم في موضوع العقيدة ، واقتصروا على الكلام عن عموميات اخلاقية مستبهمة . وكان بعض المدافعين عن العقائد المسيحية مملين ، وعادمي الحذاقة ومثيرين للسخرية احيانـاً . ونظم الأب « بلغرين » حقائق العقيدة المسيحية بحيث تنشد وفاقـاً لألحان مألوفة رائجـة . واخيراً كانت الكنيسة قد فقدت اعتبارها بفعل الجدال الكبير الذي قام بين الجنسينيين واليسوعيين . فهؤلاء وأولئك قد تجاهلوا المحبة المتوجبة عليهم . وقد اضعفت اتهاماتهم المتبادلة كلا الطرفين . عالجوا أدق عقائد الايمان في الساحات العامة ؛ فحمل ذلك أعمق الناس جهـــلاً على اصدار حكمه فيها . وقد طلب من السلطة المدنية أن تتدخل في الدين .

في كل مكان تقريبا ، دافعت الدولة مبدئياً عن الكنيسة . كان عمـــل مجلس التفتيش مستمراً في اسبانيا والبرتغال ، ولم ينقطع حبـــل احراق الهراطقة . وفي كل مكان ، كانت هنالك رقابة ، واخطار التعرض لأحكام الأساقفة وجمعيات الاكليروس والعقوبات الحكومية . واتخذت تدابير شديدة احيانا : فان ماري تيريز قد حظرت فهرس الكتب المحرمة لأن مجرد قراءة العناوين قد يثير الرغبة في قراءة الكتب الـتي كان الاولى ان لا يعرف بوجودها نفسه . وفي أوساط البروتستانت طرد غليوم الاول الاستاذ « وولف » من منبره التعليمي في « هال ». وحصلت اعتقالات واضطهادات وابعادات .

ولكن الملوك ما كانوا ليحبوا في الكنيسة إلا ما كان من شأنه أن يخـــدم صوالحهم . فهم وبطائنهم وسراريهم ووزراؤهم قد انساقوا وراء الآراء الجديـــدة أيضاً . وغدت تصرفاتهم متناقضة . فان لويس الخامس عشر، في فرنسا، قد عين أمينا للمكتبة « ماليزرب » العاطف على حرية أهـــل الادب . كما أن « داميلافيل » المفوض الاول في إدارة الضرائب ، كان يمهر طرود مؤلفات فولتير المعادية للدين بخاتم المراقب العام ، وكان لماري – تيريز المشهورة بتقواها مستشار جلسيني وزوج ماسوني . وكانت مقاومة الدعاوة المعادية للدين ضعيفة . فهبط تأثير الكنيسة . والدليل على ذلك الالغاء على مراحـــل الذي استهدف جيش البـــابا ، أعني به جمعية اليسوعيين

المرتبطة بالبابا بنذر طاعة خاص . فقد ألغيت الجمعية في البرتغال (١٧٥٩)، وفرنسا (١٧٦٤) واسبانيا (١٧٦٧) ، ونابولي ، وبارم ، وأقصي اليسوعيون إلا عن فرنسا . وأرغم الملوك الكاثوليك البابا على حل جمعية يسوع ، في ٢١ تموز ١٧٧٣ . فهتف فولتير : « لن يكون هنالك كنيسة بعد مرور عشرين سنة » .

بيد أن الكنيسة استمرت . وقد استمرت، في الدرجة الاولى ، بفضل هذه الجوقة من الكهنة والراهبات الذين لم تستوقفهم الصعوبات الفكرية ، بل جاشت قلوبهم بتلك المحبة العظيمة للقريب التي هي محبة الله فبذلوا أنفسهم بصمت في سبيل المرضى والعجزة والفقراء والاطفال. واستمرت بفضل هؤلاء المرسلين الذين ذهبوا ، كما في الماضي ، يضحون بحياتهم لتخليص اخوتهم. واستمرت بفضل تلك الالوف من العلمانيين الورعين الذين بذلوا وسعهم ، دونما ضجة ، كي يحيوا دينهم ويكونوا كل يوم أعظم صدقاً وضميراً وفضيلة وتفانيا ومحبة . فكان لها معترفوها وشهداؤها وقديسوها .

واستمرت كذلك بفضل العلمانيين أو الكنسيين الذين ردوا على الهجوم بهجوم معاكس . أوضحوا أن الايمان بيسوع المسيح ليس مرتبطاً بـأية فلسفة : فالقديس اوغسطينوس قد جاهر بالافلاطونية ، والقديس توما الاقويني فضل ارسطو ، وبوسويه كان كرتزيانيـا . وان العقيدة المسيحية لا تتنافى والفلسفة الجديدة . وأن كهنة اتقياء كثيرين يقولون بفلسفة ديكارت ولوك ويعجبون بها . انهم مسيحيون « مستنيرون » جمعوا بين حقائق العلم والحقائق المسيحية . فاليسوعي « بوفييه » ، الاستاذ في كلية لويس الكبير ، قد علّم مذهب لوك . وحاول الفرنسيسيون ورهبان القديس فيلبس النيري أن يدخلوا إلى البرتغال مذهب بيكون ونيوتون ويعودوا تلامذتهم النقد والحكم الشخصي . وأعاد الأب « كونارسكي » النظر في برامج الجامعة البولونية : فأوصى بدراسة بيكون وغسندي وديكارت ولوك . وحارب المدافعون عن العقائد المسيحية بأسلحة الفلاسفة نفسها . العقل ؟ أحبته الكنيسة ابداً ودائماً ؛ لا يجوز اقسام اليمين استناداً الى قول المعلمين ؛ يجب أن ينبثق الايمان من الفحص العقلي ، ولا يجوز أن يكون نتيجة الاكراه ؛ لا دين حقيقي سوى الدين الحر والاختياري . يقتضي من ثم التساهل واللين والاقناع . العقل خير ادواتنا ولكنه محدود ؛ هنالك نطاق يعجز عن بلوغه باعتراف الفلاسفة انفسهم . لذلك أوحى الله لنا ببعض حقائق ما كنا لنتوصل اليها بطريقة أخرى . فالايمان بالاسرار ليس من ثم متعارضاً والعقل : لا بل هو العقل ما يستحث على ذلك . النقد التاريخي ؟ انه يثبت صدق الكتاب المقدس ، فان المعجزات ، التي يخبرها شهود عيان او شهود معاصرون يدل كل شيء على صدقهم وسلامة طويتهم ، وتتناول وقائع مرتبطة بوقائع لاحقة ، ويسلم بها حتى اولئك الذين تقضي مصلحتهم بنكرانها ، ترتدي طابعاً لا يقبل الجدل أو الاعتراض . لا ريب في انها تناقض نواميس الطبيعة ، ولكن ليس من تناقض إلا بالنسبة لعقولنا الضعيفة ، لا بالنسبة للادراك الالهي القادر على أن يرى الصلة بين كل الاشياء وان يصهر في وحدة واحدة ما هو

بالنسبة لنا تباعد واختلاف . المساواة في الحقوق ؟ المنفعة الاجتماعية ؟ هذا هو تعليم المسيح بالذات . إن بين البشر ، ابناء الله ، واخوة المسيح ، مساواة طبيعية : وظائفهم غير متساوية ، أما هم فمتساوون . على امرائهم أن لا يجعلوا نصب اعينهم سوى خير الدولة ، وأن يعملوا في كل شيء بمقتضى الشريعة الالهية التي تنهى عن ارتكاب المنكر وتأمر بالاسهام في خير الجميع، وحتى الاعداء ، كما تأمر بأن نعمل لسوانا من البشر ما نتمنى أن يعملوه لنا. خير علاج للآلام الاجتماعية محبة البشر المتأججة المتبادلة . الدين محبة ، لا تطرف في التقوى . ويخلص الأب جينوفيزي ، الاستاذ في جامعة نابولي ، إلى القول : « أنا أعبد الانجيل الذي جوهره المحبة . آه ما أعذبها هذه الكلمة ، المحبة . وكم تكون حياتنا سعيدة لو انها تسود وحدها ». المحبة ربطت بين ملايين البشر في الكنيسة بروابط لم تقو أية محاولة على تحطيمها .

نزلت بالكنائس البروتستانتية المختلفة ، لا سيما الكنيسة الانغليكانية والكنائس اللوثرية (المانيا الشمالية واسوج مثلاً) ، مصائب مماثلة لمصائب الكنيسة الكاثوليكية : العبودية للدولة ، نقص في عدد الأكليروس وتدن في مستوى تربيته (في بعض البلدان الكلفينية كاسكتلندا وجنيف) ، وفتور في الايمان ، ونزعة عامة الى المذهب العقلي والدين الطبيعي والاخلاق « الطبيعة » . ولكن حدثت عند البروتستانت حركات تجديد أشد عنفاً ، أو أقله أكثر بروزاً منها عند الكاثوليك ، بسبب الاستقلال المتأصل في البروتستانتية : الكتاب هو المصدر الوحيد لكل حقيقة ؛ كل من يقرأه ، مستنيراً بالروح القدس ، يدركه إدراكاً تاماً ويحكم بالصواب فيما اذا كانت الكنيسة والدولة متفقتين وأياه ؛ وليس باستطاعة الكنيسة والدولة أن تفرضا شيئاً يعارض الكتاب . هذا ما يفسر عدد ونشاط المنشقين الذين يريدون « تجديد » الحياة الدينية والعودة إلى جوهر البروتستانتية : عقيدة « الخلاص بالايمان » . ان الانسان ، الملطخ بالخطيئة الاصلية، لا يخلص إلا بالايمان بالمسيح الذي يستتبع الحياة الداخلية بمحبة الا له الحي، والصلاة والتأمل ، ومطابقة الأعمال للأنجيل . هذا ما قال به بروتستانت المانيا واسوج والدانمارك ؛ والأخوة المورافيون الذين انطلقت شيعتهم من بوهيميا وانتشرت في كافة انحاء اوروبا الوسطى ، وحتى في البلدان الانكلو – ساكسونية ؛ والانجيليون الذين حصروا عملهم داخل الكنيسة الانغليكانية ؛ والميثوديون الانكليز الذين أسسهم « وسلي » في السنة ١٧٣٨ ، وانفصلوا نهائياً عن الكنيسة الانغليكانية في السنة ١٧٩١ ليؤلفوا كنيسة مستقلة تستميل مريديها بنفسها غير آخذة بعين الاعتبار سوى الدعوة الفردية ؛ والبوريتانيون في انكلترا وامريكا الذين انتهوا الى القول بالاختيار منذ الازل للمجد السماوي . في البلدان الانكلو – ساكسونية الآخذة في التصنيع ، بشر هؤلاء المسيحيون الغياري العمال ببهجة الحياة الداخلية واسلام الامر لله ، وأرباب المصانع بالاخوّة المسيحية . فأوجدوا حركة انسانية طالبت ،على لسان « شارب »و « وليرفورس » ، بحل المسألة العمالية والغاء النخاسة والرق .

الرومنطيقيون

أقامت أشكال أخرى من أشكال الحس اعداء أقوياء في وجـــه فلسفة الانوار . انطوت هذه الفلسفة ، بفعل منطقها المتصلب ، ونقدها الهدام ، وعلم اخلاقها الحذر والمتبصر والمرتكز ابـــداً ، في النتيجة ، الى انانية واعية ، على شيء من الحصر والانكماش والجفاف، انتهى عند كونديلاك وهلفتيوس ودولباك،الى ما هو اشبه بهيكل عظمي معرى من اللحم . ما كانت لتشبع حاجات القلب والحس والمخيلة مع انها ، في الوقت نفسه ، كانت تحركها وتطلق لها العنان . نادى الفلاسفة بأن الأهواء جيدة كلها وانها مثار كل نشاط ، كما نادوا بشرعية اشباع الحس ، وحرية الفرد المطلقة في ان يحكم بنفسه ويسلك بموجب أحكامه . زد على ذلك ان فقدان السياق في تفكيرهم كان تشجيعا للفرد على رفض تعاليمهم وعلى سلوك الطريق الخاصة التي يطيب له سلوكها . تكلموا عن الطبيعة كما عن امرأة ، ولكنهم لم يتفقوا فيما بينهم بصددها ؛ فتارة رأوا فيها امـــا جاهدة في سدّ حاجات ابنائها ؛ وأخرى اميرة بعيدة تحتقر الافراد احتقاراً عميقاً ولا تهتم الا للنوع ؛ واخرى ابا هول لغزيا لا يهتم لشيء ويعيش في الصمت حياته العادمة الرحمـــة . يضاف الى هذا من جهة ثانية ان كل ذلك لم يكن سوى مجازات واستعارات اعتبرت تفسيرات اولية،بينما هي فلسفة مدرسية في طور الانحطاط. أرادوا العمل بنواميس الطبيعة ، ولكن كل واحد منهم وجـــد لنفسه نواميسه الخاصة . اذا جمعت بين جميع هؤلاء الفلاسفة خطوط مشتركة كبرى تؤلف « فلسفة الأنوار » ، فهذا لا يعني انهم لا يناقضون بعضهم بعضا في الكثير من النقاط ، وانهم لا يناقضون انفسهم : فهم متقاربون ولكنهم متغايرون . لذلك نشأت حركة تستهدف نبذ كل هذه الاقوال وسلوك طرق أخرى يرشد كلا من القائمين بها وحي فؤاده .

جان جاك روسو

بين العديد من الكتبة الفرديين ، الخياليين والعاطفيين ، المنساقين وراء حسهم، على شغفهم بالعقـــل في الوقت نفسه ، المنطلقين من شواعرهم ليستلنتجوا منها ، بمنطق صارم ، مذهبا فلسفيا كاملا ، وليفرضوا على العالم هذا النتاج من صنع ذاتهم الذي هو اعظم هؤلاء الرومنطيقيين طرا ، ومعـلم الرومنطيقيين الذين جاؤوا من بعدهم، يبرز جان جاك روسو (١٧١٢ — ١٧٧٨) . ابصر النور في جنيف ، وكان ابنا لساعاتي ؛ هام ابدا على وجهه وتطفل في أغلب الاحيان على العظماء ، وتميز بخجله ، ومن ثم بكبريائه ، وبحس منسقام جمله يجهش بالبكاء عند كل انطباع على بعض القوة ، وبمخيلة سعرى ، فبلغ من تألمه ابدا من علائقه بالبشر ولا سيما بالعظماء ، ومن انظمة المجتمع ومصطلحاته وموجباته ، انه سُرّ وحده، بالمقابلة ، وفي وسط الطبيعة ، بالتمتع بذاته وتأثراته الحسية والروايات التي ما انفك عن بنائها في مخيلته حيث خلق على هواه عوالم مصنوعة لاجله . في السنة ١٧٥٠ ، اهتدى الى طريقه ، حين علم بموضوع المباراة الذي طرحته اكاديمية ديجون : « هل أسهم إحياء العلوم والفنون في تنقية الاخلاق » . تشجع روسو بموافقة ديدرو وايحاءاته ، فعالج الموضوع وفـــاز بالجائزة في ٢٣ آب ١٧٥٠ . دافع عن رأي معاكس لرأي الفلاسفة : « لقد فسدت نفوسنا بمقدار

تقدم فنوننا وعلومنا نحو الكمال . » وناقض نفسه :« العلوم والفنون مدينة بنشأتها الى نقائصنا. » على العلماء الحقيقيين ان يديروا الدولة . ولكن لا شأن لذلك : فالعلوم والفنون تضيع الوقت ، وتخنث بالبذخ ، وتفسد الذوق ، وتقتل الفضائل العسكرية ؛ والطباعة آفـــة ؛ والفلاسفة مخرقون على الجماهير الساذجة . نشر هذا الهجوم على المعابيد « توعاً من الرعب ». تحدّث عنه فولتير ودالمبير وملك بولونيا ستانسلاس لكزنسكي . ولا غرو في ذلك اذ ان معالج هذه الآراء المبتذلة رجـــل متشبع من التوراة ومتتلمذ على كبار منطقيي القرن السابع عشر ، ديكارت وبور — رويال ومالبرانش ، تحركه كافـــة الآلام التي تعرض لها وكافة الاحقاد المتكدسة في نفسه . وهذا ما جعل جملته عادمـــة السهولة ، خطابية ، مؤثرة في القلوب ، قوية ، ايقاعية ، تعارض اسلوب العصر الموجز الظريف ، وتؤثر وتفرض نفسها . كرس روسو كاتباً . ومنذ ذاك الحين انفصل تدريجياً عن الفلاسفة .

في السنة ١٧٥٤ نشر كتابه « خطبة في منشأ وأسس التفاوت بين البشر » . رسم فيهـــا بدوره ، على غرار الكثيرين من اهل زمانه ، لوحة الهمجي الصالح في حالة الطبيعة ، حـــالة النعمة : عضلي ورشيق ، متوحّد ، فطري ، سعيد كل السعادة . « حالة التفكير حالة تناقض الطبيعة ... الانسان الذي يتأمل حيوان مفسّد ». ولكن للانسان قـــدرة مشؤومة على التحسن والتكامل . زد على ذلك ان سنوات المحول وفصول الامطار الطويلة ، وفصـــول الصيف المحرقة ، والفيضانات والزلازل ترغمه على مشاركة بشر آخرين ليؤلف معهم فرق قنص ثم قبائل رعاة . في الجمعيات يتولد الحسد والشقاق والصلف والاحتقار . يؤدي الاتفـــاق الى اكتشاف النار ، شرط الزراعة . توجب على البشر ، بعد ان اصبحوا فلاحين ، ان يتقاسموا الاراضي ويقروا التملك الفردي ، ومنذ ذلك الحين ، فقد كل شيء ، وارتكبت الخطيئـــة الأصلية ، وسلك البشر طريق « قحول النوع » . عن التملك نشأ عـدم المساواة ، والمنافسة ، والخصومة ، والكبرياء ، والبخل ، والحسد ، والرداءة ، وصـراع الطبقات ، والحروب . بات لزاماً اختيار رئيس ؛ فغدا الرئيس طاغية . نزلت بالبشرية كافة المصائب . وهكذا يتضح ان الخطبة حل لمسألة الشّر . « البشر سيئو الخلق ... الا ان الانسان صالح بطبيعته ... فـــماذا الذي دفع به الى هذا الدرك من الفساد ان لم يكن التبدلات التي طرأت على بنيته والنجاحـــات التي حققها والمعارف التي حصلها ؟ » عرفت « الخطبة » اوسع انتشار عرفته مؤلفات روســـو باستثناء « هيلويز الجديدة » . عرضت في المكتبات اكثر من « العقد الاجتماعي » . واسهمت اكثر من اي مؤلف آخر في نشر عبادة المساواة .

حاول روسو آنذاك الاهتداء الى «حالة براءة وطهارة في الفساد الاجتماعي » .

لا يستطيـع الانسان من ثم الاستغناء عن عضـــد الانسان ؛ لا يستطيع العودة الى الوراء . والحال ، الحـــالة الاجتماعية ليست طبيعية ، وهي ترتكز الى اصطلاحـات . فيجب والحالة هذه تعيين شكل اصطلاحي يكون من شأنه الجمع بين فوائد الحالة الاجتماعية وفوائد حالة الطبيعة . هذا هو موضوع « العقد الاجتماعي » (١٧٦٢) : ايجـاد شكل شراكة

يحفظ للأفراد المساواة والحرية اللتين كانتا لهم بالطبيعة ؛ وموضـوع « اميل » (١٧٦٢) : ايجـاد طريقة تربوية تجعل الانسان يحافظ في المجتمع على جودته المطبوعـة وعلى براءة الحالة الطبيعية وفضائلها .

سيعمد مهذب اميل الى عزله عن المجتمع لتربيته تربية فضلى ، وجعله يعيش بحسب الطبيعة ، ولاستخدام استعداده للبحث عما هو مستطاب وتجنب كل شيء آخر . ستكون التربية من ثم تربية سلبية . يجب الا نعلّم التلميذ شيئاً ، بل ان نسلمه مباشرة الى درس الاشياء كي يتعلّم على حسابه ما يجب السعي لنيله وما يجب تجنبه . اذا كسر لوح زجاج النافذة في غرفته ، فليتألم من البرد . لا يريد ان يفعل شيئاً ؟ دعه وشأنه ، اذ انه سيمل البطالة . لا ريب في ان الاشياء قـد تعلمـه ما قد لا تريده ، او لا توفر له الدروس المتوخاة . علينا ان نثيرهـا او نبتكرهـا : كالتظاهر باننا ضللنا الطريق حتى يدرك اميل فائدة علم الفلك ؛ او تدبير مؤامرة بالاتفاق مع سكان القرية المجاورة حتى تكرّ ه الكلمة المخدشة الآذان الخروج منفرداً . اذا كان سريـع الغضب ، يقال له « كلا » دون اي تفسير . وهكذا اذا ما تربى اميل في جـو من الصـدق والحرية يختلف كل الاختلاف عن جوّ التربية المألوفة ، فانه سيحافظ على الفضائل المطبوعـة في الانسان .

حين يبلغ اميل سن العشرين ، يكشف له القناع عن حقائق الدين . هذه هي « المجاهـرة بحقائق الدين » التي يولي روسو ، البروتستانتي المرتد الى الكاثوليكية ، والساقـط ثانية في الهرطقة ، امرها الى كاهن كاثوليكي من مقاطعة سافوا . يتردّد بين آراء الفلاسفة المتناقضة فيقرر الاسترشاد بـ « النور الداخلي » ، مصمماً على التسليم بكل الحقائق « التي لن استطيـع ، في صدق قلبي ، رفض الموافقة عليها » . القلب الصادق والعواطف الطاهرة هي شرط الحقيقة قبل العقل . يرى نفسه يفكر ، بتصورات ذهنية يولدها عقله بمناسبة التأثرات الحسيـة ؛ دون ان تصدر عن التأثرات الحسية ؛ له قدرة على الحـكم سابقة للتأثرات الحسية ، ليس هو « كائنـاً حسياً وسلبياً » بل كائناً فاعلاً وعاقلاً » ، على نقيض لوك ومدرسته . كل ما حوله مادة جامدة مع انها خاضعة لحركة منتظمة . ولكن « اذا كانت المادة المتحركة تثبت لي وجـود ارادة ، فان المادة المتحركة وفاقاً لبعض النواميس تثبت لي وجود عقل » . يتوصل من ثم الى العقل الاسمى ، الله . الانسان ، العاقل ، المختلف اختلافاً عميقاً عن الحيوانات ، هو ملك الارض ، مهما قال الفلاسفة في ذلك . ولكن الشر موجود . الله براء منه . اعطى الانسان سمو الكمال ، الحرية . الانسان الحر يوجد التشويش في الطبيعة ويخلق الشر . ليكن عادلا فيغدو سعيـداً . الحاجة الى التكفير عن الظلامات دليل على خلود النفس وعلى العقوبات والمكافآت بعد الموت . قواعد الاخلاق مدونة في اعماق القلب : « كل ما اشعر به خيراً يكون خيراً ، وكل ما اشعر به شراً يكون شراً ؛ الضمير خير حلال للمشاكل ... العقل يخدعنا غالباً ... ولكن الضمير لا يخدع ابداً ... فهو من ثم ، في اعماق نفوسنا ، مبدأ « مطبوع » للعدل والفضيلة .

ميزة الانسان الفريدة في الطبيعة ، والتصورات الذهنية المطبوعة ، والانكماش على النفس لاكتشاف الحقيقة في ذاتنـــا ، في صمت الاهواء ، بعيداً عن العالم ، هذا هو الرأي المعاكس لفلسفة الانوار ، وكان من شأنه ان يصبح انتقام ديكارت الكامل على لوك لو ارتكز كل شيء الى العقل لا الى العاطفة .

سيعمد البشر المحسّون والصالحون الى التشارك ، الى وضع « عقد اجتماعي » فيما بينهم ، بحيث يحافظون على حريتهم . « الانسان مولود حراً وهو في كل مكان موثق بالقيود ... التخلي عن الحرية هو التخلي عن صفــة الانسان ، عن حقوق الانسانية ، وحتى عن واجباتها ... ان مثل هــذا التخلي يتعارض وطبيعة الانسان » . السبيل الى التوفيق بين السلطة والحرية هو تنازل كل شريك عن كافة حقوقه للجماعة . فلمــا كان كل انسان يهب نفسه الى المجموع ، فهو لا يهب نفسه لأحد ، ولمــا كان ليس من شريك نتمتع حياله بالحقوق نفسها التي نتخلى له عنها ، فإننا نكسب ما يعادل كل ما نخسره ، لا بل نكسب مزيداً من القوة للمحافظة على ما لنا . » الارادة العامة تصنع القانون ، والارادة العامة ليست ارادة انسان ، ولا ارادة جمعية من الممثلين ؛ ليست مجموع الارادات الخاصة ولا قرار الاكثرية · في كل فرد ارادة خاصة تحركها الغرائز والاهواء الظرفية ؛ وارادة عميقة هي « عمل بحت من اعمال الادراك الذي يرشد في صمت الاهواء الى ما يستطيع الانسان فرضه على نظيره والى مــا يحق لنظيره ان يفرضه عليه » . هذه الارادة متماثلة عند كل البشر ، منزهة عن الضلال ؛ انها الارادة العامة المنبثقة عن الضمير الفردي ، المستخلصة بالهدوء والتفكير في العزلة بعيداً عن الاحزاب والتكتلات والهيئات . لا حاجة لاية جمعية ، أو نقابة ، أو حزب ، بل لهباء من الافراد ، « وإلا لاستطعنا القول ان ليس هناك من بعد مقترعون بعدد البشر ، بل بعدد الجمعيات فقط » .

ان القانون ، وهو التعبير عن الارادة العامة ، كلي القدرة . الدولة ، حيال اعضائها ، سيدة ممتلكاتهم بفعل العقد الاجتماعي ... الملاكون يعتبرون مؤمنــين على الممتلكات العامة » . الدولة حكم في مـــا يجب ان تتركه من حرية لكل فرد ؛ باستطاعتها فرض دين مدني ، ضروري للمجتمع ، وابعاد من لا يعتنقه ، والحكم بالموت على من يعتنقه « ويسلك كمن لا يدين به » . وهذا يعني فتح الباب على مصراعيه امام الاستبداد .

ولما كان يقتضي عملياً ، وعلى الرغم من كل شيء ، اصدار قرار بأكثرية الاصوات ، فمن شأن العقد الاجتماعي ان يفضي الى طغيان الاكثرية على الاقلية .

حكم روسو بنفسه على الاهمية العملية التي انطوى عليها عمله في كتبه ومراسلاته . فنصح بصراحة الى احدى السيدات بأن ترسل الى مدرسة داخلية ابناً لها غير قابل التأديب . وكتب الى احد الكهنة : « اذا كان صحيحاً انـك تبنيت المخطط الذي حاولت رسمه في « اميل » ، فاني معجب بشجاعتك » . وكتب عن العقد الاجتماعي « انه لا يمكن ان يوافق سوى دول صغيرة

جداً ، كجنيف ، وبرن ، وكورسكا » . وكتب في مكان آخر : « ان حكماً على مثل هـذا الكمال لا يلائم البشر » . وفي رسالة الى ميرابو ، شبه المسألة التي حاول حلهـا « بمسألة تربيع الدائرة في الهندسة » .

إلا أن الجمهور لم يعر اهتمامه التحفظات التي جهل معظمها على كل حـال . فغدا روسو إلهاً . وبدّل العادات والاخلاق . فاستحضرت السيدات الجميلات اطفالهن إلى مقصوراتهن في الاوبرا لإرضاعهم على مرأى الجماهير وفي وسط عاصفة من التصفيق ، لان روسو أوصى بارضاع الامهات لأطفالهن . وجمعت الفتيات نباتات الحقول لدرسها لان روسو كان يهوى علم النبات .

استوحى «مورلّي» الحالة الفكرية نفسها، وطلب في « دستور الطبيعة » (١٧٥٥) الرجوع إلى الطبيعة التي تعلم الانسان مشاعية الممتلكات . التملـك مصدر كل الجرائم . والشيوعية ستكون عودة إلى العصر الذهبي . وكتب الاب « مـابلي » ، تلميـذ روسو ، في كتـابه ، « التشريع » ، ما يلي : « اتعلمون ما هو مصدر كافة المصائب التي تنزل بالبشرية ؟ انه التملك» . ونصح « بهذه المشاعية المباركـة في الممتلكات » ، اي بشيوعية زراعية من شأنهـا القضاء على الاهواء الانانية وإشباع الغرائز الاجتماعية . وحاول« مرسييه» في روايته التي تتناول المستقبل، « باريس في السنة ٢٤٤٠ » ، الحد من التفاوت بالزواجات الاكراهية بين الاغنيـاء والفقراء ، وروّج «بريسو دي وارفيل» ، الذي سيصبح عضواً في « الجمعية التشريعية » و «جمعية الميثاق»، الصيغة التي طلع بها « برودون » : « التملك هو السرقة » .

« كانت »

بيد ان أهم تلامذة روسو شأناً هو « كانت » . فان « مجـــاهرة نائب السافوا بحقائق الدين » قـد أوحت له ، بنسبة وحي « هيوم » تقريباً ، بـ « نقد العقل البحت » . كما أوحت له ايضاً بكتابه « نقد العقل العملي » ، واخلاقه ، ودينه ، وسياسته .

حلل كانت الاخلاق للارتقاء إلى مبدئها ، بحسب طريقة نيوتون ، فوجد أنهـا تسلـّم كلها بقيمة مطلقة لـ « حسن النية » . « النية الحسنة » هي تصميم على القيام بالواجب نابـع من أعمق اعماق ذاتنا ، اشبه بنزعة من طبيعتنا الداخلية الخفية ، او بمبدأ مطبوع ، كما قال بذلك روسو . يكون الواجب متمماً حين يؤتى العمل بتصميم على القيام بالواجب وحين نحكم في ضميرنا اننا قمنا به بحكم الواجب . لا شأن لطبيعة العمل ، وقد نخطىء بالقيـــام به ، فقيمة العمل لا تتولد من المعرفة بل من الشعور المتكون فينا بقيمته ، ومن الحكم الذي نصدره عليه : فقتل والد عجوز ، بحكم الواجب ، في الألم والقلق الشديد ؛ للاستغناء عن شخص لا يجدي نفعاً إبان مجـاعة ، عمل خاطىء، ولكنه عمل جيد ادبياً ؛ ومساعدة انسان بائس لضمان جميله نتيجة للأنانية : ان العمل، المتفق وعلم الاخلاق ، ليس جيداً ادبياً .

الواجب شيء مطلق لا يرتبط بالظروف: « اعمل بحسب مبدأ يمكنك معه ان تريد فيالوقت نفسه ان يصبح سنـّة شاملة » . هذا هو الامر الجازم ، الناموس الاخـلاقي . يكتشف الناموس

الاخلاقي الذي يستخلص المطلق والشامل من كل بواعث الحس . الشعور يبعث التحريك ، يولّد « النية الحسنة » ؛ ولكن العقل هو ما يرشد الى الطريق . العقل هو القوة التي تجعل الانسان انساناً . على هذا الاخير من ثم ان يحترم العقل والحرية ، في نفسه وعند الآخرين: « اعمل بحيث تستخدم الانسانية ابداً في شخصك كما في شخص الغير ، كغاية لا كوسيلة فقط » .

ولكن الانسان متجمل بحس يجب إشباعه ، حتى يصبح هو سعيداً . ولكنه غالباً ما يصبح تعساً بخضوعه للقانون الاخلاقي . فمن المرجح من ثم ان له نفساً خالدة وان هنالك الهـــاً يمنحه السعادة بحسب استحقاقاته . الله هو المشترع الواجب احترامه ؛ العمل الاخلاقي هو في النتيجة العمل الذي يرضي الله ؛ الدين هو التصميم الثابت على تتميم واجباتنا ارضاءً لله . الله هو المبـــدأ الاساسي الذي يسلم به العقل العملي بدون برهـــان . الكنيسة هي مجموع الناس الحسني النية . الكنائس هي محاولات مقاربة هذه الكنيسة الشاملة .

على القانون ان يسعى جهده لإرضاء حاجات الانسان وميزتي الحرية والعقل فيه . وعليه ان يحترم المبادىء : « اعمل بحيث تتخذ الانسانية هدفاً لا وسيلة » ؛ و « اعمل خارجياً بحيث يتاح لاستخدام ارادتك الحر ان لا يتنافى ووجود حرية كل فرد بحسب سنة عامة » . هذه المبادىء تضمن للدولة ، التي هي لسان حال القانون ، السلطة القسرية على الفرد ، وحق الفرد في مقاومة الدولة ، وحق التملك الذي يعطي كل فرد نطاق ممارسة حريته . كما انها تستلزم النظام الجمهوري . عندما تتبنى كافة البلدان الدستور الجمهوري ، يصبح باستطاعتهـا تأسيس جمعية أمم ، وإقرار حق دولي ، وتأمين السلم الدائم .

عارض « كانت » من ثم مونتسكيو والفلاسفة بفكرة المبادىء المطلقة ، المستقلة عن الزمان والامكنة والظروف ، كما عارض الفلاسفة بعلمه الاخلاقي النابع من القلب المستنير بالعقل ، لا من الحواس المرشدة بالعقل .

كان شارحو الكتاب المقدس من الالمان قـــد عادوا مرة اخرى الى درس سبينوزا . كانت ألوهية الكون التي طلع بها ، اي قوله بإله يتميز بصيرورة دائمة ويظهر في كل الطبيعة ، مصدر وحي لـ « لسنغ » و « هردر » . ارتأى لسنغ ان مـا يدعوه البشر حقيقة ليس سوى تعاقب اشكال عابرة لحقيقة تكتشف اثناء تقدمها . وارتأى هردر ان حياتنـــا نبض في حياة الكل الاعظم ؛ وان تاريخ البشرية هو تعاقب الرسوم الايجازية التي تقترب بها الطبيعة اقتراباً مستمراً ، بتحول تدريجي ، من المثال الاكمل . لسنا ندرك هذا العمل بواسطة العقل ، بل بحدس ذاتي مباشر . وهكذا فان الفلاسفة الذين اعتقدوا بانهم توصلوا بواسطة العقل الى حقيقة نهائية قـــد تعرضوا هنا ايضاً لهجمات رأي سيكون له اعظم أثر في العهد اللاحق .

تأسست في هذه الاثناء ماسونية من الملهمين والصوفيين ، معـادية للفلسفة الانسيكلوبيدية التي رجمتها بالسباب والشتائم . انطلقت موجة صوفية من المانيا وسويسرا واسوج وبلغت شرقي فرنسا وباريس. استوحى هؤلاء الماسونيون العقيدة المسيحية وبحثوا، بمعزل عن كل كنيسة ، عن

اصلاح نفوسهم بالاتصال بما هو الهي كي يحيوا بحسب الانجيل . ولكنهم انهمكوا في مناجـاة الارواح ، والتنويم المغناطيسي ، والكيمياء ، والسحر ، وهي كلها ممارسات انفت منها الكنائس المسيحية . انبياؤهم هم الاسوجي « سويدنبورغ » الذي ناجى الموتى واكتشف « الاسرار السماوية » و « عجائب السماء وجهنم » ؛ والسويسري « لافاتير » الذي اعتقد بامكان حصوله بالايمان على قدرة فائقة الطبيعة ، واتصاله بالله بواسطة التنويم المغناطيسي ، والذي غدا مسكنه في زوريخ ، في السنة ١٧٨٩ ، مزاراً اوروبياً ؛ والفرنسي « سان مـارتين » ، « الفيلسوف المجهول » ، المعادي للعلم لان الانسان لا يستطيع اكتشاف شيء ، بل الاستذكار فقط ، وعليه ان يستعجل مجيء ملك المسيح بالتأمل والصلاة (الاخطـاء والحقيقة ، ١٧٧٥) . تأسست جمعيات صوفية في المانيـا : جمعية « التقيد التام » التي استمالت الامراء والاميرات وكبار الاسياد ؛ وجمعية « وردة الصليب » التي كان ملك بروسيا الجديد ، « فردريك ـ غليوم الثاني » عضوا من اعضائها ؛ والتي اراد أحد مشايعيها ، وهو طبيب عـام في الجيش البروسي ، التقاط النيازك بغية تكرير بلسم هذه المادة الاولية . وتأسست محافل صوفية في « ليون » و« شمبيري » وستراسبورغ وغرينوبل . وكان كل هؤلاء الصوفيين على اتصال فيما بينهم .

كان هناك إلى جانب الرسل المخترقون الذين احرزوا نجاحا باريسيا مدهشا . نخص بالذكر منهم « كاليوسترو » الذي استدعى الارواح واسس في ليون محفل « الحكمة الظـافرة » حيث كان الاتباع ينخطفون امام موسى وايليا اللذين يظهران لهم ؛ والطبيب الفييني « مسمر » الذي ادعى شفاء كافة الامراض « بوعـائه الخشبي السحري » . انتشر المنومون المغناطيسيون ، والمبقظون النائمون ، والملهمون ، بأعداد كبيرة في كل مكان . وفي الضباب الفكري استسلم بعض الافراد الى نزعات غامضة . فظن كثيرون بانهم امـام ثورة تشق الطريق التي تؤدي الى العـالم الثاني ، ولن تلبث ان تقوم بتجديد البشرية .

الاجتماعيون

تحت ستار محاولة في علم الاجتماع ، هي « روح الشرائع » ، حارب مونتسكيو محاولات الاصلاح . حاول ان يثبت ان الدساتير السياسية ترتبط ، وفاقا لنواميس طبيعية حقيقية ، بظروف الاقليم ، والتربة ، ونوع الحياة ، وطبع الشعوب ، واخلاقها ، ودينها ، الخ . فاتخذ من ذلك حجة للتمريض بانه لا يجوز مس الدستور الفرنسي ، وبان هـذا الدستور يجعل من المجالس التمثيلية فياصل شرائع المملكة ومعارض الملك . عظم دستوراً يستوحى من دستور الانكليز تقام بموجبه ، بين السلطة التنفيذية التي يتولاها الملك والسلطة التشريعية التي يمارسها ممثلو الأمة ، سلطة قضائية يتولاها القضاة وتكون حكماً كحارس للدستور . ودافع عن المذهب الذي عاد اليه ، في السنة ١٧٣٢ ، الكونت « دي بولنفيلييه » في كتابه « محـاولة في طبقة الاشراف » : الطبقات الاجتماعية الفرنسية اجنـاس بشرية ، الاشراف ينحدرون من الفاتحين الفرنجة ، وعامة الشعب من الغالبين المستعبدين ؛ الاشراف يمتلكون فرنسا بموجب حق الفتح ؛ في البدء كانت الملكية انتخابية ومحدودة ؛ وكان على الملوك ان يطلبوا رأي فداديهم ؛

ثم اغتصبوا امتيـــازات الاسياد . وطالب مونتسكيو بأن يكون لطبقة الأشراف مزيد من الشأن والأهمية لأنها من صميم الملكية . فكان كتابه ، حتى السنة ١٧٨٩ ، انجيل المعارضة الارستوقراطية الرجعية .

فيتضح من ثم أن فلسفة الانوار ، التي حوربت في كل مكان ، تقهقرت تقهقراً تدريجيـــاً في اواخر القرن . كان العالم على مشارف عصر جديد .

الكتاب الثاني

الأنوار والتقنية

بلغ تقدم التقنية في اوروبا ما يجيز لنا الكلام عن ثورة حقيقية . تفوقت اوروبا بالمعدات والتنظيم على كافة انحاء العالم الاخرى . وتحققت الاكتشافات في اغلب الاحيان على يد حرفيين متهنين او هواة استحثتهم الحاجات الاجتماعية، او فقدان التوازن الاقتصادي ، او الازمات على اختلاف انواعها . لم تستخدم معطيات العلم ولم يدرس العلماء المسائل التطبيقية الا تدريجيا : فالبحرية ثم الجيش في النصف الاول من القرن ، والصناعة ، في النصف الثاني منه ، استفادت من الحركة العلمية ؛ وفي اواخر القرن بدا ممكناً ان تصبح التقنية مجموع تطبيقات العلم على الحياة العملية .

الا ان العلم والروح العلمية لم يغيبا قط عن الاكتشافات : فأقل مخترعي الآلات ثقافة قد استخدم بعض الحساب والهندسة، والمبادىء الاولية لعلم الميكانيكيات ، واعتمد في عمله، على علم او غير علم منه، طرائق الحكم الشخصي والملاحظة والاختبار ، كما اعتمد مذهب الآلية الكونية . ويمكن القول بصورة خاصة، نظراً الى الازمات التي حدثت في جميع انحاء العالم ، ان مصدر كثرة الاختراعات هو روح القرن بأكملها التي تؤلف الروح العلمية جزءاً منها : ايمان بالسعادة الواجب بلوغها على الارض بارضاء الحواس ، بالتقدم المادي ، الذي ثنى عقولاً خيرة كثيرة عن النظريات اللاهوتية والتأملات الدينية ووجهها شطر ما هو عملي ومفيد؛ ويقين كرتزياني ، انتشر واستحث الجهود الفردية ، بان كل شخص يستطيع ، بمجرد العقل الرشيد، اكتشاف ما فات «الجدود الغلاظ»، وان من لم يتعلم في الكليات والجامعات يحتفظ بعقل سليم لان هذا العقل لا يكون معوجاً بـ «آراء المدرسة» ، ولان باستطاعة الانسان تحقيق اكتشافات فضلى بقواه الخاصة وحدها ؛ وحذر من الكتب، ولا سيا القديمة منها ، وميل الى التفحص عن الاشياء نفسها ؛ ونزعة أنمتها الكرتزيانية والدروس الكلاسيكية الى الارتقاء في كل شيء عن الوقائع الى المبادىء البديهية واستخلاص النتائج الواجبة منها وفاقاً لترتيب صارم يتحقق في الوقائع . وقد لعبت الحاجة الى الوضوح والترتيب دوراً هاماً في بعض النجاحات التقنية . فبا «شمئزاز» رأي «اشمئزاز» فضح المدفعي «ديكوردراي» الفوضى القديمة في معدات المدفعية ، و ذاك الخرق المفرط الذي لم يمكن النظر اليه الا كما الى نتيجة «همجية آبائنا القديمة»؛ وباحتقار ، راي احتقار

مستهزىء ،وصف «سورلافيل» الفوضى القديمة في كتائب الفرسان : « ان مثل هذه البلبلة اشبه بفوضى البرابرة » . فتحقق معظم النجاحات التقنية بفضل انتشار الروح الجديدة.

بيد ان الانطلاقة الاقتصادية ، على نقيض العلم ، قد تركت اعظم اثر في التقنية . وان لنا في انكلترا ، حيث تحققت اهم الاكتشافات التقنية ، خير مثل على ذلك . توسعت التجارة الانكليزية في ما وراء البحار توسعاً كبيراً بعد الانتصارات الانكليزية، اي بعد معاهدتي اوترخت (١٧١٣) ومعاهدة باريس (١٧٦٣) . قفزت الاستيرادات الانكليزية من ٦ ملايين جنيه سترليني في السنة ١٧١٥ الى ١٩ مليونا في السنة ١٧٩٠ ، كما قفزت التصديرات من ٧ ملايين جنيه سترليني ونصف المليون في السنة ١٧١٥ الى ٢٠ مليوناً في السنة ١٧٩٠ .والحال ان ارباح هذه التجارة هي ما يوفر رؤوس الاموال للصناعة . فصناعات الحديد الاولى في جنوبي ولاية «وايلز» هي عمل تجار الشاي وتجار آخرين من بريستول ولندن . ومعظم التجهيز الصناعي في وادي «كلايد » عمل تجار التبغ في «غلاسكو» . وانطلقت التجارة الداخلية بدورها انطلاقة كبرى ، بفضل انشاء طرقات حدثت عليها ثورة صامتة ، هي الاستعاضة عن حيوانات النقل بعربات تزيد من حجم النقليات وسرعتها . وافادت التجارة كذلك من فتح الاقنية الذي خفض سعر الفحم المسلم في «منشستر» الى نصفه في السنة ١٧٦١ . هي الاقنية ما اتاح استثمار المناجم والمحاجر والاحراج . وعلى ضفافها قامت الصناعات وتحققت اعظم التطورات في التقنية الصناعية الانكليزية، عند «ماثيو بولتون» صانع آلات «وات» البخارية ، وعند «صموئيل ووكر» ، متعاطي صناعة استخراج المعادن وتنقيتها ومعالجتها ومجهز الجنود بالاعتدة،وعند «ودجوود» الخزاف العبقري. ولكن ما ترك اثراً مباركاً في التقنية هو كذلك توظيف الصناعيين لارباحهم في مشاريعهم ، وانخفاض معدل الفائدة الذي هبط من ٥ ٪ في السنة ١٧١٤ الى ٢,٥ ٪ في السنة ١٧٥٧ ، فادى ذلك بالنتيجة الى مضاعفة قيمة رؤوس الاموال المستقرة ، وتزايد عدد السكان الذي ارتفع ، في انكلترا وولاية وايلز ، من ٥ ملايين ونصف المليون في السنة ١٧٠٠ الى ٩ ملايين في السنة ١٨٠١ ، وضآلة عدد العمال الاكفاء التي دفعت الى اختراع الآلات .

الفصل الأول

التقنية العسكرية

يجب ان تأتي التقنية العسكرية في الدرجة الاولى لان المعاصرين أعاروها اهتمامهم قبل كافة التقنيات الاخرى . اجل كان هنالك ، في كافة انحاء اوروبا ، اشراف يتصلون باشراف القرون الوسطى من العسكريين وينظرون الى الجندية كما الى الحرفة النبيلة بالذات . ولكن هذا الالتفات كان تعبيراً عن حاجة دائمة ايضاً : اذ ان الدولة ، بدون جيش قوي ، لا تلبث ان تزول من الوجود ؛ الفن العسكري يستطيع وحده ان يؤمن للشعوب كيانها واستقلالها وأمنها ، اي المنافع التي لا منافع بدونها ؛ الحرية الاولى هي حرية الدولة ؛ اذا تعرضت هذه الاخيرة للاخطار ، لا تكون حريات المواطنين سوى وهم باطل .

السدفية

ان تاريخ التقنية العسكرية في القرن الثامن عشر هو تاريخ « التقدمات المتتالية المحققة في حقــل فن الحرب في سبيل استخدام البندقية والمدفعية الصقيلة خير استخدام » . اخترعت البندقية في القرن السابق . استخدمت في المانيا منذ السنة ١٦٨٩ وفرض استخدامها في فرنسا منذ السنة ١٦٩٩ ، فحلت نهائياً محل البندقية القديمة ذات الفتيلة في السنة ١٧١٥ ، واغنت عن فرق حاملي الحراب بفضل الحربــة ذات « ماسورة الوصل » المتممة لها . لم تكن ابعد مرمى من البندقية القديمة : ٣٠٠ خطوة كحــد اقصى و ١٨٠ خطوة لتأتي بفائدة . ولكنها كانت اخف واسهل استعمالاً . وبفضل طريقة اشعال النار فيها بواسطة زناد مزود بصوانة ، لم تشكل خطراً على المجاورين بل اتاحت للجنود اطلاق النــار متقاربين بعضهم من بعض ، يضاف الى ذلك انها كانت اسرع حشواً . فمنذ السنة ١٧١٥ ، باتت باستطاعة الجندي اطلاق النــار مرة كل دقيقة . وفي السنة ١٧٤٠ اتاح اعتماد القضيب الحديدي ، وهو اصلب من القضيب الخشبي القديم ، حشو البندقية بالبارود والرصاص ومـــا يفصل بينهما دون احتياطات كبرى ، كما اتاح توفيراً في الوقت ؛ فانتقلت سرعة اطلاق النار الى طلقتين او ثلاث في الدقيقة . وفي السنة ١٧٤٤ ، تمكن الجندي ، بواسطة الخرطوشة ، من ان يطلق ثلاث طلقات كل دقيقة في اي وقت من الاوقات تقريباً .

المدفع الصقيل

كانت المدفعية مؤلفة من مدافع برونزية ، صقيلة من الداخل ، تحشى من فوهتها بعيارات ٤ و ٨ و ١٢ و ١٦ و ٢٤ و ٣٣ لبرة لاطـلاق القذائف بخط مستقيم ، ومن مدافع قصيرة للاطلاق المنحني ، الضروري ضد الجيوش المتمركزة وراء المتاريس او في الخنادق . وكانت تقذف بمعدل ثلاث مرات في الدقيقة للمدافع من عيـار ٤ لبرات ، او مرة او اثنتين للمدافع الاخرى ، قذائف حديدية كروية او مستطيلة ، مـلأى او فارغة ، وعلباً من التنك تتمزق في الهواء وتمطر على العـدو القطع الحديدية المحشوة بها . تراوح مرمى القذيفة بـين ٦٠٠ و ١٨٠٠ متر ، والقطع الحديدية بين ١٥٠ و ٦٠٠ متر . كانت القذيفة من عيار ٤ لبرات تخترق بـين ٦ و ٨ اشخاص على مسافة ٣٠٠ خطـوة . وزاد المدفعيون من فعالية القذيفة بجعلها تثب بعد اصطدامها بالارض بفضل احناء المدافع احناء معيناً ؛ وكان من شأن القذيفة ان تثب خمس او ست وثبات بين صفوف المشاة وتحدث خسائر فادحة . ولكن هذه المدفعية كانت عادمة الضبط جداً ؛ فالانحراف عن الهدف كان يبلغ سدس المسافة . وكان ممكناً ، بحسب العيارات والمسافات ، ان تسقط القذيفة بين ٥٠ و ١٥٠ متراً امـام او وراء الهدف . وكانت المدفعية بصورة خاصة ثقيلة جداً ؛ فالمدفع من عيار ٤ لبرات كان يزن ٦٥٠ كيلوغراماً ؛ والمدفع من عيـار ٣٣ لبرة ٣٠٨٥ كيلوغراماً . وكان يقتضي لجرها حيوانات مقرونة قوية . وبعد ان توزع المدفعية على مراكزها ، المدافـع الخفيفة والمتوسطة صفاً واحداً في الجبهة ، والمدفعية الثقيلة مجموعة في كلا الجانبين لتشبيك نيرانها امام الجبهة ، لا تتحرك الا في ظروف استثنائية نادرة . لم يكن باستطاعتها مرافقـة المشاة في حركتهم الاندفاعية الى الامام ، وكانت تتوقف عن مساندتهم حين تصبح الحاجة الى نيرانهـا ماسة جداً ؛ كما لم يكن باستطاعتها اللحاق بهم في حال تراجعهم ، فيستولي عليها العدو دونما صعوبة .

الحرب في السنة ١٧١٥

اصبح الجندي الراجل ، منذ ذاك التاريخ ، سيد ساحـة المعركة : رصاصته تخترق آلات الوقاية المعدنية وترغم الفارس على البقـاء بعيداً ريثما يتـاح للجيش مواجهـة هجـوم جانبي مفاجىء ؛ يتمتع بسرعة الحركة التي لا تتوفر لمدفعية يجمدها ثقل وزنهـا في الارض ؛ الخيالة والمدفعيون لا يعملون الا لأجل المشاة : انهم معاونوهم . فرق المشاة سيدة المعارك . كان من شأن البندقية ، منـذ السنة ١٧١٥ ، وحتى قبل هـذا التاريخ ، ان تقلب فن الحرب رأساً على عقب . وانما توجب مرور قرن كامل تقريباً للاستفادة من نتائج الاختراع الجديد ، وهو نابليون بونابرت فقط من اوصل التطور البادىء الى كماله .

في السنة ١٧١٥ ، كان الجيش ينظم صفوفاً في ساحة الوغى لمعاركة الاعداء بالاسلحة النارية . لفت انتباه القادة العسكريين سرعة اطلاق النار بالبندقية . فوضعوا نصب اعينهم اقامة ما يشبه سماطاً من الرصاص ، امام المشاة ، لايقاف العدو في حالة الدفاع ، ولايقاع الاختلال في نيرانـه وإتاحة التقدم ، في حالة الهجوم . كان على المشاة ، عند تلقي الامر بذلك ، ان يطلقوا نيرانهم

في آن واحد دونما تسديد تقريباً ؛ فالجوهر لم يكن الضبط ، بل السرعة ، لاقامة سور من نار. نظم القادة من ثم فرق المشاة ، في ساحة الوغى ، صفوفاً طويلة متوازية في وجه العدو . إلا انهم ابقوا على تنظيمات لم توجد إلا لاسلحة أخرى . فكما فعل اسلافهم ، في زمن البندقية القديمة ذات الفتيلة ، نظموا الجنود ستة صفوف على اربع أو خمس خطوات بين الجندي والجندي وبين الصف والصف حتى يستطيع كل صف اعادة حشو ـ لاحه بينما تطلق الصفوف الاخرى نيرانها الواحد بعد الآخر ؛ ولم يكن من حاجة لكل ذلك بعد أن تأمنت سلامة الاطلاق وسرعته بواسطة البندقية . وأرادوا جيشاً منظم الصفوف ، كما في زمن السلاح الابيض عندما كانت فاعلية الصدام تستلزم ان يواجه الصف كل الصف العدو في ان واحد . واستمروا في تحريم عكس نظام الصفوف : لم يسمح قط بأن يوضع الى الشمال جنود تعودوا البقاء الى اليمين ، وأن يوضع في الصف الاول جنود كانوا عادة في الصف الثاني ، وهو تقليد يعود الى زمن توجب فيه وضع الرجال الاقوياء في المقدمة لاختراق صفوف الاعداء . فنجم عن ذلك بطء عظيم في اصطفاف الجيش للقتال وتنظيم صفوف الجنود وفاقاً للمسافات المطلوبة ؛ وحاجة الى الانتظام بعيداً عن العدو ، والانتقال الى ساحة الوغى عبر الارياف في مسيرة لا يفوت العدو سرها ؛ واستحالة إرغام العدو على الاقتتال اذا ما هو أراد الانسحاب ، لان المحافظة على تنظيم الجنود وفاقاً للمسافات المفروضة توجب السير ببطء والتوقف مراراً ، فيتمكن العدو ، في هذه الاثناء ، من الابتعاد صفوفاً طويلة ضيقة بسرعة المشاة العادية ؛ واستحالة المناورة في ساحة المعركة ، واستحالة مطاردة جيش الاعداء وسحقه ، وبالتالي الاضطرار الى اعتماد « ستراتيجية اللواحق » أي الى مهاجمة مستودعات العدو ومصانعه الحربية وطرق مواصلاته وكافة المدن المحصنة ، الى أن يعجز جيش الاعداء عن التموين والانتقال ؛ وحروب بطيئة جديدة ، لا نهاية لها . وكانت النتيجة الاولى لتحسين العتاد تجسيم نواقص الجيوش القديمة . فان الصفوف الطويلة في اوائل القرن الثامن عشر كانت اقل مقدرة على المناورة منها في جيوش تورين وكونديه .

الجيش البروسي

هم البروسيون من ادخلوا التحسينات الاولى . كانت الحرب صناعة بروسيا الوطنية ، وكانت نخبة البروسيين تقف ذاتها على الفن العسكري . تحقق معظم التقدمات الرئيسية في عهد « فردريك ـ غليوم الاول » ، « الملك الرقيب » (١٧١٣ ـ ١٧٤٠) ، على يد احد شهود حروب لويس الرابع عشر ، الامير « دانهالت ـ دشو » . منذ السنة ١٧٢٠ ، اعتمد الجيش البروسي رسمياً بعض التدابير العسكرية التلقائية التي اعتمدها الضباط والجنود في ساحة المعركة في السنوات الاخيرة من حرب وراثة عرش اسبانيا : « الاصطفاف الدقيق » ، و« الاصطفاف المرصوص » . نظم الجنود ثلاثة صفوف فقط ، جنود الصف الاول جاثين ، وجنود الصف الثاني واقفين منحنين ، وجنود الصف الثالث واقفين مستقيمين ، يطلقون نيرانهم تتالياً . وقد سبق لهذا التنظيم ، الذي فرضه عدد الجنود المحدود في اعقاب الخسائر الفادحة ، ان ثبت كفاءته ، على الرغم من الاصطفاف والدقيق ، بفضل البندقية .

فأتاح ، بعدد أقل من الجنود ، حماية جبهة طويلة والحؤول دون اندفاع العدو بأعداد كبيرة. ورصت الصفوف بحيث تتماس المرافق مسافة ، وتماس الركبة حربة الجندي في الصف الامامي ، رغبة في مضاعفة كثافة النيران. فسهلت بالفعل نفسه عمليـات الاصطفاف والانتقال من الصف سلفة سلفة الى نظام خط الجبهة .

كان المشاة البروسيون يبلغون ساحة المعركة صفوفـاً طويلة ضيقة ويجانبون الخط الذي سينتشرون عليه صفوفاً متوازية في وجـه العدو . وفي الصف الطويل ، تفصل بين الفرقة ، المنظمة مسبقاً وفاقـاً لمراكزها ومراكز افرادها في الجبهة ، عن الفرقة السابقة مسافة تعادل المسافة التي ستحتلها في الجبهة : وهذا ما يعرف بالصف الطويل ذي المسافة الكاملة . ثم يتوقف الصف الطويل هذا . فتصبح كل فرقة امام العدو ويحتل افرادها مراكزهم في الصفوف بحركة تحولية ذات مدار ثابت يدور فيها أحد الجناحين بينما يبقى طرف الجناح الآخر في مكانه . وقد سهلت هـذه الحركة الخطوة الموزونة . وبعد الاصطفاف للمعركة يتسلم كل زعيم (كولونيل) « وجهة نظر » يوجه إليها علمه ، بمراقبة بمباشي (ماجور)، فتحتفظ الاعلام ، وبالتالي الفرق، بصف مستقيم دقيق . وكان الهجوم يشن مشياً لا ركضا ، رغبة في المحافظة على ضبط الصفوف ، تطلق فيه النيران على دفعات منتظمة ، باسناد مؤخرة البندقية الى الخاصرة رغبة في كسب الوقت والحيلولة دون حدور الكتف (اطلاق المرشة) . وعلى بعـد ٢٠ خطوة يطلق المشاة نيرانهم مرة اخيرة على العدو ويهجمون عليه بالحراب ، إذا هو لم يتقهقر بعـد ، ويزيد من أثر نيران المشاة استخدام المدافع الخفيفة أو المدافع الاسوجية التي كانباستطاعة المشاة اطلاق نيرانها باليد، والتي كانت تحتل المسافات الفاصلة بين الفرق . وأهملت المدافع الثقيلة من عيار ٣٣ لبرة. واستعملت المدفعية البروسية المنهضة ، والفشكة ، أو خرطوشة المدفـع ، واشتملت على نسبة كبيرة من المدافع القصيرة. أما الفرسان البروسيون، الذين توزعوا كواكب كبيرة على صفين، فكانوا أول من اعتمد الكرة قماصاً رغبـة في التخلص من نيران العدو في اقصر وقت وفي مضاعفة قوة الاصطدام. يندفعون نحو جانبي العدو بعد ان يكون قد اضعف بنيران البنادق والمدافع . دفاعهم نيران ثابتة ، وهجومهم نيران متحركة الى الامام .

اما فردريك الثاني (١٧٤٠ – ١٧٨٦) ، الذي استخدم جيش ابيه ، فقـد اخطأ باعتماده السلاح الابيض دون غيره ، وباصدار الاوامر للجيوش بالهجوم دون اطلاق النار ، رغبة منه في سرعة تقدمها . ولكن جيوشه أوقفت ابداً بنيران العدو بعـد تكبد خسائر فادحة بالارواح لا سيما بين الضباط . لذلك لم يلبث ان تخلى عن خطة الهجوم بهذا السلاح . وقـد كتب في السنة ١٧٦٨ ، في « وصيته العسكرية»، « هذه الجملة الفصل : « إنما تكسب المعارك بتفوق النيران » . وبلغ من اقتناعه بذلك انه سير مع طلائع الجيوش مجموعات كاملة من المدفعية تضم مدافع ثقيلة من عيار ١٦ و٢٤ لبرة . فكانت النتيجة ان هذه الطلائع لم تتوقف أمام القرى المحصنة التي كان باستطاعتها قهرها بالمدفع ، بينما كان مشاة الامم الاخرى يوقفون اندفاعهم ويمنون بالخسائر امام

الخنادق والمتاريس . وكان اهم ما ادخله على فن الحرب الاستعاضة عن « الاصطفاف المتوازي » « بالاصطفاف الازور » . فحاول ، في كل المعارك تقريباً ، تسيير فرقه على طريقة الادراج ، اي انه ، إذا مـــا كان مصمماً على التوصل الى نتيجة لجهة الشمال مثلاً ، يجعل الفيلق الشمالي الاول متقدماً بعض التقدم على الثاني ، والثاني على الثالث ، وهكذا دواليـك ، بحيث يكون كل فيلق منحرفـاً بعض الانحراف عن الفيلق السابق من الشمال الى اليمين . ويعجز العدو ، بسبب الصفوف المرصوصة ، عن تمييز التباين في الابعاد ، وينتظر الجيش البروسي ، كالمعتاد ، على جبهة موازية لجبهـته. فيتوقف البروسيون فجأة ويصطفون بسرعة في جبهة « زوراء » بالنسبة لجبهة العدو ، بينما يضع فردريك فرقه الاحتياطية وراء الجنـاح المتقدم فيصبح اعظم قوة من العدو في هـذه النقطة ويستطيع مهاجمته بأعداد كبيرة والالتفاف حواليه والتغلب عليه ، فلا يستطيع العدو القيام بأية حركة باتجاه الجناح البروسي الضعيف ، وليس له متسع من الوقت لاعادة تنظيم صفوفه ومواجهة الهجوم الجانبي .

كان اثر البروسيين كبيراً في جيوش الاعداء بفعل انتظام انطلاق نيرانهم وسرعة حركاتهم. فلم يكن نادراً ان تحتل صفوفهم الطويلة مراكزها في الجبهة في عشر دقائق . وترد هذه السرعة المدهشة الى الدقة في اعداد كافة الحركات مسبقاً والى طول الاناة في تلقينها الجنود . فيصبح الجنود أشبه بآلات متحركة قادرة على القيام بحركاتها المعتادة بكل سرعة وفي اية حـــال من الاحوال . وقد درج فردريك الثاني على مقارنة حركات الجيش البروسي بحركة مجموع دواليب ساعة متقنة الصنع. وهكذا تمكن البروسيون من التغلب على اعدائهم بسرعة حركتهم والمحافظة على نظام تام في اشدّ الظروف حراجة. فاستفاد فردريك الثاني ، القائد العبقري ، خيراستفادة من هذه الاداة .

لم يلبث النمساويون،والامراء الالمان، والهانوفريون،والهولنديون،والانكليز الذين كان ملوكهم امـــراء هانوفريين ، ان اقتبسوا عن البروسيين الصفوف الدقيقة والصفوف المرصوصة واطلاق النيران دفعة واحدة. اما الفرنسيون فقد استخدموا الصفوف المرصوصة في وقت مبكر نسبياً ، ولكنهم لم يعتمدوها رسمياً الا في السنة ١٧٥٠ .

وجملة القول ان البروسيين لم يستحدثوا جديداً يذكر . قاموا خير قيام بحركاتهم ولكن حركاتهم لم تكن خير حركات . لم يجنوا من البندقية الفوائد التي كان بالامكان جنيها منهـا . فنادراً ما يأتي اطلاق النيران دفعة واحدة بالنتيجة المتوخاة ، الا على مسافة قريبة جداً ،لأن الجندي يهتم لاطلاق النار في آن واحد مع رفاقه ، لا لقتل العدو ، مع ان قتل العدو هـو المعول عليه . « يستحيل على الجندي ان يحسن التسديد إذا ما اضطر الى إعارة انتباهه امـــر القائد» (موريس دي ساكس) . وكان الصف الثالث دون فائدة . والاصطفاف الدقيق المستقيم كذلك ، بالاضافة الى صعوبة المحافظة عليه ، لان دخان المدفـع كان يحجب الاعلام . ويكون

الاصطفاف الدقيق ذا فائدة في الارض المنبسطة بصورة خاصة . ولم يدخل البروسيون تحسينات تذكر على المدفعية . وقد اصر فردريك الثاني ، على الرغم من سيدليتز ، على ان يكر الفرسان « بشكل سور » ، متراصين عند الانطلاق ، السوقاء بمحاذاة السوقاء . ولكن حركة تمايل الحصان القامص تستلزم للفارس مكاناً ارحب منه في سير الحصان العادي . وكم من مرّة اضطر بعض الفرسان المتراصين ،الذين القوا ارضاً عن سروجهم ، الى الخروج من الصف وتقدم الآخرين او ايقاف مطاياهم ، ففقد الصف قدرته على الاصطدام .

التقدمات النمساوية والفرنسية

تحققت اهم التقدمات على يد النمساويين ولا سيا على يد الفرنسيين . وهي نقائص التقدمات السابقة وسيئاتها ما حركت عبقرية هؤلاء الآخرين الابتكارية . قنط الفرنسيون من بلوغ كال رماية الجيش البروسي وحركاته . ورأوا ان هذه التمارين الدائمة الدقيقة ، وهذا الاعداد لكل حركة ، وهذا الصبر ، وهذه الآلية تتنافى كلها « وعبقرية الامة » . سلموا بانهم لن يتفوقوا في هذا الميدان ، فبحثوا عن الاعاضة من دونيتهم بتحسينات وتجديدات تكتيكية وخلقوا جيش نابوليون .

العدو
البروسيون

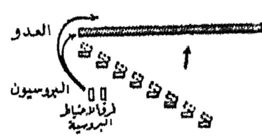
الانتقال من صف السير الى صف الحكومة

كانت لهم حرب وراثة عرش النمسا (١٧٤٠ – ١٧٤٨) وحرب السنوات السبع (١٧٥٦ – ١٧٦٣) مدرستي ملاحظة وتفكير افضتا الى صدور ابحاث عديدة ، وكتب ، وقوانين ملكية تنظم تعليم الرماية والمناورات والقتال . ولكن القوانين تأخرت في تسجيل الاكتشافات لأن الوزراء ، البعيدين جداً عن ساحات المعارك ، لم يعرفوا دائماً تمييز الآراء المنطبقة على الوقائع في غمرة المشاريع المقدمة . اما اهم المبتكرين فهم : موريس دي ساكس بطل معركة «فونتنوا» الظافر الذي اوجز خبرته في كتابه «تأملات»؛ والمارشال«دي برويل»، الأول بين قادة حرب السنوات السبع الذي خلف للفرنسيين ذكريات سيئة جداً ، مع ان القادة الفرنسيين برهنوا فيها عن موهبة ابتكارية وقدرة على التجديد كانت سبباً من اسباب الاخفاقات ، لانهم ، مع مرؤوسيهم ، طالما تلمسوا طريقهم في استخدام طرائق جديدة هي عنوان مجد وفخار ؛ والكونت « دي غيبير » ، الذي كان ابن معاون المارشال « دي برويل »، وشهد بنفسه الفصول الأخيرة من حرب السنوات السبع ، والف « محاولة عامة في فن الحرب» نشرت في السنة ١٧٧٢ وتأثر بها بونابرت ؛ واخيراً المدفعيان « فالبير » و « غريبوفال» ، والفارس « دي تيل » . كانت الملاحظة والاختبار خير الاساليب التي انتهجها كافة هؤلاء الرجال العظام . « يجب الرجوع ابداً الى الاختبار ... حتى إذا ادت البرهنة ظاهراً الى نتائج ثابتة جداً» .ان ما لم تعلمه الحرب قد روقب بعناية في مناورات شهيرة قام بها المشاة في معسكر

« فوسيو » (١٧٧٨) ، وفي معتقل ستراسبورغ (١٧٦٤) و « مربوج » (١٧٦٦) اللتين نزلتا بالمدفعية ، وفي تمارين الفرسان في متز (١٧٨٨) . وكان غيبير اول من عين بدقة الوقت الذي يستغرقه إطلاق النيران ، ومن فكر بدرس الحركات وتعاقبها كي يختار منها ما يعطي خير نتيجة .

الاصطفاف العميق

مـا لبث الخبراء ان لاحظوا صعوبة انتشار الجيوش والمهاجمة بصفوف منظمة . فتبادرت الى الذهن فكرة مفاجأة العدو بكرّة قوية قبل ان ينظم صفوفه للمعركة ، او بين تارين كثيفتين ، اي صـدوراً وفي صفوف طويلة ، بغية تجنب الانتشار والسير بمزيد من السرعة . كان مفروضاً ان تتقدم الحركة على النار . اوصى الفارس « فولار » بالصف الطويل ، اي « بالاصطفاف العميق » في كتابه « مكتشفات جديدة في فن الحرب » (١٧٢٤) . وانما حدثت في ذهن هذا الجندي الممتاز ، على الرغم من انـه شاهد الحروب ، ظاهرة قد يسمح تكررها الدائم بعد النزاعات المسلحة بان يجعل منها قانوناً : اعني بها اهمال النار . اراد اصطفافاً طويلاً يضم بين ٣٠ و ١٨٠ صفاً من الجنـود المتراصين يكونون بمعظمهم



الصف المنحرف

مسلحين بالحراب لشق صفوف العدو بالاصطدام . « ان قوة الوحدة الحقيقية تكمن في سماكتها واعماق صفوفها ووحدتها وتراصها » . تتـلمذ عليه تلامذة متحمسون على الرغم من خبرة الحروب . فقام المركيز « دي سيلفا » بحساب طويل جداً استلزم ست صفحات لتقدير القـوة الحية التي ينطوي عليه صدام الصف الطويل . وعلى الرغم من خبرة الحروب ، عاد « مسنيل - ديران » ، في السنة ١٧٥٥ ، الى رأي فولار في كتابه « مشروع تنظيم فرنسي في فن الحرب » ، وعاد اليه مرة اخرى في السنة ١٧٧٧ . وقد عند آنذاك القائلون برأي فـولار في اعتبار الكرّة بالسلاح الابيض تنطبق وحدها على المزاج الفرنسي ، واتهموا غيبير باحتذاء مثـال الاجنبي والتخلق باخلاق البروسيين . وكان مقدرا للجمهورية الثالثة ان تشاهد تجدد هـذه المنازعات قبل السنة ١٩١٤ .

اما في الواقع فاذا كانت فكرة هجوم الصفوف العميقة بالحراب فكرة صائبة ، فان هـذا الهجوم مـا كان ليصبح ممكناً بشكل الصفوف العميقة الذي نادى به كل من فولار ومسنيل - ديران . الصفوف الكثيرة لا تجدي نفعاً : اذ ان الصف الاول هو وحـده ما يحمل عبء الصدام .

جنود الصفوف الاخرى لا يضيفون اية قوة ولا عمل لهم في المعركة بالسلاح الابيض سوى الحلول محل الجنود القتلى او الجرحى . ان مثل هذا المجموع معرض للفناء بنيران العدو . ولا يستطيع الضباط ، في مثل هذا التنظيم ، قيادة وحداتهم كما تجدر القيادة . ولن تلبث الصفوف ان تختلط ، والجيش ان يصبح قطيعاً . زد على ذلك اخيراً ان مثل هذا الاصطفاف العميق لا يصلح لاية حركة باستثناء السير الى الامام . فكل مناورة مستحيلة وكل تراجع مستحيل. وقد تناوله غيبير بنقد حاسم :

«كل النواميس الطبيعية المتعلقة بحركة الاجسام واصطدامها تصبح اضغاث احلام حين يراد تطبيقها على فن الحرب؛ فليس بالامكان اولاً تشبيه الوحدة العسكرية بكتلة جامدة لانها ليست جسماً متراصاً خالواً من الفجوات ؛ وثانياً ، ليس في الوحدة التي تهاجم العدو سوى جنود الصف الذي يتصل بالعدو من تتوفر فيهم قوة الصدام ؛ فكل من وراءهم يعجزون عن التراص والاتحاد اللذين تتميز بهما الاجسام الطبيعية ، ويغدون بدون فائدة ولا يصدر عنهم سوى الفوضى والضوضاء . ولو فرضنا ، ثالثاً ، امكانية حدوث هذا الصدام المزعوم بمساهمة كافة الصفوف ، فان وحدة مؤلفة من افراد يقدرون الخطر ويشعرون به ، اقله تقديراً وشعوراً آليين ، لا تخلو من بعض الارتخاء والانقسام في ارادات الافراد ، مما يؤدي بالضرورة الى البطء في تقرير السير وقياس الخطوة ، فليس هناك من ثم من كمية حركة كاملة ، وليس من حاصل حجم وسرعة ، وليس من اصطدام ، لان الاصطدام يفرض بان تستمر السرعة ، بعد احداثها في الجسم المتحرك بالعلة المحركة ، حتى اللحاق بالجسم المصدوم ...»

«يندر ، او بالاحرى ، لا يحدث البتة ان تنتظر [وحدات المشاة] بعضها بعضاً بحيث تتصادم وتتشابك بالحراب » . اذا لم يتوقف المهاجم بفعل النيران ، فان المهاجَم يتراجع في الوقت اللازم قبل ان يقترب منه العدو .

النيران الاختيارية

نبّه الجميع بقساوة الى فاعلية النيران في معركة « دتّنجن» التي قاتل الفرنسيين فيها ملك انكلترا جورج الثاني على رأس جندين ألمان وانكليز (١٧٤٣) . فقد روى احد الضباط الفرنسيين ما يلي : « كان مشاتهم متراصين يبدون وكأنهم سور من فلز تنطلق منه نيران من الحدة والتواصل ما جعل قدامى الضباط يعترفون بأنهم لم يشاهدوا مثلها في يوم من الايام » . كانت الخسائر الفرنسية فادحة جداً ، وزوال الوهم شديد المرارة على انصار السلاح الابيض . وجاءت معركة « فونتنوا » (١٧٤٥) تؤيد الواقع : فان وحدة الحرس الفرنسية التي كابدت نيران الانكليز على مسافة ٣٠ خطوة قد لاذت بالفرار ؛ اما شرذمة « اوبتير » التي استبسلت في صمودها فقد خسرت نصف جنودها . فكانت النتيجة حاسمة : النيران هي الجوهر ؛ وهي تتفوق على الحركة . وبرهنت النيران المطلقة دفعة واحدة ، من مسافة قصيرة ، عن انها فعالة جداً ايضاً . ولكن هذه المعارك اوحت بما اثبته غيرها فيما

بعد : حين كان المشاة الانكليز والهانوفريون ، وحتى البروسيون ، يرون العدو وقد بات قريباً جداً منهم ، كان يستحيل على الضباط إرغام رجالهم على انتظار الامر لاطلاق النار . ففقدت النيران ما في تعاقبها من جمال واصبح اطلاق النار اختيارياً . ولكن هذا الانطلاق برهن عن انه اقتل وافعل من الاطلاق الموحد لان الجنود يحصرون همهم حينذاك في ضبط التسديد بغية منع العدو من ادراكهم . فهم لا يطلقون نيرانهم للكنس كما في النيران الموحدة ، بل للقتل . فأخذ الفرنسيون يعتمدون تلقائياً النيران الاختيارية وقد اوصى بها غيبير بالحاح . واخيراً أقر قانون السنة ١٧٧٦ رسمياً النيران الاختيارية بعد النار الموحدة الاولى .

جنود الطليعة

اثناء هذه الحروب ، لاحظ المحاربون فاعلية نيران الجنود المسلحين بسلاح خفيف والمتناثرين امام جبهة الجيوش ، اعني بهم جنود الطليعة . كان السباقون الى استخدامهم النمساويين الذين غمروا ساحات المعارك بجنود الطليعة من الكرواتيين. كان هؤلاء الرجال الموزعين هنا وهناك ، وراء الاسيجة ، والسواقي ، والاشجار المنفردة ، والادغال ، والمرتفعات ، يطلقون النار على صفوف المشاة ، ويشددون الضربات ، ويجندلون الضحايا ، وينشرون الفوضى في الصفوف ، ويزعزعون معنويات المهاجم ، بينما هم يستخدمون طبيعة الارض فلا تلحق بهم نيران صفوف المشاة كبير اذى ، ثم ينسحبون وراء صفوف مشاتهم ، حين يبلغ العدو مرمى بنادق هؤلاء. وكانوا يطلقون النيران على المدفعيين الاعداء ويشوشون نيران المدفعية . كما كانوا يفتكون جانبياً بفرسان العدو الهاجمين على الفرسان من مواطنيهم . ولم يلبث موريس دي ساكس ان رأى ان باستطاعتهم ، بفضل تسديد نيرانهم ، الشبيهة « بنيران القناصين » ، شل حركة وحدة محاربة ، الشيء الذي ساد الاعتقاد حينذاك باستحالته على غير وحدة محاربة بفضل النيران الموحدة . ففي فونتنوا تمكن افراد سرية « غراسين » ، الـ ١٢٠٠ الموزعين جنود طليعة في غابة « باري » ، من ايقاف سيل فرقة « انغولدسبي». اجل لقد جرى ذلك في ارض ذات كسور . ولكن في روكو (١٧٤٦) وزع موريس دي ساكس سريتي « غراسين » و « لامورلبير » جنود طليعة في ارض مكشوفة لجهة جناحه الايمن ؛ فتجاوزوا قرية « آنس » وأتاحوا الاستيلاء عليها . فأكثر الجيش الفرنسي منذ ذاك الحين من استخدام جنود الطليعة هؤلاء ، « القناصين » ، وكان استخدامهم متفقاً و « اندفاع ونزق » الفرنسيين . وخلال حرب السنوات السبع ، استخدمهم « بروغلي » باستمرار بغية اعداد الهجوم بالسلاح الابيض ، وتجنب طغيان العدو على جناحيه ، وتغطية انتشار الجيش ، والدفاع عن الغابات ، والقرى ، والرياض ، والبيوت المنفردة . وتوفق اخيراً الى التغلب على مقاومات الوزراء ، واستحصل في السنة ١٧٦٦ على نص رسمي باحداث فوج قناصين في كل سرية ، واستخدام قرابة ٦٠ جندي طليعة في كل فوج ، وعلى نص آخر في السنة ١٧٨٤ باحداث افواج من القناصين المشاة بلغ عددها ١٢ في السنة ١٧٨٨ . في هذا التاريخ جاءت حرب اميركا ، وقضاء المزارعين الاميركيين على فصيلة انكليزية في لكسنغتون ، واستسلام صف

طويل من الجنود الانكليز في « ساراتوغا » ، تثبت قيمة قتال جنود الطليعة . فاكتشف بالفعل نفسه خير استخدام للبندقية .

صف الهجوم

الا ان فعالية النيران كانت قد ارغمت على اللجوء الى صف الهجوم . ففي مهاجمة اهداف جبهة محدودة، كمدخل قرية،او مدخل طريق حرجية ، او مجاز ، او ثلمة او زاوية في متراس ، وجب تفضيل الصف الطويل لأنه لا يعرض العديد من الجنود ، في آن واحد ، لنيران المدافعين ، ولأنه اكثر موافقة للتقدم نحو الهدف وداخله . استخدم موريس دي ساكس صفوفاً طويلة لمهاجمة المواقع في « روكو » و« لوفلد » ؛ كما استخدمها برويل لمهاجمة الغابات والمتاريس . زد على ذلك ، من جهة ثانية ، انه بدلاً من ان يؤلف صفوفاً أخرى من فرقه الاحتياطية ، غالباً ما تركها صفوفاً طويلة ، لان الصف الطويل اسرع انتقالاً من الصفوف المتوازية ولان ذلك يسهل عليه نقل فرق الاحتياط بسرعة الى مكان استخدامها . ولكن القادة واجهوا حينذاك مسائل شكل الصف الطويل والتقدم نحو الهدف وانتشار الجيوش ، مع المحافظة على الصفوف المتوازية ، في اطراف الغابات او في السهول بعد الاستيلاء على الهدف ، للحيلولة دون هجوم معاكس يقوم به العدو ، لان الصفوف المتوازية اكثر موافقة للدفاع من الصف الطويل .

بيد ان الصف الطويل المعتمد لم يكن ذاك الذي قال به فولار، والذي لم يتجاسر أي ضابط على المجازفة باعتماده بعد الكارثة التي حلت بالصف الانكليزي في فونتنوا ، والذي اثبتت التجارب المجراة في معسكر «فوسيو»عدم اهليته للمناورة،بل صف السير البسيط ؛ وهو يؤلف من صفوف متوازية لا يتجاوز الواحد منها الاربعةجنود؛وتفصل بين الفرق مسافة عدة خطوات لتجنب الوقوف الفجائي بفعل عدم انتظام سير المقدمة الذي تسببه طبيعة الارض أو نيران العدو . كان مثل هذا الصف الطويل سهل القيادة ، والاخضاع للنظام ، والقيام بالمناورات . يسير بخطى حثيثة ، لا بل عدْواً اذا مست الحاجة . يتقدمه جنود الطليعة الذين لا يتوارون إلا في ساعة متأخرة من الليل ، ويحيط به حتى مرمى بنادق العدو مشاة مصطفون صفوصاً متوازية يصوبون بنادقهم إلى الفرجات والنوافذ والادغال وكل مكان آخر تنطلق منه النيران لإبعاد نيران العدو ومنعه من ضرب الصف الطويل. النيران تعد الحركة وترافقها. وبعد الاستيلاء على الهدف ، ينتقل جنود الطليعة الى المقدمة ويؤلفون ستاراً . ينتشر الصف الطويل صفوفاً متوازية على طول الجبهة التي يتوجب عليه الدفاع عنها بمجرد دوران كل جندي الى اليمين (أو اليسار) ، دونما حركة تحولية . واذا كان على الصفوف المتوازية السير مجدداً في صف طويل ، يدور الجنود الى اليسار (او اليمين) ، وتسير الفصيلة التي تحتل المقدمة وتبدّل اتجاهها نحو العدو ؛ وتسير كل من الفصائل الاخرى بدورها ، وتحتل مركزها وراء الفصيلة السابقة ، على مسافة خطوات معدودة ، بعد أن تكون قد سلكت أقصر الطرق في انتقالها . لا شأن بعد اليوم لعكس المراكز . يحتل الجنود والوحدات المراكز التي تمليها الظروف . وهكذا بات

الانتقال من الصف الطويل الى الصفوف المتوازية ومن الصفوف المتوازية الى الصفوف الطويلة عملية بسيطة وسريعة جداً .

اعتمد المارشال « دي برويل » ومعاونه « غيبير » هذه الطرائق تكراراً خلال حرب السنوات السبع . وقد عرفت هذه الصفوف ، منذ السنة ١٧٦٦ ، باسم « الصفوف على طريقة غيبير ». ثم وضع فيها ابن المعاون نظرية كاملة في السنة ١٧٧٢ . وأوصى بالاضافة الى ذلك ، في الارض المكشوفة ، بالهجوم عدْواً ، وبصفوف متوازية ، دونما اهتمام لاستقامة الصفوف التي لا تجدي فتيلا ؛ وبتحول على مدار متحرك يستمر فيه الجنود الذين يشكلون مدار الحركة الدائرة في السير ببطء بغية كسب الوقت . وصدر قانون السنة ١٧٦٩ باعتماد « الصفوف على طريقة » غيبير . وبعد طويل « جدال حول الاصطفاف الدقيق والاصطفاف العميق» اعتمدت آراء غيبير بالتعليمات المؤقتة الصادرة في ٢٠ ايار ١٧٨٨ .

الفرقة

كان مقدراً للطرائق « الغيبيرية » إتاحة تطورات سريعة وسهلة . إلا ان القادة فكروا ، في الوقت نفسه ، بوسائل اخرى للتوصل الى توزيع الجيش المقاتل بسرعة في وجه العدو . حقق البروسيون ذلك بفضل تدريبهم المدهش . لذلك سارت جيوشهم صفاً طويلاً واحداً أو صفين ، أو ثلاثة على الأكثر . وسعى القادة الفرنسيون إلى تنظيم صفوف طويلة اكثر عدداً تسير في طرق متوازية وبسرعة متماثلة : فكان الصف أقل طولاً والانتقال الى الصفوف المتوازية ، الذي تفرضه البندقية ، اسرع تحقيقاً . وقد توصلوا الى ذلك بتقسيم الجيش فرقاً . فقد سبق لموريس دي ساكس أن شكل فرقاً ، بعد معركة فونتنوا ، للزحف على روكو ثم على لوفلد . واعتمد برويل الطريقة نفسها في حملة السنة ١٧٦٠. قُسّم صفا المشاة أربعة اجزاء أو « فرق » ؛ وضمت كل فرقة قسماً من الصف الأول وآخر من الصف الثاني ، فجاء المجموع ١٦ فوجاً من المشاة . ورافق كل فوج من المشاة قسم من فرقة الفرسان وآخر من المدفعية اللتين قسمتا أربعة اقسام ايضاً . وعند الاقتراب من العدو ، كانت الفرقة تنقسم صفين طويلين . وهكذا اصبحت الفرقة جيشاً مصغراً كاملاً يضم المشاة والمدفعية والفرسان ، أي كل الوسائل الكفيلة بقهر العدو أو إيقافه . أحدثت لتسهيل انتشار الجيوش في الجبهة فقط ، ولكنها لن تلبث أن تبدل ظروف الحرب وتتيح مناورات جديدة تستهدف جانبي العدو أو مؤخرته . ولكن القادة الفرنسيين ، في القرن الثامن عشر ، لم يعرفوا بعد كيف يستخدمونها خير استخدام .

وهكذا برز قسم هام من نتائج استخدام البندقية . وليست كافة الطرائق التي يعزى اكتشافها احياناً الى جنود الثورة والتي ربما استهدفت جزئياً اخفاء نقص تدريب المتطوعين ، من استخدام جنود الطليعة ، والهجوم بالحراب عدْوا وفي صفوف طويلة ، وتقسيم الجيش فرقاً ، سوى وسائل قتال وتنظيمات احدثها الجيش الملكي خلال القرن الثامن عشر ، بسبب اداة جديدة ، هي البندقية .

الفرسان

حقق الفرسان الفرنسيون تقدمات عظيمة ، ولكنهم حذوا في ذلك حذو البروسيين والنمساويين . فقد اقرت قوانين السنتين ١٧٧٦ و ١٧٧٧ كواكب الخيالة الكبرى ، والقيام قماصاً بهجوم قصير وعنيف ، على ان لا تؤلف الكواكب سوراً واحداً بل تتخللها المسافات ؛ واعتماد الصف الطويل في مهاجمة المشاة لاختراق صفوفهم .

مدفعية فالبير

قام بعض الفرنسين بثورة في حقل المدفعية . فان قانون ٧ تشرين الاول ١٧٣٢ فرض في فرنسا مذهب فالبير الذي عمل به حتى السنة ١٧٦٥ . ويقوم فضل فالبير الاكبر في انه قام بعمل تنظيمي . أراد مدفعية واحدة تتوزع مدافعها على خمسة عيارات، من ٤ الى ٢٤ لبرة ، « تكون كلها موافقة لمهاجمة المواقع والدفاع عنها ، وتشترك الفئات الثلاث الاول منها بحسب الظروف بحيث تصبح موافقة للحرب في الارياف ؛ فيصبح ممكناً ، إذا قضت الحاجة ، ان تقدم المواقع العون للجيوش ، والجيوش للمواقع » . ان هذه الكلمات يقولها ابن فالبير تحدد عمل الاب خير تحديد وتتضمن نقده . أراد فالبير ، رغبة في التبسيط ، صنع عتاد مزدوج الهدف . ولكنه لم يستجب تماماً لاية حاجة . فان مدافعه ، على الرغم من تخفيف وزنها، قد بقيت ثقيلة جداً لساحة المعركة (المدفع من عيار ٤، ٥٧٥ كيلوغراماً؛ والمدفع من عيار ٢٤، ٢٧٠٠ كيلوغرام) . يضاف الى ذلك من جهة ثانيــة ان تنظيمه قد برهن عن اكثر العقليات رجعية : فهو قــد صرف النظر عن المدفع القصير ؛ وأمر بأن يحشى المدفع بملعقة عميقة طويلة القبض ، المصباح ، يستغني بهـا عن الفشكة ، رغبة منه في التمهـل وتوفير الذخائر ؛ وألغى المنهضة بحيث توجب في معظم الأوقات اطلاق النار اطلاقاً تقديريــاً ؛ وترك الفوارق في صنع الذخائر بحيث استحال استخدام القذائف المصبوبـة لمدفع معين في مدفع آخر من العيار نفسه ؛ زد على ذلك ان قطع المدافع المختلفة والاسناد لم تكن قابلة التبديل والتغيير .

« بيليدور »

حـاول فالبير تلافي الزيادة في الوزن بـأن اعتمد في السنة ١٧٤٠ ، على غرار معظم دول أوروبا الوسطى ، المدفع الخفيف على الطريقة الاسوجية، وهو مدفع قصير جداً من عيار ٤ لبرات ، يبلغ وزنه ٣٠٠ كيلوغرام ، يمكن جره بالايدي ، ويستطيع المشاة استخدامه . إلا انه رفض تخفيف المدافع الاخرى . فبرهن بيليدور ، العالم بالطبيعيات ، والاستاذ في مدرسة « لافير » للمدفعية، في السنة ١٧٣٩ ، ان المرمى ليس نسبياً لحشوة البارود، وان حشوة توازي ثلث وزن القذيفة تعيض من حشوة توازي ثلثي وزنها . فمـا لبث كافة المدفعيين ان خفضوا وزن حشوة البارود . فبـات ممكنا والحالة هذه انقاص سماكة القطع ووزنها . ولكن فالبير قاوم هذا الانقاص بعناد . لا بل عزل بيليدور عن منصبه .

إلا ان الحروب اظهرت ضرورة تخفيف المدفعية . فخلال حرب السنوات السبع استخدم النمساويون قطعة خفيفة من عيار ٣ لبرات لمواكبة المشاة . وفي السنة ١٧٥٦ ، أمر « برويل » بإعادة خرت المدافــع من عيار ٨ و ١٢ لبرة وتحويلها الى مدافع من عيار ١٢ و١٦ لبرة بانقاص

سماكة جوانبها ، فجعلها أخف وزناً واسهل تحريكاً .

مدفعية « غريبوفال »

اجريت التطويرات الحاسمة على يد « غريبوفال » . كان ضابط مدفعية في الجيش الفرنسي ، فجمع بهـذه الصفة ثروة ملاحظات خلال حرب السنوات السبع ، وأثناء خدمته في الجيش النمساوي ، وأثناء اسره في بروسيا في السنة ١٧٦٢ . وحـين استدعاه الوزير « شوازول » الى فرنسا عرف كيف يستخلص النتائج مما شاهده وزود الجيش الفرنسي بخير عتاد في العالم ، العتاد الذي استخدم في كافة حروب الثورة والامبراطورية .

ادرك غريبوفال الحاجة الماسة الى تخصيص المدافع ، الى ادخال تقسيم العمل الى المدفعية . ميز بين مدافع الحصار (عيار ٢٤ و ١٦) ومدافع القتال في الارياف (عيار ١٢ و ٨ و ٤) . خفف مدافع القتال في الارياف بانقاص طولها وسماكتها . فانخفض وزن المدفع عيار ٤ من ٥٧٥ كيلوغراما الى ٣٠٠ كيلوغرام ، والمدفع عيار ٨ من ١٠٥٠ كيلوغراما الى ٦٠٠ كيلوغرام ، والمدفع عيار ١٢ من ١٦٠٠ كيلوغرام الى ٩٠٠ كيلوغرام . وقصّر وخفف الاسناد ايضاً وأمر باعتماد الجر الواحـد الذي يتيح استخدام الاحصنة اثنين اثنين معاً بدلا من الجرين اللذين لا يسمحان باستخدام الاحصنـة إلا واحداً وراء الآخر . فبات الجرّ اكثر فعالية ، واستطاعت الاحصنة الجارة السير خبباً ، لا بل قماصاً . وبات بمكنة مدفعيته اخيراً ان تنتقل من أي مكان الى أي مكان آخر بفضل الحبل الطويل وقدّة الجلد . فالحبل الطويل هو في جوهره حبل يصل بـين السند ومقدم العربة . فقد غدا ممكناً بواسطته اجتياز الخندق ، والحافة التي تعترض المنحدرات ، واطلاق النار اثناء الانسحاب ايضاً ، إذ يكفي في هذه الحـال ايقاف الاحصنة ، فيصبح المدفع من نفسه في وضع الاطلاق . اما قدة الجلد فأشبه بحمالة تسمح للجنود بجر المدافع في ساحة المعركة . ويكفي ثمانية جنود لجر المدافع من عيار ٤ و ٨ لبرات ؛ و ١٥ جندياً لجر المدافع من عيار ١٢ لبرة . فغدا بمكنة المدفعية ، التي اصبحت سهلة التحريك ، ان تواكب المشاة منذ الآن ، وتساند هجماتهم وتسير وراءهم اثناء الانسحاب وتحمي مؤخرتهم .

وزاد غريبوفال من فعالية هذه المدفعية باعتماد المدفع القصير ، وبعدد المدافع : ٤ لكل الف جندي بدلاً من واحد ؛ فخصص كل فوج بمدفعين عيار ٤ أو مدفعي مشاة . وحسن غريبوفال مرمى القذيفة وقوة اختراقها . فوفق بدقة بين القذيفة وقطر المدفع الداخـلي لانقاص هواء القذيفة وضياع الغاز . وفي سبيل ذلك أمر بأن لا تصب المدافع حول نواة يتشوه شكلها بتأثير الحرارة وتسبب خشونة في داخل المدفع ، بل أن تصب مليئة وتخرت بعد ذلـك . وأتاحت بعض المقاييس النحاسية المحقق عيارها ، كالنظارات والاسطوانات ، مراقبة قياسات القذيفـة وداخل المدفع التي كانت مستحيلة حتى ذاك التاريخ . وجليت المدافـع من الخارج بالمخرطة . فزالت الاضافات التزيينية . وتمكن الضباط من رؤية نقائص المعدن واستلام مدافـع محدودة

السباكة ومن نوع جيد لا تنفجر في وجه من يستخدمها . وغدت المدفعية أدق تسديداً باستخدام خط الاحكام والمنهضة اللذين اطالا مرمى المدفع ووسعا مجال عمل المدفعية . وبات إطلاق النار اسرع تنفيذاً باستخدام الفشكة .

وجعل غريبوفال الاصلاحات عملية سهلة . فرض على العمال طـاولة متقنة الصنع محدودة القياسات ، واقطـّة ، ومثاقب ، ومساطر حديـدية ، وقوالب ، وعيارات . فباتت صناعة العربات والاسناد ومقدم العربات متماثلة متساوية . وأمكن تبديل القطع ، مهما كان مصدرها ، حتى على مقربة من ساحة المعركة .

في السنة ١٧٧٦ ، وبعد منازعات طويلة ، عين غريبوفال مفتشاً عاماً للمدفعية ، واعتمدت طريقته نهائياً .

المدفع المفرض

سبق للمدفعي الانكليزي « روبنز » ، في كتاب لم يترجم إلا في السنة ١٧٧١ (« رياضيات تتضمن المبادىء الجديدة في المدفعية ») ، أن اقـترح تفريض المدافع من الداخل لزيادة التدقيق ، ولكنه اصطدم ، لاسباب نظرية ، بـ « اولر » الذي حال ما له من نفوذ دون العمل باقتراح روبنز على الرغم من اختبارات هـذا الأخير المقنعة . وهكذا تأخرت ثورة أخرى اعظم نتائج من الثورة السابقة .

الحرب الجديدة

بفعل تطورات الاسلحة المختلفة هذه ، تبدلت كل ظروف الحرب. فقد بات بمكنة القائد ، الآن، إرغام العدو على القتال : عـدد كبير من جنود الطليعة المتشتتين سيكرهه على ابطاء انسحابه ، ثم على التوقف للاجابة على النار بالنار ، وربما استطاع أن يقطع عليه الطريق ؛ وسرعة تحول صف طويل إلى صفوف متوازية ، وإمكان قيـام الصف الطويل بهجوم بالحراب ؛ فلن يستطيع العدو الهرب بعد اليوم ، بينما يعد القـائد صفوف جيشه للمعركة . وسيتمكن القائد من محاولة الالتفاف حول العدو وتهديد مؤخرته : أن فعالية نيران جنود الطليعة ، وجمع الاسلحة المختلفة في الفرقة الواحدة ، سيتيحان ، لشطر من الجيش معتصم في أرض ذات شجون أو في مواقع محصنة ، أن يوقف لمدة طويلة هجمات عدو متفوق عـدداً ويوفر للقائد وما تبقى من الجيش تحت أمرته الوقت الكافي للقيام بحركة التفافية[1] .وسيتمكن القائد اخيراً من اختراق جبهة العدو ، اما بصف طويل من الخيالة ، واما بمجموعة كبرى من المدافع تؤمن الاختراق ، كما أوصى بذلك غيبير ؛ وما ان تحدث الثلمة حتى يتدفق عليها المشاة للانتشار في المؤخرة والارتداد إلى الجناح العدو الأكثر تصدعاً والقضاء عليه قضاء تامـاً . وسيتمكن القائد ، بفضل صفوف غيبير الطويلة ، من تبديل مراكـز جيشه بسرعة في قلب

---

(١) وهذا ما سبق لفردريك الثاني ان فعله في « زورندورف » حيث أوقفت فرقـة «زيتن » جيش العدو في مكانه ، بينما كان فردريك ، مع القسم الأكبر من الجيش البروسي ، يلتف حواليه .

المعركة ، ومفاجأة العدو مفاجآت كثيرة مختلفة . فأتاحت كل هذه التطويرات إمكان التخلي عن « ستراتيجية اللواحق » في سبيل الحرب الحقيقية ، تلك التي تستهدف تدمير جيوش العدو، حرب الافناء القصيرة السريعة .

إلا أن القادة لم يبلغوا بعد هذه المرحلة . ففي عهد « الهيئة التشريعية » نفسها ، قاموا بالحرب على الطريقة القديمـــة ، واقتضى نزاع استغرق سنوات عدة لاقرار نقل النظرية الى ميدان العمل . أما غيبير فكان قد أدرك كل شيء وشعر مسبقاً بكل شيء وانبأ بكل شيء ، وخلص الى هذه النتيجة :

« إن جيشا حسن التنظيم والقيادة لن يصادف البتة موقعاً يوقف تقدمه ... كما أن قائداً يتمرد ، في هذا الصدد ، على الآراء الموروثة ، سوف يحير عـــدوه ويذهله ولا يترك له مجالا للتنفس ويرغمه على القتال أو على التراجع ابداً امامه . وأني اتجاسر وأعتقد بأن هنالك طريقة لقيادة الجيوش اجدى ، واضمن نتيجة حاسمة ونجاحات كبرى ، من تلك التي اعتمدناها حتى اليوم ... سيبرز انسان ، ربما كان قبل ذلك مغمورا بين الجماهير وفي الظلمـة ، انسان لم يعرف الشهرة لا بكلامه ولا بمؤلفاته ، انسان ربما جهل موهبته ولم يشعر بها إلا بممارستها ... إن هذا الانسان سيسيطر على الآراء ، وظروف الحظ ، ويقول عن كبار واضعي النظريات مـــا قاله مهندس العمارة المتمهن ، امام الاثينيين ، عن مهندس العمارة الخطيب : سأنفذ ما قاله لكم منافسي » .

وكان نابوليون بونابرت من سيحقق حلم غيبير .

« ان اله الحرب قريب الظهور ، لاننا سمعنا نبيه [1] » .

التوسع الاوروبي

احرز الاوروبيون ، آنذاك ، تفوقاً عظيماً على كافـــة الشعوب ، ليس بالاعتدة والمناورات فحسب ، بـــل بالنظام والاعداد اللذين جعلا من الاوروبيين ، كما بدا ذلك ، مثالا انسانياً خاصاً يتميز برباطة جأش ، وعزيمة وعناد ، وبسالة لا نظير لها ايضاً . ففي بلاد الهند ، حيث كان اكثر المحاربين شجاعة ، بسبب فقدان النظـــام والانضباط اللازمين ، عرضة لخوف محزن ليس مـــا يبرره ، قال المهرات « سنديا » للانكليز في السنة ١٧٧٩ :

« أي جنود جنودكم : اصطفافهم اشبه بجدار من الآجر ! اذا سقط احدهم ، سد الثلمة جندي آخر : هذه هي الجيوش التي اتمنى ان اقودها » .

ان هذا التفوق لم يوفر للأوروبيين النصر والرعايا فحسب بل الحلفاء والاصدقاء ايضاً . فقد كان احدى أهم وسائل دخولهم شتى انحاء العالم وسيرهم نحو السيطرة الشاملة .

---

(١) ج . كرلين .

الفصل الثاني

الثورة الملاحية

المهندسون

تحددت المبادىء الكبرى للسفن الشراعية منذ اعمال « دانيال برنويي » في السنة ١٧٣٨ ، وأعمال أولر في السنة ١٧٤٩ . استمرت اكاديميات العلوم والبحرية ، طيلة القرن ، في تقديم المعطيات العلمية لتصاميم بناء السفن الحربية . كما أن بعض السفانين المهرة ، الضليعين في العلوم الرياضية والآلية والطبيعية ، برعوا في تطبيقها . « انتهت منذئذ المرحلة الاختبارية ، مرحلة « أرباب الفأس » كما عرفوا في عهد لويس الرابع عشر ، الذين طبقوا أساليب شخصية وقوالب موروثة ابناً عن أب وأباً عن جد . وحل المهندس محل المتهن ... فبين ما انتجه القرن السابق وما انتجه عهد لويس الخامس عشر تقوم كل المسافة التي تفصل بين عمل عامل بسيط ، مهما بلغ من مهارته ، وبين النتيجة المحققة بتعاون الرياضيين والعلماء المهندسين المتخصصين » . وقد تكلل هذا الواقع بالتكريس الرسمي . ففي فرنسا اطلق قانون السنة ١٧٦٥ على السفانين اسم « مهندسي البحرية » . وقد تلقوا علومهم في معهد بناء السفن في باريس ، سلف المعهد الحالي للهندسة البحرية . وشجع الحركه العلمية الفارس « دي بوردا » ، مفتش بناء السفن الحربية منذ السنة ١٧٨٤ ، ومستحدث الاساليب الجديدة .

السفن

ازدادت سرعة السفن وقدرتها على المناورة . حافظت السفن على طول ٤٠ متراً للسفن التجارية الكبرى ، حتى ٦٠ متراً لأكبر السفن الحربية ، وعلى عرض يوازي ثلث الطول أو ربعه . انثنت جوانب السفينة الحربية نحو الداخل ، بين مجموعة المدافع السفلى والشرعة العليا . اما الاتساع في القسم الأدنى فقد زاد من استقرارها . اكتسبت مزيداً من الدقة . وزالت تدريجياً الزخارف والنقوش . ارتفع المقدم بينما انخفض الكوثل : استعيض عن الطبقة التي كانت تبنى فوق شرعة المؤخر ، بطبقة صغرى بنيت فوق مؤخر هذه الشرعة ، ثم الغيت هذه الطبقة الصغرى في عهد لويس السادس عشر . وهكذا خفت مقاومة الهواء . وكانت هياكل السفن مزودة تحت خط العوم بمسامير وصل فطحاء ثقيلة لا تلبث الاشنة والاصداف ان تضيف اليها ثقلاً فوق ثقل . فاستعاض الانكليزي عن المسامير بوريقات نحاسية دقيقة اخف وزناً تسهل الانسياب . واحتذى الفرنسيون مثال سفينة انكليزية استولوا عليها .

وفي السنة ١٧٧٨ كانت البارجة « ايفيجني » اولى السفن الفرنسية المبطنة بالنحاس . ولكن البطانة كانت مرتفعة الكلفة ويجب تبديلها مرة بعد مرة .

قويت أجهزة السفينة ، وثبتت الصواري والدواقل وزيدت مساحة الاشرعة . غدت الاشرعة اكثر عدداً وبات ممكناً مراعاة النسبة الصائبة بين مساحتها وقوة الريح . وأتاحت شبكة من الحبال مناورات سهلة ودقيقة . دارت السفن على ذاتها وسارت كيفما طاب لقباطنتها بكل امان . وتمكنت من بلوغ أقرب نقطة ممكنة من الريح المعاكسة .

« لقد اصبح شكل هذه السفن عصرياً ، وهي من هذا القبيل اكثر تشابهاً بالسفن الشراعية خلال القرن التاسع عشر منها بالسفن الشراعية في عهد لويس الرابع عشر » .

مسألة تحديد موضع السفينة

استطاع الملاحون التوجه شيئاً فشيئاً الى المكان المقصود بمزيد من الامان . احدثت الحكومات مستودعات خرائط ورسوم وصحف وبيانات في موضوع الملاحة في فرنسا (١٧٢٠) وفي انكلترا وهولندا (١٧٤٠) . حسّن مقياس سرعة السفن بأن اضيف اليه ثقل يجنبه جزئيا تأثير التيارات البحرية. وأتاحت بعض الاجهزة الانعكاسية ، كالثُّماني ، المؤلف من ثُمن محيط الدائرة ، اي من ٤٥ درجة ، والذي أحكمه الانكليزي « هادلي » منذ السنة ١٧٣١ ، ثم السداسي ، المؤلف من سدس محيط الدائرة ، اي من ٦٠ درجة ، حوالي السنة ١٧٥٠ ، تتبع كافة حركات البحر ، وتقدير ارتفاع الشمس ظهراً بفارق دقيقة او دقيقتين من القوس تقريباً ، وحساب خط العرض حساباً أكثر تدقيقاً . ولكن ملاحين كثيرين استمروا في استخدام القوس الفولاذي الذي بلغت فوارق دلائله ثلاثين دقيقة من القوس تقريباً .

كانت اهم مسألة تمكنوا من حلها مسألة خطوط الطول . كان باستطاعة الملاحين تحديدها بمراقبة آن حدوث ظاهرة فلكية وحساب آن مراقبتها في مكان معروف . وكان باستطاعتهم الاستناد الى كسوف الشمس وخسوف القمر النادرين ؛ وفحص اقمار المشتري ، على الرغم من صعوبته ؛ ومسافة النجوم الى القمر التي تتطلب معرفتها حسابات كثيرة . الا ان كل ذلك لم يكن عملياً ، وقد فاق في الوقت نفسه معارف معظم القباطنة . فكان أسهل السبل ، والحالة هذه ، الاستناد الى فارق الزمان : اي تحديد الوقت المنصرم منذ مغادرة السفينة لمكان معين حتى مرور الشمس في أعلى نقطة فوق مكان وجود السفينة ظهراً . من السهل اذ ذاك معرفة خط الطول لان كل أربع دقائق زمنية تقابلها درجة قوسية .

ولكن الصعوبة نجمت عن ان الساعات لا تحافظ على ساعة نقطة الانطلاق . فهي كانت تتعطل اثناء مسير السفينة بسبب الانتقال من خط عرض الى خط عرض آخر وبسبب حركات البحر . وهكذا فان الملاحين الذين نادراً ما أتوا أخطاء كبرى في تحديد خطوط العرض ، قد ارتكبوا أخطاء جسيمة في تحديد خطوط الطول . ففي السنة ١٧٥٠ عينت الخرائط الانكليزية

والهولندية مكان الشاطىء الشرقي لـ « الارض الجديدة » على مسافة ٩ درجات من مكانه الحقيقي . وفي السنة ١٧٦٥ بلغت الاخطاء عدة درجات في تحديد مكان رأس الرجاء الصالح ورأس « هورن » الواقعين على طرق بحرية مسلوكة جداً . فكان هنالك ثلاثة أرخبيلات باسم « غالاباغوس » وعدة جزر باسم « القديسة هيلانة » . وكان الملاحون يتجهون نحو يابسات لا قرار لها في مكانها . فاضطروا اخيراً الى بلوغ خط عرض المكان المقصود والسير شرقاً أو غرباً الى ان تتراءى لهم اليابسة . ولكن ما أكثر الأخطاء والطوارىء ! ففي السنة ١٧٤١ ضل القبطان الانكليزي « انسون » خط الطول المقصود وتاه طيلة شهر في المحيط الهادي الجنوبي اثناء بحثه عن جزيرة « جوان — فرناندز » : فتوفي ٨٠ شخصاً من الملاحين بداء الحفر. وفي السنة ١٧٦٣ ، توجهت السفينة الفرنسية « له غلوريو » الى رأس الرجاء الصالح ؛ فاعتقد القبطان في طريقه انه بلغ نقطة تقع شرقي جزر الرأس الأخضر بينما هو كان غربي هذه الجزر وسار باتجاه الغرب حتى بلغ البرازيل . وفي السنة ١٧٧٥ ، اتجهت السفينة الانكليزية نحو جبل طارق : دل حساب تحديد مكان السفينة انها على مسافة أربعين ميلاً غربي رأس «فيليستير » الاسباني ، عندما جنحت الى شاطىء رملي امام جزيرة « ريه » .

الريح

سفينة في اقرب نقطة ممكنة من الريح المعاكسة

سبق للبرلمان الانكليزي ، في السنة ١٧١٤ ، ان خصص ٢٠٠٠٠ جنيه استرليني لمن يحدّد طريقة لاكتشاف خط الطول في البحر بفارق نصف درجة قوسية تقريباً . بعد عمل استغرق اربعين سنة ، صنع النجار الانكليزي « هارسون » مقياساً للزمان . في السنة ١٧٦١ ، شحن هذا المقياس في سفينة متجهة نحو جزيرة جامايكا ، واعيد الى انكلترا بعد مرور ١٤٧ يوماً ، فوُجد بعد الفحص ان الفارق الزمني فيه لم يبلغ سوى دقيقة واربع وخمسين ثانية . كانت المسألة محاولة ما دام نصف الدرجة القوسية يقابله دقيقتان في الزمان . ولكن تركيب جهاز هارسون كان على كثير من التعقيد . امر البرلمان باعطائه ١٠٠٠٠ جنيه استرليني وارجأ المبلغ المتبقي الى اليوم الذي يتوفق فية هارسون الى جعل تطبيق جهازه من البساطة بحيث يمكن النسج على منواله بسهولة . تكامل هذا المقياس بفضل الفرنسيين ، « لهروا » الذي ابتكر ، في السنة ١٧٦٦ ، الزنبرك اللولبي المتساوي الدوام ، والمنفذ ، والرقّاص المعدّل ، و « برتو » الذي صنع ، بين السنة ١٧٦٧ والسنة ١٧٧١ ، مقاييس زمان كثيرة . وبين السنة ١٧٦٧ والسنة ١٧٧٢ ، زودت عدة سفن فرنسية بمقاييس اعطت نتائج مرضية . وهو مقياس هارسون ما اتاح لـ « كوك » القيام برحلته الثانية . ولكن الاختراع الجديد لم يعم استعماله الا رويداً رويداً . فخلال الحرب الاميركية نفسها ، ارتكب قادة الأساطيل اخطاء جسيمة في تحديد خط الطول .

السفن الحربية

زادت الاساطيل الحربية شيئاً فشيئاً من قوتها وخفضت في الوقت نفسه عدد نماذج السفن بالغاء النماذج الضعيفة . فلن تتجاوز السفن الشراعية بعد اليوم القياسات التي بلغتها السفن الحربية الكبرى .

كانت هنالك البوارج ، المعدة للقتال ؛ والمراكب الحربية المعـــدة للاستكشاف وحـــرب المطاردة ؛ والحراقات المعدة لنقل الأوامر . كانت البوارج ذات شرعة واحدة او شرعتين او ثلاث . وزودت البارجة ذات الشرعة الواحدة بـ ٥٠ مدفعاً من عيـــار ١٢ و ٨ ، وبـ ٣٠٠ بحار . والسفينة ذات الشرعتين بـ ٦٤ مدفعاً من عيار ٢٤ و ١٢ ،و٨٠ مدفعاً من عيار ٣٦و١٨ ، تؤلف كلها مجموعتين ، سفلى وعليا ، وبعدد من البحارة يتراوح بين ٥٠٠ و ٨٠٠ . والسفينـة ذات الشرعات الثلاث بـ ٩٠الى١٢٠ مدفعاًوبـ٩٠٠الى١٢٠٠ بحار؛ضمت المجموعةالسفلىمدافع من عيار ٦ ؛ والمجموعة الثانية مدافع من عيار ١٨ ؛ والمجموعة الثالثة مدافع من عيار ١٢ ؛ وثبتت في مقدمة ومؤخرة الشرعة العليا مدافع من عيار ٦ ؛ وفي الطبقة الصغرى مدافع من عيار ٤ . وزودت مراكب الاستكشاف والمطاردة بـ ٢٠ مدفعاً من عيار ٦ او ٣٠ مدفعاً من عيار ٨ او ٤٠ مدفعاً من عيار ١٢ . وكانت هذه المراكب الأخيرة توازي سفن الدرجة الرابعة في عهـــد لويس الرابع عشر التي زالت من الوجود . اما الحراقات فقد ضمت بين ٧٠ و ٨٠ بحاراً وسلحت للمرة الاولى بـ ١٢ مدفعاً من عيار ٤ ، فاستطاعت منذئذ الاشتراك في القتال .

في الثلث الأخير من القرن ، الغيت السفينة ذات الشرعة الواحدة بسبب عدم قدرتها ،منذ ذاك التاريخ ، على الاشتراك في القتال . ولم تعتبر السفينة ذات الشرعتين ، المسلحة بـ ٦٤ مدفعاً، كبارجة بعد ذاك التاريخ ، وهي لن تلبث ان تزول . اما السفن المقاتـــلة الحقيقية فكانت السفن ذات الشرعتين المسلحة بـ ٧٤ و٨٠ مدفعاً ، والسفن ذات الشرعات الثلاث المسلحة بـ ١١٠ مدافع و١٢٠ مدفعاً.زودت كلها بمدافع من عيار ٣٦ في المجموعة السفلى ؛ وزودت السفينة ذات الشرعات الثلاث بمدافع من عيار ٢٤ في المجموعة الثانية ؛ والسفينة ذات الشرعـــات الثلاث ، المسلحة بـ ٧٤ مدفعاً ، بمدافع من عيار ١٨ .

كانت السفينة « دول بورغونيا » ، التي شرع في بنائهافي السنة ١٧٨٥ ، مزودة بـ ١١٨ مدفعاً وضمت ١٠٩٢ بحاراً ، وكان طولها ٦٣ متراً عند خط العوم ، وعرضها ١٦،٩٦ متراً ، وعمقها ٨،٠٨ امتار من الحيزوم حتى الشرعة العليا، وبلغت اشرعتها ٣١٦٢ متراً مربعاً.وكانت قادرة على التموين باغذية تكفي لـ ١٨٠ يوماً وماء يكفي لـ ١٢٠ يوماً .

كان بالأمكان اطلاق نيران المدافع مرة كل خمس دقائق اذا كان البحارة متمرنين تمرينـاً جيداً . كما كان بالامكان ، اذا احني المدفع احناء معيناً ، ان يبلغ مرمى القذيفة ٤٠٠٠متر ، ولكن المرمى الفعال تراوح بين ٥٠٠ و ٦٠٠ متر . في السنة ١٧٧٤ ، صبت مصانع « كارون» في سكوتلندا مدفعاً جديداً ، هو المدفع الكاروني ، القصير ، المركب على سند ثابت ،الذي لم يتجاوز ثلث وزن مدفع من العيار نفسه ولم يستلزم العدد عينه من المدفعيين . كانت نيرانه اقل تسديداً ومرماه اقرب مسافة ، ولكنه اتاح تسليح السفن الصغرى ومقدمات الشرعات ومؤخراتها بمدافع يفوق عيارها ما سمحت به المدافع الاخرى . استخدمه الانكليز بسرعة على

نطاق واسع . ولكن استعماله لم يعم في الاسطول الفرنسي الا في عهد الثورة .

الفن الحربي البحري والستراتيجية البحرية

كان المدفعيون يستفيدون من تحرك السفينة بفعل حركة الماء لاطلاق نيرانهم . فقضت الطريقة الفرنسية بالاطلاق حين ترتفع فوهة المدفع بغية اسقاط الصواري . اما الطريقة الانكليزية فقضت بالاطلاق حين تنخفض الفوهة لاصابة السفن العدوة في جسمها . لم يكن القصد اغراق سفن الأعداء اذ ان الخشب كان بالغ السماكة فوق خط العوم وكثرة الألياف كفيلة بسد الثقب الذي ما كان ليتجاوز ١٧ سنتيمتراً قطرا اذا ما احدثته قذيفة من عيار ٣٦ لبرة . ولكن القذائف كانت تطير شظايا خشبية شديدة الخطر على البحارة الأعداء الذين حاولوا اتقاءها بشباك مشدودة بين كوة مدفع واخرى وبلف اقمشة كثيرة حول الرأس . وجلي ان الطريقة الانكليزية كانت خيرا من الطريقة الفرنسية ؛ فالبحارة الانكليز كانوا يصلحون بسرعة الاضرار التي تلحقها بصواري سفنهم القذائف الفرنسية التي كثيراً ما لا تصيب الهدف على كل حال ؛ اما القذائف الانكليزية فقلما تذهب سدى ، اذ ان الهدف اوسع مساحة ووثبة القذيفة على وجه الماء امراً ممكناً ؛ لذلك كانت الخسائر الفادحة في الأرواح ، التي يمنى بها العدو ، ترغمه على التوقف عن القتال . وكان تفوق الانكليز هذا السبب الأكبر لانتصاراتهم .

طرأ على الفن الحربي بعض الانحطاط منذ اواسط القرن السابع عشر . لفتت قوة المدفعية الانتباه الى استخدام المدافع خير استخدام . فقدرة السفن على المناورة أتاحت الحركات العلمية المنظمة . وربما انتقلت الى الاساطيل عدوى الآراء السائدة في الجيوش البرية ايضاً . فان الانكليز ، وسواهم من بعدهم ، قد نظموا سفنهم صفاً مستقيماً تفصل فيه بين مقدم سفينة ومؤخر سابقتها مسافة قصيرة جداً ، « الصاري الامامي المائل على الكوثل » . وكان الصف شيئاً مقدساً . فكان الاحرى بكل سفينة ، اذا اقتضى الامر ، ان تترك العدو يقترب منها ويهاجمها من ان تتركه يخترق الصف . ولم يجز لاية سفينة ان تغادر مركزها في الصف حتى ولو اعطبت او حطمت صواريها . كما لم يجز لاية سفينة ان تخرج من الصف لمطاردة سفينة عدوة الا بأمر من قائد الاسطول . وكان واجب القبطان الوحيد الحرص على انتظام الصف واكتماله. فاستحالت من ثم كل مناورة. وغالباً ما اقتصرت المعركة على اطلاق نيران المدافع دون نتيجة حاسمة. وقد قال امين سر الدولة للبحرية الفرنسية ، « موروبا » ما يلي : « هل تعلمون ما هي المعركة البحرية ؟ مناورة ، وتبادل اطلاق نيران المدافع ، ثم انسحاب كل من الاسطولين ... وهذا لا يمنع البحر من ان يبقى مالحاً».

كان من ثم القضاء على الاساطيل العدوة امراً مستحيلا . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان السفن كانت باهظة الاكلاف والقباطنة يتحاشون بالتالي ان تغرق او تصاب بأذى . لذلك تحايدت الاساطيل المتعادية بعضها البعض جهد المستطاع واعتمد البحارة ستراتيجية هي اشبه

« بستراتيجية اللواحق » : مهاجمة تجارة العدو بسفن المطـاردة ، الاستيلاء على المستعمرات ، غارات مفاجئة على شواطىء العدو لتدمير تجهيزاته فيها . وقد بلغت هذه الحرب الخاصة ذروة ضراوتها حين تحارب الفرنسيون والانكليز من اجـــل جزيرة « سانت – لوسي » في الانتيل « اذ رأى الناس مشهداً غريباً لاسطولين راسيين على مقربـة من جزيرة بينما كانت جيوش الانزال فيها تتنازع السيطرة عليها » ، وفي السنة ١٧٨١ ، حين غادرت بحر المانش اربعـــة اساطيل معا ، اسطولان انكليزيان مهمتها نقل المؤن الى جبل طارق ومهاجمة مدينة «الرأس» ، وآخران فرنسيان مهمتها نقل المؤن الى الانتيل والدفاع عن مدينة « الرأس » ، دون ان يفكر احد بان المهمة قد تنفذ خير تنفيذ ، او بالاحرى قد تصبح نافلة ، بتدمير الاسطولين العدوين عند خروجها الى المحيط حيث لم يبحث كل منها الا عن تجنب الآخر .

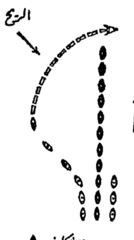
وكان قد سبق للكونت دي برويل ، اخي المارشال ، في اوائـــل الحرب الاميركية ، ان نادى بحرب تدميرية بغية إنزال الجيوش في انكلترا نفسها والقضاء عليها مرة واحـدة . ولكنه لم يلق آذاناً صاغية .

« رودني » و « سوفرين »

ان الذين قـــاموا بانقــــلاب ثوري في حقل الحرب البحرية هم الاميرال الانكليزي رودني ، بطل معركة « سانت » الظافر ، والفارس « دي سوفرين » الفرنسي . لنأخذ مثل سوفرين . كان بروفنسيا ورث تقليد قتال التصارع الذي استهوى ضباط السفن الحربية القديمة وحركته روح هجومية نادرة . اسـند اليه في السنة ١٧٨١ امر الدفاع عن مدينة « الرأس » ، فقام بهذه المهمة قياماً اثار الاعجاب ، ثم طلب اليه تعزيز اسطول « جزيرة فرنسا » في المحيط الهندي ، فغدا قائداً لهـذا الاسطول بعد وفاة اميراله ، وتولى في السنة ١٧٨٢ والسنة ١٧٨٣ قيـــادة حملة الهند الشهيرة التي هزم فيها الاساطيل الانكليزية خمس مرات ومهد لانتصار الجيوش البرية ، فاطلق عليه الهـــنود لقب « الاميرال – الشيطان » ونظر اليه العديد منهم كا الى اله . وقد طبق في هذه الحملة المبادىء التي اوحت بها اليه حياة سلخها في المعارك .

تدمير اسطول الاعداء هو تنفيذ لكافة المهمات . لذلك كان سوفرين يبحث عن الاســـطول العدو وينقض عليه حيثما يجده ، حتى في المرافىء الكبرى دونما اكتراث لمدافـــع الساحل التي لا يمكن ان تطلق نيراناً فعالة في اشتباك قد يصاب فيه الاصدقاء والاعداء على السواء . انتظام الاسطول صفاً مستقيماً ينطوي على اضرار كبيرة لانه يشل الحركة : لذلك امـــر سوفرين « بان تصطف السفن للقتال اصطفافاً طبيعياً » ؛ انه في نطاق عمله « لفيلسوف » حقاً . وحتى يكون الهجوم مجدياً ، يجب الا يقتصر على اطــــلاق نيران المدافـــع من مسافة بعيدة ؛ يجب الاقتراب الى مسافة لا تتجاوز مرمى المسدس (٣٠ خطوة تقريباً) ، وقد اعطى سوفرين المثل بنفسه على الرغم من القذائف التي طيرت من حوله شظايا خشب طبقته العليا ، والتي نجـــا منها

كا بمعجزة . ويجب بصورة خاصة الاحاطة بأكبر عدد ممكن من السفن العدوة وتدميرها تدميراً كلياً . نقطة الضعف في الاسطول المصطف للمعركة هي المؤخرة او الذنب . لذلك هاجم سوفرين المؤخرة بمداً في الوقت نفسه مقدمة الاسطول العدو بخطر الالتفاف . وهـكذا استطاع ، بسفن اقل عدداً من سفن العدو ، إثبات تفوقه في النقطة الهامة واحراز نصر حاسم .



رسم ايجازي لمناورة « سوفرن »

ان هذه المبادىء ، التي تبدو وكأنها في منتهى البساطة ، كانت بمثابة انقلاب في آراء اهـل زمانه جعل من المتعذر على مرؤوسيه ان يفهموه جيداً ، فكانت النتيجة ان اوامـره لم تنفذ بحذافيرها في يوم من الايام . ان سوفرين « قد جـدد الفن الحربي البحري والستراتيجية البحرية وقام في البحر بثورة شبيهة بتلك التي سيقوم بها نابوليون ، بعد سنوات معدودات ، في قيادة الجيوش . وبعمله هذا يحتل سوفرين مركزه بين كبار عباقرة الحرب » .

بعد تحقيق كل هذه التقنيات ، كانت اساطيـل اوروبا الاساطيل الوحيدة التي مخرت كل البحار ، وكان الاوروبيون البشريين الوحيدين الذين قصدوا كل انحاء العالم .

السفينة التجارية

وظهرت السفينة التجارية اخيراً . في السنة ١٧٥٣ ، خصصت اكاديميـة العلوم في باريس جائزة لمن يتوفق الى توفير وسائل تسد مسد فعل الريح . بحث المركيز الفرنسي « دي جوفروا – دابان » عن الحل . فخطر له في السنة ١٧٧٥ ، بعد ان شاهـد « مطفأة » « شايو » في باريس ، ان يطبق على السفن الآلة ذات المفعول البسيط التي ابتكرها « جايمس وات » . وتوفق الى حساب المقاومة الواجب التغلب عليها والى ايجاد طريقة نقل الحركة . فألف جمعية صغرى مع بعض الاشراف وانزل الى نهر « دو » زورقاً بخارياً مزوداً بمجاذيف ذات مفاصل سافر بواسطته في النهر خلال شهري حزيران وتموز من السنة ١٧٧٦ . الا ان المجاذيف لم تعمل عملها كما ينبغي . فابتكر العجلة ذات اللوحات ، التي اعتمدت من بعده ، وفي ١٥ تموز من السنة ١٧٨٣ صعد نهر السون الى ليون امام ١٠٠٠٠ مشاهـد . حينذاك اراد جوفروا – دابان استثمار اختراعه ، ولكن المتمولين طالبوا ، كضمان لاموالهم ، امتيازاً لمـدة ثلاثين سنة . وقبل الموافقة على هذا الامتياز ، اوعز الوزير كالون الى اكاديمية العـلوم بتأليف لجنة لم تسلّم بالامر بسبب عدم قناعتها : ان الآلة ذات المفعول البسيط لا تفي بالحاجـة لتأمين حركة الدوران المتواصل المطلوب . وفرضت اللجنة على جوفروا اعـادة اختباراتـه على نهر السين في باريس . ولكن جوفروا كان قد انفق كل ثروته ، فاحتقره الاشراف واستهزأت به

الجماهير ، فاقلع عن كل شيء ، مع ان الآلة ذات المفعول المزدوج لن تلبث ان تتغلب على كافة الصعوبات .

ان الآلة ذات المفعول المزدوج التي ابتكرها « وات » والتي نقلت حركة دوران منتظمة جداً قد ادخلت اميركا منذ السنة ١٧٨١ . ان ضفاف الانهر المستنقعة او الكثيرة الاشجار جعلت عملية جر الزوارق امراً مستحيلا ؛ كما ان المراكب التي تنزل مجاري هذه الانهر كانت اعجز من ان تصعدها مرة ثانية ، فتتلف او تفكك . لذلك مست الحاجة الى المركب البخاري فعرض الاميركي « فيتش » ، منذ السنة ١٧٨٤ ، مركبا بخاريا اختبره في السنة ١٧٨٧ على نهر « ديلاوار » بحضور « واشنطن » وفرانكلن فيه . فثار الحماس ، وتأسست في فيلادلفيا شركة برئاسة فرانكلن ، وتدفقت الاكتتابات ، ومنحت الحكومة امتيازاً . واصل فيتش تجاربه . ولكن جهاز الدفع الذي ابتكره ، وهو في جوهره عوارض خشبية افقية يحركها البخار اثبتت فيها مجاذيف عادية ، كان مضيعة لكثير من القوة وعرضة للتعطل . والسبب في ذلك انه استعان في صنع آلته بحدادين عاديين : فتميزت بالكثير من العيوب والنواقص . فاعتقدت الجماهير بانها ستتطلب صيانة دائمة واصلاحات كثيرة وانها ستكون باهظة الكلفة . فحدث تحول في الرأي . اما فيتش الذي تخلى عنه الجميع ونعت بالجنون ، فقد انتحر في السنة ١٧٩٣ . الا ان الحل سيهتدي اليه في اوائل القرن التاسع عشر مواطنه « فولتون » الذي سيقلب ظروف الملاحة والنقل وكل الاقتصاد رأساً على عقب .

الفصل الثالث

الثورة المالية والصناعية

الروح التقنية

في اوروبا القرن الثامن عشر اتسعت الثورة المالية التي بدأت في القرنين السابقين، وحدثت، لا سيما بعد السنة ١٧٦٠، ثورة صناعية حقيقية استهلت عهد فن اختراع الآلات واستعمالها. اتجه الاهتمام شطر الفنون الميكانيكية. فان اعظم قاموس حققه القرن هو «دائرة المعارف، القاموس المعلل للعلوم والفنون والحرف» الذي اعطت مجلدات نصه السبعة عشر ومجلدات لوحاته الاحد عشر معلومات جزيلة الفائدة حول اجهزة ميكانيكية كثيرة وطرائق صناعية لا حصر لها. مجد المؤلفون التقنية. ودهش دالمبير في «الخطبة التمهيدية لدائرة المعارف» من «الاحتقار الذي ينظر به الى الفنون الميكانيكية» «ومخترعيها انفسهم»، ومن أن «اسماء هؤلاء المفضلين على الجنس البشري مجهولة كلها تقريباً، في حال أن تاريخ مخربيه، واعني بهم الفاتحين، لا يجهله احد. ومع ذلك، ربما توجب البحث لدى الصناعيين اليدويين عن اشد البراهين إثارة للعجب على بصيرة العقل وطول اناته وامكاناته ...» وطرح على نفسه هذا السؤال: «... وكي لا نخرج من نطاق صناعة الساعات، لماذا لا يحظى اولئك الذين ندين لهم بزنبرك الساعة والمنظمة والدقاق بالاعتبار نفسه الذي حظي به اولئك الذين عملوا على التوالي على تكميل الجبر؟». وذهب فولتير في استغرابه الى أبعد من ذلك:

«من يستطيع تصديق ذلك يا ترى؟ الجنون الذي يكرر سفاسف الفلسفة المدرسية طوال سنتين يتلقى جلاجله وصولجانه في احتفال رسمي، فيتبختر ويقرر؛ وهي مدرسة «بدلام» هذه التي تمهد الطريق لبلوغ المراتب السنية والثروات. توما وبونافنتورا يتألقان فوق المذابح، واولئك الذين اخترعوا المحراث والمكوك والمنجرة والمنشار لا يعرفهم احد».

توافر رؤوس الاموال

ما كانت تقدمات الصناعات لتصبح ممكنة بدون رؤوس اموال وبدون وسائل دفع خاصة. والحال ما انفكت رؤوس الاموال خلال القرن تتجمع وتتكدس، ووسائل الدفع تتكاثر، والاسعار والارباح والأجور الاسمية ترتفع. ازداد حجم المعادن الثمينة من جهة وتكاملت وانتشرت التقنيات المالية من جهة اخرى.

ان التجارة ، ولا سيما التجارة البحرية والاستعمارية الكبرى قد جمعت رؤوس الاموال في اوروبا الغربية حيث تكدس ، طوال القرن ، معظم انتاج الذهب والفضة في العالم ، تكدساً مستمراً متزايداً . وكان المنتج الأكبر مستعمرة المكسيك الاسبانية حيث استثمرت مناجم جديدة ؛ ولكن هنالك مستعمرات اخرى كثيرة انتجتها ايضاً[1] . افاد تدفق المعادن الثمينة دول اوروبا الغربية في الدرجة الاولى . فقد دخل على انكلترا ذهب وفير من البرازيل بعد معاهدة « ميتوين » (١٧٠٣) بينها وبين البرتغال ؛ ومنذ معاهدة باريس (١٧٦٣) وضعت يدها على تجارة هندوستان ، باب الشرق الأقصى ، واستأثرت بمعادنها الثمينة . وتلقت فرنسا معدناً ثميناً وافراً من الامبراطورية الاسبانية بفضل التجارة الكبرى التي نشطت بينها وبين اسبانيا وحتى بينها وبين الامبراطورية مباشرة بالاتفاق مع بعض تجار قادش الاسبانيين . واستفادت هولندا من هذا التيار ، ولكن بنسبة دنيا ، لأن صناعتها تأخرت وانخفض حجم صادراتها تدريجياً . أما دول اوروبا الاخرى فلم تستفد منه الا استفادة محدودة ، لأن بعضها ، كاسبانيا والبرتغال ، كان شبه خال من المعادن الثمينة بفعل اضطراره الى استيراد الكثير من البضائع ، والبعض الآخر ، كالنمسا وبروسيا وروسيا ، كان بعيداً عن البحار دون مستعمرات ودون تجارة كبرى على بعض الأهمية .

تدفق المعادن الثمينة

ولكن المعادن ما كانت لتكفي للمدفوعات . فان سرعة تداولها المحدودة قد جعلت الناس يشعرون شعوراً اعظم بنقص حجمها . يضاف الى ذلك ان نقلها كان باهظ الاكلاف ومحفوفاً بأخطار السرقة . فكان باستطاعة الفرنسيين ، حتى في السنة ١٧٨٢ ، أن يروا ، في المدن التجارية الكبرى ، في العاشر والعشرين والثلاثين من كل شهر ، بين الساعة العاشرة والساعة الثانية عشرة ، حمالين يسيرون بسرعة في كل الاتجاهات ناقلين اكياساً ملأى بالفضة تنوء عليهم بثقلها . وكانت وكالات الشحن تنقل بين مدينة وأخرى اكياساً تتسع لـ ٢٠٠ دينار يساوي الواحد منها ٦ ليرات ، وتصر في صناديق مسطحة مغطاة بالتبن ومشدودة بالحبال، لقاء ليرتين لكل الف ليرة حتى مسافة ٢٠ فرسخاً ، وليرة لكل ١٠٠٠ ليرة عن كل ١٠ فراسخ فوق الـ ٢٠ فرسخاً . فكان هناك ، كما هو جلي ، ما يحمل المشتري على التردد والتراجع .

---

(١) قدر سونبر الانتاج العالمي ، بالكيلوغرامات ، كما يلي :

	فضة	ذهب	نسبة الزيادة
١٧٠١ - ١٧٢٠	٣٣٥ ٠٠١	١٢٨٢٠	١٠٠٨ ٪
١٧٢١ - ١٧٤٠	٤٣١ ٢٠٠	١٠٠٨٠	٢١،٢٦ ٪
١٧٤١ - ١٧٦٠	٥٣٣ ١٤٥		٢٣،٦٤ ٪
١٧٦١ - ١٧٨٠	٦٥٢ ٧٤٠		٢٢،٣٤ ٪
١٧٨١ - ١٨٠٠	٨٧٩ ٠٦٠		٣٤،٦٧ ٪

ولا عجب والحالة هذه ، اذا ما اتقن القرن الثامن عشر كل التقنية المصرفية .

النقد الورقي

احدثت هذه الاخيرة شيئاً فشيئاً منـــذ القرون الوسطى في كبريات مدن التجارة الدولية ، البندقية ،جنوى، جنيف ، انفرس ، اوغسبورغ ، وحسنت تحسيناً عظيماً في القرن السابع عشر على يد الهولنديين الذين صدروها الى انكلترا ، وتقدمت تقدماً كبيرا بفعل معاملات البيع والشراء بالدين التي فرضتها حرب وراثة عرش اسبانيا ، فتكـاملت في القرن الثامن عشر وانتشرت في دول البر الاوروبي الكبرى عن طريق فرنسا وبلغت شرقي اوروبا .

الاوراق النقدية

تعاطى العمليات المصرفية على أنواعها مصارف دولة (لندن ، امستردام) ومصارف خاصة ، وكتاب عدل ، وسماسرة تجارة . فكان هناك الإيداع ، والتحويل ، والورق النقدي ، والسفتجة ، والحسم ، وشركة التوصية ، والقروض لقاء رهونات عقارية أو اوراق مالية أو قروض لآجـال قصيرة ، والدخول الدائمة ومدى الحياة ، والاسهم ، والسندات . ومورست في المصافق ، بواسطة الدلالين، تجارة الاوراق المالية ، والصفقة المؤجلة، والتسليف على الاوراق المالية ، والبيع لآجال قصيرة .

وارتبطت التأمينات على الحياة بهذه المضاربات . وقامت منذ ذاك الحين منازعات ضارية بين المساومين على الارتفـــاع والمساومـــين على التدني ، فحـــاول هـــؤلاء بحجم المبيعات، واولئك بحـــجم المشتريات، لآجـــال قصيرة ، تحويـــل الاسعار لمصلحتهم . واستغلت الاخبار السياسية : الانتصار ، الهزيمة ، المعاهدة ، المفاوضة ، ارتقاب تغيير وزير أو عشيقة ، واتجاه سياسي جديد ، التي كانت تنبيء بأن سوقا استعمارية أو صفقة كبرى ستنتقل من يـد الى يد اخرى فتؤثر تأثيراً عظيماً جداً في اسعار اسهم الشركات التجارية . ومنذ ذاك الحين لم تكن الاشاعة الكاذبة والدسيسة السياسية امراً مجهولا. جرى النقد مجرى السياسة وغالباً ما أثر فيها. استخدمت من ثم كافة الاساليب الهامة ولكنها لم تستخدم استخداماً سوياً في كل مكان .

النقد الورقي في هولندا

دانت هولندا منـــذ زمن بعيد لتجارتها العالمية بالعمولة ولدورها كـ « جوالة البحار » بكونهـــا الدولة الاوروبية التي استخدمت فيها كل هذه الاساليب استخداماً ماهراً جـــداً في مصرف امستردام ومصفقها . في امستردام اتجر بسفتجات اوروبا جمعاء ، وفي مصفقها حدّدت اسعار كافة الاوراق المالية . وابتكر الهولنديون في القرن الثامن عشر القرض لقاء رهونات لفلاحي « سوريناك » : فكان دين المدنيين مؤمناً عليه بالمغارس . ولم تتح قروض هولندا استثمار ممتلكاتها زراعياً فحسب ، بل استثمار الهند الغربيـة (انتيـل) الفرنسية والانكليزية والمستعمرات الدانمركية ايضا . وقد قدمت هولندا اكثر من ثلث رؤوس الاموال الموظفة في المشاريع الصناعيـــة المؤسسة في مختلف الدول الالمانية . ففي السنة ١٧٨٧ بلغت دخول هولنـدا في الخارج ١٢٣ مليوناً ، أي ما يعادل ٦٢ فلورين لكل هولندي ، وهو مبلغ ضخم لعمري . إلا ان اهمية الهولنديين النسبية قـد اخذت في التدني منذ

السنة ١٧٥٠ بتوسع مستعمرات البلدان الاخرى وتجارتها وصناعتها . وبصورة خاصة تأخرت الصناعة الهولندية لأن الدول التجارية قد حدّت من تصدير الخامات التي يفتقر إليها الهولنديون. فأرغم الهولنديون من ثم على شراء قسم كبير من المصنوعات التي سيقايضونها ، فباعوها بأسعار تفوق اسعار منتجيها . وتقهقرت بالتالي تجارتهم وتأخر تدفق رؤوس الاموال على امستردام .

في انكلترا

تفوقت انكلترا تفوقاً متزايد الاهمية بفضل ازدهار تجارتها البحرية الكبرى وصناعتها . بعد معاهدة اوترخت (١٧١٣) التي حدت من المزاحمة الفرنسية ، ولا سيما بعد معاهدة باريس (١٧٦٣) التي فتحت ابواب الهند للانكليز ، تدفقت رؤوس الاموال . وزع مصرف سكتلندا ارباحاً تعادل ٢٠٪ . وبفضل مصرف انكلترا ومصفقها ، سارت لندن قدما في طريق التفوق على امستردام . لجأت الدولة الانكليزية ، التي ثقلت عليها الديون بسبب حرب وراثة عرش اسبانيا ، الى قروض كثيرة ، ولكنها اعتمدت في عقدها اساليب حكيمة . فلم تقترض إلا في حالات استثنائية ، لا لتغطية العجز ولا لتأمين الانفاق العادي . سددت المتأخرات تسديداً شديد الدقة باحداث ضرائب مقابلة . وفرت كافة التسهيلات للافراد لبيع الدخول: الملاك يقصد سمساراً يتصل بالشاري ؛ الملاك يوقع تخلية مؤلفة من سطرين على قصاصة ورق ؛ يذهب والشاري الى المكتب حيث توجد سجلات الاملاك العامة ؛ فيتم الانتقال دون نفقة من حساب البائع الى حساب الشاري ؛ ولا تستلزم هذه العملية كلها سوى ١/٨٪ يشكل عمولة السمسار . اما في هولندا وفرنسا فكان متوجبا على الملاك الاخير ان يحتفظ بوثائق تسلسل انتقال الملك إليه . وكانت هنالك في فرنسا صعوبات اخرى كثيرة ايضاً .

ارتفع عدد الشركات المساهمة ارتفاعا كبيراً : شركات التأمين ضد الحريق ، على الحياة ، على الزواج ، الخ . فقد بلغ هذا العدد في انكلترا ، منذ اوائل القرن ، ١٤٠ شركة مساهمة . في ٢٦ آذار ١٧١٤ اصدر « جون فريك » في لندن اول بيان اسبوعي بالاسعار . وفي حمى المضاربة ، التي حدثت في السنة ١٧٢٠ ، بتأثير مثل « لو » في فرنسا ، تأسست شركات غريبة جداً : شركة رأسمالها مليون جنيه استرليني من اجل عجلة دائمة الدوران، وأخرى لأجل تكرير مياه البحر. وعلى غرار «لو» في فرنسا تقدم مصرف انكلترا وشركة البحر الجنوبي باقتراح الحلول محل الدولة تجاه دائنيها مقابل فائدة تناقصية يستوفيانها من الدولة . وأدت المضاربة الجامحة في السنة ١٧٢٠، كما حدث في فرنسا ، الى تضخم مفرط في الاسهم ، ثم الى اختلال وانهيار، ولكن فقدان الثقة في الشركات المساهمة لم يدم طويلاً ، كما في فرنسا، إذ لم تمض سنوات معدودات حتى استعادت هذه الشركات ازدهارها .

وكانت جنيف مركزاً مالياً عظيم الاهمية . وقد بلغ من مهارة تجارها الماليين ان قال عنهم الدوق « دي شوازول » ما يلي : « ان اتقانهم للحساب قد بلغ مبلغاً يوجب علينا ، إذا ما رأينا

جنيفياً يلقي بنفسه من نافذة الدور الثالث ، ان تحذو حذه بكل طمأنينة ، اقتناعاً منا بأننا سنكسب ٢٠٪ بالسير على خطاه » .

في فرنسا

تأخرت فرنسا عن ركب كل هذه الدول لان التجارة فيها أقل نمواً وتقدماً ، ولأن الكاثوليكية فيها دين الدولة . الحق القانوني والحق المدني يحرمان الفائدة التي تؤمن كسباً دون مشقة ودون مسؤولية . ولا يجيزانها الا عندما يتعرض المال لخطر أكيد كما في الشركات البحرية مثلاً . في السنة ١٧٤٥ تقدم بعض صيارفة « الغوليم »، الذين عجزوا عن استرداد مالهم من مدينيهم المتمنعين ، بدعوى الى القضاء ، ولكنهم فوجئوا بالحكم عليهم لعدم صحة الدعوى : خالفوا القانون بالادانة بالفائدة ؛ فخسارتهم من ثم قصاص عادل .

الا ان الدين بالفائدة انتشر بحكم الضرورة . لا بل ان فرنسا عرفت ، قبل « لو » ،الشركات المساهمة ، والسند لأمر حامله ، والصفقة المؤجلة ، اقله بأشكالها الاولية . وخلال القرن الثامن عشر ادخل بعض السكتلنديين ، من امثال « لو » ، والسويسريين من امثال « نكر » و « بنشو » و « كلافيير »، الى فرنسا ، كل التقنيات المعروفة في البلدان الأخرى ، وقد تمت في فرنسا آنذاك اهم الاختبارات وابعدها اثراً دولياً .

ان ما جعل الناس يعملون بآراء جون لو ليس حاجات التجارة الكبرى ، على الرغم من نموها مع اسبانيا وهولندا وانكلترا وألمانيا والهند حتى السنة ١٧٦٠ ، ومع الانتيل طوال القرن كله ، بل حاجات دولة اصبحت على قاب قوسين من الافلاس في اعقاب حروب لويس الرابع عشر . النقد في نظر لو وسيلة مقايضة . فالمسألة الكبرى هي من ثم الاسراع في ترويج النقد لمضاعفة الشراء والبيع باطراد ومضاعفة الانتاج بالمقابلة . وجلي بالتالي ان«لو» من مشايعي النقد الورقي المتحمسين . افلح في اقتراحه على الحكومة الحلول محلها تجاه دائنيها ووفاء الدين تدريجياً . استحصل من الوصي على العرش ، في السنة ١٧١٦ ، على اجازة بتأسيس مصرف خاص كانت ثلاثة ارباع رأسماله ديوناً على الدولة . وفي السنة ١٧١٧ ، أسس شركة الغرب التي كان مفروضاً ان تستخدم اوراقاً نقدية يصدرها المصرف والتي قبضت ثمن أسهمها سندات ملكية . ثم اشرك في جمعية جبارة اطلق عليها اسم « النظام » ، مصرفه الذي اعطي صفة المصرف الملكي في السنة ١٧١٨ ، وشركة الغرب التي تحولت في السنة ١٧١٩ الى شركة الهند ، بغية استثمار الميسيسبي وكندا والانتيل وغينيا والمحيط الهندي والشرق الأقصى ؛ وضم اليها التزام التبغ وسك النقود وجباية الضرائب . فكان ان الآمال في ارباح طائلة ، التي قوتها دعاوة ماهرة ، رفعت سعر الأسهم من ٥٠٠ ليرة الى اكثر من ١٨٠٠٠ ليرة . الا ان ربيحة الـ ٤٠٪ التي بُشر بها في كانون الاول ١٧١٩ ما كانت لتمثل ، بالنسبة لهذا السعر ، الا ١٪ أو أكثر بقليل . اخذ المضاربون بالبيع . وانخفضت قيمة الأسهم . وتضعضعت الثقة حتى

في اوراق المصرف النقدية ؛ فتزاحمت الجماهير مطالبة بأن تدفع لها حقوقها نقوداً معدنية . ولكن ما كان اصدره لو من النقد الورقي قد فـاق موجودات صناديقه من هذه النقود ، فاضطر المصرف الى اقفال ابوابه . وفي كانون الاول ١٧٢٠ انخفضت قيمة سهم الشركة الى ليرة ذهبية ، فأفلس « لو » وتوارى عن الانظار . ان لو قد خفف وطأة دين الحكومة وانهض المشاريع التجارية والصناعية وأحدث انقلاباً اجتماعياً وولد في الناس كراهية النقد الورقي والبيع والشراء بالدين . «منذ«لو»» بات [النقد الورقي] موضوع اشمئزاز لا بل موضوع رعدة وفزع » . أنف الفرنسيون من المصرف وذكره . فتأخرت انطلاقة الثقة في المعاملة ، وتأخرت معها الانطلاقة الصناعية والتجارية .

في السنة ١٧٢٤ فتح مصفق باريس ابوابه . ولكن تسليم الاوراق المالية حدد بأربع وعشرين ساعة ؛ وحرّمت الصفقة المؤجلة . وقد ووفق على فتحه في السنة ١٧٨٠ . استفاد الوزير « كالون » منه لمحاولة رفع سعر أسهم شركة الهند بوسائل الاب « دسبانياك » . ولكن القضية انتهت الى غير ما يشتهيه ذووها وحلت امام القضاء في عهد الثورة .

في السنة ١٧٧٦ أسس سويسري وسكتلندي « صندوق الحسم » متجنبين بحكمة كلمة مصرف . حسم الصندوق السندات التجارية وتقبل الودائع وأصدر سندات لم تعرف قط رواجاً خارج باريس . ومنذ السنة ١٧٧٦ تأسس يانصيب فرنسا الملكي الذي اصدر في السنة ١٧٨٣ سندات تمين فائدة لحاملها وتسدّد خلال ثماني سنوات ، كانت مماثلة للسندات الطويلة الأجل على الخزانة . وفي السنة ١٧٧٧ تأسس « مصرف المحبة » لمحاربـة الربى فأقرض التجار ، أهم زبنه آنذاك ، أموالاً لقاء رهونات .

منذ السنة ١٧٥٠ ، ولا سيا منذ السنة ١٧٨٠ ، انتشرت الشركات المساهمة انتشاراً واسعاً: شركات معادن الفحم الحجري ، مؤسسات التعدين ، مصانع الغزل ، المصارف ، التأمينات البحرية . تولت « صحيفة باريس » وصحيفة فرنسا نشر لائحـة الأسعار . وتأسست بشكل شركات مساهمة شركة « ازين » (١٧٥٧) وشركة « انيش » (١٧٧٣) لاستخراج الفحم المعدني ؛ وشركة القطن ، في « نوفيل - لارشفيك » على مقربة من ليون (١٧٨٢) ، الـتي وزع رأسمالها على ٢٤ سهماً قيمة كل منها ٢٥٠٠٠ ليرة ، فساعد على تزويد المصنع بأحدث الآلات ؛ ومصانع الفولاذ في امبوي (١٧٨٤) الـتي حدد رأسمالها بمليونين ؛ وأول شركة فرنسية للتأمين ضـد الحريق اسسها السويسري كلافيير (١٧٨٨) ؛ وعدد كبير آخر من الشركات ، لتبطين السفن مثلاً ، او تنقية الفحم الحجري ، او صناعة التراب العضوي القابل الاحتراق . واستخدم السند لحامله لتأسيس مصنع « له كروزو » في السنة ١٧٨٢ كي ينصهر فيه ، في السنة ١٧٨٥ ، معمـل الملكة للبلور ومعمل صب المعادن الملكي في « اندريه » و « مونسليس » ، برأسمال قدره عشرة ملايين موزعة على ٤٠٠٠ سهم ، فبات الملك مساهماً .

وهذا دليل على ان الصناعة الكبرى واستخدام الآلات قد ارتكزا الى الدين .

في البلدان الاخرى

في البلدان الأخرى ، عرفت المحلات التجارية الكبرى الدين منذ زمن بعيد . فمنذ السنة ١٧٢٠ قامت في همبورغ شركات تأمين بحري . ولكن الدول الكبرى كانت جد متأخرة . ففي الدول النمساوية ، أراد شارل السادس ، متأثراً بمثل « لو » ، تأسيس « شركة اوستند » معولاً على المؤسسات التجارية والمصارف في اوسلند وانفرس . ومنذ السنة ١٧٥٠ أصدرت النمسا نقداً ورقياً ، وحذت حذوها كل من اسوج وروسيا واسبانيا . ولم يكن هناك مصفق رسمي بل مصافق « سوداء » في برلين وفينا. وأسس فردريك الثاني مصرف بروسيا في السنة ١٧٦٣ حين عجز عن مواجهة واجباته في أعقاب حرب السنوات السبع .

الثورة الصناعية في انكلترا

اننا نشاهد في انكلترا المرحلة الاخيرة لانتقال اقتصاد مبني على الماء والخشب الى اقتصاد مبني على الفحم والحديد . في السنة ١٧١٤ ، ما زال الخشب يستخدم لكل شيء . لا شك في انه استخدم وقوداً ، ولكنه هو ما وفّر الاشنان لصناعات المنسوجات والزجاج ، والقار للسفن . واستخدم كذلك في دباغة الجلود . ولكن انكلترا عانت « مجاعة » خشب عرضت كل نموها للخطر . لذلك فنحن نشاهد الانتقال من اقتصاد مبني على استثار المحاصيل النباتية والحيوانية الى اقتصاد مبني على استثار المصنوعات المعدنية . ففي تبييض المنسوجات مثلاً ، استخدم اللبن الحازر . ولكن الزراعة ما كانت لتوفر المنظفات الكافية لصناعة المنسوجات التي ادى ذلك الى عرقلة انطلاقتها . فبات لزاماً استخراج المنظفات من المواد المعدنية ،وهذه هي مسألة الانتقال من الملح الى الاشنان التي لعبت دوراً كبيراً.

الصناعة المنزلية

في السنة ١٧١٤ ، لم تكن الصناعة ، في انكلترا كما في اي بلد آخر ، المورد الأهم ، مع انها نمت فيها اكثر من غيرها . كان اكثر اشكال الصناعة انتشاراً الصناعة المنزلية التي ازدهرت في صناعة الصوف الهامة بنوع خاص . فان عمالاً يدويين كثيرين ممن وزعوا حياتهم بين الصناعة والفلاحة قد امتلكوا ادواتهم . كانوا يشترون المادة الخام ويحولونها في منازلهم بمساعدة زوجاتهم واولادهم ، وبعض العمال احياناً . وكانوا ينقلون مصنوعاتهم على عربتهم التي يجرها حصانهم بغية بيعها في سوق البلدة . وكانوا يزرعون بضعة هكتارات من الاراضي . ويربون بعض الماشية بغية تأمين كفافهم من الموارد . فهم من كانوا ينتجون الاقمشة وسكاكين شفيلد واسلحة برمنغهام وادواتها المعدنية ولعبها ، ودبابيس بريستول ، اي قسماً كبيراً مما كان يصدر الى موانىء الشرق الادنى وحتى الى اميركا .

التركيز التجاري
تقسيم العمل والانتاج بالجملة

الا ان العلائق ببلدان ما وراء البحار ، والمقايضات المتزايدة ، والطلب المتعاظم ، وحاجات الزبن الجدد او اذواقهم الخاصة ، والوقوف في وجه المزاحمين ، قد ادت الى تركز الصناعة تركزاً تجارياً. اراد بعض التجار الجواخين وبائعي الادوات المعدنية ولعب الاولاد نوعية فضلى ؛ وسعراً

ادنى ايضاً ، فارادوا في سبيل هذه الغاية فرض طرائقهم الصناعية على المنتجين وفرض كسب محدود . وتوصلوا الى ما ارادو اما بتزويد فلاحي المناطق الخلوة من الصناعة بالانوال ، واما بالاستفادة من جدب الحصائد وحاجات العمال المنزليين ليستولوا على ادواتهم تسديداً لاموال يسلفونهم اياها ، واما بتوفيرهم على العامل مالك الأدوات انتقالاته للبحث عن المادة الخام ولبيع مصنوعاته . اخذوا على انفسهم ايجاد المؤانين والشارين. كان ذلك اول تقسيم للعمل جعلهم اسياد السوق ، ومن ثم اسياد المصنوعات وصناعتها . فالتاجر الذي عرف باسم الصناعي او صاحب المصنع،يقدم المواد الخام، اي الصوف والقطن والقنب والحديد ، والأدوات والنماذج. اما العامل فينفذ العمل . ثم يعود الصناعي فيطلب الأشياء المصنوعة ويبيعها . وهكذا اصبح العامل اليدوي عاملاً مأجوراً بعد ان كان صناعياً مستقلاً . هذه هي مرحلة المصنع ، التعبير الذي لا يعني مؤسسة كبرى بل مجموع المصانع الفردية التي تعمل لأجل تاجر هو متعهد رأسمالي . وضم المصنع احياناً ، بالاضافة الى ذلك ، مشغلاً كبيراً تجمع فيه المصنوعات لأعمال الصقل النهائية . ومنذ هذه المرحلة ادخلت تحسينات كبرى على تقنية الصناعة : « توزيع العمل » و « الصناعة بالجملة » ، قبل اختراع الآلات واستعمالها. بدأ توزيع العمل بصناعة الصوف حيث مهد له السبيل نوع التقنية : الغسل ، التقصير ، الطرق ، الحلاجة ، الندافة ، الغزل ، الحياكة ، الجز ، الكشط . فان المهارة التي يحققها العامل الاختصاصي في احدى العمليات زادت من انتاجه كماً ونوعاً في الوقت نفسه وخفضت سعر الكلفة لانتاج افضل . ولا عجب من ثم اذا ما تكاملت هذه المهارة على مر الايام . فافضت حيث امكن ذلك الى الصناعة بالجملة، كما في مصنع الدبابيس الصغير ، الذي وصفه «آدم سميث» في السنة ١٧٧٦ ، وحيث قام كل عامل اما بواحدة، واما باثنتين او ثلاث من العمليات الثمانية عشر التي تطلبتها صناعة الدبوس الواحد ، وتوصلوا بعمل يدهم الى انتاج ٤٨٠٠٠ دبوس يومياً .

المعامل

وكان هنالك اخيراً ، في الصناعات التي استلزمت آلات معقدة التركيب وباهظة الاكلاف ، بعض « معامل » تجمع فيها الأجهزة والعمال ، كما في صناعة الحرير مثلاً . فقد جهزت بعض الشركات المساهمة بعض مناجم النحاس ؛ كما امتلك بعض ارباب معامل الحديد من النبلاء ، مصهرا او مصهرين ، ومعمل حدادة وانتجوا خمسة وستة اطنان اسبوعياً .

الآلات
اسباب اختراعها

وتحققت تحسينات جديدة بفضل نمو التجارة . ان هذه الأخيرة خلقت الحاجة : زبن جدد في بلدان ما وراء البحار ، اذواق جديدة عند الزبن الانكليز ، منافسون جدد . استوردت ليفربول من الشرق منسوجات قطنية ادى النجاح الذي عرفته الى قيام صناعة مماثلة في منشستر ، وغدت ليفربول تستورد المادة الاولى ، القطن الخام . الا ان ذلك اوجب حينذاك مجاراة عمال آسيا القانعين بمستوى حياة

متمدن ، والمتجملين بخفة يدوية لا نظير لها عند الاوروبيين . فكان ذلك أحد الأسباب الرئيسية لاختراع آلات جديدة. وقد سبق أن لفت أحد الابحاث المغفلة الانتباه «الى ان تجارة الهند الشرقية، بتوفيرها مصنوعات ادنى سعراً من مصنوعاتنا ، سترغمنا في الأرجح على اختراع طرائق وآلات تتيح لنا ان ننتج بيد عاملة قليلة وبكلفة متدنية ، ومن ثم ان تخفض سعر المصنوعات » . ان الآلات كلها ، والاختراعات كلها بصورة عامة ، ولدت من فقـدان التوازن الاقتصادي ومن الحاجة الى تخفيض اسعار الكلفة ، ولكنها ولدت كذلك من امكان الحصول على رؤوس اموال بفائدة ضئيلة وتحقيق ارباح كبرى . وقد كثرت في البدء ، كما هو طبيعي ، في الصناعات التي لم تكن خاضعة لأنظمة التعاونيات ، كصناعة القطن مثلاً ، وهي احدث عهداً من ان يأخذها المشترع بعين الاعتبار . ففي الصناعة القطنية حدّد عرض الأثواب بعرض ذراعي العامل ، بسبب مرور المكوك . وإذا ما طلب ثوب اوسع عرضاً توجب استخدام عاملين وفاق ارتفـاع سعر الكلفة ارتفاع الأرباح . وهذا ما حدا بـ «جون كاي» الى البحث عن مكوكه المتحرك ، والى ابتكاره في السنة ١٧٣٣ ، فأتاح هذا المكوك انتاج اثواب بالعرض المطلوب . ثم عم استعماله حوالى السنة ١٧٦٠ . وفي صناعة استخراج المعادن وتنقيتها ، حدّ نقص المحروقات من انتاج الحديد وحديد الصب ، اذ ان اشجار الغابات كانت تقطع لتوسيع المراعي . فتوجب استيراد الحديد من السويد لصناعات برمنغهام وشفيلد ، ولكنه كان باهظ الثمن ورفع سعر الكلفة رفعاً مفرطاً ، بينما تعرض ارباب المصاهر من الانكليز للافلاس . فدفع ذلك بعض آل «داربي» ، في السنة ١٧٣٥، الى ابتـكار الحديد المصبوب بالفحم الحجري المقطر ، لأن الفحم الحجري غير المقطـر ينشر مركبات كبريتية تجعل حديد الصب قصماً . اما الآلة البخارية فقد ولدت من عجز الانهار عن تحريك عجلات الآلات ، وعن صعوبة احداث الخزانات ، الباهظة الاكلاف على كل حال. واستخدمت الآلة التي سيرها « نيوكومن » (١٧٠٥) بالبخار الجوي لرفع الماء الذي يسقط بعد ذلك على العجلات ذات اللوحات ، ولتحريك المضخات بغية تفريغ ماء المناجم .

المخترعون

لم تكن كل هـذه الاكتشافات ، في البدء ، عمل العلماء ، بل عمل محترفين مهرة متمكنين من الطرائق التقنية المستعملة وواقفـين بالممارسة على موضوع ابحاثهم . فان جون كاي قد كان حائكاً في البدء ثم صانع منافش للانوال. ومن بين مخترعي آلات الغزل، كان « هارغريفز » ، الذي ابتكر في السنة ١٧٦٥ ، آلة لغزل عدة خيوط دفعة واحدة ، حائكاً ثم نجاراً ؛ وكان « توماس هايز » ، الذي ابتكر « المغزل المائي » (١٧٦٧) عاملاً نفاشاً بسيطاً ؛ وكان كرومبتون، الذي ابتكر آلة تجمع بين الآلتين (١٧٧٩)، غزالاً وحائكاً. وكان كارتريت ، مبتكر آلة الحياكة ، راعياً محباً للبشر ، ومجرد هاوٍ في علم الآليات . وكان آل داربي ارباب مصاهر ؛ وتحقق تحويل حديـد الصب الى حديد ، في السنة ١٧٨٣ ، على يد « بيتر أونيونز » ، رئيس العمال في احـد المصاهر ، « وهنري كورت»، احد ارباب المصاهر . وان الآلة البخارية، التي اكتشفت في القرن السابع عشر وجعلت صالحة للعمل على يد نيوكومن،

الحداد والقفّال ، اصبحت عملية حقاً على يــد « جايمس وات » ، صانع الآلات المختبرية . ولكن هذا الاخير أفاد من قياس الحرارة الذي حققه « بلاك » . وهكذا انضم العلم الى التقنية. وبعد تحقيق هذه الطرائق كلهـا ، درسها العلماء واكتشفوا نواميسها ، وتوفقوا بواسطتها ، في القرن اللاحق ، الى اكتشافات علمية وتقنية جديدة .

نجاح الاختراعات

لقــد سبق هذه الاختراعات كلها مرحلة طويلة من السعي والبحث والاخفاق . فقبل هارغريفز وهايز ، اكتشف « جون ويات » و «ولويس بول » آلة غازلة جيدة (١٧٣٣ – ١٧٣٩) . وقبل آل دربي، يبدو ان « دادلي » قد توصل، منذ أواخر عهد جــاك الاول ، الى اكتشاف مبدأ الحديد المصبوب بالفحم الحجري المقطر ، وهنالك حالات اخرى كثيرة . ولكن المخترعين الاول قد اخفقوا في البدء بسبب عــدم كفاءتهم العمليـــة وافتقارهم الى الروح التجارية . اتقنوا التفكير والادراك والاكتشاف دون النقاش والحساب والبيع والشراء. وغالباً ما كانوا وجلين وجزعين ومتريبين دون طموح حقيقي اقتناع بالاكتشاف ، شأن هايز ووات . وقد اصطدموا على الاخص بمقاومات الصناعيين الحذرين ابداً بسبب خوفهــم من خسارة المـــال ، ومقاومات العمال المعادين للآلة الذين يخشون فقدان مرتزقهم فيحطمون ويحرقون الآلات . وقــد توجب ، حتى تفرض هذه الاخيرة نفسها ، ان تصبح الازمات الاقتصادية، التي دفعت الى البحث عنها،من الشدة بحيث تبدو الآلات بوضوح وكانها السبيل الوحيد الى التغلب عليها . مات معظم المخترعين مغمورين وفقراء . ولكن ســرهم سرقه واستخدمه الصناعيون الذين رفضوا مكافأتهم . فان « آركرايت » قد انتحل آلة هــايز الغازلة واكتشافات ثانوية عديدة حققها كثيرون غيره . كان تاجراً ماهراً ، فنجح وجمع ثروة طائلة وغدا « سير » وعظيماً بين العظماء . وقد عزا اليه مواطنوه إثراء انكلترا ونجاح الصراع الطويل ضد فرنسا ، مغفلين عدم استقامته . وجعل « كارليل » من اركرايت احــــد ابطاله وقارنه بنابوليون . وحالف جايمس وات الحظ بموافقته بولتون البوريتاني الذي شجعه وسانده وبنى الآلة وجعلها تفرض نفسها بعد سنوات طويلة من الصراع .

ترابط الاختراعات في صناعة النسيج

احـــدث كل اختراع تخلخلا اقتصاديا جديداً اوجب البحث عن آلات جديدة . فقـــد توالدت الاختراعات . ارتفعت نسبة انتاج المنسوجات ارتفاعاً كبيراً بفضل المكوك المتحرك بينما بقي الخيط يغزل بالدولاب . افتقر الحاكة الى الخيط لا سيما في فصل الصيف حين ينصرف الغزالون والغزالات الى اعمـــال الحصاد . وقد نجم عن ذلك ان التجار الذين تعهدوا بتلبية طلبات البضائع ، معولين على طاقــة الانوال ، لم يستطيعوا التنفيذ بسبب افتقارهم الى الخيط . فاضطروا الى تسريح عمالهم وخسروا بعض زبائنهم . اشتدت الازمة حوالي السنة ١٧٦٠ بسبب الانتصارات الانكليزية في الهنــد التي افضت الى ازدياد الطلب . وهذا ما اوحى الى هارغريفز باختراع آلته الغازلة (١٧٦٧) التي

اتاحت لعامل واحد في منزله ان يغزل بين ٨ و ٨٠ خيطا معا . انتجت هذه الآلة خيطا دقيقا ولكن هذا الخيط كان واهيا وقصما . اما آلة هاير الغازلة (١٧٦٨) ، وقـوامها اساطين وسفافيد عمودية، فقد انتجت خيطا متينا، على بعض الثخانة، لم يتح بلوغ دقة الاقمشة الشرقية. واما آلة كرومبتون (١٧٧٩) فقد انتجت خيطا متينا جدا غاية في الدقة صالحا جدا لصناعة الاقمشة الموصلية . ولكن الغزال تقدم آنذاك الحائك الذي ما زال يعمل بيديه . ولم يعـرف الغزالون كيف يصرفون بضائعهم . فأخذوا يصدرون بعضها الى الـبر الاوروبي . ولاح من ثم خطر المنافسة للاقمشة الانكليزية . فـكان ذلك منطلقاً لمساعي كارتريت ، في السنة ١٧٨٥ ، في سبيل ابتكار نوله الآلي الذي نجح نجاحا تاما منذ السنة ١٨٠٠ . والدليل على ذلك ان نولين بخاريين ، يراقبها فتى في سن الخامسة عشرة ، كانا ينسجان ثلاثة اثواب ونصف الثوب ، في حين ان عاملا ماهراً يستخدم المكوك المتحرك لم ينسج في الوقت نفسه سوى ثوب واحـد . فتيسر استهلاك الخيط المغزول ؛ وانخفض سعر الاقمشة ؛ وارتفع عدد الزبائن .

صناعة استخراج المعادن ومعالجتها

إن الحديـد المصبوب بالفحم الحجري المقطر ، الذي ابتكره آل « داربي » ، قد زاد من كمية الحديد المصبوب . ولكن معالجي المعادن لم يعرفوا كيف يحولونه الى حديد . فتجمعت منه كمية كبرى عجزوا عن بيعها في حين مست الحاجة الى الحديد الذي ما زال يصنع بواسطة الفحم . فقام « اونيونز » و « كورت » بتجارب كثيرة وتوفقوا الى تحويل حديد الصب الى حديد (١٧٨٣ — ١٧٨٤) : يمحص حديد الصب بنار الفحم المعدني المقطر ، فيفقد جزءاً من كربونه ؛ ثم يذاب مـع خَبَث غني بأوكسيد الحديد ؛ فيتحد ما تبقى فيه من كربون بالاوكسيجين، ويتجمع المعدن النقي كتلة شبيهة بالاسفنج ، تطرق لتنقى من الخبث ، وتصفح بين الاساطين . وقد اكتشفت هذه الطريقة دون ان يعلم المكتشفان أن حديد الصب يحوي الكربون المطلوب ابعاده . فكان أن الخبرة سبقت النظرية .

في السنة ١٧٥٠ ، اكتشف « هنتسمن » الفولاذ المائع باذابة الحديـد في بوتقة من الخزف العادم الذوبـان مع نزر يسير من الفحم والزجاج المسحوق بمثابة كاشف كيميائي . ومنذ السنة ١٧٧٠ انتج فولاذاً لا نظير له اتاحت عملية تحويل الحديـد المصبوب الى حديد انتاجه بكميات كبرى .

الآلة البخارية

استلزمت آلة « نيو كومن » الجوية محروقات لا تتناسب كلفتها والنتائج المحققة. حين يرفع البخار المكبس ، يدخل بعض الماء البارد في وعاء المضخة : فيخثر البخار ويحدث فراغ تحت المكبس الذي ينزل ثانية بفعل الضغط الجوي . ولكن الماء المدخل في وعاء المضخة المرتفع الحرارة يسخن بدوره ؛ ويتحول جزء منه الى بخار . لذلك لم يكن الفراغ كاملا . فيقاوم هذا البخار نزول المكبس نزولا كاملا ، ويضيع بعض القوة . أضف الى ذلك ان

وعاء المضخة كان يبرد بالماء المدخل اليه وبعودة الهواء الداخلي حين ينزل المكبس . فحين يوجه البخار ثانية لرفع المكبس ، يفقد هذا البخار ، الذي يدخل الى اسطوانة باردة ، بعض قوتـــه الامتدادية ، فيقتضي تسخين وعاء المضخة اولا وتوجيه كمية من البخار توازي اضعاف ما يتطلبه رفع المكبس طبيعياً .

تسلح « وات » بنظريات « بلاك » فـاخترع ، في السنة ١٧٦٥ ، المخار المنعزل . وضع الى جانب وعاء المضخة حيث يتحرك المكبس اسطوانة تحـافظ على حرارة منخفضة بفعل جريان ماء بارد وتتصل بوعاء المضخة بانبوب مزود بصمام . يفتح صمام وعاء المضخة المــليء بالبخار . فيندفع هذا الاخير ، بفعل قابليته الكبرى للامتداد ، في الاسطوانة البـاردة ، ويحدث التخثر فراغاً يجتذب اليه كل البخار . ويكون التخثر كلياً دون ان يبرّد وعـاء المضخة الا بالهواء الذي يدخــل حين ينزل المكبس . في السنة ١٧٦٩ استحصل على شهادة اختراع لآلته ذات المفعول الواحد : اسطوانة مقفلة مزودة في اعلاها بنافذة صغرى يتحرك فيها جـــذع المكبس . يصل البخار الى وجه المكبس العلوي ، ويدفعه نزولا ، اذ ان البخار السفلي قـد وجه نحو المخثر . ثم تستخدم الاصمة بحيث يصل البخار الى وجهي المكبس اللذين يخضعان حينذاك لقوى متساوية : فيرتفع المكبس من ثم بفعل الضغط الموازن . ويحـد من ضياع الحرارة غلاف خشبي يحـاط به وعاء المضخة . فأنقصت « المضخة النارية » الجديدة استهلاك المحروقـات بنسبة ٣ الى ٤ . وكان الصناعي « بولتون » ، صانع آلات « وات » ، « يعطي » الآلات ويستعيد آلات « نيوكومن» ولا يطالب الا بثلث المبلغ الذي يوفر سنوياً من ثمن المحروقات . ففي « شايزووتر » ، دفـــع الملاكون سنوياً لبولتون ووات ، مقابل ثلاث مضخات نارية ، ٦٠٠٠٠ فرنك ذهباً ، ولكنهم دفعوا هذا المبلغ كاسفي الوجه في حين انهم كانوا يربحون بدورهم ١٢٠٠٠٠ فرنك .

إن الآلة ذات المفعول الواحــد لم توفر القوة الا اثناء نزول المكبس . فكانت القوة متقطعة . وان الآلة ، الموافقــة جداً لتحريك المضخات ، كانت أقل موافقة لعمل المصانع المتساوي والدائم . أدرك وات ذلك وابتكر محركاً شاملاً هو « آلته ذات المفعول المزدوج » . جعـــل البخار يؤثر بالتناوب في وجهي المكبس وأحدث بذلك حركة ذهابية وإيابية متساوية القوة ابداً . وبالاضافة الى ذلك حول حركة المكبس المستقيمة الى حركة دائرية بواسطة ذراع الدافعة ومقبض الادارة (١٧٨٤) . فأمكن منذئذ استخدام قوة البخار في الآلات على انواعهــا : انوال غزل القطن ونسجه ، الاكيار ، آلات تصفيح المعادن ، المطارق ، مطـــاحن الحبوب والمُنَشِّة ، والصوان ، وقصب السكر . لقد دخل تاريخ العالم عهداً جديداً .

التعاون المتبادل بين الصناعات

تعاونت كل هذه الاختراعات تعاوناً متبادلا . فقد اقتضى اسطوانات هندسية الإطار ومكابس محكمة الالتصاق دونما احتكاك ودواليب متشابكة بمثل دقة تشابك دواليب الساعة ، لآلات التصفيح ، ومخارط المعادن ، والمطــــارق البخارية ، والمثاقب ، والانوال . وحل الحديد أكثر فأكثر محـل الخشب لأنه أشد صلابة ويتيح

مزيداً من الدقة . فلا اختراع آلات حيث لا حديد . وأتاحت تحسينات صناعة المعادن الحصول على الكميات الكبرى والاصناف الجيدة . فقد وفرت الآلة البخارية اكبر قوة وأسهلهـا استعمالا دونما خسارة واعظمها مرونة وأسلسها انقياداً . بيد أن الآلة البخـارية لم يعم استخدامها إلا في السنة ١٨٠٢ ، مع أن الآلات الغازلة البخارية الاولى ترتقي الى السنة ١٧٨٥ . وأوجدت انوال الصناعات النسجية والمعدنية وآلاتها ، بدورها ، اسواقاً للحديد وللآلات وات .

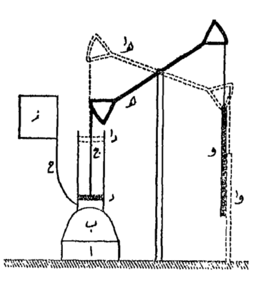
التجمعات الصناعية

لقد حدث تجمع اول قبل اختراع الآلات والبخار . فقد وجد بعض التجار الصناعيين موافقاً أن يجمعوا في الأبنية نفسها عمـالاً يسهمون في انتاج الصنف نفسه رغبة منهم في أن يحسنوا مراقبتهم ويكفوا انفسهم مؤونة نقل المادة من عامل الى عامل في مراحل الصناعة المختلفة . ثم قامت مصانع جديدة . ولكن اختراع الآلات اوجب بعض التجمع . فان اجهزة « اركرايت » كانت باهظة الثمن وتستلزم مكانـاً واسعاً ، كما ان اجزاءها كانت مترابطة في العمـــل : آلة الحلج الأولى ، آلة الحلج الثانية ، آلة الغزل ، القوة الحركة المركزية . استخدم الصناعيون من ثم مكاناً واحـداً وعمالاً يتقيدون بالنظام . وأصبحت مصانع الغزل أبنية قرميدية تألفت من أربع أو خمس طبقـــات وضمت بين ١٥٠ و ٦٠٠ عامل . وتألف مصنع بولتون ، منذ السنة ١٧٦٥ ، من خمسة ابنية ، وضم ٦٠٠ عامل ، وسير آلاته كلها دولاب محرك قوي . فكان أرباب هـــذه المعامل صناعيين حقاً . وفي صناعة المعادن ، منذ أن استخدم الفحم الحجري المقطر ، لم تتحدد ضخامة المشروع باتساع الاحراج . فقد جاز أن يضم كل مشروع عدة مصاهر ومعامل . لا بل شاهد الناس ظهور التجمع العمودي: ففي السنة ١٧٨٧ ، كان « ولكنسون» يمتلك مناجم حديد ، ومناجم فحم معدني ، ومصاهر ، وأرصفة في التايمز .

ورافق التجمع الداخلي تجمع جغرافي . فلمـا كانت شلالات الماء ضرورية لتحريك الآلات تجمعت الصناعة في البدء في المناطق الرطبة وذات الكسور ، بعد ان كانت متشتتة هنا وهناك : في انكلترا ، على منحدرات جبال بنين الثلاثة ؛ القطن في جنوبي كولتية لانكستر (منشستر) بنوع خاص ، وشمالي كونتية دربي (دربي) ، منذ السنة ١٧٧٥؛والصوف في مقاطعة يوركشاير، في ليدس وبرادفورد ؛ وفي اسكتلندا ، في وادي « كلايد » . ثم حـين عم استخدام البخار ، بعد السنة ١٧٨٥ ، تبدل تجمع الصناعات بعض الشيء . فـــان المناطق الشمالية ، التي كانت مناطق استخراج الفحم الكبرى ايضاً ، بقيت مناطق صناعية ، ولكن نظراً الى ان طـرق المواصلات المائية الكثيرة اتاحت نقل الفحم الحجري بسهولة ، قامت المعامل اما على مقربـــة من اسواق الخامات واما على مقربة من اسواق بيع المصنوعات ، وأما على مقربة من المراكز السكنية التي توفر العمال . فبرز من ثم تخصص المناطق .

وربط التجمع المالي بين المشاريع ، فكان ذلك ارتساماً « لتجمع أفقي » احياناً . فقـد

امتلك اركرايت بين ثمانية وعشرة معامل مثّل كل منها رأسمال يقدر بعدّة آلاف من الجنيهات السترلينية . ولكن لدينا كذلك امثلة تجمع جماعي ، هي الشركات ، التي غالباً ما اقتصرت ، من جهة ثانية ، على تشارك اشخاص معدودين .



رسم اجمالي لآلة نيوكومن

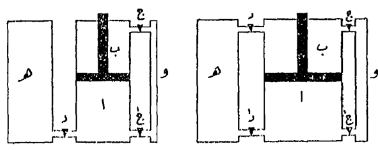
ا - الموقد ؛ ب - مسخن البخار ؛ ج - وعاء المضخة ؛ د ؛ دا - المكبس ؛
هـ ، هـا - الرقاص ؛ و ، وا - ثقل موازن متصل بمضخة ؛ ز - خزان ماء بارد ؛ ح - انبوب .

تحسن النوعيات وتزايد الكميات

ان اختراع الآلات والطرائق التقنية الأخرى اعطت المملكة المتحدة تفوقاً عظيماً على الأمم الأخرى في أواخر القرن الثامن عشر . فقد زادت الكميات المصنوعة اولاً . في السنة ١٧٨٠ صدرت المملكة المتحدة أقمشة قطنية بما قيمته ٣٦٠٠٠٠ جنيه سترليني ؛ وفي السنة ١٧٩٢ صدرت بما قيمته مليونان . في السنة ١٧١٧ ، انتج آل داربي بين ٥٠٠ و ٦٠٠ طن من الحديد المصبوب سنوياً ، بينما انتجوا بين ١٣٠٠٠ و ١٤٠٠٠ طن في السنة ١٧٩٠ . ثم حسنت الكمية والقيمة التجارية . فقد أتاحت آلة « هايز » الغازلة انتاج الأنسجة القطنية . وأتاحت آلة كرومبتون انتاج أنسجة موصلية أخف وزناً من تلك التي كان ينتجها الهنود ؛ فارتفعت قيمة المادة الخام بنسبة ٥٠٠٠٪ اثناء مراحل الصناعة . ومنذ السنة ١٧٨٣ ، توصّل الانكليز الى توشية الأقمشة بواسطة اسطوانات نحاسية . وفي السنة ١٧٨٦ طبق « تايلور » سر « الاحمر التركي » وانتج اقمشة « ادرنيّة » ما لبثت ان اكتسبت شهرة الأقمشة الهندية . وأعطت عملية تحويل الحديد المصبوب الى حديد قضباناً حديدية أفضل من افضل حديد سويدي أو روسي . وكثر الطلب على الفولاذ الذائب الذي انتجه هنتسمن ، في كافة انحاء اوروبا . واخيراً تدنت الأسعار : فقد قامت الاسطوانة النحاسية بعمل ١٠٠ عامل ؛ وكانت المطرقة البخارية تضرب ١٥٠ ضربة في الدقيقة .

المآتي

ان التحقيقات الانكليزية اذهلت الأجانب . فـــان ولكنسون ، « ابا صناعة الحديد » ، قد بنى في السنة ١٧٧٩ ، فوق الـ « سفرن» ، اول جسر من الحديد المصبوب قوامه حنية واحدة . وسيتوفق في السنة ١٧٩٧ الى ان يبني في سندرلند ، فوق الـ « وير » ، جسراً من الحديد المصبوب تمر تحته سفينة بحرية بكل صواريها . ودون ان يتوقف عند الاتهامات الموجهة اليـه بتحدي المعقول العام ، انزل الى البحر في السنة ١٧٨٧ اول سفينة حديدية . وفي السنة ١٧٨٨ سلم مصلحة مياه مدينة باريس ٦٤ كيلو متراً من الأنابيب المصنوعة من الحديد المصبوب .



رسم الجاري لآلتي وات
ا ـ وعاء المضخة ؛ ب ـ مكبس ؛ ج ، ج ا صمامات لدخول البخار ؛ د ، دا صمامات لخروج البخار ؛ هـ ـ مخار ؛ و ـ انبوب يتصل بسخن البخار

الصراع الطبقي

منذ ذاك الحين برزت نتائج الصناعة الكبرى المألوفة لدينا ؛ أزمـــات تخمة الانتاج ، مع ما رافقها من ارتفـــاع مفاجيء في أسعار المصنوعات وانهيار مالي في السنة ١٧٩٣ ؛ وارتفاع عـــدد السكان ونمو المدن ؛ وقيام طبقة من الرأسماليين الصناعيين لا حلم لها ، من جهة ثانية، الا ان تنصهر في طبقة النبلاء ؛ توسع طبقة من عمـــال المصانع الذين لا يمتلكون ايـة وسيلة من وسائل الانتاج وليس لهم سوى سواعدهم وأولادهم ، اي طبقة من الكادحين . لقد ارتفعت اجور بعضهم الحقيقية ، وتحسن الغذاء والصحة ، وطال امد الحياة مع الانتاج . ولكن الكثيرين من عمال الصناعة ، كعمال المصانع المتدربين ،وصانعي المسامير ، والحاكة ، ما زالوا يتقاضون اجراً ضئيلا ويتغذون تغذية سيئة ويقيمون في مساكن حقيرة ، فتفتك بهم حمى المصانع وداء السل ؛ منـذ السنة ١٧٨٥ ، تجمع هؤلاء العمال وقاموا باضرابات وباعمال عنف استهدفت الآلات والأشخاص وطالبوا البرلمان بتشريع يحميهم : فكان ذلك منطلق الصراع الطبقي .

استمرار الصناعة المنزلية

على الرغم من هـــذه التطورات ، بقيت الصناعة الصغرى اوسع الصناعات انتشاراً . فان آلة هارغريفز الغازلة ، التي يصلح استخدامها في المنزل، قد انتشرت في كل مكان بين السنة ١٧٧٥ والسنة ١٧٨٥ ، وارتفع من ثم عدد المنتجين الفرديين.وقد استمروا في عملهم هذا ، حتى بعد استخدام

النول الآلي ، مرتضين بتخفيضـــات كبرى على أجورهم ، وبالبؤس . وفي صناعة الصوف ، وصناعة الآلات المعدنية ، وصناعة السكاكين ، دافع الصناعيون اليدويون عن انفسهم دفاعاً طويلا . ففي أوائل القرن التاسع عشر ، ما زال مجموع انتاجهم يفوق مجموع انتاج المصانع .

الصناعة الكيميائية

ان القماش الذي ينتجه النول يحتاج الى تنظيف وتخضيب قبل تسليمه الى التجارة . والتبييض ضروري جداً لتقصير القماش ، لأن من شأن الشحم أن يلعب دور مثبت الألوان ، اي أن من شأنه أن يؤلف مع الصبــاغ مركبات كيمائية قد تلوّن القماش ، حيث يوجد الشحم ، بألوان داكنـة أو أكثر لمعاناً . فأيخضع القماش من ثم الى عملية اولى هي اغلاؤه في الماء مع رماد الحطب ، الغني بالاشنان ، ينشر بعدها طيلة ايام فوق العشب ، ثم ينقع في مصالة حامضة ، ثم تنتهي عملية التبييض بغسله بالصابون . الا ان هذه العمليات أثارت مشاكل خطيرة : الافتقـار الى خشب الوقود ، حرمان الزراعة من مساحات كبرى ، تربيـــة مواش كثيرة للحصول على المصالة فقط ، الافتقار الى الصابون . فقامت العقبات في طريق صناعة النسيج .

مست الحاجة الى الحامض الكبريتي والاشنان . اجل لقد انتج الحـامض الكبريتي وعرف الناس كيف يعالجون الاملاح بهذا الحامض لانتاج الاشنان. ولكن المشكلة كانت في انتاج كميات كبرى باسعار منخفضة . استخرج الملح بوفرة من ماء البحر بواسطة التبخير. اما بصدد الحامض الكبريتي فقد احرز نجاح اول بفعل حاجات الصناعات المختلفة : القبعات ، الجلود ، الازرار ، القصدير ، النحاس . وبدلا من أن يحصل على الحـامض باكسدة كبريتور الحديد اكسدة جوية بطيئة ، أحرق الفرنسي « لفيفر » الكبريت وعالجه بملح البارود فحصل من ثم ، في مدى زمني أقصر ، على حامض كبريتي أقل كلفة . وقد أدخل هـــذه الطريقة الى انكلترا الانكليزي « يشوع وورد » منذ السنة ١٧٣٦ . ولكن كميات الحامض الكبريتي المنتج مـا زالت ضئيلة ومرتفعة الاثمان .

إن الحامض الكبريتي الغير المجرد من مائه تماماً لا يفعل في الرصاص . فاستعاض « روبوك » و « جربت » عن الزجاج بالرصاص في معالجة الحامض ونقله . وهكـذا استطاعوا زيادة حجم سفن أكثر متانة ، وتخفيض سعر النقل، وانتاج كميات كبرى ، والبيع باسعار متدنية، وتصدير الحامض ، منذ السنة ١٧٥٠ ، الى كافة انحاء اوروبا الشمالية الغربية . فأخذ الحامض الكبريتي يحل محل المصالة في عملية التبييض . وقد اعطى في خمس ساعات نتيجة لا تعطيهـــا المصالة إلا في خمسة ايام .

في السنة ١٧٨٤ خطر للكيميـــائي الفرنسي « برتوليه » أن يستخدم في التبييض خصائص إزالة الألوان التي ينطوي عليها الكلور . ونزولا عند رأيه طبق « جايمس وات » هذه الطريقة، في السنة ١٧٨٨ ، في تبييض انتاج مصنع حميه . ثم ما لبث اختراع ماء « جافيل »، وهو كلور

مضاف الى محلول اشنان ، ان زاد بصورة غريبة سرعة التبييض .

كان « كير » و « كوليسون » قد حلا ، كل من جهته ، منذ السنة ١٧٦٩ ، مسألة الانتقال من الملح الى الاشنان . فاستطاع « موسبرات » ، بفضل تجاربها، أن يؤسس ، في السنة ١٨٢٣، معمله الشهير الذي يعتبر منطلق صناعة الاشنان الكبرى في بريطانيا العظمى . وهكذا حلت نهائياً مسألة التبييض ، فازدهرت صناعة النسيج .

اتجهت الرغبة العامة الى الاقمشة الزاهية . ولكن كل الصباغات المعروفة لم تكن لتفي بالمطلوب بسبب عدم ثباتها . ففي الألوان الزرقاء مثلاً لم يصبغ النيلج والعظلم القماش بكليته بل كانا يلونان وجه القماش فقط ويزولان بالاستعمال . اكتشف الصبّاغ البرليني في السنة ١٧٠٤ « الازرق البروسي » ونشر صيغته في السنة ١٧٢٤ . فجعلها الكيميائي « ماكر » صناعية في السنة ١٧٥٠ . وهكذا تحقق لون ازرق « يضاهي بشفوفه ولمعانه شفوف ولمعان اجمل ياقوت ازرق » ، ويصبغ القماش في جميع اجزائه ، ويحافظ على زهوه . وحصل « جورج غوردن » في السنة ١٧٥٨ على احمر بنفسجي جميل جداً بنقع اشنة الصباغين في محلول النشادر . وأنقذ الفرنسيان « بوريل » و «بابيون» تجارة الاقمشة الانكليزية في افريقيا باهتدائها، في السنة ١٧٨٦ ، الى « الاحمر التركي » ، وهو احمر زاه ، باستخدام الفوة .

وقد تمت كل هذه الاكتشافات بالتلمس وبدون معارف كيميائية تقريباً .

الزراعة الصناعية

جُدّدت الزراعة قبل الصناعة نفسها . تنازعت الحظوة لدى الانكليز طريقتان : طريقة « نورفولك » التي اعتمدت منذ أواخر القرن السابع عشر، وطريقة « جترو تول » . اعلن هذا الأخير ، في كتاب نشر في السنة ١٧٣١ ، ان الأسمدة نافلة ، لا بل مضرة ، اي انها سموم . وفي رأيه أن النباتات تتغذى باشياء صغرى ملتصقة بمساحة تجاويف التربة الداخلية . فيجب من ثم ، تسهيلا لتغذية النباتات ، تقسيم الارض جهد المستطاع حتى تتمكن الجذور من اختراق التراب بسهولة . اذن يجب الاكثار من الحراثة ، وقدابتكر « تول » طرائق عدة للحراثة حتى اثناء طلوع الحنطة . وهكذا تصبح الاسمدة والدورات الزراعية غير ذات جدوى . اما اشياع طريقة « نورفولك » ، الذين اكثروا من الحراثة ايضاً، فقد استخدموا الأسمدة ، السجيل والكلس ، استخداماً واسعاً ، كما استخدموا بصورة منتظمة الزراعات الدورية ، ونباتات الكلأ ، كالحندقوقة والايدوصرن والفصفصة واللفت والسلجم . ثم اثبتت اختبارات « هوم » و « دوكسون » ان تول كان على خطأ ، فكانت الغلبة لطريقة نورفولك التي اتاحت توفير كميات كبرى من الغذاء الضروري لسكان متزايدين عدداً وتخفيض نسبة الوفيات ، وسهلت التصنيع .

في سبيل تطبيق التقنيات الجديدة، عزل كبار الملاكين مزارعيهم وضموا اراضيهم وصونوها بمساعدة البرلمان الذي كان تحت سيطرتهم . ولكنهم لم يفعلوا ذلك بداعي التقنية بل بغية

الاستثمار بمكاسب الطريقة الجديدة. وقد ناسبت طريقة نورفولك كل المناسبة «الارض المكشوفة» والزراعة الجماعية ، بتصوين المراعي ، وقد أقدمت على ذلك قرى كثيرة .

في البر الاوروبي

كانت النجاحات في البر الاوروبي اكثر بطئاً ، ويرد ذلك بصورة عامة الى عدم توفر رؤوس الاموال التي لم يكن ما يوفرها سوى التجارة البحرية الكبرى . اجل توفر المال لهولندا ، ولكن صناعتها مالت الى التأخر ، ربما بسبب عدم توفر الخامات في ارضها ، وفي اعقاب القيود التي فرضتها الدول الاخرى ، الساعية وراء التصنيع ، على خروج الخامات من أراضيها . وظف الهولنديون أموالهم في انكلترا وفرنسا والدول الالمانية المختلفة واسهموا في تصنيع هذه البلدان . وخارج انكلترا والاقاليم المتحدة ، نمت الصناعة بفضل تدخل الدولة الذي أملته دوافع عسكرية: التحرر من الأجنبي ، انتاج الأقمشة للملابس العسكرية ، والاسلحة ، والبارود ، والتصدير لأجل تأمين النقد الضروري للسياسة الكبرى ولاضعاف العدو بالمنافسة . وقد تدخلت الدولة بالاكتتابات ، والمكافآت ، والاحتكارات ، والتعريفات الجمركية ، والمشاريع الرسمية، ولكن ببعض الصعوبة ، لتوسيع صناعة صنعية ، لا أسواق لها ، تدفع ثمناً لنموها سلسلة من الافلاسات وعوداً على بدء .

في فرنسا

كانت فرنسا قد اجتازت هذه المرحلة آنذاك ، وكانت صناعتها قد اتسمت منذ ذاك الحين ببعض التلقائية . كان للبلاد تجارة بحرية و استعمارية كبرى ورؤوس اموال كثيرة ، ولكن دون القوتين البحريتين درجة ، وكانت تقنيتها المالية دون تقنيتها تقدماً . يضاف الى ذلك ، من جهة أخرى ، ان الدولة قد استنزفت ، بسبب سوء تنظيم ماليتها ، قسماً كبيراً من رؤوس الأموال المتوفرة . لذلك لم تتمكن الصناعة الفرنسية من الاستغناء عن إسهام الدولة المباشر ، فكانت النجاحات ابطأ منها في انكلترا . كما في انكلترا ، احتلت الصناعة المنزلية المركز الأول . وتزايد التجمع التجاري في مراكز معينة تزايداً مطرداً . ففي صناعة الجوارب في ليون مثلاً ، استخدم ٤٨ تاجراً ٨١٩ عاملاً اختصاصياً . واذا كان لآل « فان روبيه » ، في « ابفيل » ، ١٨٠٠ عامل ، موزعين على عدة معامل على كل حال ، فان حوالي عشرة آلاف عامل قد اشتغلوا لأجلهم كل في منزله . وكانت « المصانع الملكية » الاثنا عشر تنجز الأعمال التحضيرية (الجز واعادة الحياكة) بواسطة العمال الموزعين على المعامل، ولكن الغزل ومعظم الحياكة كانا ينجزان بواسطة عمال الجوار وفي منازلهم .

ونشاهد من جهة ثانية تجمعاً في المصنع ، قبل استخدام الآلات، في الصناعات التي استلزمت اجهزة معقدة التركيب وباهظة الاثمان ، وانماطاً كثيرة مختلفة للصنف الواحد . في « رمس » تجمع أكثر من نصف انوال الصوف . وفي « لوفييه » ، جمع ١٥ متعهداً ألوف العمال . اما في صناعة القطن ، فللأقمشة الهندية ، التي تستلزم أرضاً واسعة للتبييض وأبنية فسيحة للمعامل وغرفاً كبرى للتنشيف وأدوات كثيرة ومخزونات هامة من الأقمشة والمواد الملوّنة وتوزيع

عمل بين العمال المشتغلين تحت سقف واحـد ، كان هنالك ، حوالي السنة ١٧٨٩ ، مائة صناعي ينتجون ١٢ مليون لبرة من الأقمشة المصبوغة . وكانت هنالك شركات مساهمة عدة على جانب كبير من الثروة . فقد أسس « اوبركامف » ، في السنة ١٧٨٩ ،شركة يناهز رأسمالها الاجتماعي ٩ ملايين . واما في المناجم فمنذ السنة ١٧٤٤ احتفظت الدولة لنفسها بمـا تحت سطح الارض وأعطت امتياز استثماره لشركات كبرى . فكان لدى شركة « انزين » ، الـتي تأسست في السنة ١٧٥٦ ، أربعة آلاف عامل قبـــل السنة ١٧٨٩ . وتأسست شركات أخرى في « آليه » ، و« كارمو » ، وفي أمكنـة اخرى ايضاً . فكان ان الاستثمار ، الذي تم حتى ذاك التاريخ ، في حفائر صغيرة كثيرة قليلة العمق ، على ايدي ملاكين هم غالبـــاً من الفلاحين ، قد تحسن تحسناً سريعاً. لقد حلـّت الاستثمارات محل التنقيبات الاتفاقية . وعوضاً عن النزول بواسطة دركات مفروضة في جدران الآبار استخدم عمال المناجم السلالم الحديدية ، كما استخدموا في « انزين » ، بعد السنة ١٧٦٠ ، سلات يجرها ملفـاف تديره الجياد . وتأمنت تهوية الأروقة بآبار خاصة . ولمكافحة المياه بنيت جدران الاروقة بالقرميد في « انزين » ، وأحدثت خزانات ، واستعيض عن المضخات اليدوية الصغيرة التي يحركها عامل واحد بمضخات كبرى يحركها عمال وأحصنة . فبلغ عمق الآبار قرابة ٣٠٠ متر بعد ان كان لا يتجاوز الخمسين متراً ؛ لا بل بلغ عمق احـــدى الآبار ١٢٠٠ متر . وقـــد انتجت شركة انزين ، في السنة ١٧٨٩ ، ٣٧٥٠٠٠ طن من الفحم الحجري .

وأخيراً استخدمت الآلات. فمنذ السنة ١٧٣٢ استخدمت آلة نيوكومن في المناجم احياناً . وفي حقل غزل الحرير ميكانيكياً أتاحت اكتشافات « فوكنسون » قيـام مؤسسات كبرى . ففي « اوبنا » جمع فوكنسون ١٢٠ قدراً لحل الغزل في بناء واحد . اما الغزل فقد بقي صناعة منزلية وريفية . وفي صناعة القطن استحضر الفرنسيون عمـالاً وآلات من انكلترا . وفي السنة ١٧٨٩ كانت هنالك معامـــل في « بريف » و « اميان » و « اورليان » و « مونتارجيس » و « لوفييه » . وظهر الحديد المصبوب بالفحم المعدني المقطر ، فأفضى الى تأسيس مصانع كبرى كمصنع الـ « كروزو » مثلاً . وغدت آلة وات البخارية الاولى مضخة « شايو » النارية ، المعدة لرفع الميـــاه لباريس ، في السنة ١٧٧٩ . ولكن استعمال الآلة لم ينتشر بسرعة . ففي السنة ١٧٨٩ لم يكن عـدد المضخات النارية مرتفعاً في فرنسا . وان اقتناء شركة انزين لاثنتي عشرة مضخة منها كان مثاراً للدهشة . ولن يعم استعمال الآلات الا في عهد الامبراطورية .

في البلدان الاخرى

على الرغم من جهود الأمراء كانت النجاحات التقنيـة في دول أوروبا الأخرى ابطأ منها في فرنسا ايضاً . كانت هـذه الدول ، مع حفظ النسبة ، في الوضع الذي وجدت فيه فرنسا في عهد كولبير . مست الحاجة في أوروبا الوسطى والشرقية الى رؤوس الأموال لأن الدول لم تسهم اسهاما يذكر في التجارة العالمية ولأنها افتقرت

الى المستعمرات . لذلك نجد في كل مكان ، في « بافاريا » و « ورتمبرغ » و « هس » والنمسا وبروسيا وروسيا، مميزات مشتركة مختلفة الدرجات. الدولة تتدخل في كل مكان . الأمير يحدث المشاريع، ويتخلى عنها للافراد ، او يفرض تأسيسها على النبلاء ، والأديرة ، والمدن ، والتجار، واليهود. تستفيد هذه المشاريع من مساعدات مالية، واعفاءات من الضرائب والرسوم، واحتكارات، كما تستفيد في أغلب الأحيان من مدربين أجانب ويد عاملة مسخرة (متسولين ، متشردين ، بنات داعرات ، ايتام ، جنود) . تنظيم العمل مماثل له في المصانع : معمل مركزي يستكمل فيه العمل ، ولكن معظم العمليات ينجزها في منازلهم اجــراء قد يحصون بالالوف . ففي « فريدو » من اعمال بوهيميا ، ضم مصنع « جوهان فريس » للنسيج ٥٥ عامــلا في مشاغله ووزع عملاً على ٢٠٠٠ آخرين في منازلهم . وباع مصنع برلين ، « كونيغليشس لاجرهوس » ، في السنة ١٧٤٠ ، اجواخاً من الصنف الممتـاز انتجها لحسابه ١٤٠٠ عامل في منازلهم . ووزع « سولنجن » المادة الخام على عمال يعملون في منازلهم ويسلمونه السكاكين بأسعار محددة . وفي روسيا استخدمت مصانع الاجواخ والحرير خمس عمالها في مشاغلهـا بينما عمل الباقون لحسابها في منازلهم . في السنة ١٧٨٠ ، وفي مصنع « ميدينغ » لاشرعة المراكب ، تجاوز عدد العمال العاملين في منازلهم ، الى حد بعيد ، عدد عمال المشاغل . ويصح هذا القول في مصانع الخرمات والساعات والزجاجيات والمرايا . المصانع المجموعة كلياً نادرة جداً ، وليس لدينا أمثلة عنها الا في صناعة الاواني الصينية ، والتبغ ، والأثاث الفاخر، وتحضير الجمـــة ، والتقطير ، ونشر الاخشاب ، او حين يتوجب استخدام يد عاملة مجموعة بحكم الهدف ، كجنود افواج حاميـــة برسلو الحسة الذين كانوا يغزلون القطن في ثكناتهم في أوقـــات فراغهم ، أو يد عاملة مجموعة بحكم واجب المراقبة ، كمساجين « سباندو » (غزل الحرير والصوف) وأيتام « بوتسدام » (الخرمات البرابانية) ونزلاء « ارفورت » ، وغيرهم ايضاً . اما الآلات فكان استعمالها اكثر تأخراً واكثر بطئاً ايضاً : فان آلة وات الاولى ظهرت في ألمانيا في السنة ١٧٨٥ . ان القرن الثامن عشر الذي ابتكر الآلات المختلفة وأنتجها بكثرة ، قد انصرف كذلك الى تحقيق اختراعات معدة لمستقبل باهر : مانعـــة الصواعق ، السيارة والقطار الحديدي ، المركب البخاري ، التلغراف والهاتف ، الملاحة الجوية .

مانعة الصواعق

مانعة الصواعق نتيجة ابحاث فرانكلن الذي اوقف المانعة الاولى فوق بيته في شهر ايلول من السنة ١٧٥٢ . منذ السنة ١٧٥٤ انتشر استعمالهـــا . ففي السنة ١٧٨٢ ، كان منها ٤٠٠ في فيلادلفيا . في السنة ١٧٦٢ انتصبت أول مـانعة للصواعق في لندن . انتقلت بعد ذلك الى البر الاوروبي ، الى ايطاليا منذ السنة ١٧٧٦ ، والى جنوبي فرنسا ثم الى باريس في السنة ١٧٨٢ . اعترض بعض اللاهوتيين على استعمالها : الرعد والبروق دلائـــل الغضب الآلهي ؛ فمن الكفر مقاومة طاقتها التدميرية . أجـاب لاهوتيون آخرون والفلاسفة أن على البشر اتقاء الصاعقة ، كما عليهم اتقاء المطر والثلج والريـــح ، بالوسائل التي وضعها الله بين

ايديهم . وغالباً ما أثارت هذه الآلة الخوف في قلوب الجماهير . في السنة ١٧٨٣ ، أوقف أحد اشراف « سانتومير » الريفيين فوق بيته مانعة للصواعق تلتهي بحربة تتحدى السماء . هاجت الجماهير . اصدرت البلدية اليه امراً بانزال المانعة . تقدم بدعوى الى محكمة « آراس » التي ابطلت القرار البلدي تحت تأثير مرافعة محام شاب ، سيعرف الشهرة فيما بعد ، هو « مكسيميليان دي روبسبيير » . ثم فرضت مانعة الصواعق نفسها بخدماتها الباهرة . فان الابنية التي كثيراً ما تعرضت للصواعق ، ككنيسة القديس مرقس في البندقية وكاتدرائية سينّا ، لم تصب يوماً بأذى الصواعق منذ تزويدها بمانعات الصواعق . وعرفت السفن مزيداً من الأمان : فان سفينة كوك قد بقيت سليمة ، بفضل مانعة الصواعق المرفوعة فوقها ، الى جانب سفينة هولندية اصيبت بالصاعقة .

السيارة والقطار الحديدي

حاول المهندس الفرنسي ، « جوزف كونيو » ، استخدام طاقة البخار لتحريك المدفعية . بنى عجلة بخارية لنقل الاثقال ، وعرضها على محك امتحان غريبوفال ، وأمر الوزير « شوازول » بتجربتها تكراراً في السنتين ١٧٦٩ و ١٧٧٠ . في هذه السنة الأخيرة ، جربت آلة كونيو ، وهي السيارة الاولى ، في « دار الصناعة » ، فجرت مدفعاً ثقيلاً من عيار ٤٨ ، مع سنده الثقيل ، مسافة ٥ كيلومترات في ساعة واحدة. تسلقت اشد المرتفعات وعورة وتخطت بسهولة خشونات الارض. ولكن حركاتها كانت من العنف بحيث صعبت ادارتها فجمحت باتجاه جدار وهدمته . ومن حيث هي آلة يلعب فيها التخثير دوراً أولياً ، احتاجت الى كمية كبرى من الماء ، ولم يهتد كونيو الى أية طريقة إحكامية لآلته استعاضة عن الماء . كان توقيفها ضرورياً كل ربع ساعة. فلم يكن استعمالها عملياً. في السنة ١٧٨٦ ، تقدم الاميركي « اولفر ايفانس » من مجلس ولاية بنسلفانيا بطلب امتياز لسيارة بخارية تتحرك بآلة ذات ضغط عال لا تحتاج الى كمية كبرى من الماء . ولكنه لم يحصل على امتيازه الا في السنة ١٧٩٧ ، وفي النهاية كان الفشل حليفة. إلا أن الانكليز استخدموا في مناجم الفحم المعدني خطوطاً حديدية لتسهيل جرّ عجلات نقل الفحم بواسطة الاحصنة ، وهو استخدام هذه الخطوط التي أضعفت تأثير الاحتكاك ، واستخدام الآلة ذات الضغط العالي ، التي جهلها كونيو ، ما أتاح الاهتداء إلى حل بواسطة القاطرة والخط الحديدي .

الهاتف

وجرت تجربة جهاز هاتفي . في أول حزيران من السنة ١٧٨٢ ، اوضح « دون غوتاي » ، أحد رهبان دير « سيتو » ، أمام اكاديمية العلوم ، وسيلة تتيح الاتصال بالاماكن البعيدة : وهي أن تقام ، بين مراكز متعاقبة ، أنابيب معدنية يسري فيها الصوت دون أن يفقد قوته فقداناً محسوساً . وكان يعتقد أن باستطاعته أن ينقل امراً ، خلال ساعة ، الى مسافة ٢٠٠ فرسخ. التمس المركيز « دي كوندورسيه » اجراء اختبار فأذن الملك لويس السادس عشر بذلك . استخدمت في الاختبار الانابيب التي تنقل السائل الى مضخة « شايو » على مسافة

٨٠٠ متر ، فجاء النجاح كاملاً . التمس « غوتاي » حينذاك امتحاناً يتناول ١٥٠ فرسخـــاً : ولكن الادارة الملكية اعتبرته باهظ الاكلاف . حاول غوتاي فتح اكتتاب في باريس ، ثم في فيلادلفيا ، ولكن النتائج لم تكن مشجعة .

التلغراف

بذلت جهود كبرى في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر ، لا سيا تلك التي قام بها الكاهن الفرنسي « كلود شاب » ، بغية الاهتداء الى التلغراف الكهربائي. إلا أنها انتهت كلها إلى الفشل لأن الذين بذلوها لم يعرفوا سوى الكهرباء الساكنة التي تنبثق من الاحتكاك أو تنتجها الآلات الكهربائية . إن هذه الكهرباء لا توجد إلا على سطح الاجسام وتميل باستمرار إلى الابتعاد عنها ؛ فالهواء الرطب وحده كاف لأن تتلاشى . لذلك فإن ثلاثين سنة من المحاولات لم تعط أية ثمرة . عاد البحاثون الى العلائـــم التي تكون في الفضاء فترى أو تسمع الى مسافات بعيدة . فابتكر الألماني برغستراسر ، من هانو ، لغة شكلية لم تكن عملية ، اذ ان جملة مؤلفة من ٢٠ كلمة استلزمت اطلاق ٢٠٠٠٠ طلقة مدفع أو قـذف ٢٠٠٠٠ سهم ناري . وكان مقدراً لـ « كلود شاب » أن يهتدي الى الحل في عهد الثورة .

الملاحة الجوية

رأت الملاحة الجوية النور في فرنسا . ان الاخوين« اتيان وجوزف مونغولفييه»، وهما إبنان لأحد صناعيي الورق في « انوناي »اشتهر في كافة انحاء اوروبا بكمال مصنوعاته ، وقفا على المؤلف الذي وصف فيه بريستلي عدة غازات جديدة . فكرا بالارتفـاع الى الجو بأن يحصرا في غلاف خفيف الوزن غازاً أخف وزناً من الهواء : فيرتفع الجهـاز الى أن يصادف ، على علو معين ، طبقات يبقيه ثقلها النوعي في حالة توازن . قاما باختبارهما الكبير الاول في « انوناي » ، في ٤ حزيران من السنة ١٧٨٣ ، أمام مندوبي ولاية « نيفاريه » : ان المنطاد المعروف باسميهما ، والبالـغ قطره اثني عشر متراً ، والمصنوع غـلافه من نسيج مبطن بالورق ، والذي سخن هواؤه بالدرين المشتعل ، قد ارتفع حتى ٥٠٠ متر علواً .

طلبت اكاديمية العلوم إعادة الاختبار ، في ساحة مـارس ، في ٢٧ آب من السنة ١٧٨٣ . ملأ البروفسور « شارل » المنطـاد بالهيدروجين الذي يزن ١٤ مرة أقـل من الهواء ، والذي حصل عليه للمرة الاولى بكميـات كبرى بعد أن كان يحصل عليه في المختبرات فقط . أمـام ٣٠٠٠٠٠ شخص يبكون ويتمانقون ، لان أحد أقدم أحلام الانسانية كان في طريق التحقيق ، ارتفع المنطاد حتى علو ١٠٠٠ متر . ولكنه كان قد ملىء تماماً عند الانطلاق ، فتمزق وسقط على مسافة ٢٠ كيلو متراً من باريس . فذعر الفلاحون اولاً اعتقاداً منهم أن القمر قد سقط من السماء ، وانتقموا من خوفهم بتقطيع المنطاد ارباً اربا . اضطرت الادارة الملكية إلى اشعار الفلاحين رسمياً بأن ليس هناك ما يثير مخاوفهم وبأن لا يمزقوا شيئاً من الآن فصاعداً . وبعـد اختبار شرّفه الملـــك بحضوره ، في ١٩ ايلول من السنة ١٧٨٣ ، كان « بيلاتر دي روزييه » والمركيز « دارلند » الانسانين الاولين اللذين طارا في الجو ؛ حلقا فوق باريس في ١٩ تشرين

الثاني من السنة ١٧٨٣ . امـا البروفسور شارل ، الذي ابتكر « السلة » والشبكة والصمام ، فقد اصطحب روبير وبلغ معه ٤٠٠٠ متر علوا في اول كانون الاول من السنة ١٧٨٣ ، ثم نزل الى الارض على مسافة ٣٦ كيلومتراً من باريس ، مسجلاً مع رفيقه الارقـــام القياسية الأولى في المسافة والارتفاع . وانطلق « بلانشار » والدكتور « جفري » من شاطىء « دوفر » في ٧ كانون الأول من السنة ١٧٨٣ وكانا اول من اجتاز المانش عن طريق الجو . وكان « بيلاتر دي روزييه » الذي لاقى حتفه في ١٥ حزيران على اثر تمزق غلاف منطاده اول شهيد من شهداء الجو . وابتكر « بلانشار » و « غويتون دي مورفو » المنطاد المسيّر ولكن مجاذيفهما لم تصلح الا لاثبات استحالة الاكتفاء بقوة الانسان . تأسست في كل مكان من فرنسا جمعيات من الهواة ، وفي كل يوم ارتفع منطاد في الجو . استوحت أزياء القبعـــات والاوشحة والملابس والعجلات « مونغولفييه » والمنطاد « وشارل » و « وروبير » . ثم عم هذا التيار اوروبا . ففي انكلترا ، ارتفع منطاد هيدروجيني في ٢٢ شباط من السنة ١٧٨٤ . وفي ايطاليا ارتفع المنطاد الاول في ميلانو في الخامس والعشرين من الشهر نفسه والسنة عينها . منذ السنة ١٧٨٤ ، وفي رسالة مـن أكاديمية ليون ، فكر « غودين » باستخدام المناطيد في الحقل العسكري ولفت الانتباه الى ان « سوبيز » ما كان ليخسر معركة روسباخ لو كان لديه منطاد . وكان مقدراً للمنطاد ان يستخدم في الجيش الفرنسي منذ السنة ١٧٩٤ ويؤمن لفرنسا السيطرة الجوية الاولى .

اوروبا والعالم

وهكذا فإن الثورة التقنية الكبرى ، التي وفرت لاوروبا تفوقا ماديا عظيما على كافة شعوب العالم ، والتي اتاحت لها ثلب شهرة حضارات آسيا نفسها ، قبل ان يتزود العالم بهذه التقنيات ويرتد اليها ، ترد لعمري الى الروح الاوروبية البحتة ، ولكن هذه الروح غالباً ما استثارتها الحاجات التي خلقها الاتصال بشعوب ما وراء البحار ، وغالباً ما وجدت في علاقتها بهذه الشعوب وسائل عملها . وربما كان باستطاعتنا القول ان الثـــورة المالية والصناعية مظهر من مظاهر اتصال اوروبا بالعالم .

الفصل الرابع

تقنيات التحسين الانساني

١ ـ الطب والجراحة

حقق الفن الطبي تقدماً كبيراً بفضل تأثير الحركة العلمية . فان طرائق الملاحظة والاختبار أخذت تعتمد اعتماداً متزايداً يوماً بعد يوم .

بقيت تنشئة الاطباء خاضعة للكتب والنظريات كما هو محتوم . ولكن الاساتذة والطلاب أخذوا يمتحنون النظرية بالواقع . كان على الطلاب المسجلين في كلـّية الدروس باريس الطبية ، بعد انهاء دروسهم الكلاسيكية ، ان يتلقوا الدروس طيلة سنتين للفوز بدرجة حامل البكالوريا في الطب : وكان التشريح ، والطب ، والكيمياء ، وعلم النبات ، والصيدلة ، والجراحة ، والتوليد مادة هذه الدروس . وكان عليهم بعد ذلك تلقي الدروس طيلة سنتين اخريين للفوز بالاجازة : وكان لزاماً عليهم حضور المناقشات العامة التي تعتمد فيها الاقيسة المنطقية المجادلة . وكان عليهم اخيراً ، لنيل الدكتوراه ، مرافقة اطباء الكلية في زياراتهم لمرضى المستشفى البلدي ومستشفى « المحبة » . وكان هذا الجزء العملي اخذاً بالنمو والتوسع . تأسست العيادة الجامعية الاولى في فينـّا في السنة ١٧٥٤ ، ثم تأسست عيادة أخرى في باريس في السنة ١٧٧٠ . في درس التوليد ، وهو الفن الذي تفوق فيه الفرنسيون ، درّب الطلاب تدريباً عملياً على دمى من شمع ، وبهذه الوسائل البدائية تمت تنشئة مولدين ممتازين . وكان العديد من الاطباء ، في الوقت نفسه ، علماء طبيعة من الطراز الاول كـ « هالر » و «سبالنزوني» و « فيك دازير » . ونشأ الى جانب تعليم الكلـّيات تعليم حديث الطابع : في السنة ١٧٧١ ، اعتلى « بورتال » اول منبر لتلقين علم الوظائف في كلية فرنسا . اجتذبت باريس ومونبلييه الطلاب من كافة انحاء أوروبا . وكانت لـ « بادوا » و«بافيا» و« بودا» و«فينا» اهميتها الكبرى أيضاً. وأتاحت بعض المنشورات الدورية الخاصة للاطباء مقارنة ملاحظاتهم : « المكتبة الطبية » في ارفورت ، منذ السنة ١٧٥١ ؛ « صحيفة الطب والجراحة » في باريس ، منذ السنة ١٧٥٤ حتى السنة ١٧٩٢ ؛ « صحيفة الطب » في البندقية ، منذ السنة ١٧٦٣ حتى السنة ١٧٧٧ .

كان للجراحين أثرهم الكبير . فوجب عليهم ، حتى ذاك التاريخ ، اجراء العمليات وفاقـا لأوامر رؤسائهم من الاطباء . ولكنهم كانوا مهرة في عملهم . مارس معظمهم العمـل اولاً في حوانيت الحجامين الذين كانت الجراحة الصغرى وطب الاسنان وقفاً عليهم . واصلوا التعلـيم بالممارسة . فرفعوا فنهـم ، بفضل الاختبار المستمر ، الى درجة عليا من الكمـال وأمنوا له الاستقلال . وتوفقوا الى اقرار تعليم جراحـي خاص . وفي السنة ١٧٣١ ، تأسست في فرنسا الاكاديمية الملكية للجراحة . وفي انكلترا ، اقر البرلمان ، في السنة ١٧٤٥ ، منح الجراحـين امتيازاً فبنوا مدرسة ومسرحاً مدرجاً .وفي السنة ١٧٨٢ ، أسس « جـوزف الثاني » في فينّا مدرسة للجراحة ، وحذا حذوه « كريستيان الرابع » في كوبنهاغن في السنة ١٧٨٥ . انطوى التعليم قبل كل شيء آخر ، في هذه المدارس ، على دروس عملية تدوم ثلاث سنوات تخضـع لامتحانات عملية في الدرجة الاولى:تشريح، عمليات ، تضميد . وجدير بالانتباه ان كثيراً مـن النجاحات الطبية احرزها جراحون ألفوا الملاحظة والاختبار .

التشخيص والتقدير

ان اعراضاً معروفـة كثيرة وصفت بمزيد من الدقـة ونظمت جداول بالاعراض التي تساعـد على كشفها وتتبع سيرها . فقـد اعطى الفرنسي « جان سيناك » مثلاً دلائل امراض القلب : خفقان القلب ، تورم الارجـل ، الربو ، صعوبـة التنفس لا سيما في حالة الضجوع ، تمدد الابهر ، نفث الدم . ووصف الاطباء الايطاليون حميات المستنقعات . ودرس كذلك درساً افضل الزحار ، والمغص الاسربي ، وتضخم العين ، والذبحـة والحمى القرمزية (التي لم تميز عن الحصبة) ، والنكاف ، والامراض الجنسية . واكتشفت امراض مجهولة ايضاً . فان « رولو » ، الجراح العام للمدفعية الانكليزية ، قد اكتشف في احـد ضباط المدفعية الداء السكري مع مميزاته: شهوة ا كل وظمأ مفرطان ، هزال، بول غزير،حلو المذاق، التهاب اللثاث ، تخلخل الاسنان . واكتشفت الحمى التيفية ، التي اطلق عليها اسم الحمى المخاطية، والحماق الخفيف ، وسـل العظم الذي اطلق على اهم ظواهره اسم الجراح الانكليزي الذي اكتشفه « داء بوت » .

اخذ الاطباء بعين الاعتبار الحرارة وعدد الانباض لتقدير حالة المريض . وهم الانكليز من استعملوا المحر بصورة خاصة . وتبنى الطب وجهة النظر السكية ، فاصبح بذلك اكثر طابعـاً علمياً . وفي السنة ١٧٦٠ ، اكتشف الطبيب « اونبروجر » ، في فينا ، القرع كوسيلة لتشخيص امراض الصدر ، ولكن اكتشافه لم يلفت الانتباه تقريباً .

الطب الدوائي

كانت المذاهب الطبية ، بحكم الاشياء ، كثيرة جداً ، اذ كان على الطبيب ان ينظر الى مجموع ، هو الكائن البشري،ومن ثم ان يقوم بعملية تأليفية . نال مذهب « ستاهل » (١٦٦٠ — ١٧٣٤) القائل بوجـود الروح في كل الاجسـام الحية ، ومذهب « بورهاف » (١٦٦١ — ١٧٣٨) الاختياري ، ومذهب « هوفمن » الآلي ، ومذهب

بارتز (١٧٣٤ - ١٨٠٦) القائل بوجود مبدأ حيوي متميز عن الروح والجسم معاً ، حظوة على التوالي عند الجماهير . اختلف هؤلاء المؤلفون واتباعهم كل الاختلاف عن بعضهم وانمـــا جمعت بينهم صفة مشتركة هي وقوفهم موقف الانتظار والارتقاب . ان للطبيعة قوة علاجية ، وللداء فائدة في انه يزيل من الجسم عناصر مضرة ، وان الحمى ، بنوع خـاص ، احدى وسائل التطهير والتنقية . فحذار من ثم مقاومة الاعراض ، وملاشاة الحمى والبواسير مثلا ، لننتظر ونسهل عمل الطبيعة بتنقية الجسم من اخلاطه واجزائه النتنة . الى هذا التفكير يرد استعمال الوسائل السهلة : التليين ، الحقن ، الحمية (بالحمية شفى رولو مريضه المصاب بداء السكري) ؛ والطرائق المزيـلة الاحتقان : الفصد والحراقة ؛ والتمارين الخفيفة ، والدلك ، والميــــاه المعدنية . فزالت باطراد الادوية المستهجنة كعين السرطان ، واللآلىء ، ولحم الثعبان .

ولكن برزت اكثر فاكثر ايضاً ضرورة مواجهة المرض نفسه مباشرة ، في وقت واحـد . فاختلطت بالروح التأليفية روح تحليلية لن تلبث أن تحل محلـّها . أما أهم واضعي النظريات في هذا الحقل فهو عالم الأمراض العقلية الفرنسي « بينيل » (١٧٣٥ - ١٨٢٦) الذي يطـــري الطريقة التحليلية ويؤكد بان كل داء يردّ الى خلل عضوي يجب اكتشافه ومعالجته . وقد رأى القرن انتصار الكينا التي اشار بها الايطاليون بنوع خاص لمعالجة الحميات . واستخدمت القمعية لتقوية القلب في حال الاستسقاء . ولمعالجة فقر الدم اشار « فولر » بالتفضيل بالزرنيخ السائـل (سائل فولر) . وخطر للانكليزي « برنفل » ، في السنة ١٧٥٠ ، ان يضع الحراقة على مركز الألم الشديد في الصدر لمعالجة البرسام والتهاب الرئة . وحاول « فولتا » شفـــاء امراض الاذن بالصدمة الكهربائية . وعالج « كراتزنستاين » الدانماركي بالكهرباء أمـــراض الشلل والنقرس والرثية المزمنة . وفي السنة ١٧٩٠ لم يحصل « فوركروا » على نتائج تذكر بتنشيق الاوكسيجين مرضى السلّ ، ولكنه احرز نجاحاً في حالات الربو واليرقان وداء الخنازير والكسح .

الوقاية

اهتم الاطباء اهتماماً كبيراً لاتقاء الامراض ولا سيما الامراض الوبائية التي تفتك بسكان العالم فتكاً . عاث الطاعون فساداً في اوكرانيا في السنة ١٧٣٧ ، وفي مسينا في السنة ١٧٤٣ ، وفي موسكو منذ السنة ١٧٨٩ . واقتفت الحمى التيفية آثار الجيوش . فـكانت موضعية في اسبانيا منذ السنة ١٧٥٠ . وفي السنة ١٧٦١ اجتـاح اوروبا واميركا وباء صُدام فتاك . كما اجتاح اوروبا السعال الديكي : فأفنى في السويد وحدها ٤٠٠٠٠ طفل بـــين السنة ١٧٤٩ والسنة ١٧٦٤ . وكان وباء الجدري كارثة حقيقية سببت موت ١٤٠٠٠ شخص في باريس وحدها ، في السنة ١٧١٩ . وفي السنة ١٧٧٠ انتشر في العالم وباء جدري عام : ففتك بسكان كافة المدن الكبرى ؛ ويقدر ضحاياه في الهند بثلاثة ملايين شخص .

انحصرت التدابير المتخذة ، لمدة طويلة ، في تدابير الأمن تقريباً . فكانت المناطق المصابة تحاط بجنود يؤلفون حولها نطاقاً صحياً يحظر الخروج منه . وكان يحظر السفر على المسافرين ما

لم يبرزوا شهادة صحية . وكانوا يخضعون ، عند وصولهم ، للحجر الصحي ، اي يوضعون تحت المراقبة على حدة طيلة اربعين يوماً . وكان كل مريض يثير الشبهة يوضع حالاً في الانفـــراد في محجر صحي . بدأ « فرانك » النمساوي ، في السنة ١٧٧٩ ، ينشر « قواعد السياسة الطبية » . اكد بأن مراقبة الصحة العامة احد واجبات الدولة وطالب بتشريـــع خاص . وفي البندقية كان الاعلان عن حالات السل وتطهير أمتعة المسلولين امرين إلزاميين ، وجرت محاولات مماثلة في بلدان اخرى .

ألف ألاطباء من جهة ثانية كتباً صحية من شأنها أن تتيـح لكل انسان تحسين صحتـــه ومقاومة الامراض مقاومة أجدى . نخص بالذكر ، بين هـــذه المؤلفات، « آراء للشعب حول صحته » (١٧٦١) و « صحة أهل القلم » (١٧٧٢) الذي لا تزال له أهميته في ايامنا هـذه ، وكلاهما للسويسري « تيسو » .

واحرز تقدم حاسم في اتقـــاء الجدري بالتلقيـح . علمت السيدة « مونتيـغ » حرم سفير انكلترا في الاستانة بان الجركسيات يخزن انفسهن بابر مغمسة في قيـح الجدري ، فيصبن من ثم بجدري خفيف ثم لا يلبثن ان يحصلن على مناعة ضد المرض ، كما لو كانت اجسامهن قـــد تمرنت على مقاومة المرض الخفيف واستمدت قوى لاتقاء المرض الحقيقي . اطلعت السيدة مونتيغ الغرب على الطريقة ، فـكان أن تبناها الطبيب السويسري « ترونشين » (١٧٠٩ – ١٧٨١) وجعل من نفسه بطل التلقيـح .

ولاحظ الجراح الانكليزي « جيز » (١٧٤٩ – ١٨٢٣) ، المكلف تلقيح ســكان احدى الكونتيات الانكليزية ، ان الذين اصيبوا فيما سبق بجدري البقر (*Vaccine*) لا يتأثرون باللقاح ولا يصابون بالجدري البشري . وبعد ملاحظات واختبارات استغرقت عشرين سنة ، طعّم في ١٤ ايار ١٧٩٦ اول ولد ، « جايمس فيلبس » ، بقيح جدري البقر ، ونشـــر في السنة ١٧٩٨ « تحقيقه حول اسباب ونتائج جدري البقر » الذي احدث تأثيراً عظيماً . فقد انقذت البشرية من الجدري . ثم اكتشف بعد ذلك ان التطعيم يمارس في اماكن عديدة من الهند ، وفي بـــلاد فارس ، وبلاد البيرو . ولكن مـا كان يجري ليس سوى اتفاقات محلية . اما جيز فهو وحـده من توصل الى اكتشاف معلل وشامل .

فن التوليد

في منتصف الطريق بين الطب والجراحة ، احرز فن التوليد تقدماً عظيماً جداً، لان كل مـــا فيه قد رد الى مبادىء آلية وطبيعية ، « باعتبار ان التوليد ليس سوى عملية آلية ، خاضعة لنواميس الحركة » («بودلوك» ، ١٧٤٥ – ١٨١٠). فان بوزوس (١٦٨٦ – ١٧٥٣) و « لفريه » (١٧٠٣ – ١٧٨٠) ، مولد ولية عهد فرنسا ، احكما ملقط الجنين الذي كان مستقيماً حتى ذاك العهد : ادخلا عليه الانحناء اللازم ، فبات استعماله رائجاً . وان « بلنك » (١٧٣٨ – ١٨٠٧) ، الاستاذ في بودا وفينا ، قاس الحوض قياســات دقيقة ،

وحدد لكل قياس العمليات الخاصة . توصل فن التوليد الى « يقين هندسي » ، وبلغ كماله التقني . وتنحصر النجاحات المحرزة بعد ذاك الوقت في التطهير والتبنيج .

الجراحة

وبلغت عمليات جراحية كثيرة درجة الكمال ايضا . فان الفرنسي « بتي » (١٦٧٤ – ١٧٥٠) قد ادخل الاطمئنان الى نفوس الجراحين بالملوى الضاغط ذي الوصائل الذي ابتكره والذي اتاح تجنب نزيف الدم . كان بالاضافة الى ذلك اختصاصياً في معالجة انفكاك المظم ، وكان اول من استخرج الحصى من المرارة . وبلغ من البتر كماله التقني : فقد اجريت بنجاح عمليات استئصال الاعضاء المرضضة والقروح وتورمات المفاصل البيضاء والتورمات العظمية ، والغدد وامهات الدم والسرطانات ، مع علم الجراحين بان هذه الاخيرة تعود الى الظهور . وان « شوبار » (١٧٤٣ – ١٧٩٥) ، مكتشف احدى طرائق بتر الرجل ، قد احرز نجاحات كبرى في جراحة المسالك البولية . واشتهر « دافييل » (١٦٩٦ – ١٧٦٢) بمهارته في إزالة سادّة العين (الماء الازرق) باستئصال البلورية ، فاستدعي الى كافة بلاطات اوروبا واجرى في السنة ١٧٥٢، عمليات لـ ٢٠٦ مرضى اقترن ١٨٢ منها بنجاح تام . واحرز تقدم كبير في شق المثانة لاستخراج الحصى منها ، ولا سيا على يد ممتهن باريسي هو الاخ « كوم » الذي ابتكر جهازاً لتفتيت الحصى الكبيرة ، وطريقة للشق بواسطة جهاز منحن يدخل الى المثانة . كانت العمليات مؤلمة جداً لان الجراح لم تتوفر لديه اية وسيلة للتخدير او التبنيج ، ولكنها كانت تتم بنجاح بفضل المهارة التقنية والنظافة والتطهير المؤلم ، حتى بواسطة الحديد المحمى بالنار اذا اقتضت الحاجة . عرفت بعد ذلك اوائل القرن اللاحق مرحلة قهقرى الى ان استؤنف السير قدماً بواسطة الاكتشافات حول الجراثيم ومواد التخدير والتبنيج .

٢ – التعليم

روح القرن

هوجم التعليم التقليدي هجوماً أكثر اعلاناً وأكثر شمولا ، وأكثر بلاغة أحياناً منه في القرن السابق ، دون ان يقال في هذا الهجوم شيء جديد حقاً . ليس رأي القرن الثامن عشر في موضوع التعليم سوى تكملة لرأي القرن السابع عشر واضعاف له احياناً . ولكن هنالك ، بدون شك ، مزيداً من التحقيقات .

نجد ثلاثة انواع من المهاجمين . فهنالك من جهة العلميون الذين يعتبرون ان التدريس لا يفسح مجالا كافياً للاكتشافات الحديثة ولفروع العلوم الجديدة . وهنالك من جهة ثانية النفعيون الذين يريدون ان تنطوي البرامج على مزيد من الفنون والمعارف التي يمكن الافادة منها فوراً في الحياة اليومية . وهنالك اخيراً الحاسيون ، مستوحو « لوك » ، من امثال كوندياك وروسو ، المقتنعون اقتناعاً تاماً بأن كل افكارنا مصدرها الحواس والراغبون في تعليم بواسطة الكائنات والاشياء ، وبواسطة

ملاحظة الوقائع والاختبار ، لا بواسطة الكتاب والكلمة. وغالباً ما يسير الانسان نفسه في هذه الاتجاهات الثلاثة . كان الجدال حاداً ، وغالباً مـــا انطوى على سوء النية . غالى المصلحون في مساوىء التعليم وعاملوا خصومهم بازدراء . وأخذ المحافظون عليهم اهمال الاختبار والواقع . نجح المصلحون ، بصورة اجمالية ، ولكن دون ان يحققوا كل ما رغبوا فيه : فقد ادخلت مواد جديدة على البرامج ، واعتمدت طرائق جديدة احياناً ، فكان ان التعليم النفعي ، الذي ندعوه تقنياً ، قد نمـــا وتقدم . جرت الاصلاحات في فرنسا بنوع خاص ، وفي البلدان الخاضعة لملوك جرمانيين وفي روسيا . أما في الدول الأخرى فقد كانت الاستحداثات محدودة جداً. فقد بقيت انكلترا نفسها وفية للتعليم الكلاسيكي القديم ولتعليم المهنة بالممارسة تعليماً مباشراً .

التعليم الابتدائي

ان التعليم الابتدائي الذي يجب ان يزود الاولاد بـين سن السادسة وسن الحادية عشرة بالمعارف الاولى التي يمكن الافادة منهـا فوراً ، كان متباين الانتشار . فقد وزع في العائلات على الاثرياء والميسورين . أما عامة الشعب فكان تعليمها خاصاً في البلدان الكاثوليكية : تولته جمعيات رهبانية ، كـ « اخوة العقيدة المسيحية »، بمساهمة الرعايا والاهالي أو بدونها . ولم يكن هنـــاك في انكلترا الانكليكانية سوى مدارس راعوية تتعهدها الاحسانات الخاصة على قدر الامكان، وفي البلدان الكلفينية واللوثرية أدى واجب قراءة الكتاب المقدس الى قيام تعليم ابتدائي علني غالباً ما اعطى نتائج جيدة . وفي النصف الثاني من القرن سعى « المستبدون المستنيرون » جهدهم لايجاد تعليم رسمي يستهدف تربية أفراد الرعية الامنـاء والمطيعين والاكفـاء . وفي بروسيا جعل فردريك الثاني التعليم الزامياً في السنة ١٧٦٣ . وفي النمسا اعادت ماري – تريز تنظيم التعليم الابتدائي في السنة ١٧٧٤ . وفي روسيـــا اصدرت كاترين الثانية، في السنة ١٧٨٦ ، قانوناً للمدارس الخاصة قضى بأن يكون التعليم وقفاً على الدولة.

شمل التعليم الدين والاخلاق أولاً ، أي تلقين الجميع مفهوماً للكون ولمصير الانسان ، ولمكان هذا الأخير ودوره في المجتمع ، ثم عتاد المعرفة الأولية : قراءة ، وكتابة ، وحساب . وكانت النتائج حسنة في معظم الاحيان . وفي فرنسا امتاز لعمري تعليم عامـة الشعب عنه في النصف الاول من القرن التاسع عشر .

اعتبر هذا التعليم ، منذ عهد مبكر ، غير كاف لأولئك الذين توجب عليهم كسب معيشتهم حال انهاء سني دراستهم . فلذلك ، وبسبب أهميـــة العمل اليدوي لاحكام النظر واتقان العمل واصابة الرأي،اضاف اليه اخوة العقيدة المسيحية في فرنسا منذ زمن طويل التدرب على الحرف. وفي ألمانيا ادار «فرانك» و « سملر » في « هال » منذ السنة ١٧٠٠ مدارس وفق فيها بين التعليم والتدرب التقني في المشغل ، ونحا هـــذا النحو فردريك الثاني الذي اضاف الى برامج المدارس الابتدائية زراعة شجرة التوت وتربية دودة القز .

الى جانب المؤسسات التي افسحت مجـالاً للتعليم التقني ، تأسست مدارس تقنية بحتـة ، في

ألمانيا وفرنسا بصورة خاصة . ففي باريس تأسست مدرسة الرسم الملكيـــة في السنة ١٧٦٧ لـ ١٥٠٠ ولد فوق الثامنة تلقوا دروسهم فيها مجانـــاً . وأسس بعض الافراد ، والبلديات ، والولايات ، حيث قامت المصانع ، مدارس لفنّ فيها الرسم والرياضيات . وفتح احد الفلاسفة ، الدوق دي لاروشفوكو – لنكور ، لأيتام فرقته ، مدرسة مهنية مشهورة أقرها صك ملكي في السنة ١٧٨٦ كانت نموذجاً لمدرسة الفنون والحرف في عهد الثورة الفرنسية . وانما أخـذ على هذه المدارس انها لم تهتم الا لتربية العامل مهملة فيه الانسان والمواطن .

يجب ان نضيف الى هذه المؤسسات ، بسبب الطابع الاولي لتعليمها ، معاهد تعليم أخـوة الابكار من الاشراف الفرنسيين ، التي تولت اعداد الضباط ، والتي نسج على منوالهـا في بروسيا وروسيا (١٧٣٢) .

وأراد بعض ذوي النظريات ، المستوحين روسو ، ان يلقنوا العـــلم بالشكل ، بالتأثيرات الحسية . فان الالماني « باسدو » (١٧٢٣ – ١٧٩٠) قـــد ألقى « دروس اشياء » في داسو . كان يضع امام أعين الاولاد لوحة تمثل امرأة مضناة طريحـــة الفراش وبعلاً جالساً الى جانبها وقبعتين صغيرتين على طاولة . وكان على الاولاد ان « يجدوا » وضع الامرأة ، ومعنى القبعتين والاخطار التي تتعرض لهـا الامرأة الحامل وواجبات الاولاد نحو أمهاتهم اللواتي ذقن الامرين قبل وضعهم . وتؤلف دروس الاشياء كذلك جوهر طريقة « بستالوزي » (١٧٤٦ – ١٨٢٧) الذي باشر رسالة تربوية في « نوهوف » في السنة ١٧٧٥ ، ولكن نشاطه الاول ، الذي لم ينحصر في التعليم الابتدائي ، لاحق للعهد الذي يعنينا . وقـــد أخذ على هذه الطرائق ، الحصرية جداً ، انها لا تصلح الا للأولاد المتخلفين وانها مضيعة لوقت الولد الطبيعي الذي لم يقدر حدسه وخياله وحتى تفكيره حق التقدير .

التعليم الثانوي

كان التعليم الثانوي خاصاً في كل مكان تقريباً تحت رقابة الكنيسة والدولة . وأدارت الكليات تعاونيات تعليمية أو جامعات ، كجـامعة اوكسفورد أو جامعة باريس ، أو جمعيات رهبانية ، كجمعية اليسوعيين الذين أداروا العدد الأكـــبر منها ، وجمعيتي البندكتيين ورهبـــان القديس فيلبس النيري ، أو الافراد ايضاً في حالات كثيرة . في كليات اليسوعيين وجامعة باريس كان التعليم مجانياً للخارجيين ، وكان الداخليون يستفيدون من منح كثيرة . طالب « المستنيرون » اكثر فأكثر ، لا سيا في فرنسا ، بـ « تربيـــة وطنية » وباساتذة علمانيين يختارون بين الناجحين في « مباراة لنيل شهادة التدريس » . ثم اصبحت هذه النزعة عامة بعد طرد اليسوعيين . ففي فرنسا مثلاً بات لزاماً ، بعد السنة ١٧٦٣ ، أن يدير كل كلية «مكتب إدارة» يضم أبرز القضاة . ولكن حل هيئة من الاساتذة الممتازين تسبب في تقهقر تعليمي أفادت منه بروسيا وروسيا اللتين احسنتا وفادة اليسوعيين .

ارتكز تعليم الكليات الى درس الآداب القديمة كما درست في ايام النهضة . وكان تعليما عمليا .

وزع على رجال الغد من قضاة ومديرين ومحامين واطباء وكهنة ورعاة واساتذة وضباط عامين، فكان طبيعيا أن يجعلهم يتقنون اللغة ، خير اداة لأدق عمليات الفكر واكثرها تعقيداً ، لا بل الشرط الذي لا بد منه لكل تفكير . استخدمت الكليات لهذه الغاية اللغة اللاتينية، اللغة الأم للحضارة الاوروبية ؛ وقلما استخدمت اللغة اليونانية ، وهي اكثر صعوبة وبعداً ؛ ولم تستخدم اللغات الحية قط ، وهي لم تزل ، باستثناء الفرنسية ، لغات مترددة لن تستقر إلا خلال القرن ؛ وكان استعمال المفردات كأدوات للفكر من الصعوبة بمكان بسبب افتقار المفردات الهامة بصورة خاصة الى مداليل ثابتة محددة . يضاف الى ذلك ، على حد ما قيل ، أن المؤلفين اللاتين من شعراء ومؤرخين وخطباء اثرياء بالاختبار العاطفي والاخلاقي والسياسي الذي لم يفقد شيئا من اهميته . فحالات ومشاكل الازمنة كلها متوفرة في مؤلفاتهم . وكان الدين ، الذي ينطوي على فلسفة كاملة وعلى علم كامل يتناول الطبيعة البشرية والمجتمعات ، متداخلاً كل شيء . فلم يكن للدين كتبه وواجباته فحسب بل ان كتب الصغار الابتدائية تألفت من مختارات للمؤلفين القدماء حول الله والاخلاق ايضا ؛ وكان يُحكم على آراء العصور القديمة ورجالها من زاوية مسيحية . فكان من ثم ، كما ساد الاعتقاد ، تعليماً غنياً جداً .

قسمت الدروس الى مرحلتين . وقد شملت المرحلة الاولى ثلاثة دروس في الصرف والنحو ودرساً في الادب القديم خصص جلّه للشعر ، ودرساً في البيان . البيان علم طبيعي. يستخلص من درس كبار المؤلفين قواعد الاقناع . ثم يصيغها احكاماً ويتصل بالتالي ، ككل علم ، بفن أو بتقنية اذا صح التعبير .

كان اكثر التلامذة يهجرون الكلية بعد المرحلة الاولى . وكان الآخرون يتلقون بالاضافة الى ذلك دروس الفلسفة طيلة سنتين. يدرسون المنطق الصوري وعلم ما وراء الطبيعة والاخلاق. المنطق الصوري علم طبيعي يستخلص من درس امهات مؤلفات الفكر البشري قواعد الحكم والبرهان ويستنتج منها فن التفكير . وكانوا يدرسون مبادىء الرياضيات وعلم الطبيعة ، على أن هذا الاخير كان محصوراً في البراهين حول طبيعة المادة وخصائصها . فكان كل شيء ينتهي الى عرض بالاقيسة لمذهب ارسطو يتداخله احياناً شيء من تعاليم ديكارت ولوك .

تميزت الدروس بالنشاط في المرحلة الاولى بنوع خاص . غالباً ما درّست اللغة اللاتينية بحسب الطريقة المباشرة ، بدون كلمة فرنسية واحدة ، سوى النصوص المطلوبة ترجمتها . وهكذا فان التلميذ، الذي لا يلبث ان يمتلك ناصية اللغة ، كان يؤلف باستمرار ، باللغة اللاتينية ، الروايات نثراً ، والامثال نثراً وشعراً ، والمراثي ، والاناشيد ، والتآبين ، والمرافعات ، والخطب . وكان طبيعياً أن تلقى الدروس في المرحلة الثانية ، وكان لدى التلامذة دفاتر يدونون فيها ما يلقى عليهم . ولكن مجرد فهم المسألة المطروحة وتتبع الاقيسة المتعاقبة كان مجهوداً صعباً للشبان ، وقد درجت العادة على المجادلة بواسطة الاقيسة . وكان التدريب يكتمل بتمارين علنية ، مهازل ، وتلاوات عن ظهر قلب ، ومجادلات ، امام الاعيان والاقارب .

. تعرض هذا التعليم للمهاجمة. فقد استهزأ بعضهم بمواضيع البيان من أمثال « ندامة نيرون بعد اقدامه على قتل أمــه » ، لان التلامذة ، الذين لم يقترفوا جرم قتل قط ، ما كانوا ليستطيعوا انتاج شيء شخصي . امـا انصار هذه التمارين فارتأوا ان المهاجمة لا تعطي وزناً لحس الشبان ومخيلتهم وحدسهم ، وان الاساتذة على حق في اللجوء اليها لتنميتها ، اذ اننـــا لا ندرك حق الادراك الا العواطف التي قـد نشعر بها بعض الشيء . وان اهمية المخيلة تفوق اهمية البرهان : ان ما نستطيع رؤيته ولمسه وقياسه قليل جـــداً ؛ فمن « رأى » فرنسا ، وألمانيا، والدولة ، وطبقة الاشراف ، وطبقة الكادحين ، والعدالة ، والقساوة ، والحقـد ؟ وانتقد بعض الخصوم مواضيع الفلسفة : « هل الكيـان مشترك بين الجوهر والعرض ؟ » اما الانصار فكانوا يجيبون بأن هذه المواضيع ، المختارة ، تطرح ، كما يجب ان تطرح ، بتعابير تقنيـــة هي في منتهى الضبط والدقة .

الا ان بعض فئات رجـــال الاعمال قد اعتبرت ان ليس هنالك ما يفيد تجار وصناعيي ومزارعي الغد ، وربما تصور ابناء الصناعيين اليدويين والفلاحين ، الذين جاؤوا لقضاء بعض سنوات في الكلية ، دونما رغبة في متابعة دروسهم العليا ، انهم انما يضيعون وقتهم . وارتأوا ، أقله في فرنسا ، ان ما بلغته اللغـة من الاستقرار ، والادب من الثروة ، يغني عن اللغة اللاتينية التي لم يعد لها من حاجة الا لترجمة النصوص ؛ وان ما حققته العلوم من تقـــدم وما وفرته من براهين ودلائل رائعة يسمح بالاستغناء عن كثير من حيل البيـان والمنطق . وفي ذلك دليل على ان محاولات جرت لتجديد التعليم الكلاسيكي وتنمية التعليم التقني .

في كل مكان تقريبا ادخلت مواد جديدة على برامج الكليات . في بروسيا ، ادخل فردريك الثاني في السنة ١٧٦٣ تعليم اللغـة الفرنسية ، وأحل منطق « وولف » محل منطق ارسطو . في النمسا ، اوجب برنامج الدروس لسنة ١٧٧٣ اعتماد الطريقة الاختبارية في عـــلم الطبيعة والفلسفة والاخلاق . في فرنسا اقدمت بعض كليات رهبان القديس فيلبوس النيري ، ثم الجامعة بعد السنة ١٧٦٣ ، على تعليم اللغـــة الفرنسية بواسطة الصرف والنحو ، وعلى تدريس البيان بواسطة المؤلفين الفرنسيين . ادخل التاريخ الحديث ، وبعد أن كان سرداً زمنياً للحوادث ، لم يلبث ان اصبح درس الحضارات والحكومات والسياسة الخارجية . تأسست منابر لتلقين علم الطبيعة الاختباري ومختبرات لعلم الطبيعة في كليات عدة بعد السنة ١٧٦٠. ظهرت اللغـــات الاجنبية . في الفلسفة ، دحض الاساتذة نيوتون ولوك وديكارت ، ويعـني ذلك انهم تكلموا عنهم وأوجدوا الشغف بمعرفتهم . استصوب البعض آراءهم ، وتخلى واحد او اثنان عن البرهنة بالاقيسة . وكان أهم تطوير لفت الانتباه ما أقـــدم عليه بندكتيو « سان — مور » في كلية « سوريز » : بمكنة التلامذة ، الذين يرغبون في ذلك ، تلقي دروسهم بدون اللغـة اللاتينية ووضع برنامجهم الخاص بفضل حقوق اختيار اعطيت لهم . الا أن معظم الكليـــات حافظت على تقليد اثبت مزاياه وأفضليته .

وإذا عارض اساتذة الكليات ادخال العلوم العملية الى المؤسسات ، ظهرت مدارس خاصة بالتعليم التقني . في المانيا أسس « هكر » ، حوالى السنة ١٧٤٧ ، « المدرسة الواقعية » الاولى. وبعد السنة ١٧٦٣ ، اكثر فردريك الثاني من هذه المدارس في بروسيا . وتعـــددت مدارس التجارة في المانيا . ودخلت فرنسا عن طريق « الالزاس » حيث أسس تجار « ميلوز » ، في السنة ١٧٨١ ، المدرسة الاولى . وظهرت بعض المدارس الزراعية. وعلمت المدارس كلّها الدين واللغات الحية والتاريخ والجغرافية والرياضيات وعلم الطبيعة والرسم ، كما علمت بالاضافـة الى ذلك ، بحسب الاختصاص،الكيمياء والعلوم الطبيعية والمراسلة التجارية ومسك الدفاتر وحساب الاوزان والمقاييس في الدول الهامة والعمليات التجارية والزراعة واعمال المشغل . فاتجه التعليم كله شطر الحياة العملية اليومية .

أحدثت مدارس عسكرية وبحرية خاصة . فكان لآل هبسبورغ مـــدارس عسكرية في بروكسل منذ السنة ١٧١٧ ، وفي فينّا منذ السنة ١٧١٨ . واحدث الفرنسيون خير المدارس لإعداد ضباط الغد لدروسهم العليا . فتحت المدرسة العسكرية الملكية ابوابهـا في السنة ١٧٥١ لتلامذة تتراوح اعمارهم بين ١٣ و ٢٠ سنة . ثم احدث الكونت « دي سان جرمين » في السنة ١٧٧٦ اثنتي عشرة مدرسة عسكرية اقليمية ، اسندت ادارتها الى رجال كنيسة يعاونهـــم بعض الضباط ، لقبول تلامذة حتى سن الرابعة عشرة . كان هؤلاء التلامذة يتعلمون اللغـة اللاتينية واللغات الحية والتاريـخ والجغرافيا والرياضيات والرسم وعـلم الطبيعة الاختباري والرقص والمسايفة والموسيقى . وقد ضمت هذه المدارس تلامــــذة يدفعون رسوماً مدرسية واخرين يستفيـــدون من منـح تتحملها الدولة . وكان نابوليون واحداً من هؤلاء الآخيرين في مدرسة « بريين » .

استقبلت فرقتا حراس البحرية في برست وتولون،لبحرية الدولة ، ابناء نبلاء تتراوح اعمارهم بين ١٤ و ١٧ سنة . سرح افراد هاتين الفرقتين في السنة ١٧٨٦ ، فاستعيض عنهـــما بـكليتين احداهما في « فان »والاخرى في« اليه » . تناول التعليم الرياضيات والرسم وبناء السفن والملاحة وقيادة السفن والاستهداء بواسطة الخرائط . وفي فصل الصيف كانت تنظم اسفـــار بحرية على ظهر سفن التدريس .

وكان هنالك ، للبحرية التجارية، ٢٤ مدرسة خاصة لتلقين علم المياه السطحية في المرافىء الهامة ، وفي السنة ١٧٤٦ أحدثت مدارس رسمية في «برست» و «روشفور» و « تولون» .

التعليم العالي

أمـا في التعليم العالي ، الذي يوزع على شبان اكبر سناً اعد ذهنهم لتحصيل أعلى درجات المعارف الخاصة ، فقد بقيت الجامعات ، لسوء الحظ ، بعيدة على العموم عن العلوم الجديدة والعلوم العملية . احدثت الجامعـات الالمانية دروساً في الاستثمار الزراعي للشبان المعدين لادارة الامــــلاك الملكية ، أو مشاريع زراعية اخرى . واحدثت

جامعات « هال » و « هيدلبرغ » و « غوتنجن » دروساً في الكيميـاء العملية وعلم الآليات ، ولكن معارضة اساتذة اللاهوت والآداب القديمة كانت سببا في التخلي عنها بعد سنوات معدودة. وادخل آل هبسبورغ العلوم الاختبارية والتعاليم المفيدة الى الجامعات القائمة في بلدانهم، ولا سيما جامعة بافيا في ايطاليا الشمالية . إلا ان الدروس الجديدة نظمت على العموم الى جانب الجامعات على يد الاكاديميات والجمعيات الادبية والعلمية وبعض المؤسسات الخاصة . وكان لبعض العلماء واثرياء الهواة ، في فرنسا ، مجموعـات عديدة من النماذج والآلات ، كـ « فوكنسون » مثلا الذي عرض ، في السنة ١٧٧٥ ، مجموعاته من آلات الغزل والحياكة في احد فنادق ضاحيـة « سانت انطوان » وسمح للجماهير بمشاهدتها . ثم أوصى بها في السنة ١٧٨٢ الى الملك لويس السادس عشر الذي اضاف إليها ٥٠٠ نموذج بغية تحسين المصنوعات . وان هذه المجموعة التي ضمت بعد ذلـك الى مجموعة اكاديمية العلوم ، غدت ما نعرفه اليوم بالمعرض الوطني للفنون والحرف . وغـدت حديقة الملك ، التي ادارها بوفون ،مركزاً للنشرات العلمية والتعليم . واجتذبت الدروس في علم النبات والكيمياء والتشريح والصيدلة ، التي ألقاها بعض العلماء ، طلاباً كثيرين جداً. واسست مدارس لتعليم اعمال المناجم في المانيا ، في « برونسويك » (١٧٤٥) و « فريبورغ » (١٧٦٥) و « كلوستال » (١٧٧٥) ، وفي فرنسا ، في باريس (١٧٧٨) . وغـدت المدرسة الفرنسية للجسور والسدود (١٧٤٧) نموذج المدارس العصرية العليا للهندسة المدنية .

واكتسبت الاكاديمية العسكرية النمساوية في«فيينر—نوستات» (١٧٥٢) شهرة حلالا. وأعيد فتح المدرسة العسكرية في باريس ، في السنة ١٧٧٧ ، لتستقبل نخبـة طلاب المدارس العسكرية الاقليمية . وقد تلقى نابليون بونابرت فيها دروسه بعد تخرجه من بريين .

وقامت في فرنسا آنذاك افضل مدارس المدفعية . أمـــا أهمها فمدرسة « لافير » حيث درّست شؤون المدفعية ، للمرة الاولى ، تدريساً قياسيا مبنياً على العقل . وقد اشتهرت كذلك مدرسة « هانوفر » (١٧٨٢) حيث درّس « شارنهورست » مجدّد الجيش البروسي بعـد معركة « ايينا » .

وقد لقن خير تعليم تقني عرفته أوروبا في المدرسة الهندسية الفرنسية في«ميزيير»،التي تأسست في السنة ١٧٤٨ ، على غرار أكاديمية المهندسين السكسونية للهندسة في الأرجح . فـان الطلاب، الآتين من مدرسة المدفعية في «لافير» ، ما كانوا ليقبلوا فيها الا بعد امتحان عسير . وقد اعتبر مهندسو الجيش الفرنسي خير المهندسين في أوروبا . وخرجت المدرسة رجالاً معروفين كثيرين : « لازار كارنو » ، منظم النصر ؛ والرياضي « بونسليه »، وكونيو ، مخترع السيارة ؛وكولومب، العالم بالطبيعيات ؛ والوطني « روجيه دي ليل » ، مؤلف المرسلييز .

منذ السنة ١٧٢٠ تلقى واضعو الخرائط البحرية من الفرنسيين علومهم في دار الخرائط والتصاميم الخاصة بالبحرية في باريس . وتخرج سنويـاً من مدرسة البحرية في اللاوفر ١٢ مصمماً

للسفن . وكانت مدرسة المدفعيين المتمرنين ، المؤسسة في السنة ١٧٦٦ ، تستقبل شباناً بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين وتجعل منهم ضباط مدفعية في البحرية .

وجّه التعليم في كافة هذه المدارس شطر الناحية العملية . وتناولت الدروس ، المتميزة كلها بقيمة عملية كبرى ، مواد خاصة مختارة . ونذكر على سبيل المثل أن طلاب هندسة المناجم كانوا يدرسون المواد التالية : الكيمياء ، وعلم المعادن ، وعلم سير المياه ورفعها ، والتهوية ، واستثمار المناجم . وكانوا يحلون في قاعة التدريس مسائل عملية عديدة ويرسمون التصاميم . ويعملون في المختبر . وقد كرس نصف الوقت ، ثلاثة ايام من أصل ستة على العموم ، للأعمال المختلفة : بناء الجسور والحصون ، صنع البارود ، مناورات ، ورماية . ومن جهة ثانية كانوا يقضون شطراً من الصيف يمارسون خلاله اعمالاً تمرينية في المصانع وورش الاشغال العامة ومراكز بناء السفن واصلاحها . فكانت نتيجة الاتحاد الوثيق بين العلم والتطبيق العملي وبين عمل الفكر وعمل الايدي تعليماً مهنياً ذا قيمة عظمى . ويعتبر المؤرخ الاميركي « ف . ب ارتز » ان التعليم التقني الفرنسي العالي كان على العموم خير تعليم تقني في كافة انحاء اوروبا ، أي في العالم ، خلال القرن الثامن عشر .

٣ — الصحافة

إن الصحافة الدورية ، التي نشأت في مستهل القرن السابع عشر ، قد نمت نمواً كبيراً خلال القرن الثامن عشر ، في هولندا ولا سيما في انكلترا ، بفضل مزيد من الحرية ونشاط الحياة السياسية ، وفي البلدان الاخرى ، على غرار هذين البلدين ، كلما نمت الحياة الفكرية وبرزت وسائل العمل السياسي التي توفرها الصحافة . فالصحافة تعكس في كل مكان حالة البلاد عكساً يكاد يكون صحيحاً .

الصحف الهولندية

حافظت الصحيفتان الهولنديتان ، « صحيفة اوترخت » و « صحيفة ليدن » ، على الشهرة الاوروبية التي اكتسبتاها خلال القرن السابق . ملأت صفحاتها اخبار هامة في أغلب الاحيان ، كالاعلام بمشاريع المعاهدات ، أو معثرة ومعيبة بسبب الحرية التي يتمتع بها اصحاب المطابع في هذه البلاد الجمهورية ، وبسبب تجارتها العالمية الكبرى ، وموقعها كمفترق طرق على بحار ضيقة هي اكثر البحار الاوروبية نشاطاً ، عند مصب الرين . حررتا في معظم ايام السنة باللغة الفرنسية فوجدتا قراءً في كل مكان ، وقد سمح الملوك بدخولها دونما صعوبة لأن هذه اللغة تجهلها الطبقات المتوسطة والشعبية . تميزتا بالاستقلال وغالباً ما شكت مجالس الوزراء لحكومة الاقاليم المتحدة قحة الصحافيين ومثالبها . فكانت الحكومة توجه اليهم التهديد تلو التهديد دون أن تعقب ذلك بعمل جدّي في غالب الاحيان . لذلك كان ملك بروسيا ، فردريك الثاني ، يتدخل شخصياً : هاجمته يوماً جريدة تصدر في « غرونثنغ » فنبه أحد امناء سر المندوبية البروسية الصحافي إلى أنه ، اذا استمر في مهاجمته ، «سيتخذ بحقك قرار سيجعلك

تندم على فعلتك طيلة الايام المتبقية من حياتك » . وقد زاحمت الصحف الهولندية صحف أخرى تصدر باللغة الفرنسية ، تأسست في بلدان صفرى تتمتع بحرية لم تعرفها الدول الكبرى ، وضمنت لها النجاح بالصدق والصراحة : « صحيفة هرف » في أقليم « ليـــاج » ؛ « روح الصحف » في لياج ، و « صحيفة برن » و « صحيفة كولونيا » . إلا أن بعض هذه الصحف لم ير ضيراً في تقبل مساعدات الملوك المالية .

الصحافة الانكليزية

ازدهرت في انكلترا صحافـــة عصرية الطابع . تميزت بحريتها الكبرى نسبياً . لا حاجة الى ترخيص مسبق : باستطاعة اي كان ان يؤسس ساعة يشاء الصحيفة التي يطيب له تأسيسها . ولا رقابة احتياطية : فالمقالات لا يقرأهـــا ولا يقتطع منها ولا يحذفها رقيب رسمي قبل ظهورها . وهذا شيء ضروري في بلاد خاضعة لنظام تمثيـلي وبرلماني الى حد بعيد ، حيث بعض المواطنين ينتخبون ومن حقهم ابداء رأيهم . ولكن الصحافة ليست حاجة سياسية فحسب ؛ فهي نتيجة تفتح كافة اشـكال الحياة الاجتماعية ، ولذلك فتبادل الآراء والاخبار ينمو مع كل ما سواه .

بلغت هذه الصحافة بعض الكمال نسبياً . فان المنشورات الدورية ، التي كانت اسبوعيـــة في البدء ، صدرت، ثـــلاث مرات في الاسبوع منذ ان سيّرت ثـــلاث عربات بريد على الطرق الرئيسية المتفرعة من لندن. غدت الـ « دايلي كورانت » ، ابتداء من السنة ١٧٠٢ ، اول صحيفة يومية . كانت هناك اربعة انواع رئيسية من المنشورات الدورية : الجريدة السياسية ؛ والجريـــدة الاخلاقية ، وابعدها شهرة جريدة الـ « سبكتاتور » لاديسون الذي عرف نجاحـاً عظيماً حتى السنة ١٧١٢ واقتفى اثره اكثر من مائة صحافي في انكلترا وخلفه صحافيون كثيرون في الـــبر الاوروبي ؛ والجريدة الاعلانية ؛ واخيراً « المجلة » ، « مخزن » كل جديد مهم في العالم : وكانت المجلة الاولى « مجلة الجنتلمن» الشهرية التي تأسست في السنة ١٧٣١ وتألفت من ٤٢ صفحة مطبوعة على عمودين . ولكن هذا التقسيم ليس مطلقاً. فان الجرائد السياسية قد نشرت محاولات اخلاقية واعلانات ، والجرائد الاعلانية نشرت مقالات سياسية ، ونشرت المجلات خلاصات المناقشات البرلمانية . في هذه البلاد التي كانت موطن التجارة الكبرى ، عاشت الصحافة من الاعلانات ، وقد كتب احد الصحافيين في السنة ١٧٥٩ : « ان صناعة الاعلان هي الآن على قـاب قوسين من الكمال ، وليس سهلاً ادخال اي تحسين عليها » .

الصحافة الانكليزية صحافة طبقة من الميسورين. فهؤلاء قد اقصوا الفقراء بضريبةالطابـــع البريدي التي فرضت في السنة ١٧١٢، وزيدت نسبتها تدريجياً ، فازالت من الوجود الجرائـــد الصغيرة العديدة التي كانت تباع بفلس وتنتشل الشعب من الجهل من حيث هو يعلم اولاده فيها القراءة . الا ان الجرائد كانت ، بفضل المقاهي ، في متناول الصناعيين اليدويين انفسهم . وكم كانت دهشة مونتسكيو كبيرة حين رأى عاملا مسقفاً يطلب ان يؤتى له بجريدة.

وهي صحافة نضال ايضاً حاولت الاحزاب والحكومة الافادة منها. فرؤساء الاحزاب أسسوا الجرائد وتنازعوا الصحافيين اللامعين الذين يحصى بعضهم بين كبار الكتبة الانكليز : « ديفو »، «سويفت» ، « فيلدنغ » . لا بل ان أحد الاسياد العظام ، « بولنبروك » ، قد احترف الصحافة منذ السنة ١٧٢٨ حتى السنة ١٧٣١ تفانياً منه في سبيل حزبه . وقد استخـــدم رئيس مجلس الوزراء « مالبول » (١٧٢١ – ١٧٤٢) عدداً من المستكتبين واعطى تصاميم المقـالات واوحى بما يجب أن يُنشر لعدد كبير من الجرائد وقدم المساعدات المالية للمستقلين أو المعادين. فجر ذلك على الدولة ٥٠٠٠٠ الف جنيه استرليني في السنة . اتفقت كلمـة كافة السياسيين على أن لا يعرف الصحافيون عن البرلمان إلا ما يرونه مفيداً . لم تكن الجلسات عامة وقد حظر نشر وقائعها . فكان خيراً أن لا يعرف الجمهور معرفة أكيدة أن رئيس مجلس الوزراء كان يمر بين مقـــاعد النواب موزعاً عليهم الاوراق النقدية . ووجدت الصحافة نفسها ، من ثم ، معـاقة ومستعبدة بعض الاستعباد .

حاول بعض الصحافيين ، الحريصين على تأدية واجبهم المهني قبـــل كل شيء ، أن يؤمنوا استقلالهم . وقد بلغوا ما سعوا اليه ، فيما خص الاحزاب ، بفضل الاعـــلانات وحتى بفضل ضريبة الطابع البريدي التي ازالت المنافسين من طريقهم . نشر مديرو المجلات وقائـع جلسات مجلس العموم بالاشارة الى النواب بحرفين من اسمهم اولا (١٧٣١ – ١٧٣٨) ، ثم بتظاهرهم ، بعد صدور رواية « سويفت » ، بسرد مناقشات مجلس شيوخ « ليليبوت »(١٧٣٨ – ١٧٥٢)، واخيراً بنقلهم تفاصيل المناقشات بصراحة ، فسارت الجرائد على خطاهم . وكان أن الأزمـــة الكبرى التي نشبت بمحاولة جورج الثالث ممارسة الحـكم الشخصي ، وقد برزت فيها قضية « ويلكس » بصورة خاصة ، أفضت الى انتصار الصحافيين . ففي السنة ١٧٧١ ، أوقف بعض الصحافيين لنشرهم تفاصيل المناقشات البرلمانية ، فأخلى سبيلهم قضاة لندن ، وكان من قوة تيار الرأي العام أن تخلى البرلمان عن المنـع . وبعد محاولات كثيرة بذلت بغيـة تكليف القضاة الملكيين تقرير ما اذا كانت المقالات تنطوي على طابع القدح والذم ، تركت هذه المهمة اخيرا ، في السنة ١٧٩٢ ، للمحلفين والصحافيين الذين اصبحوا ، بمثل هذه الحماية ، يتمتعون بحرية تامة .

الصحافة الاميركية

في المستعمرات الانكليزية الاميركية تقدمت الصحافة تقدمـاً عسيرا . فالحبر والورق وأحرف المطابـع المستوردة من اوروبا كانت مرتفعـة الاسعار . وكان عدد المشتركين ضئيلا لأن الأخبار كانت نادرة ومتأخرة. وكان اجتياز الاطلسي يستغرق بين خمسة وثمانية اسابيع ، ولم تكن المواصلات أقل بطئاً بين المستعمرات الشمالية والمستعمرات الجنوبية . ومع ذلك فقد كان هنالك ، في السنة ١٧٧٥ ، ٣٤ جريـدة اسبوعية تصدر بانتظام تقريباً ، أهمهـا جريدة « فرانكلن » ، « جريدة بنسلفانيـا » ، في فيلادلفيا . خلال حرب الاستقلال ، أدير النضال الفكري بواسطة الكتب الصغيرة بصورة خاصة : إلا أن

« جريدة بوسطن » لصاحبها « شام ادامز » وجرائد « توماس باين » قد لعبت دورها ايضا .ثم تعاظم ميل الاميركيين الى المنشورات الدورية . فتأسست مصانع ورق وحبر وأحرف مطابع للاستغناء عن انكلترا . وفي السنة ١٧٨٢ ، كان هنالك ٤٣ نشرة دورية ، وفي السنة ١٧٨٤ ، ظهرت الجريدة اليومية الاولى ، « بنسلفانيا باكت » .

الصحافة في البر الاوروبي

كانت الصحافة في البر الاوروبي ، حيثما قامت ملكية مطلقة ، خاضعة للترخيص المسبق ، والاحتكار ، والرقابة المسبقة . وكان الصحافيون ، من جهة ثانية ، محتقرين في كل البلدان كجهلة وسطحيين . فكان للمؤلفات الكبرى والكتب الصغرى مركز الصدارة . ولذلك فان فولتير ، وهو اول صحافي عرفته العصور المتعاقبة ، لم يكتب في الجرائد . فكثرت من ثم الجرائد المخطوطة التي بيعت في الخفاء ، وهي الشكل الدوني من اشكال الصحافة .

في فرنسا

بيد ان استرخاء عاماً قد شجع الصحافة في فرنسا . دفعت بعض الجرائد الجديدة تعويضاً للجريدة الدورية الممتازة ، « جريدة فرنسا » ، للأخبار السياسية ، و « مركور فرنسا » للأخبار الادبية والعالمية ، و « جريدة العلماء » . وحرر غيرها خارج فرنسا وسمح لها بالدخول مقابل رسم تستوفيه وزارة الشؤون الخارجية . الا ان فقدان الوحدة في الحكومة غالباً ما اتاح الاهتداء الى وزير يحمي الجريدة من الرقابة . فصدرت منشورات دورية كثيرة اشهرت الأب « بريفو » ، والأب « ديفونتين » ، وفريرون . لا بل ان المكتبي « بنكوك » قد نظم منذ السنة ١٧٧٢ شركة احتكارية حقيقية للجرائد وتوصل في السنة ١٧٨٧ الى الحصول على امتياز « جريدة فرنسا » و « مركور فرنسا » ، وأدخل في خدمته المحررين النضاليين ، المشهورين بعنفهم وحمياهم ، الذين ينشدون الحرية . ولكن التأخر كبير بالنسبة للصحافة الانكليزية : فإن « جريدة باريس » ، وهي أول جريدة يومية ، لم تصدر الا في السنة ١٧٧٧ .

حاولت الحكومة ان تضمن لها خدمات الصحافيين الفرنسيين والصحافيين الذين يكتبون باللغة الفرنسية في كافة انحاء اوروبا . وقد انفقت في محاولتها مبالغ ضخمة من المال . ثم فكرت بأن تكون لها جرائدها ايضاً . ففي السنة ١٧٦١ ألحق « شوازول » « جريدة فرنسا » بوزارة الشؤون الخارجية واوعز الى المشرفين عليها باعتماد « اللهجة الجمهورية » . وبواسطة الصحافة أعد « فرجين » الرأي العام للحرب الاميركية . ومنذ السنة ١٧٧٥ أخذت « جريدة فرنسا » والـ « مركور » تعظم « الثائرين » . ومنذ السنة ١٦٧٦ ، ادارت وزارة الشؤون الخارجية سراً جريدة « شؤون انكلترا واميركا » التي ما فتئت تهاجم الانكليز وانتهت الى امتداح مبادىء اعلان الاستقلال ونشر مقتطفات طويلة من « المعقول العام » ، مقالة توماس باين الانتقادية الديموقراطية العنيفة . فكان ذلك بمثابة لعب بالنار .

البلدان الاخرى

أما الدول الاوروبية الاخرى ، فكانت كلّها دون فرنسا بمراحل. الترخيص يمنح بكل تقتير ، والرقابة تمارس بكل صرامة . نمت النشرات الدورية على العموم في المدن الحرة ، المزدهرة تجارتها ، « فرنكفورت» ، «همبورغ» ، كولونيا ، اوغسبورغ ، ولكنها لم تنج من ازعاج الرقابة الدائمة . بيد ان الاولوية كانت للنشرات الأدبية الدورية في كل مكان . وفردريك الثاني هو الوحيد ، بين كافة الملوك ، من افاد من الصحافة خير افـــادة براعاته مصلحته الشخصية دون كل مصلحة اخرى . استحدث الجرائد في مدنـه الكبرى . وكتب مقالات واوحى بغيرها ونقح سواها . مارس البُطل بكل مهارة . فلإثارة الرأي العام الألماني والبروتستانتي على النمسا الكاثوليكية ،لم يأنف من ان ينشر في كل مكان رسالة مزعومة من البابا الى القائد النمساوي « دون » وكتاب تهنئة مزورا من القائد الفرنسي « سوبيز » الى هذا الأخير (١٧٥٩) . في السنة ١٧٦٧ هزت برلين شائعة حرب جديدة . فاعطت الجريدتان البرلينيتان شتى التفاصيل حول عاصفة بَرَدية شديدة اجتاحت ، بزعمها ، منطقة « بوستدام ». نسي البرلينيون الحرب في استزادتهم من التفاصيل حول هذه الكارثة الخيالية . في سيليزيا المحتلة ارغمت «جريدة سيليزيا » على اطراء الانتصارات البروسية والنظام البروسي ، ومهاجمة النمسا . وأوعز فردريك الثاني بأن تؤسس في« كليف»جريدة باللغة الفرنسية بغية التأثير على اوروبا،هي «بريد الرين الاسفل ».وقدم المساعدات الماليـــة ،شأن غيره، للجرائد الصادرة باللغة الفرنسية ، ك «جريدة برن» مثــلا . وحارب خصومه بكافة الوسائل . فأمر مثلا بأن يوسع مدير « جريدة كولونيا » المعادية ضرباً بالعصا . اضطر النمساويون ، بدورهم ، الى اثارة جرائد المدن الكبرى على فردريـــك الثاني . وفي اقصى اوروبا ، أي في روسيا الآخذة في التنبه الى حياة الغرب الفكرية ، ادارت كاترين الثانيـة مجلة « شيء من كل شيء » واعتمدت فيها الاسلوب الجدلي . بذلت بعض المحاولات في سبيل تحقيق حرية الصحافة ، كمحاولة « جوزف الثاني » مثـــلا ، ولكنها لم تدم طويلا .

يتضح من ثم ان الصحافة برزت كأداة تربية قوية . وهناك جرائد دورية انكليزية وفرنسية عديدة اثبتت قيمتها الكبرى . ولكنها توجهت بصورة خاصة الى الميسورين والمثقفين من النبلاء والبورجوازيين . ان زمـــن الصحافة الشعبية لم يحن بعد . وعلى الرغم من ذلك ، فقد كانت الصحافة ، منذ ذاك التاريخ ، اداة كذب واداة تضليل للرأي العام .

ان مجموع الطرائق التقنية التي بحثناهـا في هذه العجالة ، سواء كانت جديدة كل الجدة ، ام اتخذ استخدامها آفاقاً جديدة واشكالا جديدة ، لجدير لعمري بأن يحمل اسم الثورة . توفرت للاوروبيين وسائل فاقت كل ما عرف منها قبل ذاك التاريخ . وكان بمكنتهم تولي امر تحسينهم الخاص وتحسين كافة البشر ومحاولة ايصالهم الى مستوى الانسانية الاسمى . ولكنهم لم يسعوا في اغلب الاحيان ألا وراء الفتح والاستثمار بغية اشباع رغائبهم . وعلى الرغم من النوايا الكريمة ، فقد حال الاتجاه التجاري للحضارة الاوروبية خلال القرن الثامن عشر دون قيام الاوروبيين بهداية الاعراق الملونة في ما وراء المحيط الى خير ما امتلكته اوروبا .

الكتاب الثالث

الأنوار وتعذّر تحقيق الأمّة الأوروبيّة

الفصل الأول

وحدة أوروبا

افتتنت اوروبا بحلم ساحر، هو حلم الامة الاوروبية. وعى المثقفون مايقرب بينهم من احياء آداب قديمة ، ومسيحية ، او مثُل موروثة عنها، تداخلت كل افكار العصر ، حتى المعادية المعادية منها، وفردية النهضة ، وروح علمية عصرية ، واشكال فنية ، وحياة مجتمع ، وتقنيات ، ولاحظوا وجود هذا الكائن ، اوروبا . وصفها فولتير كـ « ... نوع من جمهورية كبرى مقسمة بين عدة دول ، بعضها ملكي وبعضها الآخر مختلط ، هذه ارستوقراطية ، وتلك شعبية ؛ ولكنها متطابقة كلها ، من حيث هي ترتكز الى اساس ديني واحد ، وتؤمن بمبادىء حقوقية وسياسية واحدة ، مجهولة في انحاء العالم الاخرى ... » والح الميلانيون في التأكيد : « ان البشر ، الذين كانوا في ما مضى رومانيين او فلورنسيين او جنويين او لومبارديين قد اصبحوا كلهم اوروبيين تقريباً » ؛ وذهب الجنيفي روسو في تأكيده الى حد قوله « ان ليس هنالك اليوم من فرنسيين والمان واسبانيين وحتى من انكليز ، ليس هنالك سوى اوروبيين . ميول الجميع واحدة هواواؤهم واحدة واخلاقهم واحدة لان واحداً من كل هذه لم يتخذ شكلاً قومياً بموجب نظام خاص » . ودرج المثقفون على الكلام عن « عادات اوروبا المشتركة » . اما المستقبل المرتقب فكان نهاية الحروب وتقارب كافة الدول في اتحاد كبير للدول المتحدة الاوروبية .

اوروبا الفرنسية هي فرنسا آنذاك ما وحّدت اوروبا فكرياً وأخلاقياً . على الرغم من هزيمتها في حرب وراثة عرش اسبانيا ومن اعترافها بالهزيمة في معاهدتي « اوترخت » و « راستات» ، وعلى الرغم من ان انكلترا اصبحت الدولة الاولى تجارياً

وسياسياً ، فان فرنسا ما زالت تنير وتقود اوروبا ، وتنير وتقود بواسطتها عالماً بكامله . فإن المركيز « كاراشيولي » ، سفير نابولي ، قد صدّر كتابا صغيراً وضعه في السنة ١٧٧٦ بهذا العنوان : « باريس ، مثال الامم الاجنبية » او « اوروبا الفرنسية » . وقد جاء فيه : « من اليسير ابداً التعرف الى امة مسيطرة تحاول اقتفاء آثارها . بالامس كل شيء كان رومانيا ، اما اليوم فكل شيء اصبح فرنسيا » . وفي اواخر القرن ، قــال « ريفارول » في احتفال تتويجه في اكاديمية برلين : « يبدو ان الزمان قد حان للكلام عن العالم الفرنسي ، كما سبق الكلام في ما مضى عن العالم الروماني » . والمقصود بكل ذلك هيمنة فرنسية مرتكزة ، لا الى القــوة ، بل الى رضى الافكار الحرة .

الفرنسية لغة اوروبية

لأوروبا لغتها المشتركة ، اللغة الفرنسية ، التي كانت قيمتها احد اسباب رفعة المقام الفرنسية . منذ السنة ١٧١٤ ، اذ سلّم صاحب الجــلالة الامبراطورية وصاحب الجلالة المسيحية جدا ، في راستات ، بتوقيع اتفــاق باللغة الفرنسية ، حلت اللغة الفرنسية محل اللغة اللاتينية ، حتى حدود آسيا ، كلغة دبلوماسية : ففي السنة ١٧٧٤ حــرر الاتراك والروس معاهدتهم باللغة الفرنسية .

وتكلم امراء اوروبا جمعاء اللغة الفرنسية وكتبوا باللغة الفرنسية ، ونحا نحوهم افراد بطائنهم . وراسلت ماري - تريز النمساوية ابنها جوزف الثاني وابنتها ماري - انطوانيت باللغة الفرنسية . ونظر فردريك الثاني ، ملك بروسيا ، الى اللغة الالمــانية كما الى طمطمانية بربرية ولم يستعمل سوى اللغة الفرنسية . باللغة الفرنسية راسلت الفلاسفة كاترين الثانية امبراطورة روسيا . واستخدم اهل الأدب كذلك اللغــة الفرنسية . لا بل ان الجرمــاني « لسنغ » كاد يؤلف الـ « لاوكون » بالفرنسية ، وان « غوته » ، الذي سيتكلم فيما بعد عن « لغته الالمانية المزيزة » ، قد تردد بين اللغتين . واجاد العديد من الاوروبيين التأليف باللغة الفرنسية ، وانه لجدير بسبعة منهم ان يحتلوا مركزاً في أدبنا : البريطاني « هاملتون » ، الامــير البلجيكي « دي لينيه » ، الـكاهن الايطالي « غالياني » ، الصحافي الالمــاني « غريم » ، ملك بروسيا « فردريك الثاني » ، الامبراطورة كاترين الثانية ، الجنيفي جان جاك روسو . وتكلم اللغة الفرنسية كافــة « اهل الفضيلة والامانة » . فكانت اللغة الفرنسية لغة المجتمع الرفيع . ولم ينتقل الادب الانكليزي الى اوروبا الا في ترجمات او مقتبسات فرنسية . وحتى يستطيع الهنغاريون استخدام مجموعــة ايطالية ، كان ضروريا ان تكون مترجمة الى الفرنسية . ولعل النخبة الالمـانية عرفت مؤلفات كبــار الكتاب الالمان ، من امثال « كلوبستوك » و « لسنغ » ، من خلال ترجمة فرنسية . وخير القول ما قاله فردريك الثاني حين امر ان تنشر باللغة الفرنسية « ابحاث اكاديمية برلين » : « على الاكاديميات ، كي تكون مفيدة ، ان تبلغ اكتشافاتها باللغة الشاملة ، وهــذه اللغة هي الفرنسية » ؛ وفي كتابه « التاريخ العصري » جاء عن اللغة الفرنسية ما يلي : « تدخل الى كافــة

المنازل وكافة المدن. سافر من لشبونة الى بطرسبورغ ومن ستوكهولم الى نابولي ، وتكلم الفرنسية، فتصادف في كل مكان من يفهم ما تقول » .

ان اللغة الفرنسية مدينة بهذه الملكية الخارقة لوضوحها . فهي اكثر اللغات وضوحاً لان عمل الكلاسيكيين قد اقصرها على اعم المفردات بالاستغناء عن معظم الكلمات التي تستخدم في العلم الواسع الخاص وفي الاختبار التقني، وعن الكلمات الاقليمية والمحلية والشخصية والمؤثرة؛ ولأن كل كلمة أو تعبير احتفظ بهما قد كانا موضوع بحث وتدقيق ، وكل معنى قد حدّد ، والقوّة والمدلول قد قيسا ، والتجانسات والاستعمال والموافقات قد عينت ، وأخيراً لان ليس من لغة في أوروبا بلغت هذا القدر من الضبط والصحة والوضوح وقرب المأخذ بالنسبة لكل من ليس منتسباً للبلاد او للمهنة .

انتصرت لانها استُخدمت في اكمل المؤلفات ، تلك التي انتظمت فيها الافكار انتظاماً خالياً من كل عيب ينقلنا تدريجياً من الفكر البسيط الى الافكار المطردة التركيب بحسب تسلسل منطقي ؛ ولان كل فكر قليل الفائدة أو غريب عما يريد المؤلف ايضاحه او اثباته يقصى اقصاءً تاماً ؛ ولأنها استخدمت كذلك في المؤلفات التي حُققت فيها خير تحقيق صفات النظام والسياق والتدرج والاتصال واستمرار البيان، وفي تلك التي تطرق جوهر الموضوع بدون مداورة وتفسر وتبرهن وتقنع وتقرب الى الادراك ، بشكل لا نظير له .

ان هذه المؤلفات، وهي اجلى ما انتجته أوروبا ، لكافية بمجرد صناعتها لأن تؤلف مدرسة فكرية ، ولكنها بالاضافة الى ذلك تنطوي على كنز قل نظيره من الملاحظات والآراء . غزا الادب الفرنسي كل شيء. قرأ الناس كبار كلاسيكيي القرن السابع عشر ومؤلفي القرن الثامن عشر واعادوا قراءتهم تكراراً وتأملوا فيهم واستساغوهم وقلدوهم واقتبسوهم. لقد هتف الميلاني « بكاريا » قائلاً : « أنا مدين بكل شيء للكتب الفرنسية . ايه دالمبير وديدرو وهلفتيوس وبوفون، ايتها الاسماء الذائعة الشهرة التي لا يمكن ان نسمع بها دون اهتزاز وتأثر ، ان مؤلفاتكم الخالدة هي كتب مطالعتي الدائمة وموضوع انشغالي في النهار وتأملاتي في الليل» .وكان باستطاعة الوف مؤلفة ان تقول ما قاله بكاريا .وتشرب فردريك الثاني« بايل» ، وفونتنيل ، ومونتسكيو الذي دعاه « توراة المشترع المصري »، ولا سيما فولتير . وتغذى جوزف الثاني بمؤلفات واضعي دائرة المعارف والاقتصاديين و « الملك » فولتير . وتشبع الكتاب الالمان من الادب الفرنسي . لا بل ان صحافياً اشتهر بألمانيته كـ «لسنغ » قد حاول افراغ جملته في قالب جملة فولتير ، واشهر بمسرحياته نظريات ديدرو ، واستوحى الاب « دي بوس » في نقده الفني . وجاء غوته الى جامعة ستراسبورغ بغية اتقان اللغة الفرنسية وافتتن بالفرنسيين . لا بل بلغ من تأثر الانكليز بالادب الفرنسي ان مقالات انتقادية سياسية قد صيغت صياغة فرنسية . لقد سيطر على اوروبا اتجاه عقلي مشترك وطريقة تفكير مشتركة وآراء كثيرة مشتركة .

وكان فرنسياً كذلك الفن الاوروبي، وهو مصدر آخر لميول ومشاعر مشتركة.

الفن الفرنسي فن اوروبي

اراد المجتمع الفرنسي آنذاك ان يحمل حياته بملاذ الحواس اللطيفة التي تستلزم حكماً محصاً، وقد خرج الفن الفرنسي من هذه النزعة التي قواها.

انه متجانس وتطوره متواصل. بشق النفس نستطيع ان نميز مزيداً من الشهوانية والهوى في عهد الوصاية، اثناء المرحلة التي عقبت الحرب؛ وحالة توازن حوالي السنة ١٧٥٠، حين عرف النمط المعروف بنمط لويس الخامس عشر اوج ازدهاره؛ ونزعة متزايدة الى البساطة وعدم التصنع، ابتداء من السنة ١٧٦٠، تحت تأثير العصور القديمة المكتشفة في اترووريا، وبومبيي، ومصر، ونظريات «ونكلمن»، في ما اطلق عليه اسم نمط لويس السادس عشر. ولكن هنالك ما هو اشبه بتصميم على متابعة المهمة المشروع بها وادخال الجدة في التقليد. فكان «دافيد» اول من ظهر بمظهر الثائر. وان هذه الوحدة وهذا الاستمرار يردان الى هيكل اداري «لا يزعج الاقوياء...، ويساند الضعفاء، ويتيح للمتوسطين انفسهم ان لا يكونوا البتة ارديا كلياً»: سلطة وكيل الابنية ومهندس الملك ورسامه الاولين، واثر الاكاديميات النشيطة جداً التي تعلم وترشد وتكافىء. وترد الوحدة والاستمرار كذلك الى الزبن الذين يحتل البورجوازيون ولا سيما البورجوازيات المركز الاول بينهم: المرأة هي مصدر الوحي الاول. اما الملك، الذي واجه صعوبات مالية جمة، فلم تعد نصرة الفن وقفاً عليه، بينما كانت البلاد آخذة بجمع الثروات بواسطة التجارة والمصانع. واذا استمرت الملكتان «ماري لكزنسكا» و «ماري انطوانيت» والعائلات النبيلة الكبرى في تشييد الابنية وطلب البضائع، فان حديثي النعمة وحديثي العهد بالغنى قد لعبوا دورا ربما كان اكبر من دور الملكتين والعائلات النبيلة: الخليلات الملكيات المنحدرات من اصل وضيع، كالسيدة «دي بومبادور» والسيدة «دي باري»؛ ورجال المال كـ «كروزا» و «باري — دوفرني»؛ وممثلات الاوبرا كـ «غيمار». لم يعد الفن فرسايليا فحسب، انه باريسي في الدرجة الاولى، والولايات تقتفي اثر باريس. الفنان يحلم بجمهور اكبر عددا. فمنذ السنة ١٧٣٧، لا تسمح الاجتماعات في قاعات الاستقبال، التي يسرد تفاصيلها الصحافيون، كديدرو مثلاً، بالاتصال بمزيد من الناس فحسب، بل ان اعادة نشر المؤلفات بنقوش متقنة يرغم على ارضاء هواة من صغار البورجوازيين انفسهم ايضا. من هذه التأثيرات المختلفة انبثق الفن الذي تميز بتنوعه وسحره.

ازدهر في أعقاب حروب لويس الرابع عشر الطويلة والعصيبة، في عصر أبعد استقراراً كادت المملكة لم تشعر فيه بقتال ملوكها في الخارج، واستوحى السعي وراء السعادة على هذه الارض، فجاء فناً علمانياً بحتاً ليس من روح الكنيسة لا بقليل ولا بكثير. هندسة عمارة كان ام تزييناً، رسماً أم نقاشة، زياً أم موسيقى، فانه يطفح بالطلاوة أبداً. اناقة، وخفة حتى في القوة، وانطلاق، ونسق رشيق، واعتدال، وتحفظا، انه لمن الصعب التعبير عن هذه

الطلاوة بالكلام ، ولكن ليس من يشاهد تحقيقات هـذا الفن دون أن يتأثر بها . انه فن فتي ؛ فتي باختيار نماذجـه أولاً : فمع ان الرسامين والنقاشين لم يرفضوا الكهول والشيوخ في رسم الاشخاص ، وحتى المشاهد ، فانهم قد فضلوا الاطفال والفتيان والشبان ولا سيما الشابات ، لأن العصر كان « عصر المرأة » ؛ وفتي كذلك بميله الى الحركة ، ونزوة العنف في التماثيل المختلجة ، ومسيرة الجماعات الراقصة على اللوحات ، ونسق وجه الابنية الذي يشعر المشاهد امامه وكأنه مأخوذ ومحمول كما في موسيقى راقصة سحرية . انه لفن بهج أيضاً : فاخشاب الاثاث الزاهـرة الالوان ، ومرايا المداخن المتألقة ، والوان الرسوم اللامعة والمتنوعة ، وجمال العري ،والبسمات، كل ما فيه سحر للعيون ، وعيد دائم ، وكل ما فيه يعبق ببهجة الحياة . وانـه لفن مريح اخيراً لا يغفل رغد العيش البتة. ان هذه المميزات المسيطرة ، التي قد ترافقها مميزات أخرى ،موجودة في كافة تحقيقات هذا الفن .

هندسة العمارة الفرنسية

عني القرن الثامن عشر عناية خاصة بتجميل المدن الذي سبق للقرن السالف ان عاد إليه . نظر الى المدينة ككل لتجميلها وتحسين حياة سكانها المادية . سعى وراء الجمال والمنفعة في آن واحد . كوّن لنفسه مفهوماً كلاسيكياً واراد إخضاع الطبيعة لمشيئة الانسان وعقله ، ولكنه لم يهمل الطبيعة قط ، ولا التاريخ، لأن الصواب يقضي بالافادة من معطياتها . فبرزت في كل مكان الارصفة الجميلة والجسور المتينـة في « رين » و « اورليان » و « بلوا » و « تور »و « نانت» ، والمنتزهات العامة وحدائق المدن ، كـ«الدائرة الكبرى » في « تولوز » مع نجمتها المخضوضبة (١٧٥٢) ، وحديقة « الينبـوع » في « نـيم » ، و الـ « بيرو » في « مونبلييه » مع اطلالته على أفق جبال « سيفين » العابس والاجرد ؛ وبرزت في كل مكان الساحات الملكية الممتدة لأن تكون اطاراً لتمثال الملك، في «ليون»، و «مونبلييه» و « ديجون » و « رمس » ، و « فالنسيان » ، و « نانسي » ، و « بـوردو » ، و « رين » ، ولا سيما ساحة لويس الخامس عشر (ساحة الاتفاق) في باريس . ولكـن الساحة ، التي كانت مقفلة في القرن السابع عشر ، انفتحت في القرن الثامن عشر واسهمت في السير العـام . لم يشيد في جوار ساحة لويس الخامس عشر سوى صف من الابنية الى الوراء،وامتدت الحدائق الى يمينها ويسارها وانساب نهر السين امامها . وتجاورت الساحات ، كما نرى ، في نانسي مثلا ، ساحة « دوكال » مع حواجزها الحديدية المشبكة الشهيرة التي حققها « لامور » ، وساحتي « الحجر » و « نصف الدائرة » اللتين « تتقابلان وكأنهما مقطعان من نغم واحد » . وظهرت فكرة تجميل عصرية جداً في التصاميم التي وضعها « لدو » لمدينة نموذجية تقرر بناؤها في « شو » ، من اعمـال « فرانش – كونتيه » ، حيث تبدو الابنية المكعبة والكروية ، الخلو من كل تزيين ، تسبيقاً لما سيحققه « له كوربوزييه » .

احتفظت هندسة العمارة بطابعها الكلاسيكي ، وعلى الرغم من اننا نلمس فيها تطور القرن العام ، فلعل الفن هو أقل ما تبدل فيها . لم يحدث الملك أشياء جديدة كثيرة في فرسايل ، وان

ارتفع هنا الـ « تريانون الصغير » الذي حققه « غابرييل » (١٧٦٨) والذي هو تحفة القرن الثامن عشر . فباريس هي التي استأثرت بالمحدثات الهامــة . لم تقم هناك أبنيــة دينية كثيرة (القديسة جنفييف التي حققها « سوفلو » ، و « سان سولبيس » التي حققها « سرفندوني ») . ولكن الابنية الدينية تجددت بالاستعاضة عن الركائز الضخمة الثقيلة بالاعمدة الرشيقة وباعتماد الاروقة . اكثر الابنية الجديدة أبنية منفعة عامة : المدرسة العسكرية ، وهي من تحقيـــق غابرييل (١٧٥١) ، ومدرسة الجراحة ، من تحقيق « غندوان » (١٧٨٠) ، ودار السكة (١٧٧١) ، والمسارح ، كـ « الاوديون » ، من تحقيق « انطـــوان » و « بـــير » ، ومسرح « فكتور لويس » في بوردو الذي كان سلمه الابهى الكبير ، المستوحى من القصور الملكية ، مثالاً نسج « شارل غارنيه » على منواله عندما حقق دار الاوبرا في باريس . وقامت كذلـــك دور ارستوقراطية كثيرة شيدت بحسب تصميم خاص : المسكن منفرد تحيط به ابنية الخدمة القائمة الزوايا ويفصله عن الشارع فناء الشرف ، ووجه البناء مع بناء آخر امامي في الوسط ، والحدائق في المؤخرة . اما امثلة ذلك فدار « سوبيز » ، من تحقيق «ديلامير » و « بوفران » ، ودار « بيرون » (متحف « رودين ») من تحقيق غابرييل ، ودار « ماتينيون » (رئاسة مجلس الوزراء) من تحقيق « كورتون » ، ودار « سالم » (قصر جوقة الشرف) من تحقيق «روسو» ، وقد شيدت كلّها تقريباً في ضاحية (سان جرمان) عند منطلق طريق فرسايل ؛ وقصور آل « روهان » في « ستراسبورغ » و « سافرن » من اعمال الالزاس .

هذه الهندسة كلاسيكية بما اقتبسته عن العصور القديمة وعصر النهضة : الاعمدة ، الاروقة ، تيجان الاعمدة الدورية والايونية والكورنثية ، العتبات فوق الاعمدة مع الساكف ، الافـــاريز والاطناف ، المثلثات في اعلى مقدم البنـــاء ، الدرابزونات والقباب . وهي كلاسيكية بنظامهـا الصارم . تتألف الابنية كما تتألف عظات « بوسويه » ومآسي « راسين » . التوازن والانسجام والتناسق ، تلك هي صفات هذه الهندسة التي تكملها هندسة اخضيضاب الحدائق على الطريقة الفرنسية : ان نظر المشاهد يهتدي بحواشي الحدائق الطويلة وصفوف الاشجار المشذبة الوارفــة الظلال ، ينتقل من ارض مخضوضرة الى مرآة مائية ، ثم يضيع في أفق سمنجوني وتستقر العين في التماثيل البيضاء .

ان هذه الهندسة معتدلة جداً . لا تعتمد التزيين الا بكل تزن . الجمـــال يقوم في كمال نحت الحجر ، وتناسق الخطوط ، وضبط النّسب ، والمطابقة الصحيحة بين كافة الاجزاء والغاية التي وجدت من اجلها ، والذوق الصائب في وضع العرض حيث يرتاح اليه النظر . وقد برزت صفة الاعتدال هذه بعد السنة ١٧٥٠ بصورة خاصة . ولكن لا برودة ولا تعبس ، اذا استثنينا اواخر القرن . ان حياة رقيقة تسري في اوجه البناء هذه ، وايقاعاً خفياً يهز عضلات المشاهـد وموسيقى شجية تجتذبه . على الرغم من عظمتها الحقيقية ، وحتى من جلالها احيانا ، فان مـــا يشبه الخفة والاندفاع ، والطلاوة الراقصة ، يحمل المشاهد يتعرف فيها الى عصرها . امـــا بعد

السنة ١٧٧٠ ، فقد اصبح المعبد اليوناني ، بتأثير من علماء العاديات ، النموذج المألوف للمسارح (اوديون) ، والاسواق (المصفق) ، والكنائس («سان فيليب ـ دي ـ رول» ، من تحقيق شالغرين) ، واتجه الذوق الفاتر شطر الجفاف والتقشف قبل ان ينتقل ، في عهد نابوليون الاول ، الى الضخامة والعظمة .

وعلى نقيض ذلك ، تبدل تزيين هذه الابنية وتأثيثها تبدلا تاماً . فان الراحة والصفاء والظرافة قد تقدمت العظمة والقوّة . ظهرت «مساكن صغيرة » حتى في فرسايل . وبغية انارتها وتكبيرها ، وضعت المرايا فوق المداخن . ثم احدث التزيين بالملاط الكلسي والرخامي والمعاجين على انواعها والواح تخشيب الجدران والحديد المشغول ما يشبه الخطوط المنحنية التي تكونها الالعاب النارية . ان مشاهد الرعيان ، والحظائر ، والقرود الصاعرة ، والطيور ، والازهار ، والثمار ، واكاليل الازهار ، وكنانة اله الحب وقدسه هي المشاهد التي زالت عادتها ولم يستخدمها الفرنسيون الا داخل دورهم ، والتي تفتحت في دار سوبيز ، في قاعة بوفران الاهليلجية المشهورة ، او في رواق دار تولوز (مصرف فرنسا) المذهب . غدا الاثاث اخف وزنا واسهل نقلاً والبس بالنسيج المحشوّ واتخذ اشكالا تتفق ومنعطفات القوام.حلّ محل الكرسي المستقيم المسند ، المعد للتصدّر ، والمشهور بطراز لويس الرابع عشر ، الكرسي المشهور بطراز لويس الخامس عشر والذي حشي مقعده ومسانده وغلفت بالمديجات.وظهرت الكراسي الواسعة ذات الاذنين ، والكراسي الطويلة او « الخطيئة المميتة» ، والارائك ، والتخوت والكراسي الخفيفة . ونثرت الطاولات المستديرة والطاولات الصغيرة والمكاتب والخزائن ذات الادراج وعلب ايداع محتويات الجيوب ، في كل مكان تقريباً . اما مادة هذه المفروشات فبهجة وساطعة بالوان متقلبة : اخشاب الجزر ، البلاذر ، خشب الورد ، وخشب البنفسج ، واللك الاحمر والذهبي واللك المتعدد الالوان ، وبرنيق «مارتين» . واذا عرف الميل الى الرفاهية الاستمرار ، فأن اعمال التنقيب في بومبيي قد روّجت تدريجياً ، ابتداء من السنة ١٧٦٥ ، اشكالا مستقيمة وهندسية لاتزال تتميز بالخفة والطلاوة ، والالوان غدت اقل ايذاء النظر ، وظهرت الخلفيات السوداء الاولى مزدانة بفسيفساء او رسوم قديمة المواضيع ، ولاسيما بالراقصات الساحرة . ان الطراز المعروف بطراز لويس السادس عشر قد بدأ قبل لويس السادس عشر بزمن بعيد .

الرسم الفرنسي

ماشى الرسم الظروف الجديدة . فلا مكان في المساكن الصغرى للوحات التاريخية والميثولوجية الكبرى ، بل للوحات الصغرى الكثيرة ، فوق المداخن والابواب مثلا ، التي يحلو النظر اليها . لذلك تنوعت مواضيع الرسم التزييني وكثرت اللوحات الصغرى التي يسهل تركيزها ونقلها من مكان الى اخر .

اعدّ الرسم للارضاء والاعجاب قبل التربية والتهذيب ، لذلك نراه يتخلى عن المثل العقلي

الاعلى الذي سعى وراءه في لوحة « رعاة اركاديا » . توجه الى الحس بواسطة اللون . الرسامون ملونون كلفوا بالبندقيين ، والفلمنكيين ك « روبنس »، والهولنديين ك « رمبراندت » . فهم والمعجبون بهم يتلذذون باللون كلون ، ويتمتعون باهتزازاته كا بالموسيقى. اما الصناعة فعصرية في اغلب الاحيان وتبشر بالتأثريين . يفصل « شاردين » بين الالوان التي يجـاورها ويربط بينها بتقاطع الانعكاسات . وينهج « فراغونار » النهج نفسه ، ويعتمد تبـادل الاشعاع بين السدوف والخلفيات ، ويلون الظلال . فغدا الرسم ، اكثر فاكثر ، تأليفيا يتلقف الايجاز الحاسم .

ايقظ الرسم الخيال . انـه شعر العصر ، ذلك الشعر الذي افتقر اليه الادب ايما افتقار . فها هي « الاعياد الانيسة » لـ «فاتّـو» (١٦٨٤ — ١٧٢١) التي هي حوار مستلذٌ بين اسـياد شبان وسيدات شابات ، وخرافات حقيقية ، نخص بالذكر منها لوحـة « الابحار الى سيتير » (١٧١٧) الشهيرة ؛ وها هما لوحتا « دور فينوس » و « الراعويات » لـ « بوشيه » (١٧١٣ — ١٧٧٠) اللتان تمثلان حلم انسانية جميلة ، شهوانية ، خصابة ، في طبيعة منظمة ؛ وهـا هي انشودة الحب ، لـ « فراغونار » (١٧٣٢ — ١٨٠٦) ، التي تعبق منذ ذاك التاريـخ بكل الشعر الغنائي الرومنطيقي ؛ وها هي لوحات غرق السفن والعواصف في ضوء القمر ، لـ «فرنيه» (١٧١٤ — ١٧٨٩) ، والاطلال لـ « هوبير روبير » (١٧٣٣ — ١٨٠٨) .

ولكن الرسامين ابناء زمن كانت محبته للحياة اليومية اقوى من ان يكترثوا للعـالم المحيط بهم . فان « فاتو » نفسه قد رسم مشاهد عسكرية ، كا رسم « فرنيه » مرافىء فرنسا . ونجـد في ما خلفه « هوبير روبير » تاريخاً مصوراً لفرنسا تحت ظل النظام القديم . امـا الاختصاصي شاردين (١٦٩٩ — ١٧٧٩) ، فـكان رسام صغار البورجوازيين (« الام المنهمكة» و «صـلاة تناول الطعام») . وبرع كلهم في رسم صور الاشخاص ،فكانوا سيكولوجيين يتقصون اعمق اعماق الشخص الذي يرسمونه . ويجب ان نضيف الى من ذكرنا « ناتييه » (١٦٨٥ — ١٧٦٦) الذي رسم مـاري لكزنسكا و « سيدات » فرنسا ، والسيدة « فيجيه لبران » التي رسمت ماري انطوانيت ، وامهرهم اطلاقـاً ، المصور بالقلم ، « لاتور » (١٧٠٤ — ١٧٨٩) ، اللوذعي حتى الفظاظة ، الذي رسم « مدام دي بومبادور » ولويس الخامس عشر .

الا ان في هذا القرن ، الذي بلغ هذا القدر من الثروة والتنوع ، نواحي اقل جمالاً : الرسـم الخلاعي الذي لا نجرؤ على اصـدار حكمنا عليه في ما انتجه « فراغونار » الصادق والضاحك (الارجوحة ، القميص المخلوعة) ، والذي تقز منه النفس امـام ما خلفه « غروز » المرائي (الابريق المكسور) ، وما هو شر من ذلك ، رسم « غروز » الاخلاقي ، البهرج والمفخم ، الذي له اسوأ وقع على المشاهد .

أما النقاشة بماء الفضة التي برع فيها « كولين الابن » وسانتوبين و « ومورو الابن » ، فقـد عرّفت فرسايل وباريس . وقد اكتشفت النقاشة بالالوان في السنة ١٧٢٥ .

وأما التدبيج الذي وفّر له الرسوم الايحازية اشهر رسامي العصر فقد اعطى نتاجاً جيداً جداً نقل او نسج على منواله في كل مكان .

في أواخر القرن تأثر «دافيد»(١٧٤٨ — ١٨٢٥) باستاذه «فيان» وبالساكسوني «ونكلمن». على الفن ان يستخلص من الطبيعة الجمال المثالي ؛ قام القدماء بذلك خير قيام ؛ يجب التتلمذ عليهم ؛ الا ان الرسم القديم ، اذا ما استثنينا الآنية اليونانية والرسوم الجدرانية في بومبيي ، قد اضمحل وزالت آثاره ، فيجب من ثم النسج على منوال النقاشة وانتاج نقوش مصورة . ان «يمين الهوراس» ، التي عرضت في روما في السنة ١٧٨٤ وضمت ، على تعبسها وطابعها المسرحي ، اجزاء جميلة جداً ، قد عرفت نجاحاً عظيماً جداً وكانت بمثابة بيان المدرسة الجديدة . فأوقف دافيد بذلك ، لسنوات طويلة ، تياراً لن يظهر ثانية الا مع مدرسة السنة ١٨٣٠ .

النقاشة الفرنسية

تطورت النقاشة من الحركة الوثابة في « جياد الشمس » لـ «روبير اللوريني» الى الاتزان في ينبوع غرينيل » لـ «بوشاردون» (١٧٣٩) والى الكلاسيكية الزاهدة وربما العابسة في « سان برونو » و « ديانا » لـ « هودون » .

حافظت اكثر من الرسم على المواضيع الكبرى : التماثيل الملكية للساحات («لويس الخامس عشر»لبوشاردون ، في ساحة لويس الخامس عشر ، ١٧٥٠ ؛ و «لويس الخامس عشر لـ «بيغال» في « رمس» ، ١٧٥٦) ، وقد حطمت كلـّها على يد الثورة ؛ الأبنية المدفنية ، كضريح المارشال « دي ساكس » في ستراسبورغ لـ « بيغال » (١٧٧٧) . ولكنها ، في الدرجة الاولى ، نقاشة مساكن تتميز بالخطوط المرنة ويضاهي فيها الآجر الرخام وتكثر من النساء والاولاد والفتيان: كـ « مركور رابطاً جناحيه » و « الولد والقفص » ، و « الولد والعصفور » لـ « بيغال » ، و « المستحمة » لـ « فالكونيه ».. وكان النقاشون اخيراً مصوري اشخاص سيكولوجيين ايضاً يظهرون لنا مجتمع عصرهم كاملاً : بيغال («فولتير عار » ١٧٧١) ، « لموان » ، «باجو» ، « كافييري » ، وخصوصاً « هودون » ، الذي يعتبر « لاتور » النقاشة («فولتير» في بناء الكوميديا الفرنسيه ، و « واشنطون » في كابيتول « ريتشموند » ، و « وفرانكلن ») .

الموسيقى الفرنسية

هل كانت الموسيقى الفرنسية ، في هذا القرن ، دون الفنون الاخرى ؟ يبدو ان فرنسا لم تنجب عباقرة من امثال اولئك الذين انجبتهم النمسا وتورنج . ولكن اثر الموسيقى الفرنسية ، على الرغم من ذلك ، كان كبيراً . فالفرنسيون كانوا في الدرجة الاولى اساتذة معتبرين عرفوا ،هنا ايضاً ، الاهتداء الى النظام العميق المحتجب تحت الظواهر واكتشاف النواميس وردها كلـّها الى مبدأ مشترك . وهذا ما فعله «رامو» ، المراقب البصير ، والعقل القياسي والمنطقي ، في مؤلفين هما بمثابة « مراحل الاجر ومية الموسيقية » : « بحث في الايقاع » (١٧٢٢) و « واثبات مبدأ الايقاع » (١٧٥٠) . فرد نهائياً مقامات الألحان الاثني عشر القديمة الى المقامين الأكبر والاصغر ، والمقام الاصغر الى المقام الاكبر ،

والمقام الاكبر الى توافقي الاصوات الاساسيين ، التام والسباعي ، وهـــذين الآخرين الى اللحن الخاص ، اي « النقطة الايقاعية » . وقد خضع التلحين كله ، حتى العهد المعاصر ، لأعمـــال رامو . عرف الفرنسيون اذن كيف يستخلصون من ممارستهم الموسيقية ، بجهود تحليل وتجريد ، قواعد عامة وتمارين منسقة لتعلم العزف على الآلات الموسيقية . فقد نشر « فرنسوا كوبرين » ، الكبير ، في السنة ١٧١٧ ، « فن العزف على البيانو (القديم) » ، ونشر « رامـو » ، في السنة ١٧٢٤ ، مجموعة معزوفات للبيانو ، تحت اسم « اساوب لآلية الأصابـع » . واعطى الفرنسيون خير أمثلة عن موسيقى البلاط وموسيقى قاعات الاستقبال . وجلّوا في البيانو القديم ، الذي هو جدّ البيانو الحالي ، ولكنه يبضّ الوتر بدلا من ان يطرقه طرقاً ، فـــلا يستطيـع من ثم صيانة الصوت ؛ والى هذا يرد ضعف رنينه ، « حزمة مفاتيـح تحرك » ، والحاجة الى المدبجات والزين المختلفة ، وتخصيصه للموسيقى الخفيفة والرقيقة : البيانو القديم « مشط دقيق لامـرأة شقراء مجعدّة الشعر جداً » . ان رامو و « وداكين » (١٦٩٤ – ١٧٧٢) ، ولا سيا فرنسوا كوبرين الكبير (١٦٦٨ – ١٧٣٣) قد اكثروا في الموسيقى من «الاعياد الانيسة» و « التسليات الريفية » و « الراعويات » التي حققها الرسم ، فجاءت نغما لطيفاً ومرناً على غرار اثاث مـــن طراز لويس الخامس عشر ، على بعض التصنع في الطلاوة وتلاطف في الاناقة ، تتسلط عليهـــا المرأة تسلّـطاً كلياً كما تدلّ على ذلك اسماؤها : « الساحرة » ، « العفيفة » ، « الشهوانيـة » ، « الساذجة » ، الخ . وقد جلىّ رامو بالاضافة الى ذلك في الاوبرا . واشهر مؤلفاتـــه الكثيرة « كاستور وبولوكس » (١٧٣٧) . اعطى فيهـا مثال الموسيقى النبيلـــة ، المتحفظة ، المعدّة لمساعدة الشعر في التعبير عن المشاعر وأحوال النفس دونما زخارف نافلة ، الكلاسيكية ، لغـة الفؤاد . وهم الفرنسيون اخيراً من خلقوا الاوبرا الهزليـــة التي أشهرهـا اسم « غرتري » ، وعندهم اكتُشفت اصول الايقاع الذي احدثته منذ السنة ١٧٤٣ مدرسة «مانهايم» الألمانية .

الزي الفرنسي

اتجه الزي كذلك شطر المستحب والمستحسن . منـذ السنة ١٧١٨ ، انتشر استعمال القضبان الخفيفة والطوية التي تنفخ «التنانير» : وكانت البهجة كبيرة بالخلاص من فساتين الزي القديم الضيقة . ارتدت النساء « مباذل » ، أي فساتين واسعة ومتسدلة ، تكشف العنق والكتفين وأعلى الصدر ، ومزودة باكمام على شكل القمـــع والهيكل الصيني . الاقمشة خفيفة : منسوجات قطنية من الهند ، ومنسوجات موصلية ، وشفوف دقيقة جـداً ، وحرائر . السيدات يقصرن شعرهن الذي يجعدنه قصّاباً كبرى ويضطررن في سبيل ذلـك الى الذهاب الى المزينين . ويبرزن جمالهن بقسمات من النسيج الحريري الدقيق الاسود يلصقنهـــا بالوجه ، « الاذية » : « المولعة » ، الى جانب العين ، « الماجنة » ، فوق الانف ، « المغناجة » ، في أعلى الخد .

وتخلى الرجال عن الجمم المستعارة الضخمة والملابس المثقلة بالاوشحة والمخرمـات واعتمدوا الملابس البسيطة ، الضيقة ، السراويل من نوع « غمـــد المسدس » ، والثوب المخصر المنحدر الى

الركبتين ، والجسم المفلطحة .

منذ السنة ١٧٥٠ ، زادت كسوة رأس النساء ارتفاعاً . وفي عهد لويس السادس عشر باتت مرتفعة جداً ، حتى بات وجه النساء على ارتفاع ثلثي طولهن . وابتكر « ليونار » القبعات المعبرة « على طريقة مونغولفيه » ، و « طريقة المتمردين » ، و « طريقة الدجاجة الحسناء » مع مركب حربي مبسوط الأشرعة . أما الملابس فقد تكلفت ، اكثر فأكثر ، البساطة وطابع الازياء الانكليزية للرجال .

ابتكر الزي فنانون حقيقيون. هم الخياطون وحدهم من صنعوا ألبسة الجنسين في القرن السابق، أما اليوم فقد ظهر طراز جديد هو طراز الخياطة وصانعة القبعات النسائية . إن الآنسة «برتين» « وزيرة الزي » ، المقيمة في شارع « سانتو نوريه» ، تشاهد الملكة « ماري – انطوانيت » يومياً . المزينون الاختصاصيون يحلون محل الفراش والفراشة . «داجيه» يزين السيدة « دي بومبادور » ؛ و « ليونار » يزين « ماري – انطوانيت » ؛ و « له غرو » يؤسس اكاديمية التزيين. وتقوم جرائد الازياء بنقد الفن الجديد .

الطهاية الفرنسية

ان بعض متذوقي المآكل ساعدوا الطهاة على تحسين فن الطباخة . يفرض تذوق المآكل حساً مرهفاً في اللسان والمذاق ، وانتباهاً كلياً دائماً ، وحكماً سليما للتمييز بين الطعم والروائح الزكية في ادق فوارقها ومطابقاتها وتداخلاتها . النهم فن من الفنون الجميلة ، وهو جدير بان تكون له ربة شعره . الطهاة في دور « اورليان » و « كونتي » و « سوبيز » ، والطهاة في دور الاحبار ورجال المال يتبارون في وضع خير جداول الاطعمة تنظيماً ، وتركيب اكثر المتبلات اتقاناً وتخليد اسماء اسيادهم باطلاقها على فريدة من الثرائد ، او على حساء جديد . انتظمت الوجبات الفرنسية انتظام المسرحيات الكلاسيكية . الخمور والاجبان الفرنسية ارسخت شهرتها . ابتكرت السيدة « دي بومبادور » صنف القدد من لحم ظهور الدجاج في « المنظر الجميل » ، وابتكرت سيدات غيرها صنف السمانيات على طريقة « ميربوا » وصنف الفراريج على طريقة « فيلروا » . وخلدت مآثر الدوق «دي ريشليو » في « بور – ماهون » بالحساء المركب من زيت وخل وملح وفلفل ومحة البيض. وكان القرن الثامن عشر بالاضافة الى ذلك قرن النبيذ الشمباني المزبد ، والفطائر المحشوة بقطع الاكباد المشهورة باسم فطائر ستراسبورغ ، وحلوى « *Praline* » الدوق « دي برالين » . كما كان قرن الطاهي « كاريم » المشهور الذي كانت محبته للمطبخ اقوى من ان يتأخر في تناول الطعام ، والمقصف « بريا – سافارين » الذي ولد في السنة ١٧٦٥ .

غزو فرنسا لاوروبا

غزا الفن الفرنسي اوروبا . تزاحم الامراء والنبلاء على الطهاة الفرنسيين . صدرت المفروشات الفرنسية من فرنسا شحنات كبرى . عند الامراء في ردع صانعي الاثاث والفروش الفرنسيين بغية احداث المعامل في بلدانهم . وقد بلغ من شهرة مصنع الـ (غوبلين) الملكي الفرنسي انهذا الاسم اصبح اسم جنس لتعيين المفروشات

المصرية على اختلاف مصدرها . زودت حوانيت الصاغة في باريس كافة البلاطات الاجنبية . وانتشرت منتجات مصنع « سيفر » الملكي من آنية صينية وآنية شبيهة بالمرمر في كل مكان . واستوردت النساء من باريس الفساتين والجوارب الحريرية والمراوح والقفافيز المعطرة واحمر الشفاه وكافة « سلع المحبة الصغيرة الحجم » . وتزين وارتدين الملابس على الطريقة الفرنسية . وكن يرتقبن بفارغ الصبر دمية شارع « سانتولوريه » ، المزينة الشعر والمجملة بالملابس ، التي تأتيهن كل شهر باحدث زي في باريس . وكن في ساعات دوارهن يستسلمن الى السحر احياناً. فقد عادت كنة كاترين الثانية يوماً من باريس بـ ٢٠٠ صندوق من فساتين شارع « سانتونوريه » وخرقه ، وما ان رأتها كاترين حتى طاش صوابها واصدرت قانوناً يقيد النفقات المفرطة . وقد شقت باقات خيوط الحرير التزيينية والبهارج والمخرمات الحريرية طريقاً امام الملحنين والكتاب والرسامين .

ان الموسيقى الفرنسية ، التي احتقرها جان جاك روسو ، كانت موضوع تقدير الالمان . وشقت القطع الموسيقية الفرنسية ، ولا سيما موسيقى البيانو ، طريقها الى كافة البلاطات الالمانية حيث عزفت وقلدت ونقلت . واقتبس الايطاليون والالمان الكثير من موسيقى رامو الاصيلة . وفي كلامه عن فرنسوا كوبرين الكبير ، صرّح « براهمز » « بأن « سكارلاتي » و « هايندل » و « باخ » من عداد تلاميذه » (مدخل طبعة المؤلفات الموسيقية المعدة للبيانو) . واعجب « باخ » بكوبرين وأشار على تلامذته بالافادة منه . وان باخ هذا ، الذي هو عبقرية متميزة ، لمدين الى الفرنسيين بفنه في التسلسل وطريقته الكلاسيكية ، الراسيلية والفرسايلية ، في حصر أهمية القطعة الموسيقية بفكرة واحدة تسيطر عليها من أولها الى آخرها . وليست « ثورة » « غلوك » المزعومة في الاوبرا سوى تطبيق لمبادىء رامو على يد رجل عبقري ، والى باريس جاء غلوك ، الذي لم تفهمه فيينّا المتعودة محسنات الاوبرا الايطالية ، ليرى انتصار كلاسيكيته القائمة . وتأثر « موزار » تأثراً قوياً بمؤلفات رامو للاوبرا وبالاوبرا الفرنسية الهزلية . وانك لترى ، في كل ما خلفه هايدن وموزار ، اثر الموسيقى الارستوقراطية العالمية ، الطريفة والخفيفة ، التي جلى فيها الفرنسيون . وقد ذاع صيت باريس في كافة انحاء اوروبا بسبب امتياز طبعاتها الموسيقية . فان والد موزار قد طلب الى الباريسيين نقش مؤلفات ابنه ، كما ان غلوك قد ارسل الى باريس من فيينّا تركيب معزوفة « اورفيه » كي ينقش فيها نقشاً فخماً.

ولكن اعمق أثر تركته فرنسا هو أثرها في هندسة العمارة والنقاشة والرسم . وكان من حق المهندس « بات » ، أن يكتب في السنة ١٧٦٥ « تجوّل في روسيا وبروسيا والدانمارك وروتمبرغ ، والبالاتينا ، وبافاريا ، واسبانيا ، والبرتغال ، وايطاليا ، تر في كل مكان مهندسين فرنسيين يحتلون المراكز الاولى . وينتشر نقاشونا كذلك في كل مكان ايضاً ... باريس هي بالنسبة لاوروبا ما كانته أثينا بالنسبة لليونان حين ازدهرت فيها الفنون : انها تقدم الفنانين لكافة اقطار العالم » . في كل مكان نشاهد فرنسيين يحتلون مركز الرسام الاول والمهندس

الاول والنقاش الاول لدى الامراء والملوك . وهم لا يكتفون بالابداع والخلق ، بل يديرون أكاديمية الفنون الجميلة الأجنبية ويدرسون فيهـا ايضاً . واذا لم ينتقلوا من مكان الى آخر ، أرساوا التصاميم والرسوم التي يراقبون تنفيذها . يؤثرون بمنشوراتهـم المجموعات المنقوشة المطبوعة في فرنسا التي تضمها كل مكتبة من مكتبات الفنانين الاجانب ، والتي هي ، بالنسبة لهؤلاء ، مرجع يستوحون منه الافكار والاشكال الهندسية : كتب الهندسة لـ « دافيلر » ، وبلونديل ، ومجموعة كبريات جوائز هندسة العمارة ، وكتاب فن تنظيم الحدائق لـ «لبلون» ، ومجموعة تماثيل ... قصر فرساي ، ومجموعة « جوليان » لصور « فاتو » ورسومه .الامراء يرسلون المشاريـع التي يضعها مهندسو بلدانهم الى الأكاديميات الفرنسية طالبين ابداء الرأي واجراء التحويرات اللازمة . ويأتي عدد غفير من الفنانين الأجانب لتلقي دروسهم في فرنسا فيتشربون فيها الذوق الفرنسي .

اقتبست اوروبا عن فرنسا فنها البلاطي . ان مدينة فرساي الملكية ، مع تصميمهـا الموضوع بشكل مروحة ، واتجاه شوارعها الى القصر الذي يسيطر على المدينة،وفي ذلك ما فيه من تعبير عن نظام الحكم المطلق ، قد نسج على منوالها في « كارلسروه » مقر حكام « باد » ، وفي « سان بطرسبـورغ » حيث نضّد « لبلون » ، مهندس القيصر العام ، بـين السنة ١٧١٦ والسنة ١٧١٩ ، فوق الاقنية المشتركة المركز ، مروحة مؤلفة من ثلاثة ابعاد نظرية كبرى تتجه كلـّها الى اعلى برج « الاميرالية » فجعل من عاصمة القياصرة فرساي جديدة .

حاول كافة الامراء تقليد قصر فرساي مع افنائه الأمامية التي تضيق تدريجياً باتجاه فنـاء الشرف ، وحديقته المنظمة ، وبناءي « مارلي » و « تريانون » الملحقين به ، ورواق المـرايا الكبير ، وسلم السفراء ، والسقف الرمزي تخليداً لمجد الملك ، وصورة الملك حاملاً اسلحته او مرتدياً بزة التكريس . كلهم رغبوا في ساحة ملكية تكون اطاراً لتمثال الملك فارسـاً أو راجلاً ، على غرار لويس الرابع عشر الراجل لـ « ديجاردين » ولويس الرابـع عشر الفارس لـ « جيراردون » ، أو لويس الخامس عشر لـ « بوشاردون » ، وقد حُطم هذان الأخيران في عهد الثورة .

ان القصر المنتخبي في بون الذي حققه « روبير دي كوت » وتلامذته وزينه «اودران» و « اوبنورت » و « فاسّيه » ، ومقر « بوبلدورف » الريفي ، وقصر « بروهل » ، قد شيدت في المانيا الرينانية لمنتخب « كولونيا » . وشيّد منتخب تريف ، في « كوبلانس » ، على يـد « اكسنار » ثم « بير » الابن ، وبمراقبة اكاديمية باريس للهندسة ، بناء على الطـراز المعروف بطراز لويس الرابع عشر . واقتبس منتخب « ماينس » قصر مارلي ، وأسند وضـع تصاميم البناء الى الألمان وطلب الى الفرنسيين اعادة النظر فيها . وفي البلاتينا ، انجز « بيغـاج » قصر منتخب مانهايم وانشأ حديقة « شتزنجن » ، على غرار فرساي . وفي ورتمبرغ انجز « لاغيبير » بعد السنة ١٧٥١ القصر الدوقي في « شتوتغارت » . وفي بافاريا طلب الأمير المنتخب من«روبير

دي كوت» تصاميم لقصره في شلسهايم واستخدم مهندسين تتلمذوا على الفرنسيين. وفي «كاسل» شيد الأخوان «دي ري» «للاندغراف» قصوراً ومتحفاً واوبرا . وفي برلين شيد «جان دي بودت» «دار الصناعة»، وتعهد فردريك الثاني عدداً كبيراً من المهندسين الفرنسيين الذين شيدوا له قصر «بوستدام» و «سان — سوسي» . وأعدّ له النقاشون الفرنسيون عدداً كبيراً من القطع الرخامية المنقوشة للسطوح والحدائق. يضاف الى ذلك أن تمثال المنتخب الأكبر لا يفترق بشيء عن التماثيل الفرنسية، كما ان ساحة فردريك مقتبسة عن ساحة لويس الخامس عشر . ثم ان الرسام «بين» قد خلف صوراً لفردريك الثاني في كافة مراحل حياتـــه . وفي «درسد» تزخر «الحديقة الكبرى»، التي دمرتها القذائف البروسية، بالتماثيل المستوحـاة من تماثيل فرساي . وقد رسم الفنانان الفرنسيان «سيلفستر» و «هوتين» الصورة الملكية واعادا الى الذاكرة بلاط درسد وملاذه .

في النمسا شيد «جودو» جامعة فيينّـــا . واستعان النمساوي «دونر» بالنقوش الفرنسية لنقش تمثال «شارل السادس» على غرار تمثال لويس الرابع عشر، وزين ينبوع «السوق الجديدة» بتماثيل شبيهة بتماثيل فرساي، وليست ساحة جوزف الثـاني سوى ساحة لويس الخامس عشر بالذات . وقد تولى أحد تلامذة «لارجيليير» رئاسة اكاديمية الرسم العليا . وأراد الأمير «اوجين» أن يكون له فرسايه الصغير في قصر «المنظر الجميل» وحديقته .

في روسيا جعل «لبلون» قصراً وحديقة فرنسيين من «بيترهوف» والحديقة الصيفية التي جمّلها «بينو» بالعديـد من الينابيع الضخمة . وحقق «فالين دي لاموت» بعد السنة ١٧٥٦ قصر اكاديمية الفنون الجميلة ثم «صومعة» كاترين الثانية، المستوحاة من «تريانون» . ونسج على منوال فرساي في المقرات الامبراطورية في «قيصر كويه—سيلو» و «بافلوسك» وحتى في المقرات السيدية، كمقر الأمير «غاليتزين» في «اركنجلسكويه» ومقر الكونت شرمتياف في «كوتوفو» . وفي السنة ١٧٦٦ استدعت كاترين الثانية «فالكونيه» الذي نقش تمثـــالاً ضخماً لبطرس الأكبر فارساً، وهو المصلح ومشيد المدن، مستوحياً مشروع تمثال للويس الرابـــع عشر، فحقق اجمل التماثيل الملكية في القرن الثامن عشر .

في بولونيا يشاهد الأثر الفرنسي في قصر لازينكي الصيفي وقد زينه النقاش «لبرون»، نقاش الملك الأول، الذي اسهم ايضا في أعمال قصر فرصوفيا الملكي .

وان ساحتي «كونجنس — تورف» و «امالينبورغ» في الدانمارك لساحتان ملكيتان، كما أن «سالي» قد صنع تمثال الملك فردريك الخامس فارسا من البرونز على غرار تمثال لويس الخامس عشر لـ «بوشاردون» .

في السويد انجز قصر وحديقة «دروتننغهولم» والتجميل الداخلي في قصر ستوكهولم الملكي على غرار فرساي . وقد عمل هنا وهناك فرق عديدة من النقاشين الفرنسيين. وأقام «لارشفيك»

بين السنة ١٧٥٥ والسنة ١٧٧٨ في ستوكهولم تمثالا لـ«غوسطاف فازا» راجلاً وآخر لـ «غوسطاف – ادولف» فارسا . وتولى ديبريه ، بين السنة ١٧٨٤ والسنة ١٨٠٩ كافة الأعمال التزيينية التي تطلبها المسرح وأعياد البلاط . وزين رسامو مدرسة « بوشيه » القصر الملكي .

في اسبانيا ، أراد فيليب الخامس أن يجعل من الـ « غرانجا » قصر فرساي جديداً . فصنع النقاشون الفرنسيون العديد من التماثيل والينابيع ، وهكذا حوّلوا شكل حديقة « ارانجويز » . وشيد مهندسون فرنسيون منتزه « بوين رتيرو » في مدريد ، ودار « كوربوس » ، وقصر « المنظر الجميل » . وفي البرتغال جاء قصر « كلوز » قصر فرساي جديداً ايضاً ، كما جاءت ساحة التجارة في لشبونة ، التي انشئت تخليداً لمجد جوزف الاول ، مماثلة لساحة لويس الخامس عشر . وفي ايطاليا اقتبس «كازرتو » في « نابولي » و « كولورنو » في « بارما » عن قصر فرساي ، كما اقتبس عنه « هت لو » في هولندا و « هامبتون كورت » وحديقة شاتسوورث في انكلترا .

ونقلت أوروبا عن فرنسا فنها المجتمعي ، الفن الباريسي ، ففي كل مكان يشاهد في الدور الخاصة تصميم الدار الباريسية المميز ، كدار البارون « دي بزنفال » في سولور (سويسرا) ودار « تور » و « تاكسي » في فرنكفورت ، وهي من تحقيق « روبير دي كوت» ، والدور الارستوقراطية في حي « ولهلمستراس » في برلين .

وقد استعاد التزيين فيها كلها موضوع « الاعياد الانيسة » لـ « فاتو » . فشغفت به أوروبا ، لذلك نرى اجمل مجموعات « الاعياد الانيسة » للرسامين الفرنسيين في لندن وبرلين وستوكهولم ولننغراد . وهي رسوم الاشخاص التي حققها الرسامون والنقاشون الفرنسيون ما يؤلف خير مراجع صورية لكافة بلاطات أوروبا .

لا يتسع المجال هنا لاحصاء المنجزات الاوروبية التي حققها الفرنسيون او اقتبست عن الفرنسيين . بيد ان الامثلة التي قدمنا لكافية للدلالة على هيمنة فرنسا الفنية .

اسباب التوسع الفرنسي

ترد هذه الهيمنة في الدرجة الأولى الى تفوق الفن والادب في حد ذاتها . ولكن ظروفا خارجة عن ذلك سهلت انتشار المنجزات والفنانين وانتشار الحس والمشاعر والآراء المشتركة .

العظمة الفرنسية

فهنالك اولاً سحر العظمة الفرنسية الكبير . القرن الثامن عشر هو في نظرنا الفترة التي افتقرت فيها فرنسا الى الهيمنة البحرية والتجارية والسياسية . اما في نظر المعاصرين ، فان فرنسا ، التي كانت اكثر بلدان أوروبا سكاناً وخيرها تنظيماً ، ما زالت ، على الرغم من هزائمها ، التي تخللتها انتصارات كبرى على كل حال ، ارهب قوة عسكرية في البر الاوروبي اطلاقاً . وان في القوة لجاذبا .

بلاط فرنسا

جسّم ملك فرنسا ابداً ، في نظر ملوك أوروبا ، مثال الملك بالذات ، كما كان بلاط فرنسا نموذج البلاطات كلها . لذلك حرص اصغر صغار الامراء الالمان على ان يقلدوا ، في اماراتهم ، لويس الرابع عشر وفرساي ، وبلاط فرنسا . ولذلك قصد الامراء والعظماء فرنسا طيلة القرن لاستكمال تهذيبهم فيها . نذكر من بينهم بطرس الأكبر في السنة ١٧١٧ وكريستيان السابع ملك الدانمارك في السنة ١٧٦٨ وولي عهد السويد غوسطاف ، باسم الكونت « دي غوتسلاند » ، في السنة ١٧٧١ ، وجوزف الثاني امبراطور النمسا ، باسم الكونت « دي فالكنستين » في السنة ١٧٧٧ ، والغراندوق « بول » الروسي ، باسم كونت « الشمال » ، في السنة ١٧٨٢ ، والامير هنري البروسي ، باسم كونت « اولز » ، في السنة ١٧٨٤ .

قاعات الاستقبال

يضاف الى ذلك ان عظماء اسياد كافة الأمم ، وفنانيها وكتابها ، قد استهووا قاعات الاستقبال الباريسية ، قاعات الدوقة « دي مين » ، والمركيزة « دي لمبير » ، والدوق « دي سولّي » ، والأمير والأميرة « دي ليون » في عهد الوصاية ؛ ثم قاعات المركيزة « دي دفّان » والسيدة « دي تنسين » والسيدة « جوفرين » ؛ وفي النصف الثاني من القرن ، قاعات الاستقبال الفلسفية في دور البارون « دولباك » والآنسة « كينو » والآنسة «دي لسبيناس» ؛ والقاعة الموسيقية في دار « لابوبلينيير » ؛ وبعد وفاة الآنسة دي لسبيناس في السنة ١٧٧٦ والسيدة جوفرين في السنة ١٧٧٧ ،قاعة السيدة « نَكَر » ؛ وقاعات اخرى كثيرة في دور عظماء الأسياد ، والأمراء الملكيين ، ورجال المال ، وأهل القلم . لم يتقن في أي مكان آخر ما اتقن في هذه القاعات من تطرق بعيد الى كافة المواضيع دون اطالة ، واطلاق الكلمات كالسهام ، وتقاذف الأفكار في مبارزة حادّة يدافع فيها كل من الأطراف عن موقفه بالنبرة والحركة والنظرة ، في « نوع من الكهرباء يطيّر الشرار » (السيدة « دي ستال ») . وبرعت السيدة جوفرين بصورة خاصة في حمل ضيوفها على الكلام: « مقاعدها اثافيّ ابولون ؛ انها توحي باشياء سامية » (الاب غالياني) . واجتذبت اليها اكبر عدد من مشاهير الاجانب :

« لا أزال أذكر انني رأيت أوروبا جمعاء
تؤلف حول مقعدها حلقات ثلاثا » (« دي ليل »)

وقد درج ملك بولونيا ، « ستانيسلاس – اوغست بونياتوفسكي » ، على مناداتها بكلمة « امي » . استقبلها في فرصوفيا ، كما استقبلتها في فيينّا بأبهة ماري – تريز وجوزف الثاني .

الاستقبال الفرنسي

احيط الأجانب في كل مكان في باريس بحسن الالتفات والملاطفة وأعطوا مركز الصدارة . « يلاقي الأجنبي هنا المراعاة نفسها التي تلاقيها سيدة في انكلترا » (بنيامين فرانكلن) . درجت أكاديميات الفنون الجميلة في العواصم

الأوروبية ، وهي شبيهة بها في فرنسا ، وعلى اتصال دائم بها ، على ايفاد الطلاب الداخلين الى باريس . وكان باستطاعة الفنانين الأجانب ، حتى البروتستانتيين منهم ، الدخول الى الاكاديمية والاستحصال على الحقوق الوطنية . لذلك فان معظم الاجانب لا يغادرون باريس ، « التي لم يتركها احد مسروراً » ، الا بانكسار قلب مؤلم ، وهم يصابون بعلة الحنين اليها ، فيشعرون وكأنهم « منفيون في وطنهم نفسه » . « لا حياة الا في باريس ، اما في الاماكن الاخرى فالحياة حياة ضيق » ، كما قال كازانوفا ؛ وقال الامير هنري البروسي : « سلخت نصف حياتي تائقاً الى رؤية باريس ؛ وسأسلخ النصف الآخر متحسراً عليها » .

الهجرة الفرنسية

وغزا الفرنسيون اوروبا من جهتهم ايضاً . عددهم جعل من هجرتهم امراً يكاد يكون الزامياً ، اذ ان عـدد سكان فرنسا الذي تجاوز عدد سكان روسيا نفسها ، قد بلغ ١٦ مليوناً في السنة ١٧١٥ و ٢٦ مليوناً في السنة ١٧٨٩ ، وكان يتزايد تزايداً سريعاً ومطرداً بفضل ارتفاع نسبة الولادات . زد على ذلك ان انهيار نظام « لو » ، والأضرار التي نجمت عنه، وتدني الطلب ، قد تسببت في هجرة فرنسيين كثيرين ؛ فتوثقت عرى الصداقات وعرفت الديمومة . وقـد ساعد على اكرام وفادة الفرنسيين اثراء اوروبا العام عن طريق تجارة ما وراء البحـار والنشاط الاقتصادي الذي ابداه ملوك اصبحوا « مستبدين مستنيرين » . وكانت هنالك اخيراً العلائق العائلية . فقد جمعت بين اكثر العائلات الملكية والاميرية في اوروبا روابط الوراثة والمصاهرة والصداقة او الخدمات بسلالة البوربون في فرنسا : سلالة البوربون في اسبانيا وايطاليا ، فيليب الخامس ، حفيد لويس الرابع عشر ، وذريته : سلالة هبسبورغ في النمسا ، بزواج ماري ــ انطوانيت من ولي عهد فرنسا ، وقـد سبق قبل ذلك ان ازداد اثر فرنسا في فيينّا بزواج « ماري ــ تريز» من «فرنسوا دي لورن». وما كانت مشاريع زواج لويس الرابع عشر من ابنة بطرس الاكبر ، اليصابات ، لتبقى دون اثر على حسن الالتفات الذي ابدته هذه الاخيرة للفرنسيين بعد اعتلائها عرش القياصرة . وكان الامراء المنتخبون الكنسيون في كولونيا وتريف ومايانس زبناً سياسيين أو نسباء لملوك فرنسا . فان منتخب كولونيا ، « جوزف كليمان » ، كان اخاً لزوجة ولي العهد الكبير ؛ وحين اقصي عن ولايته ابان حرب وراثة عرش اسبانيا ، التجـأ الى فرساي . كما ان « ماكس ــ عمانويل » ، منتخب بافاريا ، ونسيب لويس الرابع عشر ، قد التجأ هو ايضاً ، فترة من الزمن ، الى فرنسا . وكان منتخب تريف « كليمان ونسسلاس دي ساكس » عمـاً للويس الرابع عشر . وأسهمت علائق آل « روهان » ، الذين شغلوا مركز ستراسبورغ الاسقفي اباً عن جد ، بالامراء اساقفة مايانس وسبير ، اسهاماً كبيراً في انتشار الفن الفرنسي . فان دار ستراسبورغ الاسقفية ، وهي الرائعة التي حققها « روبير دي كوت » ، غالبا ما كانت نموذجاً للقصور الالمانية . وعن طريق الالزاس اتصلت رينانيا الالمانية بالفن الفرنسي . فيتضح من ثم ان الفرنسيين كانوا في كل مكان ، لا رسامين ونقاشين ومهندسين وضباطا ومهذبين وصحافيين وممثلين وفرّاشات وطهاة فحسب،

بل بنّائين وردّامين وبستانيين وحذائين وصناعيين يدويين منتسبين الى كل المهن ايضاً في البلدين الجنوبيين المفتقرين الى اليد العاملة ، اسبانيا وايطاليا .

الروح الاقطاعية

وقد سهل المبادلات بين الدول المختلفة رواسب الروح الاقطاعية التي ما زالت قوية عند الاشراف الريفيين . فمما كان مسلّماً بـه آنذاك ان من حق الضابط اختيار سيده والبحث عن عمل عند ملك غير ملكه وامتشاق السلاح إذا اقتضى الامر ، ضد بلاده ، شرط أن لا يكون ملكه ، الذي يعتبر الاقطاعي الاول ، أو الاقطاعي السيد ، في وجه هذا الضابط ، يقود جيشه شخصياً . لذلك كان الأجانب من الضباط والجنود كثراً ، في كل جيش . فالامير « دانهالت – داسّو » كان في خدمة ملك فرنسا قبل أن يساعد فردريك غليوم الأول على اعادة تنظيم الجيش البروسي . وكان الأمير « اوجين دي سافوا » قـد عرض خدماته على لويس الرابع عشر ، وحين استخف به هذا الأخير ، دخل في خدمة الامبراطور ، ولكنه أسهم بعد ذلك في إدخـال الفنون والروح الفرنسية الى النمسـا . وان المارشال « دي ساكس » ، الذي كان ابن زنى لملك بولونيا اوغست الثاني ، قد دخل في خدمة لويس الرابـع عشر .

الوطنية الشائعة

ولكن نزعة جديدة عرفت بالوطنية الشائعة كانت أكثر فعاليـة ايضاً . جاءت هذه النزعة نتيجة لنظريات الفلاسفة الفرنسيين . نظر هـؤلاء الى الجنس البشري كما الى وحدة . ان للبشر كلهم حقوقاً واحدة وطاقة على السير في مدارج الرقي نفسها . ليس هنالك من شعب مختار ومن عنصر متفوق ، لا بـل ان الاختلافـات العنصرية والقومية ليست ذات شأن . « الطبيعة اعطت كل انسان العالم موطنا وكافة البشر مواطنين » . نظر القائلون بالوطنية الشائعة الى حب الوطن كما الى رأي مقبول قبل التحقيق . لذلك هزل فيهم الشعور القومي . فقد كتب فولتير : « كان من الواجب ان يكون ملك بروسيـا سيدي والشعب الانـكليزي مواطني » ، وقد هنأ فردريك الثاني بانتصاره على الفرنسيين في روسباخ . وتوصل الفلاسفة فترة من الزمن الى اقناع كافة مثقفي اوروبا بهذه النظرية . فجاهـر فردريك الثاني باحتقاره اللغة والأدب الالمانيين ، ونعت رعاياه بالايروكوا . وأعلن الالماني شيـلر : « اكتب كمواطن عالمي . فقدت وطني منذ زمن بعيد لاستبداله بالعالم الفسيح » . وأسدى هذه النصيحة الى أحد مواطنيه : « لا تسعوا وراء تكوين امة بـل اكتفوا بأن تكونوا بشراً » . وايد غوته هذه الآراء . وصرح لسنغ بانه لا يفقه معنى لحب الوطن . ومن جهـة اخرى ، إذا كان اختلاف الاخلاق والعادات والالسن ابعد منه اليوم الى حد بعيد ، فإن الانتقال من بـلاد الى اخرى لم يخضع لما يخضع له اليوم في الدول العصرية القوية التي كيفت الأفـراد وابرزت الفوارق بين الالمان والفرنسيين ، والاسبان والايطاليين . فنجم عن ذلك سهـولة كبرى في الاغتراب وتبـني اخلاق الأمـة المسيطرة وآرائها وميولها ، ترسخ الوطنية الشائعة ، التي كانت مصدراً لها ، وتنمي الروح الاوروبية .

الاستبداد المستنير

ومما زاد في اظهار اوروبا وكأنها اقتربت من الاتحاد، ما قام في كل مكان من نظم متماثلة، اوحتها، كما بدا ذلك، مؤلفات الفلاسفة، وتزايد عددها تزايداً مطرداً بحيث أصبحت في النصف الثاني من القرن، بعد «دائرة المعارف»، حركة عامة تعرف بالاستبداد المستنير. ان الملوك، او «المستبدين المستنيرين»، اعتبروا انفسهم خدام دولهم الاولين وارادوا تجديدها تجديداً جذرياً باسم العقل. ففرضوا على رعاياهم اصلاحات «معقولة»: بعض المساواة في الضرائب بغية زيادة مواردهم، والتناسق المطرد في ادارة الولايات والمدن بغية ضمان طاعة الرعايا بسهولة، وبعض التسوية السياسية والاجتماعية للحد من توسع الارستوقراطيات، والتساهل الديني بغية استخدام كافة رعاياهم بحسب كفاءاتهم، وادارة اقتصادية تميزت بالحب المفرط للربح، تخفف من وطأتها الحريات التي تبدو ضرورية للانتاج. ورافق كل ذلك قاموس فلسفي. أطلق الملوك على أنفسهم صفات «الفضلاء»، و«الكرماء»، و«المواطنين»، و«الوطنيّين»، و«الشفوقين»، وتكلموا عن سعادة الجنس البشري، واحبوا الطبيعة، وذرفوا الدموع، ونعتوا خصومهم بالمستبدين: هذا هو، منذ ذاك التاريخ، التصنع البياني الذي اشتهر به العهد الجمهوري، ولكنهم لم يستهدفوا من وراء عملهم هذا سوى ارضاء الفلاسفة محركي الرأي العام الاوروبي الأقوياء. وقد نجح المستبدون المستنيرون في ما سعوا اليه، اذ ان الفلاسفة قد انخدعوا بالظواهر أمام التملق والملاطفة. فقام فولتير بالدعاوة لفردريك الثاني وديدرو لكاترين. لم يروا أن الملوك لم يختاروا في برنامج «دائرة المعارف» سوى النقاط التي تعود عليهم بالفائدة؛ او بالأحرى ان في ما أقدم عليه «المستبدون المستنيرون»، وهو خلو من كل جديد جديد، تدابير اتفقت وبعض نقاط برنامج دائرة المعارف؛ لم يروا أن هدف الملوك انحصر في تحقيق عظمة دولهم بغية السيطرة والغزو والتقسيم، وان كل هذه «الفلسفة» ليست سوى فتنة خادعة، وان وحدة اوروبا سراب خلّب.

الفصل الثاني

تنوّع أوروبا

الدول المختلفة

ان العادات والنظم المتماثلة والمتشابهة قد حجبت في الواقع فوارق عميقة. فالطوائف البشرية المحدودة ، التي انتثرت هنا وهناك وكونت بفضل اتحادها « جمهورية عظيمة من العقول المستنيرة » (فولتير ، ١٧٦٧) ، قد برزت فوق جماهير مختلفة اختلافاً كلياً. ويرد ذلك إلى أن دول اوروبا الكثيرة كانت آنذاك في مراحل تطور تباعد بينها فروق كبيرة جداً . فمن الشرق الى الغرب ، كان المراقب يعود قروناً الى الوراء ويجتاز الزمن كما يجتاز المسافات .

احتفظت اوروبا بمميزات القرون الوسطى التي لن تزول إلا في القرن التاسع عشر . ولكن هذا الاحتفاظ تباينت درجاته . فأوروبا كانت زراعية قبل أي شيء آخر ، يسيطر عليها النظام السيدي وبعض الارستوقراطيات العقارية القوية التي كانت تحد من السلطة الملكية حداً متفاوتاً. في كل مكان تقريباً ، كانت الأرض مقسمة املاكاً كبرى هي الممتلكات الوراثية لارستوقراطية اسياد يؤلفون هرماً منظماً من الفداديين والاقطاعيين ينتهي في القمة بالملك ، الاقطاعي الأكبر . وكان هؤلاء الاسياد يحتفظون لأنفسهم بقسم من الاملاك يستثمرونه بواسطة الملتزمين أو كما حدث ذلك غالباً في الشرق ايضاً ، بتسخير فلاحيهم الآخرين ، وكانوا يسلمون ما تبقى من أراضيهم انصبة صغيرة الى مزارعين غالباً ما يكونون احراراً في الغرب ، وفدادين الى الشرق من نهر الإيلب . كان هؤلاء الاخيرون يزرعون انصبتهم لأنفسهم ، بينما كان باستطاعة الاحرار ، شرط شراء موافقة السيد بالمال ، توريث وحتى بيع حقهم في زرعها . وكانوا ملزمين أمام السيد بالعمل في قصره والأراضي التي احتفظ بها ، وهو عمل دعي « التسخير » ، غالباً ما استعيض عنه في الغرب بمبلغ من المال ، وبأتاوات مختلفة عينية ونقدية ، اسهاماً منهم في تأمين حاجات السيد واعترافاً بحقوقه السامية. هذه كانت الحقوق الاقطاعية . وكانت الغابات والمياه والبراحات ممتلكات مشاعية سمح السيد للفلاحين أن يأخذوا منها ، بشروط معينة ، الاخشاب والقشور والعسل البري والكلأ وفراش الدواجن ويسوّموا فيها مواشيهم . واحتفظ السيد لنفسه بالقضاء على الحيوانات المضرة ، أي بالقنص . ومارس حيال الفلاحين ، بأشكال مختلفة ، سلطات قضائية

وبوليسية مع مراعاة سلطات الملك مراعاة تختلف باختلاف الدول. واذا ما توسعت بعض القرى والمدن في املاك السيد ، ألزم سكانها ايضاً بواجبات إقطاعية وخضعوا لسلطته القضائية. ولكن الاتحاد والاثراء وحق تشييد الاسوار أتاح للمدن أن تتحرر كليا أو جزئيا . "

إن هذه الارستوقراطيات ، التي جمعتها من جهة ثانية الروابط العائلية والروابط الوثيقة بين الحامي والمحمي وبين صاحب الاخاذة والسيد ، كانت مستأثرة من ثم بسلطة كبرى ، أقله محلية . فالواقع هو أن الملك ، وان اعترف له بسلطة مطلقة ، لم يمارس السلطة الفعلية التي تمارسها حكوماتنا الحالية ، حتى في فرنسا مثال الملكيات . فهو لم يصطدم بحقوق الارستوقراطية العقارية فحسب ، بل كان عليه أن يأخذ بعين الاعتبار حريات وامتيازات وحقوقاً فازت بها بقوة الاتحاد وضمنتها بامضاء الملك هيئات منظمة عديدة ، أعني بها الجمعيات المعدة لحماية الأفراد: البلديات ، التعاونيات المهنية ، الجامعات ، الكنيسة ، واحياناً ، كما في فرنسا واسبانيا مثلاً ، هيئات الموظفين الذين يمتلكون وظائفهم . أجل غالباً ما نافست هذه الهيئات الارستوقراطيات العقارية ، ولكنها اتحدت معها احيانا للدفاع عن « الحريات » المشتركة ضد قوة الملوك المتعاظمة .

وتوجب على هؤلاء كذلك احترام حريات وامتيازات ولايات دولهم المختلفة . الوحدة مفقودة في كل مكان، بدرجات مختلفة . لم يتحرر الناس في أي مكان من مفاهيم القرون الوسطى التي كان الملك بموجبها مالك المملكة وسيداً أعلى يمتلك أراضي ملكية . وسع الملوك ممتلكاتهم بالزواج والارث ، وباختيار السكان احياناً ، وبالقوة ايضاً. ولكنهم غالباً ما تركوا للولايات المحتلة اخلاقها وعاداتها ونظمها الخاصة . واذا الفت بعض الدول ، ولا سيما فرنسا ، أمماً حقيقية، فان الامة لم تكن كاملة في أي مكان : لقد أدى واجب الخضوع الى رئيس واحد ، كما هو طبيعي ، الى قيام بعض النظم المشتركة ، ولكن التنوع ما زال كبيراً في كل دولة ، كما أن عمل الملك اعاقته هذه الفوارق وحد منه الاستقلال الذاتي الممنوح بتفاوت لكل ولاية من الولايات .

وتباين مدى السلطة الملكية والنظم المشتركة تباينا كبيراً بحسب الدول . وانما يبدو ، على العموم ، انه كان كبيراً في البلدان التي تمكن الملوك فيها من أن يوقفوا في وجه الاسياد طبقة جديدة هي طبقة البورجوازيين ، من تجار وصناعيين . ان هذه الطبقة ، التي لم تزل من الوجود قط ، والتي تزايدت تزايداً كبيراً منذ زمن بعيد ، قد نمت نمواً سريعا وهاما جداً منذ الاكتشافات الكبرى في اواخر القرن الخامس عشر وتوسع التجارة الاوقيانوسية الكبرى . كان هؤلاء البورجوازيون ، الذين اكتسبوا ثروة وعلما ، قوة اجتماعية كبرى ، وقد لعبوا ، بفضل الاموال الطائلة التي استطاعوا وضعها بتصرف الدولة والمصنوعات التي تمكنوا من توفيرها للملك، دوراً لا يتناسب وعددهم ، لا بل لا يتناسب ، في الارجح، واهمية ثروتهم الحقيقية اذا ما قيست بثروة البلاد كلها . حماهم الملوك ، لا بل حماهم بعضهم بتدخل الدولة المنظم في الحياة الاقتصادية الذي أطلق عليه اسم الروح التجارية . فان هاري السابع وهنري الثامن و « اليزابت تودور » في

انكلترا القرن السادس عشر ، وهنري الرابع ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر في فرنسا القرن السابع عشر، كانوا مستبدين مستنيرين حقيقيين قبل أن يحدد المعنى اللفظي لهذه الكلمات. ولكن البورجوازيين ما ان اصبحوا اقوياء حتى حاولوا بدورهم الحد من السلطة الملكية بالاتفاق مع ارستوقراطية مستضعفة باتت أقل خطراً عليهم .

يبدو التفاوت في نمو البورجوازية بحسب الدول اهم واقع في تاريخ هذه الدول خلال القرن الثامن عشر . ففي الشمال الغربي من اوروبا الذي يحتل موقعاً مركزياً بالنسبة لتيارات التجارة العالمية الكبرى ، رأت انكلترا ، البورجوازية المنتصرة في ثورة السنة ١٦٨٨ ، توسع سلطتها وتأثيرها ، ورأت دول تجارية كهولندا ، ومدن المانيا الشمالية ، قيام جمهوريات بورجوازية قديمة جداً . وفي فرنسا ، التي كانت أقل تطوراً ، هزت القرن كله الصراعات بين الارستوقراطية والبورجوازية والملك . وفي اوروبا الوسطى والجنوبية التي لم تتأثر تأثراً يذكر بالتجارة الاوقيانوسية الكبرى ، حاول « المستبدون المستنيرون » انماء بورجوازية رأسمالية لمضاعفة قوة دولهم . أما في اوروبا الشرقية التي ما زالت في قرونها الوسطى ، فاما كانت السيطرة للارستوقراطية كما حدث في بولونيا ، واما استهدفت جهود الملك ، الملاك الاول في الدولة، ضمان قيادته الفعلية لأرستوقراطية تخلى لها عن كافة الفوائد الاجتماعية ، كما حدث في روسيا .

اوروبا الغربية

المملكة المتحدة . سيطرت التجارة البحرية على حياة انكلترا كلها، منذ ان وضعت الاكتشافات الاوقيانوسية الكبرى انكلترا في طريق التيارات التجارية الرئيسية ، ومنذ ان استطاعت الافادة من الرياح الجنوبية الشرقية التي وجهت إليها السفن الشراعية الكبرى ، تعاظمت تجارتها تعاظماً عجيباً حتى غدت منذ مطلع القرن الثامن عشر التجارة الاولى في العالم . كانت تجارة ايداع وتخزين : ينزل الانكليز في موانئهم منتوجات ما وراء البحار لاعادة توزيعها في اوروبا ، ومنتوجات البحر المتوسط لمقايضتها بمنتوجات البلطيك وبالعكس . وكانت تجارة نقل ايضاً : حل الانكليز باطراد محل الهولنديين وأمنوا نقل البضائع لحساب تجار الدول الاخرى . وكانت تجارة تصدير اخيراً تتناول ، بالاضافة الى المصنوعات ، الحنطة ، ولكن اقل فأقل ، والفحم المعدني ، « الهند السوداء » ، اللذين صدرا الى اوروبا الشمالية الغربية . وقد قدر بعضهم ان الانكليز استأثروا في أواخر القرن بتسعة اعشار المحمول الاوروبي .

اعتمدت الدولة التعاليم الاقتصادية التوجيهية : وجهت الاقتصاد خدمة لصوالح الجميع . على البلاد ان تكفي نفسها بنفسها ، وتبتاع القليل وتشتري الكثير ما استطاعت الى ذلك سبيلاً ؛ ان الميزان التجاري ، الذي ترجح فيه كفة الصادرات على كفة الواردات ، ووفرة المعادن الثمينة، هما دليلا الازدهار. الدولة تعمل بقوانينها وانظمتها وسياستها. فوثيقة الملاحة (١٦٥١) تحتفظ للسفن الانكليزية بتجارة ما وراء الاوقيانوسات ، وتحظر على السفن الاوروبية ان تنقل

الى انكلترا بضائع غير بضائع البلدان التي تنتسب هي إليها ، وتحمي رسوم جمركية مرتفعة الصناعة الانكليزية التي نظمت . الدولة تعلن الحرب وتعقد الصلح وفاقـــاً لحاجات التجارة : الانتصارات على فرنسا انمـا هي انتصارات تجارية بواسطة المدفع . زد على ذلك ان معاهدتي أوترخت في السنة ١٧١٣ ومعاهدة باريس في السنة ١٧٦٣ قـــد كرست هيمنة انكلترا البحرية والتجارية .

بدّلت هـذه التجارة كل شيء . ارتفع عدد السكان ، الذي اصبح في اسكتلندا وبريطانيا العظمى بين ٥ و ٦ ملايين نسمة في السنة ١٧٠٠ ، و ٩ ملايـين نسمة حوالي السنة ١٧٨٩ . ونمت بورجوازية غنية من رجال المال والتجار ومجهزي المراكب . لم تتكون فيهم روح الطبقية بعد : فحلمهم هو ان يكتسبوا الامـلاك الكبرى وينظر إليهم كما الى اعضاء الارستوقراطية العقارية . ولكن صوالحهم دفعتهم اخيرا الى القيام بعمل مشترك في الساعات الحاسمة . وبعد السنة ١٧٦٣، احدثت التجارة ثورة صناعية ضمت « قباطنة الصناعة » الى بورجوازية التجار وافضت الى نشأة طبقة من الكادحين .

أدت الانطلاقة التجارية والثورة الصناعية الى تطوير الأملاك الانكليزية الكبرى . افتقرت الصناعة الى المزيـــد من الصوف ، والمدن النامية الى مزيد من الحنطة واللحوم . زاد طلب المنتوجات الزراعية وارتفعت قيمتها ، فرغب البورجوازيون ، اصحاب الاملاك السيدية، بحسب عادتهم ، في الافادة منها اكبر افادة . لم ينظر النبـــلاء من جهتهم الى النشاطات المفيدة نظرة الارستوقراطية الفرنسية . فهو احد كبار اعضاء طبقة النبلاء العقاريين ، اللورد «تونشند» ، من استهوى الزراعة ، فكان ان معظم الاشراف الريفيين اخذوا ، حوالي السنة ١٧٦٠ ، يستثمرون اراضيهم بأنفسهم . ولكن نظام الزراعة ، نظام «الحقول المكشوفة والمستطيلة» (*Openfield*) ، لم يكن موافقـــاً للزراعة المنتجة والعلمية . فالحقول لم تكن مقفلة . وكان كل مزارع وراثي (*Freeholoder*) يعتبر كالـك للارض ويتصرف بعدة عقارات موزعة هنا وهناك محافظاً على حقوق السيد السامية . ويقتضي الزرع في الوقت نفسه ، وبالطريقـــة نفسها ، وهذا يتنافى والتقدم . أراد الاسياد صيانـــة اراضيهم كي يستطيعوا تغيير موعد الزرع ، وأرادوا استبدال طريقـة الزرع كي يستطيعوا تأصيل المواشي . حولوا اراضيهم الى آراض مقفلة . استحصلوا من البرلمان على اجازة بتصوين الاراضي وجمعها كي يجعلوا منها انصبة يستلم كلاً منها مزارع واحد ، وصونوا الاراضي المشاعية نفسها . ولكن ذلك أدى بالمزارع الحر الى الافتقار احياناً ، إذ أنـه يستلم اراضي اقل جودة ويضطر الى تحمل نفقات التصوين، ويحرم حق رعاية مواشيه في الحقول بعد الحصاد وحق الاستفادة من الاراضي المشاعية ، ويعجز عن مزاحمة كبار الملاكين بمنتوجاته بسبب افتقاره الى المال والمعرفة لاعتماد الطرائق الجديـــدة . فيضطر الى بيع ارضه من السيد والانحدار الى منزلة العامـل الزراعي ، أو الذهاب في أغلب الاحيان الى المدينة حيث يصبح

عاملا ، أو صناعياً احياناً اذا حالفه الحظ . فما كانت الصناعة لتنمو لولا اليد العاملة التي وفرتها الحقول المقفلة . وهكذا غدا الغني اكثر غنى والفقير اكثر فقراً . والارستوقراطية اخذت تنسج على منوال البورجوازية . انشغلت بالانتاج والبيع واستثمرت المناجم كما استثمرت الارض. فقد انصرف الدوق « دي بردجووتر » بعد السنة ١٧٦٠ الى تشييد الاقنية لنقل الفحم المعدني ، ولكن اخوة الابكار في العائلة الكبرى قد انصرفوا من جهة ثانية ، بسبب البكورية الصارمة ، اكثر فأكثر الى التجارة والمال. وهكذا خفت تدريجياً حدة التضاد بين الاشراف والبورجوازية.

هاجت التجارة المجتمع هياجـاً شديداً . فان الاثراء السريع الذي حققه اناس ، حتى من كبار الاسياد ، ما زالوا ريفيين افظاظاً ، والذي جاء في اعقاب حرب وراثـة عرش اسبانيا الطويلة القاسية ، قد اسهم في فساد الاخلاق : ادمـان الفقراء والاغنياء على المسكر ؛ فجور ؛ ميل الى المشاهد الشرسة وحتى الاليمة (ملاكمة ، معارك الديكة) ؛ اعتماد الكذب والنميمة والرشوة ، والعنف والشغب عند الحاجة في الحياة السياسية ؛ لا بل فقدان الشعور القومي في وقت من الاوقات « اني مستعد للدفع ، اذا وصل الفرنسيون ، امـا اذا توجب علي القتال ، فخير لي ان يرمحني الشيطان من الحياة ! » .وبصورة غير مباشرة ، سببت التجارة ، كردة فعل امام بؤس الطبقة الكادحة ، وفتور الكنيسة الانغليكانية ، التي كانت مناصبها محط انظـار ابناء النبـلاء من غير الابكار ، حركات فكرية واخـلاقية كثيرة : الميثودية ، الانجيلية ، الميل الى محبة البشر . وانما القس (وسلي)غظة لاول مرة في الهواء الطلق امام المعدنين الغاليين . فكان ان هذه الحركات الكريمة كلها قد جددت انكلترا تدريجياً منذ السنة ١٧٤٠ ، وبعثت القوى الادبية ، كالاهتمام بالقومية والعدالة والانسانية ، ولكنها ادت للبورجوازية خدمـة بينة هي حمل الكادحين على الصبر والانتظار . وكان للتجارة اثرهـا حتى في العـلوم والفنون . فهم البورجوازيون المثقفون والمتفرغون بعض التفرغ من قادوا الحركة العلمية . ويفسر الاثراء من جهته اقبال المجتمع الانكليزي على شـراء منتجات الرسامين والنقاشين الفرنسيين ، كما يفسر اخيراً ، بعد انقضاء فترة تدريبية ، قيام مدرسة اصيلة للرسم الانـكليزي .

وهيمنت التجارة كذلك ، بواسطة المجتمع الذي خلقته ، على الحيـاة الادارية والسياسية . كانت الادارة المحلية في ايدي الاغنياء . الملك يعين الموظفين المحليين من بين كبـار الملاكين . فكان في كل كونتية قائمقام يقود مجندي الملاكين ، ومأمور احكام مدينة ينفذ احكام القضاء ، وقضاة صلح يختارون من لائحة ملاكين ينظمها القائمقام ، وتسند اليهم امور القضاء والأمن والاسعاف العام والرسوم المحلية . ولكن « الامن » في ذاك العهد كان يشتمل على كل ما نطلق عليه اليوم اسم الادارة . لذلك كانت الحياة المحلية كلها خاضعة للأثرياء ، وما انفك البورجوازيون ، من بين هؤلاء ، يزدادون عدداً كلما اكتسبوا املاكاً جديدة ، ومنـذ السنة ١٧٦٠ ، انضم اليهم الـ « نباب » ، اي موظفو شركة الهند الذين جمعوا ثروات طائلة .

الفت انكلترا ، سياسياً ، ملكية دستورية ، مع ملك ومجلسين . ولكن هذين المجلسين

لا يمثلان سوى الاغنياء . يتألف مجلس اللوردات من اسياد عظماء ، لوردات بالوراثة ، ومن اساقفة ورؤساء اساقفة ينحدر جلهم من الارستوقراطية ، ومن لوردات يحق للملك ان يعينهم على هواه من بين الانكليز الذين ادوا خدمات جلى للبلاد ويختارهم من بين الاغنياء . ويتألف مجلس العموم من مندوبين تنتخبهم المدن او القرى الكبرى ، والارياف او الكونتيات ، بحسب دخلها او اعفاءاتها : يجب ان يكون المقترع من اهل اليسار . بيد ان الاغنياء وحدهم هم من ينتخبون عمليا . وكيف يجوز ، في ظل الانتخاب العلني ، ان لا يصوت الناخب لمرشح السيد الكبير ، مالك كافة بيوت القرية الصغرى والقادر من ثم على الانتقام ؟ كيف يجوز عدم ارضاء السيد الكبير ، مالك معظم اراضي القرية ، الذي يجمع بين النفوذ السياسي وممارسة الوظائف المحلية التي تتيح له تضييق سبل الحياة على المنتخبين العصاة ؟ اضف الى ذلك من جهة اخرى ان اثار الحياة الاقطاعية لم تندرس كلها . فهناك عائلات كثيرة من المزارعين الاحرار ما زالت مخلصة في تفانيها في سبيل سيده ... ا وحاميها . ثم ان الرشوة ممكنة اخيراً . فعدد المنتخبين ليس مرتفعاً ، وقد تدنى في بعض الامكنة بفعل ضائقة المزارعين الاحرار ، كما هبط عدد سكان بعض القرى الى دونه في القرون الوسطى . ليس هنالك بعد سوى ٧ ناخبين او ٥ او ٢ . ولكن هؤلاء مازالوا ينتخبون العدد نفسه من المندوبين . وعلى انه من السهل جداً شراء هذه « القرى الفاسدة » . وجلي كذلك ان باستطاعة البورجوازيين الاغنياء ان يصبحوا مندوبين . فيتضح من ثم ان انكلترا الارستقراطية هي اوليغارشية .

لا ينتخب مندوبو مجلس العموم لحل المسائل السياسية ، بل لتأمين مصالح الفئات المحلية ، والمصالح المادية ونفوذ العائلات . وغالباً ما يقوم الابكار بنشاط سياسي بغية الحصول لاخوتهم على الاسقفيات ، او قيادات السفن ، او مراتب في الجيش ، او مراكز حكام في المستعمرات . وغالباً ما يقومون بهذا النشاط كذلك سعياً منهم وراء المجد والشهرة . الأحزاب اختلاط غريب يضم فئات غير واضحة الاهداف . في السنة ١٧١٤ ، رغب الـ « طوري » في ان يتمكن الملك من ان يحكم فعلياً ، وان يختار ويعزل الوزراء كما يطيب له . ورغبوا خصوصاً في أن يتربع على العرش احد أنسال سلالة ستوارت : فهم أشبه بالـ «جاكوبيين» . اما الدويغ» ، هم ينتسبون الى كبريات عائلات عهد الثورة ، فقد رغبوا في رجحان نفوذ مجلس العموم ، السيد في اقالة الوزراء واختيارهم على السواء . ثم ما لبثت هذه الفوارق ان زالت بين الويغ والطوري ولم يباعد بينهم سوى المسألة الجاكوبية وحدها تقريباً . وجدير بالذكر ان هذين الحزبين ما كانا ليشكلا أكثر من ثلث المجلس ، فإن ثلث المندوبين تقريباً لم ينتسبوا الى اي حزب ، وانضم الثلث الأخير ابداً الى جانب الحكومة . كانت الاحزاب في الواقع تجمعات مؤقتة من المندوبين الطامعين في المراكز حول رئيس يعتبرونه قادراً على ايصالهم الى ما يتوقون اليه . وكانت كفة الميزان الدستوري تميل الى جهة مجلس العموم او الى جهة الملك وفاقاً للظروف والاشخاص .

كانت الغلبة للويغ حتى السنة ١٧٦٠. فقد اقصي آل ستيوارت عن العرش لأن الويغ اخذوا عليهم السعي وراء السلطة المطلقة ، وقد ساند الطوري هؤلاء ، وان بتردد ورجوع متكرر الى الوراء ، حقداً منهم على الكاثوليكية . اختار الانكليز ملكاً عليهم منتخب هانوفر ، ابن حفيد جاك الاول ، جورج الاول (١٧١٤ – ١٧٢٧) . استند هذا الاخير ، وابنــه جورج الثاني (١٧٢٧ – ١٧٦٠) ، الى الويغ لان الطوري كانوا متهمين بتعلقهم بآل ستيوارت . زد على ذلك من جهة ثانية ان هذين الملكين بقيا المانيين ، منشغلين بمنتخبيتها في الدرجة الاولى، وجاهلين الانكليزية ، ومتغيبين عن انكلترا في اكثر الاحيان ، فاقدين كل سلطة بسبب ادمانها على المسكر وبسبب دسائس عشيقاتها . اضطرا الى اختيار وزرائها من بــين الأكثرية ، اي الويــغ ، وافساح المجال واسعاً أمامهم لممارسة الحــكم : فما كانا ليحضرا حــتى مجلس الوزراء . ولكنها حافظا على بعض النفوذ . كان على رئيس مجلس الوزراء ، إذا اراد الابقاءعلى اكثريته، لا ان يدفع اموالاً للممثلين اثناء الاقتراعات الحاسمة فحسب ، بل ان يستحصل على مراكز لهم ولعائلاتهم ولأصدقائهم ولعملائهم الانتخابيين. فالملك كان يعين ويعزل ضباطاً كثيرين في وظائف المالية والجيش والاسطول . لذلك بات لزاماً على رئيس مجلس الوزراء ان يوثق علائقه بالملك واكثرية البرلمان على السواء . وقد لجأ رئيس مجلس الوزراء الى رشو الملك عند الاقتضــاء بحمل الاكثرية على اقرار زيادة المخصصات الملكية واقرار الرواتب والمهور لعائلته والمقربين اليه. كان كل شيء مرتكزاً الى المصلحة الشخصية . وقد عرف « والبول » (١٧٢١ – ١٧٤٢)خير معرفة كيف يعتمد هذه الطريقة ويمارس الحــكم بارضاء عدد من كبار اعضاء البرلمــان وزبنهم الكثيرين . وهي هذه الرشوة ما حاربها « وليام بيت » . كان راغباً في وزارة قومية تتألف من رجال يمثلون كافة النزعات ولا يهتمون الا بالمصلحة العامة . احدثت الحرب ضد فرنسا تياراً فكرياً عاماً اعطاه ، منذ السنة ١٧٥٦ حتى السنة ١٧٦١ ، دور رئيس مجلس الوزراء وشبه دور الدكتاتور المفروض على احزاب الأمة . ولكن ما أن تحقق النصر حتى أقــاله جورج الثالث . كان هذا الاخير ، وهو حفيد جورج الثاني ، انكليزياً عاش حياة لا لومة عليها ونظر الى مسؤولياته بجد واقدام واراد ضمان الحقوق الملكية. فتوصل ، باعتماده الرشوة بدوره، الى فرض وزارة اختارها هو وجعل على رأسها اللورد « نورث » منذ السنة ١٧٧٠ حتى السنة ١٧٨٢ ، وحاول ان يحــكم حكماً ملكياً مطلقاً . اضطر لقبــول استقالة اللورد « نورث » في السنة ١٧٨٢ ، ولكنه توصل بالرشوة الى تأمين اكثرية من الطوري وفــرض في السنة ١٧٨٤ وزيره « بيت » الثاني ، ابن وليام بيت .

يتضح من ثم ان التجارة سيطرت على الحياة السياسية كلها . فالمسائل الكبرى التي نوقشت في مجلس العموم ومجلس اللوردات مسائل قروض وضرائب ورســوم جمركية . امن « والبول » الازدهار التجاري . وإذا ما بدت سياسته السلمية وكأنها تعرضه للخطر ، ارغمــه مجلس العموم على محاربة اسبانيا وفرنسا ثم على الاستقالة . وهم رجال المال ، والتجار ، وسكان مرفــأ لندن ،

مركز الحكومة ، العائشين من حركة المرفأ والمتاهبين ابداً للشغب ، من فرضوا « بيت » الاول لاعـــلان الحرب على فرنسا منافسة الانكليز في المستعمرات . اعطى « بيت » الاول صيغــــة السياسة الخارجية الانكليزية : « السياسة البريطانية هي التجارة الانكليزية » . فاخفاق السياسة الجمركية في اميركا وفقدان المستعمرات وبعض اسواقها هما ما تسببا في رحيل اللورد «نورث ». وهي خبرة « بيت » الثاني في حقلي المال والاقتصاد ما فرضه على مجلس غير واضح الاتجاهات. واذا بقي مجلس العموم قوة ادبية تقف في وجه غيرهــــا دون ان تسيطر على السلطة التنفيذية، واذا بقي الوزراء خداماً للملك،فمرد ذلك الى ان النظام السائد قد عمل لمصلحة الاوليغارشيين.

الاقاليم المتحدة

تؤلف الاقاليم المتحدة جمهورية اتحادية تضم سبعة اقاليم لعبت البورجوازية فيها دوراً كبيراً بسبب تجـــارة التخزين والنقل البحرية . وهي في دور انحطاط كلي لان مزاحمة الانكليز والفرنسيين تقضي على تجارتها التي لا تحافظ على نشاطها الا في الهند الشرقية . ويبرز انحطاط التجارة انقساماتها الداخلية . ينحصر النشاط كله في امستردام. اما المدن البحرية الاخرى واقــــاليم الداخل الزراعية ، المتحاسدة ، فتحارب سياستها التجارية وتطالب باقصاء اوليغارشيتها البورجوازية والعودة الى القيادة العسكرية لصالح اسرة اورانج ، حليفة ملوك انكلترا . وفي الخارج اصبحت الاقاليم المتحدة اعجز من ان تمد للمعارك اساطيل كبرى وجيوشـــاً قوية . زد على ذلك ان هزال القوة وورود شطر كبير من الدخول الهولندية من الاموال الموظفة في انكلترا والخوف ايضاً من اقدام الفرنسيين على احتلال المناطق المنخفضة قد ابقتها في تحالف انكليزي اشبه بالاقطاعية . في السنة ١٧٨٧ ، اسقط الانكليز ، بالاتفاق مع البروسيين ، الحزب الجمهوري البورجوازي ، صديق فرنسا ، واعادوا نظام القيادة العسكرية .

فرنسا

حافظت فرنسا على طابعها الزراعي اكثر من انكلترا . فالارض فيهـــا توفر ، اكثر منها في انكلترا ، معظم الموارد ، والاملاك العقارية ، ولا سيا امــــلاك النبــلاء ، تفرض مركز المرء في المجتمع . تضم الارستوقراطية العقارية الامراء الملكيين وكبـــار الاشراف من دوقة ومراكيز يعيشون في البلاط وباريس اجــالاً ، واحياناً في امــلاكهم حيث ينفردون ، ورؤساء الاساقفـة ، والاســاقفة ، ورؤساء الاديرة المرموقين ، ومتوسطي وصغار النبــلاء في الاقاليم ، والضباط الملكيين . الامراء والعظماء مستاؤون ابداً . يأخذون على الملك المطلق انه لا يترك لهم اي دور سياسي ، وعلى الملك الذي يجمع السلطات بنظــــام المركزية انه يحرمهم بواسطة وكلائه من كل ادارة اقليمية ومحلية ولا يترك لهم سوى صلاحيات عقارية . يقضون اوقاتهم في المطالبة بالحرية ، اي بتولي الارستوقراطية حكم فرنسا . ويشاطرهم صغـــــار النبلاء آراءهم في ادارة الاقاليم ، وينضمون اليهم للاعتراض على كافـة محاولات الملك لاخضاع طبقة الاشراف هذه لأعباء اميرية ؛ ولكنهم يقاومون استئثار كبار النبلاء ، انسباء الملـــك ، بالوظائف الشرفية والسلطات .

سواد النبلاء في نزاع دائم مع الطبقات الاخرى. فهم يدافعون عن انفسهم ضد البورجوازيين . كلما ازداد شأن هؤلاء ، نادى النبلاء بامتياز نسبهم . الاسقفيات وقف على ابناء العائلات النبيلة من غير الابكار : ومن المحال البحث عن بوسويه آخر . بذلت بعض الجهود منذ السنة ١٧٥٧ للاحتفاظ للنبلاء بمراكز الضباط ، وفي السنة ١٧٨١ ، حددت درجات النبل المفروضة لشغل هذه المراكز بأربع درجات . ويقاوم النبلاء الفلاحين ايضاً . صغار النبلاء ، من جهة ثانية ، فقراء لا يلبثون ان يفقدوا اموالهم في الجيش حيث يحاربون ببسالة . يحتفظ هؤلاء النبلاء حتى النهاية باحترام دورهم العسكري . فان الاسعار التي ترتفع باطراد ، لا سيما منذ السنة ١٧٦٠ ، في حال ان الواجبات الاقطاعية قد حددت منذ زمن بعيد بمبالغ نقدية ثابتة ، ترغمهم على البحث عن مداخيل اخرى ، فيخالفون الاعراف بتعاطيهم التجارة والصناعة وحتى زراعة ارض تستلزم اكثر من اربعة محاريث . لذلك نراهم يحاولون ، لا سيا في الثلث الاخير من القرن ، استثمار حقوقهم الاقطاعية جهد المستطاع . ويبحث لهم بعض خبراء النظام الاقطاعي ، في سجلات قيد حقوق هذا النظام ، عن الحقوق المنسية . فتثقل من ثم وطأة النظام الاقطاعي . ويقوم بعمل مماثل متوسطو النبلاء وكبارهم ، ولكنهم يحاولون بالاضافة الى ذلك حرمان الفلاحين من الحقوق المكتسبة والاستئثار بالغابات التي غدت نادرة الوجود كبيرة القيمة ، وبالبراحات ، ليجعلوا منها اراضي زراعية ومراعي . وقد دفعهم الى ذلك ، بعد السنة ١٧٦٠ ، نفوذ القائلين بان الزراعة هي المصدر الوحيد للثروة . وعقد بعضهم مع الجماعات القروية اتفاقات ملازمة او استقرار تسمح لها بتسييج ثلثي الاملاك العامة ، او اتفاقات اختيار تؤمن لها ثلث هذه الاملاك . بيد ان حركة التسييج كانت محدودة. فبقيت فرنسا بلاد استثمار لصغار الفلاحين . وهكذا تعرض النبلاء ، في اواخر القرن ، لحقد الفلاحين المتعاظم .

ولكن النبلاء ، في نضالهم ضد الملك الذي كانوا يريدون استعادة السلطة منه ، اهتدوا في مؤلفات الفلاسفة : نظرية العقد ، ونظرية الحقوق الطبيعية ، ونظرية القائلين بان الزراعة هي مصدر الثروة ، الى البراهين التي كانوا يفتقرون اليها ؛ فوعى النبلاء حينئذ واقتنعوا بانهم على حق .

وقد ساند نبلاء الجندية ، في هذا النضال ، نبلاء القانون والشرع ، مالكو الخدمات او الوظائف العامة الرئيسية التي ما زال الملك يبيعها ، ولا سيا ضباط المحاكم العليا او المجالس التي غالباً ما كانت وظائف اعضائها وراثية او بيعت من عدد محدود من العائلات نفسها . الف اعضاء هذه المجالس عالماً مقفلاً ، او طبقة خاصة . احتقروا نبلاء الجندية الذين احتقروهم بدورهم أيضاً . ولكنهم لم يكونوا دون نبلاء القانون والشرع تمسكاً بامتيازاتهم ، ولا سيا الاميرية منها ، فكانوا على غرارهم اسياداً عقاريين ، وارتبطوا بهم بالمصاهرات واحترف بعضهم الجندية ، فقامت بينهم مصالح مشتركة كثيرة . ادعوا لنفسهم الحق بدور موجه في الدولة وبرقابة القرارات الملكية ، فعارضوا بعناد كل محاولة لاصلاح الملكية .

من هاتين الطبقتين انطلقت ضد شخص الملك اعنف الانتقادات ، وأقذر الافتراءات، بوحي من الدوق « دورليان » والامير « دي كونتي » والدوق « دانغين » .

وفي وجه هذه الطبقات نمت البورجوازية التجارية . افادت من جهود كبـــار « المستبدين المستنيرين » في القرن السابع عشر : هنري الرابع ، لويس الثالث عشر ، لويس الرابع عشر . في أوائل العهد دفعت محاولة « لو » الأعمال التجارية الى الامام . انتقل مجموع التجارة الخارجية من ٢١٥ مليون ليرة في السنة ١٧١٦ (١٧٢ مع أوروبا ، و ٤٣ مع الدول الأخرى) ، الى ٤٣٠ مليون ليرة في السنة ١٧٤٠ (٣٠٦ و ١٢٤) والى ٦١٦ مليوناً في السنة ١٧٥٦ (٤١٢ و ٢٠٤) . ثم دبّ النشاط مرّة أخرى بعد انكسارات حرب السنوات السبع . ففي السنة ١٧٧٧ بلغت الصادرات ٢٥٩ مليون ليرة والواردات ٢٠٧ ملايين ؛ وفي السنة ١٧٨٩ ، بلغت الصادرات ٣٥٤ مليون ليرة والواردات ٣٠١ . وكانت اعظم التجارات كسبا التجارة البحرية التي استخدمت اكثر من ٣٥٠٠ سفينة ، بينما لم يبق منها سفينة واحدة تقريبا في السنة ١٧١٣ . بلغت مرافىء « سان مالو » و « لوريان » و « روان » و « له هافر » و « نانت » و «لاروشيل» و « بوردو » و « مرسيليا » اوج ازدهارها . وكانت خير عناصر هـــذه التجارة المحاصيل الاستعمارية ، ولا سيما سكر « سان ـ دومنغ » وعرق سكرها ، والنخاسة. وقد أتاحت رؤوس الأموال المكدسة تجمع الصناعات التجاري حول المرافىء ، الصناعات القطنية حول روان ، والصناعات الكتانية حول المرافىء البريطانية ، والصناعات الصوفية حول مرسيليا «وسيت» . وأنشأ مجهزو المراكب والتجار ، في بوردو ونانت، معامل التقطير والتصفية ، كما انشأوا في كافة انحاء المملكة مصانع الفولاذ والورق واستثمروا مناجم الفحم الحجري : فكانوا في اواخـــر القرن منطلق المحاولات الاولى لاختراع الآلات واستخدامها وتجميع الصناعات . ولكن بعض النبلاء ساروا على خطاهم ووظفوا رؤوس الأموال في أعمالهم التجارية وتقاضوا الفوائد من مناجم الحديد والفحم الحجري ومصانع الفولاذ . فملك المركيز « دي سولاج » مثلا اسهماً كثيرة من مناجم « كارمو » . اخذ المجتمع يتخلق بأخلاق البورجوازية . وتسربت الروح البورجوازية الى الادب والفن وشطر من النبلاء . منذ السنة ١٧٥٠ ، غدا اللباس اسود اللون ، فأخذ الناس لا يميزون بين النبيل والبورجوازي . وفي عهـد لويس السادس عشر استملح النبلاء الاقلاع عن حمل السيف واستبداله بعصا بورجوازية وتخلى بعض النبـــلاء عن الجمّة المستعارة واكتفوا بشعورهم . وتظاهر بعضهم بعادات بسيطة ، و « باخلاق رقيقة » : فحرص الامير على أن يقدم الاميرة ، زوجته ، الى فرقته بقوله : « يا بَنيّ ، هذه هي امرأتي » .

اراد البورجوازيون الحرية لاعمالهم التجارية ، والغاء امتيازات النسب ، والاشتراك في سن القوانين ، ورقابة الميزانية والسياسة الملكية ، ولكنهم أرادوا الابقـــاء على كثير من الحقوق السيدية والاراضي المسيّجة لان العديد منهم قـــد اشتروا الاقطاعات . وقد أدّت الحكومة الملكية خدمات جلى للبورجوازيين. فان دائرة التجارة، التي تأسست في السنة ١٧٢٢ ،قد وضعت

البيانات الاحصائية ووفرت للتجار المعلومات والتوجيهات وساعدت المشاريع . وتولى مجلس التجارة الارشاد والتوجيه ، فخففت شيئاً فشيئاً ، بالاقتراحات والتراجعات، حدة العراقيل وقساوة الانظمة . وتسهلت المواصلات ؛ فانشئت دائرة الجسور والطرقات في عهد الوصاية ، ونظمت اعمال التسخير الملكي لأجل الطرقات في السنة ١٧٣٨ وشقت طرقات كثيرة وخفضت رسوم المرور ؛ واطلقت تكراراً ، في السنوات ١٧٦٣ و ١٧٧٠ و ١٧٧٤ و ١٧٨٧ ، حرية تجارة الحبوب التي كان مقدراً لها ان تزيد الانتاج بفعل يقين التاجر من البيع بسعر مغر ، فجاءت كذلك تدبيراً مشجعاً للفلاحين الملاكين . وبعد السنة ١٧٥٠ ، اقدمت الادارة الملكية، تحت تأثير القائلين بأن الزراعة مصدر الثروة ، على تلطيف انظمة الصناعة . فأجازت انتاج الكتانيات المصورة والملونة (١٧٥٩) ، وألغت منها بعض البنود ، ولم تطبق البنود الاخرى الا ببصيرة وفطنة . لا بل ان « تورغو » قد استصدر قانوناً في السنة ١٧٧٦ بالغاء تعاونيات الحرف ومحاكمها الخاصة التي كانت تعيق تأسيس مشاريع جديدة واعتماد طرائق جديدة . ومنذ السنة ١٧٧٩ استمرت التجارب لاشراك الأعيان في الادارة بواسطة الجمعيات الاقليمية .

ولكن الحكومة لم تذهب الى ابعد من ذلك . فما لبثت التعاونيات ان اعيدت . وفي السنة ١٧٨٦ عقدت مع الانكليز معاهدة تجارية مضرة بصالح البلاد اذ انها أقرت تخفيض الرسوم الجركية على المصنوعات الانكليزية ، وهي دون المصنوعات الفرنسية كلفة الى حد بعيد ، الى ١٢ ٪ ، فنجم عنها غزو المصنوعات الانكليزية لفرنسا ، وأزمة خطيرة . ولم يمنح البورجوازيون سوى القليل من الاسهام في الشؤون المحلية والاقليمة والوطنية ، فاستمروا مستائين من وضعهم .

ان الحكومة الملكية لم تتكيف التكيف اللازم بسبب افتقارها الى القادة . ففي السنة ١٧١٥ ، مست الحاجة الى وصاية ، اذ ان الملك لويس الخامس عشر (١٧١٥ – ١٧٧٤) كان في سن الخامسة . ترك الحكم للدوق « دورليان » ، الوصي ، حتى بلوغه الشرعي في السنة ١٧٢٢ ، ثم حتى وفاة الدوق في السنة ١٧٢٣ ، ثم للدوق « دي بوربون » ، احد الامراء الملكيين ، حتى السنة ١٧٢٦ ، وأخيراً لمهذبه الكردينال « دي فلوري » منذ السنة ١٧٢٦ حتى السنة ١٧٤٣ . فأعلن حينذاك ، وقد بلغ الثالثة والثلاثين ، عن تصميمه على تولي الحكم بنفسه . ولكنه لم يقو على ذلك . فان هذا الملك ، الجميل ، الذكي ، المثقف ، الكريم ، البعيد كل البعد عن المسخ الذي ارتكب « ميشليه » خطأ جسيماً برسمه ، تميز بالوجل والخشية خلقاً وتربية . افتقر طيلة حياته الى الحزم والثبات اللازمين . فسيطرت عليه عائلته وخليلاته (السيدة « دي فنتيميل » ، والدوقة « دي شاتورو » منذ السنة ١٧٤١ حتى السنة ١٧٤٤ ، والمركيزة « دي بومبادور » منذ السنة ١٧٤٤ ، والكونتية « دي باري » منذ السنة ١٧٦٩) ووزراؤه وزمر دساسيهم . كما ان حفيده لويس السادس عشر (١٧٧٤ – ١٧٩٢) ، السليم القلب ، القفال الماهر ، الأب الصالح ، محب الشعب ، البورجوازي المتربع على العرش ، قد اشتهر كذلك

بضعف ارادته . فقد رأى كلاهما الخير ولكنهما لم يفعلاه .

كان بمقدور الملكية أن تبقى ملكية مطلقة باقدامها على الاصلاحات : الغـاء امتيازات الارستوقراطية الاميرية ، وصول الجميع الى جميع الوظائف ، إقرار حرية اقتصادية معتدلة حتى لا يقع العمال وفقراء الفلاحين في قبضة الاثرياء ، توحيد مملكة اقامت فيها الجمارك الداخلية ، والمقاييس والنقود المتباينة ، والعادات والاعراف المتعددة في الولايات ، العراقيـل في طريق الحياة القومية ولا سيا في طريق الحياة الاقتصادية . ولكنها لم تفعل . واذا هي وسعت رقعة الوطن بضم « اللورين » (١٧٦٦) والحصول على « كورسكا » (١٧٦٨)، فقد حافظت اللورين على جماركها من جهة المملكة واستمرت في الاتجار بحرية مع الامبراطورية المقدسة .

كان من الواجب تحطيم الارستوقراطيات. ولكن الملكين اعوزتهما الارادة ابداً للنهوض بهذا العمل. برهنت ارستوقراطية الامراء والدوقية عن عجزها في الحكم. استبدل الدوق«دورليان»، الوصي ، وزراء لويس الرابع عشر البورجوازيين بمجالس تضم كبار النبـلاء ، رغبة منه في ارضائها . ولكن سرعان ما اتضح عجزهم. ومنذ السنة ١٧١٨ مست الحاجة الى اعادة الوزراء. ولكن كبار النبلاء شكلوا خطراً دائماً بواسطة دسائسهم في البلاط، وبواسطة زبنهم ، وبواسطة اتفاقهم مع المجالس .

كانت هذه المجالس سبباً في اخفاق كافة محاولات الاصلاحات . في السنة ١٧١٥ أعاد الدوق « دورليان » لها حق النصح والانذار مقابل قرار يجعل منه سيد مجلس الوصاية ، على الرغم من وصية لويس الرابع عشر . منذ ذاك التاريخ بات بمكنة مجلس باريس مرة أخرى تأجيل تسجيل المراسيم الملكية الى ما لا حد له. وقد بلغ من ازعاجه أن حدّ الوصي من حقه في الانذار والنصح في السنة ١٧١٨ . ولكن هذا الحق أعيد بكامله في عهد لاحق ، فأتاح بصورة عامة على الرغم من تعطيله أو الحد منه احياناً ، معارضة المجالس معارضة دائمة للاصلاحات المـالية . كم من مرة حاولت الحكومة الملكية التوصل إلى اسهام كافة رعاياها بنسبة دخلهم. وكانت محاولتها الوسيلة الوحيدة لتغطية النفقات المتزايدة في دولة تتسع ادارتها يومـاً بعد يوم ، في حال أن ارتفاع الاسعار قد انقص الموارد بزيادة النفقات إذ انه يحد من الاستهلاك، وبالتالي من مدخول الضرائب غير المباشرة التي تتناول الشعب كله . ولكن المجالس ، يساندها الامراء والاساقفة ونبـلاء الولايات ، وكلهم من ذوي الامتيازات ، قد قاومت ، بكل قواهـا ، الارادة الملكية . كانت تستثير السكان برفض التسجيل، والنصح والانذار، وتأثيرها المباشر على الفلاحين، وتثير الشعب في صفوف الطبقات الدنيا التي ما كانت لتدرك ما تفعل . سببت فشل ضريبة الجزء من خمسين على دخول الممتلكات العقـارية (١٧٢٥ — ١٧٢٧) ، وضريبة العشر (١٧٣٣ — ١٧٣٦ ، ١٧٤٠ — ١٧٤٩) التي جبيت اثناء الحروب ولكنها افسدت فلم تجبَ إلا من الفقراء ، وضريبة الجزء من عشرين المرتبطة باسم «ماكو دارنوفيل» (١٧٤٩ — ١٧٥٤)، والاعانة العـامة التي اقترحها «سيلويت» (١٧٥٩) والاعانة العقارية التي اقترحها «كالون»(١٧٨٧). وحالت بمقاومتها

المتوقعة دون تقديم «تورغو» مشروعه الخاص بالاعانة المقارية. وكان الرأي العام الى جانبها لأنها اتقنت الادلاء بالبيانات الاخاذة : ان رعايا الملك « اناس احرار وليسوا عبيدا » ؛ وحاربت « طوفان الضرائب » ؛ وساندت كل مقاومي السياسة الملكية ، فساندت الجنسينيين مثلا على اليسوعيين الذين الغيت جمعيتهم في السنة ١٧٦٤ . ولكنها لم تفكر الا بامتيازات النبلاء ، امتيازاتها ، وبالامتيازات التي ترفعها فوق الجماهير ، وبصوالحها الخاصة ، لا بل طالبت بتأليف هيئة مع كافة المجالس في المملكة ، وبحق الاشتراك في السلطة التشريعية ومقاومة الارادة الملكية . فقد ساند مجلس بريطانيا الجمعية الاقليمية المعروفة باسم « مجلس طبقات بريطانيا » على الحاكم الراغب في شق الطرقات لأن الطرقات تدخل في صلاحية المجلس ، الذي لا يقوم بأي عمل .

نفى الملك دوريا مجلس باريس ثم استدعاه ثانية . وأخيراً الغى المستشار « موبو »، في السنة ١٧٧١ ، وظائف القاضي واستبدل اعضاء مجلس القضاء بقضاة مأجورين. ولكن لويس السادس عشر ، لسوء الحظ ، أعاد المجالس في اواخر السنة ١٧٧٤ محاولا بذلك تهدئة الخواطر. إلا أن مجلس باريس تمسك بالشرائع الاساسية للملكية ، وحقوق المجالس والاتفاقات المعقودة مع الولايات ، وضرورة اقتراع مجلس الطبقات على الضرائب ، فعطل الملك المجلس وفككه ونقل تسجيل المراسيم الى محكمة عليا تضم خدام الملك الخلّص .

بدأت الثورة حينذاك بثورة ذوي الامتيازات . فقام اعضاء المجالس ، حلفاء النبلاء ، باثارة السكان في كافة المدن التي قامت فيها المجالس ، في « غرينوبل » و « رين». وكان من مجلس الطبقات الاقليمي في مقاطعة «دوفينه» ، المجتمع في «فيزيل» ، أن رفض دفع الضرائب. فاضطر الملك الى دعوة مجلس الطبقات للاجتماع في اول ايار من السنة ١٧٨٩ .

ولكن الأمة انقسمت آنذاك شطرين. فطالب الامراء الملكيون والأعيان بدعوة تجري بحسب النظم القديمة وباقتراع يجري وفاقاً للترتيب التالي : الاكليروس ، النبلاء ، ممثلو الشعب ، الذي يضمن الاكثرية لذوي الامتيازات . وطالب البورجوازيون ، الذين أسسوا « حزباً قومياً » وجمعوا كلمتهم في كل مدينة ، بجمعية وطنية ، وبمضاعفة عدد ممثلي الشعب والاقتراع الشخصي الذي يضمن لهم الاكثرية . فلم يوافق الملك إلا على مضاعفة العدد في شهر كانون الأول من السنة ١٧٨٨ .

وقد برز نشاط طبقات اخرى . لقد حدث ما يشبه ثورة الطبقة الكادحة . فان معاهدة السنة ١٧٨٦ ، سبب البطالة ، ومحول حصائد السنة ١٧٨٧ والسنة ١٧٨٨ قد زادا في ارتفاع الاسعار ؛ فبات الخبز الذي كان يمتص ٥٠٪ من موازنة العامل ، يمتص منها ٨٠٪ . ارتفع عدد المتسولين والمتشردين . انفجر فجأة حقد عارم على السيد ، والغني ، والموظف. فحدثت اعمال شغب، وهوجمت القصور، وهوجم البورجوازيون والاشراف الريفيون واضعو اليد على الحبوب.

في ٢٧ نيسان من السنة ١٧٨٩ ، نُهب مصنع « ريفيون » للورق الملون القائم في ضاحية « سانت انطون » ، إحدى ضواحي باريس . كانت ردة فعل الحكومة ضعيفة : فالوكلاء فقدوا الاعتبار والجيش فقد الانتظام .

جرت انتخابات مجلس الطبقات في السنة ١٧٨٩ باقتراع شبه عـــام ، وبالترتيب . وضع المنتخبون « دفاتر شكاوى » ضمنوهـــا امانيهم : دستور ، الحرية الفردية ، التساهل ، مساواة الحقوق ، اجتماع مجلس الطبقات دوريا للتصويت على الضريبة ، اللامركزية ، جمعيـــات اقليمية وبلدية ينتخبها الملاكون في الدرجة الاولى ، احترام الاعفاءات والحريات في الاقـــاليم ، السلطة التنفيذية للملك ، السلطة التشريعية للملك والأمة . وهكذا ارتضى البورجوازيون بقسم كبير من برنامج ذوي الامتيازات بسبب عجز الملك عن تسلم دفة الاصلاحات .

اوروبا الجنوبية

اسبانيا

إن اسبانيا ، التي ما زال الانحطاط مخيماً عليها في السنة ١٧١٥ ، ما زالت دولة حطم الملوك فيها سلطة الاسياد السياسية دون أن يفعلوا في اخراج البـــلاد من القرون الوسطى . انتهى النظام الى التحجر في قوانين واعراف وانظمة لا يحصى لها عد . كان دور اسبانيا في اوروبا دور بـــلاد حديثة اقتصادياً تصدر الى انكلترا وفرنسا ودول الشمال الغربي صوف اغنامها ومعادنها وذهب وفضـــة مستعمراتها ، وتستورد منها بالمبادلة المصنوعات التي تفتقر إليها .

لم يكن ممكناً ان تصدر الاصلاحات إلا عن الملك ، المطلق مبدئياً ، الاقوى من الشرائع . وقد تم ذلك على يد الملوك البوربونيين ، الفرنسي فيليب الخامس ، حفيد لويس الرابع عشر ، وابنيه فردينان السادس (١٧٣٥ – ١٧٥٩) ، ولا سيما شارل الثالث الذي اعتلى العرش منـــذ السنة ١٧٥٩ ، بعد ان تربع على عرش نابولي طيلة عشرين سنة ، اجرى خلالهـــا إصلاحات عديدة ، وقـــد تميز بذهنه الثاقب والعملي . فأدخلوا افكار الفرنسيين وطرائق كبار المستبدين المستنيرين من الفرنسيين في القرن السابع عشر .

اقـــام الملوك ملكية ادارية على غرار الملكية الفرنسية . اخضعوا مجالسهم لسلطة مجلسين رئيسيين: مجلس الهند، ومجلس قشتالة حيث فرضوا سلطتهم بواسطة وزراء كانوا احياناً مـــن النبلاء المتشبعين بالافكار الفرنسية ، كالكونت « دارندا » مثلاً (١٧٦٦ – ١٧٧٣) ، ولا سيما من البورجوازيين ، كالايطالي «البروني» ، و «باتينيو» (١٧٢٦ – ٣٦)، و «خوسيه مونينو» ، الذي اصبح كونت « فلوريدا بلانكا » وتزايد نفوذه منـــذ السنة ١٧٦٢ ، و « كمبومانيس » . تولى تنفيذ أوامرهم في كل ولاية وكيـــل اسندت إليه، كما في فرنسا ، شؤون الاموال والادارة العامة ، وضابط عام يقود الجيش ، ومحكمة تؤمن العدل ، يعجز الواحد منهم عن العمل دون الآخرين ، ويراقب بعضهم بعضاً .

اخضعت الهيئـــات المنظمة القليلة التي كان بمقدورها ان تقاوم الارادة الملكية . فمحكمة التفتيش التي ابقي عليها قد اكرهت على الخضوع للحكومة . وضمن الملك لنفسه تعيين الاساقفة طيلة ثمانية اشهر في السنة (١٧٥٣) ثم طيلة السنة . ألغيت جمعيـة اليسوعيين في السنة ١٧٦٧ بتهمة انتوائها قتل الملـك ، وخصوصاً بتهمة نشر المبادىء المضادة للحق الملكي ، وهو شارل الثالث الذي استحصل من البابا على الغائها في كافة البلدان (١٧٧٣) .

حاول الملوك جاهدين تنمية التجارة والصناعة باعتماد كولبيرية حقيقية : مصانع ملكيـة ، استدعاء اختصاصيين اجانب ، مساندة المصانع الخاصة بمساعدات مالية وحماية جمركية ، احداث شركات تجارية ، ومنذ السنة ١٧٦٥ تأسيس جمعيات اقتصادية ووطنية لاعادة العمل الى سابق عزته ، شق الطرق وإنشاء الاقنية ، حماية المزارعين الذين ما عاد الملاكون ليرفعوا يدهم عـــن الاملاك دون اسباب جوهريـة (١٧٦٨) وحماية صغار الملاكين الذين استحصلوا ، ضد مالكي الاغنام المتنقلة ، على حق تصوين اراضيهم . وكان من سرعة النجاحات المحرزة ان استفاقت مبادهة الاسبانيين من سباتها وان طالبت الجمعيات الاقتصادية منذ السنة ١٧٧٠ بمزيد من الحرية : ألغت الحكومة ، بعد السنة ١٧٧٥ ، الجمارك الداخلية واحتكار « قـــادس » للتجارة وفتحت باب تجارة المستعمرات لـ ١٣ مرفأ اسبانياً . وعلى الرغم من أن اسبانيا مـــا زالت محتاجة اقتصاديـاً للدول الاخرى ، فقد قامت فيها مصانع جوخ وحرير وقطن في كل مكان . ومنذ السنة ١٧٧٩ توقف طلب الاجواخ والحرائر والقبعـــات من فرنسا . وفي السنة ١٧٨٨ ارسلت اسبانيا الى الهند بضائع اسبانية تجاوز حجمها ما ارسلته من المصنوعات الاجنبية . ارتفع سكانها من ٥ الى ١٠ ملايين . اعيد انشاء الاسطول والجيش على انهما افتقرا الى التدريب .

تطلب كل ذلك اموالا ضخمة . اختلت الميزانية . ألغى شارل الثالث كثيراً من التزامـات الضرائب وزاد من دخل الضريبة باسناد جبايتها الى الموظفين . ولكنه لم يتمكن من اخضـاع النبلاء والاكليريكيين للضريبة . اكثر من الضرائب ، واختبر امكانات مصرف «سان ـ شارل» الذي اخفق كما اخفق مصرف « لو » . في السنة ١٧٨٩ تخبطت اسبانيا في ازمة بلغت ذروتها ، قبل ان يكتمل تطورها .

البرتغال

ان البرتغال التي لعبت دور الوسيط بين مستعمرات اوروبا كادت تفقد هذا الدور بفعـل مزاحمة الدول الاخرى . وكادت صادراتها الخفيفة (خمور ، واخشاب البرازيل) تنحصر في أسواق انكلترا . لم تستفد فيما مضى من تجارتها لتنشىء صناعة في اراضيها ولتجدد زراعتها . بقي نظامها الاقتصادي والاجتماعي شبيهاً به في القرون الوسطى . في عهـد الملك الحازم ، يوسيه الاول (١٧٥٠ - ١٧٧٠) ، تمكن مصلح قوي الشكيمة ، هو «كارفالهو» ، الذي لقب بالمركيز « دي بومبال » منذ السنة ١٧٦٩ ، من تحطيم سلطة محكمة التفتيش التي مـا عادت لتقدر على احراق الهراطقة دون موافقة الحكومة ، ومن تحرير الجددين (١٧٥١) ،

وطرد اليسوعيين الذين يقاومون سياسته ، بتهمة تدبـــير المؤامرات (١٧٥٩) ، وفتح ابواب الوظائف العامة لكافة البرتغاليين دون استثناء ،وتأسيس المدارس وادخال العلوم الى الجامعات، وانشاء المصانع، وانماء التجارة ، وبناء اسطول ، واعادة تنظيم الجيش ، وتشييد الحصون. اجل لم تواصل الملكة « ماريا » الاولى عمله ، ولكنها لم تهدمه .

في هاتين البلادين يذكرنا جهد الحكومة بالجهد الفرنسي في القرن السابق . واذا كانت فرنسا متخلفة قرناً عن انكلترا، فان اسبانيا والبرتغال كانتا متخلفتين ما يناهز القرن عن فرنسا.

ايطاليا

اما ايطاليا، « العبارة الجغرافية » المقسمة الى عـــدة دول ، فما زالت تعاني من الاكتشافات الكبرى ومن توسع التجـارة الاوقيانوسية الكبرى . تضاءل شأن المدن البحرية النسبي تضاؤلا كبيراً . واذا ما استثنينا مرفأ ليفورنو الحر في توسكانا ، نرى كافة هذه المدن تتأخر بفعل منافسة الانكليز والفرنسيين والنمساويين الاقتصادية ، وافتقار البـلاد الى المناطق الصناعية ،وعادات البطالة والانفاق المألوفة ابان ازدهارها العظيم. جنوى والبندقية، التجاريتان ، كانتا جمهوريتين. ولكن الارستوقراطية البندقية ، التي كانت من قبل بورجوازية العادات ، قد هجرت التجارة ، وغدت البندقية في الدرجة الأولى مكان اجمل اعياد أوروبا . فتكررت على لسان ملوك فولتير هذه الجملة : « وقصدت البندقية لأقضي فيها ايام المرفع » .

كانت الدول الأخرى بلداناً ريفية ، ملكيات يترك فيها الامراء للارستوقراطيين لا سلطة اجتماعية كبرى فحسب ، كما في فرنسا ، بل قسطاً كبيراً من الحكم الاقليمي والمحلي ايضاً . كان هؤلاء النبلاء على جانب كبير من الكسل وغالباً ما انغمسوا في الملذات . تأخر نمو المدن وتدنى عدد البورجوازيين الذين كانوا فقراء وعديمي التأثير .وفي كل مكان كان الفلاحون متخلفين وبؤساء.

نزع الأمراء الى السلطة المطلقة ، وغالباً ما كانوا « مستبدين مستنيرين ». وانما يجب هنا ان نلفت الانتباه الى بعض الفروق .

فحكومة الدول البابوية الثيوقراطية لم تكترث بالمسائل المادية . فتميزت دول البابا بأسوأ ادارة وكانت اشد دول شبه الجزيرة بؤساً .

وفي مملكة نابولي ، حاول البوربونيّان ، شارل (١٧٣٩ – ١٧٥٩) ، ثم فردينان ، القيام ببعض الاصلاحات مع الوزير « تانوتشي » ، ومهدا السبيل لالغاء جمعية اليسوعيين (١٧٧٣) ، وحاربا نفـــوذ « فدائيي » « ألفونس دي ليغوري » (« اللاهوت الادبي » ١٧٥٣) الذين ناهضوا العلم والمكتبات ، والغيا الفدادية والاوقاف ، ووفرا المساعدات المالية للمصانع ، وفرضا الضريبة على ممتلكات الكنيسة ، ولكنهما عجزا عن فرض الضريبة على النبلاء فبقيت البـلاد مغطاة بأملاك واسعة يسوء العناية بهـــا شركاء ثقلت عليهم وطأة اعمال التسخير والحقوق السيدية الأخرى .

وفي توسكانا ، أتاحت سياسة اكثر حرية ، والغاء التعاونيات ، والاجازات المؤقتة بتصدير

الحبوب ، وتجفيف بعض المستنقعات ، تكديس الثروات وتأسيس المشاريع التجارية وارتقاب النهوض من السبات .

وفي لومبارديا الفنى النمساويون تلزيم الضرائب الثقيل الوطأة على المكلف واعتمدوا الجباية المباشرة ، ومسحوا الأراضي ، وخفضوا الرسوم الجركيـة وجعلوا من ميلانو سوق مقايضة ، مشجعين بذلك نخبة بورجوازية صغرى يتزعمها « بيترو فرّي ».

وفي هاتين البلادين خُففّ من وطأة الحقوق السيدية واخضعت للضريبة كافة الاراضي تقريباً بما فيها اراضي النبلاء وأراضي الكنيسة .

اما المملكة الساردية فكانت أعظم الدول الايطالية قوة وتقدماً . فالفلاحون كانوا فيها احراراً . ونظم الملك فيها استرجاع الحقوق الاقطاعية بأثمانها (١٧٧١) . أقسام النبلاء في ممتلكاتهم وحسنوا الزراعة ، فتقهقرت المزارعة لصالح المساقاة . تجمعت الاراضي في أيدي الرأسماليين الزراعيين من الملاكين أو كبار المساقين . انمى الملك شبكة الطرق ، وحاول ان يجعل من مملكته الوسيط التجاري بين فرنسا وايطاليا ، وبين ايطاليا وسويسرا . اعتمدت هذه المملكة الاقتصاد ، فكان لديها جيش مؤلف من ٣٠٠٠٠ رجل ، وكان ينتظرها مستقبل عظيم .

فنرى على العموم ان ملوكاً يتمتعون بمزيد من السلطة المطلقة يدفعون بايطاليا الى الامام ، ولكن البورجوازية ما زالت مفقودة .

اوروبا الوسطى

سويسرا كان « الجسم الملفيقي » اتحاداً غير متماسك يضم ١٣ ولاية ذات سيادة تغار على استقلالها ، وقد تقسمت عن طريق المعتقد الى ولايات كاثوليكية وولايات بروتستانتية . كان التنظيم جمهورياً . في المدن النامية عند نقاط المرور المؤدية الى مجازات جبال الألب ، عاشت بورجوازية على بعض الفقر ، ولكنها كانت أعظم قوة الى حد بعيد من سكان المناطق المنبسطة ، فكانت بمثابة اشراف احتفظوا لأنفسهم بالحقوق السياسية والفوائد الاجتماعية . كانت الخلافات مستمرة بين الولايات ، وبين المدن والارياف في داخل الولايات .

البلدان الجرمانية والدانوبية كلما توغلنا في داخل أوروبا الوسطى ، انطبع في نفوسنا اننا نعود بالتاريخ الى الوراء وندخل ابعد فأبعد في القرون الوسطى . كانت هذه الدول في معظمها بلدانا ريفية ، شحيحة الانتاج ، خاضعة لنظام سيدي ثقيل الوطأة جداً . الى الغرب من نهر الالب ، كانت القنانة قد زالت من بعض الاماكن أو تلطفت بعض الشيء ، ولكنها ما زالت على مرارتها الى الشرق من النهر حيث ندر ان تجد فلاحاً حراً . استمرت الارستوقراطية في فرض اعمال التسخير التي لم تترك للمطلوبين لها الوقت اللازم لزراعة حقولهم ، وجباية الضرائب المخولة حق الانتخاب والاتاوات الباهظة ، واستثمار الاحتكارات الرابحة ، كالافران ، والمطاحن ، والمعاصر ، واحقاق الحق والمحافظة على الامن . فهي لم تمارس هذه

الصلاحيات اكثر منها في فرنسا فحسب ، ولم تستأثر عملياً بكل الادارة الاقليمية فحسب ، كما حدث ذلك غالباً في اسبانيا وايطاليا ، بل احتفظ الملوك للنبلاء بكافة مراكز الجيش وكافة مراكز الادارة ايضاً . اجل لقد انتمى بعض الوزراء الى الطبقات الدنيا ، لا سيما في اواخر القرن ، ولكن الارستوقراطية احتفظت بكل شيء بصورة عامة .

بقيت الطبقات الاجتماعية متميزة جداً ، ومتباعدة جداً . فعلى نقيض انكلترا حيث اختلطت الطبقات اكثر فاكثر على الرغم من كل شيء ، وعلى نقيض فرنسا حيث حدثت الظاهرة نفسها في النصف الثاني من القرن ، نرى النبلاء والبورجوازيين والصناعيين اليدويين والفلاحين يعيشون بعيدين بعضهم عن بعض ونرى كل طبقة تحتقر من دونها ؛ فالمراتب حوفظ عليها والمسافات ابقي عليها .

ارتضى الملوك بالحصول على طاعة النبلاء والاستئثار بخدماتهم . استخدموا التقنيات الاقتصادية والسياسية التي توصلت اليها الدول الغربية المتطورة (انكلترا وفرنسا) رغبة منهم في ارساخ سلطتهم ، فاحدثوا بذلك ، كما باستخدام تعابير الفلاسفة ، انطباعاً بان دولهم دول عصرية تتقدم دول الغرب نفسها ، بينما لم يقطعوا في الواقع ، آنذاك ، سوى مراحل ما زالت بعيدة كل البعد عما بلغه الغرب .

الامبراطورية المقدسة

ما نزال هنا امام تفتت اقطاعي واسع النطاق . فالامبراطورية المقدسة الرومانية الجرمانية ، التي لا تطابق حدودها حدود المانيا ، « العبارة الجغرافية » ، ليست سوى ظاهر فحسب . ان الامبراطور ، رئيس سلالة هبسبورغ ، هو مبدئياً خليفة شارلمان واوغسطوس . ولكنه انتُخب ، في السنة ١٧٦٣ ،على يد تسعة منتخبين: منتخبي بوهيميا وساكس وبراندبورغ وهانوفر وبافاريا والبالاتينا وثلاثة كنسيين هم رؤساء اساقفة ماينس وتريف وكولونيا . اكرهه الانتخاب على اعطاء الامراء ضمانات ، وتكفل التدخل الاجنبي بعمل ما تبقى : فعجز الامبراطور عن ان يجعل من الامبراطورية دولة . كرست معاهدتا وستفاليا ، كمبدأ من مبادىء الحق الدولي ، سيادة امراء الامبراطورية التي آلت الى الحاد على بعض الاسترخاء . وحدت من سلطة الامبراطورية جمعية مركزها « راتسبون » تتولى امور الادارة وتعلن الحرب او تعقد الصلح وتوقع المعاهدات . اضف الى ذلك من جهة اخرى انها كانت مؤلفة من ثلاث هيئات تضم ممثلي المنتخبين والامراء والمدن المتضاربي المصالح والعادمي الثقة بالامبراطور ، فلم تأت عملاً مجدياً حقاً . اضف الى ذلك ايضا ان المانيا ، وهي الشطر الاهم من الامبراطورية المقدسة ، كانت تضم ٣٤٣ تقسيما اقليميا يدخل في عدادها ٣٠ دولة ، وامارات ، ومدن امبراطورية حرة ، واملاك واسعة لفرسان الامبراطورية الخاضعين مباشرة للامبراطور . وضمت ضفة الرين اليسرى وحدها ١١٧ دولة صغرى تتأثر كلها تأثراً قوياً بالنفوذ الفرنسي .

الامراء

حاول كافة الملوك اقتفاء اثر « اليزابت » في انكلترا خلال القرن السادس عشر ، واثر لويس الرابع عشر في فرنسا خلال القرن السابع عشر . سعوا لان يجعلوا من امارتهم دولة مطلقة ، مركزية ، بيروقراطية ؛ وان ينموا طاقاتها بالغـاء الامتيازات والمساواة الضريبية والروح التجارية كما قال بها « وليم سيسيل » و « كولبير » . فخلقت الدولة الصناعة خلقاً وساعدت بذلك على قيام طبقة بورجوازية . في المـدن الامبراطورية الاحدى والخمسين ، نهضت البورجوازية واثرت واحدثت تيارات تجارية جديدة ، وكلفت بالمعرفـة والجمال فبعثت نشاطاً فكرياً عظيماً ، ولعلها فعلت كل ذلك بتأثير مما كان يجري في الدول المجاورة . وغدت فرانكفورت ومانهيم وليبزيغ وهمبورغ مراكز فن وابحـاث ، على غرار عواصم الملوك الصغرى التي كانت اضعف من ان يلمع نجمها الا بنصرة الآداب والفن ، كـ « فيار » و « غوتا » و « ابينا » .

آل هبسبورغ

لقب الامبراطور مجرد رتبة ، ولم يكن بعض آل هبسبورغ اقـوياء الا بممتلكاتهم كشارل السادس حتى السنة ١٧٤٠ ، ومـاري — تيريز ابنته (١٧٤٠ — ١٧٨٠) ، وجوزف الثاني حفيده ، الذي اعتلى عرش الامبراطوريـة منذ السنة ١٧٦٤ ، واشركته امه في الحـكم ، وكان سيد املاك آل هبسبورغ منـذ السنة ١٧٨٠ حتى السنة ١٧٩٠ . سليل هبسبورغ ارشيدوق النمسا وملك بوهيميا وملك هنغاريا . اراضيه تضاهي اراضي ملك فرنسا ، ولعلها تعادلها سكاناً ، ولكن موارده دون موارد ملك فرنسا بخمس مرات ، ولم يكن مطاعاً . ما زالت اراضي آل هبسبورغ وكأنها في القرون الوسطى ، مقسمة الى قطع كبرى وصغرى ، وموزعة بين بحر الشمال والسهل الروسـي وبين المانيا الوسطى من جهـة ، وسهل البو والادرياتيك من جهة ثانية . العلائق بين الاجزاء المختلفة بطيئة وصعبة ، والشعوب من نمساويين وهنغاريين ورومانيين وايطاليين وتشيكيين وسلوفينيين ، وفلنك و« فالون » ، متباينة اخلاقاً ولغة ومعتقداً ويجهل بعضها البعض . يرتبط كل منها بآل هبسبورغ بعقد مختلف خاص ، تتمتع كلها بالاستقلال الاداري ، ومجالس طبقاتها الاقليمية ، اي جمعيات النبـلاء ورجال الكنيسة ، تدافع عن حريات البلدان وامتيازاتها ولا تهتم في الدرجة الاولى الا بدفـع حد ادنى من الضرائب . تتولى هذه الشعوب بنفسها تعيين رجال ادارتها من بين النبلاء الذين يقبضون على زمام السلطة ، الا في المـدن التي تعين البورجوازيات لادارتها قضاة منتخبين . هنالك مؤسسات هبسبورغية كثيرة : ثلاثـة مجالس في فيينا للسياسة العامة والمالية والتجارة والحرب ؛ وثلاث مستشاريات لبوهيميا وهنغاريا والدول الوراثية (النمسا وملحقاتها) ؛ ومجلسان للفلاندر وايطاليا . ولكنها كلها شبه مقيدة امام التقاليد والعادات المحلية الخاصة .

ان شارل السادس ، الذي لم يقدر حق قدره ، قد أمن لآل هبسبورغ ، في الدرجـة الاولى ، امتناع تجزؤ اراضيهم . لم يرزق واخوه البكر اولاداً ذكوراً . فاقر الامر الصادر عن الامبراطور والمجلس (١٧١٣) ، في حال عدم وجود وريث ذكر ، حق الوراثة لأنساله من

الاناث دون انسال اخيه البكر . وقد اثبت في مستهل هذه الوثيقة امتناع تجزؤ دوله . وتوصل الى اعتراف ممتلكات آل هبسبورغ المختلفة بها كقانون دولة ، بينما لم يعترف بوراثة الاناث في بوهيميا ودوقية ميلانو ، وربما في النمسا نفسها . فكانت عقداً جديداً يبعد مخاطر التفكك ، استمر العمل به حتى السنة ١٩١٩ .

في سبيل ايجاد موارد جديدة للملكية ، لجأ الى طريقة شركات الاحتكار : شـركة « اوستند » للاتجار مع الهند والصين التي اخفقت بفعل عداء الانكليز والهولنديين ، وشركة موانىء الشرق الادنى في تريستا .

الا انه لم يتمكن من ان يفعل اكثر من ذلك بسبب نزق الهنغاريين وفقدان النفوذ الذي مني به في اعقاب حروب خاسرة .

اما ماري – تيريز فقد حاولت مجدداً بمعاونة المستشار « كونيتز» وابنه جوزف ، تحقيق مشاريع الاصلاح ، لا سيا بعد حربي وراثة عرش النمسا (١٧٤٠ – ١٧٤٨) وحرب السنوات السبع اذ توفقت ، بتخليها عن سيليزيا ، الى الحؤول دون تفكك ممتلكاتها وفقدان لقبها الامبراطوري . كانت سمينة وقصيرة ، لطيفة وتقيـة ، يحبها رعاياهـا ويحترمونها ويلقبونها بـ « ام الوطن » ، وكانت ذكية وواقعية تقدر المقاومات المحتملة حق قدرها ، فارادت اجـراء التغييرات ببطء وصمت . قوّت المركزية . فاوجدت فوق المؤسسات القائمة مجلس شورى يتخذ كافة المقررات . وقد نفذ هذه المقررات مباشرة ، في بعض الولايات ، موظفون تابعون للتاج . نادراً ما دعت للاجتماع مجلس ممثلي هنغاريا ومجلس الطبقات . عملت بالروح التجارية .وحظرت استيراد المصنوعات وتصدير الخامات وهجرة اليد العاملة ، رغبة منها في خلق صناعة بالقوة . واقامت في املاكها نفسها ملاكين صغاراً انكبوا على عمل الزراعة بمزيد من النشاط والعنايـة ، ولكن الاسياد لم يحذوا حذوها . واقرت الخدمة العسكرية ، الا انهـا اقصرتها على الفلاحين وفي الدول الوراثية . لم تستطع اصلاح الادارة المالية . حققت بعض الشيء في حقل التساهل الديني : فمنذ السنة ١٧٧٤ ، لم يعد سـكان هنغاريا من غير الكاثوليك مجبرين على السير في التطوافات ، او على استدعاء كاهن كاثوليكي للمرضى . ولكنها هدفت لان تقيم كنيسة نمساوية اكثر منها رومانية : فمنذ السنة ١٧٦٧ ، ما كان اي منشور بابوي ليدخل الدول النمساوية بدون اجازة ملكية . اصلحت التعليم . بيد ان كل ما حققته ما زال جزئياً .

كان ابنها جوزف الثاني، الزاهد المتوج ،مبرهناً منسقاً منطقياً لا يقيم وزناً لمشاعر الشعوب . أوجد تسلسلاً في التقسيمات الادارية تداخلت فيه وحدات تاريخية مختلفة ، رغبة منه في صهر الشعوب : الولايات المقسمة الى دوائر . كان حكام الولايات ووكلاؤها وضباط الدوائـر يتولون اعمال الادارة على حساب موظفي الدولة . وجب أن يكونوا خريجي جامعـات (١٧٨٧) : فدخل صغار النبلاء والبورجوازيون مكاتب الادارة ، ولكن المراكز العليـا بقيت وقفاً على

كبـــار النبلاء فرضت الالمانية على كافة الشعوب لغة رسمية للادارة والمدارس الشـانوية والاكليريكيات (١٧٨٤ — ١٧٨٦) .

في السنة ١٧٨١ اصدر براءة تساهل اقامت المساواة بين الكاثوليــك واللوثريين والكلفينيين والأرثوذكس . بقي اليهود خاضعين لنظام خاص . ولكنه واصل تحقيق حلم كنيسة قوميـــة مستقلة عن روما ، فانقلب تساهله تصلباً ضد الكاثوليـــك الذين نغّص ضمائرهم بتأسيس اكليريكيات رسمية يهمل فيها اللاهوت ، ومنع كتب اللاهوت (١٧٨٤) ، وحظـــر زيارة الأماكن المقدسة والتطوافات ، وإقفال أديرة كثيرة باعتبارها غير مفيدة ، بينما يرى الكاثوليكي أن الرهبان التأمليين أنفع البشر طرا بصلواتهم . علمن نصف الأديرة واستولى على ممتلكاتهـا (١٧٨٦ — ١٧٨٨) .

أبقى على كثير من النظام التجاري والروح التجارية ، ولكنه اتجـه شطر الحرية التجارية : معاهدة تجارية مع روسيا ، إلغاء الاحتكارات التجارية ، حرية تجارة الحبوب في الداخل ، حرية تأسيس مصنع أو حانوت (١٧٨٢) . حرر الفلاحين وجعل منهم ملاكين وراثيين لاراضيهـم مقابل ضريبة تخول حق الانتخاب. الغى الاحتكارات السيدية، وأبدل أعمال التسخير بأتاوات نقدية (١٧٨٣ — ١٧٨٨) . وزع أملاكه وممتلكات الأديرة مزارع كبرى لزمها تلزيماً .

مسح الأراضي رغبة منه في تحقيق المساواة أمام الضريبة (١٧٨٩) ، وعمّ هنغاريا بالخدمة العسكرية، وأجرى تبادلاً جزئياً في السكان بين الالمان والهنغاريين رغبة منه في صهر الشعوب.

ولكنه تعجل في انجاز عمله ، فساء كافة رعاياه بالخدمة العسكرية ، والكاثوليك بسياسته الدينية ، والنبلاء بتدابيره الاجتماعية ، والفلاحين المحررين الذين ثاروا واستباحوا السلب والنهب. فمنذ السنة ١٧٨٨ هبت عاصفة من الاعتراضات والثورات التي كان أخطرها في المناطق المنخفضة حيث اتحد ضد الامبراطور كاثوليك « فان — دير — نوت » التقليديون وبروتستانت «فونـك » الاحرار . فتوجب التخلي عن معظم الاصلاحات ، باستثناء حرية الفلاحين .

آل « هوهنزولرن »

على نقيض ذلك ، أحرز آل هوهنزولرن في بروسيا نجاحاً تاماً. ولا غرو، فان ممتلكاتهم ، وإن كانت قطعاً متناثرة بين بولونيا والرين ، كانت كلها تقريباً في سهول المانيا الشمالية المأهولة بالجرمانيين في الغرب ، وبالجرمـانيين وبعض السلافيين في الشرق ، ولكن هؤلاء السلافيين المتأخرين حضارياً وصناعياً طبعوا دونما صعوبة بطابع الملوك . أضف إلى ذلك أن فردريك الثاني قد تمتع بسلطة الابطال الظافرين التي أعوزت النمساويين .

ان فردريك غليوم الأولّ ، « الملك الرقيب » (١٧١٣ — ١٧٤٠) الجبار ذا القامة الفائقة الطول ، المعرض للسكتة ، وذا الأعصاب المهيجة ابداً بالافراط من التبغ والمشروبات الكحولية والأطعمة الأزوتية ، مثار رعدة عائلته ورعاياه ، قد أعد آلة حرب الفتوحات، صناعة بروسيا القومية . ازدرى بالأدب والفلسفة ، « الهواء » ، فأحب الواقع وأراد « تحقيق جديـــد » كل

سنة . قام بعمل مرهق ، إذ اطلع بنفسه على كل شيء ، باعتباره الخادم الأول لـ « جلالة الدولة » . وفرض على الجميع الطاعة السلبية دونما براهين. دفع لموظفيه رواتب محترمة وأوجب عليهم العمل والنظام ، واستخدمهم في تأسيس دولة ، ووطن البروسيين في كليف والكليفيين في بروسيا . رفع عدد السكان بتأسيس المستعمرات ، فاجتذب الأجانب من هولنديين وفرنسيين ، ووفر لهم الأدوات والحيوانات والبذار ، فانشأ مئات القرى . بلغ عدد سكان المملكة ٢٤٠٠٠٠٠ نسمة . حاول تنمية الصناعة بالروح التجارية فحظر تصدير الصوف كي يحتفظ به للمناويل. واعتمد اقتصاداً مدروسا اتاح له تنمية الجيش. أقر مبدأ الخدمة العسكرية الشاملة . وفر الاشراف الريفيون ، خريجو الاكاديمية العسكرية المؤسسة في برلين في السنة ١٧٢٢ ، ضباطا للجيش تميزوا بشجاعة لا تتزعزع . كان لكل فرقة معسكرها ، وكانت تضم جنودها من قضاء واحد ، فتقوي الرابطة الاقطاعية النظام العسكري. كانت بروسيا معسكراً واسع الاطراف يعمل فيه الجميع لخدمة الجيش : الفلاحون ينضمون اليه ، أو يؤمنون له الغذاء ، والصناعيون اليدويون يكسونه ويسلحونه ، والأشراف يقودونه .

أما فردريك الثاني ، ابنه ، القصير القامة ، والنحيف البنية ، ذو الأنف الحاد والشفتين القاطعتين ، المكار والقاسي ، والكلف بالمجد ، فقد أحب الادب والفلسفة وكان كاتبا موهوبا. ساءت العلاقة زمنا طويلاً بينه وبين والده الذي خشي أن يمسي ابنه « مركيزاً صغيراً » ، ولكنه رأى آراء ابيه الاساسية نفسها ! يجب أن تستهدف الادارة الداخلية قوة الجيش المتزايدة ، ويجب على الجيش أن يحقق الفتح ؛ والفتح يتيح إنماء قوة الدولة لتحقيق فتوحات جديدة . منذ السنة ١٧٤٠ حتى السنة ١٧٦٣ ، انشغل فردريك في الدرجة الاولى بالحرب ضد النمسا والاستيلاء على سيليزيا . في السنة ١٧٦٣ ، تدنى عدد السكان ، بعد الحروب الى أربعة اخماسه ، وعم الخراب ، وارتفعت الاسعار ، وساد البؤس والفجور والفساد والفوضى .

أرسل فردريك الى المناطق المكتسحة ، ثم الى البلدان البولونية المفتوحة فلاحين آتين من الدول الالمانية الاخرى ، ولا سيما من مكلمبورغ والبلدان الصوابية ، ومالا وبذاراً وأغذية وجياداً ، ونظم القروض مقابل رهونات عقارية . في السنة ١٧٧٤ صدرت بروسيا قمحا بقيمة مليوني « تالر » سنويا .

حظر تصدير الصوف واستيراد عدد كبير من المواد البذخية ، وفرض رسوما جمركية مرتفعة ، وأعطى مساعدات مالية للمشاريع ومنح احتكارات ، ولكنه ما أن استطاع الى ذلك سبيلاً حتى أقر منح الحرية رغبة منه في تشجيع الانتاج عن طريق المنافسة . تقدمت الصناعات كلها : فأدخلت مصانع صفائح الحديد والأجواخ والقيشاني والمخمل ٣٠ مليون تالر في السنة . وصلت أقنية بين الفستول والإيلب ، ونقلت ١٣٠٠ سفينة بروسية الاقمشة والاجواخ والاخشاب والحنطة . وفي السنة ١٧٨٥ ، وقع فردريك معاهدة تجارية مع الولايات المتحدة .

أما الفرنسي « دي لوناي » فقد نظم الجمارك ، والضرائب غير المباشرة على الخبز واللحم والجعة والخمور والمشروبات الروحية والبضائع الاجنبية والمصنوعات البذخية ، التي يدفعها الجميع دون أن يشعروا بها : وأوجد « دي لوناي » احتكارات رسمية . فكانت خزانة الحرب ملأى ابداً بالأموال .

اعتمد فردريك التساهل واستقبل اليسوعيين انفسهم لتولي أمر التعليم . نظم المدرسة الابتدائية والتعليم الثانوي العملي واكاديمية برلين .

تعاظم جيشه بالتجنيد ، الاجباري غالباً ، وقادة نبلاء يتخرجون من المدارس العسكرية ويتدربون في مناورات الربيع والخريف ، وزُوّد بمدفعية كافية ، واحتمى بخطوط من التحصينات على غرار فرنسا .

أعد توحيد القوانين في الدولة البروسية ، ولكن مجموعة القوانين العامة لم تظهر إلا في عهد خلفه .

أما النتائج فتوجز برقم بليغ : في السنة ١٧٨٦ بلغ عدد سكان المملكة ستة ملايين نسمة . ولكن اللوحة لم تكن جمالا كلها . فقد حدث تقهقر اخلاقي . وقد قال العالم « جورج فورستر » عن البرليليين : « ان حب الالفة والذوق الرقيق في الملاذ يستحيلان عندهم شهوانية وفجوراً ، لا بل نهما ، اذا صح التعبير ، كما أن حرية الفكر ومحبة الانوار تستحيلان اباحية وقحة ... النساء عواهر بصورة عامة » . وكان هذا الرأي رأي العديد من المسافرين . كان بمكنة المال أن يصنع كل شيء . وقد حدد ميرابو بروسيا بقوله : « نتانة قبل بلوغ كال النمو » .

بيد أن المملكة كلها خضعت للملك ودفعت له كل ما سمحت به طاقتها ، وكان الجيش أقوى جيوش اوروبا ، ولم يستطع رد فعل فردريك – غليوم الثاني ، المتطرف في التقوى ، زعزعة العمل المحقق زعزعة تذكر .

اوروبا الشمالية

الدانمارك

كانت الدانمارك مؤلفة من اجزاء متشتتة ايضاً : « جتلند » ، الجزر ، نروج ، و « اولدنبورغ » في الجنوب التي قبضت في السنة ١٧٦٧ بدوقيتي « شلسفيغ » و « هولشتاين » . مركز الدولة هو المضائق . المرافىء عديدة ومزدهرة ، والتجارة البحرية ناشطة . قامت في وجه النبلاء الريفيين بورجوازية تجارية توصلت الى تحقيق نفوذ كبير . وأدت علائق البلاد العديدة الى نشر الآراء الالمانية والانكليزية والفرنسية فيها .

كان الملوك فردريك الرابع (١٦٩٩ – ١٧٣٠) وكريستيان السادس (١٧٣٠ – ١٧٤٦) وفردريك الخامس (١٧٤٦ – ١٧٦٦) مع وزيره « برنستورف » منذ السنة ١٧٥١ ،

وكريستيان السابع (١٧٦٦ — ١٨٠٨) الذي احتفظ ببرنستورف وأخذ الطبيب «ستروتسي» مستبدين مستنيرين حقيقيين ، ولا سيا الأخيران منهم . لا شك في انهم نجحوا في أن ينتزعوا كل سلطة سياسية من الارستوقراطية باقامة طبقة في وجه أخرى . ولكنهم لم يتوفقوا الى الغاء الفدادية وإعلان حرية الفلاحين مع ابقائهم خاضعين للحقوق الاقطاعية ، إلا في السنة ١٧٨٧ وبعد محاولات فاشلة كثيرة. إلا أن بعض كبار الملاكين رفعوا عن كاهل فلاحيهم أعمال التسخير منذ السنة ١٧٥٠ وجعلوا منهم مزارعين . ونهج الملوك سياسة تجارية . انمت الحماية الصناعة ، وتأسست بعض الشركات ، كالشركة الآسيوية في السنة ١٧٣٢ ، وشركة الهند الغربية وغينيا في السنة ١٧٣٣ ، وفتح مصرف كوبنهاغن ابوابه في السنة ١٧٣٦ . وأحدث كريستيان السادس وفردريك الخامس مدارس واكاديميات ومؤسسات علمية . إلا أن النبلاء لم يفقدوا قوتهم . ففي السنة ١٧٧٢ قاموا بعمل مفاجيء وأكرهوا الملك على إدانة « ستروتسي » وتخريب الاصلاحات تخريباً مؤقتاً . فتجانبت بلادان مختلفتان ، وجه بحري ناشط بورجوازي ، وداخل ارستوقراطي ريفي ، ولم تبرز نتائج نمو البلاد الاولى في البلاد الثانية الا بكل بطء .

السويد

ان السويد التي جعلت في فترة من الزمن بحيرة سويدية من البلطيك ، والتي ما زالت لها ممتلكاتها الهامة من جهة البلطيك الاخرى قد عرفت تطوراً أوسع وأعمق بفعل التجارة البحرية الكبرى . وفرت مناجم الحديد الممتاز ، والغابات الكبرى ، وأراضي سكانيا الغنية بالقمح ، المواد اللازمة للتصدير . وقد استثمر هذه المناجم والغابات والاراضي النبلاء وطبقة من البورجوازيين الاثرياء ، فأدى ذلك الى تقريب المسافات بين هؤلاء وأولئك . وكان الفلاحون احراراً وميسورين .

الا ان النبلاء والبورجوازيين والاكليروس اللوثري المنتسب الى البورجوازية ، قد استاؤوا من تضخم النقد وتقهقر التجارة والاقتطاع من الثروات لتخفيف ديون الحرب ، فأرادوا تحديد السلطة الملكية التي باتت مطلقة في عهد شارل الثاني عشر . كان الفلاحون راضين عن السلطة المطلقة ، ولكن الحروب الطويلة وعمليات التجنيد المستمرة جعلت البلاد تقفر شيئاً فشيئاً من السكان وافتقرت الحقول الى من يعنى بها؛ وكانت هذه الطبقة مستضعفة، وما كان مستواها الثقافي المتدني ليسمح لها بلعب دور سياسي. استفادت الطبقات الثلاث الاخرى من تأرجح حق وراثة العرش . بعد وفاة شارل الثاني عشر في السنة ١٧١٨ التأمت الجمعية ، المؤلفة من ممثلي الطبقات الاربع ، وانتخبت ملكة على العرش شقيقة شارل الثانية ، « اوليك — اليونور » دون أن تقيم وزناً لحقوق ابناء شقيقته البكر ، ولكن الملكة اضطرت بالمقابلة الى القبول بدستور السنة ١٧١٩ . غدت السويد جمهورية وملكها رئيساً . قررت الجمعية القوانين بأكثرية ثلاث طبقات من اصل اربع ، وعينت لجنة سرية تضم ٥٠ نبيلاً : ٢٥ اكليريكياً و ٢٥ بورجوازياً ، وتمارس السلطة التنفيذية ؛ وتقدم المرشح لمجلس يعينه الملك يتولى السلطة التنفيذية بين دورة

واخرى ؛ وكان على الملك ان يرضخ للاكثرية وكان صوته بمثابة صوتين فحسب .

برهنت هذه الحكومة عن عجزها بسبب تصارع الاحزاب. فالنبلاء ، متوسطوهم وصغارهم، اضطروا ، بعد ان افقرتهم الحروب ، الى طلب الوظائف العامـة التي ارتفع عددها في « عصر الحرية » ، لا سيما وان نبـلاء السويد بيروقراطيون . وفي سبيل الحصول على الوظائف والتدرج في سلمها استزلم النبلاء لبعض كبار الاسياد الذين يتنازعون النفوذ والسلطة . وكي يتمكن هؤلاء من نقـد زبنهم المتزايدين ، دخلوا في خدمـة الاجانب من روس وانكليز وفرنسيين . فتشيع حزب « القلانس » لانكلترا ، ثم لروسيا منـذ السنة ١٧٦٣ . وتشيع حزب « القبعات » لفرنسا . وكان من ملاءمة هـذا الوضع ان وقّعت كاترين الثانية وفردريك الثاني ، في السنة ١٧٦٣ ، اتفاقا سريا للابقاء على الدستور السويدي الذي يلاشي السلطة الملكية ويخلد الفوضى ، وضمنا الدستور « للقلانس » .

بلغ الوضع درجة من الخطورة مكنت الملك غوسطاف الثالث ، عنـد توليه العرش في السنة ١٧٧٢ ، من القيـام بانقلاب سانده الشعب والجنود وفرض دستور جديد . استعاد حق اختيار وزرائـه ، واقصر مجلس الشيوخ على دور استشاري والمجلس على دور الاشتراك في اقرار الضرائب واعلان الحروب . تصرف غوسطاف الثالث ، الذي سلخ سنوات طويلة من حياته في فرنسا ، تصرف المستبد المستنير . الغى الاعذبة ، واطلق حرية المعتقد للمهاجرين الاجانب ، واعلن حرية تجارة الحبوب ، ووسع التعليم الابتدائي ، وشجع الكتاب والفنانين ، وأسس الاكاديمية السويدية ، وبنى اسطولاً حربياً ، ونظم الجيش تنظيماً جديداً . بات النفوذ الفرنسي مسيطراً . ولكن ثقل وطأة ضرائبه هيج الشعب ، كما هيجته الاحسانات الـتي اغدقها على النبلاء دون ان يفوز بانضمامهم اليه . فالنبلاء ، الذين حركهم ذهب كاترين الثانية ، قد اوقفوا الجيش السويدي ، في ضراوة الحرب الروسية ، بثورة تستهدف استعادة دستور السنة ١٧١٩ . استنجد غوسطاف الثالث بوطنية الطبقات الاخرى الثلاث واستخدم القوة وبقي السيد المطاع. الا ان بعض النبلاء طعنوه بخنجر في السنة ١٧٩٢ خلال حفلة راقصة كان المدعوون اليهـا متنكرين بملابس مستعارة .

أوروبا الشرقية

بولونيا

كانت بولونيا ، وهي جـزء من سهل واسع الاطراف ، لا حدود طبيعية له ، مشرع الابواب امـام الغزوات ، دولة مهددة بالزوال . فكانت بمثابـة خطأ تاريخي واستمراراً لعهود ولّـى زمانهـا ، ودولة تذكـّر ، بنواح كثيرة ، بفرنسا الكابيتيين الاولين ، لا تجمعها وحدة وطنية . من اصل ١١ مليوناً من السكان ، يؤلف البولونيون النصف ، والروس الثلث في المناطق الشرقية ؛ امـا السدس الباقي فيتألف من ألمان وليتوانيين ويهود وأرمن . ولا تجمعها وحدة دينية ؛ فنصف السكان كاثوليك ، والثلث ارثوذكس ، والبـاقي

بروتستانت ويهود. وهي بلاد تكاد تكون ريفية كلهـــا . فالمدن ، وهي صغيرة جداً (٦ الى ٧ ٪ من السكان) لا تضم سوى بعض التجار اليهود وعدد قليل من البورجوازيين . ٧٢ ٪ من السكان فلاحون فداديون تسيطر عليهم ٢٠ الى ٣٠ الف عائلة من صغار النبلاء الفقراء جداً في اغلب الاحيان والتابعين لحوالي عشرين عائلة من كبار الملاكين النبلاء .

تحكم الدولة جمعية مؤلفة من مجلس شيوخ يعينه الملك ، ومجلس قصّاد ينتخبه النبلاء . غدت المملكة انتخابية . لذلك لم يتمتع الملك بأية سلطة . ولم تتمتع الجمعيـة كذلك بأية سلطة ، لان الاجماع ضروري حتى تصبح قراراتها نافذة. تمتع كل نبيل بحق النقض الحر ، اي بحق الاعتراض بمفرده على تنفيذ قرار او قانون ، وهو اعظم حرية يمكن ان يحلم بها الانسان . ولكن هـــذه « الحرية المذهبة » وضعت البلاد في الفوضى وجعلت منها ألعوبة الأجنبي. حين يتعذر اتخـاذ أي قرار ، « تحطم » الجمعية او « تمزق » . يلتف كل حزب حول زعمائه من كبار النبـــلاء الملاكين ويؤلف «اتحاداً لا سلطة شرعية له».هي القوة وحدها ما يحسم الخلافات بين الاتحادات المتخاصمة ، وذلك بالاستنجاد بالاجنبي .

استفاد كبار النبلاء الملاكين من انحطاط الملكيةلاثقال اعمال التسخير والموجبات الاقطاعية. ورغبة منهم في شراء المحاصيل بأسعار منخفضة ، افقروا المدن والبورجوازيين بفتح ابواب البلاد على مصراعيها أمام البضائع الاجنبية ، وبتحديد الاسعار .

قاوم النبلاء ، كبارهم وصغارهم، كل اصلاح. انتخبوا ملوكاً من بين الاجانب . الساكسونيان اوغست الثاني (١٦٩٧ – ١٧٣٣) واوغســت الثالث (١٧٣٣ – ١٧٦٥) دحـــرا ستانسلاس لكزنسكي ، مرشح الحزب القومي ، وافقرا الملوك ، وخفضا الجيش الى ١٠٠٠٠ رجـــل ، وصغّرا خزائن الاسلحة ، ولاشيا المدفعية ، وفاوضا الدول الاجنبية ، ففاوض الـ « قيصر تورسكي » الروس ، والـ « بوتوكي » الفرنسيين والنمساويين . الأرثوذكس استدعـوا الروس ، والبروتستانت استدعوا البروسيين . اتفق الروس والبروسيون والنمساويون والفرنسيون على ابقاء الفوضى و « تمزيق » الجمعيات بمقتضى صوالحهم . وانتهى الامر بالروس اخيراً الى ابـداء رأيهم في كافة القضايا وممارسة شبه حماية .

الا ان الدروس الجديدة ، التي بثها اليسوعيون ، ايقظت بعض النبـلاء وبعض بورجوازيي المدن من سباتهم . في السنة ١٧٦٤ ، افلح الـ « قيصر تورسكي » ، بمسانـــدة جيش روسي ، في إنجاح مرشح كاترين الثانية ، ستانسلاس بونيا توفسكي . ولكنها خدعة ، لان ستانسلاس كان وطنياً بولونياً ، والقيصر تورسكي الغوا حق « النقض الحر » وعينوا لجاناً تنفيذية لمعاونة الوزراء المعينين مدى الحياة . عند ذاك ، اي في السنة ١٧٦٧ ، تدخلت الجيوش الروسية بحجة حـــماية الأرثوذكس . اعاد « رينين » ، السفير الروسي ، حق « النقض الحر » ، تلك « الجوهرة » ، ووضع الدستور تحت الضمانة الروسية . عبثاً قاوم اتحاد « بار » طيلة اربـع سنوات . في السنة

١٧٧٢ اتفقت روسيا وبروسيا والنمسا على تقسيم بولونيا الاول، فاقتطعت كل منها اجزاء كبرى، واحتلت جيوش الدول الثلاث البلاد التي حكمها في الواقع السفير الرومي، « ستاكلبرغ» .

حاول البولونيون حينذاك ان ينهضوا ويثبتوا وجودهم . اعادوا تأليف الجيش ونظموا ادارة الاموال تنظيماً جديداً ، واستبدلوا اعمال التسخير والاتاوات العينية بضرائب تخول حق الانتخاب وبأتاوات نقدية ، واقروا نظاماً تعليمياً قومياً . واراد عدد من المصلحين الوطنيين إلغاء حق « النقض الحر » ، والملكية الوراثية ، والبعض تحرير الفداديين ، والجميع جيشاً مؤلفاً من ٠٠٠ ١٠٠ رجل . كان هذا برنامج جمعية السنة ١٧٨٨ الكبرى . تحالفت مع بروسيا التي فازت بجلاء الروس عن بولونيا ، لا سيا وقد انشغلوا آنذاك بمحاربة الاتراك والسويديين . ولكن ما حصل لم يكن سوى استراحة .

تركيا

ضمت الامبراطورية العثمانية الواسعة الاطراف ، آنذاك ، افريقيا الشمالية وآسيا الصغرى، فلا يجوز من ثم اعتبارها دولة اوروبية الا لانها ضمت كذلك شبه جزيرة البلقان وشواطىء البحر الأسود الشمالية . كانت امبراطورية ثيوقراطية اسلامية ينحدر فيها السلطان من سلالة النبي [1] محمد ويجمع في شخصه كافة السلطات . ويفوض بسلطته العليا الى باشاوات في الولايات . يرئس هؤلاء ضباط اتراك يتلكون اراضي واسعة تأميناً لمعيشتهم ومكافأة على الخدمات التي ادوها فيا مضى للجيش . فكان النظام نظاماً اقطاعياً لجيش يعسكر في المناطق الزراعية بصورة خاصة . ويأتي بعد الباشاوات والضباط المسلمون العرب او الاوروبيون الذين يزاولون الزراعة او التجارة . اما المسيحيون من فالاشيين وصرب وبلغاريين ، فقطيع يخضع للجزية ؛ وهم وحدهم من يدفع الضريبة مبدئياً .

في هذا النظام ، كان كل شيء متوقفاً على قيمة الرئيس . والحال كان السلاطين يعيشون مختلين في حرمهم ، جهلة ومتخنثين ، ومنقطعين الى المسكر والفجور . وكان رؤساء وزرائهم مدينين بمركزهم للدسائس فحسب ، ولا يلبثون ان يثوروا قبل ان يتمكنوا من انجاز عمل حاسم . اما جمعية الانكشارية الدينية العسكرية ، المغمورة بالاحسانات والمراتب السنية ، فلم تعد سوى مجموعة مناصب يتقاضى اصحابها الرواتب دون خدمة ، تشترى بالمال وتنتقل من الاب الى الابن ، ويدافع عنها بالثورة ضد كل اصلاح . لذلك كان الباشوات يستقلون ، ويلزمون الضرائب ويجمعون ثروات طائلة . وكان الضباط يتصرفون كذلك تصرف الاسياد المستقلين . وكان ملتزمو الضرائب والجنود يسلبون المسيحيين والمسلمين على السواء بعلم وموافقة الباشاوات . فكانت الجزيرة العربية وسوريا ومصر وتونس والجزائر والمغرب خارجة عملياً عن سلطة السلطان . ولم يحافظ السلاطين في اوروبا نفسها على سلطتهم الا باسلام البلاد لليونانيين الذين كانوا موجودين في كل مكان وقد اثروا بالتجارة والحرف وتمتعوا بالنفوذ الديني عن طريق

(١) كذا في النص . والحقيقة التاريخية هي انتقال الخلافة من العباسيين في مصر الى السلطان العثماني سليم الاول بعد فتحه للقاهرة ١٥١٧ . المعرب

بطريرك القسطنطنيية ، وحركتهم فكرة اعادة الامبراطورية البيزنطية . جعل السلطان منهم حكام الامارات فتصرفوا فيها تصرف المستبدين . وكان البطريرك يعين الكهنـــة اليونانيين في كل مكان . تفككت الامبراطورية العثمانية إذ باتت دون وحدة اقليمية ودون وحدة وطنية ودون ادارة منتظمة ، اي دون اي من مقومات الدولة ، فتعرضت لشتي الضربات .

روسيا

ما زالت روسيا ، في السنة ١٧٥١ ، مجتمعاً أشبه بمجتمعات القرون الوسطى . كانت متسمة بطوابع شرقية دانت بها لموقعها الجغرافي ، ولكنها كانت خاضعة لتنظيم وادارة حققها الغرب منذ قرون ، وتمر بمراحل سبق للدول الاخرى ان عرفتها . بلـغ سكانها ١٣ مليون نسمة منهم ٩٠ ٪ من الفلاحين ، و٧ ٪ من النبلاء ، و ٣ ٪ من اهل المدن . ما زالت البلاد في مرحلة الاقتصاد العقاري « المقفل » . اجل هنالك فلاحون احرار كثيرون ، ولا سيا في الشمال حيث الاراضي اقل خصباً . ولكن العدد الاكبر فداديون في الاملاك السيدية . يتبع معظم الاسياد بين ١٠٠ و ٥٠٠ فدادي ؛ ويتبع بعض كبار الاسيـــاد اكثر من ١٠٠٠ فدادي ؛ ويتبع بعض صغار النبلاء اقل من ١٠٠ فدادي . كل ملك سيدي ينتج كل ما هـــو ضروري للسيد والفداديين، بما في ذلك المصنوعات الكثيرة . المدن قرى كبيرة تبيــع مـن الاملاك السيدية المصنوعات المعدنية والبذخية . التجارة الداخلية تمارس على نطاق ضيق في الاسواق الدورية بنوع خاص وتعيقها الجمارك الاقليمية . اما التجارة الخارجية ، المتوسطـــة الحجم ، فتجارة نقل بضائع بين اوروبا وآسيا ، تجارة تصدير الخامات ، القنـب والكتـــان والحـــديد والخشب ، واستيراد المصنوعات ، الحرائر والاقمشة الهندية والاصواف ، وكلها في يد الاجانب على كل حال .

القيصر هو مالك روسيا السامي (المالك الرئيسي في الواقع) ، وصورة الاله الآب ، وخليفة الاباطرة البيزنطيين ، والقائد الاعلى في الحروب ، وحامي البلاد . وهو يتمتع بالاضافة الى هذه الالقاب بسلطة مطلقة ، انه حاكم مطلق . سعى القيصر بطرس الاكبر (١٦٨٢ — ١٧٢٥) ، الجبار العنيف ، وراء المجد عن طريق الفتوحات. اقتضى له من ثم جيش واسطول وموارد مالية وادارة. اصلح الدولة شيئاً فشيئاً بأن اقتبس عن الدول الغربية افكاراً وأنظمة طبقها على روسيا فأضفى بذلـــك ظاهراً عصرياً على وقائع اكثر قدماً . ولكن الحالة الاجتماعية فرضت عليه استخدام الارستوقراطية وارضاءها . افتتح قسمة السلطة والفوائد الاجتماعية هذه بـــين الملك المطلق والارستوقراطيين ، التي تمـــيز روسيا خلال القرن الثامن عشر . النبلاء ملزمون جميعهم بالخدمة العامـــة الاجبارية في الادارة والجيش ، وكل أولئك الذين خدموا بطرس قد رقوا الى طبقة النبلاء واعتبروا كما لو كانوا نبلاء قدامى . في السنة ١٧٢٢ خُص كل منهم برتبة وفاقـــاً لخدماتهم . وهكذا صهر بطرس في بوتقة واحـــدة طبقة النبلاء القديمة وطبقة النبلاء الجديدة . الرجال الثقة يختارون من بين النبلاء الذين يخدمون في الحرس الامبراطوري؛هؤلاء هم «الأوفياء» « المتفانون » ، أدوات القيصر. منح القيصر هؤلاء النبـــلاء كل سلطة على الفلاحين . فأحراراً كان

هؤلاء أم فداديين، فهم لا يستطيعون الابتعاد عن النبيل بدون اذنه (١٧١٨) . وأسند القيصر الى النبلاء الادارة المحلية : النبيل يجمع الضريبة المفروضة على الفلاحين، والنبلاء المحليون ينتخبون مفوضي المناطق الاقليميين (١٧١٨) .

تمكن بطرس بفضل ذلك من تنظيم حكم مركزي ، على غرار الحكم السويدي ، مع مجلس شيوخ يضم ٩ اداريين اختصاصيين يصدر الاوامر في غياب القيصر؛ وهيئات من النبلاء المتوسطين المرتبطين بمجلس الشيوخ بمثابة وزراء ؛ و ٨ حكومات يرئس كلا منها حاكم خاص ؛ وقسمت الحكومات الى ولايات يقوم في كل منها مفوض اقليمي ، كما قسمت الولايات الى اقضية والاقضية الى نواح . وتمكن من اخضاع الكنيسة الارثوذكسية باستبدال البطريرك بسينودوس مقدس يراقبه وكيل عام ثقة ، ومن استيفاء بعض مداخيل الاديرة . كما تمكن من بناء اسطول وتنظيم جيش عصري دائم واقرار الضريبة الشخصية في السنة ١٧٢٠ على غرار ضريبة الاعناق الفرنسية، واعتماد الروح التجارية ، وتوزيع الاحتكارات والاعانات المالية وتسليف القروض دون فائدة وفرض أنظمة على الصناعة، وحماية الصناعة برسوم جمركية مرتفعة، وإيجاد صناعة معدنية لحاجات الحرب لا سيما في جبال الـ « اورال » ، ورؤية ٩٨ مصنعاً تعمل بانتظام ، قبيل موته ، وتسمح لروسيا بتصدير الحديد الى انكلترا .

اصطدم عمله بمقاومة عنيفة : فقد بدت كل هذه الجدة متنافية والمعتقد الارثوذكسي وصادرة عن المسيح الدجال . ولكن عيب النظام انقذ عمله : فلم يكن هنالك حق وراثي . كان القيصر يعين خليفته (١٧٢٢) . أما في الواقع فالعرش لم يكن « لا وراثياً ولا انتخابياً ، بل تملكياً » . فهم جنود الحرس وضباطه من أجلسوا على العرش المدعي الذي يختارونـــه . بيد أنهم كانوا ينتسبون جلهم الى طبقة النبلاء الجديدة ، ويرجون كل شيء من سلطة القيصر العليا ، ففرضوا من ثم احترام السلطة المطلقة على أنسال طبقة نبلاء « البويّار » القديمة الراغبين في الحد من السلطة الامبراطورية . وهذا ما فعلوه حيـــال كاترين الأولى (١٧٢٥ — ١٧٢٧) ، وبطرس الثاني (١٧٢٧ — ١٧٣٠) ، وانّا ايفانوفنا (١٧٣٠ — ١٧٤٠) ، وايفان السادس (١٧٤٠ — ١٧٤١)، واليزابيت بتروفنـــا (١٧٤١ — ١٧٦٢) ، وبطرس الثالث (١٧٦٢) ، وكاترين الثانية (١٧٦٢ — ١٧٩٦) الحادة المزاج على غير تسرّع ، الالمانية « الروسية اكثر من كل امبراطورة اخرى » ، الخليفة الحقيقية لبطرس الاكبر .

لم تخل روسيا من النفوذ الاجنبي ، النفوذ الجرماني في عهد آنا ايفانوفنا التي قربت إليهـــا الالمان ، والنفوذ الفرنسي ، في عهد اليزابيت التي نسجت على منوال فرساي وارغمت بطانتهـا على التشبه بنبـلاء الفرنسيين ، وفي عهد كاترين الثانية التي شغفت بقراءة فولتير ومونتسكيو وواضعي دائرة المعارف ، وراسلت السيدة « جوفرين » وفولتير وديـدرو ، وأضافت هذا الاخير و« مرسييه دي لا ريفيير » و« فالكونيـه » ، ونحلت مونتسكيو في تعليماتها الى جمعية

النواب في السنة ١٧٦٧ ، وان طبعت ما نقلته عنه بطابع روسي ، وتلقت من الفلاسفة ، دعاتها عن غير قصد ، السذج جداً عندما يقتضي ذلك صالحهم ، لقبي « سميراميس الشمال » و « مينرفا الروسية » . وإنما اذا برهنت اليزابيت المغناجة وكاترين الكاتبة عن ذوق حقيقي ، فان الرغبة في اللحاق بالدول المتقدمة الاخرى واثبات ما تستطيعه روسيا واحتلال المركز الاول بين الملوك الاوروبيين ، لم تكن غريبة عن تحقيق ما تحقق ، على ان سلوك هذه الطريق لم يلمس قط الواقع الروسي . فالجميع واصلوا السير في الاتجاهات التي عينها بطرس الاكبر .

فضل النبلاء تفضيلاً مطرداً على حساب الفلاحين. في السنة ١٧٨٥ ، كان التطور قد اكتمل. ايد قانون النبلاء اعفاءهم من الخدمة الاجبارية ، والضريبة ؛ منحهم حرية التصرف بأملاكهم وأولاهم حق تأسيس المصانع والمشاغل ، والاتجار بالجمل بمحاصيل املاكهم الزراعية وتصدير كافة منتوجاتهم الى الخارج .

تسلموا من القياصرة والقيصرات ، مكافأة لهم على خدماتهم ، اراضي واسعة جداً امسى فلاحوها الاحرار عبيداً رفدادين تابعين لهم ؛ وكان امتلاك هؤلاء وقفاً عليهم ، باستثناء الفترة الفاصلة بين السنة ١٧٢١ والسنة ١٧٨٢ ، اذ استفاد من حق الامتلاك هذا التجار المتعاطون صناعة استخراج المعادن ، رغبة في تنشيط هذه الصناعة ؛ تولوا بأنفسهم تدوين اسمائهم في لوائح خاصة ، ولمجرد التسجيل في اللائحة قيمة شرعية ؛ يضاف إلى ذلك ان كل فلاح حر ملزم باختيار سيده . كان من حق النبلاء ابعاد فداديهم المذنبين الى سيبيريا . خفض معدل الضرائب التي يدفعها فداديوهم كي يتاح لهم زيادة اتاواتهم السيدية. ضوعفت ايام اعمال التسخير ، فأصبحت ستة عوضاً عن ثلاثة : ولم يبق للفلاح سوى يوم الاحد لحراثة حقله . حظر على الفدادين التزوج بدون اذن السيد . عائلاتهم عرضة ابداً للتشتيت ، الرجال بيعوا قطعاناً . فلا عجب من ثم إذا كانت ثوراتهم مستمرة وإذا ما انضم فداديو املاك الفولغا وفداديو المصانع وفلاحو الدولة المسجلون في المصانع ، باعداد كبرى ، الى قوزاق « بوغاتشيف » (١٧٧٣ — ١٧٧٤) .

توقفت عن تجار المدن ، وهم اقل ثروة منهم في الغرب ، مساعدات الحكومة المالية ، فصادفوا الصعوبات في تأمين اليد العاملة اللازمة . استحال عليهم مقاومة مزاحمة الملاكين العقاريين الذين اسسوا المعامل (٩٨٤ في السنة ١٧٦٢) واستحصلوا على احتكارات تجارية. سلفت النبلاء رؤوس الاموال مصارف تأسست لخدمتهم منذ السنة ١٧٥٤ . وكان من سرعة النجاحات المحرزة ان تمكنت كاترين ، بعد السنة ١٧٦٠ ، من اطلاق حرية المنافسة ، ومن إلغاء كافة القوانين الصناعية . كان هنالك ٣١٦١ معملاً في السنة ١٧٩٦ ، ولكن اعظمها اهمية عاد للنبلاء ، فتذمر التجار .

أدت جهود الدولة الى انماء منطقة صناعية عظيمة في الاورال (مناجم الحديد والنحاس ومصانع تنقيتها ومعالجتها) . منذ السنة ١٧٥٠ ، تخلت الدولة عن بعض مشاريعها ، ولا سيما للنبلاء . واسس بعض النبلاء والتجار المثرين ، في بشكيريا ، مشاريع خاصة رأسمالية ضخمة.

كانت المشاريع رابحة على الرغم من المسافات ومن تقنية متأخرة ، بفضل الفدادية وعمل فلاحي الدولة الالزامي . وفرت معامل الاورال مصنوعات نصف جاهزة لكافة انحاء روسيا واسهمت بنسبة الثلثين في صادرات الحديد الروسية الضخمة ، مستفيدة من الحروب الاوروبية والاثرية الانكليزية . استمر التقدم بعد السنة ١٧٦٢ ، ولكنه كان تقدما بطيئاً : فالسوق الداخلية قد سدت حاجتها ، والاسعار ارتفعت ، والاضطرابات الاجتماعية برزت هنــا وهناك ، وثورة بوغاتشيف خلفت وراءها الخراب ، وانكلترا حسنت تقنيتها وتخلصت شيئاً فشيئاً من حاجتها الى الحديد السويدي والروسي .

على الرغم من تقدم هـذه الصناعات المعدنيـة والحياكية في جوار سان - بطرسبورغ وفي منطقة موسكو ، ومن سدّها حاجـة السوق الداخلية وتصديرها الاقمشة الى جانب الحديد ، بقيت روسيا، في الدرجة الاولى، مصدرة للخامات ومستوردة للمصنوعات . وقد اضافت كميات ضخمة من الحنطة الى صادراتها منذ فتوحاتها على حساب الاتراك .

اكمل العمل الاداري بارساخ المركزية وتقسيم العمـل . اسندت السياسة الى مجلس وزراء . وبعد تجارب وترددات كثيرة اصبحت هـــذه المؤسسة نهائية في السنة ١٧٦٨ اذ استبدلت الهيئات بالوزارات . احتفظ مجلس الشيوخ بالادارة العليا . حُدّ من سلطة الحكومات وجمعت عدة حكومات في نيابة . تمتع النائب الامبراطوري بسلطة مطلقة ولم يخضع الا لمجلس الشيوخ الذي هو احـــد اعضائه . وأقر تقسيم العمل في الحكومات ايضاً : ففصل بين القضاء والمالية والادارة واسند كل منها الى مجالس وغرف . فكان الحكم في روسيا استبداداً تحقق بتضحيـة الطبقات الاخرى على مذبح الارستوقراطية .

بلغ عدد السكان ١٩ مليوناً في السنة ١٧٦٢ ، و ٢٩ مليونـــاً في السنة ١٧٩٦ ، فتجاوز سكان فرنسا ، للمرة الاولى ، في أواخر القرن . تعاظم نفـــوذ الامبراطور تعاظماً كبيراً ، وتمكنت كاترين الثانية من مواصلة عمل بطرس الاكبر ، والنهوض بحروب فتح مثمرة، والدخول الى حرم السياسة الاوروبية الكبرى .

ويتضح من ثم ان هذه الدول الاوروبية كلها بلغت مراحل تطور اشدّ اختلافاً من ان يمكن قيام اتحاد فدرالي على قدم مساواة . وما كانت وحدة اوروبا لتصبح ممكنة الا على يد دولة تنتصر على الدول الاخرى فتضمها اليها او تجعلها تابعة لها. ولكن عهد محاولات التنظيم الاوروبي هذه يبدو وكأنه عهد ولى الى غير رجعة .

الفصل الثالث

تنوّع أوروبا
المنافسات بين الدول

الوضع الدبلوماسي في السنة ١٧١٥

في السنة ١٧١٥ ، أي في اعقاب « حرب المائة سنة الثانية » بين الانكليز والفرنسيين ، التي دامت في الواقع منذ السنة ١٦٨٨ حتى السنة ١٧١٥ ، كانت انكلترا قد توفقت الى احراز النصر . خضعت السياسة الاوروبية لداعي المصلحة العليا الذي لا ينظر الى الاخلاق بل الى صالح الدول ، فاستندت الى التوازن الذي تحقق لمصلحة انكلترا في معاهدات أوترخت (١٧١٣) وراستات (١٧١٤). اقتضى التوازن الاوروبي ان لا تصبح اية دولة من القوة بحيث تهدد استقلال الدول الاخرى . وليس هذا المذهب بالمذهب الجديد. فقد قال به الفرنسيون والانكليز . وهو يفسر السياسة الانكليزية في البر الاوروبي منذ نهاية حرب المائة سنة ، والصراع الطويل بين العائلة المالكة الفرنسية والعائلة المالكة النمساوية منذ السنة ١٥١٥ . حوالي السنة ١٦٨٨ طرأ عليه بعض التبديل . فقد برزت إذ ذاك نجاحات الرأسمالية التجارية . وباتت التجارة البحرية الكبرى ، التي توفر الوسائل المالية ، مرتكز القوة قبل الارض والسكان ، حين لم يكن نظام المجتمعات ليتيح لاية دولة تعبئة كافة مواردها وكافة رعاياها . كانت الدول قد تحاربت من اجل طرق التجارة ، والمستعمرات ، والعلائق بالامبراطوريات المستقلة الكبرى في ما وراء البحار . بات السعي وراء التوازن الاوروبي محاولة تستهدف منع أية دولة من ان تضمن لنفسها ، بانتصارها في اوروبا ، المستعمرات الهامة والنقاط الستراتيجية الرئيسية . دخلت فرنسا والنمسا في نزاع رهيب كان آخر احداثه حرب وراثة عرش اسبانيا ، ولكن انكلترا هي من وجهت هذا النزاع وافادت منه . حاربت لويس الرابع عشر باسم حرية الشعوب وسيادتها ، وحين بدا لها ان لويس الرابع عشر قد زال خطره ، تخلت عن حلفائها وارغمتهم على المفاوضة . وفي السنة ١٧١٣ ابقت على التوازن في البر الاوروبي وضمنت لنفسها من ثم الهيمنة البحرية والتجارية ، أي التفوق الشامل .

قسمت المعاهدات البر الاوروبي دولاً تتوازن توازناً كافياً لمنع تفوق احداها على الدول الاخرى ، ولارغامها جميعاً ، في حساب الانكليز ، على طلب تحكيم انكلترا . فان فرنسا التي

حصرت داخل الحدود التي عينتها لها معاهدة « ريسويك » ، قد فقدت الامل في أن تضم إليها اسبانيا في يوم من الايام ، إذ أن ملك اسبانيا ، فيليب الخامس ، حفيد لويس الرابع عشر ، قد تخلى نهائياً عن تاج فرنسا . وفقدت فرنسا بالفعل نفسه الامل في أن تتمكن يوماً من ان تستثمر بحرّية الامبراطورية الاستعمارية الاسبانية الواسعة الاطراف التي كانت تجارتها ، شأن كافة الامبراطوريات التجارية حينذاك ، وقفاً على الدولة المستعمرة . ولكن فرنسا قد فقدت في الحال ايضاً الشركة الفرنسية الاسبانية التي اسسها لويس الرابع عشر في قادس بموافقة فيليب الخامس ، للتجارة مع الامبراطورية الاسبانية واستيراد اليد العاملة السوداء .

تقسمت وراثة عرش اسبانيا بين فيليب الخامس الذي احتفظ باسبانيا والامبراطورية الاستعمارية ، وبين شارل السادس امبراطور النمسا الذي تسلم المناطق المنخفضة (بلجيكا الحالية تقريباً) ، بالاضافة الى منطقة ميلانو ، والمواقع التوسكانية المحصنة ، ونابولي ، وسردينيا ، في ايطاليا . وهكذا تجزأت امبراطورية شارل الخامس نهائياً ، وتقسم شاطىء البحر الشمالي ، على بعض المسافة من « با دي كاليه » ، بين عاهلين عدوين ، لويس الرابع عشر وشارل السادس ، كما تقسمت مسالك البحر المتوسط بين خصمين ، شارل السادس وفيليب الخامس .

ورغبة في تأخير تحرك الجيوش في حال نشوب نزاع بين آل بوربون وآل هبسبورغ ، وفي افساح المجال لتدخل الانكليز ، اقامت المعاهدات بينهم « حواجز » أي خطوطاً من المدن المحصنة اسند الدفاع عنها الى حاميات من دولة ثالثة ، ودولاً قطائل تفصل بينهم : حاجز الفلاندر في المناطق المنخفضة الذي يحتله الهولنديون ، حاجز نوشاتيل وفالنجين الذي يحتله البروسيون ، وقطائل مملكة سافوا وبييمون وساردينيا ، والبالاتينا (التابعة لدوق بافاريا) ، ومنتخبية كولونيا . وكانت الدول القطائل والدول الموكلة بحماية الحواجز اضعف من أن لا يحتاج الى عضد الانكليز ، لا بل من ان لا يحتاج معظمها الى مساعداتهم المالية . فتوفرت لانكلترا من ثم وسيلة للتدخل الدائم باسم حماية الضعفاء .

وضمن الانكليز لانفسهم رقابة الطرق البحرية الرئيسية والتفوق التجاري . راقبوا في المتوسط منفذ جبل طارق باحتلالهم جبل طارق ، ومسلك صقلية باحتلالهم مينورك وتباين صوالح العائلة المالكة في سافوا والعائلة المالكة في النمسا . وحصلت شركتهم التركية ، في ايطاليا وموانىء الشرق الادنى ، على فوائد حرم منها الفرنسيون . وفي البلطيك هزمت السويد شر هزيمة أمام تحالف الروس والبروسيين والدانماركيين ، وتعرضت البحيرة السويدية لان تغدو بحيرة روسية ، وهدد الروس المضائق الدانمركية . ولكن ملك انكلترا هو منتخب هانوفر ايضاً ، وهانوفر تعمل لحساب انكلترا وحسابها على السواء . قاوم بطرس الاكبر ، وارسل جيوشاً الى الدانمارك المحاربة ضد السويد وحملها على المطالبة بانسحاب الجيوش الروسية الحليفة الخطرة من كوبنهاغن ، وساند الدانماركيين في هولستين على الدوق « دي غوتورب » خطيب ابنة القيصر ، ونبلاء مكلمبورغ على دوقهم ، ابن شقيق القيصر ، وفاوض فردريك غليوم ملك

بروسيا وأبعده عن التحالف الروسي ، وأعفى البضائع الانكليزية من الرسوم الجمركية ، واستحصل من الدانمارك على تخفيض الرسوم المستوفاة من السفن الانكليزية التي تجتاز مضيق الـ « سوند » . فحقق الانكليز التفوق التجاري في البطليك .

وحققوا الغلبة في الأوقيانوسات . منذ السنة ١٧٠٣ ، الغت معاهدة « ميتوين » المعقودة مع البرتغال ، مقابل تخفيض الرسوم الجمركية على الخمور البرتغالية على حساب الخمور الفرنسية ، الرسوم المفروضة على الاصواف الانكليزية وأعطت الانكليز حقاً مانعاً في تعاطي التجارة في البرازيل . فغدت لشبونة عملياً مستودعاً ، وميناء تورين ، وقاعدة عمليات للانكليز .

اضطر الفرنسيون لأن يتخلوا لهم، في اميركا ، عن خليج هودسون، وبالتالي عن تفوقهم في تجارة الفراء ، وعن اكاديا والأرض الجديدة ومياهها الغنية بالأسماك ، وفي جزر الانتيل ، عن سان كريستوف وانتاجها من السكر .

لا بل اسدف الانكليز ابواب الامبراطورية الاسبانية نفسها . في اسبانيا خفضت الرسوم الجمركية على ملسوجاتهم الصوفية، وأتاح لهم شرط الدولة المفضلة المطالبة بكل فائدة جمركية يعطيها ملك اسبانيا البوربوني نسيبه ملك فرنسا. وفي الامبراطورية الاسبانية استحصل الانكليز على احتكار استيراد العبيد السود اللازمين للمغارس والمناجم وحق ارسال سفينة محملة بالمصنوعات مرة في السنة ، الى بعض المرافىء الاسبانية في اميركا الجنوبية .

وقد بلغ من مهارة صيغة هذه المعاهدات لضمان تفوق الانكليز الاقتصادي والسياسي ، ان استوحت انكلترا مبادئها في السنة ١٨١٥ والسنة ١٩١٩ . ولكنها لم تضمن السلم . فقد ارتكزت الى الحسد والارتياب المتبادلين بين حكومات يراقب بعضها البعض ، مستعدة ابداً لامتشاق السلاح . كانت هذه المبادىء تطبيقاً لمبدأ « فرق تسد » ، فلم ترض احداً .

لم ترض الانكليز انفسهم . فقد أخذ تجارهم على الحكومة ، ببعض المرارة ، انها لم تذل فرنسا ، العدو الدائم ، اذلالاً تاماً ، ولم تستول على كافة ممتلكاتها في اميركا ، وفي الانتيل بنوع خاص، ولم تفتح ابواب الامبراطورية الاسبانية على مصراعيها أمام تجارتهم. وهي هذه الاهداف التي اقتربوا منها تدريجياً في السنوات ١٧٦٣ ، و ١٨١٥ ، و ١٨٢٤ . وخشي جورج الاول ابداً أن يساند ملوك اوروبا آل ستوارت المخلوعين من العرش عليه .

لم يعترف فيليب الخامس ملك اسبانيا ، في قرارة نفسه ، بصحة التوقيع الذي ذيل به ، مكرهاً ، تنازله عن عرش فرنسا . ولم يرض كذلك بضياع الاقاليم الايطالية ، والتخلي عن السيطرة الاسبانية على حوض البحر المتوسط الغربي ، وقد حملته على وقوف هذا الموقف زوجته الثانية ، « اليزابت فارنيز » ، التي كانت تريد امارات لابنائها في ايطاليا ، والتي عينت ، في رئاسة مجلس الوزراء ، « البروني » ، الايطالي المحب وطنه ، الراغب رغبة صادقة في طرد النمساويين وتحقيق الوحدة الايطالية .

ولم يقتنع شارل السادس اقتناعاً تاماً بالتنازل عن عرش اسبانيا . فقد كان راغباً ، للتعويض عن هذه الخسارة ، في الحصول على اراض واسعة حول حوض المتوسط الغربي على الأقل : أي على صقلية ، ودوقية مانتو ، بالأضافة الى اراضيه ، والحماية على كاتالونيا الاسبانية بعد تقسيمها. كما كان راغباً في احياء القوة النمساوية بتنمية صناعتها ، وبفتح منفذ لها الى البحر ، وانهاض تريستا والموانىء الايطالية ، وتأسيس شركات تجارية . أقلق بذلك هولندا وانكلترا ، كما أقلقها بمشاريع توسعية في البلقان ، على حساب الامبراطورية التركية ، وفي الامبراطورية على حساب بافاريا والدول الجنوبية التي كان آخذاً في استعادة نفوذه عليها . فجاء اندفاعه في هذه الاتجاهات الثلاثة تهديداً للتوازن الاوروبي .

كان ممكناً جداً لروسيا التي اندفعت ، مع بطرس الاكبر ، نحو كافة طرقات التجارة ، في اوروبا كما في آسيا ، ان تصطدم بالنمساويين ، بصدد الامبراطورية التركية والبلقان ، وبالانكليز والسويديين والداغاركيين والهانوفريين والبروسيين بصدد البلطيك والمضائق الداغاركية .

قام الانقسام من ثم بين الدول الكبرى الهامة ، وهو هذا الانقسام ما كرس قوة الانكليز . كان لهؤلاء اسطول قوي ، ولكن جيشهم البري افتقر الى القوة اللازمة ، بسبب موقفهم الحذر من الملك . اعتمدوا اضعاف السلطة التنفيذية ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وهي سياسة ممكنة في جزيرة تحيط بهـا بحار كأداء تسمح برؤية من يقصدها ويقترب منها . ولكنهم كانوا بأمس الحاجة ، في البر الاوروبي ، الى الجيوش التي افتقروا اليها (كان جيش هانوفر صغيراً جداً) ، والى حلفاء يهتدون اليهم بتقسيم الاوروبيين . الى هذا ترد السياسة الفرنسية التي أوصى بها لويس الرابع عشر سفراءه بين السنة ١٧١٣ والسنة ١٧١٥ : ازالة حذر الدول الاوروبية من فرنسا ؛ اقناعها بأن فرنسا لا تهدف الى ايـة هيمنة ، وكانت هذه المهمة ضرورية جداً اذ ان السياسيين كانوا يخشون من اجتيـاح الجيوش الفرنسية لاوروبا ويعتبرون ان ايقاف الفتوحات عند الرين مخطط املته الحكمية على ملك فرنسا ؛ لعب دور المستشار والوسيط ؛ اقناع كافة الحكومات بأن الانقسام فيما بينها وخوفها من فرنسا يجعلان منهـا ضحايا الانكليز ؛ حملها على القبول بتنازلات متبادلة واتفاقات تعقـد بحرّية ؛ ومن ثم اصلاح ذات البين بين دول اوروبا الكبرى وحرمان الانكليز من كل سانحة للتدخل وإثارة الخلافات بين الدول البرية ؛ وبذلك تحقيق توازن حقيقي وحرية حقيقية .

ميزات السياسة الخارجية في القرن الثامن عشر

الا ان خلفاء الملك المعظم لم يقدروا هذه السياسة حق قدرها . فكان القرن الثامن عشر عهد اضطرابات ونزاعات ، اقصر امداً واقل خطورة منها في العهد السابق ، وانما اكثر وقوعاً .

ارتدى الصراع بين الدول طابع « السياسة العائلية » . فهي العائلات في الواقع من كونت الدول وأوجدت سياسات الامم الراهنـة . الامم والدول تتجسد في شخص الملك . وافضت

الاعراف الاقطاعية، واواصر النسب ، والمصاهرات ، والوراثات ، الى ايـــلاء عائلات الملوك حقوقاً على اراض لا حصر لهـــا . هذه الحقوق ممتنعة الابطال والتنازلات عنها باطلة . والملك الذي يرغب في التوسع ، لمصلحته او مصلحة رعاياه ، او في الحؤول دون توسع ملك آخر ، لا يعدم وسيلة في اثبات حقـــه على الارض المطموع بها او المتنازع عليها . وغالباً ما تتخذ الصراعات بين الدول شكل نزاعات على وراثة عرش . .

النزاعات تستوحي المصلحة العليـا او مذهب « السلامة العامة » : العواطف والتفضيلات والصداقات والاحقاد ، يجب ان تنحني كلها امـــام مصلحة الدولة العليا القاضية بالتوسع والاستيلاء على اقاليم غنية بالسكان والموارد ، والحؤول دون توسع الآخرين الذي يشكل تهديداً لازدهارها ووجودها . الاخلاق هي مصلحة الدولة . روح السياسة موضوعية كلها . السياسة علم مستخلص من احداث التاريخ ، عبوس وقاس ، وقاطع كالاداة الفولاذية .

الصراع مستمر . يتخذ الشكل الدبلوماسي اولاً . الدبلوماسيون فئة من الرجال الطيبين المهرة ، ولكنهم قادرون على كل شيء . يتميزون بسهر دائم ؛ كل شيء قـــد ينقلب خطراً ، وكل فرصة يجب ان تنتهز ؛ المصادقة لا تضر الا بالضعفاء ولا تفيـد سوى الاقوياء : على الدولة ان تكون في حالة تأهب دائم ، على غرار ابن المجتمع الذي يعيش بين المسايفين وذوي الاخلاق الشرسة . هذه هي حـال دول اوروبا اليوم اكثر من اي يوم مضى اذ ان المفاوضات ليست سوى مشادة دائمة بين أناس لا أخلاق لهم ، مجترئين في الاخذ وطاعنين ابداً (المركيز دارجنسون) .

المكر عادة متعارفة والطرائق معوجة . يحاول الدبلوماسيون إفساد حكم الخصم بايقاظ اهوائه ، اهواء الجسد او هوى المال . اعطاء الملك خليلة واعطاء الامبراطورة او الملكة عشيقا عادتان رائجتان . فان سفير فرنسا ، لاشيتاردي ، قد اصبح ، لصالح الخدمة ، عشيقا للقيصرة اليزابت ؛ وقد أوفدت الحكومة الفرنسية البارون « دي بروتوي » مكلفة اياه مهمـة اشباع شهوات امبراطورة المستقبل كاترين الثانية . وطلبت ماري – تيريز من ابلتهـــا ماري انطوانيت ، زوجة ولي عهد فرنسا البالغة من العمر ١٧ سنة ملاطفة السيدة « دي باري » حتى تحمل هـــذه الاخيرة لويس الخامس عشر على الاعتراف بتقسيم بولونيا . وقبض الوزير الفرنسي « ديبوا » ٦٠٠ ٠٠٠ جنيه سترليني من الحكومة الانكليزية. وعينت فرنسا راتباً شهرياً للوزير النمساوي « توغوت » منـــذ السنة ١٧٦٨ . وكانت مجامع السويد وبولونيا والامبراطورية المقدسة تبيع انفسها ممن يدفع لهـــا افضل سعر . في السنة ١٧٦٣ كلف مجمع السويد فرنسا ١ ٤٠٠ ٠٠٠ جنيه سترليني، وفي السنة ١٧٦٦ ، كلفها مجمع بولونيا ١ ٨٣٠ ٠٠٠ جنيه سترليني.

الدبلوماسيون يمسكون بالرسائل . يبتاعونها من البُرد . يختار برد ثقات : فيخطفون وتنتزع الرسائل منهم ثم يفتك بهم قطاعو طرق مصنّعون . الرسائل تكتب بأرقام اصطلاحية

ولكن هنالك اختصاصيين يفكون رموزها. توصل بلاط فيينّا الى فك رموز السفارة الفرنسية ورموز رسائل لويس الخامس عشر السرية . وكان فردريك الثاني فخوراً جداً بأرقامه الاصطلاحية : ولكن علماء لويس الخامس عشر في باريس كشفوا سرّها .

التدخل بالدسيسة والمال في سياسة الجار الداخلية عادة متعارفة ايضاً . وقد توفرت في الدول الجمهورية النزعات ، كالسويد وبولونيا ، فوائد خاصة بفعل نشاط الاحزاب . أمد الملوك بالمال ، في الدولة المجاورة ، احزاب الحرية التي تضعف الدولة . حرضت الدول جماعات العصاة واثارت الحروب الاهلية وحمت الثائرين . كانت السويد وبولونيا والامبراطورية المقدسة والمستعمرات الانكليزية في اميركا ، قبل فرنسا ، مناطق مباركة لمثل هذه المناورات . كان الملوك المخلوعون من العرش ، والتائهون ، والمعدمون ، اكثر من ان يحصوا . فاوض الملوك الآخرون مغتصبيهم وجلاديهم . المصالح تتقدم تضامن الملوك ، ويزول احترام الملوك .

المعاهدات تنقض وفاقاً لمصلحة الدول . « في السياسة والمصالح ، لاشأن للاعتراف والمعاهدات ؛ هي القوة او المصلحة ما يعمل المعاهدات ؛ وهي القوة او المصلحة ما يلاشيها » . ويضيف الالماني في كتابه (النظم السياسية : « في السياسة يجب نقض الآراء النظرية التي يكونها عامة الشعب حول العدالة والانصاف والاعتدال وسلامة النية والفضائل الأخرى المعزوة للامم الأخرى ولقادتها . كل شيء يؤول في النهاية الى القوة » .

ان اخلاق الذئاب هذه تقود الى الحرب بمعناها الحصري ، الحرب بالاسلحة . كل حرب تعتبر عادلة منذ ان تجعلها مصلحة الدولة العليا ضرورية . ولا عجب من ثم ان تلجأ الدول الى الحرب الوقائية. فالانكليز الذين حكمت سيادة البحار في صدرهم قبل اي شيء آخر، اعطوا المثل على ذلك بهجمات ، دون اعلان حرب ، على سفن الاعداء ، وبالاستيلاء على السفن التجارية وملاحيها ، دون سابق انذار ، في ايام السلم . وقام البروسيون في البر بخير الهجمات المفاجئة لاتقاء ضربات محتملة يكيلها لهم اعداء محتملون ، كان اشهرها هجوم السنة ١٧٥٦ الذي ضرب به المثل وبات اجتهاداً قانونياً .

في الحملات العسكرية تسود المجاملة القصوى العلائق بين اركان الجيوش المؤلفة من الاشراف ، ولكن الحرب فظيعة وقاسية . تعيش الجيوش في البلاد وتسحق المقاومات بالارهاب . تصادر كل شيء ، حتى ما غلا ثمنه في الكنائس ، لتغذية خزانة الحرب . تفرض الرسوم على السكان وتدمر مساكن من لا يدفعون المفروض عليهم ، وتحرق المدن والقرى التي ترفض الضرائب المضروبة عليها . يرافق الجيوش حشد طفيلي من التجار والبغايا الذين يشتركون مع الجنود في السلب والاغتصاب واشعال النيران . النساء والاطفال يقتلون اذا ما قاوموا اجتياح منازلهم . وقد دون الكونت (دي سان — جرمان) عند وصوله الى المانيا هذه الملاحظة : « البلاد يعمها الخراب والدمار في دائرة يبلغ شعاعها ٣٠ فرسخاً ، كما لو ان النار قد اجتاحتها » .

السكان المشتبه بهم يطردون ، وسكان القرى التي اطلقت منها النيران على الجيوش يشنقون . الرهائن تكون مسؤولة عن وفاء الحاميات . في السنة ١٧٤٤ ، انذر النمساويون سكان اللورين بالتسليم : المقاومون سوف يشنقون « بعد إكراههم على قطع انوفهم وآذانهم بايديهم »، ودرج فردريك الثاني على تقتيل الاسرى أو تجنيدهم بالقوة . في السنة ١٧٥٧ ،كان الروس في «ميمل» : لم يشاهد الناس ما شاهدوا منذ غزوة الهون؛ السكان يشنقون بعد قطع انوفهم وآذانهم، وتنتزع سيقانهم ، وتبقر بطونهم وتشق قلوبهم » . في السنة ١٧٨٨ ،وبعد الاستيلاء على« اوتشاكوف » « بلغ من ضراوة الجنود الروس ، بعد انقضاء يومين على هجومهم ، انهم اذا ما وجدوا اطفالا أتراكاً مختبئين في مكان مظلم ما ... اخذوهم وقذفوا بهم في الهواء وتلقوهم على رؤوس حرابهم» .

تنتهي الحرب بمعاهدات يقرر فيها انتقال الممالك والامارات والدوقيات من سلالة الى اخرى دون استطلاع رأي السكان ودون اكتراث بما يكون رأيهم في هذا الانتقال . هذا ما يعرف بـ « تقايض البشر » . ويجب القول من جهة ثانية ان المشاعر القومية ، في معظم الحالات ، كانت اضعف منها في ايامنا . وكان السكان ، في عهد اسيادهم الجدد ، يحتفظـون بعاداتهـم وامتيازاتهم وبعض حرياتهم . ولكن هذا لا يصح في كافة الحـالات . ففـي السنة ١٧٧٢ صـادر فردريك الثاني من الاقاليم البولونية التي استولى عليها قطعاناً من البولونيات بغيـة اعمـار بومرانيا المفتقرة الى النساء . اما البولونيون فقد منعوا الهجرة في قطاعهم وبلصوا السكان دون رحمة .

« القوة هي القانون الاعلى » .

القبول بمعاهدات اوترخت وراستات (١٧١٥ - ١٧٣١)

في السنة ١٧١٥ ، لم ينتهز الوصـي ، الدوق « دورليان » ، الظروف المؤاتية لمواصلة السياسة التي عينها لويس الرابـع عشر . جعلته اطماعه الشخصية يهمل مصالح المملكة ،بدافع من مربيه القديم « ديبوا » الذي عينه وزيراً . كان لويس الخامس عشر ضعيف البنية . إذا توفاه الله ، فان عمه فيليب الخامس سيطالب بالتاج على الرغم من تنازله ، كما سيطالب بـه الدوق دورليان ايضاً. اراد الوصي ان يضمن لنفسه مساندة الرأي العام الفرنسي على فيليب الخامس . والحال كان الرأي العام الفرنسي معاديا جداً للنمسا وعاجزا عن ادراك مقاصد لويس الرابـع عشر التي لم يكن بالامكان التداول بها علناً . قبل الوصي من ثم بالعون الذي عرضه عليه الانكليز في حال نشوب نزاع بينه وبين فيليب الخامس . وبالمقابلة تحالف معهـم ؛ وساند جهودهم التقسيمية ؛ ووفر لهم ذاك الجيش البري الذي كانوا مفتقرين اليـه . وحين حدثت ازمة « لو » المالية في فرنسا برهن خليفتا « ديبوا » ، « بوربون » و « فلوري » ، عن عجزهما الطويل الامد عن انتهاج سياسة مستقلة . وقد ساعدت الدبلوماسيـة والجيـوش الفرنسية الدبلوماسيين والبحارة الانكليز ، خلال سلسلة من الازمات والحروب حتى السنة ١٧٣١ ، على الابقاء على معاهدتي اوترخت . لم تتقدم اية دولة تقدماً يمكنها من تهديد الهيمنة الانكليزية ،

فبقي البر الاوروبي في حالة انقسام مرضية .

في الشمال قسم إرث السويد ، حليفة فرنسا القديمة ، بين دول كانت ثلاث منها صديقات لبريطانيا . بموجب معاهدتي ستوكهولم (١٧١٩-١٧٢١) تخلت السويد عن «بريمن» « وفردن » لهانوفر التي غدت قوّة بحرية ، وعن ستتين وبومرانيا الامامية لبروسيا ، وعن نصيبها من رسوم المرور في السوند وعن شلسفيغ للدانمارك ، بينما تخلت الدانمارك عن ستراِلسوند و « روغن » و « ويسمار » . فكان ذلك نهاية « البحيرة السويدية » واقامة حدود اكثر اتفاقاً والجغرافية، والحطاطاً نهائياً للسويد الآخذة بالانظمة الجمهورية. اما روسيا عدوة انكلترا ، فقد استحصلت من السويد ، في معاهدة « نيستات » (١٧٢١)، على ليفونيا ، واستونيا ، وانغريا ، وجزء من كاريليا ، ومقاطعة من فنلندا مع « فيبورغ » . فاستحصلت بذلك على اراض واسعة على ساحل البلطيك ، المحور التجاري الهام ، واصبحت دولة بحرية بعض الشيء . ولكن عداء الدول السابقة ، التي كان يساندها الانكليز ، قد حرمها امكانية الاندفاع نحو المضائق الدانماركية والبحر الطليق ، فاضطرت لان تصرف النظر عن ذلك تدريجياً .

في الجنوب استحصل شارل السادس على صقلية مقابل تنازله عن سردينيـــا ، وانتزع من الاتراك سهول «تمسفار » وجزءاً من فالاشيا، وبوسنيا ، وصربيا مع بلغراد(معاهدة باساروفيتز ١٧١٨) ، والاعتراف بوثيقة وراثة العرش التي ترسخ وحدة دوله . ولكنه انتهى الى التنــازل نهائياً عن اسبانيا والهند ، وحل شركة اوستند التي كانت تشكل تهديداً للتجـــارة البريطانية والتجارة الهولندية ، والاعتراف بدعيـــات آل فارنيز في ايطاليا التي منعته من أن يجعل من ممتلكاته الايطالية كلا ذا توسع اقتصادي غير محدود (معاهدة فيينا الثانية ١٧٣١). أما فيليب الخامس ، الذي اضطر الى إقصاء « البروني » منذ السنة ١٧١٩ ، فقد انتهى الى التنازل جدياً عن عرش فرنسا وعن الأقاليم التي استولى عليها شارل السادس ، والتسليم للانكليز بجبل طارق والامتيازات التجارية التي مُنحوها في اوترخت مقابل تخصيص « دون كارلوس » ، الابن البكر لزوجته الثانية ، بدوقية « بارم » .

نهوض فرنسا ١٧٣١ - ١٧٤٠

ولكن الانكليز فقدوا بعد السنة ١٧٣١ مركزهم الأول في اوروبا . اطمأنوا الى قوتهم وانشغلوا بمنازعاتهم الداخلية ضد « والبول » ، فـــلم يبالوا بالبر الاوروبي في الوقت الذي حرر فيه تقويمُ الوضع المالي الكردينال « فلوري » من سياسة لم تخف عليه مساوئها .

حاول فلوري سلوك الطريق التي عينها لويس الرابع عشر . اعترض سبيله حزب «شوفلين » أمين سر الدولة للشؤون الخارجية الذي كان يقول بسياسة العداء التقليدية للنمسا ، التي لم يعد لها ما يبررها آنذاك ، بعـد أن زال خطر آل هبسبورغ عن فرنسا ، والتي باتت سياسة مضرة اذ ان انقسامات البر الاوروبي توفر للانكليز الحلفـــاء وظروف التدخل . بيد ان الغلبة كانت

لانصار السياسة التقليدية عند انفجار أزمة وراثة عرش بولونيا . في السنة ١٧٣٣ توفي اوغست الثاني ، وكان التاج انتخابياً . تقدم مرشحـــان ، منتخب ساكس « اوغست الثالث » ، ابن شقيق الامبراطور ومحميه ، وستانسلاس لكزنسكي حمي لويس الخامس عشر وملك بولونيـــا السابق المخلوع من العرش . انتخب ستانسلاس في ايلول بفضل المال الفرنسي . ولكنه كان رئيساً للحزب الوطني الراغب في اصلاح بولونيا وجعلهـا دولة . لم تقبل به روسيا والنمسا بأي ثمن . دخلت الجيوش النمساوية الروسية بولونيا وطردت ستانسلاس وحملت الناخبين على انتخاب اوغست الثالث .

كان ذلك إهانة للويس الخامس عشر . ومن جهة ثانية كان الناس في فرساي راغبـين في أن تكون ملكة فرنسا ابنة ملك . اضف الى ذلك أن الواجب كان يقضي بمحاولة انهاض بولونيا التي كانت تؤلف مع السويد وتركيا كتلة الدول الشرقية التي تضرب دول الوسط من الوراء ، لا سيما وأن الحكومة الفرنسية قد رفضت التحالف مع روسيا . اقنع شوفلين الملـك بضرورة اعلان الحرب ، ولم يجرؤ فلوري على الاعتراض . ولكنه خاض حرباً قصيرة الأمد .

لم يغز المناطق المنخفضة النمساوية حتى لا يقلق الانكليز والهولنديين . لم يرض هؤلاء يومـاً بـأن يروا فرنسا ، المنافسة البحرية ، تتوسع على شواطىء بحـر الشمال وتستقر خصوصـاً في « انفرس » التي قد تتخلص ، اذا ما آلت الى ايدي دولة كبرى ، من عبوديات معاهـــدة وستفاليا وتصبح مستودع تجارة اوروبا الوسطى وشمالي فرنسا ومزاحمة لندن وامستردام . وكان وجود الفرنسيين في بلجيكا يعني قيـام الحرب بينهم وبين الانـكليز . اكتفى فلوري بضرب النمساويين في ممتلكاتهم الايطالية . تحالف مع دوق سافوا ، ملك سردينيا ، الذي تخلى لفرنسا عن « سافوا » ، الفرنسية اللسان والعادات ، التي يفصلها حاجز الالب عن البييمون ، مقابـل حصوله على منطقة ميلانو (وهي سياسة سيعتمدها كافور ونابليون الثالث) . اما الحليف الآخر فكان ملك اسبانيا الذي كان يريد لابنه « دون كارلوس » منطقة ايطالية اعظم شأناً من بارم . انتصر الفرنسيون وحلفاؤهم دونما صعوبة (١٧٣٤) وتم الاستيلاء على منطقة ميلانو .

ولكن فلوري بادر اذ ذاك الى التفاوض للحيلولة دون اي تدخـــل انكليزي . وقعت معاهدة صلح تمهيدية في ايلول من السنة ١٧٣٥ ما لبثت ان تحولت الى معاهدة صلح نهائية في السنة ١٧٣٨ . ثم فقـــد شوفلين الحظوة في السنة ١٧٣٧ . وتنازل ستانسلاس لكزنسكي عن بولونيا ولكنه احتفظ بلقب الملك واعطي دوقية اللورين وكونتية بار . كان طبيعياً عند مماته ان تعود الدوقية والكونتية الى ورثته ، اي الى ملك فرنسا ، فتسد الثلمـة المفتوحة في الحدود الشمالية الشرقية وتؤمن المواصلات مع الالزاس وتعود مقاطعـــة فرنسية اللسان والعادات الى الوحـــدة الفرنسية . امسى الضم فعليا في السنة ١٧٦٦ . تخلى شارل السادس عن « نوفاري » لملك سردينيا الذي احتفظ بالسافوا حين لم يحصل على مقاطعة ميلانو . وتخـلى الامبراطور عن

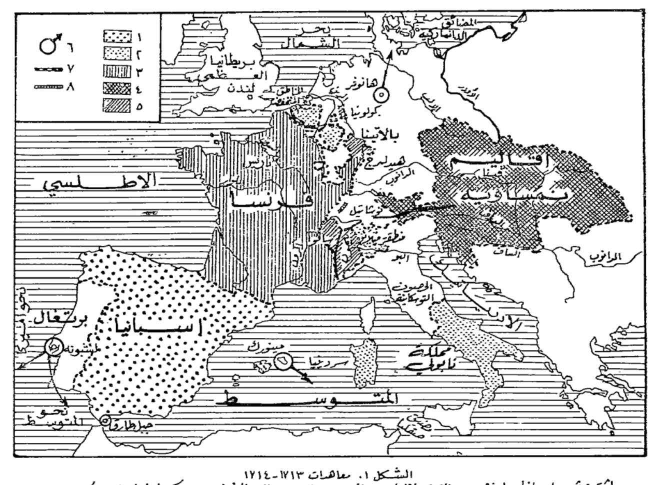
نابولي وصقلية (مملكة الصقليتين) لدون كاراوس . واعطى هذا الاخير بارم وتوسكانا اللتين كان متوقعاً ان تؤولا اليه للدوق « فرنسوا دي لورين »، زوج ماري – تيريز ، ابنة شارل السادس، المرفوعة يده عن دوقيته . وفي ذلك خير مثل على مقايضة البشر .

في السنة التالية ، انقذت فرنسا صديقتها التقليدية ، تركيا ، وانزلت بالنمساويين والروس هزيمة ابقت على التوازن الأوروبي . منذ السنة ١٧٣٦ ، كان الروس ، الذين ما فتئوا يبحثون عن منفذ الى البحر الاسود ، في حرب ضد تركيا . كانوا قد استولوا على « ازوف » والقرم . ومنذ السنة ١٧٣٧ ، كان النمساويون، حلفاء الروس ، قد غزوا البلقان . شحذ السفير الفرنسي، « فيلنوف » ، عزائم الاتراك ، وزودهم بنصائحه . بفضله كسر الاتراك النمساويين . ففرض فيلنوف حينذاك وساطته ، وفي معاهدة بلغراد (١٧٣٩) اعاد الامبراطور للاتراك صربيا وفالاشيا . اضطر الروس الى التراجع . فأظهر السلطان امتنانه لفيلنوف بتجديده امتيازات فرنسا الدينية والتجارية في الامبراطورية التركية (١٧٤٠) .

في السنة ١٧٤٠ كانت فرنسا قد استعادت سيرها الى الامام . فقد احرزت حديثا نجاحاً اقليمياً كبيراً ، هو الاول منذ ريسويك . ووطدت تحالفها مع اسبانيا وتركيا والسويد ، واخذت توجه السياسة الاوروبية . وتقدمت صناعتها وتجارتها كل صناعة وتجارة في العالم وغزت مصنوعاتها انكلترا نفسها . وتفوق تجارها على الانكليز في الانتيل والهند وموانىء الشرق الادنى حيث اوقع الجواخون الفرنسيون ، حتى قبل تجديد الامتيازات ، هزيمة تجارية نكراء بالانكليز وكادوا يقضون هناك على تجارة الاجواخ الانكليزية. تقدم الفرنسيون في وادي الميسيسبي واقفلوا داخل البلاد في وجه المستعمرين البريطانيين . وأسست شركة الهند الفرنسية باطراد اسواقاً جديدة كثيرة . وأعاد الاسبانيون من جهتهم تنظيم اساطيلهم وطمعوا في منع الانكليز من الاستمرار ، دون خجل، في مخالفة بنود معاهدة اوترخت بتلاعبهم بالسفن المسموح بدخولها الى مستعمراتهم حتى تنقل فوق ما هو متفق عليه ، وبشتى الاساليب الملتوية المعتمدة في عمليات التهريب المطلق العنان . استيقظ الانكليز وانتبهوا فجأة لان كل شيء يحدث كما لو لم يكونوا منتصرين، او كما لو لم يكن هنالك معاهدة اوترخت . فهم لم يفقدوا هيمنتهم البرية فحسب بل كانوا سائرين في طريق فقدان هيمنتهم البحرية والتجارية . فقرروا اللجوء الى الحرب .

الحروب البرية والبحرية الكبرى (١٧٤٠ - ١٧٦٣)

في تشرين الاول من السنة ١٧٣٩ قاموا باعمالهم العدوانية الاولى ضد اسبانيا . ولم يفتهم ان فرنسا ستنجر الى الحرب رغبة منها في الثأر لنفسها من معاهدتي اوترخت . وبالفعل انطلق اسطولان فرنسيان ، في شهر آب من السنة ١٧٤٠ ، لمساعدة الاسطول الاسباني . فبدأ بذلك الصراع الحاسم من اجل التفوق البحري والاستعماري، اي من اجل الهيمنة السياسية .



الشكل ١. معاهدات ١٧١٣-١٧١٤

وراثة عرش اسبانيا : ١- نصيب ملك اسبانيا البوربوني ، ٢- نصيب ملك النمسا - ٣- مملكة فرنسا ، ٤- مملكات نمساوية قبل المعاهدات ، ٥- دول قطائل ، ٦- قواعد بحرية ورقاب جسور انكليزية ، ٧- الحاجز الهولندي ، ٨- الحاجز الروسي .

كانت قوّة الاسطول الفرنسي كافية لان ترتقب النتيجة بثقة واطمئنان . وكان مقدراً لفرنسا ان تصبح في طليعة الدول ولمدة طويلة . وانما كان لزاماً ان تستطيع تكريس قواها للحرب في البحر والمستعمرات، اي انلا تكره على خوض الحرب في البر الاوروبي .

ولكن الامبراطور شارل السادس توفي في ٢٠ تشرين الاول من السنة ١٧٤٠ ، فافتتحت وراثة عرش النمسا . ترك الامبراطور خلفاً له ابنة في الثالثة والعشرين من سنها ، ماري-تيريز، مع جيش غير منظم وخزانة فارغة . رأى كافة ملوك اوروبا الفرصة سانحة لكي يقتطعوا لهم بعض المناطق من اراضي آل هبسبورغ . نسوا كلهم انهم ضمنوا وثيقة وراثة العرش النمساوي ووعدوا بمساعدة ماري-تيريز على اعتلائه . ونظروا كلهم الى المعاهدات الحاملة تواقيعهم نظرتهم الى اوراق رثة حقيرة . طالب منتخب بافاريا شارل - البير بالارث كاملاً . وطالب كل من ملك اسبانيا ، وملك سردينيا ، وملك بروسيا فردريك الثاني بنصيب من الارث . كان فردريك الثاني قد ورث عن والده جيشاً مختاراً ، والحكمة القائلة بان لا قيمة للامير في العالم الا بسيفه ، ورسالة توسيع الاراضي البروسية ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وجمع الاقسام الثلاثة التي تتألف منها ممتلكات آل هوهنزولرن . وكان طامعاً في حينه بسيليزيا ، الولاية الغنية التي سيؤمن له امتلاكها تجارة الاودر الاعلى ، ويحمي براندبورغ من التعديات النمساوية ويتيح له اتقاء كل تهديد ممكن بهجوم مفاجيء على بوهيميا . كان لآل هوهنزولرن حقوق على سيليزيا تخلوا عنها بموجب معاهدات، ولكن فردريك الثاني ما كان ليقيم وزناً للعهد ، فاحتل الولاية (كانون الاول ١٧٤٠ - نيسان ١٧٤١) .

لم تكن فرنسا مهددة ، وكان باستطاعتها البقاء بعيدة عن النزاع . اجل كان الملك قد وقع وثيقة وراثة العرش وكان عليه ان يحترم توقيعه . ولكن الحزب المحافظ ، وعلى رأسه المارشال « دي بيل إيل » ، اعتقد بان الوقت قد آن للتخلص نهائياً من النمسا ، ولم يعر المسائل البحرية والاستعمارية أهمية تذكر . وما كان كبار الاسياد الفرنسيين آنذاك ، على نقيض الانكليز ، ليعنوا عناية كبرى بالمشاريع التجارية . ولم تكن العاصمة الفرنسية ، فرساي ، والمدينة الرئيسية المجاورة، باريس ، مدينتين يعول سكانها في معيشتهم على التجارة البحرية ؛ فكان من الصعوبة بمكان تهييج الرأي العام وإثارة الفتن فيهما من اجل الانتيل او السنغال . ولم يبرهن التجار الفرنسيون أنفسهم عن مثل ما برهن عنه الانكليز من عناد عنيف ، ولم يرغبوا ، على غرارهم ، في حرب ضروس تنتهي بظفر طرف وهزيمة آخر : عندما اعلنت القطيعة بين فرنسا وانكلترا في السنة ١٧٤٣ ، اقترحت شركة الهند الفرنسية على الشركة الانكليزية البقاء خارج نزاعات الحكومات ومواصلة الاعمال التجارية ، ولم تقرر الاشتراك في الحرب الا بعد أن رفض الانكليز اقتراحها . كان فلوري آنذاك قد طعن في السن ؛ فاضطر للموافقة على تولّي « بيل إيل » انتزاع التاج الامبراطوري من آل هبسبورغ . حين هزم هؤلاء أمام فردريك ، مهد بيل إيل السبيل لقيام معاهدة تحالف بين ملك اسبانيا ومنتخب بافاريا (ايار ١٧٤١) ،

وعقد تحالفاً مع بروسيا (حزيران) وفاز بانضمام منتخب الساكس . وقد تم الاتفاق بين المتحالفين على ان يستولي منتخب بافاريا على التاج الامبراطوري وبوهيميا؛ وابن ملك اسبانيا الثاني ، دون فيليب ، على بعض الاقاليم الايطالية ؛ وفردريك على سيليزيا ؛ بينما تكتفي فرنسا باذلال النمسا . احتلت الجيوش الفرنسية بوهيميا ، فاعلن منتخب بافاريا ملكاً عليها ثم انتخب امبراطوراً باسم شارل السابع (تشرين الثاني ١٧٤١ – كانون الاول ١٧٤٢) .

بيد ان « بيل إيل » اخطأ في انه لم يحاول الاجهاز على فيينا ، فطالت الحرب وتمكن الانكليز من التدخل وفتح جبهة ثانية . في شهر شباط من السنة ١٧٤٢ نزل جورج الثاني الى البر الاوروبي وتسلّم قيادة جيش من المرتزقة . عقد الانكليز والنمساويون والساكسونيون حلف « وورمز » واتفقوا على انتزاع الالزاس واللورين من الفرنسيين وقدموا لماري – تيريز المال الذي كانت مفتقرة اليه . وتوفقت ماري – تيريز بوعدها ملك اسبانيا بشطر من مقاطعة ميلانو ، وبتخليها عن سيليزيا لفردريك الثاني الذي ادار ظهره لحلفائه على الرغم من تعهداته الصريحة (معاهدة برسلو ، تموز ١٧٤٢) ، الى تفكيك التحالف وتاليب تحالف آخر على فرنسا التي ما لبثت ان واجهت تهديد حدودها (١٧٤٣) . واخيراً ، في السنة ١٧٤٥ ، بعد وفاة شارل السابع ، تنازل ابنه عن الامبراطورية لمصلحة زوج ماري – تيريز الذي انتخب امبراطوراً باسم فرنسوا الأول . باتت القضية أشبه بمبارزة بين العائلة المالكة النمساوية والعائلة المالكة الفرنسية التي تحالف معها فردريك الثاني المضطرب البال مرّة اخرى في السنة ١٧٤٤ ، ولكنه تخلى عنها مرّة اخرى ايضاً في السنة ١٧٤٥ حين ابدت ماري–تيريز تنازلها له عن سيليزا في معاهدة « درسدن » . تحوّلت الجيوش الفرنسية ، في اعقاب ذلك ، عن الحرب الاستعمارية التي لم يلمع نجمها فيها حتى ذلك الحين . في السنة ١٧٤٥ استولت على لويسبورغ في كندا ، ولكنها فقدت مدراس في الهند في السنة التالية . ولا ريب في ان الفرنسيين كانوا احرزوا نجاحاً حاسماً لو ان كافة القوى الفرنسية تحولت شطر البحر . في البر الأوروبي صمدت فرنسا امام التحالف صموداً مشرفاً . في السنة ١٧٤٨ توفقت الى صون أكثر حدودها هشاشة ، اي الحدود الشمالية الخالية من الحواجز الطبيعية ، والمفتوحة عند ممر « الموز » و « السامبر» و « الواز » ؛ كانت قد استولت على المناطق المنخفضة النمساوية (انتصار « فونتنوا » ، ١٧٤٥) والسافوا وكونتية نيس . فبات من ثم بمكنتها ان تفرض على اعدائها المنهوكين صلحاً مجدياً. ولكن لويس الخامس عشر تخلى في معاهدة «اكس–لا – شابيل» (تشرين الاول ١٧٤٨) عن كل شيء ، المناطق المنخفضة ، وسافوا ، ونيس . ووافق لويس الخامس عشر بتخليه هذا على ضمان سيليزيا لفردريك الثاني واعطاء ملك سردينيا قسما من مقاطعة ميلانو حتى نهر « تسينو » ، واعطاء دون فيليب بارم وبليزانس .

انذهلت اوروبا باجمعها من هذا الاعتدال الذي سخرت منه واعتبرته ناجماً عن ضعف عقل وضعف جنان . واغتاظ الفرنسيون من الملك . إلا ان هذا الصلح لم يكن شراً كله بالنسبة

لفرنسا اذ انها انقصت اراضي النمسا ، وأوثقت الروابط باسبانيا ، ووسعت دولا ثانوية. كانت متفقة وإحدى السياسات الفرنسية التي تؤثر التوازن وتجميع الدول الصغرى حول فرنسا ضد العظماء على السعي وراء التوسعات الشخصية . ولكنها انطوت على عيب جوهري . فان لويس الخامس عشر الصادق في مسالمته ، والخلص في محبته المسيحية وشعوره الانساني ، والتعب بالاضافة الى ذلك من الحرب ، قد تغافل عن مقاصد الانكليز والنمساويين . تعامى عن أن شيئاً لم يسوَّ في البحر والمستعمرات ، وأن شيئاً لم يسوَّ بين النمسا وبروسيا ، وان الصلح ليس سوى مهادنة ، وأن حرباً أخرى لن تلبث أن تندلع ، وانه من الأهمية بمكان بالنسبة لفرنسا ، ما دامت الحرب محتومة ، أن تكون موجودة على قمم جبال الألب في سافوا وفي سواحل بحر الشمال حتى انفرس .

كانت الحرب الجديدة، المعروفة بحرب السبع سنوات (١٧٥٦-١٧٦٣)، نتيجة المنازعات بين المستعمرين الفرنسيين والمستعمرين الانكليز في اميركا من اجل الاستيلاء على وادي « اوهايو ». استعد لها الانكليز باهتمام . في شهر حزيران من السنة ١٧٥٥ ، وبدون اشهار حرب ، بدأوا عدوانهم بعمل قرصنة . فان السفن الحربية البريطانية قد استولت في الموانىء الانكليزية أو في عرض البحر على ثلاث ناقلات جيوش في طريقها الى كندا واكثر من ٣٠٠ باخرة تجارية و ٨٠٠٠ بحار . فحرم الفرنسيون بذلك ، منذ البدء خيرة ملاحيهم المدربين .

كان الانكليز بحاجة الى حليف وجيش لاجل حماية هانوفر، المتلكة الشخصية لملك انكلترا ورقبة الجسر للتجارة البريطانية في الشمال، ولاجل تحويل القوات الفرنسية شطر البر الاوروبي. لم يعد بامكانهم الاعتماد على النمسا التي عرضت المناطق المنخفضة على فرنسا في حربها الانتقامية ضد بروسيا ، فرفضت فرنسا العرض كي لا تتخلى عن فردريك الثاني ، ولكنهم وجدوا هذا الاخير قلقاً ، ومرتاعاً من تحالف انكليزي روسي ، وراغباً في المساعدات المالية الانكليزية ، فنكث التحالف الفرنسي وعقد مع انكلترا اتفاق وستمنستر (كانون الثاني ١٧٥٦) . فاستفظع الفرنسيون هذا ووقعوا مع النمسا معاهدة فرساي (أول أيار ١٧٥٦) . تقربت النمسا في الوقت نفسه من الامراء الالمان ومن الساكس وروسيا . شعر فردريك الثاني بالخطر المداهم : فصمم على القيام بعمل يشل جيوش اعدائه قبل ان ينهوا استعداداتهم، وانقض على الساكس(آب ١٧٥٦). احرز النصر ، ولكن صمود الساكسونيين اتاح للنمساويين جمع قواهم . ولما كانت ابنة منتخب الساكس متزوجة من وريث عرش فرنسا ، استشاط لويس الخامس عشر غيظاً وعقد مع النمسا معاهدة فرساي الثانية (ايار ١٧٥٧) التي تعهد فيها بتقديم ١٤٠٠٠٠ رجل ومبلغ ٣٠ مليوناً اسهاماً منه في حرب المانيا . وهكذا انقلبت المحالفات واشتركت فرنسا في حروب بريــة حولتها عن مصالحها الحقيقية ، أي عن حرب المستعمرات التي كانت هي الحرب الحقيقية .

اعتقدت الحكومة الفرنسية بأن العمليات البرية لن تطول ، وبأنها ستستطيع بعد انتهائها

من الارتداد بقواها على الانكليز وحدهم . في السنة ١٧٥٧ احتـل الفرنسيون فعلاً هانوفر ثم طوقوا الجيش الانكليزي الهانوفري وارغموه في ايلول عـــلى الاستسلام في « كلوسترسفن » وحصلوا منه على تعهد بـــأن لا يحمل السلاح حتى نهاية الحرب . وتحرك جيش فرنسي الماني لمهاجمة فردريـك الثاني الذي كان يواجه خطر النمساويين في الجنوب ، والروس في الشرق ، والسويديين في الشمال . ولكن فردريك تمكن مـن المناورة بين اعدائه ، فسحق الجيش الفرنسي الالماني في « روسباخ » (٥ تشرين الثاني ١٧٥٧) ، والجيش النمساوي في « لوتن » (٥ كانون الاول) . ونكث الجيش الانكليزي الهانوفري عهده ، فاشترك في الحرب مرة اخرى ضـــد الفرنسيين . ومنذ ذاك التاريخ طالت الحرب وتمادت . فالجيوش الفرنسية التي قادهـــا ضباط حذاق على غير سداد في الرأي قسّم التحاسد بينهم ،قد اوقفت ، على الرغم من بعض الانتصارات الجزئية ، بين الرين والفيزر بفعل مقاومة الجيش الانكليزي الهانوفري ، ولم تتمكن من مهاجمة فردريك الثاني من الغرب . خف العبء بذلك عن هذا الاخير ، فواجه الروس والنمساويين . انزلت به هزائم نكراء ، وفي السنة ١٧٥٩ ، بلغ كشافة اعدائه مشارف برلين . ولكنه برهن عن عناد فائق ، وحال احتراز الروس والنمساويين وعجزهم عن توحيد جهودهم دون اقدامهم على كيل الضربة القاضيـــة . وفي السنة ١٧٦٢ توفيت القيصرة اليزابيت وتولى العرش بطرس الثالث المخلص لملك بروسيا ، فبقي النمساويون وحدهم .

منعت هذه الحرب الفرنسيين من التفرغ لاساطيلهم ومستعمراتهم . أمدّوا الهند بـ ١٧ رجلاً وكندا بـ ٣٢٨ رجلاً بينما كان الانكليز ، بتحريض من « وليم بيت » ، يواصلون تعزيز اساطيلهم ويرسلون الى اميركا حتى ٦٠ ٠٠٠ رجل. استولوا على كندا باستيلائهم على « كيبيك » (١٧٥٩) « ومونريال » (١٧٦٠) ، وعلى الهند باستيلائهم على بونديشيري (١٧٦١) . وجـاء دخول اسبانيا الحرب الى جانب فرنسا متأخراً جداً ولم يسفر سوى عن نتيجة واحدة هي اتاحة فرصة احتلال فلوريدا للانكليز . اضطر الفرنسيون لتوقيع معاهدة باريس مع الانكليز في ١٠ شباط من السنة ١٧٦٣ . تخلوا لهم عن كندا ووادي « اوهايو » وضفة الميسيسيبي اليسرى وعدد مـن جزر الانتيل. تنازلوا من كل مدعى سياسي بالهند حيث احتفظوا بخمس مدن دكت اسوارهـا وسحبت حامياتها . تخلوا عن اسواقهم التجارية في السنغال باستثناء جزيرة « غوريا » . وتنازل لويس الخامس عشر ، بالاضافة الى ذلك ، عن ضفة الميسيسيبي اليمنى أو لويزيانا للاسبانيين بغيـة إعاضتهم من فقدان فلوريدا . ولكن فرنسا احتفظت ، عـــلى الرغم من مقاومة العديد من الانكليز ، بمصائد الاسماك في الارض الجديدة ، التي كانت بمثابة مدرسة جلَد وتدريب لبحارتها ، وبجزيرتي « سان بيير وميكلون » و « جزر السكر » ، « مارتينيك » و « غوادلوب » و « سانت لوسي » و « سان دومنغ » وذلـــك بفضل الملك جورج الثالث المتسرع في استهلال سياسته الشخصية والتخلص من استبداد « بيت » الذي كان يفضل انتظار محق فرنسا لتوقيع معاهدة الصلح . استاء الانكليز واعتقدوا بوجوب القيام بمجهود جديد ، ولكنهم على الرغم من كل ذلك

حققوا امكانات تقدم غير محدودة بتحقيقهم الهيمنة البحرية والتجارية والاستعمارية .

أما ماري – تيريز ، التي امست وحدها في الميدان ، فقد وقعت مع فردريك الثاني صلح « هوبرتسبورغ » (١٥ شباط ١٧٦٣) . احتفظ هذا الاخير بسيليزيا وتمتع بنفوذ عظيم في المانيا وفي اوروبا . غير انه ، على الرغم من كل ذلك ، لم يكن سوى ملك دولة صغرى يخيم عليها الخراب . وخرجت النمسا ضعيفة وخاسرة اقليمياً من هذه الهزيمة الجديدة . أما المسيطر الحقيقي على اوروبا الشرقية والوسطى فهو روسيا ذات الموارد المتزايدة ، التي اهتدت الى رجل هو القيصرة كاترين الثانية .

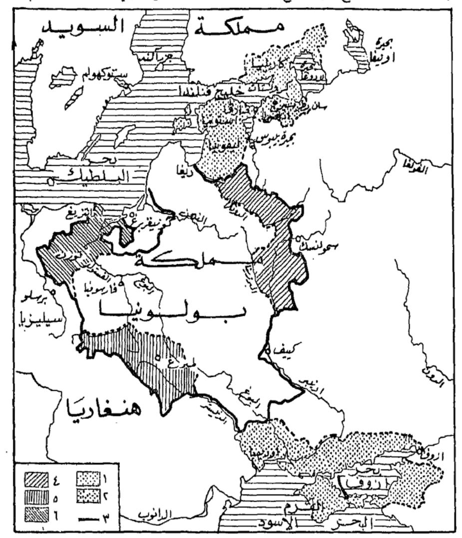
ارتقاء الروس والبروسيين (١٧٦٣ – ١٧٨٩)

ادت معاهدة باريس الى تخلخل التوازن في اوروبا. انثنى الفرنسيون والانكليز عن البر الاوروبي . انشغل الانكليز بشؤون تنظيم امبراطوريتهم . صادفوا صعوبات كبرى في مستعمراتهم الاميركية بنوع خاص . وأدرك الفرنسيون خطأهم . كرسوا قواهم لمحاربة انكلترا ، واخذ الوزير شوازول يعد العدة للانتقام. وكان الانتقام ممكناً في بلاد غنية جدا تفوق دول اوروبا الاخرى سكانا ولم تتأثر تأثراً جدياً بحروب خيضت كلها خارج ارض الوطن . اعاد شوازول انشاء الاسطول والجيش وابتاع من الجنويين جزيرة كورسيكا التي كانت مطمع الانكليز لانها تتيح السيطرة على الساحل الفرنسي المتوسطي (١٧٦٨) .

في هذه الظروف خلا الجو في اوروبا الشرقية لروسيا التي تخلت نهائياً عن مشاريع بطرس الأكبر في آسيا . فكان من ثم باستطاعتها استعادة سيرها شطر الغرب . عند وفاة ملك بولونيا اوغست الثالث (١٧٦٣) ، اتفقت كاترين وفردريك الثاني على منع كل اصلاح في بولونيا ، وضمان العرش لعشيقها ستانسلاس بونياتوفسكي (ايلول ١٧٦٤) بتهديد من الجيوش الروسية ، وفرض حماية روسية على البولونيين بحجة تأمين حريات الجمهورية البولونية (١٧٦٧) . ثار الوطنيون البولونيون، وتوفق شوازول ، املا منه في انقاذهم ، الى اقناع الاتراك بدخول الحرب ضد روسيا . ولكن الانحطاط التركي كان آخذاً في التعاظم . خسر الاتراك آزوف والقرم والولايات الرومانية ودُمر اسطولهم في « تشسميه » (١٧٧٠) . خشي فردريك الثاني اذ ذاك من رؤية الروس والنمساويين يعززون قواهم في البلقان أو يتقابلون في حرب قد ينجر هو اليها . فاقترح على كاترين وماري–تيريز تقسيم بولونيا الذي أقر في سان بطرسبورغ في ٢٥ تموز من السنة ١٧٧٢ . « باسم الثالوث الأقدس »... وخوفاً من تفكك الدولة البولونية تفككاً كلياً ... استولت ماري – تيريز ، التي « ما انفكت تبكي وتأخذ » ، على غاليسيا وسكانها البالغين ٠٠٠ ٦٠٠ ٢ نسمة؛ واستولى فردريك على بروسيا البولونية وسكانها البالغين ٠٠٠ ٧٠٠ نسمة فقط ، باستثناء دانتزيغ ، ولكنه حقق الاتصال بذلك بين بروسيا وبراندبورغ ؛ واستولت كاترين على جزء من ليتوانيا يبلغ سكانه ٠٠٠ ٦٠٠ ١ نسمة . فاضطرت الجمعية البولونية ، التي حاصرتها الجيوش الحليفة ، الى التسليم بالمعاهدة والتعهد بعدم تعديل الدستور . وقد ألف الشركاء المتواطئون الثلاثة ، بغية الحفاظ على مكاسبهم ، حلفاً ثلاثياً ناصب فرنسا العداء في

عهدي الثورة والامبراطورية ، وكان نواة الحلف المقدس بعد السنة ١٨١٥ ، ودام حتى اواخر القرن التاسع عشر .

بوساطة النمسا ، وقع الروس مع الاتراك معــاهدة « قينارجي » (١٧٧٤) . لم تحتفظ



الشكل ٢ . الفتوحات الروسية وتقسيم بولونيا الأول .
١- فتوحات بطرس الاكبر ، ٢ . فتوحات كاترين الثانية ، ٣ - حدود مملكة بولونيا في السنة ١٧٧٢
تقسيم بولونيا الاولى في السنة ١٧٧٢ - ٤ الفتوحات الروسية ، ٥ الفتوحات النمساوية ، ٦. الفتوحات البروسية

روسيا الا بـ « آزوف » ، ولكن استقلال « القرم » قد أعلن رسمياً ، وحق للروس ، بصورة خاصة ، توجيه الانذارات الى السلطـان خدمة للكنيسة اليونانية أو للسكان الارثوذكس في الولايات الرومانية . فظهروا من ثم بمظهر حماة الشعوب المسيحية الارثوذكسية في البلقان وتوفر لهم امكان التدخل الدائم في الشؤون البلقانية ، مما سيسّهل مشاريعهم باتجاه القسطنطينية والمضائق .

إن اعمال الدول الثلاث في بولونيا حولت نظام التوازن الى « نظام تقاسم » . فهي لم تقض

لعمري على نظام التوازن ، اذ كان على الدول الكبرى أن تتساوى فيا بينها ما استطاعت الى ذلك سبيلاً. ولكنها سلّمت بحقها في تقاسم الدول الصغرى والدول الضعيفة اذا قضت مصلحتها بذلك . فتكرس بذلـك مبدأ الاستخفاف بحقوق الدول ، الذي سيؤدي الى تقسيم اوروبا بين بعض الدول الكبرى المتجاورة ، المتباينة المصالح تباينا مباشراً ، التي ستمسي خلافاتهـا اكثر تكرراً وأشد خطورة منهـا في أي عهد مضى . فلاحت في الافق بوادر الحرب الدائمة وخراب اوروبا .

دب الذعر في هذه الاثناء الى السويد وتركيا والبندقية وكافة دول اوروبا الضعيفة التي ارتعدت هلعا بانتظار المبضع يوجه اليها. ولكن فرنسا عملت على استبقاء نظام التوازن القديم . فبمساندة الملك لويس السادس عشر، حاول «فرجين» الذي اشترك في الحكم منذ السنة ١٧٧٤ حتى ١٧٨٧، منع توسع الدول، وضبطها في نطاق النظام بالتوفيق بينها أو بإثارة الخلافات بينها عند الاقتضاء، والمحافظة على الدول الصغرى بجمعها حول فرنسا . فكان ذلك تمشيا على سياسة لويس الرابـع عشر الاخيرة التي سينتهجها تاليران ولويس – فيليب بدورهمـا ايضا . رفض فرجين عروض النمسا المغرية في المناطق المنخفضة ومصر . فأفلـح باستخدام منافس النمسا الجديد ، فردريك الثاني ، في منع جوزف الثاني اولاً وثانيا من احتلال بافاريا (١٧٧٩ و ١٧٨٤) ؛ ووضع حداً سريعـا لمشروع نمساوي روسي يستهدف تجزئة الامبراطورية العثمانية (١٧٨١ – ٨٣) واقتصر المكاسب الروسية على القرم دون أن يحصل الامبراطور على شيء . حقق بذلـك السلم في البر الاوروبي الذي اتاح له محاربة الانكليز في البحر (١٧٧٨ – ١٧٨٣) ، والاسهـام في تحرير المستعمرات الانكليزية الاميركية ، والانتقام جزئيا في معاهدة فرساي (٣ ايلول ١٧٨٣) ، من معـاهدة باريس المذلة ، بتجريد انكلترا من أهم مستعمراتها . اضطر الانكليز الى الاعتراف باستقلال الولايات المتحدة الاميركية ، والتخلي لها عن داخل البلاد حتى الميسيسبي ، واعادة مينورك وفلوريدا لاسبانيا والسنغال و « تاباكو » لفرنسا مع اطلاق الحرية لهـا بتحصين دنكرك .

استعادت فرنسا بذلك اعتبارها ونفوذها وامن اوروبا . ولكن هذه النجاحـات لم تدم طويلاً . فقد شلتها في السنة ١٧٨٧ الازمة المالية وثورة الارستوقراطية . اضطرت فرنسا لترك ملك بروسيا الجديد ، فردريك غليوم الأول ، يعيد سلطة القائد العسكري وينظم حلفاً ثلاثياً بروسيا وهولندياً وانكليزيا (١٧٨٧). اعتبرت كاترين وجوزف الثاني الفرصة سانحة لمهاجمة الاتراك (١٧٨٨) . ولكن الانكليز والبروسيين حملوا ملك السويد غوستاف الثالث على مهاجمة الروس . وحمل فردريك غليوم الأول البولونيين على اصلاح دستورهم ورفض الحماية الروسية . وحرض الهنغاريين والبلجيكيين على الثورة على جوزف الثاني . ولا عجب في ذلك فقد أدى تواري فرنسا الى انفلات الاطماع . في السنة ١٧٨٩ ، كانت اوروبا متخبطة في ازمة شاملة . وكان اتحاد الدول أبعد منه في أي وقت مضى .

الفصل الرابع

تنوّع أوروبا

انطلاق أو يقظة العصيان القومية

لم تكن وحدة أوروبا الفكرية سوى صنيع طوائف يسيرة من البشر ، الكتاب ، والعلماء ، وبطائن الملوك . ولكن الروح القومية رأت النور منذ زمن بعيد عند كافة الشعوب . على انها تفاوتت نمواً : ولعل الانكليز والفرنسيين وحدهم الفوا قوميات ، بمعنى هذا التعبير الحقيقي ، اي جماعات بشر مرتبطين بأرض كيّفوها وكيفتهم وعالمين بتضامن ، ومصالح مشتركة ، وعادات خصوصاً ، واخلاق ، وأساليب حياة وتفكير ، ومثل أعلى، اكثر تشابهاً فيما بينهم ، على الرغم مما لا يزال بينهم من اختلافات ، منها بين أية جماعة من البشر المجاورين . الا ان شعوباً اخرى توصلت هي ايضاً الى الوعي القومي توصلاً متباين الجلاء والقوة ، ومختلطا وضعيفا احيانا. كانت هنالك وطنية اسبانية حققهـا الصراع الطويل ضد المسلمين ، ووطنية ايطالية حققتها الغزوات الكثيرة التي عرفتها البلاد وعززتها ذكريات روما ، ووطنية بولونية تأيدت بمقاومة البولونيين للروس والجرمانيين ، ووطنية روسيا انمتها المسيحية الارثوذكسية التي جعلت الروس ينظرون الى كافة الشعوب نظرهم الى هراطقة وبرابرة ، والى روسيا نظرهم الى البلاد المقدسة ، الصادقة ، العادلة ، المحبوبة من الله بالذات ؛ وحتى وطنية المانية ايضا . واتضح اكثر فأكثر وعي الاختلافات الجماعية ، واقعيـة كانت أم خاطئة : « يقال ان الفرنسين مهذبون وحذاق وكرماء ، ولكنهم متسرعون ومتقلبون ؛ وان الالمـان صادقون ومجتهدون ، ولكنهم ثقلاء وسكيرون ؛ وان الايطاليين لطفـاء ونبهاء وعذاب الكلام ، ولكنهم حساد وخونة ؛ وان الاسبانيين متكتمون وفطن ، ولكنهم متحذلقون ومتمسكون تمسكاً مفرطاً بالشكليـات ؛ وان الانكليز شجعان حتى التهـور ، ولكنهم متكبرون ومستخفون ومتعجرفون حتى القساوة » .

نمت الروح القومية نمواً كبيراً خلال القرن بفعل سياسة الملوك الذين اخضعوا ولاياتهم المختلفة لعادات مطردة التماثـل ، وتنازعوا سياسياً واقتصادياً فأوجدوا بذلك في شعوبهم شعور التضامن والحقد على مصدر الأذية من الجيران ، سواء كانت هذه الأذية مزاحمة ام جيشاً .

ونمت كذلك بفعل التقــدم الفكري واتخذت هنا شكل ردّة الفعل ضد النفوذ الفرنسي ، موحد أوروبا . كل المثقفين في كل البلدان تتلمذوا على فرنسا . وفرت الروح الكلاسيكية لهذه الاخيرة تقدماً كبيراً وتفوقاً عظيماً . امست فرنسا استاذ اوروبا في المنطق والبيــان والجدل . منها تعلم الاوروبيون التفكير وتكوين الافكار وترتيبها والتوسع فيها والربط بينها واستخلاص النتائج المقبولة منها . تزود جميعهم بهذه الكلاسيكية التي يقتصر نتاج اعظم العبقريات بدونها على المقاصد والتخطيطات والوعود والتآليف المرتجلة ، التي تفتقر كلها الى التفتح الكامل . الا ان هذه السيطرة الفرنسية التي رضي بها الكتاب الفرنسيون في البدء باعجاب وامتنان قد ثقلت عليهم ، بعد مرحلة التقليد الطويلة التي يجب ان يمر بها كل تلميذ ، اي بعد السنة ١٧٦٠ ، حين اعتبروا انهم امسوا اسياد تفكيرهم وتعبيرهم . وعوا قوتهم الخاصة وذكاءهم الخــاص ، ونفرت اثرتهم القومية من السيطرة الفرنسية . ألهمهم كبرياؤهم المكلوم ، فانصرفوا ، رغبــة منهم في التحرر ، الى نقد الآراء الفرنسية نقداً قاسياً ولاذعاً ، وجائراً في اغلب الاحيان . وقد زاد في عنف هذا النقد انه صدر على العموم في كل بــــلاد عن اناس منحدرين من تلك البورجوازيات النامية التي كانت اقل تأثراً من الاسياد بالعادات المجتمعية المستوردة من فرنسا وبحيــــاة « الصالونات » التي سمت كافة الارستوقراطيات وراء تقليدها والــتي باتت اسلوباً اوروبياً مشتركاً . انبثق نقدهم عن شعور تعاظم اثنــاء ردة الفعل الملموسة ضد جفاف واضمي دائرة المعارف واثناء ذيوع شهرة روسو فاتخــــذ طابع الهجوم على مذهب العقليين الفرنسي والكلاسيكية الفرنسية وشيوعية الوطنية الفرنسية . وقد تكلم كل منهم باسم مشاعر قوميتــه الخاصة ، فتزعزعت الوحدة الاوروبية الطالعة .

فاجأ الهجوم الفرنسيين في حالة مقاومة ضعيفة . فالروح الكلاسيكية كانت سائرة في طريق الانحطاط . رأيناها في القرن السابع عشر تصميماً على الكمال وجهاداً يستهدف التوصـــــل بوضوح وجلاء اما الى ادراك الأفكار المتداخلة المتشابكة واما الى ادراك عالم مبهم وصاخب من المشاعر المضطربة ، وجهداً للتعبير عن هذا الادراك اصدق وأشجى تعبير ، وهذا لا ينقص ثروات الحياة الداخلية ، بل يظهرها علانية تخضع للانسان الذي يستفيد منها . اما في النصف الثاني من القرن الثامن عشر فقــد باتت هذه الروح متمسكة اكثر فأكثر بالشكليات ، وأصبحت مجموع انظمة صارمة تقيّد ، وضوابط تشل ، لا بل افتقرت اللغــة نفسها وأصبحت ضيقــة ووجلة ومقتصرة على تعابير عامة او صيغ جاهزة في اغلب الاحيان ، اي انها اصبحت اشبه بعلم جبر يلزم الشاعر بالتعريض في الكلام ، لا جهداً جباراً في سبيل التوصل الى انبجاس الحياة . والواقع ان انحطاط الكلاسيكية هــذا هو نقيض الروح الكلاسيكية . هو ما هوجم بعنف ، وبحق في اغلب الأحيان ، ولكنه اختلط بالكلاسيكية التي لم يكن سوى صورتها الهزلية . وقداهمله العديد من الفرنسيين انفسهم . ان عهد الرومنطيقية ابتدأ منذ روسو .

زد على ذلك من جهة أخرى ان روح شيوعية الوطنية ، والاقتناع بأن البشر متساوون

كلهم ، والاعتقاد بوحدة الجنس البشري ، وهي تفرض كلها الوطنية، اذا احسن فهمها ، بدلاً من التنكر لها ، كما اثبت ذلك الفلاسفة الوضعيون ، قد اضعفت الشعور القومي عند أرفع الفرنسيين ثقافة . الا انها لم تقض عليه في احد منهم ، وقد افاقت الروح الوطنية من غفلتها عند الكثيرين في الملمات الجسام . خلال حرب السنوات السبع، تبرع مجهزو المراكب وتجار المرافىء بسفن قدّموها للملك مساهمة منهم في الحرب ضد الانكليز . وتأثر الفرنسون تأثراً عميقاً بالانكسارات الخارجية . في السنة ١٧٦٥ مثلث مسرحية « حصار كالية » لمؤلفها « دي بلوا »، فبكت الجماهير وصخبت ، وامتدحت هذه الرواية البطولية من روايات الصراع القديم ضد انكلترا . ولكن الفلاسفة انجزوا بناء نظرياتهم في حب السلم وشيوعية الوطنية في احلك مراحل حرب السنوات السبع ، وانجزوها بسرعة كلية ودون استطلاع كاف (اذ توجب عليهم ، في سبيل النجاح ، الاعاضة من التعليم القديم بتعليم جديد مبني على العاطفة والميل والادعاء في الوقت نفسه بأنه صادر عن العقل دون سواه) . لم يدافع الفرنسيون المستضعفون بقوة عن مراكزهم، كما لم يصمدوا صموداً قوياً امام غزوة الآداب الاجنبية ، الانكليزية منها ولا سيما الالمانية . منذ السنة ١٧٥٠ ، نشر « غريم » في « مركور فرنسا » ، بمساعدة ديدور ، رسائل في الأدب الألماني ، وفي السنة ١٧٦٦ ، نشر « هردر » قصائد ألمانية مختارة ، كما نشر في السنة ١٧٦٨ ترجمة « الأغاني البلدية » للسويسري « جسنر »، وبين السنة ١٧٨١ والسنة ١٧٨٤ ، « تاريخ الفن عند الأقدمين » لـ « ونكلمن » . اخذت « النفوس السريعة التأثر » بالطابع البلدي والبطريركي الذي يتميز به الشعر الالماني . استوحى « الأغاني البلدية » «دليل» ومؤلف الامثال «فلوريان» ، و « برناردين دي سان – بيير » في كتابه « بول وفرجيني » . وأحدثت ترجمة « فرتر »لغوتيه في السنة ١٧٧٧ تغييراً عميقاً في الحس. فاستوحيت منها« دلفين » لمدام « دي ستال» و«ادولف» لـ « بنجامين كونستان » ، و « رنيه » لـ « شاتوبريان » ، و « جوسلين » لـ « لامارتين » .

وجاء التأثير الانكليزي ابعد عمقاً ايضاً . فعلى الرغم من استمرار شطر من الفرنسيين في كراهيتهم للانكليز بدافع من وطنيتهم ، استسلمت فرنسا لانكلترا وانجرفت في تيار استهواء كل ما هو انكليزي . وقد سلك هذه الطريق امراء العائلة المالكة انفسهم ، من امثال الكونت « دارتوا » والدوق « دي شارتر » . وغزت فرنسا حوالي السنة ١٧٧٠ حفلات الشاي ولعبة الـ « وست » وسباقات الخيل وفرسان السباق والسترة الطويلة المشقوقة الذيل . واستعيض عن الصالونات شيئاً فشيئاً بنواد تدنت فيها آداب المجاملة مفسحة المجال للهجة الاجتماعات العامة : كل يتكلم بصوت عال ، ويصغي قليلاً ، ويعبر عن مزاجه في صوته ونظرته . وتسربت الى اللغة كلمات انكليزية كثيرة . وانتشرت الحدائق الرومنطيقية على الطريقة الانكليزية في « ارمنونفيل » و « باغاتيل » (١٧٧٧) و « بارك مونسو » و « بتي – تريانون » (١٧٧٨) . وقام الفرنسيون بالدعاوة للكتب الانكليزية بتراجمهم . واستقبل الاجانب النتاج الانكليزي خير استقبال لانه يساعدهم على خلع نير فرنسا الفكري .

والواقع هو ان الانكليز كانوا السباقين الى الحقد بازدراء على الفرنسيين والتنكر للطرائق الفرنسية والذوق الفرنسي . وقد درجوا على القول: « ان تجارتنا ومصانعنا توجب علينا وقوف هذا الموقف » . اخذوا على الفرنسيين تهذيبهم الذي يفقدهم كل شخصية ويسيء الى اخلاصهم . انتقدوا اطعمتهم غير المغذية. اخذوا على اللغة الفرنسية انها لغة بطانة بينما رأوا في اللغة الانكليزية لغة اناس احرار تتميز بمزيد من القوة والرجولية . ازدروا بالشعر الفرنسي ، والمسرح الفرنسي اسير النظم الصنعية والاستبدادية. فهم قالوا بأدب رومنطيقي في الدرجة الاولى. رجعوا الى التقليد والاثارة القومية ، الى لغة اكثر تميزاً ، واكثر اصالة انكليزية ساكسونية ، وأقرب الى اللغة الشعبية ؛ الى الشعر الغنائي الفردي ، الى الايقاعات الشعرية الشبيهة بايقاع الاغاني القديمة والقصائد الاسطورية الشعبية . ادخلوا عناصر جديدة : العبادة الكلفة بالطبيعة ، والمشاهد الليلية، والمقضة ، والجبلية، هوى الحس والخيال ، القلق الكوني والديني وحتى القول بالوهية الكون . مهدت « ليالي » « يانغ » المتوفي في السنة ١٧٦٥ ، و « مراثي » « توماس غراي » ، المتوفي في السنة ١٧٧١ ، السبيل أمام هذا التيار الذي برز في مؤلفات « كوبر » ، اول منشدي بحيرات « كمبرلند »، وقصائد « بيرنز » (١٧٥٩ – ١٧٩٦) السكتلندية ، ومكر السكتلندي « ماكفرسون » ، الذي زعم انـه اكتشف اناشيد الشاعر القديم « أوسيان » ، والذي تميز بعواطف بسيطة وعنيفة وعرف شهرة فائقة . وعرفت انكلترا هندسة عمارة الحدائق التي تميزت بشلالات الماء والمسالك المتعرجة والاطلال الصنعية ، التي تتعارض كلها والحدائق الفرنسية ؛ كما عرفت المفروشات البلاذرية. وكان لها مدرستها في الرسم التي رأت النور في السنة ١٧٥٠ مع اكاديميتها الملكية التي تأسست في السنة ١٧٦٨ ، وهي تعكس روح تجارها العملية . نجح الرسامون اما في نقد المجتمع واللوحات الاخلاقية والنفعية ، كـ « هوغارت » (١٦٩٧ – ١٧٦٤)، واما في رسم صور اشخاص المجتمع الارستوقراطي كـ «رينولدز» (١٧٢٣ – ١٧٩٢)، و « غينسبورو » (١٧٢٧ – ١٨٨٨) ، و « رومني » (١٧٣٤ – ١٨٠٢) ، و « لورنس » (١٧١٩ – ١٨١٣) ، الذي استهل عمله الفني في السنة ١٧٩٠ بصورة الآنسة « فارّن » . وأما النقاشة الانكليزية باللون الاسود أو بالتنقيط ، وهي مختلفة عن التقنية الباريسية ، فقد اسهمت في امتداد أثر هذه الفنون الى النمسا والسويد وروسيا .

أما في المانيا ، فما زال هنالك شعور غامض تغذيه ذكريات مجيدة وغير واضحة تركتها الغزوات الجرمانية والامبراطورية المقدسة . وتمكن هذا الشعور بالغيرة من الفرنسيين وعدم الثقة بهم والحقد عليهم. استعانت ماري – تيريز وفردريك الثاني كل بدوره ، على الفرنسيين بـ«الوطن الالماني العزيز» . ايقظت « روسباخ » الروح القومية وألبت الانصار في كل مكان حول فردريك الثاني ، وغالباً ما دفعت المصلحة الآنية بالامراء الالمانيين الى التحالف مع الفرنسيين ، ولكنهم كانوا يضمرون في عملهم هذا حقداً خفياً ، ورغبة دفينة في ابعاد فرنسا عن الرين ، وامل اكتمال بهزيمة فرنسية وبتجزئة فرنسا . والحال ، تعززت مشاعر العداء لفرنسا ، في الثلث الاخير من

القرن ، ينمو ادب الماني ارسخ آراء مشتركة مناهضة لفرنسا وكوّن الامة الالمانية . اعلن « هردر » واصدقاؤه ان اللغة الفرنسية منافية للاخلاق ، ولغة صالونات ، مرنـــة ، مغرية ، تساعد على المداهنة باسم التهذيب واللياقات ؛ وانها لغة الخيانة والقطيعة بين المتحابين . أمـا اللغة الالمانية فلا تصلح إلا للتعبير عن الحقيقة . أدى كل ذلك الى تأخر اللغة الفرنسية . فعنـد وفاة فردريك الثاني (١٧٨٦) ، ساوت اكاديمية برلين في تقاريرها ومحاضر جلساتها بين اللغة الالمانية واللغة الفرنسية ، ونقـــح غوتيه « وصف رحلته الى ايطاليا » بابدال كافة المفردات الاجنبية المصدر بما يعادلها في اللغة الالمانية . وجمّل الكتّاب اللغة بالكلمات والتعابير الشعبية . وهاجم الالمانيان ، « لسنغ » في « فن وضع مسرحيـــات همبورغ » ، و « هردر » في بعض مؤلفاته ، الادب الفرنسي، المجرد والصنعي البساطة ، ولا سيا المسرح الذي تقيده قواعد تناقض الطبيعة ، والذي تعتمد فيه لغة صنمية ، ليست لغة البشر . وأبان لسنغ المضادة بـين راسين ، الذي لم يدرك صدقه ولم يعِ فيه الحياة ، وبين « شكسبير » و « سوفوكل » . وأعلن هردر نهاية عهد الادب الفرنسي وصرح بأن المستقبل للادب الالماني . وهاجم الالمان الفن الفرنسي . فـلم يميز ونكلمن و « منغز » ، لغاية في النفس ، بين الفن الفرنسي والفن التزييني المبتذل ، واعترضا على الاكثار من النقوش العادمـــة الاهمية في هندسة العمارة ، وانتقدا الحديقة الفرنسية بسبب انتظامها الذي نعتاه بالممل ، ومخالفة الطبيعة باخضاعهـا لفكرة ، ونقما على الرسم الفرنسي الذي اتهماه بأنه خلو من الفكر والعاطفة ، واطريا الرجوع الى فن العصور القديمة . ولكنهما جعلا الفن الفرنسي مسؤولاً عن افراط الفن التزييني الايطالي أو الالماني المبتذل رغبة منهمـا في افقاده هالة الاعتبار التي تحيط به ، مهما كان الثمن . وأطرى المان آخرون الفن القوطي الذي اعتقدوا بهويته الالمانية . فقد هتف غوتيه بسذاجة امام كاتدرائية ستراسبورغ : « هــذا فن الماني لا نرى له نظيراً في فرنسا» . وكان عليه قبل التصريح بذلك ان يقوم بنزهة في المنطقة الباريسية ، مهد هــذا الفن الذي دعي بالقوطي اصطلاحاً . وحارب الالمان الفكر الفرنسي . اعتبروا الفرنسيين اكثر سطحية والانكليز اكثر شهوانية وسعياً وراء الرخاء من أن يصبحوا فلاسفة . وقد ارتأوا ان الالمان وحدهم قادرون على استنباط الفكر بما يتوفر لهم من عقل واتزان وميـل الى البحث وبذل الجهد . وفي رأيهم ان واضعي دائرة المعارف قد طلعوا بالحماقات احياناً . فالمرء مشدود الى وطنه بكافـــة مصالحه ، يسعد بسعادته ويشقى بشقائه ، ولكنه اكثر شداً إليه بأجداده وتربيته ومنافعه وممتلكاته وكل كيانه : انه مدين له بكل شيء . على الالمان ان يرفضوا تقليد الفرنسيين ويكونوا الماناً فقط .

وتباهى الاسبانيون ، بلسان الأب « فيخو » ، بأن لغتهم رنانة وموسيقية ومرنة اكـثر من اللغة الفرنسية . ودافع اليسوعيون الاسبانيون المطرودون انفسهم دفاعاً حـــاراً عن الشرف القومي . وفي السنة ١٧٨٣ ، نشر الأب « فرنسسكو دي ماسدن » تاريخاً نقدياً لاسبانيا احصى فيه امجاد بلاده وجهد في تقديم الدليل على انها مدينة بها لفضائلها الخـــاصة لا للاجنبي . وتميز

سواد الاسبانيين باحتقار الأجانب وبالامانة الراسخة للملك والمعتقد القديم والوطن .

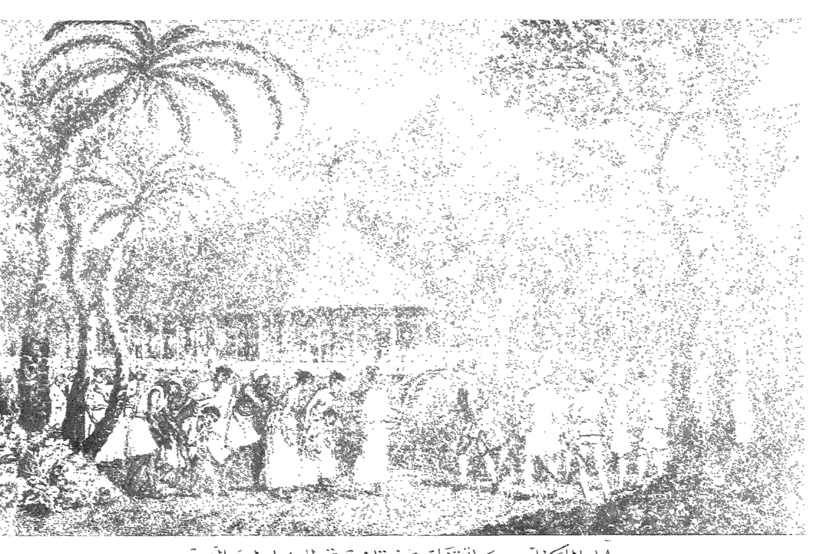
وكان للايطاليين لغتهم ومؤرخوهم وشعراؤهم القوميون وشعورهم بوحدة المنشأ ووحدة الطباع ووحدة الشرائع المدنية . وكانوا تواقين الى قيام اتحاد ايطالي . اخذوا يعترضون على تلقيب الايطالي غير الميلاني بالغريب في ميلانو : اذ ان الايطالي في وطنه حيثما وجد في ايطاليا. اخذوا على اللغة الفرنسية قلة مفرداتها وافتقارها الى الايقاع والموسيقى والروح الشعرية . حلم « فيكو » بايطاليا متجددة . وحاول « موراتوري » و « دنينا » انماء الوعي القومي بالتاريخ . وفي قصائد ومسرحيات تستوحي الوطنية الرومانية القديمة ، دعا « ألفييري » ايطاليا الى النهضة في ساحات الوغى . كتبت كاترين الثانية في السنة ١٧٨٠ : « ان ايطاليا تلتظر وترتجي » . لم تعد اليقظة حلماً .

أمـــا اشراف روسيا فقد تلهوا بتلاوة جمل بالفرنسية دون أن يتكلموا اللغة الفرنسية . واعتبروا الآراء الفرنسية مُلَـحـــاً ونكاتاً ، فلم تؤثر فيهم تأثيراً يذكر . وبقي الروس روساً يحتقرون الاجنبي .

فاذا ما حافظت اللغة والفكر الفرنسيان على تفوقهما في السنة ١٧٨٩ ، فان هـذا التفوق قد تجاوز القمة وانحدر في طريق الهبوط . ولكن هــذا الفكر وهذه اللغة هما ما اعطى اوروبا وحدتها الوحيدة . فكانت الغلبة للتنوع في النتيجة . وفقد الأمل تدريجياً بقيام وحدة اوروبية . وضعف بهذا الفقدان ، حتى قبل أن تحقق دول اوروبا اقصى توسعها في العالم ، الامـل بسيطرة اوروبية دائمة على العالم اجمع ، وربما الامل بنشر لواء الحضارة الاوروبية في كافة انحاء العالم .



۱۷- مَنظر حَدائِق "بَاغَاتيل"



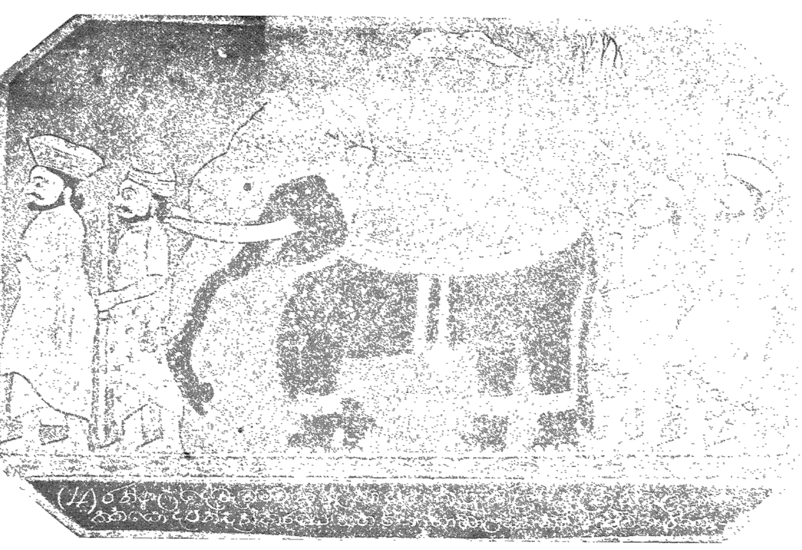
١٨- الملكة أوبيريا تتخلى عن تاهيتي للضابط واليس



١٩- بَرَابِرة يُعِدّون طعامهم



٢- منظر جزيرة "اولياتيا"



٢١- موكب المهراجا

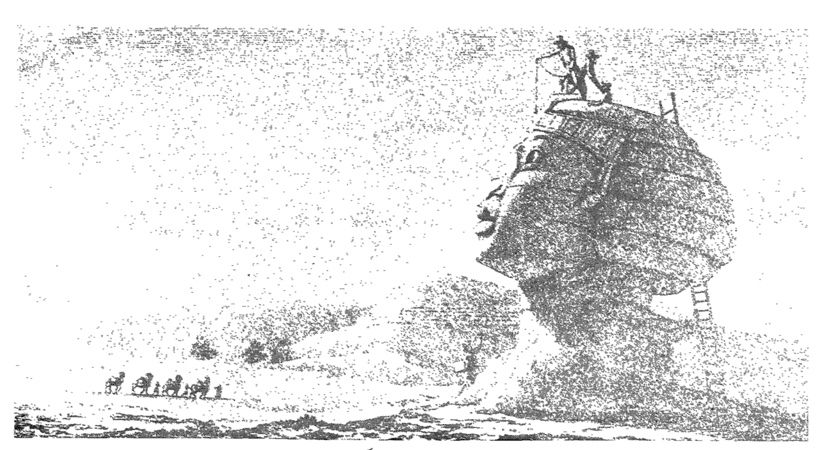


٢٢- الامبراطور "كيان لونغ" يتقبل الجزية

٢٣- مراكب صينية



٢٤- منتزه على شاطئ البحر في اليابان



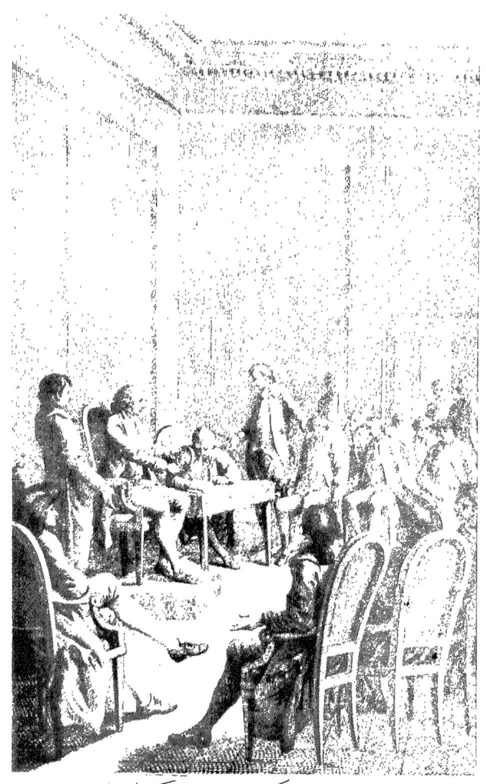
٢٥- وصول طليعة علماء الآثار الى مصر



٢٦- النخاسة في المرتينيك



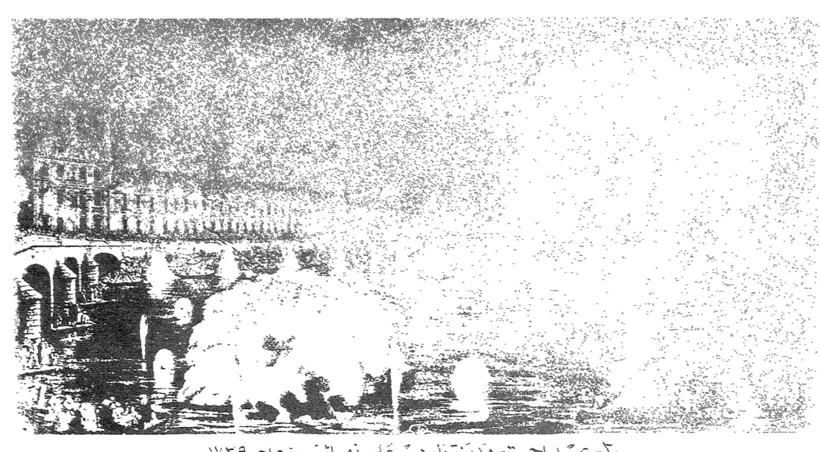
٢٧- نساء "ايدنتون" في كارولينا الشمالية يأتلين على الامتناع
عن احتساء الشاي حتى انقاذ بلادهن!



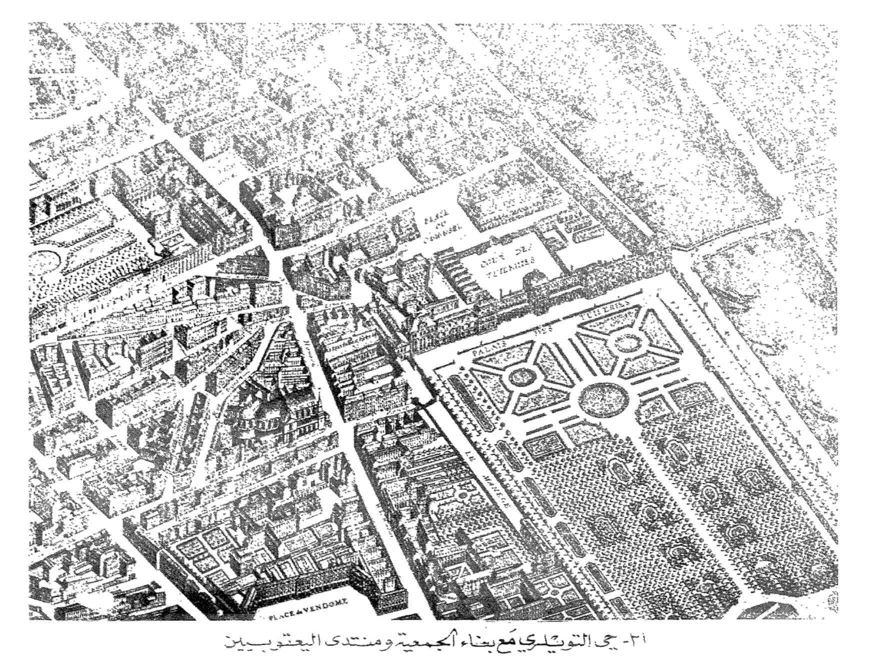
٢٨- جمعية الكونغرس الاميركي الاول



٢٩- نزهة عِندَ أسوار باريس



٢٠- عيد احتفته مدينة باريس على نهر السين عام ١٧٣٩



٢١- حي التويلري مع بناء الجمعية ومنتدى اليعقوبيين



٣٢- مشهد احد الشوارع : منشد الاناشيد

الكتاب الرابع

حضارة الانوار وحضارات ما وراء المحيطات

انتشار الحضارة الاوروبية

بعد ان تم للاوروبيين الاستبحار بأمور الفلسفة الطبيعية ، وتوفرت لهم خير الوسائل العملية [1] ، انصرفوا لاستكشاف عوالم جديدة وراحوا يوغلون عميقاً في المعروف منها لديهم : وقاموا بفتوحات واتصلوا بشعوب جديدة وزادوا كثيراً من معارفهم ، فانتشرت الحضارة الاوروبية في هذه البلدان والاقطار التي شغلها الاوروبيون ، وراح جانب محترم من ابناء هذه البلدان ما زال مع ذلك ضعيفاً جداً اذا ما قارناه بالسواد الاعظم من سكان تلك الاصقاع ، يقتبس ، ما وسعته الحيلة ، الافكار الاوروبية .

لا بد من ان نلحظ ، بدء ذي بدء ، هذا الفارق الكبير بين حضارة الشعوب والاقوام القاطنين ما وراء المحيطات ، وبين حضارة الاوروبيين . فقد وجد هؤلاء امامهم اجناساً بشرية من مستويات حضارية مختلفة : هؤلاء من العصر الحجري ، وأولئك ممن يعملون في رعي الماشية ، جميعهم من العقلية الغيبية او على النظام اللاهوتي ، اي انهم كانوا يعللون ، على تفاوت بينهم في مستوى النضج العقلي الذي بلغوه ، الظواهر الطبيعية التي وقعوا تحت تأثيرها ويردونها الى ارادات شبيهة بارادة الانسان ، انما من عيار اقوى وادهى ، ومن قدرات اقمل ، كالارواح والأبالسة والآلهة . وكان من المتوجب على هؤلاء الاقوام ان ينتقلوا سريعاً من المذهب الحيوي الذي يقول بوجود الارواح في الحيوان ، ومن الشرك الذي يهيمون في ضلالاته ليصلوا تدريجياً الى عقيدة التوحيد ، اي الى طور التجريد والميتافيزيقا . وهو طور يحاول فيه الانسان تفسير كل شيء برده الى هذه الكائنات الجبارة ، كالطبيعة مثلا ، لينتقلوا منه الى الدور الوضعي او العلمي ، وهو ما يميز فلسفات الاوروبيين او يطبع تفكيرهم ، في القرن الثامن عشر ، هذه الافكار التي تأرجحت بين هذه الادوار الثلاثة التي بلغ اليها الانسان اذ ذاك ، مع تغليب العنصر الميتافيزيقي او الوضعي .

---

(١) راجع الكتاب الاول والثاني

ومن جهة اخرى ، فالسواد الاكبر من الاوروبيين الذين خرجوا من اوروبا للعمل في البلدان الواقعة عبر المحيطات والعيش فيها طلباً للرزق ، انما هدفوا في الدرجة الاولى ، للعمـــل في مجالات التجارة . فالفكرة الرئيسية التي سيطرت على هذه الجماعات وعلى الحكومات والهيئات الرسمية انما كانت الحصول على المال والاثراء السريع . ويرى البعض ان العصر سجّل شيئاً من التأخر في هذا المضمار بالنسبة للعصور السابقة . فمنذ القرن السادس عشر ، قـــام الاسبان فعلاً بمحاولات ملحوظة ، وجهود مبرورة رموا منها الى رفع الهنود الحمر في مراتب السلم الاجتماعي . وفي القرن السابع عشر ، تجنّد الوزير ريشليو وتلميذه كولبير ، لعمليـة تمدين ابناء البلاد الاصليين ، واسعة النطاق ، ولانشاء فرنسا الجديدة في العالم الجديد . امـــا في القرن الثامن عشر ، فقد شالت الروح البورجوازية ، واستبدت في النفـــوس ، روح الكسب والاثراء على غيرها من المشاعر الإنسانية الرفيعة . فلنُصغ لما يقوله الكتاب الفلاسفـــة الذين عبروا احسن تعبير عن احاسيس الطبقة البورجوازية ومشاعرها،أمثال مونتسكيـــو وفولتير والكتّاب الموسوعيين خصوم سياسة الاستعمار واعداء الداعين اليه، هذا الاستعمـــار ، مولّد الحروب ، والباعث على الاغتراب والهجرة ، والمضني للمعمرين ، مع انهم كانوا ، من جهـــة اخرى ، من أشد الداعين الى المزدرعات الاستثمارية ولا سيما الاستوائية منها لانها تمد المستثمرين بالمواد والمحاصيل الزراعية التي هم بأمس الحاجـــة لهـا والتي في سبيلها اجازوا الرق واباحوا الاسترقاق ، كما اباحوا طرد العروق والاجناس الوطنية الواقفة حجر عثرة في طريق المستعمرين والحد من حرية العمل عندها ، والقول بمبدأ « الحكر » هذا المبدأ الذي يحصر حق التجارة في المستعمرات بالدولة الأم . ولهـــذه الاعتبارات،آثرت الدول والحكومات ان تترك حرية العمل والتصرف في هذا المجال للشركات التجارية ذات الامتياز التي تعرف كيف تستثمر ، على الوجه الاكمل ، المرافق التجارية ممثلة بهذه الوكالات التي نثروها على السواحل البحرية ، عـبر البحار او في هذه الجزر المعروفة بخصبها ووفرة انتاجها وتنوع محاصيلها ، بدلاً من استثمار التاج نفسه لها ، وبدلاً من تدويخ مساحات شاسعة عبر البحار في حروب لا نهاية لها ولا حد. فالاوروبيون الذين يقبلون على الاغتراب هم على الغالب بحارة وقدامى المحاربين وتجـــار يفتقرون ، اصلاً ، لثقافة مُعرقة ، عُرفوا بنشاط عـــارم وجاشت نفوسهم بالاحاسيس العنيفة ، وحب الكسب والرغبة الشديدة في الاثراء السريع بجميع الوســائل الممكنة . ولذا نظر اليهم سكان البلاد الأصليون نظرة ملؤها الرعب والكره وربت فيهم سوء الظن وحملتهم على التحرز من كل اوروبي . اما اقوام آسيا ، ولا سيما من قام منهم في أرجاء آسيا الموسمية والذين عُرف عنهم تمسكهم الشديد بتربة آبائهم وارض آلهتهم واجدادهم ، فقد عاشوا ضمن اُطر ثابتة قوامهـــا هذه الاسر الكبيرة التي تشربت روح النظام وتشبعت من روح الاعتدال واستقرت عندها نُظم داخلية ثابتة ، اصيلة ، فقد نظروا الى الاوروبيين نظرتهم الى برابرة اخشوشنت طباعهم على استعداد للتخلي عن اسمى المثل والعبث باقدس المحرمات في سبيل إشباع جشعهم وتحقيق

اطماعهم الاشعبية . وقد رأى فيهم الصينيون ... « ان هؤلاء البرابرة هم بالاحرى وحوش ضارية ، لا تحسن معاملتهم معاملة اناس متمدينين . فمعاملتهم وفقاً لناموس العقل ولمقتضيات الحجى مجلبة للخزي والعار . وقد ادرك الملوك قديماً هذه الحقيقة ولم يستعملوا في وجه هؤلاء البرابرة سوى العنف والحيلة . فليس من اسلوب آخر يعتمد عليه في التعامل معهم » .

والاوروبيون الوحيدون الذين تقدموا من ابناء البلاد الاصليين بفكرة تزويدهم بخير ما لديهم واعطائهم فكرة عن العالم والكون اساسها المحبة التي تستطيع وحدها ان تؤمن للناس ، في هذا العالم ، السعادة ، وفي تلك الحياة الابدية ... كانوا المرسلين الكاثوليك . فقد تولى البابا ادارة هذه الارساليات بواسطة مجتمع انتشار الايمان الذي كان بمثابة وزارة الارساليات الكاثوليكية . فكان هذا المجمع ، يرسل الى البلدان التي يكرز فيها بالانجيل ، قصاداً رسوليين وابناء الرهبانيات الدينية ، ولا سيما من بين اليسوعيين والدومنيكيين والفرنسيسكان والكرمليين والاغوسطونيين ،وجمعية المرسلين في الخارج ، والآباء العازريين . الا ان عددهم كان قليلاً جداً . فلم يتجاوز عدد المرسلين اليسوعيين العاملين في الارساليات الدينية ٣٥٠٠ راهب في العالم كله ، واقل من هذا العدد ، عدد المرسلين الآخرين . وجمعية المرسلين في الخارج لم يتم لها اكثر من ٥٠ مرسلاً عملوا معاً في بلدان الشرق الاقصى . وقد خسرت هذه الارساليات من فعاليتها وقوة تأثيرها بالنظر لما قام بين المرسلين من اختلاف حاد حول منهجية العمل وطريقة الاسلوب ومن جدل ونقاش ضار حول طريقة الآباء اليسوعيين في حمل الرسالة الدينية (معركة الطقوس) ، وهذه المنافسات الحادة التي شجرت بعنف بين هؤلاء الرهبان والمرسلين على اختلاف رهبانياتهم وجنسياتهم ، ولا سيما من جراء تكالب الملوك على مناهضة اليسوعيين ومحاربتهم بكل الوسائل لديهم ، منذ عام ١٧٥٨ ، مما ادى الى الغاء هذه الرهبانية عام ١٧٧٣ ، فادى بالتالي الى القضاء تقريباً على كل النشاط الرسولي في العالم . وفي سنة ١٧٨٩ ، كان عدد المرسلين العاملين في حقل الرسالات قد هبط الى ٣٠٠ مرسل لا غير وقد خلخل عملهم الديني ، تدخل التجار والحكومات التي تدعي المسيحية ، ومن جهة اخرى ، سوء ظن اسياد البلاد بهؤلاء المرسلين ، اذ نظروا اليهم نظرتهم الى جواسيس يعملون عيوناً على البلاد واهلها ، بل اعتبروهم طابوراً خامساً يعد العدة ويهيء الاسباب للغزو والفتح مسلح . لهذه الاسباب ولغيرها مما لا مجال لذكره هنا ، كان عمل المرسلين في البلاد التي عملوا فيها ، اشبه ما يكون مساً سطحياً اكثر منه توغلاً او تغلغلا . والاغرب من هذا كله وادهش ما في الامر هو ان تكون هذه الرسالات سجلت اكثر من ارتدادات فردية ، فقد توصلت الى تأسيس مجتمعات مسيحية لها حياتها ونشاطها الزاخر وعوامل بقائها وديمومتها.

الفصل الأول

الاكتشافات الأوروبية في القرن الثامن عشر

في مطلع القرن الثامن عشر كانت مساحات شاسعة في جميع اطراف العالم لا تزال بعد مجهولة مغفلة، منها مثلاً المحيط الهادي والاصقاع القطبية ومجاهل افريقيا والقسم الشمالي والشرقي الشمالي من القارة الآسيوية، والشمال الغربي من القارة الاميركية واجزاء واسعة في اميركا الجنوبية . هنالك شعوب وأقوام وطنيون تمرلوا إلى مساحات واسعة وتوصلوا احياناً الى وضع خرائط ومصورات جغرافية . إلا أن معلوماتهم هذه لم تكن من الذيوع والشمول بحيث تصبح في متناول كل شخص في كل زمان وفي كل مكان، لافتقارها أساساً لعلامات هادية ومعالم واضحة الحدود ولحاجتها إلى وسائل حسابية دائمة، ولافتقارها لعلم الفلك والرياضيات الفلكية . فقد كانت بالأحرى، مسائل روتينية تحفظ بالمزاولة والمراس في هذه الاسفار والرحلات تحت اشراف مرشد مجرّب ودليل محنّك . فالأوروبيون وحدهم كان في مقدورهم، بفضل ما توفر لهم من علماء الفلك وبفضل ما تم لهم من عدة وأدوات، أن يحددوا، بالدقة المطلوبة، الاكتشافات الجغرافية التي حققوها وأن يشيروا إليها بواسطة الاحداثيات الجغرافية وغيرها من وسائل التعيين والتحديد .

كانت الاكتشافات البحرية، حتى عام ١٧٦٣ قليلة العدد، إذ كان الاوروبيون في الغرب منهمكين عنها بالاعمال التجارية . وهذه الحركة الاستكشافية التي لم تتميز على العموم بالنشاط، تناولت الكشف عن مناطق تقع في اليابسة أو في البحر، فالرحلات الرئيسية هي التي قام بها الروس فحملتهم الى اقصى أطراف سيبيريا . فقد بلغ القوزاق، في القرن السابع عشر، مشارف المحيط الهادي ولكن كان عليهم أن يأتوا بالدليل القاطع على ان آسيا لم تكن لتتصل فعلاً بأميركا . وقد اخذ القيصر بطرس الاكبر عام ١٧٢٠، بهذه المغامرات الجغرافية وهذه الحركة الاستكشافية، رغبة منه في السيطرة على هذه الاصقاع النائية، ومجاراة للغرب في ميدان الكشف العلمي . فقد حالف الحظ البحّار الدانماركي بهرينغ، في الكشف عن المضيق الذي يحمل اسمه، منذ عام ١٧٢٠، ثم راح يستكشف تباعاً سواحل اميركا الغربية انطلاقاً من قمة جبل سانت ايلي فمار على الجزر الالوشيانية المتنائرة حباتها كحبات سبحة طويلة، وتوفي في إحدى

جزر بحر بهرينغ الواقعة بين الجزر الالوشيانية وشبه جزيرة كمتشتكا ، سنة ١٧٤١. وتمكن أحد نوابه ومساعديه النشيطين من الكشف عن بحر اوكوتسك ، عام ١٧٣٣ ، كما استكشف أرخبيل الكوريل ، وبلغ مشارف اليابان . أما على اليابسة ، فقد بلغت بعض فرق الجيش حوض مجرى نهر «الإيانا» عام ١٧٣٣ ، كما استكشفوا بواسطة زلاجات تجرها الكلاب، شطآن المتجمد الشمالي، كما قام « لابتيف » بين (١٧٣٦ – ١٧٤٠) وبرونتشيتشف ، عام (١٧٣٥ – ١٧٣٦) بمغامرات بهذا الصدد . واخيراً بلغ تشيليوسكين عام ١٧٤٢ ، الطرف الشمالي لآسيا إذ ادرك الرأس الذي يحمل لليوم اسمه . وقد اثبتت هذه الكشوف الجغرافية المهمة ان القارتين منفصلتان تماماً الواحدة عن الاخرى وأن كل واحدة منهمـا تخفي ضمن حدودها مناطق شاسعة يتحتم الكشف عنها . وقد بقيت تقارير بهرينغ مدفونة بين المحفوظات الامبراطورية ليس من يفيد منها ولا من ينتفع بما فيها من المعلومات المفصلة حتى اواخر القرن الثامن عشر بعد ان كشف العالم الجغرافي « كوكس » والعالم الطبيعي بلاس عن اهميتها العلمية .

في اميركا الشمالية، استمر أفراد اسرة «لافيراندري» الفرنسية تحت رعاية بوهارنيه حاكم كندا العام وحمايته ، في بحثهم عن الفراء ، ورغبة منهم في الوصول الى « بحر الغرب» ، رأوا أن يكرسوا كل نشاطهم باحثين منقبين محددين المسالك باتجاه الشمال الغربي ، فاستكشفوا في خلال ٢٠ سنة السباسب والسهول الكندية كما ان بيير وفرنسوا لافيراندري بلغا ، في غرة كانون الثاني ١٧٤٣ ، السلسلة المعروفة بالجبال الصخرية .

ووضع الكاهنان الفرنسيان فوييه وفريزييه كشوفاً وخرائط لاميركا الجنوبية مفيدة للغاية . وقام بالعمل ذاته المستكشف الاسباني كيروغا في ما يتعلق بالاصقاع النائيـة الى اقصى الجنوب المعروفة باراضي ماجيلان .

اما المحيط الهادي ، فقد شاهد حملات استكشافية عديدة ، منهـا الرحلات البحرية التي قام بهـا بين ١٧١٤ – ١٧١٨ ، البحار الفرنسي لابارينه لوجنتيل والبحار الالماني الاصل « روغجيفن » من مدينـة مكلنبورغ اذ قام في هذا المحيط ، برحلات لحساب البلاد الواطئة ، عـام ١٧٢٢ ، استكشف معها جزيرة الفصح ، وجزر يوموتو وسامُوا ، والرحالة الانكليزي أنسُون (١٧٣٩ – ١٧٤٣) الذي احتجز ، في المياه الاسبانية سفينة عليها مجموعة من الخرائط والمصورات الجغرافية ، فكانت لقطة موفقة للغاية إذ اعتاد الاسبان والبرتغاليون من قبل ، أن يبقوا سراً ويخفوا عن اعين الناس ، سر الاكتشافات البحرية التي وفقوا إليهـا محافظة منهم على طرق مواصلاتهم التجارية . وقـد سهل نشر هذه الوثائق الهامة وإذاعتها على الملأ ، مهمة الاستكشافات الجغرافية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر .

لم تلبث حركة الاستكشافات الجغرافية التي توقف نشاطها اثناء الحروب التي وقعـت في منتصف القرن – ان استأنفت اعمالها العلمية بعد عام ١٧٦٣ . فقد جاب هيرن وماكنزي ،

بطائح شمال كندا .. فبلغ الأخير منها ، عام ١٧٨٩ ، دلتا النهر الذي يحمل اسمه في هذه المنطقة . اما الاكتشافات الداوية فهي تلك التي قام بتنظيمها واعداد اسبابها الحكومتان الفرنسية والانكليزية ، في سبيل الوصول الى القارة الاوسترالية (او الجنوبية) التي ما فتىء العلماء ، منذ بطليموس ، يفترضون وجودها مقابل هذه الكشوف القائمة في الشمال . وقد زاد الفضول العلمي بين الناس وحب الاطلاع ، كما ينوه بذلك الكاتب والمؤرخ الفرنسي شارل دي بروس ، في كتابه الموسوم : « تاريخ الاسفار البحرية الى الاراضي الاوسترالية » (١٧٥٦) ، اذ يقول : « يجب الا نعلق اهمية كبرى على الفوائد التي تنجم عن هذه المغامرات ، فهي ستظهر ، ولا شك ، فيا بعد . علينا ان نفكر الآن بالناحية الجغرافية ، وبهذا الفضول العلمي الناجم عن الكشف وما سيضيفه الى العالم المعروف من اراض جديدة ، كانت بالامس مجهولة لدينا ، كما ستمكننا من التعرف على اقوام جديدة » . وقد عمل جون كالندر (J. Callender) من جهته على نشر مثل هذه الأفكار ، في انكلترا ، معبراً عن امانيه واماني الجميع بان يؤول هذا النشاط كله فيساعد على نشر المسيحية بين سكان البلاد الأصليين . وقد وضع الملوك ، في هذه القرارات التي اتخذوها ، نصب أعينهم ، شغف الناس بالعلم واقبالهم على حياضه . لقد اوصى الملك لويس السادس عشر ، امراء البحر الفرنسيين ، إذا ما التقى لهم والتقوا بالبحار الانكليزي كوك الذي يحاول مد العالم المعروف ، خلال حرب اميركا ، ان يعاملوه معاملة الند للند ، كصديق ووصيف لهم . ولما كان القيام بالعلم من الامور التي استحكمت بالعقول واستبدت بالقلوب ، وعقدت الامال العريضة على اكتشاف اصقاع جديدة ، حرص الحكام على ان يحافظوا كرامتهم ويصون عندهم ماء الوجه . واخيراً ، كم يجب ان تكون والقارة الغنى هذه القارة الجنوبية في نظر الفرنسيين فيعوضوا بعثورهم عليها ، عن الحيف الذي نزل بهم من جراء خسارتهم الهند ، كما حرّ الانكليز ان يحافظوا ، من جهتهم ، على السبق الذي حققوه في الميدان التجاري .

وقد اشتدوا يُعدّون الحملات الاستكشافية بمنتهى الدقة ويهيئوا لها الاسباب الكفيلة بالنجاح . فبدلاً من التعويل على الاقاويل والروايات المتواترة ، راح قادة الحملات وربابنتها يتزودون بمعلومات دقيقة وضعها لهم نفر من العلماء المدققين بعد ان لفتوا انظارهم الى العراقيل والصعوبات التي تعترض سبلهم ، وطريقة مواجهة حلها بالتي هي أحسن ، والأهداف التي يجب ان يضعوها نصب أعينهم من هذه المغامرات العلمية . وقد اصطحبوا معهم فريقاً مجرباً ، حنكته التجارب من هؤلاء العلماء ، بينهم علماء الفلك والاطباء وعلماء التاريخ الطبيعي وأمدّوهم بادهى ما استنبطه العلم من عدة وأدوات ووالتي هي غاية في الدقة والضبط . وعند رجوعهم الى اوطانهم كانوا يحرصون على اذاعة ما تم لهم من معلومات جديدة ليفيد منها من يرغب فيها .

اعتمد قباطنة البحار بالأحرى ، سفناً صغيرة الحجم سعتها بين ٣٠٠ - ٤٠٠ برميل وذلك تفادياً منهم لأخطار النشوب في الرمل أو الجنوح الى الشواطىء او الغرق . وحرصوا على ان

تكون سفنهم هذه متينة قوية ، أردفوها بعدد من قوارب النجدة ، كما حرصوا من جهة اخرى ، على تأمين أسباب الصحة واختزان مبيدات الحفر ، وموّنوها بالجعة والشوكروت ، وهكذا حاولوا خفض نسبة الوفيات . ففي حملته الثانية التي استمرت ثلاث سنوات ، لم يخسر كوك سوى بحّار واحد ، وبسبب المرض .

واتخذت احتياطات شديدة اثناء الرحلة . فقد كانت البعثة تتألف جهد المستطاع ، من سفينتين تسيران على بعد مدى الصوت ، الواحدة من الاخرى . وكانت تكثر فيها اعمال الرصد الجوي ، كما تكثر عمليات تحديد المواقع وسبر الاغوار على اعماق مختلفة . فعندما تلوح في الافق معالم ارض ما ، مهما دقت او رقت ، كانت السفن تسير الهويناء متمهلة في سيرها الوئيد فتقوم بعض القوارب بعملية استكشاف سواحل الجزيرة البادية للعيان . وكان التحفظ والحيطة القاعدة المتبعة مع أبناء البلاد ، اذ العرف المتبع هو ان تسير السفينة الهوينـاء الى ان يحين الظرف المناسب لمبادرة السكان الوطنيين واستمالتهم عن طريق هدايا صغيرة والتنكب عن كل عنف او شدة في علاقاتهم معهم .

وبفضل هذه التدابير الحكيمة واجراءات اللين لم تقع سوى كارثة واحدة هي التي راح ضحيتها الرحـالة الفرنسي لابيروز الذي قتل عام ١٧٨٥ على يد بدائيي جزيرة فانيكورو .

وفي عام ١٧٦٦ ، ابحرت بعثتان على فـارق بسيط الواحدة من الاخرى ، تألفت الاولى وهي انكليزية ، من البحار والّيس وكارتريت ، كما تألفت الثانية من البحـار الفرسي بوغانفيل . فلم يعتم البحاران الانكليزيان ان افترقا فانفصلا إثر إعصار أهوج عبث بهما إثر اجتيازهمـا مضيق ماجلان بقليل . فقد اتجه واليس صوب جزيرة بوموتو ، واكتشف عـام ١٧٦٧ ، جزيرة تاهيتي التي فتنته بسحرها وغادرها والدموع ملء عينيه ، ومنها بلـغ جزيرة سامـوا وارخبيل الاصدقاء ، كما اكتشف جزر الماريان . اما كارتريت ، فقد امر بمحاذاة جزيرة بتكيرن الصغيرة ومنها افضى الى جزيرة سانت كروى ، وعرّج على جزر سلمون واستكشف جزيرة إرلندا الجديدة . واتضح من هذه الرحلات ان جزيرة بريطانيا الجديدة انمـا تتألف مـن جزيرتين : اما نتائج هاتين الرحلتين فلم يحدْ من التوفيق الذي صادفها سـوى عـدم كفاءة الإعداد الذي رافقها . وقد اضيفت بواسطتها اسماء جديدة على خريطة المحيط الهادي . اما بوغانفيل ، فقد انطلق وبصحبته احد علماء الفلك ، وآخر من علماء الطبيعة وتحت تصرفه عدد من الساعات الدقيقة التي تقيس الثواني . ففي عام ١٧٦٨ ، حدد موقع جزيرة بوموتو ، واستكشف ، هو الآخر ، جزيرة تاهيتي التي فتنته بسحرها وسماها سيتير الجديدة . واستكشف جزر ساموا وجزر السيكلاد الكبرى التي اطلق عليها كوك ، فيما بعد اسم هبريد الجديدة ، وجزيرة لويزياد وغينيه الجديدة ، وعاد عن طريق جاوا وجزيرة فرنسا . فكانت رحلته هذه اول رحلة جاءت غاية في الدقة العلمية جرى فيها تحديد خطوط الطول . وفي سنة ١٧٧١ ،

نشر بوغانفيل رحلته بعنوان : « رحلة حول العالم » لقيت عند ظهورها رواجاً جنونياً اوحت اموراً لديدرو وهردر .

ولكن هؤلاء البحارة الذين سيطرت عليهم فكرة المستعمرات الحارة التي تؤلف مجالاً تجاريا هاماً ، اتجهوا ، بعد ان داروا حول اميركا الجنوبية نحو الشمال الغربي ، الى ما وراء خط الجدي ، ثم داروا فجاة باتجاه الغرب ، محتفظين بجل نشاطهم للشمال . وقد جاءت رحلاتهم هذه بفوائد جمة الا انها تركت دون حل ، مشكلة كبيرة استأثرت بافكار الناس ووساوسهم . هل يوجد ياترى قارة اوسترالية جنوبية ؟ وهـذه الارض التي اكتشفها تسمان ، في القرن السابع عشر (زيلاندا الجديدة) ألم تكن هي نفسها هولندا الجديدة ؟ (ساحل اوستراليا الغربي) وهـذه الاخيرة هل هي سلباً ام ايجابا ، غينية الجديدة . كل هذه الأسئلة كان على الرحالة الانكليزي كوك ان يجيب عليها بما لا يدع مجالاً للشك .

قررت الاميرالية البريطانية ان توفد الى جزيرة تاهيتي ، بعض علماء الفلك ليقوموا عليها ، عام ١٧٦٩ ، بارصاد جوية ترمي الى درس وقوع اقتران الزهرة والشمس ، بغية تحديد المسافة بين الزهرة والارض . واختارت الاميرالية قائداً للحملة جيمس كوك ، وهو اختيـار في محله صادف ترحيبا حاراً . فقـد كان كوك بحـاراً بدمه . ولد عـام ١٧٢٩ من آب كان يعمل خادماً على الحراث ومن أم هي ابنة احد المزارعين . عمل في صباه صانعاً متمرناً في مدينة صغيرة تقع على الساحل . مال للحياة البحرية منذ صغره فتطوع بحاراً متمرنا على احدى السفن العاملة في شحن الفحم ، وفي سنة ١٧٥٥ ، عـمل نوتيا في البحرية الملكية ولمع اسمه في حملة استكشاف لمصب نهر سان لوران ، أتاحت للاسطول البريطاني التصعيد في النهـر المذكور واحتلال مدينة كويبك . ولذا عهدت اليه في السنوات الأربع التالية مهمة استكشاف سواحل كاديا (ايكوسيا الجديدة) وجزيرة الارض الجديدة ، وشبه جزيرة لابرادور . ووضع لهـذه الأماكن والمواقع خريطة امتازت بالدقة بقيت عماد الخرائط التي وضعت فيما بعد لهذه المناطق . وهكذا فقد كانت تمت له الدربة الكافية لرسم الخرائط الجغرافية والمائية ، كما تمرس بالارصاد الفلكية وابعادها . وقد عرف بانطوائه على نفسه وبقلة مخالطته للبحارة ، كما انه امتاز بمناقب عديدة جعلت منه بحاراً ممتازاً وأولته قدرة ظاهرة على التنظيم ، كما عُرف بروحـه الانسانية السمحاء وبحدبه على البحارة والاهتمام بذويهم وتأمين أسباب الصحة والرفاهية لهم . ولذا فقـد كان في مكنته ان يعوّل عليهم وان يطلب منهم الكثير .

عهدت إليه عـام ١٧٦٨ ، مهمة البحث عن القارة الاوسترالية حتى الدرجة ٤٠ من خط العرض الشمالي ، وان يقوم ببحث دقيق بهذا الصدد ، فان لم ينجح ، عليه الاستيثاق من المنطقة الواقعة الى الشرق من زيلاندا الجديدة ، فراح يستعد لرحلتـه هذه ويهيء لها اسباب النجاح ، وفي هذا السبيل اخذ يجمع المعلومات التي توفرها له الرحلات البحرية السالفة . فقد كان يعرف تماماً خريطة المحيط الهادي العامة التي تم رسمها عام ١٧٥٦ والتي اشار فيها روبرت دي فوغوندي

الى موقع مضيق تورّيس الذي أُهمل امره منذ عام ١٦٠٧ وهو موقع جغرافي اشارت إليـه وثوهت به الخرائط السرية الاسبانية . ولم يكن ليجهل بالطبع في هـذا المضيق التخطيـط المفترض وجوده في الخريطة المنسوب وضعها الى «دالرمبل» والذي عرف بوجوده عند استيلائه عام ١٧٦٢ على مدينـة مانيلا هذه الخريطة التي لم يشأ ان ينشرها كاملة . فقد رفض سفينة حربية واختار له مركباً من ناقلات الفحم هـو الاندفر ، وهو مركب بطيء الحركة ، إنما قوي متين يتسع لوسق وافر ويتحمل رحلة طويلة شاقة . واصطحب معه العالم الفلكي غرين والعالم النباتي ، الاسوجي الاصل سولاندر ، والعـالم الطبيعي بنكس . انطلـق عام ١٧٦٨ وقام بمهمته العلمية الفلكية في تاهيتي (نيسان حزيران ١٧٦٩) ثم اتجه غرباً صوب خط العرض ٤٠ دون ان يعثر على القارة الاوسترالية لاسباب لهـا ما يبررها . ودخل في السابـع من تشرين الاول ١٧٦٩ الى ساحل زيلاندا الجديدة الشمالي ، ثم قام بحركة التفاف كاملة ولاحظ ان هذه الارض تتألف من جزيرتين يفصل بينهما مضيق يعرف بهـذا الاسم ، ووضع خريطة مفصلة لهذه السواحل . ثم اتجه فيما بعد الى جزيرة هولندا الجديدة ، ووصل الى الساحل الشرقي وقام بعملية استكشاف دقيقة امتدت من رأس إيفرارد إلى رأس يورك ، اتسعت ١٦٠ ميلا ، دعاها مقاطعة غال الجديدة الجنوبية ، ونزل الى البـر في ٢٨ نيسان ١٧٧٠ على صعيد مرتفع ملتف الاشجار كثير العشب ، شجع بنكس على تسميته : خليج بوتني . وهكذا تمت له احسن صورة للمكان الذي ارتفعت فيه ، فيما بعد مدينة سدني ، ثم جـاء باتافيا عن طريق مضيق تورّيس ، فاستكشفه من جديد بصورة ادق . وفي عام ١٧٧١ عاد الى اوروبا حيث كان لرحلته وقع كبير .

وقد سلّم بأن القارة الاوسترالية قد تقع الى الشمال او الى الجنوب من الطريق التي سلكها . وعاد اللورد سندويتش ، لورد الاميرالية ، فأرسل كوك في رحـلة ثانية . فانطلق يوم ١٣ تموز ١٧٧٢ ، فبلغ جون الملكة شارلوت في زيلاندا الجديدة . ومن هذه النقطة كان بامكانه ان يقوم بحركات استكشافية الى الشمال او الى الجنوب ، ليعود اليها عندما يشاء ، ليتيح لبحارتـه بعض الراحة والاستجمام من وعثاء الاسفـار والرحلات التي يقومون بها متعرضين تارة لزمهرير البرد القارص في المياه القطبية ، وطوراً لحمارة القيظ اللاهب في المناطق الاستوائية . فتحرى كل زاوية من المحيط وقطع في ٢٨ شهراً ٨٠ الف كيلومـتر في المحيط الهادي ، واعترضت سيره جبال الجليد الطافية عند الدرجة ٧٠ والدقيقة ١٠ من خط العرض الجنوبي ، في كانون الثـاني ١٧٧٤ ، وبلـغ في الشمال ، جزيرة تاهيتي وجزر الماركيز وجزر الهبريد الجديدة ، واستكشف كاليدونيا الجديدة وجزيرة نورفولك ، واثبت ، بقوة احتمال غريبة وبالدليل القاطع انه ليس من قارة جنوبية .

عهد اليه بمهمة ثالثـة للبحث عن ممر مائي يصل المحيط الاطلسي بالمحيط الهادي عبر الدائرة القطبية وهو الممر المعروف بالممر الشمالي الغربي . فشمر عن ساعده ليقوم برحلة ثالثة عام ١٧٧٦ ، فاكتشف عام ١٧٧٨ ، ارخبيل سندويتش (هاواي) واستكشف بحر بهرينغ والمضيق المعروف

بهذا الاسم ، وصرف النظر عن الممر الشمالي الغربي الذي لم يصبح تحقيقه ممكناً ، انما بصعوبة كلية ، بعد ظاهرة ارتفاع درجة الحرارة فيه في السنوات الاخيرة . وهذا البحار الذي كان دوماً مثالا يحتذى من اللطف والايناس ولين الجانب مع ابناء البلاد الاصليين وجد حتفه وميتته المفجعة في اصطدام دام مع سكان جزيرة سندويتش عام ١٧٧٩ .

فقد خلف كوك خرائط تثير الاعجاب لما اتصفت به من دقة لا تختلف عنهـا الخرائط الفرنسية ولم تكن بحاجة قط الا لبعض إضافات طفيفة .

فقد كان من نصيب الرحالة الفرنسي لابيروز ان يقوم بهذه المهمة . سافر بأمر الملك لويس السادس عشر ، فغادر مرفأ بريست عـام ١٧٨٥ وبصحبته كوكبة من العلماء البارزين . فأثبت عام ١٧٨٦ انه ليس من ارض مهمة تقع الى الشرق من ارخبيل بوموتو وجزر الماركيز وصحح موقع ارخبيل سندويتش لجهة خطوط الطول. ثم وضع رسماً دقيقاً لسواحل اميركا بين الدرجة ٦٠ والدرجة ٣٧ من خط العرض الشمالي ابتداء من جبل سانت ايلي حتى مونتيريز في الجنوب ، راسماً الخرائط ودارساً النباتات البحرية والقارية . وفي تشرين الثاني اخـذ له بعض الراحة في ماكاو ، ثم اتجه عام ١٧٨٧ ليستكشف سواحل المحيط الهادي الشمالية الغربية ، التي فات كوك استكشافها ، ووضع خريطة لسواحل منشوريا وأثبت ان سخالين هي جزيرة (آب ١٧٨٨) ومن هناك اخذ باجتياز المحيط من الشمال الى الجنوب بين ابعد نقطتين بلغها واليس الى الغرب ، و كوك الى الشرق ، ووصل الى اوستراليـا ، وصادف في كانون الثاني ١٧٨٩ ، في خليج بوتني عمارة انكليزية . ومنذ ذلك الحين انقطعت اخباره . فقد عُثر على بعض حطام سفنه ، عـام ١٨٣٧ ، على مقربة من جزيرة فانيكورو .

وهكذا وُضعت الخطوط الكبرى لخريطة المحيط الهادي، كما قضي تماماً على اسطورة القارة الجنوبية الكبرى ، وظهر ان القسم الجنوبي من كرتنـا الارضية يتكون من مياه المحيطات واتضح ان مياه البحر تغطي ثلثي مساحة كرتنا الارضية ، كما ان الأرض الـتي اكتشفت في الاوقيانوس الهـادي وسعت بصورة مدهشة معلوماتنـا عن الجنس البشري في مختلف مستوياته الحضارية .

الفصل الثاني

اوقيانيا

آمن الاوروبيون بوحدة الجنس البشري الروحية وبسمو الحالة الطبيعية التي وُجد فيها ، فازدادوا اهتماماً باقوام اوقيانيا البدائيين. وراح بوغانفيل وكوك يدرسانهم عن كثب ويراقبان سلوكهم وتصرفاتهم بكل عناية . فالأخوان فوستر اللذان ساهما في الرحلة الثالثة التي قام بها كوك ، وضعا مع العالم الفرنسي بوفون اصول علم الانواع البشرية وتصنيفها، اي علم الاثنولوجيا أو علم السلالات البشرية .

ظن الاوروبيون لأول وهلة انهم أمام عروق بدائية تعود طبائعها الى بدء البشرية بعد أن وجدوا ان كل هؤلاء الاقوام لا يزالون بعد عند طبائع العصر الحجري ، وان ما لديهم من عدة وادوات هو اقرب الى ما عرفه الانسان منها في عصور ما قبل التاريخ . ولم يكن الامر يتعلق فعلاً بالبدائيين أكثر منه باقوام خضعت طويلاً لعوامل التطور والارتقاء عرف بعضها نوعاً من الحضارات العليا ، فكانوا في مرحلة التقهقر والارتكاس عند وصول الاوروبيين اليهم .

والظاهر ان كل هذه الاقوام تعود اصولها الاولى الى العروق البشرية في آسيا الجنوبية ، غُلبَت على أمرها فجلَت عن اوطانها مترسمة سير قواطع الطير في هجراتها الموسمية حتى اذا ما حطت رحالها في بعض الاصقاع المحدودة الانتاج والضيقة المحاصيل لانعزالها باكراً عن الاقطار المأهولة في القارات الاخرى، افتقرت في حياتها المعاشية ونظام غذائها للخضروات والثدييات[1]، كما ان ضيق الرقعة التي هبطوا فيها جعلتهم وجهاً لوجه أمام صعوبات كأداء نجم معظمها عن تضخم عدد السكان وندرة المواد الغذائية. فاشتبكت هذه الاقوام فيما بينها في حروب موصولة محاولة ايجاد حل لمشكلاتها الحادة : في الإجهاض ووأد الاولاد أو قتلهم ، وفي أكل بعضهم البعض بعد أن عضهم الجوع . والى مثل هذا الوضع كانوا انتهوا عندما أطل عليهم الاوروبيون من بعيد. وقد ارتعدت فرائص المستعمرين من احتمال ازدياد عدد السكان وتضخمه ، فراحوا بملء اختيارهم يعملون على الحد من المواليد عندهم . فليس بغريب الا تتطور حضارتهم عكسياً وأن

(١) ـ لم يعرفوا في مواطنهم الجديدة هذه غير الخلد والاوبوسوم والخنافيش

تعود القهقري . فاذا ما اخذنا بعين الاعتبار هذا النكوص والتقهقر والعوامل المؤثرة الاخرى كالتهجين ، صح القول ان اوقيانيا انما هي « متحف للعروق البشرية » .

والاقوام الوحيدة التي يمكن وصفها بحق بانها اقوام بدائية هي اقوام التسمانيين والاوستراليين الذين كانوا في اسفل دركات الجنس البشري وأحطها على الاطلاق .

كان التسمانيون في الدرك الاسفل بين الجنس البشري . فبعد أن استقر هؤلاء القوم في جزيرتهم في عهد كان اجتياز مضيق باس يهون على اصغر بحار وأقلهم خبرة أو دربة بالاسفار، اي ما يزالون في الطور الاوسط من الدور البليستوسيني ، قبل ذوبان الجليد الذي أدى الى الارتفاع منسوب مياه المحيطات وجعل عرض المضيق المذكور خمسة اضعافه ، فقد عاشوا في شبه عزلة تامة جعلت حضارتهم تأسن فتضمر فتجف فتموت . فقد عثر العلماء فيها على نحو ٥٠٠٠ من العرق شبه الزنجي شعرهم مفلفل والحنك ضخم نافر والجمجمة مفلطحة هاربة والحواجب شديدة التقوس ، ألفوا اقرب حلقات الانسان السفلى الى القردة . وقد اتخذ القحف شكل اسفل السفينة فاصبح هذا الشكل من أهم الخصائص القردية المميزة . اما الادوات التي كانت تحت تصرفهم فقد جعلتهم في مصاف أدنى دركات انسان العصر الحجري القديم في غربي اوروبا . فقد جهلوا اللباس وأنكروا الاقامة والسكنى في المنازل ، وتفيأوا الشجر العريض الورق واعتاشوا من بعض النباتات وعلى ما تصل اليه ايديهم من قنص وصيد دون الاستعانة بكلب صيد . اما نظامهم الاجتماعي فبدائي للغاية يوالون زعماء آنيين يختارونهم لامد معين . قالوا ببقاء النفس بعد الموت ورهبوا جانب الموتى ، وبدت عليهم معالم ديانة عرفت بعض التسامي يُشتم منها القول بالتوحيد ، وعبدوا الهاً أعلى غاصت علاقاته بالسماء والظواهر الطبيعية وَبهُمت . فزال كل اثر لهم ، في القرن الماضي .

وعلى دركة أعلى قليلاً نجد بين الاوستراليين اقواماً كانوا بمستوى الطور المعروف بطور *Moustier* في العصر الحجري القديم في اوروبا، وهم عرق مزيج من عناصر على شيء من المحاكاة بشبه الاوروبي وشبه الزنجي ، من بشرة سمراء يكسوها شعر كث كثيف وحواجب مقوسة ، وجبين هارب الى الوراء ، ونتوء الحنكين ، والشفاه الغليظة ، والانف الافطس الضخم . لهم دماغ ادنى وزناً بكثير وأقل تلافيف من دماغ رجل العرق الابيض .

ومع ان لباسهم مختصر فقد عرفوا كيف يبنون لهم اكواخاً من الاغصان والحشائش كما توصلوا الى استنباط النار بالاحتكاك السريع الشديد بواسطة مثقب في لوح خشب ، اسلحتهم من الحجارة المشظاة، بينها البونيامن حجر المرّو بشكل جُماع الكف المضمومة . وبينها الرمح من العصر الحجري الحديث ، والمزراق و الـ *Boomerang* المشهور الا انهم جهلوا تماماً استعمال القوس والنشاب كما جهلوا صناعة الفخار . اما غذاؤهم فقد تكوّن من الخضروات وبعض الصيد والبزاق والحلزون الذي يعيش في المياه الحلوة ، والديدان والحرذون والطير والكنغورو وغيره من ذوات الاكياس مثل *Oppossum* وبعض انواع النعامة ، وقدرة على اللحاق بالكنغورو النفور ، يعدون

وراءه بالسرعة التي يعدو بها . وكانت لهم حاسة شم شديدة بحيث يتبينون معالم الطريدة من استرواح رائحة التراب .

أما وضعهم الاجتماعي فكان على بدائية من التنظيم ، اذ كان للقبيلة زعماؤها الدائمـــون هم الشيوخ فيها ، وقد اعتمدوا التزاوج من الاباعد ، لكل قبيلة مجالها الحيوي وهويتميز عن مجال القبائل الاخرى . وهكذا يكاد المرء يرى بينهم شيئاً من معالم الحق الدولي .

أما عقائدهم الدينية فقد كانت على شيء من التطور . فالاعتقاد ببقاء الارواح كان عامـــاً . واعتقدوا بأن في مكنة نفوس الموتى ان تتجسد من جديد . وقد أثار مرأى هؤلاء الاوروبيين الخارجين اليهم من عرض البحار باجسامهم البضة وعيونهم البراقة بفضل مــا هم عليه من تطور جهازهم العصبي ، الهلع في نفوسهم فنظروا اليهم نظرهم الى اشباح أو خيـــالات . وقد ألفوا اكرام الموتى باقامة سلسلة من الطقوس الدينية تخليداً لذكراهم ، حتى ان بعض هذه القبائل كانت تحرص على أكل اجسام الموتى احتفاظاً منها لما فيها من مبدأ الحيـــاة . وكانت لهم محرماتهم الطوطمية التي تمثل الخير المشترك يحتفلون بتكريمها بطقوس فيها الكثير من مظـــاهر التعزيم والسحر . وقد قال بعضهم بوجود إله خالد استحق الخلود في السماء بعد ان عاش على الأرض ، وباستطاعة المطلعين منهم على الاسرار ، الالتحاق به والانضمام اليه بعد الوفـاة . وكانت هذه الاقوام متمكنة من أمور السحر ، ضالعة باسراره . ولكي يرقى الفتيان الى درجة الرجـــال ويصبحوا بالتالي صالحين للزواج ولممارسة بعض الوظائف الاجتماعية العليـا ، عليهم ان يخضعوا لفترة من التلقين المعقد يضم في جملة ما يضمه من امتحان ، قلع احد الاسنان القواطع من الفـك الاعلى ، واقتبال الختـــان وتقديم بعض الرسوم وبعض الاقاصيص الخرافية التي لم تكن المرأة لتخضع لها .

اما الاقوام الأخرى فكانت على مستويات ارفع قليـلاً كما يظهر . فباستثناء اقوام البابوس الذين تميزوا بأنف أقنى ، محدودب كالمنقار يجعل منهم بحق عرقـاً اصيلاً لوحدهم ، يبدو من دراسة اللهجات التي كانوا يتكلمونها ومن بعض العادات والاعراف الحسية التي كانوا عليها ، كهذه الزوارق المتخذة من جذوع الشجر المجوفة المجهزة بهزاز ان هؤلاء الاقوام ، شاركوا ، بالرغم مما بينهم من مفارقات جسيمة ملحوظة ، بحضارة اوقيانية واحدة كما انهم يعودون جميـعاً الى محتد واحد . والراجح انهم خرجوا كلهم من ماليزيا وانساحوا الى الشرق ، في ارجاء المحيط الهادي ، وقد يكون بعضها بلغ مشارف اميركا ، كما امّ بعضهم مطـــارح الى الغرب من كمبوديا ، والى سيلان ومدغشقر (كالهوفاس) على سواحل افريقيا الشرقية . فقد تكون هجرتهـم وقعت بين القرنين الثاني والخامس الميلاد ، حتى بلغت موجة الاغتراب هذه مدها الاكبر بين ٩٠٠ - ١٣٥٠ للميلاد ، ثم خفّت بينهم النزعة وضعف عندهم الميل الى الارتحال عبر البحار .

اما الميلانيزيون[1] فقـد كانوا على وضع حضاري يذكرنا باوضاع العصر الحجري الحديث

(١) - في جزر بسمارك وسلمون ولويزياد وسنت كروز ، وهبريد الجديدة وكاليفورنيا الجديدة ولويالتي وفيجي وغينيا الجديدة .

المتطور . فقد كانوا أكثر تطوراً جسمانياً : قليلي الشعر في الوجه ، مستقيمي الانف ، قلما تقوست حواجبهم ،وكانوا اكثر تفنناً في حليهم وزينتهم . نساؤهم مكثرات من الوشم ، على شوّه في الرأس وفي البدنية ، تلوين الشعر أو صبغه بالمغر ، وعقود واساور من الاسنان أو من الاصداف ، وريش وزهور في الشعر .

كانت ادواتهم المنزلية على شيء من العناية والاتقان : فؤوسهم من الحجر المصقول ، وسكاكينهم من الصدف ، ومبارد من خراشف السمك ومخارز من الذهب وغير ذلك من الاسلحة المختلفة ، بينها القوس والمقلاع . فقد كانوا رجال بحر مجربين ، حذقوا صنع القوارب الكبيرة وفن قيادتها كما كانوا مزارعين ماهرين ، يعزقون التربة بعصاً واحدة ويزرعون البطاطا الصينية والتارو . عرفوا ضرباً من العملة او النقد المتخذ من الارياش والاسنان يتكالبون على الربح كما عرف بعضهم ان يجمع ثروات عن طريق الدَّيْن بفائدة مائة بالمائة .

اما مجتمعهم فمجتمع اساسه الأم . فالخال هو القيم على ابن الاخت . والرجال يأكلون وينامون في باحة البلدة ، يعيش الجنسان الرجل والمرأة في شبه انفصال ، والزواج يتم بالشراء ، كما ان الأغنياء منهم مارسوا تعدد الزوجات .

اما وضعهم السياسي فكان على شيء من الديموقراطية ، تلعب فيه الجمعيات السرية دوراً بارزاً ، وللاغنياء بينهم شأن بارز لقدرتهم على البذل بسخاء واقامة الحفلات وبلوغ المراكز العليا . فكانت هذه الجمعيات السرية تزرع الهلع في قلوب من لم يدخل في عضويتها ، فيرزح تحت الضرب والغرامات الفادحة حتى الموت .

اما اعتقاداتهم الدينية فقد كانت متأصلة إلا انها في مستوى ادنى مما كان عليه الاقوام الذين اتينا على ذكرهم والتي كانت ادنى مستوى حضارياً . فقد اعتقدوا بالمانا ، هذه الفضيلة او السجية الفائقة الطبيعة ، المتوارثة . فالصياد لا يكون ماهراً إلا اذا تمت له المانا . وشرط النجاح في الحياة ان تتم للمرء المانا . وباستطاعة السحر والسحرة ان يؤمنوها لمن يرغب فيها . وبعض مظاهر هذه المانا لا تخلو من الخطر على صاحبها ، واذ ذاك يتدخل التابو المحرم ، يستنزلونه على الاشخاص والاشياء والاماكن التي يسكنها المانا او يقيم فيها . فقد آمنوا بوجود الارواح في الحيوانات والحجارة والاشجار والافاعي ، انما لم يشركوا بالله الأعلى ، كما لم يقولوا بتعدد الآلهة ، وآمنوا بحياة النفوس بعد الموت . يقومون بصلوات طقسية ويقدمون القرابين والذبائح وينشدون الاناشيد المسجعة المقفاة وينقشون في الخشب صورة الجد الأول الذي يحيى في شخص بنيه وذراريه .

اما الميكرونيزيون[1] فقد كانوا شديدي الشبه بالميلانيزيين ، انما على شيء ارفع فقد كانوا بحارة ماهرين . وقام التجار منهم باسفار طويلة على قوارب مجهزة بهزاز ، مستخدمين في هذا

(١) ـ جزر الماريان وبالاو والكارولين ومارشال وجلبرت .

السبيل خرائط صنعت من قضبان البمبو او الخيزران . قام بينهم طبقة من الاشراف واخرى من الارقاء . وكان زعماؤهم يجزلون العطاء للبحارة الذين يتميزون بالخبرة وطول الباع . وكان بعض سكان هذه الجزر عرفوا خلال ادوار التطور التي مروا بها الشرك . وقالوا بعدة آلهة على رأسهم كبير الآلهة .

وفي قمة السلم الاجتماعي قام البولينيزيون[1] هـذا الفرع الثاني من اشباه الاوروبيين ، بينهم عناصر من اشباه الزنوج واشباه المُغل ، فارعي القامة ، مع ملامح اوروبية وأنف مستدق ، شعر املس ناعم واللون حنطي. اما السمع فأرّق مما عليه الاوروبيون،بينما حاستا الشم والذوق عندهم تختلفان .

وهم بحارة لا يجارون يستطيعون ان يجوبوا مساحات شاسعة يبلغ مداهـــا ٢٥٠٠ كيلومتر دون ان يرسوا في مكان . وكان في مقدورهم ان يحددوا مواقعهم او نقطة وجودهم في عرض المحيط بواسطة القرع المثقوب . وعرف سكان ساموا وتنغا قوارب مزدوجة بلغ طولها ٣٠ متراً تستطيع نقل ١٤٠ راكبا . ولكل جزيرة عمارتها الخاصة من القوارب . وقد احصى كوك ٣٣٠ قارباً في تاهيتي وحدها بعد ان قدّر سكانها بـ ٢٠٠،٠٠٠ نسمة .

اما ادواتهم فكانت من ادوات العصر الحجري المصقول وبعض هذه الادوات قيد الاستعمال لدى اقوام الماوريس في زيلاندا الجديدة ، بدت وكأنها من المعدن . والذين يبدو لنا ان جدودهم عرفوا المعدن وصناعة الفخار . ومهما يكن ، فقـــد أصبحت هذه الفنون نسياً منسياً لدى البولينيزيين عند قدوم الاوروبيين اليهم . ومن الثابت ان ادواتهم هذه انما كانت من جنس ارفع واحسن مما كانت عليه في القرن الثامن عشر .

اما ملابسهم فقد اتخذوها من الكتان في زيلاندا الجديدة . وانقطع السكان في الجزر الحارة عن صناعة النسيج التي عرفها اسلافهم ليتخذوا بديلاً عنها صناعة لحاء الشجر يصنعون منه الفساتين المزركشة والكشاكش والمثلثــات والمربعات . تزينوا بالريش اللماع والاوراق الرحبة الشكل ، كما اتقنوا ، الى حد بعيد ، صناعة الوشم .

اما منازلهم فقد قامت ، في الغالب على مصاطب من الحجر فُرشت أرضيتها بالحصر وتتاوح طول بعضها ، في جزر الماركيز ، بين ٢٠ و ١٠٠ مـتر ، ووجدوا بين مفروشاتها كلـّة لصدّ الناموس وابعاده . وشيّد الماوريس قلاعـــاً اتسع بعضها لبضعــة آلاف أحاطوها بالخنادق والدرابزونات والشرفات المرتفعة الصالحة للدفاع .

وقد بلغ من تطور هؤلاء الأقوام ان قـام فيما بينهم ، اسرات ضمت الواحدة بضع مئـات بين افرادها ، كانت تشبه الى حـــد بعيد ما عرفه الرومان من امر « الرَبْـع » (*Gens*) أو

(١) ـ موطنهم جزر ساموا والماركيز وتواموتو وتنغا وتوبواي وفيجي وزيلاندا الجديدة وهاواي .

الـ Genos) عند الإغريق . وقد انقسم المجتمع عندهم الى طبقات متسلسلة : الملك والنبلاء والاحرار والارقاء . وكان الملوك عندهم يتوارثون الحكم أبا عن جد وخلفاً لسلف ، عملا بسنّة البكورة ، والملك عندهم يمثل الألوهية ، وكان بالتالي مكرّساً ومقدّساً لا يُمس . اما النبلاء فكانوا اصحاب اشاذات وإقطاعات ، يسيطرون على المجالس والندوات ومناقشاتها ، فهم يملكون كل الاراضي. فكانت عظامهم بعد الوفاة توضع في اماكن مكرسة ، اذ كانوا يتمتعون وحدهم بالحياة بعد الموت . وكانوا يختارون لهم زعماء محليين او إقليميين يتخذون القرارات المشتركة وهي قرارات كثيراً ما كانت عرضة للاستبداد والتحوير ، اذا ما جاءت جائرة او منافية للصواب والرجال الاحرار بينهم كانوا يخضعون للرسوم المفروضة كما كانوا عرضة للسخرة .

اما عقائدهم الدينية فقد حوت عناصر براهمانية وربما ايضاً فارسية وبابلية فقد آمن الماوريس مثلا ، بإله سام ، خالد ، كلي القدرة ، عادل ، مسكنه السماء الثانية عشرة . وكانت هذه العقيدة على درجة عالية من السرية والتقديس بحيث ان سواد الماوريس كانوا يفارقون هذه الحياة دون ان يدروا او يشعروا بوجود مثل هذا الايمان فيما بينهم . كذلك قام بينهم مجموعة من آلهة السماء ، وأخرى آلهة محليين مأواها ومهبطها الغابات وتتمثل في الحصاد والحرب والبحر والشر ، حولها هالة من الأساطير الميثولوجية تفسر هذا الكون . كذلك عبدوا طائفة من الارواح تغلغلت في المظاهر الطبيعية كما عرفوا عادة تكريم الآباء والجدود . والطبقة الكهنوتية ، التي كان اعضاؤها ينتقون من بين النبلاء ، كانت تحرص جداً على احترام أساطيرهم الدينية وصيانتها ، كما كانوا يقومون بالطقوس الدينية التي كان من بينها الذبائح البشرية . وقد كانت جزيرة خياطيا المركز الرئيسي الذي كانت تجري فيه التقادم المشتركة بين سكان بولينيزيا . كذلك شاع السحر بينهم والجوسية . وافسحت العقائد الدينية المجال لظهور شعر ديني طريف جزل – وفن النقش الذي بلغ منزلة محترمة ، وان لم يكن له ، في الغالب ، سوى قيمة ترفيهية .

اما الحروب فلم ينقطع حبلها بين هذه الأقوام ، فكثيراً ما ادت الى احراق الزرع والضرع ، ويقوم الغالبون بافتراس المغلوبين على امرهم فيأكلونهم على ان يحتفظوا بقلب الاضاحي للزعماء .

ان اعتقاد جانب كبير من هؤلاء الأقوام بإله اعلى ، سام ، يختلف كثيراً عن كبير آلهة المشركين يجيز لنا ان نتساءل ما اذا كنا هنا ، امام اثر من آثار الوحي المدائني الذي صار الى هذا التحول او الانحطاط الديني الذي تروي لنا التوراة قصته ، او اننا امام ما تمّ من وضع سام توصلوا اليه بعد تطور طبيعي ، طويل النفَس ، انطلاقاً من القول بوجود الارواح في الطبيعة ، قبل ان يعتري هذه الاقوام موجة من الركود والتقهقر .

فقد حافظ الاوروبيون على علاقاتهم السلبية في القرن الثامن عشر تجاه هذه الاقطار المثيرة

التي لم يجدوا فيها ما كانوا يتوقعونه عنـــد هبوطهم اليها . ففي سنة ١٧٧٢ ، استولى القبطان كروزيه ، على زيلاندا الجديدة ، بعد ان دعاها باسم « فرنسا الاوسترالية » . الا انه لم يقم فيها اي مشروع استثماري . ولعل اول مشروع من هذا النوع هو المشروع الذي نهض به الانكليز في اوستراليا . ومنـــذ سنة ١٧٧٦ ، حالت حرب الاستقلال الاميركية دون استمرار الانكليز ارسال المجرمين المحكوم عليهم بالسجن الى فرجينيا . وفي سنة ١٧٨٦ ، قرر الحاكم الانكليزي ، إنشاء مستعمرة إصلاحية في خليج بُتني . وعلى الاثر وصــل القبطان فيليب بتاريخ ١٨ كانون الثاني ١٧٨٨ ، ينقل في عمارته ٧١٧ من المساجين ، بينهم ١٨٨ امرأة بحراسة ١٩١ من جنـــود البحرية و ١٨ ضابطاً ، ومعهم ثور و ٥ بقرات وكبش و ٢٩ نعجة ، فكانوا اول من رحل من الاوروبيين الى هذه المنطقة ، فألفوا بذلك النواة المتواضعة للشعب الاوسترالي .

وراح الاوقيانيون القهقرى واخذوا سريعـــاً بالاضمحلال تدريجياً في القرن التالي ، إثر اتصالهم بالاوروبيين .

فهل كان من المقدر المحتوم ان يكون لهم مثل هذا المصير ؟ فالجواب على هذا السؤال ليس من اليسير . فقد رأينا اقوام الصيادين والقناصين والقطافين هنا ، كما في اميركا ، وفي اي محـــل آخر اتصلوا معه بحضارات اسمى وأرقى تقنيا من التي عرفوها ، اخذ عددهم بالتناقص تدريجياً ، كما تخلخلت اعرافهم وعاداتهم دون ان يقتبسوا لهم حضارة أرفع . ووقع لهم ذات الشيء عنـــد اتصالهم بالصينيين والاوروبيين ومع ذلك فقد دل هؤلاء الاقوام عن قوة ملاحظة غريبة وقوة تفكير بارزتين حتى في هذه الموضوعات والافكار التي تبدو لهم غريبة . فقد ظنوا مثـــلاً ان العلاقات الجنسية لم تكن لتسبب وحدها الحمل ، بل ان مجرد مرور الزوجة بالقرب من كهف معين او من شجرة موصوفة تسكنها ارواح الجدود ينتقل في الحال اليها احـــد هذه الارواح وتتجسد فيها . وهـــذا الاعتقاد المغلوط نتج عن تفكير سليم . لا تكاد الفتاة الاوسترالية تبلغ حتى تتزوج . وكان للرجـــال عادة عدة زوجات ونساء . وقد رأوا على ضوء اختباراتهم الحسية الطويلة ان العلاقات الجنسية التي كانوا يقيمونها مع نسائهم لم تكن لتعطي دوماً نتائجها وثمارها مع الجميع اذ تبقى المعاشرة الجنسية عنـــد بعضهنّ بلا نتيجـــة او ثمرة . فما الذي يعنيه يا ترى مثل هذا الوضع ؟ فهو يعني ان العلاقات الجنسية في الزواج ، كانت تمهد او توطىء للحبل على ان تقترن العملية بشيء آخر يتم الحمل معها . فالعلاقات الجنسية كانت شرطاً اساسياً ولكنه شرط غير واف بالغرض حتماً ، وهو تفكير صحيح من وجهة نظرهم .

فهل يا ترى ، عدم وجود مبرر لدى هؤلاء الاقوام ، او عـــدم وجود ما يرتاحون اليه لدى الاوروبيين ، منعهم من الاتصال بالحضارة الاوروبية والامتزاج بهـــا ؟ فالحياة اليومية لدى الاوروبيين قامت على جمـــلة من ضرورات العيش ولزومياته الضاغطة بينما حياة الاوستراليين اليومية كانت حياة حرة ، هينة ، ناعمة ، لا أسر فيها ولا ضغط . الا ان يحدث مثـــلاً شيء

طارىء ، مفاجىء يكدّر عليهم صفـاء العيش المـنفي كما لو وقعت ، مثلاً سنة جفاف او مواسم عجفاء . وأدهى ما كانوا يخشونه السحر وأفعـال السحرة . فطبيعة الحياة لدى الاوروبيين لم تكن تسبب لهم سوى الملل والسأم والاشمئزاز . فاذا مـــا ارادوا ان يحافظوا على اعرافهم ، ويستمروا عليها في عشرة موصولة مع الاوروبيين ، لامتنع عليهم ذلك وتعذر ، لأن الاوروبي اينما حــل ، أينما هبط في بيئة غريبة ، ألحق فيها البلبلة وزرع التشويش وقضى عـلى ما فيهـا من سائمة وحيوانات تؤلف غذاء مستساغاً عند هؤلاء الاقوام ، كما ان وجوده يجلب لهم امراضاً وعللاً لم يكونوا ليعرفوها من قبل .

الفصل الثالث

آسيا

كانت آسيا تعاني فترة صعبة من الانحطاط . فقد تواقع تاريخها آنذاك — وسيبقى هذا الوضع قائماً بعض الوقت — مع هذا العراك الذي قام سجالاً ، بين اهل المدر واهل الحضر ، او بين البادية والمدينة . فقد تآلفت رقعتها الشاسعة من سهول وواحات ذات مناخ محرق لاهب، كبلاد ما بين النهرين ، وسهول الهندوس والغانج وسهول نهري اليانغ — تسي والهوانغ — هو ، هذه السهول التي كانت مهداً لحضارات زراعية مشرقة ، حفت بها سباسب ومجاري آخذة بالجدب والجفاف تدريجياً ، تمور باقوام من الشعوب المرتحلة ، يذرعون في ظعنهم يمنة او يسرة ، جيئة وذهاباً ، بلاد فارس والتركستان والتيبت ومنغوليا ، شهدت من حين الى آخر ، غزوات دورية ماحقة ، قوامها اقوام من الرعاة اعتادوا ان يعيثوا فساداً في المقاطعات الدائرية . وكان هؤلاء البدو في وضع زري ، ابداً عرضة للجوع يقومون في سبيل العيش وسد حاجاتهم ، ببعض الاعمال التجارية يتبادلون مع سكان المقاطعات الدائرية ، في ايران والهند والصين ، بعض نتاجهم الزراعي ، ويقفون مشدوهين لما تقع عليهم عيونهم من غنى وثراء ، يتسقطون ما فيها من شوائب وعورات ومن مكامن الضعف والوهن : فتقع ابصارهم على شعوب ارزحتها الحرارة الشديدة والرطوبة ، كما تقع عيونهم على امراء وملوك ترهلوا وماعوا لما هم عليه من عيش رخي وبذخ سخي او رفه مخلخل ـ ففشا بينهم التسري والقصف واقذع الرذائل . واذ ذاك ينهض زعيم مفتول العضل من بين زعماء هذه القبائل البدوية الضاربة في قلب الصحراء ، ويفرض سيطرته على القبائل الاخرى التي تشدها وشائج القربى او صلات الرحم ، ويخضعها لسلطانه ويقودها للفتح بعد ان تكون تفتحت شهوتها الجامحة واهتاجت ، وجاشت فيها الرغائب والاثرة ويستولي على السهول الدائرية الخصبة ، ويكفي ان يحالفه النصر مرة واحدة حتى تهوى الامبراطورية المتداعية للسقوط ويعلن نفسه « ملك الملوك » في بلاد فارس ، او امبراطوراً في الهند او في الصين . ثم يأخذ ، والنشاط ملء بردتيه ، والحماس يتمطى بين الضلوع ، ينفخ روحاً جديد في الامبراطورية المهلهلة ويبعث فيها نهضة صادقة . ولن يلبث ابنه الذي لا يزال الدم البدوي يجري حاراً في عروقه ، والذي عرف ان يجمع في شخصه الشجاعة والحنكة بفضل ما تم له من تربية سياسية محكمة ، ان ينهض بالدولة الى الاوج .

الا ان اثر الاقاليم ، وحياة البـــلاط المرفهة ، وقتل الوقت وإضاعته في اللهو والعبث وعشرة نسائية في الحريم لا تلبث ان تترك فعلها المحلل واثرها المخلخل . ولن يمضي القليل حتى يمسي حفدة الملك الفاتح ملوكاً 'قعدة لا يــــأتون شيئاً. فاذا بالسلطة تنتهي من حيث لا يدرون ، الى ايدي من يترصدها باشتهاء ، من هؤلاء البرابرة الطارئين الطامعين .

فالى مثل هذه الصورة التي رسمنا للواقـــع المؤسف انتهت آسيا في القرن الثامن عشر . ففي ايران اخذت الدولة الصفوية بالانحدار والتدهور بعد ان استحكمت فيها الفوضى وأصلَت منها الجذور . اما في الهند ، فامبراطورية المغول تتداعى للسقوط تحت عنف الصدمات الصادعة تنهال عليها من الخارج، وردة الفعل الهندوسية من الداخل ، مما مهد السبيل لتدخل الاوروبيين الذين كانوا يتربصون لها ويرنون اليها باشتهاء . اما الصين فقد استطاعت ان تحافظ على مستوى رفيع تحت حكم اباطرة السلالة المنشوكية .هي السلالة التي تجاوزت شمسها السمت وبدت تميل نحو المغيب .اما اليابان فنراهـا ماضية في عزلتها و منطوية على نفسها لا تنثني ولا تلين ، وهي عزلة تسببت في انحـــلال المجتمع الياباني وتفسخه . فقد اخذ الاوروبيون يوسعون من علاقاتهم مع آسيا ، كما اخذوا يقضمها تباعاً : الروس براً ، من الشمال ، والانكليز والفرنسيون وغيرهم ، بحراً من الجنوب والشرق .

بلاد فارس والهند

بلاد فارس

في مطلع القرن الثامن عشر ، أخذت إيران ، في عهد الدولة الصفوية ، يساورها شكٌ ممضٌ ، في ذهاب هيبتها وانتقاص سلطانها . فقد عرفت هذه الدولة كيف تجعل من إيران ، في القرن السابع عشر دولة زاهية مزدهرة ، إذ استطاعت ان تعيـد الى البلاد المجد الذي عرفته في عهد الدولة الساسانية . كذلك أخذت الدولة باسباب التجدد تقتبس من الاختراعات الأوروبية . الا ان الدولة لم تلبث ان أخذت تفقد قواها تدريجياً بانغماس ملوكها بالفساد . وكان آخر ملك من ملوكها هو الشاه تاماسب الثاني ، ملك البلاد في مطلــع القرن الثامن عشر ، فـكان ملكاً مستبداً فاسد الاخلاق فظ الطبـاع قضى على الكثيرين من أمراء الاسرة المالكة وأغضب أعضاء قبيلته الخاصة التي كانت عماد جيشه وتمــد البــلاد بالمزارعين . فليس من عجب والحالة هذه ان ينظر البدو في فلواتهم ، والبرابرة في معاقلهـم الجبلية ، في الخارج ، الى هذه الدولة نظرة اشتهاء يتربصون بها الشدائد والمصاعب ، بعد أن رأوا عوامل الانحلال تزداد فيها فتلاً ، فانقضّوا عليها واستباحوا باحتها .

وكان الأفغان أول من بادر بينهم إلى شق عصا الطاعة ، بعد ان كانوا غُلبوا على امرهم على يد مؤسس الدولة الصفوية ، ودخلوا في طاعته . فالافغان والفرس من محتد واحد . فقـد عرفوا ان يحافظوا في جبالهم على فرديتهم المميزة بفضل هذه الوديان العميقة التي عصمتهم وهــذه

المجازات والمعابر التي سهّلت لهم الاتصال ببعضهم البعض. وهم مسلمون سنيون جاشت حفيظتهم بالكره والبغض للفرس ، وهم على التشيع . والافغان من سكان الجبال ومن انصاف البـدو ، اخشوشنت طبائعهم وتعاطوا تربية الماشية يظعنون بها وفقاً لفصول السنة . احتقروا في الايرانيين حياة الحضر ، وهؤلاء المزارعين المترفين الذين تفسخت أخلاقهم بالدنايا من الاعمال التي يأتونها كما ازدروا فيهم هؤلاء التجار الخطفة الجشعين. وفي سنة ١٧١٠ ، أعلنت قبيلة غلجيس احدى هذه القبائل الضاربة في قندهار ، العصيان وراحت تزيل من طريقها الحاميات الفارسية المرابطة في البلاد الواحدة بعد الاخرى ، داعية الافغان الى الانتفاض واعلان الثورة والتحرر من ربقة الفرس . وراح أمير غلجيس هو الامير محمود يهاجم بلاد فارس الى ان قهر الفرس ودخل اصفهان منتصراً في ٢٢ تشرين الاول ١٧٢٢ ، وأعلن نفسه ملكاً . فما كان من الشاه ثاماسب الثاني ان فر ونجا بنفسه والتجأ الى مقاطعة مازندران، وهي ولاية معروفة بغاباتها الكثيفة وبما فيها من بطائح وغياض ومستنقعات .

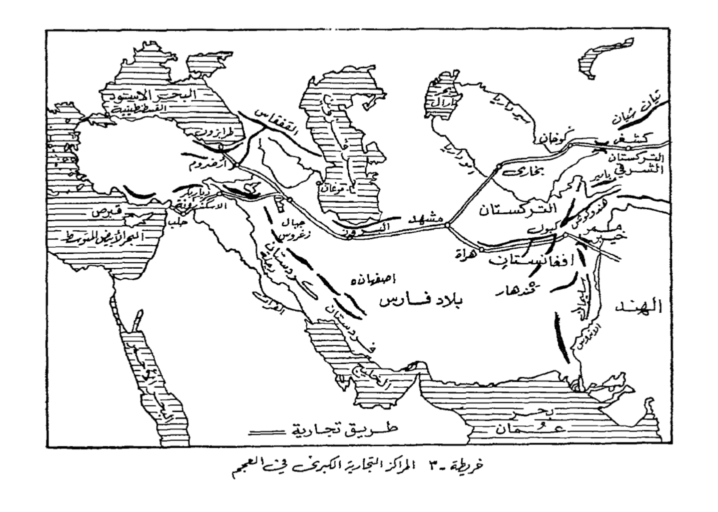
وإذ ذاك أخذت قبائل البدو والدول المجاورة لبلاد فارس تنقض عليها من كل صوب . فراح التركمان بقيادة أمير بُخارى يغزون خراسان . والروس الذين كانوا يرنون بأنظارهم من معاقلهم في استراكخان الى الطُرق التجارية بين الهند واوروبا ، عبر كابول وهراة ، ومشهد وطهران وتبريز ، لتتجه منها شمالاً ، الى ارضروم وطرابزونه ، وجنوباً الى ديار بكر وحلب والاسكندرون ، لم يعتموا ان احتلوا تباعاً داربنت عام ١٧٢٢ ، وباكو عام ١٧٢٣ ، واطلقت معاهدة بطرسبورغ التي عقدوها مع إيران ، يدهم باحتلال ضفة بحر قزوين الجنوبية وداغستان وشروان وغيلان ومازندران واستراباد . واغتنم الاتراك العثمانيون من جهتهم هذه الفرصة السانحة ليثأروا لأنفسهم مما لحق بهم في الماضي من خسف، فاحتلوا أرمينيا والعراق واذربيجان، وراح الامير اشرف ، وريث الامير محمود وخليفته الذي ربطته بالعثمانيين وحدة الايمان المشترك يتقرب من العثمانيين فاعترف بالفتوحات التركية وأعلن ولاءه للسلطان في القسطنطينية رغبة منه حمل اللقب الملكي الذي اعترف له به السلطان (خريطة٣) وتعهد له باستئصال شأفة الشيعة من البلاد ، هذه الطائفة التي أعطت بلاد فارس فرديتها المميزة ، بحيث ان كل شيء كان يدل على ان هذه الامبراطورية القديمة العهد اشرفت على نهايتها .

الا انها وجدت خلاصها على يد زعيم بدوي ، تركي العرق والمحتد . كان يعيش عند أطراف خراسان ، يدعى نادر شاه الذي أصبح بعد سلسلة متصلة الحلقات من اعمال اللصوصية والقتل والتشنيع والمخاتلات ، زعيماً لقبيلة أفشر التركمانية واستطاع كمألوف العادة ، ان يتغلب على إحدى القبائل ويفرض عليها سلطته ، كما عرف ان يكتسب بعوارفه السخية الانصار والمريدين ، وقبل في خدمته كل رجال الحرب الذين يرغبون في المغامرات ، وتمكن من اخضاع البطون والافخاذ التي تمت الى قبيلته افشر التركية بوشائج النسب . اغتنم بين ١٧٢٢ — ١٧٢٦ مناسبة انهيار دولة فارس فبسط سيطرته على ولاية خراسان وبرهن عن مقدرة وحسن تدبير

عندما أعلن ولاءه للشاه تاماسب ، وبذلك أصبح محط آمال الفرس ومناط رجائهم . وإذ كان على جانب عظيم من الحزم والنشاط في بلاد عصفت بها الاهواء والمطامع وأصبح معها العرش متأرجحاً ، فقد أخذ بتنظيم الجيش وفرض النظام واحترام هيبة القانون ، وتمكن من التغلب على الافغان وأعاد الشاه تاماسب الى عاصمته مكرماً ، عام ١٧٣٠ .

غير ان الشاه والفرس كانوا يتوقعون منه ان يعيد الامبراطورية الفارسية الى سابق مجدها وسالف عزها . فالشاه يجب ان يكون غازياً فاتحاً . وكان الفرس متشبعين منذ نعومة اظافرهم ، من نصوص كتاب الملوك او الشاهنامة للفردوسي ، هذا الكتاب الذي له عند الفرس ما للالياذة والاوذيسة من منزلة عند الاغريق . فاستقر في خلدهم ان امتهم هي من اعرق أمم الأرض طراً ومن أقدمها على الاطلاق وبانها تعلو الأمم الاخرى قدراً وسمواً وشأناً ، وان الله كتب لها السيطرة وقدر لها السلطان على سائر أمم الارض . ولذا كان من الواجب إشباع هذه الاماني الوطنية وتحقيق الاهداف القومية التي جاشت في صدورهم . ومن جهة ثانية ، فالتجار الذين كانوا يؤدون خدمات جلّى للملك بما يسلفونه من الدراهم ، كانوا يتوقعون منه ان يعيد الى البلاد امنها الضائع لتصبح طرق المواصلات آمنة والاسواق سليمة ، حرة ، وبذلك تعود البلاد الى ما كانت عليه ،الطريق السلطاني الذي يربط شعوب آسيا بدول اوروبا ، كما تربط الشرق بالغرب . ثم كان على الشاه ان ينهض بالحرب بحيث يؤمن للمملكة الموارد اللازمة التي كانت الضرائب المفروضة على البلاد تقصّر عن تأمينها ، فلا يلبث ان يرتفع فيها صوت التاجر منادياً بالويل والثبور وعظائم الامور اذا ما تأذت مصالحه قليلاً ، وحيث يسهل على البدوي التواري والتخفي كما يسهل على الفلاح مبارحة ارضه بيسر اذا ما تعرض للضغط . ثم كان لا بد لهذا الملك ولقيمّ قصره ان يُشبع عن طريق الغزو مطامع اشياعه واتباعه ويحقق ما يرغب فيه افراد اسرته وعشيرته ومحاربيه . ولذا بادر نادر شاه للجهاد ، فاسترجع خراسان من الأفغان كما استعاد منهم ولاية هراة . واجبر الاتراك على التخلي عن العراق والانسحاب من اذربيجان وأريوان وقرص وما استولوا عليه من قلاع في القفقاس . وبموجب معاهدة القسطنطينية المعقودة عام ١٧٣٧ ، عادت الى البلاد الولايات التي كانت لها من قبل ، كما ان المعاهدة المذكورة ضمنت لها الاشراف على ارمينيا الشرقية . وبسط حمايتها على بلاد الكرج . وفي عام ١٧٣٤ ، اضطر الروس ، لقلة حامياتهم ، لاخلاء الاراضي الشاسعة التي وقعت بايديهم في شمالي ايران ، عام ١٧٢٣ . وفي غرة شباط ١٧٣٦ ، تمكن نادر شاه من خلع آخر ملوك الدولة الصفوية ونودي به ملكاً ، في احتفال مهيب في سهول موغان ، اشترك فيه زعماء الشعب وممثلوه بحضور قواد الجيش وعدد كبير من الضباط . فجاء اعتلاؤه العرش تتويجاً لهذا العمل المجيد الذي قام به بعد ان اعاد الى البلاد امجادها الغابرة وانقذها من قبضة الافغان والاتراك والروس .

واذ كان آخر ملك الملوك عند الايرانيين فقد استطاع ان يوسع سيادة ايران في كل الاتجاهات ونشر الأمن على الطرق التجارية الكبرى التي تمر عبر بلاد فارس . فنقل عاصمة ملكه الى مدينة



خريطة ٣- المراكز التجارية الكبرى في العجم

مشهد بحيث يتمكن من مراقبة حدود الامبراطورية ويصونها من عبث البدو الرحـــل في التركستان . وشيد على رأس احدى قمم علاء – داغ ، قلعة نادرشاه المشهورة تحيط بهـــا الوديان العميقة ، لا يُرقى اليها الا من معبرين ضيقين لا يزيد عرض الواحد منها على بضعة امتار ، واتجه عام ۱۷۳۷ على رأس جيشه وهاجم الافغانستان التي تضم خير المعابر والمجازات الموصلة الى الهند ضيق خيبر ، والتركستان ، وفيها مضيق حاجي كاك ومضيق تدجن ، فاستولى على قندهار وغزنة وكابول واخضع لسلطانه كل القبائل ، فانفتحت امامه مداخل الهند . فاقتنع من حملته هذه على الهند بعملية نهب وسلب على نطاق واسع . وفي سنة ۱۷۳۷ اجتـــاز نهر الهندوس ودخل مدينة لاهور على رأس جيش ضم اكثر من ٤٠ الف محارب ، وكسر شـــر انكسار ، في كرنال ، جيش المغول الذي تألف من ٢٠٠،٠٠٠ محارب بقيادة السلطان محمود ، ودخل مدينة دلهي واستولى فيهـــا على ٧٥٠ مليوناً وبذلك اتيح له ان يُسقط عن الايرانيين الرسوم المترتبة عليهم لمدة ثلاث سنوات . ثم اعاد الحكم في الهند الى السلطان محمود . وباتجـاه الصين ، هاجم التركستان ، عام ١٧٤٠ ، ولقن القبائل درساً بليغاً ، واجبر خان بخارى على دفع جزية فادحة واستبدل خان خيفا بآخر ممن اعترفوا بالولاء له .

ثم فكر بادخال الحضارة الاوروبية الى ايران بعد ان خيم السلام على ربوعها . وجاءت حركته الاصلاحية شبيهة الى حد بعيد بالعمل التنظيمي الذي قام به القيصر بطرس الاكبر في روسيا ، بعد ان تهيأت له اسباب النجاح . افلم تكن ايران آرية الاصل والعرق وتمثل في القارة الآسيوية التي تسحق الانسان بضخامتها واتساعها ، شيئاً من الانضباطية والاعتدال ؟ فالحضارة الايرانية، مع كونها آسيوية في صميمها، تعارض، من حيث طبيعتها ، المسرحية الآسيوية بما تمتاز به من اعتدال في الحكمة واتزان في الانسانية وبمـا لها من قابلية تكاد تكون فرنسية ساعدتها على صهر العناصر المختلفة وصبها وافراغها في قالب اصيل . الا ان الزمن لم يمهل نادرشاه اذ وجد حتفه مقتولاً ، عام ١٧٤٧ .

فما كاد يتوارى عن مسرح السياسة في بـــلاد فارس حتى دب الفساد في الامبراطورية الفارسية . صحيح ان ليس بين خلفائه من يصح مقارنته بـــه ، كما ان اختلاف السكان وتباين العناصر في تلك البلاد لم يكن من شأنه ان يسهل مهمة هؤلاء الملوك . فايران بلاد صحراوية الطابع تحيط بها الجبال من جميع الجهات . فمقاطعاتها الجنوبية والغربية ، امثال كرمان وفارس ولورستان وكردستان ، يقطنها اقوام ايرانيون في الصميم ويتحسسون عميقاً امجـــاد الحضارة الفارسية القديمة ، مع العلم ان بعض هذه الولايات اندمجت فيها وانضمت اليها عروق جديدة كالعرب في اللورستان ، وبعض عناصر العرق الاصفر في الكردستان . اما الشمال فتألف سواده من العرق الاصفر المغولي والتتار والاتراك ، اذ ان جانباً كبيراً من الطارئين والغزاة الفاتحين والاقوام الرحالة استقر في هذا المجال الضيق الذي تحف به الصحارى الممتدة رقعتها المتماسكة من السنغال غرباً حتى نهر العامور شرقاً ، فتحتل قلب قارات ثلاث ، على نصف الطريق من

اوروبا الغربية ومن شطآن اوروبا الشرقية ، وهي منـــاطق تصلح كثيراً بسباسبها الشاسعة ، للكر والفر ولحركات الفرسان الخيالة وتنقلاتهم .

وهكذا بدت ايران خليطاً او مزيجاً من القبائل والاقوام . فقد اقتصر حكم ورثة نادرشاه على خراسان وعرفـــوا ان يحتفظوا بها متخذين من مدينة مشهد عاصمة لهم . وتمكن الافغان من استعادة استقلالهم ، والاتراك القرغز معظمهم قبائل بدوية من رعـــاة وقوافل ، والذين منهم خرج معظم قواد الدولة الصفوية، ألفّوا جماعات عسكرية سيطروا بها على الولايات الواقعة الى الشمال او الممتدة من ارمينيا الى افغانستان ، من حواضرهم الكبرى اصفهـــان واستراباد وقندهار ثاروا على السلطة وتمكنوا بالفعل من اعلان استقلالهم . واخـــيراً في الجنوب ، والى الغرب قليلاً ، حاول زعماء قبائل البختيار والزند، إقامـــة سلطة الايرانيين على الامبراطورية الفارسية . فقامت في البلاد دولة وطنية ، قومية هي دولة الزند ، استطاع رئيسها كريم خان (١٧٥٠ – ١٧٧٩) ان ينتزع من يد القرغز الاتراك ، مدينة اصفهان واذربيجان والمازندران . وهكذا حقق وحدة ايران الغربية الممتدة من شواطىء بحـــر قزوين ، حتى مشارف الخليج الفارسي وجعل من مدينة شيراز عاصمة ملكه ، وعمل على تجميلها وشـــيد فيها مبنى تخليداً لذكرى حافظ وسعدى ، اكبر واشهر شعراء الفرس طراً .

وعند وفاته ، راح آغا محمود وهـــو من قاجار الترك ، يعيد بين صحبه واتباعه ، قصة نادر شاه ، فأخضع لسيطرته الاتراك القاجار ، وهمّ بفتح بلاد فارس . فانتزع ، عـــام ١٧٩٥ ، من يد الزند ، مدينتي اصبهان وشيراز ، واستطاع عـــام ١٧٨١ ، ان يحمل الروس على الانسحاب من مازندران بعـــد أن كانوا احتلوها . ومنذ سنة ١٧٨٥ ، بلغ قوزاق الامبراطورة كاترين الثانية ، مقاطعة القوقاز حيث راح امير الكرج يقدم خضوعه للامبراطورة ، كما قـــدم لهـــا املاكه الواسعة الممتدة حتى نهر الاراكس، من ضمنها ثلاث قلاع هي تبليس وأريوان وكوتاي . وفي سنة ١٧٩٥ ، انقض عليـــه الشاه محمود فجأة وكسره شر كسرة،وقام بمقتلة بين المسيحيين ، ثم اتجه شطر الجانب الآخر من الامبراطورية ، ينتزع من ابن نادر شاه ، ولاية خراسان فاستطاع بعد هذه الفتوحات الضخمة ان يعلن نفسه ملكاً ويتوج ذاتـــه « ملك الملوك » ولم يلبث ان جاءت جيوش الروس تنتقم لنفسها من المذابح الهائلة التي جعل من تبليس مسرحاً لها ،ودخلت بلاد الكرج والداغستان وشيروان ، واجتازت نهر الاراكس ، وضربت خيامهـــا في سهل موخان . واسرع السلطان آغا محمود يدافع عن مداخل البلاد وثغورها ، فلاقى حتفه مقتولاً ، عام ١٧٩٧ ، فكان موته إيذاناً بحروب طويلة مع الروس ، انتهت باستقرار الروس نهائياً الى الجنوب من بحر قزوين .

آل امر ايران في هذه الغضون إلى ايدي قبيلة تركية أمنت لنفسها السيطرة على البـــلاد بسلسلة من الفظائع والمذابح سمرت الخوف في قلوب الاهلين ثم راحت تستغل البـــلاد وتستثمر

مرافقها على ابشع صورة . الا انها كانت اعجز من ان تعيد الى البلاد وحدتها . وفي سنة ١٧٩٥، انفصلت عنها افغانستان وبلوشستان وغربي العراق . كذلك عجزت عن ان تنشىء لها وحدة قومية اذ استقبلها سكان العراق وفارس وكرمان بالازدراء ، والاستخفاف . كذلك كانت اعجز من ان توطد دعائم الحضارة من البلاد بعد ان زعزعت منها الاركان حروب جرت على البلاد ، خلال قرن من الزمن ، الخراب والدمار . فمنذ عهد نادر شاه نفسه ، بدت اعراض انحطاط ادبي قوية . فالآثار الفكرية والادبية التي تعود لهذه العهد ، تتسم ، على الاجمال ، بالغلو والاطناب والثرثرة . فقد عرفت بعض الفنون ان تحافظ ، الى حد ما ، على شيء من الازدهار الذي سجلته من قبل . فصناعة السجاد بقيت مزدهرة ناشطة حتى اواخر القرن . وفنون التحلية والوشي ، بقيت ضمن حدود المعقول والاتزان ، محافظة على ما عرف عنها من بساطة ومن منهجية روعيت فيها بدقة ، اسس النظام ، ومبادىء الإيقاع والانسجام التي ميزت الفنون الاوروبية كما امتازت بوفرة نماذجها الشرقية ، وبهذه الرشاقة التي تطبع الطراز المعروف بطراز لويس الخامس عشر ، كما امتازت بزركشة الالوان في اتّساق وانسجام ، على انساب مقدورة ، تتناوح فيها الالوان بين الفاتح والناصع والفاقع انسجاماً من جانب هؤلاء الفنانين مع التقاليد والاعراف الآرية التي اعتمدت طويلاً في هذه البلاد . ولكن ما ان يطل القرن التاسع عشر بغرته حتى تطل معه بوادر الانحطاط ، في كل مرافق البلاد . وهو انحطاط « يطالعك في الطرقات والمباني ، وسير العلوم والجيش والادارة ، ليشمل كل ما طلعت به بلاد فارس ، في عهد الدولة الصفوية – بلاد فارس هذه الفنية والصناعية ممثلة بشيراز واصفهان التي اثارت الاعجاب في نفوس الاوروبيين . كل ذلك انحدر وهوى الى الحضيض في عهد اتراك طهران » .

الهند

تكون الهند عالماً بذاته ، تعزله عن باقي اجزاء القارة الآسيوية، سلاسل ضخمة من الجبال الشاهقة ، عالم له خصائص حضارية مميزة، استمدها مما تناوح عليه من الارياح الموسمية الفصلية ، والديانة البراهمانية والنظام الطبقي الذي ساد تلك البلاد ، كما استمدها من الاسلام الذي بسط سرادقه على سهول نهري الهندوس والغانج . فاذا ما ضربنا صفحاً عما بين الهندوس والمسلمين من نفرة وشحناء ، وضغينة وبغضاء ، فقد نشأ عن اختلاف المناطق الطبيعية وتباين الأحداث التاريخية ، عدد من التقاليد والاعراف والعادات والاخلاق المتباينة .

كذلك نشأ فيها مجتمعات بشرية متباينة كانت عماداً لدول و تكأة لدويلات عديدة. وهذا السور الجبلي المحيط بالهند ، يقف مارداً لا يلين ولا ينثني الا في الشمال الغربي عند « ابواب افغانستان» التي تتكون من مجازات خيبر وبيفر وخوجاك وغفاجا، هذه المنافذ بالذات التي تدافعت عبرها، هادرة مزمجرة ، هذه الموجات الغازية من البدو الرحل التي استباحت الهند دون ان تبدل منها او تغيّر من حالها .

ففي مطلع القرن الثامن عشر ، كان المغول تحت حكم المغول الأكبر اورنگزيب ، يسيطرون على الجانب الأكبر من شمالي الهند ، والشطر الشمالي من الدكن ، كما ان القسم الجنوبي منه اعترف بالولاء لهم . فقد كانوا في تنظيمهم ونظامهم اشبه بجيش اقام مضاربه وسط بلد ثم فتحه عنوة . وتألف الجزء الذي خضع مباشرة للمغول من إيالات *Soubabies* ، وتقسم كل إيالة الى عـدد من المقاطعات *Nababies* يتولى الادارة في الاولى : سوباب ، وفي الثانية : ناباب ، يُتخذون من بين كبار الموظفين . بيدهم السلطة الادارية والعسكرية يختارهم السلطان من بين عملائه المخلصين. ومن بين من اخلصوا له الخدمة والطاعة ، تحت إمرتهم قوة عسكرية للمحافظة على الأمن والنظام في الولايات ، ولتأمين جباية الضرائب وايصالها سالمة مضمونة الى خزائن السلطان . ولكل واحد من هؤلاء الحكام ، وكلاء عُهد اليهم السهر على استتباب الأمن ، كما لكل واحـد منهم عدد من الجند توزعوا بين القرى والحشود الكبرى في المنطقة . وقام في هـذه الولايات بالذات ، امراء هنود اعترفوا بالولاء للسلطان ، كأمراء راجبوت مثلاً ، لم يكونوا ليرجعوا في شؤونهم وأمورهم ، للحكام المحليين او الاقليميين ، بل ارتبطوا في علائقهم العامة ، بالسلطان مباشرة ، يدفعون له رأساً ، العوائد والرسوم المتوجبة عليهم كما ربطوا انفسهم تجاهـه بحق الولاء والطـاعة . وعلى مثل هذا الوضع كان الامراء التوابع في الجنوب . شد الامراء بعضاً الى بعض ، وشائج وثيقة من الولاء ، بينما غامت فكرة الدولة عندهم واستدق مفهومها . فاذا ما فشا التراخي في السلطة وفي صاحبها ، واذا ما استمر السوباب والناباب في وظائفهم طويلاً ، قد يستحيل نظام الحكم عندهم الى شيء اشبه ما يكون بنظام الفدانة أو النظام الاقطـاعي ، فيفضي الأمر الى سلسلة متعددة الحلقات من الرؤساء والاتباع ، فيحولون مقاطعاتهم الى إقطاعات خاصة. وهذا ما حصل خلال القرن الثامن عشر . وهكذا نرى ان كل الطبقة العسكرية هي عيال على الضرائب المترتبة على الفلاحين والمزارعين والتجار .

ان ضآلة عدد المغول لدى وصولهم الى الهند ، وطبيعة الحضارة التي كانوا عليهـا دعتهم للاعتصام بالتساهل ولأخذ الناس باللين . فقد راحوا يستعينون بكل من أنسوا فيهم الرغبـة بالتعاون معهم ، دون ان يبالوا كثيراً بفوارق العرق والدين . وهكذا عمـل في الادارة ، تحت اشرافهم ، فرس وافغان وهندوس وراجبوت ، كما استخدموا ، في الجيش ، إقطـاعيين مشهوداً لهم بفنون الحرب ، وفرساناً ماهرين. كذلك اقتبسوا الكثير من مختلف الحضارات التي قامت في الهند ، كما جعلوا من اللغة الهندستانية لغة الادارة ، وسادت اللغـة الفارسية في البلاط الامبراطوري الذي اصبح مركزاً مرموقاً للاشعاع الثقـافي الايراني في الهند . تميزت سياستهم باللين ، وحكمهم بالعدل والنصفة تجاه الفلاحين والهنود . وقد حاولوا جاهـدين ان يتعاونوا باخلاص مع ابناء البلاد الوطنيين ، فحافظوا بذلك ، على استمرار الحضارة الهندية ، كما ابقوا المجتمعات الهندية على وضعها الطبقي الاجتماعي . وهكذا بدا وضع الفاتحين اشبه مـا يكون كالزبد يطفو على سطح البحر .

فاذا ما استطاع اورنكزيب ان يوسع من مدى فتوحاته ، فقد عرّض للخطر سيادة المغول على البلاد . عُرف عنه تمسكه الشديد باهداب الدين وبتعصبه المقيت ، وباحتقاره وازدرائه لكل ما هو غير مسلم . ولذا راح يكثر من اعمال المطاردة والسخرة يرزح تحتها رعاياه . وابعد عن وظائف الدولة ، كلما استطاع الى ذلك سبيلا ، الحكام الهندوس ، والشيعة من الموظفين وأحلّ محلهم موظفين سُنّة . وحدثته نفسه بحمل الهنود على الاسلام بالقوة ، كما اصلى الهندوكيين اضطهاداً عنيفاً يفرض عليهم ضرائب خاصة هي الجزية . وحوّل معابدهم الى مساجد وأخذ بتعذيب رؤسائهم الدينيين . فلم تلبث سياسته هذه ان اثارت بين الهنود ردة فعل اهاجتهم ضد المغول . كذلك نفّر بسياسته الهوجاء اشد الاتباع ولاءً له حتى الراجبوت انفسهم الذين عرفوا بشدة بأسهم ، كما ان المراكز التي كانوا يحتلونها في هذه المقاطعات الخاضعة للاسلام والتي كانت تفضي بسالكيها الى « ابواب افغانستان » جعلت منهم عناصر لا يُستغنى عنهم . فقد انتقض عليه السيخ والمهرات . وبعد موته ، عام ١٧٠٧ ، تراخت قبضة سلاطين المغول على الهند واصبحت سيطرتهم عليها رخوة هشة ، وبقيت امبراطوريتهم قائمة بالاسم فقط . وقد استمر كبار الموظفين يحملون عندهم الالقاب التي حملوها من قبل معلنين ولاءهم للمغول الكبير ، اما في الواقع فقد كانوا مستقلين . وكان من جراء الحروب التي نشبت فيما بينهم بغية الاستئثار بالسلطة ان جعلت ادارتهم خواء ، جوفاء ، وحكمهم سلسلة من الاجراءات لا طائل تحتها . فلم يلبث ان أطل البدو من وراء الحدود، لينقضوا كالشهاب الخاطف على الامارات الهندية يعملون فيها نهباً وسلباً قبل ان تقوم بردة فعل . فلا عجب ان تعود هذه الانقسامات الداخلية بالخير على الاوروبيين الذين كانوا يتربصون بها الدوائر ، فساعدتهم على فتح الهند واستعمارها .

ولم تلبث شدة المنافسة بين المطالبين بالعرش ان أدت الى انحلال السلطة في البلاد . وقام اولاد اورنكزيب الثلاثة يتنازعون فيما بينهم اطراف العرش ، ويقتتلون في سبيل تأمين صيرورته الى كل واحد منهم . وقد تم الامر نهائياً لابنه البكر بهادر ، واحتفظ بالسلطة حتى عام١٧١٢ . وقام ابناؤه الاربعة، من بعده، يتجاذبون خلافة ابيهم فيما بينهمْ ، مما أدى الى قتل ثلاثة منهم ، فعاد الأمر لاصغرهم سناً ، المدعو ياهندر الذي اصبح المغول الاكبر فحكم البلاد سنة ١٧١٢ — ١٧١٣ ، الا ان ابن اخيه المدعو فاروقشير ، شق عصا الطاعة على عمه وتمكن من هزيمته وأمر بخنقه . ثم اعتلى العرش ، وتولى الحكم من سنة ١٧١٣ الى ١٧١٩ ، وانتهى الامر معه الى المصير ذاته ، على يد الهندوس الثائرين الذين نادوا تباعاً ، ببعض ذراري اورنكزيب ، سلاطين على الهند ، فحصدهم الموت وراحوا فريسة للدسائس والثورات والمؤامرات الى ان انتهى الامر الى واحد منهم يدعى السلطان محمود ، الذي كان حكمه بين ١٧١٩ — ١٧٤٨ ، اشبه ما يكون بحكم الظل . وخلفه في الحكم ، في الظروف ذاتها ، السلطان احمد (١٧٤٨ — ١٧٥٤) ، وعلمجير الثاني (١٧٥٤ — ١٧٥٩) وعَلم الثاني (١٧٥٩ — ١٨٠٦) فقد كانوا جميعاً، باستثناء علمجير الذي سقط وهو يجاهد، اباطرة ظل ، وألعوبة بيد الاحزاب المتخاصمة، يوزعون

الالقاب والفرامانات ، ذات اليمين وذات الشمال ، همهم الوحيد إلباس الامر الواقع لباس الشرعية ، والتاج ينتقل من هامة الى اخرى ، وفقاً لميزان القوى والمزايدة في الثمن .

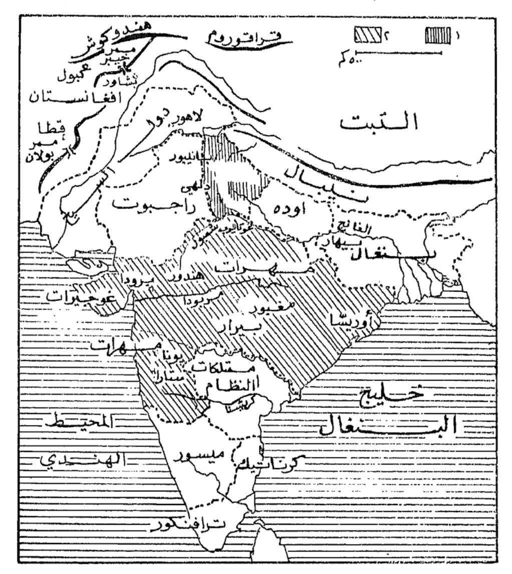
ولما كان هؤلاء المتنازعون على العرش ، والمطالبون بحق الخلافة بحاجة لمن يشد من أزرهم . فقد راحوا يستنجدون نصرة الجماعات الهندية ، ولا سيما الراجبوت منهم والسيخ والمهرات ، الذين تمكنوا من تأسيس ممالك وطنية، جاء طلوعها تعبيراً بليغاً لهذه الحركة الرجعية التي قام بها الهندوس ضد حكم المغول .

وقد ألف الراجبوت ، باكراً ، من الامارات التي تمتعت بشبه استقلال ، اتحاداً عاماً واطل عهد تحررهم الفعلي عندما راح الراجا عجيت – ينغ ، نائب ملك احمد آباد – يسترجع عام ١٧٢٠ ابنته التي كانت تحت السلطان فاروقشير ، وحملها على انتزاع لباسها الاسلامي ، وطرد وصيفاتها المسلمات . فكان بذلك اول راجا في الهند يسترجع ابنته بعد زواجها من ملك مسلم . الا ان الامراء الراجبوت كانوا على اختلاف عظيم وانشقاق بالغ فيما بينهم بحيث قصروا عن القيام بالدور الحاسم الذي اهلتهم له بسالة فرسانهم وموقعهم الجغرافي .

فبعد ان اصلى اورنكزيب السيخ اضطهاداً حامياً ، حسن وضعهم بعد ان آل الامر الى بهادر الذي اتسم حكمه بالتساهل الديني ، وادخل في خدمته مرشدهم وزعيمهم الديني غوبند. الا انه اقتضى لهم اكثر من نصف قرن من الجهاد المرير والحروب الموصولة ، لتأمين سلامة مؤسساتهم في حوض نهر الهندوس . وقد تم لهم ذلك بواسطة عقيدتهم الدينية التي غدت فيهم مكارم الاخلاق وبعثت فيهم الحماسة والنشاط . فقد كوّنوا طائفة ظهرت بوادرها في القرن الخامس عشر ، تألفت من عناصر هندية متعددة الجذور والفروع . فقد عزفوا عن الشرك وعن عبادة الاصنام ، كما ضربوا عرض الحائط ، بالطقوس الدينية والفروق الطبقية ، فتألّب حولهم جماهير كثيفة من الهندوس ، من كل الطبقات الاجتماعية ولا سيما من طبقة المنبوذين ، فقالوا بوحدانية الله ، كما قالوا بالقدرية ، مما زادهم حماسة ونشاطاً اثناء المعارك التي خاضوها ، وفرضوا ، في الحين ذاته ، بذل الجهد الشخصي ، وعمل البر ، ومحبة الله والقريب كشرط اساسي للخلاص . ومن وصاياهم الا يديروا ظهورهم للعدو وان يمتنعوا عن تعاطي المسكّرات والمخدرات ، وابيح لهم اكل اللحوم مما امّن لهم قوة بدنية لم يتوفر مثلها في غيرهم من الهنود الذين يعيشون على البقول والخضراوات . « وهكذا فقد جعل الايمان من هذا اللمم من الهنود الذين لا يعترفون بنظام الطبقات امة أعطت البلاد خير ما لديها من جنود ..» وانتهى بهم الأمر الى استرجاع البنجاب ، كما تمكنوا ، عام ١٧٦٤ من احتلال مدينة لاهور .

أما المهرات ، فقد ألـّفوا ، في الاصل عرقاً جبلياً من قبيلة الغات الغربيين فشكلوا فُرقة من الخيالة ، اشتهرت ببسالتها وبسرعة حركاتها بحيث كانت تنقضّ على العدو على حين غرة منه فتزرع الخوف والرعب في النفوس . فقد أعلنوا الثورة في القرن السابع عشر وانضمّ الى

صفوفهم عدد كبير منفجّاج الآفاق والمغامرين الأشداء قدموا من كل فجّ وصوب ، فيغيرون على المقاطعات الاسلامية ويعيثون فيها نهباً وسلباً يستولون على كل ما يؤمن لهـــم أود العيش . وفي سنة ١٧٠٨ ، حمل زعيمهم المدعو سهوجي سلطان المغول ، على الاعتراف باستقلالهم ، ولم يلبث



خريطة - ٤ الممالك المنفصلة عن الامبراطورية المغولية والممالك الاخرى القائمة الى الجنوب من الهند
١- المنطقة الخاضعة فعلاً لسلاطين المغول - ٢- المناطق التي يشرف عليها المهرات .

ان نودي به ملكاً على المهرات ، وجعل مدينة ستارا عاصمة ملكه . وقد قبل خليفتـــه على العرش ، الراجا شـــاو ان يُعلن ، عام ١٧٠٩ ، تابعيته لأحد المطالبين بعرش سلاطين المغول ، فعهد اليه هذا باستيفاء الضرائب في ولايات الدكن السبـع ، على ان يحتفظ المهرات لأنفسهم ، بالاضافة الى ريـع الرسوم الجباة ، عشرة بالمائة (اي ما مجموعه ٣٥ ٪ من الرسوم) . فتوفرت

بذلك لهم الوسائل المالية اللازمة لانشاء جيش قوي ، كما تمت لهم سلطة شرعية كانت ستاراً لهم ومبرراً للقيام بهذه الاستباحات واعمال السلب والنهب التي قاموا بها في هذا القسم الشمالي من الدكن . وبعد ان اصيب الراجا شاو بالخول ، من جراء وقوعه في *Zenana* اورنكزيب ، أو رسوفه في الاسر أصبح هو وخلفاؤه من بعده ، خاملاً ، كسولاً ، قعدة . فقد صار الامر الى سدنة البلاط : البايشوى الذين تولوا زعامة المهرات وتوجيههم ، واستمروا في مناصبهم مشرفين على إقطاعاتهم في بونا حيث أسسوا سلالة ملكية . فأقطعوا ضباط جيش المهرات المناطق والاقاليم ومجموعة القرى والدساكر ، وفوضوا اليهم جباية الضرائب والرسوم . وهكذا تحول حكم المهرات تدريجياً الى نظام إقطاعي . فقد نال اول امراء البايشوى ، من سلاطين المغول عام ١٧٢٧ ، حق جباية الضرائب في هذه الدول والامارات الواقعة الى الجنوب من الدكن (ميسور ، وترافنكور،والكرناتيك) ، وفي الولات الست الاخرى الواقعة في الشمال .وقد بسط ثاني امراء البايشوى هواجي الراجي – داو (١٧٢٠) سلطانه حتى حدود الانهر : تشامبول والجوما والغانج، ووزع هذه الاراضي الجديدة التي دوخها، إقطاعات بين بيوتات المهرات الاربعة الكبيرة : فنال الهلكار ، مالوى الجنوبية وجعلوا من اندور عاصمة لهم ؛ ونال الندهيار مالوى الشمالية وعاصمتها غوالبور . ونال البهوسلا بيرار مع نغبور عاصمة لها ، كما نال الغويكوار قسماً من الغوجيرات وعاصمتها بارودا . وهكذا امتد حلف المهرات حتى مشارف دلهي ، وفي عهد الثالث من امراء البايشوى ، المدعو بالاجى داو (١٧٤٠ – ١٧٦١) ، استمر المهرات في هجومهم وغزواتهم في جميع الجهات . ولم يفشلوا الا مع الفرنسيين ، فاضطروا للاعتراف لهم بالتابعية والولاء (١٧٥١) . غير ان الانشقاقات التي شجرت بين امراء المهرات وبينهم وبين امراء البايشوى ، الحقت الوهن بالحلف الذي كانوا توصلوا الى انشائه . فلم يكونوا ليوحدوا فيما بينهم ويستجمعوا قوامهم الا عندما يرون انفسهم امام خطر مداهم يتهددهم من جانب المغول .

والهندوس مدينون بالنجاحات التي حققوها ، لهذه الانقسامات التي اقامت المسلمين في الهند بعضهم على بعض وفرقتهم . فقد تمت الغلبة لفاروقشير ، بفضل مناصرة شقيقين من السيّاد (من سلالة النبي العربي) ، سليلي اسرة شيعية استوطنت منذ بضعة قرون مقاطعة دواب *Doab* ، كانت تفخر باصلها الهندستاني : احدهما حسين علي ، نائب حاكم بُتنا ، الذي آلت اليه رئاسة الوزارة ، والثاني عبدالله خان ، نائب حاكم الله اباد القائد العام فيها . كان تحت امرتهم عدد من الانصار ورجال الحرب . فقد نهجا سياسة قومية هندستانية ، وعينا في المراكز الحساسة الهامة بعض العسكريين من انصارهما . وإذ رأى فاروقشير انهم على جانب من القوة راح يناصر المغول . واذ ذاك جمعوا صفوفهم ولموا انصارهم ونادوا باسقاط فاروقشير وخلعوه وعينوا مكانه محمداً واخذوا بتوجيهه .

ضاق نبلاء المغول وأشرافهم صدراً مما لحقهم من خسف وأصابهم من اهانة ومذلة ، فاهتاجوا

وأعلنوا الثورة. وتمكن نظام الملك سوبادار مالوى من التغلب على الشقيقين وتمكن من انقاذ الامبراطور عام ١٧٢٠ . وكان من نتائج هـــذه الردة المغولية ان افضت الى تفسخ جديد في الامبراطورية المغولية وتخلخلها. واذ اتضح لنظام الملك ان الامر خرج من يد الامبراطور الذي اصبحت سلطته واهية ، اقتطع لنفسه (١٧٢٢ — ١٧٢٤) امارة في الدكن وأسس فيها دولة وراثية ، اقامت صورياً ، الولاء للمغول الكبير . وسار على هذا النهج ايضاً ، في نيابة أوده الملكية ، سودوت خان ، هذه النيابة التي وقفها عليه السلطان محمود ، مكافأة له على خدماته . وعلى هـــذا النحو قس ايضاً نيابة البنغال وبيهار واوريسّا التي انفصلت عن الامبراطورية وأعلنت استقلالها . ولم يبق للمغول الكبير من سلطة فعالية الا في مدينة دلهي وضواحيها .

اما المهرات الذين كانوا في سبيل بسط سيطرتهم على الهند اجمع ، فقد اصطدموا في تقدمهم وتوسعهم بالدول الاسلامية ، ولا سيا بالنظام ، واخذوا يطالبون بفرض الرسوم والضرائب على ممتلكاتهم . ومع ان النظام فشل في حروبه ضد المهرات (١٧٢٩ — ١٧٣٦) فقد نال مع ذلك، وعداً بألا يدخل المهرات الى ممتلكاته . وقد تعهد من جهته بألا يسبب لهم اي ازعـاج ، ولا أية مضايقة في متابعتهم فتوحاتهم باتجـاه الشمال وباستئناف غزواتهم في هذه الناحية . وقـام المهرات بعدة غزوات امتدت الى مشارف البنغال ، واجبرت بيهار واوريسّا على دفع جزية لهم ، وكذلك كان شأن راجا ميسور . ووجه بلاجي‌راو غزواته باتجاه الراجبوت والبنجاب والاوده واستولى على مدينة باسّن بعد ان طرد البرتغاليين منها ، وهدد غوا بالمصير ذاته ، وقام بغزوة على الممتلـكات الفرنسية الا انها باءت بالفشل . وقد بدا ان مغازي المهرات ستتنـــاول الهند في جميـع اطرافها فرُكب الهم والغم نبلاء المغـــول ، كما ان القلق دب بـين التجار والفلاحين الهنود . وهكذا تعطل في البلاد النظام الاجتماعي المعمول به وبارت التجارة وأرهق الفلاحون . وقام خليفة نظام الملك ، هو النظام سلبات — يونغ بجهود طيبة في هذا المجـــال واستعان بفرقة السيباي التي كانت تعمل تحت إمرة الضابط الفرنسي بوسي الموفـــد من قبل المعتمد الفرنسي دوبليكس . وقد انكسر بلاجي — راو ، عـــام ١٧٥١ ، الا ان الفرنسيين اضطروا للانسحاب عندما اشتدت منافسة الانكليز لهم ، وغُلب سلبات يونغ على أمره واضطر للدخول في مفاوضات مع الانكليز انتهت بالتخلي عن بعض ممتلكاته . واستأنف خليفته نظام علي الجهاد ، الا ان الفرنسيين تخلوا عنه عند نشوب حرب السبع سنوات. بعد ان عرف المهرات كيف يستفيدون من تفوق جنود فرقـة دي بوسي ، فأعادوا تنظيم جيشهم ، وقوّوا من شأن فرقة المشاة والمدفعية عندهم بتزويدها بمدافع شبيهة بمـــا كان منها لدى الفرنسيين . وهكذا غـُلب نظام على امره وتوزعت ممتلكاته بدداً .

هذه الحروب المتصلة الحلقات بين الهندوس والمغول وما اتاحت من نهب وسلب واستباحات عرضت الامبراطورية المغولية لغزوات جديدة بعد ان طمع بهـــا الطامعون . فبعد ان عامل امبراطور المغول ، شاه العجم نادر شاه ، بازدراء وعجرفة، راح هذا الاخير يهاجمه عام ١٧٣٩.

فوجد الشاه في منطقة كابول وبشاور نواب ملك عاجزين دانوا بوظائفهم للمحسوبية ، كما وجد الحاميات في غاية الاهمال ، والقبائل التي عُهد اليها الانذار بالخطر والاستنفار والحد من تقدم الغزاة ،تتذمر وتتأفف غير راضية لعدم قبضها مرتباتها . فدخـل الهند وكسر السلطان محمود واستولى على دلهي وقام بنهب البلاد بصورة منتظمة ، وحمـل معه عرش المغول الكبير ، ثم غادر البلاد وقفل راجعاً فجأة بعد ان اوصى السكان بطاعـة الامبراطور والامتثال لاوامره بعد ان اوسعه نهباً وسلباً . وقد قام الافغان بقيادة احمد عبدلي يغزون الهند مراراً ، بعد ذلك، سنة ١٧٤٨ ، الا انه تمكن منإيقافهم واخراجهم من البلاد ، ومنغزوها سنة ١٧٥٢ فتمكنوا من احتلال البنجاب وتعيين نائب ملك مغولي فيه ليس له من السلطة سوى الاسم ، وفي سنة ١٧٥٦ استولوا على دلهي ، واخيراً سنة ١٧٥٩ . وقام الهنود هذه المرة بكرة عامـة اشترك فيها المهرات والسيخ ، الا ان الانشقاقات الحادة نشبت بينهم وهم يواجهون عـدواً مشتركاً . فقد تخلف عن القدوم البهوسلا من بيرار ، ونائب ملك بوده التزم موقفاً معـادياً من المهرات . كما انسحبت جماعات اخرى من المواقع المخصصة لهـا في تعبئة الجيش . ولم يعرف المهرات ان يستفيدوا كما يجب ، من مدفعيتهم ومن الفرق العاملة لديهم والمعبئة على نظام التعبئة الفرنسي ، عدا عن الفرق التي لم تأت شيئاً يذكر والتي لم تعرف ان تنسق حركاتها وتنقلاتها في اثناء المعركة لتأتي منسجمة مع حركات الفـرق المختلفة . وفي معركة بانيبوت التي وقعت في ٧ كانون الثاني ١٧٦١ ، انهزم المهرات شر هزيمة امـام مناورات الخيـالة الافغـان الضخمة وهجماتها العنيفة المتكررة .

ومعركة بانيبوت والهزيمة النكراء التي الحقتها بالمهرات ، وضعت حـداً في القرن الثامن عشر للحلم المعسول الذي راودهم بان يروا الهند حرة مستقلة . فقد فُتّ في عضد المهرات بعد معركة بانيبوت الطاحنة التي خسروا فيها ٢٠٠،٠٠٠ جندي من خيرة رجالهم ومعظم قوادهم وزعمائهم بقطع النظر عن النساء والاطفال . ومنذ ذلك الحين اصبحوا اعجز من إخضاع الهند وتوحيدها في دولة متماسكة الاطراف لتقف بنجاح ضد هجمات البدو ، هذا اذ سلمنا جدلاً انه جـال في خاطرهم مثل هذا الحلم ، وأوتوا مثل هذه القدرة . اما الدول الهندية الأخرى فقد كانت ضعيفة الجانب ، مهيضة الجناح . وكذلك قس الدول الاجنبية كالافغان الذين لم يبرهنوا الا عن مقدرة فائقة على الغزو والنهب والسلب ؛ وايران التي راحت فريسة حروب اهلية ، داخلية ؛ وقبائل التركستان والمغول التي لم تلبث ان راحت فريسة هجوم الصينيين بعد ان تمت لهـم مدفعية من الطراز الاوروبي . ومن جهة أخرى ، فالتطور الذي عرفـه حلف السيخ وتمركزه في مدينة لاهور ألف حاجزاً قوياً في وجه الغزوات التي كان يقوم بها الافغان ، كما وقف حاجزاً دون تعديات شذاذ الآفاق في التركستان والعجم الذين كانوا يمدون الامبراطورية المغولية بحاجاتها من قواد الحرب ورجال السياسة . وهكذا سار الامبراطور والامبراطورية المغولية على طريـق الانحلال والانهيار ، ولم يعد في مكنة أحد ان يعيد الى الهند وحدتها بعد ان اصبح تاريخها سلسلة

متصلة الحلقات من الفوضى والاشتباكات الدامية . فعم البؤس البلاد وخيم عليها الضيق، وقامت سلامة الأفراد وأمنهم ، قبل كل شيء على سواعدهم والاعتصام بالحيلة . اذ لم يعد المرء يهتم قبل كل شيء الا بما يؤمن له أود العيش وما فيه أمنه وسلامته ، لا يلوي على شيء وفقد كل ثقة بالناس . وبارت الارض وما عليها من زرع وضرع ، لفقدان الطمأنينة ولاشتداد المجاعة في البلاد . وتعرضت المواصلات لمخاطر كثيرة واصبح المسافرون عرضة لفتك النمرة والفيلة، وشلت حركة التجارة في البلاد . فالقرى اقفرت من ساكنيها، والمدن غادرها اهلها ، وتداعت للخراب الهياكل والمساجد في مقاطعات كثيرة . فتدخّل الاوروبيين وحدهم في القرن الثامن عشر ، سيساعد على إعادة النظام واستقرار الأمن تدريجياً في البلاد ويفتح امامها ابواب التطور .

بذل الاكليروس مجهوداً طيباً في حقل التبشير بالمسيحية في الهند ، ولا سيما في ممتلكات البرتغاليين ومراكزهم الرئيسية امثال غوا وديو ودامان ، كما عمل في هذا المجال ، بجال الرسالة بعض ابناء الرهبانيات الكبرى . قام في وجه الرسالة عقبات كأداء كثيرة . فالمسيحية قالت وعلمت بمبدأ المساواة ، وهو مبدأ يتعارض كلياً ونظام الطبقات المعمول به في الهند . فالروح يهب حيثما يشاء والله لا يأخذ قط بالوجوه . فكيف يألف البراهمان او يقبلون فكرة تناول القربان من يد كاهن هو من طبقة المنبوذين ؟ فمجرد تصور الاحتمال تدنيس له وتلطيخ لطهارته ، ومجرد التفكير به يجعل فرائصه ترتعد فرقاً وجزعاً ، كما ان مجرد اعتناقه للمسيحية يخلف فيه عوجاً او شوهاً لكيانه ويسبب له عذابات مبرحة . فالهندي الذي اعتنق المسيحية وارتضاها له عقيدة ودستوراً ، لم يعد يجوز له الخضوع للمراسيم والامتثال للطقوس الدينية التي كان عليه ان يأخذ بها ويخضع لها وهو على الهندوكية ، وكذلك قل عن الخرافات والطقوس الصنمية . وافراد الطبقة الذين انفصل عنهم وانقطع عن شراكتهم لا يستطيعون بعد ان يحافظوا على هذه الوشائج والروابط التي شدتهم بعضاً الى بعض من قبل ، بعد ان اصبح المتنصر ، في نظرهم ، رجساً ، نجساً ، كما امتنع على هذا المتنصر الدخول في أية طبقة اجتماعية اخرى . ولذا فهو يجد نفسه مفصولاً او مقطوعاً عن كل طبقة ، معزولاً عن جميع الناس ، مشرداً ، مرذولاً ، ضائعاً في متاهة الحياة .

ومن جهة ثانية ، فالمسيحية هي نفي من الاساس ، لهذه الصورة التي رسمتها كتب الهندوس القديمة للكون ، والتي قالت بها الهندوكية وعلمت ، والتي تمور بها وتلهج اناشيد الهندوس وزبورهم . فالصعوبة الكبرى لم تقم في القول بتعدد الآلهة ولا بالقول بالمذهب الروحي في الحيوانات . فهي تكمن في هذه الفكرة الاساسية التي تقوم عليها الفلسفة الهندوكية بعد أن تلقحت البراهمانية بالمؤثرات اليانية والبوذية ، كالمطلق والكائن غير المتناهي ، والخالد ، وكلها افكار آخذة ابداً في تطور دائم . وهذا الكائن المطلق يبدو للناس انبثاقاً متصلاً من الاشكال والكائنات المتغيرة ، ممثلة في هذه الكواكب والاشياء والنباتات والحيوانات والناس والآلهة انفسهم ، وهي صور واشكال ليست في الواقع سوى خيالات ومظاهر غرارة لهذا الكائن

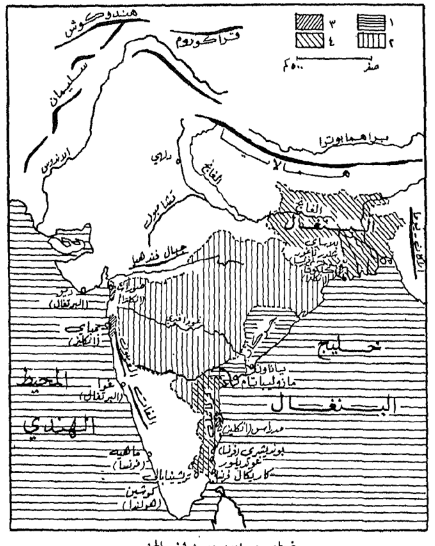
المطلق لا وجــــود ولا حقيقة لها في غــير ذاتها . هذا القول يفضي بصاحبه الى الحلولية . فالاشياء كلها اجزاء من المطلق ، من الكائن الأسمى . وهــذا القول بالذات يصدم المسيحية في الصميم ويبطل العقيدة المسيحية ويملأ نفس المسيحي رعباً وظلاماً . وبالفعل ، فمع ان الايمـــان بيسوع المسيح هو بمعزل عن كل فلسفة او مذهب فلسفي، فقد راح علماء اللاهوت يستعينون ببعض المصنفات التاريخية ليفسروا كلام الله ، اي الكتاب المقدس لتقريب مفهومه من مدارك الناس ، مستعينين على ذلك ببعض الاصطلاحات والتعابير والتراكيب التي وردت على ألسنة فلاسفــــة الأغريق كأفلاطون ، ولا سيما ارسطاطاليس ، ثم توسعوا فيها واكملوهـــا . فالعقيدة المسيحية اتضحت وتبلورت وتركزت على اساس من هذه المصطلحات الفلسفية التي تقول اساساً بـــأن للاشياء المحسوسة جوهرها الفرد، هذه الصورة المتعدّدة التي تعطي المادة شكلها وكيانها وصيغتها وطبيعتها المميزة . فالكون وجود واقعي . فالعالم الخارجي ، قائم موجود . وهذا القول يجعل العقيدة المسيحية بوجود اله شخصي ، جوهر روحي ، حقيقي متميز اصلا وجوهراً عـــن العالم ، الاساس الركين للايمـــان بالسيد المسيح . ففي نظر هندي مثقف كما يجب ، فالمسيح ليس سوى مظهر من مظاهر الكائن الاكبر التي لا عدّ لها ولا حصر . فاعتناقه المسيحية والقول بمقالتها ، يكوّن عنده بالفعل ، انقلاباً جذرياً ، كلياً ، لافكاره ومكنوناته ويقلبهـــا رأساً على عقب وظهراً لبطن .

هذه الصعوبات وغيرها كثير لم تحــــل دون حصول ارتدادات بين الهندوس واعتناقهم النصرانية ، انما هي ارتدادات اقل بكثير ممـــا تمنته محبة المرسلين وسعت غيرتهم الملتهبة الى تحقيقه ، وقد تاقوا لو يستطيعون ارتداد كل الهندوس . فقد قـــام الآباء اليسوعيون ، في القرن السابع عشر بجهود جبـــار ليوفّقوا بين المسيحية وبين فكرة الهندوس ونظامهم الاجتماعي . فقد حافظوا على مظاهر طقوس هندية كثيرة ، ووضعوا اناشيد وأماديح دينية تحاكي من حيث شكلها ومحتواها ، الاناشيد والتراتيل الهندوكية القديمـــة بحيث لا يستطيع التمييز بينها الا من أوتي بعد النظر وصدق الخبر ودقة البصر . وقد اقتبسوا كثيراً من حكمة الهنود وادخلوها حِكمَ المسيحية ، وراعوا ، مـــا امكن ، مفارقات الطبقات الهندية . فاليسوعي الذي تلبس مظاهر البراهمان ازدرى بأخيه اليسوعي المتدثر باسمال المنبوذين وضرب كشحاً عنـــه . فاذا ما تحتم على يسوعي مثلا ان يحمل القربان الاقدس لمسيحيين من طبقة ادنى ، كان عليـــه ان يناولهم القربان على رأس قضيب او ان يتركه على عتبة منزل المسيحي . وهذه « الطقوس الملابارية » ، سببت الشكوك لعدد كبير من المرسلين وحركت فيهم الغضب والحقد . فقد اصدر البابا ، منذ عـــام ١٧٠٤ براءة رسولية يشجبها باعتبارها مغايرة للروح والآداب المسيحية . وفي عام ١٧٤٥ جاءت البراءة البابوية *Sollicitudo omnium* تؤيد الحكم السابق وتثبته . فلا عجب ان تخف من جراء ذلك حركة الارتدادات . ومع ذلك ، فقــد بلغ عدد المسيحيين في الهند ، عام ١٧٥٦ ، نحواً من المليون . الا ان الملوك اخذوا بمحاربة اليسوعيين . ففي سنة ١٧٥٧ ، أمر بمبال باعتقـــال

١٥٧ مرسلاً يسوعياً في الهند وإبعادهم الى لشبونة . وفي سنة ١٧٥٨ ، صدر امر يمنع الآباء اليسوعيين من القيام برسالتهم في المستعمرات البرتغالية ، فاضطر بضع مئات من الرهبان والمرسلين الى مغادرة تلك المقاطعات ، والعودة من حيث أتوا . وفي سنة ١٧٦٤ ، جاء دور المستعمرات الفرنسية . وفي نهاية المطاف اصدر البابا عام ١٧٧٣ ، مرسوماً بالغاء الرهبنة اليسوعية، مع العلم ان الحروب المتصلة وفساد الاخلاق والآداب الآخذ بالانتشار لم يكن ليساعد كثيراً على نشر ديانة تقوم على البذل بالنفس والتجرد والمحبة ، والتي تجعل من طهارة القلب الشرط الاساسي لاقتبال كلمة الله ، والى هذا ، راح المسلمون والهندوس انفسهم يضطهدون المسيحيين . ففي خلال حروب ميسور (١٧٦٦ – ١٧٩٩) قتل تيبو – صاحب ، اكثر من ١٠٠،٠٠٠ مسيحي او جعلهم يرسفون أرقاء في العبودية . والهولنديون الذين كانوا على البروتستانتية ، اخذوا ، هم ايضاً ، يضطهدون الكاثوليك ، في جزيرة سيلان ، ويطردون المرسلين العاملين فيها او يأمرون بقتلهم . ففي سنة ١٨٠٠ ، لم يكن عدد المسيحيين في الهند ليزيد على ٥٠٠ الف. ثلثاهم قام في المستعمرات البرتغالية القديمة ، يقوم على خدمتهم الروحية اكليروس وطني ، بينما الباقون منهم هم مشتتون في جميع ارجاء الهند وسيلان ، على خدمتهم مرسلون كبوشيون وكرمليون ومرسلون تابعون للارساليات الاجنبية . وهكذا فشلت حركة الارتدادات كلها فشلت تماماً حركة فرنجة الهند وتمثلها الحركة العلمية الاوروبية .

وقد نجح الاوروبيون في مجال آخر ، خارجي المظهر ، سطحي المنظر ، هو بدء استعبادهم الهنود واستثمارهم لمرافق الهند . ففي ، مطلع القرن الثامن عشر نشط للعمل في الهند شركتان تجاريتان احداهما فرنسية والاخرى انكليزية . لكل واحدة منهما مجلس ادارة اعضاؤه من بين كبار حملة الاسهم فيها. فالشركة الانكليزية تتولى هي نفسها ، ادارة اعمالها ، بينما كان يتولى ادارة الشركة الفرنسية مدير يعينه الملك نفسه وتخضع اعمالها لمراقبة مفتشين ماليين . وعلى المدير ان يتقيد بتعليمات الحكومة الفرنسية وتوجيهاتها . وكان مجلس الادارة يتمثل في الهند بحاكم عام يتولى مهام الادارة ويقوم بتوجيه وكلاء الشركة وممثليها في المقاطعات . وقد نالت كلتا الشركتين من المغول الكبير ، إمتيازات تخولها تأسيس وكالات تجارية لها . فأنشأ الانكليز لهم وكالات هامة في مدراس وكلكوتا وبمباي وصورات ، كما أنشأ الفرنسيون وكالات لهم في بنديشري وشندرناغور . واشتدت المنافسة بين الشركتين اشتداداً قوياً اذ ان تصدير البضائع الهندية الى أوروبا (منسوجات القطن والموسلين والحرائر والشاي والبن والفلفل الخ) كان يعود على التجار بأرباح طائلة تصل احياناً الى ١٠٠٪ الا انه منذ ١٧٣٠ ، كان معظم حملة الأسهم في الشركة الفرنسية من ذوي الايراد المحدود الدخل. كما ان مديري الشركة هم موظفون لا يهمهم كثيراً نجحت اعمال الشركة التجارية الموضوعة تحت اشرافهم او ازدهرت مشاريعها او لم تنجح .

تمكنت الشركة الفرنسية من النهوض بأمورها التجارية بين ١٧٢٠ – ١٧٤٠ ، بشكل يثير



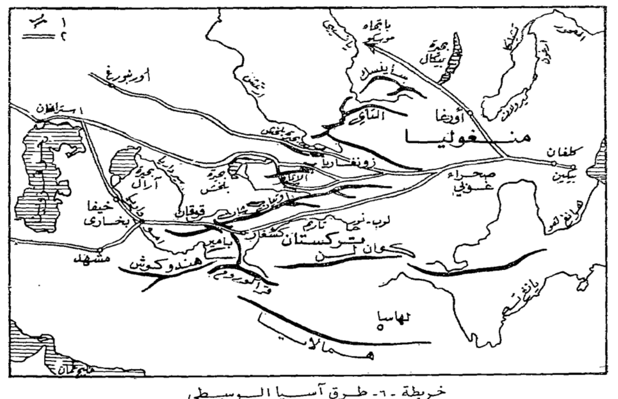
خريطة ـ ٥ الاوروبيون في الهند

الممتلكات الفرنسية الى عام ١٧٥٤ - ١ ممتلكات تابعة مباشرة للشركة الفرنسية - ٢- ممتلكات الحلفاء والاتباع - الممتلكات الانكليزية : ٣ - الى عام ١٧٥٤ - ٤ - الممتلكات التي جرى ضمها او فرضت عليها الطاعة منذ ١٧٥٤

الاعجاب . فبينما اعمال الشركة الانكليزية كانت تعاني الركود والجمود ، فقد اعتمد الحاكم الفرنسي العام «ده نوار» ، مبدأ الاتجار في الهند ومع الهند ، بالنظر لهذه الفوارق العظيمة التي باعدت بين مختلف اجزاء البلاد والعباد فيها ، اي ان الشركة استخدمت كوسيط في اشباع مطالب شعوب الهند وتلبية حاجاتها . فاستطاعت الحصول على امتيازات جديدة من المغول الكبير ، منها مدينة ماهيه (١٧٢١) وياناون (١٧٢٣) . فقد بدا واضحاً للحاكم الفرنسي العام دوماس (١٧٣٥ — ١٧٤١) ، وهو يشاهد عن كثب تفسخ امبراطورية المغول وتناثرها ، ان الاستمرار في الاعمال التجارية بنجاح يقتضي له قوة مسلحة تفرض حولها الهيبة والاحترام وتدعم المفاوضات التي تقيمها الشركة مع مختلف الامراء الذين يحققون استقلالهم الناجز . فلم يغفل في تقديره ما للعرف من اهمية (كما انه لم يلتقص بوصفه مستعمراً مطلعاً جيداًعلىما للأوضاع المتحكمة) من قيمته ، وادرك جيداً ان الهنود سيكونون غيرهم بعد ان يتعرفوا الى النظام الأوروبي المدهش ويستمرئوا مميزاته وحسناته . فشكل طوابير وطنية اتخذ افرادها من بين فرقة السيباي المعروفين ببرودة دمهم ورباطة جأشهم ، حتى اذا ما تسلحوا بالبنادق الجديدة والمدفعية الخفيفة ، قاموا بالمعجزات المدهشات اذا ما قيسوا بغيرهم من الهنود الذين يتألف سلاحهم من بنادق قديمة ومدافع ثقيلة والدروع المزردة وغير ذلك من الاسلحة . وأنشأ له علاقات مع بعض الامراء كنائب كرناتيك ، ولم يتردد قط عن الاعتراف لهم بالتابعية والولاء . وتعهد له ، لقاء إيلائه امتيازاً جديداً للاتجار ، بدفع بعض الرسوم كما قدم له مراسم الطاعة مع فرقته السيباي . وهكذا نال من احد الراجات امتياز كاريكال عام ١٧٣٩ . وبرهن عن مشاعر انسانية كريمة في علاقاته مع ابناء البلاد ، وأظهر احتراماً لعباداتهم وعاداتهم وطقوسهم الوطنية . ولم يهمل قط امر مفاوضة المغول الكبير الذي انعم عليه بلقب ناباب ، وهو لقب ينتقل الى الابناء بالوراثة . وهكذا اصبح من توابع الامبراطور مباشرة ، وأصبح له في الممتلكات الفرنسية سلطة أكبر على ابناء البلاد ، كما علا شأنه وارتفعت منزلته في نظر جميع الهنود ولا سيما في نظر الملوك والرؤساء وأصبح يتعامل معهم كالند للند .

وسار على نهجه وسننه خليفته في الحاكمية دوبليكس (١٧٤٦ — ١٧٥٤) الذي كان يعرف الهند معرفة عميقة وتزوج من احدى الخلاسيات احسنت التكلم بعدة لهجات هندية . إلا ان حرب خلافة النمسا[1] اضطرته للتوقف في نهجه والصمود في وجه الشركة الانكليزية. واستطاع بمساعدة عمارة لابوردونيه الذي كان حاكماً على جزيرة فرنسا ، ان يتحكم بطرق المواصلات بين الهند والصين ، واستولى على مدينة مدراس (١٧٤٦) وقد تردد قليلاً بين ان يهدم المدينة من الاساس وبين الاحتفاظ بها . الا انه رضي باعادتها الى الانكليز لقاء فدية عالية دُفعت له . الا ان هذا النبيل الفخور الذي ارهقته المفاوضات مع جلف عنيد تنازل عن الهند. ودوبليكس نفسه

(١) ـ انظر المجلد الثالث ، الفصل الثالث .



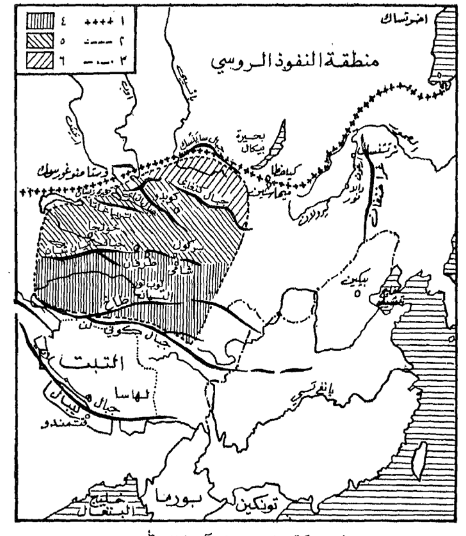
خريطة - ٦ - طرق آسيا الوسطى
١ - الممرات الرئيسية ٢ - طرق القوافل .

اثنى عن متابعة فتح المراكز التجارية الانكليزية . ومع انه لم تصله أية امدادات جديدة من الحكومة الفرنسية الغارقة في حروبها في القارة ، فقد احتفظ بمدراس وتمكن عام ١٧٤٨ من صد هجوم بحري قامت به عمارة حربية انكليزية اوفدتها حكومة الانكليز لتعزيز مركز الشركة الانكليزية التي لم تغفل قط عن حربها الاساسية ضد بُنديشري . وجاءت معاهدة أكس لا شابل تعيد الأمور في الهند الى وضعها السابق : فعادت مدراس الى ايدي الانكليز . وقد تمتع دوبليكس بنفوذ عظيم وشهرة واسعة في الهند حتى ان المغول الكبير بعث يهنئه على البسالة والشجاعة التي ابداها .

وخطر لدوبليكس ، آنذاك ، ان يجعل من الشركة الفرنسية سلطنة هندية، وذلك محافظة منه على ما لها من امتيازات تجارية عريضة وتأميناً لموارد ورسوم ثابتة. فقد اراد ان ينحو نحو التوابع الأخرين الذين يعترفون بالولاء للامبراطور ، وينشىء للشركة مملكة مستقلة مع الاستمرار على ولائه للامبراطور والاعتراف بسلطته الاسمية . فتدخل في المشكلات والنزاعات التي لم يكن لخلافة الامبراطور بد من إثارتها وبعثها ورجح النصر والفوز النهائي للمطالب بالخلافة من انصاره. وهكذا اصبح ناباب كرناتيك من توابع الشركة الفرنسية ، كما ان نائب باب الدكن قَبِلَ بحمايته وتنازل له عن مقاطعة السركار (١٧٤٩ – ١٧٥١) . وقد استنفر المهرات جيوشهم وقوامهم لتأييد مطالبهم للسيطرة على الدكن كاملاً وتوافدوا باعداد كبيرة ، إلا انهم كُسروا شر انكسار ، وهي نتائج أمكن له الوصول اليها بقبضة من الجند ، بينهم ٣٠٠ من الفرنسيين ، و ١٨٠٠ من السيباي مع كتيبة من المدفعية بقيادة المركيز دي بوسي، هذا الزعيم المدهش الذي يعرف كيف يبعث الحماسة والنشاط في قلوب رجاله ، والذي ارسله دوبليكس فعرف كيف يستولي على جميع اطراف الدكن وألحق الهزيمة بجيش المهرات الذي تجاوز ١٠٠،٠٠٠ محارب، معظمهم من الفرسان .

ادرك احد الموظفين الانكليز في الشركة الهندية الشرقية الانكليزية، يدعى روبرت كليف، بعد فترة من الزمن ، ان السبيل الوحيد للصمود تجارياً ، في وجه الفرنسيين، هو انتهاج السياسة التي ينتهجونها ، فقرر السير على خطتهم والنسج على منوالهم . فتاريخ الهند في هذه الحقبة ،يرى في الشركتين المذكورتين المتنافستين ، تابعين من توابع المغول الكبير الآخذ بالانحطاط والانحلال ، يحاول كل منهما الاستئثار بأكبر قسم من تركته . فبعد ان تلقى كليف إمدادات قوية من لندن ، تشكلت من جنود انكليز ومن مدفعية ، تمكن من دحر ناباب كرناتيك (١٧٥١) ، وتغلب في معركة تريشينا بالي ، على الضابط الفرنسي لو *Law* ابن شقيق الاقتصادي المشهور بهذا الاسم ، الذي كان يتولى قيادة فرقة من فرق دوبليكس (١٧٥٢) .

اضطر دوبليكس لطلب امدادات جديدة من الشركة . غير ان الشركة الفرنسية تفتقر المال ، منذ عهد لو ، لتنهض باعمالها وتحقق مشاريعها ، وهي مشاريع لم تكن ثمارها دوماً دانية القطوف . وكانت الحكومة الفرنسية راغبة في السلام وتسعى صادقة اليه . فاستبدلت



خريطة ـ ٧ توسع الصين في آسيا الوسطى

١ـ الحدود التقريبية لمناطق نفوذ كل من روسيا والصين ـ ٢ ـ الحدود التقريبية لمنطقة نفوذ الايلوث ـ ٣ ـ الحدود التقريبية لمنطقة نفوذ الصين الخاصة
٤ـ فتوحات الصين عام ١٧١٥ ـ ٥ـ فتوحات الصين بين ١٧٣٤ ـ ١٧٤٠
٦ـ فتوحات الصين عام ١٧٥٥.

دوبليكس ، بحاكم آخر يدعى غودهو الذي سارع فوقع ، عام ١٧٥٤ ، معاهدة مع الانكليز ، من شروطها ان تتخلى الشركتان عما تنعم به من القاب وطنية ، والتنازل عما لهما من حمايات والتخلي عن كل الامتيازات التي اعترف لها بها خارج مراكزها التجارية . فكانت صفقة المغبون في اقدس حقوقه واعزها ، اذ لم يكن للانكليز غير مراكز تجارية في البلاد بينا الامتيازات التي نالتها الشركة الفرنسية ، والسلطة الواسعة التي تمتعت بهـا ، امتدت فوق رقعة من ارض الهند تبلغ مساحتها ضعفي مساحة فرنسا ، وكانت تعد من السكان ١٣٠ مليون نسمة . ومع ذلك ، وبالرغم من هذه التنازلات لم يكن مندوحة من الحرب بين الشركتين والبلدين .

فبينا اخذ الفرنسيون بشن هجوم على المـانيا ، راح كليف يهاجم البنغال ، المعروف نابابها بعدائه للانكليز ، وباستيلائه على مدينة كلكوتا ، وحشره ١٤٥ انكليزياً في سجن ضيق لا يدخله الهواء ، يعرف بالتاريخ باسم : « الوكر الاسود » حيث قضى ١٢٦ منهم اختناقاً بعد ان عانوا آلاماً مبرحـة . استرجع كليف مدينة كلكوتا واستولى على شندرناغور ، وهزم سوباب بلاس شر هزيمة (١٧٧٥) ورفع الى العرش سوباباً اختاره هو ، رضي بحماية الشركة الانكليزية . واذ ذاك ، حدثته نفسه بمهاجمة الفرنسيين مباشرة . وقد ارسلت الحكومة الفرنسية ، عـام ١٧٥٨ ، حاكماً عامـاً ومديراً للشركة هو لالي – تولندال ، ومعه ٣٠٠٠ جندي فرنسي . غير ان الحاكم الجديد الذي كان يجهل جهلاً مطبقاً امـور الهند وشؤونها ، اظهر احتقاراً كبيراً لهذه البـلاد والهنود ، اذ راح يلقبهم : «بالصعاليك السود» ، وكان سـلوكه في الهند سلسلة من الاغلاط والمساوىء . واستدعى بوسي اليه بحجـة ان فرنسا لا يهمها كثيراً ان ينازع الابن الاصغر اخاه الاكبر السيادة على الدكن ، كما انهـا لا تهتم قط بهذه المنازعات التي تقوم بين راجاوات الهند ونابابتها . ولما ايقن سوباب الدكن ان الفرنسيين سيتخلون عنه طلب حماية الانكليز الذين انصرفوا لمشاغلهم في اماكن اخرى . فغُلب على امره امـام المهرات ، وهكذا فقدت فرنسا اهم انصارها . وراح لالي – تولندال يثير بسوء تصرفه وبعنفه سكان البلاد . وانقطع عنه المدد لانشغال فرنسا بحرب المـانيا . وبعد ان حوصر في مدينة بونديشري هو و ٧٠٠ من رجاله على يد الجيش الانكليزي الذي تألف من ٢٢ الف محارب يشد ازرهم اسطول بريطاني ضم ١٤ سفينة حربية بقي يقـاوم عبثاً خمسة اشهر واضطر للاستسلام في كانون الثاني ١٧٦١ . وقد اعـادت معاهدة باريس للشركة الفرنسية مراكزها التجارية الخمسة في الهند على شرط ان تزيل من الاساس ما قام عليها من حصون وقـلاع ، وان تبقى عزلاء من كل حامية وان تتخلى عن كل نزعة سياسية وبعبارة اوضح عن اهداف تجـارية عليا . وهكذا هبطت موارد الشركة بسرعة وانحلت عـام ١٧٧٠ .

وهكذا لم تعد الشركة الفرنسية لتثير اي قلق او اي ازعاج للانكليز في الوقت الذي اخـذ الضعف يدب الى المهرات ، اقوى سلطة هندية ، اذ ذاك ، بعـد انكسارهم المميت في معركة بانيبوت ، فحال الخسف الذي اصيبوا به دون قيامهم بأي مجهود يذكر في البنغال . وبالرغم من

هذا كله ، لم يتمكن الانكليز من احتلال الهند كلها بعد ان ادرك كليف جيداً انه من الاوفق للمصلحة الانكليزية ان يوطد نفوذه ويرسخ سلطته في هذه الممتلكات التي تقع تحت اشرافه بدلاً من السعي للتوسع باضافة مقاطعات جديدة الى ممتلكات الشركة . واوصى بان يقتصر عمل الفتح والحرب على ما لا مندوحة عنه او ما لا بد منه . وهكذا بقيت قائمة مُطلِّة على الوجود دويلات هندية جديدة كانت على شيء من القوة والشأن في المجالين السياسي والحربي ، وجدت في بعض الضباط الفرنسيين خير معوان لها . هؤلاء الضباط قد سبق لهم وعملوا من قبل في خدمة الشركة الفرنسية في الهند ، بينهم الضابط لو ، والكونت موادافر والفارس دي كريسي وميدوك ودرينباك ، والالماني رينهارد سمبر ، ثم انضم اليهم بعد ان وضعت حرب السنوات السبع اوزارها ، مغامرون شباب اكثرهم من الفرنسيين ، وغيرهم ايطاليون وفلمنكيون وهولنديون وكونت دي بواني من مقاطعة السافوى . وراح امراء الهند يتخاطفون الضباط الفرنسيين ، فاستخدمهم ناباب اوده عام ١٧٦١ ، الا ان جيشه انكسر امام قواد كليف قبل ان يتمكن هؤلاء الضباط من اعادة تنظيم صفوفهم . وراح بعض هؤلاء الضباط يعمل في خدمة الامبراطور المغولي علم الثاني فكانوا عوناً له في كثير من المعارك التي انتصر فيها . كما راح البعض الآخر يعمل في خدمة المهرات مادافا سندهيا (١٧٣٠ - ١٧٩٤) وهو احد الراجاوات الذين نجوا من معركة بانيبوت ، الذي استطاع ، بفضل مساندة هؤلاء الضباط ولا سيا بفضل مؤازرة الكونت دي بواني ، ان يقتطع له في الشمال الغربي من الهند امارة توازي مساحتها مساحة فرنسا والمانيا مجتمعتين ، واعاد سلطة الامبراطور عام ١٧٨٩ ، وحطم غزوة قام بها الافغان ، عام ١٧٩٠ . واخيراً نرى عدداً من هؤلاء الضباط في خدمة سلطان ميسور ، تحت حكم حيدر علي وتيبو - صاحب ، من اشد خصوم الانكليز ومن اعدائهم الالداء في الهند . وكان هؤلاء الضباط موضوع تقدير الجميع لما امتازوا به من روح الانضباط الذي عرفوا ان يفرضوه على الجنود . فبعد ان حذقوا التغلب على مشاعرهم الاولية بفضل التدريب الذي خضعوا له ، والتحكم بأحاسيسهم ، اخذوا يقومون بصورة آلية ، وبانضباط كلي ، تحت وابل من القذائف النارية بحركات ومناورات يكررونها الوف المرات في مأمن من المؤثرات العارضة متحررين تماماً من الفوضى والهلع الذي تستسلم له الجماهير الملتاعة التي لم يتيسر لها التدريب على التحكم بعنان النفس في الاوقات العصيبة . وهكذا ارتدت الفرق الوطنية قوة تأثير شديدة ، كما ارتدت صلابة لم تكن لها من قبل ، دون ان تبلغ مع ذلك القوة والصلابة التي تميزت بها الفرق الاوروبية . وقد حمل هؤلاء الضباط معهم معرفة استخدام الاسلحة الجديدة وهي معرفة زادت كثيراً من فعاليتها . كذلك قاموا بتشكيلات وتعبئات ومناورات جهلها الجنود من قبل . وقد دشّن الكونت دي بواني ، ضد الافغان في الهند نوعاً من التعبئة الجديدة تعرف : « بالمربعات الجوفاء » ، تبناها بونابرت وولنغتن فيما بعد . فالافغان ، هؤلاء الفرسان الذين كانوا يحاربون بروح القرن الثالث عشر مدججين بالاسلحة ، والذين كانوا يقضون

طوال الليل في معاقرة الخمرة ، وكانوا في النهاية يدورون ويدورون عبثاً حول هـذه المربعات التي كانت تقذفهم حمم النـار والموت،ثم تنتهي المعركة بالفوز المرتجى بهجوم بالسلاح الابيض، بعد ان يكون قائدهم ألزمهم تناول العشاء وتجديد نشاطهم بالنوم ليـلا . وقد اتقن هؤلاء الضباط روح الانضباط وفن التعبئـة ، فوضعوا المبادىء الاساسية لكل تعبئة منهجية وحددوا قواعدها الثابتة ، وهي اسس وقواعد عمـل الانكليز فيما بعد ، على تطويرها . وقد اتصف عدد كبير من هؤلاء الضباط بطيب القلب ، مما حمل افراد الفرق الوطنية ، على الامتثال لهم والتفاني في خدمتهم ، بخلاف الزعمـاء الوطنيين الذين كان الفساد اخذ منهم كل مأخذ وغلبت عليهم اطماعهم الاشعبية . وكان الجنود يفضلون السقوط في مراكزهم ، في ساحة الوغى بعـد ان يروا ضباطهم يجندلون في الصفوف الامامية ، وهم يقودونهم للحرب . وقد كان قبر احـد هؤلاء الضباط البواسل ، الضابط الفرنسي ميشال ريمون ، موضوع تكريم جميع الجنـود الشباب يحجون اليه كرمز للبطولة والفروسية حتى مطلع القرن العشرين . وبقي رعايا الراجا مادهانيا سندهيا يذكرون بأسف ، وهم تحت حكـم الانكليز وسلطانهم ، الروح الانسانية التي تميز بها الضباط الفرنسيون في ادارتهم الفرق الحربية التي أمّروا عليها . وهكذا عملت التقنية الاوروبية والروح الاوروبية كثيراً على تجديد القوى الهندية ، كما فعلت فعلهـا في تأخير نجاح تطور الانكليز في الهند .

ومع ذلك فقد حقق الانكليز نجاحات كبيرة . فقد نال كليف ، بـين ١٧٦٥ - ١٧٦٧ من المغول الكبير، مهمة السهر على الأمن وجباية الرسوم والضرائب في البنغال والبيرار على ان يرسل قسماً منها الى دلهي. وهكذا اصبحت الشركة الانكليزية قانوناً وشرعاً،الموظف الامبراطوري الاول في هذه المقاطعات . اما في الواقع فقد كانت بالفعل صاحبة السلطة فيها . ولم يلبث كليف ان فرض حمايته على ناباب اوده ، وعلى راجا بيناريس .

الا ان ما نال الهنود من العنف والضغط والعنت من قبل عملاء الشركة الانكليزية والارتكابات الكثيرة التي استهدفوا لها من قبل الانكليز الذين عرفـوا بغطرسيتهم وعنجهيتهم ، حفزهم الى اعلان الثورة . ان البذخ الشرقي والاهمية الانتخابية التي تمتع بها هؤلاء «النابابـ» الانكليز ، عند رجوعهم الى بلادهم ، زرعت الشكوك في قلوب الانكليز . وبعـد ان ثبتت جريمة الارتكابات على كليف وضع حداً لحياته بالانتحار . ان سيطرة شركة خاصة على مساحات شاسعة شكلت بحد ذاتها حادثاً هاماً للغاية . ولذا راح البرلمان الانكليزي يضع ، عام ١٧٧٣ ، قانون التنظيم الذي اوجب المزيد من الاشراف من قبـل الحكومة ، على الشركة . وبذلك ابتدأ مشروع اخضاع الامبراطورية البريطانية لتفتيش أدق من قبـل التاج . وهكذا وضعت كل ممتلكات الشركة تحت مراقبة حاكم عام هو الجنرال وورن هاستنغز الذي جاء تعيينه من قبل البرلمان ، الا انه لم يكن في مقدوره ان يقرر شيئاً بدون الرجوع الى مجلس اعـلى ، اعضاؤه معينون من قبل البرلمان . وكان على مدراء الشركة في لنـدن ، ان يطلعوا الوزراء على جميع مراسلاتهم .

وقامت في كلكوتا محكمة عدل ، من صلاحياتها حق الرفض لكل قرارات الشركة .

غير ان الحاكم وورن هاستنغز (١٧٧٤ — ١٧٨٥) الذي كان طاغيــة ، شديد البأس ، لا ضمير له ولا وجدان ، راح يستثمر ، دونما خجل او وجل ، امراء الهند ويعتصرهم اعتصاراً . كان الناس في الهند يحملون حقداً عميقـاً على الانكليز ، كما انهم سخطوا على ادارتهم وسلطتهم فيها . وعمل وورن على خلع راجا بيناريس وضم ممتلكاته . الا انــه باء بالفشل امــام سلاطين ميسور : حيدر علي وابنه تيبو — صاحب ، اذ وضعا الانكليز امام اكبر خطر واجههم ، بين ١٧٨٠ — ١٧٨٣ ، ابان حرب استقلال اميركا . فقد كان سبق لحيدر علي ان عقــد حلفاً مع فرنسا ، فأسعفته ببعض الامدادات . فهاجم جيش ميسور بقيـــادة ضباط فرنسيين مقاطعة كرناتيك ، في حزيران ١٧٨٠ ، ودحر الانكليز ، وأسر عدداً كبيراً من ضباطهم الذين دانوا بخلاصهم من موت محتم لتدخل الضباط الفرنسيين. وفي البحر تغلب النبيل الفرنسي دي سوفرين، خمس مرات على الانكليز (١٧٨٢ — ١٧٨٣) في خمسة انتصارات متتاليــة ، اهمها وادعاها للفخر النصر البحري في معركة غوندلور (حزيران ١٧٨٣) . وكان الانكليز يفكرون جدياً باخلاء مقاطعة كرناتيك والانسحاب منهــا ، عندما تم عقد معاهدة فرساي التي اعادت السلام الى ربوع الهنود ، واضطر تيبو — صاحب الذي خلف أباه ، عــام ١٧٨٢ ، الى توقيع معاهدة منغالور مع الانكليز (٢٧ آذار ١٧٨٤) ، بعد ان رأى نفسه منعزلاً، فأعادت المعاهدة الامور الى ما كانت عليه من وضع سابق .

فقد بلغ من تجاوزات هاستنغز لواجباته وكثرة مخالفاته المتكررة للقانون وارتفــــاع صوت الهند بالشكوى المريرة عالياً والتذمر مما لحق بها من حيف ، ان اضطرت الحكومة البريطـانية لاستدعائه وإحالته على المحاكمة . فقانون الهند الصادر ، عام ١٧٨٤ ، ترك للشركــة حق تعيين الحاكم العام ، مع الحق للملك بعزله ، وانشاء مجلس تفتيش تُرك للملك أمر تعينه، مركزه لندن، كما أوجب هذا القانون ، على الشركة ، توجيه نسخة الى المجلس المذكور من جميع مراسلاتها .

وهكذا نرى الانكليز ، عام ١٧٨٩ يقيمون في الهند بشكل غريب تحت ستار شركة تجارية خاصة ، تابعة ، من جهة ، للمغول الكبير ، فاعتبرت عنده بمثابة موظف كبير ، كما كانت من جهة أخرى ، تابعة لرعوية ملك انكلترا ، يشرف عليها عن كثب ، يناصرها ويشـــد من ازرها في ما رمت اليه من تهديم الامبراطورية المغولية وانهاكها تدريجياً . وكان فتح البلاد أبعد من ان يتم ، اذ كان لا يزال في الهند ممالك مستقلة ، مهيبة الجانب ، منهـــا مملكة السيخ في مادهافيا سندهيا ، ومملكة ميسور . وكان الانكليز ، لما ابدوه من العجرفة والجشع ، وبمـا اظهروه من ضروب العنف والعنت والقسوة ، موضوع كره الجميع ، في كل مــكان ، بحيث كان الكل يتوقع انفجاراً عاماً في البلاد .

الشرق الاقصى

الهند الصينية

سكن جبالها الحرجة اقوام يعتاشون من القنص والصيد والقطـاف وشهدت احواض الانهر الخصبة التي تجري فيها ماجريات الاحداث. فقد اقتبس شعب المونز الذين جاؤوا البلاد من الشمال ، الحضارة الهندية وأسسو على مجـــاري نهري الايراوادي والسيتانغ مملكة بيغو . ترك المناخ وغنى التربية وخصبها اثره المخلخل في هــــذه الاقوام ، فاستسلموا للدعة والكسل واصبحوا ، بالتالي عرضة لهجمات البورمانيين الذين هبطوا من اعــالي جبال همالايا واستوطنوا البقاع المحيطة بأعــالي نهر الايراوادي وأخذوا يستمرئون الحضارة الهندية . وحوالي عام ١٧٥٠ ، تمت السيطرة نهائياً للبورمانيين . وفي سكرة النصر الذي حققوه خرجوا من حدودهم الطبيعية وفتحوا بلاد سيام واستولوا عنوة على العاصمة أيوثيـا (١٧٦٧) وحملوا معهم كأسرى حرب ، جانباً كبيراً من الشعب السيامي ، وشتتوا المسيحيين أيدي سبا أو أبعدوهم خارج البلاد .

وقد تمكن شعب من اقوام «الثاي » جاء من مقـاطعة يو – نان من ان ينشىء له دولة في سيام احتلت في توسعها، حوض نهر مي – نام. وكان خط مقسَم المياه السُفلي نحو الشرق والسهول المعشوشبة ، يتيح لهم القيام من وقت الى آخر ، بغزوات على الكمبودجيين المسترهلـــين وعلى الامارات ثاي في مقاطعة اللاوس المنعزلة في بعض الاحواض النهرية الخصبة ، بعــــد ان ابيدت دولة السيام من الوجود ، عام ١٧٦٩، ثم عادت وتملت فيها الحياة من جديد اثر ثورة الفاجاتاك عام ١٧٦٩ التي جعلت من مدينة بنكوك ، عاصمة لها واستطاعت ان تعيد البورمانيين من حيث أتوا وردتهم ضمن حدودهم الطبيعية وابعدت من البلاد، المرسلين النصارى، واستأنفت سلسلة من الغزوات المدوخة باتجاه الشرق ، فتأخذ من الارقاء ما تحتاج اليه الارض من يد عـاملة لاحياء موات الاراضي البور .

اما في الشرق ، فكانت دلتا نهر سنغ – كوي او التونكين ، والسهول الساحلية الصغيرة ، ودلتا نهر الميكونغ والكوشنصين ، منذ بضعة قرون ، عرضة لموجـات من الغزاة هم الانامبون مستهدفين النيل من الحضارة الصينية . فقد تمكن هؤلاء الفلاحون الاشداء من طرد الكمبودجيين الذين ألفوا طبقة ارستوقراطية ، كسولة سيطرت على شعب من أسرى الحرب صار امرهم الى العبودية والرق . فبلغوا ، عام ١٧٥٣ مدينة ميتو . وكانت مملكة الانامبين تقيم ، ولو اسمياً ، الولاء للملوك «لاي» هؤلاء الملوك الكسالى المترفون في مدينة هانوي، كما اعترفوا بالتابعيـة للصين. واذ كانت مملكتهم محصورة في رقعة ضيقة من الارض ، فقد انقسموا ، في الواقع ، بين اسرتين من سدنة البلاط هما : «الترينه» في هانوي «والنغويين» في مدينة هويه . وقامت بين سدنة البلاط وبين الامراء الانامبين حروب متصلة ، كثيراً ما كان المسيحيون فيها عرضة للاعتصار والسخرة كما استهدف المرسلون انفسهم للعذابات والاضطهادات والطرد . غُلب نغويين – انه على امره ،

فالتجأ الى احد المرسلين ، هو المطران أدران : بينيو دي بيهان الذي غادر البلاد وجاء فرنسا لائذاً بالملك لويس السادس عشر (١٧٨٧) . وللحال ارسل الملك بعض الضباط ، ومدفعية وبعض المهندسين ، مقابل التنازل له عن خليج توران وارخبيل بولو - كوندور . واذ ذاك استطاع نغويين-انه ان يستولي ، عام (١٧٨٨) ، على مدينة سايغون وشرع بفتح مقاطعة الانام .

الانسولاند

وقعت الانسولاند تحت سيطرة سلاطين الملايو الذين كانوا على الاسلام . الا ان الشركة الهولندية للهند الشرقية كانت لها الأولوية في هذه الاصقاع النائية وتحرص حرصاً شديداً على ابعاد الاوروبيين منها . وتمثلت اهم ممتلكات هذه الشركة في جاوا المشهورة بانتاجها الضخم للبهارات والنيلة والحرير . كذلك سيطرت الشركة على مدينة بتافيا (٥٠ الف نسمة) وما حولها من الضواحي والارباض (٢٠٠ الف نسمة) وعلى السواحل الشرقية الشمالية بما فيها سمارانغ وجزيرة مادورا (مليون و ٦٠٠ الف نسمة) . أما ما تبقى من هذه البلاد ، فقد شكل ممالك اعلنت ولاءها للشركة ، وقام بينها سلسلة من الحروب ادت الى ايهانها فانحلالها . اما المناطق الأخرى ، فقد حاولت الشركة ان تبسط سيطرتها عليها لتجعل في حرز حريز ، مضيق مالقا ، وابعاد كل من يمكن ان ترى فيه مزاحماً لها او منافساً لتجارتها والاقتصاص من القراصنة الذين كانوا يعيثون فساداً في جزر ريو وسليبس. واقامت لها حامية في مدينة مالقا ووضعت تحت ادارتها مدينتا بندا وامبوان ، وحمت سواحل صومطرة الغربية ، وسلطان بالمبانغ ، وضربت نطاقاً محكماً حول بورنيو من الامتيازات التجارية التي نالتها في هذه الجزيرة ، واحتلت في جزيرة سليبس ، ماكسار ، وحرّضت ، بعضاً على بعض ، الامراء المحليين .

ولم يكن للشركة الهولندية سوى عدد ضئيل من الجند ، كما لم تملك عمارة حربية ، تأخذ على عاتقها الدفاع عن هذه الممتلكات الشاسعة . وفي سنة ١٧٧٢ ،انتزعت منها الشركة الانكليزية للهند الشرقية بضعة مراكز في صومطرة . وفي سنة ١٧٨٠ ، كان القرصان الهولنديون سبباً مباشراً لنشوب الحرب بين هولندا وانكلترا ، فانهزم الهولنديون واضطروا للتخلي عن ناغاباتام للانكليز واعترفوا لهم بحق الاتجار بحرية مطلقة، في مياه الارخبيلات المديدة(معاهدة باريس ، ٢٠ مايو ١٧٨٤) .

خرجت الشركة الهولندية في الحرب ترزح تحت وطأة الديون ، لا هيبة لها ولا شأن . وقد تنمر عليها الامراء المحليون ، كما راح المعمرون يتحررون من محسوبيتهم للشركة ومن ولائهم لها ، مُظهرين دوماً الاستعداد لاعلان الثورة . وما ان اطلت سنة ١٧٨٩ ، حتى كانت الشركة على وشك فقدان كل ممتلكاتها .

الصين

عاشت الصين ، في القرن الثامن عشر ، في ظل الاسرة الامبراطورية المنشوكية ، فكان عهدها من ازهر عصور الصين وازهاها ، عبر التاريخ . انحدر اباطرة هذه السلالة من ذراري امراء القبائل الرحل التي تمكنت من ان تنتزع الصين من اسرة المنغ ، وذلك خلال هذه الحقبة الواقعة بين ١٦٤٠ – ١٦٥١ ، وقد برهنوا عن رأي حر ورحابة صدر كما حافظوا بكل احترام ، على عادات البلاد واعرافها القومية ، حيث تنعم التقاليد بكل رعاية ومنزلة ، مع الاحتراز الا تقف هذه الاعراف حائلاً دون تطورهم فاقبلوا ، ما وسعتهم الحيلة ، على الاخذ بأسباب الاختراعات الاوروبية . فـلا يزال الامبراطور كانغ – هي نصف بدوي ، جندياً لا يكل ولا يمل ، وصياداً ماهراً مال بكليته للصيد والقنص ،لا يستقر في مكان، متنقلاً بين اطراف الامبراطورية النائية ، مواجها بروح واقعية احداث الدهر وصروفه ، ذو تفكير نيّر ، وقضاء اتصف بالسرعة وصدق المزية . وفي كانون الاول ١٧٢٢، خلفه على اريكة الحكم ابنه الرابـع ، الامبراطور لونغ – تشانغ . فقد كان جندياً له من العمر ٤٥سنة ، كثير الظنون ، شديد القسوة ، رصين ، مجتهد ، متفان في القيام بواجباته . وفي سنة ١٧٣٥ ، ارتقى العرش كيان – لونغ ابن الامبراطور يونغ – تشانغ ، وهو شـاب له من العمر ٢٤ سنة . وقد راح هذا الصيني ، البدوي الاصل يملأ البـلاط حياة ونشاطاً ومرحاً ، فلما غادر عاصمته الامبراطورية ، يفرغ ايامه بين نسائه وخصيانه ، ثقيف ، ذواقة ، وعالم ُطلعة . قرض الشعر ووضع عدداً من المعاجم والفهارس. ومع ذلك عرف ان يحافظ على قواه البدنية وعلى نشاطه الزاخر. فاذا لم يقم هو نفسه بحروب ، فقد كان سياسياً محنكاً وادارياً لبقاً قديراً ، شابـه جده بنظره الثاقب ونظرياته السياسية الجريئة ، واستطاع بفضل ما تم له من صلابة في الرأي من ان يملك حتى سنة ١٧٩٦ .

تابع هؤلاء الاباطرة اعمـالهم الحربية وفتوحاتهم ، الى الجنوب من نهر اليانغ – تسي ، وتوفق الى احتلال الثماني عشرة ولاية التي تتألف منها الصين الحقيقية . ففي سنة ١٧٧٤ ، تم له إخضـاع قبائل مياو – تسي الوطنية التي كانت تقطن المنـاطق الجبلية في تسو – تشوان وكواي – تشايو . وغزو الصين الذي شرع به الصينيون منذ عهـد اور الكلدانيين وبابل ، أوفى على نهايته . ولم يبق لهؤلاء الرعاة الا ان يعمّروا السهول بالسكان وان يستثمروا البلاد الجبلية ، واستغلال ما فيها من خيرات الارض .

تابـع كيان – لونغ سياسته المعادية لكبار الملاكين واصحاب الاراضي والاطيان العريضة . وهي اراض اعطيت للامراء ولرجال البلاط ولكبار الموظفين مكافـأة لهم ، كانت معفاة من الضرائب والسخرة . وقد صادر الامبراطور جانباً كبيراً من هذه الامـلاك ووزعها بين فلاحين استحالوا بذلك من صغار الملاكين . والمزارعون الذين يستغلون، اباً عن جد ، اراضيهم، منذ بضعة اجيال ، بلا انقطاع ، اعتبروا مالكين شرعاً لوجـه الارض او أديمها ، بينما بطن الارض او داخلها يبقى من حق المالك الاصلي . وهكذا حق للمزارع ان يشتري او ان يبيـع

ما يملك من وجه الارض، له الملكية العينية بينما تبقى للمالك الاصلي، الملكية الذاتية. وهكذا طلع في الصين نظـــام ديموقراطي، زراعي رسخت اصوله. وبذلك يكون تصرف الاباطرة المنشوكيين اقرب الى تصرف طغاة دكتاتوريين اخذوا جانب الشعب، واعتمدوا في حكمهم وادارتهم على تأييد الجماهير الشعبية عندما راحوا يقلمون اظافر الارستوقراطية وكبار الاغنياء في عهد المنغ. وتجلى تحسين وضع الفلاحين، في ازدياد الثراء وتكاثر عدد الاثرياء. وبلغ عـــدد سكان الصين، عام ١٦٦١، حوالي ١٠٥ ملايين نسمة، فاذا به يرتفع، عـــام ١٧٦٦، الى ١٨٢ مليوناً. وهكذا قويت يد الدولة واشتد منها الساعد.

في هذه الصين العامرة المزدهرة، ازدهرت الفنون ولا سيما مـا مالأ منها ذوق سكان البلاط والنوادي الادبية، كالشعر الخفيف الرشيق، والخزفيات، وهندسة المنازل والحدائق، وهي فنون تدخل البهجة والبشر الى النفوس ولا سيما نفوس الغزاة بعد ان يتذوقوها ويهيموا بها. اما فنون الرسم والنقش والتحلية فقد اخذت، بعكس ذلك، بالانحطاط.

نظم شعراء الصين في مواضيع ورموز اتخذوا منها ستاراً يستترون وراءها، جاءت آية في الروعة كما جاءت منظوماتهم روائع تملأ القلب هزة والنفس بشراً. وقد بلغ فن الخزفيات، وهو اهم فنون الصين اذ ذاك، أوجـه ووصل الى الذروة من الاتقـان في عهـد الامبراطور كنغ ـ هي. فبعد ان يُمْرث الصلصال جيداً ويعجن عجناً مسبقاً يلين معها ويستجيب توضع العجينة في القالب وتدار بعناية كلية، فترتدي، اذ ذاك، اشـكالاً وصوراً تشع نعومة واناقة، ثم تصقل بعناية كبيرة وتطلى بالمينـا النقي اللماع ذي الالوان القوية الصارخـة. والآنية من كل حلي وزينة، تبدو وكأنها قشرة الدرّاق او احمر الحديد او دم الثور، والقرمز المرجـــاني والبنفسجي الباذنجاني والاسود الفاحم المشع، او زرقاء، خضراء، صفراء. اما الآنية المعـدة للتحليـــة والتطرية فتبـدو زرقتهـا على ارضية بيضاء، او على الوان متنوعة فوق ارضية خضراء شفافة. وفي عهـد الامبراطور يونغ – تشانغ، حل محـل الارضية الخضراء، ارضية قرنفلية متلالئة بالوان زاهية من القرمزي، الى الابيض، الى السمنجوني، الى الاصفر الليموني، او الازرق الفاقع والاصفر الكبريتي، والاصفر الخردلي، والاحمر الارجواني، تتناوح فيهـا الألوان بين الناعم والمهفهف، في اتساق وانسجام يأخذ بمجامع القلب. والصور المرسومة كثيراً ما استوحاها الفنان من منظومات قدامى الشعراء، فجاءت على شكل رصائـــع واتواط او رسوم المشجرات المتشابكة، والخيزران المتعاقد وهفـاف الغيوم، وعود الصليب، والفراش ودقاق الطير والعصافير والسيدة الهيفاء ذات الوجه المشرق الصبوح. ولم يلبث كيان – يونغ ان اضاف الى هذا كله التحلية المعروفة عندهم: «بذات الالف زهرة». وهذه الآنية ذات المظهر الأثيري والالوان المهفهفة والانوار المتلألئة الشفافة، والاشخاص ذوي القدود الهيفـاء كسارية العَلَم، تتثنى رقة ونعومة وتذوب غنجـاً ودلالاً تذكرنا، ولو من بعيد، بفن الرسام الفرنسي واتّو. «هذا هو طراز لويس الخامس عشر الصيني». ولكن بعد عام ١٧٥٠، يشكو القوام

والهندام قلة العناية ويـــأخذ بالتحول والانحطـــاط ليسارع في ترديّه اثنـــاء القرن التاسع عشر ، بينـما يشتد الطلب عليه في اوروبا ، كما ان الصناعة اخـذت تشكو ، هي الأخرى ، السرعة والتعجُّل .

وعَمل الاباطرة الثلاثة على ترميم ما عُرف في بكين « بالمدينة الحمـراء الممنوعة » وهو الاسم الذي اطلق على المقر الامبراطوري . كانت النيران التهمته، عند سقوط سلالة منغ، عام ١٦٤٤ . فراحوا يلشئون ، في ضاحية المدينة ، الى الشمال الغربي من بكين ، عن طريـق الآباء اليسوعيين « فرساي الصين » ، وهو صرح منيف ، ضم عدداً كبيراً من القصور الفخمة الجميلة تحيط بهـــا الجنان الخضراء والحدائق الغناء ، في تناغ موصول من الفنون الاوروبية والصينية ، على اتم ما يكون الانسجام والمناغاة . والظاهر يدل على ان الروح تختلف عن روح فرساي ، اذ ان التنوع وحرية الطبيعة هما على نطاق ضيق ، وبذرق رهيف واثق من نفسه . اختار الآباء اليسوعيين من بين هذه النواشز الجميلة الحلوة ما ينسجم تماماً مع مطلب الروح الانسانية . فقد خلقوا منـــاظر ومشاهد رائعة بعد عمليات حسابية ومعادلات وتطبيقات غاية في الدقة والتعقيد ، من هــــذه الاشياء البارعة الجمال التي تنطق عالياً بانتصار العقل وتذيع التجلي والتسامي .

ومع هذا ، فالفن الصيني العظيم كان ولـّى عهده ، وانقضى في القرن الثامن عشر ، فـلم يبق سوى فنون تحلية ترفيهية . فإلام يجب ان نرد هذا التغير والتبـدل يا ترى ؟ أإلى حوادث الغلبة والفتح ودخول روح جديدة على البلاد بدخول المنشو الى الصين ، وكلها تغييرات وتحولات تمت بالرغم من الجهود الصادقة التي بذلها الاباطرة المنشو في سبيل تمثلهم الحضارة الصينية ؟

واستأنف الاباطرة المنشو ، في القرن الثامن عشر الأخذ بسياسة صينية قديمة طالما اعتمدها اباطرة الصين ، الا وهي بسط سيطرتهم على آسيا الوسطى . يحف بالصين سباسب وصحـــارى شاسعة كانت طرقاً موصلة الى الصين اكثر منها عوائق وحواجز تحول دونها ، تمور فيهـا اقوام من البدو ، في حركة دائمة هم دوماً على استعداد للغزو والنهب والسلب والاستباحة عند أقـــل بادرة ضعف أو وهن لدى الجيران . وكان يخترق هذه الصحارى الطرق البرية التي ربطت الصين بآسيا الوسطى والغرب والتي ما زالت تدرج عليها قوافل التجار والرحـــالة بالرغم من سهولة الاعتماد على المواصلات البحرية ، حاملة بضائع واصنافـــاً خفيفة الحمل غالية الثمن . من هذه الطرقات ، طريق موسكو — بكين ، عبر بحيرة بيكال واورغا ، او بالاحرى ،عبر نهر ارتلش وبحيرة زيسان الواقعة بين جبال ألتاي وطربغاتاي ؛ منها كذلـك الطريق التي تمر الى الشمال من الجبال السماوية (تيان — شان) بين طربغاتاي وبين آلا — تاو ، عبر دزونغـاري وبحيرة بلخاش ، باتجاه مدينة استراكخان في روسيا ، وهي افضل هذه الطرق واعرضهـــا وتأتي على ارتفاع ٤٠٠ متر من سطح البحر ، كثيرة العشب والكلأ يردُفها وادي نهر الإيلي الواقـــع بين آلا — تاو وبين تيان — شان ، انما تقع تحت رحمة قبائل بدوية نهّابة سلاّبة ؛ ومنهـا الطريق التي تمر الى الجنوب من الجبال السماوية وهي اكثرها طروقـــاً واعتماداً لدى المسافرين عبر

التركستان الشرقي وكشغار وواحات التركستان الغربي : فوكان وبخارى تم تتجه منها : اما شمالاً الى خيوى واستراكخان ، واما ، وهو الغالب ، الى مشهد وبلاد فارس والبحر المتوسط . فحسن التدبير ، والاهتمام بالتجارة وتأمين وسائلها ، جعلت الاباطرة يهتمون دوماً بهذه الشبكة من الطرقات الدولية .

وقد حالفهم النجاح في مهمتهم هذه . فقد كان الجفاف الطابع المميز لهذه الاقطار كما كان سكانها قليلي العدد . فالقبائل البدوية انقسمت على بعضها البعض. فلم يكن باستطاعتها ان تعوّل على اهل الحضر من سكان الواحات المتناثرة عند اقدام سفوح سلاسل الجبال . ولم يستفد البدو من الحروب الاهلية التي نشبت في الصين ، بعد ان كانت سبيلهم الوحيد للفوز كانصار ببعض الغنُم . ومن ناحية اخرى ، فقد كان للاباطرة المنشو مدفعية حديثة صبها لهم اليسوعيون في بكين .

وقد كان بالامكان ان ينهض مزاحمون لهم من بين اقوام الروس القاطنين ارجاء سيبيريا والذين كانوا يتحكمون ، في الجنوب ، بالطرق التجارية والوسائل التي تمكنهم من الوصول الى المياه الدافئة . فقد كانوا يتضرّسون ، كل يوم ، بمساوىء مرفأ أوخوتسك ، لصعوبة الوصول اليه بعد ان غمرُه الجليد والثلج بضعة اشهر في السنة ، والذي كان يربطه بمدينة ياكوتسك *Yakoutsk* طريق برية طويلة للغاية ، صعبة المسلك ، قل من طرقها . فقد كانوا بحاجة الى طريق نهر العامور . الا ان قواهم ، في القرن الثامن عشر كانت متمركزة في الغرب ، وليس تحت تصرفهم في آسيا الوسطى سوى بعض الفرق الضعيفة التي تألفت من بعض المعمرين ومن بعض الجند . فلم يقوموا ، في عهد بطرس الاكبر، بأي مجهود مسلح واكتفوا من حيث اتصالهم بالصين ، بتحسين علاقاتهم معها عن طريق البعثات والسفارات الدبلوماسية . وكانت العلاقات بين البلدين تنتظمها شروط معاهدة نرتشنسك(١٦٨٩)اذ احتفظ الصينيون بموجبها،بكل حوض نهر العامور وحالوا بذلك دون وصول الروس الى منشوريا ، هذا الممر المنبسط الذي يتألف من سهول خصبة تمتد من النهر المذكور حتى مشارف الصين ، في الشمال . ونال الروس ، في المقابل، حرية الاتجار مع الصين الامر الذي مكن لقوافل التجار الروس الوصول الى بكين . وفي سنة ١٧٢٩ ، نال الروس بموجب معاهدة كياخطا *Kiakhta* تصحيحاً جزئياً في الحدود ، والسماح لهم بانشاء كنيسة ارثوذكسية في بكين حيث اقامت جالية روسية صغيرة . غير ان سفريات القوافل وتنقلاتها خضعت لبعض الاجراءات،والمبادلات التجارية اشترطُ فيها ان تتم عند اطراف منغوليا ، في كياخطا وميمتشين . وكان من جراء هذه التضييقات ان ادت منافستهم هذه الى شل حركة القوافل الى بكين ، وهي قوافل توقفت الحكومة الروسية عن متابعة إرسالها . وهكذا امّن الصينيون على حدودهم من الشمال .

وقام الى الغرب من نهر العامور حاجز بين الروس والصينيين قوامه اقوام رعاة . وكان الصيادون القادمون من اورغنخاي *Ourgangkhaï* والعاملون بين نهري الشلكا والإيانسّيي ،

يدفعون رسوما عن صيدهم السمّور لكل من الصين ولروسيا . ومنذ انكسارهم الصارخ عند بحيرة زيسان Zaïsan ، عام ١٧٢٠ ، انقطع الروس عن اعتداء ممرات دزونغاري وكشغاري . وآخر حصن لهم على نهر إرتلش ، كان حصن أوستكا مينوغورسك . ومنذ ذبح البعثة الروسية التي خرجت من استركخان لاحتلال خيوى عام ١٧١٧ ، باتجاه التركستان الغربي ، لم يتجاوز الروس[1]، شمالاً شواطيء بحيرة بلخش ، وبالنادر جداً منطقة الفولغا. فكان يكفيهم ان يشجعوا القوافل التجارية بتخفيضهم الرسوم المفروضة على الصفقات التجارية ٥ ٪ وباعفاءات يعطونها للقوافل المرسلة من قبل كبار رؤساء القبائل . ولم يلق الصينيون ، من جهتهم اية صعوبة تحد من حركتهم التجارية .

وكان الامبراطور هانغ ـ هي ، في مطلع القرن الثامن عشر فرض الامن وسط السلام على الحدود الغربية . فهزم غول الغرب عام ١٦٩٧ . اما مغول الشرق او الكلخاز، فقد اعترفوا بالولاء لخان المنشو وهو تتاري مثلهم . اما في التيبت الواقع تحت حكم لاهوتي رهباني ، فقد كان سبق لكانغ ـ هي ونصب عليه الدالاي ـ لاما الذي كان موالياً له .

غير ان هذه النتائج التي توصل اليها كانت واهية ، وبقيت ممرات آسيا الوسطى بعيدة عن إشراف الصينيين وسيطرتهم. فمن جبال ساّيانسك Saïansk حتى جبال كوان ـ لُن شكّل المغول الغربيون او الإيلوث Eleuthes امبراطورية لهم سيطرت على الطرق التي تسلكها القوافل الضاربة في تلك الارجاء ، وبعد ان سيطروا على الحركة التجارية في آسيا الوسطى ، شرهت نفوسهم للسيطرة على التيبت وعلى منغوليا الشرقية . وقد يكون خَطَر لهم ان يستخلصوا الصين نفسها من قبضة ابناء عمومتهم المنشو .

ولذا قاموا في القرن الثامن عشر ، بعدة هجمات احدث كل واحدة منها ردة عند الصينيين . وكانوا في كل هجوم يقومون به يتقهقرون الى ان زالت امبراطوريتهم . فقد امتنع الروس عن شد ازرهم . واستخدم الصينيون ضدهم وحدات من فرسان الكلخاس ، واحياناً اخوة لهم منشقين عنهم من الايلوث لا يقلون عنهم سرعة في حركة تنقلاتهم ، وقوة صبر واحتمال وطول معاناة . واستعملوا الاسلوب التقليدي الابدي الذي طالما ركنوا اليه الا وهو استعمال الحضر ضدّ البدو . فأنشأوا عند بعض النقاط الحساسة الواقعة على طريقهم مدناً حصنوها بالقلاع ، واقاموا فيها جوالي عسكرية صينية . وقام الجنود يعمرون الارض ويحيون ازاض مواتا ضيقة الرقعة ، يسهل الدفاع عنها . وانشأوا مراكز تموين فاضت بالمواد الغذائية والاعلاف للدواب ، يستطيعون معها القيام بغزوات طويلة . وراحوا يعيثون فساداً وينهبون الموارد الطبيعية القليلة المبعثرة التي كان الايلوث يعوّلون عليها . فما لبث الايلوث ان اشتدت بهم الحاجة الى المواد الغذائية وعلف الدواب والخيل والجمال ، فاضطروا ، والحالة هذه ، للمهادنة والتزام جادة السلام . وعندما كانوا يعودون لحمل السلاح ويستأنفون اعمالهم الحربية ، كانت قوى الحاميات تحول دون استعادتهم الاراضي التي خسروها .

وفي سنة ١٧١٧ ، قـام قبدان ، احد زعماء الايلوث ، بهجوم على التيبت لم يلبث ان اتسع بحيث راح يهدد يو-نان وسوتشوين . فانتهزها هانغ - هي سانحـة مؤاتية ليقوم بطرد الايلوث خارج التركستان الغربي ، وبذلك يؤمن للصينيين، السيطرة على الطرق الرئيسية باتجاه الغرب . ثم راح ينشىء له جوالي عسكرية عند الممر الذي يؤدي من تيـان - شان الى بر كـول وخامي وطرفان واورومتشي . كذلك اعاد النفوذ الصيني الى التيبت .

وقامت قبائل الايلوث بغزوات متكررة ، بعـد عام ١٧٣١ ، حملت الامبراطور يونغ - تشانغ الى طردهم ودفعهم الى الشمال من جبـال الالتاي ، ليؤمن للصينيين ممرات دزونغاري ومعابرها . وفي سنة ١٧٣٤ ، نرى الصينيين ، في أولياسوتاي وكيدوو على ضفاف نهر إرتلش . وأجبر الامبراطور كيانغ - لونغ ، الايلوث ، عام ١٧٤٠ ، الا يتجاوزوا جبـال الالتاي ، الى الجنوب .

ولم يمض وقت طويل حتى تمّ له اخضاعهم واعترفوا له بالتابعيـة ، على اثر الخصومات والانشقاقات التي ثارت بين النازعين للاستئثار بالسلطة ، مما حمل عدداً من امراء الايلوث الذين باءت محاولتهم بالفشل ، على الالتجـاء الى الصين ، ومعهم الكثيرون من اتباعهم وانصارهم ، فقدموا طاعتهم وولاءهم للامبراطور كيـان - لونغ ، مقابل المراعي التي وضعها تحت تصرفهم والحماية التي نعموا بها خلال حكمه . وقد بدت فرصة سانحة للامبراطور ، فجهز فرقة انضمت اليها وحدات من الإيلوث ، قامت بفتح وتدويخ المنطقة الواقعة الى الشمال من جبـال الالتاي. وهكذ انفصمت عرى الوحدة بين اقوام الايلوث فانقسموا الى اربع قبائل لكل منهـا خاناتها المتميزة يجري تعيينهم من قبل حاكم صيني عام يمثل الامبراطور ، استقر بعد ذلك ، الى الجنوب في مدينة خولدجا الواقعة على نهر «إيلي» ، في نقطة مركزية ، بحيث يتاح له مراقبة كل الممرات والمداخل (١٧٥٥) .

الا ان القضاء قضاء تاماً على الايلوث لم يتأخر أجله.فقد قام احد زعمائهم وهو امير من أمراء العائلة المالكة ، يدعى اموريانا ، ان حمل اثر الفشل الذي مني به ، البدو المستقلين على الانتقاض والثورة ضد الصينيين ومحاربتهم . ولـما طُلب اليه القدوم الى بكين ليؤدي حساباً عما زرعته يداه ، فرّ ونجا بنفسه ، نحو بحيرة إرتلش ، وجمع حوله ٤٠٠٠ من الانصار ، وفتك بأفراد الحامية المرافقة للمقيم الصيني ، الـتي تألفت من ٥٠٠ صيني . فكان ذلك اطلاق العنان لثورة لاهبة ضد الصينيين . الا ان الايلوث انهزموا شر هزيمة عند نهر الاميل ، سنة ١٧٥٧، اوقعت فيهم مذابح دامية . ففر اموروسانا مع ٢٠ الفاً من رجاله وأنصاره والتجأ الى الروس . امـا الباقون فقد جرى ابعادهم الى حدود كان - سو ، وضمت الاراضي الـتي كانت تابعة من قبل للايلوث الى الامبراطورية الصينية . فامتـدت حدود الصين حتى بحيرة بلخاش . وعيّن على الاراضي الجديدة حاكمين صينيين ، قام احدهما في كبدو كما قام الثاني في خولدجا . واعيد إعمار

البلاد وتأهيلها بالسكان بأقوام الكازاك هم مزارعون مسلمون من الكشغار، ومعمرون عسكريون من المنشو ، ثم جاء عام ١٧٧١ ، بأقوام جدد من التورغوت . وهكذا اصبح التركستان الشرقي ولاية صينية ، تشكلت منها ولاية سنكيانغ العسكرية .

ان القضاء التام على الامبراطورية الايلوث سجل الذروة في نفوذ الامبراطور كيان - لونغ في آسيا الوسطى . فقبائل البدو في التركستان الغربي: كالكرغس في القبيلة الذهبية الكبرى (١٧٥٨) والقبيلة الذهبية الصغرى (١٧٦٢) وخانات بخارى وخوكان وطشقند واندجان ، قدموا ولاءهم للامبراطور ، وبذلك بلغت سلطته مشارف بحر قزوين . وقد كان من بُعد شهرته ، وشدة بأسه وقوة سطوته ان خرجت قبائل تورغوت المغول عن طاعتها وولائها للروس . فمائة الف اسرة من هذه القبائل ، كانت تقيم مضاربها على ضفة الفولغا اليمنى ، كان القيصر نفسه يقوم بتعيين خاناتها ويقدّم للروس قوات اضافية مساعدة اشتهرت بشجاعتها في الحرب . فبعد ان تبينوا الخطر الذي تعرّضوا له من قبل الحاميات والمستعمرين الذين اخذوا بطاردتهم ، وبعد الاهانات التي كالها الروس لهم ومظاهر الاحتقار والسخرية التي الحقوها بهم ، نفر السواد الاكبر من هذه الأسر التي تجاوز عددها ٧٠ الف اسرة ، وفرّوا نحو الشرق ، بعد ان فرشوا قارعة الطريق بجثث الموتى . الا انهم وصلوا نهر ايلي والتمسوا من الامبراطور حق اللجوء (١٧٧١) وقبولهم في الامبراطورية . فسارع الامبراطور وأمدهم بما يلزم من ألبسة وأغذية واقامهم في المراعي التي كانت من قبل للايلوث ، وانعم على عدد من كبار زعمائهم بألقاب شرفية صينية . وهكذا جاء شعب جديد ، يقدّم طوعاً واختياراً ، ولاءه للامبراطور ويمد الامبراطورية الصينية بقوى اضافية جديدة، ويأخذ على نفسه الدفاع عن حدودها الشرقية .

اما في الجنوب الغربي ، وفي الجنوب ، فالحدود الصينية كانت في حرز حريز . وفي سنة ١٧٩١ ، جاء الغوركاس وهم اقوام هنود يسكنون النيبال يحاولون السطو على اديار التيبت ، طمعاً بما فيها من خيرات ، واجتازوا جبال همالايا فتصدّى لهم جيش صيني الحق بهم الخسف وهزمهم مراراً ، ودفعهم الى الوراء حتى بلغ عاصمتهم كتمندو واضطرهم لاعلان ولائهم للصين (١٧٩٢). واحتل الصينيون ، باتجاه بومانيا ، عام ١٧٦٥ ؛ الممر الرئيسي واتجهوا نحو عاصمة البلاد ، عام ١٧٦٧ ، الا ان محاولتهم هذه اصيبت بالفشل . ومع ذلك قدم ملك بومانيا ، عام ١٧٩٠ ، ولاءه للصين وأصبح منذ ذلك الحين من اتباع الامبراطور .

وازداد امبراطور الصين نفوذاً على نفوذ بوضعه البوذية تحت رعايته وجعلها الديانة الرئيسية لهذه الرقعة من الارض الممتدة من سور الصين الى بحر قزوين . وأخذ على نفسه الدفاع عن سلطة الدالاي لاما الدينية في التيبت ضد تعديات الزعماء العلمانيين وضد الثورات التي قام بها التيبتيون الوطنيون وضد اطماع الدول المجاورة ، بينما وضع تحت اشرافه المباشر عملية انتخاب الدالاي لاما ، وراح يراقب سياسته عن كثب .

وفي سنة ١٧٢٠ ، أتاح استرداد التيبت من يد الإيلوث ، للامبراطور هانغ - هي ان يجعل

منها حمـــاية صينية . فعين عليها مندوبين ساميين اقـــاما مع حامية صينية في مدينة لاهسا « لتقديم النصح » للدالاي لاما .

وراح الوزير الاول التيبتي يقـوم في منتصف القـرن الثامن عشر بدسائس تهدف لطرد الصينيين من البلاد ، ممـا حمل المفوضين الامبراطوريين على تصفيته والتخلص منه . وعلى الاثر ثار الشعب في العاصمة لاهسا من جديد ، عام ۱۷۷۱ ، مما ادى الى التشدد في امور الحماية واعطي المفوضان الصينيان الحق بمراقبة كل اعمال الدالاي لاما ، كما اعتُرف لهما بحق الاشراف على عملية انتخابه ، كما كان صوتهما مرجحاً في الهيئـة الانتخابيـة . وكان على المنتخب ان ينـال من الامبراطور فرماناً بانتخابه يعده مجلس الطقوس في بكين ويحظى بمصادقة الامبراطور ليصبـح الانتخاب قانونياً . ان اخضاع الدالاي لاما ، للامبراطور وضع تحت تصرف هـذا الاخير ، ما للاكليروس البوذي من نفوذ قوي . كما ان مراسم التكريم والتبجيل التي احاط الامبراطور كيان ـ لونغ الدالاي لاما بها ، أمنت للاسرة المنشوية ولاء كل الاقوام الذين اعتنقوا البوذية في آسيا الوسطى .

وهكذا نرى سلطة الامبراطور تمتد ، في اواخر القرن الثامن عشر ، على كل آسيا الوسطى وتنتهي عند حدود السيادة الروسية والانكليزية ، كما انها تحكمت بطرق المواصلات التجارية كما سيطرت على منافذ الصين وابوابها . وهكذا حققت الاسرة المنشوية الاحلام التي طالما راودت خواطر الصين الوطنية .

اما علاقات الصين مع الاوروبيين ، من ناحية الغرب فلم تكن شيئاً يذكر على الاجمال ، بينما علاقاتها معهم في الشرق كانت انشط بكثير ، وكان لها نتائج اكبر واهم وهي علاقـات سلمية تجارية ودينية ، اذ كانت الصين هـدف جميع الاوروبيين العاملين في آسيا . والاشـياء المدهشة التي قام بها اليسوعيون واثارت دهشة الاباطرة المنشو واعجابهم اعطت هؤلاء الاباطرة فكرة صحيحة عن القوة التي توليها العلوم والتكنولوجيا ، كما جعلتهم يوجسون شراً من احتمال قيام هؤلاء الاوروبيين بمحاولة انزال جيوش في الصين واخذهم لها على حين غرة من الوراء ، فيحولون بذلك دون الاعمال الحربية التي قام بها الصينيون في آسيا الوسطى ، وربما افضت الى خلخلة سلطانهم وقضت على سيطرتهم . وقد ازدادت هواجسهم ، وزادت خواطرهم قلقـــاً للاخبار التي جاءتهم من الهند عن الانتصارات الاسطورية التي حققها في الهند ، كل من دي بوسي وكليف . والخوف الذي اعترى الصينيين من احتمال غزو الاوروبيين للصين ، يفسر لنا الى حد بعيد ، حذر الاباطـرة المتزايد من المرسلين والمبشرين الذين كانوا ينالون من الصينيين المرتدين ، كل ما يرغبون في الحصول عليه . الا ان بُعد الصين ، كان يوجب على الاوروبيين انشاء عـدد كبير من الاسكلة ، ومستودعات على طول الطرق البحرية الموصــلة اليها . فالعمليات التي كانت الهند مسرحاً لها ، في البدء ، اتبعت مثل هذه الخطة وسارت على مثل هـــذا النهج . وقد رأى الاوروبيون انفسهم غارقين في عدد كبير من المشروعات والاعمال ينافسون بعضهم

بعضاً . فقد قام فيا بينهم نقاط احتكاك وتصادم في كل مكان من العالم . وهكذا وجدت الدول الاوروبية نفسها في شغل شاغل من امورها لتفكر جدياً بهاجمة امبراطورية متحدة ، هي في ابان ازدهارها حرص الاباء اليسوعيون على احاطتها بهالة من العظمة في مـا وضعوا عنها من رسائل وابحـاث وتقارير . وهكذا تقدم الاوروبيون من الصين كأصحاب التماس واستطاع الاباطرة المنشو ان يحافظوا على ملء حرياتهم ، في جميع اعمالهم العسكرية ، في آسيا الوسطى بينما لم يفتحوا ثغورهم البحرية في الشرق للاوروبيين الا بالقدر الذي رأوه مناسباً .

واستقطبت الحركة التجارية في الصين عـدداً كبيراً من الاوروبيين . فالبلاد بما لهـا من غنى ، وبما فيهـا من كثرة السكان ألـّفت ، في نظرهم زبوناً مرغوبـاً فيه جداً ، وكانت منتوجاتها العديدة : كالحرير واللاك ، والخزف والشاي مواداً اشتد الطلب عليها في اوروبا ، كما ألـّف تسويقها عملية تجارية رابحة . فقد ساعد النقد وسهولة السيولة على القيام بمضاربات ماليـة رابحـة اذ ان نسبة الفضة الى الذهب كانت بنسبة ١ — ١٠ في الصين ، بينما هي بنسبة ١ — ١٥ في اوروبا . وهكذا وفد عليها الانكليز والهولنديون والفرنسيون ناقلين معهم عملات من الفضة حصلوا عليها من اميركا الاسبانية ، عن طريق التهريب ، فيبدلونها في الصين بعمـلة ذهبية ، ثم يبادلون هذا الذهب ، لدى عودتهم الى اوروبا ، ضد البضائـع والسلـَع (او ضد عملات من الفضة) فيحققون ارباحاً كبيرة .

والثغور الصينية التي ُسمح للاوروبيين الاقامة فيها كانت قليلة جـداً ، كما لم يكن ليُسمح للتجار الاوروبيين مغادرة هذه المدن والتغلغل الى داخـل البلاد . واذ كانوا يرون فيهم خطراً على سلامة البلاد ، فكانوا يحصرونهم في احيـاء او حارات خاصة ويضعونهم تحت المراقبة . فقد كان للبرتغاليين امتياز مكاو الذين جعلوا منه مرفأ دولياً . وكانوا دوماً يدعون مجاناً ، ان لهم الحق بارغام السفن الاوروبية على الرسو فيها . ونال الاسبانيون امتيازات في بعض المرافىء الساحلية ، في فوكيان وأموي وفو — تشيو ، واحتلوا لفترة قصيرة فورموزا ، الا ان الصينيين عادوا واسترجعوها عام ١٧٤٢ . وعبثاً طلب الانكليز الاقامـة في أنوي او في نانغ — بو . وقد وجدت الحكومة الصينية انه من الافضل لها بكثير جعل مدينة كنتون قاعـدة للاتجار مع العـالم الخارجي ، ومن سنة ١٧٠٢ — ١٧٢٠ ، اعطى الامبراطور هانغ — هي ، تاجراً صينياً من تجار كنتون ، احتكار المعاملات التجارية مع التجار الاجانب . وكأن بهذا التدبير لم يكن كافياً ، فراح الامبراطور المذكور ينشىء عام ١٧٢٠ الـ *Hong* او نقابة التجار الصينيين اصحاب الامتيازات ، وهي مؤسسة تجارية ضمت التجار الهانيين ، وعددهم عشرة ، هم من كبار التجار في البلاد ، برئاسة رئيس الجمارك البحرية . وفي سنة ١٧٧١ ، الغى الامبراطور كيان — لونغ هـذه النقابة (*Hong*) وراح التجار الذين كانوا اعضاء فيها يتابعون اعمـالهم التجارية ، بصورة فردية وبذلك حافظوا على الاحتكار . وكانت هذه الطريقة مؤاتية جـداً للامبراطور اذ تزيد كثيراً من دخله . ولكي يكون التاجر تاجراً هانياً ، كان عليه ان يدفـع للامبراطور

مبلغاً ضخماً، كما راحوا بدورهم يفرضون على السفن الاجنبية أن تدفع للامبراطور رسماً اميرياً يتناسب وحجم السفينة . كل ذلك كان من شأنه ان يضاعف اعتماده المالي ، اذ كثيراً ما استهدف التجار الهانيون ،من قبل الامبراطور ، لعملية تسليف واسعة اجبارية،يضطرون معها الى استلاف مبالغ طائلة من التجار الاجانب . كذلك سهل هذا التدبير مراقبة الاجانب المقيمين في مدينة كنتون ، حيث كان لكل امة حي او حارة خاصة (*Loge*) ، وهو كناية عن خان كبير يجري تأجيره من قبل التجار الهانيين . وكان التجار الهانيون الذين يتمتعون بالاحتكار ، في المقابل ، يحددون الاسعار حسبما يرغبون ، فينظمون بذلك حركة دخول البضائع الاجنبية الى الصين ، فيثيرون بالتالي المنافسة الحادة بين التجار الاجانب ، ويؤمنون لانفسهم ارباحاً ضخمة جداً . ولم يكن للروس الحق بالاقامة في كنتون . بينما اعطي هذا الحق لنمساويين وبروسيين ودانيماركيين واسوجيين واسبان . والجانب الاكبر من هذه الحركة التجارية كان بيد الانكليز والهولنديين والفرنسيين . ففي ٢٩ ايلول ١٧٦٥ ، في وقت كانت فيه تجارة الفرنسيين قد اخذت بالانحطاط ، وجد في مرفأ كنتون ٣٤ سفينة منها ٢١ انكليزية و٤ هولندية و٤ فرنسية و٣ أسوجية و ٣ دانيماركية . وفي سنة ١٧٨٤ ، دخل الحلبة التجارية منافس جديد خطير في شخص الولايات المتحدة الاميركية . وفي هذه السنة بالذات، قامت السفينة « امبراطورة الصين » بأول رحلة لها بين فيلادلفيا وكنتون وعادت بربح بلغ ٢٥٪ . وفي سنة ١٧٨٦ ، قام في كنتون لجنة تجارية اميركية . واحتكر الاميركيون الاتجار بالفراء في جنوب الصين . وفي سنة ١٧٩٠، دخل مرفأ كنتون ٤٠ سفينة اميركية قدمت من نيويورك وبوسطن وفيلادلفيا .

وقد اجيز للكهنة الكاثوليك وجدهم تقريباً الدخول الى الصين . وشهد القرن الثامن عشر نهاية عملية بديعة تمت على نطاق واسع : فالكنيسة التي حلمت ، في القرن الماضي بان تكسب الصين وتدخلها في النصرانية ، رأت آمالها واحلامها تذهب هباء . وبذلك ، فقدت كل امل بادخال الحضارة الاوروبية الى الصين .

ففي عام ١٧١٥ ، كانت الكنيسة في الصين تتألف من اساقفة برتغاليين في كل من بكين وننكين ومكاو ، يعودون في امورهم الهامة الى مرجعهم الاعلى رئيس اساقفة غوا . وكان البابا اعترف للبرتغال بحق رعاية الكنيسة في الصين . ومن بين الامتيازات التي تمتع بها ، تبليغ القرارات والمراسيم الكنسية الخاصة بالشرق الاقصى . وهكذا برز الاساقفة البرتغاليون كممثلين لرئيس الكنيسة كما برزوا رؤساء لجميع رجال الاكليروس . ولذا لم يقبل البرتغال ، في الصين ، سوى مبشرين برتغاليين او خاضعين للسلطات البرتغالية .

على المرسلين الا يعترفوا بغير سلطة الحبر الاعظم ممثلة بجمع انتشار الايمان ، يمثله نواب رسوليون لهم سلطات الاساقفة . والّف اليسوعيون العدد الاكبر من المرسلين قام لهم في بكين نفسها رسالتان : رسالة برتغالية ورسالة فرنسية ارسلها الملك لويس الرابع عشر وتعيش على

مساعدات فرنسية . كذلك نشط اليسوعيون للتبشير في عـــدد كبير من الولايات الصينية . ويليهم من حيث العدد : الآباء الدومنيكيون والفرنسيسكان الاسبان الذين جعلوا من الفيلبين قاعدتهم الكبرى ، وحملوا باعداد كبيرة ، في عدد من الولايات الصينية ، ولا سيا في فو-كيان. وكان مرسلو جمعية المرسلين في الخارج التي يقوم مركزها في باريس ، وجمعية الآباء اللعازاريين ، اقل عدداً من غيرهم من الرهبانيات التبشرية . وقد استطاعوا ان يكسبوا للمسيحية ٣٠٠٠٠٠ صيني ، بينهم عـــدد محترم من كبار الموظفين ، يعمل افراد منهم بمعية الامبراطور . والفوا مجتمعات وطنية مسيحية يقوم على خدمتهم الروحية رهبان صينيون . كانت هـــذه النتائج ضئيلة جداً اذا ما قيست بضخامة سكان الصين ، الا انها كانت بالفعل عظيمة اذا ما قيست بعدد المبشرين والمرسلين المحـــدود ، وبالصعوبات التي اكتنفت عملهم التبشيري . وبالرغم من العراقيل والمصاعب التي اعترضتهم ، فقد بعثوا في النفوس آمالاً واسعة .

كان اليسوعيون هم أول من حمل امبراطور الصين على الوقوف موقفاً متساهلاً تجاه الديانـة المسيحية . وبفضل ما تمتعوا به من نفوذ عريض في البلاط ، استطاع المبشرون متابعة عملهـــم الرسولي في الولايات . وبفضل ما تم لهم من العلم الاوروبي والتكنولوجيا . فقد امسوا ، لا غنى عنهم كرياضيين وعلماء فلك ، فكانوا اعضاء في الديوان الفلكي الامبراطوري ورسامي خرائط ، وميكانيكيين ، ومهندسين واطباء ، وبرزوا في أعين الناس كمترجمين ودبلوماسيين . وسيطروا بمالهم من مقدرة فائقة كفلاسفة وادباء من حملة الثقافة العليا ، واصبح لهم كلمة مسموعة لدى الموظفين الذين ينزلون المعرفة وحملة العلم منزلة رفيعة ، وعرفوا ان يكسبوا لهـــم ، الكثير من الاصدقاء ومن قادري فضلهم بفضل ما ظهر من طيب احاديثهم وبفضل ما جادوا به مـــن هدايا وخرائط جغرافية وساعات وادوات رياضية وكتب علمية . وعرفوا ان يشيعوا الفضول العلمي في الاباطرة .وكان يحلو للامبراطور هانغ — هي ان يقتل الوقت بالتحدث اليهم فاستطاع بذلك ان يحصل على مبادىء العلوم الغربية ، كما تم له الاطلاع على العادات الاجتماعية والسياسية المرعية لدى الغربيين . وقد هبط نفوذ اليسوعيين وتأثيرهم في عهد الاباطـرة يونغ تشانـغ — وكيان — لونغ بسبب الجدل العنيف الذي أثارته الطقوس وفتح الهند . الا انهم حافظوا على مكانتهم العالية كفنيين وتقنيين . فالآليات كانت معبود كيان — لونغ ، وقد صنع له الاخ تيبول ، عـــام ١٧٥٤ ، اسداً يتحرك من تلقاء ذاته ، كما ان الاب سيجسموند زاده اعجاباً على اعجاب بصنعه إنساناً يتحرك مع حركات الساعة . وفي سنة ١٧٥٢ ، صنعوا بمناسبة العيـــد التذكاري الستين لولادة الامبراطور ، تمثالاً يتحرك ويلقي خطبة تقريظ بينا تماثيل اخرى تقرع الصنوج ، وتعين اوزة بمنقودها الساعة على حافة الحوض . وهكذا ، فالعلوم والتكنولوجيا مهدت السبيل امام انتشار الدين المسيحي .

وقد ساهم الآباء اليسوعيون كثيراً في تيسير سبل الأخذ بالمعتقدات المسيحية والعمل بهـا عن طريق تفسيرهم للمعتقدات و « الطقوس الصينية » . آمن الصينيون بخلود نفوس الجدود وادّوا

لهم عبادات من التكريم ، في ولائم جنائزية وفي ادعية خاصة . واعتقدوا ان بفضل هـذه العبادة كانت هذه النفوس تعيش سعيدة وتغدق النعم على ذراريها ، وبدونها كانت بائسة، تعيسة وإذ ذاك تنتقم لذاتها بمساوىء لا حد لها ولا حصر . وكان المثقفون منهم يؤدون عبادة لروح كونفوشيوس . وكان الصينيون يعبدون قوى الطبيعة التي رأوا فيها ارواحاً لها قوة هائلة . انما امر البت بعبادتها تُرك للحكام في الولايات . والفرد لم يكن له من تأثير عليها الا بالسحر. واخيراً هنالك اله سام ، اعلى ، هو السماء او السيد المطلق ، ها تشانغ – تي ، عبادته متروكة للامبراطور وحده ، الرئيس الاعلى للدين الذي يستمطر على البلاد اجمع بركات الله في الاعالي.

وعملية تنصير الصيني يشترط فيها عدم تحميل الصيني تغييرات قاسية تبدل جذرياً من عاداته واعرافه ، بحيث لا تسبب عملية تنصيره تنغيصاً له يجعل عيشه في المحيط الوثني الذي يجد نفسه فيه ممتنعاً لا بل مستحيلاً . هذه كانت مشكلة الهند ايضاً . ففي سبيل تخفيف الصدمة في نفس الصيني ، راح الآباء اليسوعيون يرون في الـ *Le Tien* او الشانغ – تي ، اله المسيحيين الشخصي . فالنصوص الصينية ، والحق يقال كانت غامضة في ذاتها اذ انها تصور لنا *Le Tien* تارة كإله شخصي ، كلي القدرة ، كلي المعرفة ، مثيب ، مجازي الكل على اعمالهم ، ويصورونه طوراً الهاً غير متميز عن الهيولى او المادة العامة . وقد عرف اليسوعيون ان يستفيدوا من هذا الغموض بحيث يساعدهم على تقديم الايضاحات اللازمة للتحديد والتعيين . وقد استعملوا هذا اللفظ بالذات للدلالة على الله الآب وعلى السيد المسيح . اما عبادة الجدود فقد ألّفت مشكلة اساسية . فالمتنصر الجديد لم يكن له بد من المشاركة بهذه العبادة ، والا تعرض للطرد من الجماعة واصبح بالتالي منبوذاً منها او مقطوعاً من المجتمع الصيني ، وبذلك يستهدف لاحكام القانون . فقد شجب الآباء اليسوعيون هذه العبادة ذاتها . الا انهم سمحوا للمتنصر ان يشارك بها على اعتبار منه بانها مجرد فعل احترام للجدود ، على ان يحمل تحت ثيابه او يضع على الطاولة صليباً او صورة تقوية يرتفع بعقله وقلبه من صلواته اليه . ومنذ ١٧٠٠ ، ظنوا انهم يستطيعون ان يروا بفضل تصريح من الامبراطور هانغ – هي في هذه العبادة ، احتفالاً مدنياً لا غير . فلا غبار بالتالي على المؤمنين من حضورها والمشاركة بها دون ان يخدش ذلك ضمائرهم او وجدانهم .

وقد لقيت هذه الشروح والتفسيرات شجباً عنيفاً من قبل الكهنة بقيادة الدومنيكيين والفرنسيسكان . فقد قام بين المرسلين مناقشات وجدل هي بعض ما قام منها بين الرهبانيات والجنسيات . اما الدوافع فقد كانت دينية قبل كل شيء . فقد رأى خصوم اليسوعيين في الاله *Le Tien*عنصراً شاملاً غير متناه هو والهيولى سواء . فالصينيون ، والحالة هذه هم حلوليون ، وثنيون ، مشركون ، كما راح الدومنيكيون يعلمون . فتسمية الله بـ *Le Tien*او *Chang-ti* تكوّن تجديفاً على الله كما فيه حمل للصينيين على ارتكاب خطيئة مميتة . امـا الطقوس فهي في نظرهم عبادة ارواح الجدود ، وبالتالي شيء من الصنمية او عبادة الاصنام ، وهو شيء فظيع

في نظر المسيحيين . فالموقف الذي اجازه اليسوعيون للمتنصرين كان من شأنـــه ان يجعل باقي الصينيين يعتقدون ان الكنيسة الكاثوليكية تجيز هـــذه العبادة ، مع ان جوازها يعرض النفوس للهلاك الابدي . كان لا بد من ملاحظة هذه المفارقات والإعراض عن هـــذه الاساليب البشرية والجهر بالحقيقة مهما قست وآلمت ، والتعويل على الصلاة وعلى الصلاة وحدهـــا ، وعلى التقوى والمحبة ، والنعمة الالهية ، وعلى شفاعة السيد المسيح واستحقاقاته غير المتناهية في فتح الصين امام المسيحية .

فبعد ان درس الكرسي الرسولي القضية من جميع وجوهها ، شجب البابا الآباء اليسوعيين ، واصدر عـــام ١٧١٥ براءة بابوية *Ex illa die* التي حظرت استعمال الكلمات *Tien* و *Chant-ti* مرادفتين لكلمة الله ،كما حظرت مراسم العبادة والتكريم التي تقام لكنفوشيوس وللجدود،واجاز الاشتراك بالحفلات المدنية العرفية ، ان مثل هذا الحكم حمل في ثناياه القضاء المبرم على الارساليات التبشيرية في الصين . وامام تحذيرات اليسوعيين والامـــور التي اثاروها ، ارسل البابا القاصد الرسولي ميزاباربا (١٧٢٠ — ١٧٢١) ليحصل من الامبراطور هانغ — هي على السماح للصينيين المسيحيين باعتماد التشريع الكنسي . واذ كان الامبراطور برماً جداً من هذا الجـدل الديني والمناقشات الحادة التي استمرت ردحاً طويلاً، رفض رفضاً باتاً النزول عند طلب القاصد الرسولي ولو تعرض لثورة عامة ، مردداً ما كان سبق له واعلن ، عام ١٧٠٠ ، بانه لا فرق قط بين الفكرة التي يقيمها الصينيون والمسيحيون لله ، وبان الطقوس ليست سوى مراسم تذكارية لا غير . فاذا كان ذلك تفكير هانغ — هي ، فمعظم الصينيين لم يكونوا من هذا الرأي ، ولا من هذا التفكير ، وما للامبراطور من سلطة على آرائهم الشخصية . وقفل ميزاباربا راجعاً بعد ان ترك ثمـــاني « جوازات » ، كانت في ذاتها بالفعل نقضاً لاحـــكام البراءة البابوية . فالبابا لم يعر هذا التدبير الذي اتخذه ممثله الاهتمام الكافي ، وفي سنة ١٧٤٢ ، اصـــدر البابا بندكتوس الرابع عشر ، البراءة *Ex quo Singulari* التي حرمت الجوازات المذكورة واقرت احكام البراءة .

لم يأمر هانغ — هي باضطهاد المسيحيين . اما الامبراطور يونغ — تشانغ فقد اخذ يحتقر العازفين بعبادة الجدود كما راح يسخر من العاملين على نشر عقيدة الثالوث الاقدس ، هـــذه العقيدة التي تصدم العقل في الصميم . ولم يطل الامر على كبار الموظفين في البلاط حتى ادركوا ان الامبراطور لم يعد يأخذ تحت حمايته المسيحيين . وفي سنة ١٧٢٣ ، شجب مون —آن — بان الذي كان نائباً للامبراطور في فو—كيان ، المسيحية واصدر امره لجميع المرسلين العاملين في الولاية المذكورة بالانسحاب منها واللجوء الى مدينة مكاو .فكان ذلك إيذانا بابتداء الاضطهاد وامتداده الى الولايات الاخرى . فهُدمت الكنائس ، او جرت مصادرتها من قبل الحكومة وحولت الى مستشفيات ومستودعات او مدارس،وتعرض الكهنة في الشوارع للمهانة والتحقير،

وزج بالمسيحيين في السجون واوسعوا تعذيباً . وراح مكتب الطقوس يشجب المسيحية في كل انحاء الصين . واقر الامبراطور يونغ ـ تشانغ هذه الاجراءات كما اقر هذا الشجب وصادق عليه عام ١٧٢٤ ، وامر باخراج المرسلين من جميع اطراف البلاد وسوقهم الى كنتون ليجري تسفيرهم الى اوروبا . واجيز لعشرين يسوعياً بالبقاء في بكين ، باعتبارهم فنيين اوروبيين . وقد خطر ليونغ ـ تشانغ طردهم منها عام ١٧٣٣ . لم يُعرف الامبراطور كيان ـ لونغ بعدائه للمسيحية ، الا انه كان يخشى مشاعر الجماهير ، كما انه كان يتوقع هجوماً من الاجانب على البلاد . وفي سنة ١٧٧١ ، شجب المسيحية من جديد ليس باعتبارها ديانة باطلة او رديئة ، بل باعتبارها مخالفة لقوانين البلاد .

وعاد المرسلون سراً وخفية الى الصين متنكرين بلباس الصينيين ، يقودهم مرتدّون مسيحيون ، معرضين حياتهم لخطر الموت . فكانوا عرضة للتوقيف والسجن ، ويوثقون بشكل لا يستطيعون معه الوقوف او الجلوس ، ويجري خنقهم في السجن ثم تجتز رؤوسهم . وقد تعرضوا لاتهامات مشينة واتهموهم بفعل المنكر مع عذارى مسيحيات ، كما اتهموا بقتل الاولاد ، ودس مواد سامة مؤذية للشعب . واستهدف كثيرون من المعمدين للجلد والضرب والتعذيب ، وبيعوا في اسواق النخاسة عبيداً أرقاء . فلا عجب ان يجحد عدد منهم دينهم الجديد ، كما ان بعضهم تصرف تصرف الابطال والشهداء الابرار .

الا ان الضربة القاصمة للارساليات في الصين جاءت بالأحرى،من اضطهاد الحكومات للرهبنة اليسوعية منذ عام ١٧٥٨ . وعلى الأخص من الغاء الرهبنة اليسوعية، عام ١٧٧٣ : وفي سنة ١٧٨٤، حل الآباء اللعازاريون رسمياً محل الآباء اليسوعيين ، في بكين . ولم يبق سوى بعض رهبان لم يلبثوا ان توفوا الواحد بعد الآخر . ومن اصل ٣٠٠،٠٠٠ مسيحي كانوا في الصين ، عام ١٧٨٩ ، لم يبق سوى ١٨٧،٠٠٠ استمروا على ايمانهم بفضل الرهبان الوطنيين وبعض المرسلين المتخفين .

وراح البعض يتساءلون ما اذا لم يكن من الافضل للبابابوات ان يجيزوا « الطقوس الصينية » باعتبار ان التفسير الذي اعطاه اليسوعيون للاله الاسمى ولعبادة الجدود ، قد يكون غزا ، مع الوقت ، عقول الصينيين ، مما كان من شأنه ان يؤدي مثل هذا التدبير الى تنصير الصين برمتها مع اقطار آسيا الوسطى . وهذا الاحتمال كان يقابله ، في الوقت ذاته احتمال آخر هو ان يجعل المسيحيون الصينيون من الله بحسب المفهوم المسيحي له ، الهاً حلولياً . كما كان جعلهم يعبدون، بالفعل ، ارواح الجدود . وهكذا تختلط المسيحية لتذوب في هذه الطقوس مع مذاهب التفكير الصيني ، لا سيما اذا ما أخذنا بعين الاعتبار وأدركنا جيداً الجهود البائسة التي بذلها الآباء اليسوعيون الذين كانوا يؤلفون ، الفرقة الأمامية للمرسلين المناضلين ، وهم يعملون على صعيد مترجرج ، بخطر ، بذلوا الى اقصى حد ممكن الجهود الكريمة التي قاموا بها . فبقي من هذا كله ان الـ *Tien* ليس هو بالله الذي يملأ التوراة وان عبادة الجدود هي من صميم الصنمية والشرك .

ومما لا شك فيه قط ان فشل المسيحية في الصين يكوّن فشلاً في محاولة « فرنجة » تلك البلاد واخذها باسباب الحضارة الاوروبية . كانت الصين متحجرة في عاداتها واعرافها وعقائدها التي سارت عليها منذ بضعة آلاف من السنين ولا سيما عبادتها للجدود ، واقتصار احترامها على الماضي وعلى طقوسها الدينية . وكان على الصيني ان يحترم ، طوال حياته ، اصغر الحركات والسكنات ويتقيد باتفه العبادات والحركات الطقسية ، بدقة كلية ، والا تعرّض لمساوىء عديدة . فكل جديد يأتيه او يقوم به ، في هذا المجال ، يكوّن مخالفة منه للطقوس المرعية ، كما يكوّن انتقاضاً لحكمة الجدود ، وخروجاً على تعاليمهم . وهكذا لم يكن من الممكن قط ادخال أي اصلاح او القيام بأي تجديد . فالخروج بالصين من نطاق هذه الطقوس او إلحاق أي تغيير او تبديل او تفسير يغير من معناها انما يعني التسليم بحدوث تغييرات جديدة وفتح الباب على مصراعيه امام التطور. وهكذا قضي على الصين أن تأسن عاداتها ، وان تبقى عند هذا المستوى الذي بلغت اليه الحضارة الرومانية . ولم يكن هذا الوضع ليتعارض مع ظهور اخلاقية عالية ومع اكبر الفضائل واروعها . الا انه كان يتعارض ، في الصميم ، مع طاقتها الكبرى على التحكم كقوة كبرى بقوى الطبيعة .وهكذا اخذ ميزان القوى ونسبة الفوارق يتسع بين الصين واوروبا او بين الشرق والغرب .

فلم يستفد الصينيون بالفعل كثيراً من اتصالاتهم مع الاوروبيين في القرن الثامن عشر . فقد حمل اليهم الآباء اليسوعيون نتائج محققة ، مكتسبة نزلت عند اباطرة الصين منزلة عالية ، انما جهل رعاياهم كيف يطبقونها ويفيدون منها ، وبالتالي لم يفقهوا ، ما تحمله بين ثناياها من طاقات وما تخفيه في طياتها من امكانات . فعلى قيد خطوات من اليسوعيين الذين كانوا يعـولون ، في ارصادهم العلمية ، على المجهر وعلم المثلثات وفرضيات كوبرنيكوس ونيوتن ، استمر علماء الفلك الصينيون يستعملون المزاول الشمسية ويعتمدون نظرية السماء الجامدة او الصلبة . وعبثاً علمهم الرسامون اليسوعيون وجوب،مراعاة الابعاد ووجوب الأعتماد على الانوار والظلال .فقد استمر الفنانون الصينيون على جهلهم لهذه المبادىء والضرب بها عرض الحائط ، كما استمروا على إضفاء النور على رسومهم الفنية من كلا الجانبين . اخذ الفنانون الصينيون بتقليد الخزف الاوروبي ونسخ الرسوم والنقوش البادية على مصنوعات سان كلو وخزفيات لويس الخامس عشر ، كما قلدوا تقليداً حرفياً موضوعات وصور اوروبية ، وذلك تلبية منهم لطلبات تقدم بهـا بعض الغربيين ، اذ راح احد العلماء الصينيين يرى في علم الجبر بعثاً او تطوراً لطريقة علميـة صينية قديمة . وموجز الكلام بقيت الصين مجالاً مغلقاً وحقلا موصداً في وجه الفكر الاوروبي .

اما الاوروبيون فقد اظهروا شديد اعجابهم بكل ما هو صيني . وقد استطـاع المرسلون ولا سيما الآباء اليسوعيون من بينهم ان يضعوا بالابحاث العلمية التي عقدوها حول الصين اساس علم الصينيّات *Sinologie* فرسموا لنا صورة شاملة عن الحضارة الصينية بهذه الرسائل التقوية الغريبة التي

وضعتها الارساليات الاجنبية ، خلال هذا القرن . وكتاب « وصف الصين » الذي وضعه الأب دي هالد مزداناً بأول خريطة عامة للصين (١٧٣٥) والذي تمت ترجمته الى الانكليزية والالمانية فور صدوره بالفرنسية ، كان موضوع وحي وإلهام لعدد كبير من فلاسفة العصر . وفي اواخر القرن ، طلع علينا كتاب « مذكرات حول الصينيين لمرسلين في بكين » وهـو كتاب عظيم الشأن مليء بالعلم والفوائد الجمة ، « يؤلف معيناً لا ينضب . وكثيراً ما جـاء مونتسكيو على بحث امور الصين في كتابه المعروف : « روح الشرائع » . وفولتير نفسه كثيراً مـا استشهد بحكمة الصينيين في « قاموس الفلسفة » ووضع لنا : « يتيم الصين » وهي مسرحية ناجحـة . وعقد ديدرو بحثاً مستفيضاً عن «فلسفة الصينيين» في موسوعته المشهورة . وروسو نفسه استمد من الصين الدليل الرئيسي الذي أيّد فيه خطابه الاول .

وكان استشهاد الفلاسفة بالصين واتخاذهم بعض تعاليمها تأييداً لنظرياتهم اكثر منه سعيـاً لتفهم الصين . فقد اتخذوا من هذه الادلة التي استمدوها من ادب الصين وفلسفتها براهين لتأييد تعاليمهم ونظرياتهم واقوالهم بما يتعلق بالديانة الطبيعية ، لا اهتماماً منهم بتوضيـح جوهر الله وصفاته او تقريب العناية الالهية للافهام ؛ بل تأييداً منهم « لاستبدادهم النير » ، اذ راحـوا يتوهمون انهم امام بلاد يحكمها حكماً استبدادياً امبراطور فيلسوف وعصبة من العلماء الحكماء . وقد 'خيل لعلماء الاقتصاد ، اذ ذاك ، ان يتخذوا من وضع الصين، تأييداً لنظرياتهم الاقتصادية، اذ تصوروا الصين او بالأحرى صوروها امبراطورية زراعية قائمة وفقاً للمبادىء التي يقولون بها، وانها 'تحكم وفقاً للنواميس الطبيعية ، وهذا الكمال الامثل والاسمى الذي رأوه في الصين كان له تأثير بعيد على نشر فكرة الشعوبية في العالم .

وبفضل الهدايا التي قدمها اليسوعيون للموظفين الصينيين ونقل المصنوعـات الصينية الى اوروبا ، أطلّ إقبال مهووس على كل مظاهر الفن الصيني.وهذا الهَوَس للصنائع الصينية رسخ في الناس ذوق المستهجن ، وراح امراء العائلة المالكة يسعون لتكوين مجموعات لهم من الخزفيـات الصينية ، منهم الفنان « كويبل » وجوليين نصير الرسّام واطّو . وقد اوصى الاوروبيون على خزفيات صينية ، وتلقت مدام بومبادور من كيانغ ـ سي طاقماً كاملاً من الخزف الصيني يحمل شاراتها المعلمة . وهنالك نفوس تقية حرصت ان تحمل خزفياتها صور القديس اغناطيوس دي لويولا ، وفرنسوا كسافيه وعماد السيد المسيح ، والصليب ورسم قيامة السيد المسيح ناهضاً بمجد من القبر . ورغب آخرون الى فنانين مشهورين امثال دلفت في هولندا ، وشانتـلي في فرنسا، بتقليد الخزف الصيني .

واستوحى الفنانون من الخزف الصيني ومن هذه الألواح الفنية المنشورة في الكتاب الموسوم: «وضع الصين الحالي » الذي نشره الاب بوقيـه ، عام ١٧٩٧ ، موضوعات عديدة لوشيهم وتحليتهم . كما استوحوا منها تحفاً فنية صغيرة (*Chinoiseries*) ودمى ّهزلية *Singeries* . نحا الرسام واطو نحوها في زركشته وتحليته ديوان الملك الخاص في قصر الـ *Muette* ، كما ان الرسّام هويه رسم عجلات

وصحفات وحلى كثيرة للصالونات ، وغرفاً للطعام على هذا النحو ، وغرفة زينة قصر دي روهان (١٧٤٥ — ١٧٥٠) . والى هذا المنشأ او الينبوع الفني يجب ان ترد الدمى الهزلية التي تزين قصر شانتلي . كذلك عالج بوشيه وواتيه موضوعات صينية لحماسية في المرح والدعابة .

كذلك ظهرت أقمشة تحمل رسوماً صينية . فزيّ الاطلس الصيني اخذ في الظهور ، عام ١٧٣٢ ، والنسيج القطني الاصفر من طراز النسيج المعروف بننكين ، والنسيج الحريري الموشى من طراز بكين ، عرفت رواجاً عظيماً .

وقد طبع أوبركمف في مدينة جُوي ، عـــام ١٦٧٠ ، اول نسيج يحمل رسوماً صينية هزلية .

والمقاعد والطاولات طلي كثير منهـا بالطلاء الصيني ، كمكتب لويس الخامس عشر ، هذا المكتب بالذات الذي كتب عليه الملك لويس السادس عشر وصيته ، وهو مسجون في سجن التمبل . كذلك ، صُنعت السكاكين وفقـــاً للطراز الصيني ، كما تحلت مقابضها برسوم قردة صينية .

وكان الانكليز اول من قلد الحدائق الصينية في كيو . ومن تصميم الحديقة الصينية انبثقت الحديقة الرومنطيقية . كذلك ظهر في كيو وشانتلو اول ما ظهر ، طراز المعابد الصينية ذات القباب . وكل حديقة كان يقيمها امـير كبير او مالي ثري امام قصره ، ارتفعت فيها سرادقات صينية ، منها في بلدة باغاتيل للكونت أرتوى ، وفي شانتيلي وسانت جيمس ، على الطريق الممتد بين غابة بولوني ونويي ، وفي اماكن اخرى .

وبعد عام ١٧٦٠ ، اخذت أذواق الناس تتوق لنماذج من الفن القديم ، كما استبدت بأذواقهم النظريات الفنية التي طلع بها جان جاك روسو ، وكلها تعارض الى حد بعيد ، التنظيم الاجتماعي الشديد ، في الصين ، حيث لا قيمة للفرد ولا شأن له فجاء رواج هذا الذوق وانتشاره بـــين الناس يخفف تدريجياً من تأثير الفن الصيني الذي تأصل عميقاً في نفوس القوم ، اذ ذاك .

ففي اواخر القرن الثامن عشر ، بدت الصين واوروبا غريبتين تماماً الواحدة عن الاخرى . فالاخوة الانسانية التي راودت النفوس ودغدغت المشاعر برهة من الزمن ترى حلمها يتطاير هباءً منثوراً ويتوارى عن الانظار . وهـــذه الصين التي اصبحت عزلاء من السلاح لافتقارهـا للتكنولوجيا الاوروبية ، دانت باستقلالها وبالنجاحات الـــتي حققتها ، لهذه الانقسامات والمشاحنات والمنافسات التي اقامت الدول الاوروبية بعضاً على بعض فذهبت جهودهم سدىً . وعندما توارى الامبراطور كيان ـ لونغ عن العرش ، عام ١٧٩٦ ، تاركـــاً الحكم بيد خليفة خشنت اخلاقه وماعت بعد معاشرته النساء في الحريم ، بدا مستقبل الصين قاتماً مظلماً .

اليابان

بقيت اليابان في عزلة شبه تامة في جزرها المتناثرة،وتحسباً منها لغزو محتمل تقوم به اوروبا بحافز من المرسلين والمبشرين ، حظرت اليابان الكرازة بالمسيحيـــة والتبشير بها ، منذ سنة ١٦١٦ ، ولم يُعرف ان يابانياً واحداً غادر اليابان الى الخارج ، منذ سنة

١٦٣٧ . فكل محاولة من هـذا النوع كانت تعرض صاحبها للموت الاكيد ، كما انه اشترط في بناء السفن ألا يتعدى حجمها الأقصى ٢٥ طنـاً . فلم يكن يسمح لغير الهولنديين من بين الاوروبيين باستيراد البضائع الاوروبية الى وكالتهم التجارية في جزيرة دشيما الواقعة عند مدخل خليج ناغازاكي ، بعد ان يتعرضوا للكثير من ألوان الازعاجات والمضايقات التعسفية . وكانت بعض القوارب اليابانية تستورد من الصين ، بعض المواد والاصناف التي تقتضيها حيـاة البذخ . فاليابان كانت موصدة الابواب ، مغلقة النوافذ .

وقد وجد سدنة البلاط من آل توكوغاؤوا في هذه العزلة وفي هذا الاغلاق مدعـاة للطمأنينة ، اذ كان يفوّت على كبار الاقطاعيين الذين غلبوا على امرهم امكانية الاعتماد على عون او نصرة من الخارج . فالميكادو او الامبراطور كان يقبع في قصره في كيوتو ، لا يأتي عملاً . وكان يحيط بسدنة البلاط من آل توكوغاؤوا او الشوغون ، في عاصمتهم يادو (توكيو)، حاشية ألـّفت بلاطاً زاهياً ، حكموا البلاد باسم الامبراطور وجمعوا في قبضة ايديهم ملء السلطة الفعلية ، يتصرفون بالجانب الاكبر من التوابع المرتبطين بهم بالولاء : مـن اشراف وبارونات ومساموراي وفرسان . هنالك ١٥٠ اسرة من نبلاء الفوداي *Fudai* اصحـاب الامتيازات تتوارث ، أباً عن جد الوظائف العامة في البلاد ، مكافأة لها ، في شخص جدودها، لمناصرتهم توكوغاؤوا والوقوف الى جانبهم ، واخلاصهم لهم الخدمة . وكان في وسع التوكوغاؤوا ان يعتمدوا الى حد بعيد ، على ولاء ٥٠٠٠ فارس من الفرسان *Bannaret* ، وعلى ١٥،٠٠٠ من رجال الحرب المدججين بالسلاح. وقد أبعد عن الحكم هؤلاء النبلاء من بطون توزاما الذين سبق لاجدادهم ان وقفوا موقفاً معادياً من توكوغاؤوا، الا انهم كانوا ينعمون باستقلالهم الاداري في اقطاعاتهم الواسعة ، هذه الاقطاعات التي لم يكن للشوغون ان يتدخل بأمورها مباشرة طالما ان الامن مستتب وليس ما يعكر الطمأنينة والاستقرار . وكان لبعض هـذه الأسر كالشيمادزو والداتا والمايدا اطيان طائلة يعمل في تابعيتهم عدد كبير من النبلاء والساموراي بحيث تؤلف الواحدة قوة مهيبة الجانب .

وكان النبلاء والساموراي يؤلفون طبقة عسكرية . الا ان معظم افراد هذه الطبقـة لم يكونوا ليعملوا شيئاً يذكر ، اذ كان محظوراً عليهم ، باسم الشوغون ، ان يقومـوا بأي نشاط غير النشاط العسكري والدرس. وكان يؤمن أود معيشتهم طبقة بائسة من المزارعين والفلاحين، ترزح تحت عوائد ورسوم من الارز تفرضها عليهم طبقة النبلاء ، لا يبقى لهم بعد تأدية مايترتب عليهم تقديمه ، ما يسدّ رمقهم او يكاد. وقد قامت في المدن نقابات من اصحاب الحرف والتجار (*Chenins*) تؤمن للبلاط ولسكان الريف المصنوعات التي هم بحاجة اليها في معايشهم .

وقد أخذ هذا النظام الاجتماعي بالتفسخ والانحلال للعزلة التي كانت فيها اليابان . وكان عدد السكان قد ارتفع كثيراً في ايام السلم ، اذ تراوح سنة ١٧٢٦ ، بين ٢٨ – ٣٠ مليون نسمة

وهو رقم وقف عند هذا الحد دون ان يتعداه حتى سنة ١٨٥٠ ، بعد ان ادرك الانتاج ، في البلاد ، حدّ الكفاية . فاليابان بلاد جبلية الطابع ، لا يستثمر المزارعون منها سوى سبع مساحتها ، واليابانيون كالصينيين لم يكونوا يحسنون سوى استغلال السهول واستثمارها . وكان يخشى ان يتجاوز السكان بعيداً طاقة البلاد الانتاجية ، اذ ان الجفاف وانحباس المطر طويلا او وفرته احياناً ، من شأنه ان يسبب المجاعة في البلاد التي كثيراً ما قاست من هول المجاعة بين ١٧٠٢ – ١٧٩١ ، فتضرست باثنتي عشرة سنة من السنين العجاف ، زادها إيلاماً وشدة ، الرسوم الجمركية في الداخل التي كانت تحول دون انتقال الارز من الاقضية التي ترتع ببحبوحة الى تلك التي تعاني من الجوع ويتضور اهلها منه . وكثيراً ما كانت هذه المجاعات تجر وراءها الاوبئة والثورات وتتسبب في حرب الفلاحين وفي خراب رجال الحرب ولذا راحوا يهبطون المدن طلباً للرزق . وكان لا بد من شراء الارز من الخارج فيقايضون به المواد المصنوعة في البلاد . ولكن أنى ذلك والقوانين المرعية تحول دونه ؟

والسبب الآخر هو سلوك طائفة الشونين وتصرفاتهم . فقد قام هؤلاء التجار وسيطاً بين النبلاء والتجار الهولنديين في دشيما،وبين الفلاحين والصناعيين. فكانوا يحددون اسعار الحاجيات على هواهم : يشترون رخيصاً ويبيعون غالياً ، وبذلك يتسببون بخراب هؤلاء واولئك على السواء . وهكذا راحوا يؤلفون ، شيئاً فشيئاً ، طبقة جديدة من البورجوازيين الرأسماليين، يشترون من النبلاء أقطانهم كما يشترون ألقاب الساموراي . فالشيء الوحيد الذي يحد من مضارباتهم ويضع حداً لتعسفاتهم وتحكمهم هو سياسة تبيح الاستيراد الحر وتطلق المنافسة بين التجار .

والفلاحون الذين ارزحتهم الضرائب والرسوم المفروضة وارتفاع اسعار الحاجيات المصنوعة، وبخس ثمن الارز الذي يبيعونه ، اخذوا يهجرون الريف للمدن ويدخلون في خدمة المنازل ، او يهيمون على وجوههم . وبعد ان تقفر مقاطعات برمتها من السكان تعجز عن دفع ما يترتب عليها من رسوم . والفلاحون الذين يبقون في منازلهم يعجزون عن تربية اولادهم ، ولذا راحوا يقتلون اطفالهم او تعمل النساء على الاجهاض بالرغم من القانون . ولكي يؤمن اصحاب الارض الايدي العاملة الاخذة بالتناقص ، راحوا يشترون اولاداً ناشئين بعد ان يجرى خطفهم من المدن على يد اناس مختصين مدربين على ذلك . وهؤلاء النبلاء الذين كانوا يعيشون في البلاط او يملكون اخاذات صغيرة لا تفي بأودهم لم يلبثوا ان اصبحوا مدينين لدى التجار . وكانوا يستمرون على هذا النهج من الحياة بعد ان ينشئوا في املاكهم صناعات للحياكة ، وبتخفيض كمية الارز المخصصة لرجال الحرب التابعين لهم . وكان بعضهم يضطر ، بعد ان يغرقوا في الدين ، لبيع املاكهم من هؤلاء التجار .

وكان عدد كبير من رجال الحرب يذهبون فريسة الفاقة والعوز ، فيفقدون كل شعور

بالكرامة التي يحملون ، كـما يفقدون كل حس بنبل المحتد الذي ينحدرون منه فيتخففون من عبء بعض بنيهم بالتخلص منهم . وكانوا يعفون من خدمتهم لهم الاتباع الذين توارثوهم ابـاً عن جد ، لقاء بعض المال يدفعونه لهم نقداً . وكثيراً ما تبنوا ابناء بورجوازيين اغنيـاء يعطونهم اسماءهم وينقلون اليهم الامتيازات التي ينعمون بها ، مقابل مبلغ محترم من المـال ، ثم يهجرون اسيادهم ويهبطون الى المدينة ويصبحون ساموراي مشردين بعضهم ينصرف للتجارة بينما يصبح معظمهم من شذاذ الآفاق ، او ممثلين مسرحيين او مغنين او قطاعي طرق .

وكانت الطبقات الاجتماعية تتداخل فيما بينها وتتشابك بصورة يصعب حلهـا . ففي مجتمع يبدو مستقبله غامضاً ويسارع كل افراده للتمتع بمباهج الحياة ولذاذاتها، فالمضاربون الذين حالفهم الحظ وبسم لهم القدر ، والمشردون المغمورون بين الجمـاهير الذين يسعون للكسب من كل جوارحهم : هؤلاء عن طريق ثروة هبطت عليهم من حيث لا يدرون ، واولئـك عن طريق غنيمة باردة او صيدة من غير صائد ، او لينعموا بسانحة بسمت لهم بين الاشـواك ، كل ذلـك الـّف مادة استفادت منها بائعات اللذة في هذه الاحياء الخاصة القائمة في المـدن الكبرى المكتظة بالسكان . فدور البغاء اصبحت مؤسسات رسمية معترف بهـا . والفن الوطني او القومي نفسه تنزى بهذا « الزبد الطافي فوق المجتمع » . فالنو *No* ، هذا الفن الغنائي الذي يمور بالرمزية والذي تكفيه اللمحة الشاردة دون الايماءة المغرية ، قد انحط امام الدراما الشعبية الصاخبة العـاتية . فالصورة الخشبية ، *Estanpe* اكبر فنون اليابان وابرزها طراً ، تبرز لنا ، حتى درجة الارهاق، مشاهد حياة البغايا ، وما هن عليه من بذخ صارخ ، ومواقفهن المصطنعة التي توحي لنا هـذا الاحتشام الكاذب والخفر الحيي ، وهذه العـاطفة المشبوبة المنكمشة او المتحفظة . فهارونوبو (١٧١٨ — ١٧٨٠) الذي كان اول من اخترع الطباعة المتعددة الألوان الكامـلة ، واوتومارو (١٧٥٣ — ١٨٠٦) لم يصورا لنـا غير البغايا . وتسيونوبو (١٧١١ — ١٧٨٥) وكيومتسو (١٧٣٥ — ١٧٨٥) وكيولوروا (١٧٣٨ — ١٧٦٥) وكوريوساي ، وكيونوغا (١٧٤٢ — ١٨١٥) الذي بلغ فن الاستامب على يدهم الذروة ، صوّروا بالأكثر بغايا . وهكذا أخـذ الفن يروّج لتذوق هذه اللذائـذ التي تحرك الشهوات وتهيـج الاعصاب ، وتسهم في افساد الاخلاق والآداب ، فتزيد من آلام المجتمع واوصابه .

وقد أسقـط في ايـدي الشوغون يانوبو (١٧٠٩ — ١٧١٣) ويوشيمون ، وجيناري ، ولم يستطيعوا شيئاً امام هذا الوضع المستحكم الحلقات . فقـد حاولوا معالجة الاعراض والظواهر دون البحث عن اسباب المرض الحقيقية ، وحاولوا ان يزيدوا من نفـوذ الكونفوشية ، سياج الاخلاق الحميدة والمدافعة الأولى في البلاد عن الانضباط وحسن النظام . واتخذوا مستشارين لهم فلاسفة وحكماء متعمقين في الكونفوشية امثـال هاراي هاكوسيكي (١٦٥٦ — ١٧٢٦) ومورو كيوسو (١٦٥٨ — ١٧٣٤) ، ومتسودايرا سادانوبو (منذ عام ١٧٨٦) . بذل هؤلاء المستشارون جهوداً طيبة لاصدار القرارات الرادعة ، ضد حب المال وسطوته ، وضد انحطاط

الاخلاق بين طبقة الساموراي (١٧١٠) وضد المزارعين الذين هجروا الارض واوجبوا عليهم الرجوع اليها والعمل فيها ، ومنع الفلاحين من هجر اراضيهم (عددهم وافر جداً) ، والحد من البذخ والاسراف وتحديد الايام التي يسمح لهم فيها بتناول الارز ، واجبار النساء على ترتيب زينتهن بانفسهن ، وانشاء جوائز ومكافآت لمن يحافظن على طهارتهن او تقواهن ، والالغاء الدوري لديون الساموراي . كل هذه الاجراءات والتدابير الاحترازية لم تحدث اية تحسين ، وبقيت دونما اثر . وكان الوضع يزداد سوءاً يوماً بعد يوم . واستبدت المجاعة بالبلاد على اثر الجفاف والفيضانات التي نزلت بالبلاد بين ١٧٨٣–١٧٨٨ . فالهر والفار قنص طيب يرغب فيه جيداً . وراح اليابانيون يأكلون جيف الموتى ، ويجهزون على المحتضرين ، ويكبسون لحم الآدميين ليحتفظوا به اطول مدة ممكنة . وقد امتنعت السلطات عن ملاحقة السرقة والمتسببين بالحرائق .

كل هذه الامور نغصت عيش النبلاء والساموراي وابناء التجار المثقفين ، بعد ان هالهم ما رأوه من قدرة الاوروبيين وسطوهم وبعد تأثيرهم . وقد اخذ الهولنديون يستوردون الساعات والمجاهر والفانوس السحري ، وقنينة ليدن ، وميزان الحرارة وميزان ثقل الجو وقد سمح الشوغون مورو كيوسو ، باستيراد الكتب الاجنبية باستثناء الكتب التي تبحث في الدين المسيحي . ووضع احد الكونفوشيين يعمل موظفاً رسمياً اسمه اوكي يونزو عام ١٧٤٥ ، لحساب الحكومة ، معجما هولندياً يابانياً . وقام بعض الخاصة امثال ريوتاكو وسوجيتا يتعلمان اللغة الهولندية ، واشتروا عام ١٧٧١ ، كتاباً في علم التشريح يضم الواحاً علمية واقتنعوا عن طريق علم التشريح بأن الحق الى جانب الاوروبيين ضد الصينيين . وعملوا عام ١٧٧٤ ، على نشر الكتاب الآنف الذكر مترجماً الى اليابانية . وقد ادخل سوجيتا ، بعد ذلك ، طريقة العالم النباتي «لينيه» . وقد بقي روتاكو يبحث حتى اجله الاخير (١٧٨١) ليكوّن له فكرة عن وضع اوروبا . وقام هيروغا جناي (١٧٣٢ – ١٧٧٩) بابحاث حول النباتات الطبية ، وصنع اجهزة كهربائية وأصبح تاريخ اوروبا وجغرافيتها ، موضوع اهتمام الجميع . واستقر في خلد الجميع ان ليس باستطاعة اليابان قط الصمود في وجه هجوم يقوم به الاوروبيون ضدها . وراح سيهاي هاياشي ينبه الناس الى الخطر الكائن على اليابان من تقدم الروس ، ومن مجاورتهم لهم ، وابرازه بأنه الخطر الذي يهدد القومية اليابانية بأسوأ مصير . وراح الشباب يلتف حول هؤلاء الرجال بعد ان قلقت خواطرهم وتاقوا جدياً الى ان تستورد بلادهم العلوم والادارة وسياسة الغرب ، كذلك اخذ الجميع يكره حكم توكوغاؤوا وادارتهم . فالشك الذي قوبل به نظام حكم الشوغون والكونفوشية الرسمية حمل بعض الفلاسفة اليابانيين على نبش مدونات تاريخ اليابان القديم ودرسها . واخذوا يمون ، اكثر فأكثر ، مدى القول بأن الامبراطور هو ابن الشمس الاله الأسمى والأعلى . وراحوا يعلنون على رؤوس الاشهاد بأن الشوغون هو مرسل بسيط من قبل العرش وان الولاء للعرش هو اسمى بكثير ، وفوق الولاء لسيد إقطاعي . وفي الوقت ذاته كشف اليابانيون

عن قوة جديدة في نظريات الفيلسوف الصيني القـــديم وانغ - يانغ - منغ وتعاليمه (او - يوماي) وهذا الفيلسوف الكونفوشي المنشق يوحي بتهذيب الشخصية عن طريق التمعن بالحقائق الداخلية ، فحصها وترويض النفس عليهـــا . ويشجب الاعتماد على ظاهر الكلمات المكتوبة . فساعد بذلك اليابانيين على تحرير ذواتهم من نـير تقاليد التوكوغاؤوا . وطلع من بين تلاميذه عدد كبير من دعاة الاصلاح في القرن التاسع عشر .

راحت انظـــار المستائين من ادارة التوكوغاؤوا وحكمهم ، والواقفين الى جانب الميكادو تتجه ، اكثر فأكثر الى بعض كبار النبلاء من امثـــال توزاما ومساتسوما والموري والتوزا والهيزن الذين عرفوا ان يبقوا بعيداً عن مؤثرات البلاط، ان يقتصدوا وان يستثمروا إقطاعاتهم على الوجـه الامثل وينظموها وحدات مستقلة اقتصادياً . فأوجدوا بعض الصناعات لهم وللمزارعين العاملين في خدمتهم ، وأولوا التجارة اهتمامهم الاكبر وراحوا يدافعون عن رجالهم ويحمونهم من جشع التجار المرابين ، ويحافظون على هذه المناقب الاجتماعية القديمة ويعتصمون بها . واذ كانوا حذقوا فن القيادة باعتبارهم زعماء القوم ، وبرهنوا عن كفـاءة ادارية عظيمة راحوا ينتظرون بهدوء الوقت المناسب والفرصة المؤاتية .

منذ اواخر القرن الثـامن عشر اخذت تتهيأ في اليابان ، هذه الحركة الكبرى التي ادت الى ثورة ١٨٦٨ ، كما ادت الى بعث اليابان وطلوع نهضتها الحديثة .

الفصل الرابع

افــــريقيــا

كانت افريقيا تعيش في عزلة شبه مغلقة . فقد قام في الشمال من هذه القارة مجتمعــات اسلامية ، امتدت حلقاتها من البحر الاحمر حتى شواطىء المحيــط الاطلسي ، اولت ولاءها السلطنة العثمانية . وانعزلت مثلها عن آسيا محاولة دفع الكَـفَـرَة عنها. وفي ما عدا ذلك، حواجز تألفت من شواطىء قليلة التقاطيع بيئتها واطية ، منخفضة ، رملية هنا ، او تغشاها المستنقعات والغياض ، هنالك ، ونواتىء طبيعية تبرز على الخط الدائري . ومساحات شاسعة تفترشهــا الاحراج والغابات والغدران والرمــال المحرقة ، واقوام من الـزُنج فزعة ، ألف بعضها القسوة والفظاظة ، والبعض الآخر حربي الطابع من أكـلـة لحم البشر تعتمل فيه فكرة الاستعمار التجاري والاستغلال ، بحيث ان كل شيء كان يحول ، في هذه القارة المترامية الاطراف ، دون التوغــل والانسياح في ارجائها . فلما ابتعد الاوروبيون في القرن الثامن عشر عن بعض المراكز التجارية التي نثروا حباتها على الساحل الافريقي . اذ ان البرتغاليين الذين كانوا تسربوا الى بعض المناطق الداخلية ، واوغلوا فيها ، خلال القرون الماضية ، والذين احتفظوا لانفسهم بسرية الاكتشافات الجغرافية والبشرية التي توصلوا اليها عبر الاجيال ، قطعاً منهم لاثارة الشهوات واهاجة الرغائب بين المنافسين ، والذين لم يكن يهمهم غير التجارة وتأمين الارباح الطائلة ، كانــوا قد تناسوا بعض ما تمّ لهم من علم ومعرفة عن هذه البلدان. وكان يشار الى داخل هذه القارة، في أدق المصورات الجغرافية التي تعود لتلك الحقب التاريخية ، بلون ابيض او بخطوط تشير الى حــدود اعتباطية فيبدو منها وكأن نهر النيجر مثلاً ، يخرج من بحيرة تشاد ليتصل سيره فيما بعد بالسنغال، كما تبدو بحيرة تشاد وكأنها احدى منابع النيل، وكأن عدة انهر قوية تجتاز الصحراء الكبرى في اتجاهات عديدة ، كما يبرز حيناً فيل شارد يهيم على وجهه فوق الربى والتلال . والحضارات القائمة في هذه الاقطار ، الجاهلة لاصول الكتابة في ادنى صورها ، والعاجزة عن الاحتفاظ بمدوناتها البدائية ، تكوّن السواد الاكبر مما تقع عليه العين من انماط متغايرة ، باستثناء بعض المعلومات التي توفرت على جمعها المراكز الاوروبية القائمة على الشواطىء الافريقية . فالمستندات الوحيدة المتوفرة، تتألف من هذه الابحاث والكتب التي وضعها الكتاب العرب، حول افريقيا الشمالية ، وحول بلاد الزنج التي قامت بينها وبين العرب والبربر ، بعض العلائق عبر التاريخ .

هذه الحضارات الافريقية نراها كلها آخـــذة بالانحطاط في القرن الثامن عشر .

مصـــر فالبلدان الافريقية الواقعـــة الى الشمال تشارك السلطنة العثمانية ، انحطاطها وتقهقرها . وعند النقطة التي تلتقي فيها آسيا بافريقيا ، في هذه الزاوية التي يتلاقى عندها العالم الشرقي بعالم البحر الابيض المتوسط ، تقـــوم مصر ، التي نظرت اليها القسطنطينية نظرتها الى ولاية من ولاياتهـــا . وكان السلطان العثماني يعين عليها والـــياً او باشا يستبدله بغيره مع انتهاء العام . ويأتمر بامر الوالى ٢٤ نائباً يحمل كل واحد منهم لقب بك ، لهم ٣٧ وكيلا ، وتحت امرة الوالي خمسة طوابير من الخيالة ، بينهم ثلاثـــة من الصباحيين واثنان من المشاة ، وواحد من الانكشارية ، وواحد من العُزب ، يقوم على امرتها آغاوات او زعماء ، ولكل آغـــا نائب . على الباشا ان يؤمن النظام في البلاد ، وان يقيم العدل بالسواء بين الرعية ، كما يترتب عليه جباية الرسوم والضرائب ، على اشكالها : كضريبة الاملاك ، وضريبة الاعناق المفروضة على الذميين من نصارى ويهود . فاذا كانت الرسوم المفروضة عيناً على الاطيان والاراضي التي يردفها النيل بالخصب والثراء تؤمن دخلاً طيباً ، فالجمارك من جهتها ، امنت هي الاخرى ، مردوداً عالياً . فقد كانت السفن العربية ترد السويس ومرفأ القصير قادمة من صورات ، في الهند محملة بالموسلين والاقمشة الهندية والقهوة العربية ، كما كانت تصل اسيوط قادمة من دارفور ، ناقلة العاج وقرن وحيد القرن ، وخشب الابنوس وريش النعـــام ، بينما كانت الاسكندرية تستقبل الاجواخ والخرداوات المختلفة تصدرها الى مرسيليا وليغورنو . فاينما وقع منك النظر في هـــذه المدن والموانىء ، رأيت سوقاً للرق والعبيد يؤتى بهم من السودان ، او سوقاً آخر للارقاء البيض يؤتى بهم من القوقاس وكان من مألوف العادة ان يرسل الوالي الى الاستانة ، كل سنة ٦٠٠ ٠٠٠ قرش من الخراج ، وعدداً من الجند .

اخذت هذه الولاية تعيش في شبه عزلة بعد ان راحت فريسة انحلال النظام الاقطاعي ، حيث غامت كل سلطة للسلطان فيها . وراح البيكوات المماليك فيها يعملون على شراء ارقـــاء من البيض ، يجعلون لهمّ منهم فرسانا عرفوا بالمماليك الذين شدتهم الى اسيادهم ، رابطـــة الولاء والاخلاص أو ما يشبه رابطة البنوة . وقد جرت العادة في البلاد على ان ينعم اقوى البيكوات بلقب بك، على احد مماليكه المصطفى فلا يعتم هذا الاخير حتى يسارع بدوره الى شراء ارقاء له من بلاد الكرج او من بلاد الشركس يقيم له منهم مماليك يقومون على خدمته. يختار من بينهم كالمعتاد بيكوات. وهكذا نرى ان جمهرة من العبيد والارقاء يتولون اكبر الوظائف الادارية واهمها في البلاد.

واخذ الجند بدورهم يختارون هم انفسهم ، آغواتهم لمدة سنة ، حتى اذا ما انقضت انضم الاغا الخارج الى مجلس الآغوات الذي يقوم على ادارة الفرقة ويختار اعضاءها .

ولم يلبث هؤلاء الجند ان استقلوا عن ســـلطة الباشا لا يعرفون رئيساً لهم غير زعيمهم ، فيأخذون بابتزاز الفلاحين وامتصاص التجار . وكان الباشا يبيعهم او يضع تحت تصرفهم ضياعاً بكاملها يستغلونها حتى ان بعض البيكوات تم له من ٢٠٠ الى ٤٠٠ عزبة او مزرعة ، اذ كان

يحتفظ في كل ضيعة من هذه الضياع بعزبة يكل امر العناية بهـا لفلاحين ومزارعين يسخرهم لهذا العمل . وكان يفرض عليهم الرسوم ، والضرائب على الاراضي والاملاك ، يعهد بجبايتها الى مأمورين يختارهم من بين موظفين نصارى من الاقباط ، حذقوا اسرار مسح الاراضي كما حذقوا القضايا المالية . وكان يحتفظ بقسم من هذه الرسوم ويرسل الباقي للوالي. وكان باستطاعة هؤلاء الآغوات والمماليك ان يوصوا ، شرعاً باملاكهم لاولادهم . فبعد ان الف المماليك جيشاً مرابطاً في البلاد يستغلها كما يشاء ، راحوا بوصفهم ورثة هذ القبائل البدوية التي تم الفتح على يدها ، يردون عن البلاد هجمات البدو في عهدهم .

وكان الباشوات والآغوات يتجاذبون اطراف السلطة فيما بينهم ، يستخدمون في سبيـــل الاستئثار بها الدسائس والمؤامرات والاشتباكات الداميـــة ولا يتورعون قط عن القتل طعناً بالخناجر او السم المدسوس . وقـد يشره طاغية جبار من بينهم للسلطة ويحاول فرض سطوته على الجميع . من اشهر هؤلاء البيكوات علي بك (١٧٥٥ – ١٧٧٢) احد هؤلاء المماليك الذين سبقوا محمد علي الى الاستئثار بالحكم ، والذي ادرك ما عليه الاوروبيون من قوة البـــأس والشكيمة ، فحاول ان يحصل من فرنسا مـا هو بحاجة اليه من المدافع ، كما حاول ان يفرض سيطرته على السودان الى الجنوب من مصر، وعلى سوريا والحجاز ويؤمن لمصر استقلالها الناجز، كما انقطع منذ عـــام ١٧٦٨ ، عن استقبال اي باشا ترسله الاستانة ، وامتنع عن ارسال الخراج اليها ، وضرب العملة باسمه . وبعد ان اخذ يدس لرفاقه ويعاملهم بكل قسوة مات مكروهاً من الجميع الا من افراد الشعب الذي امّن له ، بالحديد والدم والنار ، النظام والعدل . وقـد كانت البلاد في معظم الاحوال ترسف في الفوضى المخزية، بالرغم من محاولة فاشلة قام بها الاتراك لاعادة سيطرة السلطان على البلاد من جديد (١٧٨٦ – ١٧٨٩) .

والعدد الضئيل من الاوروبيين الذين سكنوا مصر ، اذ ذاك ، كان يمثـل بعض البيوتات التجارية معظمهم من الفرنسيين الذين لم يكن عددهم يتجاوز الثلاثين ، يأتون مصر باذن خاص من غرفة تجارة مرسيليا ،فألفوا من بينهم «أمّة» لها منظماتها وهيآتها الرسمية برأسها قنصل . وكان القنصل موظفاً يجري تعيينه من قبل الملك، يساعده ترجمان خاص تخرج من مدرسة اللغات الشرقية التي تأسست في باريس ، عام ١٧٢١ ، وقامت ضمن كلية لويس الكبير ، فيها . وقـد كان بعضهم امثال «له غران» الذي كان استاذاً لسلفستردي سياسي ، وكاردون وديجون من كبار علمـاء المشرقيات الذين ساهموا باغنـاء المكتبة الملكية بما اهدوها من كتب ومخطوطات شرقية ، تركية وعربيـة . وقـد نال الفرنسيون تخفيضاً لرسوم الجمرك عن بعض السلع التي يستوردونها بمعـدل تراوح بين٢٠و٣٠٪ على الاجـواخ الجيدة ، منافسة منهم للاجواخ الانكليزية . وفي سنة ١٧٥٢ ، مـات آخـر تاجر انكليزي في مصر ، كما ألغيت القنصلية الانكليزية فيها .

ولم يكن يسمح للاوروبيين بالاقـامة . وكان عليهم ان ينزلوا ارضاً عن صهوة جيـــادهم

عند مصادفتهم مرور الآغا او الوالي في الطريق ، وكثيراً ما كانوا عرضة للاهانات والضرب وابتزاز المال .

ان انشاء امبراطورية في الهند جعل اهمية خاصة لطريق السويس وهي طريق اخصر بكثير من طريق رأس الرجاء الصالح . الا ان البحر الاحمر الذي تقوم على سواحله الشرقية مدن الاسلام المقدسة كان محظوراً دخوله على الكفار . الا ان الضعف الذي اعترى السلطنة العثمانية سهل الاتصال مباشرة مع سيد مصر الموقت . ففي سنة ١٧٧٥ ، نال وورن هاستنغز ، الترخيص للسفن الانكليزية بالدخول الى مرفأ السويس . وفي سنة ١٧٨٦ عاد الانكليز فانشأوا لهم قنصلية في القاهرة ، ومنذ ذلك الحين اخذ الضباط الانكليز والموظفون والتجار منهم يعتمدون السويس في طريقهم الى الهند ، عبر الصحراء والاسكندرية والبحر الابيض المتوسط ، والعكس بالعكس . ونال الفرنسيون مثل هذه الامتيازات ، عام ١٧٨٥ .

هذه البلاد الغنية ، مصر ، التي تعود التجارة فيها بارباح مغرية على القائمين بها والتي تقع وسطاً بين عالمين وكانت في ولاتها تابعة لسلطان ضعيف مستضعف ، كانت تثير الرغائب والمجازفات في قلوب من يرنون اليها باشتهاء . فقد رأى شوازول في احتلال فرنسا لمصر ، خير عوض لها عن خسارتها وفقدانها الكل من كندا والهند ، فراح سنة ١٧٨٤ يشرح في شانتلو ويبين افكاره وآراءه ويؤيد نظرياته امام تاليران الذي كان وزيراً للخارجية ، في حكومة الديركتوار . وعُرضت قضية احتلال مصر عدة مرات لفرجين . وانشأت الأمبراطورة كاترين الثانية قنصلية لها في الاسكندرية لتدفع بالبيكاوات والآغوات الى التحرر من ربقة السلطان بوضع انفسهم تحت حمايتها . وستلعب مصر ، عما قريب ، دوراً رئيسياً في المسألة الشرقية .

تونس

كلما اوغل المرء سيراً باتجاه الغرب كلما شعر بضعف الولاء وضعف تابعية شعوبها لتركيا . فقد سبق وقام في تونس دولة جديدة عقب منـاداة الآغوات منها بالحسين باي عليها (١٧١٠) وتوارث الحكم والخلافة بعده ابناؤه . واغتنم سكان الجزائر حدوث أزمة حكم في البلاد ، فاستولوا على تونس وفرضوا على الباي ضريبة فادحة (١٧٥٦) ، الا انه تمكن ، عام ١٧٩٠ ، من الغاء علاقات الولاء والتابعية التي شدته لداي الجزائر . واثرى هؤلاء الحكام بفضل الاحتكارات التجارية التي انشأوها . وقد اثارت ادعاءاتهم المجانية وتعديات القراصنة الذين خرجوا عن طاعتهم ، صعوبات مع الاوروبيين كسكان البندقية والاسبان والفرنسيين (تدخل الاسطول الفرنسي في الـ *Goulette* ، عام ١٧٨٤/١٧٨٥) ونال الفرنسيون من علي بك (١٧٥٩ – ١٧٨٢) امتيازاً خولهم احتكار صيد المرجان وإنشاء وكالة تجارية لهم في بنزرت ، واربعة مراكز تجارية اخرى حول رأس عنابة *Cap Bon* وبزت الحركة التجارية الفرنسية في عهد خلفه الباي حموده (١٧٨٢ – ١٨١٤) نشاطات كل البلدان الاخرى .

الجزائر

كانت الجزائر خاضعة لحكم الداي الذي يجري انتخابه عادةً ، من قبل ضباط فرقة الإنكشارية . فمن اصل ٣٠ داياً تعاقبوا على حكم البلاد ، بين ١٦٧١ — ١٨١٨ ، جاء ١٤ حاكماً منهم الى الحكم إثر انقلابات عسكرية كانت تؤدي الى قتل الحاكم العام . ولعل اكثر الصناعات رواجاً في الجزائر واوفرها رِفْداً ودخلاً هي القرصنة اذ يقوم القرصان بمهاجمة السفن التجارية واخذ مَن وما فيها من انس ومال ، والاعتداء على المسيحيين الساكنين على السواحل البحرية . الا ان تطور صناعة السفن واساطيل الحربية لدى الاوروبيين ، خلال هذا القرن ، والرحلات التفتيشية التي اخذت تقوم بها هذه الاساطيل ، حدّت كثيراً من هجمات القرصان . دخل الداي في مفاوضات مع الدول الاوروبية التي رضيت تفادياً منها لتعديات القرصان ، ان تدفع له ، رسماً سنوياً معيناً بشرط ان تكون في مأمنٍ من هجماتهم وتعدياتهم ومضايقاتهم ، وما عتّم ان اهمل هؤلاء القرصان مهنة لم تَعُد لتدرّ على القائمين بها مدخولاً طيباً . وهكذا هبطت قوة الاسطول الجزائري من ٢٤ سفينة عام ١٧٢٤ ، الى ١٠ سفن عام ١٧٨٨ . كذلك ضعف النشاط الزراعي فيها وتردّت الاعمال الزراعية من جراء الجفاف الذي لحق بالبلاد ، ووباء الطاعون الذي تعرّضت له ، كما ان تجارة الاستيراد التي كانت الشركة الفرنسية الافريقية تلعب فيها دوراً بارزاً تقوم به فروعها الثلاثة في لاكال وعنابة وكولو ، قد انحطت هي ايضاً .

وقد راح الداي يشدد ، اكثر فأكثر على استثمار مرافق البلاد ، اذ عهد بالادارة في الملحقات الى بيكوات اتراك لقاء رسوم طائلة يفرضها عليهم فيحملون اليه الضرائب المجباة كل ثلاث سنوات . وكانت إيالة الجزائر تقسم ادارياً الى عدة اقضية ، يعهد بامور الادارة فيها الى موظفين من الترك . وكان الحكام الاداريون يصدرون تعليماتهم لرؤساء القبائل وشيوخها الذين كانوا يتحكمون بدورهم ، بالقرى او الدوار . وتُركت للقبائل الحرية بالمحافظة على عاداتها وتقاليدها المرعية ، اذ كل ما اراده الداي منهم هو دفع الضرائب والرسوم المترتبة . اما قبائل المخزن فكانت تتمتع بالاعفاء من الضرائب وتعمل على تحصيلها من القبائل الموالية . ولم تكن سلطة الداي الفعلية لتتعدى سدس مساحة البلاد . وكانت جمهوريات القبيل والقبائل الرحل التي تسكن المرتفعات والجنوب ، والامارات العسكرية امثال توغورت ، او الديلية ، كمين مهدي مثلاً ، لم يشدها الى الداي سوى وشائج غامضة من التابعية والولاء ، تضعف دوماً مع الانقلابات والانتفاضات .

واسبانيا التي اضطرت لاخلاء وهران والمرسى الكبير أمداً من الزمن ، عادت الى احتلالها، عام ١٧٣٢ . غير ان الاسبان فشلوا في انشاء قاعدة قوية لهم ، وكانوا يعولون بالاحرى، على وطنهم الأم ، لتأمين اسباب عيشهم . وفي سنة ١٧٩٠ ، حدثت هزة ارضية هدمت مدينة وهران مما حمل الاسبان على التخلي عن هذه القاعدة للداي .

كان السلطان الشريفي في المغرب يتمتع عملياً باستقلاله التام عن السلطنة العثمانية.

المغرب

ففي مطلع القرن الثامن عشر ، كان حكم السلطان مولاي اسماعيل ، هـــذا الطاغية المستبد ذي المزاج الناري، يمتد فوق سلطنة واسعة الأرجاء ، شملت المغرب والسودان.

كان السودان يقـــدم للسلطان ما هو بحاجة اليه من قوة عسكرية فيمـّده بجيش من الزنج قوامه ١٥٠،٠٠٠ جندي يخلصون له الخدمة والولاء. وكان هؤلاء الجنود، في الغالب ، متزوجين من زنجيات ، حتى اذا ما الجبن ، شبت ابناؤهم الذكور في مخيمات التدريب وانخرطوا فيما بعد ، في صفوف الجيش . امـا الاناث فينشأن على الاعمال المنزلية ثم يتزوجن . وقام في الاماكن الستراتيجية قصبة يحيط بها سوران ترتفع فيها المستودعات والمساجد وحامية للدفاع عنها . ومن مدينة مكناس ، كان الشريف مولاي اسماعيل يفرض احترامه وطاعته على البلاد اجمع ، بعد ان انزل في قلوب الناس الخوف والرعدة ببطشه واعمال السلب والنهب والابتزاز . فـلم يترك للانكليز سوى مدينـة طنجة ، وللبرتغاليين سوى موزاغان ، وللاسبان سوى مدينتي سبتا ومليلا .

واشتهر السلطان مولاي إسماعيل ببعد النظر ، وعمل على التخفيف من حمـاس الذين ُعرفوا بتعصبهم الديني ، وهم فرقة من القرصان يقومون بنشاطاتهم على السواحل البحرية . ويعملون على مطاردة المسيحيين وتعذيبهم . فوضع حـــداً لاعمال القرصنة التي انقطع اليها القرصان في صالح وتطوان . وكان من جراء ذلك ، ان نشطت الحركة التجارية وزادت واردات السلطان ، بعد ان فرض على الصادر والوارد رسومـاً بلغت ١٠٪ ، واصبحت مدن صالح وتطوان وصافي واغادير ، مرافىء تجارية ناشطة . واحتلت مدينـة فاس من هذه الامبراطورية القلب . وكان البرتغاليون يفدون على مدينة قادس طلباً للدودة القرمزية والزنجفر من الاسبان ، والاجواخ والاصداف من الغينه التي كانوا يستعملونها نقوداً ويستوردها الانكليز مع الاقمشة ، يتلقون التوابل والاسلحة والاعتـدة الحربية من الهولنديين ، والشب والكبريت من ايطاليا ، والحرير والقطن والزئبق والافيون من بلدان الشرق الادنى ، ويحملون كل هذه الاصناف الى السواحل ، حيث كان المسلمون واليهود يتهافتون على شرائها لمقايضتها مع العرب والسودانيين لقاء مسحوق الذهب والفيل وريش النعام والعاج من السودان ، والتمر من الواحات وقد احتل الانكليز في هذه التجارة المرتبة الاولى .

وبعد وفاة مولاي اسماعيل ، أخذ أولاده من نسائه العديدات ، يتجاذبون الخلافـة كل من جهته ، في هذه الفترة الواقعة بين ١٧٢٧ — ١٧٥٧ . وقد تصرف الجنود الزنج تصرف المستبد . يرفعون الشرفاء الى الحكم ويخلعونهم كما يحلو لهم . واغتنم زعماء القبائل هـــذا الوضع لاعلان العصيان والثورة . فأهمل المغـاربة مصير السودان واسقطوه من اهتمامهم فوقع في الفوضى وراح يتخبط فيها .

استطاع مولاي محمد (١٧٥٧ — ١٩٧٠) ان يعيـــد الامن والهدوء الى البلاد . الا انـه

تخلى نهائياً عن السودان وارغم البرتغاليين على الانسحاب من مازاغان ، عام ١٧٦٩ ، الا انه باء بالفشل امام مليلا . فبعد ان اعطى الدانيمارك احتكار الاتجـــار مع مدينة اسفي وأغادير (١٧٥١) عقد مع فرنسا معاهدة تجارية عاملها معاملة الدولة الاكثر رعـــاية . وقام منذ ذاك في مدينة الرباط ، قنصل فرنسي ، كما جاء وسكن البلاد عدد من الفرنسيين . وأسس السلطان مدينة موغادور وجعل منها اكبر اسواق المغرب على الاطلاق ، كما اقام احتكاراً للملح. وهكذا عرف المغرب الازدهار دون ان يعيد الى الوجود ، الامبراطورية الافريقية ، مع بقاء البلاد في وضع لا يختلف كثيراً عن وضعها في الاجيال الوسطى .

افريقيا السوداء

كانت افريقيا السوداء التي ألفت سوقاً كبيرة للرق والنخاسة آخـــذة في مجموعها بالانحطاط والقهقرى وهي تقاسي الامرّين من الاتجار بالرقيق . وقد راح تجار الرق من العرب ، يتجهون شمـالاً وشرقاً سائقين امامهم سوق النعاج ، سحائب لا تنقطع من الارقـاء باتجاه مدينة مراكش وطرابلس ، او باتجاه اسيوط والممالك الاسلامية في الصومال وسلطنة زنجبار ، ومنها يُنقلون للعمل في الزراعة او في الجيش ، او في حريم السلاطين والامراء ، في افريقيـا الشمالية وآسيا الصغرى . امـا تجار النخاسة من الاوروبيين فكانوا ينشطون للعمل الى الغرب من القارة الافريقية ، انطلاقاً من موريتانيا حتى الكونغو في رقعة شاسعة طولها ٣٥٠٠ كيلومتر . وكانت النخاسة أهم وجوه النشاط التجاري في هـذه الوكالات التجارية الفرنسية القائمة في سان لويس وبودور وغوريا وكازامانس والبريدا بعد ان تتمون بالرقيق من السنغال ومن المراكز الانكليزية في غمبيا وسيراليون والشاطىء الذهبي . اما خير ارقاء الزنج الذين عُرفوا بقوتهم البدنية وحسن طاعتهم فقد كان يؤتى بهم من جزيرة فرناندو بو الاسبانية ومن الوكالات التجارية الدانيماركية والهولندية ، في منطقة خليج بنين *Bénin* التي ألـفت سوقاً طيبة وان كانت محاصيلها وسطى ، واخيراً من الوكالات التجارية البرتغالية العديدة ، في سان بول دي لواندا ، وسان فيليب دي بنغويلا ، على الساحل الغربي ، ومن لورنسو ماركيز وصوفالا ، وكويليمان وموزمبيق على الساحل الشرقي .

واستعمل تجار النخاسة طريقتين : الكتيبة الغـــازية والشراء . فالاولى كانت الطريقة التي عول عليها التجار العرب في زنجبار ، اذ كانوا يفاجئون بكتيبة من الجنـــد حسنة التسليح يصطحبونها معهم ، القرى على حين غرة ويذبحون فيها كل من يحـــاول المقاومة او يسبب لهم ازعاجاً مـــا ، ويستاقون السكان صفوفاً لا نهاية لها ، عبيداً وارقاء . فيلاقي عدد كبير منهم حتفهم في الطريق . وكان الهلع يسمر الخوف في قلوب السكان حتى من كان منهم في مناطق البحيرات الافريقية ، ويتعرض الريف لعملية منظمة من السلب والنهب ، ويروح الزنوج فريسة البؤس والخوف ويدب التفسخ والانحلال في المجتمعات الزنجية . ونهج الطريقة نفسها الخلاسيون البرتغاليون *Pombeiros* الذين عرفوا بالقسوة والفظاظة وفساد الاخـــلاق محتذين حذو التجار

العرب . اما الطريقة الثانية ، وهي التي اعتمدها بالاكثر الاوروبيون ، واحياناً تجار النخاسة من العرب ، فقامت على شراء الارقاء من بعض الزعماء على اساس من المقايضات تستدعي احياناً ستة اشهر من المفاوضات والمداولات . كان من نتائجها بيع اكثر من ١٠٠٠٠٠ اسير زنجي ، في السنة .

وقد تركت تجارة الرق اثرها البعيد ، داخل القارة الافريقية . هنالك زعماء كثيرون اشعلوا الحرب ونفخوا في اوارها ، تأميناً لحاجتهم من الارقاء . وقد راح العرب والاوروبيون على السواء ، يحرضون الملوك والامراء والزعماء المحليين بعضهم على بعض فيقتتلون فيذهب الفريق المغلوب على امره اسرى يقودونهم الى الموانىء الساحلية ، في صفوف طويلة . ولذا قامت الحرب بينهم باستمرار ، والف الرق عند اصحابه عملية اختيار بالمعكوس . فينقل النخاسون بعيداً من افريقيا السوداء ، الفتيان الاشداء يعملون في الزراعة ، والزنجيات الجميلات للاخصاب والنسل ، والاولاد الصغار للعمل والخدمة في المنازل . وهكذا كانت افريقيا تفقد خير سكانها وتنزف دونما انقطاع ، دمها المتجدد . والذين يستبقون في مجاهل الارض يعيشون تحت رحمة شريعة الغاب ، حيث الحق للقوي ، وحيث يطلع الصباح عن مصير مجهول ، وعن غد يطوّح بهم الى البراري ، او يعرض مقتنياتهم لغزو لا يرحم من السلب والنهب ، ومنازلهم للحريق والابادة ، فيجدون انفسهم مشردين تترصدهم يد الموت ، واحيانا اذا ما اسعف الحظ وافتر القدر عن بسمة الرضى ، امام مقصف ينقطع اليه الاوروبيون في القرن التاسع عشر حتى اذا ما خمر هؤلاء واولئك ، راحوا فريسة عملية فتح لا تبقي ولا تذر .

اما الى اقصى الجنوب في القارة السوداء ، فالشركة الهولندية لم تكاثرث بمدينة الراس الا باعتبارها الاسكلة الرئيسية على طريق الهند . هنالك مزارعون هولنديون انضم اليهم بعض اللاجئين من بروتستانت الفرنسيين ، جلَوا عن بلادهم هرباً من الاضطهاد الديني رأوا اعمالهم الزراعية في السهول الطيبة التربة تجود وتزدهر ، اربىَ عددهم على ٢٠٠٠٠ . فمن عاش منهم على مقربة من الساحل جاء عيشهم رغيداً على النمط الاوروبي . اما الذين نهضوا منهم للعمل في مشاريع استثمارية داخل البلاد ، فقد عاشوا عيش الآباء الاقدمين . فقد كانوا كلفنيين متعصبين ، يطالعون باستمرار الكتاب المقدس ، ويعتقدون اعتقاداً لا يتزحزح ، باسطورة تفوق الجنس الابيض ، وشرعية الرق وقانونيته بعد ان اقرته اسفار العهد القديم ، كما اعتقدوا يقيناً ان الله افاء عليهم بارض افريقيا شريطة ان يجتثوا منها الزنوج المشركين كما فعل اليهود باعداء دينهم من عبدة الاصنام ، وتحت تصرفهم يعمل في خدمتهم ٢٠٠ الف من الزنج العبيد ، يطاردونهم احياناً مطاردة الصياد لطريدته الهاربة اللب ، ويتعقبون فارين من وجههم ، اقوام البوشيمان والهوتنتو ، الى آخر حدود الارض المأهولة المتصلة بمنطقة الكلاهاري ، ثم يعودون للحرب ضد الاحلاف العسكرية التي شكلها الاقوام الرعاة كالزولو والمتابيلة ، والكفار والبسوتو الذين

عرفوا بنشاطهم وعنادهم . واول مستعمرة انشأهـــا البيض من الاوروبيين ، عرفت بسفنها المسعور للقضاء على سكان البلاد الاصليين .

حــــاول الآباء اليسوعيون ، في المستعمرات البرتغالية ، ان يكسبوا الزنوج للمسيحية فيضمونهم تحت حمايتهم . فقد حــــاولوا ، هم انفسهم ، ان ينشئوا لهم مزدرعات ناجحة ، وان يؤلفوا للزنج دينا مبسطاً يأتلف مع تفكير الاطفال وذهنيتهم . الا انه صدر ، عـــام ١٧٥٨ ، الامر بطرد اليسوعيين من جميع الممتلكات التابعة لملك البرتغال . هؤلاء الزنج الذين اعتنقوا من عهد قريب مسيحية مبسطة ، لم يلبثوا ان عادوا الى وثنيتهم الاولى ليغرقوا من جديد في الخرافات واعمال السحر والسحرة .

جلب العرب معهم الى سباسب افريقيا وسهولها الرحبة الواقعة الى الجنوب من الصحراء الكبرى ومن ليبيا ، والسودان ، الاسلام والزي العربي في اللباس ، أقله لزعماء القوم ، وفن البناء العربي ممثلاً في المساجد ، كما حملوا اليهم المبادىء الاسلامية التي قام عليها التنظيم السياسي والاجتماعي . وقد انتشر الاسلام بين بعض القبائل الكبرى ولا سيا بين التي تعيش منها على تربية الماشية والظعن . وبعكس هؤلاء بقي سكان الريف على وثنيتهم يؤمنون بوحدة الأرواح العاقلة في الحيوان . وكان من تأثير اعتناق القوم للاسلام ان اخذوا يختارون لهم زعيماً او شيخاً للقبيلة ، كما اخذوا يخضعون لقانون واحـد ولشريعة مشاركة . وألفت عدة قبائل من ذاتها مملكة قد تكون سلطنة او امارة ، على شاكلة الدول التي قامت في الاجيال الوسطى . وكان من جراء ذلك ان زاد القوم تمسكاً بالاخـــلاق والآداب ، كما ازدادوا حركة ونشاطاً وكثيراً ما طلب الى المؤمنين الجـــدد الاشتراك بالجهاد او الحرب المقدسة ، اشـــد الفرائض الاسلامية وقعاً عليهم واقساها طراً ، وساد بينهم تعدد الزوجات ، وهو وضع خول عـــدداً من انصاف الاخوة ، المطالبة بحق الوراثة ، الامر الذي سبب انحلال عدة سلالات ، كما ادى الى وقوع عدة حروب اهلية بحيث حق لنا ان نتساءل اذا كان الدين ادى بالفعل الى رفع مستوى الزنوج ام لا . واستمرت حركة نشر الاسلام طوال القرن الثامن عشر . فبعد ان اخذ اقوام التوكولور بالاسلام راحوا يفرضونه على قبائل «البوله» التي كانت تؤمن بالغيبية ويلزمونهم الاخذ بمؤسساتهم ونظمهم ، كانشاء مجلس الاختيارية ورئيس منتخب لمدة سنتين يكون في الوقت ذاته كاهن القبيلة ، وقائدها في الجهاد والقاضي فيها ، وألف البوله عام ١٧٢٠ ، مملكة ثيوقراطية في مقاطعة الفوتا—جالون ، كما الفوا لهم عام ١٧٧٠ ، مملكة اخرى في الفوتا—تورو . واذ كانوا شعباً ذا اخلاق راعوية شديدة ، محافظين حتى حدود القسوة على الاخـــلاق ، فلم يلبثوا ان عرفوا بعصبيتهم المتشددة ، اشداء في الحروب . واستمروا على هـــذا الوضع بينما اخذ السودان بالانحلال والتفكك .

وراح السودان يتأثر ، الى حد بعيد بحوادث الغرب . فمملكة السنغاي التي قامت عنـــد

عطفة نهر النيجر ، وجدت نفسها ، في مطلع القرن الثامن عشر ، تحت حماية المملكة الشريفية المغربيــة ، يحكمها ملك ينتخب من بين ابناء الاسرة الملكية القائمة في مدينــــة تمبوكتو . وكان يقوم الى جانبه ، باشا مغــربي يعينه السلطان ويعهد اليه بالإدارة المدنية . وكان قاضــي تمبوكتو يتولى قيادة الجيش العليا ، كما تولى القضاة المساعدون قيادة الحاميات الغربية المرابطة في مدن مُبا وغاو ودياناً وتندرينا وكولامي . وقسمت المملكة إداريـــاً الى اربــع نيابات توزعت كل واحدة الى عدة ولايات . وكان الباشا يختار نواب الملك الاربعة كما يختار الحكام من بين ابناء الطبقة الارستوقراطية الزنجية . وهنالك امراء توابع ، من بينهم امراء الطوارق والفولبا والجوليمند ، والبربر القادمين من جنوبي المغرب ، يستمدون سلطتهــم من الباشا ، يعملون في جيش المرتزقة على تخوم المملكة . اما حضارتهم فعلى شيء من الازدهار ، والمدن عديدة مكتظة بالسكان . والحرف اليدوية ناشطة والاتجار بالحاجيات الثمينة رائجة على اكتاف المدن والاسواق التجارية ، وعرفت الزراعة ان تفيد من بعض الاشغال الفنية كحفر الآبار والاقنية والـــترع اللازمة للري ، كما ان المدن كانت مراكز للنشاط الفكري غصّت بالادباء والعلماء المسلمين الذين ألفوا تربة صالحة انبتت عدداً كبيراً من الشيــوخ والعلـــماء والادباء والفقهاء ، وعلماء الكلام والاطباء .

بعد وفاة مولاي السلطان اسماعيل (١٧٢٧) واثناء هذه الاضطرابات الدامية التي نشبت في المغرب ، وجد الجيش المغربي في السودان نفسه سيداً مطلقاً على البلاد . وما لبث ان ألـّف هذا الجيش وذراري الجند ، طبقة عسكرية عُرفت بجشعهـا وفظاظتها وشراستهـــا . وتمكن قضاتهم من تأليف امارات خاصة بهم عرفت ، عندما تتفق فيما بينها ، ان تفرض تعيين الباشا الذي ترضى عنه ، لذلك كثيراً ما آل الامر فيما بينهـا الى الحرب والاقتتـــال . وراح الطوارق والجوليمندن ، بعد ان نعموا بالمزيد من الحرية عند تقهقر المغرب ، يغتنمونها فرصـة سانحة لغزو مقاطعات الشمال ، بينما راح الامراء والملوك الوثنيون ، في الجنوب يحذون حذوهم هم ايضاً . وفي اوخر القرن الثامن عشر تمكن الطوارق والجوليمند من الاستيلاء على تمبوكتو وانزلوا الدمار بمدينتي بمبا وغاو ، وزرعوا الخراب في هذه البقاع الواقعة عند عطفة نهر النيجر. فأدت هذه الحروب الى مذابح هائلة بين السكان ودمرت المزروعات وردمت الآبار والتُرع القائمة ، وعرّضت البلاد لمجاعات شديدة ، فاقفرت الطرق من سالكيها ، فماتت التجارة وبارت الـكارات ، كما خفتت الحركة الفكرية في المدن بعد ان اصيبت بالانحطاط .

وقد تعرّض غرب السنغال لغزوات المغـاربة . اما مقاطعة البورنو الواقعة في الشمال والتي اعتنق اهلها الاسلام ، فقد استكان ملوكها وخملوا وضعُف بالتالي صمودهم في وجـه الطوارق الغزاة ، وفي وجه الغزوات التي شنها عليهم ملوك الدول الوثنية ، في الجنوب ، فأقفــرت مقاطعة البورنو من سكانها . وهذه المدن التي اعتنق اهلها الاسلام ، امثـال باغرمي وعـوادات ودارفور ، والتي كانت بمعزل من الغزوات التي قامت بها الدول الكبرى الغازية ، فقد تمتعت

بفترات طويلة من الازدهار ، استغلت فيها الى اقصى حد ، شبكة الطرقات وقنـــوات الري والاترعة ، فازدهرت فيها الفنون التشكيلية والآداب وعلم الكلام . وقد تخلل هذه القرون وقوع ثورات وحوادث قتل وحروب دامية بين مختلف السلالات الملكية انطلقت فيها الاطماع والغرائز البشرية من عقالها ، فجاءت بأعمال من القسوة والوحشية زرعت البلاد خراباً ودماراً.

وراحت جاليات من العرب تتغلغل شرقاً بالرغم من اعتراض جبال الحبشة المسيحية لسيرها الى الامام ، بالرغم مما قام بينها من انقسامات وعصبيات حزبية ، فاستأثرت بالمراعي الخصبة القائمة عنـد عويداي ، حيث اختلطت ذراريهم بذراري سكان البلاد الاصليين وتمازجت معاً فتألفت قبائل الشواس الذين كانوا رعاة ثم استحالوا حضراً بعد ما ابتُلوا به من اوبئة وافدة فتاكة صابت ماشيتهم فمحقتها ، وبعد الحروب الدامية التي ارغمتهم على التراص فيما بينهم ، فأخذوا يتعاطون الزراعة .

والى الجنوب من عطفة نهر النيجر قامت اقـــوام الموسيس الذين انعزلوا عن العرب والبربر لبعدهم ولبثوا على الوثنية . واستمروا قائمين في المنطقة بعد ان ألفوا من بينهم ، مملكتين قويتين تركزتا حول واغادوغو .

اما هذه المساحات التي افترشتها الغابات الظليلة ، فقـــد استوطنها قوم من حضر الزنج احترفوا الزراعة وقالوا بوجود الارواح العاقلة في الحيوان . ففي هذه المنطقة التي تغطيها الانهر ومصباتها العريضة ، والغياض والمستنقعات والاحراج البكر الـــتي تقف حائلاً دون التواصل والتمازج ، فقد راحت تتشأر من القبائل الضاربة في مجاهلها . لكل منها لهجتها الخاصة وعاداتها واعراقها . ويكفي ان تتعرى ارض من غاباتهـــا لتعرضها لانحباس المطر ، حتى يروح الزنج يكوّنون لهم فيها مملكة فيلتفون حول مليك يكون لهم ، في الوقت ذاتـــه ، حاكماً مستبداً ورئيس احبار ، كله استعداد ، للأخذ هو واتباعه ، بالوثنية وتعدد الآلهة ، ثم تحاول التوسع وتشرئب بأعناقها الى السيطرة بعيداً . وفي القرن الثـامن عشر ، انقسمت امبراطورية الماندينغ الى عدد لا يحصى من الامارات . واستطاعت مقاطعة الداهومي ، اذ ذاك ، أن تحقق استقلالها على حساب مملكة أردر *Ardre* ، وتؤمن للبلاد وحدتهـا ، خلال هذا القرن . واستمرت قبائل أشنتي الحربية في توسعها وتمددها الى الشرق والغرب معاً . ومع ان عهد ازدهار دولة « البنين » *Bénins* قد مضى وانقضى ، فقـــد عرفت ، مع ذلك ، ان تحافظ على حضارتها الأصيلة كما تشهد على ذلك صنائع الشبهان والعاج التي خلفتها ، وهي مصنوعات اقل جمالاً فنياً من سابقاتها ، مع ما لها من قيمة عالية .

وظهر في اواخر القرن دليلان على حدوث تغيير او تبـــدل ظاهر في موقف الاوروبيين ، فقد قـام السكوتلاندي جيمس بروس ، بين ١٧٦٩ – ١٧٧٣ ، بعـــد ان استهدف لمخاطر تشيب لهولهـا الولدان – باستكشاف مجاهل الحبشة والنيل الأزرق وبلاد النوبة . . فنشر عام ١٧٨٨ ، وصف رحلته هـــذه ، فكان لها وقع كبير في انكلترا . وفي هذه السنة بالذات ،

تأسست في لندن ، الجمعية الافريقية ووضعت نصب عينيها القيام باستكشافات منهجية . ومن جهة ثانية استطاع فريق من أرقاء الزنج النجاة بأنفسهم من اميركا ، والقدوم ، باعداد كبيرة ، الى انكلترا حيث وجدوا انفسهم في حرز حريز اذ لم تكن الشرائع الانكليزية ولا طائفة الكويكر وعلى رأسها ويلبرفورس ، تعترف بشرعية الرق . فسمح لهم بالرجوع الى بلادهم الاصلية . وعلى يدهم قامت مدينة فريتون ، في سيراليون ، كملاذ لهم ولكل الزنج الارقاء الذين ينجون بأنفسهم من افريقيا . فعاش هؤلاء الارقاء القدامى فيها بين الفوضى واعمال العنف . وهكذا طلعت علينا حركة واسعة المدى من الرحلات والرسالات كشفت للناس عن موارد غنية في افريقيا ، فرنت اليها انظار الدول والمغامرين مما ادى الى اقتسام الاوروبيين لها في القرن التاسع عشر .

الكتاب الخامس

الأنوار والمجتمعات الأوروبيّة في أميركا

لبث العالم القديم شبه منعزل عن الحضارة الاوروبية ، بالرغم من وقوع اوروبا على مسافة قريبة جداً من القارة الافريقية وهي امتداد او استطالة لآسيا. ففي العالم الجديد وحده، استطاع الاوروبيون ان يؤلفوا ، عبر البحار ، مجتمعات جديدة . فقد ارتفعت لهم حضارة مشاركة امتدت اطرافها من بطرسبورغ حتى مدينة كويبك في كندا وحتى اورليان الجديدة ، في اميركا ، ومن البندقية حتى مدينة بونس ايرس . وهكذا بدا المحيط الاطلسي اداة وصل وربط اكثر منه حاجزاً او حائلا .

ومرد هذا الوضع يعود الى ان السفر بحراً هو ايسر اخذاً من الاسفار براً ، كما ان اوروبا هي اقرب بحراً الى اميركا منها الى آسيا ، مع انها متصلة بها جغرافياً . فالفوارق الجغرافية بين اوروبا واميركا ، وهذا الامتداد الذي لا ينتهي ، وهذا الاستواء في المناطق ، وقوة العناصر الماحقة للانسان المستضعف التي لم تكن لتبز الفوارق القائمة بين اوروبا من جهة ، وبين افريقيا واميركا من جهة اخرى ، قام بديلاً منها وعوضاً عنها ، ما نرى ونشهد من سهولة النفاذ والتغلغل في القارة الاميركية ، ومن امتداد طبيعة المناخ في هذه المرتفعات والاصعدة المرتفعة الملائمة للانسان الابيض . ومن ذلك ايضاً هو ان الاوروبيين لم يصادفوا ، في اي مكان من اميركا ما اعترضهم في آسيا من كثافة السكان ومن امبراطوريات قوية ذات حول وطول ، بل وجدوا انفسهم امام اقوام قليلة العدد ، مشتتة على مستوى مادي متدن جداً ، وان الامبراطوريات الاكثر تطوراً التي وجدوها احياناً امامهم ، في المكسيك او في البيرو ، كانت تقنياتها ادنى بكثير مما تم منها للاوروبيين ، كما وجدوا امامهم قبضة من المتحكمين المسيطرين ، رعاياهم واتباعهم على اتم استعداد للثورة ضدهم وشق عصا الطاعة عليهم، وزحزحة النير الذي رزحوا تحته طويلا .

وهذه المجتمعات الاوروبية التي قامت في العالم الجديد ، خلال القرن الثامن عشر ، اخذت بدورها تتطور بسرعة فائقة وتستبدل مرافقها المهلهلة بالجديد ، وهو تطور ظهر في تزايد

موصول لعدد السكان ، وفي مختلف مظاهر النشاطات والثروة والحياة الفكرية . واكتسب السكان فيها عادات واعرافاً ومصالح اختلفت كلياً عما تم من امثالها لسكان البلدان الام . وهبت على هؤلاء الاقوام روح قومية جديدة ، فأخذت المجتمعات البشرية تتململ وتتبرم من وضع الاستعباد والاستعمار والاستئثار الذي أريد لها فأقصرت عليه ، والذي روعيت فيه ، قبل كل شيء ، مصلحة الوطن الأم لا غير . فرفضت بعد ان عاد اليها وعيها الاجتماعي والسياسي، بشمم واباء ، ان تدار شؤونها من الخارج ، كما رفضت الخضوع والتسليم لنظرية اقتصادية نفعية ولنظام اقتصادي اعتباطي حائل اساسه الاستثناءات ، يقوم على الميثاق الاستعماري ، والذي يفرض على المستعمرات إقصاء تجارتها على الوطن الأم او حصرها في نطاق المستعمرات الاخرى، وان تقصر انتاجها الزراعي والصناعي على ما يسد حاجة البلد الأم . هنالك نزعة شاملة تتغلغل بين هذه البلدان تدفعها للتحرر ونيل الاستقلال . وهذه النزعة تقوى او تضعف بنسبة درجة التطور الذي بلغته المستعمرة ، والقوة التي تمت لها مع وجوب مراعاة العديد من المستويات والمفارقات .

الفصل الأول

أميركا البرتغالية

وضع البرازيل في مستهل القرن

يمثل البرازيل احد هذه البلدان الاميركية المستعمرة التي كان فيه الوقوف في وجه الوطن الام ، والرغبة في التحرر منه والاستقلال عنه اقل مما استعر من امثال هذه المشاعر ، وادنى مما اعربت عنه الرغبات المماثلة في البلدان الاخرى . فقد تطور البرازيل دونما خضخضة او رجرجة ، فما ان مالت شمس القرن الى المغيب حتى رأيناه على استعداد ليسير سيرته الشخصية دون اي رغبة فيه بفرض مثل هذا الحل بالقوة ، حتى انه لم يفكر قط في مثل هذا الامر جدياً .

ومع ذلك ، فالبرازيل لا كيان له ولا وجود الا لمصلحة الوطن الام . فالبرتغال احتفظ لنفسه باستثمار خيرات هـــذه البلاد الغنية والاستئثار بمواردها الطائلة ، فحظر على التجار الاجانب الدخول الى البلاد . فاذا ما شذ عن القاعدة وخرج عن الصدد ، عام ١٧٠٣ بمعاهدة مثوين التي عقدها مع انكلترا واعترف لها بحرية الاتجار مع البرازيل ، فلأمر واحـــد هو رغبته في تصريف نبيذه في المملكة المتحدة ، وليجد فيها نصيراً له وحامياً ، وتوفيراً منه للمواد الصباغية التي تحتاج اليها هذه المستعمرة . فمصلحته الخاصة هي الهادي له في الامـــر والمسير لخطاه ، ومنها يستوحي احكامه ويستلهم مواقفه . فالوكالة التجارية الانكليزية في لشبونة ، هي التي تشحن البضائع الانكليزية ، والسفنَ التي ترسلها البرتغال ، كل سنة ، الى البرازيل هي التي تجلب الى مرفأ لندن ، محاصيل البرازيل ونتاجه لتخزنها في عنابرها ، وتعود فيما بعد لتوزعها يمنة ويسرة ، حسب مقتضيات الحال واستبداد الاسعار بالاسواق .

كانت الزراعـــة في مستهل العصر المرفق الرئيسي في اقتصاديات البرازيل . وكان البرتغال ينتظر ان تصله منه المحاصيل التي تعطيها المستعمرة . فهو يحظر عليها زراعة الكرمة وشجـــرة الزيتون والتوت . وكان على المعمرين ان يشتروا ، باعلى الأسعار ، من البرتغال ، النبيذ والزيت والحرير والملح وخشب الصباغة الذي يخضع لاحتكار الدولة . ويعهد ملك البرتغال بحـــق الاحتكار هذا ، لمن يدفع خير الاسعار . ولذا كان ارتفاع سعر الملح يجعل من صيد السمك عملية راكدة ميتة . وسكر القصب يجب شحنه للبرتغال غير مصفى ولا مكرر ، بحيث يجـــري

تكريره هناك . واكبر قدر من التبغ يحتفظ به لمعامـل التبغ في الدولة البرتغاليـــة ، وعلى المعمرين ان يتنازلوا للبرتغاليين عن الارباح التي يحققها توضيب التبغ ومعالجتـــه الفنية . وكل المزدرعات تخضع لضريبة كنسية تبلـــغ العشر ، تجبى باسم الملك الذي يحتفـظ لنفسه بقسم منهـــا .

والبرتغال الذي يحتفظ لنفسه بالارباح الناجـة عن عمليات الاستثمار احتفظ لنفسه ايضاً بحق ادارة البلاد وحكمها على هواه . فالمجالس الملكية في لشبونة ، وعمليا ، الملـــك ووزراؤه هم الذين يعينون بالفعل ، منذ عام ١٧٢٠ ، نائـب الملك ، ورئيس القباطنـة ،والقباطنـــة الماديين ، والقضاة في وظائفهم لمدة ثلاث سنوات . ورئيس قبطان هو الذي يعين ، بدوره ، صغار الموظفين . وبالاشتراك مع القباطنة الماديين يعين اعضاء المجالس البلدية المفروض فيهم ان ينتخبوا انتخاباً .

وهذا النظام الذي فرض على البرازيل الخضوع التام للبرتغال والذي اوجب عليه وضـــع جميع مصالحه في خدمة البلاد الام ، عمل به المعمرون عن رضى وقبول وطيـب الخاطر ، لأنه كان شكلياً او صورياً اكثر منه حقيقياً واقعيا . كان الموظفون لا يستمرون طويـلاً في وظائفهم فالهيئات الوحيدة القائمة لم تكن سوى الغرف البلدية وهي تتألف من سكان البلاد . وكان على الموظفين ان يرجعوا الى هذه الهيئات في الكثير من امور الادارة . وبالفعـــل ، كثيراً ما كانت المجالس البلدية هي التي تفتي او تقضي في الأمر حتى في القضايا والشؤون البعيدة عن الإدارة البلدية . وكان من حق هذه الهيئات ان تعين رئيس الادارة اذا ما تلكأت الحكومة عن اتخاذ الاجراءات اللازمة . ولما كان هؤلاء الموظفون كثيراً ما يرون في الوظائف الـتي تمهد اليهم ، فرصة لاستغلال الصلاحيات التي عهد بها اليهم ولا يهمهم من الامر الا ان يُثروا من اقصر الطرق ، فكثيراً ما تركوا لهذه المجالس البلدية حرية التصرف . ان عـــدداً كبيراً من رؤساء القباطنة لم يكونوا موظفين بالمعنى المعروف ،اذ كانوا ينظرون الى وظيفتهم كإنعام يجود بها عليهم الملك . والاوامر القطعية والتعليمات الاستبدادية الصادرة عن الحكومة البرتغاليـــة ، كثيراً ما جرى تطبيقها ، عند ابلاغها ، بتساهل كلي ، ناهيك عن ان هذه المجتمعـات البشرية كانت مشتتة ، متباعدة والمسافات شاسعة بـــين الواحدة منها والاخـرى ، والمواصـــلات بطيئة للغاية . ولذا كان كبار الملاكين والموظفون المحليون يتصرفون على هواهـــم ، دونمـــا رقيب او حسيب .

فالمعمرون وذراريهم في المستعمرات ، كان بينهم عدد كبير من الاولاد المنفيين والمبعـدين والخارجين على القانون من سكان جزر الاسُور والماديرا ، فسيطر عليهم الخمول ورسفـــوا في الجهل والجهالة ولم تجش نفوسهم بأي رسيس من الرغائب التي تتطلب الاشباع ويقتضي اشباعها الانفاق . فقد ضعُفت فيهم الميول وخف عندهم الاستعداد او القابلية للعمل ، فلم يهتمـوا من قريب او من بعيد ، ولا عنَوا قط بما يؤمن او يؤول الى الازدهار الاقتصادي في البلاد ، وما

يَبرموا يوماً من نظام الاستثناءات الذي خضعوا له وعاشوا فيه . دفعهم الى مثل هذا الوضع خفوت نشاط الحياة الاقتصادية وضعفها التي لم تُثر فيهم اي منزع للرغبة ، ولم تحرك فيهم اية شهوة للربح . فالانتاج كان محدوداً لا يزيد على حاجة اليد العاملة بعد ان قل فيها عدد السكان في البلاد . وقد استحال عدد كبير من الهنود فيها الى أرقّاء يعملون باستمرار في المزارع او في المناجم . الا ان الآباء اليسوعيين عرفوا ان يجتذبوا اليهم عدداً كبيراً من هؤلاء الارقاء ولا سيما من بين الهنود وانزلوهم قرى ودساكر في ظل حكم ثيوقراطي شيوعي . وقد بقي عدد منهم حراً يتمتع باستقلاله في هذه المناطق والمرتفعات الجبلية ، او في حوض نهر الامازون . ولذا كان لا بد من الاستعانة بالزنوج لتأمين ما يلزم من يد وقوى عاملة في زراعة قصب السكر ، في مناطق برنمبورك وبَهِيّا وبراهيبا . الا أن عددهم لم يكن ليسد حاجة البلاد ، وهكذا بقيت مشكلة اليد العاملة فيها مشكلة مستعصية الحل . والعمال الاحرار من اصل برتغالي كانوا ينتجون بالقدر الذي يفي بحاجاتهم ويسد عوزهم ، اذ لم يكن ليساورهم اي امل بأن يصبحوا يوماً من صغار الملاكين ، على قِلّتهم . وكان رؤساء القباطنة يتولون ، هم انفسهم ، توزيع الاراضي الشاغرة ، فانشأوا في البلاد ، بهذه الطريقة ، اطياناً شاسعة الأرجاء . فقد توزعت اراضي مقاطعة براهيبا بين ٤ من كبار الملاكين ، وحددت مساحة الممتلكات ، في مقاطعة بيوهي ، بـ ١١٤٠٠ هكتار . وكان باستطاعة اي كان من الناس ان يقتني ما يشاء من الاقطان ، مساحة الواحد منها ١١٤٠٠ هكتار . ولعل معمراً بسيطاً تألفت املاكه من ٥٠ هكتار ، واليسوعي من ٣٠ هكتار . وكان المعمرون يرفضون رفضاً باتاً ان تقسم املاكهم لئلا يتعذر عليهم تنويع زراعاتهم وتبديلها كلما افتقرت الارض. وكان وضع المهاجرين القادمين، والمنتقين وضع المرابعين والمزارعين في بلادهم الأصلية.

كذلك اشتدت حاجة البلاد كثيراً الى رؤوس اموال . فقد تمكن الانكليز من سحب مقادير كبيرة من نقد البلاد عن طريق بيعهم الاهلين الحاجيات المصنوعة . وكانت النقليات تجمد جانباً كبيراً من رؤوس الاموال . فعدد البغال والبغّالين اللازمين للنقل في الغابات الاستوائية ، والعربات والثيران المعدّة للجسر ، والسواقين ، والاكّارين في السهول والسباسب المرتفعة ، والحمالين الهنود ، او العملة الذين يعملون في جر السفن عند المساقط والشلالات النهرية ، وبطء المواصلات الصعبة التي تستغرق شهوراً للوصول بالملاحة النهرية ، الى ماتو غروسو ، عبر نهر تاباغوس وامازونيا ، كل هذه النشاطات والاعمال كانت تضطر الملتزمين والمتعهدين الى عمليات تسليف باهظة . ولم يكن المال يتوفر للقيام بمشروعات زراعية او صناعية اخرى .

وهذا الشعب البرازيلي ، لم يخامره يوماً اي شعور بالحاجة لاستبدال النظام السياسي المعمول به في البلاد ، ولا الى النظام الاقتصادي ، اذ عُرف عن البرازيليين ، الامتثال والطاعة. فقد عُرف عنهم حبهم للظهور . الا انهم كانوا يقنعون بمركز ثانوي من هذه المراكز التي كانت تُعطى عادة للمواليد من البرتغاليين في تلك البلاد . وكان باستطاعة الاغنياء من ابناء هذه الطبقة بلوغ

اعلى المراتب وأرفع الوظائف التي كان يحتفظ بها إجمالاً ، للبرتغاليين من ابناء الوطن الام ، وهي وظائف تولي من يقوم بها او من يضطلع بمسؤوليتها شرف المحتد . ولم يكن الخلاسيون يشعرون بأي احتقار نحوهم او بأي إنتقاص من شأنهم . والفوارق الاجتماعية عندهم لم تنهض على اختلاف اللون او البشرة ، اذ كان باستطاعة الملونين ان ينالوا الوظائف العامة كالخلاسين ، مثلاً بمثل ، بعد ان اتصفوا بالنشاط والإقدام ، فألّفوا نسبة محترمة بين الطبقة الوسطى . ولم يقم ما يسبب النفور بينهم او يبعث فيهم التذمر من المجتمع الذي عاشوا فيه .

اما الوحدة البرازيلية ، وحدة الشعب ، فقد عرفت اوضاع مخاض صعب . فكان لكل منطقة او مقاطعة كبيرة من مناطق البلاد ومقاطعاتها الرئيسية ، حياتها الخاصة التي تتمركز حول ما قام فيها من موانيء ومرافيء ناشطة ، تتجه بعلاقاتها الى لشبونة اكثر منها الى المقاطعات المجاورة ، ولكل قبطانية او ولاية ، عملتها الخاصة ونقدها الخاص . وكانت قبطانية مارنهاو ، تصدّر ، عبر مرفأ بارا ، ما تنتجه من خشب للصناعة كما تصدر انتاجها من الابنوس لاوروبا . واعتادت مدن باراهيا وبرنمبوك وبهيّا ، ان ترسل براً ، سيراً على الاقدام ، ما تنتجه من قصب السكر والتبغ واللحوم ، وجلود الابقار المستوحشة من المناطق الداخلية الى الساحل . وقام حول ريو دي جانيرو وسان-باولو ، كما قام حول كوريتبا وباراناغو ، حركة تعمير واحياء زراعي اخذت تنشط وتقوى باستمرار . اما البلاد ، في الداخل ، فقد كانت فارغة تقريباً ، والعزلة الاقتصادية تتضاعف بعزلة ادارية . وقد اعتادت لشبونة ان تتصل مباشرة برؤساء القباطنة دون المرور ادارياً بنائب الملك .

وهكذا نرى كيف ان السكان كانوا يتحملون راضين قانعين، سيادة كان من اليسير عليهم ان يزحزحوها ، وان يتحرروا منها بأيسر السبل . فالموظفون البرتغاليون ، قلة هم ، وافراد الجيش البرتغالي لم يكونوا راضين عن مرتباتهم التي لم تكن لتُدفع لهم بانتظام ، كما برموا من قلة العناية بهم ، ناهيك ان عددهم كان اقل بكثير من افراد الميليشيا المحلية .

تطور البلاد الى عهد بمبال

اخذ البرازيل يزداد ، تدريجياً ، غنىً وسكاناً ووحدةً . فقد كانت اشتدت جداً ، قبل سنة ١٧٥٠ ، حركة السفن الانكليزية التي تعمل في التهريب ضمن الامبراطورية الاسبانية ، اذ كان جانب كبير من نشاط هذه الحركة ، يمر عبر البرازيل ، باتجاه ريو دي لابلاتا ، في الجنوب ، او باتجاه بوليفيا والبيرو ، الى الغرب ، او باتجاه فنزويلا عبر نهر الريو نغرو والكاسيكويار الى الشمال . وحركة التجارة والتهريب هذه وفرت لمتعهدي النقل البري، الاموال اللازمة لقيامهم بمشروعات واشغال جديدة، كما انها بعثت النشاط في العلاقات بين مختلف المناطق البرازيلية .

ومن جهة اخرى ، شاءت الاقدار ، عام ١٧٠٠ ، ان يعثر البولسيون ، وهم عرق توالد في البرازيل من تزاوج المنفيين والهنديات ،عرف بالنشاط العارم وروح المغامرة والاتكال على النفس،

على مناجم الذهب ، في هـذه المناطق الواقعة في حوض نهر الأورو بريتو ، وبلو هوريز ونته ، والى الجنوب من سان – باولو ، كما قيض لهم ، ان يعثروا ، منذ عام ١٧٢٥ ، على المـاس ، عند مجرى نهر سان فرنسيسكو ، وفي المنطقة المعروفة عندهم بمنطقة الماس *Diamantina* . وقد تخلى ملك البرتغال عن استثمار مناجم الذهب لبعض الخاصة ، لقاء رسم معين يتناسب وعـدد العمال العاملين في استخراجه من المناجم . اما استثمار الماس الذي سار على النهج ذاته ، في بدء الامر ، فقد اصبح ، بعد عام ١٧٤٠ ، احتكاراً حكومياً تولته الدولة مباشرة ، وذلك تفادياً منها لاغراق الاسواق بهـذا الحجر الكريم والمحافظة من جهة ثانية على اسعاره العالية في العالم . وفي سنة ١٧١٤ ، اصبحت منطقة المناجم هذه ، قاعدة لقبطانية عامة ، عُرفت باسم « ميناس جيرايس . فقد أدّى استثمار المناجم ،بالطبع الى تعمير الارض وإحياء الاملاك الواقعة على مقربة منها ، في الداخل ، امثال : فتو غروسّو وغوياز . ولم تلبث هذه المناطق ان اصبحت فيما بعد ، مراكز نشطت فيها تربية الماشية ، لتأمين حاجة المعدّنين من المواد الغذائية ، كما قامت فيهـا اسواق تجارية ، منها سوق كويابا (١٧١٨) ، وغوياز (١٧٢٢) ، ومدينـة ريو دي جانيرو التي كانت ترد اليها محاصيل الذهب والمـاس ، كما كانت تردها الادوات الصناعية اللازمة للعمل في المناجم ، فلم تعتم ان بزت مدينة بهيا بنشاطها .وهكذا ادّى اكتشاف مناجم الذهب والماس الى توفير رؤوس الاموال اللازمة لاستثمارها والى ايجـاد مناطق اقتصادية جديدة ، كما ادى الى تنشيط التبادل التجاري بين مختلف مناطق البرازيل ، وزادها ارتباطاً بعضها ببعض، وشدّ بالتالي من وحدتها .

وكان من بعض نتائج هذا الوضع ان ارتفع عدد السكان في البلاد ، وطرأ بالتالي ، تغيير على طبيعة تركيبهم الاثنوغرافي . فأخذ البولسيون بمطاردة الهنود حتى في منطقة الامازون لتأمين اليد العاملة في المناجم . الا انهم اصطدموا ، في منطقة بارانيا ، بمعارضة اليسوعيين لهم ، الذين اخذوا يقاومونَ بالقوة ، الحملات العسكرية التي اخذ البولسيون بتنظيمها تأميناً لحاجتهـم ، وبذلك استطاع الآباء اليسوعيون ، ان ينقذوا الهنود من الرق الذين استهدفوا له ، كـما حافظوا عليهم من الفناء المحتم ، اذ كان الهنود يتعرضون للموت باكراً ، اذ لم تكن اجسامهم الضعيفة ، لتتحمل عياء المناجم واعمالها الشاقة المضنية . ولذا كان لا بد لهؤلاء البولسيين من استيراد الزنوج ، باعداد كبيرة من المستعمرات البرتغالية في افريقيا . فألف سوقهم وشحنهـم مجرىً لم ينقطع سيله حتى اواخر القرن . ولما كانت الحكومة البرتغالية مهتمة بتطوير الزراعة في البرازيل ، فقد حرصت على نقل عدد كبير من الفلاحين ، من جـزر الاسور ومادير ، نزولاً منها عند طلب حكام القبطانيات ، شريطة ان يوفـروا لهـم السكن والعمـل عند وصولهم .

عمل بمبال الاصلاحي

قام الوزير بُمبال ، بين ١٧٥٠ – ١٧٧٧ ، بجهود اصلاحي ، عمـراني كبير في البرازيل وفي البرتغال ايضاً . فحـاول بوصفـه « دكتاتوراً

مستنيراً ، ان يخضع البرازيل لتوجيهات الملك مباشرة . فاجرى تغييراً جذرياً في وضع القباطنة العامين وذلك بجعلهم موظفين رسميين . كذلك اعطى الموظفين حق البقاء في الخدمة الفعلية الى ما لا حد له ، كما مكنهم من ان يتمتعوا ، عن طريق خبراتهم الواسعة لامور البلاد وطبائع العباد واعرافهم ، بكل حرية ، بالسلطات والصلاحيات التي تؤهلهم لاتخاذ القرارات اللازمة ، كما انه أقصر مهمة المجالس البلدية على الامور البلدية ، ليس إلاّ .

واذ كان بمبال من كبار الداعين للتطور الاقتصادي في البرتغال ، فقد راح يحاول ، دون ان يمس بسوء ، منطوق المعاهدات والمواثيق الدولية السارية المفعول ، الحلول محل الانكليز ، بالاتجار مع البرازيل . فاخذ ، في هذا السبيل ، بتنشيط الصناعة في البرتغال . فحظر على سكان البرازيل ان ينشئوا ، على ارضهم ، الصناعات التي تقوم مثلها في البرتغال . الا انه ترك لهم فقط حرية صنع المنسوجات الخشنة المتخذة من الكتان او القطن والتي يحتاج اليها الزنوج والهنود والطبقات الشعبية السفلى . وحاول جاهداً ، ان يهيء للبرازيل ، الاخذ باسباب التطوير والانماء الاقتصادي عن طريق إنشاء شركات برتغالية رأسمالية قوية ، بمعاضدة الدولة . فانشأ من ذلك شركات تجارية تتمتع باحتكارات خاصة ، منها شركة بارا التي رأت النور عام ١٧٦٥ ، وشركة مارنهاو ، عام ١٧٦٩ ، وشركة برنمبوك وبراهيبا . واخذت شركة بارا تقوم باعمال لها واسعة في منطقة كانت لا تزال متخلفة جداً ، وتفتقر كلياً لوسائل العمل ، ومع ذلك حققت نتائج ممتازة . فاستوردت العبيد من زنج افريقيا ، اذ لم تتوفر للطبقات الفقيرة ، تأمينهم من قبل ، واوجدت سوقاً لتنفيق وتصريف المحاصيل الطبيعية التي تدرها بسخاء منطقة الامازون والتي أُهمل امرها لعدم وجود من يهتم بها . وضاعفت مقاطعة ماتوغروسو وغوياز تصدير انتاجها من الماشية الى منطقة الامازون ، وارغمت المعمرين على التخلي لهـا عن محاصيل السكر بسعر ادنى من السعر الذي له في السوق الحرة ، كما الزمتهم بشراء حاجياتهم باثمان غالية . وراح بمبال يعوض عليهم هذه الخسارة عن طريق تشجيعه زراعة النيلة ، وذلك باعفائها من الرسوم لمدة عشر سنوات ، والارز لمدة عشرين سنة .

كذلك حاول ان يزيد من انتاج المناجم التابعة للتاج . فعرض ، منذ عام ١٧٥١ ، دفع رسم مقداره ٢٠٪ على الذهب ، فجاءت هذه الزيادة في وقت كان الانتاج قد اخذ بالهبوط . ولكي يحول دون حركة تهريب الماس ويخفف من نتائجها وذيولها ، استبدل نظام العهدة او التأجير بنظام الاحتكار ، وابعد عن المنطقة الغنية بالماس، كل من لا يعمل في المناجم . ويبدو ان نظام الاحتكار لم يأت بنتائج افضل من نظام التأجير والتلزيم .

وبعد ان اقتنع بمبال بالمساوىء التي يجرها الرق على الهنود ، اصدر عام ١٧٥٥ ، امره بتحريرهم وعتقهم . فاصطدم هنا بمعارضة اليسوعيين الذين لم يكونوا مقتنعين قط ، بقدرة الهنود على تدبير امورهم بانفسهم ، وكانوا من ناحية اخرى ، يرغبون في ابقاء من يعملون منهم في الارساليات الدينية والتبشيرية ، تحت اشرافهم مباشرة . وكان بمبال على اختلاف شديد مع

تلك الرهينة بمناسبة حركة القرصنة والتهريب التي كانت تقوم بها السفن البريطانية . وكان الانكليز راغبين جداً بتفادي كل اختلاف او مشاحنة مع الاسبان في منطقة الريو دي لابلاتا، لاستخدامهم في حركة التهريب الواسعة التي يقومون بها ، عن طريق باراناغوا المفضية في نهاية المطاف ، الى مدينة اسنسيون ، ومنها عبر اودية بلسكومايو وفيرميخو ، الى بوليفيا ، فراحوا عام ١٧٥٠ ، يحرضون البرتغال ، على ان يقوم بعملية مبادلة مع الاسبان ، فيتنازل لهم عن مقاطعة سكرمنتو (اورغواي) لقاء املاك الارساليات اليسوعية الواقعة بين نهري الاورغواي والباراغواي . واليسوعيون الذين كانوا تمكنوا من ربط ارسالياتهم في الشرق بارسالياتهم في الغرب بعد ان تم لهم انشاء مركزي ساوستانسلاس وساو يواكيم ، والذين كانوا يتولون الاشراف التام على دولة ثيوقراطية امتدت اطرافها من الاورغواي حتى جبال الاندس ، والذين كانوا يرغبون في ابقاء الهنود بعيدين عن كل اتصال بالبيض لأنهم المخلخل للاخلاق ، راحوا يقاومون بشدة هذه الاجراءات . وتمكن بمبال ، عام ١٧٥٤ — ١٧٥٥ من تحطيم مقاومتهم بالقوة ، مستعيناً على ذلك بالبولسيين . ثم اصدر امره عام ١٧٥٩ ، بطرد اليسوعيين من البرازيل . ولم يلبث الهنود ان عادوا سريعاً الى وثنيتهم الاولى ، بعد ان فقدوا كل شعور بحريتهم ، اذ كان لا بد لهم ، وهم في مثل هذا الدرك السحيق من التخلف ، ان يعهد بادارتهم ، الى حكام مدنيين ، علمانيين ، يتوجب عليهم تسليفهم بعض المال ليتغلبوا على مصاعب الحياة ، فجعلتهم ديونهم هذه التي رزحوا تحتها ، في وضع مادي عصيب لا يجدون لهم منه مخرجاً ، اما هنود بارا ومارنهاو ، فآثروا ان يعملوا فَعَلَةَ احراراً باجر اعلى .

اما مشاكل الحدود بين البرازيل واسبانيا ، فقد حُلت بموجب معاهدة سانت الدفونش المعقودة عام ١٧٧٧ ، وبمعاهدة البرادو التي وقعها الطرفان ، عام ١٧٧٨ . فتنازل البرتغال عن مقاطعاته الجنوبية الواقعة على ريو دي لابلاتا، مقابل الاراضي الواقعة الى الشرق من الباراغواي، والشرق من البيرو والغويان حتى مشارف الريو نغرو . وكان من نتائج هذه الاتفاقات انشاء طريق جديدة تسلكه السفن القائمة بالتهريب (*Interlope*) قامت عليها ، عام ١٧٧٤ مدينة كورنبا ، وتسهيلات اوسع في الاتجاهات التي كانت تعتمدها حركة التهريب النهرية من قبل . وهكذا تأسست مدينة طباتنغا ، على نهر الامازون ، عام ١٧٨٠ .

وقد أتيح للوزير بمبال ان يحدث حركة تطورية عادت بالخير واليمن ، ووفرت رأس المال واليد العاملة ، وزادت من الانتاج وتقوية العلاقات بين مختلف المقاطعات ، ولكن بعد ان دفع ثمن ذلك غالياً من الاستثناءات الاضافية .

حركة التطور بعد بمبال

على إثر اعتزال بمبال مهام الوزارة ، أُلغيت بعد عام ١٧٧٧ ، كل الشركات التي كان اسسها بعد ان جاءت بأطيب النتائج . فاستمرت مقاطعات الشمال تنعم بالازدهار الذي عرفت ان تؤمنه لها شركة بارا . واخذ عدد من القباطنة العامين يهتمون بمصالح رعاياهم وتأمين الازدهار للمقاطعات التي يشرفون عليها ادارياً ،

بعد ان اتيح لها القيام بمثل هذا العمل الطيب المجدي . فبقطع النظر عن هذه الزراعات التي كانت موضوع اهتمامهم منذ عهد بعيد كقصب السكر والتبغ ، فقد بذلوا جهوداً طيبة لتطوير الحديثة منها كالنيلة والارز والبن والقطن والكاكاو ، كما ازداد كذلك ، تصدير الجلود . وبذلك اصبحت الزراعة اهم مرافق البلاد ، فأمنت لها الرفاه بعد ان هبط انتاج المناجم من المعادن الثمينة ، لنفاذ الطبقات السطحية ، مما ادى الى تأخر مدينة اورو بريتو بحيث امست في اواخر القرن قرية متواضعة لا شأن لها . وهذا الازدهار الاقتصادي ادى بدوره الى مضاعفة عدد السكان بين ١٧٧٦ – ١٨٠٦ .

فبعد ان اصبحت البلاد اوفر سكاناً ، واكثر غنى واشد تماسكاً ووحدة ، اخذت تشعر ، اكثر فاكثر ، بمساوىء نظام الاستثناءات الذي تعيش في ظله ، بعد ان شدد بمبال من قبضة البلاد الام في ادارتها لها . واخذ الشعب يتوق بملء جوارحه الى حرية اوسع في التجارة والصناعة والزراعة . كما انه تاق أن يرى ابناء البلاد يحكمون انفسهم بأنفسهم . وانتشرت افكار « الفلاسفة » التي نادى بها الكتاب الفرنسيون بين ذراري البرتغاليين الذين توالدوا في البرازيل وتناسلوا بعد ان تم لهم المزيد من الثراء والعلم والقبس من الآراء التقدمية ، كما ان مُثل الولايات المتحدة الاميركية حرّك رغائبهم نحو الاستقلال . فبدت على الناس أعراض التذمر والقلق . فقد كانت الأمة البرازيلية في سبيلها الى التكون والبروز والانفصال عن البرتغال وكانت تنتظر الفرصة المؤاتية والسانحة العارضة . الا انه بالنظر لإدارة البرتغال السمحاء ، على الاجمال ، لم تنشب في البرازيل ، أزمة حادة كما شهدنا في غير مكان من اميركا الجنوبية .

الفصل الثاني

أميركا الاسبانية

كان التطور الذي أخذت اميركا الاسبانية باسبابه ، شبيهاً من وجوه عدة بذلك التطور الذي نهجت عليه البرازيل مع فارق وحيد هو ان الشعور الوطني او القومي برز فيها اشد ، كما ان أزمة الاستقلال أخذت تحتدم فيها ، منذ عام ١٧٨٩ ، إذ أن الدولة الاسبانية التي تم لها من القوة والبطش ما لم يتم بعضه للبرتغال ، استطاعت ان تطبق ، بشكل اشد وأبرز ، مبادىء « الميثاق الاستعماري » ، ولان نفوس فريق محترم في الامبراطورية الاسبانية ، جاشت بمشاعر واحاسيس نحو الملونين فاعتمدوا تجاههم سياسة من الاستثناءات والتمييز الطبقي بلغ من عنفها وحدتها ما لم تصل الى بعضه نفوس البرتغاليين .

الوضع العام بعد معاهدة اوتريخت

كان ملك اسبانيا يعتبر نفسه عام ١٧١٤ ، ملكاً مطلقاً على امبراطورية تسكنها شعوب واقوام هم ادنى منزلة ومرتبة من الاسبان في البلد الأم ، يحتم استثمارها واستغلالها بما فيه مصلحة الملك والشعب الاسباني.

فهذه الامبراطورية التي قامت في الهند الغربية ، كانت تحكم وتدار من اسبانيا مباشرة، وباسم الملك ونيابة عنه ، على يد مجلس الهند . والقرارات التي يتخذها هذا المجلس ، يقوم على تنفيذها والتقيد بها بكل دقة : نائبان للملك ، يقيم احدهما في اسبانيا الجديدة ، مركزه مدينة مكسيكو ، كما يقيم الثاني في مدينة ليما ، عاصمة البيرو ، يجرى تعيينهما من قبل الملك نفسه ، ويتمتعان بجميع الصلاحيات والسلطات التي له . ويعمل تحت ادارتها قبطانان عامان ، يقيم احدهما في غواتيالا ، ويقيم الآخر في سانت دومنغو ، واليه يرجع حكام كوبا وبورتو ريكو وفلوريدا . ويصدر نائبا الملك اوامرهما مباشرة لحكام الولايات الواقعة ضمن نيابتهما ، والتي لا يقوم على رأس ادارتها قبطان عام . ويتولى الادارة المحلية في المجتمعات غير الوطنية ، مجالس بلدية (*Cabildos*) ، ينتخب اعضاؤها انتخاباً ، من حيث المبدأ ، مع ان وظائفهم تبقى عرضة للمساومات ، فيزداد عددها لتزداد بالتالي مداخيل الملك ، وان لم يكن لها بالفعل أي سلطة ، يؤمّن العدالة ، في الدرجة الاولى ، قضاة مختصون . اما في الدرجات الثانية والثالثة ،

فمحلفون يجلسون للقضاء . للسكان الوطنيين الحرية بالمحافظة على عاداتهم واعرافهم القومية ، شريطة ألا تتعارض مع وصايا الكنيسة الكاثوليكية وتعاليمها ، تحت مراقبة فريق من بني دينهم يقضون فيما بينهم في القضايا المدنية والجزائية ، لهم السلطة لتشغيلهم لقاء اجر معين ، ويقومون بالفعل وسطاء بينهم وبين البيض في كل ما يتعلق بامورهم . فالحكام المحلفون والقضاة ، كل هؤلاء يجري تعيينهم مباشرة من قبل ملك اسبانيا . وفي حال غيابه ، من قِبل نائب الملك . اما صغار القضاة ، فيتولى تعيينهم الحكام بحيث يشعر الجميع ، حتى في المجالس البلدية ، بسلطة الملك المطلقة .

واستغلال الامبراطورية واستثمارها هي من شؤون اسبانيا الخاصة وحدها فيحظر على هذه الامبراطورية أن تنتج اي صنف تنتج مثله اسبانيا . ونالت البيرو بصعوبة كلية الترخيص لها بغرس شجرة الزيتون في بلادها ، وزرع الكرمة في اراضيها المعتدلة ، شريطة الا تصدّر اي شيء من انتاج هذين الصنفين ، الى اي جزء من اجزاء الامبراطورية الاسبانية التي تتمون زيتاً وزيتوناً من الوطن الأم . وحظر على الامبراطورية كذلك ان تصنع اي شيء يصنع مثله في اسبانيا . فلاسبانيا وحدها الحق بشراء جميع منتوجات الامبراطورية ، كما لها وحدها الحق بأن تبيعها ما تحتاج اليه من أمور المعيشة . فاذا ما تعذر على اسبانيا ان تزودها بما تحتاج اليه ، او ان تستهلك هي نفسها منتوجات امبراطوريتها ، قامت اسبانيا وسيطاً بينها وبين زبائنها . فغرفة تجارة اشبيلية التي انتقلت ، عام ١٧١٨ ، الى مدينة قادس ، لسهولة دنو سفن الشحن من المرفأ ، تحدد هي نفسها ، كمية الشحن المعد مثلاً للهند الغربية ، كما تحدد منها الاسعار ، وعدد السفن التي تقوم بنقل الوسق والمشحونات . هنالك اساطيل تجارية تؤلف معاً قوافل منتظمة تغادر قادس المرفأ الوحيد الذي له حق الاتجار مع اجزاء الامبراطورية الاسبانية في اميركا، باتجاه مرافىء بورتو بلو وقرطاجنة وفيراكروز حيث يجري تفريغ الاصناف المشحونة ، ثم تباع البضاعة في الاسواق التجارية ، وهي اسواق تستمر قائمة مدة اربعين يوماً ، ومنها تنقل براً الى جميع اطراف الامبراطورية . كذلك تشحن من هذه الموانىء جميع محاصيل بلدان الامبراطورية . والبضاعة الوحيدة التي يجري نقلها مباشرة ، بين الامبراطورية الاسبانية وبين بلاد المنشأ، هي تجارة الرقيق التي ألفت احتكاراً انكليزياً (*Asiento*) وذلك منذ عام ١٧١٣ . فللانكليز الحق بنقل الرقيق مباشرة من افريقيا الى بونس ايرس وقرطاجنة وبورتو بلو ، اختصاراً للوقت وللمسافات ، واستعجالاً للمعاملات لما تتعرض له هذه البضاعة السريعة العطب من اخطار ومهالك .

وهذا النظام القائم على الحظر والاحتكار والاستثناء والذي فرض على الامبراطورية فاضطرت للنزول عنده والاخذ به ، فألزمها الشراء بسعر عال والبيع بسعر متدنٍ منخفض ، حال ، الى حد بعيد ، دون تطوير مرافق الزراعة والصناعة فيها . ففيه كل المساوىء التي عانت منه البرازيل في النظام البرتغالي ، فالطريقة التي يجري عليها الاستثمار لا تساعد قط على توفير ما

تحتاج اليه البلاد من رؤوس الاموال واليد العاملة. فاسبانيا والقائمون بأعمال التهريب من قراصنة البر والبحر ، يسلبون الامبراطورية ، ما لديهـــا من معادن ثمينة ، فيقل النقد من التداول ، وتتأخر حركة البيع والشراء. ان تأمين كل ما يحتاج اليه العمال العاملون في الغابات بالتلزيم ، وبطء حركة النقل ، والصعوبة القائمة في توفير رؤوس الاموال التي لا بد منها لتأمين هذه المتوجبات ، يلتهم رؤوس الاموال الزهيدة الـــتي امكن توفرها (مع العلم انه يقتضي ٣ اشهر لقطع المسافة القائمة بين بونس ايرس وسلطا، كما يقتضى لقطعها ١٢،٠٠٠ رأس بقر ، و ٦٠٠ مركبة او عربة). واعمال النقل تستوعب عدداً كبيراً من اليد العاملة . ان ثلث سكان كولمبيا ونصف البونغا في لاباز وبوليفيا هم من البغـالين . وهذه البلاد الكاثوليكية ، على طريقتها الخاصة،تمد من الرهبان والراهبات عدداً لا يحصى . فلا عجب ان تفتقر افتقاراً شديداً لليد العاملة .

حاولت الدولة الاسبانية ان تحافظ ، جهدها ، على استمرار بعض الافكار التقليدية حيـة بين رعايا امبراطوريتها في اميركا . فالجامعات التي قامت في كل من مكسيكو وليما وسانتا فيـه في بوغوتا ، وقرطبة وشركاس وغواتيمالا وكوزكو وسان دومنغو ،ضمت فروعـاً واقساماً لتعليم اللاهوت والفلسفة الكلاسيكية والحقوق والطب ، والآداب الرفيعـــة والرياضيات . فجامعة ليما ، مثلاً ، تدرّس لغة الكويشّوا، كما ان جامعة مكسيكو تدرس لغة الازتيك والاوتومي . كثيرة هي في البلاد ، المدارس الابتدائية والثانوية التي يقوم على ادارتها العديد من الرهبان والراهبات . اما الكتب فنادرة الوجود غالية الثمن. فليس من مطبعة بعد ، في غير مكسيكو وليما .والحكومة تراقب الطباعة ودورها عن كثب ولا تبيح الدخول الى الامبراطورية،لاي من الكتب او المطبوعات التي توجس منها شراً على الاخلاق او العقائد او الآداب ، كما تحظر دخول الكتب ذات النزعة المتحررة . ويساعد الحكومة في مراقبتها هذه ديوان التفتيش الذي سجل بين الكتب الممنوع دخولها الى اي جزء من اجزاء الامبراطورية ٥٤٢٠ كتاباً . وهكذا نرى الاميركيين يخضعون لنوع جديد من الوصاية الشديدة والرقابة الصارمة .

ليس من عجب قط ان ترتفع ، بعد هذا ، الاصوات بالتذمر والشكوى معربة عن عــدم رضاها . ويرى مواليــد الاوروبيين في المستعمرات من ذراري المعمرين الاسبان ، انهم يضحى بهم بسخاء فيذهبون ضحية اسبانيا ، ناهيك عن ان كل الوظائف الرئيسية هي بأيدي من هم من مواليد اسبانيا . والشاذ نادر جـــداً ، حتى ان الشؤون المحلية لا تخضع هي نفسها لمراقبتهم . فالمواليد البيض في المستعمرات يتحسسون عميقاً الفوارق الطبقية التي تعتمل بها نفوس الاسبان : فهم يحتقرون الخلاسيين بعـــد ان تكاثر عددهم في البلاد ويعرضون عنهم باستعلاء وازدراء . وهؤلاء الخلاسيون يزدرون الهجناء من هؤلاء المواليد الذين بالنظر لمـا فيهم من الدم الابيض ، خيّل اليهم انهم فوق الهنود بمراحل . وكثيراً ما شعر الهندي بمرارة المغلوب على امره فيستغله غالب علج لا تربطه به ايـة صلة . فمن منهم كان في ارض جاد بها ملك اسبانيا لاسباني ما ، كان عليه ان يقوم بما يفرضه عليه سيد الارض الجديد من اعمال وأشغال لقاء اجر يعينه له ، فيعمل

في المناجم والحقول او المزارع . ويحق للقضاة ان يفرضوا عليهم العمل ، بالشروط ذاتها ، في الطرقات والمباني العامة . فالقوانين الحكومية الخاصة بالهنود تعتبر ممتازة. ولكن في هذه البلاد النائية ، تعجز الحكومة المركزية التي تفصلها مسافات شاسعة ، عن تنفيذ ما تتخذه من قرارات . فالهنود الذين تفرض عليهم اعمال شاقة ينوؤون تحتها ، والذين يذهبون ضحية معاملات مؤذية تلحق بهم الحيف والضر من حيث المرتبات التي تجري عليهم والغذاء الذي يعطى لهم ، والذين يستهدفون لالوان الابتزاز والاستثمار البشع ، كل هؤلاء تجيش نفوسهم بالحقد والبغضاء لحو اسيادهم . ويأتي دون الهنود مرتبة ، الارقاء من الزنج الذين لا يزال الكثيرون بينهم يتنغصون ، وليس من يرحم او يسمع ، للحريات التي كانوا يتمتعون بها من عهد قريب ، قبل ان يصيرهم حظهم العاثر والقدر الغاشم الى ما اصارهم اليه من نكد العيش . وفي الدرك الاسفل من السلم الاجتماعي يأتي «الزمبو» ، هؤلاء الخلاسيون من الزنوج والهنود ، الذين كانوا موضوع هزء الجميع واحتقارهم ، والذين كانوا يُسخّرون للقيام بأقسى الاعمال واحقر الاشغال باجور سيئة جداً .

وهذا النظام الطبقي الذي وصفنا ، كان من شأنه ان يثير الاحقاد والضغائن ويغذي الحفائظ بأشنع واقذع الذكريات . فمنذ مطلع القرن الثامن عشر ، هبّ على الامبراطورية الاسبانية ، بعكس الامبراطورية البرتغالية ، ريح صرصر من الثورة تمطى بين الضلوع ، وأخذ الناس يتطلعون بلهفة وشوق الى الاستقلال .

الامبراطورية الاسبانية بين ١٧١٣ - ١٧٩٥

كان توسع الامبراطورية الاسبانية ، حتى عهد الملك شارل الثالث ، يتجه نحو الشمال ، وذلك بفضل الارساليات الكاثوليكية ، على الاخص . فقد انشأ الآباء اليسوعيون ، في كاليفورنيا القديمة ، قرى لهم ودساكر تنازلوا عنها ، فيما بعد ، للآباء الدومنيكيين . كذلك عمل الآباء الفرنسيسكان من جهتهم ، على تطوير كاليفورنيا الجديدة ، اذ ساعدوا على توطين الهنود كما ادخلوا على البلاد زراعة الاشجار المثمرة والبقول والخضروات المعروفة في أوروبا . وأنشأ المرسلون لهم مراكز يشعون منها الى اريزونا . وخلال ١٧٢٠-١٧٢٢ ، وضعت اسبانيا يدها على مقاطعة تكساس حتى مشارف النهر الاحمر ، تحوطاً من المشروعات الفرنسية حول لويزيانا . وحاول الاسبان الوقوف في وجه تقدم البرتغاليين ، حتى نهر ريو دي لابلاتا ، فأسسوا ، عام ١٧٢٦ ، مدينة مونتفيديو .

وبفضل نشاط الحركة التجارية ازداد عدد السكان كما ازداد الغنى واليسر بين الناس . وقد أقصرت التجارة مع الامبراطورية على بعض المرافىء منها في المكسيك مثلاً فيراكروز . ومن هذا المرفأ كانت البضائع ترسل ، عن طريق خلابا ، الى المناطق الجبلية ، واكابولكو التي كان يصلها كل سنة ، سفينة مانيلا محملة منتوجات ومحاصيل آسيا الشرقية . اما في اميركا الجنوبية

فأم هذه المرافىء ، مرفأ قرطاجنة ومنها تشحن البضاعة باتجاه كميتو وليما ، متبعة في سيرها الى الامام ، وادي مغدلينا وكوكا ، مارة بمـدن : مادلين وسنتنا فيه بوغوتا وبوبويان ، ومرفأ بورتو بلو ومنه تشحن البضائع عبربرزخ بناما، الى مدينة بناما، لتحملها من جديد سفن باتجاه ليما. ومن ليما كانت تنقل على ظهر البغال باتجاه بوليفيا والشيلي وسلطا، ومنها تحمل على عربات نقل ، الى التوكومان وقرطبة وبونس ايرس. وكان من المحظور وصول ايـة بضاعة الى بونس ايرس رأساً باستثناء الرقيق والسفن التي تشحن ارقـاء الزنوج ، والسفينة البريطانية المرخص لها ، وحدها تستطيع الرسو مباشرة في بونس ايرس . وعلى طول هـذا الخط التجاري الشاسع المسافات ، نشأت تباعاً الاستثمارات الحرجية والمزدرعات ، يغذيها بما يلزم من المال ، متعهدو النقل الذين اثروا . وقد توفرت لهم اليد العاملة اذ ان عدداً كبيراً من الزنوج سهل لهم الدخول الى « الاراضي الدافئة » في كولمبيا وفنزويلا ، كما نشأت اسواق تجارية ضمت كل مـا يلزم للتموين والانتاج .

والى هذا النشاط يجب ان نضيف عمليات التهريب الواسعة التي قامت بهـا سفن القرصنة *Interlope* ، اذ كان يتم على يد عمليات التهريب الواسعة هـذه حركة واسعة من الاستيراد والتصدير لعدد كبير من مختلف البضائع والسلع . وهذه التجارة غير المشروعة التي كان ينهض بها تجار الرق وقباطنة السفن المجاورة التي كان وسقها يتجاوز دوماً الخمسمائة برميل المرخص بها في المعاهدات والمواثيق المبرمة ، وذلك بفضل توسيع صابورة السفينة فوق خط العوم وعمليات تحشية الالواح والحواجز . وبين القائمين بعمليات التهريب هذه ، التجار غير المرتبطين بعقد اتفاق من كانوا يستخدمون الموانىء والطرق البرازيلية ، وجزيرة الثالوث ونهر الاورينوك وشواطىء خليج المكسيك . وقد استخدم الانكليز في هوندوراس وساحل الموسكيتوس ، الترخيص المعطى لهم من الاسبان ، ليقطعوا خشب الصباغ الذي يتوفر كثيراً في تلك المنطقة . ومن بينهم كذلك المعمرون في جمايكا الذين قاموا ، بين ١٧٢٠ — ١٧٤٠ ، بانشـاء وكالات تجارية لهم ، عند مصب النهر الاسود *Rio Negro* وقد قام الاسبان بدك هذه الوكالات وهدمها. وفي كل مرة كان المعمرون يعيـدون بناءهـا ، وقد بلغ القائمون باعمال التهريب الهضاب والمرتفعات الجبلية وتحالفوا مع هنود موسكيتوس ، واقاموا عليهم نوعاً من الحماية ، واخذوا يصدرون نحو جمايكا ولندن ونيويورك ، خشب البقم والـكاكاو والنيلة وسكر القصب والتبغ ، وقد سوّلت لهم النفس الوصول الى سواحل المحيط الهادي ليفتحوا لهم باتجاه اميركا الجنوبية ، طرقات جديدة يعتمدها المهربون في تجارتهم الرابحة . وفي هذا السبيل ، وتأميناً لسيطرتهـم على الطرقات التي تمر ببرزخ بناما ، اقنعوا ، انكلترا ، عام ١٧٤٠ ، على توجيه الاميرال فرنون ضد بورتوبلـّو وقرطاجنة ، والاميرال انسون ، الى سواحل البيرو . وفي سنة ١٧٤٣، راح تريلوني حاكم جمايكا الانكليزي ، بتشجيع من لندن ، بحشد المعمرين في هوندوراس وسلحهم ، وبلـّغ حكام نيكاراغوس وغوتيمالا ، بسط الحماية الانكليزي على المنطقة . الا ان الفشل الذي اصيب



خريطة ٨ - طرق مواصلات الامبراطورية الاسبانية في اميركا الجنوبية. الطرق الرسمية
١ - السفن والنقل من بناما - ٢ - النقل على البغال - ٣ - النقل النهري
الطرق التي يتبعها المهربون: ٤ - الانكليز - ٥ الفرنسيون الى عام ١٧٢٤.

به الاميرال فرنون امام قرطاجنة ، ومعاهدة اكس لا شابيل التي حافظت على الوضع الراهن ، من جهة اخرى ، حملت الانكليز على ان يقترحوا عقد المعاهدة الاسبانية البرتغالية ، عام ١٧٥٠ ، ليفتحوا امامهم طريقاً جديداً . وراحوا من جهة ثانية يطالبون بمنحهم حق احتكار الاتجار مع الامبراطورية الاسبانية مقابل تخليهم عن تجارة النخاسة والرق التي اصبحت ادعى للخسارة منها للربح .

وقام بتجارة التهريب هذه ، على نطاق واسع ، عدد من الفرنسيين والهولنديين فعادت عليهم بارباح طائلة، فاتخذوا من جزائر بحر الكرايبي او الانتيل قاعدة لهم ومستودعاً لبضائعهم فقاموا بمنافسة الانكليز ومزاحمتهم مزاحمة قاسية .

وتجارة التهريب التي سببت نقصاً كبيراً في واردات مرفأ قادس حيث كان يسيطر التجار الفرنسيون ، عادت بالخسف على اسبانيا ، كما حركت الضغائن والاحقاد .

ولقد كانت معاضدة الحكومة الانكليزية لتجارة التهريب ومناصرتها للقائمين بها ، من هذه الاسباب التي دعت الى هذه الحروب التي نشبت بين الانكليز والاسبان ، عام ١٧٣٩–١٧٤٨، و ١٧٦٢–١٧٦٣ ، وتلك الحروب التي قامت بينهم وبين الفرنسيين ، عام ١٧٤٢ – ١٧٤٨ ، و ١٧٥٦–١٧٦٣ ، فاذا ما عادت حركة التهريب هذه بارباح طائلة على المهربين الأجانب فقد أمّنت ، من جهة ثانية ، للاهلين من سكان الامبراطورية الاسبانية ، ارباحاً اطيب من التي تعود عليهم من التجارة العادية ، اذ شحذت فيهم الحماس والرغبة على مضاعفة الانتاج وسهلت لهم الوسائل المالية والبشرية .

ولذا جاء التطور الاقتصادي كبيراً . وبفضل التسهيلات التي وفرتها وسائل النقل تمركزت المناجم وتضاعف انتاجها بعد ان كان اخذ يتقهقر تقهقراً ملحوظاً في القرن السابع عشر ، وأمدّت اوروبا بالنقد اللازم لتطورها الصاعد ، وساعدت في رفع الاسعار ، فكان ذلك كله سبباً لظهور هذه التغييرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي وقعت فيها ، كما ساعدت من جهة أخرى على تطوير المحاصيل والمواد الغذائية في اميركا ، ولا سيا في هذه المناطق« المعتدلة »، أو « الباردة » في جبال الاندس . فازدهرت زراعة الذرة والشعير والقمح والزيتون والكرمة ، بعد ان ساعدت هذه المحاصيل على اجتذاب اليد العاملة والباحثين عن اسباب الرزق . وراح المعمرون وذراري الاسبان المولودون في اميركا يستخدمون العبيد من الزنج لاحياء المزيد من الأرض ولانشاء زراعات جديدة ، من قصب السكر والتبغ والفانيلا والكاكاو والبن ، في الاراضي السهلية الدافئة، في كل من البيرو وكولمبيا وفنزويلا والغويان والمكسيك وجزر الانتيل. وراح الخلاسيون والهنود يستثمرون الغابات بحثاً منهم عن خشب الصباغ وخشب الابنوس ، ولحاء شجر الكينا ، منذ عام ١٧٥٠ ، وزراعة الماتيه . كذلك عرفت تربية الماشية رواجاً كبيراً توفيراً لحيوانات الجر والنقل اكثر منه للحم والجلود . واخذت البيرو تستورد اكثر من

١٠٠ الف بغل من التوكومان والشيلي . وكان يباع في كل سنة يقام فيها معرض مالطا ، اكثر من ٦٠ الف بغل جرى تطبيعها وتدريبها وقد قام في السهول المعشوشبة المحيطة بنهر الاورينوك وبمرتفعات غرناطة الجديدة والاناهيواك والمكسيك الجديدة، على مقربة من الاستثمارات الزراعية والمعدنية ، مزارع كبيرة تعنى بتربية الماشية . اما في هذه السباسب والسهول التي تنأى بعيداً عن هذه المشروعات الاستثمارية ، فقد تركت قطعان الماشية تعيش فيها نصف متوحشة او برية ، يسهر على حراستها اقوام من الخلاسيين والهنود ، يعملون على وشمها واقتيادها بمشقة الى الاسواق القائمة في خلايا وتوكومان وسلطا ، بقصد بيعها .

كذلك اخذت الحياة الفكرية بالظهور والتفتح، على اثر سماح السلطات المعنية في المكسيك، باصدار جريدة ودورية اخرى بعنوان *Mercure Volant* تعطي قراءها اخباراً عن اوروبا ، وتلشر في حقولها ابحاثاً ومقالات حول العلوم الطبيعية والفيزياء . ويجب التنويه هنا بفضل حركة التهريب التي ساعدت على نشر الافكار الجديدة بين مواليد الاوروبيين وذراريهم في المستعمرات بعد ان تغلغلت بينهم المؤلفات الفرنسية .

ان ازدياد عدد السكان ونشاط حركة الاعمال ، والرغبة في منع حركة التهريب ومراقبة الانتاج ، والرد على التهديد الانكليزي والصمود في وجهه ، كل ذلك وما اليه أدى الى انشاء تقسيمات جغرافية جديدة والاكثار من الموظفين . ففي سنة ١٧١٧ ، انشئت لتعود الى الوجود من جديد بعد إلغائها ، عام ١٧٣٣ ، نيابة للملك في غرناطة الجديدة (كولمبيا وفنزويلا) ، كما انشئت ، عام ١٧٤٢ ، قبطانية عامة في فنزويلا .

هذا التشدد في المراقبة وزيادة احكامها اخذ يحد من التطور الذي اخذت البلاد باسبابه ، كما صدم ، في الصميم ، شعورها بالحرية والاستقلال ، وساعد كثيراً في اذكاء اسباب النفرة والتذمر في الداخل، مما ادى بالتالي الى حركات تمرد في اماكن كثيرة، منها الحركة البلدية التي قام بها طلاب المدارس في الباراغواي ، عام ١٧٢١ ، والثورة التي قام بها الاسبان وذراري المعمرين الاوروبيين في البيرو (١٧٤١) ، وفي المكسيك (١٧٤٢) ، والثورة الشعبية التي قام بها الخلاسيون والهنود في وجه كبار الملاكين في فنزويلا ، عام ١٧٤٩ . كذلك ثار اليسوعيون في الباراغواي عندما وقّعت الحكومة الاسبانية ، عام ١٧٥٠، المعاهدة التي عقدتها مع البرتغال وتنازلت لها فيها عن الممتلكات التي قامت فيها ارسالياتهم في الباراغواي ، مما اضطر الآباء اليسوعيون معه لمغادرة تلك المقاطعات والجلاء عنها ، مما سهل للانكليز الذين كانوا وراء عقد هذه المعاهدة ، الدخول بحرية الى البرازيل ومنها الى مقاطعة شاكو ، باتجاه المناطق الجبلية في بوليفيا والبيرو . وبذلك سلست عندهم وسائل التهريب وهددت باسوأ المساوىء الهنود الذين تُركوا وشأنهم . ورفض اليسوعيون الانصياع ، واخذوا يتحصنون في ارسالياتهم للصمود في وجه الاسبان والبرتغاليين معاً وطردهم اذا امكن ، فاضطر هؤلاء الى مجابهة حرب شنوها ضدهم . وكانت الحرب في هذه الفترة قائمة على قدم وساق في الشيلي ضد الأروكان الذين كانوا

انشأوا لهم دولة مستقلة ، ناصبتهم العداء .

عهد شارل الثالث

في عهد الملك شارل الثالث (١٧٥٩ – ١٧٨٨) وقعت معظم التطورات الجذرية وتمت النجاحات التي سجلتها الامبراطورية الاسبانية ، اذ ذاك. فقد عرف ملك اسبانيا ان يحافظ على المبادىء الاساسية التي نهض عليها الاستعمار الاسباني . الا انه تفهم تماماً الموجبات التي تقضي بخلق مصالح وببعث روح مشتركة بين اسبانيا واوروبا والتمكين لها في النفوس .

فقد حالفه النجاح في محاولاته توسيع حدود الامبراطورية الاسبانية ، والدفاع عما تم لها من وضع اقتصادي ممتاز ضد الانكليز . ففي ٢ كانون الثاني ١٧٦٢ ، دخل الحرب الى جانب الفرنسيين ضد الانكليز ، فجرت عليه الحرب الخسائر والهزائم ، اذ احتل الانكليز مدينة لاهافانا ، واستولوا على ١١ سفينة اسبانية كانت راسية في خليجها وغنموا من الاسلاب ما تزيد قيمته على ٣ ملايين غرش ، وبذلك اصبح في مكنتهم مهاجمة فيراكروز والكر على قرطاجنة دون ان يلقوا مقاومة تذكر من قبل الاسبان . وبتاريخ ٢٣ ايلول من السنة نفسها ، استولت عمارة انكليزية على مدينة مانيلا في الفيلبين هذا المرفأ الاسباني الكبير في المحيط الهادي . وبموجب الصلح الذي عقد عام ١٧٦٣ ، اضطرت اسبانيا للتنازل لانكلترا عن واحدة من اثنين : اما بورتوريكو او فلوريدا ، فتخلت لهم عن الثانية بعد ان احدق بها الخطر الانكليزي اثر تخلي الفرنسيين للانكليز عن ضفة مسيسبي اليسرى . كذلك اضطر شارل الثالث للتنازل لهم عما له من حقوق الصيد في ضواحي جزيرة الارض الجديدة وارباضها التي كانت بمثابة دار تدريب للبحارة الاسبان . كذلك اعترف لهم بحق قطع خشب الصباغة في هوندوراس مما اتاح لهم المزيد من الفرص للقيام بمظاهرات باتجاه المحيط الهادي . الا ان الاسبان استرجعوا لاهفانا وكوبا . وبعد ان تخلى الانكليز عن تجارة العبيد تنازلوا عن مطالبتهم الاحتفاظ بحق احتكارهم الاتجار في الامبراطورية الاسبانية . فهل ادى ذلك ، ياترى ، الى التخفيف من تجارة التهريب التي كانوا يقومون بها ؟ وتعويضاً لاسبانيا عن تنازلها للانكليز عن فلوريدا ، تنازلوا لها بدورهم عن ضفة المسيسبي اليمنى . وفي حرب الاستقلال الاميركية ، تدخل شارل الثالث بوصفه حليفاً لفرنسا في الحرب ضد انكلترا ، وذلك من سنة ١٧٧٩ الى ١٧٨٣ . واوجبت معاهدة باريس على الانكليز ، ارجاع فلوريدا للاسبان .

وسجل الاسبان لهم انتصارات ضد البرتغاليين . كان سيبالوس حاكم بونس ايرس استولى عام ١٧٦٢ ، على المستعمرة البرتغالية سكرمنتو ، فجاءت معاهدة باريس توقف تنفيذ العملية . واستأنف سيبالوس ، عام ١٧٧٦ ، المغامرة واستولى على سكرمنتو من جديد ، واقام فوقها الحصون والقلاع . واذ كان الانكليز غارقين في الحرب ضد مستعمراتهم الاميركية في اميركا الشمالية لم يستطيعوا مساندة البرتغال وشد ازرها فاضطر هؤلاء بموجب معاهدتي سان ألفونس

(١٧٧٧) والبرادو (١٧٧٨) للتخلي نهائياً عن مقاطعة سكرمنتو لاسبانيا ، ونالت اسبانيا وحدها حق الملاحة في نهر ريو دي لابلاتا والاورغواي .

وفي سنة ١٧٧٦ ، جرى تعيين الحدود الفاصلة بين الممتلكات الفرنسية والاسبانية ، في سان دومنيك .

واستمر ٣٦ راهباً من الرهبان الفرنسيسكان في توسعهم على ساحل المحيط الهادي وانشائهم القرى والدساكر والمزارع . من انشاءاتهم تلك ، سان بلاس ، ومونتيري ، وسان فرنسيسكو ، وجعلوا من هذه المراكز الجديدة قواعد لتنظيم حملات ورحلات باتجاه خليج نوتكا الذي استكشفه خوان بيريس ، والذي كان مركزاً هاماً للاتجار بفراء كلب الماء . وهنالك التقى الاسبان بتجار من الانكليز والروس والاميركان . واسس الانكليز لهم في نوتكا ، شركة حاولت ، عام ١٧٨٩ ، الاستيلاء على الخليج المعروف بهذا الاسم . الا ان الاسبان تمكنوا من صدهم وردهم خاسئين .

وهكذا امتدت حدود الامبراطورية الاسبانية في كل اتجاه وعرف الاسبان كيف يناضلون دونها ويردّوا عنها تعديات جيرانهم .

وعرف شارل الثالث ، بوصفه « طاغية مستنيرا » ان يشدد من قبضته الادارية على الامبراطورية . فطبق ، عام ١٧٦٨ ، على الهند الغربية ، النظام الفرنسي الذي ادخله الملك فيليب الخامس ، على اسبانيا ، بتعيينه نظاراً او قهارمة مرتبطين رأساً بنائب الملك ، جاؤوا مرتبة ، فوق القباطنة العاملين وفوق الحكام العامين . كان عددهم كبيراً ، اذ قام منهم ١٢ في المكسيك ، و ٨ في البيرو ، و ٧ في لابلاتا ، فكانوا اكثر اهلية لادارة مقاطعة اصغر مساحة . وتمتع هؤلاء النظار بصلاحيات واسعة : مالية واقتصادية وعسكرية وفي مجال الامن العام . فتمكنوا من القضاء على مساوىء كثيرة في الادارة ، وحموا ، على الاخص ، الهنود ضد تعديات صغار الحكام الاسبان والمتزعمين . فالاصطدامات التي قامت بينهم وبين الانكليز ، والبرتغاليين ، والخوف الذي بعثه في نفوسهم مُمثل الولايات المتحدة الاميركية العميق الاثر ، والتغييرات الاقتصادية ، كل ذلك سبب ، عام ١٧٧٨ ، إنشاء نيابة ملك جديدة ، في لابلاتا كانت عاصمتها بونس ايرس ، كما أدت الى إنشاء قبطانية عامة في الشيلي . كل هذا جاء جميلاً انما زاد الادارة مركزية وشدد من المراقبة الادارية .

وشجع شارل الثالث الحياة الفكرية لتأتي وفقاً لما كانت عليه في البلد الأم . فأنشأ جامعات جديدة : في سنتياغو الشيلي ولاهفانا وكيتو . وأدخل على الجامعات القديمة تدريس علوم جديدة ، فأخذوا يدرّسون في جامعة مكسيكو علم الهيئة وعلم النبات ، وعلم المعادن والكيمياء . وقام في مكسيكو معهد خاص بتعليم علم المناجم ، وحديقة للحيوان والنبات أسسها غلفيز وزير الهند الغربية . وسمح عام ١٧٧٧ ، بادخال الطباعة الى غرناطة الجديدة ،

والى بونس ايرس عام ١٧٧٩ . وصدر في مكسيكو الـ *Le Journal Littéraire* عام ١٧٦٨ ، كما ظهر فيها عـام ١٧٨٨ الغازيت الادبية . وصدر في اماكن كثيرة جرائد عديدة . الا ان ديوان التفتيش ووزارة الهند اوصدتا بشدة ابواب الامبراطورية ، امام الكتب الاجنبية .

الا ان الاسس الاقتصادية التي قامت عليهـا سياسة البلاد الاساسية بقيت مرعية الجانب . فنظام الاستثناءات بقي معمولاً به بشدة والقاعدة الركينة لكل سياسة . فالشاغل الاكبر هو ان تصبح اسبانيا بعد تجددها وبعثها خير زبون للامبراطورية تصديراً واستيراداً [١] . فهـي وحدها دون سواها، تمد الامبراطورية بالمواد الصناعية وببعض المواد الغذائية . فقد حرّم شارل الثالث العرق المستخرج من نبـات الـ *Agave* ، الذي كان ينافس العرق الاسباني المصنوع من العنب . واستمر مرفأ قادس وحده المرفـأ الذي يتولى تصدير الحبوب ومواد غذائية اخرى ، كل سنة ، الى الامبراطورية التي كان بامكانها الاستغناء عنها . وبقيت التجارة محصورة بيـد الاسبان دون سواهم. وفي سنة ١٧٧٨ ، انتهى اجل العقد المعطى للشركة الانكليزية التي تتعاطى تجارة الرق *Asiento* فرأى الملك شارل الثالث ، في حرب الاستقلال الاميركية ، فرصة سانحة ليحتفظ بهذه التجارة لاسبانيا ، واجبر البرتغـال على التنازل له عن جزر فرناندو – بو وانوبون ، على سواحل افريقيا الغربية ، باعتبارهما مركزاً لتجـارة الرق الاسود . وفي سنة ١٧٨٠ ، رفض مشروعاً فرنسياً بانشاء ترعـة او قناة تربط ما بين نهر سان خوان وبحيرة نيكاراغوى ، وبذلك كان تم ربط خليج المكسيك بالمحيط الهادي ، فتختصر المسافة بين اوروبا وآسيا الوسطى ، مبرراً رفضه من خوفه ان يؤدي فتح هذا الطريق الجديد الى اشتداد تجارة التهريب ودخول التيارات الفكرية الاجنبية الى الامبراطورية الاسبانية .

فبالاضافة الى الجهود العظيمة التي قام بها لتطوير التجارة والصناعة في اسبانيا ،وحؤولاً دون قيام ابناء المستعمرات الاسبانية باحتذاء حذو الاميركيين فيطلب الانفصال وانتزاع الاستقلال، راح الملك شارل الثالث ، عام ١٧٧٨ ، يعطي حرية الاتجـار بين اسبانيا والامبراطورية لـ ١٣ مرفأ اسبانياً ولـ ٢٤ مرفأ في اميركا ، من بينها بونس ايرس . وقـد استثنى المكسيك وحدها من هذا الحق ، فاحتفظ لمرفأ فيراكروز وحده ، باحتكار التجارة ، الا انه لم يسمح له باستيراد اكثر من ٦٠٠٠ برميل من مختلف البضائع والسلع ، في السنة كلها . الا ان المكسيك عرف بدوره ان يتمتع ، سنة ١٧٨٦ بحرية اكبر أدت الى مضاعفة علاقاته بين اسبانيا والامبراطورية ، وهي حرية لم تحدث اي تبدل في صلب نظام الاستثناءات المعمول به . ومع ذلك فقد حققت ازدهاراً عظيماً . فقد بلغ ما صدرته اسبانيا ، عام ١٧٧٨ ، الى الامبراطورية ، ما قيمته ٢٨ مليون ريال من البضائع الاسبانية ، وما صدّرته من البضائع الاجنبية ، بلغت قيمته ٤٨ مليون ريال . فقد شحنت عام ١٧٨٨ ما قيمته ١٥٨ مليون ريال من البضـائـع الاسبانية ، و ١٤٢ مليون ريال من

---

(١) – راجع الكتاب الثالث ، الفصل الثاني

البضائع الاجنبية. وباعت اميركا الاسبانية من اسبانيا بما قيمته ٨٠٠ مليون ريال[١]. وهكذا اخذت اسبانيا تصدر وتستهلك اكثر من الماضي ، مما أدى الى إثراء مواليد الاسبان في المستعمرات ، واكتظاظ المدن بالسكان وازدياد حركة العمران فيها . وهكذا نرى ان عهد الملك شارل الثالث المستبد المطلق ، عاد بالخير العميم على بلاد الهند الغربية .

ومع ذلك فالتململ والتذمر ازدادا حدة. فقد بعث الاثراء ونماء الازدهار الشعور في النفوس بالحاجة الى الاستقلال كما ايقظ فيهم الوعي والشعور بالقيمة الذاتية فتملكهم الشعور الشديد بالحرية والتحرر الذي يعود عليهم بالمزيد من المغانم والمكاسب . وبالرغم من التدابير الزجرية والاجراءات الاحتياطية المتخذة ، فقد راحت الافكار والمبادىء الجديدة التي نادى بها الفلاسفة الفرنسيون تتغلغل بين سكان المستعمرات الاسبانية ، وتهريب الكتب وتسربها سراً وانتقالها بين الناس كان على اشده . وعمل مربون فرنسيون على ادخال المبادىء التي نادى بها روسو واصحاب دائرة المعارف الفرنسية .

وقد قصد عدد كبير من الشباب في المكسيك وغرناطة الجديدة ولا بلاتا ، اوروبا ولا سيما فرنسا يتشربون الافكار والآراء الجديدة المسيطرة على اجواء باريس ، كما راح يستنشق هذا الجو المشبع بكل جديد من الافكار والنظريات التقدمية ، كثيرون ممن هبطوا باريس من الخارج ، ومواليد الاسبان في اميركا اقبلوا بعطش ، على تعلم الفرنسية والاستبحار في آدابها ، برغبة وتوق اين منها رغبة الشباب الاوروبي . ولم تر في مكان ما من التعليقات والشروح على «روح الشرائع» لمونتسكيو الذي منه استمد الاميركيون مبادىء دستورهم الجديد ، مثل ما قام منها في الولايات والمستعمرات الاسبانية التي كانت اكثر اوساط العالم طراً اعجاباً به ولا سيما الشباب الاميركي الذين اطلعوا على تاريخهم الوطني من مطالعتهم وقراءتهم كتاب « تاريخ الفلسفة » الذي وضعه رينال . وقد خلف روسو وراءه تلاميذ تميزوا بالنشاط والحماس فكانوا خميراً بين النشء الجديد ، وهذه الجمعيات الادبية والثقافية التي رأت النور في جميع المدن الكبيرة القائمة في المستعمرات الاسبانية ، كان اعضاؤها وغيرهم من المتحمسين يقرأون ويروون عن ظهر قلوبهم ، المسرحيات الفرنسية الكلاسيكية .

ان تَمثل الولايات المتحدة والتشبه بها عمر النفوس بالأمل . فقد تغلغلت الافكار الجديدة بين الطبقات العليا في البلاد وبين رجال الادارة والضباط حتى اخذ بها واحتضنها دون برناردو اوهيجنز ، ابن حاكم الشيلي . ورؤساء الاكليروس والمرسلون كلهم أخذوا بِتَمثل الولايات المتحدة حتى ان الخوارنة العاملين في خدمة مواليد الاسبان الروحية في المستعمرات كانوا من بين دعاة الانفصال .

ويبدو ان الاسبان المولودين في المستعمرات الاميركية عرفوا وحدهم ان يفيدو على الوجه الصحيح من نماء الغنى والثروة في البلاد ومن التطور الفكري الذي اخذت باسبابه . فالجامعات كانت وقفاً عليهم . والملونون هالتهم الفروق التي اخذت تباعد بينهم وبين البيض . فالكهنة الخلاسيون ، كثيراً ما جاشت نفوسهم بفكرة التحرر ، وكثيراً ما حرّضوا اخوتهم في الدم على المطالبة بالحرية . وبالرغم من سهر نواب الملك والنظار والمفتشين العاملين تحت امرتهم استمر صغار رجال القضاة في المدن في استغلال الهنود على ابشع وجه ، بالرغم مما يرزحون تحته من

(١) يجب ان نأخذ بعين الاعتبار ارتفاع الاسعار .

الضرائب الباهظة والرسوم القاصمة . وهكذا نرى ان طبقات الشعب الدنيا كانت على أتم استعداد للسير في ركاب الثورة اذا قام من ينادي بها ويرفع لواءها ضد الاسبان وضد ذراريهم في البلاد .

كان عدد سكان اميركا الاسبانية يتراوح ، اذ ذاك ، بين ١٦ – ١٨ مليوناً اي بزيادة ٦ – ٨ ملايين اكثر من البلد الام ، بينهم ٣ ملايين من العرق الابيض ، معظمهم من الاسبان المتوالدين في البلاد ، ممن زودتهم الحكومة بالسلاح وشدت من ازرهم بالمليشيا دفاعاً عنهم وعن المستعمرة . ولكن عدد البيض ضاع بين الهنود الذين زاد عددهم على ٨ ملايين ، اضف الى ذلك ٥ ملايين من الخلاسيين و ٧٨٠٠٠٠ من الزنج .

ففي سنة ١٧٨٣ ، رفع الكونت داراندا الى الملك شارل الثالث ، مذكرة بين له فيها الصعوبة التي يقتضيها الحفاظ على المستعمرات الاسبانية ، واقترح عليه بألاّ تحتفظ اسبانيا بغير كوبا وبورتوريكو وبقطر آخر في اليابسة . اما ما تبقى من هذه المستعمرات الشاسعة الارجاء فينشأ فيه ثلاث ممالك: واحدة منها في المكسيك، والثانية في البيرو ، والثالثة في داخل البلاد، على ان يعهد بالملك فيها لثلاثة من امراء العائلة المالكة يقيمون الولاء لملك اسبانيا بوصفه امبراطوراً ، ويبقون مرتبطين باسبانيا تشدها اليهم وشائج وروابط التابعية والولاء ، وهذه العلائق التجارية والمصالح المادية ، ومواثيق هجومية ودفاعية ، تقوم بين الطرفين . اما شارل الثالث فقد ضرب بهذا الاقتراح عرض الحائط واطّرحه جانباً .

الا ان ريح الثورة عاد يعصف بالبلاد في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، اذا ما ضربنا صفحاً عن الثورة المشتعلة بين اقوام الأروكان في الشيلي . من لَفَحَات هذا الريح الصرصر ، الثورة اللاهبة التي قام بها ، في البيرو، زعيم الإنكا : توباك–أمارو ،آخر سلالة «ابناء الشمس» الذي عرف ان يستغل الاحقاد والضغائن المعتملة في قلب الشعب لهذه الابتزازات الدنايا التي تعرض لها من قِبل صغار القضاة . الا ان هذه الانتفاضة الثورية انتهت بتقطيع اوصاله ارباً في مدينة كوزكو (١٧٨١ – ١٧٨٣) . ومنها الثورة التي قام بها الاسبان وذراريهم في سنتا فيه بوغوتا (١٧٨١) ، وفي الشيلي بقيادة فرنسيين هما برنيه وغراموزيه ؛ والحركات العدائية التي قام بها المواطن الفنزويلي فرنسيسكو دي ميراندا ، المولود في كراكاس ، عام ١٧٥٠ ، والذي خدم ضابطاً في الجيش الاسباني وتتلمذ على اصحاب الموسوعة الفرنسية وعلى البنائين الاحرار ، فقام برحلات الى الولايات المتحدة الاميركية ، والى انكلترا (١٧٨٠) وبروسيا (١٧٨٥) وروسيا (١٧٨٧) وراح يفاوض رجال السياسة من الاميركيين والانكليز ؛ ويستأنس برأي ملك بروسيا ، ويستشير امبراطورة روسيا كاترين الثانية ، مستمزجاً رأيهم ، محاولاً ان يكسب عطفهم على حركة التحرر التي تقوم بها المستعمرات الاسبانية في اميركا، قبل ان يأتي الى فرنسا وينخرط في جيش الثوار ، تمهيداً لمحاولته النفخ في بوق الثورة في اميركا الاسبانية .

في هذا الجو العابق بروح الثورة ، رأى النور ، عام ١٧٧٨ ، سان - مارتن الذي كان ابوه عقيداً في الجيش الاسباني وحاكماً اسبانياً ، والمحرر العتيد للشيلي والبيرو . كذلك ، ولد عام ١٧٨٣ ، من اسرة ثرية ومن ذراري الاسبان ومواليدهم في اميركا ، بوليفار .

وفي سنة ١٧٨٩ ، غدوت لا تسمع الناس يقولون لك : « انا اسباني » بل « انا اميركي » . وهكذا طلعت على البلاد حركة التحرر ، واطلت عليها سحائب الثورة مزمجرة . فالردة التي قام بها شارل الرابع ، وفتح الفرنسيين لاسبانيا في مطلع القرن التاسع عشر ، ألهب الهشيم فتطايرت الشظايا تحرق الاخضر واليابس .

الفصل الثالث

الجـــزر

بين « جزر » البحر الكرايبي او جـــزر الانتيل الفرنسية والانكليزية اكثر من نقطة تشابه . فهي ، في نظر كل من البلد الام ، مستعمرات نموذجية ، هذه المستعمرات التي تمد الوطن الام بما يحتاج اليه ، في الاساس ، والتي لا يتوفر فيها شيء مما تنتجه البلد الام . فمزروعات التبغ والنيلة ، ولا سيا قصب السكر ، والبن تتسع فيها باطـــراد وتستوعب اعداداً اكبر من زنوج افريقيا الارقاء . وهذه المحاصيل والغلال هي محور حركة تجارية تعود على اصحابهـــا والقائمين بها بالربح الوافر : تجارة انكليزية مثلثة الاضلاع. فليفربول تشحن الى غمبيا والغينيه الخرداوات الحديدية والانسجة لتصبح فيها موضوع مقايضة بالزنوج الذين يسبحون بدورهم مادة للمقايضة مقابل السكر والروم والتبغ والدبس والقطن ، وكلها مواد تطلبها اوروبا وتصدّر اليها . وعلى مثـــل هـــذا تجري في الجزر الفرنسية حركة تجارية ترفد سان - مالو ونانت ولاروشيل وبوردو وتجعل من فرنسا الند المنافس لانكلترا . وهكذا تؤلف هـــذه الجزر منطقة قوامها العرقية . فالزراعة تمتنع اسبابها ويستحيل الاخذ بها ما لم يتوفر لها مـــا يلزم من اليد العاملة ، يؤمنها رقيق من الزنج ، لا ينقطع معينه . « زنوج وما يحتاجون اليه من مواد غذائية ، هذا هو قوام الاقتصاد » في هذه الجزر . هنالك ارستوقراطية مؤنثة قوامها اصحاب المزروعات تؤلف الطبقة ، العليا في البلاد ، تسمح للزنجي بالزواج من بيضاء ، وتقصيه عن الوظائف العامة وعن المراتب المسلكية في الميليشيا ، وتحظر على الزنج ارتداء ازياء البيض، وتضن عليهم بالتعليم، وتعزلهم عن المؤمنين في الكنائس وينظر الكاثوليك شزراً الى العضو منهـــم في الكنيسة الكاثوليكية التي تقول بالاخوة الانسانية .

تتردى الجزر الانكليزية منها في وضع حرج يهدد بأوخم العواقب الحياة في الامبراطورية البريطانية ، كما رأى فيه كثيرون تهديداً للسلام في اوروبا . فقد ازداد استهلاك السكر كثيراً ، في اوروبا ، منـــذ عـــام ١٧١٣ . فليس من عجب قط ان يصبح قصب السكر محور النشاط الزراعي في جزر الانتيل . الا ان انهاك التربة واعياءها ، في الجزء البريطاني من هذه الجزر ، والضرورة لاستعمال المزيد بالتالي ، من العبيد والمخصبات الكيماوية تسببت في رفـــع الاسعار

والـكلفة بصورة فادحة . اما في جزر الانتيل الفرنسية فقد كان الوضع على عكس ما هو عليه في الجزر الانكليزية تماماً ، اذ ان الارض فيها لم يجر استثارها الا بعـد استثار الانكليز لجزرهم بزمن طويل ، ولذا بقيت التربة فيها مستريحة وغنية كما ان الزنوج فيها عملوا بشكـل افضل وكان الانتاج بالتالي اقل كلفة ، ولذا استطاع المزارعون الفرنسيون ان يبيعوا محاصيلهم من السكر بسعر ٤٠٪ افضل . ومنذ عام ١٧٢٨ ، اخذ السكر الفرنسي يزحزح من طريقـه السكر الانكليزي ، في اي مكان عرضا للبيـع معاً في اوروبا . ومما هو أنكى من ذلك واحز وقعاً في نفس الانكليز ، هو ان المعمرين الانكليز في انكلترا-الجديدة راحوا يتسوقون عصير الدبس والروم من جزر الانتيل الفرنسية ، ويصدّرون اليها ، بالمقابل ، الحبوب واللحـوم ، ومواد البناء والسفن . فالانتيل البريطانية افتقرت لكل شيء واضطر المعمرون الانكليز ان يدفعوا للأميركيين الشماليين ثمن محاصيلهم الزراعية ، نقداً وعداً ، كما اضطروا لمضاعفة حركة التهريب في ارجاء الامبراطورية الاسبانية ، فـكان ذلك سبباً في إطلاق شرارة الحـرب ، عام ١٧٣٩ . فالانتيل الفرنسية رفلت بالبحبوحة وانخفضت فيها اسعار الحاجيات الضرورية وتمكن الفرنسيون من تخفيض سعر السكر فيها ، بحيث ان التجـار الانكليز في الانتيـل الانكليزية راحوا يشترون ، بالتهريب ، السكر الفرنسي لارساله الى لندن ، حتى ان انكلترا نفسها تم للسكر الفرنسي غزوها بعد ان كانت سوقاً محفوظة ، مبدئياً ، للسكر الانكليزي . واذ ذاك تحرك المزارعون الانكليز ، وكانوا من اصحاب النفوذ في بريطانيا . وبفضل مـا كانوا عليه من بسطة العيش والغنى والنفوذ ، كثيراً ما كان يجري انتخابهم اعضاء ، في مجلس العموم البريطاني ، حيث كانوا يحاولون إفساد الضمائر . واذ كانوا ، في نظر الانكليز ، معمرين نموذجيين ، وزُبُناً ومصدرين لا مندوحة عن خدماتهم ، فقد كان الرأي العام دوماً على استعداد لمناصرتهم والاستماع بعطف الى مطالبهم . فطالبوا بمنع الاتجار بين انكلترا-الجديدة وجزر الانتيل الفرنسية . ان الاستجابة لهذا المطلب والاخذ به ، كان من شأنه ان يلحـق الفوضى في النظام التجاري الانكليزي ، وذلك لاضطرار المعمرين الانكليز في انكلترا الجديدة للاتجـار مع جزر الانتيل ، وذلك ليستطيعوا تسديد اثمان مشترياتهم من البلد الام : وقد نال المزارعون قانون عام ١٧٣٣ الذي فرض رسوماً عالية على العصير ودبس القصب الغريب الانتاج المستورد من البر الاميركي ، كما حملوا المجلس على إقرار القانون الآخر الصادر عـام ١٧٣٩ ، الذي اجاز لهم بالرغم من المبادىء الاساسية للاقتصاد التجاري ، نقل السكر ، رأساً الى اوروبا . الا ان الاميركيين من سكان انكلترا الجديدة ، كانوا بحاجة الى كل جزر الانتيل كسوق طبيعية لهم اذ كانت تضم مجتمعة من السكان ما يوازي عدد سكان اميركا الشمالية . فقد كانوا بحاجـة للحرية التجارية التامة او ضم جزر الانتيل الفرنسية .

ولذا اصبحت هذه الجزر فريسة عراك هائل تمثل في هذا التصادم الدائم الذي قـام بين المعمرين والقراصنة والمهربين من كلا الدولتين المتنافستين ، كما راحت فريسة المطامع الدولية ، اذ ان « هذه الجزر » والنشاط التجاري الذي تقوم به كانت سبباً من هذه الاسباب لهذا العراك

الجبار بين الفرنسيين والانكليز ، ممثـلا بأوضح مجاليه ، بحرب خلافة النمسا وحرب السنوات السبع وحـرب الاستقـلال الأميركي . فقد اعتبر الفرنسيون معاهدة ١٧٦٣ ، نصراً كبيراً لهم ، اذ بالرغم من تنازلهم عمـا لهم من حقوق عينية على جزر تباغو وسانت كروا وغرناطـة وغرينادين وسان فنسان ، استطاعوا ان يحتفظوا بخير زبنهم من جزائر الانتيل ، كما عرفوا ان يحتفظوا بجزيرة غوريه الصغيرة في عرض السنغال وجعلها قاعدة لتجارة الرق عندهم. وقد شعر الانكليز بمرارة الخيبة المحرقة ،وجاشت نفوسهم بالحقد ضد الوزير «بوت» احد وزراء الملك جورج الثالث ، لفشله في المفاوضات . ونزولاً عنـد مطلب الرأي العام وارتياحاً منه للدور الذي تلعبه المستعمرات ، راح الملك لويس السادس عشر الذي تغلب عـلى الانكليز ، يطالب عام ١٧٨٣ ، في معاهدة فرساي ، باسترجاع ما كان له من حقوق على تباغو وسانت لوسي ، والمراكز التجارية التي كانت لفرنسا في السنغال .

كانت « الجزر » تخضع مبدئياً لنظـام الميثاق الاستعماري ، الا ان الغنى الذي رتع فيه المزارعون ، والأهمية المتزايدة الـتي كانت لمزدرعاتهم في المجال التجاري ، ارغمت الدول على القبول بعدة تنازلات . فالجزر الانكليزية نعمت بهيآت تمثيلية . اما الفرنسية منهـا في الانتيل فقد قامت فيها مجالس راحت تنافح عن مصالح المزارعين الذين كانوا موضوع رعايـة الحكام ايضاً . وكان المعمرون يتذمرون من العراقيل الـتي تقف حائلاً دون نشاطهم الجم ، ولا سيما الفرنسيون ، وظهر بينهم حوالي عام ١٨٠٩ ، تيار قوي يطالب البلد الام ،بالاستقلال الاداري ، حتى ان بعض الفرنسيين منهم ذهبوا للمطالبة بالانفصال .

الفصل الرابع

أميركا الشمالية الفرنسية والانكليزية حتى عام ١٧٦٣

البلاد وسكانها

وجد المغمرون الفرنسيون والانكليز انفسهم ، في اميركا الشمالية ، وسط خضم من الغابات البكر والاحراج الظليلة تفترش رقعة من الارض تساوي ربع مساحة اوروبا . فقد حاول البيض إعمار بعض القطاعات منها وعزق الارض واحيائها . فعلى مقربة من سيف البحر ، لم يعد يوجد ما يذكر بوجود الغابات في المنطقة ، سوى واحات حرجية ، تقوم هنا وهنالك . امـا في المدى الابعد ، فالانفراجات الحرجية ، كانت تدق وتسارق بحيث تبدو وكأنها رقاع غبراء او صفراء في بحر متموج من الخضرة السندسية . فعلى مقربة من نهر المسيسبي ، خلفت الحرائق الهائلة الأكول التي اضرمها الهنود وراءهم ، صحارى شاسعة تكسوها الاعشاب الظليلة ، لتترك بعد حين المجال لسباسب لا حد لها تمتد مدى البصر . وباستثناء بعض المغامرين من رجال الكشف ، وبعض تجار الفراء ، كانت عملية الاستعمار والاستغلال تقوم على استثمار بعض الاحراج لما فيها من خشب للبناء او السفن .

في هذه الفلوات عاشت اقوام الهنود من عرق مغولي ، صفر الجلد نافرو الوجنات ، سود الشعر على نعومة عند الملمس . عددهم قليل لا يتجاوز ٤٠٠ الف كما هو مرجح بالنظر لنمط العيش الذي كانوا عليه يتأرجحون بين نصف بداوة ونصف حضر ، يعولون على نظام زراعي ، قوامه زراعة الذرة وقطاف الثمار البرية ، وصيد الوعول والغزلان وريم الفلا ، والمعز البري . وفي سبيل القنص والصيد كانوا يتخلون ، في فصلي الربيع والخريف عن قراهم الخشبية ليعيشوا تحت الخيام . نظامهم الاجتماعي فوضى ، اذ كانوا يؤلفون احلافاً جذورها واحدة تتوزع الى قبائل تجمعها العصبية . ولكل قبيلة مجلس اختيارية يضم رؤساء القبيلة وقواد الحرب . وقد الفت قبائل الايروكوا الضاربة الى الشرق من بحيرات ايريه واونتاريو مع قبائل الكريك في الاباما ، اتحادات فيما بينها ، ملاطها الضام مجلس من الساشم *Sachems*، الا انه لم يكن للاتحاد اي وسيلة للضغط على القبيلة ولا للقبيلة اي تأثير على الحلف ، ولا للحلف اي تأثير على الافراد . وكان في مقدور اي هندي ان يقوم مع زمرة من اصدقائه بعمليات غزو وسلب ، وهي

عمليات كثيراً ما اضطرتهم اليها وحملتهم عليها قلة الدراية وعدم المداراة . والمعاهدات كثيراً ما انتهكت . وكانت الحرب قائمة باستمرار بين الهنود وبينهم وبين الاوروبيين .

فقد كانت حروبهم ضد الاوروبيين تنتهي بالفشل والهزيمة فيضطرون للتراجع والانسحاب . فقد ثقفوا استعمال الاسلحة النارية الا انهم لم يستمرئوا قط مـا تم للبيض من تقنية زراعية . وقد عرف البيض كيف يستغلون رقعـة صغيرة من الارض تسهل عليهم حمايتها والدفاع عنها ويحصلون منها محصولا طيباً من المواد الغذائية تكفيهم مؤونة السنة بكاملها. اما الهنود فكانوا يحتاجون الى اراض شاسعة تسرح فيها الماشية المعدة للذبح . وكل تقـدم او تطور يحققه الاوروبيون كان يجر معه القضاء على القنص والصيد بما يضطر الهنود معه للانكفاء والتراجع الى الوراء تفادياً منهم لغائلة الموت جوعاً . وكان الهنود المتحدون فيما بينهم يستغلون مـا بين الهنود من انقسامات ، فيقيمونهم بعضاً على بعض . ومن سـوء حظ الهنود ان يكون العنصر الانكلوسكسوني هو العنصر الغلاب في اميركا الشمالية . فالفرنسيون عـاملوا الهنود بالحسنى ، وحاولوا تفهمهم والتفاهم معهم ، وتربيتهم وتمثيلهم . وقد سن الاسبان قوانين ترمي للحفاظ عليهم. اما الانكلوسكسون فقد كانوا هنا ، كما في كل محل آخر ، عرقيين بالفطرة ان لم يكونوا من حيث المبدأ . فقد حملوا كرهاً شديداً لسكان البلاد الاصليين ونزعوا دومـاً للقضاء عليهم . واذ كانوا على البروتستانتية فقد راحوا يبررون تصرفهم هذا منهم وسلوكهم وفقـاً لنصوص التوراة وآيات الكتاب المقدس : فالله قد اقطعهم هذه الارض . ولذا ترتب عليهم ان يعـاملوا سكان البلاد الاصليين كما عامل العبرانيون الكنعانيين في فلسطين .

المستعمرات الفرنسية

تألفت المستعمرات الفرنسية في اميركا الشمالية ، قبـل كل شيء ، من فرنسا الجديدة التي تشكلت اصلاً ، من كندا . وقد اقتطعت منهـا معاهدة اوتريخت ، قسما كبيراً ضم اكاديا وجزيرة الارض الجديدة وخليـج هدسون . وهكذا اقتصرت فرنسا الجديدة على العناصر الثلاثة التالية : اهمها وادي نهر السانت لوران الذي اخذ يكتظ بالسكان بسرعة كبيرة عن طريق التوالد والهجرة ، اذ ارتفع عددهم من ١٩٬٠٠٠ نسمة ، عـام ١٧١٤ ، الى ٦٦٬٠٠٠ ، عام ١٧٦٣ . وقد ألفوا من بينهم اشبه مـا يكون بـ « قرية » جبارة اعتمدت في معايشها على الزراعة وتربية الماشية . ولم يزد عدد السكان في مدينة كويبـك ، اذ ذاك ، على ٨٠٠٠ نسمة ، كما ان عدد سكان مونتريال بلغ ، في ذلك الحين ٤٥٠٠ نسمة . ثم يأتي ما سلم من اجزاء اكاديا القديمة : جزيرة سان — جان ، وجزيرة رأس بريطانيـا يعمل فيها من ١٠ — ١٢ الف معمر، واخيراً عدد من الارساليات التي يشرف عليها اليسوعيون وبعض المراكز التابعة لتجار الفراء ، وفقوا في اختيار مواقعها عند نقاط العبور والمخـاضات بحيث اصبحت اليوم مدناً كبيرة عامرة ، منهـا فرونتناك وليغارا وديترويت وصولت — سانت — ماري وماكينياك ، ولابوانت (دولوث) .

ولم يكن اهتمام فرنسا كبيراً بهذه البلدان ذات المحاصيل والمنتوجـات الطبيعية الشبيهة

بالمحاصيل الفرنسية من وجوه عدة ، باستثناء الفراء منها . ولم يكن ليرسو في مرفأ كويبك اكثر من ٣٠ سفينة طوال السنة بكاملها . وكان يمضي وقت طويل على الموظفين والجنود العاملين في هذه المستعمرة قبل ان يعودوا الى الوطن الأم . وكان عدد كبير بينهم يتزوج ويشتري له بعض الاراضي يعمل في احيائها واستثمارها . والسلطات الادارية كانت تحاول ، وهي في عزلتها ، الوصول حبياً الى قيام وضع من التفاهم بينها وبين السكان حيث ران على الجميع جو من التفاهم والمشاركة ، يشد من ازرهم كونهم جميعاً على الدين الكاثوليكي المتأصل منهم بفضل كهنة غيورين. وعلى هذا النحو ، نعمت فرنسا الجديدة بشيء من الاستقلال الاداري . وكان الحكام يمتدحون عالياً ما أنسوا بينهم من المحبة رائدة جميع السكان ، كما كانوا يثنون على ما هم عليه من دماثة الاخلاق ونمط العيش الرضي، وكثرة المواليد في العائلة، والقناعة وما هم عليه من طيب استعداد للتعاون ومن نشاط لا يعرف الملل .

اما في حوض نهر المسيسبي ، فقد كانت مقاطعة ألينوي او البلاد العليا مرتبطة ، منذ عام ١٧١٧ ، بمقاطعة لويزيانا التي كان يدير احوالها ، في بداية الأمر ، شركات تجارية ، ثم لم تلبث ان اصبحت ، منذ عام ١٧٣٣ ، مستعمرة ملكية . وقد تم استكشاف هذه البلاد وبُدىء باستثمارها على يد مرسلين وتجار هبطوا اليها من كندا . ولم يقم فيها سوى بعض قرى معزولة ، قليلة السكان ، منها شيكاغو وحصن سان لويس (بيوريا) وكاهوكيا وكسكاسيا وسانت جنفياف واورليان الجديدة (١٧١٨) . وقد تألف عدد السكان في مقاطعة ألينوى من ٤٠٠ من البيض ، ومن بضع مئات من ارقاء الزنج . وعدّت لويزيانا ٢٥٠٠ من البيض، و ٤٥٠٠ من الزنج العبيد . فالى جانب تجارة الفراء ، كانت مقاطعة ألينوى تغل القمح لتموين مقاطعة لويزيانا التي كانت تعطي بدورها الخشب والماشية والقطران الذي يصدّر لجزر الانتيل ، والأرُز والنيلة والتبغ يصدر للوطن الام . وكانت الحكومة الملكية والرأي العام يعلقان اهمية كبيرة على مقاطعة لويزيانا التي كانت تفتقر جذرياً للمعمرين .

وهكذا نرى ان الممتلكات الفرنسية ، في اميركا الشمالية ، ألـّفت لوحدها ، امبراطورية واسعة الاطراف ، قليلة السكان .

المستعمرات الانكليزية

شابهت المستعمرات الانكليزية ، المستعمرات الفرنسية من حيث تباعدها عن بعضها البعض وبما جاشت به من نزعة نحو الاستقلال الاداري . الا انها تميزت عنها بعدد اكبر من السكان ، وبانتاج أوفر وبحركة تجارية انشط بكثير ، وبالديانة الغالبة على الاهلين وهي البروتستانتية .

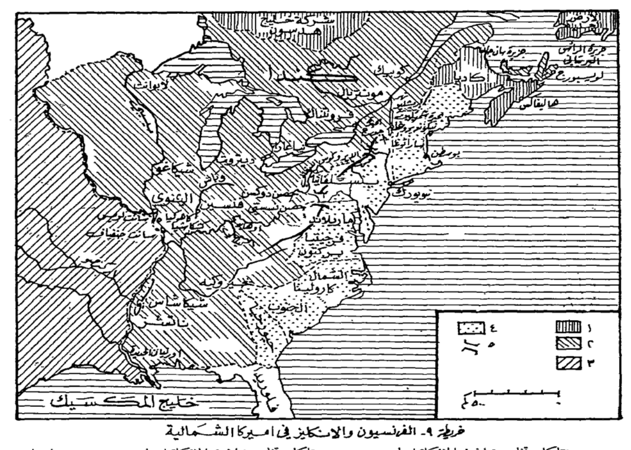
غذّى هذه المستعمرات حركة من الهجرة الواسعة . فقد بلغ عدد سكان هذه المستعمرات عام ١٧٠٠ نحواً من ٢٥٥،٠٠٠ نسمة ، ارتفع عددهم ، عام ١٧٦٣ ، الى ١،٦٤٠،٠٠٠ نسمة . فقد تكاثر عدد الزنج العبيد في الجنوب لتأمين اليد العاملة للمزدرعات . اما في الشمال ، فقد كان عددهم قليلاً ، حيث عملوا على الاخص في الاعمال المنزلية .

تنوع المستعمرات الانكليزية

تنوعت هذه المستعمرات كثيراً فيما بينها . فقد كانت كل واحدة منها مستقلة تماماً عن الأخرى ، وتقف الواحدة من الثانية موقف اللامبالاة ، ان لم نقل موقفاً معادياً . وكان بعضها يرفض شد أزر البعض الآخر في حالة قيام حرب ، وتفرض الواحدة رسوماً جمركية في وجه تجارة الاخرى . وكان يباعد احياناً بين الواحدة والاخرى مسافات شاسعة وصعوبة المواصلات مما يعرض الركاب والمسافرين للمخاطر . فالمسافة بين مقاطعة ماين ، في الشمال وجيورجيا في الجنوب ، تبلغ ٢٠٠٠ كيلومتر ، اي المسافة القائمة بين باريس ومدريد . فالطرقات والكباري والبحيرات كانت نادرة ، وكان التقدم الى الامام يتم ببطء كلي على هذه الممرات الضيقة والشعاب القائمة بين الغابات الظليلة ، حيث لا معالم غير ضربة فأس على جذوع الشجر ، يرى المسافر نفسه مهدداً بخطر الضياع او الغرق في النهر او البحيرة ، او التخبط في المستنقعات . ان خبر اعلان استقلال الولايات المتحدة ، عام ١٧٧٦ اقتضى له ٢٩ يوماً ليصل من فيلادلفيا الى شارلستن ، وهي ذات المسافة التي يقطعها المسافر بين فيلادلفيا وباريس .

واختلفت بما باعد بينها من فوارق طبيعية وانماط المعيشة وغير ذلك من المنافع والمصالح والمشارب والتقاليد والاعراف . فالجنوب الذي تألف من مقاطعات ماريلاند وفرجينيا وكارولينا ، ثم من جيورجيا ، فيما بعد ، بلغ عدد سكانه ، عام ١٧٠٠ ، نحواً من ١٠٨،٠٠٠ ، فاذا بهذا العدد يرتفع عام ١٧٦٣ ، الى ٧٣٥،٠٠٠ ، بينهم ٢٨١،٠٠٠ من الزنوج ، وتوزع على الاجال ، الى ممتلكات واسعة بلغت احياناً ٢٠٠٠ هكتار في كارولينا الجنوبية وجيورجيا ، كما بلغت احدى هذه الممتلكات ، في فرجينيا ٧٠،٠٠٠ هكتار . اما زراعاتهم فقامت على اساس تجاري ضمت : التبغ في ماريلاند وفرجينيا ، والأرز والنيلة في كارولينا الجنوبية وجيورجيا ، والتبغ والارز وتربية الماشية والخشب في كارولينا الشمالية . وتصرف المزارعون تصرف الاسياد المستبدين في مزدرعاتهم ، كانت تحت امرتهم قوة من المليشيا ويقضون بين الناس كحكام صلح ، ويصوتون على مشاريع القوانين كنواب . فقد كانوا اجمالاً على جانب لائق من الثقافة ، من خريجي الجامعات الانكليزية ، فانشأوا لهم في منازلهم مكتبات عامرة .

اما في الشمال او انكلترا الجديدة (نيوهمشير ، ماساتشوستس — ماين وروود ايلاندو كونكتكيت) الذي عدّ ٩٤،٠٠٠ نسمة عام ١٧٠٠ ثم ارتفع هذا العدد ، عام ١٧٦٣ ، الى ٧٩٥،٠٠٠ نسمة بينهم ١٧،٠٠٠ من الزنوج ، عام ١٧٦٣ ، فقد قامت فيه مجتمعات صغيرة ضمت كل منها عدداً من صغار الملاكين . فقد عوّلوا في معايشهم على زراعات مختلفة كالذرة والقمح والخضروات وحدائق التفاح وتربية الماشية . وقد تعهدوا بشرفهم الا يشتروا اية كمية من الخارج ، مهما صَغرت . حملهم فقر التربة عندهم على الاخذ بأسباب الصناعة والتجارة فتوزعت نشاطاتهم بين السفن المعدة للتصدير الى انكلترا ناقلة اليها الخشب والسمك ، واللحوم المقددة ، نقل المواد



خريطة ٩ - الفرنسيون والانكليز في اميركا الشمالية

١ - ممتلكات تخلت عنها فرنسا لانكلترا عام ١٧١٤ ، ٢ - ممتلكات تخلت عنها فرنسا لانكلترا عام ١٧٦٣ ، ٣ - ممتلكات تخلت عنها فرنسا لاسبانيا عام ١٧٦٣ ، ٤ - مستعمرات انكليزية ، ٥ - ممرات ومواصلات بين الشرق والغرب .

المصنوعة في انكلترا ، الى جزر الانتيل ، واستيراد عصير الدبس وثفالة القصب من هذه الجزر ومن المقاطعات الجنوبية ، فيخضعونه لعمليات تخمير معقدة لصنع مشروب الروم الذي تجري مبادلته في الغينيه بالزنوج الذين يباعون عبيداً أرقــاء في الجنوب وفي الانتيل . وكان معظم السكان في هذه المقاطعة على مذهب البيورتين المغالين في العقيدة والمتعصبين ، الذين عُرف عنهم انهم لا يصنعون جِعتهم نهار السبت لئلا تختمر يوم الاحد . اما التعليم عندهم فكان الزامياً بحيث يستطيع المرء قراءة التوراة ، مع ان عدداً كبيراً يكاد لا يعرف ان يوقع امضاءه. ومع ذلك، فقد قامت جامعة لهم ، في هارفرد (١٦٣٦) ، وبعــد ذلك جامعة اخرى في يال . وكان الجدل السياسي ضارباً أطنابه بين الجامعات ، والقساوسة يجيشون بينهم بأفكار راديكالية ، هذه الافكار التي قال بهـا وعلم كل من لوك ومونتسكيو وبلاكستون الذين قام لهم في وسط الجماعة تلاميذ ومريدون نشيطون . وكانت مدينة بوسطن الــتي بلغ عدد سكانها اذ ذاك ، ٢٠،٠٠٠ نسمة ، مركزاً فكرياً وثقافياً هاماً .

اما القسم الأوسط من هذه المستعمرات ، فقد تألف من نيويورك ونيوجرسي وبنسلفانيا وديلاوير . وبلغ عدد السكان في هــذه المقاطعات ٥٣،٠٠ ، عام ١٧٠٠ وهو عدد ارتفع عام ١٧٦٣ ،الى ٤١٠،٠٠٠ ،بينهم ٢٩،٠٠٠ من الزنوج . وقد حاز الملاكون ممتلكات من جميع المقاييس كما ان السكان كانوا خليطـاً من جميع الشعوب والمذاهب ، حيث ألف الانكليز أقلية نعمت بالتسامح الديني . اما المدن الرئيسية في هذه المنطقة فأهمها نيويورك حيث كانت تسرح الخنازير وتمرح ، وفيلادلفيا التي كانت أكبر مدينة اذ ذاك ، في اميركا الشمالية والــتي امتازت بشوارعها وانتظام مساكنها . وهــذه المنطقة التي نشطت فيها الصناعات الخشبية واشتهرت بمحاصيل الحبوب ولا سيما القمح والطحين وتنظيم رحلات قوافل السفن باتجاه جزر الانتيل وأوروبا الجنوبية ، ازدهرت فيها الاعمال التجارية على اختلافها .

وحدة هذه المستعمرات

جمعت بين هذه المستعمرات مصالح مشاركة متماثلة ، فقــد تشابهت من وجهة وحدة الرأي العام بحيث استطاعت الصمود في وجه الحكومة الانكليزية فيما بينها . فقد تنوعت اوضاعها وتوزعت الى ثلاثة اشكال او ثلاثة اوضاع استعمارية مختلفة ، هي : مستعمرات ملكية ، ومستعمرات اقطاعية لبعض كبــار الملاكين (ماريلاند وبنسلفانيا) ، ومستعمرات اعترفت براءات ملكية خاصة بملكية بعض الشركات لها (كونكتيكت وورود-ايلاند) ، وعاشت كلها في ظل نظام تمثيلي بورجوازي ، اذ كانت تنتخب لهــا هيئات من ممثلين يقومون بالتصويت والاقتراع على مشاريع القوانين المعروضة . واحتفظت كل منها بحق الانتخاب للملاكين الموسرين ممن تتوفر فيهم شروط دينية خاصة . اما عدد الناخبين فيها فكان يتراوح بين ٨ – ٩ ٪ حتى ان عددهم في ماستشوستس وكونكتيكت لم يكن ليتجاوز ٢٪ وهنالك مجلس اعلى مشارك مكلف بالتصويت على مشاريع القوانين لدى القراءة الثانية ، وحاكم عام يسهر على تنفيذ هذه القوانين بعد اقرارها .

تمركزت القضايا السياسية في مقاطعتي كونكتيكت وورود-ايلاند حول استياء الذين حُرموا من حق التصويت وحردهم . تمتعت هـذه المستعمرات باستقلالها الاداري الواسع : فممثلو الشعب يقترعون بكل حرية ، على مشاريع القوانين ، ويختارون مجالسهم الخاصة وحاكمهم . اما في ماريلاند وبنسلفانيا فالمشكلة تمركزت حول المجلس والحاكم اللذين كان يقوم باختيارهما وتعيينهما ، اصحاب الاملاك اذ ان القوانين لم تكن خاضعة لحق الفيتو . امـا في المستعمرات الملكية الثمان ، فالممرون كانوا في نزاع دائم مع المجلس والحاكم والملك . فالحاكم كان له حق الفيتو او حق رفض القوانين ، وفي حال اقراره لها، لم تكن قابلة التنفيذ الا بعد مصادقة المجلس الخاص لها . فالممرون يعتبرون انفسهم انهم اخبر الناس بنوع القوانين التي تصلح لهم ، فكانوا يفرضون ارادتهم على الحاكم ، بتهديدهم له الامتناع عن فرض الرسوم والضرائب التي يستدعيها الدفاع والادارة او اقرار الرسوم التي تتعلق بمرتبه ، مـع ان معـدل القوانين التي كان يلغيها لم يكن يتعدى ٥،٥ ٪ . ولذا اخذوا يطالبون بالغاء كل حق بالمراقبة ، والتمتع بحقوق السلطة التشريعية كاملة .

ومن جهة ثانية فقد أُخضعَت هذه المستعمرات لنظام الاستثناءات . فأخذ مكتب الزراعة والتجارة على عاتقه تحديد نمط الحياة الاقتصادية بتوجيهاته وارشاداته التي تستحيل فيما بعـد قرارات واحكاماً يصدرها الوزير او مجلس الملك . ان عدداً كبيراً من محاصيل المستعمرات لم يكن يسمح بتصديره الا لانكلـترا أو الى مستعمرات انكليزية أخرى ، وعلى المعمرين الذين يلسوقون من مستعمرة انكليزية ان يدفعوا رسماً اضافياً هو رسم الإستيراد ، والا كان عليهم ان يذهبوا من نيويورك الى لندن ليحصلوا على أرُز ولاية كارولينا . وقد أُستثني من هـذا التدبير ارز كارولينا منذ سنة ١٧٣٠ ، اذ أبيح تصديره رأساً الى البرتغال أو الى اسبانيا . ولا يُسمح باستيراد أية بضاعة او سلعة اجنبية الى المستعمرات ما لم تُشحن الى احد موانىء انكلترا ثم تشحن من جديد الى المستعمرة المستوردة . وفي سنة ١٧٣٣ ، صدر قانون جديد فرض على دبس القصب الاجنبي وثفالته رسوماً مانعة أو رادعة بينما استيراد القصب من جزر الانتيـل لم يكن يفي بالحاجة ، فلا بد والحالة هذه ، من الاعتماد على دبس وعصير جزر الانتيل الفرنسية لصنع مشروب الروم ، الذي كان بمثابة النقد اللازم للمقايضة في اسواق النخاسة . والصناعات على اختلافها اخذت تتطور في الاقسام الوسطى والشمالية من البلاد ، منهـا صناعة النسيج والحياكة ، وقبعات الكستور والحديد الخام ، وكلها مواد استطاعت ، منذ عام ١٧٥١ ، ان تدخل الى انكلترا ، بينما تصدير الغزول والانسجة والقبعات كان محظوراً . وحظر القانون الصادر عـام ١٧٥٠ ، على المستعمرات انشاء اي معمل او مصنع للتصفيح او اي مسبك او اي معمل حدادة او معمل نشارة . « فاذا ما خطر لاميركا ان تصنع عـلى ارضها مسماراً واحداً لكانت انكلترا تشعرها في الحال وتتدخل في الأمر بكل ثقلها وبطشها». ولذا كان الاميركيون في غاية الاستياء من هذه التدابير التعسفية ، ولا سيا من كان منهم في الوسط او في الشمال لان

الامر يعنيهم مباشرة . فقد كانوا مستائين اكثر منهم متضررين ، لان بعد اعلان هـــذا المبدأ عاليا ، وتأكيد وجوب التقيد به كانت الحكومة البريطانية كثيراً ما تغض النظر عن المخالفات، وعن اعمال التهريب التي نشطت في هذا المجال . وقد حرصت على الأخص ، ان يفيد المعمرون ، على نطاق واسع ، من النظـــام الاقتصادي البريطاني ، هذا النظام الذي هـــدف الى افراغ الامبراطورية الانكليزية في وحـــدة تكفي نفسها بنفسها ، اذ كان يترتب على كل عضو او جزء من اعضاء هذه الامبراطورية وأجزائها ان يعطي او ينتج ما هو مهيء بالأكثر لانتاجه . وكانت الدولة تدفع مكافآت لرجـــال الصناعة عن كثير من الاصناف التي يصنعونها او يصدرونها الى المستعمرات . وكان سعرها يخفض للمستهلكين فيها . فألف هذا التدبير بحد ذاته ، عملية تسليف واعتبر بمثابة توفير رأس مـــال . وهكذا كانت منتوجات المستعمرات موضوع احتكار في الاسواق التجارية البريطانيـــة . فالمستهلك الانكليزي كان ملزمـــاً بتدخين التبغ الاميركي واستهلاك السكر الذي تلتجه المستعمرات ، وان يستعمل القير او الزفت الذي تصدره ، وكان يدفع غاليا اثمان هذه السلع لعدم وجود منافس لها. فقانون الملاحة كان في مصلحة بناة السفن في انكلترا الجديدة اكثر منه لبناة السفن في انكلترا ، مع انهم كانوا يبتاعون الخشب فيها بأسعار مرتفعة . فالتقييدات الـــتي نص عليها قانون عام ١٧٥٠ جاءت مقابل السماح بادخال عتلات الحديد الاميركي الى البلاد معفاة من كل رسم ، بينما الحديد الاسوجي كانت تفرض عليـــه رسوم عالية منفّرة . ولذا فهيجان الرأي العام الاميركي وتذمره ليس ما يبرره او يزكيه . فقد قـــام على اساس من عدم تفهم الامور على وجهها الصحيح وعلى جانب كبير من حب الذات والاعتداد القومي والفردية الشخصية .

وهذه المشكلات السياسية والقضايا الاقتصادية التي نشبت بـــين انكلترا ومستعمراتها الاميركية طبعتها نزعة ظاهرة تركزت حول تأمين وحدة المستعمرات ، كما حملت في طياتها وبين ثناياها بذور الانفصال عنها. وزادت هذه الامور حدة خلال القرن مع التطور الاقتصادي الذي اخذت المستعمرات بأسبابه ، ومع النجاح العظيم الذي حققته في الداخـــل ، والصمود في وجه الفرنسيين في هذا النزاع الحاد الذي نشب بين الجانبين المتجاورين .

حركة الاسكان في المستعمرات حتى سنة ١٧٦٣

أهلت المستعمرات الاميركية بسرعة وعمرت بالسكان ، قبل عام ١٧٦٣ ، وذلـــك بفضل ما انهال عليها من سيل لا ينقطع مـــن المهاجرين الاوروبيين بعد ان اجتذبتهم اخبار الازدهـــار المـــادي الذي ينعم به الاهلـــون ، واغراهم رخص ثمن الاراضي وقلة تكاليف الحياة ، وارتفاع اجور العمال ، وسهولة الانضمام الى الطائفة الدينية التي يرغب بالانضواء اليها من قـــال بمقالتها . فقد جاؤوا بأعداد قليلة من انكلترا نفسها، وبأعداد أضخم من مقاطعة الاولستر إثر نزوح السكوتلانديين من ابناء الكنيسة المشيخية ، وتركهم البلاد بعد استفحال ازمة النسيج الحادة التي نشبت اثر صدور القوانين الخاصة بحماية التجارة . كذلك جاءت اعداد كثيفة من المانيا الرينانية حيـــث

جعلت الاضطهادات الدينية ، والحروب والنظام الاقطاعي المسيطر على البلاد ، الحياة صعبة قاسية ، والعيش عسيراً في وجه عدد كبير من الفلاحين . وقامت في نواح عديدة مكاتب تجميع عهدت الى دعاة جهزتهم ببيانات جذّابة ، مغرية ، حركت في قلوب الناس الشوق الى الاغتراب والهجرة . الا انه كان لا بد للراغبين في النزوح والسفر ان تتوفر لهم نفقات الطريق ورأس مال صغير يساعدهم على السكن والاستقرار بعد وصولهم سالمين الى حيث يقصدون . فالفقراء المعدمون منهم وقّعوا تعهدات اشترطت عليهم شروطاً معينة قبلوا بها وتعهدوا بالنزول عند مقتضياتها . فكان قبطان السفينة التي تنقلهم يودعهم عند وصولهم الى الشواطىء الاميركية ، في نزل خاص ، فيأتي المعمر الراغب في الحصول على اليد العاملة ويدفع للقبطان مبلغاً من المال يزيد مرتين او ثلاث مرات على تكاليف السفر ، ثمناً للعامل الذي وقع عليه الاختيار . فكان هذا يتعهد له بالعمل في خدمته ثلاث او خمس سنوات ، يتلقى عند انتهاء اجل العقد من رب العمل ، الالبسة والادوات والعدد اللازمة وحيوانات الجر ومبلغاً من المال بحيث يتمكن من ان يعمل لحسابه الخاص معتمداً على نفسه ونشاطه . وهكذا ، بالرغم من رحلة شاقة تستغرق بضعة اسابيع او عدة اشهر ، يعتبر المسافر نفسه محظوظاً ، الى حد بعيد اذا لم تقع عينه في النهار على اكثر من جثتين او ثلاث يقذف بها البحارة الى اليم ، ممن يموتون على ظهر السفينة ، اثناء الرحلة لكثرة ما كانت تغص به من الركاب . اضف الى هذا السيل الجارف ، عدداً من المبعدين او المنفيين يجري ابعادهم الى المستعمرات ، بلغ عددهم ٥٠ الفاً بين ١٧١٧ – ١٧٧٩ ، حكم عليهم بالاشغال الشاقة مدة سبع سنوات ، بينهم بعض رجال السياسة الذين رؤي التخلص من مضايقاتهم ، وبعض المحكوم عليهم بجنح من قبل القضاء الذي كان يأخذ الناس بالشدة ، فاذا بهم بعد لأي من الزمن يصبحون من اقوَم المواطنين واصلحهم اخلاقاً ونشاطاً للعمل في البلاد .

وعند انتهاء أجل عقود هؤلاء النازحين عن ديارهم ، والتحرر من ارتباطاتهم ، كان كثيرون منهم يتجهون غرباً سعياً وراء اراض حرة تباع لهم بابخس الاسعار أو يستملكونها بمجرد وضع اليد ، يسيرون في خطى تجار الفراء . ومعظم هؤلاء الرواد من السكوتلانديين ، يبنون لهم اكواخاً من جذوع الشجر ، يعزقون الارض ويحيونها ثم يزرعونها ناهجين في عيشهم نهج الهنود يقتاتون من بعض نتاج الارض مما يزرعون او مما يقعون عليه من صيد او قنص ، ثم لا يلبثون ان يتخلوا عن ارضهم لراغب فيها طارىء ، وينزحون هم الى ابعد ، باتجاه الغرب . وكثيراً ما حل محلهم أسر ومعمرون احسن عدة وعتاداً ، معظمهم من الألمان ، فلا تمر ان ترتفع في الأرض الحدائق والمغروسات وتنشأ فيها المزارع ، وتأخذ رقاع الغابات بالتقلص والضمور حتى تصبح معالمها واحة أو جزيرة في السهل المنبسط على مدى البصر . وعندما تعترض سيرهم مساقط المياه والشلالات يتحول هؤلاء الرواد الى بنسلفانيا ويتغلغلون بين ثناياها ويهبطون أودية الابالاش ويقيمون لهم المنازل في رؤوس الوديان في فرجينيا او كارولينا . وهكذا قامت انشاءات على

الاراضي المرتفعة كما قام منها العديد على السواحل ، في هذا الغرب الديموقراطي ، حيث الرجل الموفور الكرامة الذي يتمتع بالشهرة الواسعة والجاه العريض ، هو من يقطع بفأسه اكثر من غيره من الاشجار في سبيل « احياء الارض وتعميرها » ، والذي كان في مقدوره ان يسلخ جلدة رأس عدد من الهنود ، بعكس المنطقة الشرقية التي كانت بورجوازية .

فمنذ سنة ١٧٣٠ راح المزارعون على سواحل فرجينيامن عائلات لي *Lee* وواشنطون ينشؤون لهم شركة واستحصلوا على ارض مساحتها ٢٠٠،٠٠٠ ايكر (٨٠،٠٠٠ هكتار) في وادي اوهايو ، لتوطين بعض المعمرين هنالك . وفي سنة ١٧٤٩ ، وعدت سلطات فرجينيا شركة اخرى باسم شركة : لويال لاند ، بان تضع تحت تصرفها اراضي مساحتها ٨٠٠،٠٠٠ ايكر (٣٢٣٠٠٠ هكتار) تقع الى الغرب من جبال ألليغاني .

في هذه الحركة من التوسع والانتشار يقوم بها تجار الفراء والرواد المستكشفون واصحاب رؤوس الاموال ، اصطدم هؤلاء بالهنود والاسبان والفرنسيين. فقد قام بينهم وبين الهنود صراع دائم كانت معه المستعمرات تقدم مكافأة لمن يأتي برأس هندي . ووقعت بالفعل حروب دامية كالتي اصطلى بنارها اقوام تشيروكي في جيورجيا او تلك التي وقعت في ولايتي كارولينا الشمالية والجنوبية ، سنة ١٧٥٩ و ١٧٦١ . ونال جيمس أوغلثورب ، عام ١٧٣٢ امتيازاً بانشاء مستعمرة له في جيورجيا الى الجنوب من سفانا مزاحمة منه للاسبان في فلوريدا، مما أدى الى سلسلة من الغزوات والاصطدامات بينهم وبين الاميركيين اضطر معها الاسبان للتنازل عن فلوريدا للانكليز ، عام ١٧٦٣ . ولكن النزاع الطويل هو الذي قام بين الانكليز وبين الفرنسيين .

النزاع بين الفرنسيين والانكليز

ضربت المستعمرات الفرنسية نطاقاً محكماً حول المستعمرات الانكليزية ، واصبح الفرنسيون ، بعد عام ١٧١٥ ، في وضع يسيطرون معه على تجارة الفراء . فالتجار والمعمرون الانكليز هم الذين باشروا الحرب اولاً ثم جروا اليها الهنود واخيراً ارغموا الحكومات على الدخول فيها والانغماس في ميدانها على غير رضىً منها تقريباً .

بالرغم من معاهدة اوتريخت احتفظ الفرنسيون بتفوقهم في تجارة الفراء ، بفضل رحّاليهم وروادهم المستكشفين. فالرحلات التي قام بها فيرندري ، باتجاه الشمال الغربي ، اتاحت له الاتصال المباشر بالقبائل التي تقوم بعملية الصيد وتمكنوا من تحويل تجارة الفراء نحو مونتريال. والرحلات الاستكشافية التي قام بها سان – دنيس ، بين ١٧١٤ – ١٧١٧ ، فاجتاز معها مقاطعة التكساس وبلغ منها نهر الريو غرانده ، والرحلات الاخرى التي قام بها لاهارب، فصعّد بعيداً في النهر الاحمر (١٧١٩ – ١٧٢٠) والاركنصو (١٧٢٢) ، وهذه الرحلات الاخرى التي قام بها بورمون ، فمكنته من استكشاف الكنصاس (١٧٢٣) ، وعمليات الاستكشاف التي قام بها الأخوة ماليه اللذان انطلقا من نهر ميسوري واجتازا نبراسكا والكنصاس والكولورادو (١٧٣٩) ، كل

هذه الرحلات وعمليات الاستكشاف الواسعة النطاق التي رافقتها ، ساعدت على ازدهار تجارة الفراء في اورليان الجديدة . وبفضل تفوق المواصلات البرية ، تم السبق للتجــار الفرنسيين على التجار الاميركيين في ألباني ونيويورك ، مع ان هؤلاء كانوا يحصلون على البضائـــع الانكليزية بشروط ٥٠٪ افضل ويستخدمون نهر الهدسون الذي كان حراً من الجليد طوال السنة. ومن جهة اخرى ، وبالرغم من البند الخامس عشر من معـــاهدة اوتريخت التي اعطت الجنسية الانكليزية لاقوام الايروكوا ، انتشر الكنديون في المقاطعات الواقعة الى الجنوب من بحيرات اونتـــاريو وايريه وسان – لوران ، باتجاه خط مقسم المياه بين البحيرات الكبرى والمحيط الاطلسي .وقد اصطدم الرواد البروتستانت القادمون من انكلترا الجديدة في تقدمهم ، بالكنديين الكاثوليك ، فنظروا اليهم نظرة العبرانيين الى العمالقة والمديانيين المستوجبين عندهم للذبح والافناء ، كالهنود مثلاً بمثل .

ولذا نشبت الحرب بين الجانبين واحتدمت بينهم بالرغم من رغبة الحكومتين بالمحافظة على السلام . ونال التجار الانكليز ، عام ١٧٢٧ ، من قبائل الايروكوا ، السماح لهم بانشاء حصن في أوسويغو على بحيرة اونتاريو ، ومنه اخذوا ينطلقون غرباً ويشمون عن طريق الاوهايو . ولكي يوقفهم الفرنسيون عنـــد حدهم ويحولوا دون تقدمهم ، راح الفرنسيون يبنون حصن فنسين على نهر الواباش ، كما راح تجار نيويورك وبنسلفانيا ، ينقلون عن طريــق الايروكوا ، الاسلحة الى اقوام الرينار في مقـاطعة الفسكنسين والألينوى وحرضوهم على الحرب ضد الفرنسيين ، وهي حرب استمرت حتى سنة ١٧٣٠ . وتقدم تجار كاروليـنـــا حتى الاركنصو ، وحرضوا عام ١٧٢٩ ، قبائل الناتشز على الثورة ضد الفرنسيين . كذلك عملوا على تسليح اقوام شيكاشا وعلى تنظيمهم وتدريبهم ، ثم دفعوا بهم ، عام ١٧٣٦ ، الى مهاجمة القوافل الفرنسية التي كانت تسير ونهر المسيسبي .

واثناء حرب خلافة النمسا ، احتل المتطوعة الانكليز ، في انكلترا الجديــــدة ، مدينة لويسبورغ (١٧٤٥) التي اعادتها الحكومة الانكليزية ، الى الفرنسيين مقابل مدينة مدراس ، في الهنـــد ، مما اثار حفيظة سكان بوسطن واحتجاجاتهم . وكان الانكليز خـــلال الحرب مسيطرين على البحار ، فلم يصل الفرنسيين سوى النزر النزير من البضائع، كما ان اسعار الحاجيات والسلع على اختلافها ارتفعت كثيراً بحيث بلغت ١٥٠٪ ،واستطاع تجار بنسلفانيا ان يكسبوا، الى جانبهم ، القبائل الهندية وان يؤسسوا لهـــم مدينة لُغتاون ، الى الجنوب من بتسبورغ ، وحصن بيكاولاّني ، الى الجنوب الغربي من بحيرة ايريه اللذين اصبحا مركزين هامين للتجارة في تلك النواحي .

فالصلح الذي عُقِد عام ١٧٤٨ ، في اكس لا شابيل ، لم يغير شيئاً ولم يوقف شيئاً .وحافظ التجار الانكليز على مواقفهم . واستمر آل واشنطون وآل لي *Lee* ، في محاولاتهم ومشاريعهم

الاستثمارية لوادي الأوهايو ، وراح انكلوسكسون هاليفكس التي انشئت عام ١٧٤٠ يهاجمون دونما نتيجة ، سكان اكاديا، عام ١٧٥٠ . وبتحريض من حاكم بوسطن راح المعمرون الانكليز، في انكلترا الجديدة ، يتقدمون من خط مقسم المياه حيث اصطدموا بخطوط الدفاع الكندية وراحوا يتحصنون في مراكزهم الامامية .

وقد اوجس الحاكم الفرنسي في كندا السيد لاغارسونيير خيفة من ان تنقطع اتصالات فرنسا الجديدة مع مقاطعة لويزيانا. فجرد حملة فرنسية استرجعت الاوهايو، ودكت عام ١٧٥٢، حصن بيكاولاني . وراح خلفه الحاكم دوكسن ينشيء خطاً من القلاع والحصون ، تأميناً لوصل كندا بالاوهايو . وفي سنة ١٧٥٣ ، دفع المعمرون في فرجينيا ، الحاكم على انشاء حصن لهم في الموقع الذي تقوم عليه مدينة بتسبورغ ،عند تشعب نهر الاوهايو الملقب : «الباب الى الغرب » . فاستولى عليه الكنديون ودكوه الى الارض وبنوا مكانه حصناً كبيراً باسم دوكسن واذ ذاك ، انفذ حاكم فرجينيا كتيبة من المشاة بقيادة احد كبار المساهمين بشركة الاوهايو ، هو جورج واشنطون . وفي ظروف غامضة ، مبهمة ، وقع قتيلاً قائد الكتيبة الفرنسية جومونفيل الذي كان متوجها بصفته مندوباً ممثلاً لحكومته . واضطر واشنطون للالتجاء الى قلعة ارتجل بناءها عرفت باسم « الحصن المرتجل » ، واستطاع الفرنسيون من ارغامه على الاستسلام بعد ذلك بقليل في ٢٠ تموز ١٧٥٤ .

اجتمع ممثلو المعمرين الانكليز في مدينة الباني ، في شهر حزيران ، الا انهم لم يتوصلوا الى اتفاق فيما بينهم . ولذا قرروا الاتصال بالبلد الام . وفي تلك الاثناء انهزم الجيش الانكليزي وجيش الميليشيا التابع لفرجينيا ، شر هزيمة امام حصن دوكسن ، وفي ٩ تموز ١٧٥٥ ، وبفضل هذا النصر عاد الهنود الى تحالفهم مع الفرنسيين . وراح جيش فرنسي يسير باتجاه الباني ونيويورك ، متبعاً في سيره الوادي الجليدي التكوين الكبير الذي يسير فيه مجرى نهر ريشليو ، والذي تقع فيه بحيرتا تشامبلين وجورج ، الا انه انهزم عند بحيرة جورج ونجح من جهة ثانية ، الهجوم الذي شنته مليشيا بوسطن على اكاديا . وحدث من جراء ذلك ان تم ابعاد سبعة آلاف من سكان اكاديا الكاثوليك ، وبذلك حيل بين الابناء ووالديهم ، والازواج وزوجاتهم، كما تعرضت النساء للضرب العنيف ومات تحت الضرب عدد منهن . ومن اصل هؤلاء الآلاف السبعة قضى اربعة منهم فريسة البؤس والعناء وتمكن ثلاثة آلاف آخرون من الافلات والفرار والنجاة بانفسهم ، واستهدف بعضهم لسلخ جلدة رؤوسهم اذا ما شاء نكد طالعهم وحظهم العاثر ان يقعوا من جديد في قبضة الانكليز . واحرقت القرى والدساكر ليزيدوا من شقاء الفارين وهلعهم . وصودرت املاكهم واراضيهم ووزعت بين معمرين اميركيين . « وهكذا راح هذا الشعب الشهيد فريسة قوة طاغية اظهرت من الفظاظة والفظاعة وعدم الحياء ما لا يختلف بشيء عما تضرست به اوروبا وراحت فريسة له في تلك الآونة» .

ومع هذا كله ، كانت فرنسا وانكلترا لا تزالان رسمياً بحالة سلم . الا ان مهاجمة الاميرال

الانكليزي بوسكوين ، في حزيران ١٧٥٥ ، بدون سابق اعـلان حرب ، لقافلة من السفن الفرنسية ، في طريقها الى كندا ، ثم مهاجمة كل السفن الفرنسية ، في تشرين الثاني ، افضى الى حرب مكشوفة بين الدولتين ، في كانون الثاني ١٧٥٦ . واذ كانت الحكومة الفرنسية منهمكة في الحرب القائمة اذ ذاك ، على القارة الاوروبية ، المعروفة بحرب السنوات السبع ، فقد اهملت شؤون كندا . وعندما راح مندوب فرنسيي كندا يطلب ، عـام ١٧٥٩ ، امدادات ليقوي من موقفهم الصعب في الحرب ، رد عليه وزير المستعمرات قائلاً : « عندما تكون النار عنـد ابواب منزلك ، يا سيدي ، فلا يعود من الجائز التفكير بالاصطبلات» . اما التفكير الانكليزي فكان على عكس ذلك تماماً . اذ تصبح حرب المستعمرات في نظرهم ، هي الساحـة الاولى والمجال الرئيسي لها ، وتمسي مشروعاً قومياً وصليبية مقدسة .

ومع ذلك ، وصل في شهر مايو ١٧٥٦ ، القائد الجديد للقوات الفرنسية ، هـو المركيز دي مونكالم الذي عُرف بروحه المرحة ، وبُعد تفكيره ، ونشاطه وشجاعته ، وعرف بالتسعة آلاف من الجيش النظامي الفرنسي وبقبضة من جنـود المليشيا وبعض الهنود ، ان ينظم صفوفه وان يصمد في وجه القوات الانكليزية التي كانت تفوق قواته كثيراً ، والتي كانت تتلقى الامدادات باستمرار اذ وصلها ١٢٠٠٠ عام ١٧٥٧ ، و١٤٠٠٠ عام ١٧٥٨ ، و٩٠٠٠ ، عام ١٧٥٩ ، عدا عن جيش المليشيا العامل في المستعمرات الانكليزية الذي يزيد على مجموع هـذه القوى بكثير . فراح مونكالم يؤمن ، قبل كل شيء ، سلامة وادي الاوهايو ، باستيلائه على حصن اوسويغو ، في آب ١٧٥٦ . وفي سنة ١٧٥٧ ، امّن طريق مونتريال باستيلائه على حصن وليم ـ هنري الواقع عند بحـيرة جورج . وفي سنة ١٧٥٨ ، راح الانكليز يستغلون تفوقهم العددي الساحق ، فبادروا للهجوم من ثلاث نقاط ، في وقت واحد . فقد فشل سيرهم رأساً ضـد مونتريال ، اذ استطاع مونكالم ، بقوات ٦ مرات اقل ، ان يلحق بهم الهزيـة الى الجنوب من بحيرة تشمبلين ، عند حصن تيكونديروغا . الا انهم استولوا على حصن فرونتناك وحصن دوكسن وبذلك تمكنوا من فصل كندا عن مقاطعة لويزيانا ، كما فصلوهـا تقريبـاً عن فرنسا الجديدة باستيلائهم على لويسبورغ . واخذت قوى الجيش الفرنسي بالتناقص والانخفاض. وفي سنة ١٧٥٩ ، قام الانكليز بهجوم مركز على كويبك ومونتريال ، مستخدمين لانجـاحه بحيرة اونتاريو ونهر ريشليو ومصب نهر سان لوران . فالطوابير المهاجمة من الجنوب اخفقت في تحقيق اهدافها بالرغم من احتلالها حصون تريكوندوغا ونياغارا . والعـمارة الانكليزية في سان لوران ، فشلت هي الاخرى ، في بدء الامر ، في مهاجمتها لخطوط الدفاع القائمة الى الجنوب من كويبك . الا ان القائد البريطاني وولف المعروف بعناده ، قـام بمناورة جريئة رائعة ، اذ نقل قوة انكليزية عبر النهر ، كما انزل قوات اخرى الى الشمال من المدينة ، ودار في ١٣ ايلول قتال عنيف بين الفريقين ، قتل فيه كل من القائدين : وولف ومونكالم ، الا ان الانكليز بقوا مسيطرين على الوضـع . وهكذا اضطرت كويبك للاستسلام في ١٨ ايـلول ١٧٥٩ . وتمكن

الشفاليه دي لفيس من الصمود سنة ثانية ، وانتصر في نيسان عام ١٧٦٠ ، على الانكليز عند ابواب كويبك . الا ان الامدادات لم تصله من فرنسا ، فراحت ثلاثة جيوش انكليزية ، تضرب الحصار حول مونتريال ، فاضطرت المدينة للاستسلام في ايلول ١٧٦٠ ، لحاجة المدافعين للاعتدة الحربية والمؤن والقوى اللازمة لمتابعة الحرب . وبموجب معاهدة باريس ، في ١٠ شباط ١٧٦٣ ، اضطرت فرنسا الى ان تتخلى لانكلترا عن كندا وعن وادي الاوهايو وضفة المسيسبي اليسرى . وهكذا زالت الامبراطورية الفرنسية في اميركا الشمالية من الوجود ، وراح المعمرون الانكليز يستسلمون في الخيال للاحلام المعسولة امام غنى هذه المجالات الشاسعة الغنية بمواردها التي انفتحت آفاقها امامهم .

الفصل الخامس

استقلال المستعمرات الانكليزيــة في أميركا
(١٧٦٣-١٧٨٣)

الشعب الاميركي

ما كادت عشرون سنة تمر على انتصار انكلترا على فرنسا وانتزاعها ممتلكاتها في شمالي اميركا ، حتى كانت المستعمرات الانكليزية قد انفصلت عن انكلترا واستقلت عنها تماماً . لم يأت هذا الاستقلال قط وليد ارادة رغبت فيــه وهيأت له الأسباب . ان عدداً كبيراً من المعمرين في اميركا بقوا على تعلقهم بالوطن الأم . وعندما كان يخطر لبعضهم الذهاب الى انكلترا ، كانوا يقولون انهم ذاهبون الى « بلادهم » ، وأثنـــاء الثورة الاميركية ، وبالرغم من الاصطدامات العنيفة التي قام بها كلا الجانبين بقي هنالك ما لا يقل عن ثلث السكان يحتفظون بولائهم للانكليز ، كما بقي على الحياد ، في هذا المصطرع ، ثلث آخـــر ، ولم يبق في الميدان سوى ثلث « الوطنيين » الذين قرروا ، في اللحظة الأخيرة ، والأسف يحز في نفوسهم ، والغصّة في حلوقهم ، القيام بالخطوة الحاسمة .

الا ان المعمرين كانوا قد استحالوا ، دون ان يشعر أحـد من الناس ، ولا هم تبينوا في مطلع الأمر ، كيف انهم أصبحوا ، شعباً جديداً هو الشعب الاميركي . فقد برزوا من هـذا المزيج او الانصهار الذي تم بين المهاجرين والسكان ، وكلهم من اصل انكلوسكسوني ، درن ان تتم لهم السيطرة على كل شيء . فقد كان ثلثا سكان بنسلفانيا من السكوتلانديين نزحوا من مقاطعة الاولستر في ايرلندا الشمالية ومن الالمان . أما الجنوب ، فكانه جمهرة سكانه في الداخل أجانب . وتخلّق هؤلاء الناس ، في مثل هذا المحيط والبيئة الجديدين ، باخلاق وعادات جديدة ، وتمت لهـم اعراف واحدة مشتركة فيها بينهم . ولغتهم الانكليزية ، احتفظت ببعض التعابير والمصطلحات القديمة ، وببعض التراكيب التي عفا اثرها لدى الانكليز ، واقتبسوا عن الهنود وعن المهاجرين الجدد ، اوضاعاً ومسميات وكلمات جديدة . فتطلعت نفوسهم الى روح المغامرة وهاموا بالجديد من كل شيء . وهذا المجتمع الجديد الذي طلعوا به كان أكثر ديموقراطية ، في مجموعه مما هو عليه المجتمع البريطاني المعروف بروحـــه المحافظة . فباستطاعة أي متطوع في الجيش أو أي متطوع خدم فيه ان يثري وان يرتفع ويرقى الى المراتب الأولى . فالغرب منه كان أكثر اخذاً بالمقلانية من

الشرق ، حتى ان المزارعين في الجنوب تشربوا بتعاليم لوك ومونتسكيو وبكّاريا والموسوعيين الفرنسيين . فقد احتفظوا بهذه الروح الثورية التي جاشت بها انكلترا ، حيناً، الا ان جذوتهـا خمدت في الوطن الأم ، فيا بعد وخفت ريحها . ومن جهة ثانيـة ، فالكنيسة التي كانت توصي بالطاعة والامتثال للملك اقتصر اثرها على الجنوب وعلى نيويورك ، أما في ما عدا ، فالأمر كان بيد المشاقين . ومع نظريات العقد [الاجتماعي] رفرفت فوق النفوس ، في كل مكان ، روح من سوء الظن والريبة نحو السلطة ، والرغبة في تحديها والصمود في وجهها .

وامتنع التفاهم بين الانكليز والاميركيين . فالانكليز كانوا يزدرون : « رعايانا في اميركا». ودار في خلد العسكريين منهم واستقر في يقينهم ان المعمرين أكثر من جبناء بحيث يستطيعون الصمود ، وانهم سيفرون زرافات ووحدانا لدى أول لقاء بهم أو اصطدام معهم . وكان صموئيل جونسن (١٧٠٩ — ١٧٨١) اكتب كتاب الانكليز وأبعدهم شهرة في هذه الحقبة يردد: « نحن أمام عرق من ذراري من حُكم عليهم بالاشغال الشاقة ، يا سيدي » . بالطبع لم يكن هذا الكلام وما أشبه مما يطيب للاميركيين سماعه او مما يشنّف آذانهم ، عندما يأتون لانكلترا ، فيتبرم كبرياؤهم من مثل هذه الآراء فيهم . وقد هالهم مـا هي عليه الطبقة العليا في انكلترا من تفسخ الأخلاق ومن فشاء روح التشكك وحب التنعم بالذاذات ، وفساد الطباع وشيوع ذلك فيا بينهم بالرغم من « وشلي » ومن نزعتهم القديمة الى السيطرة والحكم المطلق .

كان من المتوجب على الحكومة البريطانية ان تستعمل معهم الكثير من الدراية والمداورة واللين . وكأنه حلا لها ان تصدم باستمرار مصالح الاميركيين وتثير مشاعرهم ، وبذلك جعلتهم يعون ، أكثر فأكثر ، ما يباعد بينهم وبين انكلترا ، ويدركون ، أكثر فأكثر ما يوحد بينهم ، فساعدت بذلك على ان تجعل منهم أمة مترابطة متراصّة .

روح السيطرة البريطانية والمقاومة

ثمل الانكليز بانتصاراتهم الداوية فراحوا يطبقون، الى اقصى حد ، بعد عام ١٧٦٣ ، النظرية الاقتصادية القديمة التي قامت على الاستئثارات . فهم تصوروا الامبراطورية البريطانية مجموعة من البلدان والأقاليم والشعوب والأمم يجد بينها كل انكليزي ما يشبع اطماعه ويروي غليله على ان تبقى هـذه المجموعة تحت حكم بريطانيا وسيطرتها مباشرة لانها سبب هذا الازدهار المشترك الذي ينعم به الجميع . وهـذه الطريقة في التفكير تنسجم الانسجام كله مع مـا جاش به الملك جورج الثالث من نزعـات استبدادية تعسفية ، هذه النزعات التي دان بها للتربية التي تلقاها وخضع لها والتي قد تكون جاءت على مثل ما اراده « الطغاة المستنيرون » . فبعد عقد معاهدة باريس ، خُيّل للحكومـة البريطانية انها تستطيع ان تتصرف بمستعمراتها الاميركية كيفما تشاء .

وفي ٧ تشرين الاول ١٧٦٣، نشر تصريح ملكي جاء فيه ان الأراضي الجديدة التي يتم فتحها الى الغرب من خط مقسم المياه في جبال أللغاني ، يجب اعتبارها أراضي ملكية يحظر فيهـا

القيام بأية انشاءات او استثمارات ، ويطرد بالتالي كل من استقر فيها أو قام عليها. وهكذا رأى المعمرون وأصحاب رؤوس الأموال أنفسهم محرومين الافادة من الأراضي التي ناضلوا دونها وبذلوا دماءهم في سبيل استخلاصها .

ومن جهة أخرى ، رغبت الحكومة الانكليزية في ان تؤمن لحكام المقاطعات مرتباً ثابتاً يضمن لهم مع الكرامة الذاتية ، الاستقلال والسيادة ، ويجعلهم في مأمن من هوَس المجالس المحلية واهوائها ، فترسخ سلطاتهم وتنزل هيبتهم في النفوس . كذلك أعرب حكام المقاطعات عن رغبتهم في الاحتفاظ بجيش دائم قوامه ۱۰،۰۰۰ جندي للحفاظ على المستعمرات والدفاع عنها لدى الطوارىء . ولما كانت انكلترا غارقة في ديونها ، وجدت من العسير عليها تأمين الرسوم اللازمة من الضريبة العقارية . فمن العدل ، والحالة هذه ، ان تسهم المستعمرات في تحمل بعض هذه الأعباء التي هي في مصلحتهم وحدهم . وكان من حق البرلمان البريطاني ان يفرض رسوماً على التجارة في المستعمرات . فأقر عام ١٧٦٤ ، قانون السكر ، كما وضع عام ١٧٦٥ ، قانون التمغة . ففرض الأول رسوماً جديدة تجبيها ادارة الجمارك أصابت عدداً كبيراً من المنتوجات الأجنبية ، من بينها عصير قصب السكر وثفالته وهي مادة لا غنى عنها . وفرض قانون التمغة من جهته رسماً جديداً على المعاملات القانونية، كالسفاتج المالية وكتب الاعتماد والجرائد. وأخيراً وليس آخراً ، أعاد البرلمان سنة ١٧٦٦ ، النظر في تصدير أي بضاعة من المستعمرات الى غير انكلترا أو الى أي بلد يقع الى الجنوب من رأس فلستير ، من مستوردي الأرز في الجنوب .

لم يكن في مثل هذه الاجراءات شيء جديد . فالجديد فيها هوان الوزير غرينفيل ، رغبة منه في تطبيق هذا القانون ، ارسل الى اميركا فريقاً من مأموري الجمارك وسفناً تقوم على مراقبة الشواطىء البحرية ، وأحال المخالفات الى محكمة الاميرالية . وهكذا قامت الصعوبات في وجه تجارة التهريب .

وراح الاميركيون بدورهم ، بوصفهم من الرعايا البريطانيين ، يعترضون على هذه التدابير فاعترفوا للبرلمان الانكليزي ، من حيث المبدأ ، بحق اصدار القوانين المتعلقة بتنظيم التجارة في الامبراطورية عن طريق فرضه للرسوم اللازمة . أما في هذا الوضع بالذات ، فالقضية ليست قضية تنظيم التجارة ، بل ايجاد موارد جديدة للخزينة . فالرسوم المفروضة على السكر وعلى التمغة ليست في نظرهم ، سوى ضرائب غير مباشرة . ان إقامة المعمرين في اميركا لم تفقدهم حقوقهم كمواطنين بريطانيين . فمن حقهم الأساسي ان يقروا هم أنفسهم ، الضرائب التي يترتب عليهم تحملها . ولم يكن لهم بالتالي من يمثلهم في البرلمان الانكليزي . ورد الانكليز على هذا الاحتجاج بان أعضاء البرلمان يمثلون الشعب الانكليزي أينما كان وليس الدوائر التي انتخبتهم . الا ان الاميركيين لم يكونوا ليرضوا الا بتمثيلهم الفعلي في البرلمان .

انطلقت إشارة المقاومة في٢٩ أيار ١٧٦٥ ، من مجلس فرجينيا، على يد محام شاب هو بتريك

هنري الذي أعـاد الى الذاكرة تمثّل بروتوس الذي تصدى لقيصر ووقف في وجهه ، كما استشهد بمثل كرومويل الذي وقف في وجـه شارل الأول ، وحمل المجلس ببلاغته على إقرار « قرارات فرجينيا » ، وهي قرارات أيدت حق الاميركيين وكان لها اذ ذاك ، وقع هائل في نفوس القوم. وراح التجار ينظمون في ما بينهم حركة مقاطعة واسعة النطاق للبضائع الانكليزية. واتفق تجار المرافىء الرئيسية كنيويورك وفيلادلفيـا وبوسطن على ان يمتنعوا عن استيراد بضائعهـم من انكلترا . وشكل العمال في المدن جمعيات لهم ، عُرفت باسم « أبناء الحرية » ، تجاهل التجار في أول الأمر وجودها ، ثم ما لبثوا ان اتخذوا منها أداة انتفعوا بها ، وأخيراً توصلوا معها الى اتخاذ موقف موحد ، وارغموا على الاستقالة ، بالقوة ، الموظفين المعهود اليهم تصريف أوراق التمغة . وفي تشرين الأول ١٧٦٥ ، عقد ممثلو تسع من هذه المقاطعات مؤتمراً لهم في نيويورك وجهوا خلاله عريضة التماس الى كل من ملك انكلترا والبرلمان، صاغوها بعبارة تنبض بالاحترام. وعلى الأثر ، أرسل فرنكلين مندوباً عنهم يمثلهم في لجنة برلمانية خاصة تشكلت لهـذا الغرض . وبعد أخذ ورد أقرت الوزارة الغاء رسم التمغة وخفضت الضريبة على نقل السكر بمقدار نحاسة (بني) واحدة للغالون الواحد (آذار ١٧٦٦) ، مما أدخل البهجة والفرح الى قلوب الاميركيين بعد ان سبب لهم توقف الحركة التجارية كثيراً من صنوف الحرمان . الا ان المشكلة الدستورية بقيت قائمة كاملة ، اذ ان القانون الجديد الذي فرض رسماً على عصير قصب السكر وثقالته ، مع انه ابقاه متدنياً جداً ، لم يشترع شيئاً جديداً في المجال التجاري . فبقي هذا الرسم ضريبة سارية المفعول وراح البرلمان يعلن صلاحيته وحقوقه المطلقة لسن القوانين، مهما كانت طبيعتها، وهي قوانين يجب تطبيقها على كل أجزاء الامبراطورية البريطانية .

وفي سنة ١٧٦٦ ، خلال وزارة «بت» الثانية ، راح وزير المالية تاونسهند يأخذ من جديد بسياسة غرينفيل ، وحمل البرلمـان في شهر مايو ١٧٦٧ ، على اقرار رسوم جديدة على الورق والزجاج والقصدير والشاي . واذ ذاك ، قـام التجار في اميركا ، يقاطعون البضائع الانكليزية وعملوا على ادخال بضائع اجنبية بالتهريب ، فنتج عن ذلك اضطرابات . وفي الخامس من آذار، اصدر اللورد نورث قراراً بالغاء الضرائب الجديدة باستثناء الرسم المفروض على الشاي ، الأمـر الذي ادخل البهجة الى القلوب ، باستثناء قـلة من الناس رفضوا بكل حيلة ووسيلة ، الوقوف موقفاً معتدلاً . وفي نيسان ١٧٧٣ ، تسهيلاً لشركة الهند الشرقية تصريف شحنة لها من الشاي، رخص لها اللورد نورث ، ببيع بضاعتها رأساً من الاميركيين بحيث يصبح سعر الشاي متدنيـاً للغاية . غير ان هذا التدبير عرض التجار الاميركيين لخسارة الأرباح الناجمـة عن النقل ، كما جعل من المتعذر عليهم بيع الشاي الذي كانوا استوردوه رأساً من انكلترا ، كما ان التجـار الذين اختزنوا كميـات كبيرة منه رأوا أنفسهم مهددين ان يبيعوه بخسارة . واذ ذاك دفعوا الى الامام « ابناء الحرية » . فقد راح عـام ١٧٧٣ ، فريق من سكان بوسطن تزيّوا بلباس الهنود الحمر ، يطرحون الى البحر وسق ثلاث سفن مشحونة شاياً .

والمهم في هذا الأمر كله هو ان الحكومة الانكليزية لم تكن تجاوزت حقوقها في هذه القضية، بينما رأى الاميركيون في المناسبة السانحة فرصة مؤاتية للتعبير عن موقفهم المتصلب هذا وعن عزمهم على معالجة شؤونهم الاقتصادية بأنفسهم، دون ان يبالوا، من قريب او بعيد، بالمصلحة العامة في الامبراطورية. وبذلك عبروا بصراحة عن رغبتهم بالاستقلال التـــام. فقد كانوا تجاوزوا بعيداً القضية الاساسية التي كانت سبباً أولياً في هذا الجدل. ولذا قام بعض الاميركيين، من بينهم بنجامين فرانكلين، يسعون جهدهم، للمحافظة على وحـــدة الامبراطورية وحياتها، وذلك عن طريق الوصول الى صيغة تصونها في المستقبل، بحيث تؤلف المستعمرات الانكليزية، من بينها، حلفاً يتمتع باستقلاله ويبقى متحداً، مع ذلك، مع الامبراطورية، بالملك. وعلى مثل هذا كان رأي «بت» الذي استقدم فرانكلين الى دارته وأعد معه، من آب الى كانون الأول ١٧٧٤، مشروع تحقيق امبراطورية انكليزية تمتـد من البحر الشمالي الى المحيط الهادي. الا انهم كانوا بهذا، اسبق من زمانهم بكثير.

واذ ذاك اغلقت الحكومة البريطانية مرفأ بوسطن واخضعت المدينة وولاية مستشوستس كلهـا لنظام عسكري (١ ايار ١٧٧٤). وقد ارسلت جميع المستعمرات، باستثناء فرجينيا، مندوبين عنها يمثلونها في مؤتمر قاري (٥ ايلول ١٧٧٤) فأسس المؤتمر بتاريخ ٢٠ تشرين الأول « الجمعية القارية *Le Congrès continental* تأخذ على نفسها تنظيم مقاطعة شاملة للنظام الاقتصادي الانكليزي. وتحول حماس الاميركيين الى هياج شديد عندما بلغهم خبر قانون كوبيك، الذي ربط ادارياً كل الشمال الغربي حتى الاوهايو بولاية كوبيك، اي انه وضع بمثل هـــذه الاقطار الجبلية تحت تصرف « البابويين » اذ كانت الديانـــة الكاثوليكية مسموحاً بها في كندا. وهكذا اصبح الصمود في وجـه الملك ومقاومته صليبية شعارها: « لا بابوية ». وتألفت في طول البلاد وعرضها لجان شعبية من المواطنين وقدم «بت»، في اول شباط ١٧٧٥، مشروع تسوية رفعـه الى مجلس اللوردات. وراحت اللجـــان الاميركية «للسلامة العامة» تقيم مستودعات وتلشيء لها مخازن للاسلحة والعتـاد الحربي. وفي ١٩ نيسان ١٧٧٥، وقع اصطدام بين كتيبة انكليزية ارسلت لوضع يدها على احـد هذه المستودعات، بأفراد الميليشيا الاميركية، في لكسنغتن. فأتلفت المستودع الا انهـــا اضطرت للعودة بفوضى وبدون نظام الى بوسطن، بعد ان تعرضت لتحرشات الاميركيين ومضايقاتهم لها. وفي اليوم التـــالي، اخذت فرقة الميليشيا، في انكلترا الجديدة بضرب الحصار حول بوسطن. وهكذا نشبت في البلاد الحرب الاهلية.

حرب الاستقلال

استمرت الحرب تتأرجح ثماني سنوات. وكان حزب الاحرار *Whigs* الانكليزي يعطف على الاميركيين ويعمل باستمرار، على اثارة العراقيل، بوجه الحكومة. وكان عدد الموالين في اميركا كبيراً. فبعد ان قلق التجار جداً من راديكالية « ابناء الحرية »، نزعوا للوقوف الى جانب الملك، اذ رأوا في الحرب القائمة حرباً بين الطبقات. وراح الموالون يؤلفون من بين انصارهم، فرقاً خاصاً مما اضطر الجيش الانكليزي الى اتخـــاذ

احتياطات عسكرية خاصة كالتي يتخذها جيش معادٍ . فالمسافات الشاسعة ، والبلاد المقفرة ، زادت كثيراً من صعوبة المواصلات والتموين . والجيش الانكليزي الذي تألف من وحـــدات نظامية مدربة وجد حركاته وسكناته مقيدة من قبل القيادة في لندن التي كانت ترغب في ابداء رأيها في خطط الحرب والتصميم للعمليات الحربية . اما الجيش الاميركي ، فقد تألف من افراد الميليشيا الذين رفضوا الخدمة في مقاطعاتهم ليعودوا ، بعد انتهاء نوبتهم وانقضاء مدة خدمتهم للعمل في الحصاد ، كما تألف من متطوعين كثيراً ما راحوا في بدء الأمر ، فريسة للهلع والخوف، مرتباتهم سيئة تدفع لهم « بعملة ورقية قارية » ، ولم يكونوا دومـاً ممن يطمأن الى نواياهم . وكان غايتس يدس على واشنطون ويحيك له الدسائس ، كما خان شارلي لي وارنولد القضيـــة وتخلوا عنها . ولحسن الحظ ، فقـــد اظهر القائد العام الذي جرى تعيينه من قبل الكونغرس القاري الثاني ، من الروح الوطنية ، ما جعله فوق كل امتحان ، كما انــــه برهن عن تفهم سليم للامور والأوضاع القائمـة ، وعن حزم لا يتزعزع ، ورباطة جأش ليس ما يكدرها . كل ذلك اعاد الثقة الى اكثر المترددين المتأرجحين وبعث الحماس في النفوس .

اجتمعت الكونغرس البرية الثانية في العاشر من ايار ١٧٧٥ ، وأدركت على ضوء الحوادث انه لا بد من عقد احلاف مع بعض الدول الأجنبية لتحقيق اهداف الثورة . فتوجهت بأنظارهـا الى الكنديين الذين كانوا لا يزالون يذكرون ، والمرارة ملء نفوسهم ، ما لحقهم من عنت الحروب السابقة ، وما استهدفوا له من حقد هذه التقوى البروتستانتية المتعصبة التي تكشفت عنها نفوس الانكليوسكسون . ان قانون كويبك كان منحهـم من جهة ثانية التسامح الديني واستمرار العمل بمعظم القوانين الفرنسية التي ساروا عليها من قبل . فلم يحركوا ساكناً . ولذا راحت كتائب الاميركيين تغزو كنـدا . وأصبحت بالتالي خطراً يهدد مونتريال وكويبك . واذ ذاك نهض الكنديون لامتشاق الحسام وردوا الاميركيين على اعقابهم (تشرين الثاني ١٧٧٥) . .

وهكذا بقيت الكونغرس وحدها في الميدان . وكان الملك جورج الثالث اعلن على الملأ ان الاميركيين بحالة عصيان وتمرد وحظر كل نشاط تجاري معهم ، اذ قصد من ذلك ان « يزرع » الخراب في اميركا . وأحرق الانكليز مدينتين مفتوحتين هما فالموث في مقاطعة الماين ونورفولك في مقاطعة فرجينيا .

واذ كان اعضاء الكونغرس على يقين تام بأن الحرب وحدها هي التي ستقرر المصير ، وان الحليف الوحيد الطبيعي الذي يقف الى جانبهم في حربهم ضد الانكليز ، انما هو فرنسا ، فقد قاموا بمفاوضتها . فاشترطت فرنسا عليهم لدخول الحرب الى جانبهم ، انفصالهم التام واستقلالهم عن الانكليز شريطة ان يوحدوا من صفوفهم بحيث يظهرون مظهر المتحدين . ففي ٤ تمـوز ١٧٧٦ ، اتخذ الكونغرس قراراً باعلان الاستقلال التام . وقد وضع نص هذه الوثيقة التاريخية جيفرسن فجاءت بمثابة قيـــاس استدلالي ذكـّرت مقدمته الكبرى بمبادىء « الفلاسفة » ، هذه المبادىء التي أصبحت التراث المشترك لكل الأوروبيين . فقد جاء فيها بالحرف الواحد :

« نحن نعتبر واضحة بذاتها المبادىء التالية التي تعلم وتقول ان الناس اجمع خلقوا متساوين فيما بينهم ، وان الله خالقهم ميزهم ببعض الحقوق التي لا يمكن نسخها . من هذه الحقوق : حق الحياة ، وحق الحرية والبحث عن السعادة . فالحكومات تقوم بين الشعوب لضمان هذه الحقوق وان صلاحياتها ومسؤولياتها الحقة تصدر عن رعاياها وموافقتهم . فكل مرة يستحيل فيها شكل الحكومة الى حكومة تعمل على العبث بهذه الحقوق ، حق الشعب ان يستبدل حكومته هذه بأخرى وان يقيم محلها حكومة جديدة » .

ثم راحت تعدد سلسلة من العبث لهذه الحقوق الطبيعية، من قبل ملك انكلترا والانكليز. وانتهت من سرد هذه الأمثلة بالنتيجة الحتمية قائلةً :

« نحن ممثلو الولايات المتحدة الاميركية المجتمعون هنا هيئة عامة ، نحتكم الى محكمة الديان الاعلى لهذا العالم ، المطلع على سلامة نوايانا وطهارة ضمائرنا . نحن ننشر ونعلن باسم هذا الشعب الطيب المقيم في هذه المستعمرات ، بان لهذه الولايات الحق التام بان تكون ولايات حرة مستقلة ، وبانها لا تعترف باي ولاء ولا باي خضوع للتاج البريطاني وان كل اتحاد سياسي فيما بينها وبين بريطانيا العظمى انقطع ويجب ان ينقطع تماماً » .

ابتهج الشعب الفرنسي لثورة الاميركيين ، اذ رأى فيهم رجالاً من ابناء الطبيعة ، كلهم تقى . جاء فرانكلين باريس بما هو عليه من بساطة الروح، بجواربه الصوف وأحذيته الضخمة ، فازداد القوم في فرنسا ايماناً بهذا الشعور . وقد راح الشباب الفرنسي يجتاز المحيط الاطلسي باعداد كبيرة مقدماً خدماته للكونغرس الاميركي . وراحت وثيقة اعلان الاستقلال تحيل حماس الفرنسيين الى هذيان الفرح والغبطة . وفي هذه الفترة بالذات يسافر المركيز دي لا فاييت نفسه ويتطوع في خدمة الجيش الاميركي . وحلا للوزير الفرنسي فرجين ان يرى في هذه الحرب الوسيلة الوحيدة ليثأر لفرنسا من معاهدة ١٧٦٣ المشينة . وبواسطة بومارشيه ، استطاع ان يمد الاميركيين بالسلاح والعتاد الحربي . غير ان هزائم الاميركيين المتتالية جعلته يتردد قليلاً قبل ان يكشف عن اوراقه . الا انه في ١٧ تشرين الاول ١٧٧٧ ، اضطر جيش انكليزي أرسِل من كندا الى نيويورك لتعزيز موقف الانكليز الحربي فيها ، الى الاستسلام، في بلدة سراتوغا ، بعد ان احاطت به كتائب الميليشيا ومنعت عنه وصول الامدادات والمؤن . وقد كان لهذا النصر الأميركي الكبير الأول صدى عظيم ووقع كبير على الرأي العام ، فأكسبهم محالفة الفرنسيين لهم . وُقعت معاهدة التحالف هذه في ٦ شباط ١٧٧٨ ، وتعهدت كل من فرنسا والولايات المتحدة الأميركية على الا تعقدا هدنة أو تجريا صلحاً إلا برضى الفريق الثاني، وان لا ترميا السلاح الا بعد أن تنال الولايات الاميركية ، استقلالها التام الناجز . وتعهدت فرنسا بألا تعود إلى استرجاع كندا . الا أن الولايات المتحدة ضمنت لها الممتلكات التي لها او التي بين أيديها في القارة الاميركية ، وقد استطاع الوزير فرجين ان يحمل اسبانيا على الدخول في الحرب الى جانبها (حزيران ١٧٧٩) . وأعلن الانكليز الحرب على الهولنديين الذين راحوا يبيعون الاميركيين ما هم بحاجة اليه من البارود (كانون الاول ١٧٨٠) وأخيراً راحت الدول الأخرى الواقفة على الحياد بسعى من الامبراطورة كاترين الثانية ، تؤلف من بينها حلفاً يقف بالقوة ، في وجه كل سفينة من سفنها تحاول تهريب الأسلحة الحربية .

جاء التدخل الفرنسي حاسماً . فالاساطيل الفرنسية بقيـــادة امراء البحر لاموت – بيكه وغراس واستانغ وسوفرين استطاعت ان تؤمن حرية البحار . والانكليز الذين تعرضوا للهجوم اينما وُجدوا : في جزر الانتيل والهند واميركا وجبل طارق ، اضطروا لتوزيـع قواهم . فقد اخذت جيوشهم في اميركا تشكو عالياً من انقطاع الامدادات والذخائر الحربية . ثم ان وصول فرقة فرنسية مؤلفة من ٧٥٠٠ جندي ، في تموز ١٧٨٠ ، بقيادة الكونت دي روشمبو ، امّنت للاميركيين الذين بقوا حتى الساعة يسجلون الهزيمة تلو الهزيمة في المعارك المعبّأة ، قوة نظامية حنكتها الاعمال الحربية التي تمرست بها ، كانت بمنأى من التقلبات الموسمية أو من الاشتباكات المحلية ، وكانت لها قدرة تامة على متابعة الحركات الحربية، وقامت بتعاون مشترك بين اسطول فرنسي بقيادة الاميرال دي غراس وبـــين الجيوش الفرنسية والاميركية بقيادة واشنطون ولافاييت وروشمبو . فقد اجبرت هذه الاعمال الحربية والتعـاون بين مختلف القوات العاملة في مختلف القطاعات ، على الاستسلام ، الجيش الانكليزي الوحيد الذي له القـدرة على التناور في البر ، وذلك في مدينة بورتون ، في ١٩ تشرين اول ١٧٨١ وبذلك ربحوا الحرب .

وقد حنث المندوبون الاميركيون قسمهم وأخلفوا بوعدهم بالرغم من معـــارضة فرانكلين وضربوا بعرض الحائط توقيع الشعب الاميركي ، فسارعوا الى التفاوض مع انكلترا والى التوقيع على تمهيد للصلح ، في ١٣ تشرين الثاني ١٧٨٢ . واذ رأى الوزير فرجين نفسه امام الأمر الواقع اضطر للدخـــول معهم بالمفاوضات . جرى توقيع المعاهدة الفرنسية الانكليزية في فرساي ، في غرة ايلول ١٧٨٣ ، وهي معاهدة لم تعترف الا ببعض المنافع والتنازلات لفرنسا بسبب انسحاب الاميركيين من الميدان ، وبسبب هزيمة نزلت بالاسطول الفرنسي في جزر الانتيـل ، في نيسان ١٧٨٢ ، ولأن المفاوضين الفرنسيين لم يطالبوا بكل ما كان يجب ان يطـــالبوا به . فاستعاد الفرنسيون جزر تباغو وسانت لوسيا وبعض المؤسسات والمراكز في السنغال . اما نصيب ملك فرنسا فقد كان انه حال دون استبطار سيطرة الامبراطورية الانكليزية ، وقلّم اظافرها بعد ان نزع منها احسن مستعمراتها واغناها وأمن الحرية والاستقلال لشعب من شعوبها. اما المعاهدة الانكليزية الاميركية ، فقد جرى توقيعهـــا في باريس ونصت على اعتراف انكلترا باستقلال الولايات المتحدة الاميركية ، وحملت حدودها في الغرب الى المسيسبي ، وفي الشمال الغربي الى البحيرات الكبرى ونهر السان لوران .

فبالرغم من انسحاب الاميركيين لم يشأ لويس السادس عشر ان يطالبهم باي تعويض لقـاء النفقات الباهظة التي تحملها في الحرب . فقد تنازل لهم ، فوق ذلك ووهبهم ١٢ مليون ليرة ، وعلاوة على قروض الحرب التي استدانوها ، قدم لهم سلفة من ٦ ملايين ليرة لأجـــل ترميم اقتصادياتهم واعادتها على أسس قوية عام ١٧٨٣ .كل هذا حدا بفرانكلين للتنويه عالياً بالصداقة والامتنان الخالدين .

الفصل السادس

تطوّر كندا
(١٧٦٣-١٧٩١)

ونشأة الولايات المتحدة الأميركية
(١٧٨٣-١٧٨٩)

كندا وأكاديا

على ضوء التجربة والاختبار راحت الحكومة الانكليزية تنهج تجاه ما كان يُعرف بفرنسا الجديدة نهجاً يتسم بالحرية الواسعة. فقد نشأت فيها مستعمرات تمتعت باستقلالها الاداري، سكانها مزيج من عروق متباينة واجناس مختلفة.

فقد استثنى الملك جورج الثالث، في منشور له، العناصر الكاثوليكية من الاشتراك في ادارة البلاد، وبذلك رأى سكان كندا انفسهم خاضعين لسيطرة بضع مئات من الانكليز. الا ان خصومة انكلترا وحربها مع مستعمراتها القديمة، حملت الوزارة الانكليزية على انتهاج سياسة تنم عن تسامح اكبر. فقانون كويبك (١٧٧٤) اعترف للكاثوليك بحرية ممارسة طقوسهم الدينية، واعفى الكنديين من مرسوم *Bill of Test* الذي كان يفرض على كل من قام باعباء وظيفة عامة تناول القربان حسب الطقوس الانغليكانية، كما ترك لهم حرية العمل بجانب كبير من القوانين الفرنسية التي خضعوا لها من قبل ان يخضعوا للحكم البريطاني، لقاء قسم بالتزام الولاء للملك انكلترا، والأخذ باحكام اهم الشرائع الانكليزية، والعمل تحت اشراف حاكم عام ومجلس يقوم الملك بتعيينهما. وقد اتسم اول حاكم انكليزي على كندا بروح سمحاء، واقام علاقات طيبة مع الاكليروس الكاثوليكي وطبق بكل دقة مرسوم كويبك بحيث بقي الكنديون على ولائهم الصادق للملك انكلترا.

واتفق ان ٣٥،٠٠٠ من «الموالين» الاميركيين، نزحوا عن الولايات المتحدة، خلال حرب الاستقلال وبعدها، فجاؤوا وسكنوا الى الشمال الغربي من بحيرة اونتاريو. وشابت العلاقات بين الفرنسيين والانكليز الظنة وسوء التفاهم والتحفظ باستمرار. وتقديراً لحسن موقف الكنديين وصدق ولائهم للتاج البريطاني، اصدر الملك جورج الثالث امراً بتقسيم البلاد الى

ولايتين متميزتين : كندا العليا للانكليز ، وكندا السفلى للفرنسيين. وتمتعت كل ولاية باستقلالها الاداري ، وقام فيها مجلس تمثيلي منتخب .

وقد حافظ الكنديون الفرنسيون على عقيدتهم ولغتهم واعرافهم وتقاليدهم، وطبقوا ما جاء على لسان النبي إرميا ، اذ يقول : « ابنوا بيوتاً واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا من ثمارها ، واتخذوا نساءً ، ولِدوا بنين وبنات ، واتخذوا لهم نساءً واجعلوا بناتكم لرجال وليلدنَ بنين وبنات،وأكثروا هناك ولا تقلّوا واطلبوا سلام المدينة التي أجأتكم اليها،وصلّوا من أجلها الى الرب ، فإن بسلامه يكون لكم سلام . »[1] . وبدون ان يتلقوا أي رديف عن طريق الهجرة والاغتراب من فرنسا التي أهملت أمرهم وتخلت عنهم ، وبفضل تمكسهم بالمثل الكاثوليكية السامية وانتهاجهم في الحياة نمطاً قوامه الزراعة والاستمساك بمكارم الأخلاق على سنة الجدود ، وبفضل تزايد عدد السكان عندهم بمعدل هو أعلى ما عرف الجنس الأبيض من أمثاله ، وبعزم لا يفتر ، قرروا معه الا يتركوا أنفسهم يذوبون في الكير الانكليزي والبوتقة البريطانية . فقد بلغ عددهم عام ١٨٠٦ ، أكثر من ٢٥٠،٠٠٠ نسمة . وهكذا استطاعوا بفضل ما أوتوا من صلابة العود وصدق العزيمة ، ان يحافظوا على طابع حضارتهم الفرنسية ، وسط بلد وحيط سكانه من الانكلوسكسون .

اما اكاديا ، فقد أخذ يعود اليها تباعاً ، بعد عام ١٧٦٣ ، جماعات صغيرة ممن نجا من المحنة الماحقة التي ابتلوا بها وما نابهم من جرائها ، من العذابات والاضطهادات المريرة . وقد فرشوا طريق العودة ، كما فرشوا طريق الهجرة من قبل ، بالاعزّة ممن سقطوا في مختلف مراحل صليبهم المرير . وهكذا وصل منهم ١٢٦٥ شخصاً ، فوجدوا املاكهم ومقتنياتهم واراضيهم يحتلها المعمرون الانكليز . ولذا استقروا بين اراض رديئة التربة راحوا يعزقونها ويحيونها بعرق جبينهم ، حتى اذا ما لانت وطابت وجادت فاجأهم على حين غرة طارىء انكليزي وبيده صك تملك ، فينتزعها ويجبر مالكها على العمل في خدمته ، وليس في اليد حيلة بعد ان كانت المحاكم التي يرفعون اليها ظلامتهم تصدر دوماً احكامها ضدهم . وكانت ابخس الاجور تعطى لهم دوماً عن اشق الاعمال واقسى الاشغال . وراحت الحكومة الانكليزية، خلال حرب الاستقلال الاميركي تداري جانبهم وتلين ملامسها ، فتتنازل لهم عن اراض يستملكونها ، كما اجازت لهم ممارسة واجباتهم وفقاً للطقوس الكاثوليكية . الا ان سيلاً جارفاً من « الموالين » الاميركيين ، زاد عددهم على ٤٠،٠٠٠ ، هبط عليهم واغرقهم تحت غمره ، واخذوا في تعمير واحياء ما عرف بايكوسيا الجديدة وبرونسويك الجديدة . ومع ذلك فقد عرف الاكاديون ان يحافظوا كالكنديين على شخصيتهم وفرديتهم المميزة . فبلغ عددهم عام ١٧٩٠ ، بفضل حركة الموالين الناشطة بينهم ، ٨١٦٦ نسمة ، واستمروا على نمائهم وتكاثرهم ، يشترون من الانكليز اراضيهم ويعملون بذلك على زحزحتهم تدريجياً .

---

(١) – ارميا ، اصحاح ٢٩ ، عدد ٥ – ٧

الولايات المتحدة ودستورها الجديد

تُخيل لمعظم الناس بما فيهم الملك جورج الثالث وفردريك الثاني ، ولعدد كبير من الاميركيين انفسهم ، ان الاتحاد الذي تألف من هذه الولايات لن يعمر طويلاً ، لما بينها من فوارق واختلافات ، وبما في هذه الجمهورية التي الفوها من عناصر مخلخلة وقوى محللة . وبالفعل فقد اخذت هذه الولايات تتصرف فيما بينها كدول مستقلة ، سيدة والفوضى فيها ضاربة اطنابها .

وبدعوة من مجلس الكونغرس ، راحت الولايات الاميركية ، باستثناء كونكتيكت وردود آيلاند ، تنشىء نظمها ومؤسساتها الجمهورية على اساس من المبادىء التي نادى بها العقد الاجتماعي (لروسو) ، والنظريات التي قال بها مونتسكيو وعلم . وقد اتسمت هذه النظم والمؤسسات بالروح الديمقراطية بالرغم من قلة عدد سكانها ، في بلاد كانت فيها الملكية العقارية هي التي تولي صاحبها ، حق الاقتراع ، وهذا مطلب يسير ، سهل التحقيق ، كما برهنت عن سماحة وتساهل ظاهر في علاقاتها مع الكاثوليك . واذ كانت الهيئات التمثيلية توجس خيفة من طغيان السلطة الفردية ، فقد سيجت حولها بسلطات مطلقة . فالحكام الذين ينتخبون بالاقتراع العام يتمتعون بسلطة تنفيذية محدودة . ومثل هذا الوضع ، كان معقولاً ومقبولاً يوم كان هؤلاء الحكام ممثلين الملك وراثي ، تتمثل في شخصه وتتجسم المصالح العامة في الدولة ، ويتمتع بالتالي ، بنفوذ عظيم ، اما ما هو من الغرابة بمكان ، ان يكون هؤلاء الحكام هم ممثلو الشعب . فقد ادى النظام الذي قام على هذه المجالس والهيئات الى نتائج وخيمة ، بحيث ان سلطة الحكام اخذت تزداد وتقوى طوال القرن التاسع عشر .

وراحت هذه الولايات تتباعد عن بعضها البعض حسب منطوق مواد دستور الاتحاد الذي أقرّ بتاريخ ١٥ تشرين الثاني ١٧٧٧ ، اذ جعل هذا الدستور ، من هذه الولايات « عصبة من الاصدقاء يعملون في سبيل الدفاع المشترك » ، وفي سبيل « مصلحتها العامة المشتركة » . فقد احتفظت كل ولاية بسيادتها وحريتها التامة واستقلالها . والكونغرس الاميركي ، لم يكن في الواقع سوى مؤتمر من الدبلوماسيين لعدد من السفراء تبعث بهم الولايات ممثلين لها . فلكل ولاية صوت واحد ، والقرارات يجب ان تؤخذ باجماع الأصوات . ويتولى الكونغرس الشؤون الخارجية وكل ما يتعلق بالحرب والبحرية والنقد ، والمكاييل والموازين والبريد . الا انه لم يكن من صلاحياته ، ولا بوسعه ان يتولى النظر او تنظيم النشاط التجاري بين مختلف الولايات ، ولا بين الاتحاد والخارج . فلم يكن للكونغرس اي سبيل او اي وجه للضغط على الولايات المستقلة وارغامها على السير باتجاه معين .

عجز مجالس الكونغرس

فالضعف الذي وجدت حكومة الاتحاد نفسها فيه خلـّف الفوضى في جميع مرافق البلاد ، وسبب لها ازمة حادة جعلت في وضع مضطرب ، خـَطير ، مرافقها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

فقد اقعدتها حاجتها الملحة للمال . فراحت تصدر نقداً ورقاً لا تغطية له ، فهبطت قيمته بسرعة بحيث ان خطر لاحد الخبثاء من المزيفين ان يفرش جدران محله بالأوراق المالية الكبيرة. وعبثاً طلب الكونغرس من الولايات الاسهام بالنفقات العامة التي بلغت ٨ ملايين دولار ، عام ١٧٨٢ ، ومليوني دولار فقط عام ١٧٨٣ . الا انه لم يصل من أصل هذه المبالغ الا الى مليون دولار ونصف . وقد هبطت مساهمة الولايات ، عام ١٧٨٥ الى ٣٧٥،٠٠٠ دولار لا غير .

ولذا عَسُرت قضايا تسريح الجيش وتعقدت كثيراً ، اذ راح الضباط يطالبون بمعاش تقاعدي ، وهو طلب لم يكن وضع خزينة الاتحاد يستطيع تحقيقه ، كما انـه كان يلاقي معارضة قوية لدى الرأي العام ، الذي وجد في مثل هذا الطلب وتحقيقه ايجاد جسم جديد في الدولة ونوعاً من الارستوقراطية .

واستطاع واشنطون ان ينتزع ، في ٢٢ آذار ١٧٨٣ ، من مجلس الكونغرس سندات على الخزينة بفائد ٦٪ ومعاشاً كاملاً لمدة خمس سنوات . وقبل ان يأخذ الضباط بالتفرق ، اسسوا فيما بينهم ما يعرف ، في التاريخ ، باتحاد سنسناتي ، مع شارة خاصة تعطى للأعضاء هي عبارة عن نسر وشريطة زرقاء . فكان هذا الاتحاد ، الهيئة الوحيدة المعترف بها في كل الولايات . فألف له لجاناً في كل المدن الرئيسية . وقد ساعدت هذه المنظمة كثيراً على تمتين روابط الوحدة ، كما جاهدت كثيراً وسعت الى اقرار الدستور الذي وضع عام ١٧٨٧ .

أما أفراد الجيش ، فلم يتيسر لهم قبض المتأخر من مرتباتهم ، فأعلنت وحـدات معسكر نيوزبرغ العصيان ، في أيار ١٧٨٣ ، فاضطر واشنطون لاستعمال كل سلطته ونفوذه ليحملهم على قبول تسريحهم ، بعد دفع مرتب ثلاثة أشهر ، ونثر الوعود المعسولة للمستقبل .

واشتدت الازمة الاقتصادية وأخذت بخناق البلاد ، وهي ازمة تسببت اصلاً عن الخراب الذي زرعته الحرب وويلاتها في البلاد كما نتجت عن نزوح عدد كبير من الموالين للانكليز ، بينهم عدد كبير من التجار ورجال الصناعة الاغنياء ، ناهيك عن الاهمـال الذي نزل بالمشروعات العامة وفقدان رؤوس الأموال ، في البلاد ، والنقص الفادح في الانتاج . وزاد في حدة الأزمـة وشدتها العجز المالي المقعـد الذي تسكع فيه مجلس الكونغرس. فقد أبت عليه الولايات الاعتراف له بأي حق في فرض الرسوم الجمركية حتى ولو كان طابعاً اميرياً لتأمـين جانب من واردات الخزينة . وراحت هذه الولايات المتمتعة باستقلالها وسيادتهـا تشن على بعضها البعض حرباً اقتصادية لا هوادة فيها . فاذا ما خطر لاحداها ان تزيد من رسوم الجمرك في اراضيها ، راحت الأخرى تخفض الرسوم عندها اجتذاباً منها للتجار وخنقاً لحركة الاعمال في الولايات المجاورة . وقد رأت انكلترا في هذا الوضع المزّأة ، فرصة سانحة لها ، لاغراق البلاد بمصنوعاتها الوطنية ، وبذلك سددت ضربة قاصمة لهذه الصناعات الناشئة التي رأت النور في البلاد إبان حرب الاستقلال. فقد باعت الاميركيين ، سبعة أضعاف ما كانوا يستوردونه من البضائع والسلع المصنوعة في الخارج ، بينها المصنوعات الحديدية على اختلاف حجومها ، والسكاكين والمسامير ومصنوعات الصفيح ،

والأجواخ والعِقادة (تجارة الخردوات) والعقاقير والمواد الطبية . وأخـذت الولايات المتحدة تصدّر اليها ، بدورها ، القسم الأكبر من محصول القمح والطحين واللحوم المحليـــة ، والتبغ ، وشيئاً من محصول القطن . ومع ان هذه الولايات كانت مستقلة سياسياً فقد كانت تعول اقتصادياً على انكلترا التي منعت عليها ، مع ذلك ، الاتجار مع جزر البحر الكرايبي او جزر الانتيل ، فان أتوها فمن باب التهريب ليس الا . وقد أبت انكلترا عقد أي معاهدة تجارية معهـــا لعجز مجلس الكونغرس عن إلزام الولايات المتحدة احترام المواثيق والتقيد باحكامها ومندرجاتها . وفي البحر الأبيض المتوسط ، كان القراصنة المسلحون ينقضون على السفن الاميركية ، لامتناع الانكليز عن حمايتها او الدفاع عنها . وبالرغم من الاسواق التجارية الجديدة التي انفتحت أمام صادراتها ، في كل من فرنسا والبرتغال والصين ظل الميزان التجاري عندها يشكو العجز المزمن .

وكانت رؤوس الأموال تخرج باستمرار من البلاد او تختزن في صناديق أصحابهـــا تحسباً للمستقبل الغامض . فقد عجزت عن تلبية حاجات البلاد ومطلب المرافيء الشرقية ، كما انهـــا كانت شبه مفقودة في اقصى الغرب حيث اقتصرت الحركة التجـارية على المقايضات ، وحيث كانت الرسوم تجبى جلوداً او لحم خنزير مملحاً او شحماً او وسكي . وقد شلت ندورة النقـد حركة البيع والشراء وكل نشاط تجاري ، فخف بالتالي الانتاج . فلا عجب ان ترتفع أصوات المتبرمين والشاكين . وراح كثيرون يطالبون باصدار عملة ورقية ولا سيما بين المزارعين والرواد المستكشفين والقائمين باعمال المضاربات الغارقين في ديونهم لقاء المبالغ التي استلفوها من التجار . وقد بـدا للمدينين ان النقد البنكنوت سيخسر كثيراً من قيمته الاسمية ، وان منتوجاتهـــم سترتفع أسعارها وبذلك سيتخلصون بسهولة مما يرزحون تحته من ديون ، فيتاح لهـــم شراء الأراضي والاملاك . وهكذا راحت سبع ولايات تصدر لها عملة ورقية .

رفضت ولاية ماستشوستس الاخذ بهذا الاصدار ، فـأُسقِـطَ بيد الدائنين في وفـــاء ديونهم واستهدفوا لعقوبات السجن . وبالنظر لفقدان السيولة ونقص رؤوس الاموال الفادح ، والمزاحمة الانكليزية الشديدة ، اصبحت الحياة صعبة في البلاد . وتولى ضابـــط قديم في جيش التحرير ، يدعى شايس ، قيادة فرقة من العصاة الخارجين على القانون معظمهم من رجـــال المليشيا الذين استدانوا على مرتباتهم خلال خدمتهم للعَلَم في حرب الاستقلال ، لتـأمين أوَد ذويهم . قُمِعت حركة العصيان هذه بسهولة كلية الا ان الحركة لاقت عطفاً كبيراً من قبل الطبقـــات الشعبية اذ رأوا فيها نذيراً لحرب اهلية تنفجر بين الطبقات الفقيرة والطبقة الغنية . وقد كتب واشنطون الى لي Lee ، اذ ذاك ، قائلاً : « يجب ان تتمتع البلاد بحكومة تضمن حياتنا وحرياتنا ومقتنياتنا والا دهانا ما هو انكى وافظع » . فالثورة التي قامت بقيادة شايس ، اقنعت الجميع بالمحسوس ، بعد ان زرعت الهلع في قلوب الطبقات الثرية ، بوجوب قيـام حكومة قوية ، لتفرض احترام « قدسية الارتباطات المعقودة » وحقوق الملكية . فكان الوضع الذي تردت اليه البلاد من هذه البواعث التي دعت الى وضع دستور جديد لها .

امتنع على مجلس الكونغرس الاميركي ايجاد الحل المرتجى لقضية الغرب الاميركي . فمنذ عام ١٧٦٣ ، وبالرغم من الاوامر والتعليمات الصادرة عن ملك بريطانيا ، وبالرغم من قيام الحرب ، لم يتوقف الرواد قط عن عبور الانهر واجتياز الجبال . وقد اضطرتهم الأزمة التي نشبت بعد حرب الاستقلال الى الانسحاب والانكفاء نحو الشرق . ففي سنة ١٧٧٦ ، رأينا ٢٥،٠٠٠ اسرة اميركية تقيم في وادي الاوهايو ، الى الغرب من ولاية بنسلفانيا بحيث اصبحت بتسبورغ مدينة صغيرة . والرواد كانوا يسرحون في الاودية التي تسير فيها روافد الاوهايو ، امثال كنتاكي والتنسي ويجتازون الاوهايو . وشكل عدد من المضاربين شركات قوية لهم اخذت بشراء الاراضي وبيعها حصصاً . وهكذا تأسست مدن جديدة ، منها مدينة لويزفيل ، عام ١٧٧٤ ، ولكسنغتن وسنسناتي ، عام ١٧٩٠ . وفي هذه السنة بالذات بلغ عدد سكان كنتاكي ٧٨،٠٠٠ نسمة وتنسي ٣٥،٠٠٠ نسمة كما رأينا يقطن مقاطعة الاوهايو التي ستصبح فيما بعد ولاية ، ٤٢٣٠ ، نسمة .

وقد نشأ عن هذا التوسع والتطور صعوبات ومشاكل مع الهنود . فالمعاهدات التي عُقدت عام ١٧٦٨ (فورت-ستانفكس) ، وعام ١٧٨٥ ، حملت البعض منهم على التخلي عن حقوقهم العينية . وقد اضطرت السلطات الاميركية الى شن حرب فعلية عام ١٧٧٤ ، و ١٧٧٦ ضد قبائل تشيروكيز ، وعام ١٧٧٨ ضد قبائل الايروكوا .

ومع ذلك ، فلم تكن هذه الامور اصعب المشكلات وأشقها مما وقف في وجه الحكومة الاميركية ، اذ راحت ولايات فرجينيا وكارولينا الشمالية وجيورجيا تطالب لنفسها بضم هذه الاراضي التي انتزعت من الهنود ، باعتبارها امتداداً لها ومكملة لحدودها . وقد اعترضت على هذا المطلب كل من ولايات ماستشوستس وكونكتيكت وماريلاند التي اوجست شراً من رقعة هذه الولايات الضخمة ، واقترحت على الكونغرس بان يجعل من الغرب اقليماً خاصاً خاضعاً للاتحاد . فاحبط في يد المجلس المنكود الحظ وبقي متردداً لمن من الجانبين يستجيب . فأمام إصرار ماريلاند ووقوفها موقفاً متصلباً من الاعتراف بالدستور ، اضطرت هذه الولايات الراغبة في التوسع ، للتنازل ، الواحدة بعد الاخرى ، عن مطالبها ومطامعها . وحوالي عام ١٧٧٨ ، اعتُبر الغرب مقاطعة خاضعة للاتحاد .

وقد أثار الرواد ، من جانبهم ، مشاكل عديدة ، في وجه الكونغرس ، اذ راحوا يسطون على المواشي وينهبون حدائق الكنديين الفرنسيين القاطنين كسكاسكيا وكاهوكيا ، بعد ان راحت إحدى الشركات ، تحاول انتزاع ملكيتهم . وبصعوبة كلية نال الكنديون من الكونغرس الاميركي ضمان حقوقهم في التملك والتعويض اذ ما تخلوا عنها . وقد اخفق مجلس الكونغرس الذي كان بحاجة ملحة للمال والجيش في حمل اسبانيا ، على منح الاميركيين ، حق الملاحة في نهر المسيسبي بعد ان اصبحت ضرورية لهم في عملية تطوير الغرب الاميركي . ولذا راحت اسبانيا تقفل النهر في وجه الاميركيين وتحرض الهنود على الوقوف ضدهم . واذ كان الرواد المستعمرون

لحاجة شديدة للمال ، فقد أخذوا يهددون بالانفصال عن الاتحاد ، كما راح فريق منهم يهدد، هو الآخر ، بالالتحاق باسبانيا .

كل هذه الامور والقضايا كانت مرآة انعكس عليهـا عجز الكونغرس الاميركي وضرورة تقوية حكومة الاتحاد . ولذا راحت ولاية نيويورك ، عام ١٧٨٢ ، وولاية ماستشوستس ، عام ١٧٨٥ ، تقترحان تعديل الدستور . وفي سنة ١٧٨٦ ، انتخبت الولايات مجلساً تأسيسياً ضم ٥٥ مندوباً ، اجتمع في ٢٥ ايار ١٧٨٧ ، برئاسة جورج واشنطون ، وأقر الدستور الجديد الذي صدر عام ١٧٨٧ ، هذا الدستور الذي تسير عليه الولايات المتحدة اليوم .

دستور عام ١٧٨٧

انشأ هذا الدستور الجديد عدداً من النظم والمؤسسات الجديدة التي « تعمل في سبيل الدفاع المشترك » ، ومن اجل « تأمين الازدهار العام » للبلاد ، وتحقيقاً لهذه الاهداف ، فقد الغى سيادة الولايات واستقلالها المطلق ، واعلن قيام أمة اميركية واحدة تتشكل من الولايات وتكون فيه بمجرد اعضاء باسم : « نحن شعب الولايات المتحدة » . ويجري العمل بهذا الدستور ويُعمل بموجبه ، عندمـا تقره تسع ولايات من اصل ثلاث عشر ولاية . فلم يعد اذاً للولايات من سيادة مطلقة ، وعلى الاقلية ان تتبع الاكثرية ، وبذلك اعترفت بسلطة بشرية اعلى من سلطتها وسيادتها الفردية .

استوحى واضعو هذا الدستور المبادىء التي نادى بها مونتسكيو وعلّم . وقد اخذ بمبـدأ الفصل بين السلطات تفادياً للحكم الاستبدادي المطلق ، وتجنباً لهذه الفوضى التي تفضي بالبـلاد الى الضعف والوهن وتؤول بالتـالي الى وقوعها تحت سيطرة الاجنبي . وقام بموجب الدستور الجديد حكومة قوية باعتمادها النظام الرئاسي في الحكم ، تحت حكم رئيس ينتخب لمـدة اربـع سنوات من قبل المجلسين ، وينفذ باسمها القانون . ينتخب اعضاؤهما المواطنون لغرض واحد هو انتخاب الرئيس . فالرئيس يمثـل ، إذاً ، الشعب الاميركي ، ويكتسب بهذه الصفة ، سلطة ادبية عظيمة ونفوذاً كبيراً . فالرئيس ليس مسؤولاً امام المجالس ، وهو يختار وزراءه ، كما يشاء ويرغب ، ويصرفهم عندما يستحسن . ولا يمكن لأي من المجلسين ان يرغمهم على الاستقالة ، اذا ما حجب عنهم الثقة . فليس هنالك من نظام نيابي بالمعنى الحصري . فباستطاعة الرئيس ان يتابع مدة ولايته التي تمتـد اربع سنوات ، السياسة العامة التي رسم خطوطها الكبرى عندما تم انتخابه شريطة ان يصادق المجلسان على الموازنة العامة .

ويضطلع الرئيس كذلك بجانب من السلطة التشريعية . فالقوانين لا تكتسب الصفة الالزامية الا اذا اكتسبت مصادقته النهائية . فاذا ما رفض الموافقة عليها وأبى إقرارها ، كان باستطاعة الكونغرس ان يتجاوزها شريطة أن ينال مشروع القانون في كل من المجلسين ، اكثرية ثلثـي الأصوات ، وهي اكثرية من الصعب توفرها . لا يحق للرئيس ان يقترح هو نفسه مشاريع القوانين، ولكن بوصفه رئيساً للدولة ويمثل مصلحة البلاد باجمعها، بامكانه ان يقدم اقتراحاته في رسائل عامة

يوجهها الى الكونغرس يعرض فيها الوضع العام في الاتحاد كما يستعرض قضايا الساعة ومشكلاتها وموقف الاتحاد منها .

وينوب عن الرئيس ، نائب الرئيس الذي يجري انتخابه مع انتخاب الرئيس ويقوم باعباء الرئاسة ومهامها عندما يستحيل على الرئيس القيام بها .

ويؤمن الدستور مراقبة المواطنين في معالجتهم القضايا العامة التي تهم الشعب الاميركي . السلطة التشريعية بيد مجلسين : مجلس النواب الذي ينتخب ممثلي الشعب فيه الناخبون في كل ولاية ، من الذين تتوفر لهم المؤهلات القانونية فتوليهم حق الاقتراع والاشتراك بعمليات الانتخاب لاكثر هذين المجلسين اعضاء . وتنتخب كل ولاية من الممثلين لها عدداً من النواب يتناسب مع عدد سكان الولاية .فالولاية التي تضم ارقاء ، للبيض وحدهم حق الاقتراع . وفي عملية تقدير عدد ممثلي الولاية في المجالس ، يعتبر الارقاء ثلاثة اخماس عددهم . فالبيض في الولايات الجنوبية هم اكثر تمثيلاً من البيض في الولايات الشمالية ، ينتخب اعضاء المجلس لسنتين فقط . وهكذا بإمكان الناخب ان يراقب ممثليه ويحاسبهم على اعمالهم اثناء ولايتهم .

هنالك خطر على الولايات القليلة السكان ، هذه الولايات بالذات التي تألفت منهم انكلترا الجديدة ، بأن تهدر مصالحها الولايات الكبيرة المكتظة بالسكان . ولذا كان لا بد من مجلس ثان للنظر في القوانين التي مرت على المجلس الاول وقد يكون اقرها في ساعة من الهوى او الغرض ولذا قام مجلس الشيوخ . فلكل ولاية شيخان يمثلانها ، مهما كان عدد سكانها . ويقوم بانتخاب اعضاء مجلس الشيوخ المجالس التشريعية القائمة في الولاية. وينتخب الشيوخ لست سنوات ،يتجدد انتخاب ثلث الأعضاء كل سنتين، وذلك تفادياً للتغييرات المفاجئة التي يمكن ان تقوم بها الاكثرية تحت تأثير حوادث عاطفية .

القوانين المقترح اصدارها يجب ان يصادق عليها كل من المجلسين . يمكن تقديم مشروع القانون المقترح لهذا المجلس او لذاك ، على السواء ، باستثناء قانون الموازنة العامة الذي يجب ان يصوت عليه مجلس النواب في الدرجة الاولى ، وذلك لتأمين مراقبة المواطنين لنفقات الدولة ، وبالتالي مراقبتهم لأعمال الحكومة واجراءاتها .

يشارك مجلس الشيوخ ببعض السلطة التنفيذية . فعلى الرئيس ان ينال موافقة مجلس الشيوخ على تعيين بعض كبار الموظفين في الدولة . فما من معاهدة يوقعها الرئيس مع الدول الاجنبية تكتسب الصفة القطعية ، ما لم يقرها مجلس الشيوخ . كذلك يمارس هذا المجلس جانباً من السلطة القضائية ، اذ يتحول الى مجلس أعلى ليقاضي الأشخاص الذين يوجه اليهم مجلس النواب تهماً معينة . وهكذا اتخذت الاحتياطات الضرورية لتفادي اي انقلاب يمكن للرئيس ان يقوم به .

ولكن المجلسين ليسا مطلقي التصرف في إقرار ما يرغبان في إقراره من القوانين . فالأقلية

قد تستهدف للضغط من قبل الأكثرية . ففوق القوانين يوجد الدستور الذي بموجبه يصدر ما يصدر من الشرائع والقوانين . وفوق القوانين التي يضعها البشر والدساتير التي تقرها الأمم ، هنالك شرائع طبيعية ركزها الله في الانسان وأولته حقوقاً مقدسة لا يمكن نسخها او انتزاعها منه : كالحرية وحق التملك او الحيازة . فكل قانون مخالف للدستور او يتنافى وحقوق الانسان الطبيعية ، باطل هو وساقط ، لا يُعمل به . فالمحكمة العليا مكلفة النظر والحكم فيما اذا كانت القوانين مطابقة لروح الدستور ولحقوق الانسان الطبيعية . هنا تقوم وظيفته الأولى. وهذه المحكمة تنظر وتقطع في القضايا الناشبة بين المواطنين والادارة ، وفي المشكلات التي قد تنشب بين الولاية والأخرى . فهي تتحرك للعمل بناء لطلب يتقدم به احد المواطنين او احدى ولايات الاتحاد . وهذه المحكمة تتألف من سبعة قضاة يعينهم رئيس البلاد مدى الحياة، تأميناً لما يتمتعون به من استقلال تام في اقضيتهم .

الجماعات عرضة للتغير والتبدل على مر الزمن وكر السنين . والدساتير التي يجب ان تحافظ على المبادىء العامة ، يجب ان تكون قابلة للتكييف وفقاً للظروف المستحدثة . فالدستور اذاً ، هو قابل للتكامل ، ويمكن بالتالي إدخال تعديلات عليه . تعديل الدستور يجب ان يتقدم بمشروعه ثلثا عدد الولايات . والتعديل يصبح جزءاً مكملاً للدستور اذا ما اقرته ثلاثة أرباع الولايات في الاتحاد ، من قبل هيآت خاصة تنتخب لهذه الغاية .

وقد رؤي اتخاذ اجراءات خارجية عن الدستور لتوسيع احكامه على الغرب الاميركي . فقد سبق واتخذ عام ١٧٨٥ ، قراراً باجراء عملية مسح للمنطقة الشمالية الغربية ، نص في بعض مواده على بيع الفدان الواحد من الارض بالمزاد العلني ، على الا يقل السعر الادنى عن دولار واحد للفدان ، يدفع نقداً . بوشر بعملية المسح عام ١٧٨٦ . والقرار الذي صدر في تموز ١٧٨٧ حول المنطقة الشمالية الغربية ، جعل من هذه المنطقة ارضاً تابعة للاتحاد ، وعين لها حاكماً وثلاثة قضاة ، واوصى بقسمتها الى عدة اقضية متميزة . فكل قضاء منها بلغ عدد السكان فيه ٥٠٠٠ من الذكور البالغين ، تمتع بحاكم عام يعينه مجلس الكونغرس ، وقام فيه مجلس تمثيلي منتخب ، ومجلس آخر ينتخبه الكونغرس من بين قائمة من المرشحين يعدها مجلس النواب . وعندما يبلغ عدد سكان القضاء ٦٠،٠٠٠ من الافراد الاحرار، يمكن له ان يصبح ولاية جديدة فيضع لنفسه دستوراً خاصاً ويرسل ممثلين عنه الى الكونغرس ، وينعم بكل الامتيازات التي تنعم بها الولايات الاخرى على قدم المساواة التامة معها . وهذا القرار اصبح الدعامة او الوثيقة الاولى التي قام على اساسها التطور العظيم الذي اخذ الغرب باسبابه .

وفي سنة ١٧٨٨ صادقت أكثرية الولايات على الدستور المعدل وبذلك اصبح نافذ المفعول . وقد ادخلت عليه ، فيما بعد ، عشرة تعديلات ، صُودق عليها في حينه واقرت وشكلت نوعاً من اعلان حقوق الانسان ، فهي تضمن الحرية الفردية ، وحرية الصحافة وتحظر على الكونغرس

تحديد دين الدولة . واذ ذاك تم انتخاب جورج واشنطون رئيساً بالاجماع واخـــذ بممارســة صلاحياته كرئيس اعلى للبلاد ، في ٤ اذار ١٧٨٩ .

كان على الدستور ان يؤمن بالضرورة ، وعلى الوجه الاكمل ، السلطة للبلاد ، والحرية لافراد الشعب وان يساعد على نمو الاتحاد وتأمين ازدهار الولايات المتحدة .

الولايات المتحدة واوروبا

لما كان الدستور الاميركي اول دستور محرر او مكتوب تضعه دولة كبيرة قام على المبادىء العقلانية ، وتشبع ، اسوة بوثيقة اعـــلان الاستقلال ، من مبادىء وافكار « الفلاسفة » الفرنسيين ، ولا سيما من المبادىء التي نادى بها مونتسكيو وعلم ، فقد اصبح ، كإعلان الاستقلال نفسه ، مصدر وحي وإلهام للدول الاوروبية المستنيرة . فالولايات المتحدة الاميركية التي تدين لاوروبا بوجودها وطريقة تفكيرهـــا وسياستها ، والتي تلقت منها الفن يوم كان هودون يرفع فوق كابيتول رتشموند ، تمثال جورج واشنطون على شاكلة تمثال لويس الرابع عشر برقم ديجاردين ، كما ان الكابيتول جاء نسخة عن المنزل المربع في مدينة «نيم» ، كما كان اوتيل سَلْم ''ملهماً لـبُناة البيت الابيض ، فرساي الجديدة ، وللباني التي قامت في واشنطون عـــاصمة الاتحاد الجديدة ، في هذا الوقت بالذات انتقل طراز غبرييل الهندسي الى بوسطن ، وقد ساهمت الولايات المتحدة بمحاصيلها وتجارتهـا في اعداد هذه التغييرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الـتي وصلـت الى اوروبا عن طريق الاتصالات الدولية ، وراحت تقدم لها ، اليوم ، مثلاً يحتذى ، لاكمال حركة التطور ، عن طريق نقل الثورة اليها .

كان الاوروبيون يتتبعون بشوق وحرارة اخبار اميركا ، وقلوبهم تخفق لكل خبر من اخبار صراعها . وعندما بلغ مدينة ألسنُور خبر نيل اميركا استقلالها ، «كان مرفأ المدينة يعج بالسفن من جميـع الدول ، وقد ارتفعت الاعلام ابتهاجاً وأخذ البحارة يهتفون هتافات الفرح والغبطة ... وقد راح ابي يثير فينا الشعور بالحرية السياسية ، فجمعنا حول المائدة وشربنا مع ضيوفنا نخب الجمهورية الجديدة ... » واستولى على الجميـع ، في أوروبا رغبة شديدة دفعت الناس الى احتذاء حذو اميركا والنسج على منوالها ، اوروبا هذه المتعبة ، المهتاجة ضد حكوماتها والتي اخذ فيها جميع البرمين ، المستائين ، ايـنما وجدوا : في بروسيا والممتلكات النمسارية ، وفي هولندا واسوج ، وجنيف ، ينظمـون المظاهرات الصاخبة . ولم يبلـغ الحماس في مكان ما من اوروبا ، مابلغه في فرنسا . وهذه الثورة الهادرة التي كانت وشيكة الانفجار ، في كل مكان ، قامت بها اوروبا لان ما تبقى فيها من مخلفات الاجيال الوسطى ، كان قريب الزوال لانه بدا للناس شيئاً لا يطاق . وقد عرفت فرنسا وهي اكثر حكومة مركزية في اوروبا ، وفيها أكبر طبقة مهيضة الجناح من النبلاء ، مؤسساتها الثانوية أشدّ ، عبودية . فكانت اكثر الدول تجانساً وأكثرها تماسكاً . وقد بدت فيها الثورة ضرورة ملحة ، كما بـدت وسائـل النهـوض بها سهلة التناول للغاية . ولم تكن فرنسا لتقنـع بـأن يقتصر العمـل الثوري عليها وحدها . فستحاول ان تجعل من حقوق الانسان ، انجيل البشرية الجديـد ، كما تجعـل من ثورتهـا اداة لتحـرير الشعـوب ، وصليبيـة ، تأخذ على نفسهـا انقاذ الشعوب والامم وتأمـين سعادة البشر .

القسم الثاني

مجتمع القرن الثامن عشر أمام الثورة

من اقل الامور احتمالاً وتوقعاً ان يرسخ في الارض المحتوى او المفهوم الثوري كنظام يعمل به . وهذا المجتمع الذي قام في العهد الملكي القديم والذي طوحت السنوات السبعون الاخيرة بالجانب الاكبر من اوضاعه المادية والروحية ، اصبح الآن مهلهلاً نخراً ولن يبقى منه بعد لأي من الزمن ، سوى الركام والحطام المتناثر . ومثل هذا الوضع تجلّى للجيل الطالع فهياً له على نطاق واسع ، الاسباب الكفيلة بتحقيقه والخروج به الى حيز الوجود .

فعنصر المفاجأة يكمن في اغراض الثورة واهدافها اكثر منه في العمل الثوري نفسه. وهو يتمثل على الاخص ، في ما اتخذت الثورة لها من نهج او صراط سارت عليه ، وما استعانت به من وسائل للخروج بالنهج الذي رسمت الى الفعل المحيز . فمدينة السعادة والحُجى التي ارتفعت قبابها تحت كنف الكائن الاسمى ، اثارت بين المواطنين مشاعر واحاسيس كثيرة الى جانب الارتياح الذي جاشت به نفوسهم في بدء الامر . فقد افتقرت الحركة لرضى الطبقة التي جُردت من امتيازاتها : وهو مجلى من مجالي المشكلة ، التي لم يفطن لها بالقدر اللازم ، القرن الثامن عشر الذي استرسل كثيراً وراء التفاؤل . فالبورجوازية والارستوقراطية اللتان تمثلان معاً عوامل الدفع والاستمرار ، ستنتصبان الواحدة في وجه الاخرى ، وتأخذان ، لمدة ربع قرن ، في صراع عنيف مرير لم تعرف البشرية ، خلال تاريخها المديد ، اعنف منه صراعاً واقسى . فالاتجاه نحو السعادة الشاملة لم يعتم ان افضى الى تصادم عام ، الى حرب طاحنة قامت على جبهتين : داخلية ثم خارجية ، الى حياة لحمتها القلق وسداها الاضطرابات . وعندما راح المارشال الامير شوارزنبرغ يتكلم في الوقت الذي كان فيه هذا الصراع يلفظ انفاسه الاخيرة ، باسم الردة الاوروبية على الثورة ، اخذ يصف «السنوات العشرين التي الفت سلسلة متصلة الحلقات من الاضطرابات والويلات ، فاذا «بالعالم يرى وهو مشدوه كيف تتجدد في عصر الانوار ، المصائب والنكبات ذاتها التي تضرست بها الاجيال الوسطى » .

هذا العالم « المشدوه » كان قد عاش بالفعل واختبر ، بعد ان تنازعه عاملا الإثارة والهلع ، ثورة اجتماعية لاهبة عارمة ، كما شاهد ارتكاساتها وردود فعلها العامة .

الثورة الفرنسية والدعائم النابوليونية

الفصل الأول

قوى الثورة

١ – القوى الطبيعية

في هذه المدينة ، مدينة القرن الثامن عشر ، التي لا نعرف عن اوضاع الحياة فيها اليوم ، شيئاً يذكر تهيأت اسباب الثورة وتمت حضانتها . وبواسطة هذه المدينة امكن القيام بالثورة والانقلاب الجذري الذي يعنيه . وهذه المدينة التي كانت المجلس الاجتماعي للتماظل التركيب والتي يمكن ان تحيي او ان تموت لكثرة ما قام فيها من حدثان وما شهدت من امور جسام والتي كان طابعها الاساسي بورجوازياً على درجات متفاوتة ، مهما كان اصلها او جاءت نشأتها ، تبدو، هنا، مركزاً للاعمال تعيش في بعض اقسامها على الاقل، من حياة البلاد الاقتصادية، تزدهر بازدهارها وتركد بركودها او تخفت بخفوتها، كما تبدو، هنالك، مركز جذب واستقطاب لرجال المال والاعمال في مجالات الصناعة والتجارة والفن وتأثيرهم المباشر على الطبقات او الفئات الاجتماعية القريبة منها او المتصلة بها ، ولا سيما على طبقة البروليتارية التي عاشت دوماً على اتصال مباشر برب العمل وصاحبه : مدن وقصبات وبورجوازيون ، هذا هو العنصر التاريخي المفسر الذي يبرز هنا اكثر منه في اي زمن من الازمنة التاريخية .

١ – المدن

الدفع الديموغرافي
ارتفاع عام في الاسعار

اخذ الدفع البورجوازي يحتدم ويشتد في الجيلين الاخيرين . فالنخبة القديمة بين الطبقات الشعبية اخذت تزداد غنىً وتنمو ثراءً ، وعدداً وتتعاظم نفوذاً وشأناً ، فعرفت اعمالها ومشروعاتها النجاح والاقبال ولاقت الازدهار . فبين الربع الثاني والاخير من القرن الثامن عشر ارتفع الانتاج الصناعي

الى الضعفين ، ومردود التجارة ، في الداخل والخارج ، وربما ازداد ثلاثة اضعافه ، كما ان التجارة مع المستعمرات ازداد نشاطها خمسة اضعاف فليس من هبوط في قيمة النقد يلفت اليه النظر . فأرقـــام المعاملات التجارية ترتفع باستمرار بصورة طبيعية دون اي ظاهرة تضخم . فالتوطيد المالي الذي تم سنة ١٧٢٦ ، وضع حداً نهائياً لتقلبات الليرة وتأرجحها ، اذ حافظت على وزنها حتى عهـد « فرنك بوانكاريه » ، كما حافظت على قوتها الشرائية حتى عام ١٩١٤ ، باستثناء الفترة القصيرة التي طلعت علينا فيها سكة الـ *Assignats* . فبالرغم من استمرار وحدة العملة ، اخذ معدل الربح دوماً بالارتفاع . والبورجوازيون من جميـع الألوان والاوضاع عرفوا ان يجمعوا ثروات هائلة بأسرع ما يمكن وباخصر الطرق . وهذا الوضع لا يعني قط ان العرق او الجلس الفرنسي تغير او تبدل . وهذه الطبقة البورجوازية الناصبة ، المقتصدة ، الحذرة ، التي قامت في القرن الثامن عشر ، والتي تجلت فيهـا أرسخ الفضائل والاخلاق العائلية والمنزلية ، هي هي بالذات الطبقة التي عرفنا وتبيناها من قبل، في الأجيال الماضية . لا شك في ان بعض صورها وأوضاعها العليا تبدي لنا بعض التأخر من حيث الفطنة والأخلاقية ، الا ان الاعمـال عندها ازدهرت تحت تأثـير عاملين مهمين . فالتضخم الديموغرافي لم يُحدث اي ارتفاع في سعر النقد الورقي وأرباح النقد الورقي . فالتضخم الذي سجل في عدد السكان ، وفي ازدياد المعادن الثمينة ، ترك اثره البعيد في ترسيخ النقد « الذهب » والربح « الذهب » .

ان تضاعف عدد السكان المفاجىء الذي نما ،نلاحظه جيداً في الربع الثاني من القرن الثامن عشر ،جعل نمو السكان في المملكة بمعدل تراوح بين ٣٠-٤٠٪. فمن ابرز الامور في هذه الظاهرة الاجتماعية ، هـذا الفارق بين الحركة الديموغرافية الساكنة ، في عهد الملك لويس الرابع عشر ، والحركة الديموغرافية الثورية في عهد العاهلين اللذين تعاقبا على الملك بعده . وهذا لا يعنى ان حركة المواليد زادت وارتفعت ، بل ان معدل الوفيات نقص او انخفض ، ولا سيا معدل الوفيات بين الطبقات الشعبية ، خلال هذه الازمات التي نصفها « بالدورية » . فلم يقع شيء من هـــذه الازمات التي تتصف « بالمجاعة » ، هذه «المجاعات» الاجتماعية التي هي اكثر تعقيداً مما تبدو في الظاهر ، والتي كثيراً ما صحبها انهيارات ديموغرافية ، تحتـاج الى نصف جيل للتعويض عن خسارتها . فالأزمة « المميتة » حل محلها ازمة « عرضية » او خفيفة هذه الأزمة التي تغضّ عن الحياة والتي تنوع مشكلاتها عن طريق ازدياد السكان وتكاثرهم .

وهذا الارتفاع في عدد السكان الناجم عن الثورة التي ألمّت بمستوى الوفيات ، كان من شأنه ان يحدث ضغطاً على أسعار الحاجيات الزراعية ، في بلد لم يعد ليأمل ان يرى على ارضـه عمليات إحياء زراعي واسعة تزيد من دخـله كثيراً ، وحيث تقنية المواصلات تُقصر استيراد المواد الغذائية ، على النزر النزير منهـا . فبين عدم قابلية توسع الاراضي الزراعية ، في البلاد ، وهو شيء معروف من قبل ، وبين حركة تزايد السكان المفاجىء يقوم تناقض «ملتوس» ، فأخذ ملتوس منه عبرة له وعظة . فقد بدا من الضرورة الملحة رفع معدل الانتاج في البلاد بكلفة

اكبر ، عن طريق استثمار احسن وأكفأ لهذه الاراضي التي يصعب استثمارها . وهكذا تأخذ بالارتفاع ، منذ مطلع الثلث الثاني من القرن كأنها حلقات تمسك بعضها باطراف البعض الآخر ، اسعار كل المواد الغذائية التي تسيطر على الاسواق التجارية ، اذ ذاك ، ولا سيا ، المحاصيل الزراعية التي تتعلق بغذاء الانسان وقوته وبالخامات الاساسية . ومن جهة اخرى ، هذه الزيادة في معدل السكان تفيد منها المدينة اكثر مما يفيد منها الريف. صحيح انطابع الأمة الاساسي يبقى زراعياً،غير انالمدنتتضخم بلسبة اكبر ولا سيا تلكالتي يتمركز فيها الاقتصاد القائم علىالرأسمال الذي كان مثاراً للنشاط التجاري ، هذه المدن التي كان يترتب عليها ان تؤمن اسباب السكن والكساء للمتدفقين عليها والنازحين اليها باستمرار ، طلباً للرزق ، فكان ذلك باعثاً على رواج الصناعتين الاساسيتين المسيطرتين ، اذ ذاك البناء والنسيج . ان ازدياد عدد السكان وتوزيعهم الجديد كان سبباً مباشراً في ارتفاع الاسعار ، وفي ايجاد مجالات ومرافق جديدة للتجارة .

وبعد التضخم في السكان ، جاء التضخم في « الذهب » ، وبعبارة اخرى ، في المعادن الثمينة ، حاملاً معه النتائج ذاتها التي حملها معه العنصر الاول ، على انساب واقدار ، ليس من السهل تحديدها وتوضيحها . فالقرن الثامن عشر درّ على اوروبا ، من الفضة والذهب اكثر بكثير مما دره عليها اكتشاف اميركا . وقد حدث اذ ذاك ، كما حدث في القرن السادس عشر ، وكما سيحدث مرات عديدة بعد ذلك ، خلال القرن التاسع عشر ، ان توفرت للناس وسائل اوسع وامكانات اكبر للدفع أيسرها طراً المعادن الثمينة ، بعد ان اكثرت الدول من ضربها سكة وطرحها في التداول ، فتسبب عن ذلك ارتفاعات ثابتة في معدل الاسعار . وهكذا ظهرت في الاسواق وبرزت المجالات التجارية التي اتسع نطاقها ، الاسعار بعملة الذهب . وبعبارة اخرى زادت كثيراً تحت التأثير المزدوج لارتفاع سعر الوحدة وازدياد حجم البضاعة المبيعة ، حركة الاعمال والاشغال بين المتعهدين البورجوازيين وتجاوزت حركة الاعمال والاشغال كثيراً النسب التي رسمنا من قبل ، صورة لها ، ولا سيا الارباح التي كانت عوامل كثيرة تحد منها اليوم ، كما في الماضي سعر الكلفة ، وخصوصاً معدل الفائدة والاجر ، فارتفعت بمعدل اقل من معدل ارتفاع الاسعار .

وهكذا ازدادت ثراءً وغنى ، الطبقة البورجوازية الناشطة ، على مختلف اشكالها ، من بورجوازية المال والاعمال والصناعة ، العليا الى البورجوازية الوسطى والبورجوازية الدنيا التي تسيطر على التجارة بالمفرق وعلى النشاطات الصناعية القريبة منها . وبالرغم من النقابات التي لم تكن توجد في كل مكان ، كانت المخازن والاشغال من جميع المقاييس تتكاثر في المدن النامية . وحدث ولا حرج، عن صناعة البناء والصنائع الأخرى التي تنبت على جوانبها. فقد كانت اكثر النشاطات التي تستفيد من حركة التجدد في المدن . وهذه البورجوازية المتعددة الوجوه والمظاهر ، لم تزدد غنى فحسب بل ازدادت كماً وقدراً ايضاً .

وعلى هذا قس ايضاً ثقافة الجماهير التي ازدادت هي الاخرى تنوعاً وغنىً ساعد كثيراً على

تطورها . فقد ازداد الاقبال على المواد الفكرية والعقلية بعـــد أن اصبحت من موارد الرزق وكونت مردوداً طيباً استهوى الناس فاقبلوا عليه . فالرأي العام الضيق ، الذي تمثـل قديماً في رأي « مدينة » القرن السابع عشر ازداد انفتاحاً واتساعاً وضخامة بحيث ارتـــدى مقاييس وطنية . فلدراري هذه الطبقة الآخذة بالتكاثر والنماء ، سواء أ كانوا من طبقتها العليا أم الوسطى أخذوا يؤمون الجامعة وينخرطون في صفوفها ، سيان لديهم أأحسنوا اللاتينية أم جهلوهـــا . وهذا الضرب الجديد من البورجوازية الذي أخذ بالانتشار والشيوع والصقل ، يوماً بعد يوم ، اصبح منصرفاً فكرياً وتربة خصبة تنبت المؤلفين كما اصبحت زبوناً كبيراً لم يلبث ان فرض رغــائبه المضمرة وهواياته المستبدة. فهي ، بعكس التعـاليم الكنسية التي تتجه من الحياة الابدية ، تسعى وراء السعادة القريبة المنال ، والدانية القطوف ، السعادة المـــادية ، الواقعية « البورجوازية » . فالقضايا التي يثيرهـــا كتابها ومفكروها والنقاد والمتشائمون المنادون بالشرور وعظائم الامور ، تمثل مشكلات تكمن بالقوة ، امام الطبقة الطالعة ، مشكلات سياسية تعنى بالدرجة الاولى ، باعادة توزيع السلطة هذا التوزيع الذي لا يمكن أن يتم مبدئيـاً ، ولو بصورة جزئية الا لمصلحة الطبقة البورجوازية . فالسلطان في تعبير العصر ، لم يعد ليعني الملـك فقط أو الأمير الحاكم ، بل « الجسم السياسي » ، والمشكلات الاقتصادية اخذت هي الاخرى تعني تحرير الاقتصاد ، وهي عملية تعود بالخير الكبير على البورجوازية نفسها. وهذا التحرر للاقتصاد ، هل ارتفعت الاحداث بالمطالبة به عالياً ، قبل القرن الثامن عشر ؟ لا شك في ذلك قط ، انما بصورة اضعف بكثير لعمري وأخف وبين وسط أضيق . والجديد في الأمر هو أن هنالك الآن تياراً قوياً وان شئت فقل مدرسة ، تسند بكل قواها مثل هذا المطلب ، في كثير من التضامن والتعاضد ، بعد أن غمر تيار اقتصادي عارم ، فرنسا وكل دول القارة باجمعها ، بشكل معين أو بآخر ، وعلى أثر هـذا التطور الذي طبع الافكار السياسية التي قالت بها هذه المدرسة ، والذي سيبقى الطابع المميز . والمطالبة بحرية الاقتصاد تتطور شيئاً فشيئاً وتتسع على شكل حساب التوجيه « الاستبدادي » الذي ميز مطلع القرن .

اهداف البورجوازية « المستنيرة » والعوائق التي تحول دون تقدمها

في وسع البعض ان يهاجموا ، ولا شك ، الفردية الاقتصادية باسم العـــدالة البشرية ، ولكن ليس باسم الفعالية . فحركة الاثراء الشاملة أو العامة ، ألم تكن آخذة بالاتساع والانتشار منـذ أكثر من خمسين سنة — أليس بفضل الارتفاع المستمر للاسعار بالعملة الذهب ومـــا يؤمنه من أرباح؟ — لا ، ليس هذا . فقد اشتطت في الجواب ، بل قل بفضل ارباب العمل لعمري ، ولا شك ا لا لزوم لاكثر من « ترك الامور تجري في أعنتها » ، ويتم كل شيء على ما يرام . على هذا النحو كان يفكر رجال العصر. وكيف لا تكون البورجوازية على ما يجب ان تكون عليه من التوعية واليقظة ، بعد ان اصبحت اكثر غنى وثراء ، واكثر عدداً ونصراء ، وأكثر وعياً وعلمـاً وتضامناً ، واكثر اتصالاً من أي وقت مضى في المدن ؟ وكيف لا يتم لهـــا من عمق الشعور

والتنبه ما لم تر بعضه من قبل بوصفها هيئة متميزة وممثلوها الامـــاثل على خير ما يكونون من الوعي والشعور والتحسس بهذا كله. ومثل هذا الشعور أخذ بالامتداد والانتشار بفضل المقاومة والصمود ؟ فالعدوة القديمة للبورجوازية طبقة النبلاء هذه تعمل دوماً على إقامة الصعوبات وإثارة العراقيل في وجهها وتقف كالمتاد عقبة كؤود ، تحد ان لم تصد من هـــذا الصعود او التطور الاجتماعي الذي اخذت البورجوازية باسبابه ، وهذه العراقيل التي عانت منهـا طويلاً ستكون يومياً سبباً للاحتكاك ، فتجعل الحويصلة الصفراء تنشط ابداً للعمل وإفراز المزيد من الاحقاد والمرائر بين الطرفين .

ويتفاقم خطر هذه العقبة فجأة . فمنذ ان انقضى عهد الملك المعظم وغاب ذكره عن الاذهان ليس ما يصدم الخواطر مثل الفارق القائم بين تطور البورجوازية المـــادي والروحي من جهة وبين تقهقرها المدني من جهة أخرى . فشأنها آخذ دوماً بالازدياد والتعاظم في الامور الحياتيـة أو المعاشية ، بينما لا حيثية لها ولا شأن في الدولة . فاستمتاعها المستمر بمراسيم التأثيـــل لا يثير مشكلة . فالقضية الاساسية المطروحة على بساط البحث تتعلق بصميم النّسَب ومعدل الاقدار ومدى المجالات المفتوحة امامها . فابواب الوظائف العليا موصدة تقريباً في وجههـا ، وكذلك أيضاً ابواب القضاء . فنبلاء المحتـد بمزاتهم المميزة الذين يملأون باحات البرلمان وبطانات المـلوك والامراء ، يؤخذون من بين صفوف ابنـاء طبقة الاشراف السفلى . وطبقة النبـلاء الوسطى اصبحت مع الزمن ، هي الاخرى ، وراثية . كذلك أوصدت امامها ابواب طبقة الاكليروس العليا . اما في الجيش فالوَضع بالنسبة اليهم اصبح افجع وأوقع فالارتكاسات والحركات الرجعية التي ألفنا وقوعها لم تلبث ان اصبحت وضعاً كرسه القانون . فقد حظر على ابناء البورجوازية ، منذ عام ١٧٨١ ، مباشرة الخدمة العسكرية ، برتبة ضابط . ويتحتم على طالب هذه الوظيفة من ابناء البورجوازية ان يثبت بالدليل القاطع ، حصوله على اربع شهادات تأثيل لـكي يحق له ممارسة هذه الوظيفة دون ان يخضع للخدمة العسكرية الفعلية . وَعبثاً اعتبرت حرة ومفتوحة امام الجميع المراكز العسكرية التقنية . وهكذا اصبح السلك العسكري مقفلاً الابواب امـام النشىء الطالع من ابناء البورجوازية، في وقت توفرت فيه الفرص وزخر«العرض»البورجوازي كما تضخمت فيه واستفحلت الطبقة البورجوازية نفسها .

وهل في بقاء الوظائف الوسطى والسفلى وقفاً على البورجوازية ما يشفي غليل هذه الطبقة ويخلق فيها شيئاً من القناعة والرضى ؟ فحدوث بعض استثناءات حرية بالذكر والتنويه يؤكـد بوضوح التمييز المدني الذين راحت البورجوازية فريسة له . وهذا التمييز المدني شمل كل ما يتعلق بالارض والمواريث . فقام بون كبير في الحقوق التي تنتظم الاطيان والاملاك والعقارات الخاصة بالنبلاء ، وحقوق الارتفاق المفروضة على الاطيان والاملاك والعقارات العائدة للبورجوازيين ، حتى ان بعض احكام هذا الارتفاق اصبحت مع الوقت عبئاً ثقيلاً وحملاً لا يطاق . قد يكون في استطاعة أي انسان ان يبتاع أي اقطاع يرغب في اقتنائه . فـاذا كان الشاري من طبقة الشعب

و الصماليك حمّلته عملية الشراء رسوماً وعوائد خاصة لا تطال الشاري النبيل . فهـل يشتري هذا البورجوازي غالياً ، راضياً مرضياً ، ما يمكن ان يصبح معه سيداً أو ربّاً ؟ فالعقار العائد لنبيل يبقى استثناءً او شذوذاً ، كما يستدل على ذلك من ريع الاقطاع الحر . « فالاقطـاعية » الفخرية وما تبقى من أثر الاقطاعية السياسية التي تعود بربح اكبر ، يزيد في تباين هذه الفوارق الاجتماعية العنصرية أو الطبقية .

«فالبورجوازية عام ١٧٨٨ هي اشبه ما تكون بمنبوذ اجتماعي .

لما ان تدق ساعة الاصطدام بطبقة النبلاء حتى تسرع البورجوازية، الى افراغ جام حقدها ، كما نرى ذلك في تصرف كروزيه ــ لاتوش أحد النواب العامين واحد نوابهم الاماثل ، الذي يأخذ، قبل ١٤ تموز (يوليو) ، بشجب هذا «الصلف المكابر» و «هذه الادعاءات البغيضة المتطرفة» ، و « هذا السيل العارم من المشاحنات المتعالية ، والمشاكسات الصارخة ، وهذا الفيض من الاهانات وهذه الخيانات المتمثلة على اتمها ، في الطبقة العدوة » .

اما الملك فيبدو متضامناً مع طبقة النبلاء . فهذه الحركة الرجعية التي بدرت من النبـلاء ، انما قامت برضاه وبالاتفاق معه ، ولهذه البورجوازية اكثر من سبب لتنقم على الحكومة ولسلقها بألسنة حداد . فالوضع المالي الذي تتخبط به البلاد فرصة سانحة للايقاع بها . فهي تتوق من كل مشاعرها الى ان ترى في البلاد ادارة مالية ، منتظمة بعد ان كثر بين ابنائهـا عدد مُقرضي الحكومة وحملة الاسهم المالية ذات الاستحقاق القريب الاجل. فهي ترغب صادقة ، بالاتفاق مع طبقة النبلاء ، بفرض رقابة شديدة عليها ، كما انها ترغب ، من جهة أخرى ، في مراقبة السياسة الاقتصادية في البلاد ، تفادياً « لازمات وضربات » مؤلمة ، كهذه المعاهدة الفرنسية الانكليزية التي عقدتها عام ١٧٨٦ . وهذا يستدعي بالطبع وصول بعض من يمثلها ، للمراكز الحساسة العليا لتحمل المسؤوليات .

والروح التي هبت على العصر أوحت لها بمطالب أخرى أهم واكبر ، لا سيما بعد الدرس البليغ الذي تلقته من الجانب الاميركي . فهي ترمي في الواقع ، يحدوها الى ذلك شعور يتراوح بين الشدة والضعف ، الى قيام مجتمع لا يعرف الطبقات ، مجتمع لا يكون أقل تهديداً وزعزعة لنبلاء العهد البائد من تهديم مجتمع لاطبقي للنبلاء ، هذا المجتمع الذي سيطلع فيما بعد .

ولمواجهة هذه التغييرات الجذرية التي ترتسم معالمهـا للعيان في الأفق ، كان باستطاعة البورجوازية ان تعتمد على قوى أخرى هي غير القوى التي لهـا . فاجتذابها للطبقة الطالعة ، تضمن لها اوساطاً أخرى وفئات جديدة . فبالرغم من تعارض صريح احياناً بين المصالح ، وهو تعارض يخفف من حدته أو يذهب بها كلياً كثير من التوافق ، نرى البروليتارية تشد بنواجذها على الايديولوجيا التي تقول بها . كذلك هنالك فريق من النبلاء المتحررين وعدد كبير من الكهنة ورجال الدين الذين تتألف منهم طبقة الاكليروس .

البروليتارية ومن هم في منتصف الطريق منها

والاختلاف بين البورجوازية وبين البروليتارية لا يقل قدماً وحدة عما قام من جهة أخرى من اختلافات بين البورجوازية والارستوقراطية.

ففي أي نظام اجتماعي اساسه الاستثمار يحاولون عبثاً، عن طريق الاستثناء والاغتصاب والروح النقابية، الوصول الى تحديد نسبة معينة بين قيمة الاجر الذي يأخذه العامل وبين ازدياد دخل البورجوازي. فقد هبطت كثيراً القوة الشرائية للنقد في هذا القرن. ولذا بدا البون فاضحاً بين ارتفاع دخل البورجوازي وبين هبوط أجرة العامل. فالخصومة الطبيعية القائمة بين الجانبين كان لا بد لها من ان تزداد حدة، وهذا ما حدث بالفعل كما يبدو في الواقع، ولكن ليس الى درجة يضؤل معها ما نرى من اختلافات وخصومات اخرى لا تقل قدماً وحيوية ونشاطاً عن حدة هذه الخصومة التي قامت بين العامل الذي يؤخذ عادة من بين فلاحي المدن، وبين الارستوقراطي، هذا الملاك العقاري الكبير المسيطر كلياً أو جزئياً، مباشرة أو بالواسطة، على الجانب الاكبر من الخامات المعدة للمبادلات التجارية كالحبوب وبين هذا البورجوازي الذي يتمتع خاصة لجهة الرسوم المعمول بها محلياً والمفروضة مباشرة او غير مباشرة، بالمحاصيل الغذائية التي لا يستغنى عنها.

ومما يلفت النظر في الوضع الاقتصادي السائد اذ ذاك، ما هو عليه منحنى الاجر من ثقل وسلبية اذا ما قارناه بتكاليف الحياة. ففي حرف عديدة يستثنى منها الصناعة الضخمة ولا سيما هذه الفئة الرأسمالية التي تمول صناعة النسيج، بقي معدل كلفة الحياة يحافظ لسنين عديدة على ما له من طابع المشابهة او المقاولة المقطوعة. فالعنصر المتقلب او العنصر الحاسم في الامر الذي يتمثل، قبل كل شيء، في الارتفاع او الهبوط الناجم عن ضواغط الموازنة او سهولة توازنها، هو ارتفاع او انخفاض سعر اهم المواد الغذائية التي يعول عليها الشعب في معايشه، ولا سيما الحبوب، او الخبز الذي يبلغ ثمنه، نصف معدل دخل الاسرة في السنة، بارت مواسمها او طابت. فالبروليتارية تبدو اذ ذاك حريصة جداً على تأمين مصالحها كعنصر مستهلك. ففي حالة حيف يصيبها او ينزل بها، نراها تفرغ جام غضبها على الارستوقراطي او على المحتكر الجشع. وكثيراً ما اضطرب النظام الاجتماعي واختل امنه من جراء حدوث ثورات او انتفاضات كان الباعث اليها انعدام المواد الغذائية. وقد قيل المصيبة توحد بين هذه الانتفاضات التي عبرت فيها عن نقمتها وغضبتها. فاذا ما طالبوا باستمرار الرسوم على المواد الغذائية، فالمطالبة بالحد الادنى من الاجور او « التمرفة »، تبقى من الامور الاستثنائية، وليست البروليتارية بحصر المعنى هي التي تقوم بالمطالبة، بل طبقة اصحاب الحرف والمهن المرتبطين بالبروليتارية، هذه الطبقة التي سيدور الحديث حولها، بعد حين. علينا ان نضيف هنا ان هذا الارتفاع الملحوظ لاسعار الخبز الذي يتفاوت كثيراً مع معدل ارتفاع اجر العامل، يردّه كثيرون الى تصرفات ممثلي السلطات العاملة كموظفين لبلديات ووكلاء الموظفين والمفتشين والمراقبين، هذا ان لم يكونوا كلهم على تواطؤ مباشر مع «المحتكر» والعمال وارباب العمل الضالعين جميعاً في مثل هذه الاستغلالات.

وما عسانا ان نصف به هـــذا البون الشاسع الذي نلاحظ وجوده بين البروليتارية العاملة في المصانع في عهدنا هذا وبين بروليتارية القرن الثامن عشر ، في المدن . وسنتكلم ، فيما بعد عن بروليتارية الريف ، هذه البروليتارية التي لا تزال مشتتة و « مستكينة » في مـــا تحالف عليها من وضع زري . فقد توزعت على اكثر من نصف مليون معمل او متجر . وكثيراً مـــا كانت بمثابة تكملة عدد في الوضع العائلي ، تعمل في خدمـــة رب العمل القديم محسوبة على التابع نفسه ، كثيراً ما تسكن معه تحت سقف واحـــد وتأكل على مائدته . فهل يعقل الا تخضع لنفوذه وسيطرته ؟ وباعتبارها عاملاً تابعاً او ثانوياً ، فهي تقـــع تحت تأثير المجال الاقتصادي والفكري البورجوازي ، فان ثارت او تمردت فخدمة منها للغير ، ومع ذلك فدورهـــا يبقى رئيسياً .

فاليد العاملة في الصناعة في المدن الكبرى والتي تؤلف وحدة مركزة نكرة حيث العامـــل يعيش ، على نسبة كبيرة ، عيش الهيئات العمالية في عصرنا هذا ، هي ميالة بطبيعتها للاستقلال وللشعارات العمالية . وعلى هذه قس ايضاً هـــذه الفئة التي تتناول ، في المدن ، اجرها من التاجر الرأسمالي بشكل ما او بآخر يكون الشغيل في صناعـــة نسيـــج الحرير خير نمـــوذج لها . فالعامل فيها يعمل في ملسجه او منزله ـ وغالباً ما يكون الاول ضمن الثاني ـ بعيـــداً عن مراقبة التاجر ، فهو يكاري بدوره عمالاً ليعملوا معه ، ويصبح قانونياً من هذه الناحية ، رب عمل . ولما كان امره مقصوراً على اشغـــال تقنية فهو يبقى تحت رحمة طلبات التاجر المسيطر على وسائل التنفيق والتصريف والتسويق والتوزيع . فهو ، من حيث الشكل رئيس ورشة . امـــا من الوجهة الاقتصادية ، فهو لا يخرج عن كونه أجـــيراً ، همه الأول ومطلبه الاكبر تأمين «تعرفة» للحد الأدنى كما سبق ونوهنا بذلك من قبل. فهو أجير عامل ، يجلب على صاحب رأس المال وجع الرأس . انه لعمري في مستوى افضل من الأجير البسيط وباستطاعته ان يناقش بحرية تامة شروط اتفاقية العمل . فهو في وضع احسن وأفضل ، ولديه امكانات اكبر . وكثيراً مـــا يكون مسكنه في حارات او في مساكن شعبية آهلة بأمثاله من العمال والشغيلة . وهكذا يقـــوم بينه وبين رفاقه زمالة السكن اذا ما فاتته زمالة العمل المشترك . وهنالك وسيلة اخرى تساعده على العمل التعاوني المشترك : هي النقابة او الرابطة العمالية ؛ اذ ان هؤلاء العمال هم بالفعل أرباب عمل . وهذه الرابطة لن يلبث الوضع الاجتماعي ان يجعل منها نقابة نصف عمالية. وهكذا يخوض عمال صناعة الحرير مثلاً ، الحرب على جبهتين : فيندفعون بكل قواهم يناضلون ضد طبقة النبلاء أسوة بالقرى والدساكر العمالية القائمة على ارباض المدن وفي ضواحيها . فهؤلاء واولئك هم ، على الاجمال ، 'متملـّون ، متشبعون من افكار ونظريات متقاربة بعضها من البعض الآخر ، الا ان يكونوا واقعين تحت تأثير رب العمل مباشرة او انهم لا يزالون في هذه المناطق والاقاليم التي وقعت فريسة التطرف الديني والتعصب المذهبي ، خاضعين لهذه النظريات والدعوات الدينية المتعصبة التي اقامت الكاثوليك ضد البورجوازية والبروتستانتية المتحكة باليد العاملة .

المدينة تقف في وجه امتيازات النبلاء

وهكذا قامت في وجه طبقة النبلاء ونصرائها في الادارات العامة مشاعر المدينة المعادية التي تنبض بالنفرة والعداء. فطبقة النبلاء ليست سوى أقلية ضئيلة لا يؤبه لها من الوجهة العددية بين مجموع السكان في المدن حيث تمثل أقل من ٢٪ من الشعب الفرنسي ، هذه الطبقة التي راحت تطالب عالياً باجراء تحقيق دقيق شامل بين أصحاب الرتب والمراتب لتحديد الاصيل منها والدخيل الطارىء ، والتي جمدت في وضع صلب لا ينثني ، وذلك في وقت اخذت فيه البورجوازية تنمو وتتسع ويشتد منها الساعد . ومع ذلك ، فهي تسيطر على جانب كبير من مالية البلاد يتمثل على اتمه في رؤوس الأموال المشاركة المستثمرة في ما يقع في حيازتها من الاطيان والعقارات والصناعات القائمة في البـلد الام او في الممتلكات الواقعة عبر البحار او في الحركة التجارية بين المستعمرات ، كالمناجم وصناعة التعدين والاستثمارات الزراعية الاخرى حيث يعمل وينصب ألوف مؤلفة من العبيد والارقاء المستوردين من الجزر . فالتجارة الكبرى هي مجالها الافضل . وتؤلف الملكية العقارية عندهـا العنصر الاساسي الذي تنهض عليه وتقوم به . فهي تملك ربع مساحة البلاد برمتها ، كما انهـا تسيطر على القسم الاكبر من الاخاذات . كل هذا يمثل ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار الدخل السيادي ، اكثر من ثلث مداخيل البلاد القابلة للتبادل والاتجار ، وثلث المحاصيل الغذائيـة الضرورية لمعيشة الانسان مما ينفق في الاسواق المحلية .وهب ان عدلتها مساحة الاملاك التابعة للبورجوازية فهذه الاملاك تتوزع على بضعة ملايين من الافراد ، عُرفت أسراتهم بضخامة إنفاقها العائلي على المواد المعيشية . فالرأسمالية العقارية وطبقة الاشراف ، واقطاعية النبلاء هما شيء واحـد في نظر العامة ويؤلفان في نظر علماء الاقتصاد ، العنصر الاساسي الذي تقوم عليه « الطبقة المالكة » .

من الطبيعي ، واسم الحق ، ان تتفرع طبقة النبـلاء وتتشعب كما تشعبت طبقة البورجوازية والبروليتارية الى عدد كبير من الفئات الاجتماعية . فهؤلاء واولئك هم في طليعة المستفيدين من ارتفاع أسعار المواد الغذائية ، وقد ارتفعت ، خلال هذا القرن ، قيمة محاصيل الاطيان والاملاك الزراعية . ولا بد لنا من ان نذكر هنا الثورة الاجتماعية الجذرية المتمثلة بوفرة اليد العاملة بفضل تناقص حركة الوفيات ، وبفضل ارتفاع الاجور ارتفاعاً يكاد لا يذكر ، ومزاحمة الملتزمـين والمتعهدين . فهبطت بالتالي كلفة الانتاج مفسحة المجال ، لفائض اضافي جاء يردف انتاج الارض وفائض الغلال. وبالنتيجة، ففي الوقت الذي راحت فيه اسعار الغلال الزراعية ترتفع من ٥٠ — ٦٠٪ ارتفع بالتالي معدل التزام الاراضي . وكذلك ارتفع ريع الاراضي السيادية : كارتفـاع الاسعار وزيادة خفيفة في مساحة الاراضي الزراعية، ونشطت الرجعية السيادية التي راحت تبعث حية عوائد ورسوماً عفا عليها الدهر وتناساها الزمن. كل هذه العوامل مجتمعة تضافرت معاً وفعلت فعلها. ان جمهرة صغار الملاكين، والمتعهدين الملتزمين والمرابعين تحملت وحدها وطأة هذا التوزيع الجديد للدخل ، بعد ان لم يعد احد يجهل التأثير العميق لهذا كله على الفلاحين . وقد اخذت هذه الجمهرة تشكو مريراً مما أحاق بها من حيف ومما نزل بها من ضعف ذات اليد، بينما راحت تُثري

قبضة من أصحاب الاقطاعات صبت عليها الجماهير الشعبية غضبها وافرغت دونها مرارة حقدها .

وفي الوقت الذي راحت فيه هذه الطبقة المتمتعة بمثل هذه الامتيازات العريضة والاعفاءات الضافية والتي ترفل بمثل هذا الوفر الطائل وتستمتع برتباتها الضخمة ، راح البورجوازيون ومن لف لفّهم من الاتباع يصبون عليها مرارة حقدهم . ان سلم الوظائف العامـــة في الدولة رحب وواسع . فبين الموظف الصغير من الفئة والسفلى والاداري الكبير ، مـن الفرق ما يزيـــد ٥٠ واحياناً ٦٠ ضعفـــاً . ومثل هـــذا الفارق الكبير بين أفراد هذا المجتمع الاقتصادي ، ما يصدم ويذهل ويترك اثره العميق في قرارة النفس . والمهم في هذا كله وفوق هذا كله هو ان يخضع الجميع شرعاً او عرفاً ، لمبدأ مثالي واحد . فعلماء الاقتصاد انفسهم يرون هذا الرأي . فهم لا يسلمون الا بفرض ضريبة واحدة موحدة تصيب ، على السواء ، نسبة كبيرة من أفراد الشعب ، ضريبة واحدة تفرض على ريع الارض وعلى عقود الايجـــارات والالتزامات وعلى الصافي من محاصيل الارض على اساس المعدل الفردي والمعدل العام للمجموع . فأصحاب الاعفاءات وأصحاب طبقة الاشراف يتمتعون بامتيازات تعفى معها محاصيلهم من الضرائب والرسوم ، وهي رسوم وضرائب عبثاً يدور حولها ويحاول التعرض لها الجباة المكلفون تحصيل ضريبة الواحـــد من العشرين . وبالرغم من حركة الثروات التي عكسها جيداً علماء الاقتصاد اذ ذاك ونظرياتهـــم حول الضريبة ، فالريع العقاري المركز المسيطر بين ايدي النبلاء ، ينعم الى حـــد بعيد بحق الاعفاء الضرائبي . والمواد التي تخضع في الدرجة الاولى للضريبة تتجمع وتحتشد في نطاق يتمتع بالاعفاء من الضرائب . فقد اصرّت طبقة النبلاء وتجحت في اصرارها ، على المحافظة على موقفها المكابر ، هذا الموقف الذي ستضطر مرغمة للتخلي عنه مبدئياً ، ولكن ليس بصورة مطلقـــة عامة ، في اللحظات الأخيرة التي كان النظام القديم فيها يلفظ أنفاسه .

يجب ان نستخلص من هذه المظاهر الأولية التي لا تفضي بالمراقب الى شيء واضح ، بانهـــا تعبير صريح عن تطور عام غمر العقول وسطا على الافكار . فالقول بظهور او قيـــام طبقة من النبلاء الاحرار او المتحررين ، والاعتقاد بان هذه الطبقة اخذت ترتاب بوجودها وتشك بقدرتها على البقاء وتتمنى بالتالي طلوع عهد جديد ، ليس سوى اسطورة او مظهـــر خارجي غرّار . هنالك ولا شك نبلاء متحررون كانوا مخلصين لنظريتهم وتفكيرهم المتحـرر يتمثلون على خير وجه في هذه الفئة التي طلعت علينا في شخصيات ديفيّون وكستلان وليانكور وغـــيرهم من قدامى المحاربين الذين اشتركوا بحرب التحرير في اميركا امثال لا فاييت ونواي والاخوة لامث الثلاثة . فالاكثرية الساحقة من ممثلي هذه الطبقة بقيت على موقفها المتصلب المعروف لا تحيد عنه قيد أنملة . فبدلاً من ان تهزها ثورة فكرية تقدمية ، فهي في حركة رجعية تحاول معها زيادة امتيازاتها ، جارة وراءها الدولة ، تتطلع للاستئثار بالسلطة السياسية في البلاد ، عن طريق البرلمان وعن طريق توسيع قاعدة تمثيل الولايات التي تم لها ولطبقة الاكليروس ، السيطرة عليها . فهي حريصة كل الحرص على ان تحافظ على حقوقها الاقطاعية : الاقتصادية منها والشرفية ، بعد ان رأت فيهـــا ممتلكات او مقتنيات لا تختلف بشيء عن الاملاك الاخرى التي تمت لها ، يؤيدها الملك في مطالبها

الملحفة ويشد من ازرها . فهي ترفض المساواة امام القانون كما ترفض التسليم بقانون العـــدد او الاكثرية . وسترى جيداً ، في حزيران ١٧٨٩ ، خلال المناقشات التي دارت مع ممثلي هـــذه الطبقة ، وفي الاحاديث الخاصة من يقول : « هل تنظر الى قائد الجيش نظرتك الى احد أفراد الجند ؟ » . مثل هذا الكلام هو على لسان وفي قلب كل نبيل على الاطلاق .

قوة الكنيسة

تؤلف الكنيسة من جهتها ركناً قوياً من أركان النظام الاجتماعي في العهد البائد في فرنسا . وهذا التأكيد لا يعني قط ان الاكليروس كان يؤلف كتلة واحـــدة متراصة ، مع العلم ان مصالح مادية واحدة وروابط روحية واحـــدة كانت تشد اعضاء هذه الطبقة التي تخضع لنظام مسلسل آمر .

يعول اعضاء هذه الطبقة في معايشهم على غلال الاراضي ومحاصيلها . فالاوضاع التي تتمتع بها هذه الطبقة التي تعمل على السواء في المدينة والريف ، من الوجهة العقارية ، هي اقـــرب الى الكمال . فتحت تصرفها في المدن اوقاف غنية من المباني والممتلكات الاخرى تؤمن لها دخلاً طيباً يقوم معظمه على الانتاج الزراعي . وقد تبلغ نسبة الاوقاف العائـــدة للكنيسة ١٠٪ من مساحة الارض في فرنسا . ويجبي الاكليروس العُشر من غلال الارض وتمثل هذه النسبة ١/١٣ من المحصول الخام للارض بما فيه البذار . وبالاضافة الى ذلك فالاقطاعات السيادية التي يملكهـا الاكليروس هنا وهنالك ، في جميع انحاء البلاد تؤمن له حقوقاً سيادية بالمعنى الحصري . فكمية الحبوب التي تحت تصرفه – وهي كمية بامكانه ان يبيعها مباشرة او بواسطة المتعهدين او المزارعين العاملين في خدمة الاراضي الوقفية ، تمثل جانباً كبيراً من المحصول الزراعي القابـــل للتبادل والاتجار . فاذا ما اضفنا الى هذا كله الربع العائد لطبقة النبلاء ، ألـّف المجموع الجانب الاكبر من المحصول الزراعي في البلاد .

وهكذا يبدو الاكليروس بفضل النظام الذي يتمتع به من كبار اصحاب الاملاك السيادية والعقارية . وقد زادت مداخيله بنسبة الزيادة التي اصابت مداخيل طبقة النبلاء ، وقد كانت لهذه الاعتبارات سبباً من أسباب الاحتكاك الطبقي والاجتماعي . صحيح ان الكنيسة كانت، تتحمل مصارفات عديدة ناجمة عن الاحتفال بالطقوس الدينية واعمال البر والمؤاساة والتصدق التي كانت تقوم بها ونفقات التعليم في جميع انحاء البلاد ، كما كان عليها ان تؤمن للاسقف عيشاً كريماً ، هذا الاسقف الذي لم يكن ليؤتى به من صفوف الشعب بل من بين ابناء طبقة النبلاء الصميمين . وعلى هذا ايضاً قس رؤساء ورئيسات الرهبانيات والاديار والكهنة القانونيين في الكنائس الكبرى ، وعدداً كبيراً من النواب الاسقفيين في كراسي الابرشيات الشهيرة البعيـدة الصيت . فليس من حاجة بعد لاستمطار نعمة الروح القدس وبركته لاختيار اصحاب هـــذه المراكز الدينية الكبيرة . والكاتب الهجاء الذي يستشهد بكلامه الاب«له فلون»،يضيف قائلاً : «تكفي وساطة السيد دوريزيه».ويتصرف اصحاب المراكز العليا من رجال الاكليروس وهم على

الغالب من ابناء الأسر النبيلة العليا ، بريع عال من دخل املاكهم يزيد احياناً على ١٠٠ الف ليرة اي ما يزيد ٢٤٠ ضعفاً على مرتب النائب الاسقفي ، كما يزيد ٤٠٠ مرة على الاقل ، على اعلى اجر يدفع للعامل في المدينة ، عن يوم واحد . والاعفاءات التي يتمتع بها الاكليروس تتناول هذا الدخل اكثر مما تتناول دخل النبلاء . فالاكليروس معفى قانوناً من ضريبة ١/٢٠ ، وهو يرفض بعناد واصرار البحث او المناقشة حول هذا الموضوع . فبعض الاستثناءات من الكهنة يجب الا تخدعنا . فامثال الكهنة شمبيون دي سيسه ، ولافرانك دي بومبنيان هم من هذه الشواذات القليلة التي خرجت عن خط الاكليروس الذي يؤلف ، في مجموعه مع النبلاء ، كتلة واحدة متراصة . فكلهم على اختلاف شديد مع فلاسفة العصر وتأليبهم للانسان . فالاسقف ، بما تم له من انتخاب وشرف المحتد والحسب والنسب ومما له من افكار ومبادىء ونظريات ، هو على طرفي نقيض مع البورجوازي ومع صعاليك الشعب في تمسكه بمصالحه الدنيوية والامتيازات التي ينعم بها . « فتجريده » من هذه الامتيازات عملية وطنية في الصميم .

وقد يكون هذا هو ايضاً رأي الطبقة السفلى او الوضيعة من رجال الاكليروس، هذا الفريق الذي يختلف نشأة ومحتداً وأصلاً وفصلاً واختياراً عما تمّ من هذا كله للاسقف. ولذا فالتفاهم بينه وبين ابن البورجوازية ليس بصعب قط ويسهل تحقيقه من وجوه عديدة . ولكن ما العمل وامامه عراقيل وصعوبات كثيرة روحية ومادية تحد من حريته . فالسلطة الكنسية لن تلبث ان تحطم المخالفين او الناشزين عن الخط ، فتنزل بهم صواعق القطع والحرم والبَسْل . وجل ما تستطيع الطبقة السفلى من الاكليروس صنعه هنا ، بالاكثر ، مسايرة الدفع الثوري. والوقوف الى جانب الرأي العام المحلي . فلن يكون في مجموعه رفيق طريق يُؤمَن جانبه ، وأقل من ذلك، قوة في يد الثورة وسيسهم احياناً ، ولا سيما في الارياف ، في مد الحركة الرجعية ضد التيار الثوري بالأُطر التي هي بحاجة اليها .

٢ – الارياف

الفلاحون الملاكون

قد يكون تبادر الى ذهن بعضهم ان جمهور الفلاحين المستثمرين لاملاكهم هم الذين استفادوا ، بالاكثر، باستثناء الذين افادوا من ارتفاع اسعار الضمان ومن ردة الفعل السيادية ، من ارتفاع عدد السكان وتضخم النقد الذهبي الذي تسبب في ارتفاع اسعار المواد الزراعية . فلكي يستفيد الانسان من حركة ارتفاع الاسعار يفرض فيه ان يكون لديه ما يبيعه . فالفلاح الذي له من محصول ارضه وغلال املاكه ما يستطيع معه ان يعيش وان يبيع هو من الندرة بمكان .

فليس اكثر ، مع ذلك ، من الفلاحين الملاكين . فكثرتهم توهم وتؤثر . فهم يملكون ٤٠٪ من مساحة الارض الزراعية . فممتلكاتهم عبارة عن قطع من الارض مساحتها بضعة دراهم او قراريط من املاك القرية ، فهي هنا : منزلٌ ومعه حديقة صغيرة او كرم عنب او كرم زيتون

او ارض* تزرع جنجلا او حشيشة الدينار ،مما يرد ذكره او بيانه كثيراً في السجلات العقارية او في قوائم توزيـع ضريبة الخراج . فيصيب الفرد الواحد من هذه الاملاك قسماً ضئيلا قلما يسد أوَد العيش في الاسرة . فالغلال قليلة المحصول . ان ثلث الارض او ما هو اكثر من ذلك بقليل يبقى محولاً (بوراً) ، كما ان البذار يمثل نسبياً ، قسماً كبيراً من محصول الارض يوازي احيانـاً الخمس او الربـع . فاذا ما قطعنا او طرحنا ١٠٪ منه لضريبة العشر وللضريبة السيادية ، فـلم يبقَ منه ما يقوم بأود افراد الاسرة ، وهي عادة كبيرة لتفي بحاجة الارض الى اليد العامـلة . وهذه الاسرة الكبيرة التي يعمل معظم أفرادها في الارض تستهلك مقادير كبيرة من الخبز . فما اكبر عدد الاسر التي يمد أفرادها أيديهم مستعطفين ، أيام الشدة وفي مواسم القحط ، وما اكثر عدد الاسر التي يظهر اسمها في سجلات العائلات المستورة التي تعاني الأمرين لضيق ذات يدها ، هذه السجلات التي نظمتها الثورة ! ان ردود فعل الريف الكثيرة امام الغلاء ، وامـام قحط المواسم الزراعية ، هي من مميزات هذا العصر . فلا عجب ان ترتفـع الاصوات منادية بالويل والثبور وعظائم الامور ، ويكثر الهرج والمرج في هذه المجتمعات الريفية وسرعان ما تتضخم صفوف المحتجين والمتظاهرين بمن ينضم اليهم من سكان الدساكر في السهل والجبل .

ومع ذلك ، هنالك بعض اعيان القرية يتصرفون بفائض من الغلال ويتجرون به . وليس من عجب قط ان يرتفع عددهم وان تتضخم صفوفهم فيؤلفون من بينهم بورجوازية زراعيـة . هنالك فئات متنوعة من الفلاحين الملاكين الموزعة املاكهم يعتمد اصحابهـا نهجاً اقتصادياً في عمليات المقايضات والمبادلات التجارية عرفوا ان يفيدوا جيداً من ارتفاع الاسعار ، ولا سيما فئة ملاكي الكروم الذين ألـّفوا من بينهم طبقة كان لها اثرها البعيد في حياة الريف . وقـد عاش هؤلاء واولئك ، مع ذلك ، اياماً شداداً وذكريات مريرة ، كما سيمر معنا بعـد حين ، في هذه الحقبة الممتدة من ١٧٧٠ — ١٧٨٠ . الا انهم عرفوا على العموم ، ان يفيدوا الى حد بعيد من الظروف المؤاتية .

اما الفئات الاخرى التي تؤلف جمهرة الفلاحين الملاكين ، فقد تضرس اصحابها بمآسي هذه الحقبة العصيبة . صحيح ان ما لهم من الارضين اتاح لهم ان يصلحوا من شؤون معايشهم بعض الشيء فتفادوا على انساب واقدار مقسومة ، مغبة غـلاء المعيشة بعد ان استحكمت حلقاتها برقاب العباد . الا انهم اضطروا ليؤجروا زنودهم واوقاتهم ليؤمنوا ما يحتاجون اليه من المواد الغذائية . فـكم من ملاّك صغير رقيق الحال ، عمل في الاوقات الصعبة ، خادماً او سائق عربة ، او بنّاءً وعماراً او حائكاً لقاء النزر النزير من اجر مجبول بعرق الجبين او بدمعة العين ؟ فوضعه المادي ليس بسر لجهله . فقد كبا به الدهر وهوى . فاسـعار الحاجيات اغلى بكثير من الاجر الذي يُصرّد له ، والبطالة في الريف بـدلاً من ان تخف وطأتها تزداد شدة وسوءاً . فقد راح فريسة تفـاعل عاملين بارزين : تكاثر عدد الناس وضآلة غلال الارض وشح نتاجها . ومن جهة اخرى ، فان تناقص معدل الوفيات بين الاطفال ولا سيما بين اوساط الفلاحين زاد تكاليف

الاسرة وابهظ قدرتها على الانفـــاق لتأمين اود الايدي العاطلة او القاصرة عن العمل ، فكان هذا وجه جديد من وجوه المجتمع المتخبط بالجديد من الازمات والمشاغل الضاغطة . فالتطور الاقتصادي خلال هذا القرن عاد على الفلاح الملاك باسوأ العواقب بدلاً من ان يعود عليه باليمن والرفاه ، بعد ان اضعف في الاسرة القوة الشرائية كما زاد كثيراً من عدد افرادها .

متعهدون ومرابعون

فما عسى ان يكون لمصري ، في حـــالة تضخم سعر النقد الذهبي ، وضع هذا المتعهد او الملتزم ؟ بالطبع عليه ان يبيع ليتمكن من دفع ما سيستحق عليه للمؤجر . نحن هنا امام فئة من الناس حالفها الحظ بعد ان جاء ارتفـــاع الاسعار يسير في ركابها ويحسن لها الرفد فيخدمها اطيب الخدمات . هذا هو بالذات وضع كبار المتعهدين الذين جاءت حركة المركزية الجديدة تضاعف من صفوفهم . سيحاول ارباب المـــال ومستثمرو رؤوس الاموال ان يوسعوا من نطاق عمليات الالتزام التي يقومون بها بحيث يلتزم الواحد منهم جباية العُشر والرسوم السيادية . فارتفاع الاجور بقي دون ارتفاع الاسعار بمراحل وهذا ما وفر مجالات جديدة امـــام هؤلاء المتعهدين الذين يكثرون الاجراء في بعض المواسم الخاصة الى جانب ما يتوفر للاسرة من يد عاملة . اضف الى هذا كله التطور التقني البطيء الذي كثيراً ما ساعد على تحسين قيمة املاكهم وغلالها . استطاع هذا الفريق من الناس ان يتدبروا امرهم بالتي هي احسن بالرغم من مضاعفة ايجاراتهم . ولكن الى جانب هذه الاطيان الضخمة كم من القطع الصغيرة ؟ كم هو اذ ذاك ، عدد الملتزمين للاطيان المتجزئة الذين سيحاولون بالطبع اجتذاب الفلاحين الملاكين اصحاب الاملاك المتباعدة او المشتتة ؟ فقد تأثر هؤلاء جميعـــاً من جراء ارتفاع اسعار الايجارات دون اي مقابل .

اما المرابع وهو وضع اكثر انتشاراً وشيوعاً من وضع المتعهد ، فهو في وضع من شأنه ان يدخل الوهم على الانسان . فالمرابع ورب العمل يبدوان ، امام القانون شريكين متضامنين . فقد اقترح سيسموندي في مطلع القرن الطالع ، جعل وضعهما شيئاً يحتذى به . فعلماء الاقتصاد والزراعة في القرن الثامن عشر يتفقون رأياً على ان المستثمر « بالنصف » لا يحيـــا بالفعل الا نصف حياة . ففي مقدور اقلية ضئيلة جداً ان تبيع ، اذ ان عدم توفر بضاعـــة صالحة للبيع يفسَّر بالطريقة نفسها التي ألمنا اليها من قبل عندما تكلمنا عن وضع الفلاح المـــلاك . فالسواد الاعظم يعمل ضمن اقتصاد مقفل اي انـــه يقتصر على الشراء . فسيد الارض يستطيع ، على عكس ذلك ، ان يبيع بسهولة لا سيما وفي مقدوره ان يختزن وان يجمع جزءاً من غلال الارض التي يملكها .

فهل في وسع المرابع ان يحافظ ، بالمقابل ، اقله على موقفه ؟ هل في مقدوره خلال هذا القرن بكامله ، ان يقتطع من غلة الارض التي هي باستثماره ، جزءاً سوياً ؟ وبالتالي مقداراً متساوياً من المواد الغذائية ؟ وتبقى الحصة بالنسبة للفرد الواحد ، في حال الاخذ بمثل هذا الافتراض ،

عرضة للنقص او التناقص لان الثورة الديموغرافية التي اخذت بتلابيب المجتمع زادت كثيراً من عدد افراد الاسرة العاطلين عن العمل او العاجزين عنه ، وهي زيادة لم يلبث المرابع ان شعر بها ووقع تحت وطأتها ، لا سيما وهـــو لا ينعم ، على العموم ، بالبحبوحة وبسطة العيش. فالوضع هنا لا يختلف بشيء عن وضع جمهرة الفلاحين الملاكين ، وهذه الفئات الشعبية البائسة يؤلف بينها تناقص معدل الوفيات ظاهرة اجتماعية شعر بها على الاخص كل من هم في مثل هذا الوضع فجاء عاملاً اضافياً ساعد على هبوط مستوى العيش في الاسرة .

فاذا ما تعادلت الامور كان لا بد من ريع المرابع ان يميل بالتالي الى الهبوط . ولكن هذا التعادل او التساوي لم يكن « في كل شيء » . ففي نظام المرابعة المعمول به ، لا يستطيع المرابع الذي يستلم دخله عيناً ، اي من محصول الارض ، ان يرفع من مقدار هذا الدخل ، طوال القرن ، الا في نطاق تسمح به نسبة ارتفاع اسعار الغلال والمحاصيل الزراعية ، اي بمعـدل يتراوح بين ٥٠ — ٤٥ ٪ اما نظام الالتزام فارتفاع الاسعار في ظله يبلغ الضعف . فلرب الارض او السيد وسائل كثيرة وذرائع عديدة لتحسين اوضاعه . في مكنته مثلاً ان يخفض من معـدل نفقات اعماله الزراعية « بتوحيده » اراضي المرابعة ، كما « وحد » مزارعه الخاصة ، وهي طريقـة من شأنها ان تجعل عدداً من المستثمرين بلا عمل . باستطاعته كذلك ان ينهج سياسة عكسية وذلك بتصغير مساحة الارض التي يعطيها مرابعة وتخفيض نسبة دخله من الارض بصورة تدريجيــة . ومثل هذا التصرف من شأنه ان يزيد من فعالية عمل المزارع اذ يضطره ان يعتني أكثر فأكثر بزراعة ارضه وان يتقن استثمار ما تحت تصرفه من الاراضي الزراعية بعد ان نقصت مساحتها، كما يضطره ، من جهة اخرى ، لمضاعفة الاعمال والخدمات . وفي مكنة صاحب الارض ان يرفع معدل الحصة المفروضة على المرابع وان يعدل من قيمة الرسوم والعوائد العقارية وان يزيد من ايام السخرة وان يفرض علاوة نقدية على الحصة التي يتقاضاها عيناً، فيقبضها عداً ونقداً تحت ستار ريع مرابعة او ضريبة استثمار ، كما يجري عادة في عمليات الاستمهاد . فلديه من الوسائل ما يمكنه من الاخذ بهذا كله دون ان يثير اي سبب للمشاحنات بينه وبين الفلاح المرابع ، بطريقة شيطانية ، هي طريقة الالتزام العام التي تساعده ، بايسر الطرق واسهلها على ان يساوي بين اسعار الارض المستثمرة مرابعة وبين الاراضي المعطاة بالالتزام. وبذلك يحافظ ظاهرياً على الاعراف والتقاليد المعمول بها في الزراعة بين سكان الريف في منطقته . وهكذا يبقى نظام المرابعة هـــو النظام المتبع . فالملتزم العام الذي يلتزم غلال عدد كبير من القطع الزراعية ، يدفـع للملاك رسوم استثمار ترتفع سنة بعد سنة يعود فيحصلها اضعافاً من المرابع الذي يرتبط به مبـــاشرة . فمن المفيد ان تقرأ بتمعن وتدبر هذه الصورة الوصفية المليئة بالعبر المستخرجة من سجلات الضرائب التابـع لإيالة «بورج» .

« يجري الملتزمون إلتزاماتهم بالسعر الذي يحدده اصحاب الاراضي . من هو لمعري ، كبش المحرقة في عمليـة استغلال كهذه ؟ هو بالطبـع المزارع او المرابع . ويأخذ الملتزم فيشرح للمرابع كيف انه ، التزم الارض بسعـر

مرتفع جداً وان عليه ان يستثمر دراهمه بحيث تدر عليه ما يجب من الارباح ثم ينهي حديثه معه بقوله : هذه هي شروطي . فان لم تعجبك ، فهنالك من هو على استعداد للعمل بها . فيضطر المرابع للنزول عند الشروط القاسية المفروضة عليه ، فاين يذهب ان رفض ؟ وعليه ان يؤمن ما يقوم بأود عائلته والاولاد ، هنالك بالطبع متعهدون او ملتزمون يعترفون صراحة انهم ملزمون للعمل على إنهاك الفلاح وارزاحه (مأخوذ من ج . لوفيفر في كتابه : « القضايا الزراعية في عهد حقبة الهول ») .

الرأسمال العقاري والمنتجون

فاذا ما اخذنا باقوال البعض ، فنظام المرابعة بالنصف لا يعتم ان يصبح ، على هذا الشكل نظام مرابعة بالربع .

فالمرابعون والملتزمون كانوا بالطبع على خلاف دائم مع الملاك سيد الارض ، أي مع طبقة الملاكين ، على العموم ، وهو خلاف زادته حدة واذكت أواره حوادث عدم التوازن المتصلة الحلقات خلال القرن الثامن عشر . فمع الريع العقاري الذي يتضاعف والاجر المتناقص الذي يدفع للفلاح البائس ، معارضة صارخة . وهذا التحدي ليس بالعقبة الصغرى التي تواجه صغار البورجوازيين من الملتزمين حتى ولا كبارهم الذين يستطيعون بنسبة تتباين حجماً وقدراً ، الصمود في وجهها . ففي نهاية كل ايجار أو التزام يعمد الملاك دورياً ، عن طريق رفع رسم الالتزام ، الى مصادرة ، كل الربح الإضافي الذي أتاحت له تحقيقه ظروف اقتصادية مؤاتية أو مقدرة الملتزم ونشاطه خلال مدة الالتزام . فالاصطدام « بفئة الملاكين » في الارياف هي من هذه الامور التي لا مناص منها ولا حيدة عنها . هذا التصادم مع الرأسمال العقاري المتمثل على اتمه في الطبقتين الناعمتين بالامتيازات العريضة وصاحبتي حصة الاسد في كل استعهاد زراعي أو التزام مرابعة بالاضافة الى ما لهما من حقوق عينية في الحصيد وجباية الاعشار بوصفهما من ذوي الاقطاع امر لا يمكن تفاديه .

وبالاضافة الى هذه الاعتبارات ، تقيم طبقة الملاكين ضدها فئات الفلاحين الثلاث التي تكلمنا عنها اعلاه . فالرسوم والعوائد الدسمة التي تتقاضاها ، ولا سيما حصتها من الحصيد وجباية العشر ، هذا العُشر الذي هو من مقومات النظام الاقطاعي الصميم ، ترهق الملاك والملتزم والمرابع . فاذا ما تحسسوا معاً بشعور مشترك فهذا الحقد الذي يحملونه عنيفاً يوجهونه ضد اصحاب الاقطاع وما يمثله من رسوم وعوائد باهظة .

فهم يتحملون ، والحق يقال ، كل مساوىء العهد بما فيه الضغط الذي تمارسه منظمات أقل وطأة . فسجلات الرعويات ليست سوى صرخات داوية في وجه اصحاب السيادة . وهذا النظام نفسه ساء وازداد رداءة خلال هذا القرن ولا سيما في الثلث الأخير منه . فهنالك رسوم وفرائض عفا ذكرها وتنوسي ، انما عادوا فأحيوها واستأنفوا الاخذ بها بينما ازداد وقر رسوم اخرى لا تزال معلوماتنا عنها ناقصة لليوم ، لا تروي غلة حول مدى هذه الردة السيادية وشدتها . الا انه ليس من شك قط من حدوث هذه الحركة الرجعية التي تضرست بها كذلك ، على اقدار متفاوتة ، الطبقة البورجوازية في المدن بوصفها من اصحاب العقارات والاملاك .

اما فئة اصحاب الاملاك والعقارات المشتتة او المتباعدة بعضها عن بعض ، والمرابعين الذين كانوا يضطرون احياناً لتأجير سواعدهم وقواهم الجسدية تأميناً منهم لموارد إضافية تساعدهم على تأمين اسباب العيش لهم ولذويهم ، فقد أولوا هذه الحركة الرجعية لديهم ، بصورة تلقائية ، شكلاً آخر اشمل واوسع.. فقد خضعت غلال الارض ومحصول المواسم لاستيفاء العُشر والحصة المفروضة على الحصيد حتى ولو قصر الموسم عن سد حاجة الاسرة من المواد الغذائية، فتضطر، والحالة هذه لشراء حاجتها من الاسواق او من العمل المأجور الذي يؤديه رب البيت . وبسبب الهبوط الذي لحق بأجر العامل ، فالمقادير التي تمثل الرسوم السيادية تؤمن عن طريق تأدية كمية اكبر من الشغل والسخرة . فاذا ما قدرنا رسوم العُشر وحصة السيد من الحصيد بنسبة ايام العمل الثابتة المفروض على المرابع تأديتها بالمقابل، شالت كفة الرسوم وزادت كثيراً. وفي حال افتراض استقرار قيمة الرسوم المتوجبة ، وهو افتراض لا يصح قبوله ، والأخذ به مهما بلغ التفاؤل من الانسان ، فكل دخل او ريع سيادي يقابله دوماً مجهود بشري ابداً في ارتفاع .

بؤس البروليتارية الريفية

وهذا الهبوط يصيب الاجر في الصميم هو هبوط اشرنا الى وجوده من قبل وتوقفنا عنده هنيهة ، وقد تضرس العمال به في الريف، كما تضرس به العمال في المدينة . فهو ينزل بالعامل اليومي في الريف ويلحق دارس الحنطة على البيدر ، وخادم المزرعة وعامل النسيج في منزله يعمل لتلبية توصيات الرأسمالي في المدن ، كما يصيب العامل اليومي في الدسكرة او المزرعة . هنا ايضاً ترتفع قيمة الاجرة على اساس العملة الفضية ، ولكن بصورة اقل بكثير جداً من كلفة الحياة لدى افراد الشعب . وكثيراً ما يُدفع قسم من الاجر لقاء العمل في المزارع عيناً لتقديم الغذاء مثلاً للعامل او بعض الحبوب . ولو فرضنا جدلاً ان هذه الرسوم الجباة بقيت على حال واحد لكان هبوط القوة الشرائية للعملة استهلك بكامله . الا انه بسبب بعض الاستثمارات الريفية الضعيفة المردود او الفاشلة وازدياد عدد السكان في البلاد اشتدت البطالة في الريف اكثر منها في المدن التي لم تلبث ان اصبحت قطب جذب للعاطلين عن العمل . ومهما يكن ، فالعامل بالاجرة في الريف يبتاع عادة جانباً من حاجة اسرته للخبز ويخضع للمؤثرات ذاتها التي يخضع لها العامل في المدينة . فهو يشارك ، مثله ، في المظاهرات والفتن التي تنشب من وقت الى آخر للمطالبة بالمواد الغذائية . وقد تضطره هذه الانفعالات الطبقية للوقوف في وجه متعهدي الـفعَلـة في الوقت الذي تتجمع فيه اليد العاملة بمن تحتاج اليهم الاستثمارات الكبرى . فهو ينتمي مع ذلك ، الى فئة معينة من الطبقة البروليتارية هي من هذا اللمم الذي لا تجانس بين افراده الذين يتألف سوادهم من اناس نصف بروليتاريين ، من هذا الجنس بالذات الذي اتينا على وصفه اعلاه ، كصغار الملاكين والمزارعين والمرابعين العاملين الى جانب الملتزم . وهذه الفئة من العمال المياومين والخدام العائشين في المزارع والدساكر او على الاملاك السيادية ، كثيراً ما يأكل افرادها على مائدة المزارع ، وهم اكثر توزعاً وشتاتاً واكثر تآلفاً من فئة العمال في المدن . ولذا نراهم يتحركون ويدورون في مجال التابعية الاقتصادية

والايديولوجية لطبقة خاصة من البورجوازية ظهرت في الريف. وعلى هذا قس ايضاً المهني العامل في منزل لبورجوازي في المدن ،التي منها يخرج ، على انساب متفاوتة الداعية والمبشر . فهؤلاء وأولئك على السواء كثيراً ما يتعاطون عدة حرف ريفية وكلهم يشعرون عميقاً بما بينهم وبين الطبقة المتملكة من فوارق جذرية . وهكذا تتجسد وتتضخم احقاد البورجوازية والبروليتارية في المدن والارياف ، ضد الطبقة الاقطاعية العريقة وضد الدولة للحظوة التي توليهم اياها .

هذا هو لعمري الشعور العام الذي يسيطر على النفوس ويرتسم على الوجوه والذي يجدر ان تقوم حوله دراسة جغرافية . فالمدن تبدو على الاجمال ، اكثر تجانساً من الريف حيث العزلة التابعية للملاك العقاري ، والتماس الشخصي المحلي الموصول بين النبيل ورجل الدين يقف حاجزاً ويؤلف عائقاً في توجيه هذه الخصومة القائمة .

٣ – ازمة ١٧٨٩ الاقتصادية

مواسم زراعية رديئة وارتفاع مستمر في الاسعار

هذا « الازدهار » المنسوب للقرن الثامن عشر ، انما هو ازدهار طبقي تركز بنوع خاص في الطبقات العليا للمجتمع البشري في فرنسا .

هذا الازدهار الذي طالما تغنوا به ، انقطع حبله في مستهل عهد لويس السادس عشر ، مع العلم انه لم يكن يوماً مطرداً ولا متصلاً . وكانت تقوم ، اذ ذاك ، كما تقوم اليوم ، أزمات اقتصادية تزيد الحروب الناشبة من حدتها وشوكتها ، حروب رافقها حصار بحري اوقف كل نشاط تجاري وعطل كل حركة تجارية في البلاد . غير ان ايام الشدة والضيق لم تكن لتطول ، اذ كان يعقبها ايام سعة وهناء يتناسى فيها الناس بسرعة ايام المحنة التي تضرسوا بها . ولم يكن تم للاقتصاد الفرنسي بعد ، التخلص من عقابيل آخر أزمة نزلت بالبلاد عام ١٧٧٠ التي تكونت في الصميم من عدد من الازمات المحلية او الاقليمية تجمعت حول هذه السنة بالذات . واخذت البلاد ، عام ١٧٧٦ – ١٧٧٨ ، تشعر بوطأة تدهور عام استحكمت حلقاته ابان حرب الاستقلال الاميركي ، وبقي الناس يتألمون من شوكة هذه الازمة اللاذعة حتى بعد ان وضعت هذه الحرب اوزارها . وصناعة النسيج التي عانت من نقص فادح في القطن من جراء الحصار البحري الذي فرضته الاساطيل البريطانية، اخذت تعاني مريراً وتشكو من جديد من نقص فاضح في الاصواف وهو نقص يجب رده لفقدان المراعي والعلف ، عام ١٧٨٥ . وجاءت المنافسة الدولية الحادة التي نشطت عبر المانش ، في انكلترا تزيد الطين بلة والوضع سوءاً في اعقاب توقيع المعاهدة التجارية، عام ١٧٨٦ . ومن جهة ثانية ، فالارباح التي كانت تدرها الكرمة على البلاد – هذا النوع من الدخل الزراعي الشعبي – اخذت تتقهقر وتتدهور لتنهار تماماً منذ عام ١٧٧٧ ، في فترة الاثنتي عشرة سنة التالية . هنالك لعمري قطاعات وجوانب في الحركة التجارية بقيت بمعزل عن هذا الوضع العام.من ذلك مثلاً الاتجار بمحاصيل المستعمرات التي لم تكن اليد العاملة الفرنسية

لتهتم بها او تكاثرث لها. وعلى مثل هذا قِس ايضاً قطاع البناء . فنحن هنا لسنا امام ازمة عامة حادة ، من هذه الازمات الدورية التي تنقض على البلاد ، بل بالاحرى امام حركة جمود اوركود مستمرة . فاذا بأزمة ١٧٨٩ الدورية تطل فجأة في وقت كان فيه الاقتصاد الفرنسي يشكو الأمرّين .

وهذه الازمة التي أنشبت اظافرها الحادة اخيراً في البلاد،حملت في ثناياها كل شوائب العهد. فقد ابتدأت ازمة نقص في المحاصيل الزراعية في المرحلة الاولى ، ثم لم تلبث ان تحولت سريعاً الى ازمة نقص فادح في الاستهلاك الصناعي جارّة وراءها مصاعب ومشكلات اقتصادية هزت اركان البلاد من اساساتها .

جرفت سنة ١٧٨٨ العاصفة في ما جرّته من غوائل البرد والصقيع والعواصف الهوجاء التي هبت على البلاد اذ ذاك ، جانباً كبيراً من المواسم الزراعية ، في وقت لم يبق في البلاد سوى قسم ضئيل من المواد الغذائية المختزنة . ان اباحة تصدير الحبوب للخارج واعطاء ترخيص بذلك لكالون وبريين ، في العام الفائت تركت اثرها السيء ونتائجها الوخيمة على البلاد . فقد راح العهد يشجع ، اكثر من اي وقت مضى ، تصدير الحبوب بحيث فاق ما صدر منها ، عام ١٧٨٧ المعدل المعروف ، اربعة اضعاف ،كما بزّت حركة التصدير هذه ، عام ١٧٨٨ ، المعدل الاخير ، سبعة اضعاف ، بالرغم من القيود التي فرضها الوزير نكير . الا ان ضعف وسائل النقل ، لم تسمح ، ولا شك الا باخراج كميات ضعيفة على الاجمال. فقد كان في مثل هذا التصرف الطائش ما اقلق الرأي العام واهاجه ، لا سيما وقد دلت الدلائل على ان المواسم الزراعية ، لعام ١٧٨٩ ، ستكون سيئة في جميع المناطق ، وقد جاء الخُبْرُ ، في نهاية الأمر ، تؤيد الخَبَر . فارتفعت اسعار المواد الغذائية بصورة جنونية اذ ارتفع سعر إردب القمح من ٢٢١ لحاسة و١٠ صولد عام ١٧٨٧ الى ٣٤١ و ١٢ ، عام ١٧٨٩ . وهكذا بلغت موجة ارتفاع الاسعار ٥٠٪ وهو المعدل السنوي للاسعار . وبالطبع بلغ ارتفاع الاسعار أوجه في الاشهر الختامية لسنة ١٧٨٩ و ١٧٩٠ . والمادة الغذائية الاساسية الشعبية زاد ثمنها مائة بالمائة . وهذا الغلاء جر وراءه ، بالطبع ، اسعار الخضروات والنبيذ التي جاءت مواسمها ، هي الاخرى ، رديئة عاطلة .

وبدلاً من ان ترتفع الاجور بالنسبة ذاتها انخفضت بالاحرى في الريف عن المعدل المعروف في المدينة . والعمل قلّ الطلب عليه . وراحت جماهير من صغار المستثمرين تزاحم العمال المياومين على اعمالهم بعد ان قلت لديهم اسباب الرزق . كذلك نزل الضيق بالفئة الاخرى من المستثمرين ، اذ لم يبق تحت تصرفهم سوى قسم ضئيل من البضائع او المواد القابلة للاتجار ، يخسرون على الكميات اكثر مما يربحون على الاسعار . فتكاليف الخبز التي يبلغ معدلها عادة نصف تكاليف اسرة العامل اخذت تمتص ثلاثة ارباع موازنة الاسرة ، هذا اذا ما افترضنا ،

في الاساس ، حصوله على اجـــر ثابت . وهكذا تقلصت فجأة القوة الشرائية في الارياف ، كما تدنت قدرة المستهلكين في المدن .

انهيار الانتاج الصناعي واستحكام البطالة في البلاد

وهذه الضائقة تنزل بالانتـاج الزراعي في البلاد ، اقترنت كما هي القاعدة عامة في النظام الاقتصادي الذي ساد عليه العهد القديم ، بأزمة حادة اصابت الانتاج الصناعي . فقد كانت سوق الحبوب، البوصلة او ميزان الطقس بالنسبة للمصانع في البلاد ، كما وصفتهـا ادارة تفتيش الصناعة . سبق لنا وتكلمنا مليا عن ارتفـاع اسعار المواد الاولية وعن المعاهدة التجارية المعقودة مع انكلترا . فقد استحكمت حلقات الازمة خلال السنة بعد ان تأزم الوضع الزراعي في البلاد ، فأصيبت كل المراكز الصناعية الكبرى بالجمود ، من نورمنديا الى شمبانيا ، ومن مصانع الجوخ في الشمال الى « المصنع الكبير » في مدينة ليون . فهبط الانتاج الى اكثر من النصف كما هبط بالتالي معدل العمل واجور اليد العاملة . وامتدت الازمة الى المرافق الاخرى الاساسية والكمالية على السواء كصناعة البناء والمفروشات ، وانقطع النشاط في حي سان انطوان . ففي هـــذا المحيط العمالي العاطل عن العمل والذي اصيب في الصميم، من جهة الاجور اومن جهة الاسعار، انطلقت الثورة او بالاحرى الفتنة المعروفة بفتنة ، «ريفيّون» ، فـلم يعد لاي قطاع كان ان يسجل اي ربح او كسب . فانهالت الافلاسات تترى وتكاثرت حوادث الاعلان عنها ، فقد تكدست الديون على المحل التجاري الكبير في مدينة روان الى خمسة اضعاف رأس ماله ، مع العلم ان هذا المحـل هو اكبر البيوتات التجارية في البلاد .

والهزات السياسية التي توالت تباعاً منذ عام ١٧٨٩ زادت الامور تعقيداً والوضع حرجـاً . فالضغط على سوق الحبوب والازمة العامة استطالا حتى سنة ١٧٩٠ المعروفة بطيب مواسمها .

واخذت تلوح في الافق الاعراض العامـــة الملازمة لكل تصفية نهائية : فانهارت اسعـار الحبوب وتراكمت بين ايدي الفلاحين المحاصيل القابلة للتبادل التجاري ، واستعادت الاوساط الريفية وأوساط المدينة القدرة على الشراء ، والصناعة استعادت اسواقها في الداخل ، والشعور ببوادر التضخم في النقد جعل النـــاس يستبشرون باقتراب الانفراج والانفلات من القيود الضاغطة ، بحيث تنعم البلاد بشيء من التوازن الدقيق يستمر حتى نهاية عهد الجمعية التأسيسية .

وانتقال الثروات البطيء الذي حدث في عهـد لويس الخامس عشر زاد في احقاد الطبقات واثار ضغائنها . فالمشكلات الاقتصادية التي قامت في عهد لويس السادس عشر ولا سيما ازمـة ١٧٨٩ الحادة منها ، كانت بمثابة صب الزيت على النـــار الغافية فأثارت هذه الاحقاد وجاشت في الصدور تتشابك بعنف ، واطلقت في البلاد صراعاً طبقياً مريراً، فلم تلبث الازمة الاقتصادية ان استحالت ازمة سياسية واجتماعية .

فهل من عجب ، والحالة هذه ، ان يذهب الناس كل مذهب في اتهام الحكومة ويرموها بكل فريّة ويجعلونها مسؤولة مباشرة عن هذه المشكلات التي يتخبط فيها رؤوساء الاعمال والعمال، والمنتجون والمستهلكون ويتضرس بها الجميع، يرون فيها ازمة بشرية اكثر منها اقتصادية؟ فهم يجهلون كل شيء عن مقوماتها الروحية والفكرية . والتفتيش في المصانع والمعامل يتحرى لدى ارباب العمل ويتلمس معرفة الاسباب الدفينة التي ادت بالمجتمع الى مثل هذا التفكك والانهيار . فجعل بعضهم النظام الاداري المسؤول الاول عن هذه الكوارث كما نزل آخرون باللائمة على الشركة الهندية التي تحتفظ ، وهي الفرنسية ، بمستودعاتها وعنابرها ، في كل من لندن وامستردام ، بدلاً من مدينة لوريان . ورأى آخرون في سماح فرنسا للولايات المتحدة الاميركية تمويل المستعمرات الفرنسية مسؤولاً بعض الشيء عن هذا الوضع المتردي ، وعزا بعضهم هذه المساوىء للقرار الملكي الذي حرّم على العسكريين ارتداء جوارب الحرير ، كما عزاه فريق آخر الى غلاء سعر الاصواف . وجعل السواد الاعظم علة هذا البلاء المعاهدة التجارية التي ابرمت مؤخراً مع انكلترا . وقد كان هذا رأي المفتش العام للمالية بالذات . فليس من اهمية بالطبع ان تكون هذه التهم العديدة مجتمعة، اسباباً صحيحة ، المهم هنا هو هذه الحملة الفكرية للرأي العام في البلاد . ان غالبية الناس رأت ان المسؤول الأول والأكبر عن هذا الوضع الاقتصادي المتأزم هو الوزارة والهيئات العامة في البلاد .

أما الطبقات الشعبية فقد رأت الامور بشكل ابسط . فهي تتهم بالدرجة الاولى الاجهزة التي ساعدت على نشر البطالة في الصناعة . فالازمة تتمثل في كليهما على السواء ، ان في المدن أو في الريف ، فتبدو تارة في ندرة المواد الغذائية ، وطوراً في هذا الارتفاع الهائل لتكاليف الحياة الذي اقلق الخواطر واثارها. فقد رأوا في الامر فرصة سانحة لاتهام النظام القائم وجعله مسؤولاً عن مساوىء السياسة الزراعية في البلاد . فأخذوا يتساءلون مثلاً لماذا راحت الحكومة تشجع اقامة المروج الخضراء دون زراعة الحبوب ؟ كما تتساءل عن الاسباب التي تركت الدولة معها الحبل على الغارب لزراعة الكرمة دون العناية بالفلاحة والزراعة ، وقد جهلوا ان الزراعة لا يمكن ان تعيش وان تزدهر في ظل نظام ضرائبي ثقيل الوطأة . كل هذه الشكاوى والتذمرات تعلاّت قديمة قدم الانسان فراحت الازمة تعيدها من قرار الذاكرة الانسانية للخواطر ، محاولة تغذيتها في النفوس وتركيتها امام الناس .

كل هذه التبريرات تتعلق بالمسؤوليات البعيدة . اما القريبة أو المباشرة منها ، فلا تقل عنها وضوحاً . وراحت الاسئلة ترتسم على الشفاه وترقص امام الاعين . لماذا سمحوا باخراج هذه المقادير الهائلة من الحبوب خارج البلاد؟ لماذا لم يضعوا حداً لحركة التصدير هذه ؟ فقد اتخذ الرأي العام من المجاعة وفقدان المواد الغذائية من الاسواق ذريعة للحجاج العنيف . فما من أحد يعتقد بصلاح هذا التعليل حتى ولا ارثور يونغ . فالكل يرى ان اصحاب المصالح المغرضة بالغوا في هذه التهم

عن سابق قصد وتصميم . فحكاية المضاربات المالية في البورصة هي على كل فم ولسان ، هذه المضاربات التي غضت السلطات المسؤولة الطرف عنها ان لم تكن سمحت بها واجازتها . ألم ترفض هذه السلطات التدخل في الاسواق لتجعل الاسعار عند حد معقول مقبول ؟ فلم تسمح بتطبيق العلاج الشعبي الفعال وهو فرض العقوبات الرادعة على المخالفين . وهكذا أخذ موظفو البلديات والوكلاء الاداريون والمفتشون الماليون يفقدون من اعتبارهم بعد ان استهدفوا مراراً لانفجار غضب الشعب وفورانه . ومن جهة أخرى فلسكان الارياف وجهة نظر خاصة في هذه الازمة الزراعية . فالمزارعون انفسهم الذين اعتادوا ان يحتفظوا ببعض محاصيلهم الزراعية برسم البيع، رأوا مواسمهم تبور بعد ان امسكت الارض رفأها ورفدها فلم تطلع الا بالنزر النزير . فتوفير البذار اللازم وتأمين ما يلزم من المواد الغذائية للاسرة يستهلك معظم الموسم ويخلف وراءه على أي حال ضغطاً قوياً ووقراً ثقيلاً ترزح تحته مواسم السنة الشحيحة . والحال ، فالحقوق السيادية العينية وفريضة العُشر نفسها لا يقومان على الحصول الصافي بل على الحصول الاجمالي او العرفي . فمن لم تؤمن مواسمه الزراعية اسباب معيشته ، والذي تبدلت منه الحال من بائع الى شار ، عليه ان يؤدي كاملة غير منقوصة ، الفرائض والرسوم المقررة وفقاً لحجم الغلة وطاقة المحصول ، عليه ان يبتاع بأي ثمن ، ما فيه أود اسرته وما فيه وفاء عوائد النبيل ورجل الاكليروس .

وهكذا فالازمة الاقتصادية التي انشبت اظافرها الحادة ، عام ١٧٨٩ ، والتي تثاقلت وطأتها الخانقة على المدن والارياف ، وأناخت بكلكلها المرزح على التجار والمزارعين ، وعلى جماهير الشعب واصحاب المهن والصنائع ، واصحاب الاجور الصغيرة ، صهرت في بوتقة واحدة كل المتذمرين الناعبين ، وأحرجتهم جميعاً فأخرجتهم . فقد تركت اثرها العميق على الخصومات الطبقية المتراكمة ضغائنها في الصدور على مر الزمن ، وزادت في النفوس الملتاعة مرارة الاحقاد . فبعد ان كيفت نفسها مع الذهنيات الاجتماعية المتأتية عن النُظم القديمة ، هذه الذهنيات التي ولدتها الخصومات ، فلن تلبث أن اصبحت قوة هادرة وعاملاً جديداً من عوامل التهديم السياسي .

واستمرت الازمة مستحكمة بالبلاد ، مستبدة بالعباد حتى منتصف عام ١٧٩٠ ، الى درجة انها ليس فقط لم تخمد جذوتها مع طلوع الحوادث الثورية الاولى، بل أبقت الجماهير طويلاً تحت وطأتها الثقيلة ، وكابوسها المرزح .

وهكذا بدت البورجوازية والبروليتارية بمثابة المحرك الاول للثورة والنافخ الاكبر في بوقها . فالدور الموجه يعود للطبقة الاولى دون ان تؤلف مع ذلك وحدة مستقلة ، اذ ان عدداً كبيراً من افرادها ما زال تحت التأثير الفكري للطبقات الممتازة الاخرى واحجموا عن ولوج الطريق المنفتح امامهم . فاهدافها التي قل التحسس بها ، والحوادث الاولى التي وقعت والتي ساعدت كثيراً على توضيح معالم الطريق ، كانت على طرفي نقيض مع مبادىء النظام القائم . وأي شأن

أو كبير أمر ، من الوجهة النظرية ، ان تتجه انظار ذوي الطبقات الممتازة الى إعطـــاء بعض الحريات الفردية أو العامة ، أو يرضون بالتنــــازل عن الاعفاءات المالية ، التي ينعمون بها ؟ فسنراهم ، خلال الجمعية التأسيسية وقد ضاقت عليهم الانفاس و ُنبذوا جانباً . ولكن هـــذه البورجوازية تتطلع من جهتهـــا وبكل نوازعها المختلفة ، نحو تحقيق السيادة العليا وتشرئب بانظارها الى مشاركة الملك بها . فهي تتمسك بعناد ، بقانون العدد أو الاكـــثرية الذي يفضي بنهاية الامر الى انتصارها وتأمين فوزها . فهي ، قبل كل شيء وفوق كل شيء، تطالب بالمساواة المدنية . فللحرية والسيادة قيمتها الخاصة ولا شك . فهما تساعدان على تحقيق المساواة وتأمين استمرارهـا في المجتمع . اما المشكلة الحقيقية فهي شق الطريق امام مجتمع جديد ، مجتمـــع بورجوازي لا وجود للطبقات فيه ولا يقوم لها فيه نظام . فالاهداف ثورية في الصميم بينما الوسائل المسفة لم تصل بعد الى هذا الحد . ان افراد النظام الجديد يطلبون من النظام القديم ان يضحي بنفسه فيقوم من ذاته أو ان يقوم هو نفسه باصلاح ذاته بصورة حبية .

كان من شأن منهاج على مثل هذا النحو ان يثير حماسة الطبقات الشعبية التي كان لها هي الاخرى مطالبها الخاصة ، هذه المطالب التي جرى التعبير عنها بصراحة ووضوح في هـــذه العرائض والالتماسات الراعوية والتي ابدتها الانتفاضات الشعبية التحررية مطالبة بالغــاء النظام الاقطاعي والغاء الرسوم والعوائد السيادية ومكافحة الغلاء واسبابه عن طريق الغاء الضرائب والرسوم والتعريفات على المواد الاستهلاكية ، وفرض المراقبة على سوق الحنطة ، وحماية حقوق تملك الفلاحين من تعديات كبار الاقطاعيين العقاريين . ولم يكن بين هذه المطالب ما يهدد بشيء مطالب البورجوازية ، فليس بغريب قط ان يتفق الطرفان على العديد من هذه المطـــالب الاساسية المشتركة .

ثانياً ـــ عدة الثورة وادواتها

لم تدع الثورة هذه القوى الطبيعية الهائلة المتوفرة لديها على حالتها البدائية . فمنذ ان ارتفع كل وهم وسقطت الغشاوة عن الابصار باستحالة تحقيق أي اصلاح بصورة سلمية ، وابتدأت المعركة ، راحت الحركة الثورية توحد من هذه القوى وتجمعها حزمة واحدة . فقامت بين ١٧٨٩–١٧٩١ ، في جميع انحاء البلاد ، مجالس بورجوازية ، دخلتها على انساب مختلفة عناصر من العهد الماضي ، تتأثر اقدار متفاوتة بضغط الطبقات الشعبية ممثلة بهذا العدد الكبير من اللجان ومجـــالس البلديات والجمعيات والنوادي المتباينة الاشكال والمظاهر والالوان . فيقوم من بينها ما يشدد من اواصرها . فهذه الجمعيات والصحافة والحرس الوطني والاحلاف التي قامت اذ ذاك ونشطت للعمل ، برزت للميان اجهزة دعاية وإعلان تدعو للثورة وتعمل لهـــا ، مهما تباينت منها النوازع واختلفت بينها الاغراض وتلونت معها وجهات نظر الواحدة عن الاخرى .

المجالس البورجوازية والنوادي والصحافة

جاء قيام هذه الوحدات وتشكيل هذه الهيئات التي تألفت منها عـدة الثورة وادواتها الفاعلة ، في وقت واحـد واستمرت تظهر وتعمل بلا انقطاع . فاللجان والبلديات التي كثيراً ما نزعت باشكال مختلفة لانشاء تحالف عام من بينها ، اخذت منذ عام ١٧٨٩ بممارسة السلطة المحلية . وراح عـدد كبير من البلديات جرى انتخابها عام ١٧٩٠ وفقاً لاحكام الدستور تتجاوز بدافع من المنظمات الشعبية القائمة وضغطها ، الصلاحيات المخولة لها بموجب القانون . وكانت هذه المنظمات والجمعيات نشأت في المدن الكبرى في الوقت الذي أطلت فيه على الحياة ، في تموز (يوليو) من السنة نفسها ، السلطة الجديدة ، للبلديات . ولم يلبث نفوذ هذه الهيئات والمنظمات ان اشتـد بسرعة واقامت ممثلين لهـا في أطراف البلاد على اقدار مختلفة من الحول والطول ، حسب وجودها في الاحياء والمدن والدساكر مع ما بينها من تباين في النظريات السياسية . فالجمعية الثورية وحدهـا ، والحق يقال ، نمت وازدهرت ولعبت في المجال الثوري دورها الحاسم . فقد كان النادي الرئيسي الذي انشأته يؤمن الاتصالات بين النوادي الاخرى ويذيع على الملأ ، القرارات وكلمة السر والشعارات بـين الاعضاء ، كما راح ينظم عرائض مشتركة ويعلن للعموم عن قراراته ويعلقها في الساحات العامة ليتمكن الجميـع من قراءتها والاطلاع عليها ، ويتدخل في حياة البلاد الادارية ويدعو للمثول امامه موظفي الادارة العامة ، ويأخذ تحت حمايته الوطنيين الأحرار ، ويقف بعد الاضطرابات والهزات التي يثيرونها او يدعون اليها ، في وجه ملاحقتهم من قبل القانون ، ويشهّر بالرجعيين المناوئين للثورة ، ويراقب جلسات المحاكم عن طريق ممثلين له يحضرون جلسات القضاء ويطلب بان تخصص لهم مراكز خاصة على مقربة من قوس المحكمة ، ويعارض في تنفيذ بعض الاجراءات والتدابير التي اتخذتها السلطات ضد الثورة ورجالها ، ويعهد الى اناس من قبلـه بمهات خاصة ، ويحضر بكامل اعضائه الاحتفالات الرسمية . وكان في مقدور افراد الجيش من اي رتبـة وصنف كانوا ، ان يحضروا الجلسات التي يعقدها هذا النادي ، كما أقام علائق من المكاتبات والرسائل مع ادارة الجيش وقيادته ، وتدخل حتى في صميم شؤون النظام . واخذ النادي يوجه لمن يستحق ، اللوم او الثناء ، كما انه أمّن الاتصالات مع كل الملاكات والأطر الجديدة ، وحرص على مراقبة التيارات الفكرية والحياة السياسية في البلاد . ولعل ما هو احسن من ذلك كله انه اخذ يعمل على توجيه هذه السياسة ويسعى لتغليب وجهـة نظره في الامور المعروضة على بساط البحث .

هذا هو بعينه الدور الذي قام به النادي البريتاني القديم الذي رأى النور اثر الشجار الذي نشب بين ممثلي الطبقات الثلاث ، وتأثيره العميق عام ١٧٩٠ ، على نوادي اليعقوبيين التي بلغ عددها في البلاد ١٥٢ نادياً . وكانت طبيعة هذه النوادي واهدافهـا تختلف طبعاً باختلاف المكان والزمان . فالنادي هو ، على الاجمال « فرع » محـلي لفرع الحزب الثوري في المنطقة ، وهو السلطة العامة شبه الرسمية . وكثيراً ما احتدم ، بهذه الصفة ، الخلاف بينه وبين السلطات القانونية ، والمجلس الوطني نفسه الذي كثيراً ما اتخذ ضده احكاماً واجراءات بقيت غير نافذة المفعول ، فبعد ان تحدّت النخبة الثورية الادارة الملكية القديمة واعتكفت في النادي ، راحت تتحـدى

الهيئات الجديدة نفسها وتدخل معها في عراك مرير . ومهما يكن فقد اخذت هذه النخبة على نفسها توجيه الرأي العام وراحت تستغل الى اقصى حد ، الوضع السياسي والاجتماعي المتأزم .

ووسائل الاعلام والاعلان من جرائد واعـــلانات وكراريس وبطاقات ، لعبت من جهتها دوراً مماثلاً للدور الذي لعبه النادي . فبعد ان اطلقت حرية النشر والكتابة في مـــايو – يونيو (ايار – حزيران) ١٧٨٩ ، اصبح من الميسور استعمالهـــا ، مبدئياً ، كالنادي نفسه للعمل في خدمة الارستوقراطية او الحركة الوطنية. فالارستوقراطية التي عدت في صفوفها كتاباً ومفكرين يحسنون امتشاق القلم ، احسنت الدفاع عن نفسها فجالت وصالت في هذا الميـــدان . ولكن الصحافة الثورية انطلقت بكثرة واخذت بعد الرابع عشر من تموز (يوليو) بالازدهار والتألق . والصحافة المتطرفة امثال : « صديق الشعب » الذي انشأه مارات في ايلول (سبتمبر) ١٧٨٩ ، والذي اخذ على نفسه التشهير بالرجعيين كما اخذ يدعو الى العصيان المدني ومقاومة قوانين البلاد ، لقي من الرواج والانتشار ما يذهل ويخبل العقل . فقد زرع الرعب وسمر الخـــوف في قلوب الارستوقراطيين والمعتدلين في موقفهم . وقد ساعد هذا الشكل الجديـــد من الادب السياسي ، طوعاً واختياراً ، او غصباً وكرهاً على رواج النداءات والشعارات الثورية الجديدة التي ساعدت على انتشارها وسريانها اما باقتباسها وامـــا بالدعوة لها . فقد انسابت وتغلغلت كالنوادي ، في الولاية وبين وحدات الجيش .

الجيش والحرس الوطني

وهذا الجيش عملت الحوادث الثورية تباعـــاً على تفكيكه وايهانه . فرؤساء تشكيلاته معظمهم من النبـــلاء ، فألفوا بذلك ضمن اطره طبقة خاصة . اما الافراد الذين تتألف منهم وحدات هذا الجيش ، فقد تشبعوا بمشاعر الشعب واحاسيسه . فقد كان قسم من وحداته لا يقيم في القشلاقات بل يشاطر اصحاب المنازل الخاصة السكنى معهم ، اي ينزل ضيفا على البورجوازي . فمنذ يونيو – يوليو (حزيران – تمـــوز) ١٧٨٩ ، سيطر على هذه الوحدات جو عابق بالروح الثوري والايديولوجيا الثورية ، وذلك من جراء ما يقاسي افرادها من غلاء اسباب المعيشة ، فاخذوا يرمون ، كغيرهم من الناس ، المحتكرين بكل تهمة وفرية وبالتواطؤ مع كبار المسؤولين . وهكذا ، اشتد موقف المعارضة بعد النجاح الذي سجلته الجماهير الشعبية . وقد أخـــذ افراد الجيش وصغـــار الضباط بالافكار الثورية والشعارات التحررية المدوية كما وقعوا تحت اغراء وجاذبية هـــذه المساواة المدنية التي رأوا من خلالها الف احتمال للترقي والتطور . والضباط النبـــلاء اصبحوا اكثر فاكثر مظنة وموضع ارتياب كالطبقة نفسها التي ينتمون اليها ويؤلفون معها كتلة واحـــدة . ويحرص الضباط الذين يتخلون عن رتبهم ومراكزهم في الجيش على تهشيم الصامدين من زملائهم وقتلهم ادبياً فوقعت بين صفوفه وتكررت حوادث العصيان والتمرد . وقام في وجه جيش العهد البائد جيش جديد حديث كان عماد الثورة وركيزتها الاولى تمثل ، قبل كل شيء ، في المليشيا البورجوازية ، ولم يلبث هذا الجيش ان اصبح الحرس الوطني الذي ضم بين صفوفه نحواً من ثلاثة ملايين . وانشأ الحرس

الوطني له على شاكلة المدن والنوادي ، شبكة من الاتصالات بين مناطق البلاد المختلفة . وقد جاء تشكيل هذا الجيش يتباين نزعة سياسية وطابعاً اجتماعياً بحسب منشأ افراده وتشكيل وحداته . فالعناصر « المنشطة » منه تسيطر على مختلف المراكز وتلعب دوراً بارزاً ، اكبر مما يسمح به عدده نسبياً ، ولا سيما في الاحياء الشعبية في المدن الكبرى والارياف . ومهما يكن ، يؤلف الحرس الوطني ، اي الثورة المسلحة ، ضمانة للعهد الجديد تجاه اي حركة رجعية هجومية يقوم بها العهد القديم ، وضد الحركات والانتفاضات التي يسببها فراغ صبر الطبقات السفلى . وقد اتفق له احياناً ان يترك الامور تجري في اعنتها عندما تكون العناصر الثورية الجديدة هي التي تهاجم وتقوم بكفاحها ضد السلطة السيادية كما تجلى ذلك ، منذ عام ١٧٩٠ ، اذ ان اكثر من ٤٠ الف بلدية ريفية كانت على اتصال مباشر بالفلاحين تستنجدهم وفقاً للحالات الطارئة ، دعماً منها للحركات الثورية او عندما تريد ان تتجاهل الحوادث وتشيح عنها بنظرها .

فالحرس الوطني لن يتصرف ابداً منفرداً او يعمل لوحده ، حتى ولا جماهيرياً ، على اساس هذا الاعتبار . فالعناصر التي تشترك منه في الاضطرابات والقلاقل الشعبية لا تؤلف في الغالب سوى تتمة عدد ، لها شأنها وخطرها نسبياً بحيث يكون اثره حاسماً بعض الاحيان . ولكن هي الجماهير الشعبية التي تسيطر على الموقف العام بشعاراتها العفوية ، ترددها الاندية والجرائد اليومية ، هذه الشعارات التي تأتلف كلياً وتعبر بصورة غريبة ، عن الوضع الاجتماعي وحقيقة تركيبه الشاذ . فقد عرفت ان تزاوج بعفوية مدهشة بين مطلب « اقتصادي » خاص ، له دوي عميق لدى الاوساط الشعبية وبين شعار سياسي يسري سريان النار في الهشيم بين الطبقات البورجوازية ، وكلاهما شعارات برّاقة ، خلابة ، مغرية كجعل الخبز ارخص سعراً وفي متناول الجميع ، والتلويح بحقوق الانسان الاساسية . ولم تلبث هذه الاضطرابات الشعبية ان استحالت بالفعل الى ثورة عارمة لا الى فتنة محلية ، بينما كونت الشعارات السياسية من جهتها قوة اجتماعية لا مثيل لها ولا نظير .

هذه الجماهير اليقظة ، التي تجيش بالحركة ، وهذا التركيب الناجم عن مزيج من البورجوازية الصغرى وطبقات الشعب السفلى والذي اولى الاحداث تأثيره الموصول ، لا تتمثل ، بالطبع ، بسوى أقلية ضئيلة . فهذه الأقلية الديناميكية المصطفاة هي التي تتحرك وتنشط للعمل ، كما ان هذه الاقلية هي التي تقتفي بعين يقظة سير الامور وما تترك بعدها من أثر وتؤيد بصراحة . فاذا كان المطلب قضية تصويت إداري أو اقتراع على أمر سياسي بلغ ، عدد الممتنعين عن التصويت عادة الثلثين ممن لهم حق الاقتراع ، أو الثلاثة ارباع أو اربعة اخماسهم . اما نسبة الذين يقترعون بالفعل فأقل بالطبع ، من ذلك . وقد يحتجون باطلاً بعد ذلك على ما كان لطريقة الاقتراع اذ ذاك ، من صفة تعدادية . وسنرى بعد حين ان عدد المواطنين الذين لهم حق الاقتراع يفوق كثيراً عدد الذين يتمتعون بهذا الحق . فجمهور المقترعين لا يُعتَدّ به في القضايا السياسية . وعلى هذا قس ايضاً عدد الممتنعين عن الاقتراع . وهذا لا يعني قط ان هؤلاء واولئك لا يبالون من قريب

او بعيد او بقليل او بكثير،بالاحداث الجارية. فنفوسهم تجيش بالمشاعر الفياضة لحو الثورة ،ولا سيا بانجازاتها في المجال الاجتماعي . الا انهم قلما تهتز نفوسهم للقضايا السياسية العامة . فالقلة التي تتولى الحركة الثورية وتوجهها تنعم لذا ، بحرية اكبر . فلا شيء يعيق نشاطها او يحد من الجرأة لمواجهة الوضع الجديد الذي طلع على البلاد ، كالتلهي بالسوابق الماضية واحتضان الافكـــار والنظريات القديمة الرثة . وهذه الاقلية تكوّن قوة في المدن حيث تعتمد على عناصر ووحدات كثيرة يمكن تجنيدها والاعتماد عليها بسرعة ، وهي عناصر يقيمها ويقعدها تمجيد الأمة، والتغني بالوطن الجديد في مثل عبادة تتأجج بها القلوب والنفوس في طقوس ومراسم مكرسة وتقاليد محترمة بعد ان دُفعت على هياكلها قديسيها وأوليائها. فاذا ما سارت الجماهير عن بعد،فالطليعة تتقدمها كتلة متراصة

ثالثاً ــ انتصار الثورة

هذا الضغط الذي مارسته هذه العناصر والقوى المجتمعة التي استعرضنا أثرها أدّى في بضعة اشهر الى انهيار النظام السياسي القائم ودكه من الاساس .

ولعل اول الانتصارات الكبرى التي سجلتها هو انتصار حزيران ، أي الانتصار الذي حقق وكرس الاقتراع الفردي ، هذا الاقتراع الذي اولى الطبقة العامة وتمثيلها المضاعف ، القوة الكبرى في المجلس الوطني بعد ان تحوّل الى جمعية وطنية عليا.فانهار بذلك النظام القديم وهوى الى الحضيض برمته .

انتصار الشعب في المجلس

تحقق هذا الانتصار الباهر في التغلب على الارستوقراطية وعلى الملك . فاوهام المصالحة الوطنية التي ساورت النفوس يوماً والتعلل بثورة سلمية كما حلمت بذلك الطبقة البورجوازية ، خيبها الواقع فأصيبت بنكسة مريرة خلال هذه المعركة التي استمرت سبعة اسابيع . فقامت طبقة النبلاء بحركة رجعية بدت فيها العناصر المتحررة على حقيقة امرها ، كما هي بالفعل أقلية ضئيلة مستضعفة ، اذ ان اربعة اخماس ممثلي هذه الطبقة بقوا صامدين الى جانب الملك . وعلى هذا قس ايضا مصف الاكليروس العالي . فطبقة الاكليروس هي اشد انقساماً وتفتتاً . فالاقلية والاكثرية بينهما تتعادلان تأثراً تقريباً ، بالتيارات التقدمية والقومية الكبرى ، هذه التيارات التي لم تكن الا لتترك اثرها البعيد على هذا الوسط الكاثوليكي الاول الذي شكّل النصف الشعبي في هذه الطبقة . فالطبقة الثالثة او الطبقة العامة قـادت المعارضة بمهارة وعناد ، دونما هوادة او لين . فان لم تكن جماعية في ١٧ يونيو (حزيران) عند إعلان الجمعية الوطنية ، فقد حققت هذا الاجماع او كادت ، في العشرين منه ، عندما تعاهد ممثلوها بقسم مُغلظ في ساحة التنيس ، جارّين وراءهم ممثلي الطبقات الاخرى . وقـد ناصب الطبقة العامة العـداء : الجيش والحاكم والقانون وكل الجهـاز الاداري والمالي في الدولة . فالامر جلل ، وسيحالف النصر في النهاية الستمائة محام من البورجوازيين الذين قيّض لهم التغلب

على النظام القديم. وقد حالفهم الحظ لوجود ملك مستضعف على رأس الدولة، من جهة، ولتأييد الرأي العام بأجمعه الذي صقلته تطورات العصر الاجتماعية وأهاجته مزامنة الازمات الثلاث معاً: الازمة السياسية التي جاءت تعبيراً صريحاً لهذا التطور، والازمة الاقتصادية، والازمة المالية الناجمة عن الازمتين الاخريين.

وهذا الانحلال والتخلخل الذي ترسف فيه البلاد وتلسكع ترك اثره البعيد في نفوس الخصوم. فانقسمت الحكومة على نفسها، اذ اخذ اربعة من الوزراء من اصل سبعة، بينهم «نيكر»، يطالبون باجراء مصالحة عامة، كما راحت الازمة الاقتصادية تثير الفتن والاضطرابات بين الشعب وتعمل على تفتيت الجيش.

واخذت جماهير الشعب بالغليان بعد ان أطل على الناس شبح افلاس الدولة فازدادوا كراهية للنظام القائم، وعلا الهيجان في كل من فرساي وباريس وزاد الهرج والمرج بعد ان انضم البورجوازي الحامل السندات على الخزينة الى الثوار في القصر الملكي والاحياء الشعبية، واصبح همّ الناس الوحيد تأمين الدخل والخبز والمطالبة باصلاح النظام الملكي. وراحت الجماهير في فرساي تفرغ جام غضبها على ممثلي الطبقتين المتميزتين، خصوم الطبقة الثالثة وتكيل لهم الشتائم والاهانات. وشاعت بين الناس اخبار يتقولون فيها عن اعداد مذبحة للنبلاء. فالفاترون اصبحوا عرضة لغضب الشعب ونقمته، وظهرت في البلاد تجمهرات واحتشادات خشي الناس شرها. واعترى البلاط الخوف والرعب فاضطر للتراجع وتظاهر بالتنازل على طول الخط، بينما راح يستعد سراً ليثأر لنفسه.

انتصار الشعب في باريس

فالثأر اصبح مؤكداً وفي متناول اليد عندما يستطيع الملك ان يؤمن له من الجند ما يضمن القضاء على كل مقاومة من قبل القوى الشعبية، ومثل هذه العملية لا يقتضي لها سوى بضعة ايام او اسابيع بالاكثر. فقد شعرت الطبقة العامة بما يُحاك لها من مؤامرة تهيىء إعدادها الطبقة الإرستوقراطية، سواءاً أكانت حقيقية، او وهمية، بشكل من الاشكال والتي راحت الثورة تحاول ردها الى نحر القائمين بها، كما يفصّل لنا ذلك جورج « له فيفر». وهكذا بَدت الجمعية العامة بحكم المقضي عليها ما لم تتدخل الطبقات الشعبية في الامر بكل قواها. وسيقع امر جلل، حادث جماهيري شامل سيمكن الثورة الخروج ظافرة مما يتهددها. فالأزمة الاقتصادية تشتد وتستحكم حلقاتها مما يسبب انهيار الاجور وارتفاع اسعار كلفة الحياة خلال هذه الحقبة التي يحاولون فيها رتق الفتق. فتكاثرت في البلاد الفتن واعمال الشغب واضطرب حبل الامن في جميع اطراف البلاد: فقطعت الطرق، وسُدت الاقنية والممرات المائية وتعطلت أرصفة المرافىء حيث احتشدت الجماهير الشعبية تتصدى لمرور شحنات الحبوب ومنع تصديرها للخارج. وغمرت الفتنة الاسواق ومخازن التموين الكبرى، فاستولت عليها الجماهير وحاولت بيع ما فيها من ارزاق ومحاصيل بسعر ارتجلته مع رسم

اضافي . وثارت صفوف المصطفين بانتظار دورهم لاستلام قروناتهم وراحت تهاجم حواصـل المؤن والمخازن والاهراء الخاصة بالاديار والرهبانيات الكنسية . وانتشرت الفتن واعمال النهب والشغب في دوائر البلديات ومكاتب وادارات جبـاة الرسوم البلدية وحول الدواوين الرسمية المكلفة جباية الرسوم والعوائد المفروضة ، وراحت البورجوازية نفسها تتدخل احياناً في الامر وتشترك هي نفسها باعمال الشغب هذه التي اخذت ترتدي ، اكثر فأكثر طابعاً سياسياً. وتراخت امام هذه الاحداث قبضة الجيش واخذت وحداته وافراده يفكرون ملياً بكل هذه الحوادث المثيرة ويستعرضون ، مع الجماهير الشعبية ، مشاكل الساعة . وفي اواخر حزيران وقع في باريس حادث دوى وقعه بعيداً في البلاد ، تمثل في تمرد الحرس الوطني .

واطلت على العاصمة باريس ،اذ ذاك ، فترة حاسمة استمرت ١٥ يوماً تميزت بالاعمال التي قام بها العمال وافراد الجيش . وبلغت الحركة ذروتها في ١٤ يوليو (تموز) اذ قامت في العاصمـة مظاهرة جبارة ضمت بين صفوفها العديد من العمال والصناع واعضاء الحرس الوطني والفرسان ، فملأت جماهيرهم الغفيرة الحدائق العامة والميادين الرحبة ، وقد اهاجهم منظر القصر الملكي ، وتضخمت ، لتوافد الوافدين ، صفوف البورجوازيين الامامية ، وسرى بين الناس خبر التخلي عن نيكر ، صباح الاحد في ١٢ تموز يُصب الزيت على النـار ويشعل برميل البارود . فعمت المظاهرات الاسواق والشوارع وراح افراد الحرس الوطني والجماهير يهاجمون الفرسان والخيّـالة الملكية ، والكل يبحث عن الخبز والسلاح اينما وجدوا منـه شيئاً ، واخذوا باشعال النار في الحواجز المنصوبة ويطردون مأمير الجبايـة بحيث راحت المواد الغذائية تصل بحرية تامة . وفي اليوم التالي ، اي في ١٣ تموز ، قامت الجماهير بنهب دير سان لازار ، في حي سان — دنيس على امل ان يجدوا فيه من المواد الغذائية مـا يشبع جوعهم . وراحت الاجراس تدق دقات الخطر تستنفر مناصري الثورة . وتألف على الفور حرس وطني دخلت فيه عناصر شعبية كثيرة الى جانب عدد كبير من ابناء البورجوازية . وفي ١٤ منه انقضت الجماهير على مخازن الاسلحة في الانفاليد ونهبتها وبدأت المناوشات حول الباستيل وتحت الضربات الشديدة التي انهالت على هذا السجن المشهور من قبل الجماهير في احياء سان انطوان والماريه ومن افراد الحرس الوطني ، انهار هذا المعقل القديم الذي يمثـل عصور الظلم والاستبداد والطغيان . وهكذا قام العمال والشغيلة بأول حادث حاسم في تاريخ الثورة .

وفي اليوم التـالي ، قـام الملك نفسه بزيارة للمجلس الوطني تعبيراً عن خضوعه واستسلامه وامر بابعاد الجيش . ثم اصدر امره في اليوم الثاني باعادة نيكر الى منصبه . ثم قـام في ١٧ تموز بزيارة ثانية للمجلس البلدي، لها من الرمز والمعنى ما للاولى، حيث يقدم مجلس «الكومتين» .

الثورة في المقاطعات الفرنسية

كان لثورة العاصمة دويها البعيـد في المقاطعات الفرنسيـة التي قامت بدورها بثورة عارمـة التهمت معها الاخضر واليابس . وعمت الثورة البلديات ، اينما كانت ، كما راحت الثورة تنشىء لها حرساً وطنياً خاصاً بهـا .

وهكذا جمعت البورجوازية بين يديها السلطة الفعلية والسلطة القانونية ، وانفجرت في الارياف الاحقاد الحقينة ضد الاسياد ، اذ كان الوقت وقت جباية الرسوم والعوائد المفروضة على ابنـاء الطبقة العامة . وأبت الجماهير دفع او تسليم شيء من هـذه الرسوم فأجبروا اصحاب الحقوق العيلية على التخلي عنها ، واخذوا بمهاجمة الحصون والقلاع والغرف الحصينة ، وأوقدوا الحرائق في دور الوثائق والمحفوظات السيادية فأتت على قصور النبلاء وصروحهم والتهمتها . وموجـة الهلع العام الذي اعترى الجميع ادّى بدوره الى حركة تسلح شاملة في البلاد . وزاد من قـــوة الدفع الثوري ، الفزع الذي دبّ في قلوب الارستوقراطية ، وسمر الخوف في قلوبهم عندما رأوا المصير المشؤوم الذي ينتظرهم. وكان الحرس الوطني يتغاضى عادة عن هذه الامور العنيفة .وفي هذا الوضع المؤلم الذي تخبطت فيـه فرنسا ، وقع حادث الرابع من اغسطس (آب) الذي تمت فيه المناداة بحقوق الانسان .

الانتصار على البورجوازية المحافظة

تأثر المجلس الوطني نفسه بهذه الاحداث الجسام . وشـــعر عميقاً بالدفع الذي احدثته . وقد بدا من المحتملات الممكنة قيام اغلبية من الوسط واليمين تضم في صفوفها رجال المقاومة والداعين الى ثورة مسالمـــة تقف في وجه التيار المهتاج . مثل هذه الاكثرية كان يمكن ان تتألف بصورة طبيعية من ممثلي الطبقات الممتازة ومن قسم كبير من ممثلي الطبقة الثالثة القائلين بالتمثيل المضاعف . فمنذ حزيران ، وبعد اجتماع الطبقات الثلاث راح عدد كبير في صفوف البورجوازية ممن جزعوا لحوادث العنف التي أتاها الثوار يقومون بحركة تقارب مع ممثلي الاكليروس والنبلاء ، ليؤلفوا بشكل من الاشكال الطبقة الثالثة بقيادة مونيه وبرغاس وشمبيون دي سيسه وكليرمون تونير ولالي تولندال بعد ان عينتهم الجمعية الوطنيةاعضاء عنها في اللجنة التأسيسية . فالثورة الاصلاحية الجددة غُلبت على امرهـا . فليس لها من سند ولا خلاص الا بانتصار الشعب . واخذ المجلس بالتصويت على القضايا الهامة بتسمية الاسماء بين هتافات المحبذين وصياح الناقمين الشاجبين . ان «خيانة» قسم من ممثلي الطبقة العامة بانضمامهم الى الارستوقراطية تثير الشكوك . وراحت رسائل التهديد المغفلة تنهال على مونيه ورفاقه . وخـــاف اصحاب المطابع على انفسهم من تحمل مسؤولية نشر خطبهم . فالصحافة الثورية تسيطر وحدها على الشارع . وراح رجال ١٤ تموز يهددون بالسير السافر على فرساي وصار الناس يخشون كثيراً « لوائح النفي والابعاد » كما كانوا يوجسون خوفـــاً من المراسلات المتبادلة مع المقاطعات وهي رسائل تشنع القول على رجال الاكليروس والنبـــلاء لمقاومتهم ، الامر الذي خشي منه على اشعال الحرائق من جديد في القصور والصروح .

واخذ المجلس الوطني يتأرجح بين اليمين وبين الشمال . فاعتصمت اكثرية النبلاء والاكليروس بالصمت حتى انها وقفت احياناً اسوأ المواقف . فهي لم ترض ، في الواقـــع يوماً بالهزيمة . ففي سلسلة الاخطار التي تهدد الثورة ، في نظر البورجوازية خطر الارستوقراطية يأتي في المقدمـــة

فهـو خطر متصل ، مـــاثل في كل حين . فالتهديد الاجتماعي للطبقات الشعبية يـــأتي في الدرجة الثانية .

ولم تلبث اللجنة الدستورية ان استقالت في ١٢ ايلول ، فعاد اليسار يسيطر ومعه سيس وهكذا غلب على امرهم نصراء الملكية ومريدوهم ومن بينهم ميرابو .

غير ان الملك لم يقر بعد ٥ – ١١ آب (اغسطس) كما انه لم يصادق على وثيقة اعلان حقوق الانسان . وعادت الارستوقراطية عودتها الاولى الى الدس والتبييت ، كما راح البلاط يستعد ليثأر لنفسه من حوادث ١٤ تموز . وراحت مجالس الاقضية تتحرك في العاصمة . ولعبت الصحافة اذ ذاك دوراً حاسماً . وكان بوسع الثورة في باريس الاعتماد كلياً ، هـــذه المرة ، على قوة جديدة : هي الحرس الوطني . والازمة الاقتصادية التي زادتها الازمـــة السياسية حدة وحرجاً ، اخذت تتسع وتزيد من اهاجة الخواطر . وكانت وليمة الحرس الملكي التي اقيمت في غرة تشرين الاول (اكتوبر) بمثابة اشعال الفتيل المتصل ببرميل البارود . واخذت الجماهير تلوح في الخامس منه بتنظيم مسيرة الى فرساي تتألف من الرجال والنساء وافراد الحرس الوطني انفسهم . وراحت الجماهـــير تتناقل فيما بينها النداءات المثيرة : « الخبز ووضع حد للامور » اي الرضوخ للقرارات . فيخضع الملك للتهديد من جديد ويسلم بالامر الواقع ويصادق على هذه القرارات ويعود الى باريس على رأس الثورة المظفرة . « فالانتفاضة الثانية للثورة » التي طالما طالبت بها حركات باريس الثورية جاءت في حينها ، فالسلطتان الرئيسيتان في البـــلاد : الملك والمجلس الوطني هما بكامل تصرف الحزب القائم بالحركة . ومثل هذا الوضع سيمتد العمل به الى عام ١٨٩١ .

وامام تحالف من هذا النوع للقوى الثورية تفشل عملية هرب الملك الى فارين فيقع المقدور الذي باعد بين الملك والامة . ان محاولة هرب الملك لويس السادس عشر عملية كان بالامكان ان تنجح كما نجحت عملية هرب الامير . فالقدر الغاشم هو وحده الذي فضح هوية الهارب ، في الوقت الذي راحت فيه الدعوة للفرار وحركة تنقلات جيش بوييه تخلق بين الناس جـــواً مشحوناً بالتحسب والتحرز . فبعد الكشف عن هوية الملك اصبحت ماجريات الحوادث التي وقعت بين ٢١ / ٢٢ حزيران ١٧٩١ متوقعة ومنتظرة . فمن محلة ســان منهولد الى كليرمون ، الى فارين ، نشطت الاتصالات بين مختلف البلديات وفـــرق الحرس الوطني والجماهير الثائرة ، وراحت تستنفر بعضها البعض وتتخـــذ سلسلة من المناورات الجريئة فتخلخل صفوف الجيش وتدب الفوضى بين وحداته فيفسد الامر على بوييه وجيشه بعد ان عملت الدعـــاية الحالة في صدعه عملها الثوري الهدام .

ففي سنة ١٧٩١ كما في سنة ١٧٨٩ ، في جميع انحاء فرنسا كما في باريس نفسها ، وبالرغم من حادثة شان دي مارس المثيرة ، شالت لجهة واحدة كفة الميزان وهوت بكل ثقلها .

الفصل الثاني

عهد المؤسسات
الثورة والجمعية التأسيسية
(١٧٨٩ - ١٧٩١)

انهارت النظم السياسية والمؤسسات الاجتماعية التي عرفها العهد القديم في الاشهر الاولى من الثورة . فما ان مالت شمس عام ١٧٨٩ للغروب حتى كان حل محل هذه المنظمات الانجازات الكبرى التي حققها العهد القديم . فالامور الرئيسية وقعت ، قبل خريف ١٧٩٠ ، ولم يبق حتى ايلول ١٧٩١ ، موعد انفراط عقد الجمعية التأسيسية ، سوى بعض الاجراءات الثانوية .

فالاشياء والسمات التي ما زالت ماثلة على الواجهة لا يؤبه لها ولا يحسب لها حساب في البنيان الجديد . فقد أطلّ على الحياة مجتمع جديد ، مجتمع لا طبقات فيه ، ادارته وتوجيهه هما في يد البورجوازية .

اولاً — النظم السياسية

١ — الغاء النظام الاقطاعي

ثورة الفلاحين

انهال على الجمعية الوطنية ، من جميـــع الولايات والمقاطعات ، سيـــل من الرسائل والتقارير لم تترك في الاذهان اي شك او وهم حول مدى الاضطرابات التي قام بها الفلاحون ، في شهر تموز (يوليو) ، اي أبّان موسم الحصاد ، طارحـــة على بساط البحث ، قضية الرسوم السيادية والاعشار المتوجب تأديتها .

فقد استهدفت ملكية الاراضي ، في كل مكان من البلاد ، « لاكبر لصوصية مجرمة على الاطلاق » اذ اضرمت الحرائق في القصور وطرحت وقوداً للنار وطعماً لها سنـــدات التملك وكل مـــا ينهض دليلا على العوائد السيادية ورسوم الاعشار .

وقد لخصت لجنة العرائض والتقارير الوضع كما يلي :

« فالقوانين تبقى ميتة لا مفعول لها ولا من ينفذها ، والحكام لا سلطة فعلية لهم ولم يبق من العـــدل والعدالة سوى شبح عبثاً يبحثون عنه في المحاكم » .

وهكذا انفجرت « حرب الصماليك ضد الاغنياء » وسمّر الرُعب قلوب النبلاء بعد ان غُلبت طبقتهم على امرها مع الملك ،في ١٤ تموز وتنكّرت لها الطبقة الثالثة او الطبقة العامة، فاصبحت موضع مِظنّة وارتياب ، في المدن والارياف ، ملاحقة في املاكها ، مضطهدة في افرادها. وحُرمت هذه الطبقة ، دفعة واحدة من كل شيء . وكذلك قل عن مصف الاكليروس العالي الذي تعرض ، هو الآخر ، ولو بدرجة أقل ، للاخطار ذاتها . فامام الطبقة الثالثة ، فرصة ذهبية عليها ان تستغلها الى اقصى حد ولو لفترة قصيرة ، وان تفيد من هذه القوة الشعبية العارمة لما فيه خير الثورة البورجوازية ونجاحها ، وان تقوم بعملية توزيع غير متساوية بين فريقين ، وان « تصفّى » في الحال وتسجل دفعة واحدة ، في النصوص والوثائق الرسمية التي رسمت إلغاء النظام القديم « الاقطاعي » وقضت بالمساواة القانونية امام القانون ، اي انها حققت بضربة واحدة مزدوجة ، المساواة بين املاك النبيل واملاك البورجوازي ، كما ساوت بين شخصية النبيل وبين شخصية البورجوازي. فالفلاح الذي قام بالدور الاول في هذا الانقلاب الجذري الثوري كان من حقه ان يصيب ، اجراً له زهيداً ، مثل هذا الغُنم ، ممثلا في هذه المنافع التي عادت عليه من الغاء النظام الاقطاعي البغيض . وبذلك يهدئون روعه فيطمئن باله ، ويهدأ بلباله ولو اضطروا لاستعمال الشدة معه والقمع حيناً .

لم يسبق للطبقة الثالثة ان احرزت في المجلس الوطني مثل هذا المركز القوي تحققه هذه الدفعة ، بحيث اصبحت الطبقات الممتازة تحت رحمتها ، لا مرجع لها ولا سند غير المجلس الوطني بالذات الذي اصبح في وسعه وحده ان يخفف من قبضة الفلاحين ويلطّف من شوكتهم الناخسة . فقبل الساعات الفاصلة من الرابع من آب (اغسطس) بدت الطبقة العامة ، في مجموعها، مترددة ، حيرى ، منقسمة على نفسها . والليلة الليلاء التاريخية التي سيلهج العصر كله يذكرها، ليست من ناحية خطة التنفيذ وتفاصيلها ، سوى عملية ارتجال ، قوامها التجربة والجرأة او الاقدام .

ليلة الرابع من آب

كانت ثورة الفلاحين تهديداً مباشراً للنظام السيادي ولكل ما يمثله او يرمز اليه . اجتمع اليسار المتطرف ، في ليلة ٣ — ٤ للبحث والمناقشة . واخذ المجلس الوطني في ٤ آب ينظر في التشكي من الاقطاعية . فالعملية تولاها ، في البدء ، ليس ممثلو البورجوازية في الطبقة العامة بل نصراؤها التوابع بين النبلاء ، كالفيكونت دي نواي ودوق دي غويون وهو تكتيك كان في غاية البراعة طالما اعتمدوه ، فيما بعد ، عندما تستأنف الجمعية جلساتها لوضع الصيغة النهائية للقرارات التي تم الاتفاق بشأنها . وراح لويس دي نواي يشدد بحق على السبب « الاجتماعي » لهذه الاضطرابات والقلاقل التي هزت البلاد من اقصاها الى اقصاها . فلنعالج هذه الاسباب ! ان سكان الارياف وجماهير الرعويات لم تتقدم من الجمعية الوطنية ، بطلب دستور ، بل بالغاء الرسوم والعوائد والتخفيف من الفرائض السيادية .
ودوق دي غويون نفسه راح يعالج القضية نفسها ويبحثها . هنالك الآن ثورة شعبية عارمة

تهز الآن اركان المملكة . وما حديث الناس غير احاديث القرصنة واللصوصية ، ففي مقاطعات عديدة ، الشعب كله ثائر ، مهتاج يرعد ويزبد .

فهو يكون في مجموعه ، شبه عصابة ترمي لهدم القصور ونهب الاقطان وسلب الغلال والاستيلاء على خزائن المحفوظات حيث تصان سندات تلك الاقطاعيين .

فالحل الوحيد المرتجى هو الغاء العوائد المفروضة والرسوم السيادية .

يجب ان نحدد ، قبل كل شيء ، مفهوم كلمة « الغاء » ، وما هو المقصود منها . فمن جهة الرسوم السيادية ، فالدائن لن تنزع حقوقه . « اذ ان هذه الحقوق تؤلف بالفعل ملكية قائمة... ولا يمكن مس الملكية على الاطلاق » . غير ان باستطاعة المدين ان يستهلك دَينه . فيدفع ما يترتب عليه ، مع الزمن . فقابل المجلس هذا الكلام بالتصفيق الحاد . ولم يشذ عن هذا الاجماع صوت واحد في صفوف الطبقات الممتازة حيث تتمثل على اتمها مباهج الحياة والثراء ... واذا بصوت يلعلع من بين صفوف الطبقة العامة محتجاً معارضاً ، صوت فرد ، وحيد الآن ، لا صدىً له ولا دوي ، صوت الاقتصادي ديبون من نواب الوسط – اليمين الذي شق عليه كثيراً ان يلحق بالنظام الطبيعي مثل هذه الاهانة ، على مثل هذه الصورة . وراح يتكلم عن القوانين وعن الحاكم وعن الازمة الاقتصادية . حادث يقع وينتهي الامر . وراح احد ممثلي الطبقة العامة ، يصل ما انقطع باعادة البحث في الموضوع ، فيقابله تصفيق داوٍ كالرعد: لن يكون ابداً حقوق للانسان طالما هنالك رسوم وفرائض اقطاعية .

ليس عندكم من الوقت ما تهدرونه جزافاً . كل يوم تأخير يتسبب في حرائق جديدة . الا ترغبون في اعطاء فرنسا المحتاجة ، المهتاجة ،القوانين والتشريعات اللازمة لها ؟

واذ ذاك حدث مشهد رائع من التنازلات العفوية . ففي ليلة واحدة شهد العالم انهيار العهد القديم . وقبل انفراط عقد الاجتماع عند الساعة الثانية صباحاً ، راح المجلس يوجز مناقشاته ويضبط في محضر الاجتماع ، القرارت الخمس عشر الرئيسية التي اوحت بها الجمعية الوطنية ، واتخذت بشأنها التواصي بحيث ترتدي شكلها وتأخذ صورتها النهائية من الجلسات اللاحقة . في الطليعة من هذه القرارات ، المواد الست المتعلقة بالنظام « الاقطاعي » ، هذه المواد التي تنص على الإلغاء والاستبدال : الغاء الاسترقاق الزراعي (*Servage*) الذي لم يكن بقي منه سوى بعض الحالات النادرة الفردية والانعامات السيادية ، وحقوق الصيد المحتفظ بها للاسياد ، والتعويض عن الرسوم السيادية جهد المستطاع ، واستبدال ضريبة العشر التي يمكن ردها بيسر الى الريع السيادي ، برسْم نقدي خاضع للشراء والاستبدال .

وليلة الرابع من تموز التي انطلقت عن ثورة الفلاحين تبدو وكأنها الليلة البكر الكبرى التي قوضت سلطة الاسياد ، فكانت بمثابة الفتح الاغر يحققه سكان الارياف . فلا يجوز التقليل من

اهمية الارباح والمنافع التي حققتها لهم . فالاقطاعية الرسمية تكاد وحدهــا تسقط بالنتيجة من هذه النصوص التي تعدُّ اكثر ممــا تفي وتمنّ اكثر مما تُعطي . وعلى الاجمال « فالاقطاعية » الواقعية ، هذه الاقطاعية الاقتصادية بقيت معمولاً بها . صحيح ان الارستوقراطية اكثرت من التنازلات الفرعية الا انها احتفظت بالنصيب الاطيب من التركة .

تحقيق المساواة

اما البورجوازية ، فالمغانم التي حققتها لم يكن ليستهان بها ، والحق يقال . فقد ساهمت من جانبها ، بوصفها مالكة لأراض شعبية ، ببعض التنــازلات المادية ، اسوة بالنبلاء . اما هذا البورجوازي ، المنافس الاجتماعي للنبيل ، فقد عاد عليه إلغاء الاقطاعية ، بأكثر من ذلك بكثير . فلم يبق ، بعد الإلغاء ، اراض سيادية واراض فلاحيــة (*Roturière*) ، ولا إقطاع ولا فدن ولا من يحزنون . فالمساواة بين الممتلكات حالة هيأت من قريب للمساواة في الحقوق المدنية . وعلى هذا قس ايضاً إلغاء حقوق البكورية هذه الحقوق التي تتناول ، في الاساس ، ممتلكات النبلاء .

وها هي المساواة المدنية ينادى بها عالياً وتعلن على الملأ في نهاية الامر . فابواب الوظائف العسكرية والمدنية مفتوحــة على مصراعيها ، لجميع المواطنين . وكذلك الوظائف القضائية . والعادة المعمول بها في شراء الوظائف تسقط الى الابــد وينسخ الاخذ بها من الآن فصاعداً ، كما تلسخ من الاستعمال حقوق وراثة مهنة المحاماة . والوظائف حتى الكبرى منها ، تنفتح ابوابها امام الجيل البورجوازي الصاعد ، فيدخلونه زرافات ووحداناً من البــاب العريض ، بعد ان كانوا يتسللون اليه ، من قبل ، تسللاً متحرزاً . فلم يعودوا ليقنعوا ، هنــا ، بالمظاهر الغرارة الجوفــاء . فللبورجوازية حصة الأسد في الحال وتدأب بالتالي على تصفية مــا تبقى من امتيازات ، لحسابها .

والمساواة المالية جاءت تجمّمُ كأس المساواة المدنية . فالفــلاحون سيفيدون ، ولا شك ، من هذه المكاسب ، ولو كان احياناً على حساب احد النبلاء ، من سكان المــدن أو على حساب مواطن ينعم بموجب اعفاء شخصي أو جماعي من بضريبة الخراج. هنالك بين اصحاب الامتيازات في العهد القديم ، مدن ومقاطعات نعمت ، هي الاخرى ، بإعفــاءات ضرائبية ، فاضطرت للتنازل عن هذه الامتيازات التي خولتها وضعاً خاصاً متميزاً عن الغير ، في المجتمع الفرنسي ، اذ ذاك ، وأخذ الجميع يتسارعون ويتنافسون في عملية التنازل عن امتيازاتهم المحلية أو الاقليمية ، وهي تنازلات لم تكن لتلحق باصحابها الضرر والخسارة كما لحق منها اصحاب الطبقات الممتازة . وهكذا تغيرت فرنسا وتبدلت منها الاوضاع الاجتماعية . فقد حدث في هذه الليلة شيء اشبه ما يكون بالخَلق ، بالولادة الجديدة ،عن طريق هذا الاتحاد الوطني الذي صحح بالتراضي الارادي، هذا النظام التعاقدي الاستبدادي القديم الذي يعود منشؤه الى عهد ايام الفتــح، اذ استبدلت في فرنسا كلها المــلكية الفيدرالية باتحاد وطني اساسه المساواة المطلقة .

كثيرون باركوا الليلة القدر هذه وغبّطوا ، وبحق فعلوا . فهذه الليلة التي تميزت بعملية هدم شامل مثير ، شارك فيها صاحب الغُرم والغنم ، جنباً الى جنب ، هي من هـــذه الليالي التي قلما يجيء بمثلها الزمن . فما من أحد ، والحق يقال ، من بين ممثلي هذه الطبقات المجتمعين معاً ، يفقد صوابه أو يضيع رُشده ، كما ما من أحد بينهم يتناسى مصالحه الحقة في هذه التصفية العـامة التي قامت اساساً على المساومات ، وفي هذه التنازلات التي امكن التعويض عنهـا ، وهي تنازلات وتصفية أخذ المجلس الوطني بكامل هيئاته علماً بها ، وضُبطت القرارات المتخذة بها ، بكـامل دقة . فالممثلون للادوار الرئيسية في هذه المسرحية المأساة والنظارة على السواء ، شعروا ، باتفاق الآراء ، انهم يعيشون « حدثاً مصيرياً » ، بحيث كان يُخشى على ضعاف القلوب ومفؤديهـا ، من شدة الفرح وهزة الطرب . فنحن هنا امام ظاهرة من هذا الشعور الجماهيري الغلاب ، لم يكن ، كما سنرى ، خاصاً بعام ١٧٨٩ ، بل على عكس ذلك ، كثيراً ما يتجدد بمثل هذا الفوران العارم ، خلال مناقشات رجال الثورة ومداولاتهم : تريث حيران يخشى من الاسوأ ويوجس من الانكى ، ويتوقع ما قد يكون أشد وأدهى ، فيعوذون من ذلك كله ، بمواقف اجماعية سمحاء ، يُغلفهـا الغموض حيناً ، ويشيع منها احياناً ، تفاؤل المنتصر وأمل الفائز المرجّى ، هذه الظاهرة التي غشيت ، في تلك الليلة التاريخية ، اعضاء المجلس الوطني الذي غمره الحماس والذي لم يكـن في كنانته خير ما يمنع عنه الخطل والشطط وخير ما يوقفه عند حافة الخطر .

ومع ذلك فالمبادىء ، والمبادىء وحدها ، تُعلن وينادون بها . فلم يبق سوى إعطائهـا الصيغة القانونية ، وهي مهمة سينصرف لها المجلس الوطني بكليته ، خــلال الاسبوع الواقع بين ٥ – ١١ آب – دون حاجة الامر بعد للاجماع الذي عرفناه من قبل .

قرارات ٥ – ١١ آب

وراح الاقطاعيون الذين دفعوا من جيبهم الخاص ، قائمة حساب ليـلة ٤ آب (اغسطس) يتساءلون ، ما اذا لم يكن من المستطـاع لديهم ، الخروج بثمن أقل . فهل يوافق ناخبوهم ، في المقاطعات ، على ما قبلوا به واتخذوا له من قرارات؟ فلم يتعرض أحد لحصة البورجوازية . ولكن ماذا من أمر حصة الغائب الاكبر ، حصة الجماهير ، في الارياف؟ أوَلم يُضحّ ممثلو طبقة النبلاء ، اوَلم يعرّضوا للخطر بسرعة ، هذا الذي اعترف به المجلس الوطني « ملكاً » لهم ؟ فجاء ذلك اشبه ما يكون بمذبحة جديدة « من مذابـــح سانت برثلماوس » فيما يتعلق بممتلكاتهم ، كما بدا الامر لريفارول . هذا ما يمثله بالفعل رضى الطبقـات الممتازة وما يعني قبولها هذه التنازلات . وسيكرر ممثلو طبقة النبلاء ، فيما بعد ، مثل هـــذه الاقاويل عندما يتحدثون عن الليلة الليلاء ، عن ليلة القدر . وراح أحد النواب المعروفين بموقفهم المعتدل هو الكونت مونتلوزيه ، الذي غادر البلاد مهاجراً فيما بعد وانضم الى حركـة بونابرت وحارب الغلاة في عهد إعادة الملكية الى فرنسا بعد سقوط نابوليون ، يدون في مذكراته قائـلاً ان العمل الذي تم في ٤ آب قامت به لصوصية أقرته لصوصية أخرى ، وكم من ممثل من ممثلي طبقة النبلاء فكروا ، وهم في مقاعدهم ، في المجلس الوطني ، مثل هذا التفكير ، خلال المناقشات

التي دارت حول الموضوع . وهل من عجب ان نرى ونسمع ، بعد هذا عن حوادث تمشّـــع وخلافات في صفوف هذه الارستوقراطية التي طـــال صمتها في ليل ٤ آب . هنالك عدد من ممثلي هذه الطبقة ادعوا انهم وافقوا بشرط الرجوع الى استفتاء عام، بينما راح فريق آخر ومن بينهم تاليران يحاول الحد من التضحيات مستعينين على ذلك بابرز العناصر في القلب واليمين . الا ان المجلس لم يتنكر لنفسه . فبدلاً من ان يلطف من المبادىء التي أقرها فقد تجاوزها ، في كثير من الحالات وذهب الى ابعد مما تنطق به النصوص .

وعاد المجلس يسلك المسلك الذي سلكه في ٤ آب . هوذا ممثل عن طبقة النبـــلاء التي تنازلت عن حقوقها وامتيازاتها ، يتقدم بنص وثيقة التنازل ، كما يشير الى ذلـــك مونمورانسي . وها هو نبيـــل آخر ، دي بورت ، من ممثلي باريس يضع النصوص النهائية لوثيقة إلغـــاء النظام الاقطاعي .

قضى المجلس الوطني على النظام الاقطاعي قضاء مبرماً ، بعد ان قـرر بأن الحقـوق والواجبـات الاقطاعيـة والضرائبية ، على السواء ، ولا سيما ما تعلق منها بالرهونات العقارية العينية او الشخصية ، او بحقـوق الارتفـاق الشخصية او ما يقوم مقامها، تلغى كلها بدون اي تعويض عنها . اما ما تبقى من هذه الحقوق والواجبات فيمكن التخلص منها بالشراء او الافتداء ، وفقاً للشروط التي يحددها المجلس الوطني . اما الحقوق التي لم يأت نص على إلغائها في هذه الوثيقة ، فتبقى قائمة، يجب استيفاؤها كاملا الى ان تسدد برمتها .

فالمجلس يثبت هنا القرار الذي كان اتخذه في الرابع (من آب) مع ما فيه من متناقضات ظاهرة وما يخفيه من محاذير . فهو يبقي بالفعل الرسوم « الاقطاعية » مـع انه ألغى الاقطاعية « كليـــاً » . فالارياف التي تحررت يجب ان تتحمل هي نفسها نفقات معاملات الافتداء او الافتكاك .

اما في ما يتعلق بالاعشار ، فقد ذهب اعضاء المجلس التأسيسي الى ما هو أبعـد من منطوق النص الاول واحكامه . فقد وقعت ، في هذا السبيل ، مناقشات صاخبة استمرت طويلا . هل يمكن إفتداء هذا العُشر كما افتديت الحقوق السيادية ووفقاً للمرسوم الصادر بهـــذا الشأن ؟ او يلغى نهائياً . فالموضوع له اهميته الكبرى . فالقرارات التي اتخذت في الرابع من آب لم تعط الفلاحين اية ترضية مادية تستحق الذكر ، في هذا الشأن . وراح ممثلون عن الطبقة العامة يتولون الهجوم المركز بعنف مصرحين على رؤوس الاشهاد ان العُشر يؤلف ملكية كالريع السيادي ، مثلاً بمثل . فهو بالتالي ضريبة يمكن الغاؤها ككل ضريبة من هذا النوع . وراح ميرابو يفضح ببلاغته المعروفـة هذه الضريبة المرزحة التي تسبب الخراب لمن تقع عليه ، اذ تقتطع ثلث المحصول القـــائم .. «ضريبة مرهقة ارادوا ان يلبسوها لبوس الملكية» . وأصر الاكليروس من جهتـــه على الرفض بإسقاطها والتمسك بها الى النهاية . فقضيته قوية من الوجهة الحقوقية . وراح أحـد كبار الفقهاء يؤيدها بالنصوص القانونية ، وله من منزلته الرفيعة وشهرته البعيدة في عالم الشرع والفقه مـــا يُكوّن دعامة قوية للقضية . نعم ان العشر هو ملكية ، هو حـــق مقدس ككل ملكية ولا يمكن بالتالي التعرض لها ببحث الا من جهة شرائها او افتدائها . ووقف هذا الموقف الصلب نفسه

اعضاء بارزون في المجلس الوطني بينهم مطران لانغر ، و «لالوزيرن» شقيق الوزير نيكر احد اعضاء الجمعية البارزين ، والأب مونتسكيو ، والأب سييس المعروف عنه وقوفه الى جانب اليسار ومؤازرته له فأيدوا جميعهم القول بان العشر ملكية هي وتنعم من هـــذا القبيل ، بحماية القانون . ولذا يجب ألا تلغى لصالح الاكليروس ولصالـــح الفقراء معـــاً . ومهما يكن فلا يمكن الغاؤها قبل استبدالها بشكل آخر «فما من أحد يهدم مدينة قبل ان يعلن مسبقاً عزمه على اعادة بنائها» . واعترت الحيرة المجلس أمام هذا الموقف من مواقف نزع الملكية الذي من شأنه ان يؤلف سابقة مخيفة . وقد بدا من المرغوب فيه كثيراً ان تستبدل هـــذه الضريبة التي يذهب جانب كبير منها جزافاً على يد كبار الجباة وعبثهم ، لتحل محلها موارد معينة ، محددة تستطيع ان تغطي الحاجات القائمة . كم من الكهنة المتواضعين يفكرون هـذا التفكير السليم ؟ ففي الوقت الذي كان فيه احد كبار خطباء الطبقة العامة يوضح من فوق منبر الخطابة كيف ان شراء هذه الضريبة او افتكاكها يُرزح صاحبها، راح عدد منهم يلقون اليه ببيانات عن تنازلاتهم. فكان ذلك ايذاناً بحركة عامة من التنازلات ، فحذا حذوهم عدد كبير من الكهنـــة . ولم يمض القليل حتى انهار كل أثر للمقاومة والصمود، وراح المطارنة ورؤساء الاساقفة يقومون هم الآخرون بتنازلاتهم . وجاءت الضريبـــة القاضية على يد تاليران ، فراح اسقف اوتون يتلو نص المادة التي تجرد طبقة الاكليروس من هذا الامتياز ، فيقرها الجميع بالاجماع . فالاعشار تلغى بلا اي عوض او مقابل باستثناء ما كان اقتُطع منها لاحد العلمانيين وصار خاصاً به .

قرار اساسي ، وان بقي لأمدٍ وجيز مجرد وعد مقطوع . فالاخذ به والعمل بموجبه يبقى معلقاً ويستمر استيفاء العشر ريثما يخرج المجلس باجراء قانوني يعوض معـــه على من حرموا من ضريبة العشر . وهذا المزارع القائم على حراسة زرعه والمدافع عن غلته ومواسمه فيرفض تسليم العوائد والرسوم المترتبة عليه ، يواجهه المجلس برفض في غير محله . فقـــد ابقى واجب الاداء او التسديد لرسم قضى بالغائه بناءً على مسببات وحوافز عديدة .

والمرسوم العظيم الذي وضع في شكلها النهائي القرارات المبدئية التي اتخذت في ليل ٤ آب ، صدر في الحادي عشر منه . تشبثت البورجوازية ، من جهتها بأن يُدفع لهـــا نقداً في الحال ، فاستجيب طلبها باعطائها المساواة المدنية . اما الشعب ، فلم يُدفع له الا صبراً او عِـــدَة او في مواعيد معينة وبعملة عليه ان يؤمن هو نفسه قسماً من غطائها .

الحقوق الاقطاعية القابلة الافتداء او الافتكاك

فالمرسوم الذي صدر في ١١ آب لم يتخذ الا مبادىء أساسية . فعـــلى المجلس الآن ان يضع النصوص القانونية الصالحة للتطبيق ، كما عليه ان يستخلص النتائج العملية المترتبة على الغاء الاقطاعية ، هذا الالغاء الذي نصت عليه المادة الاولى من قانون الالغاء . وكثيراً ما يعمد الفلاح نفسه الى استخلاص هـــذه النتائج بدلاً من ان ينتظر من يستخلصها له ، اذ يمتنع بعناد عن تسليم الحصة المفروضة عليه من

غلة الموسم ، هذا ان لم يحاول ان يسترجع ما كان سبق له وسلّم من حصة مضروبة عليه، كما انه عاد يتلف سندات تملك كبار الاقطاعيين ، هذه العملية الـــتي كان باشرها في تموز الماضي . الا ان المجلس وقف منه موقفاً خشناً صلباً في بادىء الأمر . فراح يؤكد من جديد الغاء النظام الاقطاعي ويشدد على نصوص الالغاء واحكامها القطعية القاضية قضاء تاماً على كل اثر من آثار الاقطاعية الشرفيــــة ، كما انه حافظ على كل المنافـــع والامتيازات التي حققها الغاء الاقطاعية الاقتصاديـــة .

ووفاقاً لاحكام القرار المتخذ في آب ، هنالك بعض حقوق (رسوم وعوائد) تلغى دونمـا مقابل بينما يبيح شراء او افتكاك بعضها بشرط وفي حالات تحددها النصوص .

تفتدى وتستحيل املاكاً بورجوازية : الحقوق والواجبات والرسوم الاقطاعية والعينية التي اعتبرت ، منذ القديم ، مؤسسات استثمار . وينزل هذه المنزلة احكام القرار الصادر في ١٥ آذار (مارس) ١٧٩٠ ، وما هو بحكم حصة الحصيد الواجب تأديتها والرسوم المفروضة على التركات ، والملتزم المزارع ، والمؤجر الاقطاعي . فلا يمكن للقانون الا الوقوف بجانب هـذه الالتزامات . وراح مقرر اللجنة مرلين ، المندوب عن الطبقة العامة في مقاطعة دوّاي ، والذي مارس المحاماة مدة ٣٥ سنة ، وصاحب المرافعات الطنانة والدعاوى الشهيرة ، والذي سنجده فيما بعد في مركز الادعاء العام في محكمة التمييز وكونت الامبراطورية ، يميز بين الاقطاعية السيادية واقطاعيــة الالتزام . فحــق التملك هوالذي يخشى عليه هنا ، والذي لا يمكن ان يتأثر ، بأي حال من الاحوال باعمال العنف او الاكراه . فلا يسع المجتمع الا المحافظة عليه والدفـــاع عنه بكل قواه . فالتنازلات التي تتم بالاكراه او تجرى قسراً تبقى لاغية ، لا قيمة لهـــا ولا وزن . ولذا صدرت التعليمات للبلديات ولمراكز الاقضية والمحافظات تحظر عليهم التدخل لصالح المكلفين او التصدي لجباية الرسوم المقررة ، وذلك تحت طائلة الالغاء والتعرض للملاحقة القانونية ، وتحمل مسؤوليــــة الاضرار المتسببة . وأكثر المجلس من النصوص الزاجرة . فعلى البلديات ان تسهر على عملية الجباية ، وان تعمل على تفريق التحشدات التي ترمي للتصدي لها والوقوف بوجهها ، بالقوة ، كما على الحاكم ان تلاحق عدلياً موظفي البلديات المتهاونين ، وعلى أفراد الحرس الوطني وأفراد الجيش ان يضعوا أنفسهم تحت تصرف الجباة ، ولا بأس من اعلان الحكم العرفي وحالة الطوارىء اذا ما دعت الحاجة الى ذلك . وعلى هذا قس الاعشار التي صدر النص بالغائها والتي لا بد من تأمين جبايتها حتى غرة كانون الثاني (يناير) ١٧٩١ ، وهو التاريخ المحدد للتوقف عن جباية تحصيلها الى الأبد .

وهكذا قام بين المجلس الوطني وبين ثورة الفلاحين ، وضع أوجب اللجوء الى القوة المسلحة . فقد بدت عملية شراء الحقوق العينية في نظر صعاليك الملاكين عملية لا يمكن الأخذ بها في معظم الحالات . فهي كثيرة التكاليف من جهة اذ تبلغ كلفتها من ٢٠ – ٢٥ مرة قيمة الريع السنوي بالاضافة الى الحصص السابقة التي لم تسدد بعد ، كما يجب ان يضاف الى هذا كله العوائد والرسوم

المترتبة على انتقال التركات والتي يجب دفعها في الوقت ذاته ، وهي رسوم مفروضة على المواريث التي تتم في الارياف عادة ، بالوراثة ، من الأب الى الابن والتي قلما كان يُطلب استيفاؤهـــا . هنالك بعض الملاكين يقومون بعمليات الافتداء او الافتكاك ، ولا سيا الاغنياء منهـم ، هؤلاء الذين لا يستثمر معظمهم املاكهم بأنفسهم . وهكذا نرى ان الصعوبة لم تجد حلها بل انتقلت من محلها الى جانب آخر . فشراء هذه الحقوق المترتبة على المالك لا يفيد منها بالطبع الا هو ، وهو وحده تخلص من هذه الرسوم والعوائد وليس المزارع الذي يعمل في ارضه ، سواءاً أكان مرابعاً أو فلاحاً ، وبقيت همّاً عليه ، عليه ان يحسب لها الف حساب . فالحق المترتب على سيد مالك الأرض بالنسبة للسند في المنطقة جرى استبداله بحق آخر ترتب على مستثمر الارض نحو المالك البورجوازي في العقار الذي حل محل النبيل صاحب العوائد السيادية . وعلى هذا قس العشر ايضاً ، فالمالك هو الذي يفيد وحده من الغاء العشر بموجب نصوص قرار ١١ آذار (مارس) ١٧٩١ . ويبقى على متعهد الارض او الملتزم ان يدفع الرسوم نقداً بينما يترتب على المرابع ان يدفع رسومه من الغلال بنسبة المحصول . فسواء افتديت الرسوم المتوجبة بحسب النظام الاقطاعي او ألغيت ، فهي تبقى قائمة على الفلاح يتوجب عليه اداؤها . وهذا الوضع يُفضي بالطبع الى المقاومة : المقاومة القضائية او الشرعية يداورون معها ويداورون ما مكنهم القانون وما شاؤوا ، او المقاومة غير الشرعية : سلبية كانت او ايجابية واحياناً بقوة السلاح ، الى ان تتحول ، في غالبية الأحوال ، الى مقاومة جماعية . فيلتج عن هذا كله حرب اهلية ، حرب شعبية داخلية تتصدى للمجالس البورجوازية ، ومثل هذه الحروب استعرت نارها الى عام ١٧٩٣ ، اي الى ما بعد سقوط حزب الجيروند .

تدابير أخرى لتأمين المساواة يتخذها المجلس الوطني

قد يكون الفلاحون ، سجلوا حتى هذا التاريخ ، دفعات مهمة ، على الحساب قبضوا معظمها منذ طلوع الجمعية التأسيسية . منها مثلاً ، الغـــاء العشر ، ابتداء من اول يناير ١٧٩١ ، فأفـاد منها كل ملاك بينهم مع بقاء الضريبة على المستثمرين بينهم لاملاك الغير . وعلى عكس السياسة التي انتهجهـــا النظام الملكي ، حرص المرسوم الصادر في ١٥ من آذار (مارس) ١٧٩٠ ، على توسيع المشاعات التي تتألف منها الكومونات (*Communes*) على حساب الاسياد المحليين ، وذلك بمصادرة املاكهم واغتصاب اراضيهم وبالغاء الحقوق المترتبة عليها دونمـا مبادل . وعلى الاجمال ، فقد الغى المرسوم المذكور ، كل التعهـــدات والالتزامات التي فرضتها الاقطاعيـــة السيادية : كالرق المفروض على الارض (*Servage*) او الفدانة الذي ورد نص بشأنـــه في القرارات التي اتخذت في الرابع من آب (اغسطس) ، وغير ذلك من الرسوم المترتبـــة على الارض ما لم تكن نتيجة اتفاق سابق ، فعلى القائم بالاستثمار والحالة هذه ، ان يأتي بالدليل على صحة دعواه ، والسخرات الشخصية ، والسخرات العينية ما لم يثبت الدائن انها حصيلة تنازل منه عن مبلغ من المال او عن رسوم عينية ، وبعض رسوم الباج او الدخولية المفروض على نقـــل البضائع في الداخل وانتقالها بين مقاطعة واخرى ، ورسم القبان ، وبعض الرسوم المحليـــة على

المواد الاستهلاكية ، لمنفعة السيد الشخصي . وهكذا توارى عن الأنظار وارتفع عن الخواطر كابوس مرزح بزوال ما تبقى من الرسوم والعوائد الخاصة ، وكل ما تبقى من معالم العوائــد البلدية . ففي نظام الكومون الذي عمل به عام ١٧٩٠ ، فالسيد « الماثل هنا » لم يعــد سوى بورجوازي كغيره من الناس .

وستتبين ذلك جلياً لدى البحث في الغاء الحقوق والامتيازات الشرفية . فالمادة الاولى من مرسوم ١٥ آذار (مارس) ١٧٩٠ ، نصت بالحرف الواحد على الغاء « كل شارات النبل الخارجية التي تنم على السيادة والسلطة الناجمتين عن النظام الاقطاعي» . وقد طبق أعضاء الجمعية التأسيسية نص المادة المذكورة الى اقصى ما تتسع له من مدلول ومفهوم . وبعد ذلك بثلاثة أشهر تمامــاً ، أي في ١٩ حزيران يلغى الغاء نهائياً حق وراثة النبالة . وقد حُظر على الجميع اطلاق مسميات ومراتب شرفية : كالامير والدوق والكونت ، وحامل السلاح ، كما حظر على أي كان ان يحمل هو نفسه أو ان يلقب غيره بألقاب شرفية : كالسيد ، وصاحب السمو ، وصاحب السعــادة ، وحظر تماماً استعمال شعائر النبالة والبزات الخاصة بها او الدالة عليها . وراح عــدد من ممثلي طبقات الاشراف يحتجون باطلاً على هذا الحرمان والالغاء . وقد حدث هنا ما حدث في الرابع وفي الحادي عشر من آب ، اذ راح النبلاء الأحرار يخوضون المعركة باندفاع كلي فيشجبون الادعاءات المضحكة التي توليها الجدائل والشعور المستعارة : «أهكذا يتكلمون في امــيركا : المركيز فرانكلين ، والكونت واشنطون والبارون فوكس » ؟ وممثلو الطبقة الثالثة يتقدمهم : لاشابلييه ولانجوينه وروبل صوتوا الى جانب القرار بصفوف متراصة . وأخذ الشعب من جهته يسهر على تطبيق النصوص بحرفيتها ، ويراقب ، عن كثب ، تنفيذها بكل دقة . وقــد يستبق الجمعية نفسها احياناً فيقوم بحوادث دامية أمام بعض الالقاب السيادية الشرفية وشارات التكريم لبعض النبلاء ابان المراسم والحفلات الكنسية . وقد الغى القرار الصادر في ١٣ نيسان ١٧٩١ ، « كل الحقوق والامتيازات التكريمية المدرجة هنا والمرسومة للسيد الذي يناط به امر القضاء او لرب العمل » . فالمشانق وأدوات التعذيب التي افتنّت العدالة السيادية باستنباطها ، تلغى كلهــا الغاء قاطعاً ، وكذلك تلغى الرياحات (*girouettes*) بوصفها من شارات النبل المميزة . فمحطمو الرياحات كانوا في الطليعة من هذه الحركة الثورة . فقد أصبح من حق كل مواطن ان يرفع على سطح بيته او رأس مدخنته رياحة . وقد أزيلت من الكنائس والخورص المقاعــد والكراسي المنصوبة للسادة او الموقوفة على النبلاء . وقد وُجه النصح لاصحاب الامتيازات القدامى بان يتقيدوا « بالنصوص الرسمية الخاصة بالمقاعد المعينة لبعض الخاصة في الكنائس » . فــلم يعودوا أول من يوزع عليهم الماء المقدس في المعابد والكنائس ، او الغُرينية او البخور ، او قبلة السلام ، ولن يكونوا بعد اليوم المتقدمين او الطليعة في المواكب والزياحات ، وفي حفلات التقــاديم . فعليهم ان يلغوا الوشائح السود التي تُلف بها أعمدة الكنائس في الجنائز الخاصة باصحاب المقامات ، كما يجب رفع العلائم المأتمية التي تحمل شارات النبل ، سواءاً أكان في داخــل الكنيسة أم في خارجها . فاذا ما حاولوا اللف والدوران واللعب على النصوص ، والرجوع الى الالقــاب

والمراتب الشرفية : كالسيد والدوق والكونت « المشار اليه هنا » ، انتصبت امامهم نصوص المرسوم الصادر في ٣٠ تموز (يوليو) ١٧٩١ ، تذكرهم بوجوب التقيد بأحكام المنع . ومع ذلك تبقى ظاهرة للعيان بعض شارات وعلائم النبل الخارجية . وفي اليوم نفسه تجري مناقشة حادة حول الموضوع ، فتتخذ الجمعية في الحال قراراً نص على ان « كل مراتب الفروسية وما شاكل، وكل شارات الجمعيات وكل الاوسمة ، وكل شارة خارجية تولي حاملها تمييزاً خاصاً ينم على شرف المحتد او الاصل ، تلغى تماماً في كل انحاء فرنسا » . وفي ايلول من السنة نفسها يقترح شبرود في حماسة لقامت النظارة واقعدتها ، بان يحكم على المتعنتين الذين يرفضون الانصياع والامتثال بلبس طوق الحديد (*Carcan*) الذي كان يحكم بوضعه على رقبة كبار المجرمين، ويعود القرار الصادر في ٢٧ منه فيقرر جزاء نقدياً على المكابرين المتعنتين .

٢ – حقوق الانسان

الاقتراع على وثيقة اعلان حقوق الانسان

اعلان حقوق الانسان والمواطنية الذي صدر بتاريخ ٢٦ آب، لا يقتصر قط على ترديد نصوص القرارات الصادرة في الرابع من آب التي قضت بالمساواة المدنية والضرائبية . فهو يكرس عالياً ويعلن حقوق الانسان بالحريات العامة كما يكرس ويعلن حق المواطن في السيادة . فهو يؤلف البراءة الكبرى الثانية التي صدرت عن الثورة الفرنسية .

وقد قوبل النص الاول لمشروع وثيقة حقوق الانسان الذي قدمه لافاييت في ١١ تموز بالترحاب المتحفظ ، اذ كان الجميع تحت وقع تهديد الملك باستعمال القوة المسلحة . فاليمين كله على استعداد للوقوف موقفاً معارضاً للمشروع ، مقترحاً بالاحرى اعلان حقوق الملكية . وراح المجلس الوطني يقرر من جهته ان على الدستور ان يتضمن صراحة اعلاناً عالياً بحقوق الانسان .

وجاء يوم ١٤ تموز يشجع الاخذ بهذا الاقتراح ، كما جاء ، من جهة ثانية تهديداً مباشراً له. فانطلقت الحركة واخذت الاقتراحات تترى على الجمعية : هذا يقدمه سييس، وذاك باسم تارجيه وذلك باسم سرفان . الا ان جانباً كبيراً من ممثلي الطبقة العامة الذين أوجسوا شراً من الاضطرابات العنيفة التي وقعت وهزت ارجاء البلاد رأوا ان الخطر يهيمن تارة هنا وطوراً هناك ، بين الصفوف . ففي جلسة المناقشة الحادة التي عقدت في غرة آب ، راح النواب يتساءلون فيما بينهم ، ما اذا كان من المناسب او من اللائق طرح القضية على بساط البحث من جديد . وراح النائب الملكي مالويه ، تحت ستار تقييم المشاريع المقترحة على مكتب المجلس وتبيين حسنات وسيئات كل واحد منها على حدة، يلخص بالاحرى ويشدد علانية على الهواجس والمخاوف التي تساور الوسط – اليمين . وأخذ يشدد ، بنوع خاص ، على المخاطر الكامنة في التأكيد للناس انهم احرار وانهم متساوون، مع ان الوضع القائم او الراهن في المجتمع البشري، ليس هو في الواقع ، وفي أكثر الاحيان ، سوى تابعية مسلسلة، وعدم مساواة على طول الخط .

ومع هذا تبلغ منكم الجرأة على معالنة الناس ومصارحتهم بانهم احرار :

بين مواطنينا عدد لا يحصى من الناس لا مقتنيات لهم ولا مال ، يعتمدون في معايشهم الحياتية على عمل مضمون وعلى أمن مستتب ، وحماية موصولة ، ترمد عيونهم احياناً ، لغير ما سبب ، من مرأى البذخ ويحرضون في ويقهم من رؤية الثراء .

فليس من يعتقد بينكم ايها السادة ، ولا شك في ذلك اني اخلص من هذا القول بالاستنتاج ان هذه الطبقة من المواطنين ، لا حق لها بالتنعم بالحرية ... الا اني ارى ... من الضروري جداً ، لهذا الفريق من المواطنين في هذه المملكة ، جعلهم حظهم العاثر في وضع التابعية ، ان يقنعوا بالاحرى ، بما هي، لهم من الظروف التي تمت لهم والحالات التي تكتنفهم بدلاً من التشوق الى حريات اوسع والتطلع الى آفاق ارحب .

فهل نُباده الناس بانهم متساوون ؟ من الافضل ، قبل كل شيء التخفيف بالاحرى مما يباعد بينهم من فوارق مادية .

فلنهاجم هذا البذخ في الصميم ولنتصد لاسبابه ومبعثه . لتحل الروح العائلية ... ومحبة الوطن محل الحزبيـة وروح العصبية بيننا ، ومحل التمسك بالامتيازات والاعفاءات ... لننم فينا هذه الفضائل والمكارم ... او لنحاول أقله ، غرسها في نفوسنا قبل ان نصارح بصورة جازمة هؤلاء الناس المعدمين وهؤلاء البشر المدمـين من كل نور ووسيلة ، بانهم متساوون في جميع الحقوق مع عظماء الارض واغنيائها

واذا بالمجلس يصرف النظر عن الموضوع ويشيح بوجهه عن هـذه القضية . الا ان المعارضة تعاود الكرة متذرعة هذه المرة بوسائل جديدة ، فاذا كان لا بد من الكشف عن حقوق الانسان الطبيعية والاعلان عنها ، فلماذا لا نعنى بالمقابل ، بتوضيح الواجبات واعلانها في الوقت ذاته ؟ فتقابل الاكثرية الاقتراح المقدم بالرفض القاطع. واذ ذاك ، يتزحزح الوسط ـ اليمين، ولو الى حين، عن موقفه المعلن. فتقر الجمعية ، نهاية الامر بشبه الاجماع ، ان لا بد من ان يسبق وضع الدستور، اعلان حقوق الانسان وحقوق المواطن .

ويطل الرابع من آب والجمعية على بضع ساعات من الجلسة المسائية . فالقرارات التي اتخذت اثناء الليل ، والمناقشات الحادة الطويلة التي تلتها ، اوقفت لاكثر من اسبوع ، النقاش في القضية المطروحة على البحث ، واذا بهم يعودون للنظر في القضية في ١٢ منه .

وكان الوسط ـ اليمين قد اتخذ له موقفاً معيناً اساسه المشروع المفرط الحيـاد لاعلان الحقوق والواجبات ، هـذا المشروع الذي اعده المكتب السادس في المجلس الوطني الذي كان يرأسه احد افراد حزبهم ،هو شمبيون دي سيسه . فكان هذا الموقف مفاجأة للمجلس اوقعته في حيرة واربكته ، فتبنى نص هـذا المشروع واتخـذه اساساً للمناقشة . الا انه ابتداءً من العشرين في الشهر ، جرى في جلسة عامة اعادة النظر وصياغة جديدة جماعية في عمليـة عامة من التركيز والتحديد تتابع خلالها تشكيل اكثريات استرجعت بالتفصيل كل ما كانت فقدته بالجملة في القرار السابق . فلم يبق في وثيقة اعـلان الحقوق التي تم الاتفاق بشأنها في السادس والعشرين ، شيء كبير من نص الاقتراح الذي تقدم في الاول .

المساواة المدنية

سبق للمجلس ونادى ، مرتين مختلفتين في الرابع من آب وفي الحادي عشر منه ، بالمساواة المدنية ، وسيعلنها مرة ثالثة . فلهذا التشديد المكرر معنىً ومغزىً خاصان . ان وثيقة اعلان حقوق الانسان لا تأتي على ذكر الغاء النظام الاقطاعي الذي يؤلف نصراً مزدوجاً تحققه البورجوازية وجمهرة الفلاحين . الا انها تحرص على ان تكرر النص الخاص بالمساواة ، هـذا النص الذي يكرّس النصر ويجعل منه انجاز البورجوازية الامثل في الدرجة الاولى ، القائم على المساواة الشرعية مع النبلاء .

واعضاء الجمعية التأسيسية يعمدون مع ذلك الى اعـلان المساواة المطلقة لما فيه خير الناس اجمع . فالخوف الاجتماعي الذي عبّر عنـه مالويه في خطابه كان يشع من كل تعبير من تعابير المكتب السادس . فالصيغ الصريحة الساميـة التي تقررت اثناء الجلسة نزولاً عند ضغط الرأي العام تنطق عالياً وتعبر خير تعبير عن الفوز المبين الذي سجلته الحركة الثورية .

نص مشروع المكتب السادس	النص النهائي
مادة ٤ ـ لكل انسان من الحقوق ما يتساوى مع ما يتمتع به من حرية وملكية .	المادة الاولى ـ يولد الناس ويستمرون متساوين في الحقوق . فالفوارق الاجتماعية لا يمكن ان ترتكز الا على المنفعة المشتركة.
مادة ٥ ـ لم تجد الطبيعة على كل انسان بـذات الوسائل التي تخولهم الافادة بنسبة واحدةمن هذا الحق. من هنا نشأت حالة عدم المساواة بين الناس . اللامساواة هي من صميم الطبيعة البشرية .	
مادة ٦ ـ نشأ المجتمع البشري على الشعور بحاجة المحافظة علىالحقوق تجاه عدم مساواة الوسائل .	

وستحرص هذه الوثيقة على ان تلبنى وان تذيع ، من جديد ، بعد التأكيد المطلق بالمساواة كما نصت على ذلك المادة الاولى ، النتائج المنبثقة عنها ، هـذه النتائج التي نجدها بحرفها الواحد، او مضمرة في صلب النصوص التي تم الاتفـاق عليها ، يوم ٤ و ١١ ، اي وفقاً للمساواة المدنية والمساواة الشخصية والمساواة الضرائبية . فالنصوص الـتي وضعها المكتب السادس وتلك التي وضعتها الجمعية تحمل الفوارق التي اشرنا اليها اعلاه :

لما كانت اولى واجبات المواطن خدمة المجتمع وفقاً لطاقته ونبوغه ، فمن حقه ان يضطلع باي خدمة عامة .	المواطنون متساوون في نظر القانون ويحق لهم تسلم الوظائف والخدمات العامة وفقاً لكفاءاتهم وطاقاتهم . افضلهم أقومهم خلقاً واوفرهم استعداداً .

ومحل كلمة « الواجب » و « الخدمة » استعملت الجمعية كلمة مساواة التي هي اساس كل حق .

الحريات

وعلى عكس المساواة المدنية تم اعـلان حق التمتع بالحرية للمـرة الاولى : الحريات الفردية والحريات العامة وحرية العبادة .

فلم تُثر الحريات الفردية او الشخصية اية صعوبة . وقد برهن الاطلاع على بيانات الطبقات

وتقاريرها عن اتفاق عـــام في هذا الشأن . وسيعطي النص الذي جرت الموافقة عليه ، مرة اخرى ، القضية الاساسية قـــوة اكبر ويبرزها بشكل اوضح من النص الاول الذي ورد في مشروع الاقتراح ، وسيظهر في مقدمـــة وثيقة اعلان الحقوق . فالعمل بموجبه سهل يسير : « لا يمكن اتهام اي انسان او توقيفه او سجنه الا في الحالات التي ينص عليها القانون ، ووفقاً للانظمة المعمول بهـــا . ويتعرض للملاحقة القانونية كل من يصدر اوامر استبدادية او يبلغها او ينفذها » . والعقوبات الـــتي يتعرض لها المخالف لا تتضمن اي شدة لا محل لها . واللجوء الى الشدة يجب ان يكون « حسبما تقتضيه الضرورة بشكل واضح » . فالقانون الجنائي لا يمكن ان يكون له مفعول رجعي .

وتضيف الجمعية التأسيسية الى هذه الحريات الاساسية ، حرية المرء في التنقل والانتقال . فهو حر « بأن يذهب وان يبقى وان يسافر الى اي مكان يرغب فيه » .

والحريات العامة تتناول حـــرية النشر ، وحرية التعبير ، وحرية الاجتماعات السياسية وفقاً للعرف وكما سينص عليـــه القانون ، بعد حين . الا ان الاتفاق هنا ليس تاماً ، كما نرى ، اقله فيما يتعلق بالصيغة وببعض الفروق والتحديدات. فالمعارضة الجدية تأتي من قبل رجال الاكليروس: « هنالك خطر على الدين والآداب في اطلاق الحرية للصحافة » . وكان من العسير جداً تحقيق شيء من التفاهم العـــام حول الموضوع . والنص النهائي الذي تم قبوله وأقر في النهاية ، نحن مدينون به لاحد النبلاء الاحرار هو الدوق لاروشفوكو ، وهو كما يلي :

التعبير عن الافكار والآراء هو من اثمن الحقوق التي يتمتع بهـــا الانسان . فلكل مواطـن حرية الكـــلام والكتابة وحرية النشر بشرط ان يتحمل مسؤولية تجاوز هذه الحرية ، في الحالات التي ينص عليها القانون.

وستضيف الجمعية التأسيسية ، فيما بعد ، نصاً يتناول الغاء المراقبة والغاء التحري وبالفعل بقيت الصحافة وستبقى حرة بالرغم من الملاحقات التي قامت بها الجمعية التأسيسية ، بعد ذلك بقليل، ضد من يسيئوا استعمال هذه الحرية بنظرها او ضد من يقومون بالتحريض على العصيان. فقرار ١٧ آذار (مارس) ١٧٩١ الذي الغى الجمعيات واعترف لكل صاحب مصلحة بحرية القيام ، باي نشاط اقتصادي يرغب القيـــام به . وقد حرر من جهته المهن والحرف الخاصة بالطباعة وتجارة الكتب .

ومبدأ حرية الكلام الذي جرى اعلانه واقراره بعيداً عن هـــذه التضييقات التي رافقت الاعلان عن حرية الصحافة ، يتضمن ما يشير الى حرية الاجتماع ، هذه الحرية التي لجأت اليها الثورة واستعملتها على نطاق واسع . وقـــد صدرت ، فيما بعد ، قوانين كرست هذا العرف . وبحسب منطوق المرسوم الصادر في ١٤ تشرين الاول (اكتوبر)١٧٨٩ ، يتمتع المواطنون بحرية عقد الاجتماعات بهدوء ، عزلاً من السلاح في جلسات خاصة بقصد وضع العرائض والالتماسات .

وبعد ذلك بأقل من سنة ، طلع قرار ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٩٠ الذي أيّـــد من

جديد ، حرية الاجتماع ، كما ان الجمعية التأسيسية نفسها ادرجت هــذه الحرية ضمن المبادىء السياسية التي اعلنتها .

كذلك استعملت الثورة على نطاق واسع حق تأليف الجمعيات التي قامت الى جانب هذه النوادي العديدة من كل لون وصنف . وقد جرى الاعتراف بهذا العرف بموجب القرار الصادر عام ١٧٩٠ ، هذا القرار الذي اجاز تشكيل جمعيات حرّة ولا سيما لمواد سياسية . الا ان وثيقة اعلان حقوق الانسان ، والدستور نفسه لا يشيران الى شيء من هذا . وفي اواخر عهد المجلس الوطني ، حرصت الجمعية التأسيسية ، عند قيام الحركة الرجعية التي ظهرت اثر حادث اطلاق الرصاص في ميدان شان دي مارس ، على تنظيم هذه الجمعيات وضبط نشاطاتها ، وذلك باصدارها القرار المؤرخ ٢٩ — ٣٠ ايلول ١٧٩١ . فقد كان سبق لها وحظرت ، كما سنرى بعد قليل ، انشاء الجمعيات المهنية والعمالية . وباستثناء هذا النوع من الجمعيات ، ساد البلاد نظام من الحريات العامة ، بصورة مؤقتة .

وقد حدثت مناقشة حادة لدى البحث في حرية الضمير . وهنــا ايضاً قام أحد النبلاء المتحررين ، هو الكونت دي كستلان يقترح مــا ألّف القسم الجوهري من صلب النص الذي تمت الموافقة عليه .

والصيغة التي تم تبنيها اختلفت كثيراً عن النص الاساسي الذي قدمه المكتب السادس .

المادة ١٦ ـ لما كان ليس في وسع القانون ان يطال الجنح الخفية ، ترتب على الدين وعلى الاخلاق ان يسدا هذا المسد . فمن الضروري والحالة هــذه ، محافظــة على حسن النظــام في المجتمــع ان يلقيــا الاحترام اللازم .	(فصلت هذه المــادة وارسلـت للجمعية التأسيسية لمناقشتها) .
المادة ١٧ ـ الابقاء على الدين يستدعـي حتمـاً قيام عبادة علنية . ولذا لا بد من احترام مظاهر العبادة العامة .	(فصلت وارسلت للجمعية التأسيسية لمناقشتها) .
المادة ١٨ ـ كل مواطن لا يقلــق هــذه العبادة يجب الا يتعرض لاي ازعاج كان .	المادة ١٠ ـ لا يجوز ازعاج اي كان لآرائه الدينية بشرط الا يؤدي التعبير عنها الى الاخلال بالنظام العام الذي اقره الدستور .

احل المجلس الوطني محــل المشروع الذي ضمن الحقوق الدينية وحرية الاعتقاد والحريات الشخصية ، نصاً كان على الجمعية التأسيسية استكماله ، ولم تستَبْقِ منه الا ما تعلق بحق الفرد في حرية الرأي حتى في امور الدين ، والتساهل المشروط لاقامة مناسك العبادة . فنحن لم نصل بعد الى حرية الضمير . فالمساواة التــامة في الحقوق لم يُسلم بها لغير الكاثوليك ، الا في الرابع والعشرين من كانون الاول ، بينما استثنى نص صريح ، اليهود ، من هذا التدبير العام . فالقرار النهائي بشأنهم لم يصدر الا عام ١٧٩٠ و ١٧٩١ .

ووثيقة اعلان حقوق الانسان سجلت في عداد حقوق الانسان الطبيعية التي لا يمكن نسخها على الاطلاق ، حق التملك وحق التمتع بالطمأنينة ومقاومة الضغط ، وهو قرار تمت الموافقة عليه بالاجماع . فلتملك « هذا الحق المقدس الذي لا يمكن مسه ولا يمكن إنكاره على الانسان أو تجريده منه الا اذا اقتضت ذلك ، المصلحة العامة ، ولقاء تعويض عادل سابق »، نص صريح تقدم به احد نواب اليسار هو السيد دي بور .

السيادة

هذه الحريات والمساواة المدنية وحق التملك، كل هذا في مقدور طاغية مستبد ان يعترف بها عند الاقتضاء . تبقى بعد هذا ، قضية السيادة . وراح اذ ذاك بعض البروسيانيين يزعمون ان النظام الملكي الفردريكي، قد رسم من قبل ووضع بكلفة أقل، اساسيات كل حكومة ، هذه الاساسيات التي راحت الجمعية التأسيسية تقتفي أثرها وتحذو حذوها . الا ان الثورة الفرنسية جاءت من اسفل وطلعت من تحت فنادت بحقوق المواطنين في السيادة . فهي انبثقت من صميم الانسان وبواسطته لتعمل وتجري كل ما يعود عليه بالنفع .

فمبدأ السيادة الوطنية مبدأ عبرت عنه وطالبت به باتفاق الآراء تقريباً كل مشاريع القرارات التي رُفعت الى مكتب المجلس ولو بصورة نظرية ، مجردة : من مشروع مونييه الى مشروع لافاييت ، الى مشروع سييه . ان مشروعاً واحداً من هذه المشاريع يكاد لا يتعرض لهذا الموضوع بشيء . فاذا ما راح يؤكد : « ان القانون انما هو تعبير عن ارادة الامة ، فعلى كل مواطن ان يسهم مباشرة باعداد هذا القانون . فقضية السيادة تُعرَض الآن عرضاً جانبياً . فلا يؤتى قط على ذكر الملك أو الدولة ، حتى في أي من مواده الاربعة والعشرين.

تثبت وثيقة اعلان الدستور بالحرف الواحد ، تقريباً نص المشروع الذي قدمه لافاييت في ١١ تموز ، هذا المشروع الذي تبناه في ما بعد كثيرون ولا سيما مونييه . وقد نص فيما نص عليه : « ما من هيئة او فرد كان ان يمارس سلطة ما لا يكون مصدرها الامة » . ولعل ذلك من اتفاق الصدف بين الثورة المسالمة والثورة المجددة . فالاختلافات لم تلبث ان برزت حالاً على حدتها ، تماماً كما حدث بعد ليلة ٤ آب ، اذ نشبت المعركة حول تطبيق المبدأ .

وقد جرى التصويت على المواد الاخيرة من وثيقة اعلان الحقوق في السادس والعشرين . ورفضت الجمعية في السابع والعشرين منه مواداً إضافية أخرى . واحتدم النقاش في الجلسة ذاتها بشأن الدستور حيث عادوا لقضية السيادة يستجلون مدلولها .

ما من احد في الجمعية التأسيسية ومـا من تيار فكري او سياسي في البلاد فكر يوماً أن يكون النظام المعمول به غير نظام حكومة دستورية او النظام الملكي فهو أمر فوق كل جدل ونقاش . ولكن كيف يمكن التوفيق بين الامتيازات الملكية والسيادة الوطنية ؟ وكيف يتأتى التعبير ، من جهة ثانية ، عن « الارادة العامة » ؟ هل تحال القضية الى مجلس واحد تختاره البلاد ليفتي في الأمر بقرار يصدره بهذا الشأن أما يجب ان تقوم سلطة تمثيلية لهذا الاستمرار

الوطني تأخذ على نفسها استخلاص فرنسا من هذه التبدلات وليدة النزوات العابرة؟ وهذه السلطة قد تكون ممثلة في الملك أو في مجلس الشيوخ أو في الاثنين معاً ، يتمتع كل منهما بحق النقض . وراح المقرران : لالي تولندال ومونييه يختاران الحل الأخير : حق نقض ملكي وحق نقض في مجلس الشيوخ ، لا حد له ، كما هو مفروض . اما حق الرفض التوقيفي فليس هو سوى مجرد حق يدور على الشجب أو الانتقاد .

وهكذا يتم التوازن بين السلطات . فالقول بمجلس وحيد ، من شأنه ان يعرّض الدولة كثيراً لمناقضة نفسها بنفسها ويوجد فيها وضعاً مستمراً من عدم التوازن يساعد على إقامة الطغيان الديموقراطي في البلاد :

سلطة وحيدة في البلاد ، لا تلبث ان تلتهم كل شيء .
لا بد لسلطتين تمارسان الحكم في البلاد ان تفضيا الى نزاع لن ينتهي قبل ان تقضي الواحدة منهما على الاخرى .
اما مع ثلاث سلطات فمن المعقول ان تبقى البلاد في توازن عام . انما يجب تشكيل هذه السلطات بحيث لو قامت اثنتان منها بمخاصمة الواحدة الاخرى اعادت الثالثة الهدوء الى البلاد .

يجري انتقاء اعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي « من بين جميع الطبقات » ، أي من بين ابناء الطبقات الثلاث . ويمكن ان يقوم بعملية التعيين هذه الملك وممثلو المجالس الوطنية ، أو الملك وممثلو مجالس المحافظات أو ممثلو هذه الهيئات وحدها . ويكون في ذروة المنى ان يُعمل بالوراثة في الوظائف ، غير ان الرأي العام الحالي لا يسمح قط بذلك . ولذا يجب الركون الى التعيين الدائم أو لمدة معينة ، وفي الحالة الاخيرة ، فرض شروط صعبة يجب ان تتوفر في من ينتخبونه .

يهم الملاك الغني اوكثر من سواه ان يستتب الامن في البلاد ، ويخشى جداً لاكثر من سبب هذه الانتفاضات المتجددة .

وراح اليسار يعارض بشدة هذه الحجج عن طريق الصحافة وإثارة الشارع . فكيف السبيل الى اصلاح المفاسد أو المساوىء مع مجلسين يحاول كل منهما الشد بالحبل من طرفه الخاص . ولن يلبث مجلس الشيوخ أن يصبح ، شئنا أم أبينا ، ملاذ الارستوقراطية ، لا سيما عندما يكون اعضاؤه غير قابلين العزل أو معينين من قبل الملك . وبذلك « تتحكم الأقلية بالأكثرية » كما يلاحظ لانجونيه بحق . هل يكون من المنشأ ذاته وتتم له بالتالي ، القيمة التمثيلية التي للمجلس الثاني ؟ في مثل هذا الحال لا خير منه ولا فائدة . فالاقتراع الذي جرى في العاشر من ايلول كان بمثابة كارثة على اللجنة الدستورية ، صوت ٨٤٩ عضواً ضد مشروع مجلس الشيوخ كما اقترحه مونييه ، مقابل ٨٩ غياب ، و ١٢٢ امتنعوا عن التصويت .

حق الملك بالرفض

تناول الشق الثاني من المناقشة حق الملك غير المقيد بالرفض . فالقضية تبقى في الصميم ، حيث هي . ففي حال غياب أو عدم وجود مجلس الشيوخ ، الملك وحده يمثل عنصر الاستمرار « المحافظ » ، في الجسم التشريعي .

وراح مونييه يعلق باسم اللجنة الدستورية قائلاً :

« لا نعرف حكومة قط تعتمد في عملها الاداري على ارادة الجماهير وحدها... من واجب اللجنة المقدس ان تعرب هنا امامكم عن المخاوف التي تساورها والنتائج الوخيمة التي تتوقعها من نظام ديموقراطي يدعى للفصل في خلاف الملك وممثلي الامة ، من لهم حق الاقتراع في المحافظات ، او ان نترك للممثلين الجدد حرية القضاء على كل ما يعرض انقسام السلطات على نفسها » .

فحق الرفض غير المقيد في شخص الملك هل يترك المجلس في وضع يستحيل عليه معه الدفاع عن نفسه ؟ فميرابو لا يرى ذلك قط . وهذا سبب من الاسباب التي حملته على التصويت الى جانب هذا الرأي . باستطاعة ممثلي الامة أن يردّوا على أي رفض لا يراعي المصلحة ، بتدابير جذرية حازمة وقاسية ، شديدة الفعالية ، منها مثلاً عدم إقرار ضريبة الاراضي وعدم التصديق على الاعتمادات الحربية .

وراح معظم الخطباء الذين تعاقبوا على الكلام يأتون بحججهم ضد حق الرفض غير المقيد للوصول بذلك الى حق رفض توقيفي او تعليقي ، والا لم تخرج « القرارات التي تتخذونها – كما يقول لانجوينه – عن كونها مجرد التماسات لا غير » . وقد عارض نيكر ومجلس الوزراء هذا الاتجاه واعرب نيكر رسمياً عن موقفه هذا . ولم يجر الاتفاق ، والحق يقال ، بشأن تحديد مدة الرفض التوقيفي . وقد التف حول المبدأ غالبية ضمت ثلثي اعضاء المجلس . وفي الاقتراع الفاصل الذي وقع في ١١ ايلول ، اندحر المتدلون من جديد . فنتائج حق الرفض قد تستمر طوال مدة المجلس ، على الاقل ، اي مدة سنتين . ورفض الملك يرتفع من ذاته في الدورة التشريعية الثانية التي تأتي بعد الدورة التي صدر فيها الرفض الملكي .

وهكذا فالكلمة الاخيرة تبقى للامة بعد فترات قصيرة ، ما لم تحدث ظروف خاصة كاعلان الحرب مثلاً ، تفسد على الناس مفهوم الزمان والطوارىء .

٣ – الديمقراطية البورجوازية
نحو ديمقراطية قوامها دافعو الضرائب

مواطنون عاملون وسلبيون

فالامة التي يمثلها مجلس تشريعي وحيد لا يلبث ان تعلو فيها ، بعد لأي قصير ، كفة الامة على كفة الملك . ولكن من هذه الامة السياسية يستثنى شطر كبير من الشعب . فبالرغم من مبدأ تساوي المواطنين في الحقوق ، هذا المبدأ الذي وعد باعتماد الاقتراع العام ، اقر المجلس الاقتراع المبني على المكلفين .

فالمجلس الوطني لم يفكر يوماً بالاتجاه الاول . ففي نظر الاغلبية الساحقة من اعضاء الجمعية التأسيسية ، كانت الملكية الضمانة الوحيدة التي تنهض على التجربة والروح الاستقلالية والحكمة الاجتماعية ، والتي يمكن ان تعتبر بالفعل الاساس الوطيد للمواطنية . وقد رضي فريق من المعتدلين ، بينهم مونييه ورفاقه الذين كانوا يسيطرون على اللجنة الدستورية ، منذ شهر آب ، ان يشترك في عملية انتخاب ممثلي الامة : « اكبر عدد ممكن » من الناخبين ، ناخبين من الدرجة

الاولى ، على الاقل ، اذ ان عملية الاقتراع تجري بشكل غير مباشر اي على درجتين . فالحد يتم بتعيين من تتوفر فيهم شروط الانتخاب وبوسائل اخرى : كالمجلس الأعلى وحق الرفض المزدوج المطلق . ان مدى اتساع حق الاقتراع في الدرجة الاولى من شأنه ان يقيد الجمعية التأسيسية ويطبعها بطابع خاص كما يرى الوسط اليمين .

وكان من رأي توريه ، مقرر اللجنة الجديدة ، ان تُعطى صفة المواطن العامل وبالتالي حق الاقتراع ، في الدرجة الاولى، لهؤلاء المواطنين من الفرنسيين الذين يتوفر فيهم الشرطان التاليان: صفة الاستقلال الذاتي اي ان لا يكونوا من الاجراء ، ويدفعون ضريبة مباشرة قيمتها قيمة ثلاثة ايام عمل ، اي من ليرة ونصف فرنسية الى ثلاث ليرات ، وبعبارة اخرى اي ما يقرب من فرنك ونصف الى ثلاث فرنكات للجرمينال وعبثاً راح الاب غريغوار يلوح بخطر ارستوقراطية الاغنياء ، كما راح دي بور وروبسبيير يلوحان بوثيقة اعلان حقوق الانسان . وعلى عكس ذلك ، راح دوبون دي نيمور بوصفه من اكبر علماء الاقتصاد المبني على الزراعة ، يحاول حصر حق الاقتراع في الملاكين وحدهم . واخيراً اقرت الجمعية المشروع الذي اقترحته اللجنة .

وهكذا جعلت الجمعية التشريعية من ٤،٣٠٠،٠٠٠ مواطن فرنسي مواطناً عاملاً كما جعلت نحواً من مليونين مواطنين سلبيين . وهكذا اصبح في وسع ثلثي الفرنسيين ان يقترعوا . واسقط القانون حق الاقتراع ، تلقائياً ، عن الأجراء الذين هم في خدمه الغير او الفعلة الذين يعملون مأجورين في الحقول ، ممن يؤلفون شطراً كبيراً من البروليتارية في الارياف . ولا يدخل في هذه الفئة طبقة المزارعين والمرابعين والصناع وكذلك جمهرة صغار الملاكين واصحاب الاملاك الموزعة والمشتتة وان كانوا عمالاً او مياومين . ففي مقارنة هذا الوضع بالوضع الآخر الذي أوجد رجوع الملكية « المتحررة » بتخويلها حق الاقتراع للمواطن الذي يدفع من الضرائب ٣٠٠ فرنك فاذا بعددهم يبلغ ٩٠،٠٠٠ ، او مقارنته بالوضع الذي اوجدته الملكية في تموز ، اذ حصرت حق الاقتراع بمن يدفع ٢٠٠ فرنك ضريبة ، فبلغ عددهم ١٦٠،٠٠٠ ناخب عام ١٨٣١ .

من الواضح ان ملايين المواطنين من دافعي الضرائب الذين اعطتهم الجمعية التشريعية حق الاقتراع، يشتركون في تأليف الهيئات الاولى التي يوكل اليها اختيار ممثليها للاشتراك في انتخابات الدرجة الثانية . فلم يخطر للعهد اي تدبير او وسيلة اخرى لانتخاب الهيئات التشريعية . في هذا النظام من انتخابات الدرجة الاولى الذي وضعته الثورة ، ينتخب النواب مندوبين من قبل الشعب يُعهد اليهم الاقتراع في بالدرجة الثانية لانتخاب ممثلي الامة . اما الانظمة الاخرى التي عرفها القرن التاسع عشر والتي اتخذ اساساً لها دافعي الرسوم الضرائبية، فلم تكن لتنتخب هذه الهيئة بل تعين تلقائياً من بين دافعي الضرائب .

الانتخاب الضرائبي

وبرز الاختلاف حول حق الانتخاب . فمندوبو انتخابات الدرجة الاولى الشعبية الذين يتولون هم انفسهم انتخاب ممثلي الشعب الذين تتألف منهم الجمعية التشريعية ، جرى انتخابهم وفقاً لقـــرار صدر عام ١٧٨٩ ، من بين دافعي الضرائب المباشرة ، مبلغاً يعـــادل قيمة عشرة ايام عمل ، اي ما تتراوح قيمته بين ٥ — ١٠ ليرات . وهكذا نرى ان ثلاثة ارباع المواطنين العاملين يتوفر فيهم هذا الشرط ، وهكذا تبدو قاعـدة الانتخابات الشعبية الاولى واسعة جداً الا انـه عندما اعيد النظر في النصوص الدستورية على اثر حادث اطلاق الرصاص في ميدان شان دي مارس ، راحت اللجنة الدستورية تقترح رفـع هذا المبلغ الى اربعـــة امثاله ، وهكذا اصبحت الطبقة الوسطى ، كما يلاحظ برناف ، هي صاحبة المسؤولية الكبرى في انتخابات ممثلي الامة ، « اذ ان الطبقة الوسطى هي التي تمثل اصحاب الثروات » ، دون ان يكون الانتخاب وقفاً على الاغنياء وحدهم ، اذ كان من اللازم وضع حد لهذه الطبقة التي كان همها الاكبر الدس والتبييت ونشر الاخبار المشوشة والتلفيقات الهدامـة ، تهيئة لنظام جديد . وبعبارة اخرى كان لا بد من اتخاذ اجراءات زجرية ضد فـــراغ صبر الصحافة ونزقها وضد الشعارات التي ترفعها النوادي الثورية ودعاياتها . وراح روبسبيير يهاجم باسم حقوق الانسان ، اقتراح اللجنة قائلاً :

« اعترفتم ... للمواطنين بحق استلام اي وظيفة وممارسة اية خدمة عامة دون اي ميزة او فارق للواحد على الآخر غير محامد الاخلاق وطيب الاستعداد . فما الفائدة من مثل هذا الاعتراف او الوعد البراق طالما لحستم موافقتكم في الحال (بعض التصفيق في اقصى مقاعد اليسار وبين النظارة). وماذا ، وماذا يهمنا؟ الا يوجد بعد نبلاء اقطاعيون اذا ما اقمتم مقامهم بالفعل فارقاً معنوياً او مادياً تجعلونه اساساً لحق سياسي ؟ ... وهذا التناقض الذي تقعـون فيـه يخولنا ان نشكك بحسن نياتكم وباخلاصكم (تصفيق بين النظارة) .

وللحال نهض برناف يرد على هذا الكلام ملاحظاً بحق ان المعارضة تخلط بين « الحكومـــة الديموقراطية » و « الحكومة التمثيلية» . فالدستور اعترف بهذه وأقرها ورفض تلك ، مع العلم أن « وظيفة الناخب أو المقترع ليست حقاً له قط » .

واستبدلت الجمعية في نهاية الامر شرط الاربعين يوم عمل ، بنظام اكثر اعتدالاً من النظـام الذي اقترحته اللجنة وأكثر تنوعاً ، مميزة بين المدن التي يزيد سكانها على ٦٠٠٠ نسمة والمـدن الاخرى والارياف . فالضريبة التي تخول دافعها حق الاقتراع تعادل رسماً ضرائبياً يتنـــاوح بصورة تقريبية وفقاً للحالات والاوضاع ، بين ١٢ — ٢٥ ليرة . فـــاذا لم تُستثن البروليتارية بالمعنى الحصري ، من الهيئات الناخبة في الدرجة الاولى ، فقد استثنيت بالفعل من الهيئـــات المكلفة انتخابات الدرجة الثانية ، وحرمت بالتالي من الاشتراك بالتمثيل الوطني. إلا أن جماهير البورجوازية الصغرى ، كاصحاب الحوانيت وعـدداً كبيراً من اصحاب المزارع وعناصر مهمة ممن يؤلفون طبقة أنصاف البروليتارية كالمرابعين مثلاً ، يؤلفون معاً ، على الاقل من الوجهـــة النظرية ، مجالاً رحباً لانتخاب هيئات الدرجة الاولى . وهكذا نراهم يبتعدون كثيراً ، هـذه

المرة ، عن الحكمة الاجتماعية التي اعتمدتها انظمة الحكم التي عمل بها خـلال عهدي لويس الثامن عشر ولويس فيليب ، هذه الحكمة التي قامت على معدل ضرائبي تحدد عام ١٧٩١ بين ١٢– ٢٥ ليرة ، والرسم الضرائبي الذي فُرض على أقلية المواطنين في القرن التاسع عشر والذي تراوح هو الآخر بين ٣٠٠ – ٢٠٠ ليرة .

المارك الفضي

اتجهت افكار اللجنة الدستورية التي سيطر عليها الوسط ـ اليمين الى جعل حق الاقتراع محصورا باصحاب الملكية العقارية . وقـد خطر على بال مونييه حصر هذا الحق بمن عندهم ثروة عقارية تساوي ١٢ الف ليرة . وراح كازاليس يزايد على ذلك مشترطاً بالاحرى ، على من يتمتع بحق الاقتراع أن يكون له من ريع اطيانه دخل يبلغ ١٢٠٠ ليرة . وبذلك تم الاحتفاظ على اساس من المساواة مـع الارستوقراطية ، بالتمثيل الوطني في أقلية ضئيلة من اصحاب العقارات والاملاك . فاللجنة الدستورية الجديدة التي جرى تعيينها في ايلول ١٧٨٩ ، اعادت الى الثروة العقارية الحقوق التي تمتعت بها من قبل،اذ كان يكفي المواطن ان يملك عقاراً ما ليتمتع بهذا الحق . ثم ظهر فجأة شرط لم يلبث أن ارتدى شهرة واسعة ، هو شرط « المارك الفضي » : وحدهم يُنتخبون اعضاء في الجمعية التأسيسية ، المواطنون العـاملون الذين يدفعون من الضرائب ما يساوي قيمة « مارك فضة » أو ما يعادل قيمة ٥٠ ليرة . وراح بيتيون وباربر والاب دي لامارن وحتى ميرابو نفسه يهاجمون باطلاً هذا الاقتراح الذي حظي في نهاية الامر بموافقة الجمعية فأقرته وعرفت أن تحـافظ عليه باكثرية ضئيلة بالرغم من الهجمات المتكررة التي قام بها اليسار المتطرف مع شطر من اليسار ، وبالرغم من الحـملات العنيفة التي قامت بها الصحافة الحزبية . وقد ذهبت اعادة الملكية الى فرنسا ، والنظام الملكي الذي أعلن في تموز ، الى ابعد من ذلك ايضاً ، عندما اشترطا أن يكون صاحب حـق الاقتراع لممثلي الجمعية التشريعية من يدفع من الضرائب الف فرنك ، وهو مبلـغ انزل الى ٥٠٠ فرنك ، عام ١٨٣١ .

وشرط « مارك الفضة » غير المرغوب فيه لم يلبث أن اختفى وزال من الوجود ، عنـد إعادة النظر في الدستور ، عام ١٧٩١ ، مقابل شرط إسقاط الضريبة المترتبة على حق الاقتراع لناخبي الدرجة الثانية . وهكذا أمكن انتخاب ممثلي الامة من بين جميع المواطنين العاملين .

وتسيطر ، في نهاية الامر، البورجوازية على الهيئة الانتخابية كما ان اعيانها كانوا مدعوين لتمثيل دور حاسم. ونزعت الجمعية الى مهالأة الفئات العليا بين هذه الطبقة ونبذت جانباً الشطر الأكبر من البروليتارية بعد أن رأت في مؤازرتها لها شراً يفوق المؤازرة التي قد توفرها، أقله في المدن الصغرى ، لبعض العناصر البورجوازية الصغرى واصحاب الحرف .

فالقاعدة الانتخابية بقيت ، مع ذلك ، رحبة واسعة . فالقدامى من اصحاب الطبقات الممتازة اصبحوا ، بالرغم من محافظتهم على مالهم من نفوذ اجتماعي اقوى بكثير مما يوليهم اياه

عددهم ، كمية مهملة ، أقله في البدء . وهكذا تحقق الانتصار ، من هذه الناحية ، على النظام القديم ، كما ظهر من جهة اخرى ، مجتمع قوي لا اثر فيه للطبقات ، حتى بين أمة حق الاقتراع فيها يتولاه الثلثان من السكان . فالاشداء من بين الذين قاموا بهذه الثورة المجددة ، والذين عدوا بين صفوفهم زعماء بارزين استطاعوا ان يحافظوا على مراكزهم واقدارهم .

التنظيمات الادارية والعدلية

ان توزيع السلطة التنفيذية بين الشطر الذي يدفع الضرائب في الأمة وبين الملك ، لا يبدو ، بالرغم من كل المظاهر ، بأقل انصافاً من السلطة التشريعية . صحيح ان الملك « وحده » يعين الوزراء ويقيلهم ، ويعين السفراء وقادة الجيش والمارشالات وامراء البحر ، وجانباً كبيراً من اصحاب المراتب العليا في البلاد ، « وفقاً لأحكام القرارات والمراسم المعمول بهـا في كل ما يتصل بترفيعهم » غير ان هذا القسم الهام من السلطة التنفيذية ممثـلة بالادارة العامة في الولايات ، يخرج من يده بالكلية تقريباً . فوفقاً لأحكام المرسوم الصادر في ٢٢ ايلول ١٧٨٩ ، تقسم المملكة ، اداريا الى محافظات *Départements* وهذه بدورها الى أقضية ، فناحية . ويقوم من لهم حق التصويت من سكان المقاطعـات والاقضية والنواحي انفسهم بانتخاب حكامهم والموظفين الاداريين ، كما يقومون بانتخاب ممثليهم في المجالس البلدية ، ويدعون للاقتراع من جديد عندما يحين موعد الانتخابات .

ولعلة عدم وجود ممثل دائم للسلطة المركزية في هـذه الادارات الاقليمية او المحلية ، فتأثيرها فيها يكاد لا يذكر . وقد نص القانون « على انه لن يقـوم اي وسيط » بين هـذه السلطة والسلطة المحليـة في المقاطعات . وهكذا زال من الوجود كل اثر للمفتشين ونوابهم . صحيح ان مرسوم ١٥ مارس ١٧٩١ يعترف صراحـة للملك ان يحل ، على مسؤولية الوزير ، كل ادارة في المحافظة تحاول العصيان او التمرد ، ولكن هو المجلس الذي يجب ان يشعر بالامر والذي له الكلمة الفصل في نهايـة الامر . كل محافظة مكلفة بأن تُشعر المجلس التشريعي بالاوامر الملكية المخالفـة للقوانين المرعية الاجراء . وادارة الاقضية ، تنعم هي الاخرى ، بالاستقلال تجاه السلطة التنفيذية . اما البلديات ، فالمرسوم الصادر في ١٧٨٩/١٢/١٤ ، يصرح بأن يقوم المواطنون العاملون فيها انفسهم بانتخاب المجالس البلدية ، بما فيها رئيس المجلس البلدي . وهكذا يبدو ان النظام اللامركزي الذي فرضته الجمعيـة التأسيسية انما كان يخفي تحسباً للحركات الثورية .

وهكذا سيكون للنظام عن طريق الاقتراع العـام اداريون على شاكلته ، كما سيكون له قضاة يختارهم الناخبون انفسهم مباشرة ويخضعون للتجديد دورياً . فمنذ ٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٨٩ ، أجل المجلس ، الى أجل غير مسمى ، اجتماع البرلمانات . وكرس المرسوم الصادر في ١٦ آب ١٧٩٠ نهاية هذه الاقليات القضائية القديمة كما كرس نهاية القضاة السياديين ، وانشأ عوضاً عنهم محاكم قضاء ، وقضاة صلح ومحاكم تجارية . ومفوضو الملك وحدهم يمثلون تجـاه قضاة

الاقضية وظيفة النائب العام ويعينون من قبل السلطة التنفيذية . الا انهم لن يمثلوا وظيفة النائب العام في الامور الجنائية . والمواطنون العاملون ينتخبون بأنفسهم قضاة الصلح .اما قضاة المحاكم التجارية ، فيلتخبهم ، مبدئياً ، ابنــاء المهنة انفسهم . والقضايا الجنائية ينظر فيهـا محكمون . ومحكمة الجنايات في المحافظة التي نص على انشائها في كانون الثاني ١٧٩١ تشكل من رئيس ومدع عام منتخبين ومن قضاة يجري انتدابهم من محاكم الاقضية .

وليس من درجات استئنافية . فالاستئناف يجري من محكمة قضاء الى محكمـة قضاء أخرى . كما ان اعضاء محكمة التمييز يجري انتخابهم بالاقتراع العام ، وهي المحكمة التي نص على تشكيلها المرسوم الصادر في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٩٠ . وتشترك المحافظات مناصفة ، على التوالي ، بعملية الاقتراع .

الاكليروس والدستور المدني

رجال الاكليروس انفسهم يؤتى بهم انتخاباً ، اقـــله فيما يتعلق بالخورانيات والاسقفيات وفقاً لهـــذا الدستور . فحق انتخاب خدمة الدين هو من احكام هذا الدستور الاساسية .

وهذا الدستور المدني الذي نظم وضع الاكليروس ورجال الدين في البـــلاد ، صدر في تموز ١٧٩٠ . فالعملية ، كما تصورها السيد دوزيه تتم بالاقتراع العام . وبناء على دعوة رئيس رابطة الأساقفة في المقاطعة وتعليماته ، يجتمع الناخبون – هؤلاء الناخبون انفسهم الذين ينتخبون مجلس المقاطعة ، يوم احد ، في الكنيسة الكبرى في مركز القضاء ، وينتخبون ، بعد الاستماع الى القداس ، اسقفهم بالاكثرية المطلقة . ويجري الانتخاب من بـين كهنة الراعويات ، والنواب الاسقفيين ، ورؤساء النواب الاسقفيين أو رؤساء المدارس الاكليريكية ، الذين سبق لهم وعملوا ١٥ سنة في خدمة النفوس في الابرشية . فأمام الاكليروس الوطني المتوسط النسب، كل الحظوظ المؤاتية . وبذلك تصبح الاسقفية مهنــة بورجوازية ، حــرة . وقد ازيحت سلطة البـابا . فالمتروبوليت أو اقدم اسقف سيامة في المقاطعة يقوم بمراسم السيامة القانونية . ويُعلم الحـبر الجديد المنتخب الكرسي الرسولي بارتقائــه السدة الاسقفيــة ، وكذلك خوارنة الراعويات يُنتخبون وفقاً للنظام نفسه بواسطة الهيئات الانتخابية في القضاء ، من بين رجال الاكليروس الذين تولوا لخمس سنوات على الأقل ، وظيفة نائب اسقفي الابرشية ، ويجري تكريسهم من قبل الاسقف الذي جعل مرتبه اقــــل بكثير مما كان عليه هذا المرتب من قبل ، بينما اخذ الكاهن يقبض اكثر بكثير مما كان يقبض في الماضي ، اي زهــاء ١٢٠٠ ليرة على الاقــل ، علاوة عن السكن والحديقة امام المنزل ، بينما يتناول نواب الاسقف ٧٠٠ ليرة . وعلى الجميع ان يتقيدوا بفريضة الاقامة حيث هم معيّنون .

وكلا الفريقين يعتبران من موظفي الادارة العامة ، موظفي لدى الامـــة التي تدفع لهم مرتباتهم . وهم ملزمون بوصفهم موظفين ان يؤدوا في كنائسهم قسَم الولاء قبل الشروع باقامـة

القداس الراعوي ، بان يخلصوا لوطنهم وللقانون وللملك ، وان « يحافظوا » بكل قواهم على « الدستور الذي سنته الجمعية الوطنية وصادق عليه الملك » .

وها هو الاكليروس نفسه يُؤَمَّم بعد ان تأممت املاكه وممتلكاته . اما تأميم الاكليروس الرهباني فقد كان عملية اصعب واشق ، اذ لم يكن بوسع الاقتراع هنا ، ان يلعب دور التصفية والتنقية الذي لعبه هناك . والتحرز المعادي للنظام الجديد يبرز على اتمه ، في المرسوم الصادر في ١٣ شباط (فبراير) ١٧٩٠ الذي يَعد الرهبان الذين يخرجون على رهبانياتهم بتعويض مالي . وقد حظر المرسوم المذكور النذور التي ستبقى من الآن فصاعداً دونما مفعول مدني . فالقانون لم يعد ليقف بجانب المخالفات التي تعبث بالنذور : فللرهبان الحرية العامة بترك الحياة الرهبانية والتزوج ، كما بامكانهم ان يرثوا وان يورّثوا ما يشاؤون . وهكذا هدف النظام الجديد الى حل الرهبانيات دفعة واحدة دون ان يذهب الى تحريمها بالمرة .

فالاكليروس العامل في خدمة النفوس اخذ يقاوم ورفض التقيد بقسم الولاء المترتب عليه . وسار الاساقفة في مقدمة المعارضة والمقاومة . وقد اعتبر المرسوم الذي صدر في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٩٠ ، مستقيلاً من وظيفته في خدمة الدولة، كل رجل من رجال الاكليروس لا يؤدي قَسَمُ الولاء في خلال ٨ ايام من تاريخ صدور المرسوم ، وحرص المجلس على ان يؤكد بان حلف اليمين يجب الا يرافقه اي تفسير او تضمين او اكتفاء او احتفاظ بالرأي . ونشبت على الاثر حرب دينية في معظم المحافظات ، ولا سيا في تلك المحافظات التي تعد اكبر عدد من الكاثوليك من سكانها او من الكهنة الذين لم يؤدوا قسم الولاء ، كمجموعة محافظات الغرب من كلفادوس الى بريتانيا حتى محافظة الفاندية ومحافظة الشمال وبا دي كاليه والرين الاسفل والموزيل ، ومحافظات الجنوب الشرقي من السلسلة الوسطى . وكأن بهذه المناطق التي تقطنها اغلبية ريفية حاسمة والتي تبدلت منها الاوضاع على اثر حركة التصنيع العصري والتي رأى فيها اندريه سيغفريد واتباع مدرسته المركز الرئيسي للمحافظة ، تبرز فيها روح محافظة شديدة بمعزل عن كل اثر لرجل الكنيسة على محيطه ، بل تأثير المحيط على رجل الدين .

كذلك حدث صدام بين البابوية والعهد الجديد . فجاء هذا الخلاف الحاد مظهراً جديداً لمطالب الكنيسة الغاليكانية ، كما ان هذا التصادم كان من جهة ثانية مظهراً قوياً لهذه الخصومة الجذرية التي قامت بين المجتمع الثوري الجديد وبين اكبر سلطة روحية في المجتمع الطبقي ومع الملكية الرسولية ، اكبر واقوى المراكز المحافظة في اوروبا ، اذ ذاك . واحتار البابا بيوس السادس في امره ، ولم يتخذ موقفاً جلياً الا بعد ان رأى موقف مصاف الاحبار في فرنسا . فالبراءات البابوية التي اصدرها في ١٠ آذار (مارس) و١٣ نيسان (ابريل) ترمي بالحرم علانية ليس الدستور المدني للاكليروس والكهنة الذين ادوا يمين الولاء له فحسب بل ايضاً الثورة الفرنسية نفسها . فهو يتكلم باسم الله الخالق وباسم الناموس الذي لا يُنسخ . وقد تعطلت لغة الكلام بينه وبين المجتمع الجديد .

وقد صمدت الجمعية التأسيسية في وجه الفتنة بعد ان حملتها المدن حملاً على هذا الموقف العسير وشدت من ازرها . ولذا راحت تقطع علاقاتها مع البابا وتضم مدينة افنيون التي صوتت باكثرية ساحقة للانضمام الى فرنسا . امـــا في الجبهة الداخلية فقد حققت نصراً اكيداً . فالاكليروس الدستوري او المدني اصبح كاملاً في اواخر ١٧٩١ . وقد اصبح الاساقفة بنسبة ٧٠٪ من اصل كهنة عملوا من قبل في خدمة الراعويات .

اما البورجوازية فقد بقيت على انقسامها الشديد . فبالرغم من فـــترة انصرمت بين التردد والمساومات والتحسب لردة يقوم بها انصـــار النظام القديم ، فقد نزع وجوه القوم فيها ، شيئاً فشيئاً للتربع في دست معظم السلطات التشريعية والادارية والقضائية والروحية ! فقد تمسكت بمهمة مد البلاد بأُطر وطنية وقضاة وطنيين ، وكهنة وطنيين ومربين وطنيين . فالتربية العامة يجب ان تحرر من سيطرة رجال الدين واحتكارهم لها وان تلقى بين ايدي الامة . فهي من هـــذه المهمات الرئيسية التي يترتب على النظام الجديد الاضطلاع بها ، وهي تبعة يؤكد الدستور وجوب تحملها والقيام بها ، عندما يؤكد :

يصار الى انشاء وتنظيم مصلحة عامة للتعليم تعنى بامور تعليم المواطنين يكون من اهدافها الاساسية نشر المعاهد التربوية تدريجياً وفقاً لنظام مدروس يتناول جميع نواحي الدول .

ولعل ما هو افضل من ذلك هو أنه نشأ في جميـــع انحاء فرنسا بصورة عفوية تلقائية شعور عميق بايقاظ الروح المدنية بين المواطنين . وراح الدستور نفسه يعمل على بعث هذه الروح ، اذ جاء فيه بالنص الواحد :

تنشأ في البلاد اعياد وطنية ترمي لتخليد مآتي الثورة الفرنسية وانجازاتها والى شد اواصر الاخوة بين المواطنين وازديادهم تعلقاً أكثر فأكثر بدستور البلاد والوطن والتعلق بالقوانين المعمول بها .

وبدا للنظام الجديد أن يجتـــذب اليه النفوس ويستميل القلوب ليس عن طريق التحكم بالافكار ، بعد أن اصبح الرأي العام من الامور التي تهتم لها الحكومة وتحسب لها الف حساب .

ثانياً ـــ النظم الاقتصادية

حرية العمل وحرية التنقل

قلبت الثورة التشريعية نظام البلاد رأساً على عقب بايجادها نظاماً ضرائبياً قوامه النخبة بين الطبقة البورجوازية العليا والوسطى.

وقد قلبت كذلك النظم الاقتصادية دون أن تُدخل على المؤسسات والمنظمات القائمة تغييرات جذرية وتعديلات اساسية . وتمكنت البورجوازية من أن تسيطر تماماً على هـــذا القطاع وتتحكم به . فسياسة تدخل الملك في الامور الاقتصادية التي انحسر تيارها وسارت القهقرى منذ منتصف القرن ، تركت ما يلزم من حرية التصرف للمناهج والخُطط التقدمية المتحررة ولا سيما في قطاع الاسعار والارباح وهي التي تعد بحق من أهم مقومـــات النظام المالي

والتي عانت كثيراً من نظام الحكر والاعفاءات ، هذا النظام الذي اقام الصعوبات في وجه المنافسة التجارية والصناعية : وهو احتكار جماعي من قبل رؤساء النقابات استأثرت به بعض الاستثمارات الكبيرة والمصانع وبعض الشركات التجارية . وقد حدت التعريفات الجمركية لحماية التجارة من حركة انتقال المحاصيل ، سواء في الداخل وفي الخارج ، كما وقفت حاجزاً في وجه هذه التجارة الضرائب ورسوم الباج والدخولية . وكذلك جمدت الاوقاف الكنسية جانباً كبيراً من رأس المال مثلا في الثروة العقارية . اضف الى هذا كله حقوق ارتفاق سيادية او طائفية كانت ترتهن الى حد بعيد ، جانباً من الملكية الزراعية .

وقد حرصت الجمعية التأسيسية على ازالة هذه المعيقات التي حدت كثيراً من حرية العمل وحرية المرور . وحررت من كل ضغط النشاطات المبذولة لتحقيق الارباح المشروعة ، ففتحت بذلك الباب على مصراعيه امام اقلية رأسمالية عرفها القرن التاسع عشر . الا انها لم تنظر الى ابعد من النظام الاقتصادي الفردي او الجزء الذي سيطر على العصر ، كما انها لم تفكر قط ان بامكان الحرية ان تفضي الى شيء آخر ، الى ديموقراطية متنافسة قوامها المزارعون وارباب الصناعات والتجار ورؤساء المصانع ، والتي رأت في معامل النسيج ومغازلها المائة خير ما يمثل هذه الصناعة الضخمة . وكثيراً ما يحملها الضغط او الحتمية الثورية على التصلب في موقفها . والسياسة الاقتصادية تقيم وزناً كبيراً وتحسب حساب الرغائب والحاجات التي تجيش في نفوس وصدور عدد كبير من زبائن البورجوازية حتى رغائب الجماهير الشعبية ، عندما يتبينون انها لا تتعارض قط مع مصالحها الاساسية .

وقد ادت حرية العمل في الصناعة والتجارة بصورة عملية ، ولو موقتاً ، الى إلغاء نظام كثيراً ما جمع الى الحكر وما يمثله من امتيازات شرعية ، القوة التي يمثلها الرأس المال . اما التسهيلات الجديدة التي تتيحها حرية التنقل او المرور ، فتتمثل على احسن وجه بالقضاء على الضرائب غير المباشرة ، والتعهدات المالية ، ورسوم الدخولية وضريبة الملح ، وهذه الرسوم الموضوعة على المواد الاستهلاكية . ان تصفية الاوقاف الكنسية يعود بالخير المشترك ، انما مع تفاوت ، على البورجوازيين والفلاحين . وكذلك قل عن تحرير الاراضي « من القيود الاقطاعية» التي تكبلها . وبعد ان اعادت الجمعية التأسيسية الى محله الطبيعي ، المذهب الفردي ، اي هذه النظرية التقدمية التي تجعل من الفرد العامل الوحيد الحر ، والعنصر الوحيد الحر الذي باستطاعته ان يخلق الثروة ويعمل على تسهيل انتقالها ، وتجعل منه السيد الوحيد الحر لارضه ، تبدو لنا ، في الوقت ذاته في ما لها من معان مختلفة وما لها من متناقضات ، الوسيلة الوحيدة للانتاجية ولتأمين المساواة في التنافس ، كما تبدو ، الى حد كبير ، ولوقت قصير جداً ، محور سياسة ترمي لتأمين الرفاهية الاجتماعية بين الناس .

١ – حرية التصرف والغاء الاحتكار

الامتيازات المهنية وليل ٤ آب

يبدو الاحتكار هـذا الشكل الرئيسي الذي يتلبسه الامتياز الاقتصادي ، امراً يتعارض تماماً مع مجتمع لا اثر للطبقات فيه . وباعتبار النقابات المهنية شكلا من اشكال الاحتكار ، فقد كُتبَ عليها ان تزول من الوجود . فالثورة لم تبت في القضية دفعة واحدة ، هذه القضية التي حرص الدستور الموضوع عام ١٧٩١ ، التشديد عليها بصورة بارزة .

فقد انقسمت الطبقة الثالثة رأياً بشأنها ، بعد ان برز هذا النظام ، نظـام النقابات بصور مختلفة ، وأتت بنتائج متعارضة وتلبست اشكالاً واوضاعاً متباينة . صحيح ان هذه المنظمات النقابية تألفت من رؤساء حرف واصحاب مهن ، يهيمن عليهـا كلياً القيمون على هذه الحرف ، الا انها كانت تنزع بالفعل الى اقامة احتكارات والى الحد من النشاط الاقتصادي والتحكم به . ومعظم اعضاء هذه النقابات انفسهم شعروا بشيء من الحرج لهذه الاجراءات والقيود الاستبدادية التي أدخلت على تنظيمها والتي فرضوها على الناس كما تضايقوا من هذه الرسوم المالية ، التي كانت تفرض بالمقابل والتي كونت بالفعل ضرائب مهنية او حرفية ، وهي رسـوم وضرائب يتبدل مدلولها ويتغير بين حرفة واخرى وطبقة واخرى ، وبين منطقة واخرى ، ومدينة واختهـا . فالريف كان ضدها بالطبع . ولذا لم تقم هذه النقابات الحرفية الا في المدن . فالمزارع لم يكن ليفيد منها كمنتج ، وكثيراً ما تضرس بغرمها باعتباره مستهلكاً ، كما انها كثيراً ما وقفت حائلاً دون سكناه المدينة او دون ممارسته مهنة صغيرة . والنظام النقابي او المؤسسة النقابية بالاحرى ، لم يكن معمولاً بها في كل مكان . هنالك مناطق كثيرة لم تتعرف على هذا النظـام . والمدينة المرتبطة بقَسَم الولاء والتضامن المهني ، لم تكن ، بمـا لها من اوضاع مكرسة متّبعة ، تفكر كالمدينة الحرة التي لم تتقيد بمثل هذا التعهد أو القَسَم الولائي . وقد تباين مفهوم هـذه المؤسسة واختلف مدلولها اختلافاً كبيراً بنسبة ما ضمت في صفوفها من اصحاب المخـازن ورؤساء الورش المستقلين ، يبيعون زبائنهم بحرية تامة . ومثل هذا الوضع شاع وعم انتشاره ، وكان أرباب الصناع يعوّلون في تصريف انتاجهم على شيخ تجار أو بندر تجار يتولى تصريف انتاجهم . وفي مثل هذا الوضع كانت الرابطة تبدو بمظهر اتحاد نقابي يضم عدة نقابات ، كثيراً مـا انتصب في وجهها ، تحت أشكال وألوان مختلفة ، الاتحاد التجاري الكبير .

وهذا الوضع يفسر لنا تماماً التردد الذي استحوذ على الجمعية التشريعية عند معالجتها هـذه القضية ومحاولتها إيجاد حل لها ، اذ أن كل حـل تقترحه كان من شأنه أن ينعكس على اوضاع الفئات الاجتماعية العديدة التي تتألف منها هذه النقابات الحرفية ، وهذا ما سبب بالفعل انقسام الطبقة الثالثة رأياً ، ولا سيما البورجوازية منها ، بعضها على بعض .

وقد حمل ليل ٤ آب القدر المحتوم للامتيازات النقابية اذ صدر قرار الحل في ٥ آب ونص على أن « كل الامتيازات الخاصة بالمقاطعات والامارات والمدن والهيئات والنقابات... تلغى نهائياً ، وتبقى خاضعة للقانون العام الذي يخضع له جميع الفرنسيين ». وللحال راح كميل ديمولان وقد هزه الشعور ، يعلن فرحته الكبرى ، قائلاً : « هذه هي الليلة الكبرى » .

هذه هي الليلة التي ألغت الاعفاءات والامتيازات التي تجاوزت كل حد.. فيفتح دكاناً له من توفرت لديه الوسائل المسعفة . فمعلم الخياطين ، ورئيس الاسكافيين ، ورئيس باعة الشعور المستعارة سيبكون وينوحون . امـا الخدم فيبتهجون جذلين وسيبصبص النور من خصاص الباب ونوافذ العليات .

وقد يكون هذا هو الشيء الذي لم ترم اليه الجمعية التشريعية بالذات. فالفرحة التي ابداها كميل بتسرع كلي كانت سابقة لاوانها . فمن يستطيع أو يجسر أن يستغني بمثل هذا اليسر ، عن جانب من تجارة وصناعة الباريسيين في اليـوم التالي لـ ١٤ تموز ، وفي هذا الوقت بالذات من ركود الاحوال والاعمال التجارية ؟ فبعد أن نص القرار الصادر في ٥ على إلغاء هذه الامتيازات اذ بالمرسوم الختامي الذي صدر في ١١ آب لا يأتي بشيء على ذكر « النقـابات والهيئات الحرفية » بل يذكر بتخصيص المقاطعـات والامارات ... والمدن والجمعيات الاهلية . فالاغفال والاسقاط التفسيري الذي صدر في ١١ جعل الالغاء الذي صدر في الخـامس ، لا أثر له ولا مفعول .

فالقضية لن تلقى حلها النهائي إلا بعد سنة ونصف السنة ، بعد أن تبدلت الظروف وتغيرت الاوضاع كليـاً وبعد أن اصبح موقف الجمعية التأسيسية من العهد القديم ، أقوى بكثير ، كما اصبحت غالبية سكان البلاد لا تبالي كثيراً بهذه الهيئات ، كما أن تكون حركة الاعمال والاشغال تحسنت بعض الشيء اينما كان .

الغاء تعويضات الحالفين ورؤساء الحرف

دار البحث في الجمعية حول رسم الرخصة اذ لم يكن ليخطر على بال احد ان المستهلك هو الذي يتحمل بالنتيجة هذا الرسم . « لا تتصوروا ان باستطاعتكم حمل التجار على دفع الضريبة » . كما كان يقول فرانكلين بكل مناسبة ، « فهم يقيدون الضريبة والرسوم التي يتكبدونها في فاتورة الحساب » . ولم يكن علماء الاقتصاد في فرنسا ليقولوا بخلاف ذلك . فمقابل رسم الرخصة فرض رسم الاستهلاك . ولذا راحت الجمعية تتساءل ما اذا لم يكن من المناسب إلغاء ضرائب أخرى من هـذا النوع ، او مؤسسات أخرى شبيهة ، كالنقابة الحرفية التي كانت تعتبر عنصراً هاماً في تسبب الغـلاء في البلاد . وراح السيد دالارد المقرر العام للجنة الضرائب يربط كل هذه القضايا معاً . فلا بأس من الغاء رسم الرخصة ، ولكن بعد الغاء ما يوازيه من تعويض . كذلك يجب إلغاء الرسوم والضرائب كما يجب الغـاء النقابات التي يساعد وجودها على ارتفاع الاسعار وزيادة تكاليف العيش ، وذلك عن طريق اضافـة الرسم الحرفي الى ثمن الحاجيات الانتاجية او عن طريق الاحتكار .

وسيقضي منطق النظام الجديد بالطبع بالغاء تعويضات المحلفين *Jurandes* ومعلمي الكار « لسبب واحد هو انهـــا إنعامات أسيء استعمالها » بحيث يتناول الالغاء ليس فقط النقابات الحرفية بل ايضاً مؤسسات الصناعة الرأسمالية ذات الاحتكار.كم بينها من ينعم،بشكل او آخر، بامتيازات مادية او ادبية وباحتكارات مختلفة الاشكال ؟

هذه الاعفاءات يجب أن تزول من الوجود باعتبارها مسيئة ليس للمستهلك فحسب بل ايضاً للجميع ولا سيما لرؤساء الكارات في مجموعهم وتحمل الكثير من العسف للعمال. فليمارس كل منهم مهنته بحرية تامة بمنأى عن كل ضغط او تعسّف .

وهكذا فقد ازيح بصورة قاطعة كل خطر ناتج عن اغراق الاسواق بالانتاج .

هل يخشون من وفرة العمال (اي من ارباب الحرف وشغيلتهم الذين يعملون لحسابهم ؟) فعددهم سيكون ابــداً بنسبة عدد السكان في البلاد ، وبعبارة اخرى بنسبة حاجة الاستهلاك .

صدر قرار الالغاء في ٢ آذار ١٧٩١ . فالنقابات والمنظمات الحرفية ومشاريع الاستثمارات ذات الامتياز لم يعد لها وجود شرعي ابتداء من اول نيسان .. وهذا القرار الهـــام الذي سيحرر – في القرن الطالع – قوى الرأسمالية الانتاجية ، كان في نظر اصحابه اجراء لابـــد منه لتخفيض غلاء المعيشة ولبعث روح نقابية عامة . وقد رمى فعــلاً في مدلوله العام لتحقيق هذه الاغراض بالذات .

سيجري فيما بعد اجراءات تكميلية اخرى . فالقرار الذي صدر في ٢ آذار لم يحرر الانتاج تماماً من عراقيل العهد القديم . فقد استبقى ، شرعاً ، التدبير التقليدي المعمول به وهو إلصاق تمغة او علامة مميزة توضع على المواد المنتجة، شهادة من النقابة على جودة الصنف المباع واستجماعه المواصفات القانونية . وقد ألغى القانون ايضاً ، الى جانب النقابة الحرفية ، التنظيمات الـتي كانت تخضع لها . كما ألغى القرار استعمال التمغة . ان الغاء النقابات والجمعيات والرابطات وعادة تعيين بوليس مراقبة للمحافظة على اسرار المهنة كان يعني ، من الوجهة العملية ، في اكثر الحالات والاوضاع ، منعها من العمل . كيف يمكن ضبط الرسوم المهنية بدون الاستعانة بمراقبة المحلفين ؟ بقي قائماً ، مع ذلك ، امر تفتيش الانشاءات الصناعية الكبرى . كما بقيت قائمة مكاتب الزيارة ومكاتب التمغة ، انما لبضعة اشهر لا غير . وقد ألغيت بالفعل كما ألغيت بالاسم. فلم تختلف نظرة الثورة الى دائرتي التفتيش والتمغة عن نظرة رجال الادارة اليها في العهد البائد ، اي انها كانت تحد من قدرة المواطنين وقوتهم على الخلق والابداع . واتخذت الجمعية التأسيسية قراراً بالغائهـــا في ايلول . وها هم المفتشون يصبحون بلا عمل كما ان المرتبات لم تعد تدفع لهم حتى غرة كانون الثاني (يناير) ١٧٩٢ .

والغيت في الوقت ذاته الغرف التجارية ، قوام الحركة التجارية الكبرى ، اذ ان وجود هذه الغرف « كان يتعارض والمبادىء التي استندت اليهـــا الجمعية التأسيسية عندما ألغت النقابات الحرفية » . ويكفي التجـــار الآن كمايكفي جميع المواطنين ما اخذوا يتمتعون به من حق

الاجتماع بحرية وحرية الالتماس ليعربوا بانفسهم عن تمنياتهم وعن حاجاتهم العارضة .

وهكذا حُلّت كل المنظمات والمؤسسات النقابية ، الامر الذي جعل المنظمات العمالية تستهدف ضمناً هي الاخرى ، لهذا المصير بالرغم من القرار الصادر في ٢١ آب ١٧٩٠ المتعلق بحق الاجتماع ، وحق تأليف الجمعيات . فالطبقة البورجوازية لم تحظر على ارباب العمل تأليف الاتحادات الحرفية في اسواق الانتاج حتى ترضى بوجود اتحادات العمال في مجال العمل .

قانون لاشابلييه

وعلى هذا الشكل مرّ قانون لاشابلييه في المجلس دون اية مناقشة ، في ١٤ حزيران ، ولم يُثر حوله اية ضجة في خارج المجلس ايضاً كما في داخله . وقد حظر على « المواطنين الذين يمارسون الحرفة او المهنة الواحدة عمالاً كانوا ام ارباب عمل ، ان يختاروا لهم رؤساء اتحادات وأمناء سر أو أن يتخذوا لهم قرارات أو أن يقوموا بمداولات » . وها هي النقابة الحرفية تُمنع وتلغى مرة ثانية ، كما ان الجميع رأى في « إلغائها ومنعها احد الانجازات الجذرية التي حققها الدستور الفرنسي ». وها هو يلغي ايضاً وهنا كل اهمية النص — كل شكل من اشكال الجمعيات المهنية . واتخذ المجلس في العشرين من تموز التدابير اللازمة لمواجهة الاوضاع في الريف ، فحظر من جهة ، على اصحاب الاملاك والمتعهدين الزراعيين وعلى عمال الحصاد ، والخدمة والأجراء من جهة ثانية ، كل تحزب نقابي أو كل تكتل يُقصد منه التأثير على الاجور .

من المعقول جداً ان يمر هذا الاقتراح في اليوم التالي لحوادث اطلاق النار في ميدان شان دي مارس ،دون أن يبالي به احد. ولكن هل من المعقول ذلك بشأن قانون لاشابلييه ،في حزيران؟ فاليسار المتطرف يبقى صامتاً مع ذلك دون أن يبدي حراكاً . أتقف منه الطبقة البورجوازية هذا الموقف محافظة منها على مصالحها ؟ ليس شيء من هذا لدى روبسبيير او لدى مارات ، روبسبيير هذا الذي حرص على ان يفضح في نيسان ، بمناسبة المناقشة التي دارت حول تشكيل الحرس الوطني ، الروح الحزبية عند هؤلاء الذين رغبوا ألا يسلحوا غير المواطنين العاملين .

من قام بثورتنا المجيدة هذه ؟ هل هم الاغنياء في هذه الامة ؟ هل هم الاقوياء في هذا العصر ؟ الشعب وحده تمناها وتاق اليها وقام بها . وللسبب نفسه ، بامكان هذا الشعب السير بركابها والعمل على مؤازرتها .

الا ان روبسبيير يلازم الصمت التام امام نص القرار الذي صدر في ١٤ حزيران ، هذا القرار الذي لم يتبين مدلوله التاريخي . ولم يكن موقف مارات بخير منه ولا نظره بابعد ، مع انه فتح صفحات جريدته لعمال البناء في كفاحهم ضد رؤساء الورش . فما احسنها فرصة ، في نظره ، لمهاجمة قانون ١٤ حزيران ! فقد راح ينتقده بالفعل بشدة . فما الذي عزاه اليه أو رماه به ؟ فلم يتملل بأنه قانون وضعته « الرجعية الاجتماعية » كما نقول اليوم ، بل قانون الرجعية السياسية اذ انه حدّ من حرية الاجتماع وحرية الالتماسات .

ولكي يحولوا دون تجمعات الشعب المتعددة التي يخشونها ويتهيبونها كثيراً ، فقد حرموا فئة العمال وفئة مساعدي البنائين الضخمة ، من حق الاجتماع للتداول وابداء الرأي في امور مصالحهم .. لم يكن لهــم من هدف سوى عزل المواطنين والحؤول بينهم وبين اهتمامهم بالمصلحة العامة .

ويبدو ، كما يلاحظ البير ماتيوز بحق أن مارات يلوم الجمعية التأسيسية لاقفالهـــا النوادي أكثر مما يلومها لحظرها الاتحـــادات النقابية . فالحظر الذي قرره الدستور الجديد ليس سوى تكرار لهذا الحظر الذي اصدره التشريع الملكي من قبل ، اذ منّع ، منذ اجيال النقابات العمالية والاضطرابات. فالمنظمة المهنية التي كانت بمثابة قوة بوليسية لتأمين النظام ضمن المنظمة المذكورة، والتي كانت ترمي لتقييد الجماهير المشاغبة في الارياف ، كانت تتمتع ، في العهد القديم ، بامتياز من جانب واحد : أي منع قيام جمعيات أو مؤسسات عـــالية . فالروح الفردية الحرة التي نادت بها الثورة ، استبدلت الحظر غير القـــانوني « للمنظمات الوسيطة » بنظام يقوم على المساواة . فمهما ضؤلت هنـــا المساواة في الحقوق ودقّت ، فقد حلّت ، ولو اسمياً على الأقل ، محـــل عدم المساواة .

فقبل أن يتعرض اعضاء الجمعية التأسيسية لامتيازات النقابات العمالية أي لهـــذه المنظمات المهنية الصغرى والمتوسطة، فقد ألغوا أو حدّوا كثيراً ، تحت ستار حرية الاقتصاد ، المؤسّسات التجارية الاستعمارية الكبرى وحدوا من امتياز احتكاراتها كشركة الهند مثلاً التي اقامت ضدها ارباب التجارة الحرة ، وشركات التعدين المشهورة التي تفانى في محاربتها ومناصبتها العداء، هذا الفريق من الفلاحين المستثمرين .

إلغاء امتيازات المؤسسات التجارية

كانت الجمعية التأسيسية ، تبحث منذ ربيع عـــام ١٧٩٠ ، قضية الشركة التجارية الكبرى التي تجاوز رأسمالهـــا ٤٠ مليون ليرة ، وهو مبلغ كان له من القدرة الشرائية اذ ذاك ما يوازي عشرات المليارات في يومنا هذا . فبعد ان أعيد تنظيم هذه الشركة ، عام ١٧٨٥ ، وأقر لها المراقب المـــالي العام كالون بامتيازات استثنائية أخذت تحتكر بين يديها الاتجار مع كل البلدان الواقعة ما وراء رأس الرجاء الصالح : مدغشقر ، وبـــلدان ساحل افريقيا الشرقي والهند والكوشنصين وكل بلدان الشرق الاقصى . فقد كانت ربيبة كبار رجال المال والنواخذ من مجهزي السفن التجارية وكبـــار رجال الاعمال ، وعلى اتصال وثيق بالاوساط السياسية العليا ، وألفت بذلك اكبر اتحـــاد رأسمالي في ذلك العصر . فمستودعاتها الضخمة ، وهذا العدد العديدمن الوكلاء والممثلين التجاريين والاسطول التجاري الضخم الذي كان تحت تصرفها ، كل ذلك جعل منها بحق اكبر مشروع تجاري عرفه ذلك العصر . فالاحتكار الذي نالته والامتيازات التي تمتعت بها الحق الضرر مباشرة ، ان لم يكن بمصالح الكثيرين ، فأقله بمصالح كبيرة للغاية ، بحيث ان المناقشة التي دارت بشأنها امـــام الجمعية التشريعية برزت وكأنها صراع بين جبابرة المال والاعمال . فالاحتكار الذي نعمت به اقام الصعوبات والعراقيل امام الحركة التجارية في البلاد والاستثمارات الصناعية معاً . وارتدت

القضية من جهة ثانية طابعاً رمزياً : الوقوف مع مبدأ الامتياز أو ضده، مع الاستبداد الوزاري أو ضده . والموقف تحدد تماماً اثناء طرح القضية للمناقشة . فاليمين في الجمعية وقف الى جانب الشركة ؛ وأخذ فريق ضئيل من الوسط واليمين يساوم بشأنها ، كما راح اليسار يطالب بالغائها وحلها .

فانتصب لاشابلييه بقامته الفارعة وهو يقول : ليُدلِ المدافعون عن حق الامتياز بحججهم وأدلتهم . وللحال قبل زعماء اليمين التحدي بينهم كازاليس وابرمسنيل وموري ، وكليرمون تونير نفسه ، فراحوا يطالبون للشركة بحق الاستثمار الذي تتمتع به والاستمرار بالتالي بنشاطها التجاري . وأخذ موري يدافع عن الامتيازات الضرورية التي لا بد منها للشركة . وراح أبرمسنيل من جهته يهاجم بعنف كلي خرق الدولة للتعهدات التي قطعتها تجاه الشركة ويندد على الاخص « بهذا المبدأ المخيف الذي يجعل قانوناً يولي الحرية قانوناً ذا مفعول رجعي ضد حق التملك » . وأخذ مالويه ، من جهته يحاول عبثاً حلا وسطاً يخفف بعض الشيء من حدة الامتيازات ويلطفها نوعاً ما . وصمد ممثلو اليسار للهجوم دون أن يقوم البارزون في صفوفهم بما قام به وجوه اليمين . وراح بعض النواب في صفوفهم امثال : رودرير ولاشابلييه ونواي ودستوت دي تراسي يتدخلون في المناقشة كلما دعت الحاجة ، اما الهجوم العنيف المركز فقد قام به النواب الاعضاء الذين يمثلون الحركة التجارية والموانىء البحرية ومؤسسات التصدير وراحوا يشيدون عالياً بسمو الحرية التجارية من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية والادبية . وأخذ الحذر يرسم على الوجوه بوضوح من الشركات والجمعيات القائمة على الاسهم والتي تعود على القائمين بادارتها بالغنى والثراء على حساب « المساهمين » الذين لا يفقهون شيئاً من اسرار عملية الاستثمار كلها . فالتعويض على الشركة ليس موضوع بحث ، اذ لم يُسمع قط انهم عوضوا عن ملكية قامت خلافاً للحق الطبيعي وضده .

وفي جو من الحماس الذي ألهب المجلس والتأثير البالغ الذي استحوذ على الاعضاء وبين دوي تصفيق اليسار والنظارة قررت الجمعية الغاء هذا الاحتكار المخالف لحقوق الانسان الطبيعية والمضاد في الصميم للاقتصاد الحر . « حرية التجارة مع البلدان الواقعة ما وراء رأس الرجاء الصالح معترف بها لجميع الفرنسيين » . وبعد قليل سيأتي دور الشركات التجارية الأخرى . وستعلن « حرية » التجارة مع السنغال ، لجميع الفرنسيين » في يناير ١٧٩١ .

الغاء احتكار شركات التعدين

كان من شأن قضية المعادن واستثمارها أن أضفت على حرية الاقتصاد التي جاش بها اعضاء الجمعية التأسيسية مدلولاً اجتماعياً اكثر مما اضفته قضية النقابات المهنية ومؤسسات الاستثمار والشركات التجارية الكبرى التي قامت على الاحتكار والامتيازات التي تؤمنها لاصحابها . فنحن هنا امام نظريتين متناقضتين : الاولى تقول بان المنجم ملك للدولة ، وهي نظرية تبناها وناضل حيالها رجال الاختصاص والتقنية وأقلية ضئيلة من الشركات صاحبة الامتيازات . اما الثانية فهي النظرية التي تقول بان المنجم

هو ملك خاص لصاحب الارض ، وهو نظر أخذ به فريق كبير من الفلاحين المستثمرين .

نظريتان قديمتان جـداً من حيث المبدأ ، اختار النظام الملكي احداهمـا كما يستدل من منطوق القرار الوزاري الصادر عـام ١٧٤٤ . فقد رجحت عنـده كفة الشركات الاستثمارية الكبرى . « فالمنجم » الشعبي تعمـل فيه معاول الفحامين ولا يسهل استثماره لمـا هو عليه من عطفات وتثن وتعاريج، لا يمكن الأخذ به والدفاع عنه . وخضع استثمار المناجم لموافقة المراقب المالي العام ، وهو استثمار تقوم به الشركات الكبرى وحدها . ولذا طُرد الفـلاح من منجمه المتشتت كما طُرد من الحقل الذي يملكه . وهذا الحل تتخذه الحكومة في العهد البـائد ، ترك مثاراً للبحث والجدَل ، مشكلة اجتماعية حادة ، برزت على أشدّهـا ان لم يكن في الشـمال من البلاد، فاقله في الجنوب، في مقاطعة موريز واللانغدوق أي في أغنى منطقتين للفحم اذ ذاك.

وجاءت الانتفاضة الثورية تطرح على بساط البحث من جديد الوضع القائم منذ عـام ١٧٤٤ . فالتقسيمات الادارية الجديدة والدوائر البلدية التي تكاثر فيهـا مناجم الفحم الحجري ومراكز المحافظات نفسها اخذت تُعرب عن مطالبها الشعبية في هذا المجال. فهذه الشركات ذات الامتيازات التي تعيش وتثري على حساب احتكار تتمتع بمنافعه الجزيلة ، أليست في وضع مغاير لاحكام الدستور ؟ ألا يكوّن وجودها والعمل بها نقضاً صارخاً لحق التملك ؟ فالدولة لا حقّ لها قط على ما يقع تحت سطح الارض . وتصرفها به لا ينهض به أي حـق. فالفحم المخبوء في بطن الارض يخص مالك سطح الارض . فالطبقات التحتانية تعود كلهـا للمالك كما يعود له السطح ، مثلاً بمثل . فالتفريق بين الاثنين طمنة في قلب وثيقة اعلان حقوق الانسان، كما يطعن في الصميم هذا القانون الطبيعي الذي « اكثر حكمة واكثر طبقية من القوانين التي تنص عليهـا الالواح الاثني عشر » .

فالشركات الاستثمارية واصحاب الاملاك من الفلاحين ، وقفوا وجهاً لوجه امـام الجمعية التشريعية ، في النصف الثاني من شهر اذار ١٧٩١ .اما موقف المقرر فقد كان الى جانب النظرية التي تقول بان المنجم هو ملك عام ويخضع بالتالي للاستثمار أي ان موقفه كان تماماً الوضع الذي كان مثار النقاش امام الجمعية . وقد القى ميرابو خطابه الأخير محاولاً التوفيق بين النظريتين ، مع ميل ظاهر لتأييد موقف كبار مستثمري المناجم في الشمال . ثم راح يدافـع عن قضية «أنزين» وسياسة النظام الملكي القائل: الاقتصاد اولاً والتقنية اولاً، هذه السياسة التي وجدت بين اعضاء الجمعية من يتبناها وينهض بها عالياً .

فالتسليم باستثمار المناجم المتوزعة ، قول يمجه العقل من عـدة وجوه انما يطمئن له الضمير ويرتاح اليه . ها هم المدافعون عن حقوق صغار الملاكين ضد الاحتكار والامتياز وما يمثله من قوة الاغراء . « فالموالون لاصحاب الامتيازات » و « لاصحاب الاستثمارات التعسفية » يحاولون « ان يجردوا من املاكهم اصحابها الآمنين الذين ليس من يدافع عن قضيتهم الحق غيرنا ». فبأيّ حق تجعل المنجم مشاعاً عاماً، يتساءل دستوت دي تراسي.قد يخفي حقلي بين طبقاته كنزاً مثلاً

ام درة أو ماسة ، ومع ذلك تريدون ان تضع الدولة يدهـا عليه . ان ادعاءات الشركات الاستثمارية صاحبة الامتيازات العريضة تكوّن اهانـة للجمعية التأسيسية وانكاراً لحق الانسان الطبيعي . فمالك الطبقة الارضية لا يمكن ان يكون غير صاحب سطح الارض . والى اي عمق تبلغ يا ترى الطبقة الارضية ؟ فعلم الاقتصاد بالذات والاقتصاد الحر والمذهب الفردي نفسه ، كلها تتساءل مع دوبون: «كيف يمكن بمناسبة البحث في قضية المناجم ، تغيير المبادىء الاساسية التي يقوم عليها المجتمع » ؟ وتدخّل احدهم في النقاش وراح يقدم ، للملكية الفردية ، باسم جيش جرار من صغار المستثمرين ، في جدلهم ضد اصحاب الشركات الاستثمارية ذات الامتياز ، تحديداً أو تعريفاً هو أحوى وأشمل ما جاء من أمثاله .

يجب ان يكون اصغر ملاك فرنسي ، بعد ان كسرت عنه قيود الاقطاعية التي كبلته ، حراً طليقاً في هذا المدى الذي يمتد من الجو الذي يعلو ارضه من اعلى طبقات الجو حتى اعمق الارض .

وأخذت الجمعية تراعي وتسالم . فقـد أعلنت القوانين التي صدرت في شهري آذار وتموز ١٧٩١ المناجم « تحت تصرف الأمة » ، الا انه يجب الاحتراز من الاستثمارات الضخمة بحيث لا تتجاوز المساحة الكبرى منها ستة فراسخ مربعة في حال الاستثمار يعطى الافضلية لمالك سطح الارض ، هـذا اذا ما اراد هو نفسه أن يستثمر المنجم الموجود في أرضه ، بذات الشروط والظروف التي تقدمها شركات الاستثمار نفسها اذا مـا كانت أرضه وأراضي شركائه تصلح لتأليف مشروع استثماري . فالمناجم التي تستثمر بخندق مفتوح أو « بدهليز مضاء » عمقه مائة قدم تبقى من حق مالك سطح الارض . هـذا فيما يتعلق بالمستقبل . ولكن ماذا من الحاضر ؟ كيف الوصول الى حل هـذه المشكلة الاجتماعية الهامة التي اقامت شركات الاستثمار والفلاحين بعضاً على بعض ؟ ولكن وجهـة نظر الشعب لم يجر الدفاع عنها باطلا . فالاستثمارات التي قامت على مناجم معروفة من قبل ، بعد ان انتزع الاستثمار من يد صاحبها ، تفسخ وتصبح لغياً ملغياً .

واستناداً للقانون ثار الملاكون من أصحاب المناجم وراحوا يتسلحون . وفي مقاطعة فوريز ، لم ينتظر البعض منهم هـذه الفرصة . واستقبل الملاكون بحفاوة بالغة في مقاطعة فوريز ممثلهم الذي حضر جلسات الجمعية ومتابعة اعمالها ، وذلك لدى رجوعه الى مدينة سانت أتيان ، بينما كان المجلس البلدي على استعداد ليرسل الى الجمعية قطعة من الفحم الحجري نقشت عليها عبارة تنم عن شكر الشعب وامتنانه .

زراعة حرة وسياج حر

وعندما اعترف اعضاء الجمعية التأسيسية بحرية التصرف في القطـاع الاقتصادي وفي المجال التجاري والصناعي ، هدفوا من ذلك بالاحرى الى تأمين المساواة في القريب العاجل اكثر منه الى تسميم العلاقات بين الجانبين المتخاصمين وقـد كان يخشى ، اذا ما أريد تطبيق هـذا الحق على الاقتصاد الريفي ، من ان يؤدي الى نتائج

عكسية ، اذ أن النظام القديم المعمول بــه في هذا القطاع ، كان الى جانب مصالح الفلاحين ، كما كان من جهة ثانية ، متصلاً الى درجــة كبيرة بحياة الريف بحيث لم يدخل في الحسبان قط توقع حدوث تغييرات مفاجئة في هـــذا المجال . وتعبيراً عما تجيش به هذه الجمعية من روح تحررية أصيلة اخذت تحاول التوفيق مع الاعراف الشعبية المعمول بها في البلاد.

ولم يتم الامر باليسر المرغوب بعــد ان استحوذ التردد على الجمعية التأسيسية ، فقد راحت اللجان المختلفة مع مقررها هيرتو دي لامرفيل تقدم اقتراحات أقل تهدئة للخواطر من هذه النصوص التي توصلوا الى اقرارها من قبـــل . ففي نظر هيرتو ان تحرير الملكية هي قضية دستورية في الصميم .

ربطت الجمعية الوطنية مصائر المواطنين بالحرية الفردية القائمة على العدالة التي لا يمكن مسها . وها هي اللجنـة تتقدم ... منكم بطلب ادراج هذه الكلمات الاخيرة : « حرية الارياف » في صلب نص الدستور الذي كرس عالياً حرية المواطن وحرية الفكر .

وهذه الحرية تقتضي بالطبع : حرية الزراعة وحرية الاسعار وكذلك حرية التسوير أو اقامة السياج كحدود فاصلة بين قطعة ارض وأخرى، هذه الحرية التي يجب ان تقوم على سياسة حكيمة رشيدة تيسر المبادلات التجارية وتحــدد شروط الدفع . وراحت الجمعية تعطي الدليل القاطع على موافقتها : فالملاك سيصبح حراً في ارضه الموروثة حيث يستطيع ان يطبّق نظام استصلاح الاراضي على هواه. وهكذا انقلب الوضع رأساً على عقب وبطناً لظهر في اعراف وتقاليد الحياة الريفية القديمة .

وهذا الاتفاق الاجماعي زال عنــد مناقشة الحقوق الجماعية ولا سيما حقوق رعي الماشية في المراعي الطبيعية . فاقترح هيرتو إلغــاء هــذا الحق أو ما يقرب من ذلك . ان حقاً من هذا الشكل ، « يطعن » في الصميم ، دونمــا مبرر ، ويحرم من التعويض ، حــق التملك الطبيعي والدستوري معاً ٢٢٠٠٠ . فان احتفظ به فكقانون خيري لا غير ، ولمصلحة المعوزين فقط . واذ ذاك راحت الجمعية تعرب عن مقاومتها وترفض باصرار الأخذ بنص اكثر اعتدالاً تقدمت به اللجان. واذ ذاك اخذ كل من مرلن دي دواي وترونشيه وبريور دي لامارن وغيرهم عديدون من مقاعد الطبقة الثالثة يدافعون بكل مالديهم من حجج عن اعراف الحق القديم .

ضعوا قانوناً تستحقون معه ادعية سكان الارياف وبركاتهم . فالنص المقترح امامكم يستنزل عليكم السخط واللعنات .

فحق رعي الماشية في المراعي الطبيعية غير المسوّرة بقي معمولاً به للجميع، باستثناء المراعي الاصطناعية ــ الا اذا كان هــذا الحق قائماً على سند خاص أو منصوصاً عنــه في قانون ما أو جاري المفعول منذ عهــد سحيق . فالوضع بقي عملياً كما هو ، أقلّه من حيث الحق المبدئي . كذلك ابقت الجمعية حق المرور ، اذا قــام على حجة أو عرف وليس عــلى « تصرف غير

منازع ، كما اقترحه المقرر في الاساس .

وكان من نتائج مساعي التوفيق ، التميز بين حق رعي الماشية وبين حق المرور ، في النظام الزراعي ، بعد أن كانا مرتبطين معاً إلى ذلك الحين . فالحقوق تبقى مرعية الجانب في المجال الزراعي الذي تحرر من القيود ومن حظر التسوير . وهذا التوفيق الذي توصلوا اليه يكتنفه التضاد والتناقض في كل مظاهره ، اذ كان يكفي الفلاح الذي يتمتع بحرية الزراعة على هواه ، ان يلغي الارض البور ، ليمنع بالتالي حق رعي الماشية وحق المرور . ويكفي له أن يسوّر أرضه ويقيم حولها سياجاً ليقضي على الاثنين معاً ، دون أن يحسب حساباً للتطور الزراعي البطيء السير . وهذه الحرية المعترف بها لمربي الماشية كانت تقوم على ترخيص أو اذن سابق . والتصرف بهذه الرخصة أو الاذن كان يقتضي له الوقت الطويل والمال الجزيل. وبانتظار هذا كله ، وباستثناء المناطق التي لم يُحظر فيها العهد القديم بعد ، انشاء المراعي الاصطناعية ، فالاقتصاد الجماعي القديم بقي معمولاً به كيفما كان الامر من حيث المبدأ ومن حيث الوضع القائم . فالحرية رجح جانبها الى حد كبير من الوجهة الحقوقية . اما الاعراف الجماعية القديمة ، فقد روعي جانبها واحتفظوا بهـــا بالفعل . وهكذا قامت جنباً الى جنب الاعراف القديمة والحق الجديد .

المشاعات

كذلك بقيت قائمة الاملاك المشاعية . فقد حرصت الجمعية التأسيسية على هدم ما عملته الروح الفردية السيادية . فقد توصل السيد الاقطاعي بصورة قانونية حيناً إلى اقامة الحدود ووضع التخوم حول شطر كبير من الاملاك المشاعية ، شريطة أن يتولى إحياءها وإعمارها ، وبصورة غير قانونية احياناً ، عن طريق الاختلاس أو التزوير أو التواطؤ مع المجالس الاقليمية ، وبعض الأحايين ، منذ عشرين سنة على الأخص ، بالتواطؤ مع الادارة الملكية بواسطة قرارات يتخذها مجلس الوزراء ، تؤلف تشريعاً يعمل به في جميع انحاء البلاد .

بقي امام الجمعية النظر ملياً في قضية كبرى والبت بهـــا : ما العمل بهذه الاملاك المشاعية المتضخمة ؟ راحت اللجان المختصة ترى كما يرى هيرتو . انه لم « يحن الوقت بعـــد لاصدار القوانين الرادعة » اذ انها ستحدث في حال ظهورها ، هزة عنيفة في البلاد . فعملية اقتسام هذه الاملاك المشاعية ، مرتبطة الى حد بعيد ، بمشيئة هذه البلديات نفسها وبرغبتها في ذلك ، معلنة ذلك في بيان صادر عن ادارة المجلس البلدي . فباستطاعتها ايضاً بيع أو تأجير أو الاستمرار في التمتع بها جماعياً . ففي حالة اقتسامها يجري التقسيم وفقاً لطريقة اقترحها المقرر تقوم على التراضي بين الفرقاء المعنيين ، تلائم تماماً المشاعات الواسعة . فيجري اقتسام نصف المشاع بين الأشخاص والقسم الثاني بنسبة الرسوم. والضرائب التي يدفعها المكلفون . ولم يكن لدى الجمعية من الوقت ما يتسع للنظر بحيث تفتي نهائياً في الأمر ، فتركت الامور في وضعها القائم .

٢ – حريـــة المرور
او إلغاء الرسوم المفروضة على المواد الاستهلاكية

حرية الانتقال في الداخل

من شأن حرية التنقل في الداخل ان تساعد ولا شك على تنشيط التبادل التجاري بين المحافظات والاقاليم المختلفة في البـلاد ، كما تتيح بالتالي، تحقيق الارباح المشروعة ، مع العلم ان الابقاء على المعاهدة التجارية المعقودة مع انكلترا ، عـام ١٧٩١ ، كان يهدد باثارة مشكلات حادة بوجه ارباب الصناعة في فرنسا .

ولكن لحرية التنقل اكثر من مدلولها الاقتصادي. فرجال العصر اليوم يرون لها وجهاً اجتماعياً ومالياً . فالرسم المفروض على التنقل ، رسم يصيب ، على الغالب ، المواد الاستهلاكية وهــذا الشكل يؤلف لوناً من الوان الضرائب المفروضة ، كثيراً ما أثار غضب علماء الاقتصاد والفلاسفة والمكلفين . فالاعتراف بحرية المرور للدقيق واللحوم والسمك ، والحطب والخمور والملح معناه إلغاء رسم الدخولية والضرائب غير المباشرة والرسم المفروض على الملح . ومثل هذا التدبير انما يعني رفع القوة الشرائية ، بالفعل او بالقوة ، بين الطبقات البورجوازية وعلى الاخص الشعبية . هنالك شطر كبـــير من الشعب – الفرنسي – لا يمكن ان نتصور اهميته في القرى والارياف الفرنسية ، تعود عليه حرية التنقل بالخير العميم ،كالكرّام مثلاً الذي تُفرض عليه رسوم وضرائب استثنائية باعتباره مستهلكاً ومنتجاً في الوقت ذاته . فحرية التنقل تنقذه الى الابد وتحرره نهائياً من تعسف هؤلاء المآمير المجبولين بالشر ، كما تجعله بأمن من ماصّي دم الدولة والذين يتفننون بلص الناس فكانوا سفالة الجنس البشري. فالقرار الذي صدر في ٢ آذار (مارس) ١٧٩١، والذي ألغى تعويضات النقابات الحرفية ، والخُوّة ، ألغى كذلك الضرائب على الكحول وأقر بالنتيجة عدم الدفع احدى رغائب الشعب العامة .

وكانت الثورة المتأججة منذ ١٧٨٩ قد التهمت مكاتب جباة الرسوم والدخولية . وسيبادر دوبوا غرانسه لمصارحة اليعقوبيين بضرورة الغاء أوكار أكلة البشر ، إلغاء نهائياً . وهــذا هو بالذات ما فعلته الجمعية التأسيسية خلال شهر شباط (فبراير) ١٧٩١ . فقد كانت أقرّت قبـل ذلك ببعضة أيام حرية الزراعة وحرية صناعة التبغ وبيعه ، كما كان صدر ، قبــل ذلك بسنة ، الغاء الرسوم المترتبة على اسواق الخضار وغيرها من الاسواق التجارية . وأزيل من الوجود مبدئياً الرسم المترتب على بيع الملح منذ آذار ١٧٩٠، وعملياً منذ الاشهر الاولى لانفجار الثورة وانطلاق لهيبها ، كما كانت الغيت تماماً ضرائب اخرى منذ تشرين الاول .

ففي الحين الذي انتهت فيه مهمة الجمعية التأسيسية كانت أُلغيت تقريباً جميــع الرسوم المفروضة على السلع الاستهلاكية ، باستثناء الرسوم التي تفرضهـــا التعرفة الجمركية والرسوم المفروضة على شهادة المنشأ .

ومع ذلك هنالك محصول فرنسي هام بقي مقيداً « ولم يرَ » اقــله من فرنسا الى الخارج ،

هي مادة الحبوب ، اذ بقي تصديرها محظوراً تماماً . كل شيء كان يحمل الجمعية الميالة للدفاع عن حرية التبادل التجاري ، على الرجوع الى حرية التصدير كما سبق للملكية ورسمت حدودها عام ١٧٦٤ ، وبصورة جذرية عام ١٧٨٧ . فلم تأتِ شيئاً مع ذلك بهذا الصدد، اذ كان الامر لا يخلو من التعرض لمصلحة كبرى او لضرر عام . ولذا عمدت الجمعية هنا ، بدافع من الروح التحررية ، كما عمدت من قبل لدى مناقشتها الحقوق البلدية، الى المصانعة ومحاولة التوفيق بين المصالح المختلفة. فاذا ما استبقت ، بالرغم من رغائب الشعب التمتع بحرية التنقل في الداخل ، وحرية الاسعار والارباح صعوداً ونزولاً ، فقد وقفت في ما يتعلق بالتجارة مع الخارج الى جانب النقيض من تشريع عام ١٧٨٧ . وبالرغم من جودة مواسم عام ١٧٩٠ والهبوط المحسوس في الاسعار الذي جاء في اعقاب هذه المواسم ، لم يسمح بتصدير الحبوب من فرنسا موقتاً .

٣ – محاولة اعادة توزيع الثروة في فرنسا

فعلت عوامل عديدة هنا ، كما في الظروف الاخرى ، فعلها في تصلّب الجمعية في موقفها فجعلتها تسارع لاتخاذ القرارات اللازمة .

تأميم الاوقاف الكنسية

فالظروف المالية التي احاقت بالبلاد في اواخر خريف ١٧٨٩ اضطرت الجمعية الوطنية لاتخاذ اجراءات جذرية . فالازمة الاقتصادية والازمة السياسية حدّتا كثيراً من جباية الضرائب وتغذية خزينة الدولة . فلم يعد يتوفر للبلاد ما تحتاج اليه من اعتمادات قصيرة او طويلة الاستحقاق . كذلك اصبح من المتعذر جداً عليها ، ان لم نقل من المستحيل ، تجديد عمليات التسليف عن طريق تحاويل او سحوبات بواسطة سندات مالية أشبه ما تكون بسندات على الخزينة مرهونة لدى المؤسسات العقارية التي أصبحت ملغاة. وعلى هذا قس ايضاً حسومات صندوق القطع التي كان يمكن الحصول عليها بالطريقة ذاتها . فقلّ النقد المتداول بين الناس. وفشل تماماً قرضان الواحد بعد الآخر أنزلا الى السوق ، الاول بفائدة ٤ $\frac{1}{2}$ في المائة والثاني بفائدة ٥ في المائة ، بعد ذلك ببضعة أشهر . ولم يكن من المنطق بشيء ، ولا من المعقول بالتالي ، التعويل على التبرعات الوطنية ، على كثرتها، لما كانت عليه من نتائج زهيدة بالنسبة للحاجات العارضة . فلم يتجمع منها أكثر من مليون حتى آذار ١٧٩٠ . وفي الوقت نفسه فالتبرع بربع الدخل ، هذا التدبير الذي اقرته الجمعية بتصويتها عليه في ٦ تشرين الاول ١٧٨٩ لم يعطِ اكثر من ٨ $\frac{1}{2}$ في المائة . اما موازنة النفقات فكان من المتوقع لها ان تبلغ ٥٥٠ مليون ليرة . وهكذا نرى ان جميع الذرائع المشروعة العادية استنفدت فلم يبق أمام الثورة ، والحالة هذه ، سوى اللجوء الى وسائل جذرية وثورية .

وهكذا رأت الدولة نفسها مضطرة لمصادرة اوقاف الكنيسة وتأميم املاك الاكليروس وعرضها بالتالي للبيع وتجميد قيمتها قبل المباشرة ببيعها، بحيث تصبح اساساً لسندات على الخزينة لم تلبث ان اصبحت عملة متداولة . وهكذا صدرت « الاسينياء » *Assignats* اوراقاً نقدية

أشبه ما تكون بتحاويل مسحوبة ، تغطيتها المالية : الاوقاف الكنسية واملاك الاكليروس .

ابتدأت المناقشة العامة حول مبدأ المصاردة في شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٧٨٩ ، إثر انتقال مجلس الامة الى باريس . وجاء دفاع الاكليروس محكماً وقوياً جداً من الوجهة الحقوقية. هذه الاوقاف تخص جماعات عديدة لها شخصيتها الادبية ، لها ككل شخص، حق بالتملك كما لها الاهلية القانونية للحيازة والتملك . والبعض من هذه الاوقاف والممتلكات يعود لثلاثة عشر قرناً . وقد تولت هذه المؤسسات الدينية ادارة هذه الاملاك وتصرفت بها بيعاً وشراء حسبما دعت الحاجة الى ذلك ، كما انها نالت احكاماً بنشأتها . والدولة نفسها اعترفت بهذه الملكية العقارية فكان ذلك بالتالي منها تصديقاً وتثبيتاً لهذه التدابير . ان خضوع هذه الاملاك لبعض التضييقات ولا سيما قضية بيعها لا يمس بشيء حق تملكها. أو ليس هذا هو وضع القاصر او العاجز بعينه ! وخضوع هذه الاملاك لبعض الرسوم ولبعض الضرائب لا يجعل منها فئة او طبقة خارج القانون . الا يوجد في البلاد ممتلكات او حقوق استثمار يترتب عليها رسوم متأخرة الاداء ؟ ان حق المؤسسات في هذه العقارات هو الحق الذي يتمتع به جميع الفرنسيين . فحق الدولة عليها واه لا يمكن ان يصمد في وجه الحق. لم يهدف مؤسسو هذه الاوقاف من وراء عملهم هذا الى مجرد الجود بهبة ، بل رموا منه الى انشاء وقفية لهذه المؤسسة او تلك ، وبراءة الوقف تعتبر مبسولاً او ملعوناً كل من حاول استبدال او تغيير وجه الانتفاع بهذه الوقوفات ، بحيث يستطيع حفدة الذين أسبلوا هذه الاوقاف على الخير ، ان يطالبوا ، في بعض الحالات بحقهم فيها وباسترجاعها.

وبدون ان تستهين الاكثرية ، بهذه الحجج الدامغة والادلة القاطعة والبراهين التاريخية والحقوقية التي لا تُدحض ، هذه الادلة التي يحلو لاحد أعضاء الكونفنسيون ان ينعتها عندما تعرض لقضية ، اخرى بـ « قمطر من المعارف والمعلومات لا خير منه يرتجى ولا فائدة » ، فقد تبنت مع ذلك نظرية الثورة وموقفها متعللة بالعدالة والحق الطبيعي . فما هو القصد الذي قصده الواقف ووضعه نصب عينيه عندما أسبل وقفيته هذه ؟ أليس تأمين أوَد الشخص أو المؤسسة التي وقفها عليها وخص الفقراء والمعدمين بما تفيء من إيراد ومدخول ؟ فاذا ما اضطلعت الامة بهذه المسؤولية ، واذا ما عولت على هذه الاوقاف في الملمات الكبرى والازمات الخانقة افلا تبقى مقاصد الواقفين محترمة ومرعية الجانب ؟ ثم هل من المعقول ان تقيّد مقاصد الواقفين الاجيال الطالعة بعدهم ؟ وراح ميرابو يستشهد هنا بحجج تورغو الشهيرة : فلو كان آباؤنا احتفظوا لانفسهم بقبورهم لكان وجب، توفيراً للاراضي الزراعية اللازمة ، هدم هذه القبور والعبث بالتالي برفات الراقدين فيها تأميناً لقوت الاحياء ؟ وهكذا خرجوا من هذا النقاش الحاد الطويل بالنتيجة التي اوجزها دوبون دي نمور عندما قال : ان املاك الاكليروس تخص المجتمع كله .

وعبثاً يرد الجانب الآخر معللاً ان انتزاع هذه الاملاك من اصحابها الشرعيين يهدد الاحسان والتصدق في الصميم ، هذا الاحسان الذي يرى فيه الغني الواقف نوعاً من الضمان الوطني، كما انه يجرح مبدأ حق التملك الخاص ، هذا الحق الذي راح موري يتنبأ بشأنه قائلاً :

لحق التملك واحد هو ومقدس هو عندنا وعندكم . فأملاكنا ضمان لأملاككم . فنحن نستهدف اليوم لهجوم ، فاذا ما جردونا من حقوقنا ، فسيأتي دوركم غداً ولا شك في ذلك .

الأسينياء وبيع الاوقاف ذات المنشأ الاول

وقد ردت الاكثرية على هذه الحجج بان عدد الملاكين - عماد كل نظام وقوامه - سيزداد ويتضخم بعد توزيع الاملاك الضخمة التي يجمدها الوقف .

وفي الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٨٩ ، اتخذ المجلس قراره بوضع املاك الكنيسة « تحت تصرف الأمة » . وراح باربر يعلق على هذا القرار في صحيفته : « شق الفجر » قائلاً : كان من الواجب « توضيح كل المبادىء أو العوامل التي تحول دون ظهور الطبقات من جديد ودون بعث الارستوقراطية من رفاتها وهي رميم » . فهذه الكنوز المقنطرة التي تتراوح قيمتها بين ٢ - ٣ مليارات من الليرات، أي ما يوازي من ٣ - ٥ اضعاف نفقات الدولة في السنة، كان يمكن أن تكون اساساً لنظام من السندات على الخزينة ، ودعامةً لقروض داخلية جديدة، قصيرة الأجل أو غطاء مضموناً لنقد جديد . وبقراره الصادر في ١٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٧٨٩ ، اختار المجلس بكل حرص الحل الاول الذي لا يطال سوى فئة الزبائن القدامى ، هذه الفئة المتكونة من حَمَلة الاسهم أو السندات . فقد باءت التجربة بالفشل التام . فلم يعد من مَنزع يُركن اليه سوى الاقدام والجرأة . فبدلاً من « الاسيناء » السند على الخزينة ظهرت « الاسيناء » نقداً أو عملة للتداول، حددت انواعها وفئاتها وقيمتها، القرارات الصادرة في ١٧ نيسان و٢٩ ايلول و ٨ تشرين الاول ١٧٩٠ . فهذه الورقة النقدية الصادرة باسم الدولة والمطروحة في التداول بين الناس والتي لها قوة إبراء لا حدّ لها والتي تتداولها الامة باجمعها ، تسهل القيام باعمال مالية جبارة .

وكم عوّل عليها الناس وأمّلوا بتحقيق نهضة اقتصادية كبرى في البلاد ، اذ كان من شأن تداولها بين الناس أن يبعث النشاط في الحركة التجارية بعد الجمود والركود الذي اعتراها ، بعد ان شكا الناس وتذمروا من ندرة النقد وانقطاعه . وراح ميرابو يستحلف المجلس ، في آب ١٧٩٠ ، ان يطرح « في التداول هذا العنصر المحيي الذي يبعث النشاط في المجتمع بعد أن اشتدت حاجته اليه » . ويمثل توزيع املاك الاكليروس جانباً سياسياً واجتماعياً كبير الاثر ، اذ من شأنه ان يفتح في سوق الاراضي تياراً قوياً من الطلبات يغري الشاري البورجوازي والريفي بالاقبال عليها .

وسيفيد المتقدمون الأوَل من هذه الصفقة اكثر من المتمهلين بكثير . فالجمعية التأسيسية تبحث عن كميات طازجة من النقد . وقد اتفقت مصلحة الخزينة ومصلحة البورجوازية التي بامكانها الدفع نقداً ان تحتفظ لنفسها بالقسم الأكبر من قرص الحلوى. فالبيع يجري بالمزاد العلني. هنالك بين هذه الاملاك ما يؤلف وحدة تامة تتوفر لها مجموعة متناسقة متكاملة من المباني

والأدوات الصالحة للفلاحة والمروج تؤلف اجزاؤها وحدة إنتاج متكاملة ، يصعب جداً تقسيمها وتوزيعها . وقد أبت الجمعية أن يصار الى تقسيمها « الى قطــع صغيرة » تباع أو تؤجر بنسبة ثمنهــا بحيث لا تلبث ان تستبدل الزراعة التجارية (الاستثمارية) بزراعـــة مقفلة تعود بالاقتصاد القهقرى .

فبعد ان ترددت الجمعية مدة حول الوسائل ، راحت تبحث على طريقتها الخاصة، عما يوفق بين وجهات النظر العديدة المتعارضة . وقد نص القرار الصادر ٢٥ حزيران — ٢٥ تموز على أن تقسم الاراضي بحسب اتساعها، الى شقق ملائمة "رغبـ الشاري وتثير العروض، لا سيا والمشتري الجديد لهذه القطع الارضية سيستفيد من تسهيلات محترمة في الدفع : ١٢٪ نقداً في كل ما يتصل بالحقول والمروج والكروم وأبنية الاستثمار. والباقي يُسدد اقساطاً متساوية على١٢ سنة ، بفائدة ٥٪ وبالنظر لما كانت عليه الاملاك من توزع وتشتت ، كانت هذه الشروط المغرية حافزاً للشُزبن على الدخول في المزايدات . فالقِطع التي كان ثمنها أقل من ١٠٠٠ ليرة كانت متوفرة جــداً . هذه قطعة أرض تضم اقساماً قابلة للزراعة يشاريها الزبون ، فيدفع من ثمنها ٦٠ ليرة نقداً ويدفع الباقي اقساطاً سنوية على ١٢ قسطاً ، أي انه يدفع ما يترتب عليه ، من غلة الارض ومدخولها تقريباً . الا ان العملية لم تكن في متناول الجميع . فالستون ليرة توازي مرتب أو اجرة ثلاثـة اشهر . هنالك عدد كبير من المياومين لا يملكون مثل هذا المبلغ . وقــد خطر للجنة الصدقات ان تعهد اليهم باستثمار اراضٍ من الجنس الرديء ، فتتنازل لهم عن قسم منهــا ، « وهو تدبير يجنبهم العوز والحاجة » . الا ان هذا الاجراء وخطة الاسعاف الكبرى التي سنتكلم عنها فيا بعد لم يجر عرضها على بساط البحث . ومن المظنون ان اعضاء الجمعية التأسيسية لم يكونوا ليرضون قط بان يتم مثل هذا الامر على حساب املاك الاكليروس .

والراغبون في الشراء جاؤوا بعدد كبير . فقد سيطر على عملية المزايدة احيانـــاً ، جو من الحماس الشديد . وكثيراً ما قوبل المشرفون على عملية المزايدة بالاهازيج والأغـاريد الحماسية . والذي يرسو عليه المزاد ، كانت الموسيقى تشيعه لدى انصرافه ، ويسلمونه إكليلاً مدنيـــاً وبندقية ليرد من يتعرض لارضه بسوء . وكثيراً مــــا راح البورجوازيون في المدن ، والنبلاء والفلاحون حتى وبعض رجال الاكليروس يزايدون بعضهم على بعض لرفع الاسعار.وكان الأول منهم يتقدمون لشراء العقارات الواسعة ، كما انهم لم يأنفوا قط من شراء القطع الصغيرة . وقــد فاقهم عدداً ، عندما تكون المزايدة تتعلق باملاك ريفية ، المزارعون وعمال المنازل، والفلاحون والمرابعون ، والعمال المياومون في الصناعة الذين كانوا يرغبون في الحصول على قطــع صغيرة من الاراضي ، أو على عقارات صغيرة ، واحياناً على عقارات كبيرة ، فيؤلفون ، في هــذا السبيل نقابة من المشترين . ستعمد الدولة على منعها وإلغائها عــــام ١٧٩٣ ، أي في وقت كانت معظم الاملاك الكنسية قد بيعت أو جرى التصرف بها بشكل أو آخر . وفي نهاية الامر ، نرى أن مشتري الاملاك الريفية كانوا نوعين من المشترين : بورجوازيي المدن والفلاحين : فالفـارق بين

الفئتين ، لم يكن كبيراً . انما يظهر هذا الفرق بوضوح اكبر اذا ما قسنا ذلك على الأفراد ، وعلى فئة الفلاحين ، بين بروليتارية المياومين من جهة وبين انصاف البورجوازيين في الارياف من جهة اخرى ، الذين يتألفون من الفلاحين أو يعملون في الصناعة . ومهما يكن من الأمر فالملكية العقارية المتمتعة بالامتيازات كانت كبش المحرقة هنا .

هنالك ، مع ذلك ، نقطة يجب التوقف عندها هنيهة والتأمل فيها ملياً . فبيع املاك الكنيسة والاكليروس لم تزد من نسبة عدد الملاكين في البلاد فحسب ، بل زادت كثيراً من نسبة أصحاب الاستثمارات . ان قسمة العقارات الكبيرة لما فيه مصلحة البورجوازية حمل عدداً أكبر من الفلاحين على طلب رزقهم من خبايا الارض بوصفهم مزارعين أو مرابعين. وهكذا تحقق أمل كبير من آمال سكان الريف الذين طالما دغدغت خيالهم وافترّت لها شفاههم ببسمة رضى عندما وقفوا موقفاً معارضاً في وجه توحيد المزارع وتكتلها في وحدات متماسكة ، ضخمة .

الضرائب والرسوم العقارية

وهذه السياسة التي قامت على توزيع قسم كبير من الثروة العقارية تتفق كل الاتفاق مع السياسة الأخرى التي رمت لتصحيح أوضاع الدخل الوطني في البلاد ، وقد تم تطبيقها على حساب الطبقات الاخرى ولفائدة المنتصرين ، ولو جاءت ضئزى لدى البعض . ان تخفيض المرتبات العالية تخفيضاً محسوساً عمل ، هو الآخر ، عمله في هذا المجال . وهكذا قل عن إلغاء العُشر والحقوق السيادية الاخرى، وإزالة الضرائب المفروضة على المواد الاستهلاكية وتساوي الجميع أمام الرسوم المالية .

والنظام الضرائبي الجديد : كضريبة الاراضي والمسقفات بلغ تمامه في الاشهر الاخيرة من سنة ١٧٩٠ ومطلع عام ١٧٩١ . فاذا ما قارنا هذا النظام بالنظام الضرائبي القديم نراه يلقى شيئاً من الرضى وحسن القبول والارتياح لدى جمهرة الخاضعين للضرائب أو المكلفين ، لا سيما عندما نعارض بأسعار اليوم ، قيمة الاعشار والرسوم السيادية التي كانوا يرزحون تحتها . غير ان الفارق الطفيف بين الرسوم المباشرة التي فرضت عليهم احدثت فيهم احياناً شعوراً مريراً لشدة فداحتها ، اذ ان هذه الضرائب ، بخلاف الضرائب غير المباشرة التي اعتادوا ان يدفعوها يومياً دون أن يشعروا بها ، والتي كانت تختلف باختلاف أسعار المواد الاستهلاكية نفسها ، أو قيمة الاعشار والرسوم التي يلزمون بدفعها بنسبة قيمة الغلة، لم تكن لتتأثر كثيراً — هذا ان تأثرت — بتغييرات المحصول السنوي . وبالفعل ان جمود الهيئات السياسية المنتخبة والمكلفة بتطبيق هذه القرارات جعل البلاد تنعم بمهلة طويلة من تأجيل الديون .

ان جانباً من هذه الضريبة التي تصيب الجميع بالتساوي معد للانفاق في وجوه جديدة لم تعرف مثلها البلاد من قبل ، منها مثلاً ما هو مخصص للمجال الاجتماعي لا سيما التربية والتعليم ، هذا القطاع الذي حلت فيه الدولة محل الكنيسة .

كذلك في مجـال الاسعاف الاجتماعي . فقد سبق للجنة الصدقات في الجمعية التأسيسية ان وضعت مشروعاً كاملاً للاسعاف العـام . فهي ترى ان « البؤس الذي تتسكع فيه الشعوب ، انما تقع مسؤوليته على الحكومات » . فيترتب بالتالي على المؤسسات الحكومية وهيئاتها الرسمية، العمل على إزالة أسبابه والقضاء على مسبباته . والنظام الذي اقترح الاخذ بـه وتطبيقه يكفل للبائس والفقير المدقع رعاية تلازمه في كل مراحل حياته ، كما ينص على تخصيص اسعافات للاولاد المحرومين من كل عون ، وللاسر الكبيرة وللفقراء الذين اقعدتهم العاهـة عن العمل ، وللمرضى وللطاعنين في السن . فتعويض الشيخوخة البالغ ١٢٠ ليرة يمثل تقريباً نصف الأجر الذي كان العامل اليومي يتناوله ، على ما نعلم من تدني هذا الاجر . فليس من يعارض ، من هذا القبيل ، في العالم الاقتصادي : من دوق دي لاروشفوكو – ليانكور ، رئيس اللجنـة المذكورة الى مجموع اعضاء الجمعية . فاذا لم يكن لدى الجمعية التأسيسية من الوقت للتصويت على هـذه الخطة ولاقرارها فهي تحرص ، في قسم الاحكام الاساسية من الدستور عـلى وعد علني بهذا الشأن .

وهكذا تمّ قطعاً ، بانتهاء الجمعية التأسيسية بين ٣ – ١٤ من ايلول، تقويض النظام البائد وهدم المجتمع الذي قام عليه .

فالنظام الملكي الذي عاش قرابة الف سنة مات وزال تماماً من الوجود ، والسيد السند اول نبلاء فرنسا وطليعتهم لم يعد سوى خـادم الدولة الأول ، هذه الدولة التي هي نفسها اوجدته وتدفع له مرتباته وترفته ، تحت ستار تقديم استقالته من نفسه اذا ما رفض ان يؤدي لها يمين الولاء أو اذا ما حنث بهذا الحلف وخفر قسمه أو اذا ما تولى قيادة جيش يحاول معه النيل من سيادة البلاد واستقلالها ، او اذا ما ترك هذا الجيش يتصرف على هواه ، أو اذا غادر فرنسا فلن يسمح له بالعودة اليها حتى ولو بدعوة من الهيئات التشريعية .

كذلك انهارت أرضا دعائم هذا النظام الاجتماعي الألفي. فطبقة النبلاء أُرغم انفها صاغرة. والاكليروس صودرت أملاكه وانتزعت اوقافه وأقسر على الطاعة والخضوع . واستقر في روع «المنتصرين» ان «الرؤساء» القدامى تمّ محقهم الى الابد. فالمال والكفاءات وحدهما تتكلم وتفصل. فسير الادارة في النظام الجديد يؤمن للبورجوازية العليا والوسطى السلطة الفعلية في البلاد . ويسند النظام قوة شعبية بالرغم مما يظهر عليه احياناً من عوارض الاختلاف .

الا ان الوضع العام لا يزال يبدو متقلباً وموقوتاً . فهنالك بعد، خطر البطن (الجوع) يطل من خلال القوة . والمغلوبون على امرهم لا يسلمون بالهزيمة ويتمتعون في فرنسا نفسهـا بقوة تفوق كثيراً نسبة عددهم ، والبعض منهم يستغيث باوروبا ويدعو ملوكها للنجدة ، وتراود الخيـال اهوال الثائر الذي يبدو لهم وشيكاً. فالمؤسسات الثورية وفرنسا نفسها عام ١٧٩١ تزرع الخوف في قلب العالم القديم . وقد انتصبت امام انظار المعاصرين – يوماً بعـد يوم – اخطار حرب كبيرة طاحنة .

فالمتضررون من جهتهم منقسمون على انفسهم. كثيرون بينهم آثروا، بعد ان تحرروا من كل ضغط خارجي ، على الثورة الخلاقة المبدعة ، ثورة سلبية مسالمة . فالخطر الذي مصدره اليمــين ، والضغط الذي يمارسه اليسار من جهته لم يكونا ليتركا لهم حرية الاختيار . فقد انجرفوا مع قوى الثورة العارمة ودخلوا خضمها فساورهم القلق وقد حان الوقت ، في نظرهم ليحلوا محل حركة المقاومة .

الا ان هذه القوى التي تحالفت في ظلها البورجوازية مع الطبقات الشعبية ولعبت معها دوراً حاسماً كانت تخطط لأبعد من ذلك . فسواء لديها أنشبت الحرب ام اشتد ضغط اليمين واصبح خطراً مميتاً على النظام الجديد ، فضرورة المصير ستمكن الحركة الجديدة من تجربة حظهـــا وتنطلق الى الامام .

الفصل الثالث

عهد المتوقعات
الثورة والمؤتمر الوطني
(١٧٩٢ - ١٧٩٥)

الحرب الكبرى التي ستنفجر لتضع وجهاً لوجه ، المجتمع اللاطبقي والمجتمع التقليدي فيه شجرت عام ١٧٩٢ . ففي هذا الصراع المحموم الذي لم يسبق ان اهتاجت المشاعر المتلاحمة فيه بمثل هذا الهيجان ، في ما سبق من العصور ، اذ بلغت فيه الاحاسيس من الغليان ما سجل رقماً قياسياً ، تبرز لأول مرة الوحدات العددية القياسية التي تطبع سياسة العصر : الوحدة العسكرية او الحربية التي تقوم على مليون جندي مسلح ، والوحدة المالية قوامها المليار ، والوحدة النقدية قوامها الورقة النقدية بـ ١٠،٠٠٠ ليرة ، ليتكون من هذا كله ، ما عرف في تاريخ الثورة بعهد « الاوليّات » أو المتوقعات . ان معظم النظم أو المؤسسات التي رأت النور في هذا العهد تحت ضواغط استثنائية لم تلبث ان زالت بسرعة كلية ، مع انه شدت بينها وشائج وروابط محكمة ربطتها بالعهد المنصرم ، وهي نظم ستؤلف ذكراها في هذه الاحزاب السياسية التي قامت في القرن التاسع عشر ، قطب جذب واغراء عظيمين .

اولاً — القوى المتحركة

١ — الخطر المزدوج

كانت الثورة قد تفاعلت حتى الآن ، والى مدى بعيد ، بمشاعر جماهيرية واجتماعية الطابع . فطلعت احاسيس جماهيرية اخرى مازجت بين القوى ووحدت بينها في المجالين الوطني والاجتماعي لتزيد الثورة تأججاً واضطراماً .

« الانفعال الوطني »
واللاجئون « الخونة »

اخذ الناس يشعرون منذ ١٧٩١ بطلوع جو مثقل بالحرب : حرب الشوائع الغثة والسمينة والمناوشات والفتن التي لا نهاية لها . يقرأ هذا في الصحافة اخبار الفوضى الضاربة اطنابها في فرنسا واخبار الجرائم الوحشية التي يحدث العالم الخارجي عن وقوعها ، كما يروون في الداخل ، حوادث الاضطرابات والقلاقل والانتفاضات الثورية . هنالك تحركات جيوش على الحدود وإهانات يلحقونها في الخارج بالعلم المثلث الالوان . وازداد الجو ضغطاً محموماً بعد حادثة فارين *Varenne* . وتصل باريس، في مطلع ايلول ، مجسمة مضخمة ، اخبار مؤتمر قصر بيلنتز *Pillnitz* ، تصف بصورة متقطعـــة الشخصيات التي اشتركت باعماله ، بينهم امبراطور النمسا ليوبولد ، والارشيدوق فرنسوا ، وملك بروسيا وابنه ولي العهد الملكي ، وامير هوهنلوه ، وامير ناسّو ، عـــدا ناخب ساكس وقهرمان القصر . والمهاجرون تمثلوا هم أيضاً في المؤتمر بشخص كالون وكونديه واسترهازي وبوليلياك و« مسيو دارتوا » و « الخائن بوييه » ، وبالاجمال « مجموعة مدهشة » من ممثلي اوروبا الارستوقراطية . لا شك في ان حديث المؤتمر دار حول فرنسا بعد الشوائع العديدة التي نثرها واشاعها اللاجئون في كل من كوبلنتز وبروكسل ، وعلى اثر المنشور الذي اذاعه الامراء في العاشر من ايلول ،عقب اجتماعهم المعلوم ، الذي تضمن استنفاراً للاجنبي ودعوتهم للتدخل استجابة منه لهذه الصرخة الرسمية . وقام اذ ذاك ما يعرف « بالتحالف الذي لا يُقهر » الذي هـــدف الى وضع حد لعهد الاستبداد والطغيان الديماغوجي، و « بطر الطبقة الشعبية » فاذا ما جرت محاولة اعتداء على ذات الجلالة الملكية « تناقلت باريس كلها الخبر ، وكان على باريس ان توقن جيداً .. ان جيوشاً قوية جداً ستنقض حالاً على المدينـــة المارقة فتنزل بها صواعق السماء وغضب العـــالم بأسره » . لا شك في ان الامراء اللاجئين سيتجاوزون الحقائق كثيراً في البيان الذي اذاعوه ، ويورطون الامبراطور ليوبولد فيذهب أبعد مما كان ينوي الذهاب اليه . فالعلم الذي تم للمعاصرين، اذ ذاك، نراه مسجلاً في هذه النصوص وفي هذه المجادلات العنيفة التي أثارها هذا البيان. من يذكر بعد هذه الاستطرادات والابحاث التقدمية المستفيضة حول حرية اختيار الوطن ، وحول سابقة ابناء الفريق الفارين الذين اعترفت الجمعية التأسيسية لذراريهم بالجنسية الفرنسية، والفرصة سانحة لكوندورسيه وفيرنيو ولغيرهم ان يجولوا وان يصولوا ، فيعيدون عبثاً ، على الاسماع، خـــلال المناقشات الاولى التي دارت في الجمعية التأسيسية حول اللاجئين ، ويذكرونهم بالواجبات المترتبة عليهم نحو الوطن المحدقة به الاخطار من كل صوب ، ووجوب التحلي بالتضامن الوطني ، والجريمة النكراء التي يأتيها من يتنكر لهذه الواجبات . وراح القرار الصادر في التاسع من تشرين الثاني (نوفبر) يهدد المجرمين ، ومن بينهم السيد السند ، بمصادرة املاكهم والحكم باعدامهـم . فاذا رفض الملك المصادقة على قرار يُعرض عليه ، وهو يعمل سراً لحمل الدول الاجنبية على التدخل، اتُّهم بالتواطؤ معها بالخيانة . وقد حدث اذ ذاك ما هو أنكى وأوقع ، وهو انطـلاق الحرب الدبلوماسية . فأخذت الامبراطورية تحاول ممالأة الامراء الذين جُرّدوا من املاكهم وألقابهم لاجبار فرنسا على اعادة النظر في القرارات التي اتخذتها بهذا الصدد . وراحت فرنسا من جهتها

تحاول ان تفرض على الامبراطور تسريح تشكيلات اللاجئين. كذلك قطعت العلاقات الدبلوماسية مع البابا بيوس السادس منذ الربيع . وقد وجهت تهمة الخيانـة الى وزير الخارجية : دي لسّار بالتواطؤ مع النمسا وأحيل أمام المجلس الوطني في آذار ١٧٩٢ ، للمحاكمة ، جارّاً معـه الى السقوط الوزارة برمتها . فعندما اعلنت الجمعية الحرب على ملك هنغاريا وبوهيميا في ٢٠ نيسان، حرصت على ان تؤكد موضحة ان هذه الحرب ليست بين أمة وأمة ، بل بين شعب وملك . و « تبنّت مسبقاً كل اللاجئين الذين يغادرون صفوف العدو ليحاربوا تحت الالوية الفرنسية » .

هنالك ظنون وريب مخيفة تحوم حول الزوجين الملكيين في هذا الصراع ضد النمسا دفاعاً عن الحرية . ففي ايام الحرب ، يعزل الملك في ١٣ حزيران ، الوزراء الوطنيين ، امثال رولان وسرفان وكلافيير ، ويرفض توقيـع القرارات المتعلقة بأمن الثورة الوطنية ، الصـادرة في ٢٧ ايار (مايو) و ٨ حزيران (يونيو) فثارت باريس في ٢٠ منه وراحت تشهّر في عريضة تهديدية ، بهؤلاء المتآمرين ضد الوطن ، المسؤولين « عن الجمود الذي يضل جيوشنا ويُقعدها » . فاذا مـا كانت السلطة التنفيذية هي المسؤولة عن هذا المسلك « فلتسحق سحقاً ». وراح لافاييت يدافع عنها بوصفه قائد جيش يتولى الاعمال الحربية ، بعد ان اتهمه دانتون من قبل انه « يتزعم فئـة النبلاء المتحالفين مع كل الطغاة في اوروبا » ، ثم يسارع في ٢٨ حزيران الى منبر المجلس الوطني ويهاجم اليعقوبيين فيلاقي خطابه دوياً في صفـوف الـ *Feuillants* . وقام روبسبيير يتصدى له بالرد عليه من منبر شارع سانت هونوريه ، مطالباً بملاحقة «هذا المجرم» .

« الخائن » لافاييت
« الخونة » في الداخل

ولم تلبث ان برزت الاوضـــاع بشكل اوضـــح ، اذ اعلن الامبراطور وملك بروسيا موقفهـا الصريـــح من « الفوضى الفرنسية » ، واعلن ملك بروسيا الحرب في ٦ حزيران . وراح برونسويك يوضح في ٢٥ منه الاهداف التي وضعها البلاطان نصب اعينها : « القضاء على الفوضى داخل فرنسا ... ووضع حد لهذا التهجم على البلاط والكنيسة ... وإعادة السلطة الشرعية... وجعل الملك في وضع يستطيـع معه ممارسة الحـكم وادارة البلاد وفقاً لما له من سلطة شرعية» . ويكثر المنشور الذي اذاعه من التهديدات ضد الامة الفرنسية ، ترديداً منه للتهديدات نفسها التي اصدرها الامراء والتي تبنّاها اللاجئون بدورهم . فالرأي العام لم يفرق بين الاعداء في الداخل والاعداء في الخارج فهم واحد اينما كانوا. والشعب في شعوره العفوي لمس الواقع لمس اليد .فالمنشور صدر بالفعل عن « اللجنة النمساوية » في التويلري التي كشف امرها تيسّو ، اكثر منه عــن برونسويك . وراحت بعض الاحياء تتخذ قرارات بسقوط الملك . فبعد ثورة ١٠ آب وسقوط العرش ، حاول لافاييت عبثاً حمل الجيش للعمل ضد السلطة الجديدة في البلاد ، ثم ينجو بنفسه باتجاه العدو في ١٩ آب مسجلاً بعمله هذا « خائناً جديداً » في البـــلاد . ثم تتعاقب الاحداث العسكرية بسرعة ، اذ يعبر الجيش الالماني الحدود ويدخل فرنسا في اليوم ذاته ليستولي في ٢٣ منه على بلدة لنغوي . « بين صفوفـكم خونة » يصرح بيان صادر عن المجلس الاستشاري، « وإلا

لسكانت المعركة انتهت » ... وفي ٣٠ منه يبدأ النمساويون بحصار تيونفيل . « الملك وزع جيشنا وشتته وترك حدودنا مفتوحة » ، مشرعة » يعلن التعميم الوزاري المرسل الى مختلف المحافظات ، وذلك على إثر الوثائق والمستندات التي عثر عليها في قصر التويلري ، وفي ٢ ايلول انتشر خبر سقوط فردان ، آخر خط دفاعي في الطريق الى باريس ، بعد ان اذيع ان المدينة سلمها الخونة من انصار الملك، وان مطران المدينة ينوى دخولها في اعقاب احتلال الجيش البروسياني لها . وفي كل مكان تقريباً نرى النظام القديم ينبعث من جديد في إثر الغزاة . ويعلن المجلس الوطني العام ، للكومون، التعبئة العامة ، كما يأمر بتجريد المشبوهين من اسلحتهم ، ويكشف عن الخيانات التي تحيق بالبلاد وتتهددها . « من الافضل لنا ان نُدفن مع وطننا » ، وان نحول « مدينتنا الى تلال من الردم والخراب ، على ان نخضع لبرونسويك » . وانطلق المدفع يستنفر الناس ، كما اخذت الاجراس تقرع باستمرار منذرة بالخطر الداهم . فما الذي تفكر به الجماهير وهي تتألب زرافات وتتجمع في الشوارع ؟ فقبل الالتحاق بجبهة فردان ودخول المعمعة يجب ان نضع حداً للجبهة الموجودة في العاصمة . « فهذه الكتائب العدوة القادمة للقضاء علينا تتواطأ سراً مع المجرمين ومع المساجين » في السجون . نحن امام دسيسة سجون » . فاعداء الثورة ينتظرون قدوم العدو ليفتحوا ابواب السجون . يجب اخلاؤها في الحال .

لويس الخائن

بعد هذا بثلاثة أشهر كان القرار الاتهامي يذكر ، امام المؤتمر الوطني ، الجرائم التي اقترفها الخائن لويس ، آخر ملوك الفرنسيين ، ضد الوطن . فهو متهم بخلخلة الجيش الفرنسي ، واغراء طوابير برمتها لترك صفوف الجيش ، وتسليم لنغوي وفردان ، عن سابق قصد وتصميم للعدو ، والقضاء على الاسطول الحربي ، وتواطؤ على طول الخط مع ممثلينا الدبلوماسيين الذين يقدمون خدماتهم للدول الاجنبية وللامراء ضد فرنسا ، وعدم اكتراثه لسوء المعاملة التي يتعرض لها الفرنسيون في الخارج ، وتحقير الأمة الفرنسية ، في المانيا وايطاليا واسبانيا .

حركة انفصالية يقوم بها سكان مقاطعة الفانديه

خونة هم ايضاً سكان مقاطعة فانديه « الانفصاليين » ، كما ينعتهم سوريل بالذات ، بعد أن راحوا يكشفون ، منذ عام ١٧٩٣ ، عن خططهم المعادية للثورة « بالتواطؤ مع اعدائنا في الداخل والخارج » .

وفي شهر آذار نفسه ، تشهد البلاد خيانة القائد ديموريز ، فيعيد على المسرح الدور الذي قام به لافاييت من قبل ، ويجتاز عن سابق قصد وتصميم ، الحدود ملتحقاً بصفوف العدو ، ويتكلم كما تكلم برونسويك ، ويعرب عن رغبته ، « بالهجوم على باريس ليضع حداً لهذه الفوضى المفجعة التي تسيطر على العاصمة » كما ان كوبورج يعلن في ٥ نيسان عن تضامنه مع ديموريز ، ويشهّر بهذه الغوغاء التي « لا تحلم إلا بالقتلة والسفاحين » . خونة ايضاً الجيروندبون رفاق ديموريز ، وراح روبسبيير يعلق في غرة نيسان على الحوادث امام اليعقوبيين ، قائلاً :

ايحسر ديموريز ان يأتي ما اتاه لو لم يكن يعتمد على حزب قوي ؟ هو يعد بيننا من الانصار من يتواطؤون معه ... فسلامة الجمهورية تقوم في اعادة تنظيم الحكومة .

ففي فرنسا المستباحة التي يقف مصيرها على كف عفريت ، كل اعـداء الثورة من المهاجرين الى حزب الجيروند ، يُتهمون تباعاً بالتواطؤ مع الاجنبي .

فرنسا والثورة سيان ، شيء واحد هما . فالعدو ، واحد هو سواءاً أكان في الداخل أم في الخارج . ها هو باريز يعتلي منصة الخطابة في المؤتمر الوطني، في ٨ آب ١٧٩٣ ، وأخذ يتكلم باسم لجنة الانقاذ العام قائلاً :

« عليكم ان تضربوا في يوم واحد كلا من انكلترا والنمسا والفانديه والهيكل وآل بوربون » .

وفي الوقت ذاته يشهّر «بيت» وينعته بأنه : « عدو الجنس البشري». فانكلترا «قرطاجة هذا العصر » يجب محقها من الوجود . ويردد الشارع هذه النداءات : علينا أن نقوم بغزو هـذا الشعب الضاري وأن نمسح لندن من الوجود . ويقوم من يضيف : وفيينا ايضاً . والتهب الشعب بالحماس الوطني ضد العدو التقليدي وضد شركائه المتواطئين معه من الملكيين أو « المتحـالفين » الذين يحاولون – عبثاً – تمكينه من مرسيليا ، في اواخر آب ، انما يحالفهم الحظ في الوقت ذاته ويمكنونه من مدينة طولون ، بينما تثور مدينة ليون وتمد يداً مسعفة للغزاة البيامونتيين . وقد دخل في روع الجماهير واستقر في خـلد الغوغاء ان فئة من افراد الفرنسيين يعملون في خدمة العدو ، من داخل مدننا الحصينة ، وهم على استعداد كلي لمؤازرته بالسلاح ، ومده بما يرغب من المعلومات . ان عملاء الاجنبي ، كما يؤكد روبسبيير ينسابون بين جيوشنا، ويعملون على خلخلتها من الداخل ... ويحضرون المداولات والمناقشات التي تجري في الدواوين وفي أي لجنة من لجاننا الفرعية ، ويتغلغلون في انديتنا حتى بين صفوف المؤتمر الوطني .

وأياً كانت نيات الترميدوريين ، فهم لن يلعبوا بالنار ويعبثوا بهذه المشاعر . فبعد كيبرون يعتلي تاليان المنبر في التاسع من شهر ترميدور من السنة الثالثة للجمهورية في التقويم الجمهوري الجديد ، ويسلق بلسان حديدسليط هذه الطغمة الذميمة من المتواطئين ، وهؤلاء الخونـة من مأجوري « بيت » الذين « يحلمون بقتل آبائهم » والذين « بلغ من قحتهم أن دنّسوا هذا الوطن عندما وطأته اقدامهم الرجسة » . فطبقت بحقهم احـكام النصوص القاسية التي أقرت ضدهم في التاسع من تشرين الاول (اكتوبر) ١٧٩٢ و ١٨ اذار ، و ٥ نيسان ١٧٩٣ . وسيُحكم عليهم بالموت رمياً بالرصاص ، على هذه الفئة الخارجة على القانون . وقد نصت المـادة ٣٧٣ من دستور عام ٣ على أن الامة الفرنسية لا تسلم بشكل من الاشكال ، برجوع اللاجئين الى بلادهم .

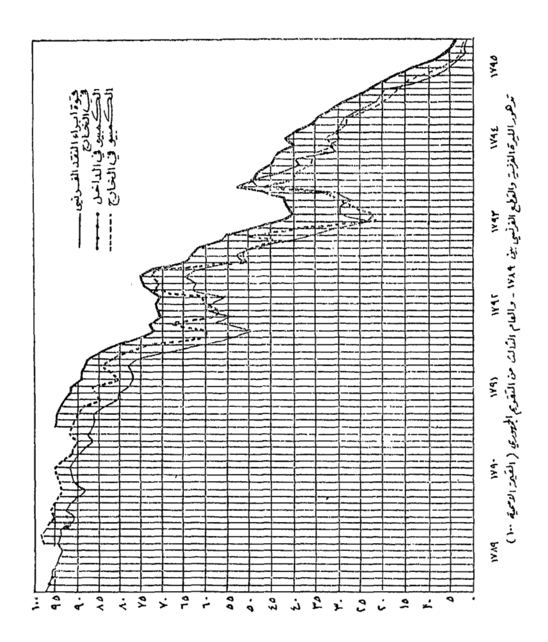
لم ترَ قط ، منذ القرن السادس عشر أمة تُقبل برمتهـا على الحرب وتنغمس فيها بمثل هذه الحماسة وبمثل هذا الاطباق . فمن الجانب الفرنسي وحده ، بلغ عـدد افراد الجيش ، مليون جندي .

« الانفعال الاجتماعي » . التضخم المالي وارتفاع الاسعار

فاذا ما بلغ من شدة الانفعال الوطني ما ساعد على عقلنة الرأي العام وتقييم الحياة السياسية في البلاد ، فقد استطاعت الحياة الاقتصادية بدورها ان تبرز المشاعر الاجتماعية الدفينة للانسان والملازمة له . كهذه المظاهرات التي يسببها غلاء المواد الغذائية المتأتي عن ارتفاع اسعار المحاصيل الزراعية وتقلباتها بعد جدب المواسم الزراعية لسنة ١٧٩١ و ١٧٩٤ . ولا سيما هذا الجو الثقيل الذي سببه ، تضخم النقد ، فأضفى على حركة الاسعار هذه مقاييس شذت عن الصدد وفاقت كل وزن وحد ، وتركت اثرها واضحاً في هذا الجو المسيطر على الحياة الاقتصادية في البلاد .

والثورة لا يزال اعتمادها الاول والاكبر على الاسيلياء . فقد زالت الى غير رجعة ، الضرائب القديمة ، والضرائب المباشرة الجديدة تجبى بصعوبة كلية ، وباب الإنفاق والصرف اتسع ورَحب مجاله وتحتم على الخزينة مواجهة مصروفات مستجدة ، منها مثلاً تسديد الدين القصير الامد الذي لم يعد بالامكان تمديده ، ودفع الرّسوم المخصصة لمراسم العبادة ولمرتبات رجال الدين ، وتكاليف الاسعاف الوطني ولا سيما ما تعلق بالمؤسسات الخيرية ، والاشغال العامة المختلفة التي قضت بها الازمة الاقتصادية المستحكمة ، والاعتمادات اللازمة لآلة الحرب . فاذا ما اخذنا بعين الاعتبار هنا الاوراق المالية التي طرحها في التداول صندوق النقد برسم التبادل وإتلاف الاسيلياء التي دخلت الصندوق ، بلغت قيمة النقد الورقي في التداول ، في اواخر ١٧٩١ ، ما يوازي تقريباً ملياراً ونصف المليار وهو مبلغ ضخم جداً اذا ما قارناه بالمبالغ التي طرحها في التداول صندوق الحسم والمبالغ التي طرحها في التداول بعد ذلك مصرف فرنسا عام ١٨٢٠ ، التي قلما تجاوزت ١٠٠ مليون . ثم جاء عهد الحرب الكبرى ، وهي حرب من طراز جديد تستمر بضع سنوات فاقتضت تأمين الناس كما فرضت بالتالي تأمين العملة . فتمويل هذه المغامرة الكبرى لم يكن ممكناً بغير القروض الاجبارية التي تستدعي لزاماً في التداول ، نقداً وافراً : ملياران من الأسيلياء عام ١٧٩٢ ، وقرابة ٣ مليارات في اواسط عام ١٧٩٣ ، و ٦ مليارات في مساء التاسع من شهر ترميدور ، و ١٨ ملياراً في آخر عهد المؤتمر الوطني وأقل من ٣٤ ملياراً بقليل في مطلع عام ١٧٩٦ ، أي في اواخر عهد التضخم المالي المجاج .

وتبعاً لذلك ، ارتفعت بالطبع الاسعار ، انما بنسبة غير متساوية وفقاً للظروف والصروف والأصناف . ففي السنة الاولى من الثورة ، اي من منتصف سنة ١٧٩٠ الى منتصف ١٧٩١ ، هبط معدل الاسعار بصورة ملحوظة بدلاً من ان يرتفع ، تبعاً لهبوط سعر الحبوب . اما القطع ، فقد بلغ معدله الذروة منذ البدء ، والازمة الدورية التي نزلت بالبلاد عام ١٧٨٩ ، زادت سوءاً مع الحوادث السياسية التي وقعت اذ ذاك . فليلق القارىء الكريم نظرة عابرة على الخط البياني في الصفحة التالية . ففي أواخر ١٧٨٩ يفقد القطع من ٥ – ١٠ ٪ من قيمته . ثم ان طبيعة التغييرات والحوادث السياسية والدورية واستمرار ازمة النقد هي الميزة التي تطبع منحنى الانحدار في السنوات التالية . فالفرق يقرب من ١٥ ٪ في أواخر عام ١٧٩٠ ، ثم يرتفع الى الرُبع بعد حوادث بلنتز ، والى النصف قبيل إشهار الحرب ، ولا يبقى الا الثلث بعد



تدهور الليرة الفرنسية والقطع الفرنسي بين ١٧٨٩ - والعام الثالث من التقويم الجمهوري (القيم الاسمية ١٠٠)

معركة فالمي ويبلغ ٤/٥ حوالي منتصف عام ١٧٩٣ ، عند الغزو الجديد الذي تعرضت له البلاد وثورة الإئتلافيين ... ثم يأتي بعد ذلك ، النهضة المالية الكبرى في الاشهر الأولى من العام الثاني للتقويم الثوري . وبالرغم من الانتصارات الباهرة جاء المنعطف الخطر الذي صارت اليه البلاد بين شهري *Pluviose* و *Ventose* والنكسة الــتي أصابتها من جراء هبوط النقد وهي نكسة استمرت حتى مطلع عهد الديركتوار .

وسعر القطع في الداخل ، والتداول بالذهب وبيعه بحرية – ولو تأخر عن مسايرة تقلبـات سعر القطع في الخارج – يُعيد عهد هـــذه التقلبات من جديد . فالليرة الذهب الحاملة طغراء لويس والتي تساوي قيمتها في آذار ١٧٩٦، نحواً من ٧٠٠٠ – ٨٠٠٠ فرنك، تفقد في خلال سبع سنوات، اكثر بقليل مما فقدته الليرة الذهب بطغراء نابوليون خلال فترة الـ ٣٥ سنة التي انقضت قبيل ١٩١٤ مباشرة .

فالطاقة الشرائية في الداخل المرتكزة على اسعار الحاجيـات وتوفر الرساميل معاً ولا سيا العقارية منها بين اراضٍ ومبانٍ ، تبدو متأخرة عن المعـدل الذي يسجله خط المنحنى الثاني ، ويتغير في ذات الاتجاه تقريباً ، مـع الملاحظة ان ذبذباته او اهتزازاته هي اقل اتساعاً وان كانت اكثر وضوحاً وبروزاً ممـا هي في مراكز المحافظات حيث البيوتات التجارية الكبرى ، او هي على اتصال مباشر بهذه المراكز نفسها . كل هذا يقع في هذه الفترة الواقعة بين ربيع ١٧٩١ وصيف ١٧٩٤ ، كأنما سعر القطع في الخارج هو الذي يحدد سعره في الداخل . وعلى هـــذا تُبنى الاسعار في الداخل . سنصادف من جديد في مطلع الحرب العالميـة الاولى ، مثـلاً ، مثل هذا الترابط النظيم بين سعر القطع في الخارج واثمان الحاجيات . ان هبوط سعر القطع في الخارج تحت التأثير المزدوج للمتغيرات وللثابتة المشار اليها اعلاه اصبح بعـــد ربط السوق الداخلية بالذهب، سبباً من أسباب هذه التطورات التي أصابت قيمة الاسينياء لدى الرأي العام ، هـــذه التطورات التي كثيراً ما يحدثنا عنها الكتاب المعاصرون . وهذه القيمة الاسمية تعبر على الاخص عن شعور البورجوازية وتتناول معاً المحاصيل والرساميل . وقد يختلف عن هذا بالطبع «رأي» أصحاب الاجور الذين يهتمون على الاخص ببعض المواد الاساسية التي ترتفع اسعارها اكثر من ارتفاع الرساميل ، بين ١٧٩٠ – ١٧٩١ ، وبين الاشهر الاولى من عام ١٧٩٣ ، اذ بلغ ارتفاع سعر القمح ١٠٠٪ تقريباً . فالاسيلياء تخسر على الاجمال ، بحسب ما يمكن ان نكوّن لنـا رأياً في الموضوع ، في سوق القطع ، اكثر مما تخسره في سعر الحاجيات والمحاصيل .

وينقلب الوضع تمامـاً منذ صيف ١٧٩٤ ، اذ تأخذ الطاقة الشرائية بالانهيار سريعاً. فنحن على ابواب تضخم مالي طام وامام ظهور اوراق نقدية بـ ١٠،٠٠٠ ليرة للورقة الواحدة . والقطع لم يعد العنصر الذي يتحكم بالحركة . فهبوط قيمة النقـــد مصدره الاسواق الداخلية ، وأسعار الحاجيات في الداخل ، بعد أن أخـــذ معدلها بالارتفاع اكثر من معدل الاصدار . ومنحنى الاسعار يحاول اللحـاق بمنحنى القطع دون أن يدركه تماماً . وقد عرفت سنة ١٧٩٥ بما جرته

على البلاد من صعوبات مالية واقتصادية في الداخل ، وبمـــا سببته من ارتفاع هائل شامل في مستوى الحياة ، بعد ان جمعت معـــاً في فرنسا بين بؤس الازمة الدورية وبين البؤس الذي يسببه التضخم المالي . وعندما يعقد المؤتمر الوطني جلساته النهائية ، يبلغ سعر الحبوب بقدر ما تسمح لنا الدلائل بتقديره اعلى بين ١٥ ـ ٣٠ مرة مما كان عليه عام ١٧٨٩ .

رئيس الجوقة : البؤس

كل انهيار في القوة الشرائية يصحبه على العموم ، المزيد من التشويش والاضطرابات ، يبدو ذلك واضحاً لمن يتملّى النظر في الرسم البياني الذي أشرنا اليه اعلاه . فأول ازمة طلعت على البلاد هي ازمة خريف ١٧٩١ ومطلع ١٧٩٢ ، تلتها على الاثر اضطرابات شديدة في المحافظات والولايات . فمشحونات القمح تصادر في الطريق ويجري تسميرها وبيعها من قبـل الجماهير . وهذه الرسوم غير القانونية ، تنزل كذلك بالزبدة والبيض وبعض المحاصيل الصناعية . « فالاغنياء » يتحملون الضرر . وترتسم في الافق مطالب اجتماعية جديدة ، ويأتي اعلان حـــالة الطوارىء ليزيد الطنبور نغمة والطين بلة . فيرفض الجيش الانصياع بالتدخل . فالجماهير هي الـتي تبادر الى اطلاق النار احياناً . وفي الثالث من آذار يصرع سيمونو رئيس بلدية ايتامب ، ويروح احد الكهنة ممن يخدمون في الضواحي يدافع ، خلافاً للقانون ، عن حقوق القتلة الاجتماعية ويزكي عملهم . وقـــد خبرت باريس ، قبل ذلك بقليل ، اضطرابات داميـة بمناسبة فقدان السكر من الاسواق . وبعد ان توقفت الاضطرابات لفترة قصيرة ، خلال الربيع لمواجهـــة الاحداث الخارجية ، عادت للظهور من جديد ، في أواخر الصيف ومطلع الخريف في العاشر من آب ، وفي اليوم التالي لمعركة فالمي . فالرأي العـام لم يتبدل قط . فاذا ما ارتفع سعر الخبز من جديد ، فالذنب على المضاربات التي يقوم بها سليل آل كابت (الملك) والمحتكرون ومن وراءهم من قضاة ممالئين لهم وتتضاعف الرسوم والضرائب في كل من ليون ومنطقة باريس ومنطقة سهل البوس *Beauce* ، والسلطة عاجزة تترك الحبل على الغارب .

وتطل علينا في أواخر ١٧٩٢ ومطلع عام ١٧٩٣ ، الازمة الاقتصادية الكبرى الثانية . فقد عرفت أسعار الحبوب ، خلال فصلي الشتاء والربيع ، ارتفاعاً مستمراً سجلت معه رقماً قياسياً جديداً . فرغيف الخبز الأسود الرديء ، ثمنه في المحافظات الوسطى بين ٧ — ٨ نحاسات بحيث ان اجرة العامل المحلية تكاد لا تكفي شراء أكثر من ليبرة واحدة . اما في مدينة ليون حيث يستمر عمال النسيج في اضرابهـم ، فالرغيف يساوي ٦ نحاسات متجاوزاً بكثير السعر القياسي الذي بلغه السعر الاستفزازي للخبز عام ١٧٨٩ . وقد تجاوزت الأسعار هذا المعدل في أكثر من نصف البلاد . ويهاجم الشعب في باريس دكاكين البقالين فيعتصرها او ينهبها ، ويأخذ سكان الأحياء في الهياج احتجاجاً منهم على غـــلاء ثمن الخبز ، ويتهمون الرجعية والمتواطئين بانهم وراء هذا الغلاء المفتعل ، كما يصر المؤتمر الوطني وأصحاب الأفران على المطالبة باتخاذ اجراءات زجرية ضدهم . كل هذا والموسوعيون من حزب الجيروند ماضون بتحبير الخطب التقدمية حول

المواد الغذائية لا يأبهون بشيء لتهكمات مارات الساخرة والهزء بهم .

واضطراب الأحياء واهتياجها يظهر من جديد في آب وايلول ، أي في هـذا الوقت بالذات الذي بلغت فيه الأزمة أوجها . ويأخذ الناس يصطفون أمام أبواب المخابز والأفران منذ الساعة الرابعة صباحاً بانتظار الواحد منه حصته الضئزى من الخبز عند الساعة الحادية عشرة. وسرعان ما تسري الاشاعة بان الخبز سيختفي تمامـــاً من الأسواق . وراح جاك رو وثيوفيل ليكلار يطالبان عالياً بنصب المشانق للخونة وللنواب الخائنين وللقائمين بالمضاربات المالية وللمحتكرين. وراح الأب دوشين (*Duchesne*) يصب الزيت على النار ، صارخاً : الوطن أين هو.. فالتجار لا أوطان لهم ، ثم يأخذ بتشهير « أكلة اللحوم البشرية » ، أعـــداء الجمهورية ، المتواطئين مع العصاة المارقين . فالعمال المتظاهرون يغشون في الرابع من ايلول صالة المجلس البلدي مطالبين بالخبز، كما يتهم المتظاهرون، في اليوم التالي وهم حاملون اللافتات: «الطغاة» و « الارستوقراط» و « المحتكرين » ويتزايد ضغط الجماهير يوماً بعد يوم طول الشهر وتتخذ بالاقتراع ضدهم تدابير رادعة بين خاصة وعامة .

وأزمة أسعار الحاجيات الحياتية تسير جنباً الى جنب والأزمة الاجتماعية ، في هذا الانهيار العام الذي وقع في شتاء عام ١٧٩٣ – ١٧٩٤ . كانت قضية الخبز سجلت بعض النتائج الايجابية، بعد ان اسلتت الحكومة لها سياسة خاصة قوامها المصادرة والاسعاف والتنظيم وتعيين حصة لكل فرد . الا ان هـذه السياسة أصيبت بالفشل على الاجمال . ويكثر الشجار وتقوم الخناقات أمام أبواب الجزارين . فالازمة هي على اسوأ ما عرفت البلاد من امثالها ، في كل مـــا يتعلق بالبيض والحليب والزبدة . وراح فريـــق كبير من نصراء الثورة يطالب المسؤولين باستعمال الدواء الناجع أي المقصلة او القيام بعملية تصفية جديدة أشبه بعملية ايلول الجذرية . واستمرت الأسعار في صعودها بعد تصفية اتباع حزب هيبرت كما كانت من قبل ، وبعد القضاء على حزب دانتون وقبله . وبعد التخلص من روبسبيير كما قبله . وقد قضت هذه العلة في النهاية على خلخلة الروح المدنية وقتلها .

ان التوقف عن استعمال اقصى الشدة في اليوم التالي للتاسع من ترميدور لم يكن له من نتيجة غير ازدياد الوضع سوءاً ، في وقت اخذت معه صفوف المتذمرين والناعبين من الوضع الاجتماعي تتضخم الى ان انفجر في شهري جرمينال وبريريال من السنة الثالثة للتقويم الثوري وشعاره : دستور ١٧٩٣ والخبز .

فالتعويل على الأسينياه ، والتغييرات الجذرية التي لحقت بالسندات المالية خـــلال السنوات الخمس المتوالية اوجدت وضعاً متصلاً من الضغط الاجتماعي ، هو ابهظ واخشن مما نزل من امثاله بالبلاد حتى الآن ، نتيجة لهذه الأزمات الاقتصادية الآخذ بعضها برقاب البعض الآخر . وقـد رأت الطبقات الشعبية في هذا الوضع البائس نتيجة محتومة لتحالف الجماعة على البـــلاد ، وهي جماعة من جلس جديد ، على النظام ان يضع حداً له باسرع ما يمكن . وهـذا الوضع الاجتماعي

كالوضع القومي اخذ يُعقلِن الثورة . فالرأي العام هنا لا ينم عن الاجماع بشيء . فقبل فشل التجربة الأخيرة ، نرى عناصر عديدة بين الطبقات البورجوازية الوسطى والعليا تضمر لهـذا الوضع العداء . فاذا ما كانت حوادث الوطن تُعقلن القوى الثورية وتؤلف فيما بينها ، فالحوادث الاجتماعية لا تعقلن فحسب ، بل تفرق هي ايضاً .

٢ – عدّة الثورة واداتها

الجمعيات الشعبية
اللجان الثورية ، الصحافة

هذه القوى الطبيعية التي تعاظمت شأنـاً في بضع سنوات ، مضت تستعمل عدّة الثورة وأدتها التي اوجدتها الجمعية التأسيسية . وقـد اضاف اليها المؤتمر الوطني جهازاً جديداً أولاها فعالية لا مثيل لها .

فالنوادي والجمعيات المحلية ولا سيما هذه الجمعيات الشعبية التي تجاوز عددها الالفين والتي كانت تأتمر باشارة اليعقوبيين وتعمل بتوجيهاتهم ، ضمت بين صفوفها النخبة في الجهاز الثوري . وأخذت هذه النخبة تتسم – شيئاً فشيئاً – إجتماعياً وسياسياً ، بطابع ديموقراطي راديكالي . فقد طردت من بين صفوفها حزب الجيروندبين في اعقاب طرد حزب الـ *Feuillants* كما طردت فيما بعد الهيبرتيين والدانتونيين . وراحت هذه النوادي تقوم بصورة قانونية ما حالت الجمعية التشريعية في اواخر عهدها دون قيامها به . فكل حائل او عائق او مانع دون اجتماعها، اعتبره المرسوم الصادر في ٢٧ تموز ١٧٩٣ متجنياً على الحريات العامة . فالسلطة الحكومية والهيئات الشعبية حرصت من الآن فصاعداً على التآزر فيما بينها والتساند ، بدلاً من التنافر والتخاصم . وقد طُلب من النوادي في الملحقات الاشتراك بالادارة المحلية ، وعُهد اليها مراقبة الموظفين، كما انيط بها كل ما يتعلق بشؤون العزل والرفت والتعيين . وعن طريق اللجان الثورية المحلية التي تضم الكثيرين من انصارها واعضائها بسطت هذه النوادي اشرافها على المدن والقرى وقـد امنت لها عمليات التطهير التي جرت في اوقاتها المرسومة ، التجانس بين اعضائها والنفوذ الحزبي البعيد المدى ، وهذا ما جعل الناس يطلقون على الجمعية الشعبية اسم : « الجمعية المتجددة » . وهكذا أخذ حزب اليعقوبيين دور الحزب الموجه باعتباره « الحزب اليقظ » .. ورائد الرأي العام في البلاد ، بعد ان عرف كيف يستثمر هذا الرأي العام وينيره ويثيره وفقاً لخطة رسمها جمعت من الدهاء ما مازج بين المطالب الاقتصادية والسياسية . وقد ألفت الجمعيات والنوادي الشعبية العاملة في باريس والملحقات على اختلافها ، اثر ارتباطها بالبلديات مباشرة ، المراكز المحركة للثورة ، لعبت فيها الطبقات الشعبية السفلى دوراً بارزاً .

وحرية الكلام والنشر والصحافة استعملت على الاجمال ، منذ عـام ١٧٨٩ في ما ينفـع في تأييد النظام الجديد ، وهي حرية لن تستخدم على مرور الزمن الا لمصلحة هذا النظام ولمصلحته لا غير . واستمرت وحدها في الصدور ، المنشورات الثورية الـتي راحت تصطبغ ، اكثر فأكثر ، بالروح الحزبية المتصرفة . فمنذ ١٢ آب ١٧٩٢ ، قررت الكومون ، في باريس ،

« تعطيل هذه الصحف التي تسمم الرأي العام » كما اوصت أصحاب المطابع الوطنية بالامتناع عن نشرها او تأمين صدورها . وفي الحين ذاته اصدرت الجمعية التأسيسية ، بين ١٨–٢١ آب قراراً « يتعلق برسائل القدح والذم » التي تمس الروح الوطنية والتي ترمي لتضليل الرأي العام ، كما وضعت مبلغ ١٠٠،٠٠٠ ليرة تحت تصرف وزارة الداخلية تشجيعاً للصحافة الوطنيـة . وعاد شيء من الحرية الى الصحافة في مطلع عهد المؤتمر الوطني (*Convention*)وتقلص الخطـر الاجنبي وابتعد عن البلاد ، وذلك لفترة قصيرة جداً . وكان من جـراء الازمة السياسية والاقتصادية التي ذرّ قرنها في آذار ١٧٩٣ ، ان اصـدر المؤتمر مرسوماً تاريخه ٢٩–٣١ آب نص على وجوب الحكم بالاعدام على كل من يُحرّض ، عن طريق الصحافـة ، على إفساد التمثيل الوطني وخلخلته او اعادة النظام الملـكي الى البلاد . ويتعرض للعقوبة نفسها كل من يهدد الغير بالقتل وكل من يتعدى على حق التملك او يعبث به ، اذا مـا وقع الجرم بعد التحريض الفعلي . وعُطلت الصحافة الخاصة بحزب الجيروند في الصباح مـن ٢ حزيران . وكان الصراع بين الاحزاب قد جر المؤتمر الى اتخاذ اجراءات مبدئية حدّت ليس من حرية الصحافة فحسب بل ايضاً من حرية الكلام اجمالاً . وسيذهب حكم الارهاب (*La Terreur*) الى ابعـد من ذلك ، كما سنرى بعد قليل . والنظارة والصحافة ، هاتان المؤسستان الحزبيتان اللتان اطلعتها الثورة لم يعودا في نهاية الامر يعملان ، الا لما فيه مصلحة الاحزاب التي وضعت نُصب أعينها التوسيع في الحريات وجعلها في مأمن .

وفي الوقت ذاته اخذ الحرس الوطني طابعاً ديموقراطياً خليقاً بأن يجتذب اليـه المواطنين السلبيين الذين أُهمل جانبهم من قبل ، او كانوا موضع شبهة او ظنّة ، بعد ان امنّوا لهـم مرتباً يُدفع لهم مياومة مقداره ٤٠ نحاسة . ونري بين الطويجية بنـوع خاص ، عدداً كبيراً من اصحاب المهن ممن أخلصوا لعقيدة الثورة . وانشئت في باريس قـوة خاصـة ، وكذلك في الملحقات ، تحت ستار جيش الثورة ، واحيطت الحياة المدنية والعسكرية بمثـل هـذا الدعم ايضـاً .

الاعياد الوطنية

وهذا الدعم يتناول ايضاً المظاهر المثيرة في هذا الوضع السائد . فالدعايـة تنشط جداً لتكريم مظاهر العبادة الدينية التي حضنتهـا المشاعر المدنية وتبنتها في عهد الجمعية التأسيسية . فهذا الحماس يتجلى على اتمه بالكلام واساليب التعبـير . فخدّام الديانة الجديدة ، يتملقون الجماهير ويتمدحون امامها الاولياء الجدد : الجبـل المقدس ، والمساواة المقدسة ، والحرية المقدسة . وطقوس العبادة الجديـدة تتألق بأناشيد واماديـح وتسابيح لا مثيل لها . وتطل علينا من جميـع اطراف البلاد ، هياكل جديدة وشهداء جـدد . فالاعياد العشرية تحتفل بعيد الكائن الاعظم ، بالطبيعة ، بالآلهة البشرية : كالجنس البشري ، والشعب الفرنسي وبكبار المحسنين الى الانسانية .

بين الديموقراطية والدكتاتورية
« طغيان » الحرية

فاذا ما تمكنت عدة الثورة من تسخير القوى الشعبية على مثل هذا النحو، والاستفادة منها واستغلالها على مثل هذه الصورة، فلانها اصبحت ليس اكثر تجانساً فحسب، بل ايضاً لانه اشرفت عليها الآن حكومة مركزية اخذت تجانس بين عملها وتتداركه واحسنت دمجه في قانون شامل للحق العام ينتظم الكفاح .

هدفت الحريات العامة اول ما هدفت اليه، تحقيق الديموقراطية، واتخذت سبيلاً اليها اقامة دكتاتورية مؤقتة في البلاد. فقد نص المرسوم الذي صدر في ١٩ فندميير (*Vendémiaire*) من السنة الثانية للتقويم الجمهوري، هذا المرسوم الذي اقترح اصداره سان - جوست باسم لجنة السلامة العامة، على ان : « حكومة فرنسا المؤقتة هي حكومة ثورية حتى استتباب السلام في البلاد . فمن يستطيع ان يُخضع لنظام واحد « السلام والحرب، والصحة والمرض »، راح يكتب روبسبيير فيما بعد . فأعداء الوطن جرى وضعهم خارج الوطن. « فليس من مواطنين في الجمهورية غير الجمهوريين » فهي تتحكم بالاقلية الملكية، كما يعلن سان - جوست « بما لها من حق الفتح ... يجب أخذهم بالعنف، بالقوة هؤلاء الذين لا يمكن أخذهم بالعدل ؛ يجب استعمال الظلم مع الطغاة الظالمين، يجب الا يختلط الناس، كما يقول روبسبيير في تقرير له مؤرخ في ١٨ بلوفيوز (*Pluviose*) « بين استبداد الحرية واستبداد الطغيان . فالشدة التي يلجأ الطغاة الى ممارستها مصدرها التعنت والقسوة . اما الشدة التي تمارسها حكومة الجمهورية فمصدرها حب الخير » . فقد كان سبق لبارير وصرح في ٨ آب ١٧٩٣ بمناسبة حروب الافناء التي استسلم لها الملوك من قبل والتي تقوم بها الجمهورية الآن، بان الاولى منها قامت على الضغط والكبت، بينما تمت الثانية حفاظاً على حقوق الانسان .

« فطغيان » الحرية تمارسه دكتاتورية تتألف من المجلس والمقاطعات ممثلة بلجنة السلامة العامة، تحت اشراف المؤتمر الوطني الاسمى، هذا الاشراف الذي يمكن ان يتحول يوماً من الايام، الى اشراف فعلي . فجهازه معروف، مفهوم، مقيد اساساً بنصوص المراسيم والقرارات الصادرة في ١٩ فندميير و ١٤ فريمير من السنة الثانية للتقويم الجمهوري . واللجنة التي اعيد تشكيلها من جديد في تموز - ايلول ١٧٩٣، ضمت بين صفوفها ابرز وأمثل الشخصيات التي قامت بثورة اليعقوبيين، وكبار « الاخصائيين » العاملين في خدمتها والمتضامنين مع الفريق الاول، امثال: روبسبيير وسان جوست وكوتون وبيّو - فارين وكولو ديربوا وبارير، وكارنو وجان - بون سانت اندريه وبريور دي لاكوت دور، وروبير لنديه . فهي تعد القوانين الرئيسية وتعرضها لموافقة ومصادقة المؤتمر الوطني وتشرف على تنفيذها بدقة . والوزراء الذين جرى استبدالهم فيما بعد بالمفوضين، وفاقاً للمرسوم المؤرخ ١٢ جرمينال، والقواد والهيئات النظامية تقع كلها تحت اشرافها . ولجنة السلامة العامة هي بالفعل يدها اليمنى في كل ما يتعلق بالاجراءات البوليسية أو التأديبية . فهي تتصل مع الاقضية والمحافظات

مباشرة . وتقوم في كل من مراكز الاقضية والبلديات بصورة مستمرة ، هيأة تمثلها تتألف من العملاء الوطنيين واللجان الوطنية للمراقبة المرتبطة بالأقضية او بلجنة السلامة العامة التي تراقب تنفيذ الاجراءات الثورية . وهي تنتدب للمهات الخاصة ممثلين عنها . وتراقب بالاسم والفعل معاً مجلس الثورة ومن يضمه من محكمين وقضاة ، اذ جعل المرسوم الصادر في ٢٢ بريريال تعيينهم ، من اختصاصه وحده . وقـد اجاز له التدخل في اجراءات المحاكمة . فهو يحكم ويدير ويقضي في كل مـا يرفع اليه ، ويقوم عملياً بأمور التشريع على ان تنال موافقة المؤتمر الوطني .

وعنه صدرت بالفعل ، ما يعرف بوثيقة « استبداد الحرية » التي تم الاقتراع عليهـا بناءً على اقتراحه ، اعني بذلك قـانون المظنون عليهم أو المشتبه بهم ، الذي صدر في ١٧ ايلول ١٧٩٣ ، والمرسوم الصادر بتاريخ ٢٣ فنتوز من السنة الثانية للتقويم الجمهوري ، هذا المرسوم الذي إتخذ اجراءات جديدة ضد المنفيين ، والمرسوم الصادر في ٢٧ جرمينال حول تدابير الامن العامة في الجمهورية ، واخيراً القرار الذي صدر في ٢٢ بريريال . وهكذا تمت للبـلاد تشريعات خاصة ، اعتبرت خارجين على القانون ، النبلاء والسادة والعملاء القائمين على خدمة هؤلاء النبلاء، ورجال الدين والاجانب . ومن الاجراءات الاحترازية الخفيفة التي اتخذت ضد هذه الفئة : استثناؤهم من الوظائف العامة والاقامة الجبرية، واجبارهم على إثبات وجودهم بحضورهم شخصياً الى مركز البلدية . وقد عبر عن هذه الاجراءات تدبيران مهمان : اولهما احترازي والثاني تأديبي : السجن لكل من يشتبه به انه موال لاعداء الثورة ، والاعدام لكل من ثبت عليهم عداؤهم للثورة أو عملوا ضدها . وحكم عليه بالاعدام ، منذ كانون الاول ١٧٩٢ ، مع ذلك ، كل من يحبذ الملكية والفدرالية ، أو يطالب بالقانون الزراعي ، كما ورد النص على هذا في القانون الصادر في اذار ١٧٩٣ . ولم يعد من حاجة بعد لتقديم الاقتراحات أو للكشف عن هوية الناس ، بعد ظهور القوانين الارهابية الكبرى . «خونة للوطن كل من مالأ، بشكل أو بآخر، أي خطة تهدف لزعزعة السلطة ، أو خلخلة الرأي العام » . تعد جريمة ضد الوطن وخيانة عظمى ، كل مقاومة ، وكل محاولة تهدف لعرقلة عمل الحكم باي شكل أو باي مسلك يصوّب ضدها » . فالمقاومة تؤلف جريمة يعاقب عليها القانون بالموت. والتذمر يؤلف عملا إجرامياً بحد ذاته .. أقلّه للاغنياء. فالعاطلون عن العمل الذين لم يبلغوا الستين أو لم يشكوا من علة مزمنة ، يستهدفون للابعاد الى مستعمرة الغويان اذا ما ثبتت عليهم تهمة التذمر والتأفف من الثورة وجهاز التطهير . فالقمـع يتحرك بسرعة مدهشة وفقاً لقانون شهر بريريال الذي يعلن: عدواً للشعب كل من افترى القول بشكل من الاشكال ، ضد الروح الوطنية ، أو حاول زرع اليأس والقنوط في النفوس أو حاول إفساد الاخلاق ، وضد كل من يحاول باي شكل من الاشكال أو تحت أي ستار أو مظهر يتلبس تحته ، الاعتداء على الحرية أو مس وحدة البلاد ، أو العبث بأمن الجمهورية وسلامتها ، أو سعى لايهانها أو إضعافها » . فالدليل الاولي يكفي حجة عليه . والعقـاب الذي يستحقه هو الموت .

ويأخذ غوثون بالتعليق على هذا قائــلاً : يجب رفض كل مظاهر العدالة الزائفة التي « كانت تحكم بالموت على الشعب تحت ستار إنسانية زائفة ، ثم تخون الشعب تجنبــاً لوساوس الضمير وتأنيبه » .

وهكذا توفرت لقوى الحركة فعالية رهيبة . ونرى هنا ، كما في عهــد الجمعية التشريعية جزءاً ضئيلاً من الشعب يساهم في نشاط الحياة السياسية . وبامكان هذه الدكتاتورية الثورية أن تتحرك لما فيه مصلحة الاكثرية. فهي صنيعة قلّة ضئيلة في الوطن. والسواد الاعظم من الشعب ، اذا ما وقف جانباً ، مثله اليوم كما في السابق ، فهو لا يبقى على الحياد قط . فمشاعره وعواطفه كلها في مأمن. فمن لم يكن مع عهد الرعب ، فهو على كل حال ، مع الثورة التي يؤلف الرعب فيها ذريعة أو اسلوباً وقتياً من الذرائع التي اعتمدتها، لها على الاقل ما يبررها. فهو يترك حرية التصرف والعمل لهذه القلة المحدودة ، الحازمة . وعلى شاكلة المواطنين العــاملين هؤلاء ، لا نرى بين من يتمتع من الناخبين بحق الاقتراع ، من يسارعون لاستعمال حقهم الثابت هذا . فعددهم يكــاد لا يعدو ١٠ — ١٥٪ لا غير . فالرأي الحزبي لا يزال بعد ، حتى في معناه الواسع ، من هـــذه الكماليات عند الاكثرية .

٣ - فوز الحركة

الشعارات المتزنة ، عهد الرعب

في هـــذا الوسط الرحب ، السهل التكييف ، حيث لا يعترض سير الزمن ، أي نظرية سياسية سابقة ، يجري التاريــخ بسرعة كلية ، لا سيما والحكومة اللامركزية التي انشئت عام ١٧٩١ ، والتي عاشت سنة واحدة بعــد النظام الملكي ، لم تعرف أن تصمد في وجه الخطط التي وضعتها لها الحركة الثورية .

والجمعية التشريعية ، نفسها جاءت عقب أزمة وطنية واجتماعية حادة . وها هم « ممثلو » الامة تقذفهم الاحداث الهوجاء المتلاحقة الى الوراء ، دفعة واحدة . فالاحيــاء الباريسية والكومون والحرس الوطني في العاصمة والملحقات ، وفي حواضر البلاد وقراها ، قاموا بمحاولة جريئة تكللت بالنجاح . وهذه الثورة الثانية التي دكت العرش الى الحضيض تفتح الطريق امام الديموقراطية السياسية ، كما تمهد السبيل امام حادث خطير جداً ، وان قصر أمــده ، سنعود للحديث عنه بعد حين .

واجتمع المؤتمر الوطني في ٢٠ ايلول ١٧٩٢ ، وراح يستخلص لذاته النتــائج التي طلعت بها الثورة الثانية بقضائها على النظام الملكي وإعلانها الجمهورية . وشهد العالم باجمعه تجربة سياسية مليئة بالعظات والعبر تمثلت بالدعوة المقامة على الملك . لم يتخذ المجلس بالطبع قراره التاريخي « تحت التهديد بالخناجر » . فالحكم بالاعدام صدر بعد مناقشات ومداولات استمرت منذ تشرين الثاني . غير أن سرد « الخيانات » المتهم بها لويس ، ورد الفعل الذي احدثته على الرأي العــام الذي استثارته الجمعيات الشعبية والصحافة ، اوجدت جواً من الضغط لا يقاوم . ففي عمليات

التصويت التي تعاقبت من ١٥ الى ٢٠ كانون الثاني (يناير) انشق حزب الجيروند على نفسه ، بينما بقي « الجبل » صامداً كالطود الشامخ ، متراصاً كالبنيان المرصوص .

فمع الازمة الوطنية والاجتماعية التي سيطر جوها على الاشهر الاولى من عام ١٧٩٣، هنالك مع ذلك ، ما هو أدهى وأنكى : هذا الجو الثقيل الذي عبق به الصيف المنقضي . فالتحالف الذي وحّد بين القوى الثورية التي تمت لها السيطرة ، عاد فأطل من جديد في العاشر من آب ، واتجه صراحة ليس ضد النظام الملكي والمجلس المنتخب من قبل دافعي الضرائب ، بـل ضد المجلس الاول الذي تم انتخابه بالاقتراع العام . والزعماء الذين كانوا يسيطرون على الحركة في ٣١ ايار ، أخذوا يلوحون عالياً بالشعارات التالية : اصدار قرار اتهام ضد زعماء حزب الجيروند ، والخبز بسعر ٣ نحاسات، وانشاء جيش ثوري بمعاش بعد تنقيته من العناصر المشبوهة، وتأمين مساعدات لعائلات حماة الوطن . وقد غُلب المجلس على أمره ، وهُشم تهشيماً في ٢ حزيران وقضي على الاكثرية. وهكذا أطلت ثورة ثالثة فتحت امام البلاد مرحلة جديدة، لعبت البورجوازية الصغيرة فيها والهيئات الاجتماعية الصغرى دوراً رئيسياً في توجيه احداثها .

وهذه الازمة المزدوجة ازدادت حدتها ايضاً في الاشهر التالية ، بعد أن أطلت الاحداث التي وقعت في ٤ و ٥ ايلول ١٧٩٣ ، والجو يدوي بكلمات السر والشعارات المثيرة : « الحرب للطغاة » ، و « الحرب للارستوقراطية » و « الحرب للمحتكرين » . فالنتائج لم يتأخر ظهورها قط . ففي ٥ ايلول بالذات يجري تطويق المؤتمر الوطني ويخيم عليه جو ثقيل من الضغط المرهق، فينصاع ويـقر الرعب. ويصادق في ١٧ منه على القانون الخـاص بمن تحوم حولهم الظنون . ثم جاء القرار الاكبر الذي صدر في ١٩ فنديمير من السنة الثـانية للتقويم الجمهوري الذي اعلن مبدأ الحكومة الثورية وحدد منها المهام والمسؤوليات ، بالعبارات التالية : الحكومة — وتأمين المواد الغذائية ، ولجنة السلامة العامة الكبرى .

ويطلع على البلاد اذ ذاك نصر مزدوج مبين في القطاعين الاقتصادي والحربي : الحد الاقصى للاسعار ، وارتفـاع الاسيفياه ، وانكسار الفانديه ، وتطهير الوطن من الغزو الاجنبي . وحكومة الانقاذ العامة التي كان منهـا روبسبيير بمنزلة الراح من الروح قضت تماماً على كل مقاومة. وأرسل بالجيرونديين الى المقصلة زرافات ووحدانا ابتداءً من ٣١ تشرين الاول. واخذ الرعب يوجه سيفه البتار ذات اليمين وذات اليسار فيحصد بمنجله النافخين بريح الانقسام كهيبرت وأتباعه ، كما حصد فيها بعد دانتون واتبـاعه الداعين للمسالمة والتوفيق . وفي صبيحة العاشر من آب ، أعيد النظر ، في التشريع الاجتماعي من اساسه فعدلوه بحيث اصبح اكـثر تشدداً وتصلباً .

بوادر الضعف

كان من بعض نتائج حكم الرعب والهول الذي أناخ بكلكله على البلاد ان اخذ القلق يساور الطبقات البورجوازية ويقلقها . فالبورجوازي الأثيل لم يخف عـام ١٧٩٠ ، تخاوفه من استئثار هذه الطبقات الجديدة بالسلطة . فان لم يخشَ هو شراً

على نفسه منها ، فقد أوجس شراً على ممتلكاته ومقتنياته من هذا النظام الذي يعيش على دوامة من القروض الداخلية القسرية ، وعلى المزيد من الضرائب والرسوم . فلم يلبث كل هذا ان استحال حرباً ضد الاغنياء والموسرين . وقد شاركهم في هذا الشعور كثيرون غيرهم من ابناء الطبقات البورجوازية المغمورة . كذلك اضطربت خواطرهم وجزعوا كثيراً من الغزو الاجنبي ورأوا من خلاله احتمال عودة الارستوقراطية المكبوتة . ولم تعتم ان ذهبت الانتصارات الباهرة بالاخطار التي هددت الوطن . فالانتصارات التي سجلتها مرافق البلاد في المجال الاقتصادي لم تلبث ان مر اثرها بسرعة ، كما انها جاءت غير مكتملة وكلفت غالياً جداً ليس الاغنياء فحسب، بل ايضاً الثورة الشعبية، اذ قضى عليها بتشتيت قواها المسلحة. وصغار التجار لا يطيقون صبراً على تحمل الحد الاعلى عندما يطال منتوجاتهم وهي الحالة التي استقر عليها الوضع العام منذ شهر فنتوز وقد كنّ المزارعون والباعة في الارياف كرهاً شديداً لهذا الوضع بالرغم من الاجراءات المماثلة والتدابير التي سبق للجنة السلامة العامة ان اتخذتها في سبيل التخفيف مما يصيبهم من سوء ولا سيما ماشيتهم ، من جراء هــذا الوضع . وعلى النقيض من هذه الاسباب ، اغتاظ اصحاب الاجور بدورهم من فعاليتها بالقدر الذي يتمنون ، وبلغ السيل الزبى عندمــا حاولت السلطة رفع الاجور الى الحــــد الأقصى ! فالفشل كان كامناً يتربص ابداً النظام الجاري الاخذ به . وقدرة الاسيلياء الشرائية كانت دوماً في تدهور موصول ، خلال الفصل الاول من عام ١٧٩٤. فسعرها الاسمي عاد ، في شهر ترميدور ، الى ما كان عليه قبــــل ذلك بسنة عندما بلغ الخطر الخارجي والداخلي ذروته .

وتردد الجماهير المرْبِك مع شعور عميق بخيبة الامــل أوشك الا يترك في الميدان سوى افراد يعملون منفردين ، لا سيما وقـــد كانت الحياة الشعبية في باريس اخذت بالتدهور والتردي منذ ايلول ١٧٩٣ ، تحت ضغط الحكومة نفسها . وفي ربيع ١٧٩٤ ، توقفت الهيئــات الشعبية في الاحياء عن عقد اجتماعاتها العادية. فتصفية النظرية التي قال بها وعلم والقضاء عليها، كانت الضربة القاضية ونقطة الماء التي جمت الكأس ، بعد أن رأى فيها فقير الحال سبباً ، أطلّ ولو من وراء القبر ، للتدهور المستمر في قــوة الاسيلياء الشرائية . وهذه الحركة تبدو معالمها اوضح في الملحقات ، ولم يبق منها قائمــاً الا النادي التقليدي المعروف (*Conformiste*) وهذه القوى الجماعية الكبرى التي نهضت بالثورة وحملتها على اكتافها اصيبت الآن بشيء من الانحطاط والوهن. ويبدو ان الثورة القائمة على العدد ، هــذه الثورة التي تتأثر بعيداً بعامل القوة ، كاد يحل محلها ثورة القصر بكل ما تحمل في ثناياها من اخطار وما تتعرض له من دسائس واحابيل. ففي سلسلة الاحداث الكبرى التي طبعت الثورة وتركت عليها ميسمها ، نكاد لا نرى للعدد فيها من اثر . فحادث التاسع من شهر ترميدور يبدو وكأنه ليس للعدد فيه من اثر ، وبالتالي للشعب ، هــذا الاله الذي كان المحرك الاول والفاعل الاول في هــذه الضغوط السابقة ، اية صورة واضحة او شأن . فالحادث الدامي وقع وكأنه ضمن وعاء مغلق ، في نطاق فردي خالص . فكأن بـــه

صدام فردي شخصي وقع ضمن المؤتمر الوطني . فالاخطار التي تهدد بها احكام قانون بريريال ، وعداء لجنة الأمن لروبسبيير ولصحبه، والانشقاق الذي بليت به لجنة السلامة العامة ، والدسائس التي افتعلها المفوضون المرتجفون لدى استدعائهم ، وهفوات روبسبيير نفسه ، كل ذلك ، وما اليه فعل فعله وهيأ النتيجة المحتومة لهذا الصراع الذي كان المؤتمر الوطني ميداناً له .

كان في وسع باريس ان تعيد المجلس الى رشده مرة اخرى في اعقاب الحوادث المفجعة التي وقعت يومي ٨ و ٩ ترميدور . صحيح انه أطلق سراح روبسبيير وصحبه ، بعد اعتقالهم ، بفضل قبضة من رجال الدرك وبعض الموظفين وثورة الكومون المعروفة . غير ان الحركة بحاجة لعنصر الوقت وتفتقر اصلاً لعامل الحماس ، فالتفسخ الذي اصيبت به قوى الثورة لم يلبث ان ادّى نتائجه المتوقعة . والدم المهراق الذي اهدره حكم الارهاب جزافا في نظر عدد كبير من المستائين ، جعل الرأي العام يشمئز من هذه الافعال . فالاستجابة جاءت ضعيفة جداً للاستنفار الذي تم بواسطة دق الطبول وقرع الاجراس نذيراً بالخطر الفاغر فاه في ٩ ترميدور . وقوى النظام والانضباط تتفوق على قوى الفتنة الثائرة . والتدبير الذي اقدم على اتخاذه المؤتمر الوطني أمّن له الغلبة على القوى المقاومة دون ان يلقى اي حماس بين صفوف اعدائه .

٤ — الهلع البورجوازي

الردة السياسية والاقتصادية والاجتماعية

بدت على الثورة حركة من الجزر . وهذا لا يعني قط ان الاكثرية في المؤتمر الوطني أو في البلاد اصبحت مضادة للثورة . ولم يَدر في خلد احد من الناس ، اذ ذاك ، الرجوع الى النظام القديم مثلاً ، كما لم يَدر في روح احد التخلي ، ، مثلاً عن نظم الجمهورية . وقد عني المؤتمر الوطني بوضع حد لهذه الضغوط التي مارستها الاقليات في الخارج وتعرّض لها فأخرجته عن الصدد وأزاحته عن الصراط القويم . وامام الخطر المزدوج المنتصب امامه من كلا الارستوقراطية والديموقراطية ، كان لا بد من اعادة تنظيم احزاب القلب او الوسط فيه . وبعبارة اخرى ، فالبورجوازية التي وقعت الاحداث المتعاقبة بين فئاتها المختلفة — باستثناء أقلية ضئيلة من الارهابيين وبعض عناصر الطبقات الشعبية التي اصبحت بلا قوة في عزلتها — انكفأت على نفسها وراحت تتولى بيدها تدبير شؤون الحكم والادارة .

ولذا كان لا بد من اعادة النظر بصورة شاملة في الجهاز الثوري وعدته المحركة . فراح المؤتمر الوطني يوجه اهتمامه الخاص « للحركة الإرهابية » ممثلة بهذه الادوات الجديدة التي أطلت في شخص الحكومة الثورية والادوات القديمة كالنوادي والصحافة ، والحرس الوطني والكومون في باريس ، اي كل هذه الاجهزة المعجلة لعمل الثورة والمضخمة له .

وقد تم منذ ترميدور ، الغــاء معظم القوانين والتشريعات التي زرعت الهول في البلاد وعدلت تعديلاً جذرياً فأعيد تنظيم لجنة السلامة العامة كما حدد عدد افرادها ، بانتظار ان يفقدوا في الشهر القادم ، جانبـــاً كبيراً من سلطتهم ونفوذهم وُوضعت بلدية باريس في ٩ من الشهر خارج القانون ، وُقضي على الكومون وجرت تصفيتها الى الابد ، ووزع القرار الصادر في ١٤ فروكتيدور صلاحياتها ، فعُهد بادارة البوليس لهيئة معينة من الموظفين . وفي الشهر التي تمت تصفية حزب اليعقوبيين ، اذ راح المرسوم الصادر في ٢٥ فنديمير من السنة الثالثة للتقويم الجمهوري يحظر كل انتساب للجمعيات القائمة وكل تراسل جماعي بينها ، كما يحظر كل التماس أو كل استرحام يقدّم جماعياً . ووُضعت الاندية تحت مراقبة البوليس . فعلى كل جمعية ، ان تنظم من الآن فصاعداً ، قائمة مفصلة بالاعضاء المنتسبين اليها ، كما أجبرت على ارسال نسخة من هذه القائمة للمسؤول عن أقرب مركز قضاء منهـــا وعلى تعليق هذه القائمة على ابواب البلديات . وجرى في ٢١ برومير اقفــــال نادي اليعقوبيين في باريس . وصدر بعد ذلك بتسعة اشهر ونصف مرسوم بالغاء كل الجمعيات الشعبية . وراحت الصحافة تحبّذ بالطبع مثل هذه الاجراءات المتخذة بعد ان تحررت من كل ضغط وتمتعت بحرياتها ، لا تخشى ما يسيء اليها من الحوادث الطارئة ، باستثناء حوادث فردية ، كما انها اصبحت معادية لليعقوبيين في مجموعها ، اذ اصبحت « بورجوازية » بطبيعتها وبأهدافها . والحرس الوطني أعيد على ما كان عليه في عهد الجمعية التأسيسية ، فجرت تنقية صفوفه من الفقراء والارهابيين ، بصورة مباشرة وغـــير مباشرة ، بانتظار صدور مرسوم ١٠ بريريال من السنة الثالثة للتقويم الجمهوري الذي « اعفى » الصناع والمياومين والعمال المساعدين من الخدمة العسكرية .

وهكذا قضت البورجوازية بعد ان استعادت وعيها وعاد اليها رشدهـــا ، على الخطر الذي يمثله لها الديموقراطية الغوغائية . لا مراء بان الصعوبات الاقتصادية والاجتماعية التي أخذت بخناق البلاد ، في العام الثالث من التقويم الثوري ستسبب لهــــا بعض الاضطرابات والقلاقل ، لا سيما ما وقع منها في ١٢ جرمينال والأيام الأولى من بريريال . وقد فشلت الحركة في المهد لافتقارها لأطر بورجوازية ، اذ ان قطاعاً صغيراً من البورجوازية هو الذي يفكر باسم الجماهــــير . ومن جهة أخرى ، فالجماهير لم تعد قوة فاعلة في هذا العهد ، بعـــد ان تمت الغلبة والسيادة للمؤتمر الوطني ، وامّن له السيطرة بالقوة في شهر بريريال . وبذلك تأمن لليمين انتصاره الساحق بدون هذه الجماهير وبواسطة الجيش وحده .

فالجيش يلعب الآن في الصراع السياسي القائم الدور الذي لعبته الجماهير منذ اطلالة الثورة . والرجل الذي هيأته الاقدار لتوجيه هـــذا الصراع على جبهتين ، هذا الصراع الذي وحـــده يستطيع ان يُرسّخ العهد الذي أطل على البلاد ، هو قائد حرب مجرب .

ثانياً — الوحدات القياسية في السياسة

اعلان حقوق الانسان عام ١٧٩٣

في هذا التحدي الجنوني العاتي الذي تنطح ، بين ١٧٩٢ — ١٧٩٤، للعالم القديم والجديد، تطل علينا من خلاله، مؤسسات ومستجدات ضخمة ، أفعمت قلب اوروبا دهشة وهلعاً . كما زرعت الخوف وسمرت الرعب في قلب البورجوازية الفرنسية بالنظر للماضي في كل ما يتصل بالاقتراع العام والنظام الجمهوري والاعمال الحربية التي قامت بها الديموقراطية الاجتماعية في سالف أيامها، والجور الذي سيطر على المدينة في المستقبل ، أمور مرت كأضغاث الأحلام والكابوس الضاغط ، اذ ما كادت السنة الثالثة من التقويم الثوري تمر حتى كانت معظم هذه الاشباح مرت وزالت ولم يبق منها عين أو أثر .

فالاعلان الجديد لحقوق الانسان ، عام ١٧٩٣ وضع المساواة بين المواطنين في رأس هذه الحقوق التي يتمتع بها الانسان . ويليها اهمية : الحرية والأمن والملكية . وجعل من الاسعاف العام واجباً مقدساً . واعترف للانسان بنوع من الحق في العمل ، وهو حق يختلف تماماً عن مفهوم الحق في العصر التالي . والانتفاضة الشعبية أعلنت حقاً من أقدس حقوق الانسان يقوم بها ضد حكومة تغتصب السلطة اغتصاباً .

فهذا الاعلان الذي تم في السنة الثالثة اعاد للحرية المرتبة الاولى ، هذه المرتبة التي ارادها لها النص الاول لحقوق الانسان كما اعلنتها وثيقة عام ١٧٨٩ . فهو يشدد بالطبع على المساواة المدنية ، ويفسح هذا الاعلان محلا مرموقاً « لواجبات الانسان » وهو الشيء الذي حاول دعاة التوفيق في الجمعية التشريعية ، عبثاً تحقيقه . من هذه الواجبات : احترام حق الملكية ، اذ نصت المادة الثامنة منه على ما يلي :

المادة ٨ — على صيانة الملكية تقوم حراثة الارض وما يرجى من محاصيل وانتاج ، وكل وسائل العمل والنظام الاجتماعي نفسه .

فما من داع بعد للاسعافات العامة ولا للجوء بالتالي لحق العصيان والتمرد .

حق الاقتراع العام وحكومة المجلس

فحق الاقتراع العام قضي عليه هو الآخر . سنت هذا القانون الجمعية التأسيسية وذلك في ١٠ آب ١٧٩٢ ، وهو القانون المتعلق بانتخاب اعضاء المؤتمر الوطني . يعترف هذا القانون لكل فرنسي بلغ الحادية والعشرين من عمره ، بحق التصويت ، دون تمييز ما بين المواطنين من حيث الوضع المالي ، وقد استثنت القرارات التي صدرت في ١١ و ٢١ منه ، الخدم المرتبطين بخدمة شخص معين باعتبارهم

لا يتمتعون بالاستقلال الشخصي . وحق الانتخاب بقي غير مباشر ، تماماً كما كان الوضع في دستور عام ١٧٩١ . يُنتخب كل من بلغ عمره ٢٥ سنة ، وقــد حافظ دستور ١٧٩٣ ، على طريقة الاقتراع هذه ، بعد ان الغى الاستثناء الخاص بالخدمة ، وساوى من جهة ثانيــة ، بين السن الذي يمكن للمرء معه ان ينتخب ويُنتخب ، فجعله ٢١ سنة . ولم يطل العمل بهذا النص ، اذ ان قانون ٥ فروكتيدور من السنة الثالثة للتقويم الثوري ، اعتبر الاقتراع عموميــاً ، أي يشمل كل الفرنسيين الذين اشتركوا في الدورة الأولى من عملية الاقتراع ، وطلب اليهم ابــداء الرأي في النص المعروض عليهم ، هذا النص الذي سيصبح دستور البــلاد في السنة الثالثة ، كما دعاهم للاشتراك في انتخابات الدورة الاولى للمجلس التشريعي. فالوضع يقتضي السرعة والعجلة. وقد حصر هذا الدستور ، حق الانتخاب بمن يدفعون ضريبة الاملاك وهي ضريبة معدلها أقل مما فرضه قانون ١٧٩١ . له حق الاشتراك في انتخابات الدورة الاولى ،كل مــن يدفع ضريبــة مباشرة ، مهما كانت قيمتها . وهكذا نرى ان غالبية السكان تمتعت ، وفقاً لهــذا النص بحــق الاقتراع . كذلك اعيد العمل بالرسم الضرائبي الذي يولي صاحبه الاهليــة ليُنتخب عضواً في المجلس . كما حددته الجمعية التشريعية من قبل بنصه الحرفي الواحد تقريباً ، بعــد ان استثنى المرابعين والمزارعين الذين يتمتعون ، هم ايضاً برسم أقل . فالناخبون للدورة الثانية يُتخــذون من المحيط الاجتماعي ذاته ، اسوة بدستور عام ١٧٩١ ، ويجري انتخاب ممثلي الامة بدون اي اعتبار او اكتراث لضريبة الارض التي يدفعها المرشح للانتخابات .

كذلك استغني أيضاً عن المجلس الوحيد الذي يتجدد كل سنة ، كما استغني كــذلك عــن حكومة المجلس على الوجه الذي اقترح تشكيلها دستور عام ١٧٩٣ . فمجلس الشيوخ الذي كان مونييه وانصاره عجزوا عن إقراره ، عاد للظهور من جديد ، وهو مجلس يختلف مع ذلــك اختلافاً كلياً عن المجلس الذي خططوا له .

فدستور السنة الثالثة من التقويم الثوري وزّع السلطة التشريعية بين هيئتين مختلفتين :مجلس الخمسمائة ومجلس الشيوخ . وكلا الهيئتين تأتيان بالاقتراع العام من قبل هيئة واحدة من الناخبين. وكلاهما ينتخبان لدورة تدوم ثلاث سنوات ، يجري خلالها تجديد كل واحد منهــما بالثلث . والفارق الوحيد ، بقطع النظر عن الاوضاع الخاصة بالاحوال الشخصية والسكن هو فارق السن لا غير بعد ان اشترط فيه ان يكون ٣٠ سنة ثم أنزل الى ٢٥ لاعضاء مجلس الخمسمائة و ٤٠ سنة لاعضاء مجلس الشيوخ . فمن مميزات مجلس الشيوخ حق انتخاب المديرين الذين يُنتخبون لمدة خمس سنوات . ويجري تجديد انتخابهم على اساس الخمس. والوزراء الذين لا يؤلفون مجلساً خاصاً يعينون ويعزلون من قبل مجلس الادارة (ديركتوار)، ويجب انتخابهم من خارج اعضاء الهيئتين المذكورتين . لا يمكن لاية هيئة من الهيئتين تشكيل أي لجنة دائمة ، تفاديــاً وتحسباً بالوقت ذاته ، من اللجان الحكومية في عهد المؤتمر الوطني .

الكائن الاعظم
فصل الكنيسة عن الدولة

استمر العمل بقرار إلغاء المسيحية حتى شهر بروميير *Brumaire* تحت مظاهر مختلفة احتفظ نابوليون في تشريعه ببعضها . فقد أقفلت الاديار بموجب القرارات الصادرة بتاريخ ١٧ و ١٨ آب ١٧٩٢ كما خلفت هذه القرارات الجمعيات الرهبانية . فمحاربة المتمردين ، وتقلب العديد من عناصر الكنسة الدستورية وتغيرها ، وضغط قوى الحركة التي تحظى من وقت الى آخر ، بؤازرة البلديات التي عهد اليها المرسوم الصادر في ٢٤ آب ١٧٩٠ بمهمة تأمين الاحتفالات العامة والتي راحت ، فيما بعد ، تدعي لنفسها حق مراقبة طقوس العبادة ، كل هذا وما اليه أدّى بالطبع الى خلخلة الاكليروس العلماني والى اشاعة الفوضى في الحياة الدينية . ففي السنة الثانية من التقويم الثوري ، نرى ثلثي الاساقفة الدستوريين مستقيلين ، او مارقين عن الدين او متزوجين . والدولة الثورية التي لم تتعرف الى عبادة العقل انشأت لها بموجب القرار الذي اصدرته في ١٨ « فلوريال » عبادة الكائن الاعظم ، وانقطعت عن دفع مرتبات الكهنة ، وتبنت ، في اواخر السنة الثانية من هذا التقويم الجمهوري مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة . والكائن الاعظم ، لم يعمّر بعد ترميدور ، اذ ان القرارات التي صدرت في ٣ فنتوز و ١١ بريريال من السنة الثانية لهذا التقويم الثوري ، اكّدت حرية الطقوس التي يمكن ان تقام في المعابد الواحدة ، على اختلافها . فدستور العام الثالث عجل في ترسيخ مبدأ الفصل ومبدأ حرية العبادة .

كذلك استمر العمل بقرار إلغاء المسيحية في الحياة الاجتماعية ، وذلك ابتداء من الطلاق المبني على تراضي الفريقين المعنيين ، او للتناقض القائم بينهما ، او لعدم التجانس ، وذلك وفقاً لاحكام القانون الصادر في ١٠ ايلول ١٧٩٢ ؛ وفي كل ما يتعلق بالاحوال الشخصية والتقويم الجمهوري والنظام العشري الذي وضعته الثورة .

واخيراً عاد الى استلام زمام الامر في البلاد ، ان لم يكن رجال ١٧٩١ ، فأقله الاوساط الاجتماعية ذاتها، على نسبة كبيرة للمصالح ذاتها . فقد شعر هؤلاء الذوات انه يمر فوق رؤوسهم كابوس المساواة الذي فرضه نظام السنة الثانية من التقويم الجمهوري . كثيرون بينهم لا يزالون يعتقدون بالحريات العامة ولكن باحتراز وتحسب لم يكن ليتحلوا به من قبل كطبقة ، او انهم لم يجدوا فيهم الجرأة الكافية ، اذ ذاك ، للتعبير عنها قبل ان يسيطر عليهم الخوف الاجتماعي. فان لم يشر الاعلان الجديد لحقوق الانسان الى هذه الحريات خلافاً لاعلان هذه الحقوق ، سنة ١٧٨٩ ، و ١٧٩٣ ، فالدستور الذي وضع ونشر العام الثالث من التقويم الثوري ، اعلنها من جديد ، في الفصل المعنون: الاحكام العامة . من هذه الحريات : حرية التعبير وحرية الصحافة. فالنص مع ذلك ، هو اقل وضوحاً من السابق . وراحوا يشددون على التدابير الاحترازية بعد ترميدور . فنظموا ، في كثير من الحيطة والاحتراز ، حق الاجتماع وحق الالتماس : لا يمكن للجمعيات السياسية ان تنعت نفسها بـ « شعبية » ، ولا يحق لها بان تنضم بعضها الى البعض الآخر ، ولا ان تقوم بمراسلات فيما بينها ، كما يجب ان يقدم كل التماس على اساس فردي

وليس على اساس جماعي. ويحق للقانون، لدى الاقتضاء ، ان يعلق حرية الصحافة لمدة سنة ، مع امكانية تجديد التعطيل لسنة اخرى .

ثالثاً — الوحدات القياسية في الاقتصاد والاجتماع

من بين هذه المستجدات الرئيسية التي حققتها الانتفاضات الثورية ، بقي الكثير منها حياً معمولاً به في المجالين الاقتصادي والاجتماعي .

خليط من المستمر والزائل
إلغاء الرسوم الاقطاعية

في الطليعة من هذه المستجدات ، القضاء قضاء مبرماً ، على النظام الاقطاعي في ما تعلق منه بالمرافق الاقتصادية في البلاد. ومثل هذا الاصلاح طالما نزع اليه الفلاحون من انفسهم بشوق ، اذ نراهم مستمرين ابداً في مقاومتهم الجماعية لجباية الرسوم السيادية . فتم لهم تحقيق اغراضهم هذه على مرحلتين تتمثلان في : انهيار العرش وانهيار الجيروندبين .

وصفت الجمعية التشريعية أسس السياسة التي انتهجتها في مصادرة الاملاك السيادية ، خلال الاضطرابات التي سبقت الـ ٢٠ من حزيران ١٧٩٢ . فالقانون الذي صدر في ١٨ منه، نصّ على إلغاء الرسوم العارضة او الطارئة كالرسوم التي يتقاضاه السيد على بيع التركات ، ما لم يثبت المالك ، عن طريق ابرازه سند تملك قديم ان الرسم المترتب عليه انما اساسه تنازل سابق عن العقار . ومثل هذا الدليل كان من العسير جداً ابرازه والاحتجاج به . وعادت الجمعية الى تعيين هذا المبدأ وتوسيعه في اليوم التالي للعاشر من آب . وقد ألغى المرسوم الصادر في ٢٥ منه ، بذات الشروط، كل الرسوم الاقطاعية او الضرائبية المقيدة ، وكل الفوائد التي كانت تجبى تحت ستار : حصة الحصيد او رسم الاراضي ، والعشور المرسومة ، وعلى الاجال ، كل الرسوم التي ابقت عليها التشريعات الماضية ، او جعلتها قابلة للفداء او الشراء ، وبعبارة اخرى ، نص هذا المرسوم، الى حد بعيد، على إلغاء كل الرسوم السيادية المتبقية او التي ربطها الشارع بشرط الفداء. فالمادة الاولى ، ألغت ، بدون تعويض ما ، كل الرسوم « حتى منها ما احتفظ به قانون ٢٥ آب الماضي » وأجبر حاملو السندات الثبوتية على ايداعها قلم البلديات ليجري احراقها واتلافها فيما بعد ، علانية . وفي ذكرى العاشر من آب في كل سنة تضرم في البلاد نيران الابتهاج ، امام اعضاء المجلس البلدي والمواطنين المجتمعين معاً في ميدان البلدية . وهكذا خلصت ، في نهاية الامر ، على حساب السيد وحده الملكية العقارية ممثلة باملاك البورجوازيين وبهذه الملايين من قطع الارض الصغيرة التي يملكها الفلاحون. وقد رمى المؤتمر الوطني من تشريعه هذا ليس لتأمين فائدة مجموع الملاكين فحسب ، بل ايضاً لتأمين مصلحة المستثمرين لاملاكهم ، اذ حظر القانون الصادر في اول بروميير من العام الثاني للتقويم الجمهوري ، مطالبة المرابعين والمعمرين والمزارعين باي حصة او جزء من محصول الارض كتعويض لهم . وتمكن بعض الملاكين في محافظة

Gers ان يتحدّوا القانون علانية ، بينما حاول غيرهم الدوران حوله . هل حدث ذلك كثيراً؟ لا ندري . فالنص ماثل امامنا ، وشهر ترميدور لا يتعرض له بشيء .

انتقال الملكية وبيع املاك اللاجئين

وهكذا تم انتقال جانب كبير من ثروة الارستوقراطية « الاقطاعية » الى طبقة البورجوازية والفلاحين ، كما ان نزع ملكيــــة اللاجئين النازحين ادى من جهته الى انتقال جانب كبير من رؤوس الامـــوال والثروة الوطنية الى هذه الفئات . وهكذا نرى ان خُطوة الثاني من حزيران كانت اوفـــر نتيجة واكثر حزماً من الخطوة التي اتخذت في العاشر من آب . صحيح ان قرار ٩ شباط عــام ١٧٩٢ امر بمصادرة املاك الفارين النازحين الى الخارج ، كما ان القرار الذي صــدر في ٢٧ تموز قرر بيع املاكهم بالمزاد العلني . وقد نص قرار ٦ — ١٤ آب على قسمة هــذه الاملاك وعلى فرزها قطعاً صغيرة تتراوح مساحة الواحدة منها بين ٢ ـ ٤ دونمات(Arpents) على ان يُســدد ثمنها اقساطاً من العملة الفضية تدفع سنوياً . وبهذه الشروط يتقدم للشراء من يرغب من المواطنين. الا ان قرار ٢ ايلول قصرّ عن القرار السابق ، اذ انه يقتصر على تحبيذ تقسيم الاملاك الى قطع صغيرة واستبدل في معظم الحالات طريقة الدفع بالتقسيط بالدفع نقداً . فحزب الجيرونـــد رفض العمل بهذه النصوص ، وكذلك حزب « الجبل » الذي لم يأبه لها كثيراً ، نزولاً منهما معاً عند مقتضيات مالية اكثر منها لاسباب اجتماعية . ولم يكن من إشكال او غمـــوض في مطالب الفلاحين . ولم يسع حزب « الجبل » الا النزول عند مطالبهم وبذلك اصبحت قضيــة هذه الاملاك واملاك الدولة سلاحاً بين يديه ضد المعتدلين من اعضاء المجلس . ومنذ ٣ حزيران عام ١٧٩٣ ، عاد المؤتمر الوطني لتبني الاسس ذاتها التي قام عليها قرار ايلول السابق بعــد ان استبدلت طريقة الدفع نقداً عندما لا تنص شروط البيع على تسديد المتأخرات اقساطــاً ، وذلك بجعل الدفع على عشرة اقساط موزعة على ١٠ سنوات . وقد عاد القرار الذي صدر في ١٣ ايلول فحدد هذه المهلة بعشرين سنة بدون فائدة . وقد سجلت المراسيم الصادرة في ٢ بروميز و ٤ نيفوز من السنة الثانية للتقويم الثوري كل مبيعات الاملاك العامــــة متساويــة بينها وبين الشروط الخاصة ببيـــع املاك اللاجئين . ونصت على وجوب تقسيمها كالاخرى ، الى قطع صغيرة شريطة الا يُلحق ذلك اي ضرر بسلامة الارض ، كما اشترط ان تدفع المبالغ المتوجبة على ١٠ سنوات .

ولا يستنتج من ذلك ان الشعب اقدم بثورة لا تقاوم على شراء هذه الاملاك المصــادرة . فالامر على عكس ذلك تماماً . فمن اوليات الفطنة التي يعتمدها الفلاح في سلوكه شعـــوره بشيء من الانكماش والوقوف موقف المتحرز من هذه الاسعار التي يُستَجلبهـــا البيــع بالمزاد العلني ، ولا يجازف ، اقله في المدن ، بهذه الفوائد التي يؤمنها تضخم المال في الاجل البعيــد . فالارض تحتاج لرؤوس اموال كبيرة لاستثمارها ، ومثل هذه الاموال لا تتوفر دوماً . ومن جهة اخرى ان موقع هذه القطع المعروضة للبيـــع يثير بنفسه مشكلــة لدى الشاري ، سواءاً

أكان من العمال المياومين او من صغار المزارعين الذين يبقون مشدودين الى اعمالهم الرئيسية . فلم يكن من مصلحتهم قط ان يقتنوا ، في أي مكان كان ، ارضاً يزرعونها . وهذه العراقيل لم يكن لها من كبير اعتبار لدى بورجوازيي المدينة الذين كانوا المستفيد الاكبر من انتقال هذه الثروة الضخمة من فريق الى آخر .

الاقتصاد المشترك

هذا الانجاز المستمر الاثر ، يبرز على اشده اذا ما قارناه بالانجازات الاخرى السريعة الزوال التي تمت في المجالات الاخرى ، ولا سيما اذا ما قارناه ، بالدرجة الاولى ، بهذا النظام الاقتصادي المرتجل الذي عُمل به من ١٧٩٢ – ١٧٩٤ مع ما حصل من ارتفاع كبير في الاسعار .

فقد أصمّت الجمعية التشريعية آذانها على مطالب الشعب الذي كان يطالب بإلغاء الضرائب والرسوم . فاليمين واليسار على السواء رأوا ان الحل الوحيد يقوم باطلاق حرية التجارة باستثناء تصدير الحبوب للخارج الذي بقي تصديره ممنوعاً بالكلية . فسياسة التدخل لم يبد الاحتمال بانتهاجها الا في اليوم التالي للعاشر من آب . فالضغط الذي تعرضت له السلطات من اسفل ، حمل السلطات المحلية والبلديات ، والجمعية التشريعية والمجلس التنفيذي المؤقت ، على التسليم والرضوخ . فالمراسيم التي صدرت في ٩ و ١٦ ايلول خوّلت السلطة مصادرة الحبوب . فاذا ما قارنا هذا التدبير بالتصريح الذي صدر عن الحكومة في ٤ منه بفرض الرسوم والذي طبق على نطاق واسع في هذه السياسة التي رسمتها الجمعية للاستيراد ، وعينت وسائل جديدة لتنفيذها ، نجد انها جاءت ضمن الخطة الموضوعة للاقتصاد الحر ، في هذا القطاع الرحب الذي يتناول المواد الغذائية . وهذا التعارض لن يدوم طويلاً ، لا سيما وقد وجدت الحكومة في هذه الخطة وسيلة من وسائل تدبير الامور التي ارتجلتها مصلحة الاعاشة ، وضرورة لا بدّ من اخذها والنزول عندها على هذا الشكل ، في اليوم التالي للثورة . فقد كان في هذه الاجراءات ذرائع مرتجلة اكثر منها خطة حكومية في المجال الاقتصادي . فرولان وصحبه في الجيروند اعتبروها على هذا الشكل . فالقرار الذي صدر في الرابع من الشهر والذي كان يفتقر اصلاً الى التوقيع ، تم نسخه وإلغاؤه ، وهو قرار يتفق تمام الاتفاق مع رغبات المجلس الجديد اقله مع غالبيته الساحقة . فبعد جدال ونقاش طويلين اقترع المؤتمر الوطني بحماس في الثامن من كانون الاول ، الى جانب الحرية .

واستمر غلاء المعيشة في ارتفاع موصول يعكس هذه الارتكاسات الشعبية . فلم يعد ، بين اعضاء حزب « الجبل » من يثق قط بالضريبة على الحبوب ، ولا بالحد الاعلى للاسعار على العموم . ومع ذلك تم الاتفاق في نيسان ١٧٩٣ . فالمؤتمر الوطني اخذته الحيرة وراح يتردد ، مع ان حزب الجيروند خفف من مطالبه بعد ان تشدد فيها . وتبنى المؤتمر الوطني في النتيجة النص الذي وصفه ممثلو « الجبل » فاصبح اساساً للمرسوم الذي صدر في ٤ ايار . فالمناقشة قامت على موضوع الحبوب مع المطالبة بتثبيت الاسعار ، في المعدل الذي سجلته في الاشهر

الاربعة الاولى من السنة انه تدبير محال . فالفشل كان اسرع مما ظنوا . لماذا لا ينتظرون موسم الغلال ؟ يقتصرون ، على إقرار قوانين جديدة ، لا فعالية لها ولا تأثير ، كقانون ٢٧ تموز الذي جعل من الاحتكار واختزان المواد الغذائية جريمة نكراء ، وكقانون ٩ آب الذي اوجب انشاء حواصل لحفظ المواد الغذائية في مركز كل قضاء . واشتد الضغط العام بحيث اصبح لا مندوحة من الرجوع الى سياسة ٤ ايار والسير بها الى ابعد .

فمنذ النصف الثاني من شهر ايار ، أخذ المؤتمر الوطني باتجاه الحد الاقصى العام ، فاطلق يد السلطات المحلية في المحافظات المختلفة لتفرض رسوماً على مختلف المنتوجات. فاعمال المصادرة هي الوسيلة الوحيدة لتأمين الغذاء للجماهير ، والتجارة بالجملة لم يبق لها من أثر ، كما ان التجارة بالقطاعي تخضع لاجراءات وتدابير دقيقة . وطلب الى الجمعيات الشعبية مؤازرة الدولة في تطبيق القانون ووضعه موضع التنفيذ . وعلى أثر ذلك ، صدرت المراسيم الجديدة في ٢٩ ايلول و ١١ برومير و ٦ فنتوز فأقرت نهائياً الحد الاقصى العام للمحاصيل والخدمات بما فيها الاجور . واتخذوا اساساً له الحد الاقصى لعام ١٧٩٠ ،مع إضافة الثلث اليه ، هذا مع العلم أن أجرة العامل اليومي الذي يأكل على حسابه تزاد ، استثناء ، الى النصف . ويضاف الى سعر الصنف نفقات النقل وربح التجار بالجملة وبالفرادى ، مع إضافة رسم مقداره ٥ — ١٠٪ فالجداول الشاملة الموضوعة في شهر فنتوز تضم بالتفصيل الكلي قائمة طويلة باسماء الاصناف التي حددت اسعارها القصوى . وراحت لجنة السلامة العامة تمتدح بلسان جريدة باربر « قائمة المواد الغذائية » وتتبجح بأنها قضت ، الى الابد ، على « الاسفنجات الماصة » الممثلة بهذا العدد الضخم من الوسطاء والعملاء .

وبواسطة القرارات الخاصة بالتسعيرة العامة وما شاكل من القرارات التي أشرنا اليها . استطاعت السلطات العامة أن تراقب جانباً كبيراً من التجارة الداخلية. واذ كانت هذه السلطات تسيطر بالفعل على التجارة الخارجية ، فقد كان في طاقتها أن تتحكم الى حد بعيد ، بحركة النقل . كذلك تناول تأثيرها إنتاج المواد الضرورية لغذاء الطبقات الشعبية ، وراحت تنشّطها عن طريق تحديد جوائز مكافأة . فبعد أن اصدرت قرارها الصادر في ١٣ آب ١٧٩٣ الذي أمر بتجنيد عام في الاقتصاد الوطني ، اخذت بتنظيم صناعة المواد الحربية . وهكذا بفضل الضغوط الاجتماعية الشديدة الوطأة والضرورات التي اوجبها الكفاح والصراع في الداخل والخارج ، وضعت السلطات الجمهورية يدها على مرافق وقطاعات رئيسية في الاقتصاد الوطني .

جمهورية اجتماعية

وقد فرضت الظروف ذاتها ، سياسة مالية رمت من خلالها الى مضاعفة الرسوم والضرائب على الاغنياء . فكان عليهم ان يتحملوا نفقات الجهود الحربي عن طريق فرض ضرائب تصاعدية : ضرائب للثورة عهد بجبايتها لموظفين خاصين ، وقرض اجباري قيمته مليار فرنك ، أقره القانون الصادر في ٣ ايلول ١٧٩٣ اصاب كل من لم

يكتتب بالقرض الاختياري . وقد اعطت هذه التدابير نتائجهـا المرجوة . وتأميناً للمساواة الضرائبية لدى الجميع ، وإصابة للاجئين « في ثروتهم العقارية » وتحطيماً للشركات الرأسمالية التي تضارب بالعملة الجمهورية ، ألغيت السندات لحـامله ، كما ألغيت الشركات المساهمة . وفي آب ١٧٩٣ ، رضي كمبون « خوض هذه المعركة المميتة بين ارباب المال والمتجرين به توطيـداً لأركان الجمهورية » .

محاولة وضع تشريع اجتماعي طابع العام الثاني الزائل والرمزي

نحن على ابواب تشريع اجتماعي وشيك الوقوع . انبثق هـذا التشريع من المبادىء والخطط التي استلهمهـا رجال الجمعية التشريعية . من بينهـا المراسيم التي صدرت في ١٨ اذار و ٢٨ حزيران ١٧٩٣ . فقد نص الاول منها على تخصيص مساعدات مالية للفقراء الاصحـاء ، كما نص على مد يد المساعدة للفقراء المقعدين في منازلهم العاجزين عن العمل . ونص الثاني منها على تنظيم الاسعاف للاطفال والشيوخ . من هـذه المراسيم التي صدرت ، المرسوم المؤرخ ٢٢ فلوريال من العام الثاني للتقويم الثوري الذي خص بعض عمال الارياف بمعاشات تقاعدية وبمساعدات تعطى للارامل وللامهات الولود ، واسعافات طبية اخرى للمرضى . وفي هـذا السبيل ، انشىء الى جانب دفتر الاستاذ للديون العمومية الذي تم انشاؤه في ٢٤ آب ١٧٩٣ حيث تسجل الاستحقاقات المترتبة على الاغنياء ، دفتر آخر تقيد فيه المبرات الوطنية المقدمة بروح اجتماعية عصرية .

وستفضي نتائج هذه السياسة الوقائية ضد البؤس ، بالثورة التي قام بها المؤتمر الوطني ، الى ابعد من ذلك بكثير . كانت حصة الفقراء للآن ضئرى من هذه الاملاك الوطنية في مصدريهـا الاول والثاني . والاملاك المشاعية ، التي تضاعفت بمصادرة الاراضي المفروض فيها ان تكون مشاعية ، وذلك عملاً بنص المراسيم والقرارات الصادرة في ٢٨ آب ١٧٩٢ ، و ١٠ حزيران ١٧٩٣ ، قد يمكن اعتبارها مصدراً ثالثاً من مصادر هذه الاملاك . والقانون الزراعي الذي صدر في ١٠ حزيران ، يتيح قسمة الاراضي بصورة مجانية ، وبحسب الافراد ، اذا ما تقدم بذلـك بعريضة موقعة من ثلث السكان .

وستضع القرارات الصادرة في ٨ و ١٣ فنتوز من العام الثاني للتقويم الجمهوري ، عمـا قريب ، تحت تصرف المعوزين ، مصدراً رابعاً لهذه الممتلكات كانت تخص هذا الفريق من الاشخاص الذين تحوم حولهم الشبهات والظنون ، ثم اتضح في نهاية الامر انهم من اعداء الثورة . « من يبدو عليه انه عدو الوطن لا يمكن أن يكون من اصحاب الاملاك في هذا الوطن » كما علق على ذلك سان — جوست مقرر اللجنة الخاصة .

« لتفهم اوروبا باجمعها وتسمع الكم لم تعودوا تتحملون رؤية بائس او مضطهد على الارض الفرنسية . ليعط هذا المثل فوائده على ارضنا هذه ، ولينتشر في كل مكان محبة الفضائل والسعادة ، فالسعادة فكرة أطلت حديثاً على اوروبا »

جديدة ، وهنة وسريعة العطب . . هذه التدابير ، كهذا الألغاء للرق «في نواحي المستعمرات» هذا الالغاء الذي نادى بـــه المؤتمر الوطني ، من شهر سبق ، أي في ١٦ فنتوز من العام الثاني للتقويم الجمهوري .

لم يبق من هذه الاجراءات والتدابير اجراء واحد بعد ٩ ترميدور . وقـــد جاء رد الفعل أحياناً قبل ذلك بكثير ، لا سيا في ما يتعلق بالتنظيات الزراعية . وقد قام في شهر فروكتيدور من السنة الثانية للتقويم الثوري حملة شديدة في سبيل حرية التجارة من شأنها ان تعيد البحبوحة الى البلاد وتجعل اسعار الحاجيات رخيصة . ومع انه مدد العمل بقانون الحد الأقصى ، فقـــد أصبح هذا القانون مع ذلك كلمة جوفاء الى ان صدر قانون ٤ نيفوز (*Nivose*) من السنة الثالثة للتقويم الجمهوري ، فألغاه تماماً . فالنظام الضرائبي فقد طابعه الاجتماعي . فالمحاولة التي قامت بها حكومة الادارة (ديركتوار) مرتين لفرض قرض اجباري ، لم تخلف الا الفضيحة . وبسبب فقدان الاعتمادات اللازمة لم يجر تطبيق القوانين والقرارات الخاصة بالاسعاف الوطني ، وان طبقت ، فبشكل مجزوء مختصر ، وذلك بالرغم من الجهود التي بذلت في تنفيذ المرسوم الصادر في ٢٢ فلوريال . ويبدو ان المؤتمر الوطني اخذ يتنكر ، في نهاية الأمر ، لهـــذا النظام بكامله ، في الأشهر الاخيرة من العام الثالث للتقويم الجمهوري وفي مطلع العام الرابع . وستتخذ حكومة الديركتوار ، بعد ذلك بقليل ، قرارها الفصل ، بشأن المشاعات ، فقد اوقف مفعول المرسوم الصادر في ٢١ بريريال من السنة الرابعة ، بصورة مؤقتة ، والتقسيم الذي اجازه «القانون الفاسد» لعام ١٧٩٣ ، كما ان القانون الصادر في ٢ بريريال من العام الرابع الذي يحظر تماماً تطبيق القرارات التي صدرت في شهر فنتوز ، لم يتعدّ قط الاجراءات التمهيدية .

وهكذا بدت حقيقة رجال المؤتمر الوطني في آخر عهده على ما كانوا عليه ابداً منذ الاساس : جماعة من الفرديين لا يختلفون بشيء عن رجال الجمعية التشريعية وعلى شاكلة هؤلاء الناس الذين كوّنهم القرن الثامن عشر ، مثلاً بمثل . فبعد ان رأوا انفسهـــم بمنأى عن الضغوط السياسية والاجتماعية التي طالما تعرضوا لها في العام الثاني من التقويم الجمهوري ، اذ بهم يرجعون الى المواقف الاقتصادية ذاتها التي وقفوا منها ، عام ١٧٩٠ يحيون في حافظتهم ذكرى مـــا تعرضوا له من ضواغط ، ويمون تمام الوعي هذا الخطر الشعبي ويوجسون شراً من هذا الهول المريع الذي روّع البلاد وقضّ مضاجعهم . وعلى هذا النحو فكر السواد الأعظم من أعيان البلاد ووجهائها .

هذا العهد التاريخي المضطرب لم يطل أكثر من سنتين . فقد انقذ دولة البورجوازية التي مـــا ان رأت الخطر يرتفع عنها حتى اصبحت اقوى وأشد ، بعد ان امّنت جانبه ودفعته بعيداً عنها .

لا شك في انه بقي هنالك ، في المدى القريب ، ديمقراطيون وعناصر شعبية مخلصة لهذا العهد التاريخي المضطرب . انما اثر هذا العهد لن يظهر الا في المدى البعيد ، اذ انه بقي حقاً ، ماثلاً في

ذاكرة الاجيال . وأخذ الناس في أعقاب عام ١٨٣٠ يرونه شيئاً واحداً هو والثورة . وتولت المخيلات الخصبة نحت الأساطير ، واختلاق الحكايات والروايات حول شخصيات هـذه الحقيقة التاريخية وأخذت تحللهم وتشرحهم بعاطفة مشبوبة . فالبروغرام عاد فبُعث حياً بعد ان تغيرت منه الملامح والقسمات . وهذه المسجلات القياسية التي سجلها العهد في الحقل الاجتماعـي ارتدت طابعاً رمزياً او تنبؤياً واتخذ صفة الرؤيا . فالسنة الثانية التي مرت كالطيف الزائـل تركت على المستقبل مسحة من السناء تألق لها القرن التاسع عشر بكامله .

الفصل الرابع

عهد التدعيم والتوطيد، محاولة الديركتوار الفاشلة والثورة النابوليونية (١٧٩٦ - ١٨١٥)

اولاً ـــ القوى الموطّدة

الجميع يتوقون بلهف جوارحهم الى الاستقرار السياسي

أخذ أنصار ٩ ترميدور يتفننون في ممالأة الشعور العام، فراحوا يقدمون له بشيء من التحدي القرار الذي اتخذوه في الخامس من شهر فريمير من السنة الثالثة للتقويم الثوري، فاقروا اعادة انتخاب ثلثي الأعضاء الذين يتألف منهم المجلس الوطني، وفاقاً « للقرار الذي كانوا اتخذوه حول أفضل طريقة لوضع حد للثورة ». كذلك، أخذت حكومة الادارة (الديركتوار) تعرب من جهتها، عن رأيها في أحسن الوسائل التي تساعد على اعادة الاستقرار الى البلاد، محاولة جهدها لتتحييز هذه الوسائل واخراجها بالتي هي أحسن الى حيز الوجود. فالحزب الملكي بقي على عنـــاده لا يهادن ولا يصانع وهو شاهر سلاحه. فإن لم يعمد للقوة فقد أخذ يحيك الدسائس ويحبـــك المؤامرات. ومع ان مقاطعة الفانديه الثائرة قد غُلبت على امرها وكبح جماحها، فقد سكنت على مضض وعزمها لم ينثن، فكان على الحكومة ان ترد على التهديد وان تتحداه. فقـــد خرّ ستوفلو صريعاً برصاص ثلة من الحرس الوطني اعدمته رمياً بالرصاص في شباط ١٧٩٦، كما نال شاريت العقاب نفسه في آذار. فاذا ما هدأت الاحوال بعض الشيء في تلك السنة والتي بعدها فقـــد عاد الاضطراب، عام ١٧٩٩، الى مقاطعات الغرب والجنوب، والى بلجكا. وراحت اللجان العسكرية تحكم بالاعدام رمياً بالرصاص على المهاجرين حتى شهر برومير. وقـــد أطلت الفتنة بقرنها بين صفوف الجيش في الوقت الذي وقعت فيه الخيانة الانكليزية الملكية مع بيشغرو ووصلت الى قلب حكومة الديركتوار بشخص برتلمي. ولعل ما هو أنكى واحزّ في النفس من

هذا كله ، هذه الحالة الفكرية الرجعية التي لقيت رواجاً في البلاد والتي تفسر لنا، بعض الشيء، حقيقة الانتخابات التي تمت عام ١٧٩٧ والتي اسدلت ستاراً على هذه المحاولات ، قوامها فريق من المتواطئين ومن المغرورين .

وقد زاد الحالة الفكرية قلقـاً واضطراباً ، الخوف الاجتماعي الذي استحوذ على الطبقة البورجوازية من احتمال عودة اليعقوبيين الى الميدان، بالرغم من ان الحزبية اليعقوبية لم تُعد سوى فزاعة لا غير . فالفتنة الـتي اثارها كل من بابوف بنظريته الجديدة حول المساواة ، وأزمة التضخم الحادة قُضي عليها للحال ، اذ جرى توقيف بابوف وصحبه ، في ايار ١٧٩٦ ، دون ان يثير توقيفه اية مشكلة . لم يثر قمع هذه الفتنة ولا الاشتباك الدامي الذي وقع في ميدان غرينيل ، في شهر ايلول ، اي قلق للحكومة . فالمتمردون في غرينيل ، وأنصار بابوف تمت تصفيتهم جميعاً وحكم عليهم بالاعدام ، عـام ١٧٩٦ ، و ١٧٩٧ ، دون ان تتحرك باريس او ان تهتز أو ان ترتجف لها عين ، بعد ان كبح جماحها ، في شهر بريريال الماضي. لا بأس من هذا كله. فالتهديدات حتى الفاشلة منها تبعث الرعب في النفوس . فالشبح اليعقوبي ترتعد له الفرائص . فكل سياسة تفتح امام هـذا الحزب المجال لاستعادة نشاطه او شيئاً من حيويتـه ، كانت تثير اشمئزاز معظم وجهـاء الجمهورية واعيانها . ومع ذلك ، فالخطر الداهم الذي يتهدد البلاد من نجهة اليمين ، كان يحتم على كل حكومة جمهورية ، شاءت أم أبت ، النزوع الى مثل هـذه السياسة اذا ما شاءت ان تحكم بأكثرية برلمانية .

فالانقلاب الذي قامت به حكومة الديركتوار في ١٨ فروكتيدور بالغائهـا الانتخابات الملكية الطابع التي وقعت في العام الخامس من التقويم الثوري ، بعث النوادي حية من جديد . وجاءت الانتخابات التي جرت في العام السادس يسارية محضة ، الامر الذي حدا بالحكومة الى القيام بانقلاب جديد ، فألغتها في ٢٢ فلوريال . كذلك جاءت يسارية ايضاً الانتخابات الـتي تمت في العام السابع . غير ان نشوب الحرب من جديد والانتصارات الاولى التي حققها التحالف الثاني ، والاضطرابات التي اثارها ، في الداخل ، الممالئون لهذا التحالف ، كل هذا جعل النظام الجديد يتصلب في موقفه وفي مقاومته . والقانون الذي صدر بتاريخ ١٠ مسيدور من العـام السابـع ، دعا لخدمة العلم، كل الذين هم في سن الخدمة العسكرية من ابناء الفئات الخمس الذين لم يجر تجنيدهم بعد . وجرى تغطية نفقات التجنيد بقرض داخلي اجباري تصاعدي وقع عبئه على المكلفين الاغنياء . وبعد ذلك بعشرة ايام ، صدر قانون الرهائن ، وهو قانون فرض توقيف ذوي القربى من اللاجئين والنبلاء ، في فرنسا ، ووجهاء الملكيين في المقاطعات التي تعيث فيهـا الاضطرابات ، وارسالهم الى مخيمات الاعتقـال ، وهدد بنفي وإبعاد هؤلاء المشبوهين من جنس جديد واتخاذ عقوبات ماليـة بحقهم تنزل بهم الخراب والدمار ، اذا ما ألحقوا بالجمهوريين ادنى أذى . وعادت الى الظهور كذلك الجرائد والنوادي « اليعقوبية » . كل هـذا ادخل الخوف في روع البورجوازية منذ شهر فروكتيدور .

الكل يرغب في الاستقرار الاقتصادي

كذلك قل عن الازمة التي سببها ، عام ١٧٩٧ ، الرجوع الى العملة المعدنية ومحاربة التضخم المالي في البلاد ، في اثر الفشل الذريع الذي اصاب ، في السنة السابقة ، السندات العقارية التي شابهت الاسيلياه . اشتدت هـذه الازمة ودامت طويلاً ، خلال عامي ٦ و ٧ وأنزلت اسوأ الاثر في المشروعات الاستثمارية الكبرى . وزادت الحرب الطنبور نغمـة والطين بلة بما ألحقته بالبلاد من ضيق ومصاعب . فالخمسة في المائة التي جعلت الـ ٢٤ فرنكاً ٢٥ ، في السنة الاولى من تحديد هـذا المعدل ، هبطت في السنة التاليـة الى ٧ فرنكات . كل هذه المشاكل تحمل في نظر اعيان القوم ، اذ ذاك ، علامات مصدرها أو منشئها ، اذ انها تعبر جميعها عن الخطر الذي يمثـله اليسار . وهذا الخطر ليس بأخف قط من خطر الملكيين وقـد تضاعف بانضمام خطر الغزو الخارجي اليه . فالوضع ، مع ذلك هو اكثر تعقيـداً وارتباكاً وأصعب حلاً ، من بعض الوجوه ، ولو لم يبلغ من التوتر ما بلغه عـام ١٧٩٢ و ١٧٩٣ . فالمهم ، في هذا كله ، انقاذ الثورة ، مما يحيق بها من مخاطر هي هذه العناصر الشعبية التي لم يكن لها فضل انقاذ الثورة من قبل فحسب ، بل ايضاً انقاذها من هذه العناصر بالذات . كل هذا يقتضي له دكتاتورية مركزية او ما شابه ذلك. الا ان الدكتاتورية الشعبية لا بد من ان تخلي المكان في آخر المطاف ، لدكتاتورية عسكرية .

الجيش الموطد

لم يكن من الممكن قط اجبار الجمهورية البورجوازية على انتهاج خطة متزنة ، بعد فنديمير ، الا بواسطة الجيش ، والجيش وحـده . فالرجال الذين قاموا بحركة ترميدور والمسؤولون في حكومة الديركتوار ، شكلوا وحدهم القـوة الموطدة لاركان النظام . فقـد عرفوا ، على انساب من الفشل والنجاح ، ان يتفادوا العواصف الهوجاء ، وان يتجنبوا الزعازع . ولكن فرنسا كانت ترزح تحت ما تعاقب عليها من المحن والاحن . وكانت تطمع ، منذ عهد بعيد ، ان يعود الاستقرار على انواعه الى جميـع القطاعات : الى البلاد ، الى اوروبا ، الى الاعمال ، الى دنيا المال ، كل هذا في اطار مجتمع لاطبقي بالطبـع ، وفي ظـل ادارة بورجوازية . فالمشكلة قامت في ايجاد طريقة للفصل بين الثورة وبين « الروح البرلمانية » وعند الاقتضاء « ثورة التحرر السياسي » . ومثل هـذا الوضع لم يعرف الديركتوار ان يحقق منه الا صورة ممسوخة ، وهو وضع أخفى دوماً بين طياته ، كما دل الاختبار على ذلك حديثاً ، احتمال بعث الروح اليعقوبية من جديد .

وها هو الموطـّد يطل فجأة : فاذا ببونابرت يصل فجأة الى فريجوس ، في ١٧ فنديمير من السنة الثامنة للتقويم الثوري ، ويدخل باريس في ٢٤ منه . كل شيء حاضر للانقلاب في أواخر النصف الاول من شهر برومير .

ففي مساء ١٩ منه ، يحل القناصل الثلاثة : بونابرت وسييس وروجيه دوكو ، محـل الديركتوار ، والدستور الجديد يُفرَض على الامة للاستفتاء ، في الرابـع والعشرين من شهر فريمير .

يرتكز الدستور على المبادىء الصحيحة التي هي اساس كل حكومة تمثيلية وعلى مبدأ الملكية المقدس ، والمساواة والحرية .

والسلطات التي نص الدستور الجديد على اقامتها تتصف بالقوة والاستقرار ، وهاتان الصفتان لا بد من توفرهما لضمان حقوق المواطنين ولتأمين مصالح الدولة .

ايها المواطنون ! الثورة ترتكز دوماً على المبادىء التي انطلقت منها ، وقد انتهت الآن .

القنصل الاول وعمله التوطيدي

كرّس صباح ١١ تشرين الثاني ١٧٩٩ ؛ أطول فترة استمرار عرفتها فرنسا عبر تاريخها الحديث . فمن قنصل موقت الى قنصل أول منذ ٢٥ كانون الاول ١٧٩٩ ولمدة عشر سنوات ، الى قنصل لمدى الحياة ، منذ ٢ آب ١٨٠٢ مع صلاحية تعيين خلف له ، كما نص على ذلك القرار الصادر عن مجلس الشيوخ (*Senatus Consulte*) الذي صدر في ٢ آب ١٨٠٢ (ترميدور من السنة العاشرة) الى المناداة به امبراطوراً وراثياً ، وفقاً للاستفتاء الشعبي الذي جرى في ٢٨ فاوريال من السنة الثانية عشرة (١٨ ايار ١٨٠٤) . فقد اضطلع نابليون بمسؤوليات السلطة العليا لمدة ١٤ سنة ونصف . فمحاولات الاغتيال التي تعرض لها ، تارة من قبل الملكيين ، وطوراً من قبل « اليعقوبيين » كما زعموا ورددوا ، ساعدت كثيراً على تحديد مراحل هذا التطور ، كما ساعدت على ذلك الاحداث التي وقعت في الخارج ، كاعادة السلام يرفرف من الجديد على البلاد ، عام ١٨٠٢ بفضل معاهدة أميان . لا مراء قط ان سياسة من هذا النوع كانت تستجيب، بمعزل عن اطماع نابوليون الواسعة ، للاماني العراض التي جاشت في قلب الشعب الفرنسي الذي تاق ، من جميع جوارحه ، للاستقرار والديمومة في الحكم .

وهكذا قضي تماماً على حركات « الاحزاب » التي طالما اصابت البورجوازية في الصميم من مصالحها الرئيسية . وهكذا زال من الوجود ، كل خطر « يعقوبي » . فألغي قانون الرهائن ، في ٢٣ برومير ، كما فرض ، في ٢٧ منه ، القرض الاجباري التصاعدي . وفي بضعة ايام لا غير ارتفع سعر القطع ٧٥ ٪ وارتفعت الا الابد ، قوانين المصادرة والسلب ، وقامت في البلاد جمهورية تتمتع « بحرية صحيحة » . وسمح قانون ٣ نيفوز لكل من طالهم قانون الابعاد في شهر فروكتيدور بالرجوع الى البلاد . وليس بغريب قط ان يعود بارير وفاديه ايضاً في عداد من عادوا اليها . وقد عرف العهد ان يضع الندى موضع السيف ايضاً وان يصانع ويقطع الالسنة ، وسرعان ما وضع الحزب الديموقراطي في وضع لا يستطيع معه ان يأتي بأي أذىً . فبعد محاولة الاغتيال التي وقعت في شارع سانت نيكيز في الثالث من شهر نيفوز من السنة التاسعة ، صدر قرار من مجلس الشيوخ يسلق بألسنة حداد « سفاكي الدماء » و « مقلقي الامن في كل حكومة ،كما كانت المحاولة «النكبة النكباء التي نزلت بالبلاد في جميع المراحل التي مرت بها الثورة » . انها لفرصة ذهبية بيد السلطة لوضع الديموقراطية تحت المراقبة المستمرة ، لتنفي من ترغب في نفيهم ، ولاعدام من يروق لها اعدامهم . ومن جهتهم لم يَعُد اصحاب النظريات من

الجمهوريين في المجالس الجديدة ليسببوا اي ازعاج بطالبهم . ففي اواخر العـــام العاشر من التقويم الجمهوري ، ترى « اليسار » يسير الهوينا ء .

اما الملكيون الذين لم يتزحزحوا عن مواقفهم ، فحركة القمع التي تعرضوا لها لم تتم بالسرعة والشدة المطلوبة ، فلم يكن لهـــا بالتالي التأثير الرادع . فالقانون الذي صدر في ٢٣ نيفوز من العام الثامن، أوقف العمل بالضمانات الدستورية في هذه المحافظات الواقعة الى الغرب والتي سادت فيها الاضطرابات والقلاقل . فقد حق للقائد العام في الجيش ان يتخذ قراراً يقضي بعقوبة الموت على الثائرين ، كما اعترف له بصلاحية فرض ضرائب استثنائية ، على المؤسسات العامة ، أسوة بما يجري في البلدان العدوة ، كما اعطيت المحكمة التي تنظر بالجنايات ، بصورة استثنائيـة الحق باصدار أحكام لا تقبل أي طريق من طرق المراجعة ، وتستمر اللجان العسكرية التي كانت تعمل في عهد حكومة الادارة (الديركتوار) ، في تنفيذ حكم الاعدام بزعماء الثوار ورؤسائهم في المقاطعات الغربية . أما الثوار من الجند ، فما زالوا يستهدفون للمطاردة ويُصرعون بالمئات الى عام ١٨٠١ . فما من حاجة بعد لليعقوبيين ، لتطمئن جماهير الملاكين لحسن مصير مـــا في حيازتهم من الاملاك العامة. كذلك عادت الحياة ، في شباط ١٨٠٤، الى المحاكم الجنائية الخاصة، بعد المؤامرة التي دبّرها كادودال : فاعدام دوق دانغان *Enghien* في ٢١ آذار واعدام كادودال ومعاونوه في ٢٤ حزيران ، كان من شأنه ان سمّر الخوف في قلب « حزب اليمين» . استعملت ضد الملكيـــة وضد اليعقوبية ، على السواء كل الوسائل الناجعة ، حتى الحليم منها . ان اعلان اقفال قوائم المهاجرين صدر اثر الانقـلاب الذي وقع في آذار ١٨٠٠ ، والاستفتاء الذي جرى في ٦ فلوريال من العام العاشر مناقضاً نص الدستور الموضوع عـــام ٨ ، منح عفواً عاماً لم يستثنِ الا الزعمـــاء . وقد اجاز للاجئين العودة الى اوطانهـــم ، بعد ان الزموا بقسم الولاء للجمهورية .

وهكذا سعى النظام الجديد ليؤلّب كل فرنسا وقادتها ووجهائها حول النظام الذي انبثق من الثورة .

ثانياً ـــ القوى الموطّدة لسياسة البلاد العامة

فالجمهورية تبقى قائمة بصورة رسمية . ولا يزال هذا المسمى ينزل الرعب في اوروبا ويحول دون استتباب السلام في ربوعها . فالمادة الاولى من الدستور الذي صدر في العام الثامن تعلن عالياً : « الجمهورية الفرنسية واحدة هي لا انفصام لهـــا » . فبونابرت وزملاؤه هم « قناصل الجمهوريـــة » والمادة الاولى من الدستور المعلن في ٢٨ فلوريال عام ١٢ ، تدمج الامبراطورية بالجمهورية :

المادة الاولى ـ يتولى مقاليد حكومة الجمهورية امبراطور ... المادة ٥٣ ـ وقد صيغ القَسَم

الذي على الامبراطور ان يؤديه ، على هذا الشكل : « أقسم بأن احترم وأجعل الكل يحترمون المساواة في الحقوق والحرية السياسية والمدنية » .

نابوليون هـــو امبراطور الفرنسيين ، اقله في الايام الاولى « بمشيئة الله وارادة دستور الجمهورية » . فالثورة التي اعلنها نابوليون ترتكز على سيادة الشعب كما جرى التعبير عنها في استفتاء عام للشعب . هو « الشعب الفرنسي » الذي عيّن نابوليون بونابرت قنصلاً اولاً مدى الحياة » وهو الذي « يرغب » وفقاً لاحكام الدستور الصادر في عـــام ١٤ « في جعل المنصب الامبراطوري وراثياً في ذرية نابوليون » .

الاقتراع العـــام يقتصر على اقلية من دافعي الضرائب ، إستفتاءات

فالاقتراع العام الذي الغاه الدستور الصادر في العام الثالث ، أعيد العمل به اساساً من أسس النظام الجديد بعد أن جرى دمجه بنظام ضرائبي شديد الفعالية ، جرّد من كل قدرة على اتخاذ القرارات الا في ما له علاقة بالاستفتاء .

فاللجان التي عهد اليها إعداد قوائم الوجهاء وفقاً لنص الدستور الصادر في العـــام الثامن ، تنبثق من الاقتراع العام. المواطنون من سكان الناحية ينتخبون المرشحين لادارة الشؤون العامة من بين لوائح الوجهاء في الناحية ، بنسبة عُشر عدد الناخبين في المقاطعة . ففي كل محافظـــة يؤلف مجموع أعيان الاقضية ، بالطريقة ذاتها ، قائمة خاصة بالمحافظة يُنتخب من بين الأسماء التي تضمها قائمة الموظفين ورجال الادارة في المحافظة ، وأعيان المحافظات ينتخبون هم أنفسهم عُشر الأعضاء الذين يؤلفون بهذه الصورة قائمة الأعيان الوطنيين الذين يتم من بينهـــم انتخاب كبار الموظفين وأعضاء المجالس الوطنية . واذ رأى الدستور ان هذه القوائم لا يتم وضعها لاول مرة الا في العام العاشر ، فكل موظفي العهد وكل أعضاء المجالس جرى تعيينهم ، خلال هذه الفترة ، دون العمل بالتمثيل من أسفل .

لم يعمل بهذا النظام ، والحق يقـال الا لأمد قصير ، أي من شهر فنديمير الى شهر ترميدور من العام العاشر . فقد وضع الدستور الذي صدر ، في هذه السنة بالذات ، نظاماً آخر جاء فيه نظام الاقتراع العام اضعف قاعدة بمراحل . فالمرشحون للانتخابات لا يمكن اخـذهم إلا من أقلية ضئيلة من رجال المال . وعلى عكس النظام الانتخابي الواسع الموضوع عـــام ١٧٩١ ، والنظام الآخر الموضوع في العام الجمهوري الثالث الذي قـــام على قاعدة واسعة من دافعي الضرائب والذي جعل بضعة ملايين من المواطنين ، مهما تباينت اوضاعهم المـالية ، واتجاهاتهم الفكرية مؤهلين للمشاركة في انتخـاب مجالس المحافظات ، راح الدستور الذي صدر في السنة العاشرة يحصر المؤهلين لعضوية هذه المجالس ، في حيّز اجتماعي متجانس، ضيق جداً . فمجالس النواحي ، حيث الكل يقترع ، لا تستطيع انتخاب ممثلين لها في مجلس المحافظـات الا من بين الـ ٦٠٠ الواردة اسماؤهم من قبل المحافظة . وبما ان مجلس المحافظـات يتألف من ٢٠٠ — ٣٠٠

عضو، ظهرت لنا الحدود الضيقة التي يستطيع ناخبو الدرجة الاولى العمل ضمنها . فاذا ما تقيدنا بالاراضي الفرنسية ، كما كانت سنة ١٧٩٠ ، كان حق الانتخاب وقفاً على طبقة من الاغنياء لا يتجاوز عددهم ٥٠،٠٠٠ من الفرنسيين . وبالاضافة الى ذلك ، فالمنتخب يصبح عضواً في المجلس مدى الحياة . وكان باستطاعة الحكومة ان تضيف ٢٠ عضواً ، من اختيارها هي ، بعضهم يُختارون من بين الثلاثين ممن يدفعون من الضرائب في المحافظة اكثر من غيرهم . والملحق الدستوري الذي صدر عام ١٨١٥ حافظ على هذا النظام . وهذا المجلس لا يتمتع بغير حق الترشيح ، أي ان مهمته تعيين المرشحين فهو يسمي المرشحين للوظائف العامة لا سيما لوظيفة عضو مجلس الشيوخ وبالاشتراك مع الهيئات المعنية في النواحي ، هذه الهيئات التي تألفت بقطع النظر عن نسبة الضريبة التي يدفعها الاعضاء ، ينتخبون اعضاء المجلس التشريعي . غير ان الانتخاب لا يتم على ايديهم . فهو يأتي من فوق ، من القنصل الاول ، في الاصل ، أو من الامبراطور الذي يمثل وحده الشعب في هذا النظام .

وتحت مظهر الاستفتاء الشعبي الذي يتخذ شكل الاقتراع العام ، أُولي القنصل الاول بموجب احكام الدستور ، سلطة واسعة جداً . فهو يعين ويعزل كما يشاء. فهو الذي يعين اصحاب المقامات والرتب الكبيرة في الامبراطورية وكبار القضاة من غير اعضاء مجلس التمييز دون أن يكون له الحق مع ذلك بعزلهم . فهو يقترح بحق اقتراع القوانين وينشرها بعد إقرارها ، كما انه يعين قسماً من اعضاء المجالس العليا .

النظام الدستوري والهيئات الاستشارية

في رأس هذا النظام نرى أول ما نرى ، اعضاء مجلس شورى الدولة . فالمادة ٥٢ من دستور العام الثامن هي التي نصت على انشاء هذه الهيئة التي تعمل تحت ادارة القناصل . يعدّ مجلس شورى الدولة مشاريع القوانين والانظمة الادارية التي تسير عليها الادارة العامة في البلاد، كما انه ينظر في القضايا الادارية ويقطع بها . كذلك يعين القناصل ، وبالفعل القنصل سييس نفسه ، الفريق الاول في اعضاء مجلس الشيوخ ، هذا المجلس الذي يرعى تطبيق الدستور ويحافظ عليه . ويعمد مجلس الشيوخ الى استكمال عدد اعضائه المحدد ، وذلك عن طريق انتخاب اعضاء المجلس انفسهم من تبقى من الاعضاء لتكتمل هيأته بكاملها ، بعد ان انحصر عددهم بـ ٩٠ شيخاً يُنتخبون مدى الحياة . إلا ان الدستور الذي صدر في العام العاشر فتح الطريق امام تدخل السلطة التنفيذية في تشكيل المجلس . فالشيوخ الذين يجب تعيينهم من الآن فصاعداً يجري انتخابهم من قبل المجلس ومن بين قائمة مرشحين يعدها القنصل الاول بالاعتماد على قوائم تقدمها المحافظات . وبالاضافة الى ذلك ، في مقدور القنصل الاول ان يعين ٥٤ عضواً جديداً من اعضاء مجلس الشيوخ دون أن يختارهم من القوائم المقدمة له من قبل . وهذا الامر بالذات يولي القنصل الاول قسماً من السلطة الدستورية، بعد ان اصبح من حق مجلس الشيوخ ،عن طريق قرار اتخذه (*Sénatus - consulte*) ان يفسر الدستور وان يكمله . وهكذا اصبحت هذه الهيئة العليا الى حد بعيد ، تحت قبضة

القنصل الاول . وهذا الامر يبرز اكثر وضوحاً في دستور عام ١٢ الذي خول الامبراطور نفسه تعيين اعضاء مجلس الشيوخ وجعل عددهم غير محدود .

وهذا المجلس نفسه يعين من بين المرشحين الذين يقدم الامبراطور اسماءهم ، اعضاء مجلس الـ *Tribunat* واعضاء المجلس التشريعي . تقوم صلاحية مجلس التريبونا هذا بمناقشة مشاريع القوانين التي يعدها مجلس شورى الدولة ويرفعها اليه ، ويتخذ بشأنها قرار تمنّي بالقبـول او بالرفض . اما المجلس التشريعي ، فدوره دور هيئة المحلفين الذين يلزمون الصمت طوال المحاكمة . فيقترع مع المشروع او ضده بعد الاستماع الى مرافعات وخطب الدفاع التي يلقيها مجلس شورى القوانين ومجلس الـ *Tribunat* دون ان يشترك او ان يتدخل بصورة من الصـور ، بالمناقشات الدائرة . ولما كان عمل الـ *Tribunat* يدعو ، اكثر من غيره ، للتشوش ، فقد تم الغاؤه بنـاء على فتوى من مجلس الشيوخ ، بتاريخ ١٩ آب ١٨٠٧ . وبذلك أعيد النُطق او حـرية الكلام والتعبير ، الى المجلس التشريعي .

وقد عرف نابوليون ان يضع في خدمة اغراضه بسهولة كلية ، هـذه المجالس الصـورية . فالنصوص القائمة والعرف المعمول به في البلاد ومقتضيات الامن العليا قضت تمامـاً على الروح البرلمانية الدستورية ، مع العلم ان الامبراطور وهذه الهيئات القائمة صدرت عن الثورة ، وذلك ليس لان القطيعة الصارخة مع النظام القديم قد جاءت كاملة ، بـل لان التباين بين ذهنية البورجوازية النابوليونية وبين ذهنية المجلس التشريعي كانت اكبر في الظاهر منها بالواقـع ، لا سيا اذا ما سلمنا جدلاً بان الاخيرة منها اصبحت بمنأى من ضغط الجماهير الشعبية وبما تبقى من الروح الحزبية الملكية . فالاغلبية الطبيعية في الجمعية التشريعية تألفت مـن القلب واليمين متحلقة حول مونييه وصحبه . فثورتهم المسالمة التي رمت للتوفيق بما ضمنوها من حق انتخاب موقوف على اقلية من ارباب المال ، ومن مجلس شيوخ كثيراً ما تمنوا ان يكون وراثيـاً بعينه الملك والطبقة العامة ، وحق النقض المزدوج ، غير المحدود ، كل ذلك ينبع من مصدر الهام واحد مشترك مع الثورة الموحّدة التي وقعت في آخر المطاف ، في شخص هؤلاء تبنت الامبراطورية بنيها وانصارها . والجمعية التشريعية ذاتها كما ابرزتها الحوادث المتعاقبـة تحررت الى حد بعيد من سلطة تنفيذية شديدة الشكيمة لاسباب عدة ، اهمها جميعاً انها كانت ملكيـة بعد ان طرحت سلطة تنفيذية ، ثورية او منبثقة عن الثورة، القضية بشكل آخر. فالمؤسسات والنُظم النابوليونية التي كان في شبه المستحيل على رجال الاكثرية « الطبيعية » ان يفطنوا لها او ان يفكروا بها ، عام ١٧٨٩ ، اصبحت بعد ذلك بعشر سنوات ، أيسر اخذاً واسهـل تبنّياً بكثير ، من قبل هؤلاء الافراد انفسهم بعدما اعتراهم من هلع اجتماعي ، وتحت ضغط وتأثير شخصية قوية كنابوليون لا مثيل لها ولا كفاء ، بينما تستمر من جهة اخرى، في اوروبا ، حرب لا هوادة فيها ، تهدد في الصميم ، النظام الجديد .

مهما يكن من الامر فالمرسوم الاضافي الذي صدر عام ١٨١٥ ، انما كان في الحقيقة بمثابة تعبير

صريح واضح ، عن الحد الاخير لهذه التنازلات التي في مقدور النظام الجديد ان يقدمها للحركة التقدمية التحررية : مجلس للاعيان وراثي ، ومجلس تمثيلي ينتخب من بين ٥٠،٠٠٠ من اصحاب الغنى واليسار ، يمثلون رجال المال والاعمال والصناعة .

مصير الحريات الاساسية

كذلك زالت من الوجود الحريات العامة في البلاد: صحيح ان الامبراطور اقسم اليمين الدستورية التي نص عليها المرسوم الصادر في عام ١٢ ، هذا القسم المتعلق بالمحافظة على الحرية السياسية . فقد نصت المادة ٦٤ من الدستور المذكور على انشاء لجنة في مجلس الشيوخ تعنى بامور الحريات والصحافة . وقد نشرت الجريدة الرسمية المونيتور *Monitor* عام ١٨٠٦ ما يلي : ان هذه الحرية هي اولى الحريات التي حققها هذا العصر ويهم الامبراطور جداً ان تبقى مصونة ، محترمة . فليس من مراقبة معطلة . ظواهر غرارة : فالبوليس والعدلية والداخلية ، كلها تقوم بمراقبة الصحافة وتخضعها للتفتيش ، فارغم الجانب الاكبر منها على التوقف عن الصدور . ففي يديها الموت والحياة . صحيح ان السلطات تظهر احياناً بمظهر التساهل امام التيارات الادبية والفلسفية التي تهب على البلاد . ولكن منذ عام ١٨١٠ اخذت مصلحة النشر والمطبوعات بفرض الرقابة على المطبوعات قبل ارسالها للطباعة ونشرها . فالعهد يريد التحكم بالافكار، والتعليم الرسمي نفسه يساعد على هذا الامر هو ايضاً ، كما نتبين ذلك في كتاب التعليم المسيحي الذي صدر عام ١٨٠٦ والتعليم الجامعي ايضاً عام ١٨٠٨ . فالبوليس والداخلية والدوائر التابعة لها تراقب المسرح عن كثب . فبعد الرجوع الاول الى النظام الملكي ، نص الدستور على ان حرية الصحافة باستثناء حالات سوء الاستعمال ، هي جزء لا يتجزأ من « الحق العام الذي يتمتع به الفرنسيون » وحقبة المائة يوم ، تتميز هي الاخرى ، بحركة تحريرية . والمرسوم الاضافي الذي صدر عام ١٨١٥ يجعل حق الطباعة وحق النشر « بدون اي رقابة مسبقة » وبالفعل فقد اصبحت الصحافة حرة .

فالدساتير القنصلية والامبراطورية لا تشير بشيء الى حق الاجتماع . فالقضية هي من اختصاص الأمن ، تقطع بها الحكومة باصدار امر منع اذا كان ما يوجب المنع او ما يبرره . فالاحكام التمهيدية لقانون الجزاء الذي صدر في شباط عام ١٨١٠ تشير بصراحة الى ان الموضوع لم يسبب على الاطلاق لرجال القانون اي ارتباك ولم يثر عندهم اية صعوبة . فالقضية لم تعد فتح « هذه الاوكار المظلمة » التي أغلقت في ١٨ برومير . فمن الجهة الحقوقية النظرية : «ان حق الجماهير المطلق وغير المحدود بالاجتماع للتداول في الامور السياسية والدينية وما شاكل يتعارض تماماً مع وضعنا السياسي الراهن » . ومع ذلك ، فالقضية ليست منع الاجتماع على اطلاقه ، او اجتماع بضعة اشخاص معاً حتى ولو كان القصد من اجتماعهم التعليق على اخبار الجرائد . فالترخيص الذي يرتبط برضى الحكومة ورغبتها ، لا يطلب الا عندما يتجاوز الاجتماع العشرين شخصاً .

وهكذا زالت من الوجود الحريات العامة التي نادت بها الجمعية التشريعية خلال الثورة ، هذه الحريات التي يحلو للنظام الجديد ان يتغنّى بها . فالثورة النابوليونية والحالة هذه، تتنكر للقسّم النابوليوني ، ولكن ليس لروح ميثاق شهر برومير الذي صدقته واقرته عدة استفتاءات شعبية . فالصحافة الحرة عرف سوادها الاعظم كيف يمالىء الحركة ويماشيها مع الزمن ومن بعدها الرجعية الملكية .فالنوادي لم تلبث ان تطورت الى نوادٍ ثورية (يعقوبية) . وهذه الحريات التي بدت شيئاً لا يحتمل في نظر المتربع على العرش والتي لم ير معظم الاعيان الجدد ضرورة لها ظهرت لهم كأنها عوائق تحد من التوطيدات التي كانوا يرغبون في الاخذ بها ، او ذرائع بدائية اعتمدوها لتأمين فوز البورجوازية عندما اقرها العرف ورعاها القانون ، فلم يبق لها ، من بعد ، ضرورة البتة للعهد المكلف بتأمين الاستقرار وترسيخه في البلاد .

وبالمقابل ، فقد بقي قائماً ، مَرعي الجانب ، الحق الجديد المعترف به للحريات الفردية . فالاحكام العامة للدستور الصادر في العام الثامن ولقانون الجزاء منذ اول كانون الثاني ١٨١١ ، تقدس في كل ما يتعلق بالاتهام والتوقيف والسجن ، المبادىء التي بني عليها اعلان حقوق الانسان والتشريعات اللاحقة . فالاحكام التي تقضي بفرض جزاء حلت محل الاحكام التعسفية التي عُمل بها في الماضي ، بعد ان تركت للقاضي ضمن حدود النهايات الكبرى والصغرى ، حرية تقدير الاسباب وتقييمها . فالحاكم سعيداً لن يتورع قط ولن يخشى لومة لائم ، ولا شك ، اذا ما رأى من مصلحته ان يتعدى الشرعية التي أقامها ، وسيكون عنده سجناء دولة . وستساعده الاضطرابات الناشبة والحروب القائمة على اللجوء الى القضاء العسكري . وما عسانا ان نقول عن تعسف الدكتاتور ؟ فاجراءات العدل تضبطها مع ذلك هذه النصوص الجديدة ، في معظم الحالات العارضة .

كذلك قل عن حرية الضمير أو الاعتقاد التي تجد مكانها في سياسة التوطيد والتدعيم والترسيخ النابوليونية . فالكاثوليك والبروتستانت واليهود ينعمون جميعاً على السواء بذات الحقوق المدنية والسياسية . فبالرغم من الجهود التي بذلها البابا بيوس السابع ، لم تؤمن المعاهدة المعقودة مع الكنيسة (كونكورداتو) عام ١٨٠١ ، ولا القانون الصادر في ١٨ جرمينال من العام العاشر الذي أقرها ، أي امتياز للديانة الكاثوليكية التي اعترف لها بكل بساطة ، بانها « ديانة غالبية المواطنين الفرنسيين » . وممارسة مراسم عبادة هذه الديانة تتم بكل حرية ، بالاتفاق مع الانظمة والاجراءات التي يضعها البوليس . ان قسس البروتستانت وكهنة الكاثوليك يتناولون على السواء مرتباً من الدولة ، وفقاً لمنطوق المواد الاساسية التي تتعلق بممارسة العبادة الدينية ، كما ان المرسوم الذي صدر في ١٧ اذار ١٨٠٨ نظّم العبادة الخاصة باليهود .

بقيت الكنيسة الكاثوليكية في المجتمع التقليدي القوة الكبرى التي تعمل في الحدود التي رسمتها لها الجمعية التأسيسية ، بالرغم من التنازلات التي قدمتها، لفترة طويلة، الادارة النابوليونية للاكليروس الكاثوليكي. فقد احتفظ القانون النابوليوني بعلمانية الأحوال الشخصية في البلاد وبالطابع المدني المجرد للزواج والطلاق – بعد ان حُددت بوضوح ، الظروف والحالات التي يصح فيها الطلاق – فأُبطِل الأخذ بعدم تمازج الاخلاق والطباع ، كما ان الاحتجاج بالتراضي المتبادل ، يسقط بعد مرور عشرين سنة من الحياة الزوجية المشتركة ، أو عندما تكون الزوجة تجاوز سنها الـ ٤٥ سنة . وقد حافظت الكنيسة في قضية التربية والتعليم على مواقفها القوية . غير ان الجامعة اخذت تنزع ، في اثر الاصلاح الذي وقع عام ١٨١١ ، على تجريدها من التعليم الثانوي واصبحت بالتالي خطراً يتهدد مستقبل الكنيسة. فاذا لم يتناول الامر بعد،الرجوع الى خطط المساعدات الواسعة التي وضعتها الجمعية التأسيسية . فالروح العلمانية بقيت مع ذلك معمولاً بها ومسيطرة على الاوضاع ، بالرغم من الاستعانة براهبات المحبة، في العام التاسع من التقويم الجمهوري، للعمل في المستشفيات. فقد بقيت املاك الكنيسة مصادرة وقد اعترف قداسة البابا عالياً في المعاهدة المعقودة مع فرنسا ان الاملاك الكنسية التي صارت الى حيازة مالكيها تبقى غير قابلة للتصرف ، كما أجيز باقامة وقوفات جديدة . وقد ألغت المعاهدة المذكورة الدستور المدني القديم للاكليروس وقانون فصل الكنيسة عن الدولة . فالحكومة تعين الاساقفة والبابا يوليهم الولاية ويتولى سيامتهم كما ان الدولة تؤمن لهم مرتبات سنوية كافية . قد اندمجت الكنيسة في العهد الجديد بمثل ما اندمجت مع العهد القديم . فعلى الاساقفة ان يقسموا يمين الولاء للجمهورية اسوة بما كانوا يؤدونه من ولاء سابق للملك ، فيتعهدون بألا يشتركوا في أي مسعى أو عمل ضد الحكومة ، وبان يخبروا عن كل مؤامرة أو دسيسة ضد النظام القائم يبلغهم خبره وعلى الكهنة ان يحتذوا حذوهم في هذا الصدد. ومن جهة اخرى فالمواد الدستورية التي وضعها نابوليون من جهته زادت من احكام قبضة الدولة على الكنيسة . فعلى اساتذة ومعلمي الاكليريكيات الدينية ان يتبنوا المبادىء التي نادت بها الكنيسة الغاليكانية المعلنة عام ١٦٨٢ ، كما ان البراءات البابوية وتنفيذها ، وتنفيذ قرارات المجامع الكنسية يجب ان يخضع مسبقاً لموافقة الحكومة . فكل مجمع كنسي وطني أو اقليمي يجب ان ينال ترخيصاً مسبقاً من الحكومة. كذلك لا يحق لأي فرد يحمل لقب سفير أو مندوب بابوي او اي لقب بابوي آخر ان يمارس أية خدمة او وظيفة خاصة بأمور الكنيسة الغاليكانية بدون ترخيص سابق من الحكومة . ويترتب على رجال الاكليروس القيام باعمال المراسم العامة التي تأمر السلطات القيام بها حتى ولو ادى الامر الى اعتقال البابا وسجنه ، كما حدث عام ١٨٠٩ . وستحرص هذه السلطات ، بالطبع على توضيح وتحديد الفوارق الطفيفة . كذلك يترتب على الاساقفة تقديم الشكر على الانتصارات التي سجلتها جيوش الامبراطور في «وغرام» – حتى في اثناء توقيف البابا – وعلى فوزه العظيم على نهر الموسكوفا مشيدين عالياً بهذه الانتصارات الداوية . وهكذا أعيد العمل من جديد بتقاليد الاستقلال القديمة التي طالما طالب

الملوك باحترامها والتقيد بها ، ولكن لصالح الثورة الثورية هذه المرة ، كما كان في عهد الجمعية التشريعية ، بعد ان اصبح الاكليروس ، شاء ام أبى ، مساعداً لها وسائراً في ركابها . ولم يَحُل هذا التدبير دون ان يتبنى بعض رجـال الاكليروس ، شيئاً فشيئاً ، ولا سيما بعد ١٨١٠ — ١٨١١ ، موقفاً معارضاً .

سلطة الاعيان والبورجوازية النبيلة

بعد كل هذا ، وبعدما تمّ من تبدل وتغـيير ، بقي قائماً راسخاً في الارض ، هذا المجتمع اللاطبقي والانتصار العظيم الذي حققه ممثلاً بهذه المساواة امام القانون التي طالما نادوا بها واتوا على ذكرها والتغنّي بها منذ عام ١٧٨٩ . فالقَسَم الامبراطوري الذي على الامبراطور ان يؤديه طالمـا نوّه بذلك صراحة . فالقانون المدني الذي ُفرغ من وضعـه في شهر فنتوز من العام ١٢ ، أقام على نتائج مبدأ المساواة هـذا ، نظاماً منهجياً . كل المواطنين سواء امـام القانون . وكذلك املاكهم ايضاً : فلم يعد هنالك عقارات نبيلة وعقارات فلاحين . فالدستور المعلن عام ١٢ ، يحظر ، من جهة اخرى ، كما سنرى بعد قليل ، كل محاولة للعودة الى النظام الاقطاعي البائد . فالارض ، أياً كان نوعها ، تأخذ تعريفها الصريح الحر ، تحت اسم مشترك ، هو الاملاك العقارية التي تؤلف فئة واحدة . ومبدأ المساواة في الإرث ، هـذا المبدأ الذي قام على المادة ٧٤٥ من القانون المذكور ، جـاء وضعه يكمّل النظام . فلم َيعُد من أثر ، في القانون الجديد لهذه الفوارق الاجتماعية القديمة . الا ان الثورة النابوليونية اوجدت نوعاً من التفريق او التمييز بخلقها الطبقة المنتصرة . فوسام الشرف *Légion d'honneur* الذي أنشىء في العام العاشر والذي تم الاحتفاظ به في الدستور المعلن في العام ١٢ والذي فرض على حامليه قَسَم الولاء للثورة اي بالدفاع عن قوانين الجمهورية وعن الممتلكات التي كرس ملكيتها والذي يتعهد بمحاربة كل محاولة يقصد منها العودة للنظام الاقطاعي ، والسهر على تطبيق المساواة والحرية ، هـذا الوسام سيصبح العلامة الفارقة والشارة المميزة « لفرسان » الرتبة الجديدة . كل هذا شيء بسيط . وقد قام في العام العاشر الى سنة ١٨٠٨ ، ارستوقراطية ظاهرة ، مفتوحة ، هي طبقة من النوابغ والمبدعين ، هي حلية البورجوازي الاولى . في مقدمة هـذه الطبقة افراد الاسرة الامبراطورية المالكة ، الذين جعل منهم الدستور الذي صدر في العـام ١٢ : امراء فرنسيين . وها نحن امام اصحاب المراتب الكبرى في الامبراطورية الذين ُيضفي عليهم الدستور القابـاً طنـّانة هي من مخلفات الاجيال الوسطى او العهد القديم بعـد ان ُجدد من شبابها ونشاطها وُصقلت من جديد . من ذلك مثلاً : المنتخب الاعظم *Le Grand Electeur* (لقب جوزف بونابرت) ورئيس مستشاري الامبراطور (كمباساريس) ورئيس مستشاري الدولة (اوجين بوهارنيه) ، والخازن الاكبر (لوبران) والكونتّابل (لويس بونابرت) والاميرال الاكبر (مورات) . ويليهم مرتبـة كبار الضباط : المارشالية وكبـار الموظفين المدنيين لدى البلاط . فتاليران يصبح الحاجب الاكبر ، وبرتييه : رئيس البَيزرة (*Le grand veneur*) . وما زلنـا بعد في اول الطريق .

وستزداد حركة الترفيع البورجوازي وتتضخم مع المرسوم الصادر في غرة آذار ۱۸۰۸ ، الذي انشأ مرتبة نبلاء البلاط ، وحملة هـذه المراتب واصحابها ينعمون بها مدى الحياة ويمكن لهم توريثها لاولادهم. فأصحاب المقامات الكبرى يحملون: هذا لقب امير وذاك، لقب صاحب الجلالة، وذلك عطوفة، فابنهم البكر يحمل لقب دوق، شريطة ان يكون الوالد قـد ترك لابنه مبرة مدخولها ۲۰۰،۰۰۰ ليرة في السنة. وهنالك عدد من الوزراء واعضاء مجلس الشيوخ ومستشارو دولة مدى الحياة ، كما ان هنالك اساقفة ورؤساء يحملون لقب كونت . فكبـار القضاة والاساقفة يصبحون بارونات ، ومثل هذه الالقاب يمكن اعطاؤها للقواد وللحكام في المحافظات كما يمكن اعطاؤها ايضاً للمواطنين العاديين اذا مـا قيض لهم وأدّوا خدمة كبرى للبلاد ، مكافأة لهم لما أتوا من جليل الاعمال. ويحق لهؤلاء النبلاء الجدد استخدام علائم الشرف والنبل . ومرتبة الشرف التي عرفوا بها مدى الحياة ، يمكن توريثها لخلفائهم من بعدهم اذا ما أنشئت لهم مبرّة تتباين قدراً وقيمة بتباين الرتبة الـتي يحملونها . فاللقب والاملاك المرتبطة بالمبرة يمكن توريثها للابن البكر في بعض الحالات المعينة ، وهو تدبير يرتبط بمشيئة الامبراطور وترخيصه وفقاً لأحكام المرسوم الصادر في اول آذار ۱۸۰۸ . وبعض هذه المواريث ستتعدى الحق العام. وهكذا نشأت في البلاد طبقة نبلاء جديدة ، على اسس بورجوازية تقوم على المنافسة والمزاحمة الشريفة المبنية على العمل والاقدام والمهارة التقنية – والطاعـة ، هي ارستوقراطية وراثية مفتوحة . ولكن دون ان تتمتع بأية اعفاءات أو اية امتيازات ، ارستوقراطية ستحافظ عليها معاهدة عام ١٨١٤ .

وبختصر القول ، فالمجتمع المدني الذي قام ۱۷۹۱ ، لا يزال قائماً . كذلك بقي معمولاً بهـا الادارة البورجوازية للمجتمع الجديد ، وعن طريق تقنية الانتخابات ، عرفت البورجوازية ان تستأثر بكل السلطات ، كما عرفت ان تحافظ عليها بواسطة التعيين، وهي وسيلة عرفت حكومة مركزية ثورية ان تستغلها على الوجه الامثل . ان سياسة كسب الانصار من جهـة ، والميل الى الاكثار من حديثي النعمة ، هذا الميل الذي شاع بين الاسر القديمة ، من جهة اخرى، عبثاً جعل لافراد العهد القديم ، في الادارة شأناً اخذ دوماً بالازدياد ، وادخل الى قلب مجلس شورى الدولة أعضاء من بين قدامى اللاجئين الذين حملوا السلاح ضد وطنهم فرنسا، امثال السادة «لاس كاس» وجلبرت دي فوازن ، أو قرّب الى الحكام الرؤساء السابقين للجنة العفو والاسترحام ، أو عيّن في القضاء ممثلين قدامى للنيابة العامة ، أو وزع مطرانيات على اساقفـة من العصاة المنشقين . فمجلس شورى الدولة بقي مع ذلك ، للثورة الدستورية ، الحصن الحريز الذي لم يمكن اقتحامه، هذا الحصن الذي دافع عن الفتوحات الاجتماعية التي حققتها هذه الثورة ، وقـام حول النظام الجديد بحراسة شديدة ، مبعداً عنه اليعقوبيين والملكيين الذين بقوا مصرين على نشوزهم . ان رجال عام ۱۷۸۹ ، اعتنقوا الحركة بعد ان تخلقوا باخلاق العصر ، حتى رجال العام الثاني منهم الذين عادوا الى روح ۱۷۸۹ ، بينهـم مثلاً روديرر ورينيو دي سان جان دانجلي، وبولاي دي

لامورت وديفرمون، وشبتال وبرون وثيبودو وتريهارد. وفي عام ١٨٠٦، عاد فدخل الحظيرة، مرلين ، واضع القانون الخاص بالمشبوهين ، وفي سنة ١٨١٠ ، المشترك بقتل الملك كينيت (وغيرهم كثيرون) . فمن اصل ١١٢ مستشاراً عملوا اعضاء في مجلس شورى الدولة، في الفترة الواقعة بين العام الثامن وعام ١٨١٤ ، كان ثلثهم اعضاء في المجالس والهيئات الثورية . ومعظم كبار الوزراء ، هم من المنشأ ذاته او تعاونوا ، على الاقل ، مع الحكومات الثورية : بينهم كمباسيرس وتاليران وفوشيه ولوبران وشبتال وكارنو . وقد ضم اول فوج من المحافظين ١٣ محافظاً كانوا اعضاء في الجمعية التأسيسية، و١٦ في المجلس التشريعي، و١٩ في الكونفسيون، و٥ في مجلس القدامى ، و ٢١ في مجلس الخمسمائة . فـ « درويه » اليعقوبي ومن اشد انصار بابوف يعين وكيل محافظ في سانت مانهولد . فاذا ما خطر لدرويه او لغيره من هؤلاء الناس ان يلعب لعبة اليعقوبين ، او ان يجتمع خلال تمرسه بالوظيفة باي عدد من المرتدين ، كبر او صغر ، او باي من هؤلاء الرجال الذين لا ماضي لهم ، فمثل هذا التصرف او المسلك لا يؤثر بشيء في جوهر الادارة الجديدة واتجاهها . فقد حل محل ادارة العهد القديم ، هيأة سياسية جديدة . والهيئة القضائية ، تجدد القسم الاكبر منها ، واكثر من ذلك الجيش ايضاً . فالاسقفية ، كالمارشالية اصبحت وظيفة بورجوازية .لم تكن الاسقفية لتعد ، في اعقاب المعاهدة المعقودة بين الدولة والكنيسة ، سوى ١٦ اسقفاً ممن كانوا قبل ١٧٨٩ . ان اعيان الطبقة الجديدة الموجهة قوي جانبهم اكثر فاكثر، في الأطر والملاكات العليا . فالبورجوازية هي التي تحكم بما تم لها من أطر وملاكات. فهي تحكم بواسطة القنصل الاول او الامبراطور . فالتجربة وحالة الحرب على جبهتين استبدلت سيطرتها بسيطرة مركزية ، مباشرة ، بسيطة ،منتدبة، شخصية . فالذرائع تبدلت انما الهدف الاجتماعي بقي وحده قائماً .

ثالثاً — التدعيم الاقتصادي

لم يترك التدعيم الاقتصادي اي مجال للشك من هذا القبيل . فقد ثبّت الدستور الصادر في العام الثامن من التقويم الثوري، المتملكين للعقارات الوطنية، في املاكهم وممتلكاتهم الجديدة. كما ان القسّم الامبراطوري ، عام ١٢ ، اعلنها عالياً وبصورة مطلقة عدم الرجوع عن هذه البيوع اصلاً . ومجلس شورى القوانين اخذ يسهر من جهته على تطبيق الشرائع ، ولا سيما في كل ما هو مضاد لسلطة الاسياد، وتطبيق قانون ١٧ تموز ١٧٩٣ تطبيقاً دقيقاً . وقد أكد انه يقف ضد الايجارات الدائمة . فالرسوم السيادية والاعشار التي ألغيت دونما اي تعويض ستبقى ملغاة الى الأبد، بالرغم من المداورات والذرائع غير القانونية التي يلجأ اليها بعض عاقدي هذه الايجارات، وبالرغم من ارتفاع سعر الايجار، بالنسبة للاسعار منذ الرجوع الى العملة الثابتة . فهو يصادر من جهة ثانية ، لحساب البوجوازية، القسم الاكبر من المنافع التي ادت اليها العملة الثابتة . ان عملية انتقال الاملاك وإلغاء الرسوم اجرت تبدلاً كبيراً لا يقل بشيء عن ٢٠ ٪ من ايراد الاملاك

العقارية الوطنية ، مما عاد على البورجوازية هنا بالقسم الاكبر من الارباح ، مع العلم ان عدداً كبيراً من الفلاحين افاد هو الآخر من هذه الزيادة .

تدابير تتناول حرية التصرف

هنالك على العموم تعديلات هامة مصدرها هذه الروح البورجوازية التي تطبع القرن التاسع عشر وتميزه بعيدة عن ضغط شعبي ، توطيداً للتدعيات التي جرت في مجالي حرية التصرف وحرية المرور والانتقال. فقد استمر إلغاء النقابات الحرفية كما ان مجلس شورى القوانين بقي متصلباً في موقفه من هذه القضية. الا انه ظهر في دنيا الاعمال شركات تحمل طابع الاحتكار . فقد صدر في ٢٨ نيفوز من العام الثامن قرار يقضي بانشاء مصرف فرنسا ، اتخذ مقراً له رئيسياً دير الاوراتوار الوطني ، واعطي بموجب القرار الصادر في ٢٤ جرمينال من العام ١٢ الامتياز ، دون سواه ، باصدار سندات لحامله وسندات عند النظر . كذلك عادت الى الظهور ، ابتداء من العام ٨ ، شركات قانونية ، وصدرت في البلاد قوانين جديدة بشأن المناجم واستثمارها جاء صدورها يقطع قطعاً باتاً لصالحها قضية استثمار المناجم ، هذه القضية القديمة التي كانت بين الشركات وبين الفلاحين اصحاب الاملاك . فقد نزع القانون الصادر عام ١٨١٠ ، عن مالك سطح الارض الافضلية التي اعترف له بها قانون عام ١٧٩١ باستثمار المناجم الواقعة في بطن الارض ، مفضلاً عليه الشركات الاستثمارية ، واخضع للقانون العام استثمار المناجم المفتوحة ، ولم يعين اي حدود كما لم يحدد اي اجل لهذه الاستثمارات . وهكذا اصبح المنجم ملكاً مستمراً قابل الانتقال ، وان بقي عملياً محتفظاً به للمشاريع الاستثمارية الكبرى . وقد احتفظ بالقانون الزراعي الصادر عام ١٧٩١ ، غير ان مشروع الاصلاح الزراعي عام ١٨٠٨ كان يرمي لان يضع باسرع ما يمكن، حداً نهائياً لحق المرور وحق الرعي في المراعي المشاعية ، بينما تبنى مشروع قانون ١٨١٤ ، موقفاً وسطاً قريباً جداً بالفعل من الموقف الذي وقفته الجمعية الدستورية وقد تصلبت الدولة في موقفها عند مواجهتها لقضية اصحاب الاجور . فعقد العمل يعالجه القانون المدني في الفصل الخامس الخاص بالاستكراء ، اذ انه يميز بين استكراء الاشياء واستئجار الماشية ، ويخصص له مادتين ، منها المادة ١٧٨٠ التي تعترف ، كما يعترف القانون القديم ، بان صاحب العمل هو حري بالتصديق عند نشوب اختلاف بينه وبين الأخير حول معدل الاجر وكيفية الدفع ، وهو معدل حدد ٦٦ لاستئجار الاشياء و ٣٢ لاستثمار الماشية ، وما تبقى يعود امره في النهاية لاجراءات بوليسية ولقانون الجزاء الذي امتنع المشترع الثوري ، حتى الآن ، عن الخوض بشأنه . فقد نص قانون ٢٢ جرمينال من العام ١١ ، وقانون ٩ فريمير من العام ١٢ : على ان يوضع دفتر العمل الذي يوقعه مأمور البوليس ، اسم العامل ومهنته واسم رب العمل وصفته ، وتاريخ انتهاء عقد العمل . وباستطاعة صاحب العمل ان يحتفظ بدفتر العمل طوال مدة العقد ، كما يجب ان يشير الى المكان الذي يتجه اليه العامل عند انتهائه من العمل . فبدون تذكرة عمل لا يمكن تشغيله ، والا اعتبره القانون متشرداً . وقد احتفظ بقانون لاشابلييه ، بعد ان

جرت تقوية نصوصه بقانون ٢٢ جرمينال ، ولا سيما بالمادتين ٤١٤ ، و٤١٦ من قانـــون الجزاء اللتين تشددان على النصوص السابقة . وامام الخطر المتساوي لاتحاد العمال ولاتحاد ارباب العمل، قام نظام من الحظر غير المتساوي يختلف ولا شك عن النظام الذي كان قائماً قبل الثورة ، ممـا ينم عن عقلية متقاربة امام مشاكل العمل والعمال . ان اتحاد العمال كاتحاد ارباب المهن ، يقـع تحت طائلة القانون انما الاتهام والقمع هما اقل قوة . هنالك عدم تساوٍ في الاتهـام . فاتحاد اصحاب العمل لا يتعرض للجزاء «الا اذا رمى الى تخفيض الاجور بصورة تعسفية وغير عادلة». واذا تدخل اتحاد العمال بغية رفع الاجور او بغية ادخال تعديلات على شروط العمل ، فمثل هذا التصرف قابل للجزاء والعقوبة في كلا الحالتين . ففي عدم تساوٍ في المنع ، يتعـــرض رب العمل للسجن من ٦ ايام الى شهر ، ولجزاء نقدي من ٢٠٠ الى ٣٠٠٠ فرنك . اما العامـــل فيتعرض لعقوبة سجن من ٥ سنوات مع استهدافه للبقاء تحت المراقبة من قبل دوائر البوليس العليا . ونرى في الواقع ان التساهل والقانون احياناً يحمي بعض النقابات المهنية : امثال غرفة البناء الاتحادية التي يحول اليها القضاة احياناً قضايا تحكيم للفصل فيها، ولا سيما غرف التجارة التي عادت للظهور وللعمل بها وفقاً لقانون ٣ نيفوز من العام ١١ .

حرية الانتقال والرسوم المشتركة

حرية الانتقال بقيت هي القاعدة ، أقله في الداخل ، شريطـة الا تلحق اي اذى بنظام اميري جديد اعتمد اكثر فاكثر ،على ضريبة تصاعدية للاستهلاك . فقد اعاد القانون الصادر ، عـــام ٧ ، بعض الرسوم الخاصـة بالدخولية ، وعرف هذا الرسم ازدهاراً جديداً في اعقاب ظهور القنصلية . والرسوم المشتركة التي فرضت عام ١٨٠٥ تناولت التبغ المستورد وورق اللعب والعربات ولا ســيما المشروبات الكحولية التي فرض عليها القانون الصادر ، عام ١٨٠٦ رسماً عندمـا يجري بيعهـــا بالجملة . والقانون ذاته فرض رسماً على الملح لدى خروجه من الملاحات . وطبيعة نظام الضريبة تختلف كلياً عن الرسم المفروض من قبل على الملح الذي جاء أخف بكثير . والضريبة على التبغ التي لم يكن ليشعر احد بها لخفتها في السنين الاولى من عهد القنصلية، انتهت بنظام الحكر على التبغ، وهو نظام عُمِل به منذ عام ١٨١١ .

وبالرغم مما اتصف به نظام التبادل التجاري في الداخل ، من حرية اساسية ، فقد حرصت الحكومة هنا ، اكثر مما فعلته الحكومات في العهد القديم والجمعية التأسيسية ، كل الحرص ، على تأمين المواد الغذائية . فقد نظمت من العام ٨ الى العام ١١ ، مهنتي الخبازين والقصّابـــين او الجزارين . وعملاً بمنطوق المرسوم الصادر ، في ١٩–٢١ حزيران عام ١٧٩١ ، أعيد العمل برسم طفيف على الخبز وعلى اللحم ، في عدد كبير من المدن ، على اساس السعر الحـر للحبـوب والماشية . الا ان سعر الجملة بقي مراقباً ثم فُرض عليه رسم عندما سجّل ارتفاع الحبـوب ، رقماً قياسياً ، عام ١٨١٢ ، وذلك بالاعتماد على سياسة تقوم على الشراء والخزن ، والاحصـاء والمصادرة ، والمنع ، تكللت في اواخر السنة بحد اقصى موقت . وتصدير الحبوب الذي حُظر

منذ عام ١٧٨٨ ، بقي معمولاً به مبدئياً خلال العهد النابوليوني . فالحرب والحصار البحري المضروب على البلاد خلخل التجارة الخارجية ، وهو امر لم تنزع له قط سياسة الحماية التي اخذ بها العهد الامبراطوري . فقد ارتفعت على العموم ، مع ذلك ، ارقام التجارة الدولية ،وكذلك ارقام التجارة الداخلية . وتحت تأثير ارتفاع سعر الذهب ظهر من جديد الازدهار المادي الذي ميز القرن الثامن عشر ، وبقي قائماً الى ان برزت الازمة الاقتصادية الكبرى ، عام ١٨١٠–١٨١٢، وحتى بعد ذلك ، بصورة متقطعة .

النتائج

ان الاماني السياسية والاقتصادية التي اعربت عنها الامة ، عام ١٧٨٩ ، تحققت جزئياً . فالثورة النابوليونية كانت عدوة للثورة الدستورية ، لا نسخة حرفية لها . فقد عملت ، شأنها شأن افلاس سببه سوء الادارة ، على تضييقها وعلى تدعيمها ، في وقت واحد .

فهي ثورة شخصية ، مخطط لها ، تحمل طابع رجل يفتقر اساساً للقياس ، وطابع طاغية يحكم بانتصاراته المدوخة ويلقى جانباً ، عند أول صعوبة يصادفها ، بكل العهود المقطوعة ، انما هو طاغية متدرب من نوع معين يؤلف طبقة لوحده ، ويمثل للثورة التي قام بها . وهذه الثورة التي ُفصلت على قدّه والتي قضت بها ضرورات الصراع أصبحت ثورة تجربة واختبار ، وليس ثورة فكرية او نظرية ، يمكن تعريفها بالشعار التالي : مساواة ، سلطة وتقنية . والروح التي انطلقت في البلاد ، عام ١٧٨٩ ، انقطع هبوبها ، والحركة الدائمة حل محلها الخمود والجمود . والجبهة التي راحت الثورة النابوليونية تناضل دونها ، جاءت نتيجة حركة ارتداد أكثر منها حركة انطلاق .

وامام النظام القديم صمد الامبراطور بواسطة الارادة الوطنية ، في كل المواقع الستراتيجية الكبرى . فقد تخلى طوعاً واختياراً عن البعض . فالخط الذي وقف عنده ، يرسم شكلا يثير الدهش . فقد عرف ان يحتفظ حتى النهاية ، بما قصد المحافظة عليه بكل عناد ، هذا الشيء الذي كان لا يزال بعد ، جرثومة في القرن الثامن عشر . فالمنظمة القيّمة التي اطلقتها الثورة البورجوازية ، تحمل طابع عدة عهود . فقد ولدت في الثورة ولكن ليس في الثورة وحدها . فقد تمنوها قبل ذلك بكثير ، وتحققت اثناء الثورة ، وجرى تدعيمها فيما بعد خلال هذا العهد الطويل من التجربة التي تمتد من سنة ١٨١٤ الى سنة ١٨١٥ .

في سلسلة الثورات المترابطة الحلقات هذه التي لا توجهها اية قوة منظمة مستقرة، من طرف الى طرف آخر ، في هذا العالم العفوي الذي قام على التوازنات المتعاقبة ، فالتاريخ يحافظ ، كما يظهر لنا ، على وعوده : فالصحيح يختلط على اقدار وانساب بالمرجّح وبالمتوقع .

العالم أمام الثورة الفرنسية والفتوحات النابليونية

الفصل الأول

العالم في سنة ١٧٨٩

رئاسة أوروبا الأطلسية

في أعقاب حرب الاستقلال الاميركية انحصر مجال النشاط الزاخر في العالم ، هذا النشاط الذي يعمل التاريخ ، في أوروبا. فلم يكن عدد سكان الولايات المتحدة ليتجاوز ، اذ ذاك ، أربعة ملايين نسمة بينما لم يكن عدد سكان مدينة فيلادلفيا وهي أكبر مدنها آنئذ واعمرها ليتجاوز ٤٥٫٠٠٠ نسمة . والنشاط الاوروبي ، انحصر اساساً في مناطق اوروبا الغربية والوسطى حيث كان يقطن ثلاثة أرباع سكان القارة تقريباً ، مع العلم ان لا حدود « القلب » الاوروبي ولا حدود المجال الشرقي منها ، واضحة جلية ، ناهيك عن صعوبة المواصلات وقلة وسائلها التي كانت تضاعف من المساحات الفاصلة ، اذ كان يقتضي ثلاثة أسابيع لرسالة ترسل من فرنسا الى بولونيا . وكان أكثر الصحف انتشاراً اذ ذاك « كالمركور دي فرانس » و « الانباء الوطنية والادبية » التي كان يصدرها كادا ، لم تكن تنشر من الانباء وأخبار الاحداث ما يتعدى مداه مدينتي درسد وفيينا . وبالرغم من اتصالات فولتير وديدرو وغريم ، كانت روسيا القيصرية ، في عهد الامبراطورة كاترين الثانية ، تمثل في نظر الرأي العام « بلاد البرابرة » . فالأنباء الأجنبية التي كانت الصحافة تذيعها عن الخارج تكاد لا تأتي على ذكرها الا لماماً . وهذه المناطق ، لم يكن مجموع سكانها ليتجاوز ٣٠ مليوناً أي بزيادة بضع ملايين لا غير عن سكان فرنسا.

فحدود اوروبا الناشطة كانت تقف ، في الشرق ، عند مقاطعتي الساكس والنمسا . فالغرب أقله ، لا يمتد نظره الى أبعد من ذلك ، بينما يتطلع الشرق الى هذا الغرب المثالي أي الى اوروبا

البحرية التي تطل على المحيط الاطلسي حيث يكتظ الناس ويحرصون على جمع المال والثروات . فالمقاطعات المتحدة والبلاد الواطية النمساوية ، تمـد من ٤ – ٥ ملايين نسمة ، وانكلترا ١٥ مليوناً ، منهم ٥ ملايين في ايرلندا ، وفرنسا تعد من ٢٦ ـ ٢٧ مليوناً ، ويقرب عدد السكان في اسبانيـــا من عشرة ملايين ، بقطع النظر عن امبراطورية ضخمة من المستعمرات تترامى أطرافها بين سان فرنسيسكو شمالاً وبين مقاطعة بتغونيا في اقصى الارجنتين، جنوباً، والبرتغال نفسه لا يعد أكثر من ثلاثة ملايين بينا هو يسيطر على البرازيل . فالولايات المتحدة وانكلترا وفرنسا تسيطر بمستعمراتها او بالاقطار المتجرة معها على ما تبقى من أقطار العالم . فكل ما يقع في المجال الاطلسي هذا لا يلبث ان يأخذ طابعاً عالمياً .

هذا الطابع يبدو قبل كل شيء اوروبياً ، ليس لأن الغرب الاوروبي هو قبلة الأنظار بــل لما عليه هذه القارة الاوروبية من وحدة التركيب السياسي والاجتماعي، لا تند عنه حتى انكلترا الا لحد ما ، كما تبينا ذلك بما جـــاء في القسم الأول من هذا الكتاب . فكل ما زحزح هـذا التركيب او أدخل عليه ما يشوشه أو أحدث فيه رجةً ما تردد صداه في الاجزاء الاخرى.

١ – المبـــاني الرئيسية

ان المدى الاقتصادي الطويل الذي عاد على فرنسا بالغنى والثروة ، خـــلال القرن الثامن عشر عمل على إغناء اوروبا ايضاً . فقد توزعت هذه الثروة في كل من فرنسا وبـــلدان أوروبا توزيعاً واسعاً مما أدّى الى تغييرات وتطورات عظيمة ، مادية وروحية معاً . وقد حدثت هذه التغييرات بالرغم من استمرار الأنظمة القضائية القديمة .

وبالرغم من الاصـــلاحات التي تمت في ظل الاستبدادية المستنيرة ، فالنظـــام السياسي التقليدي عرف ان يحافظ على الطابع الذي يميزه، فهو نظام ارستوقراطي دعامته الاولى الطغيان المستبد وعدم المساواة في كل ما يتصل بالامور المدنية . وهذا الطابع التقليدي القديم يبدو على أبرز صوره في هذه المقاطعات الواقعة الى الشرق من نهر الإيلب . وقد جرى صورياً تكييفه في بعض البلدان المطلة على المحيط الاطلسي بينا يحاذر القلب الاوروبي كل تغيير ويجانب أي تطور . وتحت ستار من التنويع الظاهر بقيت النظم الملكية والاقطاعية قائمة في كل مكان ، ان لم نقل اشتدت اواصرها متانة بعض الاحيان .

الاستبداد والارستوقراطية الاقطاعية

لم يلبث مفهوم الدولة للنظام الملكي كما حدده بوسويه ان حلّ محـل السلطة الاقطاعية. فالحق الالهي لا يطبق الا على الدولة في ما استقر من مفهومها : كل الملوك يملكون باسم الله العلي العظيم ، أي هؤلاء الذين يؤول اليهم الملك بالولادة أو حصلوا عليه بالانتخاب ، لأن كل موهبة صالحة تنحدر من لدنه وهو الذي « ينير كل مجلس ». فيبدو الملك ، والحالة هذه ، مستودع السلطة الإلهيـــة .

فقراراته كلها معصومـــة عن الغلط وفي الملك تتمثل الدولة وتنصهر . فمهما حاول الاستبداد المستنير ان يجعل هذه السلطة في خدمة المصلحة العامة او ان يسخرها لتحقيق نظرية نفعية ، فلن يغير هذا شيئاً من منطلقها الأصلي ، كما انه لا يمس بشيء شمول هذه السلطة . فلها وحدها حق التشريع والادارة في البلاد . فمن آزرها أو عمل في خدمتها فقد قام بما انتدبته له . قـــد يفتقر الملك لشخصية لامعة : فلن ينتقص هذا بشيء من جوهر الملك ومن النظم الملكية ولن يلحق بها أي وهن أو أي ضعف . ففي سنة ١٧٨٩ ، كان يتربع في دست الحـكم ، في كل من الدانمارك والبرتغال وانكلترا وبروسيا ملوك أدنى من المستوى العادي . والثالوث الذي تألف من شارل الرابع وماري لويز دي بارما وغودوي هو مضغة تلوكها بلاطات أوروبا وتحدث بها . الا ان الروابط السلالية بقيت متينة شديدة كما بقي قوياً الاحترام للسلطة الملكية .

ومع ان الارستوقراطية تقف في وجه الملكية في كل من السويد وهنغاريا وأوروبا العثمانية ، ومع انها هي التي تستبد ببولونيا ، فهي تستخدم الاساليب ذاتها التي تستخدمها الملكية ، وترمي الى تحقيق الاهداف نفسها . فأصحاب السلطات من العلمانيين والاكليريكيين يحتفظون بجانب كبير من الحكم ممثلاً بمرافق الادارة والسلطة البلدية والسلطة القضائية في درجتها الاولى . وقد عرفت الملكية كيف تدمج كل هذه العناصر في انظمتها . فالاسباب مرتبط بعضها ببعض . فبعد ان اخضعتهم الملكية ، لسيطرتها وانتظمتهم مراتب وهيآت فقد ألفوا أطر الدولة وملاكاتهـا الادارية ، وقاموا بالاعمال الادارية في المقاطعات والولايات والألوية والمـدن . فهم مساعدون لملاك الادارة ويؤمنون جباية الضرائب . وقامت في كل من انكلترا وهولندا ارستوقراطية هي في مجموعها لا عسكرية ولا اقطاعية ، تتولى ادارة الحكم في البلاد. فاللوردات وحدهم في البلاد يؤلفون مرتبة متميزة ، ويورّثون رقبتهم لابنهم البكر . الا ان اصلهم او منشأهم لا يعود بعيداً ومنذ ان تولى ملوك آل تيودور الأول، فقد تغلغلت بينهم البورجوازية الثرية . وهنا ايضاً ترتبط الاسباب بعضها ببعض .

والامتيازات المالية التي تمتعت بهـا طبقة النبلاء الاقطاعية تدعم في القارة هذه المصالح المشتركة . فالملك الذي هو اول النبلاء في المملكة غير قادر ان يضع حـداً لهذه العوائد التي يفرضونها على الفلاحين ، ولهذه الاعفاءات التي يتمتعون بهـا دون ان يلحق اي اذى بسلطتها الخاصة . وهكذا أسبلت الامبراطورة كاترين الثانية على الارستوقراطية امتيازات ومنـافع جديدة . امـا جوزف الثاني الذي راح يتصدّى لامتيازات النبلاء ، فقد أحدث البلبـلة والاضطرابات في مملكته . وقد شدد كثيراً من قبضة السلطة الملكية بعـد محاولته تحقيق المركزية الادارية في البلاد . والاستبدادية المستنيرة تبدو ، في الاصل ، ذريعة من الذرائع المالية التي تتسلح بها . فالعاهل الفيلسوف يحاول ان يستخلص من نتائج فلسفته ، نفعاً مادياً مباشراً . فهو يبحث عن المـال اينما وجده ويفرض الضريبة على المواد الصالحة لفرض الضرائب ، اي على هذا الدخل العقاري الآخـذ بالازدهار ، هذا الدخل الذي يعود الجانب الاكـبر منه على

الارستوقراطية نفسها. فراح يقتبس عن الغرب التدابير والاجراءات التي تساعده على الانتفاع، الى اقصى حد ، من هـــذه الاطر المعمول بها في البلاد ، كما راح يوسع من نطـاق املاك التاج بمصادرته املاك الرهبانيات القانونية . وهذه الروح التجارية التي جاشت فيـه دفعته على تحسين وسائل الاستغلال المعمول بها في البلاد ، وعلى الحـد من الاستيراد وعلى حماية بعض الصناعات الوطنية . وقد قصَد من هذا كله تغذية خزينته وصندوق بيت المال بحيث يتمكن من مواجهـة الاعباء المالية المتزايدة بعد ان عرف كيف يمالىء الارستوقراطية ويصانعها تأميناً منه لمساهمتها . فالنبيل البروسياني لا يتنازل عن اي شيء من حقوقـه وفردريك الثاني يتورع كثيراً عن التدخل في شؤون الاملاك السيادية . فالانظمة القديمة بقيت مرعية الجانب بصورة عامـة . فالاستبدادية والارستوقراطية بقيتا مترابطتين . فالفلاحون وحدهم يقع عليهم غرْم الحركات الاصلاحية بينما لا يعود ذلك على البورجوازية ، كما يبدو ، بكبير امر .

أرقاء الارض ومتعهدون ومكاترون

والنظام الإقطاعي هو اشد وطأة على اوروبا منه على فرنسا . فما تكاد تعبر نهر الايلب شرقاً حتى يطالعك استبداد ملكية النبــلاء ونظام رق الارض . فالفلاحون المتحررون او الاحرار يؤلفون شواذاً . فالارض الروسية برمتها تعود للنبلاء والقيصر الذي ربط املاك الكنيسة واوقافها باملاك التاج. وعندما ضمت الامبراطورة كاترين الثانيــة مقاطعة اوكرانيا الى ممتلكاتها ، ازداد بذلك عدد أرقاء الارض التابعين لها ٨٠٠،٠٠٠ فألفوا بذلك أربعة أخماس سكان البلاد اجمع . فالرق يقـع على الشخص اكثر ممــا يقع على الارض ويجعله في منزلة الحيوانات ، ويجري بيعهم قطعاناً وجماعات، بيـع البهُم في الاسواق التجارية ومعارض الحيوان. ليس ما يحميهم ضد تعسف السيد ونزواته سوى مصلحته الآنية . فقد يسمح لهم احيانــاً العمل في الخارج شريطة ان يقاسمهم حصة من الاجـر المدفوع لهم . صحيح ان فلاحي البلاط يتمتعون ، من جهتهم بحريـة اوسع نسبياً ، الا انهم يخضعون كغيرهم من هؤلاء الارقـــاء للسخرة ويدفعون مثلهم العوائد المترتبة عليهم . والوضع سواء في بولونيا حيث سبعة ملايين ونصف من ارقاء الارض يعملون في خدمة ١٠٠،٠٠٠ نبيل . اما في بروسيا وفي البلدان السكندينافية ، فقد توارى رق الارض عن الانظار تقريباً ، انما بقيت قائمة ، مرعية الجانب ، الامتيازات المترتبة على الإقطاع ذاتـه ولذا كان تطور ملكية الفلاحين بطيئاً للغاية ، بعد ان أخضعت الملكية لقانون الفدية او الاستخلاص . فالنبيل هو وحده ، من حيث المبدأ ، سيد الارض . والمتعهد يبقى خاضعاً لارادة السيد الذي في مقدوره ان يفرض عليـه عقوبات جسمانية ويخضعـه لرسوم وجزاوات تأديبية . وهو يقوم بوظيفة قاض في كل مــا يتعلق بالمشاعات ، ويراقب النشاط الصناعي في المقاطعة ويحاول فرض الحكر على تجارة الحبوب كما يحتكر صناعة الجعة والتقطير، وبيع السمك ويحتفظ لنفسه بحق القنص والصيد .

والعوائد العينية والنقدية ، وتأدية الخدمة على انواعها والسخرة ، ودفع الرسوم المترتبة على

البيع والشراء ، يرزح الفلاح تحتها في المملكة النمساوية ، بالرغم من الغاء رق الارض وتحرير الفلاحين رسمياً فيها ، اذ ان المعارضة التي قوبلت بها الاصلاحات التي قام بها جوزف الثاني ، من قبل النبلاء في هنغاريا بالاخص ، جعلت من هذه الاجراءات الملكية ، حبراً على ورق ، فأدت هذه التدابير الى تسميم الوضع اكثر مما ادت الى تذليل المصاعب والمشكلات القائمة . ومع ذلك ، فتملك الفلاحين للارض اخذ بالازدياد والنماء فتناول حتى تملك اراضي النبلاء ، انما على نسبة أقل مما نرى في الامبراطورية الجرمانية المقدسة وفي ايطاليا . فرق الارض الذي يبقى معمولاً به في مقاطعتي البافيار وهانوفر بدا في وضع أخف ، كما راح الفلاحون يقتنون لهم ، على طول نهر الرين ، بعض الاملاك ، وأخـذ مارغراف بادن يخفف من اعمال السخرة واعطى تسهيلات اكبر لافتداء العوائد المفروضة على اصحابها . وكذلك ، فلم تتضرس المجتمعات الجبلية السويسرانية كثيراً من الضغط الإقطاعي ، وحركة تحرير الفلاحين في مقاطعة السافوا اخذت تتطور ببطء هي ايضاً . كذلك توارى عن الانظـار رق الارض في كل من مقاطعات سهل البو وتوسكانا وفي اسبانيا : فالنبلاء ورجـال الاكليروس من مالكي الارض يؤجرونها لمزارعين ولمرابعين . فهم في وضع أقل بؤساً مما هو عليه وضع المزارعين في مملكة الصقليتين وفي السلطنة العثمانية حيث تسيطر عـلى أرض ممسكة ، جدباء ، اقطاعية جشعة لا ترحم ولا تشفق . واكتراء الارض لقاء بدل نقدي ، هي طريقة من طرق الاستثمار ، يُعمل بها في الاراضي الخصبة المعطاء فقط . ففي البلاد الواطية حيث قسم كبير من الارض يعود للكنيسة ، اتسع الأخـذ باكتراء الارض . وفي انكلترا خصوصاً حيث الملكية يقع معظمهـا بـين ايدي اللوردات والبورجوازيين ، فقد أوجد اتساع رقعة القطع الزراعية ، أوضاعاً مختلفة . وفي ايرلندا أصار اصحاب الارض المزارعين الى البؤس والفقر المدقع ، اذ ان ثلاثة ارباع السكان كانوا يمشون حفاة ، ومثل هذا الوضع البائس لم يكن ليخفى امره لدى المجتمع المستنير في اوروبا ، بعـد ان أنّ الجميع وتعالت تشكياتهم من فداحة الضرائب التي رزحوا تحتها .

وهكذا مهما كان وضع النظام الزراعي المعمول به في البلاد ، فالمجتمـع البشري كان يعوّل بالاكثر على استثمار الفلاح للارض . فرق الارض مشكلة حادة عانت منها اوروبا جمعاء ، وفي كل الاقطار الاوروبية كانت الرسوم السيادية والعوائد المضروبة ، تجبى دونما رحمـة . والنتيجة الثابتة هي ان المحاولات التي استهدفت الاصـلاح والتخفيف من حدة وحرافة الاوضاع القائمة والتي لم تخل ابداً من مقابل والتي وقع معظمها على الفلاحين ، كانت بمثابة طرح قضية الواقـع السيادي على بساط البحث .

نحو الملكية المركزية

فالفلاح حتى المتحرر منه يبدو وكأنه أعزل من السلاح ، لا يبدي ولا يعيد امام طغيان « اسياد الارض » . فالاملاك الكبيرة تؤلف النظام المستبد بالريف . والطريقة المتبعة في استثمار الارض واستغلالها ، تحمل مالك الارض على طلب المزيد من العمل والربح ، ولذا اتجه استثمار الارض اكثر فاكثر نحو شكل رأسمالي . واعتبـار

امكانية زيادة الدخل هو الذي يَفصل في نهاية الامر : فالنظرة النفعية هي التي تشيل في النهاية على النظرة الاجتماعية او الانسانية . ففي اوروبا الغربية غلبت رقعة المروج على رقعة الاراضي التي كانت تزرع من قبل ، والحنطة اخذت مقاديرها تتضاءل بالنسبة لتربية الماشية التي امتصت عدداً اقل من اليد العاملة . وعلى عكس ذلك اصبحت الاراضي الزراعية في الشرق ، تعطي كميات اكبر من الحبوب. وازداد عدد من لا املاك لهم اكثر فاكثر . ففي ايرلندا وحدها اكثر من مليون عامل نصفهم فقط يعمل باستمرار طوال السنة . وفي انكلترا والمقاطعات البلجيكية يطلب الشغيلة أوَدهم من العمل في الصناعة ، اما في المقاطعات والبلدان المطلة على البحر المتوسط فقد زاحوا يردفون صفوف المستعطين فازداد بالتالي الوضع حرجاً وسوءاً من جراء التفاوت الاجتماعي الصارخ ومن انخفاض معدل الملكية لدى الفلاحين او المتأتي عن الحركة الديموغرافية وازدياد حركة السكان ازدياداً سريعاً لا يرحم. ويحق لنا ان نقدر ان عدد سكان اوروبا الوسطى ارتفع هو ايضاً بمعدل الثلث ، خلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر . وبالرغم من ارتفاع معدل الوفيات في روسيا ، فقد كان عدد السكان فيها يزداد بنسبة ٢٠٠،٠٠٠ في السنة . كذلك تضاعف عدد السكان في اسبانيا وفي البلاد الواطية والجزر البريطانية ، خلال هذه الفترة الواقعة بين ١٧٠٠ و ١٧٨٩ وقد بدا بؤس الفلاحين، في اواخر القرن الثامن عشر، اكثر انتشاراً واكثر اتساعاً. وكثيراً ما قاموا بانتفاضات ثورية طلباً للتحرر الا ان ثوراتهم هذه امكن كبحها بسرعة . فمثل هذه الحركات لا تتمخض بعد الا برسيس ضعيف جداً من الوعي الطبقي. ولكي تؤلف ثورات الفلاحين قضية سياسية كان لا بد من مؤازرة الأطر المتحررة لها ومن ثورة عارمة تقوم على مقربة منهم .

٢- البورجوازية والرأسمالية

ازدهار المدن الصناعية والتجارية

ها هي البورجوازية تستبطر شأناً وتزداد عدداً وقوةً ، في كل مكان ، كما تبرز نهضتها الاجتماعية في كل مكان بالرغم مما تصادفه نهضتها هذه من صعاب وعراقيل تثيرها النظم القضائية . فاذا ما تطورت هذه البورجوازية وئيداً في الاقطار الانكلوسكسونية ، فهي تلاقي في القارة ، متاعب عديدة . وبالرغم من بعض التنازلات ، بقيت اللامساواة المدنية القاعدة المعمول بها . فالنظام الاقطاعي ، والوضع القانوني للملكية والسلطة السياسية التي تتمتع بها طبقة النبلاء ، كل ذلك وما اليه حد كثيراً من اطماعها ومن الاهداف التي ترتسمها . وهؤلاء النبلاء يقطعون الطريق على كل من يروم الوصول الى المراكز العالية أو يطمح اليها . فسكان المدن يبقون ، على الغالب ، دونما شك بذلك، مقتصرين على نسبة طفيفة . والتطور الذي اخذوا باسبابه انما مصدره هذا النشاط التجاري والصناعي الذي اخذت المدن باسبابه ، ان دلّ على شيء فعلى ما تتمتع به من نفوذ « بورجوازي » هو في أبان نشاطه . ومع ذلك فالمدن الكبرى تبقى نادرة جداً الى الشرق من نهر الرين . ففيينا تعد ،

اذ ذاك ، أقل من ٢٥٠ الف نسمة ، أي أقل من نصف سكان باريس ، في تلك المدة . وليس في برلين ما يوازي ربع هذا العدد . ففي بولونيا ، مدينة فرصوفيا وحدها تعد ١٠٠،٠٠٠ نسمة ، وروسيا لا تعرف سوى مركزين هامين : هما موسكو وبطرسبورغ ، وكلاهما بلسبة فينا من حيث عدد السكان . والمدن الحرة الواحدة والخمسون القائمة في الامبراطورية الجرمانية المقدسة لا تعد مجتمعة اكثر من ٥٠٠،٠٠٠ نسمة ، الا ان مدينة همبورغ وحدها يزيد عدد سكانها على ١٣٠ الف نسمة ، أي ما يعادل مجموع سكان مدن فرنسا وانكلترا معاً في المقاطعات . اما على الساحل الاطلسي ، فقد ادى النشاط التجاري الذي زخرت به المدن البحرية ، الى ازدياد عدد السكان فيها . فلندن ناهزت المليون ، وامستردام تعد ٢٠٠ الف . ويتجاوز عدد سكان كل من مدن روتردام وبروكسل وانفرس وغاند وليبج الخمسين الفاً . وفي الجنوب بزّت لشبونة بعدد سكانها مدينة مدريد،بينا تجاوز عدد سكان مدينة برشلونة بكثير الـ ١٠٠،٠٠٠ نسمة . فالماضي يفسر لنا اكثر من الحاضر الطاقة الكامنة في المدن الايطالية : هنالك ستة مدن كبيرة تعد الواحدة اكثر من ١٠٠،٠٠٠ وستة مدن أخرى يتراوح عدد سكان الواحدة منها بين ٥٠،٠٠٠ و ١٠٠،٠٠٠ والازدهار العظيم الذي سجلته الحركة التجارية في هذا العصر ساعدت الى حد بعيد على تكوين مزيج من الطبقات الوسطى قام مقام البورجوازية .

فالازدهار التجاري والاقتصادي يفسر لنا ،الى حد بعيد،ازدهار المدن وتطورها الصاعد . فالازدهار الاقتصادي الخارجي والارتفاع الدولي للاسعار ، واتساع الاسواق التجارية امام حركة الاستهلاك المتزايدة ، والنزعة نحو الحرية التجارية أدت ، بعد فترة من التردد ، الى احداث بعض الاثر على سياسة الدول التجارية . فمن انكلترا الى روسيا ، اخذت حركة المقايضات التجارية تنمو وتتطور باستمرار ، فارتفعت الى ثلاثة اضعافها خلال القرن في الاولى، وارتفعت اكثر من ذلك ايضاً نسبياً في ما يتعلق بالثانية . فما من شك قط ان مثل هذا التطور المحسوس حصل في مجال التجارة الداخلية والصناعة ، ونشطت الحركة نشاطاً عموماً بتأثير من العوامل ذاتها . فالنجاحات التي سجلها الانكليز في هذا المجال يعرفها الجميع ، الا انها نجاحات يجب الا تكسف ما تم من امثالها في البلدان الاخرى . وانشئت افران تعمل على الفحم لتشغيل معامل الحديد على طول مدى نهري السامبر والموز ، في مدن شارلروا وليبج ، مع العلم ان جوف الارياف الفلمنكية كان يرتكض لكثرة ما قام فيها من معامل النسيج . فمقاطعة وايس تعد اكثر من ٤٠،٠٠٠ من الحاكة واكثر من ٢٠٠،٠٠٠ من مغازل القطن . وأخذت معامل الاجواخ في فرفييه ومعامل الدانتيلا في مالين تستعين بعدد كبير من العمال تأخذهم من بين الفلاحين وتدفع لهم اجوراً لا ترد عنهم غائلة الجوع . وعلى عكس هذا كان الوضع في الشرق . فالفلاح ، ولو حراً ، لا ينعم بحرية صناعية أو تجارية فكم بالحري من كان رقيق الارض ؟ فرق الارض في روسيا يشجع ، مع ذلك ، على الاخذ ببعض المشروعات الاستثمارية : حكومية كانت أم خاصة بالنبلاء . فصناعة الحديد التي تمركزت في الاورال تعود لهم ، وقد زاد انتاجها عام

١٧٨٩ على التاج فرنسا من الحديد . الا ان البورجوازية تعاني كثيراً من المصاعب والعراقيل التي يُثيرها امامها النظام الاقطاعي . فالفلاحون الاحرار وأرقــاء الارض الذين يعملون على اساس مقاسمة اجورهم مع اسيادهم لا يفون بالحاجة قط ، ولذا فلن يلبث المصنع ان ينشىء له فرعــاً في الريف ليفيد من اليد النسائية العاملة ، وليس اغرب من ان تعرف كيف افادت مختلف الفئـات الاجتماعية من حركة الازدهار الاقتصادي هذه. والثابت هو ان معظم هذه المنافـــع والارباح كانت تذهب للمتعهدين ، كبـــاراً وصغاراً ، وبورجوازيين واحياناً من النبلاء ، فتحدث بينهم تطوراً بطيئاً لا يلبث ان يترك اثره الظاهر على نمط الحياة وطرق التفكير في المجتمع ، على نحو ما تم في انكلترا وفرنسا .

وقد مر ولا شك ، هذا الازدهار ، من وقت الى آخر في ازمات تركت مضاعفاتهـــا على المجتمع ، واقامت ارباب العمل ضد اصحاب الاجور . ان ١٤٪ من سكان المدن في انكلترا كانوا عيالاً على صندوق الصدقات ومبرات الاحسان ، عام ١٧٨٩ ، وكنا نرى الحاكة في فرفييه يناضلون في تلك السنة بالذات ، في سبيل الحصول على زيادة نحاسة واحـــدة عن كل ذراع قماش ينتجونه .

الخمائر الثورية

غير ان موضوع الخلاف الاكبر كان في غير هذا المجال ، وسواءاً أكان خفياً أو مكشوفاً ، فقد قام على الاخص ، بين البورجوازية والارستوقراطيـــة فانتصبت الواحدة منها في وجه الاخرى . فقــد شكلت حرية الصحافة سلاحاً جديداً في يد الاولى ، في كل من الدانمارك وبروسيا . صحيح ان فردريك غليوم الثاني عاد عن محاولة الاصلاح التي قام بها ، فأمر في كانون الاول عام ١٧٨٨ ، باخضاع كل مطبوعة أو نشرة تصدر في البلاد ، لمراقبة مسبقة من قِبل لجنة حكومية . الا ان أية نشرة مُنعت عن الظهور في برلين مثلاً كان لها ملء الحرية في فرانكفورت .

وليس ما يضير قط ان يبقى قائماً في المانيا امير صغير وبلاطه المتواضع ، أو اسقف ما مـــع كهنة أو أية بلدية من البلديات . فالقرن الثامن عشر قد زرع في النفوس خمير الثورة . فــالوعي الوطني يمهد الطريق امام بعث ماضي الامبراطورية المجيد . وهــا هي المقاطعات السويسرانية وايطاليا تتحسسان عميقاً وجوب تحقيق وحدتها .

فالنار تخمد تحت الرماد حتى في الجانب الآخر من المحيط الاطلسي ، في الطرف الآخـــر من العالم الابيض ، في اميركا اللاتينية التي انتظمها على شاكلة اوروبا ، سلك واحد من الازدهار الشامل ، ولا سيا المستعمرات الاسبانية منها. فالى قبضة الوطن الام الشديدة الوطأة من الوجهة الادارية والتجارية ، أضف سلطة الكنيسة المتغطرسة وغناها المفرط. ليَعُـــد من يشاء القسم الاول من هذا الكتاب ليرَ كيف انتصبت مطالب الموظفين ورجـــال الاكليروس التعسفية ضد « بورجوازية » قوامها التجار والخلاسيون والمزارعون الذين ابتدأوا يـكافحون في سبيل عيش

اكرم ، من نحو عشر سنوات ، فتهدف من وراء صراعها هذا الى خلع النير الاسباني الثقيل عن اكتافها ، ليس رغبة منها في تحرير ابناء البلاد المستعبدين والزنوج الأرقاء، بل طمعاً في الاستيلاء على مقاليد الحكم في البلاد . فلم تلبث ان قامت ثورات في كل من الشيلي وغرناطة الجديدة . وأقبل الناس يقرأون بلهفة « العقد الاجتماعي » لروسو ، و «البيان الاقتصادي » الذي وضعه «كسناي»، و«بحث المشاعر» لكونديااك. وميراندا يحتفظ بهذه الكتب في خزانته الخاصة. فراح بوليفار وسان مارتن يلتهمانها . كذلك رغب سكان البرازيل في خلع نير البرتغال عن اعناقهم . فقد التقى احدهم المدعو مايا في مدينة نيم، من اعمال فرنسا، عام ١٧٨٧، بجفرسون الفرجيني بعد ان كان استقر منه الرأي ، على ان يكسب عطف الولايات المتحدة الاميركية لمساعدتها على استقلال بلاده .

في كل مكان نرى البورجوازية أو ما يقوم مقامها تشرئب باعناقها وانظارها نحو البلدان الانكلوسكسونية مدفوعة الى ذلك بالآمال المعسولة .

٣ ـ السراب الانكلوسكسوني

قوة الارستوقراطية البريطانية

تجري في كل مكان بكل ارتياح ، المفاضلة بين الدول ذات النظام الاستبدادي وانكلترا . فالمجتمع « المستنير » نظر الى انكلترا نظره الى الرائدة، وحلا له ان يرى في نظامها الدليل القاطع على تأثير المبادىء والنظريات الفلسفية . فالأمة الانكليزية قائمة بالفعل ، ولها حياتها السياسية الخاصة . ومثل هذه الحياة لم تتوفر بعد للفرنسيين ، كما تنعم بنظام تمثيلي وتقاليد مُشبعة بالحرية . ومع ذلك فالسلطة فيها هي في قبضة أقلية . أما المجتمع الانكليزي فاشبه ما يكون حقل اختبار وتجربة ، ومجالاً تجارياً واسعاً .

في هذه المملكة الدستورية ، العرف وحده هو القسطاس الذي يضبط الحقوق الخاصة بالملك وبالبرلمان . فليس من نص دستوري يبين الحدود ويقيم السدود ، والملك جورج الثالث يعلنها عالياً بانه «يرغب في ان يكون هو نفسه رئيس وزرائه». فهو الى جانب حزب المحافظين الذين يحترمون ارادته حتى ولو تعارضت مع اهداف مجلس العموم ، هذا المجلس الذي لا يمثل بالفعل سوى قسم ضئيل من الشعب الانكليزي . فحق الاقتراع هو امتياز وقف اصلاً على كبار مالكي العقارات من اراض ومنازل . فالبلاد برمتها لا تعد اكثر من ٤٥٠٫٠٠٠ مقترع ، فالبورجوازيون اصحاب المهن والمزارعون الاثرياء يؤلفون توابع لاصحاب الاراضي الاغنياء الذين يتقاسمون فيما بينهم المقاعد في مجلس العموم. فالخريطة الانتخابية التي لم يدخل عليها أي تعديل منذ بضعة اجيال، لا تتفق بشيء مع التوزيع الحالي للسكان في انكلترا اليوم . فالمدن المنحطة *Bourgs pourris* ومدن الجيب (*Bourgs de poche*) التي لا تزال مراكز رئيسية للانتخابات بالرغم من انحطاط شأنها ، تبعث في النفس الشك . ان وظيفة النائب العام تشرى وتباع، وثمنها

لا يقل قط عن ٢٥،٠٠٠ فرنك ذهب. والثابت ان ثلثي اعضاء مجلس العموم يُعرفون قبل اوان الانتخابات ، بعد ان تفرض الحكومة وكبار الملاكين إرادتهم على الناخبين الذين يقترعون وفقاً لسجل مفتوح . فالطبقات الاجتماعية الواحدة تؤمن لنفسها ادارة المقاطعات والراعويات وادارة البوليس والعدل وجباية الضرائب . وبالرغم من الاصلاحات التي قـام بها وليم بت" ، لا تزال تسيطر على البلاد جباية مالية بالية يضاف اليها رسم خاص بالكنيسة الانغليكـانية يجبى من جميع اطراف البلاد ، من اتباع الكنيسة المسيحية في اسكتلاندا ، ومن الكاثوليك الارلنديين الذين حُظـّر عليهم القيام براسم عبادتهم . فـالدولة بقيت مذهبية في الصميم ، والمشاجرات الدينية كانت تسمم العلاقات الاجتماعية ، فالتسامح الديني ليس بالفعل سوى كلمة جوفاء، كما هي الحال تماماً مع الحريات العامة . فحق تأليف الجمعيات مع انه حق معترف به رسمياً ، لا يطبق على اتحادات العمال . وحرية العمل هي حرية محدودة في بعض الحالات بمجرد الاضطرار لقبول العمل وفقاً للاجر الذي يحدده القـانون . فالمعوزون الذين يترتب على الراعوية أو الخورانية إعالتهم ، يمكن ابعادهم عن اولادهم وارغامهم على القيام باعمال السخرة . فالطبقات المعدمة هي بالفعل خـارج الحق العام . هنالك قانون وحشي يعاقب على الجرائم التي تجر اليها الحاجـة والفاقة . ان سرقة احدهم ما يزيد على ١٢ نحاسة من جيب جـاره تستوجب عقوبة الموت . والنساء كالرجال هن عرضة لعقوبات الجلد والتشهير .

ومع ذلك ، فهذه التجاوزات نفسها تساعد على تكوين الرأي العام ، هذا الرأي الذي تعبر عنه النوادي والذي يعبر فيهـا عن مطالبه ومتطلباته . فالحركة الراديكالية التي ظهرت عام ١٧٨٠ ، خلال حرب الاستقلال الاميركي جاءت رجع صدى لهـذا الرأي العام . من خطبائها المشهورين *Price* و *Priestley* وتوماس باين الذين وقعوا تحت تأثير افكار روسو السياسية ، وراحوا يطالبون بالمزيد من « الحرية والمساواة والاخاء » . فحرية الصحافة اخذت تهيب بهم الى الاكثار من اكتساب الانصار ، فاستعملوا افانينها على نطاق واسع .

الجمهورية الاميركية

فالمبادىء التي علموا وعملوا بها نراها محترمة ومرعية الجانب في الجمهورية الاميركية. فكل ولاية من الولايات الثلاث عشر لها دستورها المكتوب يسبقه اعلان رسمي لحقوق الانسان الطبيعية التي هي اساس العقد الاجتماعي . فالسلطات يُفصَل بين بعضها البعض كما ان حدود السلطة التنفيذية فيهـا جاءت واضحة جلية . فباستثناء ولاية بنسلفانيا ، يقوم في كل ولاية ، كما هي الحـال في انكلترا ، مجلسان . الا ان حق الاقتراع بقي محصوراً بملكية الارض ، والشروط الموضوعة لمن يحق لهم ان ينتخبوا تحدد من ذاتهـا الهيئة السياسية : يجب على كل من يرشح نفسه للانتخابات ان يكون له من الاملاك ما قيمته ٢٠٠٠ ليرة انكليزية بحيث يحق له ترشيح نفسه لمجلس الشيوخ في ولاية كارولينا الجنوبية . فالحكومة الاتحادية تبدو ضعيفة حيال الولايات التي تتمتع بملء سيادتها . فقد توصلوا الى تأمين توازن بين سلطات مجلس الكونغرس ورئيس البلاد الذي يجسّم رغبات الولايات . فهو بالنسبة لكل ولاية

رئيس الوزراء لكل منهـا . فالحكومة تعود بالفعل لأقلية من المزارعين من ولاية فرجينيا من اصل انكلوسكسون ومن المذهب البيوريتاني . فعجز الحكومـة المركزية يُغضب الجمهوريين ، ومعارضتها تـكاد لا تبرز لهـا صورة ، اذ باستطاعة اي فرد كان ان يجرب حظه في هذه الارض الجديدة التي لا ماضي لها . فليس من عائق يقف في وجه حرية الصحافة او حرية العمل ، او يحد من حق الاجتماع وتأليف الجمعيات ، الا ان الدساتير الـــتي وضعها البيض لهم ولابنائهم ، دون سواهم ، تتجاهل في المجتمع المدني ، جماعـــة الملونين . فليس من يُطالب ، في اي من ولايات الاتحـــاد ، بالغاء الرّق وأوضاع الزنوج تبقى حيث وضعها وكيف تركها عهد الاستثمار الاستعماري .

وهكذا يبدو واضحاً سبق الانكلوسكسون لاوروبا القارة وتقدمهم عليها . فالاوهـــام المتناقلة والحقائق الواقعيـة تسهم جميعاً في تكوين قوة الجذب هذه التي يتمتعون بها في الخارج . فالكل يرى فيهم اول من خلق مجتمعاً اقرب من اي مجتمع آخر ، الى الحرية والمساواة والمدنية تتولى الحكم فيه طبقـات البورجوازية العليا والوسطى . فالاغراء الذي تمثله الثورة الانكليزية واحسن منها الثورة الاميركية ، يبقى قوياً .

ولكن ها هي فرنسا ، فرنسا التي أطلقت « الثورة الفكرية » والتي عبّرت بمثل هـــذا الوضوح عن فكر العصر وروحه ، تعلن ثورة جديدة ، تعالج على المكشوف بصورة علنيـــة و اكثر من اي ثورة اخرى ، المشكلات الكبرى التي تقضّ اوروبا وتُقضّها . فكل مشاكل فرنسا الزراعية ، نجدها في الخارج ، اكثر عدة ، ولا سيا بنسبة غير متساوية ، مشكلة بورجوازية متصاعدة ، نامية ، تزخر بالتطور المادي والروحي وتتخبط في خضّم من الموجبات المدنية ، في مجتمع يحاول ان يعيش .

فبين المجتمـع القديم المبني على الطبقات ، والمجتمع الجديد الذي انبثق عن الثورة الفرنسية ، سيطل على الدنيا صراع يلف العالم بأسره ، الى عام ١٨١٥ ، ويستأثر بتاريخ العالم .

الفصل الثاني

الثورة الفرنسية والعالم

(١٧٨٩ - ١٨٠٢)

اولاً - عدوى الثورة الفرنسية

انضمام المجتمع المستنير

أثارت حدثان فرنسا أول ما أثارته هزة من الدهش والارتياح معاً . فالجرائد والمنشورات الثورية لقيت في جميع انحاء اوروبا وارجائها ، معلقين وشارحين يتناولون تطوراتها بالرضى واليمن بينما تعمل مدينة ستراسبورغ على نشر هذه المطبوعات السرية التي كانت تقذف بهـــا المطابع السرية وتؤمن نشرها وتوزيعها في الشرق . وتحرص الجرائد الاجنبية على نشر اخبار فرنسا بانتظام كلي . واخذت غازيتا فرصوفيا تنشر في اعدادها المتوالية، ابتداءً من ٢٣ ايار ١٧٨٩ ، رسالة يبعث بها مراسلها من فرساي. فجريدة الاتحاد والحرية كانت تصدر ، في باريس ، بالفرنسية والانكليزية . ومما لا شك فيـــه قط ان المحافل الماسونية قامت بدعاوة عريضة للثورة . فبونفيل ، احد اعضاء محفل النادي الاجتماعي، حرص على ان يبعث بسلسلة من الرسائل للمستنيرين في البافيير ، كما ان محافـــل سافوى الاسكتلندية كانت تتلقى كلمة السر من مدينة ليون . وفي سنة ١٧٩٠ ، تُرجمت وثيقة اعلان حقوق الانسان الى عدة لغات واصبحت بذلك رفيق الروح المتحررة التقدمية التي كانت تهب على اوروبا جمعاء ، حتى في اسبانيا نفسها حيث عين ديوان التفتيش اليقظة لم تكن لتغفل لحظة ، وحيث لقيت مبادىء الثورة عنـــد منطلقها ، ترحيباً حاراً ، بالرغم من ملاحقة هذا الديوان لاحرار الفكر وتحرياته الدقيقة لهم .

فها هم السياح و « حجاج الحرية » يتوافدون على فرنسا من كل فج وَصَوْب ، فقد َقدِم من المانيا الى فرساي فورستر والملاك الكبير غليوم دي همبولدت، ومن انكلترا: الشاعر وردسورث، والمحامي الحر التفكير أرسكين ، وبيغوت من فرقة الكويكرز ، الذي سيصبح فيها بعـــد االورد كستاريغ، والامير الروسي الشاب ستروغانوف الذي سيتولى مهمة تهذيب رومة *Romme* ،

عضو مجلس الامة في المستقبل، والذي وقّع سجل التشريعات باسم مستعار هو سكرتير جمعية لعبة التنس ، وحضر مراسم احتفالات الذكرى الاولى للقَسَم المشهور . وقد استقبلت النوادي والجمعية التشريعية ، بكل ترحاب الاجانب القادمين الى باريس . والبارون البروسياني غلوتز تمنى ملتمساً ان يحضر التحالف على رأس وفد كبير من مختلف الاجناس والقوميات ، فيه التركي والايراني ، وذلك بغية الاحتفال بطلائع حلف عام . وطلب مثل هذا الشرف توماس باين وغيره من الرعايا الاميركيين .

فأخبار فرنسا والمشاهد الصادرة عنها تضع في الرتبة الاولى من الاهتمام ، المشكلات المشتركة بين جميع الشعوب . « ان مجهوداً رائعاً في سبيل الانسانية جمعاء » تنهض به فرنسا . فقد رأى «كنْت» في هذا العمل «تطبيقاً للعقد الاجتماعي» كما رأى فيه «فِخْتْ» تأكيداً جديداً للكرامة الانسانية . وسيقوم غوتيه بعد ذلك ، بتقييم اهمية السنين التي عاشها كما صرح بذلك ، على لسان القاضي الاجنبي في النشيد السادس من كتابه : هرمان ودوروتيه ، حيث يقول بأنه « شعر قلبه يكبر في صدره ، وبان دماً اكثر نقاءً فاض على هذا الصدر المتحرر عندما أطلت بوادر هذه الشمس المشرقة وعندما اخذ الناس يتحدثون عن هذه الحقوق المشتركة بين الجميع وعن الحرية المسكِرة والمساواة الفائقة الوصف » . كذلك نجد في ايطاليا بيترو فرّي « وكأن نور باريس يُضيء وطنه » ، وراح فريق من مواطني بولونيا ، امثال ستانسلاس اتازتش وجوليان نيمتفتش يبحثون فيما بينهم القضايا الاقتصادية والاجتماعية ، كما ان اليوناني ريغاس فلستَنْليس يستخلص من مبدأ سيادة الشعوب العناصر التي عليها بنى نظرية القومية . ووثيقة اعلان حقوق الانسان تجد طريقها الى الخارج فتتغلغل بسرعة في جميع ارجاء اميركا اللاتينية بعد ان نقلها فارينو وتم نشرها على يد المهندس الهندي أسْكويخو بالتعاون مع ميراندا واليسوعي السابق بابلو فسكاردو إي غوسمان الذي عرفت « رسالته الى الاسبان الاميركيين » رواجاً عظيماً . وشقيق الكونت ليلييه الذي كان يعمل ضابطاً في صفوف الجيش الاسباني ، يترجم في مقرّه في بونس ايرس « صفحة تروي آخر اخبار باريس » ، وهي وثيقة كان لها رواج عظيم في داخل البلاد . وراح احد شعراء البرازيل يقترح على بلاده ان تتخذ من فرنسا اشبيناً لها ، كما ان تيرادنتس راح يعلن في صحيفة *Minas Geraes* المبادىء التي نودي بها عام ١٧٨٩ .

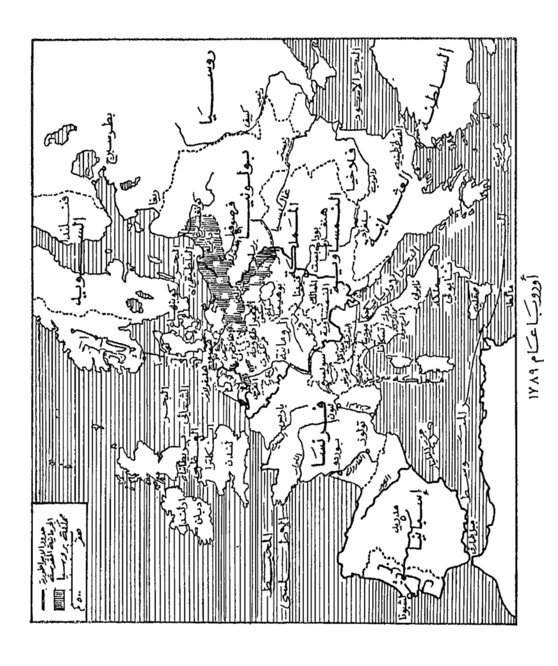
أولى الانتفاضات : ثورات برابانت ولييج

اخذت الاضطرابات تظهر عند جيراننا الاقربين وتمتد فيما بينهم ، فها هي مدينة أفينيون ، آخر مركز للبابوات في فرنسا ، ترذل سلطة البابا وتطلب في ١١ حزيران ١٧٨٩ ، انضمامها الى فرنسا . كذلك ارتفع كل اثر للنظام الاقطاعي من المقاطعات العائدة لامراء الامبراطورية الجرمانية المقدسة في الالزاس ، وقامت اضطرابات في مدينة مونبليار . اما في بلجيكا ، فقد كان سبق لمندوبي الإيالات المتحدة ان نادوا بالعصيان وقاموا بالاضطرابات قبل نشوب الثورة الفرنسية . ففي كانون الثاني ١٧٨٩ ، رفض ممثلو ولاية هاينو التصويت على الاعتمادات التي تطالب بها

النمسا ، فخسروا بذلك الأمتيازات التي كانوا ينعمون بها . وها هم ممثلو ولاية برابانت ينهجون نهجهم في حزيران من تلك السنة . وقد اقسم الامبراطور جوزف الثاني يميناً مغلظة بالدفاع عن امتيازاته ، فراح الاهلون ينادون عالياً بسقوط سلطته . وهكذا ابتدأت المقاومة يقودها الاكليروس والبورجوازية العنيفة . وانقسم الرأي العام في البلاد بين انصار الشرعية *Statistes* الذين تحلّقوا حول فان در نوت واخذوا يطالبون باعادة امتيازات الامبراطور القديمة وبين الوطنيين الذين راحوا ، بزعامة فونك ، يتمنون استبدال السفير النمساوي بسيادة الشعب . والاتحاد الموقت الذي توصلوا الى تأليفه أمّن لهم الفوز والنجاح اذ استطاع فان در نوت الدخول ظافراً الى بروكسل، في ١٨ كانون الاول عام ١٧٨٩ ، ممهداً بذلك الطريق امام تحالف عام لممثلي الشعب ، على اساس ارستوقراطي . واذ صدرت الاوامر والتعليمات بابعاد انصار فونك ، فقد آثر اللجوء الى فرنسا ، وتمكن ليوبولد الثاني الذي برهن اكثر مما فعل والده ، عن مقدرة ادارية ، من اعادة سيطرته على البلاد ، بمساعدة بروسيا ، وذلك في اواخر عام ١٧٩٠ . اما حوادث ليبج فقد كانت من نوع آخر . فالثورة التي نشبت فيها في آب عام ١٧٨٩ جاءت صدىً لحوادث فرنسا الداوية ، وقد وضعت نصب عينيها ، القضاء على سلطة المطران الامير ، يشد من ازرها اصحاب المهن والفلاحون الذين رزحوا تحت وطأة الضرائب الثقيلة والذين راحوا فريسة المجاعة . « وبدون هدر اي نقطة دم ، فقد انهارت الانظمة القديمة ، كما ألغيت التسوية التي يعود تاريخها الى عام ١٦٨٤ . وقد كانت الثورة هنا شعبية وتبنت المبادىء التي سارت عليها الجمعية التأسيسية ، وراحوا ينظمون بيانات بمظالمهم وموضوع شكاياتهم . وتنازل رجال الاكليروس والنبلاء عن امتيازاتهم وعوائدهم المالية . ووثيقة اعلان حقوق الانسان في ١٦ ايلول التي جاءت عندهم اكثر جذرية من اعلان حقوق الانسان في فرنسا ، جددت وسائل تعيين ممثلي البلاد وطريقة انتخابهم . انتهت ثورة ليبج في اواخر عام ١٧٩٠ ، بانتهاء ثورة البرابانت ، لدى وصول القوات النمساوية الى البلاد .

فمثل مدينة ليبج لم يكون شواذاً ولا استثناءً . فالقرارات التي اتخذت في باريس في ليل ٤ آب ، سارت سير النار في الهشيم ، واخذت الانتفاضات وحركات التمرد تنفجر على طول نهر الرين : في كولوني وتريف وسبير . واخذت المناشير الثورية توزّع في كل مكان ، ولسان حال موقعيها يقول : « نريد ان نتحرر من نير الرهبان » . وراح اسقف مدينة بال ، في سويسرا يستعين بالقوات النمساوية لاستعادة سلطته المتأرجحة . وفي جنيف اضطرت حكومة المشيخة ، مرتين متواليتين ، عام ١٧٨٩ ، لتعديل دستور المدينة وراح « المشاغبون » في مقاطعة السافوى يهددون بالاستيلاء عنوة على الحكم . وامتدت الاضطرابات الى ايطاليا ولا سيا الى مدينة ليفورنو وفلورنسا .

والمملكة المتحدة نفسها لم تبق على وضعها مع الاضطراب الديني والاجتماعي الذي انفجر في ايرلندا . وفي هولندا راحت حركة مقاومة قوية تقف في وجه الحاكم العام (*Stathouder*) .



أوروبا عام ١٧٨٩

وعلى منأى من فرنسا ، الى الشرق ، ارتبكت الاوضاع الاجتماعية وزاد القلق والبلبال في عدد من بلدان اوروبا الوسطى واوروبا الشرقية الرازحة تحت الضغط والاستبداد المرهق. فالمجر يتغنون بخشوع بهذه الاشعار من نظم شاعرهم الوطني « بكساني » عندما يقول : علينا ان نحذو حذو فرنسا وان نحطم الاغلال التي تقيّدنا . ويردد هذه اللازمة وطنيون بلغ منهم الحماس كل مبلغ امثال ألويس بتياني . والظاهر ان الامبراطور ليوبولد كان على استعداد كلي للنزول عند مطالبهم ، واخذت الدييت باعداد دستور يضمن للصحافة حريتها كما يؤمن للاهلين حرية العبادة . كذلك أعدّت قراراً بتحرير الفلاحين ، غير ان الامبراطور اختتم اجتماعات الدييت بخطاب بذل فيه الكثير من الوعود البراقة ، وانفرط عقد المجلس دون تسجيل اية نتيجة واقعية. وفي كتابه : «رحلة من بطرسبورغ الى موسكو» ، يحبّذ رادتشيف إلغاء عبودية الارض التي ينسب اليها كل الشرور التي تتألم منها روسيا. وفي بولونيا يلجأ الوطنيون للقيام بحركة انقلاب ويفرضون على الدييت وعلى الملك في ٣٠ ايار ، دستوراً جديداً اعترف للبورجوازية بحريات واسعة ، مع تأكيده الاعفاءات والامتيازات التي تتمتع بها طبقة النبلاء ورجال الاكليروس. والحكومة الدستورية التي تألفت في اعقاب الحركة الوطنية قوي جانبها من جراء إلغاء حق الرفض *Liberum veto* . وهكذا وُضع حد للفوضى في البلاد واصبح في مقدرة الحاكم ان تقضي في الناس دون الاخذ بالوجوه وان تحكم بلاداً تحاول استرداد قوتها واستعادة مكانتها .

ردود الفعل الارستوقراطية وموقف الملوك

هذا الهيجان العام مبعثه ، الى حد بعيد ، الف سبب وسبب . فقد انتهت هذه الانتفاضات بالفشل ، الا في ليبج . الا ان عدوى الثورة ونقلها الى الخارج اصبح بالفعل الشغل الشاغل ، كما انها اصبحت مفزعة الاوساط الاجتماعية ذاتها كما كانت في فرنسا ، ومفزعة فئة الامراء واصحاب الامتيازات ومن يقول مقالتهم او يعتنق نظراتهم الفلسفية ، وغيرهم عناصر عديدة من البورجوازية الثرية او المستنيرة التي اثارت الفتن والاضطرابات المخاوف في نفوسها ، كما انها أوجست شراً من هذه القلاقل وسياسة اللف والدوران والتهجم على النظم والهيئات الدستورية في البلاد . فالامراء الالمان يخشون ان يصيبهم ما اصاب زملاءهم في مقاطعة الالزاس وقد كتب الامبراطور ليوبولد للملك لويس السادس عشر ، في كانون الاول عام ١٧٩٠ عن تمنياته « في اعادة الحقوق السيادية الى اصحابها ، وارجاع كل ما اطاحت به الثورة الى ما كان عليه من قبل . وقد اقام فلوريدا بلانكا حول جبال البيرانيس ، ما بين فرنسا واسبانيا صفاً من الجند يحول دون انتقال العدوى الوخيمة الى اسبانيا ، وراح البابا بعد ان رذّل دستور الاكليروس المدني الذي سنته الثورة ، يحرّض الدول الكاثوليكية على فرنسا ، كالبافيير والبرتغال ، وبعد ان اخذت النخبة المستنيرة في المانيا تتأرجح في موقفها من الثورة الفرنسية ، انقلبت في نهاية الامر « ضد أكلة لحوم البشر في باريس». واستقر الرأي عند « كنْت» و«فخت»

وغوتية على ان الفرنسيين الضالين هم غير اهل لهذه المثل العليا . وانكلترا خرجت في نهاية الأمر عن تحفظها ، وفي النداء الملكي المنشور بتاريخ ٢١ ايار عام ١٧٩١ والمعزو إعداده الى « بت» ، يعلن هذا الاخير جهاراً انه يتخذ موقف الهجوم ضد المبادىء الفرنسية. و«بورك» الذي وقف وحده تقريباً ، عام ١٧٩٠ ضد مبدأ المساواة بوزارة الاكليروس الانفليكاني ورجال الادارة ، يبدو الآن وكأنه احد الانبيـــاء . امـا حزب الاحرار فينقسم اعضاؤه رأيـاً . فاتخذ المسؤولون من الوضع القائم عندهم حجة ليؤجلوا الاصلاحات التي كانوا باشروهـــا كما انهـــم وقفوا ضد الاحرار .

فمن هنا للتدخل الفعلي لا يزال المجال بعيداً . فقد نظر الملوك الى احداث فرنسا كمظهر من مظاهر أزمة عابرة ، حلها بين يدي حكومـة لويس السادس عشر . وكانوا مرتاحـــين الارتياح كله لهذه المصاعب والمشكلات التي من شأنها ان تفت من عضد الدولة المجـــاورة . والحروب التي قامت في القرن الثامن عشر ، جعلت الدول ذات الحكم المطلق تنتصب في وجه بعضها البعض . ففي غرة عام ١٧٩٠ ، نرى النمسا في حرب مستعرة مع تركيا ، وروسيـا في حرب مع تركيا والسويد . وبروسيا تعارض في كل مكان النمسا وتقف في وجهها ، ومستشار كل من النمسا وبروسيا اللذان يجتمعان في شباط عام ١٧٩١ ، يهتمان بشؤون بولونيا اكثر مـن اهتمامها بشؤون فرنسا . فهما يقفان موقفاً متأرجحاً باستمرار بين هذين القطبين : فرصوفيـــا وباريس . ومن جهة ثانية أخذت الجمعية التشريعية تدل على رغبتها في السلام ، كما تشهد على ذلك حادثة نوتكا . فقد صرحت عالياً في ٢٢ ايار عام ١٧٩٠ : «انها لن تمتشق السيف قط ولن تلجأ ابداً للسلاح او تستخدم قواها لسلب اي شعب حريته» ، وتحدد مفهوم الجندي المواطن ،وتجرد الملك من حق اعلان الحرب وعقد السلم .

ومع ذلك نرى النوادي والصحافة في باريس ، اشدّ جرأة من الجمعية الدستورية . فقـد مر معنا كيف ان الجدل الثوري ارتدى ، عام ١٧٩١ ، طابعـاً دوليـاً . فالديموقراطيون أخذوا يرفعون عقيرتهم عالياً : « على كل امة نبيلة وفخورة بحريتها حتى النزول الى عقلية الفتح ان تعلن انها لا ترغب بأن تهين احداً كما انها لا تطيق ان يلحق احد بها اية إهانة» (روبسبيير). وبعد ان فشل كميل دي مولين ، عام ١٧٩١ من جراء التطورات التي اتخذتها احداث بروكسل، نراه يضيف على كتابه : « ثورات فرنسا والبرابانت » عنواناً فرعيـاً رمزيـاً هـو : « ثورات فرنسا والممالك التي تطالب بجمعية تأسيسية والتي ترفع العـلم المثلث الالوان ، هـي حرية بان تحتل مكاناً مرموقاً في تاريخ البطولة » . واليعقوبيون يقابلون بالتصفيق الحاد الخطب الحربية التي يلقيها الوطنيون اللاجئون ويدعون الجمعية « لتحسن الافادة دونمـا إضاعـــة في الوقت ، من هذا الاحترام العميق ومن هذا الشعور الديني العارم الذي عرفت الجميـــة التأسيسية ان تفرضـــه على جميـع ارجاء اوروبا ، وذلك في سبيل القيـــام بتطور خلاق على يد قواتهـا » .

وبالمقابل ، نرى النفوس على خير استعداد للقيام بصليبية مضادّة للثورة يدعو لهـا وينهض بها ملك السويد غوستاف الثالث ، بتحريض من روسيا. والامبراطور ليوبولد يوقع ، من جهته ، صلحاً مع الاتراك ، فتسارع الامبراطورة كاترين الثانيـة للسير على نهجه ، وتعقد كل من بروسيا والنمسا اتفاقاً خاصاً حول القضية البولونية. ومع ذلك، فهما يتورعان في امر تدخلهما في الغرب. الا ان النداء الذي وجهه الملك لويس السادس عشر ، ومحاولته الفرار ، والاهانات الـتي لحقت بجلالته ، والتحديات المتتالية من قبـل اللاجئين ، كل ذلك وما اليه ارغمهما على التدخل . فمع تصريح بلنتز وبعـده ، لسنا بعدُ امام الحرب مع فرنسا . فما هي الحرب ضد النظام الجديد ، الحرب ضد الدستور الذي سيطلع بـه علينا عام ١٧٩١ ، هذا الدستور الذي يكوّن تهديداً لا يمكن للنظام الاجتماعي السائد ولا يصحله السكوت عنه. وهكذا يتأزم الموقف من كلا الجانبين. ولن يلبث ان اتضح جلياً انه لا مجـال للتفاهم قط بين الثورة وبين اوروبا القديمة . وبعد ذلك ببضع سنين ، في أبان المعمعة ، تبدّى الامر لجوزف دي ميستر على الشكل التالي : « ان الثورة في صميم عقيدتها هي عدوة لكل الحكومات ، اذ انها تنزع الى تقويضها جميعاً بحيث يصبح من مصلحة الجميع القضاء عليها » .

٢ - الحرب الاجتماعية الدولية
(١٧٩٢ - ١٧٩٥)

صراع في سبيل الدفاع عن المدنيـة

الثورة هي الـتي تقوم بالمبادرة . فبالرغم من تحذيرات روبسبيير لليعقوبيين ، قـام المجلس الوطني ، باعلان الحرب ، في ٢٠ نيسان ١٧٩٢ في نشوة من الحماسة الوطنية ، اذ عارض سبعة من اعضاء المجلس لا غير ، اعلان الحرب .

وهذا الصراع لم يُعتم طويلاً حتى ارتدى طابعـاً مميزاً . فهو ليس من هذه الحروب التقليدية القديمة النمط ، بل هي حرب من طراز جديد ، حرب اجتماعية دولية تتصدى لنظريات مضادة في الصميم ، قائمة في العالم. فالرعب الذي تبعثه الثورة يسيطر على مؤخرة الجيش البروسياني القائم بالغزو ، بينما يسيطر على جو باريس هلع يُسمّر الخوف في قلوب السفراء الاجانب . فالكومون تتصدى لهـم في العاشر من آب وتحتجز حقائبهم الدبلوماسية ، فيطالبون بتسليمهم جوازات سفرهم ويركبون البريد في طريق عودتهم الى بلادهم ، وبعد ذلك ببضعة اشهر ، اقامت محاكمة الملك وتنفيذ حكم الاعـدام به ، اوروبا القديمة واقعدتها : وباستثناء سويسرا ودول سكنديناڤيا، وجدت جميع دول اوروبا نفسها في حالة حرب . وهذا الصراع لاسباب متعددة ، منها احتلال جيوش فرنسا المظفرة البلاد الواطية النمساوية ، في الاشهر الاخيرة من عام ١٧٩٢، وفتح منافذ نهر الإسكو ، وكلاهما يؤلفان حالة حرب مع انكلترا نفسها التي كانت تطمع ، من وراء ذلك، الى احتكار الحركة التجارية مع المستعمرات وتأمين المنافع الطائلة التي تؤمنها سيادتها على البحار. و« پت»الذي عُرف بتردده حتى الآن،لم يلبث ان اصبح المحرك الأكبر للأحلاف ضد فرنسا. وقد اخذت الدوائر الدبلوماسية في متابعة اعمالها التقليدية مع الظاهرة الجديدة التي تشكلها

الثورة الفرنسية . ان تدخل الملوك يجب الا يكون مجانـاً . وهذه الظاهرة الجديدة هي الشيء الاساسي . واخذوا يبررون هـذه الحرب الشاملة ، في نظر الرأي العام ، ويصورونها كضرورة للحفاظ على شكل جديد أطل على المجتمع . فلنترك لـ «بت» التعبير عن وجهة نظر المتحالفين ضد الجمهورية والمجلس الوطني وباريس :

باريس لم تعد سوى مثوى الاشرار او قطيع من العبيد. فالثورة الفرنسية تهديد لكل قيم الحضارة . هي قضية موت او حياة للمدنية .. لسلامة اوروبا وللمجتمع المدني . علينا ان نستعد لحرب طويلة الأمـد ، لحرب دائمة الاشتعال والاضطرام الى ان تقضي على الوباء القتال .

فقد ترك التاسع من ترميدور الوضع سليماً ، مع انه زالت من الوجود بعض خصائص النظام ومقوماته المفردة . فالمهم باقٍ . وليس من يغفـل عن باله قط ان الحرب نشبت بين الثورة واوروبا . فالثورة بقيت ، كما سيلاحظ جوزف دي ميستر بعد حين ، « شيئاً شيطانياً » سواءً بوجود روبسبيير او بدونه ، في الحين الذي يهيب به بورك ، بين ١٧٩٥ – ١٧٩٧ ، بالعـالم المتمدين لمحاربة حكومة الديركتوار القاتلة للملك .

من المعروف جيداً ان في مثل هذا الصراع ، ستجد اوروبا ، حتى في فرنسا الثورة نفسها حلفاء طبيعيين لها . ويتحتم على الحلفاء ، بالمقابل ، ان يحموا انفسهم ، في عقر دارهم بالذات ، من خطر ثوري ثانٍ . وستستمر الثورة الفرنسية في اثارة الاصداء الموالية لها في بعض الاوساط البورجوازية المتحررة والشعبية ، بالرغم من الدعاوة الـتي يستغلها المتحالفون ويبنونها على واقع الارهاب الذي ساد فرنسا مدة من الزمن . ويحاول الملوك خلق هول ابيض حولهم. فقد بادرت الامبراطورة كاترين الثانية – وكانت الاولى بذلك، في اوروبا - اقفال المحافل الماسونية وامرت بابعـاد رادتشيف الى سيبيريا . وجرى توقيف المحامي المتحرر ثوريلد ، في ستوكهولم ، في كانون الثاني ١٧٩٣ . ويجري في جميع انحـاء اوروبا ، رذل المبادىء الثورية ، كما حلت كل المنظمات الطلابية ، حتى انهم حرموا مطالعة مؤلفات «كنت». واشتدت التحريات في كل من البافيير وبودابست وفيينـا . وفي تشرين الثاني ١٧٩٤ ، تم توقيف مارتينوفلش والمنغاريين المطالبين بالانفصال . وقامت في نابولي عصبة من الملكيين تلاحق بمؤازرة رجال الاكليروس ، الديموقراطيين وتحكم عليهم بالموت . وفي شبه الجزيرة الايبيرية استحال ديوان التفتيش بوليساً سياسياً . واتخذت انكلترا ، من جانبهـا ، منذ كانون الثاني ١٧٩٣ ، اجراءات مشددة تتصف بالعداء . واتاح إقرار القانون الخاص بالاجانب *Alien Bill* ، للحكومة الانكليزية ، ابعـاد الاجانب من بلادها. و « باين» الذي كان عضواً في المجلس الوطني ، حكم عليه غيابياً ، وقامت تحريات شديدة ضد المحامي مُوير الذي كان سبق له واتجه الى باريس ، منذ عهد قريب ، وراح بيت يستثمر مشاعر الوطنيين ، فأصدر قراراً شجب فيه كل المبادىء « الهدامة » باعتبارها من مصدر فرنسي . وفي اسكتلاندا ، ارتدت « مطاردة المشبوهين » مع دنداس ، طابعـاً من التعصب الشديد . وفي اواخر تشرين الثاني ١٧٩٣ ، اجـاز مجلس النواب البريطاني ، القيام

بتحريات واسعة وباعتقالات تعسفية، وراحوا يجلدون «كل من يَزْدرون او يُشَهّرون بالدستور البريطاني المجيد» . وقد حُكم بالموت في اسكتلاندا، على عضوين من رابطة الجمعية التأسيسية، كما جرى ابعاد موير الى خليج بوتني . اما في لندن ، فمن اصل ١٣ شخصاً حامت حولهم التهم وتولى ارسكين الدفاع عنهم ، من بينهم توماس هاردي ، ثلاثة فقط برّئت ساحتهم . وقامت الجماهير في لندن تنظم للمحامي المحافظ حفلات شائقة . وتؤكد *Annual Register* في اواخر عـــام ١٧٩٤ ، ومطلع ١٧٩٥ « ان طبقات الشعب السفلى » في « كل انحاء اوروبا » تصف هذا التحالف الذي قام ضد الجمهورية « بحرب الملوك ضد الشعب » . وقد عزوا هـــذه النتائج الى الدعاوة الفرنسية .

المقاومة السرية في الخارج

لا شك قط في ان هـــذا الضغط المرهق اوجد فراغاً كبيراً في صفوف رجال الفكر الاحرار ، بعد ان حُمل فريق منهم على النكوص ، امثال غوتيه وشيلر او ألفياري، كما اضطر فريق آخر منهم ، للجوء الى فرنسا امثال كرامر . الا انـــه ساعد على ترسيخ ودسورث في آرائه . وتعمد المقاومة الى التخفي ويزداد نشاطها عمقاً بين الجماهير التي تتضرس بالحرب وبمـــا صار اليه الوضع الاقتصادي في اوروبا من دهور ، أضف الى ذلك المساوىء التي جرّتها وراءها الأزمة الاقتصادية الدولية التي اشتدت وطأتها بين ١٧٩٤ – ١٧٩٦ . فالمواسم البائرة التي تميزت بها اعوام ١٧٩٢ و ١٧٩٤ ، واستيفاء الرسوم والعوائد السيادية تنكشف عن اضطرابات اجتماعية في سويسرا ولا سيما في مقاطعة سانت غال وفي القرى الواقعة على حدود مقاطعة البيامونت . وتتخبط بروسيا نفسها في غمار ازمة عنيفـــة فيقوم العمال الصناعيون في كل من سيليزيا وبرلين بفتن هوجاء في مدينة برسلو . وجرت مشاغبات صاخبة في اسبانيا رمت للتخلص من غودوي . وفي بولونيا قامت فتنة ، في تشرين الثاني ١٧٩٤ رفع فيهـــا الشباب الثائر العلم المثلث الالوان داعين الشعب الى الثورة والتمرد . واكتشفت في « بالرمو » مؤامرة حاكها الاحرار كما اعلن الفلاحون الثورة في مدينة بازيليكا . اما في جنيف فقد نجحت الحركة الديموقراطية التي انفجرت فيها ، خلال تموز ١٧٩٤ وامتدت الى مقاطعة زوريخ . اما هولندا فقد بلغ من تأصل الروح اليعقوبية فيها واشتداد سيطرتها ما هيّأ للنتائج الرهيبة التي وقعت فيهـــا . كذلك تكاثرت الفتن في انكلترا نفسها : في لندن وبرمنغهام احتجاجاً على نظام القرعة ، وفي ليفربول ضد حريـــة الصحافة التي دعوا للتخلي عنها . اما في الريف فقـــد أثارت *Enclosures* جرائم زراعية . وقد خففوا من حدّة الحصار البحري بمنع الحظر على القمح . والالتماسات توالت دراكاً من المدن الكبرى . وقامت في البلاد تجمهرات ضخمة راحت تنادي في نفس لندن بالذات : «كفانا «بت»، كفانا حرباً ، اننا نريد خبزاً » .

حرب الدعاوة وانتشار التيار الثوري

فالحرب ، في فرنسا بالذات ، هي من طراز جديد . ان فكرة بعث عالم جديد تختمر في النوادي فتردد الصحافة صداها عالياً . فالنظام الديموقراطي سيعم اوروبا جمعاء ، من الرين الى روسيا . وتتبلور هذه السياسة بعد معركتي فالمي وجيماب . والمرسوم الصادر في ١٨ نوفمبر نص عالياً على ان « الامة الفرنسية » ستجود بالاخاء وبالمساعدة على جميع الشعوب التي تتحسس عميقاً الرغبة في استرجاع حريتها المهيضة . فالاقربون هم ، بالطبع ، أولى بالمعروف ، ولذا بادرت القوات الفرنسية باحتلال بلادهم . ويحرص المرسوم المذكور على التنويه بالنظام الرَخيّ الذي سينعمون به بعد الاحتلال . اذ ينص على « الدفاع عن المواطنين الذين يتعرضون للمظالم ولعبث العابثين أو يمكن لهم ان يستهدفوا لهذا كله من جراء حرياتهم ». فنحن هنا امام دعوة مباشرة الى الحرية اكثر منه عرضاً لها . وقد اتضح ذلك جلياً بعد شهر من هذا التاريخ ، وذلك بصدور القرار المؤرخ ١٥ — ١٧ كانون الاول الذي يعلن عالياً ان الأمة الفرنسية ستعامل معاملة بلاد عدوة البلدان التي تختار لنفسها النظام الملكي أو النظام الطبقي القائم على الامتيازات ، بينما هي تدعم استقلال البلدان التي « تقوم فيها حكومة شعبية حرة » . وهكذا نحن امام نظام حماية ثوري يُعرض على الدول أو يُفرض على البلدان التوابع الدائرة في فلك الثورة الفرنسية . وقد ذهبوا بالفعل الى ابعد من ذلك بكثير . فهذه القوى الاجتماعية والوطنية التي تحتدم حماسة في فرنسا ، فرضت على الدولة انتهاج سياسة خارجية معينة ترمي في المدى البعيد ، لتحقيق حدود فرنسا الطبيعية . والنظام الجديد يتطلع بانظاره الى المجد الاثيل الذي يصيبه من تحقيق هذه الاهداف. فالمؤتمر الوطني يضع كل اعتماده على هذه العناصر الثورية المحلية ، ايا كان طابعها : اكثرية كانت أم أقلية ، ليس الأمر بمهم قط . وتعقد هيئات تمثيلية تحت اشراف مراقبة جيش الاحتلال ، وتتخذ قراراتها بالانضمام الى فرنسا . ومنذ اواخر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٩٢ حتى نهاية آذار ١٧٩٣ ، يحتفل المجلس الوطني بضم السافوى وكونتية نيس والبلاد الواطية النمساوية ومقاطعة رينانيا ومقاطعة بورانتراي الصغيرة (بالقرب من مدينة برن) .

الا ان الفشل الذي لحق بالجيوش الفرنسية عام ١٧٩٣ ، والمقتضيات الجديدة للحرب ، اضطرت المسؤولين على انتهاج سياسة أخرى ، أقله في الظاهر . ففرنسا تقف موقف المدافع عن نفسها . فالأمر لم يعد حرب تحرير شاملة كما نص على ذلك مرسوم ١٨ تشرين الثاني. وعلى عكس ذلك تماماً ، قرر المجلس الوطني في ١٣ نيسان ، بناءً على اقتراح دانتون « بألاّ يتدخل باي صورة من الصور في شؤون حكومات الدول الاجنبية » . والدستور الذي صدر عام ١٧٩٣ ، يؤكد: « بألا يتدخل الشعب الفرنسي قط في شؤون الدول الأخرى» . وبعد ذلك بخمسة اشهر ، يصرح روبسبيير بأن الحرب الباردة أو حرب الدعاوة التي يشنها الجيرونديون هي « حماقة مكيافيلية ليس إلا »، « اذ انهم يلحقون الاهانة بالطغاة فيخدمونهم من حيث لا يدرون» ففوق اختلافات الفرقاء ، ووراء الظروف التي تشجع احياناً أتباع دانتون على المصانعة تستنّ الثورة

السياسة الخارجية التي تتفق والقوات الموضوعة تحت تصرفها . الا انها تفضل الف مرة ان تسقط وتدفن تحت الانقاض ، كما صرحت بذلك ، في ١٣ نيسان ، من ان تقبل أو ترضى بأي تدخل اجنبي في شؤونها . كذلك لن ترضى قط بالتخلي يوماً عن البلدان التي انضمت للجمهورية، لهؤلاء الطغاة الذين دخلت معهم في حروب مميتة، ما عدا بعض التعديلات التي يجريها «الشعب الفرنسي» الذي جعل منه الدستور الصادر عام ١٧٩٣ ، « الصديق والحليف الطبيعي لكل الشعوب » . فهو لن يتخلى قط عن حمل مشعل الثورة الى كل مكان ، كلما استطاع الى ذلك سبيلا . وحاول روبسبيير نفسه ان يجعل الدستور الصادر عام ١٧٩٣ ينص على : « ان الملوك والارستوقراطيين والطغاة » ليسوا « سوى أرقاء ثاروا في وجه ... الجلس البشري » . وقد حاولت مصادر ادبية ضخمة تعميم هذا المبدأ ونشره في كل مكان، هذا المبدأ الذي وضع موضع التنفيذ، سياسة المجلس الوطني ولجنة السلامة العامة ، وهي سياسة واقعية من ناحية أخرى لم تعد لتنتقص بشيء من قوة النظريات المحافظة على سلامة الشعوب . الا اننا لم نرَ قط ان الحرب التي تعني كفاحاً مريراً بين نظامين اجتماعيين مختلفين ارتدت مفهوماً على مثل هذا الوضوح والجلاء .

والترميدوريون الذين لم تقم عندهم مثل هذه اللغة ، والذين استفادوا من وضع عسكري ملائم جداً ، اخذوا على انفسهم تطبيق هذه السياسة والنهوض بتطلباتها ، الى الحد الأخير . صحيح ان انصار الملك واعضاء حزب اليمين يتمنون ، هم الآخرون ، تحقيق «الحدود الطبيعية» للبلاد . الا ان الرأي العام الذي كان يحن عميقاً الى السلم والسلام وقف منها موقفاً معادياً ، ومثل ذلك واكثر الجيش الجمهوري . فما من حكومة بلغ منها التردد والحيرة مبلغه ، تستطيع ان تتجاهل هذه التيارات الفكرية العاصفة . الا ان المصلحة العليا كانت تفرض سلماً دولياً ، اي تحقيق الحدود الطبيعية، سلماً يرسّخ اكثر من أية وسيلة أخرى ، أمن الثورة ، ويضمن السلامة والطمأنينة ويشيد نفوذ من قاموا به في عيون العالم اجمع . فحرب الدعاوة وتحقيق حدود البلاد الطبيعية ، ليس في الواقع سوى وجهين أو مظهرين لشيء واحد ، الا وهو النشر العفوي للثورة. والقضية لا تنتهي بمجرد عملية انقاذ اخوي على حساب المنقذ ، بل بالضم على حساب البلد المضموم ، هذا الضم الذي يمكن وصفه أو نعته بأنه جاء محققاً للمصلحة ، اذ ينقذونه من ضغط وقسر الطبقات الممتازة . فبدلاً من الضم القديم الطراز الذي كان يحترم النظام القائم في القطر الذي جرى ضمه ، قام ضم آخر من نوع جديد ، الذي يجري فيه قلب النظام رأساً على عقب لخير السواد الاكبر من سكان البلاد . فليتم تعميم الثورة ونشرها تحت ستار الا ***Sans Culottes*** أو بدون البورجوازيين دافعي الضرائب : فالامر سيان . فالفتح يأتي وفقاً لطبيعة الاشياء وجوهرها . وهكذا تتمثل عام ١٧٩٤ و ١٧٩٥ الحدود الدائرية الفرنسية . وسترى سنة ١٧٩٥ اول جمهورية تدور في فلك فرنسا الثائرة ، هي التي تتكون من الإيالات المتحدة .

وهذه الحرب تعمد من كلا الطرفين القائمين بها ، للذرائع والاعتدة التي تأتلف وطبيعتها . وهي ذرائع طبيعية ، تقليدية لدى الحلفاء الذين لا يفكرون بالنهوض بالحرب على غير الاسس التي نهضت بهـــا الحروب السالفة . فالحرب عندهم هو مواقعة الملوك الذين اعتـادوا ان يحشدوا جيوشهم على الطريقة التي سادت عهد لوفوى . فقد اصبح من المتوجب الآن اذكاء الحماسة والهـــاب النفوس ضد العدو ، تحقيقاً للاماني التي جاش بها صدر ماليه دي بان وفرسن ، أي « انشاء لجنة تسهر على السلامة العامة في اوروبا » . وبمختصر القول، فقد كان من اللازم الغاء أو أقله زحزحة هذا النظام القديم الذي يحارب الحلفاء في سبيل الحفاظ عليه ! فـ «بت» نفسه لا يجسر على توجيه نداء للامة الانكليزية خشية منه على الديموقراطية .

مناهج الدبلوماسية التقليدية والحصار البحري

تقليدية ايضاً الحرب التجارية التي يشنها الانكليز . فهي ترمي لتهديم مالية فرنسا وتخريب تجارتها . ففي مطلع ١٧٩٢ ، عبثاً راح النازحون يقترحون على ملـــك بروسيا طرح اسينياه مزورة في التداول . اما «بت» فقد اغرق البلاد بها مرتين . كان لا بد من التداول ، في باريس بسندات على لندن تسهيلاً لتهريب العملة . فبعد ان صدر «بت» الحظر على بيع الاسلحة والمواد الغذائية التي لا بد منها للجيوش ، اضاف الى ذلك الحبوب والطحين . وقـــد اصدر امراً في ٨ حزيران ١٧٩٣ «بمصادرة كل سفينة تحمل مواداً غذائية الى فرنسا مهما يكن العَلَمَ الذي ترفعه» . فانكلترا تراقب الشحونات وبواسطتها التجارة بين المحايدين ، وتضع قانوناً بحرياً يخدم مصالحها في الدرجة الاولى ، وتمنح أذونات وتسهيلات تصدير مشجعة ، وتحـاول ان تكتسب مؤازرة الولايات المتحدة الاميركية بحيث تحتفظ لنفسها باحتكار الحركة التجارية في المستعمرات .

تقليدي ايضاً النشاط الدبلوماسي . فالمدى الثوري يقع ضمن أطُر اوروبا القديمة . فسواءاً التفت" شرقاً أو غرباً وقعت عيناك على مفاوضات تدور حول التوسع والتقسيم . وهـذه اللقم ينالها اصحاب المطامع تزيدهم انقساماً بعضاً على بعض كا تذكي فيهم سورة النهم للمزيد، ولكل منهم حربه الخاصة والشهوة الآنيّة تعبث بحدود الاتفاق المرسوم . فاقتسام بولونيا ، يلهي الى حين، بين ١٧٩٣ – ١٧٩٥ الفرقاء الشرهين: بروسيا وروسيا والنمسا. واذ استثنيت هذه الاخيرة من عملية اقتسام المغانم ، عام ١٧٩٣ فقد ترك لها ملء الحرية ، لتعوض عن حرمانهـــا ، من جهة الغرب ، فتبتلع مقاطعات الالزاس والفلاندر والهاينو . فيرحب كونتز بهذا الاقتراح الذي وقع من نفسه موقع الرضى والقبول . ففي محافظة الشمال يرفض ساكس كوبورج ، عام ١٧٩٣، المناداة بلويس السابع عشر ملكاً كا يرفض السماح للنبـــلاء النازحين بالعودة للمقاطعة . وفي تموز ١٧٩٣ ، تعترف انكلترا باقتسام بولونيا ، فاذا ما رفضت العمل بالمشروع النمساوي الرامي لمقايضة الإيالات المتحـدة بالبافيير ، فهي تقترح على النمسا مط حدود الولايات البلجيكية في الجنوب حتى نهر السوم . وهكذا نرى ان « الاربعة » لا يفكرون الا بمصالحهم الخاصة . فقد أبوا ان يرموا بالكراع الى حلفائهم الصغـــار وبقيت اسبانيا صامدة في وجه مطالب لندن

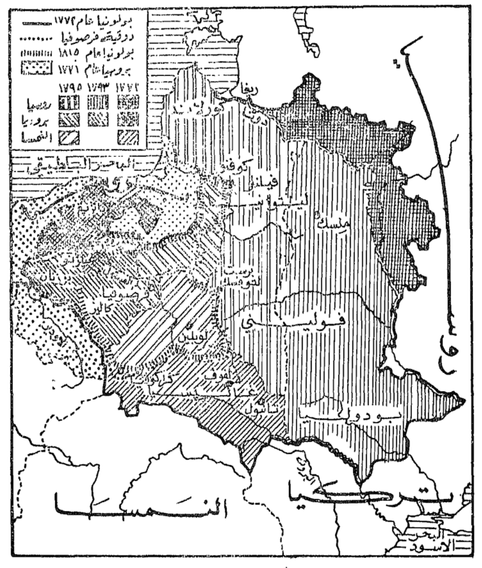
التجارية في اميركا اللاتينية .

جيش الثورة وتمويل الحرب

اما فرنسا فهي واحدة ، موحدة وتقوم بالحرب على نهج جديد ، نهج الحرب في القرن العشرين ، حيث يأخذون بحشد الجيوش دون ان يبالوا بشيء : بالناس والمال . ففي ميزان القوى ، فستلقي ، في المعركة، بكل مواردها المادية والروحية ، هذه الموارد التي تكمن في ٢٦/٢٧ مليوناً من سكانها ، بينهم مليونان ممن تتراوح اعمارهم بين ٢١ - ٣٠ سنة .

وفرنسا ، باستثناء روسيا وحدها، هي أغنى دول اوروبا بالرجال. فعملية الصّهْر والذوبان لا تلبث ان تمزج معاً ، في جيش واحد ، الفئات المجندة حديثاً « القيشاني الأزرق » بالجيش الملكي القديم « الفرسان البيض » . فالمصادرة والتعبئة العامة يقضيان على كل شعور بالوجل لجهة العدد . وفن الحرب وتعبئة الجيوش على نمط فني جديد عرف ان يفيد الى اقصى حد من الكمية أو العدد . فالتكتيك الحربي ، يضع في وجه العدو ويوجه في هجوم ساحق، وحدات من الجيش يحسن الضباط الافادة منها في المعركة ، الى اقصى حد . فالشجاعة والتمرس الطويل بامور القتال يُستغنى معهم عن تدريب تقني طويل سابق . فكارنو رجل الحرب الهجومية الامثل يتحمل مسؤولياته ويولي القيادة الشبان : هوش الذي كان عريفاً عام ١٧٨٩ يقود جيشاً وله من العمر ٢٥ سنة . وفرنسا ٌتطْلِع اذ ذاك ، أخصب ما عرفته عبر عصورها من رجال الحرب جيلاً من نوابغ قادة الحرب مموّلة في ذلك على معين لا ينضب من طبقات البورجوازية الصغرى والمتوسطة . ان تطهير أُطر الجيش العليا ، والاختلاف الطويل الى النوادي وقراءة الجرائد الصحف ، واستعهاد ممثلي الشعب في مهمات المراقبة ، كل هذا وما اليه رفع الروح المعنوية في الجيش وأذكى نار الحماسة بين وحداته .

كل شيء في سبيل الجيش ، وفي سبيل تأمين ميرة الجيش وذخيرته تجنّد كل موارد البلاد . فالاسيئناء تشكل مورداً لا ينضب كا ان البلاد التي تم « تحريرها » والبلاد العدوة نفسها تتناهد في سبيل تأمين ميرة الجيش وعتاده . على المرء ان يواجه الواقع . فالنهوض بهذه الاعباء وتوفير كل أسباب النجاح لقضية الثورة التي هي بالفعل قضية مصير الجنس البشري ، فلا قِبَل للمنقذ وحده ان يتحمل الأعباء الباهظة المرزحة . فمن استمر ينظر الى الأمور القائمة بمنظار العهد القديم ، يجد من الطبيعي ، بالرغم من اندفاعه للدفاع عن الجديد ، ان تغتذي الحرب بالحرب . « فمن رغب في النتائج تحتم عليه استعمال الوسائل المحققة لها » كا جاء في صحيفة المونيتور ، في عددها الصادر في ٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٧٩٢ . «فالتبرعات هي من وسائل الحرب العادية الا انه عندما تنتضي الأمة بأجمعها السيف وتشهره في وجه العدو ، فالويل لمن يتبنى هذه النزعة الانسانية التي تحاول، في غير اوانها، ان تفل منه الحد او تثلم منه الشفار ». وتقرباً من الفلاحين وكسباً لثقتهم ، سيعمدون قريباً لاعلان الحرب على « الصروح والقصور » وتأمين السلم والسلام



اقتسام بولونيا الخماسي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

« لساكني الأكواخ » . الا ان اعمال المصادرة والتداول بالاسينياه ، يجعل هــذا التمييز في غير محله . فلجنة السلامة العامة تفرض على البلاد المحتلة تضحيات غالية : « قهر العدو والعيش على حسابه هو قهره مرتين » . وفي ايلول ١٧٩٣ ، اصدرت هــذه اللجنة الى القواد تعليمات تقضي بجمع السلاح من بين أيدي الأهلين ، وأخذ الرهائن منهم وفرض الضرائب على المدن، ومصادرة المواد الغذائية والخيل والمعادن والأواني الفضية ، واتلاف الكباري والممرات المائيـــة ، ونزع البلاط من الطرقات . فماذا يقول الناس عن هــذه الأمور كلها ! « فعلى نسبة عظمة التضحيات التي يقومون بها وضخامتها يكونون أهلاً للحرية » . والجيوش تتحول بواسطة مفوضي الشعب الى مُرضع الجمهورية ومُعيليها ، بعد ان أوجدوا وكالات خاصة تعنى باستخلاص مـــا يمكن استخلاصه او انقاذه . فكل ما لا يمكن حمله يُتلف في مكانه . وممثلو الأمة الذين يُعهد اليهم بمهمات رسمية ، تلقوا ، عام ١٧٩٤ ، تعليمات لا ترحم ، اذ كان بامكانهم ان يطلبوا خلال الأربع وعشرين ساعة التالية ، دفع كل الضرائب والرسوم المتأخرة . كما أعطوا الصلاحية بتنظيم قوائم مفصّلة بالاشياء التي يمكن مصادرتها ، وان يدفعوا من الاسينياه ، ما يوازي ثلاثة أرباع القيمة المستحقة ، ويرسلون الى مؤخرة الجيش « مواطنين على جانب كبير من الثقافة العالية يعهـــد اليهم البحث والتقصّي عن التحف والـطُرَف الفنية » . وقد عمدوا ، في مقاطعـــة البالاتينا الى خلع الأقفال والغالات من الأبواب وارسلوا بها الى فرنسا . وبعد ترميدور، لم يطرؤ أي تحسن على الوضع : « نحن بحاجة لكل شيء ولذا يتحتم علينا أخذ كل شيء » . فقــد ألغوا « لجان الانقاذ » ، وبقي العمل بالانقاذ والاستخلاص . وقد تعرضت بلجيكا مرتين للغزو والاستباحة خلال سنتين ، وقد تركها الغزو الثالث قفراً يباباً .

النتائج : النصر الفرنسي واحتدام الحلفاء غضباً

فالنصر هو من نصيب العدد ، من نصيب الحماسة والوحدة ، وقوة الاندفاع ، هذه القوة الجديدة الصاعدة التي تتمثل بالثورة الفرنسية كما بدت في ذلك العصر. وقدكان بامكانها ان تعتمد مسبقاً على مناصرة قِلّة لها، في اي محل كان . وفي كل مكان داخل حدودها الدائرية ، كان بامكانها ان تعتمد على غالبيات امينة ، صادقة ، بالرغم من المشاعر الوطنية التي تثيرها ، وذلـــك بفضل العلاقات الاجتماعية التي عرفت ان تقيمها .

فالقرار النهائي يترددون باتخاذه . ها هو اولاً الغزو النمساوي البروسياني يمتد من نيسان الى ايلول ١٧٩٢ ، هذا الغزو الذي امكن ايقافه والتغلب عليه عندمـــا كتب النصر للجيوش الفرنسية في فالمي . ثم ينقلب الوضع تماماً من ايلول ، الى آذار ١٧٩٣ ، اذ يدخل القائد الفرنسي مونتسكيو مقاطعة السافوى في اليوم التالي لفالمي . وفي اواخر الشهر ، يدخل جيش « كوستين » مدينة سبير ثم يدخل مدينة ماينس في ٢١ تشرين الاول ، ويحقق في ٦ تشرين الثاني انتصاره الرائع في موقعة جمّاب ، وتفتح الولايات الواطية التابعة للنمسا ابوابها امـــام جيش ديموريز ، ثم يطل عهد التراجع الذي يستمر من اذار ١٧٩٣ الى الخريف : فالحرب مع اوروبا والانقسامات في

الداخل ، كل ذلك يحمل الثورة على الانكفاء من جديد . ديموريز يخون ويستسلم للعـــدو في نيسان ، واذ ذاك يبتدىء الغزو الثاني : في الشمال والشرق والجنوب وتغتصب الحــدود عنوة . ولكن دنكرك تنجو بفضل معركة هندشوت في ٨ ايلول ويجري تحرير مدينة موبوج بعـــد معركة « وتّيني » في ١٥ و ١٦ تشرين الاول ، في اثر الهجوم الذي قام به جــوردان وكارنو بواسطة فرقة المشاة . ويقوم القواد هوش وبيشغرو ودسيه وسان جــوست بتحرير مقاطعـة الالزاس في شهري تشرين الثاني وكانون الاول . واذ ذاك يبتدىء الدور الثالث من الحرب الذي ادى بالنتيجة الى تثبيت النصر والترسيخ له . فجيش السامبر والموز بقيـادة جوردان وبمؤازرة القواد كليبر ومارسو ولوفيفر وناي يلحق الهزيمة بالنمساويين في « فلوريس » في ٢٦ حزيران ويبلغ في تشرين الاول ، مدينتي كولوني وكوبلنتز . وها هي بلجكا تفتح ابوابها للمرة الثانية ، ثم هولندا في كانون الاول وكانون الثاني . وفي الجنوب الشرقي والجنوب تحتل الجيوش الفرنسية الخط الممتد على طول جبال الألب والبيرانيس وجانب صغير من مقاطعة كتلونيـــا وبسكاي . وهكذا اختل توازن القوى .

وبدخول سنة ١٧٩٤ ، ابتدأ عهد السيطرة الحربية الفرنسية ، هذا العهد الذي استمر نحواً من ٢٠ سنة .

فمنذ خريف ١٧٩٤ ، اخذت كل من بروسيا واسبانيا والبيامونت يتمنى حلول السلام . فراح باريز يتهم بالخيانة العظمى اية محاولة من هذا القبيل . وقد اقتضى للجنة ترميدور عـــدة اسابيع لاتخاذ قرار بهذا الشأن بعد ان انتهجت سياسة اتسمت حيناً باللف والدوران وحينا بالتنازل والانسحاب ، في سير ملتو لا يستقيم على قرار. وخلال المفاوضات، حاول سييه افراغ اوروبا وصهرها من جديد ، وذلك بانشاء خط ستراتيجي يحمي فرنسا يكون حاجزاً من الدول الحليفة يمتد من هولندا الى البيامونت . الا ان مثل هــذا الافراغ يقتضي له نصراً مؤثلاً يكون حاسماً ، يجر وراءه استسلام انكلترا والنمسا معـاً . وسار ممثلو فرنسا الدبلوماسيون ومن بينهم برتلمي على مصانعة ملوك اوروبا ، فاعتمدوا سياسة كانت مزيجـاً من الواقعيـة والتقليدية والكلبية . ولم يكن المطلوب ، اذ ذاك ، وضع اخلاقية دولية جديدة واعادة القضية البولونية الى بساط البحث مثلا. فالمهم هو الوصول الى تفتيت هذا التحالف الاوروبي الذي يشكل بالفعل خطراً مميتاً على الثورة ، وتسجيل حقيقة النصر الفرنسي في معاهدة رسمية .

فقد عقدت بروسيا سلماً منفرداً ، في مدينة بال ، خلال شهر نيسان ١٧٩٥ بحيث تستطيع ان تتفرغ، في الشرق لمعالجة قضية بولونيا والمصاعب التي سببها هذا الاقتسام الثالث،لها ولحلفائها، فقد اعترفت اكبر قوة برية في اوروبا ، بالجمهورية وسلمت باحتلال فرنسا للضفة الغربية من الرين وبضم بعض الاجزاء بشرط التعويض عنها ببعض الاراضي عند عقد سلم عام في اوروبا . وتأتي بعد ذلك المعاهدة التي عقدت مع الإيالات المتحدة ، في لاهاي بتاريخ ٢٦ ايار بعد ان اصبحت جمهورية باسم بتافيا تابعة للجمهورية الكبرى. وعندمـــا اقترب جيش بيشغرو نشبت ثورة في

هولندا اضطر معها حاكم البلاد العام للنجاة بنفسه والهرب الى انكلترا ، فقام الوطنيون يطالبون بدخول الجيش الفرنسي البلاد . واضطرت هولندا للتنازل عن ممتلكاتها الواقعة على الضفة اليسرى من نهر الرين متخلية بذلك عن قاعدة فلسنغ البحرية وتحولت مع اسطولها الى تحالف مع فرنسا ضد انكلترا ، وألفت مجلساً وطنياً يهيء للبلاد دستوراً جديداً ويُعد لها الانظمة والمؤسسات الجديدة التي فُصلت على طراز الدستور الفرنسي الصادر في العام الثالث ، واخيراً عقدت الجمهورية في مدينة بال ، بتاريخ ٢٢ تموز معاهدة صلح مع اسبانيا تخلت هذه الاخيرة بموجبها لفرنسا عن الجزء الذي لها في جزيرة دومنيك ، مقابل انسحاب فرنسا من الاراضي الاسبانية المحتلة . وستعقد في السنة التالية معاهدة تحالف وضمان متبادل لسلامة اراضي البلدين .

ثالثاً – تتمة الحرب الاجتماعية

انكسار اوروبا (١٧٩٥ – ١٨٠٢)

ها قد « طلع » اخيراً التحالف الاوروبي ، مع العلم ان جانباً كبيراً من دول اوروبا بقي في حومة الوغى . فانكلترا هي التي تقوم بتمويل الحلف وتأمين حاجاته المالية . فالخطر الاجتماعي المتمثل في الثورة والذي شكّل تهديداً موصولاً لاوروبا تضاعف وازداد حرجاً عليها بالضربة التي نزلت بها في بال والتي قضت على توازن القوى فيها . فمنذ ايلول ١٧٩٥ ، تم تجديد الميثاق الثلاثي في بطرسبورغ على اساس الوضع الذي كان قائماً قبل الحرب : ان اعادة الملكية الى فرنسا يستطيع وحده كبح جماح المطامع الفرنسية كما من شأنه ان يعيد البلاد الى حدودها الاولى . وقامت على الاثر مفاوضات فرنسية انكليزية باءت بالفشل فلم يكن من حل سوى الحرب الى ان يقضي الله امراً كان مفعولاً .

وحدة الهدف والوسائل والتكتيك

فالحرب الجديدة هي من الوجهة الفرنسية ، امتداد للحرب التي اندلع لهيبها عام ١٧٩٢ – ١٧٩٣ ، سواءاً أاعترفت بذلك حكومة الديركتوار ام لم تعرف . وما من شأن قط لحادث انحياز بارّاس الى جانب البندقية لقاء ٦٠٠،٠٠٠ ليرة ، وما لبيع تالليران نفسه من الانكليز ببضعة ملايين من أثر يذكر . واي بأس من ان تصبح الدعاوة ، حتى في اعين الباقين من الجيروندديين امثال لارافلبير ، اداة كفاح بالية لا تخلو من خطر على مستعمليها انفسهم ؟ فلن يكفوا ، مع ذلك عن استعمالها والركون اليها ، بالرغم من خيبة الامل المريرة التي تركتها في النفوس . فقد استعملها مورو ، عام ١٧٩٦ ، على ضفة نهر الرين اليمنى وبوتيرا الذي قدم خصيصاً من بال ، راح يستعملها في مقاطعتي الصواب والبافيير وورتنبرغ ، مستعيناً على ذلك ببعض القدامى من اعضاء نوادي ماينس . وستقوم كل من حكومة مقاطعة ورتنبرغ وبادن بمصادرة املاك الكنيسة وبالغاء الحقوق والرسوم السيادية .

وفي ايطاليا يوجه بونابرت ، منذ شهر نيسان ، من مدينة ميلانو ، نداء للايطاليين ، يدعوهم فيه للحرية ، وقامت فتن ثورية (يعقوبية) الطابع في هنغاريا حيث راح دعاة السلم يكثرون من نشاطاتهم. وفي تركيا حيث بلغت الفوضى الضاربة اطنابها كل مبلغ وجعلت منها تربة صالحة ، فقد اعطت فيها الدعاوة ثمارها المرجوة . وراح بونابرت يشجع هذه الحركة ، فاستقبل وهو في ميلانو وفداً من اقوام الـ *Maniotes* قدموا من شبه جزيرة كورفو التي كانت قطب النفوذ الفرنسي في تلك الأرجاء . وقد لقي هذا النفوذ صدى بعيداً في جميع ارجاء اليونان ، اذ خطر لريغاس فلستنلس ان يقوم بتوحيد كل اجزاء شبه الجزيرة اليونانية تحت كنف اثينا . الا انه جرى توقيفه في فيينا ، في اواخر عام ١٧٩٧ ، وعُهد الى فريق من الاتراك مهمة تصفيته بالخنق مع بعض رفاق له . وفي مصر ، احتفل بونابرت في مأدبة فخمة سخية بذكرى قيام الجمهورية الفرنسية حيث كنا نرى جنباً الى جنب وثيقة اعلان حقوق الانسان والقرآن الكريم . وفي حملته على سوريا ، خشي الانكليز من أن تصل محاولة نابوليون نشر الديموقراطية ، الى العجم .

يجب ان نذكر هنا بكلمة وجيزة خاصة ، الحركات الانكليزية الايرلندية الشعبية . اساس هذه الاضطرابات الازمة الاقتصادية التي نشبت عام ١٧٩٥ ، فجاءت نتيجة للهزة الاجتماعية التي بلغت الذروة في انكلترا عام ١٧٩٥ – ١٧٩٦ ، واعطت ابرز حوادثها وابعدها صدى عام ١٧٩٧ ، بالتمرد الذي اعلنه الاسطول الانكليزي . فقد تألفت في كل سفينة لجنة خاصة من بحارتها ، وراحت اللجنة التي قامت على ظهر سفينة شامبيون تطلب حماية الحكومة الفرنسية التي « تم لها وحدها ان تدرك على وجهها الصحيح ، حقوق الانسان». وقد راح كاننغ في كتابه *Anti - Jacobin* الصادر عام ١٧٩٧ يصور بونابرت ممثلاً للحزب الجهنمي . ويبدو ان الحوادث سترغم بت على طلب الصلح. فقوات الانزال البحرية في الجمهورية الفرنسية تضع نصب عينيها ايرلندا الثائرة ، بين ١٧٩٦ – ١٧٩٨ التي كانت تدعوها اليها وتنتظر وصولها بفارغ صبر. وفي هذا السبيل ، جُمعت اعتمادات في الولايات المتحدة الاميركية ، في الوقت الذي دخل فتزوليام ، في همبورغ ، بمفاوضات مع فرنسا . وفي آخر الامر انفجر الوضع في ايرلندا ، عن ثورة لاهبة ، عام ١٧٩٨ ، دون اي انسجام في التوقيت بينها وبين محاولة الغزو . وهكذا تم لانكلترا ، على شاكلة فرنسا ، ولو متأخراً ، مقاطعة الفانديه الثائرة .

وفي ايلول ١٧٩٨ ، عُهد الى الزعيم البولوني كوشبوسكو ، بمهمة حمل الجنود البولونيين على الفرار من صفوف جيوش الحلفاء التي كانوا يخدمون فيها. هنالك طابور من الجنود البولونيين يحارب افراده تحت الاعلام الفرنسية الى جانب فرقة المانية واخرى ايطالية .

فقبل معاهدة بال وبعدها ، وبالرغم من التحول الذي طرأ على الرأي العام في فرنسا ، اصطبغت الحرب الاوروبية بطابع حرب اجتماعية في الداخل والخارج . فقد خضع جيش الجمهورية ، من جهته ، لتغييرات عميقة ، فمنذ ترميدور بلغت نسبة الفارين من الخدمة العسكرية

نصف الذين هم في الخدمة الفعلية الذين أربى عددهم على ٥٠٠،٠٠٠ . وقد جرى تسريح جانب كبير من الجيش في اعقاب معاهدات ١٧٩٥ . فمن بقي منهم في خدمة العَلم ، اتخذوا من الخدمة في الجيش مهنة لهم او حرفة ، كما رأوا في الحرب حلاً لمصاعب الحياة ومشكلاتها ، اذ باستطاعة الفرد هنا اكثر من أيّة حرفة او وظيفة اخرى ، ان يقطع مراحل التقدم ويرقى الدرجات بسهولة دون ان تتوفر له اسباب التربية والتعليم . الا ان حُب الطمع وشهوة الربح والافادة لا تتنافى قط والروح الوطنية وحب الاوطان . والحماسة التي ميّزت ، عام ١٧٩٢ لم تزل متأججة في النفوس . « ففي نظرنا ، يقول ستاندال ، ان سكان باقي اوروبا الذين يقاتلوننا للبقاء تحت نير الاستعباد، لم يكونوا سوى معتوهين حريين بالشفقة ، او سَخطَة باعوا انفسهم لهؤلاء الطغاة المستبدين الذين يحاربوننا » . ومع ان التفاني في خدمة السيد يتصل بالتفاني بحب الوطن ويذوب فيه ، فنحن امام جيش جمهوري في الصميم ، هو على استعداد كلي لتدويخ عواصم جديدة .

فالمصادرة المستمرة وقانون جوردان الصادر عام ١٧٩٨ الذي فرض الخدمة العسكرية على الجميع ، ساعدا كثيراً على مد الجيش دوماً بدم حار جديد . الا ان تمويل هذا الجيش ، وتأمين العُدد والعتاد الذي يحتاج اليها عن طريق الاستيلاء ، لم يعد سهل المأخذ . ومثل هذه الصعوبات اعترضت المؤتمر الوطني من قبل ، عام ١٧٩٥ . وقد اصبح من الضروري ، والحالة هذه ، لا سيما بعد انقضاء العام الثاني من التقويم الجمهوري ، وقبل عقد المعاهدة البروسيانية ، ان تموّل الحربُ الحربَ وان تغتذي بها. وهذه الحرب نفسها ستعمل على تأمين العيش للجمهورية كلها حتى وللقادة انفسهم . فالامة العظيمة لا تهيء مجاناً ، اسباب التقدم لهذه القارة الاوروبية التي ترزح تحت عوامل التأخر والتقهقر .

فمنذ ان انطلقت شرارة الحرب الاولى ، عهدت حكومة الديركتوار الى بونابرت ان يحسن الاستفادة من انتصاراته الداوية ومن فتوحاته العريضة ، الى اقصى حدود الافادة ، وهي مهمة سيقوم بها على الوجه الامثل . والدرس الايطالي الذي جاء مثالياً ، يجب الا يُخلط بينه وبين الدروس او الامثلة الاخرى . فالقائد العام سيصبح المموّل الاكبر للنظام القائم في البلاد، والاموال ستجري مصادرتها من صناديق اصحابها او من صناديق الائتمان حيث تودَع ، وعلى البابا ان يدفع ، من جهته ، القسم الاوفى الذي قد يكون تجاوز ١٠٠ مليون ليرة ، ستُستخدم بعض كنوز برن التي سقطت بيد الغزاة ، في تمويل الحملة الفرنسية على مصر . والى هذا يجب ان نضيف المواد العسكرية الاخرى ومصادرة اي مادة اخرى حتى اعلاق الفنون الجميلة . ونهب ايطاليا وتجريدها من خيراتها كانت عملية عادت على فرنسا بخيرات اكثر بكثير مما عادت عليها عملية نهب المقاطعات الرينانية ، عام ١٧٩٤ . وقد خطر احياناً للسكان ان يعارضوا وان يعترضوا على اعمال السلب هذه فيتعرضون لعمليات كبت وقمع دامية . وقد اصدر بونابرت امره يوماً باضرام النار ببلدة بيناسكو وان يقتلوا كل سكانها .

وفي مدينة بافي اقتضى الامر يوماً اطلاق النار على اعضاء المجلس البلدي ، وأخـذ ٢٠٠ مـن الرهائن كما أطلق بونابرت لأفراد جيشه العنان بنهب كل ما وقعت عليه ايديهم لمدة اربـع وعشرين ساعة .

وهكـذا تجاوزوا بعيداً الاعراف والعادات التي كان معمولاً بهـا في العـام الثانـي من التقويم الثوري . وستعرف الثورة الفرنسية ، حتـى في ايطاليـا ان تحتفـظ بولاء المخلصين لهـا من يعقوبيين واحرار ، وقـد عـرف هـؤلاء كيف يصـانعون الغـازي ويفوزون برعايته .

بونابرت في ايطاليا

بالرغم من التراخـي والتفكك الذي ابتليت بـه الدوائـر الحكوميـة والتصدع الذي ألمّ بالرأي العام ، فقد كانت مهمـة فرنسا ، في نهـاية الامر ، أيسر ممـا كانت عليه عـام ١٧٩٣ . ومـع ذلك ، فقد مرت سنتان بين معاهدات مدينـة بال والمفاوضـات التمهيدية التي جـرت في ليـوبن والـتي ادت الى انهيـار النمسا واستسلامهـا .

ففي الحين الذي كان فيه القادة مورو وجوردان يرسفان مترددين على ضفاف الرين راح بونابرت يقود جيوشه المتجمعة عبر ايطاليا الشمالية ويطوف بها من ضواحي مدينة نيس الى أرباض مدينة فيينا . ابتدأت حملته هذه في ١١ نيسان عام ١٧٩٦ ، فتمّ له في أقل من خمسة ايام ، فصل النمساويين عن فرق البيامونت ، فدب الرُعب في بلاط تورينو ، وجرى توقيع الهدنة في شيراسكو في ٢٢ نيسان . والبيامونت الذي اصبح اعزل من السلاح ، اضطر للتخلي عن مقاطعتي السافوى ونيس . وأخذت الضربات القاصمة تنهال اذ ذاك على النمساويين ، ممـا اتاح لبونابرت الدخول الى ميلانو ، في ١٥ ايار فاستقبله الاهلون استقبال الفاتحين . واضطـر دوق بارما ودوق مودينو والبابا وملك نابولي لطلب السلم وعقد الصلح . واجتاز نهر الآدّا في ٩ ايار على جسر لودي ، واذ بالجيش النمساوي بقيادة بوليو يرى نفسه محتجزاً في مدينـة مانتو . وقد استنزف الامبراطور قواه في محاولة الاستيلاء على الموقع في نهـاية السنة لانقـاذ جيشه المحصور . وتمكنت الجمهورية ان تسجل عليه سلسلة من الانتصارات الداوية في كستغليوني وبسّانو وأركول ، واخيراً في كانون الثاني عام ١٧٩٧ ، في موقعة ريفولي ، وسقطت مانتـو في ٢ شباط ، وبذلك أصبح نابوليون بونابرت حراً طليقاً ، فاندفع بكل قواه باتجاه فيينا ، عبر جبال الالب . وبعد ان حل هوش محل جوردان في قيادة جيش الرين اجتاز النهر مـع مورو . واذ ذاك ، لم تر النمسا بدأ من الاستسلام فالقت سلاحها ارضاً ، ووقعت الهدنـة في ٧ نيسان بعد المفاوضات التمهيدية في ليوبن .

وبعد ذلك بستة اشهر عقدت معاهدة كمبوفورميو التي تنازلت النمسا بموجبها لفرنسا عن المقاطعات البلجيكية واعترفت لها بحدودها على الرين مروراً بمدينة بال . وبالرغم مـن حكومة الديركتوار ومعارضته ، فرض بونابرت السلم الذي اراده على ايطاليا : فاوجد ثلاث

جمهوريات توابع في شبه الجزيرة الايطالية ، هي جمهورية ما وراء الالب *Rép. Cisalpine* التي تشكلت من مقاطعة الميلانية ولمبارديا بعد ان تخلت النمسا عنها في معاهدة كمبوفورميو وجرى توسيع رقعتها بضم مقاطعة فالتالين ومقاطعات اخرى اقتطعت من البندقية ، وممتلكات البابا ودوق مودينو ؛ وجمهورية عبر بادوا *Rép. Cispadane* التي انشئت على حساب الآخرين والتي لم تعتم ان انضمت الى جمهورية ما وراء الألب، واخيراً الجمهورية الليغورية التي حلت محل جمهورية جنوى القديمة . وهنالك جمهورية اخرى حرية بكل احترام قامت وزالت سريعاً ، من البندقية ، التي ترك امرها للنمسا تعويضاً لها عما خسرته ، عن الممتلكات البرية حتى نهر الاديج . فالصلح النابوليوني ابتدأ بما يشبه «بولونيا» . فليس ما يحمله على ان يترحم على الدبلوماسية التى جرى عليها العهد البائد القديم .

فالفتح الجديد له خصائص مفرّدة من نوع خاص . ان تمثيل البلدان المفتوحة وصهرها وانشاء دويلات توابع تدور في فلك الجمهورية الفرنسية قلب الوضع السياسي والاجتماعي في قسم كبير من اوروبا رأساً على عقب وظهرا لبطن وارتفع بذلك عدد المحافظات الفرنسية من ٨٣ محافظة الى ١٠٢ ، وسياسة الضم التي سارت عليها حكومة الديركتوار منذ معاهدة كمبوفورميو أكسبت فرنسا مدينة موطوز ومونتبليار وجنيف حاضرة محافظة ليمان . وهكذا دخلت كل هذه المدن ضمن الوحدة الفرنسية . وفي كانون الاول عام ١٧٩٨ ، اعيد احتلال البيامونت بعد ان فر ملكه في اثر الدسائس والمؤامرات التي دبرها ممثلو فرنسا في هذا البلد .

الجمهوريات الشقيقات

قامت الى جانب فرنسا والتف حولها سلسلة من الجمهوريات التوابع لها دساتيرها ونظمها الخاصة مستمدة كلها من دستور العام الثالث ومفصّلة على شكله ومثاله . فجمهورية بتافيا التي أنشئت من قبل عدّلت دستورها عام ١٧٩٨ الى « جمهورية واحدة لا تنفصم عراها ، أساسها سيادة الشعب وسيطرته » . فالقوائم الانتخابية الموضوعة في البلاد لا يمكن لها ان تضم اسم اي شخص ما لم يقسم مسبقاً انه يحمل « حقداً أزرق» لحكومة الستاتهودر وللروح الفدرالية والارستوقراطية والفوضى . يُحرم من حق الاقتراع ، لمدة عشر سنوات على الاقل ، كل من عُرف بخصومته وعدائه « لمبادىء الثورة المعلنة عام ١٧٩٥ » . فقد زخر كل مكان في ايطاليا بهذه النوادي ترفرف فوقها الحرية والاعلام المثلثة الالوان : الازرق والابيض والاحمر ، التي تم اقتباسها عام ١٧٩٤ . والدساتير الموضوعة عام ١٧٩٧ ، والموطىء لها بوثيقة اعلان حقوق الانسان وواجباته لا تقل بشيء عن دستور جمهورية بتافيا . فالمحتل لا يطبق النصوص بحرفيتها والقـادة الفرنسيون لهم فرحتهم الكبرى في تعيين المرشحين للانتخابات ، وتنقية الادارة من كل ما يشيبها ، مطبقين في الخارج ما طبقه الديركتوار لحسابه في فرنسا . وكثيراً ما هيّجوا الروح الوطنية بتدخلهم في شؤون البلاد الداخلية، باعثين اليأس في قلوب حلفاء فرنسا ونصرائها ، منتقصين من كرامتهم وخافضين من


١٠٠ كلم
٥ افينيون
قصبة المحافظة
حدود المحافظة
حدود ١٧٩٠
حدود ١٨٠٢

شأنهم . كل هذه التغييرات التي وقعت على حدود فرنسا بدت للاوروبيين نجاحاً مسرحياً للثورة العارمة . والسبحة زادت حباتها بانشاء الجمهورية السويسرية ، في نيسان ١٧٩٨ . وهكذا تمت تقوية حدود فرنسا في الجنوب الشرقي ، من مرتفعـــات الجورا حتى مشارف البحر الابيض المتوسط ، كما ان هولندا ، تحميها من الشمال . والنُظم الثورية تمتد وتتسع لتغشى املاك الكرسي الرسولي نفسه . ففي شباط من تلك السنة ، نودي في ساحة الفوروم بانشاء الجمهورية الرومانية . فلقد كان سبق للبـابا ان ابرم معاهدة تولنتينو مع الثورة الجهنمية وقبلَ بالتنازل لها عن بعض ممتلكات الكنيسة . اما الآن فقد اصبح في قبضتها. وقد تم لبرتييه وللفتنة الديموقراطية السيطرة على روما . فألقي القبض على البابا بيوس السادس وأبعد الى فرنسا حيث اسلم الروح بعد القليل من وصوله اليها .

الحلف الثاني

انكلترا وحدها بقيت واقفة على قدميها ، بعد ان تمكنت من عزل بونابرت في مصر التي تم له فتحها ، وذلك بقضائهـــا ، في ١٨ آب ١٧٩٨ ، على الاسطول الفرنسي في موقعة ابو قير . ووقفت معها روسيا ايضاً التي لم يتم لها ان تظهر بعد في الغرب . فقد أطلت على الغرب بزمر ودف ، في ربيع ١٧٩٩ . فقد خلف القيصر نصف المعتوه بولس الأول الذي اقضّ مضجعه الخوف من اليعقوبيين ، منذ أكثر من سنتين بقليل ، الامـــبراطورة كاترين الثانية . فانضمامه الى الحلف الثاني الذي تألف في اواخر عـــام ١٧٩٨ ، من انكلترا والنمسا ، فتح لاساطيله مضايق الدردنيل واتاح له ان يرفع العلم الروسي على الجزر الايونية ، وسيبقى العلم الروسي مرفرفاً عليها حتى واقعة تلسيت ، وقد اتيح للجيش الروسي – النمساوي بقيـــادة سوفوروف ان يفتح ايطاليا الشمالية برمتها وان يتجه في آب نحو محافظة الدوفنية . ودخـــل كوراكف الملقب رفسكي (أي الروماني) سويسرا، ونزل جيش انكليزي روسي في هولندا. والنمساويون الذي حققوا انتصارات لهم في المانيا منذ شهر آذار ، أخـــذوا يهددون الحدود الفرنسية من جهة الرين . وقد راح الحلفاء يضعون خطة شاملة لاعادة الاوضاع الى نصابهـــا الاول،ليس في ايطاليا فحسب حيث يرغب سوفوروف باعادة الوضع الى ما كان عليه قبل الاحتلال الفرنسي، بل في كل مكان ، وذلك بمساعدة خصوم الثورة واعدائها الذين اخذوا يعملون على اثارة مقاطعة الفرانش كونتيه والجنوب والغرب .

وقد اتخذت الشؤون الحربية اتجاهاً جديداً في مطلع الخريف ، اذ تمكن مسينا من سحق الجيوش الروسية بقيادة كورساكوف ، في زوريخ ، في ٢٥ – ايلول ، كما ارغم بعد ذلك ببضعة أيام الجنرال سوفوروف الذي كان يزحف على زوريخ على التراجع والتقهقر نحو الشرق في أحوال مضنية وظروف مهلكة . وفي الوقت ذاته تمكن الجنرال برون من كسر الانكليز والروس معاً في هولندا وارغمهم على الانسحاب من البلاد وركوب البحر . واذ ذاك استدعى الامـــبراطور بولس الاول جيوشه ، فاذا بفرنسا تجد نفسها ، كما كانت عام ١٧٩٥ ، وجهاً لوجه ، مع النمسا لوحدها تقريباً في القارة . فالقنصل الاول الذي فاز بالنصر في مارنغو ، في حزيران ١٨٠٠ ،

املى على العدو شروط الهدنة ، الذي تعهد باخلاء لمبارديا والبيامونت . وفي كانون الاول ، حقق الجنرال مورو في هوهنلندن انتصاراً مبيناً ، فتح أمامه طريق فيينا . فلم يعد أمام النمسا الا الرضوخ والاستسلام وتوقيع شروط السلم بعد ذلك بشهرين ، في لونفيل ، فجاءت هذه المعاهدة تؤيد وتؤكد التنازلات الارضية التي نصّت عليها معاهدة كمبوفورميو ، والاعتراف بالجمهوريات التوابع التي انشئت في ايطاليا . باستثناء القطعة التي احتفظت بها في مقاطعة فنيسيا ، فقد تخلت النمسا بالفعل عن كل ايطاليا ، للجمهورية الفرنسية .

وجاء في نهاية الأمر دور انكلترا التي لم تقل رغبتها في السلم عن رغبة فرنسا فيه . وكانت الاضطرابات الديموقراطية لا تزال تمزق شعبها وارضها ، ، وقد زاد الاضطرابات تأججاً ولهيباً نشوب ازمة اقتصادية ، بلغت فيها اسعار الحبوب رقماً قياسياً في القرن التاسع عشر . وتقرب بونابرت من الدول المحايدة التي ألّفت من ضمنها عصبة قصيرة الأمد ، للدفاع عن حرية التجارة تألفت من قيصر روسيا ومن بروسيا ضد انكلترا . وقد قدّم بت استقالته قبل توقيع معاهدة لونفيل ببضعة أيام . وجرى التوقيع على مفاوضات لندن التمهيدية في أول تشرين الاول ١٨٠١ ، كما وقعت معاهدة السلم في اميان *Amiens* ، في ١٥ آذار التالي . فاعادت انكلترا الى فرنسا وحلفائها الاسبان وجمهورية البتاف المستعمرات التي استولت عليها باستثناء مستعمرة الكاب وسيلان وجزيرة الثالوث ، هذه الجزيرة الجميلة التي من غلالها السكر . وقد قبلت تحت شرط بالتخلي عن مالطة . وفرنسا من جهتها ، اعادت مصر الى أصحابها . والمهم ان كل شيء تم بصمت وسكون : فبلجكا وضفة الرين اليسرى واوروبا القارية الجديدة وسيطرة فرنسا الثورية.

والصراع الضخم الذي اقام الدول بعضاً على بعض لم يعد قط حرباً بين مجتمعين بل هو عراك في سبيل اقتسام العالم ، هو منافسة حول السيطرة ، كما بدا هذا الصراع مجهوداً ضخماً تقوم به الدول ، بعد ان اختل ميزان التوازن الدولي في اوروبا ، محاولة اعادة هذا التوازن ، في هذا الوقت بالذات الذي يعمل فيه التجاوز النابوليوني على إذكائه واهاجته .

الفصل الثالث

نابليون والعالم

(١٨٠٢ - ١٨١٥)

اولاً - أقدار نابليون ١٨٠٢ - ١٨١١

الحصار النابوليوني وموقف الدول التوابع

تألفت الجمهورية ، عام ١٨٠٢ من ١٠٨ محافظات بعد ان ضمت اليها البيامونت . اما قوتها السكانية فكانت تعادل ، الى حد بعيد ، قوة روسيا من هذه الناحية . فالكتلة الغربية بما لها من دول متحالفة او واقعة تحت الحماية تمتد من قادس جنوباً الى بحار الهانزا شمالاً ، ومن برست غرباً الى انكونا شرقاً . ففيها أكثر من ثلث سكان القارة الاوروبية .

وموقف الدول التوابع تميز منذ نشأة الحلف الثاني بانضباطية أكبر سياسياً وادارياً واجتماعياً . فقد جرى انتخاب بونابرت ، منذ مطلع السنة ، رئيساً لجمهورية ما وراء الألب سابقاً بعد ان اصبحت الآن الجمهورية الايطالية . وبدلاً من الدساتير الديركتوارية حلت الآن دساتير « قنصلية » ، الى ان تحل محلها في العام الثاني عشر من التقويم الجمهوري دساتير امبريالية . كذلك اخذ بالارتفاع عدد الدول التوابع ، الذي جاء علةً او معلولاً ، نتيجة للانتصارات المتلاحقة . وهكذا طلعت لحاقاً الدساتير الهلتتيكية (السويسرانية) سنة ١٨٠٢، و ١٨٠٣ ، والدساتير الجمهورية أو الملكية الهولندية ، عام ١٨٠١ ، و ١٨٠٥ ، و ١٨٠٦ ، والقانون الدستوري للجمهورية الايطالية الذي ظهر في العام العاشر ، والقانون الدستوري لمملكة ايطاليا في سنة ١٨٠٥ ، ولمملكة نابولي عام ١٨٠٦ ، ولدوقية فرصوفيا ، ولمملكة وستفاليا ، عام ١٨٠٧ ، ولممالك البافيير واسبانيا، عام ١٨٠٨ ، ولدوقية فرانكفورت الكبرى عام ١٨١٠ . وقامت انظمة حكم تمثيلية من نماذج وانماط متنوعة جداً في قسم متزايد من بلدان اوروبا . ومخلفات الاعراف الماضية التي تفاوتت وضوحاً، ميّزت الى حد بعيد، دساتير الدول التوابع الجديدة الا انها اصطبغت أو تمازجت، على العموم ، مع اعلان حقوق الانسان الاساسية ،

غالباً ما كان بينها حرية الصحافة وحرية العبادة . كل هذه الدساتير تضع في يد النبلاء والاشراف الذين يُنتقون على أسس صعبة من شروط دفع الضرائب ، حق الاقتراع والتصويت على الضرائب والشرائع وفقاً لاحكام النصوص الرسمية ، التي يتوقف تطبيقها ، الى حد بعيد ، على الظروف السائدة ، أو على أمزجة الملوك وطبائعهم . فروح الحكم الاستبدادي أو الطغيان يبقى قائماً متحكماً . فملك ورتنبرغ يكاد لا يستفتي بشيء ، مجلس شورى القوانين . فالامثولة الفرنسية حاضرة امام الاذهان في كل مكان مع المخالفات والنواشز النابوليونية ، وغيرها من ضروب والوان المخالفات التي وقعت في الخارج . فنابوليون يطرح جانباً بالمجلس الايطالي . ومراقبة الجرائد والمسارح لم تبارح اي مكان . ومع ذلك فالحكم الاستبدادي المطلق والنظام الارستوقراطي ، في نكوص وتأخر متلاحقين، اينما كان . وفي كل مكان تسير في الطليعة ، البورجوازية والطبقات الوسطى ، حتى في هذه البلدان التي ما زالت طبقة النبلاء فيها وطبقة الاكليروس تحافظان على ما لهما من تمثيل خاص بها . فاصحاب الاملاك والتجار ، ورجال الفكر واصحاب المهن الحرة يصلون على اقدار ونسب كبيرة ، الى عضوية المجالس والهيئات التمثيلية .

وهكذا نزع النظام السياسي الفرنسي ، على اقدار تختلف كثرة أو قلة ، لان يصبح النظام السائد في اوروبا . وكذلك قل عن نظام القارة الاداري . وهذه الروح الموحدة ذاتها التي هي روح الثورة أو روح الامبراطورية ، تدفع الناس على التخلص من سوء تجربة الادارات السابقة ، فيستعينون على ذلك ، بكل ما كانت له قدرات وقابليات ، في سبيل جعل البيروقراطية أكثر فعالية واقدر على جمع الضرائب وتحصيلها، وافعل في حشد الانصار والازلام والمحاسيب . فلو قيض الله لهذا النظام امداً اطول وبقاء اوسع وارحب لكانت اوروبا النابوليونية برمتها « كونت شعباً واحداً ولكان المسافر الذي يرغب في الارتحال وجد نفسه ، اينما توجه واينما هبط أو دبت رجلاه في وطن واحد مشترك » . ورجال الادارة الذين يجري انتقاؤهم محلياً يستمرون في تخاطبهم بالالمانية والايطالية ، مثلاً ، مع التزام كبار الموظفين بينهم تعلم اللغة الفرنسية . وانشئت في ايطاليا الشمالية مدارس ثانوية، منها مثلاً ثانوية ميلانو للاناث « التي كانت منقطعة النظير حتى في فرنسا نفسها » . وقد تكونت في شبه الجزيرة الايطالية فرقة هندسية عم نشاطها الولايات الالليرية نفسها ، كانت تعنى بالجسور والطرقات ، كما قامت فيها مصالح مستقلة تعنى بادارة التعليم ، ومصلحة الرهونات ، وشيئاً فشيئاً ادارة مركزية في المحافظة . وفي الطرف الابعد من المدى النابوليوني ، قسمت دوقية فرصوفيا الكبرى ، الى محافظات واقضية، كما قام النظام المالي فيها على مثال النظام المالي في فرنسا ، تحت مراقبة دائرة التفتيش المركزي . وقد رحبت السلطة ، في كل من البافيير وورتنبرغ ، خير ترحيب ، بهذه المستجدات الادارية ، وحرصت على تقوية فعاليتها الادارية .

الثورة وانتشار فتوحاتها الاجتماعية

والاهم من هذا كله – وهنا الميزة الرئيسية – هو ان النظام الاجتماعي الفرنسي ، نزع قبل كل شيء ، الى العالمية او الشمول ، داخل الحدود الفرنسية ، وهـو شيء طبيعي جداً ، هذه الحدود التي كانت تتسع باستمرار . فرعوية الامبراطورية تولي صاحبها ، قبل كل شيء ، المساواة المدنية والحرية دون ان يضطر يومـاً بعد يوم ، لفتح هميانه ، ودفع ضرائب سيادية ورسوم اخرى ، وكلها عوائد تقلص ظلها في كل مكان ، باستثناء الولايات الإلليرية . وفي جميع المناطق التي تتألف منها هذه الكتلة ، نرى الضربات القاصمة تنهال على الاقطاعية وعلى النظام الطبقي القديم . فوثيقة اعلان حقوق الانسان تأتي ديباجة الدستور البتافي المعلن عام ۱۸۰۱ ، هـــذا الدستور الذي ينادي بالمساواة المدنية ووجوب الغاء الرسوم الاقطاعية . والدستور السويسري يعلن امكانية افتداء عوائد الارض الدائمة ولا سيا الاعشار ، وقانون الوساطة الصادر عـــام ۱۸۰۳ ، يعلن مبدأ المساواة المدنية. ونابوليون يقسم عام ۱۸۰٥ ، بعد ان نودي به ملكاً على ايطاليا، يميناً دستورية مشابهة لليمين التي يؤديها رئيس الجمهورية الفرنسية ، فيقسم بالله العظيم : « ان يحترم المساواة في الحقوق ... واستحالة الرجوع عن بيع الاملاك الوطنية ... » وفي سنة ۱۸۱۱ ، تبدو المساواة المدنية القسطاس الفصل الذي تسير عليه الدول التوابع . والاسس الزراعية التي ارتكز اليهـا العهد البائد لم يعد لها من وجود ، او هي في طريق الزوال الى الابد . فاملاك النبلاء وغير النبلاء هي سواء امام القانون ، وباستطاعة الصعاليك ان يصبحوا من اصحاب الاملاك . والغــاء رق الأرض يحرر ليس الانسان فحسب ، بل ايضاً ، اليد العاملة . فقـــد نصت على هذا الالغاء ، دساتير هولندا وايطاليا ووستفاليا والبافير وغراندوقية بيرغ ، واسبانيا وهسس . فالعبوديات الجسمانية زالت كلها من الوجود . الا ان الغاء العوائد قابلة الافتداء ، والغيت فقـــط السخرات التعسفية . اما في ايطاليا واسبانيا الجنوبية ، فقد احتفظ الناس بالعوائد التقليدية . وكثيراً مـا يضطر الفلاح تحت ستار افتداء العوائد ، الى وضع يعمل فيه كرابع . وفي بولونيا نفسها ، هذه الرقعة الخاضعة للامبراطورية النابوليونية ، في بلاد عدوة ، اصبح نظام العوائـــد المترتبة على الارض ، مخلخلا . وفي سنة ۱۸۰۹ ، اغرق الفلاحون ، في مونستر، تحت سيل من المطالب التي راحوا يتساءلون فيها عما اذا لم تكن الاراضي الواقعة على ضفة الرين الشمالية قـــد اصبحت متحررة ، وهكذا نرى ان سياسة الثورة النابوليونية هي سياسة قـــامت على المناسبات ، فاوجدت في المنطقة التي سيطرت عليها ، تنويعاً كبيراً . الا انه ليس من يشك قـــط في توجيهاتها العامة . وهكذا فالنظام الاجتماعي القـــائم في فرنسا ، نزع دوماً الى الانتشار والتوسع ، اينما كان .

والقانون النابوليوني الذي عم تطبيقه المجـــال الدولي ، سيصبح ، ولا شك ، اداة مثلى في تأمين التزامن أو التوقيت المشترك . فبانتشار هذا القانون ، انتشرت المبادىء التي نودي بهـا عام ۱۷۸۹ : المساواة بين الناس والاراضي والتركات ، والتسامح الديني ، وعلنيـــة الاحوال

الشخصية ، والطلاق . فقد وضعت هولندا ، هذا القانون ، موضع التنفيذ ، وفي سنة ١٨٠٦ ، تُرجم الى الايطالية بغية تطبيقه بين الايطاليين . وفي سنة ١٨٠٧ ،تبنته نابولي، بعد ان ادخلت عليه تعديلات طفيفة اقتضتها ظروف الكثلكة ، التي هي ديانة السواد الاعظم من سكـــان البلاد . كذلك دخل هذا القانون معظم الدول الألمانية، كما دخل معظم المدن الداخلة في الاتحاد الاقتصادي (*Hanséatique*) والى الولايات الإلليرية . وفي سنة ١٨١٠ تتبناه فرصوفيـــا ، ويراهنون على دخوله الى كل من اسبانيا والبرتغال .

وتستمر الثورة ، من جهة ثانية ، في خلق مناطق نفوذ اجتماعي لهـــا في البلدان العدوة ، مع العلم ان الحرب كثيراً ما وقفت سداً منيعاً وحاجزاً دون هذا الانتشار وجرّت الى تعديل مبادئها أو الى مقاومتها ، مثيرة في وجه المستجدات الفرنسية ، الشعور الوطني . وهذا لا يمنع قط الجماهير من ان ترفع العلم المثلث الالوان وان ترتدي القبعة الحمراء ، خـلال الانتخابات التي وقعت ، عام ١٨٠٢ في فوتنغهام . والقارة لم تكن معصومة قط او سليمة من هذا القبيـــل . فستعمل بروسيا من جهتها ، على الاخص ، للتخفيف من هذه المؤثرات وذلـــك عن طريق اصلاحات سياسية واجتماعية ، سنعود للتكلم عنها بعد حين .

الجيش والتكتيك النابوليوني

هذا الحصار البري الضخم القائم في الغرب والذي يزداد ضخامة يوماً بعد يوم وتجانساً ، يقابله حشد بري جبار ، بامكان ثورة عارمة هوجاء ان تقـــوم وحدها به . فنابوليون لم يغير شيئاً في نظام حشد الجيش ولا في نظام تعبئته العام . فقد ابقى سائر المفعول ، جاري الاخذ به ، قانون جوردان الذي يحدد العدد اللازم في السنة وذلك بواسطة نظام القرعة . فعدد المدعوين للخدمة العسكرية ينمو باطراد سنة بعد سنة من جراء اتساع رقعة فرنسا ، الا انه عدد لم يتجاوز مجموعه في اي حال ٢٦ ٪ في مجموع المسجلين . وعملية المزج او اللغمة تستمر وتعمم : فالقدامى في الجيش يتولون تدريـــب الشبان خلال الحملة نفسها . والترقية هي من نصيب من يتحلون بالشجاعة والبسالة اكثر مما هي من نصيب اوفرهم علماً ومعرفة . وقد فتحت الترقية ، امام الطبقات الوسطى امكانيات رحبة وفرصاً ذهبية للترفيـــع والتقدم . فالجهاز الحربي لم يتغير ولم يتبدل . وحرص نابوليون على تقوية جهاز المدفعية التي بالرغم من عجز مصانع الحرب كان لها شأن كبير ومساهمة واسعة في تقرير مصير الاشتباك الحربي . والحرس ، هـــذه المنظمة الجديدة التي تشكل قـــوة بوليسية من الدرجة الاولى ، يؤلف من ناحية ثانية جهازاً مستقلاً ، كما يؤلف في نهاية المطاف ، احتياطياً ثميناً .

واذ رفض نابوليون العودة الى عملة الورق ، فقـــد آثر ان يقوم بحروب قليلة الكلفة ، سريعة الفعالية ، نظراً لصعوبة التموين . فالحرب الخاطفة تتفق تماماً ومزاجه الخاص . فهـــي تحافظ ، في الصميم ، على مبدأ التكتيك والستراتيجية الذي سارت عليـــه جيوش الجمهورية.

فالمركة التي تشترك فيها الكتلات الحربية، يتركز الهجوم فيها بالدرجة الاولى على العدد. فالعدد يزرع الرعب في الخصم ويرهبه. فشجاعة الجند ونشاطهم وقوة احتمالهم، وتفانيهم في ساحة الوغى، كل هذه العناصر تساعد القائد وتؤازره في المبادرة التي يقوم بها. وعبادة الامبراطور تحل محل عبادة الجمهورية الشخصية وتتلبّس قيمتها المعنوية، كما يحل الشرف محل الروح الوطنية. وكلما ازدادت هذه العبادة وقويت تناقصت، من جهة ثانية فعالية هـــذا الجيش الذي سيحارب بنشاط اقل وبروح أخف في اوروبا الشرقية، ليس بالنسبة للظروف المحلية والجغرافية القائمة فحسب، بل ايضاً لانخفاض محسوس في قيمة افراد الجيش وقواده والمارشالية، وللمساهمة الكبرى التي طلب من الدول التوابع تقديمها للجمهورية.

الوضع الدولي

وهذه القوة الديموغرافية والسياسية والاجتماعية والعسكرية الضخمة التي تمثلها الثورة النابوليونية، جاءت الاوضاع الاقتصادية تزيد من فعاليتها. فبالرغم من الحرب ومن الحصار القائم، كان الوضع الدولي، في مجموعه، حتى نشوب الازمة بين ١٨١٠ – ١٨١٢، ملائماً للغاية.

لا شك ان الحصار البري ألحق بالنوافذ خسائر فادحة. فالمرافىء اعتراها الكساد والتجارة مع المستعمرات أصيبت في الصميم. وقـــد عجزت بعض الدول التوابع عن تصريف انتاجها الزراعي ومحاصيلها من الخشب. وكان من الضروري تكييف التبـــادل التجاري مع الظروف الجديدة، واعداد الطرقات وجعلها صالحة للمرور والتنقل في كلا الإتجاهين. فالمحاور الرئيسية تنطلق من ستراسبورغ ومن ليون. فالاولى تؤمن الاتصالات بالمانيا، والثانية بايطاليا، الا ان المواصلات تصطدم هنا، بجبال الألب. وقد انجزت عام ١٨٠٥، طريق مجاز السمبلون، وسنة ١٨٠٦، الشعبة المارة بجبل سني، وفي سنة ١٨١٠، شعبة الكورنيش حتى مدينة سبازيا، واخيراً مددوا المواصلات البرية باتجاه راغوز وليبـــاخ لتسهيل وصول الحرير من بلدان الشرق الادنى. وبالرغم من اهمية حجم البضائع المنقولة عبر هـــذه المسالك والممرات، فقد قصرت جداً عن تعويض النقل البحري. وقـــد ابى نابوليون الاخذ بفكرة انشاء مناطق اقتصادية تقتصر من المسافة المقطوعة وتحد منها. فقبل ان يفكر باوروبا كانت فرنسا تهمه بالاكثر. وعبثاً اقترحوا عليه انشاء اتحـــاد جمركي الماني واتحاد جمركي ايطالي. فهذا العابث الاكبر بالحدود والمقوض لها، آثر بالاحرى استمرار الحدود والحواجز الجمركية. فقد اغلق في وجه انكلترا موانىء الدول التوابع ولم يفتح لهـــا بالمقابل، الاسواق الفرنسية، باستثناء ايطاليا. وهكذا بقي النظام الاقتصادي في اوروبا بعيداً عن كل مركزية وتضرّس كثيراً من هذا التقسيم الجغرافي ومن الجمارك الداخلية التي بقيت دوائرها قائمة.

واذ كتب على اوروبا ان تعيش ضمن اقتصاد مغلق، فقد عرفت مع ذلك ان تكيف نفسها وفقاً لهذه الظروف الاستثنائية التي عاشتها اذ ذاك. فبعد ان تخلصت من المنافسة الانكليزية،

اخذت الصناعة المحلية والاقليمية تتطور وتنمو بسرعة من ذلك مثلاً صناعة الخرضوات وصناعة الاسلحة في مقاطعة تورنج حتى ان صناعة نسج القطن اخذت تزدهر في الساكس . وصناعة سكر القصب نمت كثيراً في منطقتي فرنكفورت ومجدبورغ . وقد عاد الحصار البري بفائدة عظيمة على البلدان المجاورة لفرنسا كسويسرا وايطاليا الشمالية . وارتفع الدخل القومي في اكثر هذه البلدان . واكثر من ذلك ايضاً الارباح التي حققها ارتفاع الاسعار بالعملة الذهبية للمنتوجات الصناعية والزراعية . ووضع فرنسا الذي سبق وصفه من قبل ، توفر مثله من جديد هنا . فالبورجوازية ، هي المستفيدة الكبرى من ارتفاع الاسعار ، هنا كما في فرنسا ، وعلى هذا قس ايضاً المجال الزراعي . فالمزارع الكبير وكبار الملاكين توفرت لهم مقادير كبيرة قابلة للاتجار بعد ان ادّى الغاء الضرائب والرسوم السيادية الى ازدياد محسوس في عددهم. فالحياة المادية وحركة الاعمال جاءت في صالح هذه الفئات النبيلة صاحبة النفوذ، بعد ان دعاها النظام القائم للمساهمة في حياة البلاد السياسية والتحرر الاجتماعي .

النبوغ النابوليوني

هذا الحصار البري الضخم والمواد الجسيمة التي يتناولها يمثل ذرائع نبوغ واساليب سياسية لم يعرفها للآن تاريخ العصر الحديث ، وهذه الوسائل الهائلة هي بتصرف نبوغ فرد واحد أحد : نابغة حرب ونابغة سلم ، ونابغة سرعة حركة ونابغة فعالية يزيد من طاقتها مخيلة رومنطيقية، جامحة، ويحركها مزاج مغامر لبق، وسار في ركابها وعمل في خدمتها، حتى معركة إينّا حظ يفلق الصخر، بسمله القدرطوبلا وقد توفرت له عبقريات ومهارات من اقوى ما عرفه العصر ووسائل غلابة ، قاهرة ، بطاشة .

في وجه هذه الكتلة ، كل ما تبقى من اوروبا لم يعرف ان يؤلف كتلة أخرى تجابهها . وشعور هذه الكتلة ليس من ريب فيه . فالالماني فردريك دي جنتز الذي نقل بورك وماليه دي بان الى الالمانية، والذي سيضع نفسه قريباً في خدمة بلاط فيينا، عبّر عنه خير تعبير، عقب معركة مارنغو ببضعة أيام . فقد تنبأ بقرب نهاية العالم أمام التقدم الذي لا يقاوم تحققه الثورة الفرنسية .

سيقوم في وجه المجتمع البشري بكامله عصر هائل ، من شانه ان يقلب، كما تحدثني مشاعري، كل النظم القائمة وكل المبادىء التي يقوم عليها هذا المجتمع . فالجيل الحاضر سيغرق في لجج من الشرور والويلات على يد الثورة التي لم تبتلع حتى الآن سوى ضحاياها الاولى .

سواءٌ أُحكم على أوروبا بالموت أم لا ، فقد انهالت عليها الضربات القاصمة وقد خاضت الحرب متخاذلة الصفوف . فالفرق الروسية والنمساوية والبروسيانية والانكليزية لم تقم حتى الآن باي اتصال بعضها ببعض في الغرب . وهذه الشعوب لم تَجُدْ على هذه الفرق والوحدات لا بجسمها ولا بروحها .

ثانياً – الفتوحات النابوليونية [1]

وهذا الخطر الوطني والاجتماعي الموحد الذي تشكله القوة الفرنسية الرهيبة والذي يرزح على صدر اوروبا ، لم يكن ، عام ١٨٠٦ ، ليتسع لاكثر من هدنة عابرة . فبعد ان وصل نابوليون بانتصاراته الداوية الى رئاسة البلاد وتولى قيادتها لم يكن ليرضى او ليسلم بان يضحي بأي جزء من الأراضي التي احتلتها جيوشه ، مهما كان ضئيلاً . فالقسَم الامبراطوري الذي أقسمه في العام الثاني عشر ، فرض عليه ، من جهة أخرى ، « المحافظة على سلامة وصيانة اراضي الجمهورية » . واكثر من هذا ، فقد أخذ يفكر في مضاعفة المنافع والفوائد التي تمكن من تحقيقها حتى الآن ، وتقوية لنفوذه وهيبته ، راح يثير او يخلق اوضاعاً مثيرة يتحتم عليه فيها ، عندما تحين الضربة الأخيرة القاصمة وساعة الفصل ان يقول : « بلاها اوضعفها » تمثلاً بقول المؤرخ الفرنسي جورج لوفيفر .

وهذا النفوذ يريده في كل الحقول والمجالات : في عالم التجارة كما ساحة القتال . ولكي يعيد الازدهار الى فرنسا ، كما كانت عليه قبل الحرب ، والى البلدان التي فتحها ، اختط سياسة الاستبداد ، هذه السياسة التي سار عليها من قبل ، الاستبداد المستنير . الا انه لا يستطيع استعادة الاسواق المالية الا على حساب لندن . فحكومة بت كانت قبلت ، بعض الشيء ، بمعاهدة اميان ، على امل منها ان تستعيد اسواقها في اوروبا الغربية . فسياسة كولبير التي اعتمدها نابوليون ، جاءت تعارض خططها ، كما ان سياستها الاستعمارية نمّت عن مخاطر اكبر وأدهى . فقد استطاع البريطانيون ان يحتكروا محاصيل الاقطار الاستوائية وان يفيدوا منها فوائد جمة . وكان الناس يستبضعون في لندن البن والشاي ، والسكر والافاويه . ولذا عزم بونابرت على ان يتخلص مرة واحدة من هذا الحكر ومن هذه الوصاية ، باستغلاله الى اقصى حد ، جزر الانتيل ، كما شرع باستثمار مقاطعة لويزيانا . الا ان استعادة العمل بالنخاسة بعد ان رأى فيها الضمانة الوحيدة لاعادة هذا الازدهار ، ادى الى نشوب الفتنة والعصيان في جزيرة سان دومنيك . وبالرغم من تدخل لوكلير وتوقيف توسان لوفرتور ، اعلنت الجزيرة المذكورة استقلالها في تشرين الثاني عام ١٨٠٣ . وقد اصيبت فرنسا ، في السنة نفسها بفشل آخر في مقاطعة لويزيانا . فالحملة التي قام بها الجنرال فكتور اهاجت الولايات المتحدة الاميركية ، ولذا آثر بونابرت ان يدخل معها في مفاوضات انتهت ببيعه المقاطعة المذكورة بـ ٨٠ مليونا . والبعثات التجارية التي ارسلها الى الجزائر وتونس وطرابلس الغرب ، والى سوريا حتى الهند اقلقت جداً لندن والوزارة البريطانية . وهكذا بدا الصراع بين الدولتين الاستعماريتين امراً لا بد منه . فانكلترا التي شيدت قوتها على التجارة البحرية تحرص كل الحرص على ان تبقى في طليعة الدول البحرية ، كما انها رفضت ، من جهة ثانية الانسحاب من الموقع الستراتيجي المهم ،

---

(١) راجع ص ٥٦١ ، خريطة اوروبا سنة ١٨١٠ .

الذي تمثله جزيرة مالطة ، بعد ان نصّت على هـذا الانسحـاب معاهـدة اميان ، وفقـاً لشروط معقدّة .

والاصطدام بين انكلترا وفرنسا بدا امراً لا مفرّ منه، في القريب العاجل. ففي ايار ١٨٠٣، اصدرت الوزارة الانكليزية امراً بمصادرة كل السفن التي ترفع العلم الفرنسي . وجاءت ردة الفعل عند نابوليون ان امر بتوقيف كل الانكليز الموجودين في فرنسا ، كما اصدر امـــره للجيوش الفرنسية ، باحتلال الهانوفر والموانىء الايطالية . وعرف ان يؤمن من جهة اخرى ، التعاون بين هولندا واسبانيا . ولكي ينزل بانكلترا ضربة قاصمة اخذ باعداد حملة غزو وإنزال في الجزر البريطانية ، وهي حملة وضع خططها عام ١٧٩٨ . فجمع في هذا السبيل ، اكثر من ٢٠٠٠ سفينة مسطحة الظهر ووضعهـا تحت تصرف الجيش الذي حشده حول مرفأ بولوني . ولكي يتمكن من النزول في انكلترا ، كان لا بد له من ابعاد الاساطيل الانكليزية والهائها ، أقله لبضعة ايام ، فعهد الى الاميرال فيلنوف ، بعد نجاته من معركة أبوقير الجريئة ، بمهمة اجتذاب الاميرال نلسون الى جزر الانتيل ، بالتعاون على ذلك مع الاسطول الاسباني ، على ان يعود فجأة لبحر المانش بغية حماية عمليــة الانزال في انكلترا . وقد تمكن نلسون من تحطيم اسطول فيلنوف امام رأس الطرف الأغـــر ، في تشرين الاول ١٨٠٥ . وهكذا ربحت انكلترا الشق الاول. واحتفظت لوحدها بالسيادة على البحار . وكان عليها ان تحتاط لنفسها فتؤمن لها حلفاء اقوياء ، بين هؤلاء الملوك الذين يتهددهم خطر مشترك . ولكي تضمن تحالفهم معها ، فقد قبلت بتحمل الأعبـــاء المالية الباهظة ، مستعينة على ذلك باليسر والرخـاء العام الذي تتمتع به انكلترا ، والازدهار الدولي الذي يطبع الوضع السياسي والذي غمر جميع البلدان ، فسَهُلت عمليـات القروض ، كما سهلت جبـاية الضرائب والرسوم المفروضة . وقد ردّت انكلترا على فرنسا ، بتجنيد الجنيه ، بقرض داخلي درّ عليها ٣٣ مليون ليرة انكليزية بينما لم يعطِ القرض الذي عقدته عـــام ١٧٩٢ سوى ٩ ملايين لا غير .

نابوليون والدول الكبرى في اوروبا

أرغمت النمسا على الخضوع فوقعت معاهدة لونـيڤيل التي سمحت بادخال بعض تعديلات جغرافيــة على الامبراطورية الجرمانية المقدسة ، قام به نابوليون عام ١٨٠٣. وجاء الفرمان (*Recès*) الذي صدر في شباط يخفض عدد الوحدات السياسية التي تتألف منها الامبراطورية المذكورة الى ٨٢ وحدة، ويُعلمن الامارات الكنسية لمصلحة كل من بروسيا والبافيير. وبذلك اصبحت غالبية الناخبين فيها من البروتستانت مما اقلق بال النمسا وازعجها كثيراً . ومن جهة اخرى ، ان ضم البيامونت ، منذ ايلول ١٨٠٢ ، وتوسيع رقعة الجمهورية الايطالية ، والمشارفة على سويسرا بعد ان اصبح بونابرت ، الوسيط ، في مطلع عام ١٨٠٣ ، اثار من جهة اخرى ، غضبها . فهي لا يمكن ان تسكت عن السيطرة الفرنسية على ايطاليـا والمانيا ، كما لا يسعها الاطمئنان للخطر اليعقوبي الثوري الجاثم على حدودها ، وكذلك انكلترا . فالموقف السلبي الذي وقفته حتى الآن

لم يعد من الجائز الاستمرار فيه . فهي ستخرج من سلبيتها لدى الفرصة الاولى . وبالفعل فالاتفاق الانكليزي الروسي الذي تبدى للقيصر اسكندر الاول بشكل تحالف مقدس ، يؤلف نطاقاً صحياً يعزل فرنسا ويحكم المراقبة حولهـــا بعد ان يعيدها الى حدودها الاولى . وقد انضم الامبراطور فرنسوا الاول لهـــذا الحلف في آب ١٨٠٥ ، وأمر جيوشه بالزحف على البافيير حليفة نابوليون . وللحال قام الجيش الكبير بحركة التفاف بارعة وتحرك من بولوني الى الرين ، واخـذ بمحاصرة الجنرال ماك في مدينة « أولم » ، الذي اضطر للاستلام في ١٥ تشرين الاول . وبعد ذلك بشهر تقريباً ، دخل الجنرال مورات مدينة فيينا ، حيث رفرف العلم المثلث الالوان فوق المدينة الـتي صمدت في وجه الاتراك كما صمدت في وجه السويديين ، وجرى احتلالها لاول مرة . وفي الثاني من كانون الاول ، عند الساعة الثانية ، من بعد الظهر ، انهارت البقية الباقية من القوة الروسية النمساوية ، في معركة اوسترلتز . وعلى الاثر انسحبت روسيا القيصرية من الحلف المقدس . وقـد قبلت بروسيا التحالف مع فرنسا مقابل السكوت عن احتلالها مقاطعة الهانوفر الانكليزية . وهكذا وُضعت شروط الصلح في بضعة اسابيع : ففي ٢٦ كانون الثاني ١٨٠٥ ، تم طرد آل هبسبورج نهائياً من المانيـا ومن ايطاليا . واجبروا على التخلي عن لقب امبراطور . وهكذا فالصفحة المفجعة التي خُطّت في كمبوفورميو ، جرى تمزيقها بعنف في برسبورغ كما تم ضم مقاطعة البندقية الى الجمهورية الايطالية .

وهكذا قضي على الامبراطورية الجرمانية المقدسة لتفسح المجال امام طلوع الامبراطورية الكبرى التي بلغت الحـد الاقصى من القوة . فالرومنسية النابولونية ، تعمل على افراغ اوروبا الآخذة بالذوبان ، حيث كان يمكن ان يحدث كل شيء ، ولو بصورة موقتة .

وفي تموز سنة ١٨٠٦ ، أنشيء حلف الرين الذي تشكل من عدد من الامراء الالمان انضمت اليهم البافيير وورتنبرغ ، وقد كان نابوليون الحامي لهذا الحلف والمدافع عنه . هذه التغييرات الجديدة لم تكن لتترك بروسيا غير مبالية بالامر ، لا سيما وقد جرى البحث اخيراً في باريس ، خلال المفاوضات الانكليزية الروسية ، حول امكانية اعادة الهانوفر الى انكلترا ، مقابل بعض التعويض . واذ ذاك ينذر فردريك غليوم الثالث ، الامبراطور بوجوب التخلي عن المانيا والا فالحرب . وقد وصل بلاغ اعلان الحرب في ٧ تشرين الاول ١٨٠٦ . فقد ورد الجواب بعد هذا التاريخ بستة ايام ، اي من ٨ – ١٤ منه . ففي المساء من ١٤ ، في اثر معركتي إيينـا واورستادت ، زالت من الوجود دولة بروسيا التي انشأها فردريك الكبير . فبعد ان قُطعت اوصالها وجرى احتلالها وفرضت عليها غرامة حربية باهظة ، لم يبق لها وجود في خريطة اوروبا ، حتى عام ١٨١٣ . ودخل نابوليون برلين في ٢٧ منه ، حيث كان سبقه اليها الجنرال دافو المنتصر في معركة اورستادت ، بيومين . امـــا الحملة ضد الروس فتستمر ثمانية اشهر ، اي من شهر كانون الاول ١٨٠٦ الى حزيران ١٨٠٧ . وسار نابوليون لملاقاة الروس . فأثار دخوله مدينة فرصوفيا ، حماسة البولونيين ، فاستقبلوه استقبال الفاتحين . الا انه لم يرد اعادة بولونيا الى الوجود ، بل

اكتفى بأن انشأ فيها ادارة مؤقتة، وعمل على تأليف جيش من ابنائها وعلى تأمين أود جيوشه. الا ان الحظ اخذ يتعرج في بروسيا الشرقية، عند مداخل روسيا وامام الشتاء الروسي. فمعركة «أيلو» لم تحسم الخلاف ولم تضع حداً للحرب. وفي حزيران يفاجيء نابوليون الجنرال بنيغسن في قواعده في فريدلاند ويحطمه. فاذا بنابوليون يقدم للامبراطور اسكندر الاول اكثر من هدنة، فهو يقترح عليه عقد تحالف معه ويتم الاتفاق في اجتماع تِلْسيت على حساب بروسيا وبالتالي على حساب انكلترا. وتفقد بروسيا مقاطعاتها الواقعة غربي نهر الايلب، هذه المقاطعات التي ينشئون منها مملكة تكون من نصيب جيروم بونابرت، هي مملكة وستفاليا، وتفقد كذلك هذه الولايات البولونية التي تكوّن غراندوقية فرصوفيا. وهكذا امتدت سيادة فرنسا وسيطرتها حتى نهر الفستول. وهكذا بالتحالف مع روسيا يتسع الحصار البري ضد انكلترا ليشمل كل اوروبا تقريباً.

الحصار البري ونتائجه

آمن نابوليون بفعالية السلاح الاقتصادي وجدواه، هذا السلاح الذي لم يثبت التاريخ فعاليته، منذ ذلك الحين. والمرسوم الذي اصدره في برلين في الحادي والعشرين من تشرين الثاني ١٨٠٦، عبثاً اعلن الحصار حول الجزر البريطانية، اذ لم يغير كثيراً من الوضع السابق، وذلك، لان اوروبا كانت تؤلف سوقاً رئيسية للصادرات البريطانية، فالاقسام الاخرى من العالم كان لها عندها حساب اكبر. فكانت البضائع الانكليزية تتغلغل في اوروبا محملة على سفن حيادية. وقامت انكلترا نفسها بردة فعل. فبعد ان قصفت مدينة كوبنهاغن، أسرت الاسطول الدانماركي، كما استولت على جزيرة هليغولاند وانزلت فيها حامية عسكرية، باتجاه سكانيا، محررة بذلك مداخل البحر البلطيقي. وقد اصدرت الوزارة البريطانية امراً بتفتيش كل السفن المحايدة التي تمخر عباب البحر. ورد نابوليون على هذا التدبير من ميلانو اذ يعلن عن عزمه مصادرة كل سفينة تقبل بتفتيشها. ولذا كان لا بد من اختيار احد الأمرين. ونجاح الحصار البري كان يتوقف الى حد بعيد على انتصارات الجيش الكبير. فضخامة هذا الجيش عرضته لمواطن الضعف والنفاذ، فاستمرت مدينة همبورغ مثلاً مركزاً لنشر وتوزيع البضائع الانكليزية التي كانت تصلها باستمرار بصورة متواصلة. وعلى هذا سارت ايضاً مدينة لشبونة بالرغم من وجود الجنرال جونو فيها، الذي جعل منها عام ١٨٠٧، مقراً له، بعد ان ارغم الاسرة المالكة على الانتقال الى البرازيل.

ولكي يؤمن الجنرال مورات المواصلات وحرية التنقل، احتل شمالي اسبانيا ثم مدينة مدريد نفسها، ممهداً الطريق، عن غير رضى، لاعتلاء جوزف بونابرت، عرش اسبانيا. وبذلك حمل الشعب الاسباني على الثورة والعصيان. وقد كان لهذا الحادث شأن كبير اذ قام لاول مرة منذ عام ١٧٩٢، حرب شاملة بين أمة وأمة أخرى. وتجنيد الانكليز للجنيه سيتيح لها تجنيد الرجال بصورة بديهية. ولكي يعيد نابوليون الوضع الى ما كان عليه اضطر لاستخدام الجيش الكبير، الا انه لم يتلق من القيصر الذي طلب منه اثناء المقابلة التي ضمتهما معاً في ارفورت،

تحالفاً ضد النمسا ، سوى جواب مبهم ، ولذا رأى نفسه ملزماً بقيام حملة سريعة في شبه الجزيرة الايبيرية،لم تأت بأثر قط . فحروب المناوشات التي قام بها الاسبان بعد إستباحته البلاد، في كانون الثاني ١٨٠٩ ، كانت اكثر فتكاً من قبل .

وراح البلاط الامبراطوري في فيينا يبني له قصوراً في اسبانيا . تمكن ولا شك من ان يعيد تشكيل جيشه بعد انهزامه الماحق في اوسترلتز ، ووضع في الخدمة جيشاً كان اقوى جيش بعد الجيش الفرنسي في اوروبا ، جاش بروح وطنية عارمة . الا ان السياسة التي اتبعتها حكومة فيينا كانت جد محافظة ، كما ان النمسا كانت وحدها في حلبة الوغى ، باستثناء انكلترا ، والفتن القائمة في كل من اسبانيا والبرتغال . انفجرت الحرب دون اعلان سابق من النمسا ، واستمرت ثلاث سنوات . وقبل مرور سنة واحدة تمكن نابوليون من الدخول الى عاصمة آل هبسبورغ ، من جديد . وصلح فيينا الذي جرى توقيعه في شهر تشرين الاول ، بعد انتصار الفرنسيين في معركة وغرام بثلاثة اشهر ، جرّد النمسا من مقاطعة غاليسيا ومن الولايات الواقعة على البحر الادرياتيكي . فالاولى اعطيت غنيمة باردة لغراندوقية فرصوفيا التي ترمز الى بولونيا ، بينما كانت الثانية ، من نصيب الامبراطورية الكبرى . وهكذا امكن احكام الحصار البري حول انكلترا بعد ان اضطرت النمسا للانضمام اليه والعمل بمقتضاه .

الامبراطورية الكبرى والنظام القاري في اوروبا

نزولاً عند متطلبات هذا الحصار ، استمر نابوليون في قلب اوروبا رأساً على عقب . فضم اليه الممتلكات البابوية وهولندا ومدن اتحاد الهانزا . ففي وجه هذه النمسا التي دُرست درساً وعُزلت تماماً عن البحر ، وامام بروسيا التي قصت اجنحتها وأقصرت على بروسيا الشرقية والبراندبورغ وبوميرانيا وسيليزيا، انتصب هذا البناء الامبراطوري المشمخر الذي ضمت جنباته ٧١ مليوناً من البشر منهم ٢٧ مليوناً لا غير من الفرنسيين الصميمين. وهذه الامبراطورية تمتد من الزويدرزه شمالاً الى جبال البيرانيس جنوباً ومن روما الى همبورج ، وتبلغ مساحتها ٧٥٠،٠٠٠ كلم^2 . وقد قسّمت الى ١٣٠ محافظة. ويستند الى هذه الامبراطورية عدد من الدول والتوابع اقامتها حولها نطاق وقاية تألفت من ولايات وراثية في العائلة ، أو من اقطاعات أو من احلاف لها . وكورسيكا التي كانت رئيسة الجوقة عرفت ان تخدم ابناءها الخدمة المثلى . فابناء اسرة نابوليون تقاسموا فيما بينهم العروش والتيجان : فنال جيروم مملكة وستفاليا ، وجوزف مملكة اسبانيا ، وموراث مملكة نابولي . وكان على كل واحد من هؤلاء ان يمتثل لارادة رئيس الاسرة الباقي والقائم بالوصاية على من هم في حكم اولاد قاصرين ، له ملء الحرية بحل أو ربط كل الروابط الزواجية ، والمتصرف دونما رقيب أو حسيب ، بشخصيتهم. والامبراطور، مع ذلك، هو المتبوع الأكبر وحكمه الاستبدادي يتلاءم مع النظرية الاقطاعية القديمة التي لا تزال تسود اوروبا الوسطى . فقد احتفظ له في كل دولة من هذه الدول التوابع ، بعدد من الاقطاعات الخاصة يوزعها كيفما شاء على رجال بطانته مدى الحياة ، بينما امارات كأمارة نيوشاتل مثلاً

التي كانت من نصيب برتييه ، وأمارة بنيفانت التي راحت لتاليران ، و ٦ دوقيات في ولاية البندقية و ١٢ في دلماتيا . وهذه المقاطعات تدخل في المحالفات الجديدة ، سواءً أكانت اتحاد هلفيتيا (سويسرا) أو المملكة الايطالية أو غراندوقية فرصوفيا أو حلف الرين . وقد شدد من روابط التبعية ووشائجها عن طريق المصاهرات التي اخضع لهـا اخاه جيروم وبرتييه واوجين وبوهارنيه . وفرض في كل مكان الاصلاحات التي يقتضيها الوضع ، فوحد بين مجموعها وطّد فيها المركزية .

وهذا البناء لا يخلو مع ذلك من فجوات وثغرات، لا سيا في النواحي المطلة منه على البحر، اتاحت للبضائع الانكليزية بالنفاذ منها والتغلغل فيها ، بعـد ان نشطت حركة التهريب في كل مكان وانسرحت بعيداً في البلاد. ففي ليل ١٧ – ١٨ تشرين الاول ١٨١٠ ،رأت فرنكفورت نفسها محوطة باحدى فرق الجيش . وبعد اعمال التحري والبحث وجدوا بضائع انكليزية الصنع لدى ٢٣٤ تاجراً من تجار المدينة . وقد زادت الصادرات الانكليزية في هذه السنة وبزّت مـا سجلته من قبل من ارقام قياسية،كما ان قيمة هذه البضائع ضربت الرقم المسجل. كذلك سجلت الكمية المصدرة مثل هذا الرقم ، باستثناء السنة التي عُقد فيها صلح اميان . وهذا الحصار الذي أريد منه أن يحطم التجارة الانكليزية لم يستطع ان يوقف عند حد نشاط هذه التجارة .

ثالثاً – يقظة الروح القومية وانتصار اوروبا

القوى المعادية

راحت قوى الانحلال تفعل فعلها في الداخل والخـارج على السواء ضـد الامبراطورية . فقد ملّت اوروبا نابوليون الخدمة العسكرية وسئمت هذا السير الذي لا ينقطع للطوابير الحربية ، واستعراضات الجيوش واعمال المصادرة التي لا تنتهي عند حد، وهذه الضرائب التي لا تنفك. فقد تضاعفت الضريبة بين ١٨٠٨–١٨١٢ في غراندوقية برغ ، وازدادت ثـلاثة اضعاف في مقاطعة فنيسيا . وهذه الشعوب التي غُلبت على امرها والتي أمضّها الاحتلال الدائم وأفضّتها روحات المنتصر وغدواته نحو العاصمة او باتجاه اطراف اوروبا القصيّة ، وأرزحها الغُرم الذي اناخ عليها بكلكله عقب انكسارها ، كل هذه العلل خلقت في نفوس سكان هذه البلدان روحاًمن التذمر والتأفف والاهتياج اخذ يتزايد ويتصاعد. وهذا الحصار البري ألحق في العالم كله الاذى والضرر سواءً من جهة المنتجين او من جهة المستهلكين، كما ان السياسة الجمركية التي انتهجها نابوليون اهاجت البلدان التوابع بعد ان اوصدت في وجه سكانها او كادت ، ليس البحار فسحب ، بل ايضاً البر الفرنسي نفسه مع انها أُجبرت على فتح اسواقها للمحاصيل الفرنسية معفاة من كل رسم . والبلاد التي تمّ ضمهـا الى فرنسا او أجبرت على السير في فلكها لم تمتثل دوماً للاوامر التي تبلغتها كما انها لم تلـتزم السير والصراط المرسومان لها دون خشية على نفسها من الرسوم الاقتصادية التي فرضتها عليها فرنسا . وقد راح اصحاب الحرَف ينعون جمعياتهم ونقاباتهم التي ألغيت . وازدادت حركة التذمر هـذه

حدة كلما عبست الاقدار للجيوش الفرنسية وقسا الحظ لها . وقـــد بدا ان عهد الازدهار زال وارتفع منذ عام ١٨٠٩ كما أخذت تهبط باستمرار اثمان المواد الصناعية . ثم تأتي بعد ذلك الأزمة الاقتصادية الدورية عام ١٨١١–١٨١٣ التي تضرس الجميـــع بأثرها البالغ . فراحـــت أوروبا بأجمعها تعزو أسباب هذه الازمة للحصار البري ان لم يكن للمستجدات الفرنسية الـــتي فُرضت على البلاد . والارستوقراطية العقارية التي عُرفت بعدائها لهذه الاجراءات بعد ان أسقط في ايديها في تصريف محاصيلها من الحبوب والاخشاب، والاوساط البورجوازية نفسها التي كانت اسهل اتصالاً واقرب، راحت كلها تشدد من مقاومتها الوطنية بعد ان أصبح نابوليون في نظرهم المفسد الاقتصادي الاكبر .

والقوى الدولية عملت هي الاخرى عملهـــا كالقوى المادية ، مثلا بمثل ، في المجال الروحي والادبي . فالصراع العنيف الذي قام بين نابوليون والبابا ، منذ عام ١٨٠٩، حمل على الوقوف ضد هذه السياسة الخرقاء ، كل من اعتنق العقيدة الكاثوليكية ، بحيث ان العداء ضـــد فرنسا النابوليونية انتشر بين جميع طبقات السكان .

فالمصير مرتبط فقط بمهارة الحكومات في تجميـــع الشعوب وشدّها عصبة واحدة تقف في وجه الثورة وان تستعمل ضدها الوسائل التي عرفت وحدها ، حتى الآن استخدامها .

فان لم تعرف اوروبا اللانابوليونية ان تستغل هذه الظروف السانحة بما فيهـــا من مـــادة بشرية ومادة تقدمية ، على الوجه الاكمل ، وان تؤلف من دولها حلفاً عاماً ، فقد كانت مـــع ذلك هي صاحبة الكلمة الاولى في القارة . وأوروبا هذه تتألف ، عام ١٨١٢ ، من انكلترا ومن المغلوب على امرها من دول القارة . فالدول المفروض فيها ان تكون صديقـــة او حليفة ، لا يستقيم النفوذ الفرنسي فيها الا عرَضاً . فالدانمارك التجارية في الصميم هي في منأى منه جزئياً . والسويد التي عهدت بعرش ملوكها الى شخص برنادوت ، هي منافس قـــوي لنابوليون . وبعض حلفاء فرنسا كالبافيير مثلا ، هم موضوع شك وريبـــة . ولم يلبث الامبراطور اسكندر الاول ان استفاق من احلام تلسيت المعسولة : فقـــد احـــاول له ان يلعب دور « حامي الدول المضطهدة والمسيحيين الارثوذكس في البلقان » وقـــد اضطر للتخلي عن حمايتهم عام ١٨١٢ ، بعد أن بنوا قصوراً على مساعدته ضد الاتراك العثمانيين .

بالطبع كان على نابوليون ان يحسب حساب الحقد الازرق الذي يجيش ضده في صـــدر الارستوقراطية التي كثيراً ما هزئت بهذا « الوصولي » وضحكت من نبالتـــه المستجدّة . فاذا ما تبنت بعض المبتكرات التي طلع بها النظام الجديد ، فعلى مقدار ما يتفق هـــذا مـــع مصالحها الاساسية ، وعلى نسبة ما كانت تخشاه من قوة فرنسا الحربية كانت توجس شراً من المبادىء التي أعلنتها الثورة . والنمسا التي صار الامر فيها للامبراطور فرنسوا الثاني وللمستشار مترنيخ منذ صلح شونبرون ، تمثل خير تمثيل ، هذا الشعـــور . ان زواج الاميرة ماري ــ لويز

من بونابرت سجل حلقة مخجلة جديدة في سلسلة الخطوات المخجلة التي خطاها الامبراطور ، في نظر بعض أوساط المجتمع القديم. فالارشيدوقة لم تكن، في نظر مترنيخ، سوى ذريعة من هذه الذرائع التي استعان بها لخلخلة التحالف الفرنسي الروسي . ان حياد بلاط فيينا الطويل في صراع يحمل في ثناياه خطراً اكيداً على فرنسا لم يكن من الامور الواردة .

علينا ان نبحث في غير مكان عن الوسائل والاساليب الاخرى التي أعتمدت في هذا الصراع . فقد اظهر قيصر روسيا ارتياحه ، بعد تلسيت ، لمشروعات الاصلاح التي وضعها سبيرانسكي والتي كان لها دوي بعيد الأثر على العوامل الغربية. فقد سلم القيصر اسكندر الاول، عام ١٨٠٩ ، بانشاء مجلس تمثيلي (دوما) يُنتخب اعضاؤه انتخاباً ، من قبل اصحاب الاملاك في المقاطعات ، كما وافق على قيام دوما امبراطوري يتولى التصديق على الموازنة والقوانين . الا انه اكتفى بالواقع ، عام ١٨١٠، بانشاء مجلس استشاري كما وافق على خلق مراكز وزارية. وقد اشترط للدخول في خدمة الدولة النجاح في مباريات عام تنظم في هذا السبيل ، وانعم على الكفاءات التي تؤيدها الشهادات الجامعية برتب الشرف . وستقوم فيما بعد اصلاحات اخرى ، منها مثلاً وضع تشريع مستوحى من القانون النابوليوني . الا ان الارستوقراطية وقفت منها موقفاً معادياً . فقد وجّهت الى سبيرانسكي تهمة التواطؤ مع فرنسا فتخلى عنه الامبراطور فراحت مشاريعه الاصلاحية مع الريح . ومع ذلك فقد ارتدت الحرب، في تلك السنة، طابعاً من الشدة كان دوماً بازدياد . ودخل الشعب الروسي المعممة اكثر مما دخلها الشعب الاسباني ، مقدماً في سبيلها ، راضياً مرضياً ، الجنود والعتاد ، واضعاً اكثر من ٤٠٠،٠٠٠ ،دفعة واحدة، تحت تصرف الحكومة ، عام ١٨١٢ . والغزو الفرنسي قابلته البلاد ، بهبة عامة قام بها الشعب وراح الاكليروس الأرثوذكسي يذكي في النفوس، روح التعصب والروح القومية ويدعو للمقاومة والصمود في وجه الغزاة .

اليقظة البروسية والرومنطيقية الالمانية

فاللجوء الى القوى الوطنية والاعتصام بحبلها يبدو على الاكثر ، في بروسيا ، مع ما اقتضى ذلك من التنازلات وقطع الوعود والتضحيات ألتي لا بد منها ومواجهة الاخطار الاجتماعية العارضة . فبعد ان اتخذ فردريك غليوم الثالث من كونغسبرغ عاصمة له اثر هزيمته النكراء، فقد قبل خدمات بعض الضباط امثال شارنهورست وغنايسنو ، كما عرف ان يستدرج خدمات بعض رجال الادارة المشهورين امثال شتاين للقيام باصلاحات جذرية في الجيش والدولة. فقد عرفوا ان يؤمنوا في المجال المدني ، التعاون بين البورجوازية وكبار الملاكين ، في كل ما يتصل بالامور السياسية . كذلك أعيد النظر في صميم الاوضاع الاجتماعية. فقد عرف كبار الملاكين ان يحافظوا على ما لهم من قوة بالرغم مما اصابهم من خفض في امتيازاتهم . والمرسوم الذي صدر عام ١٨٠٧، اباح تملك الارض لكل من يستطيعه . فبامكان المتعهدين ان يفتدوا العوائد المترتبة عليهم . وقد ألغي رق الارض . وقد أوقف الاصلاح في منتصف الطريق بعد ان قرر شتاين الأبقاء على القيود

الشديدة التي غلّت طبقة الفلاحين ، كما رفض التخفيف من الروابط الاقطاعية . واستأنف الأخذ بهذه الاصلاحات ، عام ١٨١١ ، هاردنبرغ فتناولها بروح أخرى ، فقد ألغى القرار الصادر عام ١٨١١ ، العبوديات القائمة لقاء التخلي عن بعض ريع الارض للسيد ، محرراً بذلك الفلاح ، الا انه شجع كثيراً توسع الملكيات القائمة على الرأسمالية . وامتثل هاردنبرغ لارشادات «ثائير» ونصائحه. فقابل النبلاء هذه الاصلاحات بمعارضة شديدة. ومجلس الاعيان الذي تم تعيين اعضائه في شباط ، اوقف جلساته في تشرين الثاني . ولم يبق قائماً غير مجلس القضاء والهيئات البلدية المنتخبة من قبل البورجوازيين . وقد ادّى الاصلاح الحربي الى نتائج قيمة محسوسة بالرغم من نفقات جيش الاحتلال ،والغرامة الحربية التي فرضت على البلاد. وادرك كل من شارنهورست وغنايسنو جيداً ان القضية الحربية هي ، قبل كل شيء ، قضية اجتماعية واستشهد على ذلك بالمثل الفرنسي . وقد ابدى غنايسنو دهشته واستغرابه « لهذه القوى غير المحدودة الكامنة في قلب الشعب الالماني ، التي لم يعرفوا حتى الآن كيف ينموها ويفيدوا منها الى الحد الابعد » . فتأميم الحرب وادخال الأمة بأسرها في اطار الجيش ، كل ذلك يفرض جيداً انسكاب الشعب في صميم الدولة . فعدم المساواة بين افراد الشعب ، والامتيازات التي ينعم بها المجتمع الطبقي في البلاد يقيم الحواجز والفواصل بين الشعب الواحد ويحول دون تحقيق هذا التجمع والحشد العام الذي يسمح وحده بالتجنيد العام . وفي سنة ١٨٠٨ ، افسح النظام الذي وضعه كرومبر المجال لاعداد أطُر الجيش الوطني الذي استشرف شتاين ، شكله وصورته ، من قبل ، وراح شارنهورست يقلل من عدد الاعفاءات ، ويلغي العقوبات الجسمانية ويفتح امام الجميع سُلّم الرقي الى مراتب الضباط ، مع انه لم يتمكن من كسر الاحتكار الذي فرضه كبار الملاكين على الرُتب العليا . وعندما اخذ الوزراء البروسيانيون بتنظيم ادارة الجيش ونفخ الروح الحربية بين صفوفه، جعلوا من برلين التي انشئت فيها ، عام ١٨١٠ ، الجامعة وفقاً للتصاميم الذي وضعها همبولت ، المحور الاكبر لاحرار الفكر الألماني .

واستولى القلق على الشعب ، وقامت منظمة *Tugen dbund* تراقب الموظفين وتقتفي اثر الاشخاص الذين يستسلمون للهزيمة أو يعملون على الترويج لها .

والرومنطيقية الالمانية اسهمت ، من جهتها ، بهذا البعث الوطني الالماني ، وهي حركة تنمو وتمتد في بلدان أخرى ، بما لها من خاصيات تجعلها تنتصب في وجه الشعوبية الثورية والنابوليونية .

وقد ساعدت هذه الحركة المانيا اكثر من أي بلد آخر ، على تمجيد فكرة النبلاء . فراح «فخت» يعلم ، منذ عام ١٨٠٧، بان الشعب الالماني الذي يتمتع وحده بين الشعوب بلغة فرضت احترامها على الاجيال المتعاقبة ، فلم تسمح قط بدخول المؤثرات الاجنبية الفاعلة اليها . فالشعب الالماني هو « شعب الله المختار » و « الخمير الذي سيخمر الارض » . وراحت جامعة هيدلبرغ ، تعنى بالبحث عن القصص الشعبي الالماني الفولكلوري وتعمل على تكييفه وترجمته الى لغة العصر

امثال *Niebelungen* ، ووجدت في ما يسميه «جاهن» عام ١٨١٠ ، *Le Volkstum* ، اسس حضارة جماعية مستقلة ، بحيث امكن لشتاين ان يكتب قائلاً : « من هيدلبرغ انطلقت الشعلة الالمانية التي قيّض لها ان تطرد الفرنسيين من البلاد » .

ومهما يكن ، فالحريق اتسع واصبح شاملاً في الاشهر الاولى من عام ١٨١٣ . فالوطنيون وانصار الحرب بقيادة شارنهورست نجحوا في نهاية الامر بالفوز بفردريك غليوم الثالث والخروج به من التردد المميت الذي كان يتخبط فيه . وفي شباط وجه الملك نداءً يدعو فيه الشعب للحرب وينشىء الجيش البري *Landwekr* ، ويأمر بالحشد العام « بشدة وعزم لم يتم للجنة السلامة العامة من قبل شيء منها » وانتقلت الحماسة من طلاب الجامعة في برلين الى البورجوازية وطبقة النبلاء . وبروسيا التي خرجت من اجتماع تلسيت مهيضة الجناح لا تضم غير خمسة ملايين نسمة ، ستتمكن من حشد جيش جرار قوامه ٣٥٠٬٠٠٠ جندي .

وعلى درجات متفاوتة من الحماس والاستعداد دخلت الدول الاخرى حومـــة الوغى ضد فرنسا : هي حرب الجماهير المتكتلة ضد فرنسا . ولاول مرة منذ عـــام ١٧٩٣ تتحالف دول اوروبا الكبرى الثلاث وتتكفل دون ان يندّ عن الصف احد ، فتضم قواها وحشودها الحربية بعضاً الى بعض . ومما هو خير لها من عام ١٧٩٣ ، فقد تمكنت من تأمين الانسجام في التدقيق . فاللعبة البولونية لم تعد لتنفع شيئاً . فها مليون جندي يتهيأون للانقضاض على الجيش الكبير .

وقد وقع هـــذا بالفعل ، في الوقت الذي اخذت فيه تتراجع القوى الفرنسية وتنثني . فالحرب التي لن تتأخر عن احراقهـا قد التهمت النخبة من شبانها وشبابها كما التهمت الفرق التي طالما تمرست بالحرب فألتفت خير الأطر لهذا الجيش . ومع ذلك فالمادة البشرية لا تزال متوفرة . والوضع يقتضي له الحشد الكامل ولكن بشروط اقسى بكثير مما اقتضاه عام ١٧٩٣ . فأعيان العهد لا يرغبون قط في المغامرات الاجتماعية الـــتي تؤول اليها الحرب . فبعد ان اطمأنوا ، في المجالين المدني والسياسي ، راحوا يبدون كل استعداد للتضحية بكل شيء في سبيل سلامـــة الوطن والحفاظ عليه . فقد اختل توازن القوى الفكرية والروحية : فها هي الدعاوة التي يقوم بها الحلفاء تنشط بـــين صفوف الفرنسيين انفسهم تدعوهم للسلم والاستسلام . فقامت في الغرب قلاقل . وقامت الارستوقراطية وبعض عناصر البورجوازية ترّحب بالغـزاة . وها هي خزينة الدولة فارغة والمال ينقص بعد ان انقطع المورد الاكبر: الحرب على حساب الآخرين ، والتسليف العام الذي لا يزال في طور الجرثومة يتنكب ويتوارى ، والركون الى الأسينياء ، امر لا يمكن تصوره او التفكير به .

قوى على قياس الثورة الفرنسية

والقضاء على الثورة الفرنسية في الشكل الذي تلبسته والاتساع الذي بلغته والشأو الذي حققته ، كان لا بد من قوى بقياس هذه الثورة وبضخامتها : قوة العدد المادية تجيش بالشعور الجماعي او قوة الطبيعة العددية . وقد

استبطرت هذه القوى وتلك ، بين ١٨١٢ — ١٨١٥ فما هو الفضاء الروسي ، والشتاء الروسي ، والعدد الروسي ، والعدد الاوروبي ، والروح القومية المستشيطة التي أوقظت من سباتها العميق والجبروت المالي الذي توفر لسيدة البحار .

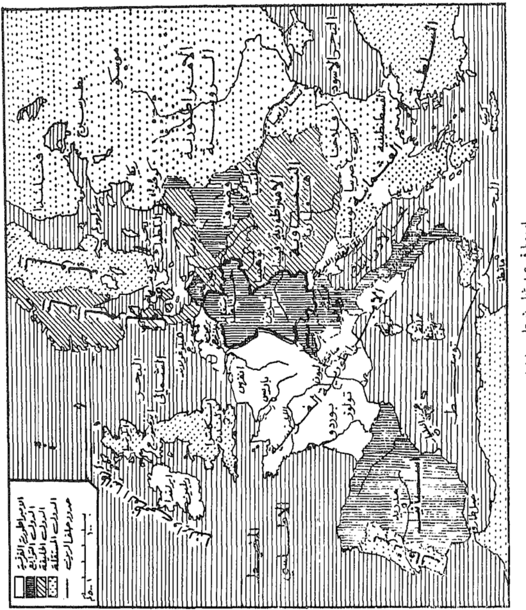
النصر الروسي

واخذت الاحداث تتوالى سراعاً : ففي اقل من ١٦ شهراً ، اي من ٢٤ حزيران ١٨١٢ ، وهو تاريخ بدء الحملة على روسيا ، الى ١٦ — ١٩ تشرين الاول ١٨١٣ ، وهو تاريخ انكسار نابوليون في ليبزيغ عبرت القوة وانتقلت من الجيش الكبير الى صفوف الحلف الكبير .

فوقوف طبقة النبلاء الروسية ، في وجه فرنسا النابوليونية والامتداد غير المحدود الذي حققته فرنسا والذي جعل من روسيا الحليفة دولة من الدول التوابع ، كل ذلك ادّى ، بعد تلسيت ، الى القطيعة التامة بعد عام ١٨١٢ . فأي وزن بعد يا ترى ، وأي قيمة لهذه المكاسب تحققها روسيا بانتزاعها ولاية غاليسيا الشرقية على حساب النمسا ، عام ١٨٠٩ ، وبانتزاعها عام ١٨١١ ، فنلندا من السويد ، وبسارابيا التي احتلتها عام ١٨٠٦ ، انتزعتها نهائياً من تركيا عام ١٨١٢ ، بإزاء المدى الفرنسي المعظم واتساعه الرحب بحيث قطع القارة برمتها وانتصب عملاقاً من البحر البلطيقي حتى البحر الادرياتيكي؟ والعملية تمت احياناً ، كما حدث في مقاطعة اولدنبرغ ، على حساب صهر القيصر ووريثه العتيد في المستقبل القريب ، وعلى مسافة بعيدة من هذه المنطقة . تشعر روسيا ، بحق او ببطل ، لسبب او لغير سبب ، بانها حدودها مهددة في الصميم كل يوم . فنابوليون يحتل بوميرانيا السويدية ، منذ مطلع عام ١٨١٢ ، وقد جعل من مدينة دانتزيغ قاعدة كبرى لاعماله الحربية في هذه المنطقة كما انه كان في الصميم من قلب بروسيا . واخشى ما تخشاه روسيا هو اعادة بولونيا الى الحياة وبعثها دولة قوية من جديد . فلا لزوم لاكثر من هذه العوامل ، لاثارة هواجس القيصر اسكندر واهاجة الروح القومية والعصبية الروسية فيه .

فقد رفض نابوليون دون أية مداراة بلاغ القيصر الأخير الذي ارسله في نيسان واجتاز نهر النيمن بعد ذلك بشهرين . وسيكون تحت تصرفه جيش لجب من الفرنسيين والألمان والبولونيين . وهو أكبر جيش عدداً وشتاتاً تم حشده في أية دولة للآن ، من دول الارض : ٧٠٠،٠٠٠ جندي ، نصفهم تقريباً غرباء عن اوروبا ، بينهم وحدات ايطالية وكروات وبرتغاليون وسويسريون ودانمار كيون كلها مؤتلفة مع الوحدات الفرنسية في جيش واحد . وقد اشترك في عملية الحشد هذه ملك بروسيا وامبراطور النمسا ، اذ اسهم الاول بتقديم ٢٠ ألف رجل والثاني بتجهيز ٣٠ ألف محارب . وهنالك ١٨٠ ألف الماني أي ما يوازي عدد الفرنسيين الذين تم حشدهم من حدود فرنسا لعام ١٧٩٠ .

والروس على استعداد للتراجع الى الوراء ، الى مسافة ٧٤٠ كيلومتراً مخلفين وراءهم عند



اوروبا في عهد نابليون عام ١٨١٠

انسحابهم الخراب والدمار أمام الجيش « الاوروبي » . وهكذا قلّت الميرة وندرت الذخيرة ، وأخذت الأمراض، والتفتت والهرب من صفوف الجيش يفتّ من عضد قوى الغزو التي أوغلت في قلب البلاد . وفي ٥ أيلول ، ها ١٣٠،٠٠٠ فرنسي والماني وايطالي وبولوني على بعد ١٥٠ كيلومتراً فقط من موسكو ، وقد احتشدوا في موقع موروديتو على نهر الموسكوفا حيث يقف كوتوسوف معترضاً تقدمهم الى الأمام . انفجرت المعركة في ٧ ايلول ، وفي ١٤ منه يدخـل الجنرال مورات قصر الكرملين ، ثم يدخل نابوليون والحرس الامبراطوري موسكو، في اليوم التالي ، على انغام النشيد الوطني المرسيلياز . وفي اليوم ذاته اشتعلت موسكو بالحريق . وبعد ذلك بشهر يغشى الجليد البلاد . وانقطاع العلف يفني الخيالة ويهدد المدفعية . ولذا لا بـد من الانسحاب والتراجع بأسرع ما يمكن . واذا بكوتوسوف يقطع عليهم الطريق في الجنوب . وأعاد العدو تشكيل قواته . فها هو يهاجم بدون انقطاع ، مستخدماً في ذلك فرسان القوزاق مع من لديهم من الانصار ، المائة ألف الذين بقوا على قيـد الحياة من جيش الغزو ، و١٨ ألف لا غير يعبرون نهر النيمن في كانون الاول .

فقد ذابت جيوش الغازي في الفضاء الروسي وأمام الشتاء الروسي والمدد الروسي . وقـد صمد الشعب الروسي وحكومته صمود الأبطال . والقيادة الروسية العليا التي كانت في مستوى ضعيف بالنسبة لقيـادة العدو ، كانت مهمتها يسيرة نسبياً ، في بـلاد منبسطة السهول حيث لا يعترض حركات الجيوش مشكلة ولا تثير أية قضية في وجه أركان الحرب .

وهكذا « هوى الى الحضيض درع الامبراطورية الكبرى » .

الحلف العام

هذا التغيير المفاجيء للاقدار والاوضاع الذي تم على مرأى ومسمع جميع الشركاء الاوروبيين ، لم يلبث ان وضع حداً لتعاونهم . فالشعوب تبقى سهلة الانقيـاد والتعاون أمام الأمل المرتجى . فقد أزفت ساعة الهجوم الأخير العام على فرنسا . فمنذ ٣٠ كانون الأول ١٨١٢ ، خرجت الفرقة البروسيانية من الصف، اثر اتفاق الحياد، وقعه الالمان مع الروس في توروجن . ونشبت الفتنة في بروسيا الشرقية وسارت في اثرها البلاد برمتها وانضم اليها الملك في شباط وأخذت المانيا برمتها تهتز وتموج ، والنمسا من خلفها تترقب الفرصة المؤاتية . صحيح ان نابوليون بادر الى تأليف جيش جديد ، الا انه جيش افتقر في الصميم ، الى فرقـة الخيالة . والانتصارات التي حققها في لوتزن وبوتزن ، في شهر أيار ، لم توفر له سوى فترة قصيرة من الهدوء والراحة ، بفضل الهدنة التي عقدت في بلايسفتز *Pleiswitz* بتاريخ ٤ حزيران ، وهي هدنـة ستغتنمها الدول للوصول الى التفاهم فيما بينها . فبروسيا تعاد اليها وحدتها كامـلة كما كانت في الماضي ، وبرنادوت يستولي على النرويج ، وغراندوقية فرصوفيا يجري اقتسامها من جديد بين الفرقاء الشركاء الذين قطعوا عهداً بالا يجروا صلحاً منفرداً . ومهما يكن من موقف نابوليون في مسرح براغ ، خلال الحلف الذي ينتصب في وجهه ، خلال تموز وآب ، من اعدائـه اليوم ومن هؤلاء الاعداء في الغد الطالع ، فلن يبدل الحلفاء من موقفهم قيد شعرة . فهم يفكرون في قرارة

نفوسهم بوضع حد لاوروبا النابوليونية ، والعملية ستمتد الى أبعد من ذلك ، بالطبع وسينضم لصفوف الروس والبروسيانيين والانكليز والنمساويين المتراصة ، السويديون والبافييريون . وقد يكون مترنيخ قد تردد كثيراً حول توقيت ساعة العمل ووسائل التنفيذ : ان انكسار فرنسا ، يجب ألا يؤول لتأمين السيطرة للروس وللبروسيانيين . وفي ٧ آب ارسل بلاغ اعلان الحرب الى نابوليون ، وفي ١٠ منه تدخل النمسا الحرب بدورها .

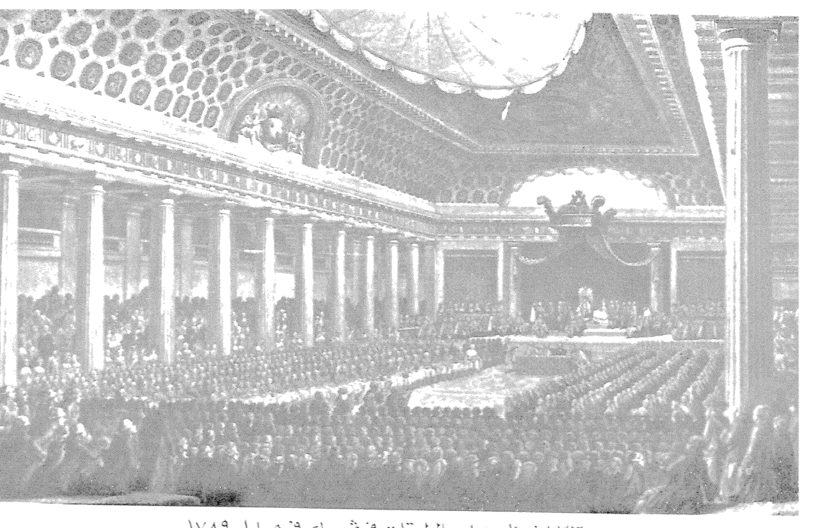
ففي ساحات الحرب وميادينها المختلفة هنالك أكثر من مليون جندي يتجهون صوب فرنسا. فتفوقهم العددي هو بنسبة ٢ — ١ أي النسبة التي يراها كلوسفتز في الجيوش العصرية ، هذه النسبة التي تؤمن النصر النهائي اذا ما تعادل السلاح والتجهيزات الحربية والتدريب العسكري ، مهما أوتيت قيادة العدو من مهارة ومقدرة ودهاء حربي في الستراتيجية والتكتيك ، لا سيما والأمل ضعيف بان تنجح سرعة التحرك والضربات المفاجئة ومهارة المناورات ، مع هذه الحشود الضخمة .

نابوليون هو في وضع الخاسر . فالقائد الانكليزي ولنغتن الذي انتصر في فيتوريا يتقدم الآن نحو البيرانيس ، ولذا اضطر الجيش الفرنسي للانكفاء واخلاء اسبانيا . فقد استطاع الحلفاء ان يوجهوا ضربتهم القاصمة في ليبزيغ ، هذه المعركة التي استمرت أربعة أيام من ١٦ — ١٩ تشرين الأول حيث انتصب وجهاً لوجه أكثر من ٥٠٠،٠٠٠ جندي وتدخـّل في المعركة ٢٠٠٠ مدفع . فالتفاوت بين القوى المتناظرة ظهر بوضوح في هذا الاشتباك الدامي ، فقد خاض نابوليون المعركة ضد خصم يزيده ضعفين . ففي اليوم الثالث ، وفي اثناء احتدام المعركة قلبت له فرق الساكسون والفرق الورتنبورجوازية ظهر المجن وصوبوا ضده مدافعهم ، وسكان بادن اخذوا بمقاومة مؤخرته ، والتقهقر استحاله كارثة هوجاء . واذ ذاك يتخلى عنه الباقون من حلفائه الجرمان، كما يهوى الى الحضيض حلف الرين . وموورات يسير باتجاه الخيانة منذ الخسف الذي لقيه في روسيا ، ولن يلبث ان فر الى انكلترا ثم الى النمسا في اوائل عام ١٨١٤ ، وتخطى العدو الحدود التي كانت لفرنسا عام ١٧٩٥ بين كوبلنتز وبين بال ، في أكثر من ١٥ مركزاً .

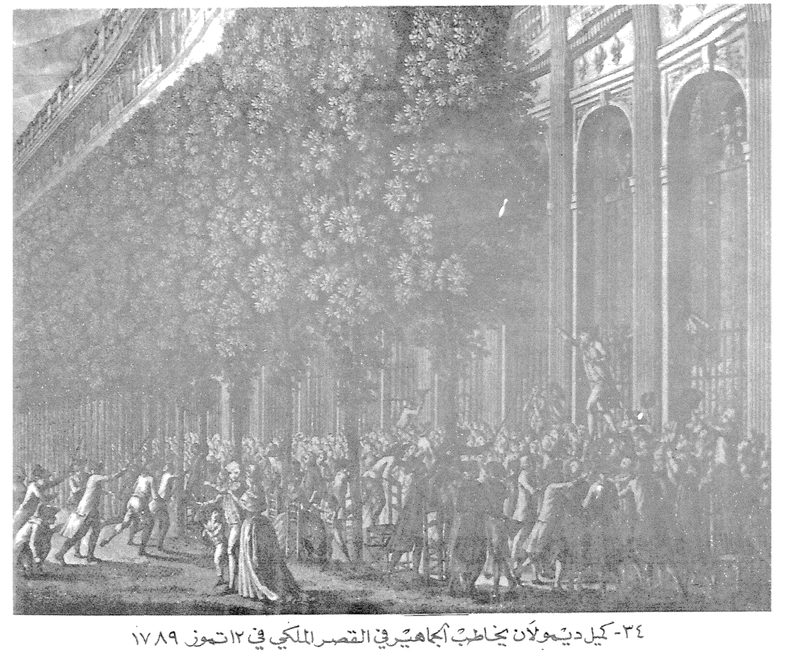
ومعجزات معركة فرنسا المدهشة لم تبدل أي شيء في المصير المقدور، والحلفاء لا يتزحزحون عن قرارهم قيد أنملة . وبناء على اقتراح قدمه كستلريخ بانشاء كوردون صحي محكم الربط حول فرنسا ، يتألف من الستاتهودر ومن بروسيا ، فقد وقعوا جميعاً ، في شومون ، بتاريخ ٩ أيار ١٨١٤ ، اتفاقاً اعلنوا بموجبه تحالفاً فيما بينهم مدته عشرون سنة ، يجمعهم في السراء والضراء ، وفي السلم والحرب ، على السواء ، الأمر الذي اضطر معه نابوليون للتنازل عن العرش في ٦ نيسان . وفي الوقت الذي « أعلنت فيه عودة فرنسا الى احضان حكومة ملوكها الابوية » وتؤلف بذلك لاوروبا جمعاء « ضمان سلامة واستقرار » — وهو التعبير الرسمي الذي أريد منه ارضاء الجماهير — لتعود ، وفقاً لمعاهدة باريس المعقودة في ٣٠ أيار ١٨١٤ ، الى ما هو وسط بين حدودها عام ١٧٩٠ — ١٧٩٢ . فمن الفتوحات الواسعة التي حققتها أثناء الثورة ، تحتفظ

بجزء ضئيل من مقاطعة السافوى ، وافنيون والكونتا Comtat وموهوز ومونتبليار ، وبعض الاراضي الاخرى الواقعة على حدودها الشمالية والشمالية الشرقية التي تربط بين ممتلكاتها القديمة في لاندو وفيلبفيل وماريِنبورغ .

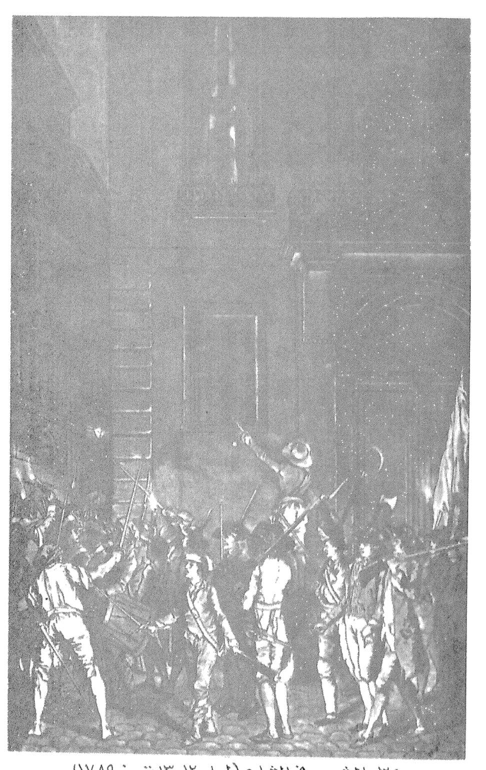
ان حادثة المائة يوم تنتهي أمام اختلال توازن القوى الذي فاق بكثير قوى الاحتياطي . ومعركة واترلو الحاسمة تنهي في ١٨ حزيران ١٨١٥ ، هذا الصراع الذي انفجر قبل هذا التاريخ بـ ٢٣ سنة . « وقد استطاعت اوروبا بعد طول عناء ان تتنفس الصعداء وان تستسلم للغبطـــة دونما حد بفضل هذا النصر المبين »، كما كتب في ١٣ تموز، من بطرسبورغ، جوزف دي ميستر ، الى الكونت فاليز . ومعاهدة باريس الثانية ستشهد عالياً من جديد ، في ٢٠ نوفمبر ١٨١٥ ان فرنسا واوروبا قد خرجتا معاً سالمتين « من هذه الانقلابات الجذرية التي استهدفتا لها من جراء جريمة نابوليون بونابرت الأخيرة النكراء، ومن جراء النظام الثوري الذي وضعته فرنسا لانجاح هذه المحاولة » .



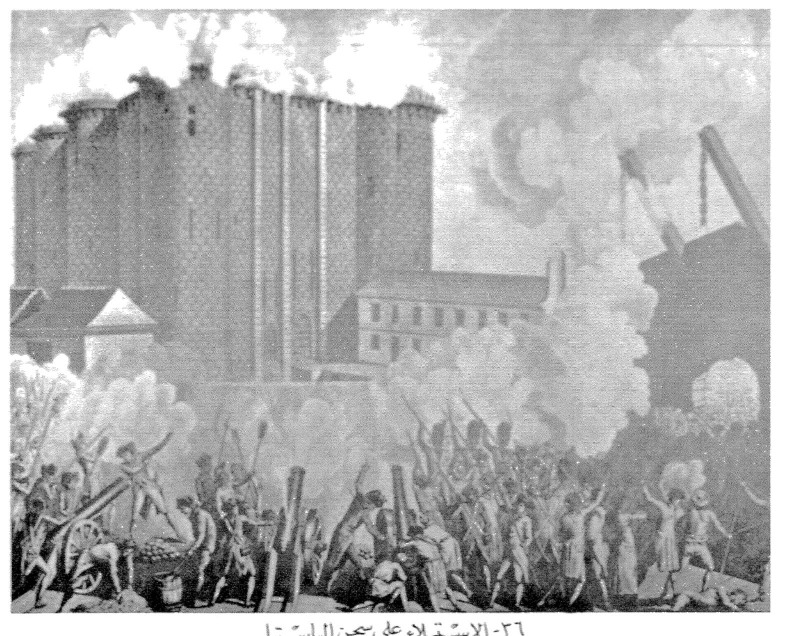
٢٣-افتتاح مجلس الطبقات في فرساي في ٥ ايار ١٧٨٩



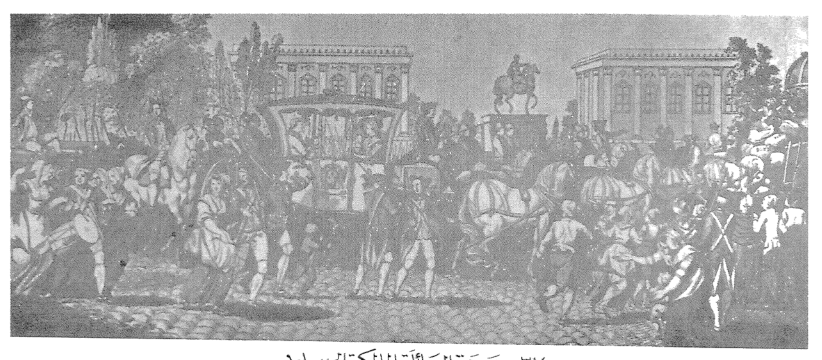
٣٤- كميل ديمولان يخاطب الجماهير في القصر الملكي في ١٢ تموز ١٧٨٩



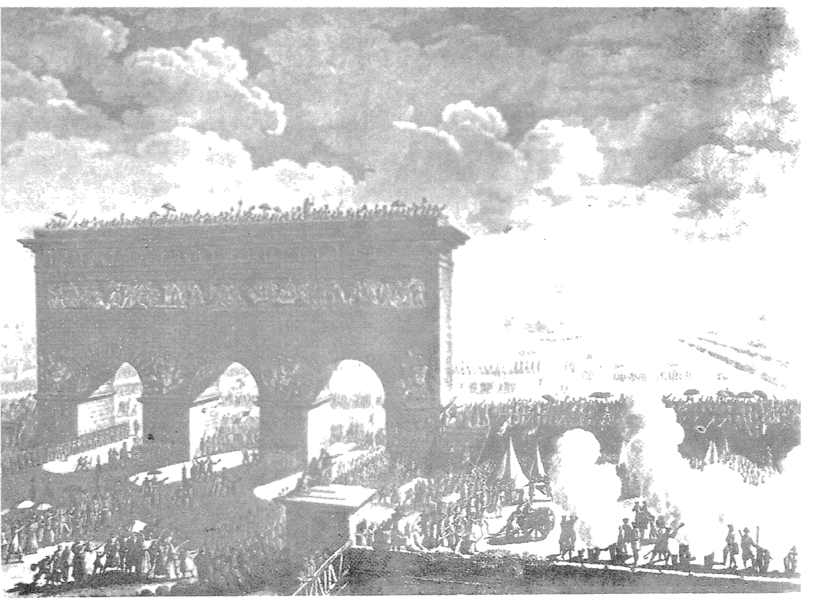
٣٥- الشعب في الشارع (ليل ١٢-١٣ تموز ١٧٨٩)



٢٦- الاستيلاء على سجن الباستيل



٣٧- عودة العائلة المالكة الى باريس



٣٨- عيد الاتحاد في باريس في ١٤ تموز ١٧٩٠

N°. 19.

L'AMI DU PEUPLE,

OU

LE PUBLICISTE PARISIEN,

JOURNAL POLITIQUE ET IMPARTIAL,

Par M. Marat, auteur de l'Offrande à la patrie, du Moniteur, du Plan de constitution, &c.

Vitam impendere vero.

Du Dimanche 6 Mars 1791.

Nouvelles assemblées et nouvelle conjuration des anti-révolutionnaires, qui s'étoient rassemblés en armes dans l'appartement du roi pour l'enlever. — Exécution projettée de leur complot sous la huitaine, afin de ne pas faire morfondre sur nos frontieres les Capets conspirateurs et leurs amis les Autrichiens, qui n'attendent que la fuite de la famille royale, pour venir nous égorger. — Projet des municipaux de faire proclamer la loi martiale, pour appuyer l'exécution du complot de leurs complices. — Avilissement et dégradation d'un grand nombre des volontaires de l'armée parisienne.

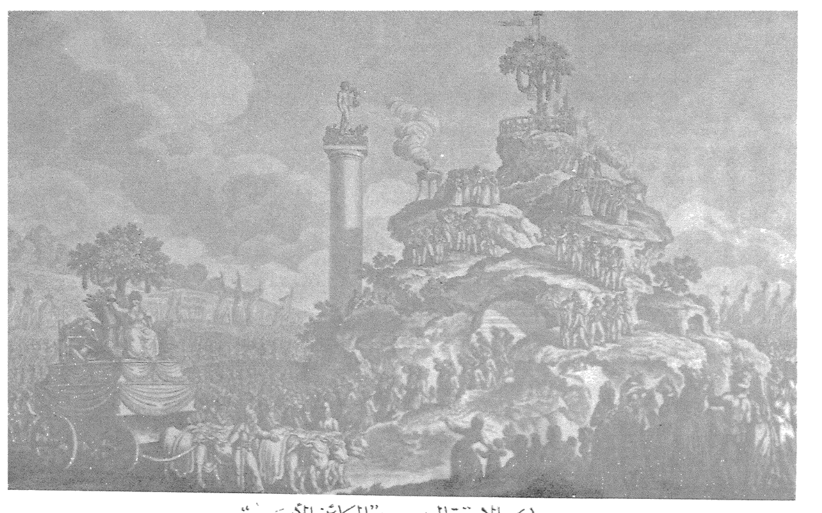
A l'Ami du peuple.

Grand dénonciateur des conspirations contre la liberté publique, apprenez donc aux badauts de Paris, qui en agissent avec les traîtres à la patrie, comme des chasseurs imbéciles qui s'amuseroient à tirer à

٣٩- صورة طبق الأصل من جريدة "صديق الشعب"



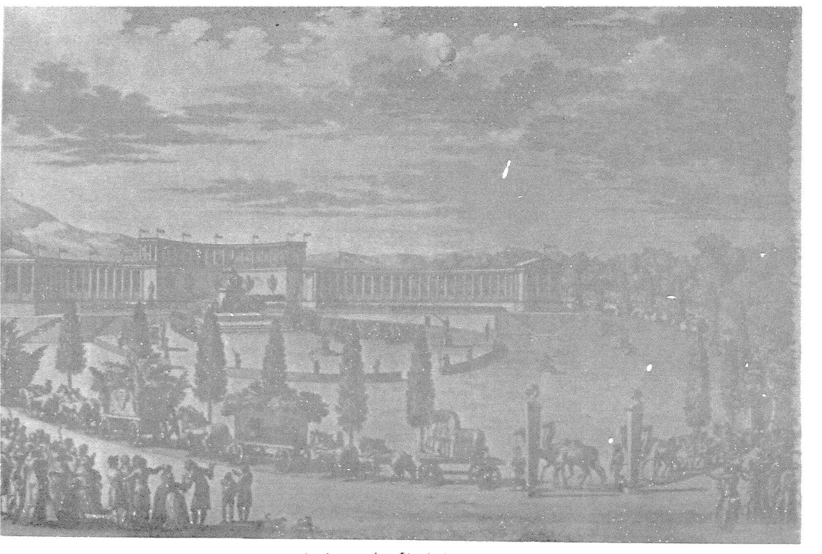
٤٠- مقهى "غوديه" في شارع "التمبل"



٤١- الاحتفال بعيد "الكائن الأسمى"

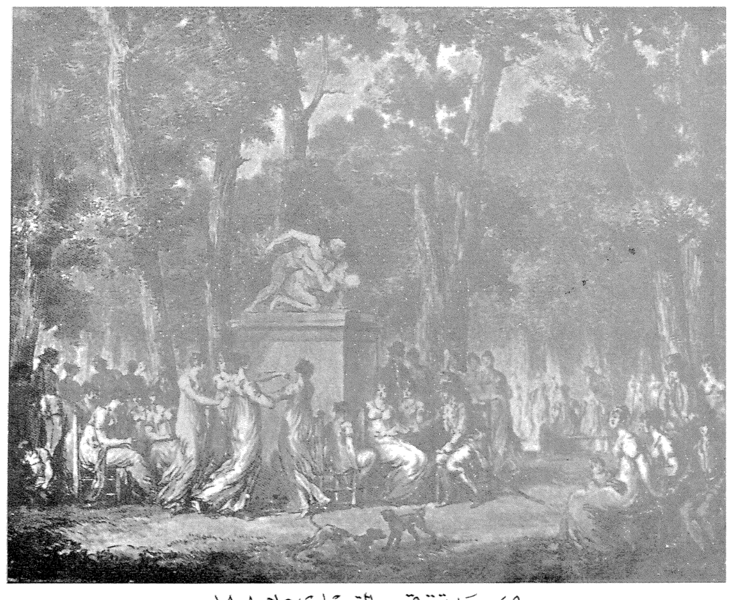


٤٢- العودة بروبسبير مجروحًا الى مركز السلامة العامة في ٢٨ تموز ١٧٩٤

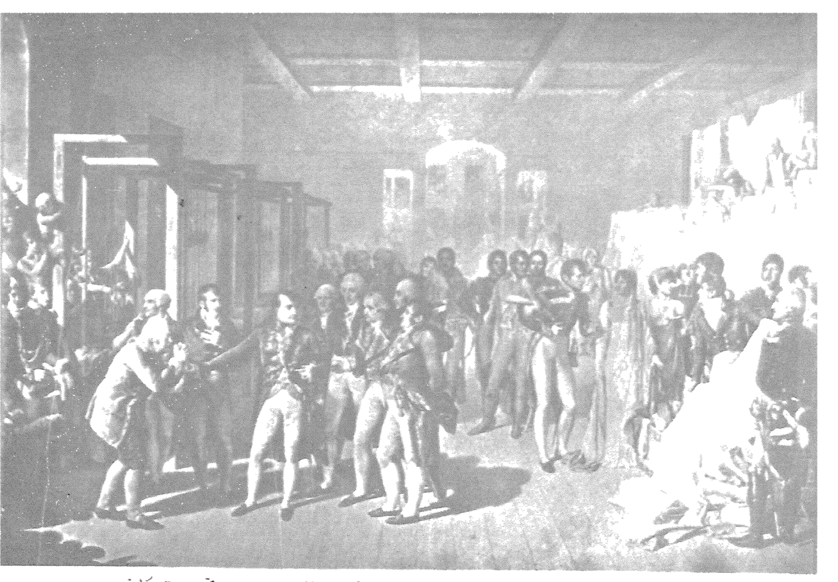


٤٣ - وصول الغنائم الحربية إلى فرنسا

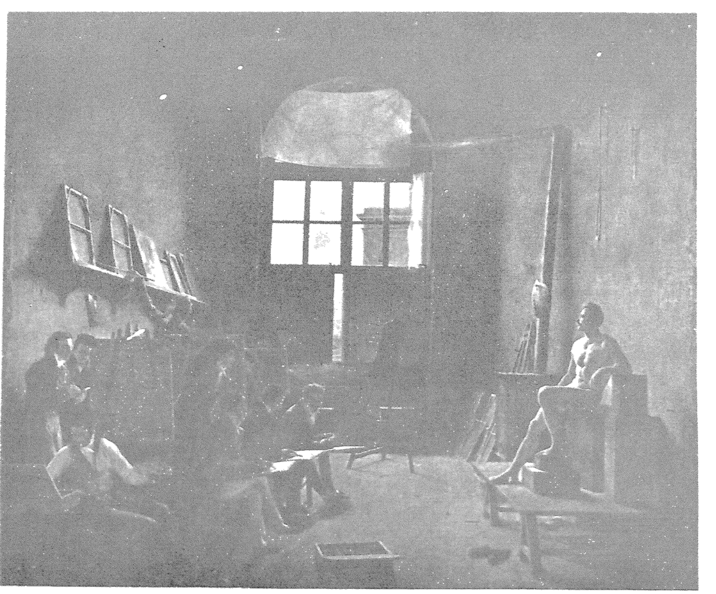
٤٤ - الاحتفال بتكريس نابوليون



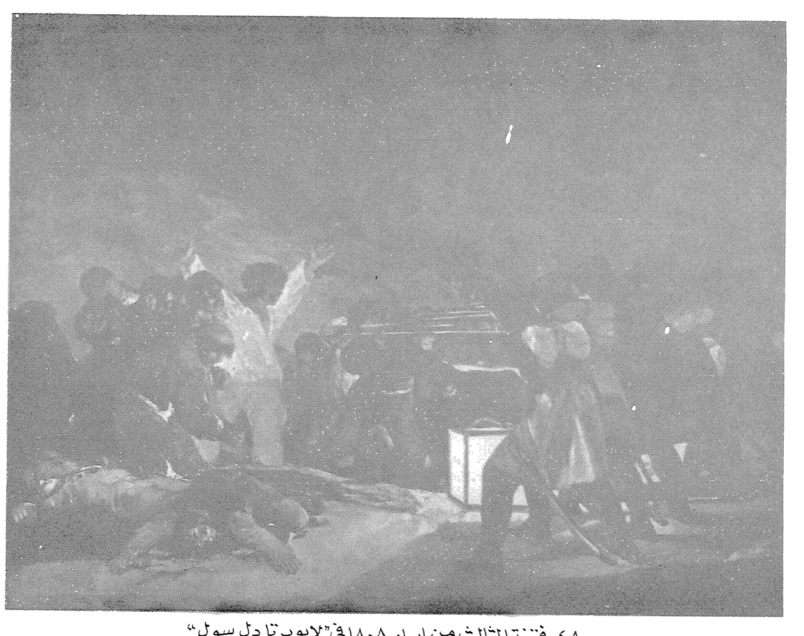
٤٥- حديقة قصر التويلري عام ١٨٠٨



٤٦- القنصل الاول والسيدة بونابرت في زيارة مَصنع الاخوة "سنين" في مدينة روان



٤٧- داخل مشغل "دافيد" في اللوفر



٤٨- فتنة الثالث من ايار ١٨٠٨ في "لابويرتا دل سول"

استنتاجات عامة

حضارة السنة ١٨١٥ المجددة

١ ـ التجدّد الاوروبي و « مجتمع الدول »

اوروبا

« اوروبا » : لقد تبدل مفهوم هذه الكلمة منذ السنة ١٨١٣ ، اي منذ انقلاب ميزان القوى وانتصار الحلفاء . ان المؤتمر الذي سيجمعها سينعقد في فيينا عاصمة الثورة المضادة . وسيترأسه المستشار ، الامير « دي مترنيخ » : « مترنيخ دي كوبلنتز » الذي حرمته « الثورة » من امارته ، تلك الثورة التي حقد عليها حقداً « تعاظم بتقدم سنه واتساع خبرته » . اضف الى ذلك اقتناعه بأنه اغ...ا « يمارس ساعد الرب » . وقام الى جانبه ، « كأمين سر » للمؤتمر ، صديقه وسيّده ونجيّه ، « فردريك دي جنتز » الشهير ؛ وهو الرجل الذي اقام في وجه الثورة الفرنسية الآخذة في التوسع ، ومبادىء سياستها الجمهورية ، اعظم النظريات فعالية ؛ اعني بها القول الفاتن بالتوازن الاوروبي ، واعادة توزيع السيادة التي تضمن الاستقلال القومي ، والقول بالفعل نفسه عملياً ، من قريب او بعيد ، بالاستمرار الاجتماعي ؛ انه المفكر الالماني الكبير الذي طلع بالنظريات لـ « اوروبا » الواقفة في وجه نابوليون .

التوازن

اجل سيعاد بناء اوروبا باسم التوازن . فان الميثاق الذي وقعه الحلفاء الاربعة الكبار في « شومون » (١ آذار ١٨١٤) قد جعل من استقرار اوروبا ، « باقامة توازن عادل جديد بين الدول » ، احد اهداف الحرب .

الشرعية

ونودي بمبدأ آخر : الشرعية التي تستلزم اعادة الاقاليم ، نفسها او قيضها ، الى مالكها الشرعي ، وفاقاً للحق الملكي القديم . فان السيادة ، من بعض الاوجه ، ارث ابدي ، او ملك ممتنع النزع لا يستطيع البشر – امراء كانوا ام رعايا – ان يعتدوا عليه .

لقد ادى المبدآن كلاهما خدمة للاتجاه المحافظ . الفرنسيون والحلفاء اسندوا اقوالهم اليهما . ولم يعن ذلك تساهلاً مع الحق العـام الثوري ، واكتراثاً لامنية السكان التي تجاهلتها الثورة نفسها ، وتجاهلتها الامبراطورية تجاهلاً اشدّ سفهاً . ازدهرت مقايضة البشر كما في الزمان القديم . وباشرت لجنة الاحصاء الحسبان ، ووزعت « النفوس » ودخل الضرائب ، بحيث يحصل كل شخص على نصيبه .

او مـا يشبه ذلك تقريباً . امـا الحلفاء فقد فهموا التوازن والشرعية والاستمادات

والتعويضات على طريقتهم الخاصة . اعتمدوا شريعة الاقوى . وكما شرح القيصر ذلك لـ « تاليران » ، كان « الحق ما يوافق اوروبا ». فمن الموافق الابقاء على برنادوت غير الشرعي في عرش السويد التي توسعت بضم النروج اليها ؛ ومن الموافق كذلك الابقاء على ماري ـ لويز في بارم . لم تجدّد جمهوريتا جنوى والبندقية القديمتان ، ولا الامارات الكنسية ، ولا الدول الالمانية التابعة . ولم يستعد آل بوربون نابولي تاجهم بنعمة المبدأ ، بل بفضل زهو « مورا » وعجبه . وكان هناك الى جانب ما يوافق اوروبا، ما يوافق الدول ، وحتى الملوك . دب الخلاف بين الاربعة الكبار حول بولونيا والمانيا وايطاليا . لا بل حدث ما هو ادهى من ذلك : حين زال كابوس الهيمنة الثورية ، برزت مجدداً اللعبة الدبلوماسية التقليدية . عولت انكلترا على بروسيا ضد روسيا . وخشيت النمسا روسيا . ولكن بروسيا اقلقتها ايضاً . وما ان تم التقارب الروسي البروسي في خريف السنة ١٨١٤ ، حتى قابله تقارب انكليزي نمساوي ما لبث ان شمل فرنسا ، اذ وقعت الدول الثلاث معاهدة تحالف سرية في ٣ كانون الثاني من السنة ١٨١٥ .

مؤتمر فيينا

ان مؤتمر فيينّا ، الذي تقرر انعقاده في البدء في أواخر تموز ١٨١٤ ثم ارجىء الى غرّة تشرين الاول ، ثم الى غرّة تشرين الثاني ، لم يفتتح بعد رسمياً عند توقيع المعاهدة . فاللجان وحدها هي ما اخذت تعمل عملها منذ هذا التاريخ الاخير . كان كل شيء يحمل على الاعتقاد بأن الدول على ابواب حرب جديدة: بين معسكري التحالف المتفكك . ولكن الامور انتهت الى تسوية . وطبيعي ان الحلفاء تكتلوا مرّة أخرى في آذار منذ ان نزل الى اليابسة نابوليون الذي رفضوا الدخول معه في مفاوضات . وهذا ما يسر اعمال دبلوماسييهم في اللجان حيث اعدّت المعاهدات الخاصة بين الدول .

ولكن مؤتمر فيينّا لن ينعقد في النهاية . ولن يفتتح رسمياً قط . الا ان ممثلي اوروبا كلها قد حضروا الى الموعد . فالامراء المجردون من سلطانهم والشعوب المطالبة بحقوقها ، والجماعات المذهبية ابتداء من فرسان مالطة حتى اليهود الالمان ، قد اوفدوا اليه محاميهم ان٢١٦ وفداً ، تقدر بعدة آلاف من الاشخاص،افادت من ضيافة آل هبسبورغ البذخية . دامت المفاوضات منذ مستهل تشرين الثاني ١٨١٤ حتى التاسع من حزيران ١٨١٥ . ولكن لجاناً فرعية من المفوضين المطلقي الصلاحية هي التي وقعت معاهدات خاصة . وهي النصوص « ذات الاهمية الكبرى والدائمة » ، ما ألّف وثيقة المؤتمر النهائية . وهي هذه الوثيقة ، مع معاهدتي باريس المعقودتين في ٣٠ ايار ١٨١٤ و ٢٠ تشرين الثاني ١٨١٥ ، ما سوّى حالة فرنسا ، واقر النظام الاقليمي للعالم « المجدّد » .

فرنسا

انه لتجديد ينطوي على قديم وجديد . فمعاهدة باريس الثانية، المعقودة في ٢٠ تشرين الثاني ١٨١٥ ، قد اعادت فرنسا الى حدودها في السنة ١٧٩١ مع بعض التغييرات الطفيفة . احتفظت فرنسا باقليمي مونبليار ومولوز ، الفرنسيين منذ السنة ١٧٩٣

والسنة ١٧٩٨ فقط . ولكنها فقدت شطراً من السافوى ترك لها في السنة ١٨١٤ ، كما فقدت «السار» ، والجيوب القديمة في الشمال والشمال الشرقي – لندو ، بويون ، فيليبفيل ، ماريينبورغ – مع الاقاليم التي ربطت بها . وفقدت كذلك سان – دومنغ ، الركن الفريد في مستعمراتها ، التي كانت تؤمن لها بمفردها ، في السنوات الاخيرة من العهد القديم ، بفضل اعادة تصدير منتوجاتها عن طريق الوطن الام ، تعادل الميزان القومي لحساباتها ، بينما سيتوجب عليها التعويض على الحلفاء بمبلغ ٧٠٠ مليون ، الذي يوازي واردات الموازنة العادية خلال سنة كاملة .

وابتغى هاردنبرغ انتزاع الالزاس واللورين والفلاندر من فرنسا ، ولكن مطالباته الشديدة اصطدمت بمقاومة اسكندر ثم انكلترا اللذين وقف الى جانبهما مترنيخ في النهاية : ومن جملة الاسباب المقدمة ان المستفيد الاكبر من تجزئة فرنسا سيكون البروسي ، فيختل من ثم ، بفعل ملابسات هذه التجزئة ، التوازن الذي لم يتحقق في فييّنا الا بكل جهد وعناء .

وكمن الخطر كذلك ، كما اجاد مترنيخ في تفسيره ، في تخطي الهدف ، وفرض صلح لا يطيقه الفرنسيون ، وحرمان الحكم الملكي المجدد من خير الفرص السانحة ، ومن ثم تغذية الإعداء الثوري . فكانت حدود السنة ١٧٩٠ ، والحالة هذه ، خير أمل في رؤية فرنسا تسهم في النظام الجديد .

وستخضع فرنسا ، على كل حال ، لرقابة داخلية وخارجية . ستراقبها جيوش احتلال تبقى فيها طيلة خمس سنوات . وسيراقبها من الخارج حاجز جديد من الدول . في الشمال مملكة البلدان المنخفضة ، التي تضم الاقاليم المتحدة القديمة ، « والولايات البلجيكية » القديمة ، والتي كان ملكها في الوقت نفسه غراندوق لوكسمبورغ ، المرتبط بهذه الصفة بالاتحاد الجرماني الذي سيتناوله البحث في سياق هذا الكلام . وفي الشمال الشرقي ، بروسيا التي تتولى حراسة الرين بعد ان استولت على ضفته اليسرى باستثناء البالاتينا الرينانية التي ضمت مجدداً الى بافاريا . وفي الشرق ، الاتحاد الجديد ، الذي قام مقام اتحاد الرين (١٨٠٦) ، ودخلته النمسا وبروسيا ، وضم معظم الدول الالمانية . وفي الجنوب الشرقي ، مملكة سردينيا التي استعادت السافوى وكونتية نيس ، وضمت اليها اراضي جمهورية جنوى القديمة ، واسندت ظهرها بالاضافة الى ذلك الى النمسا بفضل المملكة اللومباردية – البندقية الجديدة . وجلي ان السد ودعامته من المتانة بمكان ، فكبح جماح الثورة في اشد جبهاتها خطراً .

بروسيا

ليست فرنسا ، من جهة ثانية ، في اوروبا الجديدة ، سوى دولة كبرى مصغرة . مصغرة بصورة مطلقة ، لا بل بصورة نسبية ايضاً : اذ ان الاربعة الكبار قد تعززت مراكزهم في السنة ١٨١٥ ، ليس باسترداد الاقاليم التي انتزعتها منهم الجمهورية والامبراطورية فحسب ، بل بمكاسبهم الجديدة ايضاً . فان بروسيا قد اعادت شطراً كبيراً من

بولونيا وتنازلت عن فرصوفيا ؛ ولكنها استعاضت عن ذلك بمـا استولت عليه في الساكس وبسطت سيطرتها على كافة انحاء المانيا الشمالية وأمست دولة رينانية كبرى . انتقل مركز ثقلها نحو الغرب . امتدت امتداداً متواصلاً تقريباً من نهر « نيمن » حتى الحدود الفرنسية . ولم يفصل بين كتلتي ممتلكاتها سوى الممر الهسّي – الهانوفري الضيق . ولم تحقق البـلاد كسباً في التجانس الجغرافي فحسب ، بل في التجانس البشري ايضاً . قبل ايينا ، كان مـا يقارب ثلث سكان بولونيا من السلافيين ، فغدا خمسة اسداس رعاياها ، في السنة ١٨١٥ ، من الالمـان . اضف الى ذلك ان الولايات التي ادخلتها الحلف الجرماني تفوق من حيث الأهمية الولايات النمساويـة المشتركة فيه . لا شك في ان عدد سكانها قد بقي مماثلا له في السنة ١٨٠٦ تقريبـاً ، بعد توسعها العظيم في بولونيا ، ولكنه زاد خمسة ملايين عليه في السنة ١٧٩٠ ؛ وهي زيادة تمثل ثلاثة ارباع . واصبحت مساحتها ٢٨٠٠٠٠ كيلومتر مربع بعد ان كانت ١٩٠٠٠٠ كيلومتر مربع فقط . بيد انها شعرت بانها مغبونة على الرغم من هذه المكاسب الباهرة .

النمسـا

ولا خلاف كذلك على مكاسب النمسا ، مع انها لم تظهر الا في زيادة ضئيلة في المساحة والسكان . لندع جانباً مكاسبها في بولونيا في السنة ١٧٩٥ ، اقلـيم لوبلن – كراكوفيا الشاسع ، الذي سيعود الى القيصر – باستثناء كراكوفيا – كما سنرى ذلك قريباً . ولنقارن مرّة اخرى بالسنة ١٧٩٠ . كسبت النمسا ، من جهة التّيريا ومنطقة البندقية ما فقدته بفقدان المناطق المنخفضة النمساوية القديمة . ويقابل مكاسبهـا الالمانية – ترانت ، سالزبورغ – بعض المقابلة ، تخلياتها في باد وبافاريا . ولكن اراضيها تؤلف الآن كتلة واحدة . وبحقها جمهورية البندقية ، باتت دولة ايطالية كبرى . فماري–لويز تملك سعيدة في بارم مـكان آل بوربون . والارشيدوقية يحكمون ، طبعاً ، مرّة اخرى ، توسكانا ومودينا . ولا يعنـي ذلك ان النمسا ، التي تتجه اكثر من أي وقت مضى شطر ايطاليا والبحـر الادرياتيكي ، تتخلى عن المانيا ، فهي تشرف على المجمع الاتحادي في الاتحاد الجرماني الجديد ، الذي تتجمـع فيه المانيا . ومؤتمـر فيينا قـد واصـل هنا العمل التوحيدي الذي حققته الثـورة والامبراطورية تحقيقـاً بعيداً : فالدول الالمانية الـ ٣٦٠ مـا قبل السنة ١٨٠٣ لم تعـد اليوم سوى ٣٩ .

روسيـا
الرابحـة الكبرى

ولكن الرابح الاكبر هو روسيا . غنمت بولونيا « البروسية » وبولونيـا « النمساوية » : فاليها عادت–بصرف النظر عما استولت عليه في تقسيمات السنوات ١٧٧٢ و ١٧٩٣ و ١٧٩٥ – فرصوفيا ، لوبلن ، كاليسز ، اقاليم النيمن والبوغ والفستول والفارتا . بـين السنة ١٧٩٠ والسنة ١٨١٥ ، تقدمت حدودهـا « البولونية » ، على العموم ، من روسيا البيضاء حتى سيليزيا . لا ريب في ان مملكة" بولونيـة « مستقلة » قد أنشئت ، في فيينا ، من الشطر الغربي من هذه الفتوحات . ولكن القيصر هـو

ملك بولونيا . وفي الشمال الشرقي كذلك ، انتزع من السويد ، في السنة ١٨٠٩ ، فنلندا التي بات هو غراندوقها . وفي الجنوب الغربي كانت كاترين قد اقتطعت ، في السنة ١٧٩٢، سواحل البحر الاسود بين البوغ والدنيستر . وفي السنة ١٨١٢ اضاف اسكندر بسارابيا الى ذلك . وفي الجنوب الشرقي ، وراء القفقاس ، اصبحت جيورجيا روسية منذ السنة ١٨٠١ ، ومصب الاراكس ، على بحر قزوين ، منذ السنة ١٨١٣ . وجملة القول ان عدد رعايا القيصر ، قد انتقل في ربع قرن ، بفضل تكاثر السكان والفتوحات ، من ثلاثين الى خمسين مليوناً تقريباً .

انكلترا

اما الكبير الرابع ، الحليف الانكليزي ، فقد حقق جل مكاسبه في الخارج . ففي اوروبا وضع يده على قواعد ستراتيجية جديدة : هليغولند ، مالطة ، الجزر الايونية . ولكنه صرف اهتمامه في الدرجة الاولى الى ممتلكات فرنسا الاستعمارية وحلفائها القدماء ، اما بالحصول على الاعتراف بمكاسبه المحققة في صلح « اميان » ، اما بضم ممتلكات جديدة اليها . ففي بحر الهند مكنته الحرب الكبرى اخيراً من الاستيلاء على جزر سيشل ، وجزيرة فرنسا ، ورودريغ ؛ وفي الانتيل ، على سانت لوسي ، وتاباكو ، وترينيته ، وبصورة خاصة على الرأس وسيلان . وحققت مكاسب غير منظورة أهم شأناً من المكاسب المنظورة : الاسواق الجديدة في البحار النائية ، والحركة التجارية الضخمة مع اميركا ، وانطلاقة المقايضات الخارجية المدهشة التي ربما بلغت ثلاثة اضعافها قيمة ذهبية بين السنة ١٧٩٠ والسنتين ١٨١٤ — ١٨١٥ .

تأمن المال لتحالف جديد قد تمس الحاجة اليه . وفي آخر سنة واترلو ، بدا عدم تناسب القوى بين الثورة واوروبا المجددة وكأنه يضمن للحلفاء ، لمدّة طويلة ، رجحان النصر .

ان « توازن » السنة ١٨١٥ ، لم يفض قط ، من ثم ، الى صلح توازن بين المغلوب والغالب . اذا ما قورن صلح فيينا بصلح اوترخت ، وحتى بتلك المعاهدات التي وضعت حداً لكافة الحروب الكبرى منذ القرن السادس عشر ، بدا في حسبانه ومهارته صلحاً ساحقاً ماحقاً . زد على ذلك ان شيئاً جديداً قد طرأ على العلائق الدولية منذ الثورة . تأزمت بسرعة بين الطرفين، فتحولت الى فظاظات كلامية لم يسمع مثلها من قبل واعمال وحشية مادية رهيبة . ظهر اثر ذلك في « معاهدات صلح » كثيرة عقدت في هذا العهد . لم تكن الحرب كغيرها من الحروب . اجل ، لم تستبعد الحرب التسوية الرابحة للدول الحليفة . ولم تجزىء فرنسا الملكية القديمة . ولكنها اتخذت ضد الثورة كافة الاحتياطات التي اعتبرت ضرورية ومجدية . وهكذا لم يقم في النهاية بين العالم القديم والعالم الجديد سوى سنة الاقوى .

القيم الاوروبية

بيد ان صلح السنة ١٨١٥ لم يستخدم بعد سوى الوسائل التقليدية . ثم لجأ الى وسائل اخرى : ففي سبيل ضمان النظام المجدّد ، هدف الى تأسيس مجلس دائم ، او ما هو أشبه بمنظمة دائمة تسهم فيها الدول الاوروبية المختلفة . وقد سبق لجنتز عند اندلاع الحروب النابوليونية ان اوضح على طريقته ان « جمعية الامم » الاوروبية متكافلة متضامنة ، وان الخير والشر لا يمكن ان يتعايشا ، وان دولة سليمة لا يمكن ان تتساهل في قيام شر ، في بلد مجاور ، قد يعرّضها للخطر . وسيقول مترنيخ من جهته ان « علينا ان نضع ابدا نصب اعيننا « جمعية » الدول ، ذاك الشرط الاساسي للعالم المعاصر . فلكل دولة من ثم ، خارج صوالحها الخاصة ، صوالح مشتركة اما بينها وبين كافة الدول الاخرى ، واما بينها وبين بعض المجموعات من الدول :

« ان ما يضفي على العالم المعاصر طابعه الخاص ، ان ما يميزه في جوهره عن العالم القديم هو ميل الدول الى التقارب وتكوين ما يشبه جسماً اجتماعياً يرتكز الى القاعدة نفسها التي يرتكز اليها المجتمع البشري الذي تكوّن في وسط المسيحية » .

هذه القاعدة هي التبادل ، هي الاساليب الخيرة المتبادلة . وقد رأى مترنيخ ايضاً ان الدول متكافلة ومتضامنة . ولا يعني هذا التبادل وهذا التضامن سلماً وتوازناً فحسب ، بل التزاماً بمقاومة ما قد يلحق الضرر بالبلاد المجاورة ؛ وفي الدرجة الاولى النظريات الهدامة ، التيارات المضرة بالمجتمع ، الآراء الثورية المقلقة .

ومن الجانب الفرنسي ، برهن شاتوبريان في كتابه « بونابرت وآل بوربون » ، الذي ظهر في اوائل آذار من السنة ١٨١٥ ، عن تفكير غير بعيد عن تفكير مترنيخ وجنتز . هناك مجتمع ملوك :

« فليعلم الجميع ان كافة ملكيات اوروبا تكاد تنتسب بالبنوة الى الاخلاق نفسها والازمنة عينها ، وان الملوك اجمعين هم في الواقع أشبه بأشقاء تجمع بينهم الديانة المسيحية وقدم الذكريات » .

وانطلاقاً من ذلك يجب ان ينظر الفرنسيون الى نصر الحلفاء كما «الى درس من دروس العناية الالهية التي تعاقبنا دون ان تذلنا » . جنود جيش الغزو « محررون » لا فاتحون » . ونسمع صدى ذلك في النداء الذي اذاعه في « مالبلاكيه » بتاريخ ٢٢ حزيران ١٨١٥ : فهو لا يدخل فرنسا عدواً ، وانما يدخلها « لمساعدة » الفرنسيين على «خلع النير الحديدي الذي يضيمهم» . وفي ٢٩ حزيران أعلن لويس الثامن عشر في « كاتو - كمبريزيس » ان « جهود حلفائه الجبارة قد بددت توابع المستبد الظالم » . وقد بلغ من رسوّخ هذا الرأي ان الهزيمة قد جعلت صحيفة « لاكوتيديان » تتراءى بوارق الخلاص الاولى» . وفي ١٢ تموز كتب الـ « مونيتور » التي اخبرت بأن امبراطور روسيا وملك بروسيا قد وصلا في اليوم السابق الى باريس :

« وبعد مرور ساعة ، ... قام الملك بزيارتها . واليوم جـــاء الملوك الثلاثـة الى قصر « تويلري » ... وعلمــت العاصمة ، بشعور الرضى العميق ، ان هذين المليكين العظيمين موجودان فيها » .

وتبنى لويس الثامن عشر رسمياً الرأي القائل بحسن نوايا الغازي : وذلك في وثيقة رسمية هي القانون الصادر في ١٦ آب . فقد جاء فيها ان « الاعتداء » الذي شكلته العودة من جزيرة « إلبا » « قد ارغم الدول الاجنبية على ادخال جيوشها » الى فرنسا . ازدانت الولاية المتحزبة للملك بالاعلام ورقص سكانها ابتهاجاً ، ولكنهم ما لبثوا ان ان افاقوا من سباتهـــم وغيروا موقفهم . واوصت صحيفة الـ « تايمس » من جهتها بأن « لا تمحض الثقـــة سوى المليكين الاوفيـــاء » .

ليس من ثم ما يحول دون تعاون بين الغالب والمغلوب في اطار أوروبا الجديدة . سيعمل كلاهما على احياء القيم القديمة وتجديد الحضارة «باسم الثالوث الاقدس الممتنع التجـــزؤ »، الذي استُشهد به مرّة اخرى ، كما في العهد القديم ، في المعاهدات التي وقعتها فرنسا .

الحلف المقدس

سيكرر الحلف المقدس هذا القول ، في باريس نفسها ، في شهر ايلول . انه لاداة دبلوماسية غريبة لعمري ، تختلف كثيراً عن نهـج دواوين المستشارين الخاص : فان اسكندر الذي اقترحه لا يكتب كما تكتب دوائر مترنيخ – ولعله يقصـد تلبيك البعض من شركائه . ولكنه وثيقة بشرية لا نظير لها ، وشهادة رمزية في الذهنية ، تؤكـــد قواعد ومبادىء السياسة الدولية في نظر الارستوقراطية الاوروبية ! قواعد ازلية من وحـــي الله ، هي « الحقائق السامية التي تلقننا اياها ديانة الاله المخلص الازلية » . نرى فيها تأكيـــد واجب المساعدة المشترك بين الملوك ، الذين سيتبادلون العون والتساند والمساعدة في كل زمان ومكان » . هؤلاء الملوك بموجب الوضع الالهي « منتدبون من قبل العناية الالهية » لحـكم الشعوب ، التي تؤلف اعضاء عائلة واحدة ، والتي يمارسون حيالها سلطتهم الابويـة المطلقة : ينظرون الى انفسهم ، « حيال رعاياهم وجيوشهم ، كما الى ارباب عائلات » ، يستحثونهـم على «التشدّد تشدداً مطرداً في مبادىء وممارسة الواجبات التي لقنها المخلّص الالهـــي البشر » . يقتضي « لسعادة الامـم التي طالما اضطربت وقلقت ، ان يكون لهذه الحقائق كل ما تنطوي عليه من أثر على المصائر البشرية ... » ملوك ثلاثة وقعوا الوثيقة : اسكندر الارثوذكسي ، فرنسوا الكاثوليكي ، فردريك غليوم البروتستانتي. وسيوافق عليها لويس الثامن عشر وامراء آخرون من كاثوليك وبروتستانت بدورهم .

الحلف الرباعي

وبعد انقضاء اكثر من شهرين بقليل على الحلف المقـــدس واقترانه بالتواقيع الاولى – وبناء على مبادهة انكلترا التي ربما ابتغت مخادعة القيصر وخشيت نتائج تعاظم القـــوة الروسية – برزت الاداة الدبلوماسية التي جاءت تأييداً لسياسة المساعدة

المتبادلة ونادت بها ، اعني بها هـــذه المرة ، معاهدة اكثر كلاسيكية بين الحلفاء الاربعة ، اي ميثاقاً سياسياً وعسكرياً اكثر صراحة ، وقع في باريس بتاريخ ٢٠ تشرين الثـاني ١٨١٥ ، اي في يوم توقيع المعاهدة الثانيـة مع فرنسا بالذات – وتبنى من جهة ثانية بعض المقررات المتخذة في شومون في السنة ١٨١٤ . فالانكليزي « كاسلريغ » ، امـين سر الدولة للشؤون الخارجية، لا يغفر لاسكندر ألاعيبه ودبلوماسيته غـير الاعتيادية . ولكن اللورد كاسلريغ ، قامع الحركة « اليعقوبية » ، وباعث التحالف ، قـد فكر هو ايضاً تفكير الارستوقراطية الاوروبية . لا ريب في انه استطاع النظر الى الحلف المقدس كما الى « وثيقة صوفية وحماقة ساميتين » . وكان للحلفاء على الصعيد الاوروبي والعالمي مصالح متباينـة ، ولكن سياستهم قد اتفقت ضد فرنسا وكل ما تمثله . فان المعاهدة الجديدة قـــد استشهدت بـ « اوروبا » ، و« الاستقرار » والضمانة الواجبة له . كل تهديد ثوري سيصطدم اليوم وغـــدا بجيش الثورة المضادة المتضامن . المبادىء الثورية والفتح النابوليوني يشكلان خطراً واحداً .

« المادة الثانية : ... ان المبادىء الثورية نفسها التي ساندت الاغتصاب الاجرامي الاخـير قد تستطيع ، بأشكال اخرى ، تمزيق فرنسا ، ومن ثم تهديد راحة الدول الاخرى ... »

في هذه الحـال ، سيتفق الموقعون فيما بينهم وبين ملك فرنسا على التدابير الواجب اتخاذها . وكما فسرت ذلك ، من جهة اخرى ، مذكرة صدرت بالتاريخ نفسه من وزراء الدول الحليفة الاربع ،

« وعد الملوك الحلفاء صاحب الجلالة المسيحي جـداً بان يساندوه بجيوشهم على كل حركة ثورية » .

الحركة الثورية قد تجر « بالحاح » الى التدخل . فيهتم « ولنغتون » ، قائد جيوش الاحتلال، بما يقتضي معالجة سريعة ، آخذاً بعين الاعتبار « تنوع الاشكال التي قد تتلبسها الروح الثورية مرة اخرى في فرنسا » . وفي حال خطر يهدّد جيش الاحتلال ، او في حال الحرب ، توجب المادة الثالثة على الموقعين التدخل بالقوة وفاقـاً لنصوص معاهدة شومون . اضف الى ذلك ان الاتفاق على هذه الموجبات لم يحدّد بزمن : فهي تبقى سارية المفعول بعد مرحلة الاحتلال .

وتنص المادة السادسة على اجتمـاع يعقده في مواعيد محددة ، مجلس رقابة حليف يراقب الاحداث .

« ستكرس بعض الاجتماعات للمصالح الهـامة المشتركة والنظر في التدابير التي ستعتبر خير ضمانة لراحة الشعوب ويسارها ولصيانة السلم في اوروبا » .

وسيتراسل من جهة ثانية وزراء البلاطات الحليفة الاربعـة والدوق ولنغتون تراسلا منتظماً ، كما ان الحكومة الفرنسية ستتصل به مباشرة ايضاً اسهاماً منها في المحافظة على النظام المجدد .

وفي سبيل هذه الغايات سيعقد الوزراء الاربعة ، عملياً ، اجتماعاً اسبوعيـــاً طيلة استمرار الاحتـــلال .

في قطاع آخر من اوروبا ، اتخذت النمسا احتياطاتها بالتعهد لملك نابولي بان لا تدخـــل الى دوله انظمة لا تتفق وانظمة المملكة اللومباردية البندقية . وفي المانيا نفسها اعلن الميثاق الاتحادي المؤرخ في ٨ حزيران ١٨١٥ ان الهدف من هذا الاتحاد الدائم هو « الحفاظ على سلامة المانيـــا خارجياً وداخلياً ... » وسيضيف نص آخر بعد ذلك ان هذا الاتحاد يرتكز الى حق اوروبا العام . « اذا حدثت اضطرابات في احدى الدول الاتحادية وهددت الدول المجاورة ، على مجمـع الاتحاد ان يقدم كل امداد لازم لاعادة النظام الى نصابه » .

يتضح من ثم ان الدستور الجديد للـــبر الاوروبي يستهـــدف ، بشتى التدابير المتخذة ، ولا سيا بالنظام الدولي للتعاون المتبادل ، احباط قوى الثورة الفرنسية . وقد احبطها كذلك في الداخل الدستور الخاص بكل دولة .

٢ ــ التجديدات الداخلية

اما هذا الدستور فتراقبه اوروبا الحذرة من الاستحداثات او الواقفة منهـا موقف الدفاع . وطبيعي انه يختلف باختلاف مقتضيات الحال في الدول المختلفة ، ووفاقاً لميزان القوى المتقابلة ، وبحسب مزاج الملك احياناً : فان ادعاءات اسكندر « بالحريات الدينية والمدنية » مثـــلاً هي ايضاً عنصر تاريخي زائل في إطار الوضع العام .

ميثاق السنة ١٨١٤

ان الدستور الفرنسي الذي وضع ما بين ٤ و ١٤ حزيران ١٩١٤ قد اقام تسوية بين العهد القديم والعهد الجديد تمثلت فيها التحقيقات الاجتماعيـــة الكبرى للثورة . وقد الح الحلفاء ، عند اعداد معاهدة باريس الثانية ، في ان تستخدمها الحكومة من أجل التهدئة واعادة السلم . وعلى الرغم من دفاعهم عن المجتمع التقليدي ، فقـد سلموا ، في فرنسا ، بالتساهل مع نظام حاربوه سحابة ربـع قرن تقريباً وما كانوا ليقبلوا به في بلدانهـــم . بدا لهم الدستور احتياطاً ضرورياً يستجيب لوضع فرنسا في الداخل . فهو يدعـــم موقف آل بوربون ، اخلص من قد تحلم بهـم اوروبا كولاة يمثلون الحلف المقدس . يضاف الى ذلك ان اخطار الإعداء قد تبدلت تبدلاً تامـاً . فان فرنسا المغلوبة على نفسها في السنة ١٨١٥ كانت في نظر الاجنبي موضوع كراهية وحقد اكثر منها قدوة يقتدى بها .

تقليد ووراثة

لم يناد الدستور ، على كل حال ، الا بمبادىء التسوية . اما تطبيقها فـــا زال في عالم الغيب . المبادىء الاساسية محافظة كل المحافظة . هي « العناية الالهية » التي استدعت لويس الثامن عشر ، الملك « بنعمة الله » . بالامس كما اليوم ، تنحصر « السلطة كلها ،

في فرنسا ، في شخص الملك » . يتفضل « بمنــح » دستور قطعي ، « بممارسته الحرة لسلطته الملكية » . ولكن :

«يتوجب علينا التذكر ايضاً بأن واجبنا الاول نحو شعوبنا كان المحافظة ،من اجل مصلحتها بالذات ، على حقوق وامتيازات تاجنا » .

اضف الى ذلك ان الدستور يمت بصلة الى الماضي ، الى الملوك السابقين . أجل ، لقد اقتضى عدم اغفال « نتائج الانوار المتعاظمة ابداً . . والاتجاه الذي تركه اثرها في العقول» ـ « والمفاسد الخطيرة التي نجمت عنها ايضاً» . ولكن ما استلهم في الدرجة الاولى هو الخلق الفرنسي والآثار الجليلة التي خلفتها القرون الغابرة . وهكذا بدا التقليد ، والوراثة التي هي أحـــد مظاهره ، وكأنها صفات الحق العام ، لا ارادة الشعوب . وان للشرعية التي استُشهد بها في فيينـّا قيمتهـا بالنسبة للحق الداخلي وللحق الخارجي على السواء : انها مبدأ شامل يتملق به «النظام الاجتماعي» . وهذا بالفعل ما سيقوله الملك للفرنسيين في بيان ٧ تموز ١٨١٥ :

« ان مبدأ الشرعية احد المرتكزات الاساسية للنظام العام ... وقد نودي بهذا المذهب ، في الآونه الأخيرة ، مذهباً اوروبياً شاملاً » .

وهكذا كان للحدث الجديد في وثيقة الدستور مـــا يبرره قانوناً ، حاضراً وماضياً ، في اعتبارات السلطة المطلقة . قد يرى فيه رجال القانون شيئاً آخر غير التفسير الميسر للتضحيات التي فرضتها قساوة الايام . وقد يكشف « التبرير » الملكي ، اتفاقاً ، في حال غموض النص ، النقاب عن مقاصد « المانح » العامة ، ويسهم في حصر الاهمية العملية لتنازلاته . ولكنه ، على اية حال ، ينم عن حقيقة نفسيته وتفكيره .

التنازلات لجهة المبادىء

وعلى الرغم من كل ذلك ، فان التنازلات المثبتة في النصوص على جانب كبير من الاهمية . السلطة التشريعية ، تعود للملك والمجلس الأعلى ومجلس النواب . لا تقر الضريبة الا بموافقة المجالس التي لا تستطيع التسليم بالضريبة العقاريـة الا لسنة واحدة . مجلس النواب ينتخب انتخاباً . الضريبة الانتخابية تحـــدد بـ ٣٠٠ فرنك للمنتخبين وبـ ١٠٠٠ فرنك للمرشحين ، وهما رقمان فاقا الى حد بعيد أرقام السنة ١٧٩١ والسنة الثالثة ، ولكنهما سيتيحان تجميع هيئة من منتخبي الولايات من بين اوليغارشية أوسع منها في عهد الامبراطورية .

يتمتع الملك بحق تمديد ولاية المجلس أو حله شرط دعوة نواب المجلس الجديـــد خلال الاشهر الثلاثة التي تلي الحل . يعين اعضاء المجلس الاعلى ، دونما تقيد بعدد ، اما مدى الحياة ، وامـــا بصفة وراثية ؛ وبه ترتبط ، من ثم ، اكثريـــة المجلس الاعلى . واليه تعود من جهة ثانية الكلمة الفصل في الحقل التشريعي . كما تعود اليه كذلك المبادهة في سن القوانين : شأن الحكم القنصلي والامبراطوري من قبله . وحق الابرام والنشر ايضاً . ولا يتمتع المجلسان بحق التعديل . الملك

يمارس السلطة التنفيذية : « الملك وحده » ، يعين الوزراء ويعزلهم ، كما يعين ويعزل كافة موظفي الادارة العامة . لا بل تبدو صلاحيات السلطة التنفيذية وكأنها تحد من صلاحيات السلطة التشريعية . فللملك حق اشهار الحرب ، في حال ان الدساتير القنصلية والامبراطورية فرضت مبدئياً الاقتراع على قانون يجيز هذا الاشهار . لا بل يبدو كذلك انه يستطيع ، في بعض الحالات ، ولا سيما حين يكون النظام العام في خطر ، تعديل القانون وادخال بعض الاضافات عليه :

« ١٤ – الملك هو الرئيس الاعلى للدولة ... يسن الانظمة ويصدر الاوامر الضرورية لتنفيذ القوانين وتأمين سلامة الدولة » .

اذا ما اقتصرنا على حرف الدستور ، رأينا ان السلطة التنفيذية قد تعززت ، من بعض الاوجه ، لجهة الشخص والتسلط – بينما زالت ، من جهة ثانية ، الشخصية التي لا تقاوم والتي افسدت كل النصوص ! ويبرز هذا الفارق بروزاً ظاهراً في « الوثيقة الملحقة » . ولكن هذه السلطة التنفيذية الملكية تمثل التقليد في الدرجة الاولى ، بينما هي مثلت الثورة ، مع الامبراطور المنتخب باستفتاء شعبي ، أي مع الامبراطور « البورجوازي » .

فهل نحن الآن بصدد الحريات العامة أم الحريات الفردية التي استهدفها التجاهل منذ ١٢ سنة . ان حرية الصحافة ، التي عُطلت في الواقع في عهد الامبراطورية ، وبرزت مجدداً خلال « الايام المائة » وفي « الوثيقة الملحقة » ، قد تأيدت مرة اخرى ، شرط مراعاة « القوانين التي يجب ان تحول دون تجاوزات هذه الحرية » . وتأيدت كذلك حرية الاديان ، مع ان « الدين الكاثوليكي الرسولي الروماني » قد أعلن « دين الدولة » . كما تأيدت الحرية الفردية اخيراً .

ولكن ما يلفت الانتباه – والحدث من الاهمية بمكان – هو ان الدستور قد اعترف ، على ما يظهر ، الى حد بعيد ، بالمجتمع الذي خلفته الثورة الفرنسية . فان بنوده الثلاثة الاولى تنادي بالمساواة المدنية : مساواة امام القانون ، مساواة جبائية ، حق الوصول الى الوظائف المدنية والعسكرية . ويضمن البند التاسع مِلك الممتلكات القومية . اجل ان سكوت النص أو بعض مفارقاته قد يثيران القلق . فقد اغفل ذكر الاقطاع ، والحقوق السيدية ، والعشور مثلاً . ولكن التأكيدات بهذا الصدد ستعطى في وقت لاحق . فالبيان الملكي الذي صدر بتاريخ ٧ تموز ١٨١٥ قد نعت « بالاساطير ... والافتراءات ... والاكاذيب » ما اشاعه « العدو المشترك » حول العزم المنسوب للعهد على اعادة العُشر والحقوق « الاقطاعية » . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان القانون المدني ، حيث تأيدت تحقيقات ثورية كثيرة ، قد بقي ساري المفعول – أقله « ريثما يُنقض شرعاً » . فان ممثل المجتمع القديم المنظم قد قبل من ثم مبدئياً بالمجتمع الجديد – على الرغم من كل ما قد يبدو اخفاء وكتماناً في هذه التصريحات العامة جداً ؛ وعلى الرغم من اعادة طبقة النبلاء القديمة ، الى جانب الطبقة الجديدة على كل حال ؛ وعلى الرغم من المجلس الاعلى الذي سيبقى حصن الارستوقراطية الحصين والذي سيؤلفه الملك وحده .

شكوك حول التطبيق

لم يكن ذلك سوى المبادىء ، على كل حال . يبقى ان يعرف التشريع الموضوع الذي ستستخلص منها ، ولا سيما الروح التي ستطبق بها .

ان الدواعي في مقدمة الدستور قد تثير القلق . وقد يثير مزيداً من القلق الجو المسيطر في السنة ١٨١٤ ولا سيما في السنة ١٨١٥ . فهناك وراء النصوص القوى الاجتماعية والسياسية المتقابلة . لا ريب في ان الدستور قد وفر امكان نهضة الحياة العامة وتسوية مفيدة جداً ، في النتيجة ، للعهد الجديد . ولكن المسألة هنا هي معرفة مدى امكانات مثل هذا المستقبل في السنة ١٨١٤ أو السنة ١٨١٥ . ما زال الوضع متقلباً جداً في نظر رجال السنة ١٨١٥ . وفي السنة ١٧٨٩ ، بدت الثورة المُصلحة ممكنة ايضاً . فمن يستطيع تقدير امكانات الثورة المضادة المصلحة ، في السنة ١٨١٤ ، في فورة حروم الثورة المضادة ، والحملة التي استهدفت الجامعة ومقتني الممتلكات القومية ، وفي السنة ١٨١٥ ، بُعيد واترلو ، في غمرة الارهاب الابيض ، مع انتخابات آب التي اسفرت عن المجلس الذي لا وجود له ، وبعد سقوط وزارة « تاليران — فوشيه » في ايلول ، وبعد قانون تشرين الثاني الذي انشأ المحاكم الاستثنائية — الذي رده « كوفييه » الى المجلس الاعلى — وبعد اعدام « ناي » في كانون الاول ، والغاء الطلاق ، والحملات التي استهدفت بعض نصوص الدستور واستهدفت مقتني الممتلكات القومية كما في السنة ١٨١٤ ؟

الا ان الخطر الاكبر قد كمن في جهة السلطة التنفيذية : اذ ان نصوص التسوية يمكن ان تطبق بمفهوم محافظ . وقد برز هذا الخطر بشكل واضح ، في السنة ١٨١٥ ، بصدد المساواة المدنية المعتبرة مادة رئيسية . فبحسب القانون يحق للبورجوازي ، على غرار الشريف ، ان يعين في الوظائف العامة الكبرى . ولكن المسألة مسألة موافقة وتناسب . فطبقة الاشراف القديمة — التي يجب الا ننسى ، من جهة ثانية ، ان قسماً منها قد التف حول الامبراطورية قبل السنة ١٨١٤ — كانت تسيطر آنذاك في الواقع على المجلس الاعلى ، لا سيما بعد تعيينات السابع عشر من شهر آب . وتمثلت بعدد كبير في مجلس النواب . وتولت الحكم في معظم الولايات . اما البورجوازيون فقد شغلوا مراكز كثيرة في القضاء وحتى في الاسقفيات . ولكن الاشراف — مع مراعاة النسبة العددية في الطبقات — كانوا في كل مكان موضوع تفضيل على من سواهم الى حد بعيد . ففي الارياف ، حيث لم تعد مسألة الحقوق السيدية تجعل منهم اعداء لجماهير الفلاحين ، ولا سيما في الغرب ، اصبح الاشراف هم الاعيان بالذات بفضل ثروتهم ووجودهم وتأثيرهم على السلطات المحلية ، والجو المسيطر العام .

في انكلترا

باستطاعة التسوية في الدستور ان تنقذ بالنتيجة من المجتمع القديم اكثر مما يبدو ذلك ممكناً عند قراءة النص .

الا ان التنازلات الواردة فيه لم تقبل في الدولة الدستورية الكبرى الاخرى : المملكة المتحدة التي تضم بريطانيا العظمى وايرلندا — وهي « متحدة » منذ السنة ١٨٠٠ . ان انكلترا

الاوليغارشية والمحافظة القديمة ، قد خرجت من الحرب الكبرى معززة الجانب . تزعمت جبهة النضال حتى النهاية . فان وزارة النمر ، التي ترأسها ليفربول منذ السنة ١٨١٢، ستتربع في دست الحكم حتى السنة ١٨٢٧ . كما ان حزب المحافظين الذي استلم الحكم في السنة ١٧٨٣ سيستمر فيه حتى السنة ١٨٣٠ . وقد استمد الحزب الوزاري قوته ، ولا يزال يستمدها ، من الاكليروس والاشراف وكبار ارباب العمل وشطر كبير من الاوساط الشعبية التي بقيت مرتبطة بالاعيان ارتباطاً نظرياً وحركها الشعور القومي . ان برلمان الاشراف هذا ، ومجلس العموم المليء بـ « الابوقراطية الوردية اللون » الذي سيتكلم عنه « كارليل » في عهد لاحق ، لا يمثلان البلاد بشيء : ولكن على الرغم من العياء ، والانشقاقات ، والصعوبات الناجمة عن الازمات الاقتصادية ، واثر الثورة الفرنسية العميق في شطر من الرأي العام ، بقي ولاة الامر في الواقع منسجمين مع الشعور العام . لم يعرف نضالهم الذي دام ٢١ سنة سوى فترات نادرة من الضعف والخور . الخوف من الغزو وطدهم في الحكم . عند بدء الاعمال الحربية لم يوافق على اقتراحات « فوكس » باقرار المراقبة سوى خمسين نائباً تقريباً . ولكن « بورك » ، الذي توفي في السنة ١٧٩٧ ، قد وضع مبادىء « الهويغية » الوزارية والارستوقراطية ، التي ستعرف الحياة زمناً طويلاً من بعده . اما المعارضون الهويغيون الآخرون – وقد حاكوا العديد من الدسائس واواثار الكثير من القلاقل التي لم ترفع من شأن معارضتهم في نظر الرأي العام – فقد توفقوا بكل صعوبة في السنة ١٨٠٨ ، الى ان يجمعوا ، حول اقتراح هوايتبرد السلمي ، عدد لاصوات نفسه تقريباً . ولعل المعارضة البرلمانية المائعة لم تعد لتضمن هذا العدد في السنة ١٨١٥ .

ان الحرب قد حللت ممارسات تعزز الامتياز الملكي الذي حرص كل من جورج الثالث والامير الوصي من بعده على التمسك به . فبات حل المجلس قبل انتهاء مدته عادة مألوفة لا اعتراض عليها. وتدخل الملك شخصياً مرتين (١٨٠٠و١٨٠٦) للحيلولة دون تحرر الكاثوليك. وسبقت الاشارة الى تشريع يستهدف مقاومة الاخطار الثورية كانت نتيجته خلق سوابق مخيفة في التعرض للحريات التقليدية . اجل كان لبعض هذه النصوص صفة مؤقتة ، ولكن بعضها الآخر قد عرف الديمومة . وكانت هنالك قوانين لمراقبة النوادي استغلت خير استغلال لمحاربة الجمعيات العمالية . وكان من نتيجة قانون السنة ١٧٩٩ الذي اقر عقوبات خطيرة على التكتلات الحزبية – اخفها السجن لمدة ثلاث سنوات او الاشغال الشاقة لمدة شهرين – انه اقام العقبات لا في طريق النشاط العمالي فحسب بل في طريق المجتمع العمالي الذي كان أشبه بتكتل دائم . الا ان بعض القوانين اللاحقة ، ولا سيما قانون السنة ١٨٠٠ ، لم تسمح بالتعرض لكافة مظاهر التكتل : فلجأ القضاة آنذاك الى قانون « التآمر » القديم الذي يسمح لهم بفرض الغرامة النقدية وعقوبة السجن على هواهم بعد ثبوت المخالفات للمحلفين .

منذ السنة ١٨٠٠ صدرت نصوص تحد من حرية الصحافة ادت الى اصدار احكام

أوروبا عام ١٨١٥

متذكرة على الصحافيين . ارتفــع رسم التمغة على الصحف من « بنسَين » في السنة ١٧٨٩ الى اربعة «بنسات» في السنة ١٨١٥ . الا ان حرية الصحافة وحقوق الاجتماع وتأسيس الجمعيات لم تلغ قط الغاءً تاماً . واستمر كذلك حق تقديم العرائض . ولكن الاوليغارشية قــد عرفت كيف تدافــع عن نفسها بمجموعة من التدابير التسلطية ، وقــد برهنت عن ذلك عند الحاجة . وسيطرت كذلك سيطرة شديدة على الادارة المحلية التي مارسها بالمجــان بعض افرادها او بعض خلائقها .

وكانت دستورية ايضاً بعض البلدان التي ضمتها فرنسا النابوليونية اليها او انضوت هي تحت لوائها ، ولا سيا تلك التي تأثرت بها تأثراً عميقاً : المناطق المنخفضة ، والاتحــاد الملفيتي ، وبولونيا — ونروج ايضاً .

المناطق المنخفضة

انه لابتكار تحت رقابة انكليزية ذاك «القانون الاساسي» للمناطق المنخفضة ، الذي اعيد النظر فيه في تموز ١٨١٥ ، والذي اقر دستور المملكة . على غرار ما حدث في فرنسا ، كان لا بد من ان تؤخذ بعين الاعتبار القوى السياسية والاجتماعيــة المتقابلة . وكان الرجوع الى النظام القديم امراً مستحيلا . كان الدستور مماثلا للدستور الفرنسي — مع انه خص الملك بتعزيز امتيازاته — فاعلن الامير مصدراً لكل سلطــة ، ووزع السلطة التشريعية بينه وبين مجلس الطبقات — تاركاً الكلمة الفصل للملك — ونظم السلطة التنفيذية التي اعطاها حق تعطيل الحريات العامة . ان النظام الاجتماعي الذي اقامته الثورة الفرنسية قد استمر في خطوطه الكبرى . الا ان بعض الحقوق السيدية قد اعيدت . وكانت المســألة الكبرى ، هنا ايضاً ، معرفة كيفية تطبيق السلطة الملكية التنفيذية للمبادىء عملياً : وبصورة خاصة معرفة ما اذا كانت المساواة المدنية ستطبق دون حكم اجتماعي او قومي او معتقــدي مسبق ، على حساب البورجوازي او البلجيكي او الكاثوليكي . وفي هذا الصدد ، ما لبثت من جهة ثانية ان برزت معارضة حــادة عبر عنها الاساقفة في « الحكم المذهبي » الذي ندد بحرية الآراء الدينية ، والمساواة في حماية الاديان ، والمساواة في الحقوق المدنية والسياسية ، وحرية الصحافة .

سويسرا

عرفت سويسرا النابوليونية ، على غرار المناطق البلجيكية والهولندية، دستوراً على الطريقة الفرنسية . وها هي الآن « محررة » مستقلة ، ولكنها منقسمة بين انصار التجديد العــام وخصومه . كل ولاية ستضع دستورها الداخلي بملء سيادتها . سيشكل المجموع ، في تنوعه ، عودة محسوسة الى الانظمة الارستوقراطية القديمة ، منطوياً على تباينات كثيرة تؤمن نفوذ سكان مركز الولايات ، او العائلات القديمة ، او الثروة ، بالطبــع. الاكليروس يقبض مرة اخرى على زمام الحالة المدنية . مساواة الاديان ليست قانوناً .

الدستور النروجي

يبدو الدستور النروجي ، الذي تقرر بالتصويت في السنة ١٨١٤ ، ابعد سخاءً بالحريات ، لا من الدستور البولوني المضحك الذي اعلنه اسكندر رسمياً في شهر كانون الاول ١٨١٥ – قاضيـاً بمجلس شيوخ يعينه الملك ومجلس نواب ينتخبهم النبلاء والمدن – فحسب ، بل من كافة الدساتير الاوروبية ايضاً . استوحى دستور السنة ١٧٩١ الفرنسي ، فأعطى البرلمان ، او « الستورتنغ » ، الذي تنتخبه هيئة انتخابية كبيرة نسبياً ، الكلمة الفصل في الحقل التشريعي . الملك لا يتمتـع الا بحق ايقاف المجلس مؤقتاً عن القيام بعمله ، ولا يستطيع حل الجمعية . زد على ذلك ان شارل الثالث عشر الاسوجي مدين بتاجه الثاني للمجمع التأسيسي الذي انتخبه ملكاً على « نروج » شرط اعترافه بالدستور .

في المانيا

اما الدول الاوروبية الاخرى ، فقد عادت ، في السنة ١٨١٤ – ١٨١٥ ، الى نظام السلطة المطلقة او بقيت خاضعة له . لم تثر المسألة اية صعوبة في البلدان التي لم تعرف قط دستوراً على الطريقة الفرنسية ، والتي لم يعدها الملك بشيء : كالنمسا وروسيا ، حيث عدل اسكندر عن كل اصلاح بعد السنة ١٨١٥ . وبين اولئك الذين اغدقوا الوعود ، لم يتقيد الاقوياء بوعودهم : فـان الدستور الذي كان مفروضاً ان يمنحه فردريك غليوم الثالث بروسيا بموجب قانون ٢٨ ايار ١٨١٥ – قبـل واترلو – لن يرى النور في يوم من الايام . الا انه سيؤسس مجالس اقليمية استشارية . واذا ما استثنينا المانيا الجنوبية التي ستعرف دساتير محافظة جداً – كما في باد وبافاريا – فان معظم دول الاتحاد الجرماني قـد اكتفت بالسلطة المطلقة على الطريقة القديمة ، وان خفت وطأتها بعض الشيء هنا وهناك . اما غراندوقية « ساكس فيمار » فقد شذّت عن القاعدة بمبادىء دستورها الحرّة .

وكذلك عادت ايطاليا ، التي سيطرت عليها النمسا ، الى نظام السلطة المطلقة . كما اعـاد البابا الى دوله الادارة الكلسية .

في اسبانيا

منذ شهر ايار ١٨١٣ ، اعلن فردينان السابع ، الذي استعاد عرشه بفضل النصر الانكليزي ، بطلان الدستور الذي اقرتـه بالتصويت جمعية كادكس في السنة السابقة – واقتبسته عن دستور السنة ١٧٩١ ، فاعتبر جناية على الملك ، تعاقب بالموت ، كل عمل يستهدف المحافظة عليه . أوقف بعض الاعيان وحوكموا امـام محكمة خاصة لم تستطع ادانتهم بموجب اي نص ، فتولى الملك محاكمتهم بنفسه واصدر عليهم في كانون الاول ١٨١٥ احكامـاً بالاشغال الشاقة ، او الحجر في احد الاديرة ، او النفي .

رافق السلطة المطلقة بصورة اجمالية فقدان الحريات العامة . الا ان نظام الصحافة قـد اختلف باختلاف الدول ، باستثناء الرقابـة الـتي كادت تكون شاملة ، اذ قد عمل بها في روسيا وبولونيا والنمسا ، واخيراً في بروسيا بعـد تردد . في الاتحاد الجرماني ، تأخر صدور التنظيم المعلن عنه في وثيقة فيينا والمسند وضعه الى المجمع : فاستعاض عنه كثير من الحكومات الخاصة

بتشريع يكرس السلطة المطلقة ؛ الا ان دستور غراندوقية ساكس – فيمار قـد منح الحرية . واعـاد ملك سردينيا الرقابة الكنسية . وتبدو حرية المعتقد كذلك خروجاً على القاعدة سواء اقرت في البلدان الكاثوليكية ام في البلدان اللوثرية والارثوذكسية . واعتمد فردينـان السابع في هذا الصدد سياسة قمع عنيف واعاد محاكم التفتيش . واعاد فكتور عمانوئيل الحالة المدنية الى الاكليروس والغى حرية الاديان . وتناولت الدائنين بغير الكاثوليكية الذين اغضي عليهم في النمسا منـذ جوزف الثاني تدابير قاسية مختلفة : فقد اقصوا عن الوظائف العامة والزموا بالحصول على وثيقة اعفاء لاقتناء العقارات والتمكن من ادارة الموسيقى فيالكاتدرائيات او نيل الدرجات الجامعية . اما في روسيا فكانت الكنيسة الارثوذكسية كنيسة الدولة . اجل لقد مارس سكان المناطق المحتـلة بحرية معتقدهم قبل الفتح ، ولكن كل ارتداد من الديانة الارثوذكسية الى ديانة اخرى كان محرماً .

التجديد الاجتماعي

ان ما قلناه عن الحق العـام القديم ، يمكن قوله عن المجتمع القديم الطبقي الذي استمر او برز ثانية . وتأتي في الطليعة طبقة الاشراف ، طبقة الاشراف الروس التي وفرت للدولة ضباطها وموظفيها ، وطبقة الاشراف البولونيين التي ادار كبار ممثليها البـلاد مع الاكليروس ؛ والتي تنتخب بهذه الصفة ، مع المدن ، مجلس قصّاد المجمع حيث يضمن لهـا الدستور الاكثرية ؛ في حال ان الامراء الامبراطوريين والملكيين والاساقفة الامراء يؤلفون مجلس الشيوخ . والمجمع السويدي والمجمع الفنلندي من بعده – مع طبقاتها الاربع : الاشراف والاكليروس والبورجوازيون والفلاحون الذين يقترعون كل طبقة على حدة ، والاشراف النمساويون ويكادون يشكلون وحدهم المجالس الاقليمية التي تضم احباراً واسياداً وفرساناً وممثلين عن المـدن الغراندوقية . ويسيطر النظام نفسه في منطقتي « تيرول» وبوهيميا . وتتألف الجمعيـات الاقليمية البروسية من ممثلي الطبقات الثلاث : الاشراف ، ممثلي المدن ، الفلاحين ، ومجالس طبقية في بافاريا عملاً بدستور السنة ١٨١٨ ؛ وتحدد براءة النبـلاء حقوق طبقتهم . وتتألف مجالس « ساكس » ، الـتي سيقرها مرسوم ملكي في السنة ١٨٢٠ ، من ممثلين لثلاث طبقات : ممثلي الاحبار ، والكونتية والبارونات والجمعيات ؛ وممثلي طبقـة النبلاء بصورة عامة التي قد تضم اشخاصاً من غير طبقة الاشراف يتلكون عقارات حصلوا عليها من الاشراف ؛ واخيراً ممثلي عامة الشعب . وعرفت هانوفر مجلسين في السنة ١٨١٩ : الاشراف وغير الاشراف . الاشراف وممثلو البلديات الممتازة يؤلفون مجالس مكلمبورغ . وفي غراندوقية « ساكس – فيمار » نفسها ، ضمت جمعية ممثلي الشعب مندوبي الفرسان والمدن والفلاحين. وحتى في مملكة المناطق المنخفضة تألفت المجالس الاقليمية من ممثلي الطبقات الثلاث ، النبلاء والمدن والارياف . وعاد الى هذه المجالس الاقليمية تعيين اعضاء مجلس الطبقات الثاني .

يتضح من ثم ان طبقة الاشراف كانت صاحبة امتيازات شتى ، مع ان الامتياز قد تراجع من بروسيا الى ايطاليا ، وحتى الى نابولي عاصمة البوربون . ما زالت الاقطاعية قائمة مع مـا

تستتبعه من تمييز بين الارض الشريفة والارض العامية . ففي النمسا عاد للاشراف دون غيرهم اقتناء الاراضي من الفئة الاولى . وحدث التمييز نفسه بين الاملاك الشريفة والاملاك غير الشريفة في دول المانية مختلفة . الا انه حق لغير الاشراف ، في روسيا ، اقتناء املاك لا فدادين فيها . وقد استمر التمييز القديم ، بصورة خاصة ، في الاراضي التي لم تخضع من قريب لاحتلال الثورة او الاحتلال النابوليوني . ويصح القول نفسه في السلطات السيدية : سلطات الامن والقضاء وتنظيم الصناعات والايواء في المنزل، التي مارسها الاشراف في اراضيهم ؛ واعمال التسخير والاتاوات التي فرضوها على الفلاحين . وفي بروسيا نفسها ، باستثناء الاقاليم الغربية ، مازالت طبقة الاشراف ، على الرغم من الاصلاحات التي تحققت قبل السنة ١٨١٤ ، تحتفظ بمكانة خاصة في المجتمع الريفي وبحقوق الامن والقضاء على الفلاحين ، التي تتيح لها اصدار احكام خفيفة . تحرر الفدادون البولونيون منذ السنة ١٨٠٧ : ولكنهم لم يمتلكوا ارضاً فبقوا تحت رحمة الاشراف . وباستثناء الاقاليم الدائرية الغربية من الامبراطورية الروسية ، ولا سيما في استونيا وكورلاند ، نرى حركة التحرير تعود الى الوراء بعد النصر . عرف الارتقاء البورجوازي نحو المساواة المدنية فترة من التوقف على الرغم من ان قانون نابوليون ما زال ساري المفعول ، مؤقتاً او نهائياً ، في المناطق المنخفضة ، وبروسيا الريفية ، وباد ، وغراندوقية « برغ » ، ومملكتي نابولي وبولونيا . احتفظت طبقة الاشراف قانوناً – فللاشراف البروسيين « حق الافضلية في المناصب الفخرية التي اثبتوا جدارتهم باحتلالها » – ولا سيما عملياً ، بامتياز شغل الوظائف العليا .

فلم يقتصر من ثم مجهود السنة ١٨١٤ – ١٨١٥ في سبيل التوطد او التجدد على تثبيت اقدام الحكومات ، واعادة السلالات الملكية الى عروشها ، وتجديد اوروبا ، واقامة تضامن اوروبي من اجل البقاء . لم يكن العمل سياسياً فحسب . بل استهدف المجتمع باكمله .

مجتمع يتميز بالخوف ، ويرفض قيم القرن الثامن عشر ، المسؤول الاكبر عن الكارثة .

٣ – قيم الحضارة المجددة

المقولات الازلية

الثورة هي الشر المطلق . لقد رأى مترنيخ فيها « كارثة اجتماعية رهيبة ، نجا « العالم المتحضر » منها باعجوبة . وبدا له نابوليون وكأنه « الثورة المجسمة » . وبعد مرور ربع قرن من الانقلابات الوحشية ، اخذت حضارة السنة ١٨١٥ القلقة تبحث عن قيمها الخاصة : قيم التثبيت ، والسمو ، والتحريم ، في مقاومتها العقل النقاد وتدخل الارادة في العقد الذي يمكن اعادة النظر فيه .

وجدتها في تجديد ديني واخلاقي اولاً . وقد عبر « بونالد » خير تعبير عن هذا التضامن بين العرش والمذبح . كما عبر عنه كذلك « جوزف دي ميستر » :

« ان المبدأ الديني يتصدر كافة الابتكارات السياسية ، وكل شيء يزول بزواله ... في تجاهل هذه الحقيقة الكبرى ينحصر ذنب اوروبا ، وهي تتألم لانها مذنبة » .

وكما عبر مترنيخ اخيراً عن شعور عم خواص القوم: الشر منبعه « قرن الحساد» مع ما جاء به من « تعاليم مزيفة » و « فلاسفة مزعومين » .

طبيعي ان الكنيسة ستبقى في الدولة كما في السابق : ولكنها لن تكون ظنينة ، ومنافسة للسلطة الملكية يجب مراقبتها، بل معاونة لا غنى عنها. الحرب ضد الروح الثورية تستلزم الصلح بين الكنائس والصلح في الكنيسة . المشادة الاجتماعية الكبرى عقمت المشادة الدينية الكبرى . للمرة الاولى منذ اوائل العصر الحديث ، نرى ملوكاً ثلاثة يدينون بمعتقدات مسيحية مختلفة يتكلمون ، طوعاً أو كرهاً ، في ميثاق الحلف المقدس ، اللغة الصوفية نفسها . في نظر الكنيسة الانغليكانية ليس المسيح الدجال هو البابا ، بل نابوليون . وهـا هو « كونسالفي » يستقبل في لندن في السنة ١٨١٤ ، في هذه المملكة المحرمة على البابويين منذ اكثر من قرنين ونصف القرن . وسيقوم امبراطور النمسا وملك بروسيا ، في وقت لاحق ، بزيارات داوية الى روما . لقد ولى عهد الجانسيلية والغليكانية والفبرونيانية والجوزفية : فقد انتقلت هذه المنازعات المهانة الى خلفية اللوحة . وبموافقة البلاطات جعلها اعاد بيوس السابع ، في ٧ آب ١٨١٤ ، جمعية اليسوعيين التي ألغاها اكليمنضوس الرابع عشر منذ ٤١ سنة بسبب عداء هذه البلاطات نفسها لها .

ليس تقسيم اوروبا الجديدة وحده ما يجري « باسم الثالوث الاقدس » ، بل بناء المجتمع من الداخل ، أقله كما اراده رجال الساعة . وقد عبر فلاسفة السلطة المطلقة من امثال بونالد ، وجوزف دي ميستر ، وهالر في كتابه « تجديد العلم السياسي » الذي اعد منذ اوائل القرن والذي سيترك صدى عظيماً في اوروبا الالمانية ، خير تعبير عن هذا التيار الفكري . المجتمع ليس تعاقدياً . هو الله من خلقه واعطاه مؤسساته . فمن حيث هو واقع واجب وأولي وأزلي وشامل ، فانه يفرض نفسه على الانسان الذي لا يستطيع تغييره . « الدستور السياسي عمل الهي » . اجل ليس هذا الدستور مكتوباً بالمعنى العامي ، ولكن الطبيعة توحيه لنا بوضوح لا يترك مجالاً للشك . قد تنادي الدساتير بالمساواة المدنية ، ولكن فقدان هذه المساواة في الطبيعة سيحول دون قيامها فعلياً . ويستشهد هالر بالتاريخ الذي يُظهر له ، من اوجه كثيرة ، وكان نظام الملكية التقليدية تطبيق للحق العام في كافة الازمنة . الامير يسوق شعبه في الزمان من حيث هو يملك الارض التي يحكمها ويديرها كما يدير املاكه الخاصة: انه ذو سلطة على غرار رب العائلة والولي والقائد ، « وعلى غرار الملاك العقاري الذي له سلطة على خدامه وعماله وكل من يقيم في اراضيه » . لم تتكون السلطة من اسفل الى اعلى بل من اعلى الى اسفل :

« السنة الالهية الطبيعية بدلاً من الارادة العامة ... وسيادة من هو مستقل بقوته وثروته

بدلاً من سيادة الشعب أو استقلاله ... والسلطة الشخصية أي الصادرة عن الله بـــدلاً من سلطة التفويض ... وواجبـات العدالة والمحبة المفروضة على كافة البشر بدلاً من الوصايات الخيالية ... »

على هذه القواعد ستجدد السلطة الملكية التي يشابه الازدراء بها، كما اشار الى ذلك المركيز « دي كارمون – تونير » ، الازدراء بالسلطة الابوية وبالزواج . مبادىء الملكية والعـــائلة متكاملة ، لا بل لا تتميز احياناً . كلاهما يرتكز الى السلطة والوراثة . ويصح الكلام عن حـق الارث الشامل بصدد السيادة كما يصح بصدد الاملاك الوالدية . "

أجل ليس حق الارث واحداً بالنسبة لكل هـذه الاملاك . وفي موضوع السيادة ، يرافق الحدود القانونية نوع من المنع الطبيعي : لا يستولي عليها كل من يرغب فيهـــا . الانسان سجين بيئته . وسيقول شاتوبريان « ان من يخرج من صفوف المجتمع الدنيا » لا يستطيع ان ينتزع سلطة سيده و « يجلس مكانه بين الملوك الشرعيين ... » امـــا الوفاء فيبدو وكأنه الفضيلة الاجتماعية الكبرى : يمين الولاء للملك ؛ الوفاء للسيد ، للولي ؛ الوفاء للمهنة، للاخلاق ، للتقليد، للقيم الاخلاقية التقليدية .

وهي قيم داستهـــا الثورة والامبراطورية ، في نظر مسؤولي السنة ١٨١٥ . فسيقول شاتوبريان ايضاً :

« باسم القوانين تنكس الديانة والاخلاق ، ويكفر باختبارات آبائنا وعـــاداتهم ، ويدنس بالتحطيم ضريح جدودنا ، القاعدة المتينة الوحيدة لكل حكم ، من أجل اقامة مجتمع لا ماضي ولا مستقبل له على عقل مشتبه فيه » .

فكيف العجب والحالة هذه، كما يقول شاتوبريان ايضاً ،من التجاوزات الغريبة التي شوهدت في السنوات الخمس والعشرين الاخيرة ؟ من اغتيـــال « فروتيه » والدوق دانغين ، ومن تعذيب «بيشغرو» واغتياله ؟ من سوء معاملة الحبر الاعظم الذي اقدم الكورسيكي الغريب على ضربه بنفسه وجره بشعره ؟ بهذا، كما يقول مترنيخ ، يتضح ان القرن الثامن عشر هو المذنب الاكبر، بازدرائه « بكل ما اعترفت الحكمة البشرية بارتباطه ارتباطاً وثيقاً بمبادىء الاخلاق الازلية ». تلك المبادىء التي لم يقنط « كاساريغ » – على الرغم من الظواهر – من تلقينهـــا « الشعب الفرنسي » مرة اخرى .

الالوهية ، الوراثة ، الوفاء : تلك هي من ثم مبادىء التجديد الاجتماعي ، ذاك التجديـــد الذي سيقف في وجه نفعية القرن الثامن عشر ويعرف ، اذا اقتضى الأمر ، كيف يوقف التقـدم المادي عندما يكون منطوياً على أي خطر إعـــداء ثوري . في النمسا حظرت كتب الطب التي وضعها « بروسيه » اليعقوبي . وفي روما منعت المستحدثات الفرنسية كاللقاح ، والمصابيـح العاكسة النور في الشوارع . وفي تورينو ، ازيلت بأمر ملك سردينيا حديقة النباتات . كل هذا

قد تم بوحي الذهنية نفسها . وقد اعلن كذلك خطر روح التنعّم ، « الميل الى الملاذ والنفقات التي تتعدى طاقة الثروة» – الذي تعاظم بفعل الازدهار الاقتصادي قبل السنة ١٨١٢. يستشف المرء هنا موقفاً حذراً يقفه المحافظون والملاكون العقاريون من كافة التغييرات – وحتى من تلك الثروة المريبة التي تجمع بسرعة وتشكل خطراً على الحياة التقليدية .

التجند الرومنطيقي

تركت هذه القطيعة مع القرن الثامن عشر اثراً عميقاً في كافـــة نشاطات الانسان التي يمكن ان تتأثر بالاوساط الحاكمة. وليس تجديد الأدب وتوجيه الفكر توجيهاً معيناً اقل مظاهر الحضارة الجددة في السنة ١٨١٥ . اضف الى ذلك ان تأثير الشعوب التي اشتركت اشتراكاً فعلياً في الصراع ضد فرنسا قـــد حالف هنا ، لفترة قصيرة، تأثير خواص الشعب المحافظة .

اجـل لا شيء يشير ، لا في التيار السابق للرومنطيقية ولا في التيار الرومنطيقي الاول – روسو ، هردر ، غوته في شبابه وكهولته ، شيلر – الى وحي سياسي او اجتماعي معاد لنزعات العصر العامة . فهي تجد فيهما ، على نقيض ذلك ، تعبيراً ممززاً . وستسير المدرسة مرّة اخرى في هذا الاتجاه في مرحلتها الاخيرة ، حين يعود القرن التاسع عشر نفسه ، عند اندلاع ثوراته ، الى القرن الثامن عشر . ولكن بين هاتين المرحلتين الكبريين ، ازدهرت ، في الصراع ضد فرنسا وفي فترة ارتقاء كافة القيم القديمة ، رومنطيقية مسيحية ، كاثوليكية ، اوسطية ، تنبض بالحنين الى الماضي التقليدي . لا ريب في ان اصول المدرسة قد اعدتها لهذه المهمة . نشأت عن ردة فعل مضادة لمذهب العقليين ، ومن تحرر من الحس يدعو الى الحوار مع الله . فكان طبيعياً ان تقودها عاطفتها الدينية الى الدين . اما مواضيع وحيها الجديدة ، الحياة الريفية ، وبساطة الازمنـــة القديمة وعظمتها ، والاسطورة الملحمية البعيدة ، فقد جعلتها سريعة الاستجابة لنداء التقليـــد والانبعاث . وما ان اعلنت الحرب على فرنسا الثورية ، وتجندت الشعوب ، وتعاظـم الشغف العام والاقبال على الادب ، حتى « تجندت » المدرسة بدورها . وغني عن البيان ان هذا التجند قد اختلف باختلاف البلدان والبشر ، وان البعض قد تمسكوا بشدّة باستقلالهم . ولكن بالقـدر الذي حددت به المدرسة موقفها من مسائل عهدها ، ردت له ما جاءها منه .

وسيكون ذلك ، لا سيما في الشعر الرومنطيقي الالمـــاني ، بانتصار المذهب المضاد لمذهب العقليين ، والدفاع عن الصوفية والكاثوليكية والرهبنة . فقد كتب « نوفاليس » الذي توفي في السنة ١٨٠١، وان صلة الغربي تربط بين قوّة الحس الشعرية وقوّة الحس النبوية وقوّة الحس الدينية والهذيان بصورة عامة » . وعلم « شليغل» في السنة ١٨١٢ ان الشعر الفرنسي لا يمكن ان يتجدد الا بالعودة الى المنابع القديمة والى « الحمية الدينية الخالصة» . ولكن هذا التجدد ليس ممكناً الا اذا « رجعت العقول الى الوراء » واذا «رجع الشعر الى عصور فرنسا القديمة » . كل بلاد تلهم شعراءها . وفي المانيا ، رأى « تياك » « ان قوة الحس الوطنية في المؤلفات الحديثـــة تتلاشى تلاشياً كلياً » حين ينتشر الادب الفرنسي . في السنة ١٨١٤ مجّد « روكرت » الشعور الوطني

في « القصائد المدرّعة » . وتجلت الروح الوطنية كذلك في مسرحية « سيفورو » لـ « لاموث — فوكيه » ومسرحية « معركة ارمينيوس » لـ « كليست » . ولا يعني ذلك من جهة ثانية ان الرومنطيقيين الالمان قد الفوا جبهة سياسية متجانسة : فـ « اوهلاند » وتيك نفسه ينتسبان الى الديموقراطيين او الاحرار . ولكن «برنتانو» و «ايخندورف» — مع « نوفاليس » — مسيحيان قوميان . كما ان بيتهوفن ، الذي استلهم الروح الجمهورية من قبل ، قد وضع في السنة ١٨١٣ سمفونية « معركة فيتوريا » التي عظم فيها ظفر ولنغتون . وفي الوقت نفسه تقريباً انشد « جوكوفسكي » في روسيا « الشاعر في معسكر المحاربين الروس » و « الرسالة الى القيصر الظافر » . اما في الادب الانكليزي ، ولا سيما في مؤلفات كبار الادباء ، فلا تترك الاحداث اثراً بعيداً . فان اللورد « بايرون » الذي سيكون لمؤلفاته تأثير قلّ نظيره على الرغم من وفاته في ربيعه السادس والثلاثين ، قد بقي ثورياً يحتقر المضطهِدين والمضطهَدين على السواء . وبين الشعراء البحيريين ، جاهر شيلّي ، الذي سيموت في التاسعة والعشرين من عمره ، بآراء دينية إلحادية ، حتى في كتابه « الملكة ماب» الذي صدر في السنة ١٨١٣ .ولكن « وورد سوورث» و « كولردج » ، اللذين انجزا آنذاك معظم مؤلفاتهما ، قد انتقلا الى محاربة نابوليون . اما « وولتر سكوت » المحافظ ، فكان روائي التقاليد و « شاعر الشرعية » .

لم يبرز في فرنسا سوى اسم عظيم واحد : شاتوبريان . بالاضافة الى « اتالا ورنيه» ، وضع ثلاثة مؤلفات كبرى بليغة المعنى الالهامي : « عبقرية المسيحية » (١٨٠٢) ؛ « الشهداء » (١٨٠٩) ؛ « رواية رحلة من باريس الى اورشليم » (١٨١١) . ولكن على الرغم من هذا الانتاج الرائع ، لم تعد الاولوية لفرنسا ، بسبب افتقارها الى الرجال . انتقلت العظمة والآراء الرائجة الى بلدان اخرى . ان كسوف فرنسا الادبي قد رافق كسوفها السياسي. ولكن ما يجب لفت الانتباه اليه ، في اوروبا المقهورة هذه حيث تنتظم الثورة المضادة ، ان برج الرومنطيقية الاوسطي والمسيحي ينادي على طريقته بقيم التجديد التي سبق وشاهدنا غلبتها .

القيم الجددة

ان مجتمع السنة ١٨١٥ قد عرّف من ثم بضعف الانسان أمام المقولات الازلية . هنالك دين ازلي ، واخلاق ازلية ، وتسلسل سلطة ازلي ، ونظام الهي وبشري ازلي . نظام لا يهتم بالحقوق ، بل بالواجبات ، « بالوصايا » . كان علم الاخلاق الديني وتعليم الكنائس العام مشبعين بالروح الاجتماعية المنتشرة في اوساط الارستوقراطية او الاوليغارشية الضيقة الحاكمة — التي ما زالت ، من جهة ثانية ، تحتل مراكز السلطة الروحية في معظم انحاء اوروبا — والفا خير جهاز منظم للدفاع عن العالم التقليدي ، كما اتضح ذلك منذ قرون عدّة على كل حال . ولكن علية القوم قد لمست ذلك لمس اليد في السنة ١٨١٥ ، ولا سيما كبار الملاكين الذين تغلب مجتمعهم الراسخ غير المتحرك على المجتمع الصناعي السريع التبدل في ثرواته وافكاره وخواصه . وقد زاد في رسوخه الخوف الاجتماعي : فان روح الحذر قد تغلبت على روح التفاؤل والاقدام،والايمان بمصير منقطع النظير ستبلغه الشعوب سبق لكوندورسيه ان أومأ اليه بالرموز.

ان الصراع المنتهي قد اقام في وجه القرن الثامن عشر وحضارتـــه المتحركة الصادرة عن الانسان حضارة مقاومة صادرة عن الله .

٤ ـــ الاخطار المحدقة بالمجتمع المجدّد

الخوف الاجتماعي

بدت هذه الحضارة في السنة ١٨١٥ وكأن لها انصبتها في الحيـــاة . نصيب سلسلة طويلة من خيبات الامل ؛ والنهكة ؛ وارتقاب سلام معمر . نصيب الخوف الاجتماعي نفسه : اذ ان الخوف لم يسيطر على الاوساط الارستوقراطيـــة او « المجدّدة » وحدها ، بل فكك ، منذ زمن بعيد ، الجبهة البورجوازية ، وأسهم ، خلال الغزوتين الاخيرتين ، في الحيلولة دون تنظيم دفاع قومي على غرار ما جرى في السنة ١٧٩٣ . فان العديد من اوساط البورجوازية الكبرى قد رغب في التعاون . وهكذا فان تجديد العالم القديم ، بالقدر الذي تم به ، قد يعطي معاصرين كثيرين فكرة خاطئة عن متانته .

الا ان الوضع ما زال مهدداً باخطار جمة ، من خارج اوروبا ، وفي اوروبا نفسها حيث تقوم أشد الأخطار هولاً .

انطلاقـــة الولايات المتحـــدة

ان الحدث الاكبر ، خارج اوروبا ، هو لعمري سرعة نمو هذه الجمهوريـــة الاميركية الفتية التي لم يمتقد فلاسفة العهد القديم ، قبـــل عشرين سنة ، بحظها في الحياة . انها لجمهورية بورجوازية ، تفرعت عن القرن الثامن عشر تفرعاً سريع الامتداد ، وبقيت ، على ما يظهر ، وفية للقيم الاصلية : للفلسفة الثورية ، لحقوق الانسان ، للدستور العقد ، وبدت منذ السنة ١٨١٥ وكأنها ترفض التاريخ بحسب التعاليم الازلية الواردة في الحلف المقدس .

ما فتئت البلاد تتوسع ، لا سيا نحو الغرب ، وكذلك نحو الجنوب . ابتـدأت المسيرة نحو الباسيفيكي بشراء مقاطعة « لويزيانا » من « القنصل الاول » في السنة ١٨٠٣ وبانتقال السكان الى « الغرب الاوسط » و « اوهايو » و « الميسيسبي » ؛ وباقامة اول مركـز للجنود الاميركيين على شاطىء الباسيفيكي عند مصب نهر كولومبيا في السنة ١٨١١. وضُم قسم من فلوريدا بين السنة ١٨١٠ و ١٨١٣ . فبلغت رقعة الاتحاد الآن أكثر من خمسة ملايين كيلومتر مربع بـــدلاً من المليونين ، مساحة رقعته الاولى ، وتجاوز عدد السكان ضعف ما كان عليـــه في السنة ١٧٩٠ ، فبلغ ، حوالي السنة ١٨١٥ ، بين ثمانية وتسعة ملايين نسمة : أي نصف سكان المملكة المتحدة ، وثلثي سكان بريطانيا العظمى . اما كندا الموالية المجاورة فلا شأن لها تقريباً ، اذ ان سكانهـــا لا يتجاوزون نصف المليون .

بتأثير الظواهر التي سبقت الاشارة اليها في اوروبا القرن الثامن عشر ، والتي كان لها هنـــا

مزيد من التأثير القوي ، تكاثرت النشاطات الاقتصادية ، وتكدست المكاسب تكدساً مطرد السرعة لا نظير له في الماضي . اتسعت السوق الداخلية بارتفاع عـدد السكان . واتسعت كذلك السوق الخارجية ، في اوروبا واميركا اللاتينية ، بفضل الفوائد التجارية التي يوفرها الحياد للبلاد في ظروف حرب شاملة : على ان الحصار الانكليزي قد اشتد اكثر فأكثر بعـد نقض صلح أميان . اضف الى ذلك ان ارتفاع الاسعار الاميركية – كما يظهر ذلك من الرسم البياني المنشور في الصفحة ٥٩٣ – قد وسع حجم الاعمال والمكاسب توسيعاً عظيماً . فبين السنة ١٧٩١ والسنة ١٨١٠ كاد محمول السفن المستخدمة في التجارة الخارجية يبلغ ثلاثة أضعاف مـا كان عليه ، بينما تضاعفت قيمة الصادرات ، منذ السنة ١٨٠٧ ، ست مرات تقريبـاً . وسار الانتاج الصناعي في الطريق نفسها ، اذ ربما ارتفـع عدد صنانير الحياكة من ٨٠٠٠ في السنة ١٨٠٨ ، الى ٥٠٠،٠٠٠ في السنة ١٨١٥ . اما في صناعة الاجواخ فكان التقدم اقـل سرعة . ولكن الصناعة التي قامت في المشاريع الكبرى على أنواعها كانت صناعة جديدة كلّها ومجهزة خير تجهيز . وشجعت الظروف نفسها ، وتوسع المدن ، وازدياد الاستهلاك الداخلي ، حـرف البناء والتجارة الصغرى ، كما شجع الانتاج الزراعي ارتفاع اسعار الخامات في العالم كلّه ، وهو ارتفاع ملموس جداً حتى السنة ١٨١٢ تقريباً ، لا سيما وان الاراضي واسعة جداً وتصلـح للمشاجر الكبرى او للزراعة الاستهلاكية الصغرى . وفي الداخـل توفرت الاراضي للجميع ، اعني بهـا اراضي الهنود القليلي العدد والمدفوعين الى الوراء باتجـاه الغرب . وقد تراوح سعر الهكتار بين دولارين وثلاثة في حال ان اجر العامل العادي غير الكفء تراوح بين ٨٠ سنتا ودولار .

في فردوس المشاريع الحرّة هذا ، بدا من ثم وكأن كل شخص قادر على الجد في طلب الثروة . اجل انه لفردوس نخاسي ، ويستلزم ، من جهة ثانية ، ابادة الهنود . ولكن ليس من يعبأ بامر الابادة . كما ان النخاسة ، على الرغم من الغائها في السنة ١٨٠٧ – الذي لم يحل دون تضخم حجم الانعام السوداء – لم تصبح بعد معضلة قومية كبرى .

ويجدر لفت الانتباه اخيراً ، في هذه الديموقراطية الاقتصادية السائرة قدماً في انطلاقتها والخاصة بالعرق الابيض ، الى ان طبقة ارباب المشاريع ، وهي العنصر الخلاق بالذات في البورجوازية ، قد توسعت من اعلى المجتمع الى اسفله .

الفوز الجمهوري

بدت الجمهورية الاميركية من ثم ، في نظر العالم ، وكأنها نجاح مادي باهر . كما بدت في الوقت نفسه وكأنها خلق ديموقراطي يتوطد اكثر فأكثر كل يوم . كانت السيطرة للمعتدلين الاتحاديين اولاً ، حتى السنة ١٨٠٠ ، وقد تكلم أحدهم ، وزير المال « هاملتون » ، عن اسناد الحكم الى « الطبقات العليا » . اتهمهم خصومهم الجمهوريون بانهم « الحزب الانكليزي » ورجال الثورة المضادة ، وطالبوا – اقله في تصريحاتهم الدعائية –

بدخول الحرب الى جانب الثورة الفرنسية ، فكان منهم ، امام القيود التي فرضهـــا « مجلس المديرين » على تجارة الدول المحايدة ، وامام خرقه المهين ، ان قطعوا علاقاتهم الدبلوماسية به . انتزع الجمهوريون السلطة منهم لفترة ثلاثين سنة تقريباً . وانتخب للرئاســـة « جفرسون » ، واضع بيان الاستقلال في السنة ١٧٧٦ ، وصديق فرنسا الثورية ، الذي نعته خصومه الاتحاديون باليعقوبيــة والميل الى فرنسا، والذي رأى في انتخابه انتصاراً ديموقراطياً على« فئة من المتجننين الملكيين والارستوقراطيين المياليين الى الانكليز ». الا انه انتهج سياسة توفيق انتهت الى احباط تدابير الحزب الاتحادي وتفكيكه . وحرص كذلك ، في الخارج، على ابقاء بلاده خارج الحرب الكبرى . ولكن زيارة الاساطيل الانكليزية للسفن الاميركية ادت الى حوادث كثيرة ، كما ان فرض الحظر على البضائع الاجنبية عرض مجهزي السفن للافلاس . فتململ المزارعون واصحاب المغارس في الغرب والجنوب من الهبـــوط المخيف في تصدير الحنطة والقطن . وكان للاوهام والاطماع شأنها ايضاً . فقد اعتقد الجميع بقرب فتح كندا . وهكذا فان ماديسون ، خليفــة جفرسون ، اعلن الحرب في السنة ١٨١٢ .

يتضح من ثم ان ظروفاً كثيرة ، لم تلعب النظريات فيها اي دور ناشط على كل حال ، قد انتهت الى وقوف الولايات المتحدة ، عملياً ، الى جانب فرنسا في أشد ساعات صراعها حرجاً ضد اوروبا . فاشتعلت من ثم الحرب (الاستقلالية الاميركية الثانية ، المجهـولة المصير ، التي نشبت المعارك فيها بين جيوش غير ثابتة لم يحسن تدريبها وبين جيوش ولنغتون المضرسـة على الحرب التي جيء بها من اسبانيا في السنة ١٨١٤ . نزلت فرقة انكليزية صغيرة الى البر في جون (شيسابيك) واستولت على واشنطن حيث احرقت الكابيتول والبيت الابيض ، انتقاماً مـن احراق الجيوش الاميركية لمبنى برلمان تورونتو ، كما يقال ، ومجرد اغارة سريعة على ارض العدو ، اذ ان العمليات الحربية لم تنته الى أي حل عسكري . الا ان معاهدة الصلح ستوقع في النهاية في «غنت» في شهر كانون الاول .

انه لصلح غريب ، لا غالب ولا مغلوب فيه . صلح « وضع راهن » – ولكنـه يوطـد استقلال الجمهورية الكبرى التي لن يكون لاوروبا الحلف المقدس حق البحث في موضوعها مرّة اخرى . وقد عززت هذا الاستقلال تحقيقات الاستقلال الاقتصادي التي يعود الفضـل فيهـــا لتقـــدم الآلات الصناعية . وقد رافق كل ذلك انتشار الديموقراطية وتوسيـع حق التصويت في داخل الولايات .

خرجت الجمهورية معززة من الاحداث الخطيرة التي صمدت فيها في وجه اقوى دول الحلف الكبير ، وكأنها جدّدت شبابها برجوعها الى الاصول . فقد جاشت فيها قوى جديـدة ، نخص بالذكر منها وعياً قومياً ارفع سمواً تولّد من اخطار الحرب والتضامن الذي استلزمته . فكتب حينذاك احـــد محامي واشنطون الشباب « كي » ، « العلم المكوكب » . وباتجاه الجنوب ، في تلك القارة الاميركية التي أخذت تبـــدو وكأنها تعود كلّها الى الجمهورية ، ارتفعت نجوم

جديدة ايضاً .

الثورات اللاتينية

في الوقت نفسه الذي تخلخلت فيه الثورة في اوروبا وانطفأت ، اندلعت النار فجأة في كافة انحاء اميركا الشاسعة المستعمرة . فمن « لابلاتا » الى اسبانيا الجديدة» ومن «بونيوس ايرس» الى مكسيكو ردّدت حروب الاستقلال اللاتينية صدى حروب الاستقلال «الاميركية» . وبفضل هذه وتلك، وفي الشطر الاكبر من العالم الجديد، في الشمال وفي الجنوب ، ومن «الارجنتين» حتى الحدود الكندية ، خفقت في اوائل السنة ١٨١٤ ، على الرغم من بعض الهزائم المثيرة القلق ، الاعلام الدستورية او الجمهورية .

انبثقت الثورة من هيجان خواطر طويل الامد شمل اواسط السكان المولودين في المستعمرات وبورجوازية تضم اصحاب المغارس والتجار والمثقفين المنحدرين من أصل واحد . جلي ان هذه البورجوازية قد اكتهلت بحسب شرائعها الخاصة . فالمجتمع الاستعماري ، ولا سيما المجتمع الاميركي، قد اثار هنا بشكل فريد مشاكله الخاصة الناجمة عن الاعراق ، والطبقات ، والمدى الحيوي ، والانعزال . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان هذه « البورجوازية» قد وضعت هنا ، اكثر من أي مكان آخر ، قيودها الاوليغارشية . ولكنها ترعرعت ، في الواقع ، على غرار كافة بورجوازيات القرن . فبفضل الحركة التجارية وارتفاع الاسعار جمعت ثروات طائلة في وقت قصير جداً . ورافق هذا الاثراء المادي الاثراء الثقافي ووفرة الاتصالات في المدينة المتوسعة . فاستمالت من ثم اليها عدداً كبيراً من الخلاسيين والعبيد الجهلة . اجتمعت فيها ، في آن واحد ، الانوار ، والقوة الحقيقية ، والتصميم على التغيير. وجهت تفكيرها الفلسفة الفرنسية. اجتذبها مثل الثورتين الاميركية والفرنسية . واصلت تربيتها السياسية وجمعت خواصها في جمعيات سرية . انضم خلاسيون اثرياء الى المحافل الماسونية او تأثروا بتعاليمها : بوليفار ، الذي كان مكباً على قراءة مؤلفات جان-جاك ، وبلوتارك ، و «سان مارتين » ، و «مورينو» ، الذين سيلعبون ، مع «ميرندا» -صديق الجيرونديين وجندي السنة ١٧٩٢ - اكبر الادوار في الثورة الجديدة .

على غرار البورجوازيات الاخرى تطلعت « بورجوازية » اوائل القرن التاسع عشر الخلاسية ، بوعي متفاوت ، الى الاستيلاء على الدولة . اقصيت عن الوظائف الكبرى العامة في المستعمرات الاسبانية . ونُظر اليها كما الى عنصر اجتماعي من المرتبة الثانية ، بينما توطدت ثروتها ووعيها توطداً لم يعرفاه من قبل ، فابتغت ، في اعمق اوساطها تطوراً ، تحقيق دستور شبيه بالدستور الاميركي . واقتضت صوالحها الاقتصادية من جهة اخرى التخلص من الحرمان الذي يستهدفها ، اذ ان البلاد يجب ان تعيش لنفسها . فاتخذت صيغة التحرر ، التي ستستخدم لمنفعة الاوليغارشية الاستعمارية ، طابع الحرية والقومية . لن تلبث الكنيسة الكاثوليكية ان تنقسم بصدد هذه المسائل ، ولكنها اسهمت في البدء اسهاماً غير منتظر : اوغر صدرها إلغاء

جمعية اليسوعيين ، فقاومت في الخفاء السيطرة الاسبانية . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان أحداث اوروبا التي ستفضي الى الصراع الكبير ستسهم بعض الاسهام بدورها ايضاً . سيخطب المسكران ودّ المستعمرات التي ستساعدها او تشجعها انكلترا وفرنسا والولايات المتحدة على السواء ، فتجد في اتفاق الظروف هذا فرصة نادرة للتحرر .

البرازيل

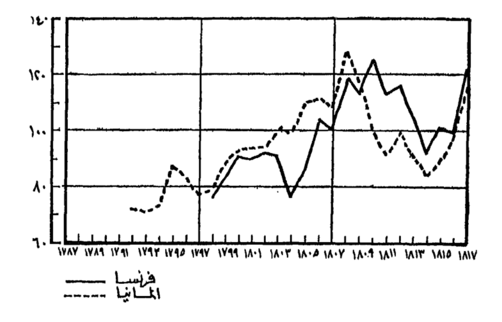
اصبحت البرازيل ، في شهر شباط ١٨٠٨ ، ملجأ العائلة المالكة الفارة امـــام جيش « جونو » . فقد اقام الوصي على عرش البرتغال الذي سيحمل اسم جان السادس بعـــد الحلول محل والدته المعتوهة — والبلاط وكبار موظفي الادارة في « ريو دي جانيرو » التي باتت بالفعل نفسه عاصمة دولة مستقلة عملياً . ومنذئذ ستيولى آل « براغنس » والسياسيون الذين تبعوهم حكم البـلاد لا بوصفها مستعمرة للاستثار ، بـل دولة يجب ان تؤمن حاجاتها وتعمل بنفسها . جهزوها على الطريقـــة الاوروبية بالوزارات والمحاكم والمدارس . وفتحت الموانىء للتجارة الخارجية ، ولا سيما التجارة الانكليزية والتجارة الاميركية . ووضعت اتفاقات جمركية حصلت انكلترا بموجبهـــا ، في شباط ١٨١٠ وكانون الاول ١٨١٢ ، على مركز ممتاز . فنجمت عن ذلك ، في شتى الميادين ، انطلاقـة مدهشة ستحول دون العودة فيما بعد الى الميثاق الاستعماري ، الذي ما كان الامير الوصي على العرش ولا المقربون اليـه ليرغبوا فيه . فقد بلغ من تعودهم حياتهم الجديدة ان اهملوا البرتغال بعد ان تخلى عنها نابوليون وقـد حافظت البرازيل على استقلالهـا الداخلي في السنة ١٨١٥ داخـل المملكة المتحدة التي ضمت البرتغال والبرازيل « والغارف » واعترف بها مؤتمر فيينّا . فلم يكن ما حدث ثورة حربية بل ما يشبه « ثورة قومية » .

انتفاضة المستعمرات الاسبانية

ولكن الإعداء الثوري تفشى في اميركا الاسبانية بنـــوع خاص على الرغم من الاحتياطات التسلطية الـــتي اتخذتها الحكومة . رفضت المستعمرات الاعتراف بـ « جوزف » في السنة ١٨٠٨ وانضمت الى فردينان السابع . الا انها ارادت ان تدير شؤونها بنفسها في اثناء منفى الملك وطالبت بالعودة الى التقاليد البلدية القديمة ، الى تلك الجمعية المحلية المفتوحة ابوابها ديموقراطياً للجميع . عارض المجلس الاسباني المركزي هذه المطالبة وعين للمستعمرات تمثيلاً ، يحمل على السخرية ، في مجلس الكورتيس الذي سينعقد في قادس . اثار الرفض حفيظـــة سكان المستعمرات على الاسبانيين في الوطن الام . فألف بوليفار واصدقاؤه والكاهن القانوني الشيلي « مادارياغا » ، بدورهم ، مجلساً اعترفت بسيادته كافة المجالس المحلية . طُرد نواب الملك او الضباط العامون ، خلال ايام ثورية نشيطة ، في فنزويلا ، وغرناطة الجديدة ، وبوينوس ايرس . وحدث مـــا حدث في بوينوس ايرس في « ٢٥ ايار » ١٨١٠ . وفي تموز اعلنت شيلي استقلالها . وفي كل مكان تقريباً اجتذب السكان المولودون في المستعمرات جماهير الخلاسيين الاول والعبيد الزنوج والهنود . فحدث الحدث المرغوب

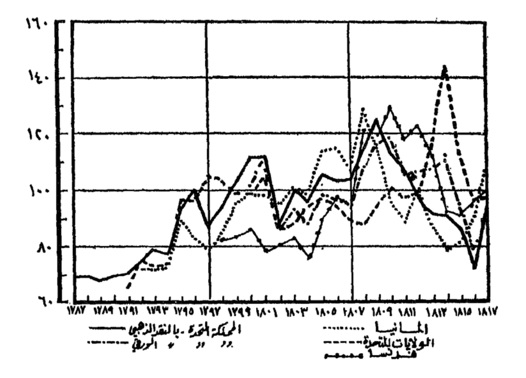
دونما مقاومة ، باسم حقوق الانسان والديانة الكاثوليكية .

ولكن هذه التباشير الاخوية ما لبثت ان بلغت اجلها . فبرزت المقاومة . ثم اتضحت معالم الصراع بين بورجوازية السكان المولودين في المستعمرات وطبقة « الموالين » اصحاب الامتيازات ، اعني بهم الموظفين الاسبانيين الذين يغارون على الاحتفــاظ بسلطتهم وممتلكاتهم ووظائفهم . انتصر الاحبار للموالين ، والاكليروس الادنى لخصومهم ، وانقسم الخلاسيون الأول والهنــود كذلك . وليس سوى الزنوج من اتجهوا دون تحفظ شطر ثورة هدفت في برنامجها الى الغاء الرق . توفق الموالون ، الذين ساندتهم عناصر هندية كثيرة وجيوش مرسلة من اسبانيا بعد اعــادة



الملكية القديمة ، الى التغلب على الحركة في اغلب الاحــيان . فاستردت « كيتو » في السنة ١٨١٢ ، كما ان فنزويلا ، الــتي اعلنت في السنة ١٨١١ دستوراً مقتبساً من دستور الولايات المتحدة ، والتي خلف فيهــا بوليفار اليعقوبي ميراند الجيروندي ، قد استعيدت السيطرة عليها في السنة ١٨١٥ . وفي اسبانيا الجديدة عرفت الثورة ، منــذ السنة ١٨٠٨ ، انتصارات وهزائم كثيرة تعاقبت تعاقباً مطرداً . ارتدى الصراع طابعاً خاصاً جداً وقد لعب فيه الهنود دوراً رئيسياً . ابصر النور دستور اعــدّه مؤتمر « شيلبنسينغو » . في السنة ١٨١٣ ، اعلن الاستقلال المكسيكي . ولكن وحدة عسكرية مؤلفة من ٨٠٠٠ جندي وصلت من اسبانيا . فسحقت الحركة ، وفي كانون الاول ١٨١٥ اعدم زعيم الحركة الكاهن موريلوس رميــاً بالرصاص . اما في الجنوب فقد صمدت بعض مناطق « لابلاتا » في مقاومتها . فأحرزت الثورة هنا نصراً حاسماً .

فـكان هذا النصر نموذجاً بعث في المناطق الاخرى آمالاً لن يفوت مصالح الولايات المتحدة السياسية والتجارية مساندتها . وربما مصالح انكلترا ايضاً . فاذا كانت المعاهدة التي وقعتهـــا مع اسبانيا في تموز ١٨١٤ قد حظرت عليها شحن الاسلحة بعد هذا التاريخ ، فهي قد احتفظت في هذه الاسواق الجديدة بمركز الدولة المفضلة . فهل ستعتمد سياسة تمليها عليها اسواقها ياترى؟ يجدر لفت النظر هنـا الى ان عملها ، وعمل الولايات المتحدة كذلك سيكون سهلاً : اذ ان من يسيطر على المحيط يسيطر على العالم الجديد . امام هذا العـالم الجديد ، الذي جاءت اعظم قواه



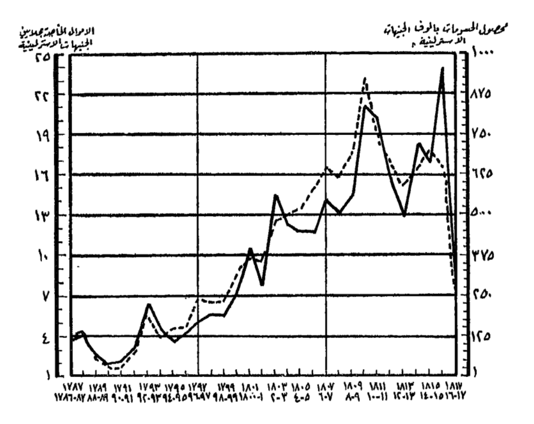
حيوية وكأنهـــا تناقض وتتحدى من الخارج قيم الحلف المقدس ، ليس مستبعداً ان تتخلخل الجبهة « الاوروبية » .

شمول
انطلاقة البورجوازية

وفي اوروبا نفسها ، من جهة اخرى ، كم من « مناقضات » ، صامتة ، ولكنها بالغـة الاهمية ، يبصرها من يقدر على ابصارها . لا ريب في ان الثورة المضادة قد انتصرت ، ولعل ما هو ادهى من ذلك ان شطراً من البورجوازية قد اسهم في هذا الانتصار . وان ضربة السنة ١٨١٥ القاضية قد تركت الشعوب عادمة الحركة والحياة . ولكن القوى التي قامت بالثورة ما فتئت تتعاظم .

ان امكانات قيام مجتمع عقاري وحضارة عقارية ولّى زمانها ، ما زالت مثاراً للسخرية بعد قيام الثورة الصناعية ، وان هـــذه الثورة التي بات بالامكان ، منذ السنة ١٨١٥ ، معرفة

اتجاهها الهادف الى ان يدخل على الحيـــاة ، وكأنه سيتحدى العصر الذي بدت فيه «الحركة» السياسية شبه مشلولة ، حركة «اقتصادية» لا تقاوم ستخدم ، اقله في البدء ، مصلحة القوة البورجوازية. اذا ما قورنت بالحضارة الزراعية او الريفية، بدت الحضارة التجارية والصناعية، منذ الآن ، حضارة سرعة في جوهرها : فقـد تزايد الانتاج والمقايضات والاستهلاكات ، في النظام الاخـير ، تزايداً اسرع منـه الى حد بعيد في النظام الاول . وسوف يزيد انتشار التقنيات الجديدة كثيراً من هذا التفوق الطبيعي . يضاف الى ذلك ان الاقتصاد «البورجوازي»



الجديد ، المتميز بمرونـة لم يعرفهـا الاقتصاد القديم ، قد تقـدم الاقتصاد العقاري المتصلب مسافات اكثر بعداً ايضاً . وهو سوف يجر ، في تقدم مشترك ، الفئة الناشطة التي تنظمه .

ان الثورة الصناعية ، المتميزة بجمعها الشامل بين الآلة البخارية والآلة الاداة ، ما زالت في اوائل عهدها على كل حال. فالانقلابات الدولية خلال السنوات الخمس والعشرين الاخيرة قـد اعاقت او اوقفت الشواغل التقنية التي اعارها القرن الثامن عشر اهتمامه . الا ان بعض النقاط قد رسمت . فقـد اقـيم اول مصنع بخاري في ملنشستر في السنة ١٨٠٦ . وتعاظم دور الآلة البخارية في صناعة استخراج المعادن وتنقيتها ومعالجتها ، ولا سيما على مقربة من افران تحويل الحديد المصبوب الى حديد وتصفيحه . وابتكر المهندسون الكثير من الآلات الادوات . منذ

السنة ١٨٠٣ حقق « هدلي » القاطرة، وفي السنة ١٨١٠ باشر ستيفنسون اعماله . حلت الخطوط المصنوعة من الحديد المصبوب محل الخطوط الخشبية المستخدمة لنقل الفحم المعدني في حوض « نيوكاسل ». كما ان الانارة بالغاز التي سوف تتيح وحدها استمرار عمل المصنع ليلاً نهاراً قد اعتمدت في لندن في السنة ١٨٠٧ في حي « بول مول ». ولكن الطاقة المائية هي دائماً ما يحرك الصناعة الكبرى ، باستثناء عمل المناجم .

مهما كان من طابع العظمة الذي بدت الآفاق القريبة مطبوعة به في السنة ١٨١٥ ، فان الشيء الأهم، منذ ربع القرن الاخير، لم يقم في جدة المستحدثات قيامه في ديمومة اتفاق الظروف، ولم يقم كذلك في تجدد الجهاز المنتج قيامه في ديمومة وتعزز الجو الاقتصادي الذي خلقه القرن الثامن عشر ، جو الاثراء ، والكسب الوافر ، واتساع البورجوازية ونضجها . اذا ما القينا نظرة على الرسوم البيانية المنشورة في الصفحات السابقة ، تبين لنا ان ارتفاع الاسعار ، الذي حدث قبل الثورة بزمن بعيد يستمر زمناً بعيداً بعدها ايضاً ، حتى حوالي السنوات ١٨١٠ – ١٨١٢ ، في العالم كله تقريباً . وكانت لهذا الارتفاع نتائجه الاعتيادية : ارتفاع غير متناسب في المكاسب ، ودفع الى الانتاج المطرد النمو ، وتوسيع في المقايضات، وتقدم عام في التجارة، الكبرى منها والصغرى على السواء . فالبائع يكسب من ثم في كل من الاسعار والكميات . وغالباً ما يسهل الكسب تضخم معتدل نسبياً، يشكل من جهة ثانية ضداً للنقد الذهبي المتداول في فرنسا . في السنة ١٧٩٧ حظر « قرار » التقييد على مصرف انكلترا تسديد دائنيه نقداً معدنياً . وما زال هذا القرار ساري المفعول في السنة ١٨١٥ . فالنظام النقدي انطوى عملياً على استحالة التحويل والسعر المفرط . تجاوز هبوط قيمة الجنيه الاسترليني الورقي ٢٥٪ في السنة ١٨١٤ . وفقد كل من الفلورين والروبل و « التاج » السويدي اكثر من نصف قيمته الاسمية . فتوجب اللجوء الى التضخم المالي لتأمين نفقات الحرب الضخمة في معظم البلدان . ووافق هذه الكوارث النقدية انتقال الثروات الى بائعي المحاصيل والمصنوعات وارباب المشاريع على اختلاف فئاتهم . وان في ارتفاع الحسوم البادي في الرسم البياني المنشور في الصفحة السابقة لخير تعبير عن ارتفاع حجم المعاملات في التجارة الانكليزية الكبرى . ويصح القول نفسه في مراكز البر الاوروبي الرئيسية . وهنا يبرز ما انطوت عليه المحاولة من مغايرة للصواب : فهي البورجوازية المتعاظمة ، والسائرة قدماً في نموها الاقتصادي، ما حاولت الحضارة الجددة الانتقاص من مقامها سياسياً واجتماعياً .

النظام البريطاني الحر

اضف الى ذلك ان صعوبات جمة قد تقوم بصورة مفاجئة . لا يمكن ان يعود التاريخ الى الوراء . فبعد ان تبلغ البورجوازية مستوى معيناً من الثقافة والوعي ، ستسير قدماً في طريقها الخاصة . ومهما كان موقف العالم القديم منها ، فهي تشكل عنصراً رئيسياً وثابتاً من عناصر المجتمع السياسي . ان لتفكيرها المستقل ومصالحها المستقلة وسائلها التعبيرية المستقلة ، وتعكسها صحف كثيرة واسعة الانتشار . في انكلترا ثماني

صحف يومية صباحية وثماني صحف اخرى مسائية ، من بينها الـ « تايمز » ، صحيفة الاعـلام الوزارية ، والـ « مورننغ كرونكل » ، لسان حال الهويغ ، والـ « مورننغ بوست » لسان حال التوري ، التي لا تقتصر على رواية تفاصيل الاحداث بل تنشر مقالات تتناول امهات المسائل . وبين المطبوعات الدورية مجلة « كووررترلي ريفيو » المحافظة نظيرة « مجلة ادنبره » التي أسسها الهويغ في السنة ١٨٠٨ . وقام في مدن كثيرة ما عرف بـ « نادي الكتـاب » . وتأسست نواد ثقافية ، شبيهة بالجمعيات الادبية والعلمية في لندن والعواصم الاقليمية . منذ ذاك الوقت ظهرت بوادر الاستعداد لفتنة « الاحرار » والراديكالين بعد صدور قانون السنة ١٨١٥ الذي اقر رفع قيمة مدفوعات الحنطة . فانضم « بنتام » الى الحركة المطالبة بالتخلي عن النظام الانتخـابي القديم . وفي كتابه « مبـادىء الاصلاح البرلماني » ، الموضوع منذ سنوات عدة ، اتهم الملك والاوليغارشية الحاكمة المحدودة العدد اللذين اعتبرا انفسهما الاوصياء على الأمة ، بتبذير اموال اليتيم القاصر .

بوادر النظام الحر في روسيا

ان بعض العناصر المنادية بالنظام الحر في بروسيا والنمسا ولا سيما في روسيا قد لحقت بالحركة من بعيد وبطرائقها الخاصة . فقد صدر في موسكـو « رسول اوروبا » لـ « كرامزين » و « الرسول الروسي » لـ « غلنكا » ، ومانزوني و « روح الصحف » . حد ارتفاع بدل الاشتراكات من عدد المشتركين ، ولكن عدداً من المعلقين تطوعوا للعمل في هذه المنشورات ، على غرار ما حدث في القرن الثامن عشر . فأسهمت الحروب ولا سيما الحرب الوطنية الكبرى في السنة ١٨١٢ ، في ايقاظ وعي الضبـاط والجنود والانصار السياسي . ومن ناحية أخرى اوسع نطاقاً ، تجلى للاشراف الروس وللعناصر المتقدمة في الجيش ، بفعل الغزو الغربي ، عالم جديد كله بعاداته وعلائقه الاجتماعية وافكاره .

الحركات القومية

وعلى صعيد آخر ايضاً ، قامت معارضة رهيبة كانت لها امكاناتها الكبرى . فالالمان والايطاليون لم يطيقوا نير النمسا بملء رضاهم ولم يخفِ « بالبو » ومانزوني و « غواراتسي » و « مسيمودازيليو » خيبة آمالهم . « لن نغدو احراراً ما لم نكن أمة واحدة » . وتحسروا على « فكرة المملكة الايطالية الحلوة » التي قال بها الفرنسيون . واستمرت المبـادىء الثورية في الاختمار في المحافل الماسونية . فتأسست جمعيات سرية منذ السنة ١٨١٥ ضمت الطلاب وقدامى ضباط الجيش الكبير قبل غيرهم . وأثار « ميلوخ اوبرينوفيتش » الصرب مرة أخرى على السلطان الذي اعترف باستقلالهم في السنة ١٨١٥ . وما لبثت ان اندلعت في اقصى البلقـان ثورة اعظم شأناً ستحظى بعضد البورجوازية اليونانية التي جمعت الثروات عن طريق التجـارة والحرف الصغرى . اجل لا يمثل النظام الحر في هذه الحركات المختلفة سوى قوة غير متساوية : ولكن الحركات القومية اخذت تهدد اوروبا الجديدة تهديداً مباشراً ، حتى حين كانت الحواجز قائمة بين الشعوب وبين هذا النظام .

وهكذا عملت في سبيل الثورة البورجوازية ، أو أقله ضد هذا العالم المجدد ، المعرض لشتى الاخطار ، اعظم قوى القرن التاسع عشر : الشعور القومي ، والحس الاجتماعي بما فيه الحس الطبقي البورجوازي بصورة خاصة . فهذا وذاك قد جعلا فرنسا منذ هذا التاريخ ترفع لواء الثورة الصامتة على معاهدات ومواثيق السنة ١٨١٥ . وسيحدث ان يجتمعا كلاهما في خارج فرنسا ايضاً . ومهما يكن من امر فانهما لن يتعارضا كما حدث ذلك احياناً من قبل . لقد رفع الحظر عن الهيمنة النابوليونية : ولم تعد الفلسفة الثورية لتبدو لاوروبا وكأنها فلسفة العدو ، أو كأنها فرقة خيّالة تهدد استقلال الشعوب . ولم تعد « الحركة القومية » ، أقله مؤقتاً ، مبطلة « للحركة الاجتماعية » .

البروليتاريا

وبات باستطاعة بورجوازية الثورة ، في وجه اوروبا السنة ١٨١٥ ، وفي وجه النظام القديم في ما مضى ، الاعتماد كذلك على قوة طبقة أخرى : البروليتاريا التي ما زالت ، مؤقتاً ، عنصراً رئيسياً من العناصر المرتبطة بها سياسياً .

بيد ان اختلافات خطيرة ، زادت من حدتها احداث ربع قرن كامل ، قد نشبت بين الطبقتين . لقد وعى كل منهما حقوقه . ولكن وعي البورجوازية ربما فاق وعي البروليتاريا . فالبروليتاريا وما اليها سيتحدان عند الحاجة في سبيل مقاومة العدو المشترك . أما البورجوازية فستثبت ، حتى في الصراع ، على حذرها وخوفها ، ذاك الخوف الاجتماعي القديم الذي بلغ اقصى حدوده خلال السنوات الثورية الاولى ، والذي شمل من جهة ثانية رجال التجديد الاوروبي انفسهم . وان في الشواعر التي اعرب عنها شاتوبريان في السنة ١٨١٥ في كلامه عن العامة — ذاك « الرعاع » المدعو للتداول « في وسط شوارع باريس » في المواضيع السياسية الكبرى ، و « اولئك الملوك شبه العراة الذين لوثتهم الفاقة وخبلتهم ، ومسختهم اعمالهم وشوهتهم ، والذين تقتصر فضيلتهم على سفه البؤس وكبرياء الرثاث » — تعبيراً تقريبياً عن حركة اجتماعية انعكاسية مشتركة بين توابع الاسياد على اختلاف مناشئهم . وليس شعور اوروبا الارستوقراطية القديمة بهذا الواقع أقل حدة : ودليلنا على ذلك في ذعر مترنيخ الذي تلمس « نزعة اشد خطراً من كل ما سواها » ، هي تلك التي « يستهدف التبشير بها إثارة الطبقات المعوزة على الملاكين » .

فاذا ما سوّي النزاع المزمن الذي يقوم بين البورجوازية والارستوقراطية تسوية نهائية ، وارسخ المجتمع الخالو من المراتب ، بات ممكناً حينذاك تنظيم مقاومة المجتمع الخالو من الطبقات مقاومة مشتركة .

وقد عبر اقتصاديو المدرسة الجديدة خير تعبير عن تصلب البورجوازية هذا . فان الوعي الطبقي والخطر المحدق بها قد امليا عليها هذا الموقف . ويُشاهد ذلك في المسافة التي تفصل بين « آدم سميث » و « تورغو » واعضاء لجنة التسول — وكلهم يطالب باتخاذ بعض التدابير للتعويض

على الفقراء ـ وبين « مالتوس » الهويفي الذي احترم جان ـ جاك منـــذ حداثة سنه والذي ستعرف مؤلفاته شهرة عظيمة :

« اذا ولد انسان في عـــالم سبق تملكه ، واذا لم يستطع الحصول من ذويه على الأود الذي يحق له مطالبتهم به ، واذا لم يكن المجتمع بحاجة لعمله ، فلا يكون له أي حق في المطالبـــة بادنى نصيب من الغذاء ، ويكون في الواقع عبئاً على المجتمع . لا مـكان له في وليمة الطبيعة الكبرى . الطبيعة تأمره بالذهاب ولن تتأخر عن تنفيذ اوامرها اذا لم يتمكن من استعطـاف بعض المدعوين الى الوليمة . واذا ما توانى هؤلاء المدعوون وافسحوا له مكاناً ، اسرع غيره من الدخلاء الى استجداء المنة نفسها . فمجرد سريان الخـــبر بان هناك اطعمة لكافة القادمين يملأ القاعة بمطالبين كثيرين . ومن ثم يضطرب نظام الولائم ، وتتحول البحبوحة الى عوز ، وتنهار سعادة المدعوين بمشهد البؤس والعسر اللذين يسودان كافة اجزاء القاعة ، وضجيج اولئك الهائجين بحق لانهم لم يجدوا الاطعمة التي تعلموا الاعتماد عليها. ويكتشف المدعوون متأخرين الخطأالذي ارتكبوه بمخالفتهم الاوامر المشددة التي تتناول الدخلاء والتي اصدرتهـــا السيدة الكبرى الداعية للوليمة » .

أجل ان هـــذا المقطع الذي نشر للمرّة الاولى في طبعة السنة ١٨٠٣ لـ « مبادىء السكان » والذي قامت حوله جدالات كثيرة ، قد حذف في النهاية ، من المؤلف . ولكن ليس تحت هذا الحذف كبير امر . فالفكرة راسخة ، وسوف تترك اثراً عميقاً في مجموع الاعيان البورجوازيين. الفقراء هم الاسباب الرئيسية لويلاتهم . فاليهم وحدهم يعود أمر معالجة ذلك بالتبصر والعفـــة وتحديد الجلس . ولن تخلو «المبادىء» من هذا التأكيد :

« يجب التبرؤ علناً من حق الفقراء المزعوم في ان يتولى المجتمع الانفاق عليهم » .

وليست المعضلة انكليزية فحسب . انها لمعضلة شاملة . فما العمل برب عائلة ، دهمته الازمـة وعجز عن توفير الغذاء لافراد عائلته ، ترى امثاله في كافة البلدان ؟

« لنسلم .. هذا الانسان الى العقوبة التي حكمت عليه بها الطبيعة .. عليه ان يعلم ان نواميس الطبيعة ، أي نواميس الله ، قد اصدرت عليه حكماً ان يعيش حياته بكد وعناء .. وان ليس له على المجتمع أي حق في الحصول منه على أي نصيب من الغذاء سوى ما يستطيع شراءه بعمله» .

أجل ليست البورجوازية كلها ما تتفوه بهذا الكلام القاسي . ولا رجال التجديد الاوروبي ايضاً . لا بل ان هذا الكلام يصدم اناساً كثيرين في هذه الأوساط المختلفة . ومع ذلك فان نجاح المدرسة الجديدة والعقلية الاجتماعية التي تمثلها كان باهراً جداً . هو « تفاؤل » « سميث » ما يميل الى الزوال ، وتشاؤم مالتوس ما يتصاعد ويرتقي . ومن مميزات هذا العصر ان مثل هذا التيار الفكري أخذ حينذاك يجد بيئته في كل مكان تقريباً ؛ وان الدلائل تشير الى انتشاره وسيطرته.

بيد ان المعاندين الذين سيعارضون على المبنى قبل المعنى كثيرون جداً . فللمالتوسية قيمتها،

في الدرجة الاولى ، اذا ما نظر اليها كما الى رمز ، او موقف، في وجه معضلات العمل الجديدة . فبينما نرى ان أية مدرسة لم تتهم بعد المجتمع الصناعي الناشىء — اذ ان « المبادىء الجديدة للاقتصاد السياسي » لـ « سيسموندى » لن تصدر الا في السنة ١٨١٩ — ، وان مطاليب البروليتاريا لم تصغ بعد بتعابيرها الحديثة ، أخذ تيار الفلسفة البورجوازية، المتسع أكثر فأكثر يوماً بعد يوم ، يتبنى ، في وجه البروليتاريا ، قيم المنع والسمو في الفلسفة التجديدية . أجل ليس هذا القول بالجديد . فان المدرسة المسيطرة في القرن الثامن عشر قد نظرت الى اجهزة الانتاج والمقايضات كما الى طبقات ازلية ، صادرة عن العناية الالهية . ولكن التشديد الكلّي يتناول الآن ظواهر التوزيع . فهو توزيع الدخل الاجتماعي ما تفكر به المدرسة المسيطرة بتعابير الازلية والوجوب . رأيناها اعلاه تستشهد « بنواميس الطبيعة » و « نواميس الله » ضد مبدأ التدخل الاجتماعي ، على غرار « دي ميستر » و « بونالد » و « هالر » وغيرهم على الصعيد السياسي . البورجوازية توجه على غير علم منها الى البروليتاريا الكلام الذي يوجهه المجتمع التقليدي الى البورجوازية . فيستنتج من ثم ان التقليدية السياسية والتقليدية الاجتماعية ترتكزان من بعض الأوجه الى القواعد نفسها .

واذا صح ان رفض الحركة ورفض التاريخ ظاهرة التقدم في السن ، فان بورجوازية السنة ١٨١٥ الاوروبية قد اصيبت منذ ذاك التاريخ بهذا الداء الخفي . فالميل الحقيقي الى الزوال يبتدىء بالنسبة لها قبل ان تبلغ القمة في تصاعدها .

التوجيه البيبليوغرافي

لا مجال هنا لايراد مراجع تاريخ القرن الثامن عشر والثورة والامبراطورية الاولى بالتفصيل. فبالامكان طلبها في الكتب المدرسية المعدّة لطلاب التعليم العالي من مجموعة :

(P.U.F.) «Clio»

Ed. PRECLIN et V-L. TAPIE, t. **VII, Le XVIIe siècle**, 1952, 2 vol.

Louis Villat, **t. VIII, La Révolution et l'Empire**, 1947, 2 vol.

:«Peuples et Civilisation»

P. MURET et Ph. SAGNAC, **t. XI, La Prépondérance Anglaise (1715-1763).**

Ph. SAGNAC, **t. XII, La Fin de l'Ancien Régime et la Révolution Américaine (1763-1789)**, 1952.

G. LEFEBVRE, **t. XIII, La Révolution Française**, Nouv. Ed., 1951.

G. LEFBVRE,**t. XIV, Napoléon**, 1953.

ولكننا سنورد فيما يلي، بالاضافة الى ذلك، بعض اهم المؤلفات، لا سيما الفرنسية منها، التي تصلح عند الحاجة للمطالعات التكميلية.

١ ــ تطورات الثورة الفكرية

P. BRUNET, **L'Introduction des théories de Newton en France au XVIIIe siècle, 1**, Paris, Blanchard, 1931; **Les physiciens hollandais et la méthode expérimentale en France au XVIIIe siècle**, Paris, Vrin,1926; **La vie et l'œuvre de Clairaut**, Paris, P.U.F. 1952.

R. TATON, **l'Oeuvre scientifique de Monge**, Paris, P. U. F., 1951.

M. DUMAS, **Les Instruments scientifiques aux XVIIe et XVIIIe siècles**, Paris, P.U.F., 1953.

Centre international de synthèse, **l'Encyclopédie et le progrès des sciences et des techniques**, Paris, P.U.F., 1952.

M. DUMAS, **Lavoisier**, Paris, Gallimard, 1941.

E. GUYENOT, **L'Evolution de la pensée scientifique. Les sciences de la vie aux XVIIe et XVIIIe siècles**, L'Evolution de l'Humanité»., N°. 68, Paris, Albin-Michel, 1941.

R. MOUSNIER, **Progrès scientifiques et techniques au XVIIIe siècle**, Paris, Plon, 1958.

P. HAZARD, **La Pensée Européenne au XVIIIe siècle**, Paris, Boivin, 1946.

D. MORNET, **Les Origines intellectuelles de la Révolution française**, Paris, A. Colin, 1947.

P. WEULERSSE, La Physiocratie sous les ministères de Turgot et de Necker (1774-81), Paris P.U.F., 1950.

J.J. SPENGLER, Economie et Population. Les Doctrines françaises avant 1800, I, de Budé à Condorcet, Inst. Nat. d'Etudes Démographiques, Travaux et Documents, N° 21, Paris P.U.F., 1954.

٢ ــ الثورة التقنية

P. MANTOUX, The Industrial Revolution in the eighteenth century, 17° éd. Londres, Jonathan Cape, 1952.

T.S. ASHTON, La Revolution Industrielle (1760-1830), trad. F. Durif, Paris, Plon 1955.

A. et L. CLOW, The Chemical Revolution, 1952.

G. LEON, La Naissance de la Grande Industrie en Dauphiné, I, Paris P.U.F. 1954.

H. SEE, Les Origines du Capitalisme Moderne, Paris, A. Colin, 1926; Histoire Economique de la France (avec compléments par R. SCHNERB), I, Paris, A. Colin, 1939.

R. BIGO, Les Bases Historiques de la France Moderne, Paris, Société d'Editions Géographiques, Maritimes et Coloniales.

Ch. de LA RONCIERE et G. CLERC-RAMPAL, Histoire de la Marine Française, Paris, Larousse, 1934.

S. T. MAC CLOY, French Inventions of the eighteenth century, Lexington, University of Kentucky Press, 1951.

O. FESTY, L'Agriculture pendant la Révolution française, Paris, Gallimard, 1947.

E. JUILLARD, La Vie Rurale dans la Plaine de Basse-Alsace, Paris, Les Belles-Lettres, 1953.

٣ ــ استحالة قيام الامة الاوروبية

L. REAU, L'Europe Française au siècle des lumières, «L'Evolution de l'Humanité», N° 70, Paris Albin- Michel, 1938.

A. SOREL, l'Europe et la Révolution Française, I, Paris, Plon, 1885.

F. BRUNOT, Histoire de la Langue Française, VI, Le XVIIIe siècle, Paris A. COLIN, 1930-1933.

H. LAVEDAN, Histoire de l'Urbanisme, II, Paris, Laurens, 1941.

L. HAUTECOEUR, Histoire de l'Architecture Classique en France, III, Le Style Louis XV, IV, Le Style Louis XVI, Paris, Picard, 1952.

J. COMBARIEU et R. DUMESNIL, Histoire de la Musique, II, XVIIe-XVIIIe siècles, nouv. éd;, Paris A.Colin

A. LORTHOLARY, Le Mirage Russe en France au XVIIIe siècle, Paris Boivin, 1951.

J. FABRE, Stanislas-Auguste Poniatowski et l'Europe des lumières, Paris Les Belles-Lettres, 1952.

G. ZELLER, Les Temps Modernes, II, De Louis XIV à 1789, «Histoire des Re-

lations Internationales» publié sous la direction de P. RENOUVIN, t. III, Paris, Hachette, 1955.
P. GAXOTTE, **Le Siècle de Louis XV**, «Les Grandes Etudes Historiques», Paris, A. Fayard.
A. de TOCQUEVILLE, **l'Ancien Regime et la Révolution Française**, Paris, Gallimard, 1952.
PH. SAGNAC, **La Formation de la Société Française Moderne, II**, Paris, P.U.F. 1946.
C. E. LABROUSSE, **La Crise de l'Economie Française à la fin de l'Ancien Régime et au début de la Révolution**, Paris, P.U.F., 1943.
M. BLOCH, **Caracteres Originaux de l'Histoire Rurale Française**, Paris, A. Colin, 1952.
F. OLIVIER-MARTIN, **L'Origanisation Corporative de la France d'Ancien Regime**, Paris, Sirey, 1938; **Histoire du Droit Français**, Paris, Domat-Moutchrescien, 1948.
J. EGRET, **Le Parlement de Dauphiné**, Paris 1942.
H. FREVILLE, **L'Intendance de Bretagne**, Rennes, Plihon, 1953.
A. V. DICEY, **Introduction à l'Etude du Droit Constitutionnel Anglais**, Paris, Giard, 1902.
H. BUTTERFIELD, **George III, Lord North and the People**, London, 1949.
R. PARES, **King George III and the Politicians**, Oxford, Clarendon Press, 2ème Ed., 1964.
P. GAXOTTE, **Frédéric II**, «Les Grandes Etudes Historiques», Paris, A. Fayard.
W. L. DORN, **The Prussian Bureaucracy in the Eighteenth Century**, Political Science Quarterly, XLVI, 1931, p. 402-423, XLVII, 1932, p. 75-94, 259-273.
R. MINDER, **Allemagne et Allemands, I**, Paris, Coll. Esprit, Frontière Ouverte, 1948.
E. J. HAMILTON, **War and Prices in Spain (1651-1800)**, Cambridge (Mass.) Harvard University Press 1947.
R. PORTAL, **L'Oural au XVIIIe siècle**, Limoges, Bontemps, 1950.
L. JUST, **Der Aufgeklärte Despotisums**, Darmastadt, Hacfeld, s.d.

٤ ــ علائق اوروبا بالعالم

H. DESCHAMPS, **Méthodes et Doctrines Coloniales de la France**, Paris, Colin, 1953.
GASTON-MARTIN, **Histoire de l'Esclavage dans les Colonies Françaises**, Coll. «Colonies et Empires», Paris, P.U.F., 1948; **L'Anti-colonialisme au XVIIIe siècle**, «Colonies et Empires», Paris P.U.F., 1951.
R. GROUSSET, **La Chine**, «Les Grandes études Historiques », Paris A. Fayard, 1942.
M. EBERHARD, **Histoire de la Chine**, Paris, Payot, 1952.
G. MASPERO et J. ESCARRA, **Les Institutions de la Chine**, Paris, P. U. F., 1952.

V. PINOT, **La Chine et la Formation de l'Esprit Philosophique en France,** Paris, Geuthner, 1932.
A. H. ROWBOTHAM, **Mossionary and Mandarin. The Jesuits at the Court of China,** Los Angeles, University of California Press, 1942.
H. CORDIER, **La Chine en France au XVIIIe siècle,** «B. i. des Curieux et des Amateurs», Paris, Laurens, 1910.
W. W. APPLETON, **A cycle of Cathay. The Chinese Vogue in England during the seventeeth and eighteenth centuries, New York,** Columbia University Press, 1951.
B. WLADIMIRTSOV, **Le Régime Social des Mongols. Le Fédéralisme Nomade,** Paris, Maisonneuve 1948.
SANSOM, **Le Japon,** Paris, Payot 1938.
H. A. R. GIBB et H. BOWEN, **Islamic Society and the West, I. Islamic Society in the eighteenth century, Part I, Oxford** University Press, 1950.
R. C. MAJUMDAR et H. C. R. CHAUDHU et KALIKINDAR DATTU, **An Advanced History of India, II,** London, Macmillan 1949.
P. SPEAR, **Twilight of Mughuls .. Studies in Late Mughul Delhi,** Cambridge University Press, 1951.
Ch. A. JULIEN, **Histoire de l'Afrique du Nord,** 2ème Ed., II, revu par LETOURNEAU, Payot, 1952.
G. HANOTAUX, **Histoire de la Nation Egyptienne, V, Paris, Plon, 1934.**
M. DELAFOSSE, **The Negroes of Africa,** Washington, The Associated Publishers, 1932.
H. LABOURET, **Histoire des Noirs d'Afrique,** Paris P. U. F. 1946.
G. HARDY, **Histoire d'Afrique,** Paris A. Colin, 1930; Nos Grands Problèmes Coloniaux, Paris, Colin, 1928.
A. BALLESTEROS BERETTA, **Historia de America, XIII, Los Virreinatos en el Siglo XVIII,** par C. ALCAZAR MOLINO, Madrid, Salvat, 1945.
R. PARES, **War and Trade in the West India,** Oxford, Calarendon Press, 1936.
A. MARTINEAU et L. Ph. MAY, **Trois Siècles d'Histoire Antillaise,** Paris Leroux, 1935.
D. PASQUET, **Histoire Politique et Sosiale du Peuple Américain, I,** Paris, Picard, 1924.
E. PRECLIN, **Histoire des Etats-Unis,** Paris, Colin, 1937.
E. H. BELDT, **American History and American Historians,** London, The Athlone Press, 1952.
M. GIRAUD, **Le Métis Canadien,** Paris, Institut d'Ethnologie, 1945.
TRUDEL. M. **Louis XVI, Le Congrès Américain et le Canada,** Publ. de l'Université. Laval, Québec, 1949.
Cl. de BONNAULT, **Histoire du Canada Français** «Colonies et Empires», Paris, P. U. F., 1950.

٥ — الثورة والامبراطورية

J. JAURES, **Histoire Socialiste,** Paris, Librairie de l'Humanité, nouv. Ed. par A. MATHIEZ, 1922-1924, 8 vol.

M. DESLANDRES, **Histoire Constitutionnelle de la France de 1789 à 1870,** t. I, Paris, Sirey, 1932.
J. GODECHOT, **Les Institutions de la France sous la Révolution et l'Empire,** Paris, P. U. F. 1951.
D. MORNET, **Les Origines Intellectuelles de la Révolution Française,** Paris, A. Colin, nouv. Ed. 1947.
B. FAY, **L'Esprit Révolutionnaire en France et aux Etats-Unis à la fin du XVIII siecle,** Paris H. CHAMPION, 1924.
M. MARION, **La Vente des Biens Nationaux,** Paris, H. Champion, 1909.
G. LEFEBVRE et A. TERRAINE, **Recueil des Documents Relatifs aux Séances des Etats-Généraux,** t. I, Paris C. N. R. S., 1953, in 8°.
G. DEBIEN, **Les Colons de St. Domingue et la Révolution,** Paris, A. Colin, 1953.
G. LEFEBVRE, M. BOULOISEAU, A. SOBOUL, **Discours de Robespierre, t. I, II, III,** Paris P. U. F., 1950-54.
G. LEFEBVRE **Questions Agraires au Temps de la Terreur,** nouv. Ed., La Roche-sur-Yon, H. Poitier, 1954.
G. LEFEBVRE, **Etudes sur la Révolution Française,** Paris, P.U.F. 1954.
G. LEFEBVRE, **Les Paysans du Nord Pendant la Révolution Française,** Lille, Giard, 1924, 2 vol.
G. LEFEBVRE, **La Grande Peur de 1789,** Paris A. Colin, 1932.
G. LEFEBVRE, **Quatre Vingt Neuf,** Paris, Maison du Livre Français, 1939.
A. MATHIEZ, **La Révolution Française,** 3 vol. Coll. A. Colin, Paris A. Colin, 1922-1927.
G. LEFEBVRE, **Les Thermidoriens,** Coll. A. Colin, Paris A. Colin, 1937.
G. LEFEBVRE, **Le Directoire,** Coll. A. Colin, Paris, A. Colin, 1946.
A. MATHIEZ, **La Vie Chère et le Mouvement Social sous la Terreur,** Paris, Payot, 1927.
J. EGRET, **La Révolution des Notables,** Mounier et les Monarchiens, 1789, Paris, Colin, 1950.
A. LATREILLE, **l'Eglise Catholique et la Révolution Française,** 2 vol. Paris, Hachette, 1946 et 1950.
A. CHABERT, **Essai sur le Mouvement des Prix et des Revenus en France de 1798 à 1820,** Paris, Lib. de Médecis, 1945-1949, 2 vol.
L. DUBREUIL, **Histoire des Insurrections de l'Ouest,** Paris, P. U. F. 1929, 2 vol.
J. BOUCHARY, **Les Manieurs d'Argent à la fin du XVIIIe siècle,** Paris, Rivière, 1939-1949, 3 vol.
E. VINGTRINIER, **Histoire de la Contre-Révolution,** Paris, Emile-Paul 1924-1925, 2 vol..
Chanoine J. LEFLON, **La Crise Révolutionnaire, Histoire de l'Eglise** par FLICHE et MARTIN, t. XX, Paris, Bloud et Gay, 1949.
P. CARON, **Les Massacres de Septembre,** Paris, Maison du Livre Français, 1936.
P. CARON, **La Première Terreur (1792), I : Les Missions du Conseil Exécutif**

Provisoire et de la Commune de Paris, Paris, P. U. F., 1950.
M. DOMMANGET, **Babeuf et la Conjuration des Egaux**, Paris, Lib. de l'Humanité, 1922.
M. REINHARD, **Le Grand Carnot, t. I**, Paris, Hachette, 1950.
A. FUGIER, **La Révolution Française et l'Empire Napoléonien**, «Histoire des Relations Internationales» publiée sous la direction de P. RENOUVIN, t. IV, Paris Hachette.
R. GUYOT, **Le Directoire et la Paix de l'Europe**, Paris, P. U. F., 1911
E. HALEVY, **Histoire du Peuple Anglais au XIXe siècle, t. I**, Paris, Hachette, 1913.
J. DROZ, **l'Allemagne et la Révolution Française**, Paris, P. U. F., 1949.
J. DESCHAMPS, **Les Iles Britanniques et la Révolution Française**, Bruxelles La Renaissance du Livre, 1949.
P. MILIOUKOV, **Histoire de Russie, t. II**, Paris P. U. F., 1933.
P. VERHAEGEN, **La Belgique sous la Domination Française**, Bruxelles, Goemare, Paris, Plon, 1922-1929, 4 vol.
H. PIRENNE, **Histoire de Belgique, t. V**, Bruxelles, Lamertin, 1921.
A. FUGIER, **Napoléon et l'Espagne**, Paris, P. U. F. 1930, 2 vol.
J. MANCINI, **Bolivar et l'Emancipation des Colonies Espagnoles des Origines à 1815**, Paris, Perrin, 1912.
F. CHARLES-ROUX, **L'Angleterre et l'Expédition d'Egypte**, Le Caire, Soc. Géogr. 1925, 2 vol..
A. LATREILLE, **Napoléon et le Saint-Siège (1801-1804)**, Paris, P. U. F., 1935.
G. SIX, **Dictionnaire Biographique des Généraux et Amiraux Français de la Révolution et de l'empire (1792-1814)**, Paris, Bordas, 1934-1935, 2 vol.
A. ROBERT, **L'Idée Nationale Autrichienne et les Guerres de Napoléon**, Paris, P. U. F., 1933.
F. BALDENSPERGER, **Le Mouvement des Idées dans l'Emigration Française**, Paris, Plon, 1925, 2 vol.

مـــراجـع عربيـــة

استكمالاً لجريدة المصادر الفرنجية وتتمة للبحث ، رأت « دار منشورات عويـــدات » في بيروت ، تكليف الاستاذ يوسف اسعد داغر ، الاختصاصي بفن المكتبـــات والخبير العالمي بالبيبليوغرافيا الشرقية من عربية واسلامية ، وبالتوثيق العلمي ، وأحد المترجمين لهذه الموسوعة التاريخية ، إعداد قائمة ببليوغرافية بالمراجع والمصادر التاريخية العربية التي تتعلق بأهم مـواد هذا الجزء الخاص بتاريخ العالم بين ١٧١٥ – ١٨١٤ . وقد نزل الاستاذ داغر عند رغبتنا هـذه فأعد هذه القائمة خدمة للبحث العلمي وتيسيراً لاسبابه وللعاملـــين في مجـال البحث في عالم الضاد ممن يهتمون بالدراسات التاريخية العائدة لهذه الحقبة المهمة من التاريخ العام .

فعسى ان يجد الباحثون في هـــذه القوائم المختارة ما يغني بعض الشيء عن جهد التقصي والتفميش ..

منشورات عويدات

اوروبا في القرن الثامن عشر

فيليب ميرزا – التاريخ العام للكليات والمدارس العالية، الجزء الثالث : التاريخ الحديث – بيروت ، المطبعة الاميركية ١٩٢٩ ، ص ٤٠١ – ٦٤٢ .

نهاد رضا – الادب الثوري في القرن الثامن عشر – بيروت،دار مكتبـة الحيـــاة ، ١٣٤ ص – مراجع ، ص ١٢٨ – ١٢٩ .

هيز – كارلتون جوزف – الثورة الصناعية ، ترجمة احمد عبد الباقي – بغداد ، مكتبة المثنى ، ١٩٥٠ ، ١١١ ص .

الهنـــد

ابو الليل – محمد مرسى – الهند : تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها – القاهرة مؤسسة سجل العرب ، ١٩٦٥ ، ٢٨٦ ص – صور وخرائط .

الحسني ، عبد الحي – الثقافة الاسلامية في الهند . معارف العوارف في انواع العـــلوم والمعارف – دمشق ، المجمع العلمي العربي ، ١٩٥٨ ، ٣٥٧ ص .

الساداتي ، احمد محمود ـ تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم ـ القاهـــرة ، وزارة التربية والتعليم ، جزآن ١٩٥٢ .

لوبون ، غوستاف ـ حضارة الهند ، ترجمة عادل زعيتر ـ مصر ، مطبعة دار إحيـــاء الكتب العربية ، ١٩٤٨ ـ ٧٣١ ص ، مع خرائط.

محمود ، احمد عبد المنصف ـ في بلاد البقرة المقدسة ـ القاهـــرة ، دار الكتاب العربي، لا. ت. ١٥٤ ص ـ صور .

موداك ، مانورافا ـ الهند : شعبها وارضها . ترجمة محمد عبد الفتاح ابراهيم ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٤ ، ٢١٧ ص.

النمرة ، عبد المنعم ـ تاريخ الاسلام في الهند ـ القاهرة ، دار العهد الجديد ١٩٥٩، ٤٨١ ص ـ صور ، خرائط.

الثورة الفرنسية والعهد النابوليوني

جلال حسن ـ حياة نابوليون ـ مصر ، مطبعة الاعتماد ، جزآن ـ مع صور.

الحويك ، الياس طنوس ـ تاريخ نابوليون الاول ـ القاهرة ، مكتبة زيدان العمومية ، ١٩٣١ ، ٣ اجزاء .

رفعت ، محمد ـ تاريخ مصر السياسي في الأزمنة الحديثة ـ القاهـــرة ، مطبعة الشعب ١٩٢٠ ـ مراجع .

شكري ، محمد فؤاد ـ الحملة الفرنسية وظهور محمد علي ـ القاهرة مطبعـــة المعارف ومكتبتها ، ١٩٣٠ ، ٣٥٦ ص .

العودات ، يعقوب ـ اسلام نابوليون ـ عمان ، لا. ت. ٦٩ ص .

عوض ، احمد حافظ ـ فتح مصر الحديث او نابوليون بونابرت في مصر ، القاهـــرة ، مطبعة مصر ، ١٩٢٥ ، ٤٣٨ ص.

كابانيس ، اوغستين ـ حول سرير الامبراطور . نقله بتصرف نقولا فياض القاهرة ،دار الهلال ، ١٩٢٦ ، ١٢٨ ص ـ صور.

لودفيغ ، اميل ـ نابوليون ، ترجمة محمود ابراهيم الدسوقي ـ القاهـرة ، دار الكتاب المصري ، ١٩٤٦ ، جزآن.

كاليفاريس ، لويس ـ سيرة نابوليون الاول ـ ١٨٥٦ ، ٥٨٤ ص .

لوبون ، غوستاف ـ روح الثورات والثورة الفرنسية ـ ترجمة عادل زعيتر ـ القاهـرة ، المطبعة العصرية ، ١٩٣٤ ، ١٨٣ ص.

ليفي ، ارثور ـ النسر الاعظم او نابوليون الاول ، ترجمة يوسف البستاني القاهـــرة ، مطبعة الهلال – ١٩١٣ ، ٩٨ ص.

يين ، انطوان – نابوليون : أحدث تاريخ له – بيت شباب ، مطبعة جريدة العـــلم ، ١٩٢٦ ، ٢٢٢ ص.

التيار الفلسفي

الحاج ، كمال يوسف – رنيه ديكارت ، ابو الفلسفة الحديثة – بيروت ، دار مكتبـة الحياة ، ١٩٥٤ ، ٢٦٨ ص.

الحاج ، كمال يوسف – مدخل الى فلسفة ديكارت ، مع ترجمة التأملات – بيروت ،دار منشورات عويدات ، ١٩٦١ ، ١٩١ ص.

اوروبا ، تاريخها الحديث

الاسكندري ، عمر وحسن سليم – تاريخ اوروبا الحديثة وآثار حضارتها – مصـــر ، مطبعة المعارف ، ١٩٢٠ – ١٩٢٢ ، جزآن ، رسوم – خرائط.

حداد ، جورج مرعي – تاريخ اوروبا والمسألة الشرقية في الازمنة الحديثة – (١٧٨٩– ١٨٤٨) – حلب ، المطبعة الوطنية ، ١٩٣٥ ، ٢٥١ ص.

سلطان ، عثمان – التاريخ السياسي – دمشق ، مطبعة الترقي ١٩٢٥ .

فيشر ، هربرت البرت – تاريخ اوروبا في العصر الحديث ، ترجمة احمد نجيب هـــاشم ووديع الضبع ـ القاهرة ، دار المعارف ١٩٤٦ ، ٦٦٩ ص ـ خرائط .

قاسم ، احمد واحمد نجيب ـ التاريخ الحديث والمعاصر – القاهرة ، دار المعارف ١٩٦١ ١٥٦ص – صور وخرائط.

الصـــين

تواضع ، محمد – الصين والاسلام ـ القاهرة ، دار الطباعة والنشر الاسلاميـة ١٩٤٥ ، ٢١٠ ص – خريطة .

حي الصيني – بدر الدين ، العلاقات بين العرب والصين – القاهرة ، مكتبة النهضـــة المصرية ، ١٩٥٠ ، ٣٢٠ص – صور .

السيرافي،حسن،رحلة السيرافي الى الهند والصين واليابان واندونيسيا سنة ٨٥١م ـبغداد، دار منشورات البصري ، ١٩٦٢ ، ١١٢ص.

روسيا

بيدش ، خليل ابراهيم — العقد النظيم في اصل الروسيين واعتناقهم الايمان القديم — بعبدا ، المطبعة العثمانية ، ١٨٩٧ ، ١٦٠ص.
خرباوي ، الخوري باسيليوس — تاريخ روسيا منذ نشأتها الى الوقت الحاضر نيويورك ، ١٩١٤ ، ٧١٨ ص.
سليم قبعين— سياحة في روسيا — مصر.
نخلة قلفاط — تاريخ روسيا الحديث — بيروت ١٨٨٦ ، في ٤ اجزاء
نخلة قلفاط — تاريخ بطرس الاكبر — بيروت ، ١٨٨٥ .
حسن لبيب — تاريخ المسألة الشرقية — القاهرة ، مطبعة الهلال، ١٩٢١ ١٢٠ ص.
وهبي تادرس — الاثر النفيس في تاريخ بطرس الاكبر ومحاكمة الكسيس — بولاق ، ١٩٠٤ ، ١٦٠ ص .
فولتير — الروض الازهر في تاريخ بطرس الاكبر ، ترجمة احمد عبيد الطهطاوي بولاق، ١٢٦٦ ، ٢٤٨ص.
مؤلف مجهول — كاترين الثانية — مصر ، ادارة الهلال ١٩٢٢ ، ٥٩ ص .
شارل ، ريمون — الهلال الشهيد . مصير الاسلام في ظل الانظمة القيصرية والسوفياتية، المعهد الدولي للبحوث والدراسات الشرقية ، ١٩٦٣ ، ٢٣٦ ص.

البرتغال والبرازيل

عبد الهادي ، محمد هنائي — نهاية الاستعمار البرتغالي — القاهرة الدار القومية للطباعة والنشر ، لا. ت ، ٢٠٢ ص.
اطلس ، جورج ميخائيل — تاريخ البرازيل — سان باولو ، دار الطباعة والنشر العربية ١٩٤٦ ، ١٨٠ ص .

العلم والحركة العلمية

كونانت ، جيمس بريانت — مواقف حاسمة في تاريخ العلم ، ترجمة احمد زكي —القاهرة، دار المعارف ١٩٥٤ ، ٥١٦ ص .
مرتز ، جون ثيودور — نزعة الفكر الاوروبي في القرن التاسع عشر — القاهرة ، مطبعة جريدة الصباح ، ١٩٢٣ ، ٩٠ ص.
منتصر ، عبد الحليم — تاريخ العلم ودور العلماء في تقدمه ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٦ ، ٢٨٣ص .

الولايات المتحدة الاميركية

جيمس ، برستون آي ـ ملحمة اميركا الشمالية . ترجمة جورج قاعي ـ بيروت، المؤسسة الشرقية ، لا ت. ، ٢٠٨ ص.

حداد ، يوحنا ـ تاريخ العالم الجديد ـ بيت شباب، مطبعة العلم، ١٩٥٢ ، ٣٥٤+١٢٨ص.

دجلاس ، وليم ـ وثيقة حية للحقوق . ترجمة يوسف شاهين ـ القاهرة ، دار الكرنك ١٩٦٥ ، ٨٣ ص.

زيادة ، فرحات وابراهيم فريجي ـ تاريخ الشعب الاميركي ، برنستون ، مطبعة جامعة برنستون ١٩٤٦ ، ٣٤٦ ص ـ صور ـ خرائط.

كويل ، دافيد بوشمان ـ النظام السياسي في الولايات المتحدة . ترجمة توفيق حبيب ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٥٥ ، ٣٢٠ص.

ليسي ، دان ـ الثورة الاميركية : دوافعها ومغزاها . ترجمة سامي ناشد ـ القاهرة ، مؤسسة سجل العرب ١٩٦٦ (١٩٤٦) ـ مجلدان .

مايز ، فيكتور ـ معركة السفينة ، ترجمة صبحي الجيار ـ القاهرة دار النهضة العربية ١٩٦٢ ، ٣٢٩ ص ـ صور .

هاملتون، الكسندر ـ الدولة الاتحادية: اسسها ودستورها. ترجمة محمد احمد ـ بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٥٩، ٦٨٨ص.

١٧١٥ – ارتقاء لويس الخامس عشر العرش « ١ – ٩ » – وصاية دوق اورليان « ٢ – ٩ » – تنظيم *Plysynodie* – انشاء هيأة مهندسي الجسورة والطرقات – فنيلون : رسالة الى الاكاديمية .

١٧١٦ – بطر سبورج عاصمة بطرس الاكبر – انشاء مصرف لو « ٢ – ٥ » – مرسوم السباعية *Septennalité* في انكلترا « ٧ – ٥ » – ألبروني رئيس الوزراء عند فيليب الخامس .

١٧١٧ – حلف لاهاي الثلاثي « ١١ – ١ » – بطرس الاكبر في باريس « شهر ايار » – انشاء شركة الغرب الفرنسية « آب » – استيلاء الامير اوجين على مدينة بلغراد « آب »

١٧١٨ – معاهدة بساروفتز « او معاهدة بوجارفتز » بين الامبراطور وتركيا « تموز » – التنازل عن ولاية بوليسنوديا « ايلول » – وفاة شارل الثاني عشر « ٣٠ – ١١ » – مصرف لو يصبح المصرف الملكي « ٧ – ١٢ » – انشاء مدينة اورليان الجديدة –

١٧١٩ – الغاء فريدريك غليوم الاول عبودية الفلاحين في اراضي النبلاء –بطرس الاكبر يغزو اسوج – دانيال ديفو يضع روايته : روبنسن كروزيه .

١٧٢٠ – معاهدة ستوكهولم بين بروسيا واسوج – فيليب الخامس يزهد بعرش فرنسا « ٢٢ – ٦ » – استقالة لو وهربه – « ١٢ – ١٢ » – عودة والبول الى الوزارة «ك ١ » استيطان الاسبان في مقاطعة تكساس – افلاس شركة مياه الجنوب الانكليزية –

١٧٢١ – معاهدة نستادت « ٢١ – ١ » – انشاء اول محفل ماسوني في مدينة دنكرك – وضع واتو رسمه المعروف : علم جرسين – مونتسكيو ينشر كتابه : رسائل فارسية .

١٧٢٢ – ديبوا يرأس الوزارة « ٢٢ – ٨ » – انشاء شركة اوستاند – بطرس الاكبر ينشيء التشن .

١٧٢٣ – وفاة ديبوا « ١٠ – ٨ » والوصي على العرش « ك ١ » – وزارة دوق بوربون – استيلاء الروس على مدينة باكو – اعادة تنظيم الشركة الفرنسية للهند .

١٧٢٤ – انشاء نادي انترسول في باريس – تاسيس البورصة في باريس .

١٧٢٥ – وفاة بطرس الاكبر « ٨ – ٢ » – زواج لويس الخامس عشر بماري لكزنسكا « ١٥ – ٨» معاهدة فيينا الاولى « ٥ – ١١ » – اكتشاف مضيق بهرينغ .

١٧٢٦ – فلوري رئيس الوزارة في فرنسا « ١٢ – ٦ » – رحلة بهرينغ الى كمشتكا – فيكو يضع كتابه المعنون : « العلم الجديد » .

١٧٢٧ ـ وفاة نيوتن ـ بطرس الثاني قيصر روسيا •

١٧٢٨ ـ جورج الثاني ، ملك على انكلترا « ٢٢ ـ ٦ » •

١٧٢٩ ـ معاهدة اشبيلية « ٩ ـ ١١ » ـ انشاء اولى المستعمرات الانكليزية في كارولينا •

١٧٣٠ ـ بدء حبرية البابا اقليمس الثاني عشر ـ معاهدة كياخطا الروسية الصينية ـ أوري يعين مفتشا عاما للمالية ـ آنا ايفانوفنا قيصرة روسيا •

١٧٣١ ـ معاهدة فيينا الثانية والثالثة « ١٦ ـ ٣ و ٢٢ ـ ٧ » ـ فولتير يضع كتابه : « تاريخ شارل الثاني عشر ـ دوبلكس حاكم شندرناغور في الهند •

١٧٣٢ ـ مجلس الامة الجرماني يقر المعاهدة الدينية « ١١ ـ ١ » ـ تاسيس المستعمرة الانكليزية في جيورجيا •

١٧٣٣ ـ حرب الخلافة في بولونيا ـ ستانسلاس لكزنسكي ينتخب ملكا على بولونيا « ايلول » ـ الميثاق الاول في الاسرة « ٧ ـ ١١ » ـ اختراع اول نول للحياكة على يد لويس بول •

١٧٣٤ ـ فولتير ينشر كتابه : رسائل انكليزية ـ باخ يضع نشيد عيد الميلاد •

١٧٣٥ ـ حساب خط الطول يقوم به لاكوندامين ـ استخدام الفحم الحجري في صناعة الحديد على يد ابرهيم دربي •

١٧٣٦ ـ احتلال الروس لمدينة ازوف وغزوهم شبه جزيرة القرم ـ معاهدة القسطنطينية الثانية بين الاتراك والفرس « ١٧ ـ ١٠ » ـ انشاء مصرف كوبنهاغن •

١٧٣٧ ـ طرد الروس من القرم ـ اول صالون للرسم ـ رامو يضع : كستور وبولوكس •

١٧٣٨ ـ معاهدة فيينا الرابعة « ٢ ـ ٥ » ـ وسلي ينشىء اول جمعية متودية « حزيران » ـ اختراع كاي « للمكوك الطائر » ـ تاسيس معمل البورسلين في فنسين « ثم ينتقل الى سيفر » •

١٧٣٩ ـ معاهدة بلغراد « ١٨ و ٢٣ ـ ٩ ـ الحرب الانكليزية الاسبانية « ١٩ ـ ١٠ » •

١٧٤٠ ـ تجديد الامتيازات الاجنبية « ٨ ـ ٥ » ـ وفاة الملك الشاويش واعتلاء فريدريك الثاني العرش « ٣١ ـ ٥ » ـ وفاة الامبراطور شارل السادس واعتلاء ماري تريزيا العرش « ١٩ ـ ١٠ » ـ اعلان الحرب بين فرنسا وانكلترا « ك ١ » ـ فريدريك الثاني يغزو سليزيا « ١٦ ـ ١٢ » ـ ريشاردسن يضع : باميلا ـ شاردين يضع : البندسيتة •

١٧٤١ ـ التحالف الفرنسي البروسياني « ٥ ـ ٦ » ـ الحرب بين روسيا واسوج « اب » •

١٧٤٢ ـ سقوط وزارة ولبول في انكلترا « ١٣ ـ ٢ » ـ معاهدة برلين « ٢٨ ـ ٧ » ـدوبلكس يعين حاكما عاما في الهند الفرنسية ـ بندكتوس الرابع عشر يشجب طرق واساليب اليسوعيين في الصين •

١٧٤٣ ـ وفاة فلوري « ١٩ ـ ١ » ـ معاهدة ابو بين روسيا والسويد « ١٧ ـ ٨ » ـ الحلف العائلي الثاني « ٢٨ ـ ١٠ » •

١٧٤٤ ـ انطلاق شرارة الحرب بين فرنسا وانكلترا والنمسا « ١٥ ـ ٣ » ـ فريدريك الثاني يهاجم بوهيميا •

١٧٤٥ ــ انتصار موريس ده ساكس في موقعة فونتنوا « ١١ ــ ٥ » ــ صلح درسد «٢٥ ــ ١٢» وقوع جزيرة كاب بريتون بيد الانكليز ــ بدء حظوة مدام بمبادور •

١٧٤٦ ــ سقوط بروكسل بيد الفرنسيين « ١٢ ــ ٢ » ــ وفاة فيليب الخامس ملك اسبانيا « ٩ ــ ٧ » ــ سقوط مدينة مدراس بيد لابوردونيه « ٢١ ــ ٩ » ــ ديدور يصدر : « خواطر فلسفية » •

١٧٤٧ ــ فرنكلين يكتشف ناموس الشاري او قضيب الصاعقة ــ تاسيس مدرسة المناجم في باريس على يد ترودين •

١٧٤٨ ــ معاهدة اكس لا شابل « ٢٨ ــ ١٠ » ــ مونتسكيو وكتابه : روح الشرائع ــ اكتشاف آثار مدينة بمبايي •

١٧٤٩ ــ فرض ضريبة ٥ بالمائة في فرنسا « ايار » ــ هنتسمان يكتشف طريقة صنع الفولاذ المصهور ــ ديدرو ينشر كتابه : رسائل حول الانكليز ــ فيلدنــغ ينشر روايته : توم جونــز •

١٧٥٠ ــ مناهضة ماشو للامتيازات والاستثناءات ــ فولتير في برلين ــ دوبلكس ينال الحماية على مقاطعة كرناتيك ــ روسو ينشر كتابه حول « خطاب حول العلوم والفنون » •

١٧٥١ ــ نشر المجلد الاول من دائرة المعارف الفرنسية « ٧ ــ ٢ » ــ فولتير ينشر كتابه : عصر لويس الرابع عشر ــ البرتغال تحظر التعذيب بالنار •

١٧٥٢ ــ اول حرم تنزله الكنيسة بدائرة المعارف « ٧ ــ ٢ » ــ كونتز يعين مستشارا فــي النمسا ــ انشاء ميدان ستانسلاس في مدينة نانسي •

١٧٥٣ ــ قضية اوراق الاعتراف النقدية ــ حل برلمان باريس « ايار » واعادته « تشرين الاول » ــ مؤتمر لندن لتسوية شؤون الهند ــ الاعمال العدائية تنشب من جديد في كندا ووادي نهر الاوهايو •

١٧٥٤ ــ استدعاء دوبلكس « اب » ــ معاهدة غودهو « ٢٦ ــ ١٢ » ــ ماشو يتخلى عن مركز المفتش العام ــ روسو يضع كتابه : خطاب حول اصل عــدم المساواة بين البشر ــ كونديالك يضع بحثه حول الاحاسيس والمشاعر •

١٧٥٥ ــ حادث اعتداء بوسكوين « ١٠ ــ ٦ » ــ طرد الرهبنة اليسوعية من البراغواي •

١٧٥٦ ــ انقلاب الاحلاف : معاهدة فرساي الاولى « ١ ــ ٥ » ــ الحرب الفرنسية الانكليزيــة « ١٥ ــ ٥ » ــ مونكالم في كنــدا « ايار » ــ سقوط مينوركا بيــد الفرنسيين « ٢٨ ــ ٦ » ــ اول وزارة لبت « ك ١ » ــ فولتير يضع كتابــه : محاولــة حول الاخــلاق •

١٧٥٧ ــ دميانس يحاول الاعتــداء علــى لويس الخامس عشر ــ الاستيلاء علــى كلكوتا « ٢ ــ ١ » على شاندرناغور « ٢٣ ــ ٣ » وانتصار كليف في موقعة بلاسي ــ معاهدة فرساي الثانية « ١ ــ ٥ » ــ موقعة روزاباخ« ٥ــ١١ »ــ وموقعة لوثن « ٢٥ ــ ١٢ »•

١٧٥٨ ــ شوازول سكرتير دولة للشؤون الخارجيــة « ٩ ــ ١٠ » ــ استيلاء الانكليز علــى اللكسمبورغ « ٢٦ ــ ٧ » وعلــى حصن دوكسين « ٢٥ ــ ١١ » بابويــة اقليمس الثالث عشر ــ احتلال الروس لروسيا الشرقية ــ لالي تولندال في الهنــد « نيسان » ــ

روسو ينشر كتابه : رسالة الى دالمبير ـ وهلفتيوس يضع كتابه : حول العقل ـ كسناي يضع كتابه : صورة الوضع الاقتصادي ٠

١٧٥٩ ـ ثاني حرم تنزله الكنيسة بدائرة المعارف « ٨ ـ ٣ » ـ سقوط كوبيك « ١٨ ـ ١٠ » ـ ارتقـاء الملك شارل الثالث عرش اسبانيا ـ موت مونكالم ـ تاسيس المتحـف البريطاني ـ فولتير ينشر كتابه : كنديد ٠

١٧٦٠ ـ استسلام الفرنسيين في مونتريال « ٨ ـ ٩ » ـ سقوط برلين بيـد النمساويين والروس « ٩ ـ ١٠ » ـ ارتقـاء جورج الثالث عرش بريطانيا « ٢٥ ـ ١٠ » ـ روسو يضـع : هيلـويـز الجديـدة . ب

١٧٦١ ـ سقوط بونديشيري « ٨ ـ ١ » وما هي « شباط » بيد الانكليز ـ « بت » يتخلى عن الحكم « ٦ ـ ١٠ » تورغو مراقب مالية الليموزين ٠

١٧٦٢ ـ قضية كالاس واعدامـه « ١٠ ـ ٣ » ـ موت اليزابت بتروفنا « يناير » ـ ارتقـاء بطرس الثالث العرش ، ثم كاترين الثانيـة في روسيا « ٢٨ ـ ٦ » ـ برلمـان باريس يتخـذ قرارا بالغاء الرهبنة اليسوعية ـ روسو يضع : العقـد الاجتماعـي ثم « اميل » كما يضع غلوك : أورفيه ٠

١٧٦٣ ـ معاهدة باريس « ١٠ ـ ٢ » ومعاهدة هوبرتسبورغ « ١٥ ـ ٢ » ـ موت اغسطس الثالث ملك بولونيـا ـ الروس يغزون ليتوانيا ٠

١٧٦٤ ـ وفاة المركيزة دي بمبادور « ١٥ ـ ٤ » ـ انتخـاب ستانسلاس بونياتوفسكـي ملكا على بولونيا « ايلول » حـل الرهبنة اليسوعية في فرنسا ـ فولتيـر ينشر كتاب : المعجم الفلسفي ـ صعوبات بين دوق اغويون وبرلمان رين ـ سوفلو يشرع ببنـاء البانتيون في باريس ٠

١٧٦٥ ـ اعادة الاعتبـار الى كالاس « ٩ ـ ٣ » ـ فردريك الثانـي يؤسس بنك برليـن ـ ارتقاء جوزف الثاني عرش النمسا ـ اختراع هارغريفس لدولاب الغزل ٠

١٧٦٦ ـ موت ستانسلاس لكسنكي وضم اللورين الى فرنسا « ٢٣ ـ ٢ » رحلـة بوغنفيـل في البحـار الجنوبية ـ أرندا يرأس الوزارة عند شارل الثالث ٠

١٧٦٧ ـ طرد اليسوعيين من اسبانيا « ٢٧ ـ ٢ » ـ جيمس واط ينتهي من صنـع اول آلـة بخارية ـ الدانمارك تنال مقاطعتي شلسويغ وهولستين .

١٧٦٨ ـ عريضة ماستشوستس « يناير » ـ فرنسا تشتري جزيرة كورسكا « ١٥ ـ ٥ » ـ الحرب الروسية التركيـة « تشـرين الاول » ـ كاترين الثانية تصادر امـلاك الاكليروس الروس ـ بدء حظوة مدام دي باري ـ اول رحلة يقـوم بهـا كـوك في البحار الجنوبية ـ كسناي يصدر كتابه : حول علم الاقتصاد ٠

١٧٦٩ ـ الغـاء امتياز الشركة الفرنسية للهند « ١٣ ـ ٨ » ـ مولـد نابليون بونابرت « ١٥ ـ ٨ » ـ احتلال الروس لاهم الامارات الرومانيـة ـ حلف « بار » في بولونيا ٠

١٧٧٠ ـ مذبحـة بوسطن « ٥ ـ ٣ » ـ زواج الملك القـادم لويس السادس عشر بماري انطوانيت « ١٦ ـ ٥ » ـ معركة تشسميه « ٦ ـ ٧ » ـ صرفشوازول « ٢٤ ـ ١٢ » ـ الوزارة الانكليزية برئاسة اللـورد نورث ـ لافوازييه يحلل تركيب الهـواء ـ بارون دولباخ ينشر كتابه : مناهج الطبيعة ـ الاب رينال ينشر كتابـه : تاريـخ الفلسفة في الهند ٠

١٧٧١– ابعـــاد برلمان باريس « ٢٠ – ١ » – موبيو والاصلاح القضائي « ٢٣ – ٢ » – الغاء رق الارض في مقاطعـة السافوي – اختراع أركرايت للاطار المائي •

١٧٧٢ – تقسيم بولونيا لاول مرة « ٥ – ٨ » – انقلاب غوستاف الثالث في اسوج « ٩ – ٨ » – كوك يقوم برحلته الثانية •

١٧٧٣ – مشكلة الشاي في بوسطن « ١٦ – ١٢ » – انشاء محفل الشرق الاكبر في فرنسا – بـدء ثورة بوكاتشيف – ديدرو في روسيا – البابا اقليمس الرابع عشر يحل الرهبنة اليسوعية •

١٧٧٤ – وفاة الملك لويس الخامس عشر « ١٠ – ٥ » – ارتقـــاء لويس السادس عشر العرش تورغو يؤلف الوزارة « ٢٠ – ٧ » – معاهـدة قينرجـي « ٢١ – ٧ » – مجلس كونغرس فيلادلفيا « ٢١ – ٩ » – مرسوم كوبيك – غوتيه يصدر فرتر •

١٧٧٥ –معركة لكسنغتن « ١٩ – ٤ » – انتهاء ثورة بوغاتشيف « ايلـول » بابويـــة بيوس السادس – اول تمثيل لمسرحية حلاق اشبيلية – استخدام قـــوة البخار المحركة في الصناعة على يد واط الاسكتلاندي •

١٧٧٦ – صرف تورغو وفقدانه الحظوة « ١٢ – ٥ » – اعلان استقلال الولايـــات المتحدة « ٤ – ٧ » فرنكلين في باريس « ايلول » ما يلي يضع : اصل القوانين ونشاتهـا ، وآدم سمث ينشر كتابـــه : غنى الامم – رحلة كوك الثالثـة حيث يلاقي حتفـه – سفينة الماركيز دي جوفروا البخارية – اول خطوط حديدية •

١٧٧٧ – نيكر يعين مديرا عاما للمالية « حزيران » – لافاييت في اميركا – استسلام ساراتوغا « ١٤ – ١٠ » – الاقتراع على دستور الاتحـــاد •

١٧٧٨ – عقـــد تحالف بين فرنسا والولايات المتحدة الاميركية « ٦ – ٢ » – وفاة بت الاول « ١١ –٥» – انشاء مجلس الولاية في بري « ١٢ – ٧ » – انشاء صندوق الخصم في باريس – فتح الامبراطورية الاسبانية للتجارة الدولية – بوفون يضع كتابـــه : حقب الطبيعة •

١٧٧٩ – معـــاهدة تيشن « ١٣ – ٣ » – الحلف الفرنسي الاسبانـي المعقود في ارانخويـز « ١٢ – ٤ » – اختراع الانكليزي كرومبتون نول حياكة القطن – اقرار حريـــة الاستثمارات في روسيا •

١٧٨٠ – روشمبو في اميركا « ايار » – موت ماري تريزيا امبراطورة النمسا « ٢٩ – ١١ » – حلف الحياديين ينتصب ضد انكلترا – هودون ينشر كتابـــه عن فولتير •

١٧٨١ – تقرير يرفع للملك « فبراير » واستقالة نيكر « ١٩ مايو » – استسلام الانكليز في يوركتون « ١٩ – ١٠ » – انشاء معامل كروزيه – الغـــاء اوقاف الفلاحين في النمسا – كنت يضع كتابه : نقـد العقل المجرد – روسو ينشر كتابه : اعترافات – وموزارت يضع : الخطف في السراي •

١٧٨٢ –سقوط وزارة اللورد نورث « ١١ – ٣ » – جوزف الثاني يصادر الاديار « تشرين الاول » فشل محاولة فرنسية اسبانية امام جبل طارق « تشرين الاول » •
اعتراف الانكليز باستقلال اميركا « تشرين الثاني » – سوفرين في الهند ، حصـار مدراس •

١٧٨٣ – وزارة بت الثاني « ١٩ – ٢ » – معاهـــدة فرساي « ٣ – ٩ » – وزارة كالون

« ١٠ ــ ١١ » ــ ثورة الفلاحين في بوهيميا ــ ارتفــاع اول منطاد يحمل بشرا ــ لافوازييه يتمكن من تحليل العناصر المقومة في المـاء ــ اختراع تسويط الحديد ــ تمثيل رواية زواج فيغارو ، تأليف بومارشيه ٠

١٧٨٤ ــ اقرار قانون الهنــد « نيسان » ــ ضم القرم الى روسيا ــ انشاء مصرف نيويورك ــ انشاء الشركة الاسبانية للفيليبين ٠

١٧٨٥ ــ قضية عقــد الملكة ــ اجتيــاز بلانشار مضيق المانش جوا ــ رحلة لابيروز ــ اعادة تنظيم شركة الهند الفرنسية ــ اول معمل للنسيج علـى البخـار في نوتنغهــام ــ اختراع كارترايت لاول نوع للحياكـة الميكانيكية ــ كنــت ينشر كتابــه : اسس متافيزيكا الاخلاق ــ موزارت يضع : زفات فيغارو ٠

١٧٨٦ ــ وفاة فريدريك الثانــي « ١٧ ــ ٨ » ــ وارتقــاء فريدريك غليوم الثاني العرش ــ معاهدة تجارية تعقد بين فرنسا وانكلترا « ٢٦ ــ ٩ » ــ تسلق الجبل الابيض لاول مرة ٠

١٧٨٧ ــ المعاهــدة التجارية الفرنسية الروسية « ١١ ــ ١ » ــ مجلس النبــلاء الاولى « ٢٢ ــ ٢ » ــ سقوط كالون وتأليف وزارة بريين « ٨ ــ ٤ » ــ حل مجلس النبــلاء « ١٢ ــ ٥ » ــ الحرب الروسية التركية « ١٣ ــ ٨ » ــ اقرار دستور الولايات المتحدة الاميركية « ٢٧ ــ ٩ » ــ التحالف الثلاثــي الانكليزي الهولندي البروسياني ــ احتلال الانكليز لخليج بوتاني ــ لاكرانج يضع كتابه : الميكانيكــا التحليلية ــ برناردن دي سان بيير يضع كتابه : بول وفرجيني ــ دافيد يرســم صورة : موت سقراط ــ موزارت يضع : دون خوان ٠

١٧٨٨ ــ الحرب النمساوية التركية « فبراير » ــ لاموانيون يقوم باصلاح القضاء « ٨ ــ ٥ » ــ يوم التراشق بالقرميد في مدينة غرينوبل « ٧ ــ ٦ » ــ المباشرة بوضــع الدستور الاميركي موضع التنفيذ « ٢١ ــ ٦ » ــ اعلان دعــوة ممثلــي الطبقات في فرنسا لاجتماع عــام « ٨ ــ ٨ » ــ التخلــي عــن بريين وتشكيل نيكر وزارته الثانية « ٢٥ ــ ٨ » ــ دعــوة دييت الاربع سنوات للاجتماع فــي بولونيا « ٦ ــ ١٠ » ــ مجلس النبلاء الثاني « ٦ ــ ١١ » ــ معاهدات برلين « ١٣ ــ ٦ » ولاهاي « ١٥ ــ ٩ » بين البلاد الواطية وبروسيا وانكلترا ــ مرسوم الدين فــي بروسيا ــ كنت ينشر كتابه : نقــد العقل التجريبي ــ بنشام ينشر كتابه : المدخل الى مبادىء الاخلاقيــة ــ تأسيس جريدة التيمس ٠

١٧٨٩ ــ انتخــاب جورج واشنطون رئيســا للولايات المتحــدة « ٣٠ ــ ٤ » ــ جلسة افتتاح مجلس ممثلي طبقات الامــة « ٥ ــ ٥ » ــ قسم قاعــة لعبة التنس « ٢٠ ــ ٥ » ــ بــدء جلسات المجلس الوطني التأسيسي « ٩ ــ ٧ » ــ الاستغناء عن نيكر « ١١ ــ ٧ » ــ الاستيلاء علــى الباستيل « ١٤ ــ ٧ » ــ اعادة نيكر « ١٦ ــ ٧ » ــ الهلع الاكبر وليلة الرابــع من آب « تمــوز ــ آب » ــ ثورة ليبيج وانتشارها في جميع المقاطعــات البلجيكيــة « ١٨ ــ ٨ » ــ التصويت على حقوق الانسان العامة والمواطن « ٢٠ ــ ٨ » ــ هجوم الشعب الباريسي علــى فرساي وقدوم الملك الى باريس « ٥ و ٦ ــ ١٠ » الامبراطــور جــوزف الثاني يستولي علـى بلغراد « ٩ ــ ١٠ » ــ التصويت على مصادرة املاك الكنيسة « ٢ ــ ١١ » ــ انشاء عملة الاسينياء « ١٤ ــ ١٢ » » ٠

١٧٩٠ ـ المناداة بالولايات المتحدة البلجيكية « ١٤ ـ ٢ » ـ موت الامبراطور جوزيف الثاني وارتقاء ليوبولد الثاني العرش في النمسا « ٢٠ ـ ٢ » ـ قضية نوتكا صاوند « ايار ـ تشرين الاول » ـ اقرار دستور الاكليروس المدني « ١٢ ـ ٧ » ـ عيد التحالف « ١٤ ـ ٧ » ـ راشنباخ بين بروسيا والامبراطور « ٢٧ ـ ٧ » ـ فانكوفير يستكشف الشواطىء الاميركية على المحيط الهادي ـ كنت ينشر كتابه : نقد العقل ـ بورك ينشر كتابه : خطرات حول الثورة الفرنسية ٠

١٧٩١ ـ موت ميرابو « ٢ ـ ٤ » ـ البابا يحرم دستور الاكليروس المدني « ١٣ ـ ٤ » ـ الدستور البولوني الجديد « ٣ ـ ٥ » ـ المجلس التاسيسي يقر قانون لاشابلييه « ١٤ ـ ٦ » ـ محاولة هرب الملك لويس السادس عشر « ٢٠ ـ ٦ » ـ حادث اطلاق النار في ميدان شان ده مارس « ١٧ ـ ٧ » ـ معاهدة سيستوفا تعيد السلام بين الامبراطور والاتراك ـ تصريح بلنتز « ٢٧ ـ ٨ » ـ ضم افنيون والكونتا « ٢٠ ـ ٩ » ـ لويس السادس عشر يقسم باحترام الدستور « ١٤ ـ ٩ » ـ انتهاء عمل الجمعية التاسيسية الوطنية وانصرافها « ٣٠ ـ ٩ » ـ اولى جلسات المجلس التشريعي « ١ ـ ١٠ » ـ توجيه انذار لناخب تريف « ٢٩ ـ ١ » ـ تحقيق التلغراف البحري على يد شاب ٠

١٧٩٢ ـ معاهدة ياسي بين روسيا وتركيا « ٩ ـ ١ » ـ وفاة الامبراطور ليوبولد وارتقاء فرنسوا الثاني العرش « ١ ـ ٣ » ـ اغتيال غوستاف الثالث في السويد « ٦ ـ ٣ » ـ فرنسا تعلن الحرب على ملك بوهيميا وهنغاريا « ٢٠ ـ ٤ » ـ الروس يهاجمون بولونيا « ٩ ـ ٦ » ـ هياج الشعب في باريس « ٢٠ ـ ٦ » ـ اعلان الوطن في خطر في فرنسا « ١١ ـ ٧ ـ بيان برونسويك « ٢٥ ـ ٧ » ـ تكوين الكومون الثوري في باريس « ٩ ـ ٨ » ـ استيلاء شعب باريس على التويلري ـ الغاء النظام الملكي « ١٠ ـ ٨ » ـ المذابح في سجون باريس « ٢ و ٦ ـ ٩ » النصر الفرنسي في فالمي ونهاية المجلس التشريعي « ٢٠ ـ ٩ » ـ اولى جلسات الكونفنسيون والغاء النظام الملكي « ٢١ ـ ٩ » ـ الجمهورية الفرنسية واحدة لا تنفصم عراها « ٢٥ ـ ٩ » ـ انتصار فرنسي في جماب واحتلال بلجيكا « ٦ ـ ١١ » ـ ضم مقاطعة السافوى الى فرنسا « ٢٧ ـ ١١ » ـ بدء محاكمة لويس السادس عشر « ٤ ـ ١٢ » ـ شبيلر يضع كتابه : « تاريخ حرب الثلاثين سنة » ٠

١٧٩٣ ـ اعدام الملك لويس السادس عشر « ٢١ ـ ١ » ـ اقتسام بولونيا الثاني « ٢٣ ـ ١ » ـ ضم كونتية نيس الى فرنسا « ٣١ ـ ١ » ـ فرنسا تعلن الحرب على انكلترا وبدء التحالف الاول « ١ ـ ٢ » ـ انشاء محكمة الثورة في باريس واعلان حالة العصيان في مقاطعة الفانديه « ١٠ ـ ٣ » ـ خيانة ديموريه وتشكيل لجنة السلامة العامة « ٥ ـ ٤ » ـ اول قانون بتحديد الحد الاعلى للاسعار في فرنسا « ٤ ـ ٥ » ـ الايام الثوروية في فرنسا وسقوط الجيروند « ٣١ ـ ٥ و ٢ ـ ٦ » ـ المصادقة على دستور عام ١٧٩٣ « ٢٤ ـ ٦ » ـ تجديد لجنة السلامة العامة « ٦ ـ ٧ » ـ قتل مارات « ١٣ ـ ٧ » ـ روبسبيير ينتخب عضوا في لجنة السلامة العامة « ٢٧ ـ ٧ » ـ اقرار النظام المتري والعمل به في البلاد ـ استيلاء الاسطول الانكليزي على قاعدة طولون « ٢٩ ـ ٨ » ـ قانون ضد المشبوهين « ١٧ ـ ٩ » ـ فرض الحد الاقصى للاسعار في جميع انحاء فرنسا « ٢٩ ـ ٩ » ـ العمل بالتقويم الثوري « ٥ ـ ١٠ » ـ استعادة

مدينة ليون « ٩ ــ ١٠ » موقعــــة واتيني وانتصار فرنسا « ١٥ و ١٧ ــ ١٠ » ــ انهزام ثوار الفانديه في موقعة شوليه « ١٧ ــ ١٠ » ــ استعادة مدينة طولــون « ١٩ ــ ١٢ » ــ انتصار الجنرال هوش في موقعة جيسبرغ « ٢٦ ــ ١٢ » ــ اختراع هويتني آلــة حلج القطن وفرز البزر ــ تاسيس متحف التاريخ الطبيعي •

١٧٩٤ ــ الثورة البولونية بقيادة كوسيوسكو « اذار » ــ تصفيــــة انصار هربرت في باريس « ٢٤ ــ ٣ » ــ تصفية دانتون والمتساهلين « ٥ ــ ٤ » ــ عيد الكائن الاعلى في باريس « ٨ ــ ٦ » ــ انتصار الفرنسيين في معركة فلوريس « ٢٦ ــ ٦ » ــ احتلال الفرنسيين لمدينة انفرس « ٢٧ ــ ٧ » ــ سقوط روبسبيير وتصفيتــه مع انصاره « ٢٨ و ٢٩ ــ ٧ » ــ التاسع من شهر ترميدور ــ حــل كوميــن باريس « ايلول » ــ احتلال الفرنسيين لوادي الرين « ٢٣ ــ ١٠ » ــ هزيمــة كوسيوسكو ووقوعــه اسيرا في ماشيايوفتش « ١٠ ــ ١٠ » ــ اغــلاق نادي اليعقوبيين « ١٩ ــ ١١ » ــ معاهدة جاي الانكليزية الاميركية « ١٩ ــ ١١ » ــ الغــاء العمل بالحد الاعلــى للاسعار في فرنسا « ٢٤ ــ ١٢ ــ » ــ الفرنسيون يغزون هولاندا « ٢٧ ــ ١٢ » ــ كوندورسيه ينشر كتابه : رسم بياني لتاريــخ تطور الفكر البشري •

١٧٩٥ ــ بيشغرو يستولي على الاسطول الهولندي عند رأس هلدر « ٣٠ ــ ١ » ــ معاهــدة صلــح في بــال بين فرنسا وبروسيا « ٦ ــ ٤ » ــ حوادث يوم ١٢ جرمينال « ١ ــ ٤ » ــ الصلح مع هولاندا وحلف لاهاي « ١٦ ــ ٥ » ــ حوادث يــوم اول بريريــال « ٢٠ ــ ٥ » ــ انتهاء ثــورة مارتينوفتش في المجــر « ٢٠ ــ ٥ » ــ استسلام المهاجرين الذين نزلوا الى البر في كيبرون « ٢٢ ــ ٧ » ــ معاهــدة بال بين اسبانيا وفرنسا « ٢٢ ــ ٧ » ــ اقرار دستور العام الثالث « ٢٢ ــ ٨ » ــ حوادث يــوم ١٣ فنديمير « ٥ ــ ١٠ » ــ اقتسام بولونيا للمرة الثالــثة « ٢٦ ــ ١٠ » ــ انفراط عقد الكونفنسيون وبدء حكومة الديركتوار « ٢٦ ــ ١٠ » ــ الغــاء حق التجمهر في انكلترا •

١٧٩٦ ــ نابوليون بونابرت يتزوج جوزفين بوهارنيه « ٩ ــ ٣ » ــ استبدال الاسينيــاه بتحاويل قارية « اذار » ــ انتصارات بونابرت في ايطاليا « منذ ١٣ ــ ٤ » ــ هدنــة شيراسكو « ٢٨ ــ ٤ » ــ مؤامرة بابوف وتوقيفه « ١٠ ــ ٥ » ــ انتصار فرنسي في لودي « ١٠ ــ ٥ » ــ معاهــدة نيسان ايلدفونس بين فرنسا واسبانيــا « ١٩ ــ ٨ » ــ بونابرت يحاصر ورمسر في مدينة منتو « ٨ ــ ٩ » ــ وفاة كاتريــن الثانية واعتلاء بولس الاول العرش في روسيا « ٧ ــ ١ » ــ انتصار بونابرت في موقعة اركول « ١٥ و ١٧ ــ ١١ » ــ محاولة انزال بحريــة يقوم بهــا هوش في ايرلندا « ١٦ ــ ١٢ » ــ بــدء حكم كيا ــ كنــغ في الصين ــ شروع جنر بتجاربه العلمية حول اللقاح ــ لابلاس ينشر كتابه : عرض نظام الكون ــ غوتيــه يصدر : ولهلم مايستر •

١٧٩٧ ــ انتصار بونابرت في ريفولي « ١٢ و ١٦ ــ ١ » ــ معاهــدة تولنتينو ١٩ ــ ٢ » ــ انتخاب جون آدمز رئيسا للولايــات المتحدة الاميركية « ٤ ــ ٣ » ــ انتخابات ملكية النزعة في فرنسا « اذار ــ ابريل » ــ مقدمات الصلــح في ليوبن بين بونابرت وامبراطور النمسا « ١٨ ــ ٤ » ــ تمرد الاساطيل الانكليزية في سبيتهيد والبحر الشمالي « ابريل ــ ايار » ــ انشاء الجمهورية الليغورية « ٦ ــ ٦ » ــ بــدء

المفاوضات في ليل « ٧ ــ ٧ » ــ انشاء جمهورية ما وراء الالب « ٩ ــ ٧ » ــ انقلاب ١٨ فروكتيدور « ٤ ــ ٩ » ــ افـــلاس الثلثين في فرنسا « ٣٠ ــ ٩ » ــ حملة مشتركة فرنسية هولاندية ضد انكلترا « ١١ ــ ١٠ » ــ معاهدة كمبوفورميو « ١٧ ــ ١٠ » ــ موت فردريـــك غليوم الثانـــي وارتقاء فردريك غليوم الثالث العرش في بروسيا « ١٦ ــ ١١ » ــ بـدء معاهدة راستادت « ٢٨ ــ ١١ » ــ غوتيه يصدر : هرمان ودوروتيه ٠

١٧٩٨ ــ ضم مدينتي مولهـوز « ٢٨ ــ ١ » ــ وجنيف الى فرنسا « ٢٦ ــ ٣ » ــ اعلان الجمهوريـــة الرومانية وابعـــاد البابا الى مدينة فالنس « ٥ ــ ٢ » ــ انتخابات يعقوبية النزعة في العـــام السادس « نيسان » ــ انقلاب في ٢٢ فلوريال « ١١ ــ ٥ » ــ سفر الحملة الفرنسية على مصر « ١٩ ــ ٥ » ــ انتصار الفرنسيين فـــي معركـــة الاهرام « ١٢ ــ ٧ » ــ تحطيم الاسطول الفرنسي في معركة ابوقير « ١ ــ ٨ » ــ قانون جوردان الذي يفرض الخدمة العسكرية والتجنيد الاجباري « ٥ ــ ٩ » ــ نزول الجنرال همبرت من البحر في ايرلنـــدا « آب ــ ايلول » ــ مالتوس يصدر كتابه : محاولة حول مبادىء السكان ــ تكون الحلف الثاني ضد فرنسا « تموز ك ١ »

١٧٩٩ ــ انشاء الجمهورية البارثنوبية او النابولية « ٢٣ ــ ١ » ــ اعـــلان فرنسا الحرب علـــى النمسا واختتام مؤتمر راستادت « ٢٣ ــ ١ » ــ انكسار جوردان فـــي معركة ستوكاخ « ٢٤ ــ ٣ » ــ فشل بونابرت امام عكا « ٢٠ ــ ٥ » ــ انقلاب ٣٠ بريريـــال « ١٨ ــ ٦ » ــ اعادة تشكيل نادي اليعقوبيين في باريس « ٦ ــ ٧ » ــ انكسار الجيش التركي في ابوقير « ٢٥ ــ ٧ » ــ انكسار جوبر في نوفي وموته « ١٥ ــ ٨ » ــ انتصار ماسينا في زوريخ مما اضطر الروس معه للانســحاب من الحلف « ٢٥ و ٢٦ ــ ٩ » ــ عـودة بونابرت الى فرنسا « ٩ ــ ١٠ » ــ استسلام الكمار « ١٨ ــ ١٠ » ــ انقلاب ١٨ برومير وتاليف حكومة القنصليـــة « ٩ و ١٠ ــ ١١ » موت جورج واشنطون « ١٤ ــ ١٢ » ــ رحلة همبولت الـــى اميركا الجنوبية ــ انشاء ادارة الضرائب المباشرة « ٢٣ ــ ١٢ » ــ تطبيق دستور العام الثامن « ٢٥ ــ ١٢ » ــ انشاء مجلس شـــورى القوانين « ٢٦ ــ ١٢ » ــ شلييرماخر ينشر كتابه : خطاب حول الدين ــ بيتهوفن يضع الصونات المثيرة ٠

١٨٠٠ ــ اتفاقية العريش في مصر « ٢٤ ــ ١ » ــ انشاء حكام المحافظات ومصرف فرنسا ــ اعادة تنظيم الادارة المحلية والمحاكم « فبراير ومارس » ــ صك اتحـــاد انكلترا وايرلندا « ٥ ــ ٢ » ــ انتخاب البابا بيوس السابع « ١٤ ــ ٣ » ــ انتصـــار مورو في ستوكاخ « ٣ ــ ٥ » ــ انتصار الفرنسيين في مارنغو « ١٤ ــ ٦ » ــ انتصار مورو في هوهنلندن « ٣ ــ ١٢ » ــ عصبة الحياديين الجديدة ضـــد انكلترا « ١٦ ــ ١٢ » ــ محاولة قتل بونابرت في شارع سان نيكيز « ٢٤ ــ ٢ » ــ اختراع فولتا للحاشدة الكهربائية ٠

١٨٠١ ــ صلح لونفيل « ٩ ــ ٢ » ــ استقالة بت « ١٤ ــ ٣ » ــ قتل القيصر بولس الاول وارتقاء اسكندر الاول العرش « ٢٤ ــ ٣ » ــ انتخـــاب جيفرسن رئيســـا للولايات المتحـــدة الاميركية « ٤ ــ ٣ » ــ معاهدة ارانخويز « ٢١ ــ ٣ » ــ عقد الصلح مع فلورنسا والصقليتين « ٢٨ ــ ٣ » ــ الانكليز يقصفون كوبنهاغن « ٢ ــ ٤ » ــ توقيع المعاهدة الدينية مـــع البابا « ١٦ ــ ٧ » ــ استسلام

القائد منو في مصر « ٣٠ ـ ٨ » ـ مفاوضات تمهيدية في لندن « ١ ـ ١٠ » ـ توقيع معاهدة الصلح بين فرنسا وروسيا « ٨ ـ ١٠ » ـ شاتوبريان ينشر : أتالا ، وشلر يصدر كتابه : *Die Jungfrau von Orlean*

١٨٠٢ ـ بونابرت رئيس الجمهورية الايطالية « ٢٦ ـ ١ » ـ صلح اميان مع انكلترا « ٢٥ ـ ٣ » ـ المصادقة على المعاهدة الدينية والمواد الدستورية « ٨ ـ ٤ » ـ انشاء المدارس الثانوية في فرنسا « ١ ـ ٥ » ـ انشاء وسام جوقة الشرف « ١٩ ـ ٥ » ـ استيلاء الجنرال لاكلير على توسان لوفرتور « ٧ ـ ٦ » ـ بونابرت قنصلا مدى الحياة « ٢ ـ ٨ » ـ دستور العام العاشر « ١٦ ـ ٨ » ـ نشوب ثورة عامة في سان دومنكو « ١٣ ـ ٩ » ـ ضم البيامونت وبارما الى فرنسا « ايلول ـ ت ١ » ـ شاتوبريان ينشر كتابه : عبقرية المسيحية ـ فوسكولو ينشر كتابه : رسائل جاكوبو اورتس الاخيرة ٠

١٨٠٣ ـ ارغام سويسرا على القبول بوساطة « ١٩ ـ ٢ » ـ تثبيت قيمة فرنك جرمينال « ٢٣ ـ ٣ » ـ قطع صلح اميان « ١٦ ـ ٥ » ـ فرنسا تبيع مقاطعة لويزيان للولايات المتحدة وتحتل الهانوفر « ايار » ـ سان دومنغو تعلن استقلالها « ت ٢ » بدء العمل بتذكرة العامل « ك ١ » ـ مؤامرة ملكية ينظمها بيشغرو ضد بونابرت « ك ١ » ـ ج ٠ ب ٠ ساي ينشر كتابه : بحث في الاقتصاد السياسي ٠

١٨٠٤ ـ انشاء دائرة الرسوم المجتمعة « فبراير » ـ تنفيذ عقوبة الموت بدوق دانجهين « ٢٠ ـ ٣ » ـ نشر القانون المدني « ٢ ـ ٣ » ـ المناداة ببونابرت امبراطورا باسم نابوليون الاول ٠ دستور العام الثاني عشر « ١٨ ـ ٥ » ـ قطع العلاقات الديبلوماسية بين فرنسا وروسيا « ايلول » ـ عودة بت الى الحكم « ت ١ » ـ تتويج الامبراطور والامبراطورة « ٢ ـ ١٢ » ـ اسبانيا تعلن الحرب على انكلترا « ك ١ » ـ فوريه ينشر كتابه : الانسجام العام وشيلر يعد : وليم تل ، وغرو ينشر كتابه : المصابون بالطاعون في يافا ، وبيتهوفن : السنفونية البطولية ٠

١٨٠٥ ـ نابوليون ملك ايطاليا « اذار » ـ ضم جنوى الى فرنسا « حزيران » ـ ظهور الحلف الثالث ضد فرنسا « آب » ـ استسلام النمساويين في أولم « ٢٠ ـ ١٠ » ـ تحطيم الاسطول الفرنسي عند الطرف الاغر « ٢١ ـ ١٠ » ـ انتصار الجيش الفرنسي في اوسترليتز « ٢١ ـ ١٠ » ـ التحالف الفرنسي البروسياني في شنبرون « ١٥ ـ ١٢ » ـ صلح بريسبورغ « ٢٦ ـ ١٢ » ـ جاكار يخترع دولاب حياكة الحرير ـ شاتوبريان ينشر كتابه : رينه ٠

١٨٠٦ ـ وفاة بت « ٢٣ ـ ١ » ـ قطع العلاقات بين نابوليون والبابا « فبراير » ـ جوزف بونابرت ملك على نابولي ـ انشاء الجامعة « ايار » ـ لويس بونابرت ملك على هولاندا « حزيران » ـ تكوين تحالف الرين « تموز » ـ فرنسوا الثاني يتخلى عن لقبه امبراطور المانيا وانتهاء الامبراطورية المقدسة « ٦ ـ ٨ » ـ انقطاع العلاقات بين فرنسا وبروسيا وظهور الحلف الرابع « ٨ ـ ١٠ » ـ انتصار نابوليون عند ايانا وانتصار دافو عند اورستادت « ١٤ ـ ١٠ » ـ دخول نابوليون الى برلين « ٢٧ ـ ١٠ » ـ مرسوم برلين يفرض الحصار البري « ٢١ ـ ١١ » ـ دخول نابوليون مدينة فرصوفيا « ٢٧ ـ ١١ » ٠

١٨٠٧ ـ معركة آيلو « ٨ ـ ٢ » ـ انتصار نابوليون في فريدلاند « ١٤ ـ ٦ » ـ معاهدة تلسيت والتحالف الفرنسي الروسي « ٧ ـ ٧ » ـ انشاء غراندوقية فرصوفيا « ٢٢ ـ ٧ » ـ فقدان تاليران الحظوة لدى الامبراطور « ٩ ـ ٨ » ـ جيروم ملك وستفاليا « ١٨ ـ ٨ » ـ الغاء التريبونية « ٩ ـ ٨ » ـ الغاء عبودية الارض في بروسيا « ت ١ » ـ دخول الفرنسيين الى لشبونة وفرار ملك البرتغال الى البرازيل « ٣٠ ـ ١١ » ـ مرسوم ميلانو « ٢٣ ـ ١١ » ـ تشديد الحصار . الغاء انكلترا للنخاسة . فلطن ينشىء مصلحة السفن البخارية على الهدسن ـ غروس يرسم : معركة آيلو .

١٨٠٨ ـ الغاء النخاسة في الولايات المتحدة الاميركية « يناير » ـ ضم روما الى الامبراطورية « فبراير » انطلاق الثورة الاسبانية « ٢ ـ ٥ » ـ مقابلة بايون وتنحي فرديناند السابع عن العرش « ٥ ـ ٣ » ـ جوزف بونابرت ملك اسبانيا ، مورات ملك نابولي « ١٠ ـ ٥ » ـ استيلاء بوليفار على السلطة في كركاس « تموز » ـ استسلام بايلان « ٢٢ ـ ٧ » ـ بروسيا تعمل بنظام كرومبر « آب » ـ استسلام جونو في سنترا « ٣٠ ـ ٨ » ـ مقابلة ارفورت « ٢٧ ـ ٩ » ـ دخول نابوليون الى مدريد « ٤ ـ ١٢ » ـ فيخت : خطاب الى الامة الالمانية ـ بيتهوفن : السنفونية الراعوية .

١٨٠٩ ـ غوستاف الرابع ملك السويد يترك العرش لعمه شارل الثالث عشر « اذار » ـ قدوم الجنرال الانكليزي ولسلي الى البرتغال « نيسان » ـ بدء التحالف الخامس « ١٠ ـ ٤ » ـ نشوب الثورة في التيرول ـ انتصار فرنسي في اكموهل « ٢٢ ـ ٤ » ـ دخول نابوليون فيينا « ١٣ ـ ٥ » ـ ضم فرنسا ممتلكات الكرسي الرسولي اليها » ١٧ ـ ٥ » ـ معركة أسلنغ « ٢١ و ٢٢ ـ ٥ » ـ رمي الكنيسة الحرم على نابوليون « ١٢ ـ ٦ » ـ انتصار في معركة وغرام « ٦ ـ ٧ » ـ توقيف البابا بيوس السابع « ٦ ـ ٧ » ـ عملية انزال الانكليز من البحر في هولندا « ٢٩ ـ ٧ » ـ صلح فيينا « ١٤ ـ ١٠ » ـ طلاق نابوليون « ١٦ ـ ١٢ » ـ شاتوبريان يصدر كتابه : الشهداء .

١٨١٠ ـ زواج نابوليون من الارشيدوقة ماري لويز « ٢٧ ـ ٣ و ٢ ـ ٤ » ـ انطلاق الثورة الشاملة في المستعمرات الاسبانية « ايار » ـ ضم فرنسا هولندا اليها « تموز » اختيار برنادوت اميرا وراثيا شرعيا في السويد « آب » ـ مرسوم التريانون « آب » ـ ظهور الازمة الاقتصادية في انكلترا « آ ب » ـ انشاء جامعة برلين « آ ب ـ مرسوم فونتنبلو « ت ١ » ـ ضم مقاطعة فاليه « ت ٢ » ومدن الهانس الى الامبراطورية الفرنسية « ك ١ » ـ اسكندر الاول يخرج على الحصار البري « ١٣ ـ ١٢ » ـ نشر قانون الجزاء ـ فيليب دي جيرار يخترع دولابا لحياكة الكتان ـ بيتهوفن يضع : اغمونت .

١٨١١ ـ نابوليون يضم مقاطعة اولدنبورغ « يناير » ـ ماسينا ينسحب من البرتغال « اذار » ـ ولادة ملك روما « ٢٠ ـ ٣ » ـ فشل ماسينا في توريس فدراس ـ في انكلترا : هياج اللوديت ، وفرض العملة الورقية بالقوة « اذار ـ مايو » ـ اجتماع مجمع وطني في باريس « حزيران » ـ مرسوم التسوية في بروسيا « تموز » قرار هاردنبرغ يولي الفلاحين البروسيانيين ملكية قسم من الاراضي التي يستثمرونها « ايلول » ـ التشديد على احتكار الجامعة « ت ٢ » ـ سبيرانسكي

يعين سكرتير دولة للامبراطور اسكندر الاول .

١٨١٢ – بدء التحالف السادس « ٨ – ٤ » – صلح بوخارست بين روسيا وتركيا « ايار » – الولايات المتحدة الاميركية تعلن الحرب على انكلترا « ١٨ – ٦ » – بدء حملة روسيا « ٢٤ – ٦ » – نابليون يامر بنقل البابا الى فونتنبلو « حزيران » – معركة سمولنسك « ١٦ و ١٧ – ٨ » – ومعركة بورودينو او موسكو « ٥ و ٧ – ٩ » – دخول نابليون مدينة موسكو « ١٤ – ٩ » – بدء الانسحاب والتقهقر « ١٩ – ١٠ » – مؤامرة ماليه الثانية على الامبراطور « ٢٣ – ١٠ » – اجتياز نهر البرزينا « ٢٦ و ٢٧ – ١١ » – بيرون يصدر : نشاة شلد هارولد .

١٨١٣ – معاهدة فونتنبلو الدينية « ٢٣ – ١ » – البابا يسحب اعترافه بالمعاهدة « اذار » اعلان بروسيا الحرب على نابوليون وبدء الحلف السابع « ١٧ – ٣ » – معركة لتزن « ٢ – ٥ » – ومعركة بونزن « ٢٠ و ٢١ – ٥ » – هدنة بلسويتز « ٤ – ٦ » – انتصار الانكليز في فيتوريا « ٢١ – ٦ » – مؤتمر براغ « ١٢ – ٧ و ١٠ – ٨ » – النمسا تعلن الحرب على نابوليون « ١٢ – ٨ » – انتصار فرنسي في درسدن « ٢٦ و ٢٧ – ٨ » – انكسار نابوليون في معركة ليبزيغ « ١٦ و ١٩ – ١٠ » – تراجع الفرنسيين الى ضفة نهر الرين اليسرى – مؤتمر فرنكفورت « ٤ – ١١ » – الثورة في هولندا واعلان البلاد استقلالها « ١٧ – ١١ – » – نابوليون يعيد عرش اسبانيا الى فردينان السابع « ١١ – ١٢ »

١٨١٤ – نابوليون يفرج عن البابا ويعيد اليه املاكه « يناير » – بدء حملة فرنسا : معارك بريين « ٢٩ – ١ » – وروتيير « ١ – ٢ » – مؤتمر شاتيون « ٥ – ٢ و ١٩ – ٣ » – انتصار نابوليون في مونتيرو « ١٨ – ٢ » – ميثاق شومون « ٩ – ٣ » – معارك لان ودارسي « اذار » سقوط باريس « ٣٠ – ٣ » – مجلس الشيوخ يصوت على عزل نابوليون « ٣ – ٤ » – معركة تولوز « ١٠ – ٤ » – معاهدة فونتنبلو « ١١ – ٤ » – تصريح سانت أوان « ٢ – ٥ » – دخول نابوليون الى جزيرة البا « ٤ – ٥ » – معاهدة باريس الاولى « ٣٠ – ٥ » – اعلان وثيقة البراءة « ٤ – ٦ » – بدء مؤتمر فيينا « ت ١ » – معاهدة غنت « ٢٤ – ١٢ » – البابا بيوس السابع يعيد الرهبنة اليسوعية الى الوجود – اختراع القاطرة البخارية على يد ستيفنسن . الرسام أنغر يضع : الوصيفة الكبرى – وغويا يضع رسم فردينان السابع وظهر مايا .

١٨١٥ – مغادرة جزيرة البا « ١ – ٣ » – وصول نابوليون الى باريس « ٢٠ – ٣ » – المائة يوم – القرار الاخير في مؤتمر فيينا « ٩ – ٦ » – معركة واترلو « ١٨ – ٦ » – سقوط باريس « ٣ – ٧ » – لويس الثامن عشر يعود الى باريس « ٨ – ٧ » – نابوليون يتنازل ثانية عن العرش « ٢٢ – ٧ » – ونفي نابوليون « ٢٩ – ٧ » – اتحاد السويد والنرويج « ٦ – ٨ » – الحلف المقدس « ٢٦ – ٩ » – اعدام مورات رميا بالرصاص « ١٣ – ١٠ » – وصول نابوليون الى جزيرة القديسة هيلانة « ١٧ – » – معاهدة باريس الثانية « ٢٠ – ١١ » ومعاهدات الحلف الرباعي .

ب

ح

خ

د

ش

ف

ك

ل

و

ي

فهرست الخرائط والتصاميم

فهرست الصّـــوَر

١٢ – منظر قاعة الاستقبال في اللوفر في السنة ١٧٥٣ .
رسم « غابرييل دي سانتوبين » (دار الصور المنقوشة) .

١٣ – رمز « جرسين » – نقش « ب. افلين » نقلا عن « واتو » . (دار الصور المنقوشة).

١٤ – قصر « سان-سوسي » في بوتسدام .
نقش « ج. س. كنوبفز » (١٧٨٨) . (دار الصور المنقوشة).

١٥ – الشاي على الطريقة الانكليزية في صالون « المرايا الاربع » في الـ « تمبل » .
رسم « اوليفييه » . (متحف اللوفر . المحفوظات الفوتوغرافية للفن والتاريخ) .

١٦ – رقصة روسية – نقش « سانتوبين » ، نقلا عن « له برنس » ، لكتاب الاب « شاب دوتروش » : « رحلة الى سيبيريا » . (دار الصور المنقوشة . المحفوظات الفوتوغرافية للفن والتاريخ) .

١٧ – منظر حدائق « باغاتيل » – نقش « نيكه » ، نقلا عن ل. « بلانجه ». (دار الصور المنقوشة) .

١٨ – الملكة « اوبيريا » تتخلى عن « تاهيتي » للضابط « واليس » .
نقش نفذ تحت اشراف « غودفروا » لكتاب حول الرحلات التي امر بها صاحب الجلالة البريطانية ... لتحقيق الاكتشافات في النصف الشمالي من الكرة الارضية .
(دار الكتب الوطنية) .

١٩ – برابرة من راس « ديمن » يعدون طعامهم .
نقش « كوبيا » و « م. – ف. ديان » نقلا عن « بيرون » . (دار الكتب الوطنية).

٢٠ – منظر جزيرة «اولياتيا» مع زورق مزدوج مصنوع من جذع شجرة ومحطة مسقوفة لايواء زوارقهم .
نقش لكتاب « رحلات كوك » ، المجلد الثالث (تموز ١٧٦٩) . (دار الصور المنقوشة) .

٢٠ – موكب المهراجا – رسم سيلاني ، (مجموعة «بول انغولفان» : تصوير «ب. و. ف.»)

٢٢ – الامبراطور « كيان-لونغ » يتقبل الجزية من الـ « كازاك – كرغيز».
نقش نفذ تحت اشراف « كوشين » ، نقلا عن رسم للأب كستيغليون اليسوعي (عهد اللسنغ) – (متحف غيمه ، المحفوظات الفوتوغرافية للفن والتاريخ) .

٢٣ – مراكب صيلية – صورة منقوشة مغفلة ، (دار الصور المنقوشة) .

٢٤ – متنزه على شاطىء البحر ، في اليابان – صورة منقوشة لِ « كيوناغا ».

٢٥ – وصول طليعة علماء الآثار الى مصر.
نقش مغفل منقول عن كتاب « دانون » : « رحـلة الى مصر » (١٨٠٢) . (دار الصور المنقوشة).

٢٦ – النخاسة في المرتينيك – نقش مغفل . (دار الصور المنقوشة) .

٢٧ – نساء « ايدنتون » ،في كارولينا الشمالية ، يأتلين على الامتناع عن احتسـاء الشاي حتى انقاذ بلادهن .
نقش مغفل . (دار الصور المنقوشة).

٢٨ – جمعية الكونغوس الاميركي الاول .
نقش « غودفروا » نقـلا عن « له باربييه » . (دار الصور المنقوشة) .

٢٩ – نزهة عند اسوار باريس .
رسم « ب. ف. كورتوا » نقـلا عن « اوغسطين دي سانتوبين » (١٧٦٠) (دار الصور المنقوشة) .

٣٠ – عيد احيته مدينة باريس على نهر السين في السنة ١٧٣٩ .
نقش «ج.-ف. بلونديل» نقلا عن « سالي » ، (متحف اللوفر) .

٣١ – حي الـ « تويلري » مع بناء « الجمعية » ومنتدى « اليعقوبيين ».
نقش «كلود لوقاس » نقلا عن « لويس بريتز » (متحف اللوفر) .

٣٢ – مشهد احد الشوارع: منشد الاناشيد.
نقش « مادلين كوشين » ، نقلا عن « ش. – ن. كوشين » الابن . (دار الصـور المنقـوشة).

٣٣ – افتتاح مجلس الطبقات في فرساي ،في ٥ ايار ١٧٨٩.
نقش هلمن نقلا عن « ش. مونيه » . (دار الصور المنقوشة) .

٣٤ – « كميل ديمولان » يخاطب الجماهير في القصر الملكي ، في ١٢ تموز ١٧٨٩ .
نقش « برتو » نقلا عن « بريور » . (دار الصور المنقوشة) .

٣٥ – الشعب في الشارع (ليل ١٢ – ١٣ تموز ١٧٨٩) .
نقش « ا. ف. سرجان » (١٧٨٩) . (دار الصور المنقوشة) .

٣٦ – الاستيلاء على سجن « الباستيـل » نقش « سلبيه » (١٧٨٩) . (دار الصور المنقوشة) .

٣٧ – عودة العائلة المالكة الى باريس ، في ٦ تشرين الاول ١٧٨٩ .
رسم مغفـل . (دار الصور المنقوشة) .

٣٨ ـ عيد « الاتحاد » في باريس ، في ١٤ تموز ١٧٩٠ .
نقش « برتو » ، نقلا عن « بريور » (دار الصور المنقوشة) .
٣٩ ـ صورة طبق الاصل مأخوذة من العدد ٣٩١ من « صديق الشعب » أو « الصحـــافي الباريسي » . (٦ اذار ١٧٩١) . (دار الكتب الوطنية) .
٤٠ ـ مقهى « غوديه » في شارع « التمبل » ، حوالي السنة ١٧٩١ .
رسم « سويباك ديفونتين » . (متحف كرنفاليه . المحفوظـــات الفوتوغرافية للفن والتاريخ) .
٤١ ـ الاحتفال بعيد « الكائن الاسمى » في ٢٠ « بريريال » من السنة الثانية .
(دار الصور المنقوشة) .
٤٢ ـ العودة بروبسبيو مجروحاً الى مدخل مركز لجنة السلامة العامة ، في ٢٨ تموز ١٧٩٤ (١٠ ترميدور من السنة الثانية) .
رسم (برتو) نقلا عن « دوبلسي ـ برتو » (دار الصور المنقوشة) .
٤٣ ـ وصول الغنائم الحربية الى فرنسا .
صورة منقوشة مغفلة (متحف كرنفاليه ، تصوير بولوز) .
٤٤ ـ مسح نابوليون ـ نقش « لافاليه » . (دار الصور المنقوشة) .
٤٥ ـ حديقة قصر الـ « تويلري » في السنة ١٨٠٨ .
رسم « نوربلين دي لاغوردين » . (متحف كرنفاليه . تصوير بولوز) .
٤٦ ـ القنصل الاول والسيدة بونابرت في زيارة مصنع الاخوة « سنين » في مدينة «روان» في تشرين الثاني ١٨٠٢ .
رسم « ايزابيه » (صالون السنة ١٨٠٤) . (متحف فرساي ، تصوير «جيرودون») .
٤٧ ـ داخل مشغل « دافيد » في اللوفر ـ رسم « كوشرو » . (متحف اللوفر ، تصوير « فيوليه ») .
٤٨ ـ فتنة الثالث من ايار ١٨٠٨ في « لابويرتا دل سول » .
رسم غويا (١٨٠٨) . (متحف الـ « برادو » . تصوير جيرودون) .

فهرس

القسم الأول

القرن الاخير للنظام الجديد

الكتاب الاول

« الانـــوار »

الكتاب الثالث

الانوار وتعذر تحقيق الامة الاوروبية

الكتاب الرابع

حضارة الانوار وحضارات ما وراء المحيطات

الكتاب الخامس

الانوار والمجتمعات الاوروبية في اميركا

القسم الثاني

مجتمع القرن الثامن عشر امام الثورة

الكتاب الاول

الثورة الفرنسية والدعائم النابوليونية

ص

ص

الكتاب الثاني

العالم امام الثورة الفرنسية والفتوحات النابوليونية

ص

استنتاجات عامة

حضارة السنة ١٨١٥ المجددة

انتهى المجلد الخامس، ويليه المجلد السادس

القرن التاسع عشر

منشورات عويدات ٩٢٢ / ١٩٨٧

١ ـ حوار الحضارات
٢ ـ الميتولوجيا اليونانية
٣ ـ مبادىء في العلاقات العامة
٤ ـ الخلدونية
٥ ـ سوسيولوجيا الأدب
٦ ـ الأسواق الزراعية
٧ ـ الجمالية الفوضوية
٨ ـ تاريخ الفنون العسكرية
٩ ـ الفكر الفرنسي المعاصر
١٠ ـ الأدب المقارن
١١ ـ الإسلام
١٢ ـ برغسون
١٣ ـ سيكولوجيا الفن
١٤ ـ تأملات ميتافيزيقية
١٥ ـ في الدكتاتورية
١٦ ـ العقد النفسية
١٧ ـ دستويفسكي
١٨ ـ نظرية العفو
١٩ ـ الإنسان ذلك المعلوم
٢٠ ـ سوسيولوجيا الفن
٢١ ـ السيمياء
٢٢ ـ التخلف المدرسي
٢٣ ـ علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي
٢٤ ـ مدخل إلى علم السياسة
٢٥ ـ نقد المجتمع المعاصر
٢٦ ـ روسو
٢٧ ـ الأدب الرمزي
٢٨ ـ طريقة الروائز في التربية
٢٩ ـ مصير لبنان في مشاريع
٣٠ ـ من ديكارت إلى سارتر
٣١ ـ الانطباعية
٣٢ ـ تاريخ قرطاج
٣٣ ـ باسكال
٣٤ ـ المؤسسات العامة
٣٥ ـ المسألة الفلسفية
٣٦ ـ تاريخ السوسيولوجيا
٣٧ ـ الفدرالية
٣٨ ـ أمراض الذاكرة
٣٩ ـ المذاهب الأخلاقية الكبرى
٤٠ ـ نقد الايديولوجيات المعاصرة
٤١ ـ الفلسفات الكبرى
٤٢ ـ العواطف والحياة الأخلاقية
٤٣ ـ المكتبات العامة
٤٤ ـ منظمة الأمم المتحدة
٤٥ ـ الدستور واليمين الدستورية
٤٦ ـ هذه هي الحرب
٤٧ ـ الممارسة الايديولوجية
٤٨ ـ المواطن والدولة
٤٩ ـ فلسفة العمل
٥٠ ـ مونتاني
٥١ ـ علم الجمال
٥٢ ـ تدريب الموظف
٥٣ ـ فلسفة التربية
٥٤ ـ السوق النقدية
٥٥ ـ الإنسان المتمرد
٥٦ ـ تيار دوشاردان
٥٧ ـ التربية الحديثة
٥٨ ـ كيركيغارد
٥٩ ـ تقنية المسرح
٦٠ ـ المذاهب الأدبية الكبرى
٦١ ـ النقد الجمالي
٦٢ ـ الحضارات الإفريقية
٦٣ ـ ديكارت والعقلانية
٦٤ ـ العلاقات الثقافية الدولية
٦٥ ـ البيبليوغرافيا
٦٦ ـ علم السياسة
٦٧ ـ الإعلاميا
٦٨ ـ سوسيولوجيا السياسة
٦٩ ـ الأدب الطبيعي
٧٠ ـ الجمالية عبر العصور
٧١ ـ فن تخطيط المدن
٧٢ ـ علم النفس التجريبي

- أصالة الفكر العربي / د. محمد عبد الرحمن مرحبا
- من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الاسلامية / د. محمد عبد الرحمن مرحبا
- الجامع في تاريخ العلوم عند العرب / د. محمد عبد الرحمن مرحبا
- الله والانسان في الفكر العربي والاسلامي / د. أحمد خواجة
- أفلوطين رائد الوحدانية / د. غسان خالد
- الشيخ عبد الله العلايلي والتجديد في الفكر المعاصر / د. فايز ترحيني
- تاريخ الفلسفة الاسلامية / هنري كوربان
- تيارات الفكر الفلسفي / أندريه كريسون
- آداب الزواج في الإسلام / القاضي هشام قبلان
- الوصية الواجبة في الإسلام / القاضي هشام قبلان
- مع القرآن في الدين والدنيا / القاضي هشام قبلان
- رسل ثلاثة لإله واحد / روجيه اولانديز
- جبل العرب ـ صفحات من تاريخ الموحدين الدروز / حسن البعيني
- تاريخ الثورة الفرنسية / ألبير سوبول
- فلسفة الثورة الفرنسية / بونار غرويتزن
- مدخل إلى تاريخ العلاقات الدولية / رينوفان ودوروزيل
- اللامركزية ومسألة تطبيقها في لبنان / د. خالد قباني
- معركة وادي المخازن / يونس نكروف
- يوم تنهض الصين / آلان بيرفيت
- تاريخ الرواية الحديثة / ألبير يس
- اللسانيات واللغة العربية / د. عبد القادر الفاسي الفهري
- مدخل لجامع النص / جيرار جينيت
- تاريخ السينما في العالم / جورج سادول
- الزراعة اللبنانية وتدخلات الدولة في الأرياف / د. أحمد بعلبكي
- المسألة الزراعية في ريف الجزائر / د. أحمد بعلبكي
- سيكولوجيا الذكاء / جان بياجه
- المورفولوجيا الاجتماعية / موريس هالبواك
- سوسيولوجيا العمل ج 1 / فريدمان ونافيل
- سوسيولوجيا العمل ج 2 / فريدمان ونافيل
- مدخل إلى الإحصاء / د. عبد القادر حليمي
- التفاعل الكيميائي / ترجمة صلاح يحياوي
- الكيمياء العضوية / ترجمة صلاح يحياوي
- طرق الاحتياط والتنفيذ / يوسف جبران
- القانون والجرم وشبه الجرم / يوسف جبران
- النظرية العامة للمسؤولية الناشئة عن الفعل الشخصي/د. عاطف النقيب
- النظرية العامة للمسؤولية الناشئة عن فعل الأشياء/د. عاطف النقيب
- أصول المحاكمات الجزائية / د. عاطف النقيب
- الوظيفة القنصلية والدبلوماسية / د. عاصم سلمان جابر
- مذكرات الجنرال ديغول: أربعة مجلدات

١ ـ النفير
٢ ـ الوحدة
٣ ـ الخلاص
٤ ـ الأمل

- الكامل في قانون التجارة للأستاذ الياس ناصيف: أربعة مجلدات

١ ـ المؤسسة التجارية
٢ ـ الشركات التجارية
٣ ـ عمليات المصارف
٤ ـ الإفلاس

- تاريخ الحضارات العام: باشراف موريس كروزيه

١ ـ الشرق واليونان القديمة / أندريه ايمار وجانين اوبوايه
٢ ـ روما وامبراطوريتها / اندريه ايمار وجانين اوبوايه
٣ ـ القرون الوسطى / ادوار بروى
٤ ـ القرنان السادس عشر والسابع عشر / رولان موسنييه
٥ ـ القرن الثامن عشر / رولان موسنييه وارنست لابروس
٦ ـ القرن التاسع عشر / روبير شنيرب
٧ ـ العهد المعاصر / موريس كروزيه

HISTOIRE GENERALE DES CIVILISATIONS

publiée sous la direction de

MAURICE CROUZET

Inspecteur général de l'Instruction publique

TOME V

LE XVIII[e] SIÈCLE

L'ÉPOQUE DES « LUMIÈRES »

(1715-1815)

par

Roland MOUSNIER et **Ernest LABROUSSE**

Professeur à la Sorbonne *Professeur à la Sorbonne*

avec la collaboration de

Marc BOULOISEAU

Docteur ès Lettres

QUATRIEME ÉDITION REVUE

Texte traduit en arabe

par

Youssef A. DAGHER & Farid M. DAGHER

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth — Paris

